علامات الدرب

سيرة ذاتية



سليمان الفرزلي

علامات الدرب

سيرة ذاتية



الطبعة الأولى

لندن 2013

Alamat Addarb

by

Sleiman Ferzoli

First published January 2013

London - UK

ISBN 978-0-9575454

التصميم: سعد الزين

الى لور
التي ارتضت ان تمشي معي على الدرب
حبيبة وزوجة،
الى ثمرات حبي
ريما، عامر، عماد وجهاد
والى احفادي النجباء،
لعل دربي تكون هداية لدربهم



المُحتوى

IV ـ لبنانيون ضدَّ لبنان

V ـ بعيداً على قُرب

VI ـ في «الميزان»

في أسباب الكتاب

«فاكتب ما رأيت، وما هو كائنٌ، وما هو عتيدٌ أن يكونَ بعد هذا»
رؤيا يوحنا اللاهوتي (19: 1)

ترددت طويلاً قبل أن أوطِّد النفس على وضع هذا الكتاب. وقد تنازعتني في تردُّدي فكرتان. لكن خيار الكتابة غلب عليّ في النتيجة كما سأعرض في هذا التقديم. فالفكرة الأولى المانعة للكتابة فيها أيضاً منحيان، منحى له ذريعة ملموسة في الواقع الثقافي القائم وهي أنه ليس في العربية الآن سوق للكتابة الجدية، وإذا كان لا بد من الكتابة فإن الكاتب يكتب لنفسه ولمن حوله. والعذر الآخر هو تأثري بما قاله الكاتب المكسيكي المشهور كارلوس فوانتيس، الذي رحل عن الدنيا أخيراً، عندما ألحّ عليه أصدقاؤه ليكتب سيرته فرفض والتزم الرفض ولم يكتب، معللاً ذلك بأن الكاتب الذي يكتب سيرته كأنه يستدرج أو يستعجل الموت، أو كأنه «يحفر كلماته على حجر قبره»، كما قال.

وأيضاً عندما عزمت على الكتابة وعكفت عليها بكل جوارحي، كان دافعي الابتدائي أن أستذكر على الورق طفولتي من خلال الحياة القروية اللبنانية وعاداتها وتقاليدها، وقد انقرض الكثير من تلك العادات والتقاليد، وبشكل خاص نوعية الحياة الريفية اللبنانية المختلطة في إطار العيش المشترك الحقيقي بين المسلمين والمسيحيين، وقد تحوّل الآن الى تعايش مزيّف، أو انفصمت عراه بصورة شبه كاملة أو نهائية. وكان للتشجيع الذي لقيته من الزميلين العزيزين ريمون عطا الله وأنطوان شكر الله حيدر أثره الحاسم في إقناعي بأهمية التجارب التي عشتها وبضرورة تدوينها. ولا أستطيع بشكل خاص أن أفي الزميل أنطوان شكر الله حيدر فضله في المتابعة والملاحظة والتصويب والتصحيح وصولاً الى التبويب والتركيب. فهو، الى جانب كونه عالي التقانة في مهنة الصحافة، باحث دؤوب واسع الثقافة، وقد ذقنا معاً حلوها ومرّها، سواء في مجالات العمل الصحافي في صحف ليست لنا، ولسنا منها وليست منا، أو في شراكتنا الصافية والصادقة في إصدار مطبوعتنا الخاصة «الميزان» التي وضعنا فيها عصارة أرواحنا وأفكارنا، لا لكسب مادي أو وجاهة زائفة وزائلة، بل من أجل إعادة الاعتبار للفكرة اللبنانية الأصيلة

التي راحت تتلاشى بفعل رياح السموم التي هبت عليها من كل حدب وصوب ومن داخلها أيضاً في سوق البيع والشراء. وقد تأثر أنطوان شكرالله حيدر بمدرسة المؤرخ والمفكر اللبناني يوسف ابراهيم يزبك بحكم جيرته له في منطقة «الحدت» على مقربة من بعبدا، وصداقته له وتردده عليه في أيام خصبه وإنتاجه، فهو مأمون معرفياً وموثوق فكرياً.

أما الفكرة الثانية التي حسمت الأمر، والتي استند اليها الزميل أنطوان شكر الله حيدر في الدرجة الأولى، وقد استقاها من تجربة جدِّه لأمه المفكر والكاتب جورج خرما عون، فهي تقول ببساطة إنه ليس من حقِ أي إنسان لديه تجربة أو معرفة أو فكرة أن يخفيها عن بقية الناس، خصوصاً إذا كان يملك الوسيلة، وهي حرفة الكتابة والمناقشة والمواصلة. ووجدت لهذه الفكرة سنداً عظيماً في القول المثبت أعلاه كما ورد بصيغة الأمر في الكتاب المقدّس بلسان يوحنا اللاهوتي في «سفر الرؤيا» حيث قال في الآية التاسعة عشر من الأصحاح الأول: «فاكتب ما رأيت، وما هو كائنٌ، وما هو عتيدٌ أن يكون بعد هذا». بما يعني أنه من المتوجب على كل من يعرف الكتابة أن يكتب ما رآه بعينه في الماضي، وما يراه بعينه في الحاضر، وما يستشرفه ببصيرته في المستقبل. فالكتابة للمتدينين في هذا السياق واجب ديني، ولغير المتدينين واجب أخلاقي.

وقد طرقت الفكرة رأسي لأول مرة عندما تلقيت قبل ثلاث سنوات في عيد ميلادي الثاني والسبعين هديّة من أصغر أحفادي العشرة، ألفرد نجل ابني الأوسط عماد، هي عبارة عن كتاب مجلّد عنوانه: «جدي العزيز: منك الي، صحيفة من تجربة الحياة». ولمّا فتحته وجدته فارغاً وفي رأس كل صفحة منه سؤال يتعلق بي ويتوقع مني أن أملأ الصفحة الفارغة بالجواب المناسب عن ذلك السؤال. فقلت في نفسي إذا كان لا بد من ملء صفحات الكتاب الفارغة، فلماذا لا أكتب سيرة متكاملة تجيب عن تلك الأسئلة بصورة مفصّلة وموسّعة، وهكذا كان. وقد جاء في مقدمة الكتاب الذي أهدانيه حفيدي ألفرد ما يلي: «هذا الكتاب الى جدك ليضع لك فيه قصّته الفريدة. ويعود اليه أن يلتقط من ذاكرته ذكريات أساسية من حياته، ومن تجاربه ومشاعره. واطلب منه أن يملأه بعناية، وعندما يفرغ منه ويعيده اليك فإنه سيكون مجسداً لقصته، وهي قصة سوف تثمِّنها الى الأبد».

ومن الأسئلة المطلوب الإجابة عنها بالتسلسل: «أخبرني عن زمان ومكان ولادتك؟ ما هي ذكرياتك الأولى؟ أود أن أعرف عن والديك ما هي أسماؤهم، وتاريخ ولادتهما، وأخبرني بعض القصص عنهما... أخبرني ماذا تعرف عن أهل والدتك وعائلتها... أخبرني ماذا تعرف عن أهل والدك وعائلته...أرجو أن تقول لي بالتفصيل كيف هي شجرة عائلتك... ما هي المعلومات الشيِّقة التي تعرفها عن أشخاص آخرين في عائلتنا؟ هنا صفحات إضافية لتدوِّن عليها

المزيد من المعلومات عن عائلتنا تستنير بها الأجيال المقبلة... ماذا تتذكر عن الأماكن التي عشت فيها خلال طفولتك؟ ما هي الحيوانات الأليفة التي اقتنيتها وما أسماؤها؟ ماذا كنت تفعل على سبيل اللهو عندما كنت صغيراً؟ ماذا درست في المدرسة، وأي المواضيع كنت مجلياً فيها؟ أخبرني عن الأشياء التي قمت بها وتختلف عن الأشياء الشائعة في عالم أطفال اليوم...ماذا فعلت عندما كبرت؟ صف لي التقاليد العائلية التي صادفتها وما زلت تتقيد بها...كم كان عمرك عندما بدأت العمل؟ وأخبرني عن الوظائف والأعمال التي مارستها... كيف تعرفت على جدتي؟ أن تختار أسماء أطفالك قد يكون أمراً صعباً، فكيف قررت ذلك؟ أود أن أعرف المزيد عن والديّ، فماذا تخبرني عنهما؟ ما هو شعورك عندما أصبحت جداً؟ أخبرني عن الأشخاص الذين اتخذتهم أصدقاء في حياتك؟ أخبرني عن الأماكن البعيدة في العالم التي زرتها... ما هي أسعد أو أعظم ذكريات حياتك؟ صف لي ذكرياتك عن أحداث عالمية كبرى وقعت خلال حياتك... صف لي أعظم التغييرات التي حدثت في حياتك...هل تظن أن حياة اليوم أفضل أم أسوأ من الحياة التي عشتها في شبابك، وكيف تختلف؟ من وما هي أعظم مصادر التأثير فيك؟ ما هي أصعب اللحظات التي مررت بها في حياتك؟ أكتب الآن قصصاً شخصية تريد أن تشارك الآخرين بها...

هذه الأسئلة وسواها من الأسئلة التي يحفل بها ذلك الكتاب في أكثر من مائة صفحة وضعتني أمام خيارين صعبين: إما أن أملأ الصفحات المطلوبة بعبارات مختصرة ليست لها قيمة تذكر، وإما أن أعكف على كتابة سيرة متكاملة تتضمن تجربتي كلها فتعم الفائدة منها، على الأقل بالنسبة الى سائر الأحفاد وبقية أفراد العائلة، وربما آخرين من الناس. وهكذا تكوّن قراري بأن أضع هذا الكتاب، عملاً برؤيا يوحنا اللاهوتي المشار اليها، وبدعم وتشجيع ومثابرة أخي وصديقي الزميل أنطوان شكر الله حيدر الذي يعود اليه الفضل الأول في استحثاثي وتصويب إطار العمل الذي كنت أقوم به ومساعدتي على استبيان المراجع اللازمة، فلا أستطيع أن أجد الكلمات المناسبة لشكره ووفائه حقه. كذلك أشكر ابن العم إيلي الفرزلي على ملاحظاته الابتدائية حول الأمور العائلية، وحول المراحل التي ترافقنا فيها خلال فترة وجوده الفاعل على المسرح السياسي اللبناني، كما أشكره على اهتمامه وتشجيعه لهذا الجهد. وأشكر أيضاً حبيبتي وزوجتي لور على صبرها ومثابرتها ومعاونتها المشكورة في حفظ أوراقي ومكتبتي وسهرها الدائم على راحتي وصحتي، فاستحقت أن أهدي هذا الكتاب اليها في الدرجة الأولى.

وأخص بالشكر الزميل ريمون عطالله الذي كان بالغ الدقة في استذكار المراحل الطويلة التي قضيناها معاً في العمل الصحافي والتي امتدت الى نحو أربعة عقود، فكانت علاقتنا أخوية صادقة ومعمقة ويومية لم تشبها شائبة،

فتعدَّت كثيراً علاقة الزمالة المجردة.

كما أشكر الزميل الفنان والتقني البارع سعد الزين على إخراجه لهذا الكتاب ووضع اللمسات الفنية عليه.

أما حفيدي الصغير ألفرد فقد أفهمته أنني أقوم بالإجابة عن أسئلته بشكل يستطيع أن يفهمه ويقوِّمه عندما يكبر، لأن كلمات قليلة بلغة أجنبية لن تفيده ولن تفسح مجالاً واسعاً يسرح فيه خياله بعد النضوج.

وفي الختام أرجو أن أكون قد قمت بعمل نافع يعطي صورة عن الأحداث التي عشتها وتعرفت على بعض محركاتها ومسبباتها ونتائجها، سواء في لبنان أو في العالم العربي أو في العالم الأرحب، وأكرر شكري للذين كانت لهم يد في ظهور هذا الكتاب الى حيِّز الوجود.

سليمان الفرزلي

لندن 2013/1/31

I

أول الدرب



I

كتاب الأنساب

من الطبيعي أن يسأل الولد أهله عندما يصبح يافعاً، وخصوصاً في عائلة مثل عائلتنا تُكنّى باسم بلدة كبيرة ومعروفة مثل «الفرزل»، البلدة القديمة التي تعود الى ما قبل الحقبة الرومانية، وتقع في منتصف الطريق بين زحلة وبعلبك، كيف صرنا في بلدة مثل بلدة «القرعون» في آخر السلسلة الشرقية من البقاع؟

ولم يكن أحد من قدامى الفرازلة يعطي في الأمر جواباً شافياً أو فتوى معقولة. لكنهم في غالبيتهم كانوا مجمعين على خط الانتقال التاريخي من «حوران» في جنوب سوريا الحالية، حيث البعض يقول من «خبب» والبعض يقول من «إزرع»، فالى بلدة الفرزل، فالى القرعون.

والفرزل كلمة تعني في اللغة العربية «الحديد الخام»، وكذلك في اللاتينية لغة الرومان، وهي مشتقة من الأصل اللاتيني Fer. والواقع أنه كانت في الفرزل مناجم لاستخراج الحديد الخام من أقدم الأزمنة، وما زالت آثارها بادية على تربتها حتى الآن. فالمعنى الفيلولوجي لجذر الكلمة لا خلاف عليه.

وآخر ما توصلتُ اليه لاحقاً من استفسارات، خصوصاً من جدي اسكندر موسى فرح منصور الفرزلي، وجد زوجتي الدكتور ملحم ابراهيم يعقوب الفرزلي، أن العائلة في أصلها كما عُرفت قديماً في الفرزل كانت تسمى بيت «أبو مخ»، وأن هؤلاء كانوا متحالفين مع الأمير فخر الدين المعني الكبير، وبانهزامه وهجوم الحرافشة من بلاد بعلبك على الفرزل هربوا جميعاً وتفرقوا أيدي سبأ. فالفريق الذي نزح الى القرعون سمَّاه القراعنة «الفرزلي» لقدومه من الفرزل. والفريق منهم الذي عاد واستقر في زحلة سمَّاه الزحالنة «القرعوني» لقدومه من القرعون. ومن هذا الفريق الذي حمل اسم «الفرزلي» فصيل استقر في بلدة «صحنايا» السورية وبعضهم في دمشق، وفصيل صغير استقر في مصر، وفي الإسكندرية على الأرجح، وكانوا يُعرفون باسم «الفرازلي». ويبدو أنه تمَّ التعرف على «الفرازلة المصريين» أثناء خدمة الأرشمندريت إغناطيوس الفرزلي، وهو من أقربائنا الأقربين وصار لاحقاً مطراناً على أبرشية «ساو باولو» في البرازيل حيث توفي هناك.

وفي ستينات القرن الماضي استقر في بيروت سيدتان شقيقتان من فرازلة مصر وفتحتا على الصنائع قرب غاليري بطرس قبالة وزارة الإعلام مكتبة مهمة، وتواصل بعض أفراد عائلتنا معهما لكنني شخصياً لم أتعرف عليهما.

ويُقال حسب هذه الرواية أن فريقاً آخر نزح شمالاً الى عكار وهم آل عطية في «بينو»، ومن آل عطية هؤلاء من استقر في سوق الغرب. وأذكر جيداً أن أحدهم، ناصيف عطية، كان يأتي الى جب جنين مرة كل سنة، لزيارة الدكتور ملحم الفرزلي، وكانوا يقولون لنا إن هذا الرجل من أقربائنا. وهناك من يقول إن فريقاً ثالثاً من هؤلاء نزح جنوباً الى فلسطين وهم عائلة آل الدر، ومنهم الأستاذ المعروف الدكتور نقولا الدر.

وإذا صحت هذه الرواية فإن وجود عائلتنا في القرعون يعود الى نحو 400 سنة فقط. وفي أغلب الظن أنها صحيحة، لأنهم كانوا يقولون لنا إن شخصاً من عائلتنا هو الياس متري الفرزلي كان في وقت من الأوقات ميسور الحال لأنه كان يملك محلاً تجارياً كبيراً في «سوق أبو النصر» في بيروت (ابنه شكيب متري زوج عمتي) كان يحتفظ بحجة متوارثة عن أهله بملكية مطحنة في الفرزل قبل النزوح الكبير.

وعلى كل حال لم يكن أحد من العائلة في لبنان أو في سوريا يهتم بمسألة الأنساب الى أن حطت الحرب العالمية الثانية أوزارهـا، وانفتح البحر أمام الرحلات البحرية المدنية، وجاء على متن أول سفينة أبحرت من نيويورك مغترب قديم من أقربائنا اسمه بشارة خليل الفرزلي، حاملاً معه شحنة عظيمة من الصناديق الضخمة التي نقلها الى القرعون بأكبر شاحنة متاحة في مرفأ بيروت. وكانت جريدة «النهار» البيروتية قد نشرت قبل أكثر من عشرين سنة تقريباً تحقيقاً وافياً ومصوراً، كما قيل لي لأنني لم أقرأه، عن أوائل المغتربين اللبنانيين الى الولايات المتحدة، فذكرت أن بشارة خليل الفرزلي كان من أوائلهم.

وعندما جاء العم بشارة في زيارته تلك الى لبنان كان عمري تسع سنوات، فتكون الزيارة قد تمت في عام 1946. وكان العم بشارة في هجرته الأميركية قد استقر في مدينة «وورستر» في وسط ولاية «ماساشوستس»، وكانت ثاني أو ثالث مدينة في الولاية بعد بوسطن، لكنها قبل وصول العم بشارة اليها بعقود قليلة كانت قد تحولت الى مدينة صناعية كبرى بعد شق القنالات من مجرى «نهر بلاكستون» الذي يمر فيها عام 1828، فأُطلق عليها لقب «قلب الكومونولث». وقد جمع العم بشارة خلال وجوده في تلك المدينة ثروة لا بأس بها.

والعادة المألوفة أن المغترب عندما يعود الى الوطن زائراً يحمل معه هدايا الى الأهل والأقرباء الذين ينتظرون ذلك ويتوقعونه. أما الصناديق الضخمة التي

حملها العم بشارة خليل معه من أميركا فكانت مليئة بالدفاتر وأقلام الرصاص والحقائب المدرسية التي راح يوزعها على جميع تلاميذ المدرسة في القرية، فلقي ذلك ترحيب الأولاد وامتعاض أهاليهم.

وجاءتنا هذه الهدية من السماء، كما يقال، لأنه لم تكن لدينا أقلام أو دفاتر بل كنا نحمل معنا الى المدرسة لوحاً حجرياً مع طبشورة نكتب عليه ونمحو بأيدينا، ونأخذه الى المدرسة في ما كنا نسميه «الحمَّال»، وهو عبارة عن كيس من القماش تخيطه الأمهات لأولادهـن ويعلَّق في الكتف يضعون فيه اللوح الحجري والطباشير. فكان الميسورون من الأهالي يصنعون الحمَّال لأطفالهم من الكتان الجديد، أما الفقراء فكانوا يخيطونه من ملابس قديمة شبه بالية. وكانت الدفاتر والأقلام والحقائب المدرسية التي حملها العم بشارة معه من بلاد العم سام ذات نوعيات جيدة تكاد لا تفنى، لأنها كانت صناعة أميركية أصلية لم يعد لها وجود اليوم.

وعندما كنت أسترجع بالذاكرة هدايا العم بشارة في ذلك الوقت العصيب بعد الحرب العالمية، صُرت أعجب من الذين سخروا، أو الذين خاب ظنهم، أو الذين كانوا يتوقعون أن يأخذوا شيئاً من المال، وعجبت لبعد نظره واهتماماته، وتكبده مشقة شراء تلك البضاعة وصناديقها ونقلها بحراً وبراً آلاف الأميال، خصوصاً بعدما قرأت في سيرة لينين، قائد الثورة البلشفية في روسيا، أن علاقته الوثيقة مع رجل الأعمال الأميركي المعروف آرماند هامر، مؤسس شركة «أوكسيدنتال» للنفط، بدأت عندما قدم له هامر شحنة مماثلة لشحنة العم بشارة قائلاً له: «إنك لن تستطيع أن تمحو الأمية في بلد مثل روسيا من دون أقلام وأوراق»، قبل أن يقيم له مصنعاً في روسيا لهذه الغاية.

لكن الشيء الأهم الذي حمله معه العم بشارة الينا كعائلة كتاب بالإنكليزية وضعه هو يتضمن شجرة أنساب العائلة الفرزلية كما استقاها من الذاكرة ومن الفرازلة المهاجرين الى الولايات المتحدة وكندا. وهذا الكتاب المطبوع طباعة جيدة في أميركا، وقد فقدت نسختي منه خلال الحرب اللبنانية، لا يغوص كثيراً في أعماق الماضي ويبقى محدوداً في أفقه التاريخي، كما أغفل أسماء معاصرة، بالإضافة الى بعض النواقص الأخرى التي تم تصحيحها لاحقاً من قبل بعض الأقارب الذين تابعوا الموضوع. أما أهمية كتاب الأنساب هذا فهي في تقسيمه لفروع وبطون العائلة الفرزلية، مثل بيت منصور، الذي أنتمي اليه وكذلك العم بشارة والمطران أغناطيوس، وبيت يعقوب الذي تنتمي اليه زوجتي وجدها الدكتور ملحم الفرزلي ووالدها شكيب الفرزلي وأعمامها أديب الفرزلي نائب رئيس مجلس النواب الأسبق، والمحامي نجيب الفرزلي والد إيلي الفرزلي نائب رئيس مجلس النواب السابق، والدكتور حسيب الفرزلي الذي مات عازباً، والمرحومة سلمى زوجة إندراوس صابونجي (والدة صهري زوج شقيقتي)، كما

ينتمي اليه المحامي الياس الفرزلي ابن يوسف ابراهيم الفرزلي شقيق الدكتور ملحم وإخوته المهندسون الثلاثة أنطوان، ونقولا (القيادي في حزب البعث العربي الاشتراكي لاحقاً)، وخليل، وجورجيت زوجة مخايل الحجار، ونورما زوجة ابن عمتي أنطوان شكيب متري الفرزلي، وبيت غطاس، وبيت متري، وبيت عبد الله، وبيت عسكر، وبيت عيسى وغيرهم...

وفي هذا التقسيم الجيد الذي أعده العم بشارة في مهجره الأميركي، يستطيع أي كان ممن يحملون اسم العائلة في المستقبل أن يعرف الى أي فرع من فروع العائلة ينتمي، وما هي علاقة هذه الأفخاذ ببعضها، وهوية المزاوجات النسائية والرجالية على مر الأجيال. وهي معلومات في النتيجة لا تقدم ولا تؤخر من الناحية العملية، لكنها تمثل شيئاً من التفاعل العاطفي ومن التعاضد والترابط في بلد قائم تاريخياً على العصبيات العائلية.

وعلى كل حال فإن العائلة الفرزلية بمجموع فروعها وأفخاذها كانت قبل الهجرات المتعاقبة أكبر العائلات المسيحية في القرعون، وربما أكبر من بقية العائلات الإسلامية أيضاً، وكان منها مختار على الدوام أمثال يعقوب ابراهيم الفرزلي (أبو عزيز)، وفضل فرح منصور الفرزلي (أبو منصور). ويبدو أن الإرساليات البروتستانتية الأميركية قصدت القرعون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لكن من غير أن تفلح في تحويل أحد من الرعية الأرثوذكسية في البلدة الى مذهبها بسبب مقاومة عائلتنا لهذا التبشير. وأبلغني جدي مرة أن المبشر المعروف وأحد مؤسسي المدرسة الأميركية في بلدة عبيه، ومن بعدها الجامعة الأميركية في بيروت، الدكتور كورنيليوس فان دايك قصد القرعون بنفسه لغاية التبشير، وكان يتقن اللغة العربية الفصحى قراءة وكتابة، وهو الذي أنجز ترجمة «الكتاب المقدس» الى اللغة العربية عام 1864 بعد وفاة الدكتور إيلي سميث الذي كان قد شرع في المشروع[1]. وحكى لي جدي نقلاً عن والده أن فان دايك جمع مسيحيي القرعون في أحد البيوت وراح يعظ عليهم بطريقة مسرحية. وبدأ عظته تلك بالقول بعد برهة من الصمت: «قُرع الباب... أدخل يا سيد» ثم صمت من جديد. فالتفت الحاضرون الى الباب فلم يسمعوا أو يروا شيئاً. ثم كرر تلك العبارة مرة أخرى، وأردف قائلاً: «لا يدخل... إنه لا يجلس بين الخطاة». عندئذ نهض أحد أقاربنا الفرازلة من مقعده وهو متلفع بعباءته وقال لفان دايك: «أنا ذاهب أجلسه مكاني»، فانفرط عقد الاجتماع، بعدما فرط الحاضرون بالضحك!

لكنني أذكر أن شخصاً واحداً في القرعون يمت بصلة قربى لوالدتي أصبح قسيساً إنجيلياً اسمه القسيس جبور لا أعرفه ولم أدركه، بل أعرف جيداً أرملته

(1) للدكتور كورنيليوس فان دايك مؤلفات أخرى في الطب والعلوم باللغة العربية ربما ألفها لغاية التدريس في الجامعة. ولعل أهم تلك المؤلفات كتاب من تسعة أجزاء بعنوان «النقش في الحجر» يتناول الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء والعلوم الطبية وعلوم أخرى.

التي كانوا يسمونها «القسيسة» ولها ولدان: ابنة اسمها هيلين، وابن اسمه نجيب كان يعاني من العرج في رجله، لكنه كان بالغ الذكاء منطوياً على نفسه لا يخرج من البيت إلاّ لماماً، وهو يكبرني بعشر سنوات على الأقل، وكانت له ميول إبداعية في الفنون التشكيلية حيث كان يرسم ويصنع التماثيل من أعواد الثقاب ومجسمات السفن الشراعية من الخشب، وكان أولاد الحارة يسمونه «نجيب القسيسة». وكانت عائلة القسيسة تقيم في مسكن مستأجر في الزاروب قبالة منزلنا لجهة الغرب تقريباً حيث كنت أتردد عليه أحياناً لأعاين ما يفعل بالأعواد. وأتذكر جيداً أن هيلين تزوجت من رجل أردني قصير القامة بشكل ملفت اسمه «أيوب» وانتقلت للعيش معه في الأردن، أما نجيب فقد علمت أنه هاجر الى كندا، ولم أعد أعلم عنه شيئاً.

•••

لكن اسم القرعون ذاتها على علمي لم يدقق فيه أحد تدقيقاً وافياً. فكلمة «القرعون» المستعملة لدى العامة تعني ثمر اللوز الأخضر قبل أن يشتد ويصلب. وفي بلدة القرعون تنتشر أشجار اللوز انتشاراً واسعاً. وكان جدي اسكنر موسى فرح منصور الفرزلي قد زرع غابة من شجر اللوز في أرض جبلية لنا مساحتها 21 ألف متر مربع، قضى نصف حياته في عراك مع رعاة الماعز الذين كانوا يفلتون ماشيتهم فيها، وكبيرهم في ذلك الوقت اسمه محيي الدين عبد العال. ومع ذلك فإن نسبة القرعون الى اللوز الأخضر ليست مقنعة.

وأريد هنا أن أقدم مستنداً تاريخياً قد يستهجنه البعض، أو يرفضه البعض الآخر، وهو نتيجة مصادفة أثناء بحث لي عن خط مسيرة اجتياح القائد التتاري تيمور لانك لسوريا في أواخر القرن الرابع عشر. والمعروف أن تيمور كان شيعي المذهب لكن قبائل من آسيا الوسطى سنية المذهب كانت متحالفة معه وانضمت الى جيشه تحت قيادته في تلك الغزوة التي طال أمدها الى أكثر مما كانت تتوقع تلك القبائل. وكان خط سير تلك الغزوة عند عبورها الى سوريا من حلب، الى حماه، فالى حمص، ثم الى بعلبك، ثم عبر سهل البقاع من الشمال الى الجنوب مستهدفاً الذهاب الى الساحل اللبناني، فعبر من البقاع الى صيدا، ومن صيدا الى بيروت، ومن بيروت انتقل الى دمشق، فالى بغداد، فالىالأناضول حيث أسر السلطان العثماني بايزيد الأول في معركة أنقرة[2]. والممر الوحيد للعبور الى صيدا من البقاع كان ولا يزال عبر القرعون ـ مشغرة ـ كفرحونة ـ جزين[3]. ويقول المستند الذي نحن بصدده هنا أن أكبر القبائل

(2) Tamerlane, Sword of Islam, Conqueror of The World, By Justin Marozzi, 2004 Harper Collins.

(3) وهو الطريق الذي اعتمدته القيادة العربية الموحدة المنبثقة عن مؤتمر القمة العربي الذي دعا اليه الرئيس المصري جمال عبد الناصر في القاهرة عام 1964، بقيادة الفريق علي علي عامر، ليربط ساحل لبنان الجنوبي عند صيدا بالداخل السوري، عبر وادي التيم الى الجنوب الشرقي

السنية المتحالفة مع تيمور كان اسمها «القرعونية»، وأن هذه القبيلة وقبائل أخرى عندما طالت بهم المسيرة بدأوا يتململون ويطالبون بالعودة الى ديارهم رافضين فكرة عبور الجبل الى الساحل، فرفض تيمور مطلب العودة رفضاً مطلقاً لكنه أعطاهم خياراً آخر هو أن يستوطنوا حيث هم ليكونوا خط دفاع عن مؤخرة جيشه. فالذين أخذوا هذا الخيار ليس لهم من مكان يستقرون فيه سوى بلدة القرعون الحالية باعتبارها غزيرة المياه لوقوعها على نهر الليطاني (حيث الآن السد الكبير الذي يحمل اسمها) ولكونها مفصل الطريق الى صيدا، فأعطوا المكان اسمهم.

وعلى سيرة تيمور، لا بد من ذكر واقعة لها دلالة بالنسبة الى العلاقة بين السلطان والمفكر أو المثقف. فعندما حاصر مدينة دمشق كان السلطان المملوكي المصري فرج ابن برقوق فيها ومعه المفكر ابن خلدون، حيث كان المماليك يحكمون مصر وسوريا معاً. لكن السلطان فرج هرب ليلاً وعاد الى مصر تاركاً ابن خلدون يفاوض تيمور مع بعض وجهاء دمشق، فأعجب القائد التتاري المحب للعلماء بابن خلدون وأجلسه الى جانبه وراح يحاوره كما حاور شيوخ حلب من قبل: «لماذا أنتم سنّة ولستم شيعة؟ شهداء من في الجنة، شهداؤنا أم شهداؤكم؟» وما الى ذلك. وبقي على هذا المنوال قرابة شهر. وقبل أن يقرر الدخول الى المدينة عنوة واستباحتها لأنها رفضت أن تفتح أبوابها له، طلب من ابن خلدون أن يبيعه بغلته وسأله كم يريد ثمنها. فاستغرب ابن خلدون هذا الطلب، وهو يرى ألوف البغال العاملة في جيش تيمور، فقال في نفسه إنه يريد أن يشتريني أنا وليس بغلتي، فقدمها له هدية. وفي الليل تسلل من دمشق عائداً الى مصر. لكن تيمور عندما أوفد سفارة الى سلطان مصر بعث بثمن البغلة الى ابن خلدون مع سفرائه حسب سعر السوق.

من القرعون، حيث أنشئت في التلال على جانبي الوادي مستودعات ومخابىء عسكرية في التلال المحيطة بالوادي، من ضمن استراتيجية دفاعية أقرت في عهد الرئيس شارل حلو وتضمنت رادار جبل الباروك الذي يكشف البحر المتوسط كله، كما تضمنت سرباً من طائرات «الميراج» الفرنسية، وصواريخ «كروتال»، وكلها تبددت فيما بعد ولم يبق منها سوى طريق تيمور لانك الذي شق الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات في سبعينات القرن الماضي طريقاً موازياً له الى جنوبه لكن أضيق منه يصل قرية «قليا» بالساحل عبر جبل أكثر وعورة.

II

«المحترم»

كانت الومضات الروحية والفكرية التي شكلت بداية تفتحي على فهم العالم، تلك التي اقتبستها من والدي الخوري جرجس الفرزلي، وهي ومضات على بساطتها وبهائها تشبه بساطته وبهاءه. وفي صغري كنت أرافقه في زياراته الى الرعية وفي رعايته لكروم العنب، حيث كان ملماً بتقليم الكرمة ويعرف متى وكيف يقوم بتلك المهمة. ومع أنه كان يرتدي القمباز الأسود ويطلق لحيته شأن رجال الدين في ذلك الوقت، فقد كان ممشوق القامة، بهي الطلعة، جميل الصورة، له ابتسامة أخّاذة، يشع كالمصباح لفرط نظافته ونقائه وأناقته ولطفه وتقواه.

أما اليوم وبعد نحو أربعة عقود على وفاته فإنني أراه قديساً بكل معنى الكلمة، وأرى أنه كان لابساً للمسيح أكثر مما كان لابساً للمسيحية، بمعنى كونها جماعة من الناس أو تجمعاً لفئة من الناس. وكنتُ ألاحظ أن له أصدقاء ومحبين كثيرين بين المسلمين الذين كانوا ينادونه بعبارة «يا محترم»، وبعضهم كان يقصده طالباً منه أن يساعده في تقليم كرمه أو عريشة داره فيلبِّي ببشاشة ويُقبل على ذلك من كل قلبه وجوارحه[1]. وعندما ينضج العنب ويحين القطاف يأتي الشخص الذي ساعده في تقليم كرمه بأول عنقود منه الى «المحترم» قبل أن يأخذ خصلة واحدة الى عياله، معتبراً أن ذلك الخصب من بركته.

ولم تكن القرعون مقسومة الى أحياء بالمعنى المعروف اليوم، بل كانت مقسومة جغرافياً الى حارتين: «الحارة التحتا» و«الحارة الفوقا». لكن هذه القسمة لم تكن طائفية، فبيوت المسيحيين متداخلة مع بيوت المسلمين تداخلاً عضوياً، فكانت المشاركة بينهم في كل شيء تقريباً ما عدا شؤون العبادة والطقوس، وحتى في هذه كان هناك نوع من المشاركة، خصوصاً في الأعياد

---

(1) التقليم يتم بين أوائل الخريف وأوائل الشتاء، وهو عملية تقليل من عدد الاغصان الضعيفة، فيُقتطع منها تلك التي لا يعتقد انها تحمل ثمراً، وفي بعض أنحاء لبنان يسمون هذه العملية «التشحيل» ومنهم من يسميها أيضاً «تفريكاً»، وفي قرى يسمونها «تقليم تشروني». أما في القرعون فكان الفلاّحون يسمّون عملية تقليم الكرمة «زبار» كأن تقول «ذهب يزبر» دوالي الكرم، أو جاء «موسم الزبار»، ومنهم من يسميها «التشحيل» كذلك.

وفي المآتم. وهذا أمر قديم ومتأصل لم تبدأ عُراه بالانفكاك إلاّ في العقود الخمسة الأخيرة عندما تسللت الى حياة الناس دعوات وفتاوى هجينة فأخذت المشاركة بالانحسار وربما بالتلاشي، وليس ذلك في القرعون وحدها، بل في كل القرى المختلطة. ونادراً ما تجد اليوم مسلمين يمشون في جنازة راحل مسيحي، كما كانت الحال في الماضي، بعدما صدرت فتاوى أصولية من فئات شديدة التعصب تحظر على المسلم المشي وراء الصليب!

في الستينات، بعد انتقالنا الى جب جنين، أذكر أن والدي أقام في بيتنا غداء تكريم لصديق له هو أبو حسين عبد الرحيم فرحات بمناسبة عودته من الحج الى مكة المكرمة سالماً.

وكنت أرافقه دائماً عندما كان يجول على بيوت الرعية يكرِّسها بيتاً بيتاً حيث كنت أحمل له سطل الماء الذي كان يرشه بمرشّة من أغصان الزيتون. وكنت ألاحظ حرص الفلاحين منهم الذين يقتنون الدجاج والماشية على تكريس تلك الحيوانات المنتجة التي يعتاشون منها لإيمانهم بأن ذلك يحفظها ويزيد من إنتاجها[2]. ولم أره مرة تذمر أو تأفف من الروائح المنبعثة من «بواكي» البقر أو «أقنان» الدجاج.

وفي حارتنا التحتا كان هناك إنسان مسلم لديه قطيع من الغنم يرعاه في السهل ويسرِّب به عند الغياب الى «مراح» أو حظيرة في داره، وكنا «نجرُّ» منه الحليب «على الفرّاضة» باستمرار. والجر على الفرّاضة في ذلك الوقت كانت عملية شائعة للتزود بالحليب من مالكي قطعان الماعز أو الغنم. أي أنك تتقاول مع ذلك الشخص على رطل من الحليب يوما بعد يوم، فتأخذ سطلك في العشية أثناء الحلب وتملأه بالمقدار المتفق عليه، فيسجل ما أخذته منه على الفرّاضة لتحاسبه في تاريخ لاحق إما نقداً أو عيناً بما لديك من محاصيل. والفرّاضة هي

---

(2) في الروزنامة المسيحية يجري تكريس البيوت بالماء المُصلّى عليه يوم عيد الغطاس، الذي يقع في السادس من كانون الثاني/يناير، وهو يُعَيّدُ فيه لذكرى اعتماد المسيح في نهر الاردن وظهور روح اللّه عليه بهيئة حمامة. سمّاه السريان والكلدان، ذرية الآراميين، اقدم الشعوب في سكنى لبنان، «دنحا» من لفظة آرامية معناها «الظهور». وعنهم اخذت الشعوب اليونانية واللاتينية، فسماه اليونانيون «ثيوفانيا»: ثيو(الله) وفانيا (الظهور)، وسماه اللاتين«إبيفانيا» ومعناها ظهور اللّه على الأرض. وكان الكهنة اللبنانيون في القديم يحتفلون بالقداس صباح عيد الغطاس على عين القرية ليتبارك ماؤها، وبعد بطلان هذه العادة نشأت عادة حمل الماء في قوارير الى الكنيسة لمباركته اثناء مراسم القداس، ويحفظ هذا الماء لينضح للمرضى طلباً للشفاء، وللواضعات ليسهل وضعهن، وللزرع لينمو، ويرشون به الفأر والجراد والجرذان والهوام المؤذية لتتوارى ويبطل أذاها. وبطلت تلك العادة ايضاً وحل مكانها تطواف الكهنة بالماء المبارك على المنازل، وغالباً ما كان الفلاحون يطلبون من الكهنة رشّ ذلك الماء على مزروعاتهم ومواشيهم. وعلى وعيي كان الوالد في القرعون يكرّس بالطواف على المنازل مرتين في السنة، أما المرة الثانية فكانت على ما أظن في عيد العنصرة، أو عيد الخمسين، أي مدة الخمسين يوماً بين الفصح وبين ظهور الروح القدس على الرسل في اليوم الذي يسمّونه في الغرب «الأحد الأبيض». لكنني لا أذكر أن والدي استمر بالتكريس في عيد العنصرة متخلياً عن تلك العادة، واقتصر على التكريس في الغطاس، وأظن أنه توقف عن ذلك أيضاً في السنوات الأخيرة من حياته.

عبارة عن قضيب من اللوز أو الحور أو أي خشب طري يقوم البائع «بفرضه» أو ثلمه بالسكين وكل فرضة في القضيب تساوي رطلاً من الحليب.

وصادف ذات يوم أثناء عودتنا من التكريس في الحارة الفوقا الى بيتنا في الحارة التحتا أن ذلك الشخص كان ماراً بقطيعه من الغنم مسرّباً به الى مراحه في داره، فحيّا وسلّم، فأمسك والدي بمرشته وغطسها في سطل الماء الذي كنت أحمله، ورش على القطيع ثلاث رشات، ومضينا في طريقنا. وبعد مدة من الزمن بعثتني والدتي مع الفرّاضة الى ذلك الرجل لأسأله كم يريد ثمن الحليب المجرور على تلك الفرّاضة، وفي العادة يقوم صاحب القطيع بعدِّ «الفروض» على القضيب ويعطيك الحساب. فلما أعطيته فراضتي ليعدها أمسك بالقضيب وكسره وألقاه جانباً وقال لي «سلِّم على المحترم». فرجعت الى البيت من دون الفرّاضة، فالتقيت والدي وأخبرته بما جرى فابتسم ابتسامته الأخاذة وقال لي: «الناس يا ابني لبعضها».

•••

«الناس لبعضها»، شعار كان يطبقه على نفسه بحذافيره، فلا يرد طلباً لأحد كائناً من كان إذا كانت تلبيته في مقدوره، أو يستطيع أن يساعد في ذلك. وهو لم يكن يكثر من الكلام، بل يختصر ما يريد أن يقول بعبارات مقتضبة أو بترديد مثل من الأمثال، ويكتفي بذلك، فلا يروقه اللغو وكثرة الحكي. وكان أيضاً لا يتناول من الطعام سوى القليل، أو كما كانت والدتي تقول: «يأكل نَقودة»، أي أنه ينقد كالعصفور قليلاً قليلاً. ولم يكن يدخن، خلافاً لجدي الذي كان يدخن النارجيلة باعتدال، وخلافاً لي ولجميع أخوتي فيما بعد، ولم يكن يشرب أي مشروبات روحية سوى رشفة النبيذ في كأس الهيكل كجزء من المناولة حسب الطقوس الكنسية، وخلافاً لي أيضاً.

وفي تفسيره لي عبارة «الناس لبعضها» قال لي مرة إن المسيح هو المسيح لأنه جاء من أجل جميع البشر من دون استثناء، لا من أجل فئة منهم فقط، وإن أحب صفة للمسيح الى قلبه هي أنه «محبٌّ للبشر». ولم يقل أكثر من ذلك. فهو لم يدخل الى مدرسة لاهوتية أو دينية عليا، ومما تعلمه أثناء تأهيله قبل سيامته تكونت لديه أفكار واضحة عرف كيف يختصرها بكلمات قليلة، فكان ينطق بالطريقة ذاتها التي كان يقلِّم فيها أغصان الكرمة. هذا لتلفحه الشمس، وذاك ليلعب فيه الهواء. وكم كان اعتزازه بالكتاب المقدس[3] الذي أهدي له بتوقيع شخص يدعى بول إردمان وفيه يقول: «أهدي هذا الكتاب من حقل لبنان الى شاكر اسكندر الفرزلي، (هو اسمه الأصلي قبل سيامته كاهنا واتخاذه اسم الخوري جرجس) جائزة حفظ أصول الإيمان غيباً في 30 أيار 1916»، أي

(3) «الكتاب المقدس»، أي «كتب العهد القديم والعهد الجديد»، وقد تُرجم من اللغة اليونانية. طُبع في المطبعة الأميركانية في بيروت سنة 1912.

عندما كان عمره عشر سنوات فقط. وكذلك كان الأمر من حيث عنايته بصوته الملائكي الرخيم، وبخط يده الذي يشبه تقانة الخطاطين لجماله ونظافته. وكان يقضي ساعة كاملة ليختار الريشة التي يكتب بها إذا كان عليه أن يكتب شيئاً أو رسالة، فإذا زاد الحبر في سطر من السطور، مزق الورقة ورماها وأعاد الكرة الى أن يرضى عن عمله. فكان يكتب ولا يشطب، وقد اكتسبت هذه العادة منه. ومن هذا القبيل كان اعتناؤه بتقليم الكرمة، وكأنه يخط بالريشة، أو كأنه يساوي سطح غطاء سريره فلا تبقى على وجهه «طَعجة»، أو كأنه يمسح حذاءه ويلمعه فلا تقع عليه حبة غبار واحدة. ولما سألته مرة لماذا يقضي وقتاً طويلاً في إتقان الأشياء، فقال لي باختصار شديد: «كل شيئ نفعله يجب أن يكون منتظماً مثل الكون». وربما كان أنه اكتسب تلك التقانة من خاله المعماري والنحات الكبير حبيب الخوري صليبا، والد الدكتور جميل صليبا الذي كان أستاذاً للفلسفة في جامعة دمشق. وتشهد كنيستا القرعون وجب جنين وأبنية أخرى في البقاع على روعة عمارته المنحوتة حيث نقش على أصل الحجر في العتبة الممدودة فوق الباب الرئيسي لكنيسة القرعون من الناحية الشمالية عبارتين خالدتين ما دامت الكنيسة قائمة، تقول إحداهما: «رأس الحكمة مخافة الله»، وتقول الثانية: «الله في وسطها فلن تتزعزع». أما «أيقونستاس»[4] كنيسة جب جنين فإنه آية في الجمال المعماري، حيث نحته كله من أوله الى آخره بحجر بلدي، ونحت عواميده الرفيعة عند الأبواب بحجر يمتزج فيه الأحمر الزهري بالأبيض الطحيني، ويسميه المعماريون «شحم ولحم». كما نحت عليه وفي أصل الحجر نقوشاً جميلة هي عبارة عن كرمة وأوراقها وعناقيدها كل حبة منها تبدو ناطقة. ويشهد له أيضاً ذلك المدماك الفريد في مبنى البرلمان السوري في دمشق الذي نحته عندما تقاعد مع عائلته في العاصمة السورية. يومئذ كان قد انقطع عن العمل، لكنه ظل يحن الى النحت فتطوع لبناء مدماك واحد في مبنى البرلمان السوري قبل وفاته.

•••

نادراً ما رأيت الى اليوم إنساناً بسيطاً قنوعاً بشوشاً سعيداً مثل والدي. لم أره يوماً غضب أو خرج عن طوره، أو فقد أعصابه، أو تلفظ بكلمة جارحة، أو تذمر من شيء، أو عاتب على شيء، فكان يأخذ الحياة في سياقها كما هي. لم يكن يغادر القرية إلاّ في واجب، ولم يكن يزور المدينة لمجرد الزيارة. فلم تزد زياراته الى بيروت طوال حياته عن عدد أصابع اليد. وقد زارها ثلاث مرات فيما يخصه، وزارها مرة واحدة فيما يخصني.

الزيارات التي تخصه كانت للاستشفاء وآخرها تلك التي قضى فيها نحبه عام

(4) واجهة الهيكل مرسوم عليها ايقونات تمثل رُسل المسيح والقديسين بأسلوب الرسم البيزنطي.

1977. وزيارته اليتيمة فيما يخصني كانت عندما أخذت إدارة الجامعة الأميركية قراراً بطردي مع طلاب آخرين في عام 1955 بسبب التظاهرات والاعتصامات السياسية التي جرت آنذاك احتجاجاً على المشاريع الدفاعية الأميركية في المنطقة، فقابل مدير التسجيل في الجامعة آنذاك الأستاذ فريد فليحان، ونائب الرئيس الدكتور فؤاد صروف، ونجح في تخفيف قرار الطرد الدائم الى مدة سنتين تجريبيتين فقط، فرحت أبحث عن عمل الى أن سُمح لي بالعودة لمتابعة دروسي بعد انقضاء تلك المدة. وما زال والدي يحيرني حتى اليوم أنه لم يوجه لي أي كلمة عتاب أو استفسار أو تأنيب أو حتى استغراب لما حدث. بل تلقى الأمور وعالجها بقدر ما استطاع كما هي من دون زيادة أو نقصان، فوفر عليّ حرج أن أشرح له أو أبرر اندفاعتي تلك.

•••

هناك أشياء تبدو للوهلة الأولى أنها غير جديرة بالاهتمام لكنها تعطي انطباعاً موثوقاً عن شخصية الإنسان، ومنها مثلاً أن والدي كان يهتم اهتماماً بالغاً ومبالغاً فيه بالنظافة، وبالأناقة، والهندام، وترتيب المنزل، الى درجة أن والدتي كانت تتضايق أحياناً منه وكأنها كانت تشعر بأن في ذلك انتقاداً أو اعتراضاً على تدبيرها المنزلي، بينما الأمر ليس كذلك. فعندما كانت تضع الأغطية على المفروشات أو الأسرة وترتبها، كان يأتي ليلقي نظرة عليها، فإذا وجد أي طعجة على الغطاء يتقدم ويملسها بيده لكي تستوي على مستوى واحد لا طلعة فيه ولا نزلة، فيجن جنون الوالدة، لكنها في الوقت ذاته كانت تعترف له أمامنا بأن والدكم «لا يطيق الزاحلة»، أي أنه لا يطيق أن يرى شيئاً على غير ما يرام، أو «على آخر بريم»، كما كان يقول هو.

ومن ذلك أيضاً أن حذاءه كان يلمع باستمرار فلا يدانيه الغبار، لأنه كان يمسحه ويلمعه كل يوم، فيبدو للناظر وكأنه لا يمشي على الأرض. وفي يوم من الأيام اصطحبني معه الى جب جنين لزيارة الدكتور ملحم الفرزلي جد زوجتي لاحقاً، راكبين حماراً كان يقتنيه جدي لأعمال الفلاحة. وكانت تلك الزيارة بالنسبة الى طفل مثلي بمثابة «مغامرة» مستحبة فيها مفاجآت. وآثر والدي أن نتجنب الطريق الذي يمر في القريتين الواقعتين بين القرعون وجب جنين، وهما «بعلول» و«لالا»، فأخذنا طريق السهل المحاذي للنهر. وفي منتصف الطريق تقريباً عند ملتقى خراج بلدة صغبين في السلسلة الغربية وهي بلدة مارونية فيها أقلية كاثوليكية، وخراج بعلول في السلسلة الشرقية وهي بلدة سنّية خالصة فيها بيت كاثوليكي واحد من آل الحجار في القرعون يدعى سالم الحجار، التقينا في مكان تستنقع فيه المياه يدعى «بركة بجعة» بأحد الرعاة كان يرعى الماعز في الجوار، فأصرّ أن يرحب بنا ويكرمنا على طريقته، فأخذ طاسة معدنية من جعبته وأمسك بعنزة سوداء من عنزاته وراح يحلب من درتها في

الطاسة ويقدم لنا الحليب الطازج لنشرب، فأعطاني تلك الطاسة فأشار علي الوالد برأسه بأن آخذها وأشرب لأنني ترددت في البداية لا لأنني لم أشاهد شيئاً كهذا من قبل، إذ كنت أشاهد جدتي تحلب بقرتها، التي كنت أرعاها في الحقول أحياناً وآخذها الى العين أو الى النهر لتشرب، لكنها كانت تأخذ الحليب وتغليه على النار قبل أن يتناوله أحد، بل لأنني شاهدت مع الحليب في الطاسة شعرات سوداء من شعرات العنزة. وكم تفاجأت عندما مججت أول مجة أن ذلك الحليب نازل من درة العنزة ساخناً وكأنه مغلي على النار. والى اليوم ما زلت أفضل حليب الماعز ولبن الماعز وجبنة الماعز، وخصوصاً في باريس ولندن، وعلى الأخص في هولندا عندما كنت أزور نجلي عامر خلال فترة إقامته في أمستردام حيث حليب الماعز له طعم متميز.

•••

في ربيع عام 2009 قطعت تلك المسافة بين جب جنين والقرعون وتبلغ 14 كيلومتراً مشياً على الأقدام مرتين وذلك بمحاذاة قناة الري التابعة لمشروع الليطاني في أعلى السهل وتحت الطريق الذي شقه الإسرائيليون في غزوهم للبنان في عام 1982، وفي المرتين كنت أتوقف قبالة «بركة بجعة» في منتصف الطريق أستذكر الماضي بحذافيره. ومما تذكرته في المشوارين المذكورين، ما قرأته في كتاب الدكتور طومسون «الأرض والكتاب»[5] ، حصلت على نسخة قيمة منه في معرض للكتب القديمة في لندن عن تلك البقعة التي مر بها أثناء وجوده في لبنان في منتصف القرن التاسع عشر. فالدكتور طومسون هو طبيب أميركي كان في عداد الإرساليات الأميركية الأولى الى لبنان، واتخذ من بلدة «عبيه» مقراً له، وقام بجولات واسعة في لبنان وسوريا وفلسطين خلال 30 سنة قضاها في المنطقة، وعاصر حملة ابراهيم باشا المصري، ابن محمد علي الكبير حاكم مصر في ذلك الوقت، وهو الذي اكتشف عبادة أهل هذه المنطقة للمال واستقتالهم من أجله، مما جعله يفترض أن هذا هو السبب الموجب لظهور المسيح بين عبدة المال في هذه المنطقة من دون غيرها من مناطق العالم. ومما لفت اليه الدكتور طومسون، وهو صحيح، أنه عثر بين جب جنين والقرعون على حجارة بلورية شبه ثمينة لا يعرف أهل المنطقة حق قدرها، فجمع منها حمولة بغل وأرسلها هدايا الى الولايات المتحدة. وفي صغرنا وأثناء تجوالنا في الحقول، كنا نعثر على قطع من تلك الحجارة وهي سوداء مخرّشة من الخارج لكنها مليئة في داخلها بقطع بلورية بيضاء متراصّة تشبه الماس المصقول. وكنا نسمي تلك الحجارة «بصقة القمر». ولست أدري من أين جاءت هذه التسمية، ربما لأن القدامى كانوا يعتقدون بأنها سقطت من نيازك

(5) The Land And The Book, W.M.Thomson (Thirty years missionary in Syria and Palestine) London, T. Nelson and Sons (1903)

في الفضاء، أو ربما لأنها قبل انكسارها تكون مكورة كدورة القمر. وتبدو لي ملاحظة الدكتور طومسون، حول عبادة المال في هذه المنطقة، بعد قرنين من الزمن، حقيقية وثابتة أكدتها انتخابات عام 2009 التي كنت حاضراً فيها واقترعت أيضاً.

•••

عند وصولنا الى مدخل جب جنين التقانا رجل يرتدي شروالاً وكوفيةً وعقالاً فسلم على الوالد وعانقه وقبّل رأسي، وراحا يتحدثان، فعرفت فيما بعد أن اسمه أحمد موسى، وكانت مهمته أنه «يقطع الكوشان». وعرفت ذلك عندما قَدِمَ من ذلك المدخل الى البلدة في الوقت ذاته شخص غريب من خارجها فتصدى له أحمد موسى سائلاً ما إذا كان يحمل كوشاناً أو يقطع له كوشان بقيمة ربع ليرة، فحاول الرجل أن يتملص من ذلك لكنه عاد فدفع ودخل. وعلمت بعدها أن «الكوشان» هو عبارة عن «رسم فيزا دخول» لمن يدخلون القرية وليسوا من أهلها، أو هو نوع من ضريبة البلدية. وقد ألغي هذا النظام الموروث من العثمانيين قطعاً فيما بعد تسهيلاً للتجارة الحرة والتبادل بين القرى، لكنني أعجب اليوم كيف بقي هذا النظام معمولاً به في قرانا الى مطلع خمسينات القرن العشرين تقريباً.

وعندما دخلنا الى البلدة سألت والدي لماذا لم ندفع نحن الكوشان شأن ذلك الرجل، فأجابني بكلام غامض مؤداه إنه لم يدفع الكوشان لأن أحمد موسى لم يطلب منه ذلك. وقبل أن نصل الى بيت الدكتور ملحم أخذ والدي محرمة من جيبه وراح يمسح حذاءه ويلمعه حتى أصبح كالمرآة، وعندما وصلنا واستقبلنا، التفت الدكتور ملحم الى والدي وقال له مازحاً: «يا أبونا ألست تمشي على الأرض»، إذ يومها لم تكن هناك طرقات مزفتة أو معبدة كما هو الحال اليوم.

وفي بيت الدكتور ملحم الفرزلي في جب جنين لفتني أكثر ما لفتني وجود كتب كثيرة معظمها بالإنكليزية كان لي حظ التعرف عليها بعد سنوات عديدة من وفاته ودخولي الى بيته كواحد من أفراده، ومنها مجلات عربية مثل «المقطم» و«المقتطف» و«الهلال»، فكان ذلك أول احتكاك لي مع عالم الكتب والثقافة. وفي بيت الدكتور ملحم أيضاً تعرفت لأول مرة على نمط من الحياة غير مألوف لدينا من قبل. فقد كان فيه غرفة طعام وطاولة تُمد عليها الصحون ولوازمها وفوطها، وكان لتناول الطعام طقس أو آداب معينة، وهي آداب إنكليزية ـ أميركية، لأن الدكتور ملحم أنجز دراسته الثانوية في «مدرسة الأميركان» في صيدا، وذهب الى الولايات المتحدة خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر حيث درس الطب في جامعة شيكاغو بولاية إيلينوي التي تخرج منها مع إطلالة القرن العشرين في عام 1901، وسوف أتناول سيرته لاحقاً.

أما الفلاحون في القرعون، ونحن منهم، فكانوا يتناولون الطعام إما على

الواقف بشكل «عرائس» يلفونها ويمشون، أو على القاعد وهم جالسون على الأرض فوق «دواشك» حول طاولة واطئة لها استخدامات متعددة، منها تنقية الحبوب من الشوائب حبة حبة قبل خزنها للمونة وبعضها يُخلط بالملح الخشن لمنعه من التسوس كالعدس والفول، وخصوصاً تنقية القمح المسلوق والمجفف من الحصى قبل جرشه لصنع البرغل منه، أو جلوساً القرفصاء على الأرض حول طبق مستدير من القش يوضع عليه الطعام في وعاء واحد من الخشب أو من الفخار يأكل منه جميع من حضر. وكان والدي عندما نقرفص للأكل يرسم شارة الصليب على وجهه فقط، وعندما ننتهي من الأكل ونقف يقول عبارة واحدة فقط هي: «نشكر الله» قبل أن نتوجه لغسل أيدينا. أما في بيت الدكتور ملحم الفرزلي في جب جنين وعندما جلس الجميع على كراسيهم الى المائدة وكل واحد أمامه صحنان، ولا يضع مثلنا خبزه المرقوق فوق ركبته يقص منه بيده ويأكل، فلم يبدأ الأكل إلاّ بعدما وقف والدي وتلا صلاة البركة، ولم يقم أحد عن المائدة إلاّ بعدما وقف والدي وتلا صلاة الشكر.

وأقول الحق إن تلك المراسم والطقوس أعجبتني وأنا أشاهدها بالممارسة لأول مرة، وعندما سألت والدي في طريق العودة الى القرعون، لماذا لا نفعل نحن ذلك؟ فقال باختصار شديد: «كل ناس لهم عاداتهم».

وعلمت فيما بعد أن سبب الزيارة الى الدكتور ملحم الفرزلي في جب جنين أنه لم يكن لديهم هناك كاهن للرعية، ففاتح والدي بالانتقال الى جب جنين، وهذا ما تم لاحقاً. ذلك أنه لم يكن هناك كاهن في كل قرية لأسباب شتى أهمها انقسام الطائفة على نفسها ووجود عداوات ومنافسات سياسية فيما بين وجهائها، حتى أن في بعض القرى أقيمت كنيستان متنافستان، وبعد فترة من الوقت تغلق الكنيستان أو إحداهما حسب التطورات، كما حصل في بلدة «عيتا الفخار» في قضاء راشيا. وفي بعض الأحيان لم يكن يؤدي الانشقاق الى إغلاق الكنيسة فحسب، بل كان بعض أعضاء الطائفة، إما نكاية بمنافسيه أو نكاية بالخوري، يعتنق طائفة أخرى، وخصوصاً البروتستانتية الإنجيلية التي كان التبشير بها ناشطاً، تضاف اليه منافع أخرى. وفي أحيان قليلة ينضم المنشقون الى الكنيسة الكاثوليكية الملكية حيث طقوسها وقداديسها مماثلة للطقوس الأرثوذكسية البيزنطية المعرّبة.

وكان والدي أحياناً يقيم القداديس في أكثر من بلدة لخلوها من الكاهن، وكان يصطحبني معه أحياناً شرقاً وغرباً، من بلدة «مجدل بلهيص» شرقاً في أعالي «جبل عربي» المطل على «وادي التيم»، التي لم يكن لها طريق يؤدي اليها، الى بلدة مشغرة في سفح الجبل المقابل غرباً، وكانت بلدة صناعية مزدهرة اشتهرت بدباغاتها، أي معامل دبغ الجلد وتصنيعه. وقد خلت مجدل بلهيص من سكانها المسيحيين منذ الخمسينات بسبب الهجرة فبقيت قرية

إسلامية سنّية خالصة، أما كنيستها فقيل لي إن سطحها القرميدي انهار فتولى رعايتها مختار القرية آنذاك، فمد سطحها بالإسمنت وبقيت مغلقة، ولا أدري ما حل بها. وأخبرني والدي فيما بعد أن آخر كاهن في مجدل بلهيص ويدعى الخوري سلوم كان من أشد محازبي الملك فيصل الهاشمي، وأنه توجه الى دمشق للمشاركة في استقباله عندما قدم اليها ملكاً على سوريا. أما مشغرة التي خلت هي الأخرى تقريباً من سكانها المسيحيين، وبسبب قربها من القرى الشيعية الجنوبية فقد تحولت الى بلدة شيعية، وفيها كنيستان واحدة للروم الأرثوذكس والثانية للروم الكاثوليك. وكان من أبرز عائلات مشغرة آل طرابلسي ومنهم الوزير والقاضي السابق سليمان طرابلسي، وابن عمه المفكر اليساري المعروف فواز طرابلسي الذي وضع أخيراً كتاباً سوسيولوجياً سياسياً قيماً عن جده سليمان طرابلسي بعنوان «يا قمر مشغرة» مستعيراً تلك العبارة من أغنية معروفة لفيروز. وحول هذا الكتاب، الذي لدي نسخة منه، سمعت نقداً للكاتب لا للكتاب يلوم فواز طرابلسي على الكتابة عن جده لوالده سليمان طرابلسي، ولم يكتب عن جده لأمه عيسى اسكندر المعلوف الذي يعتبر من أبرز رجال الثقافة في لبنان. وكذلك الفنان والمغني المعروف زكي ناصيف. وكان من أبرز أهاليها من الأقلية الشيعية آنذاك القاضي الدكتور حسن عواضة المدير العام الأسبق للتفتيش المالي، وهو من أقطاب البيروقراطية الشهابية التي نشأت في عهد الرئيس فؤاد شهاب، والنائب السابق حسين منصور الذي تحول منزله في بيروت خلال الحرب اللبنانية الى مبنى مؤقت للبرلمان اللبناني.

•••

عندما كان يتكلم يعطي والدي العناوين فقط ولا يطيل في الشرح، كما أفعل أنا أحياناً. ومرة كنت عائداً معه الى البيت من الكنيسة فسألته ما إذا كانت تحدث عندنا «عجائب» كتلك الواردة في الإنجيل، فكان يقول لي في كل مرة أسأله عن الأمر: «عجائب الله في قديسيه». وتجرأت مرة وقلت له وماذا يعني قولك «عجائب الله في قديسيه»، فقال لي متردداً: «لا أحد يصنع العجائب. القداسة هي الأعجوبة في هذا العالم. وعندما أقول لك إن عجائب الله في قديسيه، فإن ذلك يعني أن القديسين فقط هم الذين يمثلون أعجوبة الله ولا يصنعون الأعجوبة إلاّ في أنفسهم وينشرونها على الملأ بالقدوة الحسنة وبالعمل الصالح المجرد لوجه الله». فقلت له: «لكن الإنجيل يقول إن المسيح صنع الأعاجيب». فتوقف برهة عن الجواب الى درجة خشيت معها أن يفاجئني بالقول إن المسيح أيضاً لم يصنع الأعجوبة، لكنه اختصر كلامه قائلاً: «إن الذي صنع الأعجوبة هو الإيمان بالمسيح».

وكنيسة القرعون لا تبعد سوى مائة متر فقط عن ساحة جامع المسلمين، وهي ساحة تحيط بها بيوت المسيحيين من جانبيها الشرقي والجنوبي،

والمرور بتلك الساحة هو الطريق الوحيد المؤدي الى بيت جدي الحاج داوود في الحارة الفوقا، وكانت ساحة الجامع ملتقى أهل القرية جميعاً من مسيحيين ومسلمين، حيث كانت توجد محلات تجارية أو بالأحرى دكاكين صغيرة تلبي حاجات أهل القرية.

وبمرورنا في ساحة الجامع مرة سألته ما الفرق بيننا وبين المسلمين، فقال باختصار شديد: «لا فرق، كلنا بشر خليقة الله». فقلت له: «لماذا، إذن، لديهم جامع ولدينا كنيسة». فقال باختصار أيضاً: «كل إنسان يتعبد على طريقته». ولما شعر بذكائه الباهر أن جوابه لم يكن مقنعاً قال: «هم أفقيون ونحن عاموديون مؤشراً بيده على ما يعني. هم لديهم صراط مستقيم، ونحن لدينا صراط مستقيم. لكن صراطهم هو عبارة عن جسر ضيق لا حبل يتمسك به عابره إلاّ حبل الله، فلا يصل الى نهايته في الجنة إلاّ الأنقياء الأتقياء الطاهرون، وأما الخطاة والجناة والأشرار فيسقطون منه على الطريق إلاّ من رحم ربك. أما صراطنا فهو عبارة عن سلّم نصبه المسيح بين الأرض والسماء لتصعد عليه الناس بأعمالها، فمنهم من يسقط بعد صعوده درجة أو اثنتين أو مائة درجة، فلا يصل في النهاية إلاّ الأبرار والقديسون والمغفورة خطاياهم في المسيح».

قلت له ببراءة الأطفال: «لكن الصعود على السلّم أصعب من العبور على الجسر».

فابتسم وربت على كتفي وقال لي: «علينا أن نواصل الصعود لأن في الصعود التقدم والارتقاء».

وكان الوالد يفرض في البيت نظاماً غذائياً صارماً يقوم على تطبيق روزنامة الكنيسة بحذافيرها من القطاعة[6] عن أكل الدهنيات يومي الأربعاء والجمعة،

---

(6) تبدأ «القطاعة» في الليلة الاخيرة من اسبوع «المَرْفَع» الواقعة عشية مدخل الصوم. وتسمى أيضاً «قطع الزفر» لأنهم فيها يتخلون بدقة لا هوادة فيها عن المآكل الزَّفِرَة، وما كان يُسمح بها الا للمرضى. وطوال مدة الصوم لا يعودون الى تلك المآكل إلاّ في الفصح. وعند الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك مرفعان: «مرفع اللحم» الذي يقع في الاسبوع الثالث قبل مدخل الصوم، ويُسمَحُ فيه بأكل اللحم يومي الاربعاء والجمعة. والآخر «مرفع الجبن»، ويُسمح لهم فيه بأكل البياض فقط من بيض والبان، لكنهم يصومون فيه يومي الاربعاء والجمعة. اما الموارنة فليس لهم الا مرفع واحد هو «مرفع اللحم»، وموعده الاسبوع الواقع قبل دخول الصوم. وقد حُلّلَ لهم فيه الزَّفَرُ يومي الاربعاء والجمعة، شأن الأرثوذكس والكاثوليك. أما التفاقس بالبيض فهو عادة عريقة مغرقة في القدم، أتى على ذكرها شمس الدين الدمشقي سنة 1257 في كتابه: «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» فكتب: «يُقامرُ المسيحيون في فصحهم على البيض ولا ينكر عليهم هذه المقامرة أحد». والمفاقسة أو المداقسة، ضرب بيضة ببيضة اخرى من أحد طرفيها. يسمى الطرف الضيق «الراس» والطرف المستدير «العقب». ويتفق المتفاقسان على نوع اللعب: هل يكون الضرب رأساً على رأس، أو عقباً على عقب؟ وكذلك يتمُّ الاتفاق على «الفيحة» من فعل «فاح» العامي ومعناها كشف وأبانَ، إذ إن البيضة تؤخذ بقبضة الكف، ويُكشَفُ على أحد طرفيها بشكل دائرة حافتها الابهام والسبّابة.

وكذلك يتفق المتفاقسان على من تكون بيضته المضروبة؟ ويكسب من تكسر بيضته بيضة صاحبه. ومنهم من يستعمل الخداع في المفاقسة بأن يأخذ بيوضاً «مُزَفّتة» من داخلها، وذلك

بعد المرفع الى الصوم الكبير.

وأثناء القداس في الكنيسة كان يوصي المصلّين بأيام القطاعة الآتية وينصحهم بما يأكلون. ويؤسفني أن أقول إنني منذ أن غادرت بيت أهلي لم أعد أتقيد بتلك التقاليد حتى اليوم، بل إنني لم أعد أعرف ما هي ومتى تأتي مواعيدها. لكننا كنا نفرح في الأعياد. فالاحتفال بعيد الميلاد لم يكن مهماً كما هو الحال اليوم، ولم نشهد قط تبادلاً للهدايا والبطاقات كما يفعلون في الغرب. كان الاحتفال بالنسبة الينا يتمثل بوجبة الغداء المكونة من الديك المسمّن. وما زلت أذكر كيف كان جار لنا يأتي الى المكان الذي يسرح فيه الدجاج ليمسك بذلك الديك وينحره فيظل «يُفرفر» على الأرض الى أن ينزف دمه ويتوقف عن الحركة. وكنت أندهش وأتألم لذلك المشهد، لكننا في النهاية اعتدنا عليه. أما العيد الذي كنا نفرح ونتهلل به، فهو عيد الفصح الذي كنا نسميه «العيد الكبير». فيه كان الناس يعايدون بعضهم ويقدمون لمعايديهم البيض المسلوق الملوّن يتفاقسون به، مع ضيافات أخرى من الحلوى[7]. وفي العيد الكبير كانوا يشترون لنا الملابس الجديدة نلبسها لأول مرة في العيد، كرمز للتجدد مع القيامة. وخلافاً لما هو الوضع اليوم كان المسلمون يعايدون المسيحيين جماعات وأفراداً، والعكس بالعكس. وكانت لدى المسلمين عادة أظن أنها لم تعد قائمة، وهي أن النساء تأخذن الى قبور الموتى أطعمة وحلوى في عيد الأضحى كنا نذهب جميعاً الى هناك لنأكل منها عن أرواح الراحلين.

كان في الحارة التحتا جار لنا اسمه حسين كنعان، ويناديه الجيران «أبو كنج»، على اسم نجله الأكبر. وهو رجل حبّاب يحبه جميع أهل القرية لأنه يقدِّم اليهم خدمات لا يستطيع أحد غيره أن يقدمها مثله. فقد كانت بنيته قويّة الى درجة أنه كان يحمل على كتفه عتبة باب من الحجر المقصوب أو المنحوت طولها متر وربع المتر تقريباً ويصعد بها أثناء البناء على سلم خشبي نحو خمس عشرة درجة ويوصلها الى معلِّم العمار سالمة. ولأنه كان يبذل مجهوداً جسدياً كبيراً في الأعمال الشاقّة فإنه من الطبيعي أن يكون أكولاً. وكان بعض الشبّان في القرية يشارطونه على أكل مجمع من الحلاوة الطحينية وزنه كيلوغرام بعد الغداء لقاء خمس ليرات، وكان في كل مرة يربح الشرط.

بثقبها من جانب ثقباً صغيراً واستبدال الزفت بما يفرغه منها، فتشتد صلابة وتصبح من البيوض التي لا تكسر. ومنهم من يستعمل بيض «الفرعون»، وهو نوع من الدجاج رمادي اللون، اصغر من الديك الرومي واكبر من الدجاج البلدي ويبيض بيضاً صغير الحجم فيه صلابة اشد من بيض الدجاج البلدي فيصعب كسره بسهولة.

(7) النُقل ما يقدم من حلويات على طبق كبير او صينية. ونقل «عيد الكبير» يختلف عن النقل العادي البسيط. فعلى صينية النُقل تجد البيض المسلوق الملون، حيث يسلق البيض مع ورق التين ليكسب لوناً حشيشياً، ومع ورق البصل ليصبح احمر زاهياً، او مع قطعة من طربوش ليصبح احمر قانياً، والكعك بحليب، والبقلاوة عند الميسورين، والمشبك، وراحة الحلقوم، وملبس على قضامة، وملبس على لوز، وملبس على كزبرة وبندق.

وكان والدي يحبّه ويقدِّره كجار وكإنسان عامل وكادح، وكان كلما فاض لديه مبلغ من المال يأتي الى بيتنا ليودعه عند الوالد. لكن تلك الودائع لم تكن تعمِّر طويلاً لأن أبوكنج كان مبتلياً بالمراهنات ولعب القمار الى درجة أنه في إحدى الليالي طرق بابنا في منتصف الليل ليطلب مبلغاً من ماله، فانزعجت والدتي من ذلك وأصرّت على الوالد أن يعطيه كل فلوسه وأمرته بأن لا يعود ليودع عندنا شيئاً، لأنه نكث بوعد قطعه لها سابقاً بالامتناع عن اللعب بالورق.

وأذكر في مرحلة طفولتي أن المسيحيين في البلدة امتلأت مقابرهم بالتوابيت ولم يعد فيها متسّع لمزيد فقرروا تفريغها وحرق محتوياتها لتستقبل توابيت جديدة. ويختلف المسيحيون عن المسلمين في دفن موتاهم، وإن كان الفريقان كلاهما يغسلان الموتى قبل الدفن. وكان كل فريق يشارك في جنازات الفريق الآخر ويؤاجر معه. فالمسلمون بعد غسل الميِّت يلفونه بكفن من كتّان أبيض جديد ويحملونه على نعش الى المقابر لدفنه بكفنه في حفرة تحت التراب بعد الصلاة التي يقودها الشيخ أو الإمام الذي يُذكِّر الفقيد بما يجب أن يقوله للملاكين اللذين سيستقبلانه في الآخـرة بأن الإسـلام دينه والكعبة قبلته ومركعه ومحمد نبيّه والمسلمون أخوته والمسلمات أخواته، وما الى ذلك. أما المسيحيون فكانوا بعد غسل الميت يُلبسونه أحلى بدلاته أو حلله ويجهزونه كأنه ذاهب الى عرس أو حفلة كوكتيل، ويضعونه في تابوت خشبي تختلف قيمته وزخارفه الداخلية والخارجية حسب الإمكانيات المالية للعائلة، أو حسب ميلها الى الظهور والفخفخة. وبعد الصلاة عليه في الكنيسة والدعاء له بأن يكون ذكره مؤبداً، يحملونه بالتابوت على الأكتاف في جنازة أو مسيرة يتقدمها الكاهن وأمامه الصليب ويصلّون عليه من جديد على باب القبر، الذي هو عبارة عن غرفة فسيحة مبنية من الحجر، ويدعونه هناك ومعه تابوته، فكانت التوابيت تُشقع فوق بعضها البعض الى أن يمتلىء المدفن بسكانه من الأموات. أما اليوم فإن كل عائلة تبني مدفنها الخاص مما يجعل امتلاءها طويل الأجل، وربما الى عدة أجيال.

لكن عندما امتلأ المدفن في أيـام طفولتي وتقرر إخـلاؤه من ساكنيه طلب الأهالي من والدي توكيل تلك المهمة الى جاره حسين كنعان (أبو كنج)، وكان من الطبيعي أن يتجمهر الأطفال في ذلك المكان لمشاهدة حدث لم يألفوه من قبل. فكان أبو كنج يدخل الى المدفن ويحمل تابوتاً على كتفه ويلقيه بعيداً ثم يفتحه لتفحصِّه فإذا وجد جمجمة فيها سنٌّ من الذهب اقتلعه ووضعه في جيبه، وهكذا دواليك الى أن كوّم التوابيت ومحتوياتها في كومة عظيمة وأشعل فيها النار الى أن تتحوّل الى رماد تذروه الرياح.

هذا المشهد شاهدته بعيني ولم أسمعه من أحد. لكنني علمت في لندن أخيراً أن الكنيسة الأنطاكية فيها رفضت تجنيز أحد منتسبيها من اللبنانيين لأنه

أوصى بحرق جثّته كما يفعل كثيرون من الإنكليز، فاضطر أهله الى تجنيزه في كنيسة أخرى. ففي القرعون في زماننا كانت المحرقة جماعية، وكان الناس هم الذين يقررون ما يناسبهم فلا يقرره عنهم أحد.

ولما كانت الأموال شحيحة أو غير متوفرة على العموم، فإن نساء الطائفة كنَّ يقدمن النذورات بما لديهن من زيت الزيتون. وكان هذا الزيت يُصبُّ في خابية كبيرة من الفخار مركونة في إحدى زوايا هيكل الكنيسة، ويستعمل عادة في مصابيح الإنارة. لكن بعد مد شبكة الكهرباء في القرعون عام 1950، بطل استعمال الزيت للإنارة، فاحتار والدي ماذا يفعل بالزيت الموجود في الخابية لأنه لا يصلح للأكل بسبب طول المدة واختلاف الأنواع، فقرر أخيراً أن يصنع منه الصابون. وجاء بالزيت فصبه في دست نحاسي ووضعه فوق موقدة الحطب، وصب فوق الزيت مادة كيماوية يسمونها «النطرون»، وهي على ما أظن نوع من الحوامض، تتفاعل مع المادة القلوية في الزيت لتشكل الطبخة الصابونية التي تُصب في قالب خشبي لتجمد وتقطع قطعاً صغيرة. ولما لم يكن لدينا قالب خشبي مناسب، فقد عمد والدي الى وسيلة مبتكرة، وهي أنه أحضر الطاولة اليتيمة الواطئة في بيتنا التي نأكل عليها وننقي الحبوب أيضا وقَلَبها على ظهرها فأصبحت قوائمها في الهواء وشكلت جوانبها الأربعة المتلاقية عند القوائم قالباً طبيعياً، فمد في هذا القالب المبتكر فرشة من ورق الجرائد وصب طبخة الصابون فوق الورق وتركه ليجمد ويصلب بعد تقطيعه قبل أن يصبح قاسياً. وتم توزيع نتاج هذه المصبنة البدائية على بعض الأهل والجيران الذين اعتبروه صابوناً مباركاً لأنه يكاد لا يفنى، حيث كان كل لوح منه يكفي لعدة أشهر لكونه قليل الرغوة.

وكان البيت الذي نقيم فيه ذا فناء واسع يمتد من البوابة الخارجية الى بيت الدجاج ومخزن الحطب عند حدود الجيران أكثر من أربعين متراً في الطول وحوالى ستة أمتار بالعرض. أما المنزل الذي يطل على ذلك الفناء، فكان من جناحين: جناح للنوم وقبالته جناح للاستقبال كنا نسمِّيه «المربّع»، وبينهما المطبخ وغرفة المونة، وفناء داخلي مسقوف له قناطر معقودة من غير أبواب تطل على الفناء الرئيسي. وهذا الفناء الداخلي المسقوف مبلَّط ببلاط من الحجر الخام وفيه على امتداد المسافة بين باب المطبخ وبناء جناح النوم مصطبة من طين ممتع الجلوس عليها في الصيف، وقبالتها في آخر الفناء الخارجي بالعرض شجرة توت عظيمة امتدت عالياً وشكل أحد فروعها جسراً الى سطح المنزل كنا نلعب لعبة التسلق اليه لنعبر الى السطح. وفي شتاء قاس وقارس في منتصف الأربعينات هطل في القرعون ثلج كثيف زاد ارتفاعه عن المتر ونصف المتر فكسر ثقل الثلج تلك التوتة وأناخها الى الأرض. أما الفناء الداخلي المسقوف فكانت له أيضاً استخدامات متعددة، خصوصاً في

الصيف، حيث كنا نستخدمه للاستحمام، أو لتنقية الحبوب، أو للجلوس في الفيء اتقاء للحر. وفي الصيف كان يأتي الينا المبيِّض سعيد من جهات جزين، أو بكاسين، على ما أذكر، فيستضيفه والدي ويعطيه قسما من فناء الدار بعيداً عن مدخل الفناء الداخلي يبسط فيه عدته لتبييض الأدوات النحاسية من طناجر ودسوت وسطول وملاعق وسكاكين وما الى ذلك، فكان يبيِّض أدوات منزلنا أو أدوات من يرغب من الأهالي، فيتحول الفناء ليومين أو ثلاثة مشغلاً للتبييض. وما زالت رائحة النشادر الذي كان يستعمله المبيض سعيد في تلك العملية ماثلة في أنفي. وشملت استضافة أبي للمبيض سعيد الى جانب الأكل المنامة أيضاً، فكانت والدتي تفرش له فوق حصيرة على الأرض في الفناء الداخلي المسقوف سانداً مخدته ورأسه الى جدار المصطبة، فيبيت ليله في الهواء الطلق.

•••

وعلى الرغم من التداخل والتعاضد والتفاعل بين المسيحيين والمسلمين على المستويات كافة، فقد كانت في الجو منذ فجر الاستقلال اللبناني نُذُر مقلقة تتجسد في حوادث غير مفهومة يتداركها العقلاء لكنها تبقى ماثلة وقابلة للتراكم. وسوف أذكر هنا ثلاث حوادث من هذا النوع تبين تطور هذه الحالة في بلدة القرعون، وربما كانت هناك أشياء أخرى لا أعرفها أو لم أعرها بالاً بسبب غيابي الطويل وشبه النهائي عن البلدة.

الحادثة الأولى، تتعلق بي وقد وقعت مصادفة خلال تعارك بين الأطفال في الحارة. فقد كان يعيش في حارتنا وليس بعيداً عن بيتنا رجل محترم يدعى الأستاذ بهيج شعبان، وهو أصلاً من بلدة شحيم في إقليم الخروب في الشوف الأدنى، ومتزوج من سيدة قرعونية هي ابنة رئيس البلدية آنذاك محمود قاسم فارس، وكانا يعيشان مع أولادهما في القرعون. وكان ابن له يلعب معنا على البيادر القريبة فجرى عراك بيني وبينه، فضربته بحجر صغير أصابه فوق عينه فبكى وهرع الى بيته يشكو الأمر لوالده، الذي خرج غاضباً، فظننت أنه يريد الاقتصاص مني فهربت راكضاً في الطريق المؤدي الى بيتنا فلحق بي حانقاً وصارخاً:

«قف عندك يا ابن الكلب لأفرجيك».

وفي تلك اللحظة كانت والدتي خارجة من الدار فسمعت كلامه هذا ورأته يتعقبني، فطار صوابها، وراحت تصرخ في وجهه معزِّرة له بالقول:

«ابن الخوري جرجس لا يقال له ابن كلب، يا قليل الحياء. يا قليل الشئمة. أنت كذا وأنت كيت».

فارتد الرجل ولم يدخل معها في ملاسنة لأنه أيقن أن فورة الغضب التي ساورته قد تؤدي الى مشكلة، خصوصاً بعدما عرف من المستهدف، فهو كان

يصب جام غضبه على شخص مجهول لديه. وعندما كبرت وتقدمت في الثقافة صرت أكن تقديراً واحتراماً خاصاً للأستاذ بهيج شعبان الواسع الثقافة الذي له فضل ترجمة مجموعة من روائع الأدب العالمي الى العربية، ومنها روايات الأديب الروسي الكبير فيودور دوستويفسكي.

وفي أغلب الظن أنه كان يكتب عندما جاءه ابنه شاكياً باكياً. وعندما عاد والدي الى المنزل ووقف على ما حدث، زعل كثيراً لا من الأستاذ شعبان، بل من أمي التي تصرفت على هذا النحو، وقال لها: «لماذا كل هذه العَكَرة. هي كلمة تقال عند طلوع الخلق. فلا هو قصدها ولا هو يعرف من هو الذي قيلت عنه. ثم ما أدراك أن الحق ليس على ابنك. ألا تعرفين المثل القائل بأن الولد الشقي يجلب المسبة لأهله». وبلغ الحادث أسماع وجهاء القرية بالتواتر، وفي العشية رأيت وفداً كبيراً من وجهاء المسلمين في القرية يتقدمهم المغفور له الشيخ قاسم القرعاوي إمام البلدة، ورئيس البلدية محمود قاسم فارس، والأستاذ بهيج شعبان نفسه، يسيرون باتجاه بيتنا فاستقبلهم والدي بالترحاب وجلسوا في المربع يتأسفون على ما حدث، وقدم الأستاذ شعبان اعتذاراً رقيقاً عن تسرعه وغضبه. وعادت الأمور كما كانت.

أما الحادثة الثانية، فقد جرت في أول انتخابات نيابية بعد الاستقلال في العام 1943. يومها كان البقاع كله دائرة انتخابية واحدة من الهرمل شمالاً الى حدود مرجعيون وحاصبيا جنوباً. وكان قريبنا المحامي أديب الفرزلي عم زوجتي مرشحاً في تلك الانتخابات عن المقعد الأرثوذكسي على لائحة هنري فرعون وصبري حماده، وكان الدكتور عبد القادر القادري، وهو طبيب من أعيان القرعون، مرشحاً على اللائحة المنافسة. وعندما أعلنت النتائج وفازت اللائحة التي تضم أديب الفرزلي، وسقوط اللائحة التي تضم الدكتور عبد القادر القادري، غضب محازبوه، وراح بعضهم يعبىء جمهوره تعبئة طائفية، الى أن انفجر الوضع بشكل غير متوقع.

ففيما كان آل الفرزلي يحتفلون بفوز مرشحهم في منزل عمه يوسف ابراهيم يعقوب الفرزلي، نزلت عليهم جموع من المسلمين المحازبين للقادري بالحجارة والعصي، فكسروا زجاج البيت وألقوا الحجارة على المتواجدين فيه، فأصيبت عمتي هلّي الفرزلي بحجر في جبهتها فسالت الدماء على وجهها وثيابها، واختبأت أنا مع أولاد آخرين في صندوق خشبي كبير كان تحت النافذة. ودحرج أحدهم محدلة من على السطح على شبان من أقربائنا في باحة دار مجاورة لو أصابتهم لمعستهم.

لكن قوة من الدرك حضرت وفضت المشكلة وعاد كل الى بيته. فقد كان للدرك يومها شيء من الهيبة خلافاً لما هو الحال في هذه الأيام، ربما لأن القوات الأجنبية لم تكن قد جلت عن لبنان بعد. فالمعروف أن تلك القوات

ظلت موجودة في لبنان وسوريا الى عام 1946، وقد حصلت الانتخابات النيابية اللبنانية بعد إعلان الاستقلال لكن قبل سنتين من انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقبل ثلاث سنوات من جلاء الجيوش الأجنبية.

أما الحادثة الثالثة، فقد جرت في خلال الحرب الأهلية اللبنانية، عندما اقتحم بعض الشبان المسلمين دارة ابن العم المطران أغناطيوس الفرزلي مطران أبرشية ساو باولو في البرازيل، وعاثوا فيه فساداً، واستولوا على ملابس كهنوتية قديمة للمطران أغناطيوس فلبسها بعضهم على سبيل الاستهزاء والولدنة. وكان المنزل مقفلاً لأن أصحابه غائبون. فالمطران أغناطيوس في البرازيل، وكان يأتي اليه يصيف فيه مرة كل عدة سنوات. وشقيقه المقيم في بيروت، سالم والد العميد في الجيش اللبناني شارل الفرزلي، الذي كان يصيف فيه كل سنة، انقطع عن ذلك بسبب الحرب.

وقد حزن المطران أغناطيوس لما حدث لبيته، فاتصل بسفير سوريا في البرازيل وأبلغه ما حدث، فوعد السفير بنقل الأمر الى المسؤولين في دمشق. وعلمت فيما بعد أن الرئيس حافظ الأسد نفسه تدخل في الموضوع وأصدر أوامره بإخلاء الدار وتصليحها وفرشها وإعادتها كما كانت. وهذا ما حصل فعلاً. لكنني علمت عندما ذهبت الى البرازيل في عام 2004، وزرت ضريح المطران أغناطيوس داخل الكاتدرائية الأرثوذكسية في ساو باولو، أن المطران عندما وقف على تفاصيل ما حدث لمنزله وملابسه، حلف يميناً بأنه لن يعود الى القرعون ما دام على قيد الحياة، ولم يعد.

أما أنا فقد عدت اليها مراراً لزيارة عمتي روزا التي كانت تقضي الصيف هناك، كلما ذهبت الى لبنان. ويجدر القول هنا إن الجسم الإسلامي السنّي الأساسي المتمثل بأعيان البلدة وعلى رأسهم الشيخ قاسم القرعاوي ليس له علاقة بالأمر، بل استنكره وشجبه، خصوصاً أن صداقة حميمة كانت تربط الشيخ قاسم بالمطران، وأن الشيخ قاسم خلال الحرب اللبنانية لعب دور الإطفائي الحافظ للوحدة الوطنية في البقاع الغربي فأكرمته الدولة بوسام الاستحقاق الذي قلده إياه رئيس الجمهورية آنذاك الياس الهراوي باحتفال مهيب في القصر الجمهوري بحضور ومسعى ابن العم إيلي الفرزلي نائب رئيس المجلس النيابي في ذلك الوقت. وهذا كان فعلاً عن جدارة واستحقاق.

وتتفاوت الروايات حول ما حصل. فمنهم من اتهم الشيوعيين، ومنهم من اتهم الأصوليين الإسلاميين. ومنهم من غمز من قناة منظمة «الصاعقة» التي كانت موالية للسوريين، والله أعلم. واليوم خلت القرعون تقريباً من سكانها المسيحيين، وقسم كبير منهم ومن ورثتهم المهاجرين باعوا أملاكهم من أراض وبيوت، أو ما تبقى من تلك الأراضي بعد الاستملاكات الواسعة لمصلحة الليطاني من أجل بناء السد وأقنية الري التابعة له. والذين يقيمون في بيروت

ومدن أخرى يعود بعضهم لشهر أو شهرين في الصيف، ومعظمهم يعود اليها ليوم واحد في المناسبات، وخصوصاً في مناسبات الدفن.

•••

أتذكر أن والدتي كانت في بداية تفتحي تحكي لي حكايات خيالية متوارثة تبدأ كلها بعبارة: «كان يا ما كان، كان في قديم الزمان, هلق بنحكي وبعد شوي بنام». لكن عندما بدأت أقرأ وأكتب، أخذت تقرأ لي مقاطع من العهد القديم في «الكتاب المقدَّس»، مرة من مزامير داوود، ومرة من أمثال سليمان، وبعد ذلك أخذت تقرأ لي مقاطع من «سفر دانيال». في تلك المرحلة كانت أمي في شهر حملها التاسع وعلى وشك وضع شقيقي الأصغر، وكان عمري نحو ثماني سنوات، فقرأت علي من سفر دانيال مقطعاً عدت اليه أخيراً على سبيل الاستذكار، وقالت لي حينها إنها إذا أعطاها الله مولوداً ذكراً، فإنها سوف تسميه دانيال، لأنها شاهدت ذلك في الحلم، وهكذا كان. أما المقطع المذكور فيقول: «وهو يغيِّر الأوقات والأزمنة، يعزل ملوكاً وينصب ملوكاً. يعطي الحكماء حكمة، ويعلِّم العارفين فهماً. هو يكشف العمائق والأسرار. يعلم ما في الظلمة وعنده يسكن النور» (دانيال 2 :21 ـ 22). فقد كانت أمي تقرأ وتكتب خلافاً لكثيرات من بنات جيلها، وقد اهتم والدها بتربيتها لأنها الصغرى بين بناته ولا تعرف أمها. وكانت معظم قراءاتها في «الكتاب المقدَّس». ولذلك عندما كبرتُ وتقدمتُ في السن، ظلت في أعماق نفسي مودة خاصة تجاه شقيقي الأصغر دانيال لشعوري بأنه جزء من نبؤة «دانيال» في البطن الذي حملني وحمله.

أما والدي فلم يكن عنده ميل الى الحكايات الطويلة، ولا أذكر أنه كان مهتماً بتنشئتي تنشئة دينية متزمتة، بل كان حريصاً على التنشئة الأخلاقية، وحسن السلوك، واحترام الذات والآخرين. وما قاله لي في الشؤون الدينية كان دائماً جواباً عن استفسارات بدائية مني، كما مر سابقاً. لكننا عندما كنا نذهب سوياً الى الكروم لتقليم الدوالي، كان يقصُّ عليَّ بعض الحكايات القصيرة من جو الفلاحة والزراعة. ومن ذلك على سبيل المثال، قال لي مرة إن عابر سبيل مرَّ يوماً برجل طاعن في السن، على حافة قبره كما يقال، وهو يغرس أغراس أشجار في حقله، فقال له ذلك العابر: «يا عم، هل تتوقع أن تعيش لتأكل من جنى ما تغرس؟». فأجابه جواباً حكيماً بقوله: «غرسوا فأكلنا ونغرسُ فيأكلون».



III

«جسر بريمو»

«جسر بريمو» البديع والمهيب فوق نهر الليطاني، كان من المعالم المميزة في مسقط رأسي القرعون، وكانت لي معه حفنة جميلة من ذكريات الطفولة.

وعندما كنا نسأل عن معنى هذا الإسم الذي عُرف به الجسر، كان الجواب أنه يحمل اسم المهندس الإيطالي الذي شيده على طراز معماري بديع من الحجر المقصوب والمنحوت وعلى علو شاهق ليربط الضفة الشرقية للنهر لجهة بلدة القرعون، بالضفة الغربية لجهة مجموعة القرى المقابلة في سفح سلسلة الجبال الممتدة من «مشغرة» و«عيتنيت» الى «مزرعة باب مارعٍ» و«دير عين الجوزة» ثم بلدة صغبين. وفي ذلك الوقت كان نهر الليطاني دافقاً بالمياه الغزيرة والنظيفة وتغذيه في الطريق ينابيع عديدة تتدفق كلها تقريباً من السلسلة الغربية، باستثناء نبع واحد يخصني على الضفة الشرقية على مسافة نصف كيلومتر تقريباً الى الشمال من جسر بريمو، وكانت تربطني به علاقة حب هادىء لأنه لم يكن فواراً ولم يكن هادراً بل يتسلل من باطن الأرض تسللاً، وبلغ حنيني اليه بعد غرقه تحت بحيرة سد الليطانيٍ مبلغاً دفعني فيما بعد الى تسمية نجلي البكر باسمه، وسوف أتحدث عنه لاحقاً.

والى جانب جسر بريمو على الضفة الشرقية للنهر كان هناك معسكر ضخم يضم مجموعة من الأبنية والثكنات العسكرية كان أهل البلدة يسمونه «الكامب»، ومنهم من كان يسميه «القلعة». ولا أدري ما إذا كان هذا «الكامب» هو سبب بناء جسر «بريمو» تسهيلاً لمرور القوافل العسكرية من المعسكر واليه، أم أنه أقيم قبل إنشاء المعسكر. لكنني أعرف أنه كان تابعاً للقوات الفرنسية في الحرب العالمية الثانية، ثم احتلته القوات البريطانية التي جاءت الى لبنان من فلسطين لتطرد فلول حكومة فيشي الفرنسية الموالية لألمانيا النازية في تلك الحرب. والأهم من ذلك أن «الكامب» هذا تم استخدامه في نكبة فلسطين عام 1948 لإسكان عدة آلاف من اللاجئين الفلسطينيين النازحين من مناطق الجليل نظراً الى قرب المنطقة من الحدود اللبنانية مع فلسطين، ونظراً الى وفرة المياه العذبة والمباني العسكرية الصالحة للسكن. ويوم قدم اللاجئون الفلسطينيون

الى «كامب» القرعون كان عمري إحدى عشرة سنة.

واليوم يقبع جسر «بريمو» ومعه «الكامب» كله تحت مياه بحيرة سد القرعون، وتطل من تحت الماء أحياناً بقايا من تلك المنشآت عندما تنحسر مياه البحيرة في سنوات الجفاف.

•••

كان خالي فايز داوود جبّور المعروف بكنية «فرانك» يحمل الجنسية الكندية، وهو من قدامى المحاربين في الحرب العالمية الأولى، وقد أصيب فيها بإعاقة في أحد كتفيه، فأعطي من الحكومة الكندية التي حارب في جيشها الى جانب الحلفاء تقاعداً سخياً من الخدمة، فآثر أن يقضي تقاعده في لبنان. وبالنظر الى توافد أعداد كبيرة من الجيوش الأنغلوسكسونية وحلفائها الى لبنان بعد خروج قوات حكومة فيشي منه، وفي غالبيتهم من البريطانيين والأستراليين والكنديين، اختار بصفته من قدامى المحاربين في الجيش الكندي أن يستغل هذا الظرف ففتح باراً ومطعماً في الهواء الطلق تحت عريشة كبيرة على شاطىء النهر بالقرب من جسر «بريمو»، على الجهة الأخرى من «الكامب»، لخدمة الضباط والجنود المقيمين هناك، وذلك خلال أشهر الصيف، كما فتح مؤسسة أخرى مشابهة لأشهر الشتاء في سن الفيل في بيروت.

وفي تلك الأيام لم يكن خالي قد رزق أولاداً بعد، فكان وزوجته «جيني» يصطحباني معهما طوال الوقت وما زالت في ذاكرتي صور من تلك المرحلة التي تضج بالجنود والضباط والشاحنات، وما تضمنته من صخب وضجيج السكارى من أولئك الجنود. ولعل أبشع تلك الصور تلك التي أطلق فيها أحد الجنود النار من مسدسه على قطة كانت تقفز من «التيراس» الخارجي للمطعم في سن الفيل الى جدار بمستواه مطل على بستان للإيكيدنيا، لكنه لم يصبها لحسن الحظ.

وكانت تلك التجربة من أسباب تعلمي المبكر للغة الإنكليزية بالسمع فأتقنت التحدث فيها، قبل دخولي الى المدرسة حيث تعلمتها كتابة وقراءة.

في ذلك الوقت بدأ العمل بنظام توزيع «الإعاشة» في القرعون، ولم أكن أعرف لماذا كان توزيع تلك الإعاشة، وما كانت تشمل من مواد، لكنني أتذكر شيئين منها: قفف التمر التي كنا نسميها «العجوة»، وقوالب السكر الأبيض وهي قطع من السكر الصلب المرصوص بشكل مخروطي وملفوف بورق أزرق، فكنا نفرح به كثيراً ولكي نأكل شيئاً منه كان علينا أن نكسره بـ«الشاكوش».

وبدا لي تالياً أن سبب توزيع الإعاشات هو شح أو عدم وجود السلع الغذائية الضرورية، بسبب الحرب وانقطاع البحر، وربما أيضاً بسبب الاحتكار المرافق للحروب في كثير من الأحيان. وقد كانت بسبب هذا الشح تخرج تظاهرات تتقدمها النساء والأطفال للمطالبة بالمواد الغذائية فكانوا يهتفون هتافاً واحداً

يقول: «بدنا قمح بدنا طحين، بدنا ناكل جوعانين».

فقد كان القمح مادة حيوية للسكان، وكان في الوقت ذاته شحيحاً غالي الثمن. وعندما كبرنا واتسعت مداركنا صرنا نسمع من كبارنا عن ضريبة مرهقة كانت تُفرض على الإنتاج الزراعي، وخصوصاً إنتاج القمح، يسمونها ضريبة «الميري»، فكان مأمورو «الميري» يأتون الى البيادر بعد تذرية القمح ليقتطعوا من الإنتاج حصة للحكومة، وقيل لنا إن المزارعين والفلاحين كانوا يتضايقون كثيراً من تلك الضريبة، فراح بعضهم يلجأ الى الغش بتهريب كميات من إنتاجهم سراً حتى لا تقع تحت أيدي المآمير. كذلك سمعنا من كبارنا أن تلك الضريبة البغيضة دفعت كثيرين الى الحد من إنتاجهم ليقتصر على سد احتياجاتهم فقط اجتناباً لدفع «الميري». وكان الجيش الإنكليزي يوزع في البلدة، كما في البلدات البقاعية الأخرى حتماً، مطبوعات ومنشورات دعائية وملصقات مصورة. وأذكر أن ضابطاً في ذلك الجيش قدّم الى والدي بصفته كاهن الرعية في البلدة ملصقاً مطبوعاً على ورق مقوّى يحمل صورة رجل وزوجته مع ابنتيهما اليافعتين، وجرى تسلم وتسليم ذلك الملصق بوقار واحترام وحني للرؤوس. ثم أخذ والدي تلك الصورة وعلقها في صدر «المربّع» على ارتفاع لا يطاله الأطفال. وقد لفتتني تلك الصورة طويلاً فكنت أتأملها ملياً كلما دخلت الى تلك الغرفة، ومع الوقت ألفنا المشهد فكأن أشخاص تلك الصورة باتوا من أهل البيت.

أما الأشخاص المذكورون فهم الملك جورج السادس ملك بريطانيا العظمى أثناء الحرب العالمية وزوجته (الملكة الأم لاحقاً)، وابنتاهما الأميرة أليزابيت (الملكة الحالية) والأميرة مارغاريت. ولا أدري ماذا حل بتلك الصورة عندما انتقل والدي وانتقلنا معه من القرعون الى بلدة جب جنين بعد ست سنوات من نهاية الحرب، ثم انتقلت أنا الى بيروت لمتابعة دروسي الثانوية فغابت كلياً من مخيلتي الى أن قادتني الظروف الى الإقامة في لندن، قبل أكثر من ثلاثة عقود، فتمنيت لو قدر لي أن أحتفظ بها وأحملها معي الى العاصمة البريطانية لشعوري اللاحق بأنها قطعة نادرة، حيث لم أشاهد لها مثيلاً في جميع المتاحف والمعالم التي زرتها في بريطانيا حتى الآن.

كانت هذه أول إطلالة لي على العالم وأنا بعد في المرحلة الابتدائية من العمر. وهي إطلالة فريدة ازدحمت فيها جحافل الجيوش العسكرية تلتها قوافل اللاجئين ثم أحداث مفتحة للعيون المغمضة مرت بي وهي لا تبالي، ومررت بها غير آبه بها أو غير فاهم لها أو مدرك لتداعياتها على البلاد وأهلها.

•••

مرت تلك المشاهد أمام ناظري وأثارت في نفسي شيئاً من التعجب، لكنني فيما بعد، ومع تقدمي في المعرفة، بدأت أفسرها وأقرأها في إطارها الصحيح.

وعلى أي حال لم أكن لأفهم في تلك السن المبكرة الأسباب التي جلبت الى ضفاف نهر قريتنا والكامب المقام بجواره، تلك الجيوش الجرارة ومن بعدها عشرات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين. وفوق ذلك لم أشاهد أي حرب أو قتال يقترن بهما وجود مثل هذه الظواهر، لكنني مع أطفال آخرين في مثل سنّي، أي بين الست سنوات والعشر سنوات، شاهدنا عن بعد في السهل بين «الكامب» والقرية باتجاه الشمال مناورة عسكرية بالذخيرة الحية ظلت بقاياها من الذخيرة المستنفدة منثورة في الحقول والكروم الى سنوات طويلة بعد ذلك، وربما الى اليوم. وقد نشرت تلك الجيوش على مدى مساحة واسعة «بلوكات» من الإسمنت المسلح هرمية الشكل تقريباً على مسافات محددة ربما لتحديد المواقع والحدود، وهي بقيت في الأرض الى أن غمرتها أيضاً هي الأخرى مياه بحيرة سد الليطاني. وظلت تلك المناورة في أذهان أطفال حارتنا، عندما اندلعت حرب فلسطين بعد أقل من خمس سنوات، فقسمنا صفوفنا قسمين أو فريقين، ورحنا نتمثل خوض معركة بالطين اليابس أو قطع الطوب، سميناها حرب العرب واليهود.

وحتى قبل وفود اللاجئين الفلسطينيين الى «كامب» القرعون كانت حرب فلسطين تتفاعل في القرية، لأن بعض شبان البلدة المنتمين على ما أعتقد الى «عصبة العمل القومي» تطوعوا للمشاركة في تلك الحرب ضد الصهاينة، وعلى رأسهم الشهيد برهان دحروج الذي قيل إنه استشهد وهو يحارب في صفوف «جيش الإنقاذ» بقيادة فوزي القاوقجي. والشهيد برهان يمت بصلة قرابة الى الأستاذ فاروق دحروج، الأمين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني. فقد بدأ وعيي المبكر للقضية الفلسطينية من خلال تلك الواقعة، بما في ذلك التمثيل الطفولي لحرب العرب واليهود تراشقاً بالطوب. لكن توافد اللاجئين الفلسطينيين بالآلاف الى «كامب» القرعون هو الذي شدني وفتح عقلي على حجم تلك المأساة الإنسانية الفظيعة. وفجأة بعد توافد اللاجئين توقفنا عن تمثيل حرب العرب واليهود بالطوب.

لم تعد المسألة في وجداننا لعبة أطفال يتراشقون بالطين على سبيل اللهو. فقد هزتنا الصدمة ورحنا نجول على البيوت نجمع المؤن والملابس لمساعدة الوافدين نحملها على أكتافنا وظهورنا مسافة لا تقل عن كيلومترين اثنين بين البلدة والكامب. ومن المعروفين في الفريق الذي كنت في عداده، الدكتور جورج حجار الذي هاجر لاحقاً الى كندا حيث خاض الانتخابات النيابية العامة هناك ضد وزير الخارجية الكندي آنذاك بول مارتين، ثم تابع دراساته العليا في جامعة «كولومبيا» الأميركية حيث نال شهادة الدكتوراه، قبل أن يعود الى لبنان والبلاد العربية ليمارس التعليم الجامعي ويواصل نضاله من أجل القضية الفلسطينية، ويستقر نهائيا في القرعون مسقط رأسه حيث أسس نادياً عروبياً

للمحاضرات، وأصدر مطبوعة نضالية أطلق عليها اسم «السلطة الرابعة» ما لبث أن أغلقها بعد بضع سنين، ثم اختير عضواً في المجلس الوطني للإعلام[1].

فكانت النكبة الفلسطينية التي شاهدتها بأم العين بوجهيها النضالي والمأساوي النافذة الثانية والأهم لإطلالتي على العالم في وقت مبكر. وأعرف الآن، وبالعودة الى صور الماضي، أن العالم بعد تلك النكبة لم يعد كما كان قبلها، لا في القرعون، ولا في لبنان، ولا في البلاد العربية القريبة والبعيدة، ولا في أي مكان آخر في الدنيا. هي مرآة العالم وسوف تبقى الى أمد طويل.

(1) غادر جورج حجار القرعون قبلي لالتحاقه مبكراً بدير المخلص بالقرب من صيدا حيث انضم الى شقيقه الأكبر بهيج حجار الراهب في ذلك الدير، وقد دخل جورج سلك الرهبنة المخلصية، ومدرستها التي نال فيها الشهادة الابتدائية، وأذكر أنه عندما غادر الدير نهائياً عاد الى القرعون بلباس الرهبان، لكنه ما لبث أن خلعه، وذهب الى بيروت للالتحاق بمدرسة الصنايع قبل هجرته الى كندا. كذلك خلع شقيقه بهيج ثوب الرهبنة وانضم الى الفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي (ربما لأنه كان قبل دخوله الدير في سلاح القناصة اللبنانية خلال الوجود الفرنسي في لبنان)، وحارب مع الفرنسيين في فيتنام وفي معركة «ديان بيان فو» بالذات. وبعد حرب فيتنام الأولى عاد الى لبنان ولم يبقَ فيه طويلاً بل سافر الى السنغال في غرب إفريقيا للعمل مع أقرباء له هناك، لكن العمل هناك لم يعجبه فعاد الى الالتحاق بالفرقة الأجنبية الفرنسية ليقضي نحبه في حرب الجزائر.



IV

«العامري»

جدي لوالدتي، الحاج داوود جبور سلوم، شأن جدي لوالدي اسكندر موسى فرح منصور الفرزلي، كان فلاحاً ميسوراً وأصبح مختاراً وجيهاً في الزمن العثماني، وكلاهما عمّر طويلاً.

بل إن جدي لوالدي توفي بعد أشهر من قدومي الى لندن في عام 1977 عن عمر ناهز المائة والأربع سنوات بقي خلالها محتفظاً بوعيه وعقله الى النهاية، لكنه فقد نظره في السنتين الأخيرتين، حيث بقي طريح الفراش.

وكلاهما هاجر في مطلع شبابه الى العالم البعيد: الحاج داوود هاجر الى البرازيل في أميركا الجنوبية، واسكندر هاجر الى أميركا الشمالية مع أنه كان وحيد أهله. وكلاهما عاد من المهجر بحال جيدة ومارس الفلاحة في أرضه، وخصوصاً زراعة كروم العنب. ولهجرة كل منهما قصة سوف يأتي ذكرها في السياق. والمفارقة العجيبة أن جدي اسكندر ووالدي الخوري جرجس توفاهما الله في وقت واحد تقريباً من عام 1977، الأب في تشرين الأول من تلك السنة، والإبن في شهر كانون الأول من السنة ذاتها.

كانت لجدي الحاج داوود أرض هي عبارة عن تلة صغيرة تنحدر الى شاطىء النهر، ومن المتعذر سقي أي جزء منها سوى الشريط الضيق الواقع على الماء مباشرة، فغرس في ذلك الجزء المروي ما أصبح فيما بعد غابة صغيرة من شجر الحور، وهو شجر غير مثمر لكن جذعه يستعمل في أعمال البناء، وبقية فروعه وأغصانه تستعمل وقوداً. وكلما كانت أغصان الحور تتمايل عندما يحركها الهواء يصدر عنها صوت هسيس يثير الرهبة والخشوع فيشعر سامعها بقشعريرة خفيفة تسري في جسده. وعلى الطرف الشمالي من تلك المحورة يقع «نبع العامري» السابق ذكره، وهو النبع الوحيد على الضفة الشرقية للنهر. وقد سميت ابني البكر «عامر» على اسمه تيمناً به وتعلقاً بذكراه. ونبع العامري وأرض تلة العامري اختفيا من الوجود منذ أن غمرتهما مياه سد بحيرة الليطاني، فلم يعد منهما لدي سوى الإسم. ومنذ أن غادرت القرعون في مطلع خمسينات القرن الماضي لم أرجع الى شاطىء البحيرة قبالة «العامري» إلاّ

مرة واحدة في عام 1973 لصيد البط مصطحباً معي ابني عامر وشقيقيه عماد وجهاد لأشرح لهم خريطة ملعب طفولتي.

ولا يمكن أن يزول من الذهن مشهد لقاء النبع بالنهر حيث كانا متجاورين ويشكلان مسيرة واحدة متصلة ومنفصلة في آن. لم يكن النبع عميقاً وكذلك النهر في تلك البقعة. كان النبع صامتاً لكن النهر كان له هدير خفيف لكونه ينحدر من الشمال الى الجنوب، وفيه جزء مرتفع على الشاطىء المقابل للنبع يصب في مجرى النهر بشكل شلال صغير فوق صخور ضخمة على ارتفاع متر واحد تقريباً من سطح المجرى الأساسي للنهر. وكانت تحت ذلك الشلال مباشرة صخرة ملساء مقعرة كنا نسميها «الحصان» لأنها تشبه سرج الحصان، فكنا نمشي بين الصخور من النبع الى وسط النهر لنجلس على ذلك السرج، الذي تتدلى الى جانبه على الشاطىء المجاور له أغصان شجر الصفصاف لتلامس الماء، فتنهمر على رؤوسنا مياه الشلال الآتية من فوقه. ولكي ننزل عن ظهر ذلك السرج الصخري كنا نتمسك بأغصان الصفاف لمساعدتنا على النهوض. وكم كنا نفرح بهذه الرياضة الصيفية ونقبل عليها بحماسة عندما يأتي وقتها وكأننا نمارس طقساً دينياً على الطريقة الهندوسية، مع فارق أن ممارسيها قلة لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة، وأحياناً كثيرة كنت أذهب الى هناك وحيداً أو برفقة واحد أو اثنين فقط من الأقارب.

وتنتشر فوق الطريق الضيق المؤدي الى النبع صخور ضخمة يمر الطريق من بينها، وكان بعض الرعاة يقيلون عندها مرة في النهار لسقي ماشيتهم من الغنم والبقر والماعز، فكانت للمكان رائحة مميزة لكنها ليست كريهة. وهذا المشهد في تلك البقعة يمر في خاطري الآن بعد أكثر من ستة عقود وكأنه أعظم لوحة فنية لم ترسمها ريشة أي فنان.

كان النبع رقيقاً رائقاً ناعماً وضحلاً في العمق فهو شفاف الى درجة أنك ترى كل حبة رمل أو حصى في قاعه، بينما النهر يسري في جواره داكناً أزرق يميل الى الخضرة وكأن المجرى المشترك لهما مفصول بينهما بخيط: لونان مختلفان وطبيعتان مختلفتان أيضاً، قبل أن تبتلع مياه النهر مياه النبع على مسافة ليست قليلة. وكانت مياه النبع الشفافة والساكنة باردة كالثلج بينما كانت مياه النهر الداكنة والهادرة دافئة كمياه الحمام. جاران مختلفان لكنهما متوافقان في مسيرة أبدية، على خلاف صورة الناس في لبنان، بل في القرعون ذاتها.

وبالنظر الى ضحالة النبع وسعة رقعته وصفاء مائه كان الأهل يستخدمونه لتصويل القمح في الموسم، حيث كانوا ينشرون على ضفته لجهة اليابسة بلاساً مصنوعاً من شعر الماعز تتسرب اليه الماء ولا يهرب منه القمح المصوّل، لأن القمح في ذلك الوقت كان ثميناً، ويشكل مادة العيش الأساسية للفلاحين.

وعملية التصويل هي عبارة عن غسل للقمح لإزالة الأتربة المرافقة له من الحقول أو البيادر عند تذريته باليد قبل وصول المكننة. الرجال ينقلون أكياس القمح على ظهور الحمير، والنساء يفرشن البلس على ضفة النبع لتتسلل اليها المياه فيغتسل بها من أدرانه قبل فرشه لتجفيفه في الشمس تمهيداً لطحنه أو لسلقه، على قول الشاعر الزجلي اللبناني المعروف موسى زغيب: «آخر طموح القمح يوصل على الطاحون/ وآخر طموح العنب ما تعطش الخابي». وهذا أيضاً، أي العلاقة الجدلية بين العنب والخابية، أجد نفسي أيضاً شاهداً عليه منذ الطفولة.

•••

لاحظت والدتي تعلقي بالعامري فروت لي ذات يوم قصة تتعلق بوجودي الآن على قيد الحياة. فقالت لي إن والدها الحاج داوود كان يملك فرساً بيضاء في غاية الجمال، وكانت هي متعلقة بتلك الفرس تأخذها فترة بعد أخرى الى العامري فتسقيها من النبع وتغسلها في النهر وتعود بها الى البيت. وظلت على هذا المنوال حتى بعد زواجها من أبي. وذات يوم ذهبت بالفرس الى العامري وهي حامل بي في شهرها السابع، فسقتها وغسلتها وامتطها عائدة الى القرية فالتقت بعد صعودها التلة صياد سمك متقدم في السن يحمل صيده من السمك في تنكة هي في الأصل تنكة كاز، فطلب منها أن تحمل تنكة السمك أمامها على ظهر الفرس تخفيفاً عنه ففعلت. لكن اهتزاز التنكة أحدث صوتاً جفلت منه الفرس فانطلقت بأقصى سرعتها وكأنها في سباق، فذعر الصياد وراح يصرخ عليها بأن تلقي التنكة على الأرض لكنها ظلت متعلقة بها تشدها الى جسمها باليد اليسرى وتمسك باللجام في اليد اليمنى وهي مهددة بالسقوط من على ظهر الفرس في أي لحظة. وظلت الفرس تركض الى أن وصلت الى باحة البيت حيث معلفها فتوقفت لوحدها. وقالت لي أمي إنها لو سقطت أرضاً والفرس مسرعة، أو لو أنها أجهضت بفعل السرعة والاهتزاز، لما كنت أنا الآن على قيد الحياة. لكن الله لطف وكتب لي أن أعيش وأرى... وأكتب ما رأيت.

إنني إذ أكتب عن نبع العامري على هذا النحو فإنني لا أفعل ذلك لسبب وجداني وعاطفي فقط، أو من قبيل الحنين الى الماضي والى الوطن، لكن لأنه عند العامري انفتحت أمامي نافذة لإطلالة جديدة أخرى على العالم.

ذلك أن والدي اصطحبني معه الى العامري ذات يوم من أجل تحويل مياه النهر في قناة لسقي المحورة. وفيما والدي منهمك في عمله وأنا أقطف التوت البري الذي دونه الأشواك، جاءنا رجل يحمل في يده رسالة سلمها الى والدي قائلاً إنه قصده في البيت فلم يجده فدلوه على مكان وجودنا في العامري فجاء على الفور لأن الأمر مستعجل. سلم الرجل الرسالة التي يحملها وعاد من حيث

أتى. قرأ والدي ما في تلك الورقة وقال لي إننا سنعود فوراً الى القرية، فبدا الانزعاج من هذا القرار المفاجىء على وجهي، فبادرني قبل أن أسأله عن السبب بالقول إن الرئيس إميل إده قد مات. وكانت تلك أول مرة أسمع فيها اسم إميل إده، أو أن هناك أحداً يسمونه الرئيس.

وكانت العادة في ذلك الوقت أن النعي عند المسيحيين يسلم الى الكاهن فيقرع جرس الكنيسة حزناً للإعلان عنه، ويسلم الى الإمام أو الشيخ عند المسلمين فيعلن عنه المؤذن، أو شخص يسمُّونه «الحوَّاط» أو «المنادي»، من فوق المئذنة، فينادي بأعلى صوته: «يا سامعين الصوت صلّوا عالنبي، اليوم انتقل الى رحمته تعالى فلان الفلاني في القرية الفلانية، الحاضر يعلم الغايب، والعوض بسلامتكم». لكن ما لفتني بعد ذلك المداولات التي جرت بين أعيان الطائفة حول مسألة الذهاب أو عدم الذهاب للمشاركة في الجنازة. وفي سياق النقاش الذي استرقت اليه السمع، طرقت أذني كلمات جديدة لم أفهم ماذا تعني مثل «الكتلوية» و «الدستورية»، لكنني لاحظت عدم وجود ميل للمشاركة في الجنازة لسبب لم أدركه إلاّ بعد سنوات عديدة، وبعد تمرسي بمداخل السياسة اللبنانية ومخارجها، وبمفاتيحها ومغالقها، وبعد نشوء علاقة ود واحترام بيني وبين العميد ريمون إده، نجل الرئيس إميل إده وعميد حزب «الكتلة الوطنية». كلمتان فقط مجهولتان وثقيلتان على السمع، فتحتا أمامي نافذة صغيرة لرؤية لبنان المنقسم على نفسه أبداً.

ومن غرائب الصدف أنني وقعت في أحد معارض الكتب في لندن خلال تسعينات القرن الماضي على كتاب لمؤلف بريطاني يدعى روم ليندا و عنوانه «البحث عن الغد»[1] نشر لأول مرة في عام 1938، وكنت يومئذ أصدر جريدة «الميزان» بالعربية من العاصمة البريطانية. وعندما تصفحت الكتاب قبل شرائه لفتني الإهداء الذي يقول: «الى أصدقائي في الشرق الأدنى عرباً وغير عرب، آملاً أن تعكس هذه الصفحات مودتي لهم بما لا يقل عن رغبتي في معرفة الحقيقة». وفي الصفحة التالية آية من سفر «الرؤيا» ليوحنا اللاهوتي (1:19) تقول: «فاكتب ما رأيت، وما هو كائن، وما هو عتيد أن يكون بعد هذا»، فاشتريت الكتاب وتصفحته لاحقاً في المنزل فوجدته مثيراً من الناحية الصحافية لأنه يتضمن تحقيقات ميدانية ومقابلات شخصية مع الزعماء العرب والأتراك وزعماء البلقان من الملك عبد العزيز آل سعود والحركة الوهابية، الى الإمام يحيى حميد الدين في اليمن، الى الملك فاروق في مصر، الى مفتي القدس الحاج أمين الحسيني، وصولاً الى الفصل الأخير عن مصير يوغوسلافيا. وفيه أيضاً لقاء ومقابلة مع رئيس الجمهورية اللبنانية آنذاك إميل إده في منزله في بيروت. وأدهشني الفصل المتعلق بلبنان وإميل إده فقررت ترجمته الى العربية ونشرته في

(1) Search for Tomorrow, Rom Lindau, Nicholson & Watson Ltd, 1938

جريدة «الميزان».

ومما جاء في حوار الكاتب البريطاني المذكور مع الرئيس اللبناني آنذاك: «كان إميل إده في تلك المقابلة واضحاً، صريحاً وجريئاً في تفضيله «التحالف مع فرنسا» على «التحالف مع سوريا». فلبنان ، في رأيه، يحتاج الى حماية أجنبية، ومن دونها «سوف يبتلعنا بعض جيراننا». وأضاف: «لدينا رسالة نؤديها في الشرق الأدنى... إننا الجزيرة المسيحية الوحيدة في بحر من البلدان المسلمة».

أما «التحالف مع سوريا» فمرفوض، قال إميل إده: «إنّ بعض المسلمين يتحدثون عن الاتحاد مع سوريا، وهذا ضد مصلحتنا، نحن المسيحيين أكثرية في هذا البلد، فاذا اتحدنا مع سوريا فسوف يبتلعوننا لكون اكثرية السكان هناك من المسلمين». وكانت عند إميل إده أسبابه الأخرى ضد الاتحاد مع سوريا: «بادىء ذي بدء، اللبنانيون والسوريون دولتان مختلفتان، تقاليدهم وطريقة حياتهم تختلف عن تقاليدنا وطريقة حياتنا. أنظر الى بيروت، أهذه مدينة شرقية؟ دمشق مدينة شرقية. لكنك هنا كأنك في جنوب فرنسا. أنظر الى بيوتنا والى الملابس التي نرتديها والى سياراتنا، فترى كأننا نَبعُدُ عن دمشق مئات الأميال. تذكّر أنه ليس أولادنا فقط درسوا في الجامعات الأوروبية، بل إن آباءنا أيضاً تربوا على الثقافة الغربية، وفي حالات كثيرة درسوا في الخارج. أما السوريون في المقابل فهم عرب مسلمون لا مسحة غربية عليهم عملياً».

ويمضي إميل إده : «لنأخذ الاقتصاد. إن الرسوم الجمركية التي حرص السوريون على مقاسمتنا إياها تُدفع في معظمها على بضائع أجنبية نشتريها نحن لا هم لحاجتنا الأكبر إليها ولراحتنا ورفاهنا. إننا نريد الصداقة معهم، ولكن يجب أن نبقى دائماً معارضين للاتحاد معهم».

ويسأله روم ليندراو: تحدثت عن رسالتك المسيحية، لكن المسيحية ليست دين الدولة في لبنان؟ فيجيب إميل إده، وكأن إجابته ليس عمرها 75 سنة، إنما وليدة اللحظة اللبنانية الحالية: «لا ليست دين الدولة. نحن الدولة الوحيدة في الشرق الادنى حيث لا دين للدولة. لكن هناك الكثير من المذاهب الدينية في لبنان. ومن سوء الحظ أن رجال الدين من مختلف الطوائف لعبوا دائماً دوراً نشطاً في حياتنا السياسية اكبر مما تقتضيه مصلحة البلاد. ولمّا كانوا يخلطون الدين بالسياسة، فاننا نحن كدولة لا نرغب في تعقيد الامور من خلال التعاطي بالدين بشكل او آخر. فكيف اذا كانت هناك غالبية مارونية الى جانب الارثوذكس، والروم الكاثوليك، والكاثوليك الغربيين(اللاتين)، والمسلمين السنة، والمسلمين الشيعة، والدروز، والارمن، والبروتستانت، واليهود... فاننا نجد أنفسنا في فوضى رهيبة. ان الطوائف المسيحية تمارس عن طريق رجال الدين تأثيراً سياسياً قوياً. وحتى إذا أردنـا، فانه ليست لنا القدرة على وقف نشاطهم السياسي، فمن الأفضل عدم المساس بالمشكلة. وحتى كما هو الحال، فان

كل تعيين في الحكومة أو في الادارة المدنية يؤدي عادة الى الامتعاض من هذا الفريق الديني أوذاك. يا ليت نكون أحراراً في تعيين الناس حسب كفاءاتهم ومؤهلاتهم لا حسب دياناتهم».

وبعد يومين من صدور عدد الجريدة المتضمن تحقيق ليندا المشار اليه، اتصل بي هاتفياً من باريس العميد ريمون إده بعدما قرأ الموضوع وتداول فيه مع بعض «الإخوان» كما قال في مكالمته من غير ذكر الأسماء، شاكراً لي هذه الالتفاتة الطيبة والفريدة على حد تعبيره. وبعد كلمات الشكر والمجاملة التقليدية سألني بلهجة جدية:

«ألا ترى أن إميل إده كان على حق؟».

وأعترف أنني فوجئت بهذا السؤال، لا سيما أنه يعرف جيداً توجهاتي ومنحاي الفكري، فلذت بالصمت لحظات، فردد السؤال مما اضطرني أن أجيبه بكلمة واحدة هي: «ممكن».

وكانت تلك المحادثة آخر مرة أسمع فيها صوت ريمون إده قبل وفاته في باريس.

وعملاً برؤيا يوحنا اللاهوتي في العهد الجديد التي توصي بأن نكتب ما رأينا، وما هو كائن، وما هو ممكن أن يكون، أقول إن صمتي على سؤال العميد ريمون إده لم يكن موقفاً سياسياً سلبياً، بل لإن طرح الموضوع على هذا النحو في مكالمة هاتفية أعادني عشرات السنين الى الوراء، فصرت في مدار بعيد وكأنني في حلم استعدت فيه ما حدث على نبع العامري قبل أكثر من خمسة عقود.

V

«فك الحرف»

دخلت المدرسة الابتدائية لأول مرة في بيروت وليس في القرعون. ذلك أنه ذات يوم خلال الحرب العالمية الثانية أخذني خالي فايز معه الى محل إقامته وعمله في سن الفيل، كما ذكرت سابقاً، وكانت خالتي زكيّة تقيم في بيت كبير في الأشرفية مع أولادها لأن زوجها كان مغترباً في داكار عاصمة السنغال[1]، فطلبت من خالي أن أقيم عندها مع أولادها، لتدخلني مدرسة «الثلاثة أقمار» الأرثوذكسية حيث بقيت فيها سنة واحدة عدت بعدها الى القرعون. ولست أذكر من مدرسة الثلاثة أقمار سوى المعلمة واسمها «جمال»، وكانت بالفعل جميلة وأتذكرها لأنها كانت مبتورة اليد من الزند وتعمل بيد واحدة.

ولم تكن في القرعون آنذاك مدرسة بالمعنى المألوف اليوم، وقد تم بناء مدرسة «المقاصد الإسلامية» في زمن لاحق. بل كان هناك معلم يرسل الأهل أولادهم اليه في منزله ليعلمهم فيضعهم كلهم في غرفة حيث يجلسون على الأرض ويستمعون اليه، فكانت أقرب الى «الزريبة» منها الى المدرسة. ويحكي لنا الجيل الذي سبقنا أنه كانت هناك مدرسة من هذا النوع يسمونها «مدرسة علي الحلاّق» حيث كان المعلم علي يحمل خزيرانة طويلة تمتد حتى آخر صف من الطلاب يطال بها المقصرين أو المشاغبين أينما جلسوا وهو جالس مقرفصاً على الأرض في مكانه لا يتزحزح. فكان يقول للتلاميذ عبارة أو لفظة مثل «ب فتحة با، ب ضمة بو» ليرددوها من بعده في جوقة واحدة. فإذا لفظها أحدهم بحنك رخو انهال عليه ضرباً بالخيزرانة وشتمه لأنه كان سليط اللسان، قائلاً له، مثلاً:

«شد حنكك يا ابن العاهرة، تلفظ الكلمات وكأنك فطسان تلفظ أنفاسك الأخيرة»، ثم يردد له العبارة من جديد بصوت هادر مما يضطر التلميذ المسكين الى تردادها بأقصى قوته. وقد ذهب ذلك مثلاً لدى أهالي القرعون،

---

(1) وضع ابن خالتي إدمون فزع صليبا كتاباً عن هجرة والده الى السنغال بعنوان «محطات مع الجذور»، مطبعة صادر، 2007. وقد كتب له مقدمته النائب والوزير السابق إدمون رزق الذي تعرَّف على العائلة في رحلة له الى داكار.

فإذا أرسل أحدهم ابنه الى مدرسة في قرية أخرى ولم تعجبه قال عنها إنها «مثل مدرسة علي الحلاّق».

ويبدو أن تأفف المعلم من التلميذ المقصر حالة كانت شائعة، وقد ورد ذكرها في شعر للشاعر الفلسطيني المعروف ابراهيم طوقان في قصيدته المعارضة لقصيدة أحمد شوقي التي يقول فيها أمير الشعراء:

قم للمعلم وفِّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

فقال طوقان:

ويكاد يفلقني الأمير بقوله كاد المعلم أن يكون رسولا

واصفاً التلميذ بأنه «ابن كلب» بعدما أعياه إدخال إعراب الفاعل والمفعول والمضاف والمضاف اليه في رأسه بقوله:

وأرى ابنَ كلب بعد ذلك كله رفع المضاف اليه والمفعولا

•••

في السنة التي تلت عودتي من بيروت أخذني والدي الى معلِّم في الحارة الفوقا اسمه نقولا العيّاش، يقيم ويعلم في منزله الكائن عند الجهة الجنوبية من ساحة الجامع. وهو رجل كسيح لا يستطيع الخروج من البيت الذي يقيم فيه مع شقيقته ألكسندرا، وهي ممرضة قانونية متقاعدة، فكانت روائح مواد التعقيم تفوح منه وكأنه مستشفى.

وكان علينا أن نتحمل ذلك. فكنا نقعد على الأرض لأن المعلم نفسه مقعد، وكنا نحو عشرين ولداً في غرفة واحدة، وكل واحد منهم معه حمّاله وفيه لوحه الحجري وطباشيره واسفنجة يمحو فيها ما كتبه على اللوح. ومن لم يكن معه اسفنجة كان إما أن يستعير واحدة من زميله أو يبل طرف قميصه أو كمه بريق فمه ويمسح اللوح به.

وبقيت سنتين في مدرسة نقولا العيّاش ولا أذكر أنني تعلمت فيها شيئاً يذكر سوى القراءة والتهجئة ومبادىء الجمع والطرح في الحساب. وكنا نتعلم من بعضنا البعض أكثر مما نتعلم من المعلم، لأننا كنا في الصف وكأننا عائلة واحدة. ولما لم تكن في بيت المعلم نقولا باحة للعب، فقد كنا نخرج في الفرصة الصباحية الى ساحة الجامع، وأحياناً الى باحة الجامع الداخلية.

وبعد ذلك جاءنا الى القرعون معلِّم من بلدة عيتنيت، هو الأستاذ حليم حبوش الذي كان يجيد اللغة الإنكليزية، وفي أغلب الظن كان يعمل لدى إرساليات التبشير البروتستانتية، فوجد بالقرب من كنيسة القديس جاورجيوس بيتاً من قاعة واحدة كنا نسمِّيه «بيت سليم أبو حسن»، وضع فيه عدة صفوف ابتدائية مع بعضهم البعض على تفاوتهم في السن، لأن بعض الشبان الذين

فاتهم الدخول الى أي مدرسة في السابق جاءوا ليتعلموا القراءة والكتابة. وفي مدرسة حليم حبوش كانت هناك بنوك خشبية يجلس عليها التلامذة، لكنه لم تكن أمامهم طاولات يسندون اليها دفاترهم للكتابة فكانوا يسندون دفاترهم في أحضانهم أو على ركبهم.

وفي هذه المدرسة انتهى العصر الحجري وبدأ العصر الورقي، فكنا نكتب في البداية بأقلام الكوبيا التي كنا نغطها في فمنا فتلوّن شفاهنا بلونها البنفسجي، قبل الثورة التي أحدثتها صناديق العم بشارة خليل الفرزلي القادمة من أميركا والمليئة بأقلام الرصاص مع بّراياتها ومماحيها، فلم تعد هناك حاجة الى محّايات الإسفنج، أو البصق على طرف القميص.

•••

كانت أعمار التلاميذ تتراوح بين السابعة والثامنة عشر، وقد قسمت القاعة الى قسمين بينهما ممر على جانبيه صفوف من البنوك الخشبية يجلس عليها الطلاّب سوياً ولا فاصل بينهم. القسم الأيمن يضم الصفوف الابتدائية الثلاثة المتقدمة، والقسم الأيسر الصفوف الثلاثة الأدنى. فكان مجموع من في القاعة نحو ستين أو سبعين ولداً من المسيحيين والمسلمين على السواء، وهي مختلطة من الذكور والإناث. ويومها لم يكن الحجاب دارجاً فكانت البنات المسلمات يأتين الى المدرسة سافرات لا فرق بينهن وبين زميلاتهن الأخريات.

وكان المعلم حليم ينتقل من صف الى صف في القاعة، يلقي درساً على أحد الصفوف ثم يعطي أفراده واجباً أو «فرضاً» يقومون به صامتين، ثم ينتقل الى صف آخر يسمِّع لهم، أي يستمع اليهم ليرى ما إذا كانوا حفظوا الدرس السابق أو فهموه، والى ثالث ليراقب ماذا يفعلون.

وفي هذه المدرسة كان هناك تقسيم للمواد أيضاً. درس في اللغة العربية، ودرس في اللغة الإنكليزية، ودرس في الحساب، ودرس في العلوم، ودرس مشترك لجميع الطلاب الموجودين في القاعة حول الصحة العامة والنظافة والتربية الوطنية. وما زلت أذكر كلمات المعلم حليم وهو يقول لنا: «لا تأكل بملعقة غيرك، لا تنشف وجهك بمنشفة غيرك، لا تتناول الطعام قبل أن تغسل يديك بالصابون» وما الى ذلك.

ومع أن المعلم حليم كان صارماً في تعامله مع تلامذته إلاّ أنه قلما لجأ الى العنف أو الضرب، وإن كانت أمي عندما أدخلتني الى مدرسته في اليوم الأول أوصته بعدم التساهل معي بقولها له: «اللحم لك والعظم لنا»، وهي إجازة بالضرب المبرح. ومن الأمهات الأخريات من كن يقدمن للمعلم توصيات مماثلة كقولهن: «إسلخ جلده»، أو «أفرك أذنتيه»، أو «مده فلق» إذا تشيطن، وهكذا. فكان المعلم حليم يحمل تفويضاً مطلقاً باستخدام الشدة والحزم ففرض النظام والجد بلا هوادة. ونادراً ما تجد في قاعة واحدة تضم عشرات الأولاد ولا تسمع

فيها ضجيجاً أو دوشة، بل خلية عمل فيها الجميع منكبٌّ على دروسه.

•••

المعروف أن شتاء القرعون قارس جداً، وفي بعض السنين كان الثلج يهطل ويتراكم الى ارتفاع متر أو أكثر أو أقل قليلاً، وكانت قرون الجليد تتدلى من أرداف سطوح المنازل، وهي سطوح طينية[2] في غالبيتها العظمى، لأن الميسورين من أصحاب البيوت المقرمدة كانوا قلة قليلة، والسطوح الطينية لا بد من جرف الثلوج عنها لئلا تتهاوى تحت ثقلها، فكان يتم جرفها بما يسمى «الزحف» أو «القحف»، وهو عبارة عن مثلث من الألواح الخشبية موصول بعصا طويلة يمسك بها الجارف ويدفعها أمامه على طول السطح لإلقاء الثلوج في الطريق العام أو في الزواريب المحيطة. وبعد الجرف لا بد من حدل السطح بالمحدلة[3] لئلا ينش الماء عبر السطح فيدلف الى داخل المنزل. ومع ذلك كان «الدلف»، أي الماء المتسلل من السطح نقطة نقطة، يجد طريقه الى داخل المنزل مما يستوجب تلقفه بأوعية نحاسية أو فخارية على الأرض لئلا يبلل أو يفسد السجادات أو الحصر أو البلس، أو البسط وجلود الغنم المفروشة على الأرض، ريثما يتوقف الطقس الماطر، أو يتم سد المسارب.

ولذلك فإن التدفئة في الشتاء أمر حيوي للغاية، وكانت تتم عبر إشعال الحطب أو «لطاطيع» الزبل المجفف[4] في مواقد لها مداخن، أو عبر «صوبيات»[5] يُستخدم فيها الحطب، ولها قساطل معدنية تنقل الدخان المنبعث من تلك الصوبيات الى الخارج. ولما شح الحطب وغلا ثمنه، خصوصاً حطب شجر السنديان، وراح بعضهم يعتدي على الأملاك الخاصة والعامة للحصول على الحطب، بدأ البحث عن مصادر بديلة للتدفئة. وهكذا انتهى العصر الخشبي، وبدأ العصر الفحمي. فكان جدي اسكندر أول من جلب من بيروت شحنة

---

(2) كانوا يسمون السقف «القَلد» ويقوم على جسر رئيس من الصنوبر العتيق أو الحور يدعمه في الوسط عمود أو عمودان، ثم يضعون جسوراً ثانوية تسمى «نقضاً»، أو «عوارض» تربط الجدران بالجسر الرئيس، وتكون المسافة بين «النقضة»، أو «العارضة» والاخرى من 60 الى 70 سنتيمتراً، ويضعون بينها قطعاً من الخشب الدقيق(سماكتها 5-6 سنتيمترات) تسمى «سبّاحات» بطريقة متراصة لكي تمنع سقوط التراب. وفوق «القَلد» طبقة من شوك البلّان Poterium Spinosum وفوقها طين من تراب دلغاني ممزوج بالت بن، وفوقه طبقة من تراب سمكها 12-15 سنتيمتراً، وعلى وجه الطبقة الترابية يضعون رشة من رقاق الحجر الصغير او طبقة من ترابة صفراء شديدة تجف في وقت قصير، يسمونها في بعض القرى «ترابة فليسة» وفي قرى أخرى «الفِرس».

(3) حجر أسطواني ثقيل يُجَرُّ بوساطة مقبض يسمى «الماعوص»، أو «الماعوس» موصول به من طرفيه بثقب في كل طرف، وهو ثلاثي الشكل مصنوع من قضبان حديد سميكة.

(4) هو روث البقر الذي يخلط بالتبن أو قصب القمح ويُجفف في الشمس ليتيبس ويُخزن لوقده من أجل التدفئة أو الطبخ.

(5) الصوبيا وجاق معدني، منه مربع ومنه أسطواني الشكل، يقام في مكان مناسب من الغرفة المراد تدفئتها، ومن خلف ذلك الوجاق يمد قسطل معدني أيضاً الى خارج المنزل، إما من النافذة أو من فجوة في الحائط، لصرف الدخان المنبعث من حرق الوقود الى الخارج.

من الفحم الحجري كوقود للتدفئة، ربما بسبب تعرفه على هذه المادة خلال هجرته الأولى الى الولايات المتحدة وكندا في أواخر القرن التاسع عشر عندما كانت الثورة الصناعية في الغرب على أشدها. وهذه المرحلة، أي مرحلة الفحم الحجري، سبقت بسنوات قليلة فقط انتشار المواد النفطية مثل المازوت والغاز وزيت الكاز (الكيروسين)، قبل طفرة العمران الحديثة وما رافقها من تدفئة مركزية أسوة بما هو قائم في بقية الدول ذات الطقس البارد.

•••

في بيت المعلم نقولا العياش لم يكن متوجباً على الأولاد أن يسهموا في وقود التدفئة لأن المعلم كانت لديه صوبيا في بيته على أي حال. أما في مدرسة المعلم حليم حبوش حيث القاعة واسعة وتحتاج الى تدفئة تتناسب معها، وفيها صوبيتان واحدة في الجزء الأمامي من القاعة، وثانية في القسم الأوسط لتدفئة الصفوف الخلفية، فقد كان يتعين على كل تلميذ أن يحمل معه الى المدرسة كل يوم خلال فصل الشتاء قطعة من الحطب أو لطوعاً من الزبل، وهذا أمر واقع لم يكن المعلم حليم يستسيغه لأنه يبعث في القاعة أدخنة وروائح غير مستحبة، فكان يفضل حطب السنديان أو التوت أو الحور أو اللوز أو الجوز أو الزيتون على لطاطيع الزبل.

وكان بعض التلاميذ يتهامسون فيما بينهم زاعمين أن المعلم حليم يأخذ الحطب الجيد الذي يجمعه من التلاميذ الى بيته، ويشعل لتدفئة المدرسة ناراً من الدرجة الثانية أو الثالثة، وهذا غير صحيح على الأرجح.

وكانت مسألة وقود التدفئة في الشتاء مسألة حيوية يستعد لها الأهالي قبل أشهر، ويخزنون ما تيسر لهم الحصول عليه من حطب أو زبل أو قشور يابسة وما الى ذلك، وأحياناً بكلفة تفوق قدرة بعضهم. ولهذا فإن السهرات الشتوية للأهالي عند بعضهم البعض لها منطق اقتصادي أيضاً، فكانوا يحضرون تلك السهرات ليس فقط للتسامر والتسلية بل للتدفئة الجماعية بما يوفر عليهم شيئاً من النفقة.

وكان لنا جار في القرعون اسمه سعيد طيفور هاجر أولاده الى البرازيل وأقاموا في مدينة اسمها «غوايانيا»، مررت بها ونمت فيها ليلة في فندق جميل اسمه «كاسترو بارك أوتيل» في الطريق الى برازيليا العاصمة. وأخبرني أخي نقولا الذي كان يرافقني في تلك الرحلة أن سعيد طيفور جاء مرة الى البرازيل لزيارة أولاده فسأله أخي عن رأيه في تلك البلاد وما لفته فيها، فقال له بدون تردد: «إنها بلاد عظيمة فيها وقدٌ كثير». فيها وقد وليس فيها برد.

•••

في البيت كنا ندرس ونعد واجباتنا المدرسية في المساء على ضوء القنديل أو

السراج[6]، وقلة قليلة كان له حظ وجود «لوكس»[7] في بيته. وكان المعلم حليم حبوش يتابع التلاميذ في بيوتهم ليلاً، فيقوم بجولة مسائية على بيوت التلاميذ ليتأكد من انكبابهم على دروسهم، ويتحادث مع الأهل حول الموضوع. طبعاً، لم يكن يقوم بهذه الجولات كل ليلة، لكن التلاميذ كانوا يتوقعون منه «كبسة» في أي لحظة.

وكان للمعلم حليم وزوجته عدة أولاد كلهم من الصبيان وكانوا معنا في المدرسة، لكنه لم يكن يفضل أو يؤثر أو يحابي أولاده عن بقية تلاميذه.

•••

السنتان الابتدائيتان الأخيرتان كانتا بعد النكبة الفلسطينية، حيث جاءنا الى القرعون معلم فلسطيني مستنير وواسع الثقافة هو الأستاذ أيوب حبش الذي عمل بعد فترة تدريسه في القرعون أستاذاً في «المدرسة الآسية» التابعة للبطريركية الأرثوذكسية في دمشق. وقد جاء الأستاذ أيوب الى القرعون مصطحباً معه شقيقته صونيا وابنة خالته، وكلتاهما تعملان في التدريس الابتدائي أيضاً. فكانت صونيا وابنة خالتها تتوليان الصفوف الابتدائية الدنيا، وكان الأستاذ أيوب يتولى الصفوف الابتدائية العليا. وقد نقل المعلم أيوب موقع المدرسة السابق الى بيت تملكه خالتي سعيدة (أم عساف) عند الطرف الشمالي من القرعون بالقرب من البيادر المنتشرة حوله من الشرق ومن الغرب.

أحدث الأستاذ أيوب حبش في المدرسة تجربة فريدة سرّعت في إنضاج تلامذته، وأعطتهم دوافع لم تكن مزروعة فيهم من قبل. فقد استحدث أساليب للمنافسة بين الطلاّب وصلت الى حد الغيرة مما حمل المقصرين منهم على بذل أقصى الجهد، والأهم من ذلك أننا بدأنا نأخذ مسألة العلم والتبحر والتقدم مأخذاً جدياً. ومن ذلك مثلاً أنه كان يطلب من أحدنا أن يقول بيتاً من الشعر العربي، وكان على الآخرين أن يتسابقوا على الرد ببيت آخر يبدأ بالحرف الذي انتهت به قافية البيت السابق. ولذلك راح التلاميذ يبحثون عن مصادر لحفظ المزيد من الشعر ابتغاء أن يبزوا أقرانهم في مباراة اليوم التالي.

وكان لدى جدي الحاج داوود كتاب اسمه «مجاني الأدب في حدائق العرب» الذي وضعه الأب لويس شيخو اليسوعي سنة 1882.

---

(6) السراج عادة من فخار، وبعضه من نحاس أو معدن آخر، والاسرجة كانت تسمى «صفيدات»، تُملأ بزيت الزيتون ويضعون فيها ذبالة من قماش مفتول يشعلونها بعود ثقاب ويضعونها على رفراف في الجدار أو العمود أو على مسرجة من خشب تنقل الى حيث تدعو الحاجة. ومن روايات المعمرين في الضيع اللبنانية، أن بعَضاً من اللبنانيين الفقراء كانوا قديماً يستنيرون في بيوتهم ليلاً بشظايا من جذوع اللقش ينحتونها من جهة واحدة ويشكونها في ثقوب الجدار المجاور للجهة التي يسهرون فيها، ويشعلونها حتى اذا ما احترقت كلها استبدلوا بها غيرها، متحملين ما كان ينبعث عنها من دخان يكاد ان يعمي الابصار.

(7) اللوكس مصباح قوي له شاشة ويحقن فيه وقود الكيروسين حقناً ليعطي ضوءاً أقوى من ضوء القنديل العادي ذي البلورة الزجاجية.

وأذكر أنه عندما كان يتجمع أصدقاؤه من الفلاحين على ما يسمونه «السطيحة»، أي سطح «الباكية» في الطابق السفلي المفتوح على «العلِّية»[8] في الطابق العلوي وكل حامل معه نارجيلته ليتزود بنَفَس من تنباكه العجمي المدبّس، يتحدثون ويتسامرون ويشربون الشاي... كانوا في بعض الأحيان يطلبون منه أن يقرأ لهم من «مجاني الأدب» لأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة. وكان هذا الكتاب خزاناً عظيماً غرفت منه وأبقيته سراً لكي أحافظ على تفوقي في المباراة. كذلك استحدث الأستاذ أيوب الألعاب الرياضية على البيادر بعد انتهاء المواسم الزراعية، فكنا نتسابق في الركض وفي القفز وغيرها، فكان وقتنا كله في المدرسة عبارة عن سباقات ومسابقات متتالية لا تنقطع.

واستحدث أيضاً مباراة في الكتابة لتحسين الخط من جهة، ولتحسين المضمون. فكان يعطينا موضوعاً نكتب عنه، ثم يلم الأوراق ويقرأها في البيت ويضع عليها علامات بالنسبة المئوية، ثم يعيدها مع علاماتها الى أصحابها ويستبقي لديه ورقة واحدة يعتبرها ممتازة فيقرأها على الصف مجتمعاً. وذات يوم استبقى ورقة لي وقرأها على الصف وعليها علامة 81، وهي الأعلى، وعندما ذهب في المساء لزيارة أقرباء لنا أخذت سيدة المنزل تلومه وتعاتبه وتوبخه لأنه لم يعط علامة مماثلة لابنها الذي كان في صفي. وكانت تلك النشاطات بمثابة أحداث يتناقلها الناس في القرية في مجالسهم وسهراتهم.

وعلى يد الأستاذ أيوب نجحنا جميعاً، باستثناء تلميذ واحد كنا نسميه «أبو الحن»، في امتحانات الشهادة الابتدائية الرسمية المعروفة يومها باسم «السرتيفيكا». وبسبب فشله انزوى «أبو الحن» وانقطع عن بقية أقرانه، كما انقطع عن الدراسة، وما لبث أن هاجر الى البرازيل ولم أعد أعرف عنه شيئاً.

---

(8) الكلمة سريانية الاصل تعني «الغرفة العالية»، وهي غرفة وسيعة يقوم سقفها على عمود او عمودين نسبة الى الطول والعرض، يقتطع منها جزء يكون مخزناً للمونة. والعلية كما يدل اسمها، يجب ان تكون علوية اي طابقاً ثانياً، الا انها قد تكون ارضية، ويفضل القروي ان يكون موقع عليته في مكان على شيء من الانحدار فيبني مداً او مراحاً (قبو للحيوانات وتخزين العلف والحطب)، لجلوس الارض، ثم يبني عليه بشكل يكون فيه سطح المراح «سطيحة» او «مقعدا» ايام الربيع والصيف والخريف، وتظلل السطيحة عريشة. وعند المؤرخ الراحل يوسف ابراهيم يزبك ان عادة غرس العرائش قرب البيوت هي استمرار لعبادة «الاله باخوس» التي عرفها اللبنانيون ردحاً من الزمن. وحافة «السطيحة» مسوّرة بفراغات «التنك» وسحاحير خشب يزرع فيها الورد، والمنثور، والحبق، والفل. وعلى «سطيحة» العلية ينامون في ليالي الصيف الحارة ويقضون الصبحيات والسهريات.



VI

مأكول الباشوات

اشتهرت بلدة القرعون قديماً بكرومها وأنواع عنبها المتميِّز، وكان معظم تلك الكروم في الوديان والجلالي على المرتفعات الجبلية الى الشرق من البلدة. ومما يؤسف له أن معظم أنواع العنب القرعوني القديم قد انقرضت، ولم يكن هناك «بنك جيني» يحفظها للمستقبل. ومن تلك الأنواع التي بقيت الى نحو 70 عاماً قبل الهجرات الواسعة وزوال الزراعة كمصدر رزق أول للسكان: «العينوني»، و«البياضي» (نسبة الى منطقة تدعى «البياض»)، و«مخ العصفور»، و«بيض الحمام»، و«الممسّك»، و«الريحاني»، و«الفيتموني» و«السوري»، و«القاصوفي»، و«بزاز الكلبة»، و«الفضِّي»، و«المقساسي» (منه الأبيض ومنه الزهري)، و«العبيدي»، و«الموشح»، و«التفيفيحي»، و«الجوزاني» وأنواع أخرى لست أذكرها.

وكان كل نوع منها أو تشكيلة يلبي حاجة معينة، فمنه للأكل في الصيفية، ومنه للتصدير الى أسواق خارج البلدة، ومنه لصنع الدبس، ومنه للعرق، ومنه للخل البكر، ومنه للزبيب، ومنه لدبس الحصرم الذي يستخدمونه للتحميض لعدم وجود الليمون الحامض إلاّ في مواسمه الساحلية، فكان أصحاب الكروم يصنعون من تلك الأصناف كميات كبيرة للمونة المنزلية وللبيع. وكان قليلون منهم يصنعون النبيذ ربما لأن الكميات المنتجة غير وافية، أو لأن تلك الأنواع من العنب غير مناسبة. وما كان ينتجه بعضهم، ومنهم جدي اسكندر، كان حلو المذاق لا يصلح للشرب لكنه توقف عن صنعه بعد تجربة أو تجربتين.

وكل استخدام من تلك الاستخدامات كانت له طقوسه وأعرافه وطرقه الخاصة. فالكميات الأكبر من الأنواع الوفيرة العصارة، مثل «العبيدي» و«المقساسي»، كانت تستعمل لصنع الدبس للمونة الشتائية ولصنع العرق. وصنع الدبس هو أشقها وأعقدها. ففي الطرف الشمالي من القرية في حارتنا التحتا فوق البيادر، كانت هناك منطقة صخرية من الحجر الصوّاني الصلب حفر فيها الأهالي بعض الأجران حفراً متقناً بالأزاميل، وهي عبارة عن مربعات عمقها في الصخر نصف متر تقريباً، متساوية الطول والعرض بمقدار مترين لكل ضلع، والى جانب كل

جرن حُفر في الصخر أيضاً بئران متساويان كل منهما على عمق متر أو أكثر قليلاً وبقطر نصف متر أو ثلاثة أرباع المتر يتصل أولهما بالجرن بقناة صغيرة مائلة الى الانحدار تسهيلاً لانسياب العصير البارد من الجرن الى البئر الأولى، طولها نحو 30 سنتيمتراً وعرضها عشرة سنتيمترات بعمق عشرة سنتيمترات أيضاً. وكان هذا المجمع من الأجران والآبار و«الخلقين» (هو عبارة عن وعاء ضخم من النحاس يتسع لأكثر من 250 لتراً من عصير العنب ويركب فوق موقدة ضخمة مبنية ومقبّبة بالحجارة أيضاً) يدعى «المعصرة». وفي غير مواسم الدبس كان ما يسمى «ورا المعصرة» ملتقى الشبان والصبايا بعيداً عن الأعين.

وكان العنب المراد تدبيسه يُقطف في موسمه نهاية الصيف في أي وقت بعد عيد الصليب في الرابع عشر من شهر أيلول/سبتمبر ويعبأ بالصحاحير التي تُنقل على ظهور الحمير أو البغال من الكروم الى المعصرة، حيث يراكم ذلك العنب في أكوام في الجرن الحجري المربع الشكل، ويأتي الأولاد والشبان والصبايا فيخلعون أحذيتهم ويغسلون أرجلهم ويصعدون الى جرن العنب فيدوسونه بالأقدام ليعتصر فينساب عصيره الى البئر المحفورة في الصخر قربه عبر القناة الضيقة الى أن تمتلىء البئر فتغطى بما يسميه الفلاحون «البلاس»، وهو عبارة عن بساط محاك من شعر الماعز الأسود، لكي لا يدانيه النحل والزراقط والدبابير أو الذباب أو الغبار أو أي شائبة أخرى تريبه. بل كانت البئر تغطى بالبلاس وهي خاوية قبل بدء معس العنب بالأرجل. ولم أشارك إلاّ مرة واحدة في معس العنب كادت تحدث فيها كارثة سوف أرويها تالياً، لكنني كنت «أرجد» العنب من الكرم الى المعصرة بجر الحمار المحمّل بالصحاحير عدة «نقلات». والحقيقة أن الحمار كان يعرف طريقه لوحده، ووجودي برفقته كان لمجرد تبيان هوية الناقل.

وعندما تمتلىء البئر الأولى بالعصير يُعبّأ في دسوت نحاسية بمغارف خشبية كبيرة، وينقل الى الخلقين حتى تمتلىء الى المنسوب اللازم، فتوقد النار تحت الخلقين لغلي العصير الى درجة حرارة معينة، وهذا العصير المغلي يسمونه «المسطار». ويعاد تعبئة المسطار الساخن بالمغارف في الدسوت ذاتها لنقله وصبه هذه المرة في البئر الأخرى المجاورة. فبئر للبارد وبئر للساخن. وهذه أيضاً تغطى بالبلاس لئلا يسقط فيه شيء مريب. وهذا النقل على الساخن في المرحلة الأولى من الغلي غايته التنقية بدلق كمية من رماد الحطب فوقه فتركد في قعره وتركد معها أي بذور أو قشور متبقية، وربما كان للرماد وظيفة كيميائية لكونه مادة قلوية تمتص الحموضة، لأنه أيضاً يُستخدم في صنع الزبيب كما سيأتي ذكره.

وعندما يركد المسطار ويصبح صافياً بعدما يبرد قليلاً، يعاد نقله من جديد وبالطريقة ذاتها الى الخلقين لمواصلة غليه، فيظل يغلي الى أن يعقد على

نسبة اللزوجة المطلوبة فيُصب في الأوعية الفخارية من جرار وخوابي تحمل الى البيوت لحفظها وأكلها في الشتاء وفي زمن الحصاد. وهذه العملية تستهلك كميات كبيرة من الوقود، وكانوا يعتقدون أنها، من الناحية الاقتصادية، لا تستحق وقد الحطب اللازم للتدفئة في الشتاء، كما أن الزبل المتوفر بكثرة لا يعطي درجة الحرارة اللازمة عند إحراقه، فضلاً عن رائحته ودخانه الكثيف (تصنع لطاطيع الزبل من روث البقر، وهي عبارة عن أقراص مدورة يجري مزجها بما يتبقى من قش القمح بعد تذرية التبن منه والمستخدم كعلف للأبقار في الشتاء حيث يجري خزنه في مكان خاص يسمونه «التبّان». وهذا القش المتبقي يسمونه «الأصيلة» أو «الأصَل»، فتمزج الأصيلة بالروث وتقرّص أقراصاً وتلطع على الجدران الخارجية للحظائر أو الحدائق لتجف في الشمس وتخزن لاستخدامها كوقود لاستعمالات شتى). وكان الحل الأنسب يقضي بوقد ما يسمونه «الكرسبان» أو «الجرزون»، وهو أغصان الكرمة بعد تقليمها، حيث تجمع تلك الأغصان المقصوصة وتكوّم لتجف في الصيف قبل استخدامها كوقود. غير أن هذه الكميات ليست وافية أيضاً. وكان في مناطق السهل غير الصالحة للزراعة باعتبارها صخرية أو رملية ينبت نوع كث من الأشواك يسمونه «البلاّن» فكان المدبِّسون يقتلعونه بالمعاول ويحملونه على الحمير لنقله الى المعصرة ووقده لصنع الدبس من العنب.

وكان عمي موسى اسكندر الفرزلي يصطحبني معه أحياناً لقلع البلاّن، وذلك لمجرد مساعدته في تحميل الشباك المشدودة على ظهر الحمار بسندها فقط لتسهيل التحميل. فكان يمد شبكتين من «المرس» (الحبال الرفيعة المجدولة) في الأرض ويلقي البلاّن المقتلع فوقها ثم يطوي عليها طرفي الشبكة ويشدهما سوياً بأقصى قوته لتصغير حجم الحمل بالنظر الى أن شوك البلاّن كث ويمتد بالعرض ولا يمكن تحميله بكميات كبيرة إلاّ برصه في الشبك، وهو خفيف الوزن. وبعد شد الفلقة الأولى من الشبك يرفعها عمي الى ظهر الحمار فأقوم أنا بسندها ريثما يذهب ويرفع الفلقة الثانية من الجهة الأخرى ويشدهما الى بعضهما بما نسميه «المعقيلة» (قطعة من خشب السنديان بحجم يد الإنسان لها ذراعان متصلان في الأصل في جذع الشجرة بشكل «v» لكن أحد الذراعين أطول من الآخر، وطرف الذراع الأطول محفور فيه حزٌّ حتى لا ينزلق منه حبل التحميل المربوط فيه، فيشد الحبل عند العقدة الجامعة للذراعين ليمسك بالفلقتين المتوازنتين ويثبتهما على ظهر الحمار الذي يبقى عليه متسع ليركب عليه أحد إذا شاء، فكان عمي أحياناً يسألني ما إذا كنت تعبت من المشي وأريد أن أركب «شقلة» فأفعل).

لكن عملية عصر العنب للتدبيس تطورت في مرحلة متأخرة، فلم يعد لزاماً عصر العنب بدوسه بالأرجل. فقد استقدم الى المعصرة شيء يسمونه «البدّ»،

وهو عبارة عن برميل خشبي ضخم، بين الألـواح المكونة له شقوق صغيرة ينساب منها العصير، وله أيضاً غطاء خشبي مستدير، لكن استدارته أقل بقليل من دورة فوهة البرميل لكي ينزل في وسطه، وهو مزود بمكبس لولبي يدار باليد. وبعد ملء البرميل بالعنب الى «جمامه»، أي الى فوهته، يوضع المكبس المركّب على الغطاء الخشبي فوقه ويجري برمه داخل البرميل على دورة عقارب الساعة، أي من اليمين الى اليسار، وتركّب هذه الآلة في وسط الجرن الحجري، أي في عين المكان الذي كان يجري فيه العصر بالأقدام، فينساب العصير من شقوق برميل البدّ الى البئر كالمعتاد. وهذه العملية أنظف وأسرع وتحفظ بقايا العنب من قشور وبذور مرصوصة وسهلة النقل لاستخدامات أخرى، وأهمها العلف الحيواني.

•••

كانت تأتي الى القرعون مرة كل سنتين فرقة للترفيه في عدادها رجل معه دب بني اللون يرقصه على إيقاع الدف، ويأمره فيطيع. قف فيقف. نم فينام، انبطح فينبطح ظهره الى تحت وبطنه وقوائمه الى فوق، فيقول صاحبه للجمهور المتفرج أنظروا الى هذا الصدر «مثل مخمر العجّان»، فتنفرج أسارير الدب استحساناً لهذ الإطراء، ثم يقول له قم وامشِ كجدتك العجوز، فيأخذ العصا من صاحبه ويتوكأ عليها ويمشي فعلاً مشية العجوز المحدودب الظهر.

وكان معهم أيضاً مجموعة من البنات البدويات أو النوريات يرتدين ملابس زهرية طويلة ومناديل على الرأس مشكوكة بالخرز يؤدين رقصات معينة. لكن الاستعراض يبلغ أوجه بما تؤديه سيدة كانوا يسمونها «الحجي فطُوم» التي كانت تمشي على حبل منصوب بين سطحين على طرفي الساحة المعروفة باسم «ساحة عميص» في الحارة الفوقا. وكانت الحجي فطوم تمشي على الحبل مسافة لا تقل عن خمسين متراً من سطح الى سطح على ارتفاع لا يقل عن ثمانية أمتار، فتثير إعجاب ودهشة الجمهور المتجمع في الساحة لمشاهدة الاستعراض.

هذا الاستعراض المثير، كان يرافقه بائع «دواليب الهوا»، وهي لعب للأطفال من الـورق تـدار عندما يهب عليها الهواء، وهو يغري الأطفال بقوله: «طيّر عصفورك يا صغيّر»، كما يرافقهم حامل «صندوق الفرجة»، أو كما كنا نسميه «صندوق الدنيا»، وفيه عدسة تكبِّر الصور فيجلس المشاهد على مقعد خشبي قبالة الصندوق ويضع عينه على العدسة لمشاهدة تلك الصور، وهذه مرحلة سابقة للسينما. وكان صاحب الصندوق ينادي بصوت غنائي:

«تعا تفرج يا سلام، تعا تفرج عاعنتر، تعا تفرج على الزير، وأبو زيد الهلالي، تعا تفرج تعا شوف، تعا تفرج عالمكشوف».

وكان الأولاد يتفرجون ببيضة دجاج أو بقرش مقدوح.

وبعد أيام قليلة من هذا الاستعراض الذي يشكل حدثاً مثيراً في حياة القرية يكسر رتابتها، كنا ندبِّس على المعصرة وكانت المرة الأولى والوحيدة التي شاركت فيها في عصر العنب بالأقدام. ولما كانت بئر العصير مغطاة ببلاس الشعر المثبت على جوانبها بالحجارة، خطر لي أن أمشي على البلاس تشبهاً بالحجي فطوم، فسقطت في بئر العصير أنا والبلاس، وقامت القيامة وعلا الصراخ، وصارت أمي تولول وتقول: «الحمد لله ما سقط في بير المسطار لكان انسلق سلقاً».

وهربت مذعوراً في البساتين المجاورة خوفاً من العقاب، وكان جسمي وثيابي كلها مبللة بالعصير الدبق تلاحقني الزراقط والدبابير الى أن وصلت الى البيت فأدخلتني جدتي الى الغرفة التي تستخدم للاستحمام وغسلتني ملياً وغيرت لي ملابسي وحمتني من العقاب (هي جدتي لوالدي واسمها حبوبة الخوري صليبا، شقيقة المعماري والنحّات حبيب الخوري صليبا. أما جدتي لأمي، واسمها «غزالة» زوجة الحاج داوود، فلست أعرفها ولا والدتي تعرفها لأنها توفيت بسبب اشتراكات بعد ولادة أمي، وكانت شقيقات أمي الأكبر سناً يأخذن شقيقتهن الوليدة الى مرضعات من الجيران المسلمات لأنهن أكثر إنجاباً وبالتالي إدراراً للحليب من أجل إرضاعها منهن مع أطفالهن. ولذلك كان لها بين المسلمين أشقاء وشقيقات بالرضاعة كثر، وكانت على تواصل دائم معهم ومعهن).

•••

الزبيب صنعه أسهل من صنع الدبس والعرق. وكان جدي يختار دائماً كرماً لصنع الزبيب منه يدعى كرم «عين الدير»، لأن معظمه من العنب «الفضي»، وهو عنب أبيض عالي الشفافية شديد الحلاوة، يتقمر في أحد وجهيه عندما ينضج ويحين قطافه، فيصبح له «خدٌّ أبيض وخدٌّ ملون بلون بنِّي خفيف». وكانت العملية تبدأ بتسوية الأرض المقررة لسطح الزبيب عليها بصينية معدنية لكي تصبح على مستوى واحد. ثم يجري تحضير ما يسمونه «الصفوة»، وهي رماد الحطب الصافي المذاب بالماء الممزوج بزيت الزيتون، فيُقطف العنب ويُملّث (أي تنزع من العناقيد الحبات الذابلة أو العطنة)، ويغطس كل عنقود بمفرده في «الصفوة» ويسطّح على الأرض «المسهمدة» كما يصفونها بعد تسويتها بالصينية. العنقود الى جانب العنقود الى أن يغطي هذا العنب الأرض «المسهمدة» كلها. ويترك العنب مسطوحاً في العراء عدة أيام تلفحه الشمس في النهار ويلفحه الهواء في الليل الى أن يجف تماماً ويصبح قابلاً للنقل بأكياس الخيش الى المنازل حيث يجري تفريغه على بلس أو شوادر لفرطه حبة حبة ليصار الى خزنه للشتاء أو للبيع في أواني فخّارية.

أما صنع العرق فمعقد مثل صنع الدبس وأكثر، لأنه أيضاً بحاجة الى وقود

كثير ولا تنفع معه الطاقة الشمسية كالزبيب المسطوح في الهواء الطلق. ذلك أن صنع العرق يحتاج الى «كركة» أو غلّاية نحاسية مقفلة موصولة بإنبيق للتقطير. فمن العنب ما يقطّر تقطيراً ليصبح عرقاً، ومنه ما يخمّر تخميراً ليصبح نبيذاً.

وعملية التقطير بطيئة وتحتاج الى مواد أخرى مضافة كاليانسون الذي يعطي العرق طعمه اللذيذ، فإذا جرى تقطير العنب من دون يانسون فإنه يتحول الى ما يسمونه «سبيرتو»، وهي مادة من الكحول الخالص تستعمل للتعقيم في المستشفيات ولتطهير الجروح. وكان لدى والد زوجتي في جب جنين خمّارة لشيل السبيرتو فقط على مستوى صناعي مقامة على أرض مساحتها 650 متراً مربعاً في وسط البلدة. لكنهم عندما احتاجوا الى المال في انتخابات عام 1947 (انتخابات 25 أيار المشهورة تحت إشراف وزير الداخلية آنذاك كميل شمعون الذي صار رئيساً للجمهورية فيما بعد)، هدموا مباني الخمارة وباعوا حديدها وأوانيها النحاسية لإنفاقها في تلك الانتخابات. وبقيت طللاً دارساً على الرغم من موقعها الممتاز الى أن قررت وزوجتي في مطلع سبعينات القرن الماضي، قبل انتقالنا الى أوروبا بسنتين، بناء منزل سكني عليها، وهو المنزل الذي نستخدمه اليوم في زياراتنا الى لبنان، وهو مؤلف من طابق أرضي وفوقه شقتان كبيرتان، تقيم في الشقة السفلى منهما الآن والدة زوجتي. وتبلغ مساحة البناء فيها 250 متراً مع البلكونات، وللحديقة على الطرفين الشرقي والغربي من المبنى 400 متر مربع.

أقام والد زوجتي شكيب ملحم الفرزلي، وهو أكبر أخوته وتوفي بعدهم جميعاً، تلك الخمَّارة بعد عودته من العمل في الخارج حيث مارس التعليم عام 1927 في معهد «شنيللر» الألماني في مدينة القدس، وهو المعهد الذي انتقل بعد نكبة فلسطين الى البقاع الغربي حيث أسس مدرسة ناجحة في خراج بلدة خربة قنافار قبالة جب جنين ما زالت مدرسته تتوسع وتسدي للبقاعيين خدمات جليلة. وبعد القدس انتقل للتعليم في مدينة العمارة جنوب العراق حيث عملت أنا تالياً بعد ربع قرن من ذلك، وترك هناك أثراً طيباً.

كان العم شكيب متفوقاً في الرياضيات ودرس في الجامعة الأميركية في بيروت سنة واحدة على يد العالم اللبناني المعروف منصور جرداق، لكنه لم يكمل دراسته لظروف عائلية اضطرته الى الانقطاع عن الدراسة من أجل العمل لمساعدة والديه وبقية أشقائه. وفي القدس رغب في دراسة الموسيقى، واختار العزف على الكمان، واستعان لهذه الغاية بدروس خصوصية على يد الموسيقار المصري المعروف زكي أفندي مراد، والد الملحن منير مراد والممثلة والمطربة المصرية ليلى مراد، لقاء «شلن» فلسطيني واحد عن كل حصة درس، وهو الذي أشار عليه بنوع الكمان الذي يجب أن يشتريه، فبقي ذلك الكمان

لديه الى أن باعه بمبلغ محترم في أخريات حياته[1]. لكن العم شكيب ظلَّ، على الرغم من مسؤولياته العائلية بصفته كبير العائلة، مصرًّاً على دراسة الهندسة المدنية، فانتسب الى معهد بريطاني بالمراسلة ونال منه شهادة في الهندسة، لكن نقابة المهندسين اللبنانيين رفضت الاعتراف بها لأنه لم يكن يحمل شهادة البكالوريا العلمية في قسمها الثاني. ومع ذلك عمل مع مهندس معروف من القرعون هو أحمد فارس الذي كانت له أعمال ومقاولات في فلسطين قبل النكبة، وبعدها في لبنان، وانتقل مع أحمد فارس في منتصف الخمسينات من القرن الماضي الى قطر قبل سنوات من استقلالها، حيث عمل في الإشراف على ورش البناء والأعمال الهندسية. وفي منتصف الستينات انتقل الى الكويت حيث عمل في المضمار ذاته قرابة العشر سنوات قبل تقاعده في جب جنين. وكان رحمه الله رجلاً ظريفاً، حاضر البديهة، سريع النكتة، محبوباً من جميع الأقارب وأهل البلدة، متفانياً في خدمة أشقائه الأصغر سناً منذ أن كانوا في الجامعات الى حين وفاتهم، وكأنه والدهم وليس شقيقهم.

وعندما قمت بجولة في مرتفعات اسكتلندا عام 1986، تجولت في بعض معامل تقطير الويسكي فوجدت أن كركات التقطير لا تختلف عن كركتنا إلاّ بالحجم والنطاق، فهي أكثر عدداً وأكبر حجماً، لكنها مصنوعة من مادة النحاس ذاتها وتعمل حسب المبدأ ذاته. ولاحظت في معامل التقطير الأسكتلندية أن الويسكي المقطّر ينزل من الكركة مثل العرق الصافي بلون الماء، وقالوا لي إنه يكتسب لونه المعروف من البراميل الخشبية المصنوعة من خشب السنديان المجفف جيداً والمستورد من إسبانيا، حيث يُحفظ في تلك البراميل لسنوات عديدة فيفقد بالتبخر نحو ثلث حجمه. والإسم «ويسكي» مشتقٌّ من عبارة باللغة الأسكتلندية القديمة هي «إيسكي بار»، أي «ماء الحياة»، وكانوا مثلنا قديماً يعبِّئونه في جرار ودوارق فخّارية أو خزفية.

(1) زكي أفندي مراد هو إبراهيم زكي موردخاي من يهود الإسكندرية، حيث كانت عائلته تتعاطى تجارة الأقمشة، لكن زكي أفندي انتقل الى القاهرة وقرر تعلم الموسيقى والغناء فالتحق بالمعهد الأهلي للموسيقى الذي أسسه سامي أفندي الشوا ومنصور أفندي عوض. رشح منصور افندي عوض الذي كان مستشارا لإحدى شركات الأسطوانات الشاب زكي مراد لهذه الشركة فسجل أولى أسطواناته وكانت قصيدة « أراك عصي الدمع» من ألحان عبده الحامولي. لقيت تلك القصيدة نجاحاً باهراً فذاع صيته فتبناه أحد المتعهدين وزوَّجه ابنته التي أنجب منها ثلاث بنات وثلاثة صبيان من بينهم ليلى وموريس الذي اختار اسم منير بدلاً من اسمه الأصلي. وقد اختاره الشيخ سلامة حجازي ليقوم محله بأداء أدواره المسرحية والغنائية عندما أصابه الشلل في عام 1910، كما اختاره سيد درويش للقيام بدور سيف الدين في أوبريت « العشرة الطيبة»، وهي من انتاج نجيب الريحاني الذي لم يشارك في تمثيلها. وشارك ايضا في بطولة مسرحية كليوباترا ومارك انطوني بديلا عن محمد عبد الوهاب بعد خلاف بين عبد الوهاب ومنيرة المهدية. وهناك شيء غير معروف لكثيرين في عالم الصحافة اللبنانية، وهو أن زكي أفندي مراد هو الذي اكتشف موهبة سليم اللوزي الصحافية فقدمه لإذاعة الشرق الأدنى التي كانت تبث من فلسطين. وعندما ترك زكي مراد الإذاعة المذكورة أخذ سليم اللوزي معه الى القاهرة وقدمه الى روز اليوسف حيث بدأ حياته الصحافية في مجلتها التي حملت اسمها.

وعلمت في اسكتلندا أن الويسكي مشروب حديث العهد نسبياً، لأن الاسكتلنديين كانوا تقليدياً يشربون الكونياك الفرنسي، لتحالفهم التاريخي مع الفرنسيين ضد الإنكليز. لكن الحصار الذي فرضه نابليون بونابرت على الجزر البريطانية في مطلع القرن التاسع عشر، وانقطاع الكونياك بسبب الحصار، أجبر الأسكتلنديين على صنع بديل له من الشعير المخمّر قبل التقطير، لعدم وجود العنب في بلادهم بسبب الطقس.

العنب الجيد كان يجري تصديره ومنه على وجه الخصوص «العينوني»، وهو عنب أسود طويل الحبة لا يهترىء بسهولة و «يقرش» تحت الأسنان وكانوا يشبهونه بالملّول الذي هو ثمر شجر السنديان أو البلوط المستطيل، وكذلك «بيض الحمام» و «مخ العصفور» وهما من العنب الأبيض المائل الى الزرقة أو الخضرة وحبات عناقيدهما مكورة ومطعوجة لأنها متراصة على بعضها. وأهمية هذه الأصناف ليست فقط في كونها طيبة المذاق وجميلة المنظر، بل أيضاً في أنها تعمر طويلاً في الأسواق قبل أن تهترىء وتتلف. فالعينوني الأسود يمكن إبقاؤه في الهواء الطلق أو في السلة شهراً كاملاً من غير أن يدانيه أي تلف، وسماكة جلدته تمنعه من التشقق والتمعصر، فيبقى ناشفاً باستمرار. ولذلك كان يتحمل النقل الى الخارج بحراً الى مصر حيث كانوا ينادون عليه في أسواق القاهرة والإسكندرية: «قرعوني يا عنب». وكان أصحاب هذه الكروم في القرعون يسمونه «مأكول الباشاوات» ويقدمونه لزائريهم كأفخر ضيافة.

وعندما يحين القطاف كان أصحاب الكروم يوضّبون هذا العنب في «صحاحير» أو صناديق خشبية بعد لفّه بأوراق الكرمة الخضراء لحفظه من الاهتزاز، ويحمل المكارية تلك الصحاحير على البغال والحمير لنقلها الى صيدا أقرب ميناء بحري الى القرعون عبر الممر الجبلي بين مشغرة وجزين. وكان العنب القرعوني يباع الى التجار الصيداويين إما نقداً أو بمبادلته بجرار الفخار والأواني الخزفية وغيرها من الأدوات المنزلية، أو بقناني ماء الزهر المقطر من زهر البرتقال الذي كان وفيراً على ساحل لبنان الجنوبي، أو بالحلوى مثل «السنيورة» التي أعطت اسمها لرئيس الحكومة اللبنانية السابق فؤاد السنيورة، أو «الغريبة»، وأحياناً كانت تُبادل بالأقمشة والطرابيش والسلال والحصر والبسط وغيرها... من المفروشات المتوافرة في المدن. وكان من عادة باشاوات مصر وأغنيائها أن بعضهم بدل أن يذهب في الصيف الى فرنسا يأتي الى لبنان، وكانوا يفضلون الصيفية في مدينة جزين الجبلية على كتف مدينة صيدا الساحلية. فالقادمون بحراً ينزلون في صيدا، والقادمون براً يأتون مع خيلهم وعرباتهم وخدمهم عبر الساحل الفلسطيني. وفي أغلب الظن أنهم تعرفوا على العنب القرعوني في مصيفهم الجزيني أو عند مرورهم في صيدا. والى اليوم ظلت فنادق مدينة جزين تحمل أسماء مصرية، فهذا نزل «الأهرام»،

وذاك نزل «النيل» وما الى ذلك.

وذات مرة عندما تخطى جدي اسكندر سن السادسة عشر، أوفده والده ليقود على بغلة له حملاً من العنب الى صيدا مع مجموعة من شبان البلدة شكلوا قافلة للغاية ذاتها. ولدى وصولهم الى صيدا زيّن لهم أناس هناك أهمية السفر الى أميركا الشمالية حيث المال الوفير والثروة الجاهزة خلال وقت قصير، وكانت في ميناء صيدا سفينة تستعد للإبحار الى بيروت لتلاقي باخرة كبيرة متجهة الى نيويورك، فقرروا بيع عنبهم وبغالهم نقداً وركبوا السفينة الى بيروت ومنها الى نيويورك، وبعثوا الى أهاليهم بالخبر مع التجار. كان ذلك على الأرجح في العام 1889. ولم يكن أي منهم يعرف كلمة إنكليزية واحدة، هذا إذا كانوا يعرفون قراءة أي كلمة باللغة العربية. لكنهم توكلوا على الله وسافروا على جناح حلم الإثراء السريع في بلاد العم سام.

وعندما وصلوا الى أميركا بعد ثلاثة أسابيع، مروراً في ميناء مارسيليا الفرنسي، كان هناك مهاجرون سبقوهم، منهم من كان يحصل معيشته من استقبال السفن الآتية عبر البحار فيلاقي المهاجرين الجدد ويتدبر لهم إقامتهم ويرشدهم لشراء «الكشة» والبضاعة وكيفية التجوال على البيوت في الضواحي والأرياف القريبة لبيع بضاعتهم. ولما كان هؤلاء لا يعرفون وجهة قدوم الباخرة، لأن البواخر كانت تأتي الى أميركا من جميع أنحاء العالم، فكانوا كلما رست سفينة يصرخون بأعلى صوتهم: «عرب.. عرب»، فيسمعهم المهاجر العربي الغريب فيستأنس بهم في الغربة، ومنهم من كانوا يتشاركون معهم في التجارة، فيمدونهم بالبضاعة ويأخذون نصيباً من الأرباح. وهكذا تعرف جدي على مهاجر سبقه الى أميركا من بلدة «الكفير» في حاصبيا، تولى تدبير أموره وإرشاده.

وأمضى جدي في الولايات المتحدة خمسة عشر عاماً متواصلة جمع خلالها بعض المال وعاد الى لبنان في أواخر عام 1904، حيث تزوج بعدما كان قد بلغ من العمر أكثر من ثلاثين عاماً فولد والدي في عام 1906، لكن جدتي حبوبة رفضت العودة معه الى أميركا، لخوفها من ركوب البحر، ولأنها تحمل على يدها طفلاً رضيعاً، فرجع الى أميركا من دون عائلته، لكنه هذه المرة انتقل الى كندا حيث له أقارب في مدينة «وينيبيغ» بمقاطعة مانيتوبا، فبقي هناك قرابة خمس سنوات فاشتاق الى عياله، وعاد الى لبنان في عام 1913.

وفي ميناء بيروت كانت السلطات العثمانية تفرض على كل قادم شراء سندات خزينة للمجهود الحربي بقيمة ست ليرات عصملية ذهب، فاشترى سنداته ومضى. والملفت أنه ظل محتفظاً بتلك السندات الى حين لزم الفراش بعد تجاوزه سن المائة، وقد أراني إياها في إحدى زياراتي له، وندمت فيما بعد لأنني لم آخذها منه لقيمتها التذكارية ليس إلاّ، ولا أدري ماذا حل بها بعد وفاته

في غيابي. وفي العام التالي لوصوله الى بيروت نشبت الحرب العالمية الأولى وانقطع البحر، فقرر البقاء في القرعون واشتغل في الزراعة. وبعد عودته من المهجر أنجب صبياً آخر وأربع بنات.

وما زلت أتذكر الأشياء التي جلبها معه من أميركا وبقيت محفوظة في البيت، ومنها قناديل «الأوبالين» الفاخر التي تعلق في السقف، وساعة جيب ذهبية لها بيت من الجلد الناعم، ومسدس له قبضة من العاج من طراز «سميث أند ويسون» له بكرة تتسع لست رصاصات، و«أكورديون» موسيقي «يمغط» بفعل طبقات جلدية مطوية تتسع وتنغلق حسب حركة يد العازف، وله مفاتيح جلدية تتنقل عليها أصابع اليد، وله حزام لتعليقه في الكتف، وهو من فصيلة الأكورديونات الأثرية التي نشاهدها في أفلام الكاوبوي، وأيضاً مكبر للصور له إطار خشبي وعدسة كبيرة وشق يجري إدخال الصورة أو الوثيقة فيه لتكبيرها، وما الى ذلك من «الحراتيق» مثل آلات الحلاقة وقص الشعر فظل يقص شعر أحفاده الى أن دخلوا المدارس في المدن، ومثل آلات السكافة حيث كان يصلح ويرقع لنا أحذيتنا على السندان الأميركي. أما نشاطه ومبتكراته الزراعية فسوف أتحدث عنها لاحقاً.

VII

حصايد وقصايد

إذا كان موسم العنب يأتي في آخر الصيف، فإن موسم الحصاد يأتي في مطلعه بين شهري حزيران وتموز، وهو الآخر له مشقاته وطقوسه وترتيباته.

وفيما العنب يأتي من الجبل، فإن الحبوب من قمح وشعير وعدس وحمص وفول تأتي من السهل. وكما العنب مرتبط بالمعاصر فإن الحصايد مرتبطة بالبيادر. والوصول الى مرحلة البيادر أمر مرهون بالطبيعة وبالعناية بالأرض من حيث فلاحتها وتسميدها بالسماد الطبيعي، لأن الأسمدة الكيماوية لم تكن معروفة أو هي غير متيسرة، خصوصاً في زمن الحرب العالمية الثانية، أو حتى في الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين. ولا بد لأي فلاّح من أن يقتني أدوات ووسائل الفلاحة أولاً لكي يتمكن من حرث التربة على نحو صحيح قبل أن تستقبل المطر. وكان لدى جدي لهذه الغاية بقرتان وثور وحمار، والبقرتان واحدة منهما «حلاّبة» تُقتنى لحليبها، وتبقى مدللة، وكانت جدتي ترسلني أحياناً لرعيها في الحقول خلال العطل المدرسية في الربيع والصيف، وتطعمها التبن والحب المنقى في الشتاء لكي تبقى مدرارة بسخاء ولا تُسخّر في الأعمال الشاقة وكنا نسميها «الصبحة»، والثانية «فلاّحة» تُكدن بالنير الى جانب الثور لحرث الأرض. وإذا كان لبعضهم، مثل جدتي، بقرة حلاّبة ومدلَّلة، فإن أخذها للرعي في الحقول، أو على الطريق السلطاني حيث العشب وفير وطويل الساق، يُعهد الى أحد الأولاد في العائلة، أو يتم علفها في البيت، خصوصاً في الشتاء. لكن كثيرين من الفلاّحين كانوا ينتدبون شخصاً لهذه المهمة يسمّونه «راعي العجَّال» مهمته أن يجمع الأبقار والعجول من الأهالي وينزل بها الى السهل كقطيع واحد بغية الرعي، ثم يأخذها ظهراً الى النهر لتشرب وتقيل قليلاً قبل العودة بها الى القرية وإعادة توزيعها على أصحابها.

وفي بعض القرى كان العجَّال يعود من الرعي ناقصاً عجلاً فيذهب أصحابه الى السهل للبحث عنه لعله شرد من القطيع وتاه، أو اقتاده أحد اللصوص في غفلة من الراعي. وقد حدث مثل ذلك في بلدة جب جنين في أواخر الحكم العثماني، كما حكوا لنا، عندما كمن أحدهم للعجَّال ذات مساء واستفرد عجلاً

في مؤخرة القطيع فاستدرجه وسرقه. وعندما تكررت تلك الحادثة، كمن الأهالي لسارق العجول وقبضوا عليه، وسلَّموه الى مدير الناحية ويُدعى «أشرف بيك»، وكان قاسياً له سطوةٍ وهيبة، فجمع الأهالي في ساحة القرية بشكل حلقة وبطح سارق العجول أرضاً أمام أعينهم وأمر عساكره بأن يمدّوه فلقاً ليكون عبرة لهم. وقد سمَّى الجب جنينيون ذلك الشخص «بو عجول» فلبسه اللقب وعائلته أيضاً من جيل الى جيل.

وعندما كنت أذهب ببقرة جدتي الى الطريق السلطاني كانت توصيني بأن لا أربط الحبل الذي أجرها به الى خصري لئلا تهرب وتجرني خلفها على الأرض المليئة بالحجارة والأشواك، كما حدث مع ولد من البلدة اضطر أهله الى نقله للمعالجة في بلدة أخرى. ذلك أنه توجد في السهل حشرة طائرة يسمّونها «القيقوبة» التي تلسع البقرة أحياناً في مكان حسَّاس من مؤخرتها فيجن جنونها وتطلق قوائمها للريح وتظل هاربة بأقصى سرعتها لا تلوي على شيء. فالبقرة التي تصاب بذلك يقولون عنها إنها «مقيقبة»، وهذه صفة يطلقها الأهالي على كل شخص يكون هائجاً ومسرعاً ومتهوراً وسريع الغضب، ولا سيما على النسوة اللواتي يكنَّ هائجات أو فاجرات أو مسرعات فيقولون عن الواحدة منهن إنها «مقيقبة».

وفي عملية الحرث يُربط النير المعلق فوق رقبتيٍ الثور والبقرة الفلاّحة الى محور خشبي موصول بدوره بمقبض خشبي أيضاً في طرفه السفلي محراث حديدي نسميه «السكّة». ويغرز الفلاّح السكّة في الأرض و«يزغت» الثور بعصا في رأسها مسمار تدعى «المسّاس» ليحثه على السير في خط طولي مستقيم يسميه الفلاّحون «الثلم». وهكذا ذهاباً وإياباً لتكتمل فلاحة الحقل. وهذا الثنائي من البقرة والثور يسمونه «الفدّان» نسبة الى مقياس مساحة الأرض التي يُفترض فيه نظرياً أن يفلحها قبل تسريحه من الخدمة اليومية في موسم الحرث قبل أن ينتصف النهار. والثلم يجب أن يكون مستقيماً تسهيلاً للحصاد فيما بعد، ولذلك يضرب الفلاّحون به المثل إذا تحدثوا عن زعماء ورؤساء فاسدين بقولهم: «الثلم الأعوج من الثور الكبير»، وهو مشابه للمثل الذي يطلقه الصيادون من أهل الساحل بقولهم إن السمكة تفسد من رأسها. فاعوجاج البلاد وترديها مردهما الى أن «الثيران الكبيرة» لا تسير في خط مستقيم. وبعد انتهاء الفلاحة والحرث، تأتي مرحلة البذار، فيحمل الفلاّح على كتفه «خُرجاً» مليئاً بالبذار فيمشي بمحاذاة الثُلُم ويرش فيها البذار[1] ويُنصِّب على أطراف الحقل «خيالات» تمنع الطيور من الهبوط فيه لنقودة ما بذره. وعندما تترطب

(1) أما في بساتين الأشجار المثمرة، فيغرس الفلاح في العادة صفاً واحداً من «النصب» أو «الأغراس» يسمى «دياراً». فيقولون: «جل بديار وجل بديارين». اي عريض يتسع لصفين من الاغراس. وفي حقول الخضار توزع الشتلات على مسافات محددة، والمسافة بين النبتة والاخرى يتوقف على نوع النبات المشتول.

التربة برذاذ المطر يعلق البذار ويصير نباتاً نامياً. وأن يعلق البذار أو الغرس في التربة، ويتجذّر فيها، أمر بالغ الأهمية يُطلق أيضاً على البشر بالنسبة الى أوطانهم. وقد وصف ذلك أبدع وصف عبد الرحمن الداخل، المعروف باسم «صقر قريش» مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، بقوله في معرض تشبيه نفسه بغرسة النخل:

لو أنها علقت، إذن لبكت، ماءَ الفرات ومنبتَ النخلِ
لكنها حُرمت، وأبعدني بُغضي بني العباس عن أهلي

•••

كل يوم كان الفلاّحون يتطلعون الى السماء ليقفوا على حالة الطقس، لأن رزقهم ومعيشتهم مرتبطان بها. والكبار منهم كانوا يزعمون أنهم يستطيعون قراءة الطقس المقبل من خلال ما يسمونه «البواحير»[2]، ليقرروا خطواتهم اللاحقة، وبعضهم كان يعتمد على ما كانوا يسمونه «المستقرضات». لكن جدي لم يكن يصدق ذلك أو يعتمد عليه، ربما لأنه متأثر بالتجربة الأميركية التي عاشها، ولذلك لست الى اليوم أعرف ما هي «البواحير» وكيف يمكن تبيُّن حالة الطقس من خلالها.

وعندما تخضرّ الحقول وينمو زرعها، وتنفرج الأسارير ويغني الأطفال ترنيمة الربيع: «نزرع قمح والفول/ ويكبر زرعنا»، لم تكن تلك الحقول المخضرّة تُترك بانتظار المناجل، فكانت النساء تنزل الى الحقول لتعشيبها، أي لانتزاع العشب البري من بينها لئلاً يطغى عليها ويُسقمها. وما يصلح للأكل من ذلك العشب يُفرز ويُطبخ، مثل «العنّة» التي تُسلق وأكلتها تُسمى «العصّورة»، و«البلعصون» الذي يؤكل مطبوخاً مع الحمّص، و«العكّوب» الذي يؤكل مقلياً ملتوتاً بالطحين والبيض، و«الحلبلوب» الذي يطبخ مع البرغل، و«الهندبة» التي تقلى مع البصل والثوم، و«البقلي» أو «الفرفحين» الذي يؤكل في السلطة أو

(2) في كتابه «العادات والتقاليد اللبنانية» (الجزء الثاني) اعطى لحد خاطر تفسيراً لـ «البواحير» قال: (...)» عندهم ما يعتقدونه ادلة على ما قد يقع في عامهم المقبل من صحو او مطر ورخص وغلاء. وهذه الادلة تسمى في اصطلاحهم «البواحير» او «الصليبيات»، وموعدها الاثنا عشر يوماً التي تبدأ يوم عيد الصليب (14 أيلول)، فمنهم من يرقب النجوم مساء هذا اليوم ويستدل من حركاتها ومظهرها على ما يتوخى معرفته من الاحداث المخبأة في عالم الغيب. ولكن العلم اثبت بطلانها وقلل كثيراً من عدد الذين يؤمنون بها وجعل العقلاء يتناسونها ويعرضون عنها. وطريقتهم في اعتماد «البواحير» او «الصليبيات»، (وهي معروفة عند العرب بـ «القماقم») ان يحسبوا يوم العيد لشهره، اي ايلول، وكل يوم من الايام التالية لشهر من اشهر السنة بالترتيب ثم يعتبروا كل آونة منه ليوم من ايام الشهر الذي يقابله، زعماً منهم ان حالة الطقس في هذه الآونة تكون مطابقة لحالة الطقس في اليوم الذي يدل عليه.

ومن حساباتهم ان يأخذوا عشية العيد اثنتي عشر ورقة تين او توت، ويشدونها الى قضيب يضعونه على سطح او ينيطونه بجدار، حيث يكون معرضاً لسقوط الندى، ويخصون كل ورقة بشهر ابتداءً من ايلول، ثم يبكرون في الغداة لفحصها، فما كانت منها جافة يكون شهرها جافاً، وما كانت منها رطبة طرية كان شهرها كذلك (...).

الفتّوش، و«الخبّيزي» الذي يسلق ويعصر ويتبّل، و«الحمّيض» الذي يضاف الى الطبخ فيعطي الطبخة نكهة الحامض، وكنا نحن الأطفال نتلذذ بعلكه نيئاً لنمتص منه العصارة الحامضة، وما الى ذلك. أما غير الصالح للأكل منه فيطعم للأبقار. وكانت تلك النباتات الصالحة للأكل تسمى باسمها الجمعي «السليقة»، وعملية اقتلاعها من الأرض وجمعها في السلال تسمى «التسليق». فإذا دعت امرأة جارتها الى «التسليق» تقول لها: «أتذهبين لنُسلِّق؟».

إن صفة «الحصيد» تطلق على القمح وحده، لأن ساقه طويل ويمكن حصده بالمنجل، وهو نوعان: المنجل الطويل المسنون الذي يستخدم في حصد القمح الممشوق والكثيف، وهو يحتاج الى زنود قوية ومتمرسة للعمل به، والمنجل القصير الذي يسمونه «الزوبر» ويستخدم في قص المتروكات الخفيفة أو «الدلِّيلة» بلغة الفلاّحين، لكنه لا يستطيع قص «الشميلات» الكثيفة، وهو عادة وسيلة النساء في العمل الزراعي لأنه لا يحتاج الى زنود قوية. والحاصد بالمنجل الكبير يقص قصب القمح بمنجله ويتركه ملقياً على الأرض وراءه للسرعة، فيأتي النساء والأولاد من بعده ويلمّونه ويشمِّلونه شميلات شميلات، ثم يُجمع أغماراً ورزماً تسهيلاً لتحميله فيما بعد. حيث توضع تلك الشميلات في شبك يشد على ظهر الحمار بشبكتين متوازنتين، على طريقة تحميل «البلاّن» السابق ذكرها. وكما في رجد العنب الى المعصرة، كانت مهمتي أيضاً رجد القمح الى البيدر[3]. ومن ليس في بيته أولاد يقومون بهذه المهمة فإنه يستعين بأولاد الآخرين لقاء كمية من القمح، ويسمونه «الراجود» أو «الأجير».

أما بقية الحبوب المزروعة كالشعير والعدس والحمص و«الباقية» و«الكرسنّة»، فإنها «تُحلش» حلشاً باليد لأنها قصيرة الساق وملتصقة بالأرض وليست كالقمح شامخة في الهواء. فالحصيد شيء والحليش شيء آخر، وكل منهما على بيدر لئلا يختلطا. أما الفول، وهو نبات طويل الساق، فإنه يقطف قطفاً ويترك ساقه في الحقل لترعاه الحيوانات أو لحرقه في مكانه على سبيل التسميد للمواسم المقبلة. وعندما كان جدي يزرع الفول كنا ننزل الى الحقل عندما ينضج فوله لنأكل منه طرياً قبل أن يجف ويصلب في أرضه أو «على أمه» كما يقول الفلاّحون، وكنا على وجه الخصوص نفتش بين نبتات الفول الخضراء على نبتة معينة مرافقة للفول لكنها قليلة جداً نسميها «الحيص»، وهي عبارة عن نوع من البازيلا البريّة، لذيذة سكريّة الطعم، وثمرتها أرق من ثمرة الفول وأطرافها مسننّة بأسنان خفيفة، بينما ثمرة الفول ملساء. والفول الذي كنا

---

(3) اللفظة آرامية Bet Draya اي مكان التذرية. والبيدر ارض مستديرة ممهدة تحيط بها دائرة من حجارة غشيمة. وارض البيدر قاسية، جافة، تحدل بالمحدلة قبل فصل الدراسة، ويفضل انٍ ينمو فيها «التّيل» وبعضهم يسمونه «التّيول» أو «النعص» الذي يمسك وجه الارض مسكاً شديداً. وبالقرب من البيدر سهلة تُعَرّمُ فيها اكداس الحبوب. وعلى الرغم من ان البيدر خاص فان كثيرين يشتركون في دراسة حبوبهم لقاء أجر زهيد أو أحياناً كثيرة من دون مقابل.

ننتجه حبته صغيرة، يختلف في الطعم وفي الحجم عن الفول الأخضر الشائع اليوم الذي كنا نسميه «الفول القبرصي» وأظن أنه لا يُزرع بعلاً مثل فولنا، بل هو بحاجة الى سقاية، وهذا على الأرجح سبب ضخامة ثمره، بالإضافة الى الأسمدة الكيماوية.

والحالش كالحاصد يحتاج الى ارتداء كفٍّ أو قفاز جلدي في يده اليمنى لئلا تتقرح. وهذا لا بد منه بشكل خاص في حليش الشعير وحليش الحمّص. الأول لأن ساقه قصبي كالقمح وشعيرات سنابله قصيرة وسميكة، والثاني لأنه يفرز على ورقه مادة حمضية كاوية.

•••

بعد نقل القمح المحصود بكامله الى البيادر، يخلِّف الحاصدون وراءهم هنا وهناك، بسبب السرعة، سنابل منفردة على الأرض أو سنابل واقفة غير محصودة لكونها على الأطراف بين الحجارة أو الصخور ويتركها الحاصد كي لا تثلم الحجارة منجله المسنون، فينزل بعض الأهالي الى الحقل المحصود، وخصوصاً الأرامل أو الذين ليس لديهم أرض يزرعونها، ويلملمون تلك السنابل المنفردة واحدة واحدة ويجمعونها في أكياس صغيرة يحملونها على ظهورهم أو أكتافهم الى بيوتهم لفرطها وانتزاع الحبّ منها. وهذا يسميه الفلاّحون في البلدة «البعورة». فالمبعورون يتبعون الحاصدين على الفور، ومن «سبق شمّ الحبق» على القول القروي الشائع. وفي اعتقادي اليوم، وباستذكار ما كان يحدث في هذا المجال، أن الحاصدين كانوا يتعمدون ترك شيء لغيرهم كجزء من الثقافة المسيحية الخيرية، فتحفظ كرامة العاطي وكرامة المعطى اليه، من غير أن يعرف أحدهما الآخر، لأن العاطي الحقيقي هو الطبيعة أو الله.

وأتذكر الآن أيضاً أن «البعورة» لم تكن تقتصر على حصاد القمح، بل كانت أيضاً تشمل قطاف العنب. ذلك أن قاطفي العنب لأي غاية كان، سواء للتدبيس أو لشيل العرق أو للبيع للأكل، كانوا يتعمدون ترك خصل العنب الصغيرة غير المنتظمة في عناقيد كبيرة على دواليها، ليأتي من يأتي بعدهم لقطفها.

ولما لم تكن في البلاد آنذاك كهرباء، والحرارة في موسم الحصاد على أشدها، كان أناس من بلدة «مرستي» في الجبل الغربي المقابل يأتون الى سهول القرعون في ذلك الموسم ومعهم حمير محمّلة بأكياس من الثلج المخزون في أعالي الجبل، حيث كان أهالي مرستي يحفرون حفراً عميقة في أعلى الجبل لتمتلىء بالثلج في الشتاء، فيغطون تلك الحفر بالخيش أو بالبلاّن لتدوم الى حزيران وتموز، فيأتون بها الى الفلاّحين في السهل لمبادلتها بالخبز أو بالقمح أو بأي غلال أخرى. وهذا الثلج النادر في بلاد ليس فيها كهرباء وفي عز الصيف الحارق، له أيضاً طقوس عند الفلاّحين في القرعون. فكانوا متى حضر الثلج يصنعون شراباً عظيماً اسمه «البقسما»، حيث يأتون بطشت واسع فيدلقون

فيه كمية وفيرة من دبس العنب ويصبون فوقها الماء الصافي ليذوب الدبس فيه، ثم يضعون فوقه الثلج المخزون في الجبل والمنقول على ظهور حمير مرستي، فيصير هذا المزيج شراباً منعشاً ومبورداً هو أشبه بالكوكا كولا اليوم، لكنه ألذ طعماً وأفتح لوناً بقليل. وقد انقرضت هذه العادة الأزلية في مطلع ستينات القرن الماضي عندما قرر الرئيس فؤاد شهاب كهربة كل لبنان، فانتشرت البرادات والثلّاجات في البلاد، ومعها الكوكا كولا بدلاً من «البقسما».

والواقع أن الكهرباء مدت في القرعون قبل قليل من مشروع فؤاد شهاب، عندما عاد مغترب من آل عميص من إفريقيا وأخذ رخصة لمشروع الكهرباء بتوليدها من ماء نهر الليطاني الدافق يومها قبل إنشاء السد على يد الرئيس كميل شمعون والوزير سليم لحود والد السياسي نسيب لحود، ثم تحوّل توليد الكهرباء من الماء الى المحركات العاملة بالمازوت مع تزايد الاستهلاك، من جهة، وشح مياه النهر من جهة ثانية لتزايد ضخ الماء منه لأغراض الري في البقاع الأوسط. وما زلت أتذكر المتعهد الذي جاء الى القرعون لمد شبكة الكهرباء في مطالع الخمسينات ويدعى «أبو نعّوم»، وهو رجل قصير القامة، ضخم البطن، كث الشاربين، يرتدي الشروال والطربوش، وكان الأطفال يلحقون به من قبيل الفضول لمعرفة ماذا يفعل بغرز العواميد في الشوارع ومد أسلاك نحاسية فوقها.

•••

الشغل على البيادر يصبح فيه للصغار دور ملحوظ. فهم الذين «يدرسون» الحصيد بالطريقة التي يدرسون فيها فروضهم المدرسية بتنعيمها. فالأحمال المنقولة من الحقول توضع فوق بعضها البعض ويسمونها بعد هذه العملية «الكديس»، لأنها مكدسة فوق بعضها. ويأتي صاحب الكديس وفي يده الة يسمونها «العثريّة»، وهي عبارة عن عصا خشبية طويلة وغليظة وفي رأسها مشط من الحديد له أسنان طويلة ومتباعدة ومحدّبة قليلاً، فيُنزل بها من أعلى «الكديس» كمية من جذوع القمح المسنبل ويلقيها على أرض البيدر بشكل دائري حول محيط الكديس بغية تنعيمها لينفرط الحب من سنابلها. ثم يأتي بالفدّان المكدون بالنير وبدل أن يربطه بالسكة كما في الفلاحة، فإنه يربطه بما يسمونه «المورج» أو «النورج»، وهو عبارة عن لوح خشبي قوي مستطيل وسميك وفي أسفله ثبتت قواطع حديدية أو صخرية صغيرة ذات وجه خشن أو مسنن لكي يقطع القش الى قطع صغيرة ويتمكن من فرط الحب من دون كسره، وفي الوقت ذاته تفرم سيقان القمح لتحولها الى تبن وأَصَل. ويجلس ولد يسمونه «الداروس» أو يقف على «المورج» ويدور به فوق القمح الملقى على الأرض حول «الكديس» الى أن يتأكد من تنعيمه. ثم يأتي صاحب البيدر بعثريته ليلقي فوق القمح المنعّم طبقة جديدة من قصب القمح ليدور عليها الداروس

كما تدور الرحى، وهكذا الى أن يكتمل درس الكديس كله.

ولأن عملية «الدرس» طويلة ومملة ورتيبة وتدوِّخ الداروس بفعل الدوران، كان الدواريس على البيادر المتجاورة وهم يدورون بموارجهم حول الأكداس يغنون ويتقاولون لتقطيع الوقت. وأتذكر من تلك المرحلة التي عملت فيها داروساً على بيدر جدي اسكندر، ردة واحدة شهيرة، حيث كان يقول داروس ما: «والداروس بدو عروس»، فيجيبه آخر من بيدر مجاور: «على قدّه وعاطوله»، وهي مسلسل طويل من هذا النوع من الرجز الذي يصف حياة أولاد الفلاّحين وطموحاتهم وهمومهم، بما في ذلك أراجيز شبه دينية أذكر منها واحدة يقول فيها الأول: «دورعكّي يا دورعكّي»، فيرد عليه الآخر: «أنا رايح عامكّي». وهكذا الى أن يحين موعد التذرية لفصل الحب عن القش.

وكان الفلاّحون يضعون على فم الثور أو الحمار الدارس على البيدر آلة تشبه الكمّامة يسمونها «القنتلة» لمنع الحيوان الدارس من أكل الإنتاج، فيبطر ويتكاسل.

وكنت ألاحظ أن النمل يأتي الى البيدر أرتالاً فتحمل كل نملة من ذلك الرتل حبة قمح واحدة أكبر منها حجماً، فنقلت هذه الملاحظة الى والدتي فأجابتني: إن أمثال سليمان تقول في التوراة: «إذهب الى النملة أيها الكسلان، تعلم طرقها وكن حكيماً». ثم قالت لي: «هناك قصة رمزية تعبر عن هذا الأمر هي قصة النملة والصرصار. ففي موسم البيادر تأتي النملة اليها تحمل منها مؤونتها وتذهب بها الى أعشاشها تخزنها تحسباً لبرد الشتاء المقبل، بينما الصرصار يقضي وقته في الزعيق بصوت مستمر يصم الآذان. وعندما جاع في الشتاء ولم يجد ما يأكل ذهب الى النملة ليستعير منها غذاءه، فسألته النملة: وماذا كنت تفعل في أيام الحصايد، فقال لها: كنت أغني القصايد. فقالت له: إذهب، إذن، وكل من قصايدك». وفي المدرسة تالياً علمنا أن تلك الأقاصيص والحكايات نظمها شعراً شعراء كبار أمثال لافونتين الفرنسي وأمير الشعراء العرب أحمد شوقي، ومن ذلك أتذكر جزءاً من قصيدة تقول:

وقف الهدهد في	باب سليمان بذلّة
قال يا مولاي كُنْ لي،	عيشتي صارت مملّة
متُّ من حبة برٍّ	أحدثت في الصدر غُلّة
لا مياه النيل ترويها	ولا أمواه دجلة

فقال سليمان جواباً عن ذلك:

ما أرى الحبّة إلاّ	سُرقت من بيت نملة

•••

لا أذكر أن جدِّي الآخر الحاج داوود اشتغل في الفلاحة في طفولتي، لأنه لم يكن لديه معين في بيته سوى خالتي لطفية التي بقيت من دون زواج، فجميع بناته الأربع الأخريات كن متزوجات، ومنهن من كنّ خارج القرعون، مع أنه كان

يملك أرضاً محترمة في السهل وفي الجبل وبالقرب من محيط البلدة، وأهمها العامري، ومنها «البستان» الذي كان فيه كرم عظيم من العنب «العينوني»، بالإضافة الى كرم «السرج» في منخفض جبلي خصب الى الشمال الغربي من البلدة كان يستخدم لإنتاج الزبيب، والى قطعة أصبحت الآن ضمن المنطقة المبنية جنوب القرعون تدعى «المزرعة» أو «ورا المعصرة» (وهي غير المعصرة التي تحدثت عنها سابقاً وتقع في الطرف الشمالي من البلدة)، وقطعة أخرى الى جنوبها أيضاً تسمّى «وادي صماد» تم عند طرفها الجنوبي الشرقي اكتشاف نبع ماء كان شحيحاً جداً، مع أنه تم حفر مجرى له في بطن التل الملاصق. وأظن أنه جف نهائياً فيما بعد.

وما أذكره أن جدي الحاج داوود كان «يضمّن» أرضه الى أحد الفلاّحين ليتولى زرعها فيعطيه «الضمّين» في الموسم ربع إنتاجها ولا يسهم في أي كلفة. وهذا ما يسمونه «المرابعة»، على أساس الربع لصاحب الأرض، والربع للفلاّح العامل، والربعان الآخران للتكاليف (العلف والبذار وما الى ذلك). وكان آخر مرابع لجدي على ما أذكر شخص اسمه أحمد حمدان الذي كانت تربطه به علاقة شرف وثقة، وأظن أنه بقي يزرع تلك الأرض حتى بعد وفاة جدي وبقاء خالتي لطفية لوحدها في البيت. وكانت خالتي هذه على علاقة أخوية وطيدة مع بيت محمد القرعاوي والد الشيخ قاسم، ومع أقارب لهم منهم صديق لي وزميل في المدرسة الابتدائية هو عبدو أبو زيد الذي احتضنها في شيخوختها وماتت في بيته عن عمر يناهز التسعين سنة، وخرجت جنازتها من ذلك البيت الوفي. ثم ما لبث عبدو أن فارق الحياة مبكراً بسبب المرض، وكان مرشحاً بدعم من عائلتنا كلها على رئاسة البلدية في عام 2004، لكنه خسر تلك الانتخابات بعدما رفض تسوية ائتلافية يكون فيها نائباً للرئيس.

وكما أشرت سابقاً، هاجر جدي الحاج داوود في شبابه الى البرازيل في زمن الامبرطورية العثمانية. ومن الحكايا المتداولة بهذا الشأن أن أول رئيس منتخب لجمهورية البرازيل الاتحادية، بعد الانقلاب العسكري على الملك البرازيلي البرتغالي دون بيدرو الثاني على يد الماريشال ديودورو، ثم إعلان الجمهورية ووضع دستور لها على غرار الدستور الاتحادي للولايات المتحدة، قام بزيارات خارجية يستحث الدول التي زارها على فتح باب الهجرة الى البرازيل بهدف إنماء وتطوير تلك البلاد المترامية الأطراف الكثيرة الخيرات. وهذا الرئيس الدستوري الأول في البرازيل اسمه «برودانتي» (هو الرئيس الثالث للبرازيل، لكنه أول رئيس دستوري مدني في أواخر القرن التاسع عشر)، فكانت زيارته الأولى الى اليابان فلبّاه اليابانيون الى درجة أن الجالية اليابانية اليوم هي أكبر جالية هناك ويبلغ تعدادها نحو 15 مليون نسمة، تليها الجالية اللبنانية ـ السورية التي يبلغ تعدادها نحو 10 ملايين. وزار أيضاً استانبول عاصمة

السلطنة العثمانية للغاية ذاتها، فكانت الموجة الأولى من الهجرة اللبنانية ـ السورية الى هناك. ولذلك ظل البرازيليون الى أمد قريب جداً يطلقون على مهاجري بلاد الشام من لبنانيين وسوريين اسم «توركو»، باعتبارهم من الرعايا الأتراك في ذلك الزمان.

والغريب في الأمر أن ولديه زهران وفايز هاجرا الى ولاية «ساسكاتشوان» في كندا، ولم يهاجرا الى البرازيل أسوة بوالدهما، فعاد فايز الى لبنان بعد الحرب العالمية الأولى ثم رجع الى كندا بعد الحرب العالمية الثانية، وبقي زهران هناك ولم يعد الى زيارة لبنان أبداً. ويبدو أن هجرة جدي الحاج داوود، مثل هجرة جدي اسكندر، لم تكن قصيرة بدليل فارق الأعمار بين الولد البكر وبين بقية الأولاد. فالفارق بين والدي وبين عمّي لا يقل عن أربعة عشر عاماً، وكذلك الفارق بين خالي زهران وبين والدتي، حيث يزيد على عشرين سنة. وكانت والدتي تقول لي إنها لا تعرف شقيقها زهران وتعتقد أنه إما سافر الى الخارج قبل أن تولد، وإما وهي طفلة قبل أن تتكون ذاكرتها.

وعندما زرت البرازيل في عام 2004، وفي طريقي الى الجنوب حيث منطقة شلالات «فوس دي غواسو» الشبيهة بشلالات «نياغارا» الأميركية لكنها أعرض منها كثيراً، بت ليلة في الطريق في مدينة تدعى باسم الرئيس البرازيلي الدستوري الأول الذي فتح باب الهجرات الى بلاده، وهي مدينة «بريزيدانتي برودانتي»، وفيها التقيت مصادفة طبيباً شاباً من أصل لبناني اسمه حسب البطاقة التي قدمها لي «مارسيللو ليموس»، أي بالعربي مارسيل نعمه، واسم والده جريس نعمه. وتقع منطقة الشلالات هذه على الحدود بين البرازيل والأرجنتين والباراغواي، حيث يفصل جسر فوق النهر الدافق من الشلالات بين أراضي البرازيل وأراضي الباراغواي. وفي جهة الباراغواي توجد جالية لبنانية كبيرة، ومنها جالية لا بأس بها من القرعون قمت بزيارتهم في محلاّتهم التجارية، لكن هذه الجالية اليوم أقل ازدهاراً مما كانت عليه من قبل، وبعضهم الآن يقيم على الجانب البرازيلي ويذهب كل يوم عبر الجسر للعمل في محلاته على الجانب الآخر من الحدود. كما أن لي أقارب من آل الفرزلي في «أسانسيون»، عاصمة الباراغواي، تختلف أعمالهم عن أعمال الجالية الحدودية، لأنهم يعملون في الصناعة والمصارف ولا يعرفون شيئاً عن لبنان أو عن أصولهم فيه وهم على العموم في غير هذا الوارد ولا يعرف أي منهم كلمة عربية واحدة. لكن عفاف زوجة أخي المقيم في البرازيل، وهو الخوري نقولا راعي الجالية الأرثوذكسية في مدينة «سان خوسيه دي ريو بريتو» (أي القديس يوسف على النهر الأسود)، وهي في ولاية ساو باولو، اصطحبت معها الى لبنان في عام 1993 زوجة أحدهم، وتدعى «دونا نيديا» ولذويها مصرف في أسانسيون، وذلك لحضور أربعين والدتي في كنيسة القرعون برعاية المطران

اسبيريدون خوري، مطران زحلة، حيث التقيتها لأول مرة. وكانت تلك الرحلة الى البرازيل والباراغواي من أجمل الرحلات التي قمت بها في حياتي الى العالمين القديم والجديد.

•••

لعملية التذرية على البيادر ارتباط تام بحركة الطبيعة، لأنها لا تتم إلاّ إذا «طلع الهوا»، كما يقولون. وهبوب الهواء أمر حاسم لفصل الحَب عن القش، لأنه أخف وزناً من الحب فيذروه الهواء بعيداً ليبقى الحَب في مكانه. وتتم عملية «الذري» أو «الذراية» أو «التذرية» باليد باستعمال «المذراة»، وهي عبارة عن عصا طويلة وغليظة مثل عصا «العثرية»، لكنها تختلف عنها من حيث أن المشط في طرفها أصابعه خشبية مصقولة وأقرب الى بعضها البعض قليلاً. ويقوم المذرِّي بغرز المذراة في كومة القمح المدروس ناعماً ويرفع خليط القمح والقش في الهواء ليذروه في الاتجاه الآخر وهكذا الى أن ينتهي ذري الكومة كلها. وتتوقف العملية إذا استكان الهواء بانتظار أن يهب من جديد. وبعد تجميع حب القمح الخالي من القش يصبح اسم تلك الكومة من القمح الصافي «العرمة» بدلاً من «الكديس». و«العرمة» اسم معنوي للتفضيل عند الفلاّحين، فيقولون مثلاً إنه أعطاه أجره أو حقه أو نصيبه «من رأس عرمة»، أي كانت له الأفضلية أو الاعتراف بالأحقية.

وعندما يبدأ عد القمح الصافي بالكيلة الخشبية، وهي عادة «نصف مد» أو «ثمنية»، بغية إحصاء الإنتاج ومقارنته بإنتاج السنوات السابقة، ووضعه في أكياس الخيش أو في «العديلة» وهي أكبر من الكيس العادي ومصنوعة من شعر الماعز الأسود الذي يصنعون منه البلس والخيام، يبدأ جدِّي بالعد قائلاً عن أول كيلة «بركة» والكيلة الثانية «من الله»، ثم ثلاثة وأربعة وخمسة الى آخره. فليس عنده واحد واثنان، بل «بركة» «من الله». وعلى هذا المنوال أيضا عد كل إنتاج من أي نوع.

وبعد تعبئة القمح بالأكياس ونقله الى البيت، أو بيع كميات منه بأرضه، أي وهو على البيدر، تعاد عملية التذرية من جديد لفصل التبن عن «الأصَل». فالتبن الناعم يذروه الهواء بعيداً عن «الأصَل» الذي يبقى في مكانه لأنه أثقل وزناً.

ويعبأ كل منهما في أكياس كبيرة تسمى «الخيشة»، وهي تعادل على الأقل سعة كيسين أو ثلاثة من أكياس الخيش العادية. وينقل التبن الى «التبّان»، وهو عبارة عن غرفة واسعة في الطابق السفلي لها فتحة في سقفها مفتوحة على غرفة المونة في الطابق العلوي ويسمونها «المنبج»، ولها سلّم ننزل منه الى التبّان لملء كمية منه لإطعام الحمار والأبقار. أما الأصَلية فإنها تستخدم في صنع لطاطيع الزبل كوقود. ويسمّى الزبل الممزوج بهذا القش قبل لطعه على الجدران ليقسى ويتيبس: «الخضير»، أي المادة الخضراء. أو هو يفرش تحت

الأبقار لترقد عليه داخل «الباكية»، فتدفأ في الشتاء، وتأكل منه إذا شاءت، ويمتص بولها فتبقى الأرض نظيفة، وإذا نزل عليه روثها يصبح خضيراً بطبيعة الحال فيوفر مشقة المزج المرافقة لجمع الروث في الفناء الخارجي ومن الطريق.

وعندما يبلغ القمح نضجه وهو أخضر قبل اصفراره وتيبسه، تقتطع منه شميلات وتجدل مع بعضها وتوضع سنابلها في النار لتشوى. وكانت والدتي بعدما تشوي السنابل تمسك بها من جديلتها وتفركها على الغربال فوق طبق مستدير من القش، فينزل القمح المشوي من عيون الغربال الى الطبق ويبقى على سطحه القشر والحسك. وهذا القمح المشوي يسمونه «الفريكة» التي تستخدم في الطبخ عوضاً عن الرز أحياناً. وقد عادت «الفريكة» اليوم تنتشر في الأسواق التجارية في مدن العالم معبأة وموضبة بأكياس بوزن كيلوغرام لكل كيس، لأنها بالفعل أكلة فاخرة ولا يجوز أن تنقرض، ولو أصبحت مادة للتجارة.

•••

كنت في صغري أحب الحيوانات الأليفة، وخصوصاً المنزلية منها. وقد كانت لدينا قطة مرقطة بالبني الموشح بدرجات من السواد، جميلة المنظر، وديعة، وذكية. وكانت تلك القطة تخصني بالمودة دون سائر أفراد العائلة، فتأتي لتقف الى جانبي فتموء وتحك جسمها بساقي مقوسة ظهرها رافعة ذيلها، وفي الليل تختار الرقاد فوق فراشي، فكانت أمي تسميني «أبو بسينات». لكن تلك القطة مرضت وماتت فحزنت عليها وبكيت وامتنعت عن الطعام يوماً كاملاً لفقدها. وما لبث جدي أن اقتنى كلباً سماه «مرجان»، فتعلقت بهذا الكلب وتعلق بي، وكان يتبعني كظلي، حتى إذا كنت راكباً الحمار الى السهل أو الى الجبل لرجد العنب أو القمح، كان يمشي وراء الحمار مهرولاً طول الطريق. وذات مرة كنت خارجاً من بيت جدي الواقع على الطريق العام مباشرة جاءت بوسطة الضيعة مسرعة وهو يقطع الطريق ليتبعني فدهسته ومات أمام عيني، فشكل ذلك صدمة عنيفة لي كادت تزلزل كياني، وبقيت الى أن غادرت القرعون في الخمسينات أحمل في قرارة نفسي رواسب غضب على سائق تلك البوسطة.

وفي يوم من الأيام أرسلني والدي الى معماري ونحات يدعى الحاج سليم أبو مراد للحصول منه على عنوان شقيق له مهاجر في أميركا اسمه الحاج ابراهيم لكي يكاتبه. وكان الحاج سليم «معيولاً»، أي أن له عائلة كبيرة العدد، هم ستة صبيان وصبية واحدة، أحدهم كان زميلاً لي في المدرسة الابتدائية، واسمه نصير الذي أصبح فيما بعد قاضياً لكنه توفي وهو في ريعان الشباب. ويقوم بيت الحاج سليم في شرق البلدة على منحدر متدرج من الشرق الى الغرب، حيث البيت في القمة وبوابة الوصول اليه هي جزء من السياج المؤدي الى

الجلالي التي تشكل بستاناً من الأشجار المثمرة منها شجرة مشمش ضخمة كنا نجلس تحتها عندما نزورهم في الصيف. وقد شيّد الحاج سليم بيته هذا بيده ونحته حجراً حجراً وأقامه بشكل دائري أو أسطواني مميّز، ولم يكن له مسعف سوى نجله البكر مفيد الذي كان شغوفاً بالعلم حيث بدأ الدراسة وهو في سن العشرين، فنجح أولاً في الشهادة الابتدائية (السرتيفيكا)، وفي السنة التالية مباشرة نجح في الشهادة المتوسطة (البروفيه)، وفي السنة الثالثة على التوالي نجح في الشهادة الثانوية الأولى (البكالوريا)، ثم في البكالوريا الثانية، ودخل الى الجامعة وأصبح فيما بعد من كبار رجال التربية والتعليم في لبنان. وقد التقيته في بيروت مصادفة قبل أقل من سنة من وفاته في مناسبة عزاء بوفاة اسكندر طرابلسي شقيق القاضي والوزير السابق سليمان طرابلسي، في صالون البطريركية الكاثوليكية، وأبلغني أنه يعد قاموساً للغة العربية يهدف الى تسهيل هذه اللغة، وأنه سوف يسميه «المراد في اللغة العربية». وعندما كنت رئيساً لتحرير جريدة «الكفاح» في بيروت مطلع السبعينات من القرن الماضي استعنت به لكتابة مقال اسبوعي حول شؤون تربوية وثقافية.

ومن أبناء الحاج سليم أيضاً القائمقام السابق بديع، والضابط المتقاعد في الجيش اللبناني بهيج، والدكتورة أميرة التي لم أرها منذ أكثر من خمسة عقود. وأذكر أن السيدة تقلا زوجة الحاج سليم اختيرت أول أم مثالية في لبنان بفضل تلك التربية العالية لأولادها.

وكان للحاج سليم كلب شرس اسمه «زيتون»، يطلقه في البستان ليلاً، ويربطه في النهار. لكن في اليوم الذي قصدته للحصول على عنوان أخيه في المهجر كان «زيتون» طليقاً، وما أن صعدت خطوات معدودة في الطريق المؤدي الى البيت على طرف البستان من أسفل الى أعلى، حتى هجم علي كلب الحاج سليم وبطحني أرضاً وعضني في عضلة زندي الأيسر حيث ما زالت ندوب تلك العضة في ذراعي الى اليوم. ومن حسن الحظ أن الحاج سليم كان في الخارج يعمل في البستان فسمع صراخي فأمر الكلب بأن يرتدع وهرع الي ليساعدني على النهوض، وانفعل كثيراً لأن أحدهم أطلق الكلب في النهار من غير علمه، وصرخ على زوجته تقلا بأن توافيه بصحن معدني ومقص ففعلت على الفور، فامسك «زيتون» برقبته وقص خصلة كبيرة من شعره وأحرقها في الصحن، وعندما احترقت بكاملها أخذ رمادها وحشاه في الجرح النازف في ذراعي، وربط الجرح وحشوته بمنديله، وعدت الى بيتنا حاملاً عنوان الحاج ابراهيم ومعه ضمادات الحاج سليم. لكن هذا العلاج كان ناجعاً بسرعة فائقة، حيث اختفى الجرح تماماً في اليوم التالي ولم تبقَ منه إلاّ ندوبه للتذكار. وبعد سنوات عديدة فهمت معنى ذلك العلاج بشعر الكلب المحروق، لأن الناس يخافون من داء الكَلَب الذي لم يكن متوفراً في القرية لقاح ضده، فاخترع له الحاج سليم لقاحاً طبيعياً.

وعندما جئنا الى لندن في منتصف السبعينات، طالبني أولادي باقتناء كلب في المنزل فرفضت رفضاً قاطعاً على الرغم من توسلاتهم ورجاءاتهم. وحاولوا مرة وضعي أمام الأمر الواقع بأن أحضروا معهم جرواً صغيراً وتركوه في الحديقة ريثما أوافق على إدخاله الى البيت، لكنني بقيت على موقفي الرافض مديراً أذناً صماء لترجياتهم، فأعادوه الى حيث أتوا به. وما كان رفضي لمجرد الرفض أو العناد بل عللته تعليلاً كاملاً من خلال تجربتي المؤلمة مع الحيوانات المنزلية الأليفة.

•••

درجت العادة في القرعون، وفي بعض القرى اللبنانية الأخرى، على اعتبار عيد الصليب في الرابع عشر من أيلول/سبتمبر من كل سنة انطلاقة جهود التموّن، من التدبيس الى خزن الحبوب، ومن صنع البرغل والكشك الى ذبح الخروف المسمن لصنع القاورما، الى قطف الجوز. وكانت جدتي حبوبة تشتري خروفاً شرقياً جاهزاً لكي لا تعلفه طويلاً من أجل المونة بالقاورما لأن اللحم الطازج لم يكن متوفراً إلا في الأعياد وبعض المناسبات القليلة. أما خالتي لطفية فكانت تشتري كبشاً صغيراً وتعلفه بيدها لكي يكبر ويسمن. والعلف المفضل لديها ولدى كبشها هو «المديدة»، حيث تأتي بكمية من طحين الشعير في وعاء نحاسي وتذيبها بالماء ثم تخلطها بورق العنب المقطوف من الكروم أو العرائش، فتلقم الكبش بالمديدة لقمة لقمة الى أن يشبع، بل كانت تغصبه بها فوق شبعه.

وفي أحد المواسم اقتنت كبشاً أبيض صغيراً، فرحت ألاعبه كل يوم بالمناطحة فأضع رأسي على رأسه ونبدأ بهذه اللعبة كل يوم الى أن أتقن المناطحة واستساغها. وفي مرة من المرات كانت خالتي واقفة على أعلى درج الباحة الخارجية المؤدي الى الدار، جاءها من الخلف على حين غرة ونطحها فتدحرجت على الدرج وتكسر ضلعان من ضلوعها، فصبت سيلاً من الشتائم واللعنات عليّ وعلى من ربّوني وعلى الساعة التي ولدت فيها. لكن الحادث انقضى على خير في النتيجة، وما كاد ينقضي ذلك الحادث حتى وقع آخر على نحو أخطر عندما اصطحبتني معها الى بلدة صغبين (بلدة قائد الجيش اللبناني الأسبق اسكندر غانم) لزيارة خالتي مهيبة المتزوجة هناك. وكان في دار خالتي في صغبين ماء جار من نبع في الجبل القريب يصب في خزان من الإسمنت على طرف الحديقة، حيث يستعمل ماؤه لسقي الحديقة وخضراواتها وأشجارها المختلفة، وللغسيل والشطف وغيرها من الاستعمالات. وخطر لي مرة أن أصعد الى حافة الخزان الذي لا يزيد عمقه على المتر ونصف المتر بطول ثلاثة أمتار وعرض مترين، أي بحجم عشرة أمتار مكعبة على الأكثر. وأثناء تسلقي جدار الخزان سقطت في الماء رأساً على عقب وبكامل ملابسي فكدت أختنق،

وكالعادة استنزلت عليّ وعلى الساعة التي ولدت فيها لعنات من قاموس أعمق من خزان الماء الذي سقطت فيه.

ولم تتوقف الأمور والمفاجآت عند هذا الحد. ففي صباح اليوم التالي حدث ما هو أخطر بكثير. كان لدى العم أسعد منصف زوج خالتي مهيبة «جفت» صيد بعينتين يعلقه على وتد في المربع التحتي الذي يستخدمونه لتناول الطعام ويعلق طربوشه الجديد فوق فوهته. وكان أبناء وبنات خالتي جميعاً متحلقين حول طبق كبير يتناولون فطورهم قاعدين على الأرض، فوجدت كرسياً صغيراً من القش صعدت عليه لأطال زناد الجفت، ولم يكن في بال أحد أن العم أسعد علقه على الحائط مدكوكاً، فضغطت على الزناد فانطلق مدوياً في السقف الترابي فخرقه وأحرق طرف السجادة الممدودة في العلّية فوقه، ولشدة الانفجار ألقاني أرضاً وسقط بدوره على الأرض لكن الله لطف أن طلقة عينته الأخرى انطلقت في الاتجاه الآخر، فلم يصب أحد بأذى. أما طربوش العم أسعد فلم يبقَ منه أثر. وعلى الرغم من سيل اللعنات التي استنزلتها خالتي لطفية من قاموسها المحيط بجميع اللعنات، فقد أعجبني برود العم أسعد وخفة ظله وروح المرح التي واجهني بها. فقد قال لي: «الطربوش فداك. لكن أوعدني أنك عندما تكبر وتشتغل سوف تشتري لي طربوشاً غيره»، فوعدته لكنني لم أبر بالوعد. فكان كلما التقيته يسألني مازحاً عن الطربوش بقوله:

«أين صار الطربوش يا عم؟»، فأقول له:

«إن عادة لبس الطرابيش بطلت يا عم ولم يعد أحد يصنعه، بدليل أنك أنت أيضاً صرت تمشي حاسر الرأس، فماذا تريد أن تفعل بالطربوش؟»، فيجيب قائلاً:

«أريد أن أعلقه على الجفت»!

•••

خروف عيد الصليب له طقوس الأضاحي كلها من عملية علفه وتسمينه الى الإفادة من كل جزء منه. إذ بعد ذبحه وسلخه يؤخذ الجلد المسلوخ وهو طري فيجري تمليحه جيداً ويترك ليجف، ثم يعالج ويغسل ويستخدم كبساط على الأرض للاستدفاء بصوفه عند الجلوس عليه في الشتاء، ويسمونه «السلخ». أما رأسه فيطبخ على الفور وكنا نتزاحم على نصيب من نخاعه أو لسانه. وكذلك «المعلاق» المكوّن من «الفشة» (الإسم الشائع للرئتين)، ومن القلب، والطحال الذي يؤكل محشواً بالثوم، و«القصبة» (وهي الإسم الشائع للكبد). وكان بعضهم يأكل القصبة نيئة مبهرة ببهار «القرفة»، مع قطع من «الليّة» التي يتجمع فيها دهن الخروف في مؤخرته. ثم تدق من لحمه دقة كبة بالجرن الحجري ويدق معها أيضاً بالمدقة الخشبية ذاتها قطعة من الليّة لتبقى الكبة طريّة. وهذه الكبة تؤكل نيئة أو مطبوخة بالصينية، أو بشكل أقراص محشوة

باللحم والبصل والجوز، أو مقلية بزيت الزيتون لأن الزيوت النباتية المستخدمة اليوم لم تكن موجودة أو لم تكن معروفة. ومن الكبة أنواع كثيرة أخرى لكنها ليست شائعة كثيراً في هذه الأيام مثل الكبة اللبنية، والكبة الأرنبية، وكبة الكشك، والكبة السمّاقية، وغيرها. هذا في الطقوس المعجّلة. أما في المؤجل فهناك أيضاً كثير، منه طبعاً «القاورما» المكونة من لحم الخروف المفروم مع ليّته فيطبخ هذا الخليط على النار بدست كبير الى أن يغلي ويتغير لونه، فيجري صبّه في أواني فخارية خاصة تسمى «المسامن» ومفردها «مسمنة». وهذه القاورما يطلقون عليها في بعض القرى «الدامية»، وقطع اللحم المفروم والمطبوخ منها يسمونها «الحراحيس» ومفردها «حرحوس». وعندما تصب «الدامية» في الأواني الفخارية يطفو دهن الليّة على السطح فيجمد ويشكل طبقة عازلة تمنع الهواء عن بقية اللحم الذي يخزن من سنة الى سنة ليستخدم في الطبخ لعدم وجود اللحم الطازج إلاّ لماماً.

وفي عيد الصليب أيضاً كنا نفرط الجوز. وكان لفرعنا من العائلة الفرزلية (أي آل منصور) شجرة جوز مهولة وقديمة جداً في كرم عين الدير الذي يملكه جدي اسكندر، لكنها لم تكن في الكرم تماماً بل في الحد الفاصل الذي يسمى «الرباع» بين الكرم وبين وادي عين الدير الذي تفيض فيه المياه القليلة المنحدرة من تلك العين قبل أن تشح وتنشف في الصيف. وكانت تلك الشجرة لقدمها المشهود له بحجمها وضخامة جذعها وفروعها، منخورة القلب واقفة على قشرتها فقط، وهي قشرة تزيد سماكتها عن 40 سنتيمتراً. وعندما ينضج جوزها الطيب لكون جذورها ممتدة في الوادي، كان أفراد العائلة يذهبون مع أطفالهم ونسائهم وأكلهم وشربهم الى عين الدير لقضاء يومهم بعد عيد الصليب، فيفرطون الجوزة ويتقاسمونها بالعدل والقسطاس. وقد شاركت عدة مرات في احتفال الجوز هذا، حيث كانوا يقولون لنا أن جوزة عين الدير التي نزورها مرة في السنة قطفت في موسم سابق قبل سنوات عديدة من وجودنا ما يزيد عن ثلاثين ألف حبة جوز في موسم واحد.

•••

بعد انتهاء موسم الحصاد والبيادر والعنب والتين المسطوح والجوز، يأتي بعد عيد الصليب أيضاً موسم قطاف النحل. وكان لدى جدي اسكندر في الحاكورة المجاورة للمنزل، بالإضافة الى بستان الزيتون، «منحلة» مسقوفة تضم أكثر من 25 قفيراً من النحل. وعلى مدار الحاكورة كان هناك سياج من الورد الجوري البلدي الزهري الفاتح اللون، وشجيرات قليلة من الرمّان، وشجرة تفاّح كان يسميها «التفاح الكاليفورني»، لكنه لم يأكل منها حبة واحدة نضجت على أمها لأن الأطفال كانوا يقطفونها وهي حصرم عجراء، وشجرة خوخ بلدي. وكانت جدتي بعد قطاف النحل تقطف ورود السياج وتصنع منها

ماء الورد المنعش، وكان يسرني أن أساعدها في عملية التقطير بصب الماء البارد على الأنبوب الملفوف بالقماش الموصول بمرجل الغلي، بغية تقطير البخار المتصاعد في الأنبوب عندما يواجه الماء البارد المصبوب على القماش الملفوف. وكان ماء الورد ينزل في الوعاء المخصص له قطرة قطرة، ورائحته الزكية تشق القلب كما يقول الفلاّحون في لغتهم، فكانت العملية تطول لتستغرق معظم النهار.

أما قفران النحل فكانت مصنوعة من الطين بشكل أسطواني ويتسع كل منها لستة أقراص من العسل تقريباً، وهي مقفلة على بابها بغطاء مستدير من الطين أيضاً فيه فتحة صغيرة يخرج منها النحل ويدخل في رحلة الجني.

وعندما يحين القطاف تهيأ الأوعية النحاسية في «الليوان» العلوي وفي المربع المجاور لاستقبال أقراص العسل المستديرة، ويلبس جدي لباس الميدان الذي هو عبارة عن منخل مستدير مثبت فيه قماش يدخل في الرأس ليبقى المنخل على الوجه، فيرى القاطف ما يفعل متقياً بمنخله لسعات النحل، ويلبس كفوفاً أو قفازات جلدية طويلة، في أغلب الظن حملها معه من أميركا، وبنطلوناً «مزمّكاً»، أي أنه عريض من خصره لكنه ضيق جداً عند العرقوب من الأسفل فلا يستطيع النحل الدخول منه، ثم يأتي بإبريق من الفخار لا قعر له وفي جوفه بعض الجمر المرشوش فوقه رشة من البخور لكي يولّد دخاناً كثيفاً، فينفخ الدخان في الخلية ليطرد النحل فيتسنى له فتح القفير قبل أن يغرز في القرص المليء بالعسل شيشاً حديدياً غليظاً له شوكة رفيعة مسننة في طرفه يغرزها في القرص ويسحبه، وهكذا دواليك الى أن يسحب الأقراص كلها ويعيد تطيين أبواب القفران. فكان يبدو لنا في تلك الأيام كما يبدو لأطفالنا اليوم رجال الفضاء بملابسهم الفريدة.

وهذا العسل المقطوف بشهده له أيضاً ترتيبات معقدة. فكانت جدتي في البداية تفرز الأقراص، فتضع السليم منها جانباً للأكل والهدايا. وتضع المكسور أو المائل الى السواد لكن ليس فيه شائبة تشوبه كولدان النحل الميت، أو الخالي من العسل في بعض أجزائه في سلال فوق دسوت النحاس لتصفيته سائلاً، وأما عسل الدرجة الثالثة فكانت تضعه في دست خاص وتغليه على النار مع الماء لتنتج منه شراباً قوياً ولذيذاً تسميه «الزلاعة» أو «الزلاع»، وهو سائل داكن لونه أكثر سواداً من الكوكاكولا، يوضع في جرار من الفخار ويصب منه للشرب في الشتاء. ومنذ وفاة جدتي في خمسينات القرن العشرين، لم أصادف مثل هذا الشراب في أي مكان في العالم.

ويفرز النحل مادة شمعية سوداء يلصق بها الأقراص في الجدران الداخلية للقفير ويسمونها «الدنج»، ولها خصائص طبية ثابتة بالتجربة لكونها تحتوي على مضادات للحيويات. فكان كلما تقيح جرح والتهب لأحد في حارتنا يقصد

جدتي لتعطيه قطعة من الدنج يسمونها «الدنجة» تُلصق على الجرح المتقيح والملتهب فيشفى تماماً.

أما الأقـراص المكسورة والداكنة اللون المطلوب تصفيتها في السلال فلا تترك لتقطر على طبيعتها لأن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً ولا يقطِّر العسل الموجود في الأقـراص كله، فكانت جدتي تضع الأثقال فوق الأقـراص في السلال وتزيد تلك الأثقال كلما نزل العسل في الدست وهبطت الأقـراص المعوسة في السل. وفي المرحلة النهائية من هذه العملية تعصر ما تبقى بيديها فلا تبقى من العسل قطرة واحـدة، وهـذه الأقـراص الممعوسة تباع لصنع الشمع منها خصوصاً الشمع الأسمر المستخدم في الكنائس وفي أعياد الشعانين والفصح والباعوث.

وأما العسل الأول الذي يبقى بشهده، فإن بعضه يستخدم للأكل، ولا سيما للضيافة، حيث تقدم للضيف قطعة منه في صحن صغير فيأكله بالشوكة أو بالملعقة، وبعضه يوضع في علب معدنية تقفل إقفالاً محكماً ويبعث بها هدايا الى المهجر مع أحد المهاجرين الى بعض الأقـارب المغتربين، أو تهدى لمن يعتقدون أنه يستحق تكريماً من هذا النوع.

أما العسل المصفّى فيحفظ أو يهدى في «مرطبانات» زجاجية من مختلف الأحجام. وكانت لدينا في الطابق التحتي غرفتان للمونة أنشأهما جدي في الأصل لإيواء شقيقتيه، وبعد وفاتهما أعيد تأهيلهما لأغراض التموين من حيث المخازن والرفوف.

وكانت والدتي وعمتي روزا تخزنان فيهما على الرفوف في مرطبانات زجاجية كل أنواع المربيات و«الكومبوت» والكبيس والمخللات على أنواعها، بما في ذلك مربى «اللقطين»، ومربى «البلح»، ومربى «الباذنجان»، ومربى «السفرجل»، وكبيس اللفت والباذنجان واللوز الأخضر والثوم والقثاء والخيار وغيرها. وبقي الحال على هذا المنوال الى أن كبر أولادي في السبعينات من القرن الماضي، فكانوا عندما اصطحبهم معي إما للصيد أو لزيارة جدي وأهلي، يقفزون من السيارة ويتسابقون الى غرفة المونة ليأكلوا من طيباتها.

•••

كان جدي يحتفظ كل سنة بأفضل أقراص العسل للمطران نيفن سابا عندما يأتي الى القرعون يرافقه الأرشمندريت سرجيوس فرح وقواصه وسائقه ميشال، في زيارة رعوية سنوية يجول فيها على قرى أبرشيته، حيث كنا نسمع من كبارنا أن المطران جاء «ليلمّ النورية»، فكان المنتسبون الى كنيسته يقدمون له الهدايا بشكل غلال ومحاصيل، لأن الأموال النقدية كانت شحيحة في تلك الأيام. والمطران نيفن سابا هو في الأصل من مدينة السويدية على مصب نهر العاصي بالقرب من أنطاكية، (هي الآن تابعة لتركيا منذ ثلاثينات القرن الماضي

عندما اقتطعها الفرنسيون من سوريا وأعطوها الى كمال أتاتورك). وهو كاتب وشاعر رقيق وضليع في أمور الدين واللاهوت، وكان جميل الصورة بهي الطلعة سلس الحديث محبوباً من جميع الناس مسيحيين ومسلمين.

وبما أن والدي كان خادم الرعية في ذلك الوقت، كان المطران نيفن ومرافقاه ينزلون عندنا في البيت فنفرش لكل منهم في غرفة منفردة فرشة على الأرض وبجوارها كرسي عليه منشفة، وصحن عليه لوح من الصابون، وعلى «طاولة السواكير» التي توضع عليها المنافض كنا نضع إبريقاً زجاجياً فيه ماء صاف. ولم يكن المطران نيفن سابا يخفي سعادته بالمجيء الى القرعون لأنه كان يحب سمكها النهري، ويحب عسلات جدي، ويحب عنب القرعون وكل مشتقاته. وكان أهالي القرعون يتسابقون على خدمته والوقوف على رأيه، وكان الشيخ قاسم القرعاوي يقيم له اجتماعاً مع المسلمين من أهل البلدة يتبادلون فيه الخطابات. وكان المطران نيفن يأخذ الغلال المهداة له لينفقها على الناس، حيث قلاّيته في زحلة مشرعة الأبواب لكل ضيف، فكأنها مضافة، ومطبخها شغّال طوال الوقت فلا يخرج منه أحد جائعاً أياً كان دينه أو مذهبه أو معتقده، فكانت تنكات السمن الحموي مشقوعة في المطبخ الى السقف. وكأني به في قصيدة له عن أحوال الأمة يقول فيها «تجوع وتقري كل غاد ورائح»، يصف قلاّيته المفتوحة لكل غاد ورائح.

لكن المطران نيفن في المرحلة التالية أوقف المضافة لأن القرى التي كانت تموّنه خلت من سكانها بسبب الهجرات المتعاقبة. وعندما تركه قوّاصه وسائقه ميشال، اتخذ لنفسه قواصاً وسائقاً من القرعون اسمه فؤاد مسلم. وما زلت أذكر يوم وفاة المطران نيفن في مستشفى تل شيحا، في السادس من أيلول من عام 1966، لأن زوجتي وضعت مولودها الثالث عماد في غرفة من المستشفى إياه وفي الطابق عينه وفي اليوم ذاته، وكان مولِّدها الدكتور جوزف الهراوي شقيق الرئيس الياس الهراوي.

وقد انطلق المطران نيفن في البداية بأفكار معادية للشيوعية، ولما أصدر الأستاذ رياض طه جريدة «الأحد» الأسبوعية التي حولها فيما بعد الى مجلة عندما أصدر جريدة «الكفاح» اليومية التي ترأست تحريرها في بداية السبعينات، وكانت «الأحد» صحيفة راديكالية تميل قليلاً الى اليسار، جرت على صفحاتها مناظرة فكرية مشهودة بين المطران نيفن سابا والسيدة نجلاء نمر، (أظن أنها ابنة الشيوعي حنا نمر وشقيقة المحاميين حسيب نمر، ونسيب نمر) عبر فيها المطران عن أفكار سلبية تجاه الشيوعية في المبدأ. وكانت بيروت يومها منبراً للمناظرات الفكرية الكبرى، حيث جرت على مسرح اليونسكو فيها المناظرة المشهورة بين عميد الأدب العربي طه حسين، وبين الأديب والشاعر والمفكر اللبناني المعروف رئيف خوري، وعنوانها: «هل يكتب الأديب للكافة أم

للخاصة؟». فدافع طه حسين عن الخاصة واتخذ رئيف خوري موقف الكافّة. وقد عمل ميخائيل خوري شقيق الأستاذ رئيف معي في لندن في مجلة «الدستور» في أواخر السبعينات، ووقفت منه على أفكار غير منشورة لشقيقه خصوصاً رأيه في مختلف مناحي الأدب العربي، ومنه على وجه الخصوص الشعر الجاهلي.

غير أن المطران نيفن سابا تحولت أفكاره تحولاً جذرياً في المرحلة التالية من حياته فمال الى اليسار وأصبح نصيراً للشيوعية وللاتحاد السوفياتي، وحضر «مؤتمر هلسنكي للسلام» الذي حضره قادة ومفكرو اليسار في العالم. وعندما جاء البطريرك الروسي اليكسي الأول الى لبنان قادماً من دمشق، كان المطران نيفن على رأس مستقبليه في شتورا، وكان والدي بصحبته. ويبدو أن زيارة البطريرك اليكسي تلك حركت المخاوف الأميركية فدأبت الأجهزة الأميركية في العمل على شق الكنيسة الأنطاكية والتخلص من مطارنتها الأشداء لتصبح أميركية خالصة قلباً وقالباً، فخف وزنها، وتلاشى دورها، ووهنت صلاتها بالناس، وضحل فكرها، فأصبحت هيكلاً شكلياً خالياً من أي مضمون تقدمي حقيقي. كنيسة إنجيلية بروتستانتية بجبة وقلنسوة أرثوذكسية، حيث رئيس جامعتها في البلمند وصف رفيق الحريري الذي استولى على الوقف الأرثوذكسي في بيروت، وفي البلمند أيضاً، بأنه كان «دولة عظمى في شخص». فمبروك عليهم دولتهم العظمى!

•••

ما زلت أحتفظ من والدي بأبيات من الشعر نظمها المطران نيفن سابا ارتجالاً في موقف حرج أثناء زيارة له الى بيت نجيب سابا، وهو من وجهاء مدينة زحلة وأثريائها في ذلك الوقت. وقد التقى في مجلس نجيب سابا إضافة الى المطران نيفن وآخرين كل من الشاعر خليل مطران، شاعر القطرين، والشاعر الزحلي المعروف حليم دموس[4]. وكان لدى نجيب سابا خادمة لا تتجاوز الثامنة عشر

---

(4) الشاعرٍ الزحلي حليم دموس هو من شعراء «الرابطة القلمية» وقد كتب الشعر العربي في سن مبكرة جداً وهو طالب في الكلية الشرقية في زحلة حيث تتلمذ على يد المعلّم عيسى اسكندر المعلوف وأسهم فيٍ تحرير مجلة «المهذب» لكنه في شبابه أصدر جريدة «الأقلام» عام 1932.

وكان دموس عروبياً شديد التعلق باللغة العربية التي وصفها في شعره بأنها «أم اللغات»، كما كان شديد الحماس للعائلة الهاشمية والثورة العربية الكبرى وفكرة الوحدة العربية التي علا النداء بها مع قدوم الملك فيصل الهاشمي الى سوريا.

وقد وقّر دموس اللغة العربية الى درجة التقديس حيث قال فيها:

لو لم تكن أم اللغات هي المنى ... لكسرت أقلامي وعفت مدادي
لغة إذا وقعت على أسماعنا ... كانت لنا برداً على الأكباد
ستظل رابطةً تؤلِّف بيننا ... فهي الرجاء لناطق بالضاد

وله وصيّة شعرية الى ولده في اللغة العربية يقول له فيها:

لا تعشقّن سوى أم اللغات وكن ... فيها كما أتمنى شاعراً غردا

من العمر استقدمها من شمال سوريا وكانت بالغة الجمال وجديدة في الخدمة لم تألف بعد مجالس من هذا النوع. وعندما دخلت بصينية القهوة الى المجلس لتقدم الى الضيوف قهوتها، أصابها الخجل والارتباك فراحت الصينية تهتز بين يديها وعليها تتراقص الفناجين وتندلق، فأجهشت بالبكاء، فقام صاحب الدار بتقديم القهوة لضيوفه بيده، ومن الطبيعي أن تكون هناك تعليقات على المشهد في محضر الأدباء، فقال المطران نيفن أبياته التي أدهشت جميع الحاضرين والسامعين، وعلى رأسهم خليل مطران، وفيها يقول:

وجرعة من بنات البنّ قلت لها ... من أين جئتِ فأسكرتِ الفناجينا
قالت وقد مزجت بالدمع زفرتها ... من الخلود الى دار الفَنا جينا
فقلت مثلك يا أختاه نحن فما ... دمنا نناجيكِ في الدنيا فناجينا

وإذا كان لي أن أصف ذلك الاكتفاء النقي الذي عشناه في القرعون أيام طفولتنا، فإنني أصفه بالاكتفاء النبيل الذي تمتزج فيه المشقة والتعب بالسعادة والفرح، وتمتزج فيه معرفة الذات بمشاعر الآخرين وحاجاتهم وهواجسهم، والتفاني في العمل للذات مع التفاني في خدمة الناس من دون تمييز. وهذا الاكتفاء النبيل يمنح صاحبه ملامح أقرب الى الأرستقراطية منها الى أي شيء آخر، على الرغم من عدم توفر الشروط المتعارف عليها للأرستقراطية. فهي أرستقراطية خالصة من دون عنجهية أو غرور أو تعال أو شعور طبقي أو نزعة عدوانية أو استغلال من أي نوع.

ذلك المناخ البديع هو الذي صنعني ولست أنا الذي صنعته.

فإن نشأت ولم تعشق بلاغتها ... لا كنت لي أملاً لا كنت لي ولدا
وقد عمل حليم دموس في التعليم والصحافة والترجمة، وتوظف في إدارة سكة الحديد، وهاجر الى البرازيل حيث عمل في التجارة لكنه لم يفلح في هذا المضمار فعاد أدراجه الى لبنان بعد ثلاث سنوات في المهجر فقط. وتوفي عام 1957 عن عمر ناهز السبعين عاماً.

VIII

«كسرى والعرب»

كان شبّان القرعون من المسلمين، أو بعضهم على الأقل، من الجيل الذي سبقنا منتظمين في «عصبة العمل القومي»، وأذكر أنهم في بعض الأحيان، وربما بمناسبات معينة، يقيمون نوعاً من التجمع أو الاستعراض على البيادر. وكنا يومها أصغر من أن نفهم ما هي هذه العصبة والى ماذا تهدف؟! لكن أعيننا بدأت تتفتح على هذه الأمور عندما غادر بعضهم القرعون، وعلى رأسهم الشهيد برهان دحروج، للقتال ضد اليهود في فلسطين عام 1948. أما الشبّان المسيحيون فكانوا منتظمين في جمعية اسمها «جمعية حب السلام». ويبدو أن هذه الجمعية قديمة لأن بعض محاضرها ما زال موجوداً وقد اطلعت على سجل من هذه المحاضر لدى زميل لي في الدراسة الابتدائية يبدو أن والده أو أحد أقربائه كان أمين السجل فيها.

كان لـ«جمعية حب السلام» في القرعون مقر خاص بها تجري فيه اجتماعات دورية، وقد ظل المقر عاملاً حتى أيامنا، وما زلت أذكر مكانه في بيت يسمونه «بيت حنّة»، وهو عبارة عن عليّة يصعدون اليها بدرج طويل من الحجر على ارتفاع كبير ومن دون حاجز، أو دربزون، مما يجعل خطر السقوط منه مخيفاً. وأتذكر هذا الدرج لأن انفراط عقد الجمعية في مطلع الخمسينات لم يكن انفراطاً سلمياً، على الرغم من كونها تمثل «حب السلام» بل جرت على درجها معركة بالعصي بين بعض أعضائها، حيث قام أحد الأعضاء، جودت الحجّار، بشج رأس المحامي الياس الفرزلي بضربة عصا استدعت تقطيب جرحه البالغ. ويبدو أن العراك الذي أدى الى الانفراط كان لأسباب سياسية محلية، حول خلاف بشأن رعاية تمثيلية كانت الجمعية تعدها، وكان لي فيها دور بسيط، بين فريق يريد أن تعرض المسرحية برعاية الأستاذ أديب الفرزلي، وبين فريق يريدها برعاية الوزير جان سكاف[1].

---

(1) فاز جان سكاف في زحلة لاحقاً ضد جوزف سكاف في انتخابات 1951، وكان جوزف سكاف يومها مرشحاً في البقاع لأول مرة، لأنه في الانتخابات التي سبقتها في العام 1947 كان نائباً عن الجنوب على لائحة الزعيم الوائلي أحمد الأسعد. وقد تم تدبير مقعد له في الجنوب على لائحة أحمد الأسعد لأنه حُرم من مقعد والده الراحل الياس طعمه سكاف في زحلة لحساب هنري فرعون

ولست أدري اليوم كيف تأسست «جمعية حب السلام»، ومن الذي أسسها، ولماذا اختاروا لها هذا الإسم المعبِّر. لكنني أعرف أن الجمعية كانت تُعد مسرحيات تاريخية كل بضع سنوات، بمساعدة من المسرحي اللبناني في بيروت الأستاذ عيسى النحاس[2] الذي كان يزودهم بنصوص المسرحية وبالملابس المناسبة لها. وكانت التمثيليات التي تعد تقدم على مسرح داخل كنيسة القرعون. ففي تلك الكنيسة، كنيسة القديس جاورجيوس، الذي يسميه المسلمون «الخضر»، كان موقع النساء في الكنيسة مسرحاً طبيعياً، فهو يقع في القسم الخلفي المواجه للهيكل في الطرف الآخر منه، وهو مرتفع عن بقية أرض الكنيسة بما لا يقل عن متر واحد، كما أنه فسيح ومجاور من جهته اليمنى للباب الخلفي ومن الجهة اليسرى للباب الأمامي، الذي تقع تحته الى يسار الدرج العالي المؤدي الى الكنيسة، أضرحة الكهنة الذين خدموا تلك الكنيسة وآخرها ضريح والدي الخوري جريس. وأذكر أن أول مسرحية اصطحبني والدي اليها كان اسمها «صلاح الدين الأيوبي»، وكل ممثليها من أعضاء «جمعية حب السلام» من الجيل الذي سبق جيلنا أو ربما من الجيل الذي سبقه.

وما زلت أتذكر المقطع الافتتاحي لتلك المسرحية التي قام بدور صلاح الدين فيها قريب لنا هو عزيز يعقوب الفرزلي، حيث ظهر لوحده على خشبة المسرح يردد بيتاً من الشعر يقول:

يحمي الممالكَ ربُّها أما أنا فأريد أحمي الملك لا يحميني

ولم يذكر أحد أمامي ما إذا كان تم تقديم أي مسرحية أخرى قبل مسرحية «صلاح الدين الأيوبي». كما لم يذكر أحد أمامي من هو الذي أدخل فكرة العمل المسرحي الى القرعون، أو كيف تم التواصل مع عيسى النحاس في بيروت.

ذلك أن العمل المسرحي، ولو في الإطار الريفي، له مكونات ثقافية متقدمة لا بد من توافرها في بعض الأشخاص المستنيرين الذين يفكرون بمثل هذا العمل، كما أنه في الحالة التي أنا بصددها يشكل شهادة للقرعون لأنها من

الزعيم الكاثوليكي الأول في ذلك الوقت.

(2) عيسى النحاس (مواليد 1887) من أبرز وجوه المسرح اللبناني في النصف الأول من القرن العشرين، بل من أبرز رجال النهضة المسرحية العربية في القرن العشرين الى جانب جورج أبيض، وأديب لحود، والخوري حنا طنوس وغيرهم. وقد أسس «الاتحاد المسرحي» مع جورج ماضي، لكن معظم الفرق المسرحية اللبنانية توقف عن العمل في أواخر الخمسينات بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية والاضطرابات السياسية. ثم بعد اعتزاله التمثيل لتقدمه في السن، فتح مشغلاً لصنع ملابس المسرحيات وتأجيرها للمدارس والجمعيات التي تقدم مسرحيات من تمثيل تلامذتها أو منتسبيها مثل «جمعية حب السلام» في القرعون. ويعود له الفضل في اكتشاف الموهبة المسرحية للمطربة صباح (جانيت فغالي) وهي في الرابع عشرة من العمر عندما أنيط بها دور الأميرة هند في مسرحية تحمل هذا الإسم في مدرسة للراهبات بـ«وادي شحرور» كانت تدرس فيها، وكان النحاس يشرف على تمارين المسرحية المذكورة، فأعجب بأداء جانيت وأطلق عليها اسم «صباح» وراح يشجعها على احتراف المسرح والغناء.

دون سائر قرى القاطع الشرقي للبقاع الغربي، وربما القاطع الغربي أيضاً، استقبلت بتشجيع ملحوظ هذا النمط الثقافي الصعب، ولو من جهته الترفيهية. لكن اختيار المسرحيات يدل على أن الغاية لم تكن ترفيهية فحسب، إنما كان لها بعدٌ ثقافي وسياسي يتعدى المألوف. والدليل على ذلك، أن أهالي البلدة تقبلوا بالترحاب أن يتم تقديم تلك المسرحيات في مبنى الكنيسة، وآخر مسرحية شهدتها القرعون، وذلك بعد مغادرتي النهائية للبلدة، تم تقديمها على مسرح في مدرسة المقاصد الإسلامية الجديدة التي كان قد اكتمل بناؤها للتوّ، وجميع ممثليها تقريباً من بقايا «جمعية حب السلام» من الشبان المسيحيين.

•••

يؤسفني أن المسرحية التي كان لي ولبعض زملائي الابتدائيين أدوارٌ بسيطةٌ فيها، كدور الحاجب، ودور ناقل الرسائل، أو ما شابه، صُرف النظر عن تقديمها بعد أسابيع من التدرُّب عليها وحفظ أدوارها، بسبب الخلاف الذي أشرت اليه حول رعايتها. وكان اسم المسرحية «كسرى والعرب»، حول معركة «القادسية» والفتح العربي الإسلامي لبلاد فارس. وقد حدثت أثناء التدريب أشياء مضحكة بسبب سوء القراءة أو الإلقاء، لأن الأدوار الفردية كانت منقولة بخط اليد عن الكتاب المطبوع. وملابس الممثلين جميعاً استحضرت من عند عيسى النحاس.

فهناك مشهد يقول فيه مراقب عربي للمعركة عن استخدام الفيلة في الحرب من قبل الجيش الكسروي: «ضرب جريراً بمشفره». فقرأ ممثل الدور، نقولا مسلّم، العبارة المكتوبة بخط اليد بشكل ملتبس: «خرّب جريراً بمشغرة». وقامت القيامة من شدة الضحك وتمادي التعليقات.

وأسند دور فيه بيت من الشعر حول هول المعركة وما سفك فيها من دماء كل كلمة فيه تتضمن حرف «الراء» الى زميل لنا في المدرسة يلثغ بالراء فيلفظها لاماً، هو الياس نجيب عبود. ويقول البيت المذكور من الشعر:

يا ترى ما قد طرا ما قد جرى ... فجرى نهر الفرات أحمرا

فقرأ صاحب الدور المذكور هذا البيت كما يلي:

يا تلى ما قد طلا ما قد جلى ... فجلى نهل الفلات أحملا

وتعامل أحد القيمين على الجمعية وعلى المسرحية من غير الممثلين بقسوة مع الذين تجاوزوا الحدود في تعليقاتهم على الموضوع، ونالني بالطبع نصيب من قسوته، لكننا في ذلك الوقت لم نكن على سوء نية، أو رغبة في التحقير والإهانة، إنما كانت تدفعنا الرغبة في الضحك والمزاح. وإذا كان هناك من ملامة فإنها تقع على من اختار الصبي المذكور لهذا الدور. وربما كانت قسوة المسؤول عن المسرحية علينا عائدة الى شعوره بأن الذنب ذنبه في الأصل. ولكثرة ما قمنا بالتدرّب على المسرحية، حفظناها كلها عن ظهر قلب.

وباستذكاري لها بعد سنوات، عجبت لمرور مقاطع فيها على لسان كسرى

مهينة ومسيئة للعرب، وتحمل في كل كلمة منها نزعة عنصرية استعلائية، حيث يقول في أحد المقاطع: «فكيف بأمة مثل أمة العرب، لا ملك يجمعها، ولا حكيم يبيّن حلالها وحرامها، ولا شيء لها من خصال الخير في أمور دين أو دنيا، تتجرأ على ملكي وتتطاول على عرشي».. والى آخره.

وكنت دائماً أتساءل: هل هذه عنصرية الفرس تجاه العرب، أم هي عنصرية كاتب المسرحية ضد الفرس؟ ذلك أن هذا الموضوع يتجدد في الوضع العربي القائم فترة بعد فترة الى يومنا الحاضر، كما حدث مثلاً أثناء الحرب العراقية الإيرانية من 1980 الى 1988، حيث كانت التعبئة السياسية تدور حول هذا المحور. بل إن نظام صدام حسين في بغداد أطلق على تلك الحرب اسم «القادسية»، وهي المعركة التي قادها سعد ابن أبي وقّاص فاتحاً بلاد فارس، وتم تصوير فيلم بهذا الإسم ولهذه الغاية أخرجه المخرج المصري صلاح أبو سيف، ووضعت سيمفونية موسيقية أيضاً من تأليف الموسيقي اللبناني الراحل وليد غلمية، بالإضافة الى صحيفة للجيش العراقي السابق باسم «القادسية». وكنت قد أشرت الى ذلك في مقال كتبته في مجلة «الحوادث» في بدايات تلك الحرب، حيث تطرقت أيضاً الى وصية المثنّى الى سعد ابن أبي وقّاص، قبل «القادسية» الأولى في صدر الإسلام، وفيها يقول: «وقاتلوهم عند أدنى حجر من أرض العرب، فإذا غلبتموهم أخذتم ما بعدهم».

•••

إن الخلاف السياسي الطارىء الذي حال دون تقديم مسرحية «كسرى والعرب» على مسرح كنيسة القديس جاورجيوس في القرعون، لم يكن السبب الأساس لانحلال «جمعية حب السلام». فالسبب الحقيقي هو هجرة الشبّان المسيحيين من القرعون، إما الى بيروت وإما الى المهاجر البعيدة في أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية وإفريقيا، وخصوصاً الى السنغال وساحل العاج وجنوب وغرب إفريقيا. وكانت هذه الهجرة في الخمسينات من القرن العشرين كثيفة الى درجة أنها لم تصب فقط الجمعية والمسرح والكنيسة والرعية، إنما أصابت بشكل خاص الزراعة والإنتاج الزراعي، فباتت الحقول والكروم مهملة وغير منتجة.

ذلك أنه بعد سنتين من تلك التطورات، قام شبّان آخرون بتقديم مسرحية فيها مقطع غنائي أنشده شاب يدعى منصور فضل الفرزلي كان صوته رائعاً، وهو أيضاً هاجر الى كندا بعد ذلك، ومستهل تلك الأغنية: «يا راهب الدير بالإنجيل خبرني». ولست أذكر ما هو اسم المسرحية أو عنوانها، وما إذا كانت تمت بالتعاون مع عيسى النحاس أم لا. ففي ذلك الوقت كنت قد غادرت القرعون، لكنني عدت لحضور تلك المسرحية التي تم تقديمها، كما أشرت سابقاً على مسرح مدرسة المقاصد الإسلامية الجديدة. وقد عرضت المسرحية

برعاية النائب أديب الفرزلي الذي فاز في انتخابات 1953، كما حضرها عدد من مثقفي القرى المجاورة، بينهم القاضي محمد حسين شمس الدين من بلدة جب جنين، وهو نجل الشيخ حسين شمس الدين مفتي البقاع لاحقاً. وكان محمد الشيخ قد أصدر بالتعاون مع الدكتور ابراهيم الحداد، وهو طبيب أسنان ترك مهنة طب الأسنان واحترف التعليم الابتدائي ثم الثانوي، مجلة شهرية اسمها «صوت البقاع»، قبل أن ينتسب الى القضاء اللبناني ليصبح قاضي محكمة الاستئناف في طرابلس.

وكان الأستاذ محمد شمس الدين شاعراً رقيقاً له ديوان شعر بعنوان «نازحة». ولا أعرف ما إذا صدرت له دواوين شعرية أخرى فيما بعد.

ودرجت العادة أن يلقي أحدهم خطاباً بعد أداء المسرحية، هو عادة الشخص الذي يتم تقديم المسرحية برعايته. وكان راعي المسرحية المذكورة آنذاك أديب الفرزلي، وهو من الخطباء البارزين في لبنان في زمانه، غير قادر على الكلام لأسباب صحيّة، فصعد محمد شمس الدين الى المسرح بادئاً خطابه ببيت مرتجل من الشعر إطراءً لراعي المسرحية، فقال:

للفرزليّ على البقاع ديونُ كانت له أبداً وسوف تكونُ
تفتخرُ الَقرعون في ميلاده وتعتزُّ في سكناه جب جنينُ

ويكبرني الأستاذ محمد شمس الدين سناً، ومع ذلك كنت على علاقة طيبة معه ومع الدكتور ابراهيم الحداد الذي اشتهر بنقده الاجتماعي اللاذع وبخفة الدم. أما علاقة الصداقة الحقيقية فكانت بيني وبين شقيقه الأصغر أحمد شمس الدين الملقب بـ «أبو حسان»، وكان أيضاً موهوباً بالكتابة شعراً ونثراً، وهو من عمري تقريباً. وقد هاجر أبو حسان الى الولايات المتحدة حيث دخل الى إحدى جامعاتها ونال منها درجة الدكتوراه، لكنه مع الأسف توفي مبكراً هناك بأزمة قلبية مفاجئة وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر فقط. وعندما أقيم له في جب جنين احتفال تأبيني في نهاية صيف 1972، كنت قبل أيام قد خرجت من المستشفى في زحلة بسبب كسور في كاحلي الأيمن وزندي الأيمن أيضاً نتيجة حادث سير مروّع تكسرت فيه سيارتي تكسراً كاملاً. ومع ذلك حضرت الحفل التأبيني الذي جرى على مدرج الثانوية الرسمية القديمة وأنا أتوكأ على العصي مكبلاً بلفافات الجفصين.

وعندما توفي أحمد شمس الدين لم يكن قد مضى على زواجه أكثر من سنتين، وكانت زوجته سهام مرعي صديقة زوجتي، ورزق منها ابنة واحدة على ما أذكر. وقد بقيت عائلته في أميركا بعد وفاته.

كان أبو حسان، رحمه الله، تقدمياً بكل معنى الكلمة، وكانت له مواقف سياسية واجتماعية محرجة أحياناً لوالده المفتي وشقيقه القاضي، ولم يكن متديناً، بمعنى أنه لم يكن يصوم أو يصلّي، وما كان متعصباً لدين أو لعقيدة،

لكنه كان يضع العقل أولاً في محاكمة الأشياء. وفي أثناء ثورة 1958 فيما البلاد يسيطر عليها المسلحون الغوغائيون، أصدر مع بعض الشبان والصبايا نشرة أسماها «الفكر الجديد» وقف فيها موقفاً نقدياً من الأوضاع السائدة، بما في ذلك الثورة المسلحة، مما دفع المسلحين في جب جنين الى مصادرتها والاعتداء عليه بالضرب والدعوة الى قتله، وهو ما حمله تالياً على الهجرة النهائية.

IX

«بقايا السيوف»

كانت القرعون بلدة مستنيرة من الناحية الفكرية والسياسية، ومنها على الدوام منذ الاستقلال اللبناني المرشحان الأرثوذكسي والسنِّي للانتخابات النيابية في البقاع الغربي، بل عندما يكون البقاع كله دائرة واحدة من شماله الى جنوبه، مع أن في البقاع بلدات أكبر وأغنى منها. ولذلك يُسمّى أهل القرعون في بلدة جب جنين المجاورة، عاصمة القضاء، بأنهم «ظـروف»، أي أنهم منتفخون بالعنجهية وشوفة الحال. أما أهل القرعون فيسمّون أهالي جب جنين بأنهم «يبرق»، أي أنهم ملفلفون يظهرون شيئاً ويبطنون شيئاً. وفي الأمرين، طبعاً، مبالغة إنما هذا هو القول الشائع الذي طرق مسامعنا من صغرنا.

وقلة من الناس، حتى في القرعون ذاتها اليوم، يعرفون أن الشاعر والديبلوماسي السوري المشهور عمر أبو ريشة هو أصلاً من القرعون. وقيل لي إن الدكتور جورج حجار حاول أن يبحث في البيوتات القديمة في البلدة عن أي رسائل قديمة أو صور أو كتب أو حجج عقارية أو مستندات من هذا النوع عندما كان يصدر مطبوعته «السلطة الرابعة» في البلدة. لكنني لا أدري ما إذا فعل ذلك لأغراض صحافية أو بغرض كتابة تاريخ البلدة، كما لا أعرف ما إذا كان وجد أشياء ذات قيمة أم لا. وقد تكون هناك أشياء ذات قيمة غير أن معظمها اندثر مع مرور الزمن.

وفي الآونة الأخيرة أقيم في «الأكاديمية الملكية للفنون» في لندن معرض بيزنطي فريد، ربما كان الأول من نوعه في الغرب، لا سيما أن الثقافة الغربية عموماً تعمدت لعدة قرون طمس التراث البيزنطي والتاريخ البيزنطي، وكان الغربيون يغارون من ذلك التراث ويناصبونه العداء. وقد استغرق تنظيم ذلك المعرض عدة سنوات وصرف عليه جهد كبير لأنه تضمن استحضار معروضات من بلدان ومتاحف عديدة حول العالم. وقد شاهدت ذلك المعرض الجميل بصحبة ابني عامر الذي قدم خصيصاً من أمستردام لهذه الغاية بناءً على طلبي. وكان بين المعروضات مبخرة كنسية فضِّية مخرّمة أنيقة الصنع مطعّمة بالذهب تعود الى القرن السادس الميلادي، وكتب على القسيمة الشارحة لتاريخها

بأنها عُثر عليها بالقرب من بلدة القرعون السورية.

وأول مفكر في الغرب بدأ جدياً بكشف النقاب عن الحضارة البيزنطية هو المؤرخ الأسكتلندي السير ستيفن رانسيمان، الذي نشر مؤلفات قيمة وعديدة عن بيزنطية وعن الحروب الصليبية[1]، ثم تبعه اللورد جون جوليوس نوريتش[2] الديبلوماسي البريطاني الذي خدم في بيروت حيث نضجت في رأسه القناعات البيزنطية التي حملته على كتابة مؤلفه الواقع في ثلاثة أجزاء. أما السير ستيفان رانسيمان فلم يكتفِ بالكتابة، بل أعد مسلسلاً تلفزيونياً تم تصويره في جميع أنحاء الإمبراطورية البيزنطية السابقة، خصوصاً في تركيا التي يعرفها جيداً، ولمعرفته بها قصة تجدر روايتها في هذا المجال، وقد سمعتها منه شخصياً، قبل سنوات من وفاته. وخلاصة الحكاية أن الرئيس التركي الراحل عصمت إينونو، زميل مصطفى أتاتورك وخليفته، قام يوماً بجولة على المدارس التركية ليتفقد أحوال التعليم فيها، فاكتشف في تلك الجولة أن منهاج تدريس التاريخ التركي في المدارس يبدأ من عام 1453 منذ سقوط القسطنطينية في يد السلطان محمد الثاني المعروف بلقبه «محمد الفاتح»، فجن جنون إينونو، وراح يؤنب القائمين على التعليم بقوله: «أليس لهذه البلاد تاريخ قبل ذلك؟». وبنتيجة تلك الجولة التفتيشية على المدارس التي قام بها الرئيس التركي آنذاك، تقرر تشكيل لجنة من كبار الأساتذة الأتراك على أن تكون برئاسة ورعاية أعلى مرجع في العالم عن التاريخ البيزنطي، فأشاروا عليه بأن المرجع المناسب لهذه الغاية هو السير ستيفن رانسيمان، فاستدعاه إينونو وأناط به مهمة إعادة كتابة تاريخ تركيا السابق للمرحلة العثمانية.

•••

من الأشياء التي احتفظت بها أنا، على سبيل المثال، «الكتاب المقدّس» بعهديه القديم والجديد الذي كان لجدي وفيه صفحات بيضاء دوّن عليها جدي ومن بعده والدي، تاريخ ولادات الأبناء والبنات في العائلة، بما في ذلك أحياناً ساعة الولادة. ومنه عرفت أن والدي مولود في 28 أيلول/سبتمبر من العام 1906، وأن عمي موسى مولود بتاريخ 15 آب/أغسطس من العام 1920 وهكذا.

---

(1) كتاب من ثلاثة أجزاء بعنوان:

A History of The Crusades, Cambridge University Press (1951)

الجزء الأول يتناول الحملة الصليبية الأولى، والجزء الثاني يتناول مملكة القدس، والجزء الثالث يتناول مملكة عكا. وقد شغل منصب رئيس المعهد البريطاني للآثار في العاصمة التركية أنقرة. ومن أشهر مؤلفاته أيضاً: «الكنائس الأرثوذكسية والدولة العلمانية» (1972).

(2) بدأ نوريتش مشروع كتابه عن بيزنطية أثناء خدمته الديبلوماسية في سفارة بلاده في بيروت حيث فهم الأبعاد الحضارية المطموسة في الغرب للدولة البيزنطية. وقد استقال من الخدمة في عام 1964 ليتفرغ للكتابة، فوضع عدة مؤلفات تاريخية قبل وضع كتابه المصنَّف جيداً وبعناية Byzantium, Viking (1991) في ثلاثة أجزاء أيضاً: الأول بعنوان «القرون الأولى»، والثاني بعنوان «الأوج»، والثالث بعنوان «الانحلال والسقوط».

وهو كتاب مترجم عن اليونانية، لكنه يشير الى الألفاظ المقطوعة من العبرانية، والسامرية، والكلدانية. وفي آخره بعد سفر «رؤيا يوحنا اللاهوتي» إشارة الى تاريخ إنجاز هذا الكتاب بسطر واحد يقول: «وكان الفراغ من اصطناع صفائحه في شهر تموز من أشهر سنة 1870 مسيحية في بيروت».

وقد قرأت في هذا الكتاب أخيراً وقارنته مقطعاً مقطعاً بالكتاب المقدَّس الإنكليزي المدعو «كتاب الملك جايمس»[3] وهو الترجمة الإنكليزية الأصلية والمعتمدة رسمياً حتى أمد قريب، فوجدت في الطبعة الإنكليزية أخطاء عديدة تعطيها نسختي العربية معاني مختلفة تماماً. وأظن أنه تم تعديل الكتاب الرسمي الإنكليزي في الآونة الأخيرة.

وفي صغرنا كنا دائماً نتساءل عن أطلال ذلك البيت المهيب الواقفة بقاياه على تلة تطل على الحارة التحتا، حيث بقيت قناطر عقده الأمامية قائمة فيما البيت مهدوم وحجارته متناثرة في المكان. وكان يقال لنا إن هذا هو بيت مصطفى أبو ريشة، وأن عائلة أبو ريشة غادرت القرعون الى فلسطين، ومنها الى منطقة حلب في سوريا. وقد التقيت عمر أبو ريشة مرة واحدة في حفل تأبيني للمناضل الفلسطيني خالد اليشرطي[4]، نجل الشيخ الهادي اليشرطي شيخ الطريقة الشاذلية المنتشرة في القرى الإسلامية المجاورة لجب جنين[5]، ومنها بلدة غزة البقاعية، بلدة آل مراد الذين صاهرهم عمر أبو ريشة. ولا أدري ما إذا كان أبو ريشة نفسه من أتباع الشاذلية، ليس بحكم زواجه من سيدة غزِّية، بل

(3) النسخة التي في حوزتي من هذا الكتاب ليس لها تاريخ، وهو أمر غير مألوف في تاريخ الطباعة وفي بدايته إهداء الى «الأمير الأعلى والأقدر جايمس، ملك بريطانيا العظمى، وفرنسا، وإيرلندا، المدافع عن الإيمان». وفي آخره مجموعة من الخرائط القديمة من ضمنها المخطط الهندسي للهيكل في القدس كما أعاد الملك هيرودوس بناءه قبيل ميلاد المسيح.

(4) المهندس خالد يشرطي هو نجل الهادي اليشرطي شيخ الطريقة الشاذلية المنتشرة في البقاع الغربي، وقد مات بسقوط حجر على رأسه وهو يشرف على بناء له في ساقية الجنزير، وقيل يومها إن قتله كان متعمداً. وراجت تلك المقولة من جديد عندما تم اغتيال زوجته ندى أبو غنيمة، كريمة الديبلوماسي الأردني صبحي أبو غنيمة، على مدخل المبنى الذي تقيم فيه وهي عائدة من القصر الجمهوري في بعبدا حيث حضرت اجتماعاً لا أذكر موضوعه، وبعد انتهاء الاجتماع المذكور أوصلها بسيارته الوزير جورج سعادة رئيس حزب الكتائب اللبنانية، قبيل اغتيالها بدقائق. وكان خالد يشرطي قد زار الصين في عداد أول وفد فلسطيني يقابل الزعيم الصيني ماو تسي تونغ، وبعد عودته أبلغني الحديث الذي قاله ماو للفلسطينيين فنشرته في «الأنوار» على صفحتها الأولى بعنوان: «ماذا قال ماوتسي تونغ للفلسطينيين؟».

(5) القرى المجاورة لجب جنين حيث انتشرت الشاذلية هي حوش الحريمي، وغزة، وكامد اللوز، والسلطان يعقوب الفوقا، والسلطان يعقوب التحتا (لوسي). وأذكر أنه عندما أعلن استقلال دولة جزر القمر في المحيط الهندي عن فرنسا في عام 1974، حضر زعماء الاستقلال هناك الى لبنان ليأخذوا بركة الشيخ اليشرطي الذي رافقهم في زيارة رعوية الى البقاع الغربي حيث أقاموا حلقات للذكر في تلك القرى، لأنهم يتبعون الطريقة الشاذلية، وهي الطريقة التي ادعى مشيختها لاحقاً السعودي (المغربي الأصل) شمس الدين الفاسي والد الأميرة هند زوجة الأمير تركي بن عبد العزيز.

لأن والدته هي من آل اليشرطي (السيدة خيرت أو خيرت الله اليشرطي)، مما يعني أن عائلة أبو ريشة التي هاجرت من القرعون الى فلسطين استقرت في مدينة عكا، ومنها انتقلت العائلة الى جوار مدينة حلب في سوريا حيث ولد عمر[6].

لكن عمر أبو ريشة كان محباً للبنان ويتردد عليه باستمرار. وعندما زار الرئيس اللبناني كميل شمعون البرازيل في مطلع خمسينات القرن الماضي، وكان أبو ريشة سفيراً لسوريا هناك، ألقى في استقباله قصيدة قال فيها لشمعون: «إني أرى فيك وجه الأتاسي»، إشارة الى الرئيس السوري آنذاك هاشم الأتاسي.

ولا أظن أن أحداً من آل أبو ريشة قد عاد الى القرعون، ولم أسمع أحداً تحدث عن سبب هجرتهم، لكن الشاعر عمر أبو ريشة تزوج سيدة بقاعية من بلدة «غزة» بالقرب من جب جنين، هي السيدة منيرة مراد، قريبة النائب والوزير السابق عبد الرحيم مراد وخالة السفير السوري في لندن سامي الخيمي. ولا أدري ما إذا كان عمر في شبابه قد مر بالقرعون في إحدى زياراته الى آل مراد في غزة البقاع (تمييزاً لها عن غزة القطاع في فلسطين). لكنني لم أسمع أحداً ذكر ذلك.

والطريق الموحل الذي يؤدي صعوداً من حارتنا الى أطلال بيت مصطفى أبو ريشة، كنا نسميه «الخليج» ويقع بين كنيسة القديس جاورجيوس وبين بيت فخم مبني من الحجر المنحوت وسطحه من القرميد المضلّع كان قد ابتناه خال والدتي رضوان سلوم وآلت ملكيته فيما بعد الى السيد حسن حجازي، لأن الخال رضوان انتقل من القرعون منذ زمن بعيد حيث كان يملك مزرعة في الجنوب بالقرب من صيدا اسمها «صيدون» تولاها من بعده نجله فايز سلوم الذي كان من كبار موظفي إدارة حصر التبغ والتنباك (الريجي). وفي أغلب الظن أن تلك المزرعة كانت تنتج التبغ. ولست أدري ماذا حل بها، وأعتقد أنها بيعت لأن والدتي كانت تقول لي عن ابن خالها فايز إنه «مسرف ومبعزق ولا يدوم معه شيء». لكنني ما زلت أذكر الزيارة التي اصطحبتني والدتي فيها الى خالها رضوان في آخر حياته في بيروت، وكان عجوزاً متزمِّلاً عباءة سميكة من وبر الجمل، ولم يكن باقياً منه سوى هيكله العظمي وعروقه.

وكنا نسمع من الكبار في عائلتنا أن شقيق جدي الأكبر، أي شقيق والد جدي وجد والدي، موسى فرح منصور الفرزلي، ويدعى منصور فرح منصور الفرزلي، كان صاحب نفوذ قوي أثناء حكم السلطنة العثمانية، لأنه كانت تربطه صداقة بحاكم أو متصرف تركي يدعى «هَوْلو باشا»، لكن شقيقه موسى فرح والد جدي

---

(6) قيل إن عمر ولد في بلدة «منبج» القريبة من حلب، وهي البلدة التي ذكرها الشاعر أبو فراس الحمداني، وفيها قوله:

قل للعجوز بمنبج — بُلِّغت أسباب المنيّة

لم تكن تروق له طريقة شقيقه منصور في صرف نفوذه لدى الباشا المذكور، ففترت العلاقات بين الأخ وأخيه.

•••

ممن ينتسبون الى القرعون أيضاً الأستاذ رجا حوراني الذي تربطنا به علاقة نسب بعيدة عن طريق جدتي حبوبة الخوري صليبا. وكان رجا من المثقفين المرموقين، وله ميول يسارية. وعندما كنت طالباً في الجامعة الأميركية التي يقيم وعائلته في شارع مجاور لها وأتردد عليه بين حين وآخر، كان ينصحني بأن أدوِّن يومياتي وأضمِّنها ما يلفتني من حوادث وتطورات وما يخطر لي من أفكار وآراء. ويؤسفني الآن أن أقول إنني لم أعمل بنصيحته تماماً، لكنني في مرحلة متأخرة عمدت الى كتابة ملاحظات متفرقة ومتباعدة عن بعض الأشياء التي كنت أعتبرها في حينه مهمة.

ورجا حوراني كان في عداد الوفد السوري الذي شارك في تأسيس هيئة الأمم المتحدة برئاسة فارس بيك الخوري، في «لايك ساكسس» بالقرب من مدينة سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا الأميركية، وبقي مسؤولاً في الأمم المتحدة بعد إنشائها في نيويورك في عهد أمينها الأول النرويجي «تريغف لي» الى أن سادت المكارثية[7] في الولايات المتحدة في مطلع خمسينات القرن العشرين فسرّحوه من منصبه بتهمة الشيوعية، فانتقل من نيويورك الى بيروت.

وهو والد عازف البيانو المعروف وليد حوراني الذي درس الموسيقى في موسكو على يد الموسيقي الروسي العالمي آرام خاتشادوريان. وحكى لي الأستاذ رجا عن ابنه وليد، وكان لا يزال طفلاً، أنه كان يقول عن نيويورك: «ما هذه البلد التي ليس في سمائها قمر؟»، وأنه ألف أول قطعة موسيقية وهو في الخامسة من عمره واسمها «الحزّوقة» Hiccup. ومن الأشياء التي أخبرنيها يومئذ أن جورج حداد شقيق زوجته، وهي من بلدة حمانا، هو الذي عض جورج عبد المسيح الأمين في الحزب السوري القومي الاجتماعي في أذنه وقطعها.

وقد حزنت حزناً شديداً عندما علمت أن مسلحين في راس بيروت في الثمانينات خطفوا مها ابنة رجا التي كنت تعرفت عليها سابقاً من أيام الدراسة

---

(7) المكارثية McCarthyism هي الممارسة التي تقوم على اتهام الناس بوجود صلة تربطهم بالمنظمات الشيوعية، وصار هذا المصطلح يستخدم اليوم للترهيب الثقافي. وقد دعيت باسم جوزف مكارثي(1908-1967) وهو سيناتور جمهوري عن ولاية «وسكونسن» الاميركية ادعى سنة 1950، في اوج الحرب الباردة، ان 205 اشخاص من موظفي وزارة الخارجية هم من المتعاطفين مع الشيوعية، وان 57 آخرين اعضاء في الحزب الشيوعي. ثم تبعت هذا الاعلان حملة تهدف الى اضعاف الثقة باعضاء بارزين ومبرزين في «الحزب الديموقراطي»، ومنهم دين اتشيسون، وجورج مارشال. وعندما اصبح جوزف مكارثي سنة 1953رئيساً لـ «اللجنة الفرعية الدائمة للتحقيق» تكثفت هجماته، فوجه اتهامات بحق وزير الدفاع روبرت ستيفنز، والعديد من الرسميين؛ والمثقفين؛ والفنانين. وادت نشاطاته الى نشر «اللوائح السوداء» التي تم بها القضاء على الحياة المهنية للعديد من الناس. وفي سنة 1954 دان مجلس الشيوخ نشاطات مكارثي ولجنته، فشن هجوماً على الرئيس دوايت ايزنهاور، وكان هذا الهجوم المركّز بداية نهايته السياسية.

في الجامعة، وزوجها سهيل خوري، وهو من أصل فلسطيني وأعرفه أيضاً، مع ولديهما، ولم يعثر لهم على أثر حتى اليوم. وعندما التقيت رجا خلال زيارتي الأولى الى بيروت في مطلع التسعينات، بعد عشر سنوات تقريباً على الحادث، وجدته متماسكاً رابط الجأش على الرغم من أنه كان كسير القلب وعلامات الحزن على وجهه.

وفي دمشق كان رجا حوراني يشارك خلال ثلاثينات القرن الماضي في إصدار مجلة ثقافية يسارية الاتجاه هي مجلة «الطليعة»[8]، وقد حصلت منها على عدة أعداد رائعة فقدتها ولم تعد في حوزتي. لكنني احتفظت منها بقصيدة للشاعر أحمد الصافي النجفي في شبابه ألقاها في دمشق في الاحتفال بألفية أبي علاء المعري عام 1936، وفيها يقول النجفي:

طاف المعرِّي في عكازه سحراً — يدعو أيا خالقي هبْ قوميَ البصرا
إني وقومي كلانا خابطان دجى — لكنني بالعمى وسطَ الظلام أرى
عكازتي هي أهدى من عيونهِمُ — كأنّ في طرفيها الشمسَ والقمرا
في مهرجانك درسٌ ناصحٌ لَهُمُ — أن يفقأوا أعيناً لم تعطهم بصرا

وكان النجفي يحب لبنان أكثر من اللبنانيين وظل مقيماً في بيروت حتى في أحلك أيام الحرب الأهلية الى أن أصيب بطلقات نارية فجرح وتم نقله الى بغداد من قبل الحكومة العراقية وتوفي هناك. وقد أصيب النجفي الذي كان قطع التسعين من العمر وشح بصره كثيراً بطلقات قنّاص على ما قيل لي وهو خارج من غرفة متواضعة كان ينام فيها لشراء رغيف من الخبز. وفور وصوله الى بغداد وفي الطريق من المطار الى المستشفى تحسّر على تلك العودة ببيت من الشعر يقول فيه:

يا عودةً للدار ما أقساها — أسمعُ بغدادَ ولا أراها

ومع أنه كان يحب بيروت فوق أي شيء آخر، إلاّ أنه كان يحب زيارة البقاع بين الحين والحين. وقد جمعتني به المصادفة في جب جنين عند أحد الأصدقاء، هو المرحوم الياس خليل عبود، ولست أدري ما إذا كان هو الذي استضافه، فتلوت عليه أشعاره عن المعرِّي، فاندهش لهذه المصادفة. ولما علم أنني متخرج لتوِّي من الجامعة الأميركية، وكان ذلك في مطلع الستينات، سحب من جيبه ورقة مكتوبة بالإنكليزية، وورقة أخرى كُتبت عليها أبيات من شعره باليد. وفهمت منه أن مستشرقاً إنكليزياً يجيد اللغة العربية ترجم له تلك الأبيات الى الإنكليزية، فقرأت الأبيات العربية أولاً، ثم قرأت النص الإنكليزي، وكان جيداً بصورة عامة، لكنني لاحظت أن كلمة «حِسام» التي استخدمها النجفي

---

(8) في البداية شارك في «الطليعة» بالإضافة الى اليساريين والماركسيين بعض المثقفين القوميين الدارسين في فرنسا ويحملون رواسب يسارية من بينهم ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار قبل تأسيسهما لحزب «الإحياء العربي» الذي تحوّل لاحقاً الى «حزب البعث العربي الإشتراكي».

بمعنى الحسم أو الفصل، ترجمها المترجم الإنكليزي على أنها «حُسام» بمعنى السيف. وقد سرّ النجفي سروراً عظيماً لهذه الملاحظة وشكرني عليها.

والعراقي الآخر الذي أحب لبنان ورفضته السياسة اللبنانية، هو الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري المدفون الآن في مقبرة الغرباء في دمشق. وفي حبه للبنان وصفه الجواهري في مطلع قصيدته بمبايعة بشارة عبد الله الخوري المعروف بالأخطل الصغير أميراً للشعراء في أواخر ستينات القرن الماضي بقوله: «لبنان يا خمري وطيبي». لكن السياسة اللبنانية طردته من الأراضي اللبنانية بسبب قصيدته المدوِّية في تأبين الزعيم الوطني اللبناني عبد الحميد كرامي[9]، ومطلعها:

باقٍ وأعمارُ الطغاة قصارُ ... من سفر مجدك عاطرٌ موّارُ
عبدَ الحميد وما تزالُ كعهدها ... شعبٌ يُذلُّ وأمةٌ تنهارُ

ومع أن الدولارات الأميركية الخضراء لم تكن معروفة وشائعة في زمن عبد الحميد كرامي، كما شاعت اليوم في عصر رفيق الحريري، إلاّ أن الجواهري في قصيدة رثاء عبد الحميد سلط على الدولار الضوء بقوله عنه:

يُلوى به عصبُ البلاد وتُشترى ... ذممُ الرجال وتُحجبُ الأفكارُ

وقد نشرت مجلة «الطليعة» الدمشقية في زمانها رثاءه الآخر المشهور أيضاً لجعفر أبي التمّن، في قصيدة عاهده فيها على مواصلة الثورة، بقوله له:

أأبا عزيزَ كنت تُذكي جذوتي ... ويلذُّ سمعَكَ منطقي وحواري
قسماً بيومك والفرات الجاري ... والثورة الحمراء والثوّارِ

ويبدو لي الآن أن غير اللبنانيين من العرب يحبون لبنان أكثر من اللبنانيين الذين عاثوا فيه فساداً، ومزقوا نسيجه، وفككوا لحمته، واستسهلوا قتل

---

(9) دعي الجواهري سنة 1950 للاسهام في حفل تكريم عبدالحميد كرامي في عهد حكومة رياض الصلح. وقد حضر الجواهري الاحتفال بعد الحاح شديد من لجنة التأبين التي كانت مؤلفة من رياض الصلح؛ حسين العويني؛ ،وعدد من الشخصيات اللبنانية المرموقة.

وفي تلك القصيدة الذائعة الصيت يتابع الجواهري هديره الشعري وكبار الساسة ورجال الدولة في الصفوف الامامية من القاعة الكبرى التي غصت على رحبها:

لبنان نجوى مُرّةٌ وسرارُ ... إنّا بحكم بلائنا سمّارُ
ماذا يراد بنا وأين يُسار ... والليل داج والطريق عثار

حتى إذا ما وصل الى قوله:

وصحافة صفر الضمير كأنها ... سلع تباع وتشترى وتعارُ
تنهي وتأمر في البلاد عصابة ... ينهي ويأمر فوقها استعمارُ

ثار ضجيج في القاعة، وأطفئت الأضواء لدقيقة، فهرع حرس السلطة يلتفون حول رياض الصلح في الصف الاول. وعندما أعيدت الأضواء ارتجل الجواهري بيتاً على الوزن والقافية نفسها فقال:

المجد، أن يحميك مجدك وحده ... في الناس لا شُرَطٌ ولا أنصارُ

بعد الاحتفال بيومين إستقالت حكومة رياض الصلح، وتولى الحاج حسين العويني رئاسة الحكومة الجديدة. وكان اول قرار اتخذته تلك الحكومة طرد الجواهري من لبنان، الامر الذي اثار عاصفة من التنديد في الصحافة اللبنانية والعربية.

وتدمير وتشريد بعضهم البعض، وأكثر من بعض اللبنانيين الذين يغلّفون كرههم لسوريا بالمبالغة في المحبة اللفظية للبنان.

•••

وخرج من القرعون أيضاً صحافي لا يعرفه جيلنا، هو سعيد الهيماني، قيل لنا إن الفرنسيين حكموا عليه بالإعدام لكنه فرّ الى جهة مجهولة ولم يعد أحد يعرف عنه شيئا، وهناك من يقول إنه استوطن في سوريا. ومن غرائب المصادفات أن ابنتي ريما عندما كانت في صف البكالوريا العليا في الثانوية الفرنسية «ليسيه شارل ديغول» في لندن مطلع الثمانينات من القرن الماضي، قالت لي إنها التقت زميلاً في تلك المدرسة اسمه أسامة الهيماني، يقول إنه من القرعون. لكنه لم يُتح لي حينها أن أقابله لأدقق في نسبه القرعوني.

ومن الذين خرجوا من القرعون بسبب مضايقات الفرنسيين لهم، طرّاف حيمور، الذي كانت له سطوة وهيبة، ولسانه حاد ولاذع، ويقول شعراً عامياً في الظواهر الاجتماعية التي لا تروق له. وآل حيمور هؤلاء أصحاب حميّة وبأس وكانت لهم سلطة فعّالة في غابر الأزمنة، وهم عرب أقحاح يعود نسبهم الى قبائل «حميَر» اليمنية، وكان كبارهم يلبسون الزي العربي كالدشداشة والكوفية والعقال، لكن الأجيال الجديدة منهم تخلت عن هذه العادة.

ويحكى عن طراف حيمور عندما غادر القرعون الى إمارة شرق الأردن، حيث استوطن بعض أفراد العائلة وانضموا الى الجيش الأردني ووصلوا فيه الى رتب عالية، أنه دخل على مجلس الأمير عبد الله (قبل أن يصبح ملكاً)، كاتباً على عباءته العتيقة شبه البالية عبارة التشهد «أشهد أن لا إله إلاّ الله»، فسأله الأمير عبد الله: «وأين البقية؟».

قال طراف (ويعرف بلقبه أبو ناصر): «أي بقية؟».

قال الأمير: بقية الشهادة «وأشهد أن محمداً رسول الله».

فقال أبو ناصر: «هذه يا مولانا صُنعت قبل محمد».

فغشي الأمير عبد الله من الضحك وأمر له بعباءة جديدة.

والمتوارث عن آل حيمور في القرعون أنهم صريحو العبارة، جريئو الموقف، ويمقتون الطائفيين والمتعصبين والمتزمتين. وكانوا في زمانهم على أخوّة تامة مع آل الفرزلي. فإذا التقى واحد منهم بواحد منا في أي مكان لا يناديه باسمه بل بعبارة «يا ابن العم». وكان طراف حيمور الذي فقد بصره في شيخوخته وصار ضريراً، على نفور مع المفتي أبو السعود القادري، ويدعي أن المفتي القادري كان يمارس لعبة مزدوجة في القرعون، فهو على علاقة مع الفرنسيين في السر، ويحرض المسلمين على التعصب الطائفي ضد المسيحيين لا على العداء للفرنسيين. وفوق ذلك، كان يدعي أيضاً أن المفتي كانت له علاقة مع بعض المسيحيين من ذوي الميول الفرنسية ويسهر عندهم حيث يمارس عادات

غير إسلامية كالشراب ولعب الورق. ثم اتهمه علناً وعلى رؤوس الأشهاد بأنه سطا على أموال الوقف بما في ذلك السجادات التي كان يستعملها المسلمون للصلاة في الجامع. فعندما جاء مفتش للأوقاف من بيروت الى جامع القرعون وجد الجامع عارياً والمصلون يركعون على التراب، فغضب وراح يوبخ أهالي البلدة بالقول: «ألا تستحون على دمكم يا أهل القرعون، ألا تخافون الله، أليست لديكم سجادة، أليس لديكم بساط أو حصيرة حتى تركعوا على التراب».

فانبرى له طراف حيمور قائلاً: «يا مولانا.. جامعنا يلعب القمار».

فانتفض المفتش وقال: «ما هذا الكلام البذيء».

فرد عليه طراف قائلاً: «نعم يا مولانا.. لعب مع المفتي وخسر».

وفي فترة من الفترات ذهب بعض شبان القرعون للدراسة في الأزهر الشريف في القاهرة، وعاد منهم معمماً شاب معروف باسم الشيخ رضا دباجة، جرى له استقبال حاشد في مدخل القرية بعد عودته شيخاً له لحية وعمامة، يسمونها بالدارج «اللفة». وكان في الطرف الخلفي من منزلنا في آخر الباحة الواسعة بقايا مبنى منخفض السقف كنا نسميه «الخربة»، فيه بيت الخلاء وتستخدمه والدتي لخزن الحطب والوقد الى جانب قن للدجاج، والى جواره بيت جميل للجيران، وكنت دائماً أصعد الى سطح الخربة المطل على حديقة بيت الجار الذي يسميه أهل القرعون «المستر شبلي»، ويسمون زوجته «المستيرة»، أي أنثى المستر. وكان المستر شبلي مغترباً في أميركا، وعاد الى القرعون فبنى ذلك البيت المقرمد على الطريقة الأميركية مع حديقة من العشب الأخضر ومساكب ورد وبيت خشبي للأدوات المنزلية، ومنها ماكينة غسيل تدار باليد لا شك في أنها صناعة أميركية، ولها أسطوانتان خشبيتان متلاصقتان يوضع الغسيل بينهما فتعصرانه. وإذا دخلت الى ذلك البيت المسيّج تخال أنك في أميركا ذاتها وليس في الشرق.

وكنت عندما أصعد الى سطح خربتنا، أشاهد ابنة المستر شبلي، واسمها هيفاء، تعمل في الحديقة أو تغسل، أو تأكل الكاتو الذي كانت رائحته الشهية تسبقه. وكانت صبية حلوة بيضاء اللون سوداء الشعر جميلة الوجه. ولما أراد الشيخ رضا أن يتزوج دلوه على هيفاء شبلي فاستحسنها ووقع في حبها، لكنه عندما طلب يدها قالت له إنها تقبل بشرط واحد هو أن يحلق ذقنه ويلقي اللفة جانباً. وحاول الشيخ رضا عبثاً أن يقنعها بأن ذلك يشكل فضيحة له بين الناس، لكنها أصرت على شرطها، فحلق لحيته ونزع عمامته، وتزوج من هيفاء ورحل معها الى أميركا ولم يعد.

وذات يوم كان أبو ناصر طراف حيمور مقرفصاً في الشمس لاقياً ظهره على حائط الجامع في الساحة، مر به أحدهم وقال له: «هل علمت يا عمي أبو ناصر بما حدث؟». فسأله أبو ناصر: «وما حدث؟». فقال له: «الشيخ رضا نفذ

شرط هيفاء فحلق ذقنه ونزع عمامته.» فقال أبو ناصر: «هكذا». فقال له محدثه: «نعم هكذا». فأنشد طراف بيتاً من العتابا تحدثت به الركبان من القرعون الى ديترويت ميشيغان، حيث قال في الشيخ رضا هاجياً:[10]

أمــور الــشــرع ولّـفـهـا ولـفّـا بـحـيـاتـو مـا عـزم ضـيـفاً ولـفّى
بعلمي كـان إلـو لـحـيـة ولـفّة شلحها بحضن هيفا وما استحى

وكان لطراف حيمور ابن اسمه عبد الغني، إذا لقيته عن بعد تظنه أميراً بلباسه العربي المهيب وعقاله الذي يزيده هيبة. وكان ابن العم عبد الغني متوقد الذهن حاضر البديهة كوالده، لكنه لم يأخذ حقه في الحياة بسبب إدمانه على شرب العرق من الصباح الى المساء، فصار الناس يهربون من دربه ويتحاشون الاحتكاك به. أما أنا فكنت أكن له معزة خاصة، وأستقبله بالترحاب، وأحياناً أنادمه عندما كان يزورنا في جب جنين، وكانت والدة زوجتي تكرمه تكريماً خاصاً وتعد له الطعام إذا حضر في وقت مناسب. ولم يكن ابن العم عبد الغني يبادر أحداً بسوء أو عدوانية، بل ظل حافظاً أدبه ولياقته حتى وهو في حالة السكر الشديد.

ومرة كنت أتمشى معه في الشارع يقص علي الحكايات الممزوجة بالألم شاكياً من الزمان الذي رفع السفلة والأوغاد وخفض كبار النفوس، فتوقف فجأة عن المشي، وأمسك بيدي، وقال: «يا ابن العم .. نحن من بقايا السيوف».

وهزني هذا التعبير الى الأعماق.

وبعد ذلك بفترة قصيرة قمت بجولة في الاتحاد السوفياتي في ربيع عام 1971، بدعوة من اتحاد الصحافيين السوفيات، برفقة الزملاء توفيق المتني صاحب جريدة «الطيار»، وسليمان أبو زيد صاحب جريدة «الدنيا»، ومحمود الحكيم صاحب جريدة «صوت العروبة» وشقيق رئيس حزب النجادة عدنان الحكيم، وكان الوحيد بيننا الذي اصطحب زوجته معه. (وسوف أعود الى هذه الزيارة في مكان آخر). وعند وصولنا الى مدينة لينينغراد (سانت بطرسبورغ حالياً)، تقدم مني رجل في مطلع الأربعينات من العمر وقدم نفسه على أنه «المستر رومانوف»، وأن النقابة انتدبته لمرافقتي في الرحلة الى لينينغراد وموسكو. وكان المستر رومانوف هذا أنيق الملبس، يتكلم الإنكليزية بطلاقة وبلغة راقية، لكنه كان يأتي اليّ في العاشرة صباحاً تفوح منه رائحة الفودكا، ويشرب طول النهار والليل كالحوت، الى أن أسكرني معه ذات ليلة وعدت الى

---

(10) أبلغني شقيقي الخوري نقولا المقيم في البرازيل أنه قام في ثمانينات القرن الماضي بجولة في الولايات المتحدة وكندا التقى خلالها الشيخ رضا، من جملة لقاءاته مع المهاجرين من القرعون، وكان تقدم في السن ولم تفارقه روح النكتة ورحابة الصدر، فروى له حكاية هجاء طراف حيمور له وعدم تحمله البقاء في البلدة بعد ذلك اللغط الذي رافق زواجه من هيفا بنت المستر شبلي.

غرفتي في فندق «أستوريا» الفخم فألقيت نفسي على السرير فشعرت أنه يدور بي كالدوامة ولم أدر كيف طلع الصباح، لكن المستر رومانوف بقي صامداً كالطود. وفي الليلة التالية بقيت صاحياً بينما المستر رومانوف يكرع الفودكا كما الماء. فحضر لي فجأة خيال ابن العم عبد الغني، فقلت للمستر رومانوف ممازحاً:

«هل أنت من العائلة البائدة؟».

فقال :«نعم .. كيف عرفت ذلك؟».

فقلت له: «إنه مكتوب على جبينك».

ثم قلت له ما قاله لي يوماً عبد الغني حيمور: «يا مستر رومانوف.. نحن من بقايا السيوف». فانقلب على قفاه من الضحك.

وكنا ونحن نمشي بين الناس في المدينة الروسية الشمالية العظيمة، يمر رجل بنا فيقول المستر رومانوف: «هذا واحد منهم». فلم أفهم ما قصده، فخطر لي إنه واحد من رجال المخابرات. وبعد فترة يمر آخر فيقول «وهذا واحد منهم»، فأخال إنه يقصد الإشارة الى أنه من مثليي الجنس، ويمر آخرون فينتقي واحداً ويقول لي أيضاً: «هذا واحد منهم».

فلاحظ أنني لم أفهم ما قصد فالتفت الي وقال لي: «ألا تعرفهم؟».

قلت له: «من هم هؤلاء؟«

قال: «وتدعي أنك تقرأ ما هو مكتوب على الجبين؟ هؤلاء كلهم من اليهود. كيف أنت من الشرق على حدود إسرائيل ولا تعرف من هم؟ أنا أعرف الواحد منهم بين تجمّع من ألف رجل».

قلت له: «كيف لي أن أعرفهم وأنا لم أشاهد يهودياً واحداً في حياتي؟».

قال: «هؤلاء أناخوا روسيا الى الأرض وجثموا على صدرها كالكابوس واليوم صار لهم شأن في بلادكم. فهل سمعت آخر نكتة عنهم متداولة هنا؟».

قلت: «وما هي؟».

قال: «إسرائيل هي بيضة الديك في آخر الزمان. إسألني متى باض الديك؟».

قلت له ملبياً طلبه: «ومتى باض الديك؟».

قال: «باض الديك عندما صار الألماني تاجراً وصار اليهودي مقاتلاً؟»

•••

ومن بقايا السيوف في القرعون الأستاذ عمر فاضل رئيس النادي الثقافي العربي في بيروت. ولست أدري ما إذا كان عمر فاضل يزور القرعون، ذلك أني لم أتعرف عليه فيها بل في الجامعة الأميركية في بيروت. لكنني كنت أعرف في القرعون شقيقته شريفة فاضل، وشقيقته الأخرى سهيلة فاضل زوجة الدكتور رياض القرعاوي الشقيق الأصغر للشيخ قاسم القرعاوي. وينتمي عمر فاضل الى حركة القوميين العرب، ويمكن القول إنه كان من مؤسسي الحركة أو من

الأوائل فيها الى جانب الدكتور جورج حبش، ووديع حداد، وهاني الهندي وغيرهم.

لكن حركة القوميين العرب لم تنتشر في القرعون شأن أحزاب وحركات أخرى مثل الحزب الشيوعي وحزب البعث العربي الاشتراكي والحزب السوري القومي الاجتماعي، قبل اتساع موجة الحركات الإسلامية وتيار الحريري في السنوات الأخيرة. وهذه نقطة تسجل لفاروق دحروج الأمين العام السابق للحزب الشيوعي، ولا تسجل لعمر فاضل وحركة القوميين العرب، مع أن القرعون كما سبق وأشرت كانت معقلاً لعصبة العمل القومي في الجيل السابق لنكبة فلسطين، بينما حركة القوميين العرب نشأت بفعل تلك النكبة التي عاصرناها نحن وعمر فاضل.

وقيل لي أخيراً إن عمر فاضل قريب في هذه الأيام من تيار الحريري، وإنه قدم باسم النادي الثقافي العربي درعاً تقديرية لرئيس الحكومة اللبنانية السابق فؤاد السنيورة. ولم أفاجأ بهذه الخبرية لأنني أعرف، بعد تجربة ممضة ومديدة في الصحافة وعلى أطراف السياسات المحلية والقومية، أن كل شيء ممكن في هذه الأيام التي اختلط فيها الحابل بالنابل، وصار الغش في المعايير معيار النجاح.

وأياً كان الأمر، يبقى عمر فاضل أحد أبرز بقايا السيوف القرعونية التي لمعت ذات يوم في فضاء النهضة العربية التي لم يحالفها الحظ، فتكسرت سيوفها، أو انكفأت، أو تأجرت، أو بيعت، فخبا بريقها قبل أن تنطفىء شعلتها.

•••

وكانت السهرات في القرعون، خصوصاً في الشتاء، مسرحاً للمشادات والمماحكات، لا فرق فيها بين لعب الورق، وبين الحروب الكبرى التي تقرر مصير الناس من غير أن يكون لهم فيها ناقة أو جمل، أو أي كلمة. ففي لعب الورق، مثلاً، تتصدر الشماتة بالمغلوب شعراً ونثراً وتلميحاً وتصريحاً الى أن يطرح التحدي من جديد ليأخذ المغلوب فرصته لرد اعتباره. وهذا ما يسمونه «التزريك». وغالباً ما يتطور «التزريك» الى مدار عقائدي، فيُطعن المغلوب في عقيدته وكأن عقيدته السياسية أو الحزبية هي التي انهزمت. فإذا كان أبو موسي مثلاً يميل الى الشيوعية والشيوعيين، كانوا يزرِّكون له بالقول: «بعلمي يا أبو موسي/ محسوب عالجيش الروسي»، وكأن أبو موسي هو الماريشال جوكوف وقد انهزم على أبواب برلين[11].

(11) المألوف في «التزريك» أن يُقَرّع الغالب المغلوب ويتهمه بالجهل والغفلة والتقصير عن مجاراته في الذكاء والنباهة والمقدرة على التفنن في مداورة الورق ومراقبة أنواعه والاضطلاع بمتطلبات النجاح في لعبه. ومن آداب لعب الورق في السهرات، الشتوية والصيفية، أن يتحمل المغلوب «التزريك» بطيبة خاطر ورحابة صدر، ومن خانته اعصابه فثار او سخط، جونبت ملاعبته في السهرات، ويصبح في نظر اصحابه ممن لا تحسن عشرته، وقد يقصى من مجتمعهم

أما نُقل الضيافة في السهرات الشتوية فهو من الإنتاج المحلي أيضاً كالجوز واللوز والزبيب والتين اليابس، ولـلأولاد «القضامي»، وهي عبارة عن حب الحمص المطرّى والمحمص في محمصة القضماني، الذي كان يتقاضى أجره لقاء تحميص الحمص وتحويله الى قضامي مقداراً متفقاً عليه من الحمص الخام. والمعايير المتبعة هي إما راس براس، أي كيلة حمص لقاء كيلة قضامي، أو راسين بـراس أي كيلتين مقابل الكيلة الـواحـدة. وكانت القضامي على أنـواع منها «الموشّم» وهي القضامي الصفراء الطرية غير المملحة وكنا ندقها ونسحنها ونخلطها بالسكر ونسمي ذلك «نعّومة». وهناك «المملّحة» وهي أصلب لأنها معالجة بالملح وطعمها مالح، ومنها أيضاً أنواع تختلف في درجة الملوحة.

وكان السهِّيرة يجلسون على مدّات في الأرض وأمام كل منهم صحن ضيافة مما تيسر في بيت المضيف. وقبل لعب الورق يتجاذبون أطراف الحديث عن شؤون القرية أو الزراعة والمواسم أولاً، ثم عن الشؤون السياسية المحلية والدولية. فهذا يقول إن كل ما يحدث في العالم هو من دسائس الإنكليز، وآخر يقول إن هتلر سوف يجتاح العالم، وثالث يقول إنه لولا روسيا لما تركّب جرس في هذه البلاد، وهكذا دواليك، فيفصلون السياسة الدولية كل على هواه.

لكن روسيا كانت لها الأرجحية بين أبناء طائفة الروم الأرثوذكس، لا فرق في ذلك بين روسيا القيصرية وبين روسيا البلشفية. ويروى لنا أن اثنين من أبناء القرعون اختلفا في المماحكات بينهما على الفريق المنتصر في الحرب الروسية ـ اليابانية في عام 1905. فكان أحدهما يصر على أن روسيا هي المنتصرة، وعبثاً حاول الآخر أن يقنعه بأن اليابان هي المنتصرة. فقال له أخيراً: «يا أخي.. لماذا كبر الراس؟ القيصر نفسه اعترف بالهزيمة». فأجابه محدثه حانقاً: «فليعترف القيصر أنا لا أريد أن أعترف».

وعندما كنا في الصفوف الابتدائية أعطونا كتاباً للقراءة باللغة العربية اسمه «المشوِّق»، وفيه قصة «الحلّاق الثرثار» لكاتبها المصري ابراهيم عبد القادر المازني، وهي قصة ساخرة أيضاً عن الحرب الروسية ـ اليابانية، حيث رسم الحلّاق على رأس الزبون خريطة المعركة، ثم ضربه بموسى الحلاقة على رأسه حيث ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية. ومن غرائب المصادفات أنني التقيت ابن المازني في جب جنين في انتخابات 1972، وكان ضابطاً في الاستخبارات المصرية ملحقاً بالسفارة في بيروت، جاء ليعد تقريراً عن تلك الانتخابات لسلطات بلاده.

الى ان يصلح نفسه ويجاري في ذلك جميع ابناء قومه.



X

متى عاد الزعيم

العمل السياسي في لبنان حالة فريدة، ولا فرق فيها بين السياسات المحلية التقليدية، وبين الأحزاب القومية والعقائدية من اليمين الى اليسار.

وإذا كان هناك من فرق ففي الدرجة والشكل وليس في الجوهر. بحيث أن أي مرشح للانتخابات من عائلة معينة، تحزبت له ونصرته العائلة بكاملها، وإذا دخل شاب مرموق في حزب معين، مالت عائلته الى ذلك الحزب، وأحياناً قريته بكاملها. وهذا ما حدث في بلدة «مجدل بلهيص» في أعلى الجبل المطل على وادي التيم عندما دخل أحد البارزين من آل حمود في «الحزب السوري القومي الاجتماعي» الذي أسسه وتزعّمه أنطون سعادة. فصارت بلدة المجدل ميّالة الى الحزب القومي، أو على الأقل آل حمود فيها.

ومع أن مجدل بلهيص تابعة لقضاء راشيا، إلاّ أن وجهها على القرعون. ولم يكن في ذلك الوقت طريق يوصل المجدل ببقية لبنان، أو حتى بالقرى المجاورة، فكان إذا أراد أهلها الذهاب الى زحلة أو بيروت لقضاء حاجاتهم، يأتون جماعات الى القرعون مشياً على الأقدام أو ركوباً على الحمير نزولاً في بطن الجبل.

ومن القرعون كانوا يركبون «البوسطة» الوحيدة آنذاك متجهين الى زحلة ومنها الى بيروت. وكانت الساحة التي تنطلق منها البوسطة في القرعون قبالة منزلنا، وكنا نهرع الى البوابة الخارجية لنتفرج على موكب أهل المجدل حاملين رايات الزوبعة، علم الحزب السوري القومي الاجتماعي، يحدون بصوت جماعي:

يا زوبعة الله معك عالموت نحنا بنتبعك
بكرا متى عاد الزعيم فوق السرايا بنرفعك

يومها لم يكن عمري يزيد عن عشر سنوات، وكان المناخ السياسي في بيت جدي مختلفاً ويميل الى اليسار القائم على التحزب لروسيا. وأذكر أن جدي وعمي كانا يتلقيان بالبريد نشرة وكالة «تاس» السوفياتية مطبوعة على ورق أسمر، وعلى الوجهين، بحيث أن قراءتها كانت صعبة وفي أغلب الأحيان غير ممكنة.

وعندما كنت طالباً ثانوياً في بيروت كان عمي يصطحبني معه أحياناً الى المركز الثقافي السوفياتي في منطقة القنطاري، ويدعى «ڤوكس»، لحضور بعض أفلام السينما الروسية. لكن لا جدي ولا عمي كان عضواً في الحزب الشيوعي. ولا أنا اجتذبني ذلك على الرغم من احتكاكي في بيروت ببعض الشيوعيين الملتزمين، سواء من أهالي القرعون أو من الطلاّب في الجامعة الأميركية، أذكر منهم نزار مروّة نجل الأديب حسين مروّة وكان طالباً في كلية العلوم يدرس الفيزياء.

والمفارقة في الأمر أن جدي جلَبَ أفكاره المائلة الى الشيوعية من أميركا عرين الرأسمالية. فقد كان يتوافد على تلك البلاد أثناء وجوده هناك مهاجرون من روسيا، يبدو أنه احتك بهم بدليل أنه كان يعرف بعض الكلمات المتداولة في اللغة الروسية. وربما اكتسب ميوله منهم، أو على الأقل اطلع على الأفكار المتداولة في روسيا التي تركوها خلفهم.

وكان جدي، وأهل حارتنا عموماً يتحدثون عن تلك الأيام التي كان فيها قنصل روسيا في لبنان «يذبح بظفره»، أو «يفك المشنوق»، حسب تعبيرهم الدارج، حيث كانوا يعتبرون أن روسيا هي حامية الأرثوذكس أسوة ببقية قناصل الدول الكبرى التي كانت تحمي الطوائف الأخرى.

وخلال عملي في الصحافة في بيروت مطلع السبعينات، تعرفت على مراسل روسي لوكالة «نوفوستي» ملحق بسفارة بلاده اسمه بيتر أورلنكو، ونشأت بيننا علاقة صداقة، فكان يدعوني وعائلتي الى الغداء أو العشاء، وأبادله الدعوة بالمثل. ومرة دعوته الى الغداء مع زوجته وابنه الى مطعم في القاطع الغربي من البقاع بالقرب من «دير عين الجوزة» (دير للرهبان الكاثوليك المخلصيين مرجعيتهم في دير المخلص بالقرب من صيدا) يطل على بحيرة القرعون اسمه «شاليه دو لاك». وبعد الغداء اقترحت عليه أن نذهب عن طريق السد الى القرعون لزيارة جدي اسكندر، وكان أقعده العجز ولزم الفراش.

لما دخلنا الى غرفته عرفني من صوتي لأن نظره بات شحيحاً جداً، فسلمنا عليه أورلنكو وأنا.

قلت له: «إن قنصل روسيا جاء الى هنا لزيارتك». فبدأ يلقي عليه الكلمات الروسية التي ما زال يحفظها، فتعجب الصحافي الروسي من ذلك، لأنه لم يكن يتوقع أن يجد أحداً في تلك الديار النائية من لبنان يعرف كلمة روسية!

أبلغني والدي فيما بعد، أنه كلما جاء أحد من الحارة لزيارة جدِّي كان يروي له أن قنصل روسيا زاره خصيصاً معطياً لنفسه أهمية وهمية. طبعاً، بيتر أورلنكو لم يكن قنصلاً، لكنني عرّفت جدي عليه بهذه الصفة من قبيل المزاح لعلمي من طفولتي ماذا كانت تعني كلمة «قنصل روسيا» في الزمن العثماني وفي المسألة الشرقية عموماً.

وعندما كان أهل مجدل بلهيص ينزلون من الجبل يحوربون لزعيمهم ملوحين براية الزوبعة، لم أكن يومها أعرف ما تعني الزوبعة، ولماذا يريد أهل المجدل رفعها فوق السرايا، ومن هو هذا الزعيم الذي سوف يتبعونه حتى الموت. لكنني كنت أرى أن الميّالين الى الشيوعية أو محازبي روسيا، كانوا يمتعضون من ذلك. فكانت الفجوة بين أنصار السوري القومي وبين أنصار روسيا الذين صاروا يسمون أنفسهم فيما بعد «أنصار السلام»، غير قابلة للردم، بل كانت على اتساع.

وفي مقابل الحوربة القومية للزوبعة وللزعيم، كان الشيوعون ومناصروهم في البلدات البقاعية جميعاً لهم أيضاً حوربة مضادة، فكانوا يقولون:

تيموشنكو حطمك يا زوبعة كسّر صليبك عابواب ستالينغراد

وتيموشنكو[1] هذا هو القائد العسكري السوفياتي (وهو من أهل أوكرانيا) الذي قاوم الاحتلال الألماني لمدينة ستالينغراد (أعيد اليها اسمها السابق قبل الشيوعية وهو فولغوغراد) بقيادة الفيلد مارشال فون باولوس الذي ما لبث أن استسلم للروس على الرغم من حث هتلر له على القتال حتى النهاية. ذلك أن الشيوعيين وأنصارهم كانوا يعتبرون أن عقيدة الحزب السوري القومي الاجتماعي هي عقيدة نازية، وأن الزوبعة هي تقليد مبتكر للصليب الهتلري المعقوف (سواستيكا). لكنني عندما قمت مع زوجتي بجولة في الصين من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب ربيع عام 2006، لاحظت في المعابد البوذية وجود تماثيل لبوذا تحمل على صدرها علامة الصليب المعقوف لكن بالمقلوب، فاشتريت في معبد البوذا الأبيض، في مدينة شنغهاي (حيث تمثال بوذا هناك مصنوع من الجاد الأبيض الثمين والنادر، والذي استطاع رهبان ذلك المعبد إنقاذه من براثن الحرس الثوري الأحمر في زمن الثورة الثقافية التي قادها ماو تسي تونغ في ستينات القرن الماضي) نسخة من التمثال الذي يحمل الصليب المعقوف على صدره، أهديته الى الزميل ريمون عطا الله الذي يجمع تحفاً من هذا النوع.

•••

الى هذه الدرجة كان العداء مستحكماً بين الفريقين طوال الأربعينات من القرن الماضي. بل إن الحزب السوري القومي الاجتماعي كان يواجه المد الناصري المدعوم من الشام في صيف 1958 فاستمالهم كميل شمعون اليه في مواجهته للقوى اللبنانية المدعومة والممولة من سوريا ومصر ، بسبب انحياز الرئيس شمعون الى حلف بغداد الذي كان يرعاه الأميركيون والإنكليز، وبسبب الادعاء بأنه يميل الى تجديد ولايته مع أنه لم يجاهر يوماً بذلك.

---

(1) انضم تيموشنكو الى البلاشفة في وقت مبكر، أي في عام 1918، وأبلى بلاءً حسناً في الحرب الأهلية ثم في الحرب العالمية الثانية، وكانت تربطه علاقة صداقة شخصية مع جوزف ستالين، مما جعله أقوى ضابط في سلاح المشاة في الجيش الأحمر.

ولم يبدِّل الحزب القومي من عقيدته تبديلاً جذرياً من اليمين الى اليسار إلاّ في مطلع السبعينات بعد خروج قياداته من السجن على أثر فشل المحاولة الانقلابية على الرئيس فؤاد شهاب وعهده بعدما قطع أكثر من نصف مدته الدستورية.

وكان من قادة تلك المحاولة الضابط في الجيش اللبناني فؤاد عوض الذي كانت تربطه صداقة حميمة مع أخي الأصغر دانيال، فتعرفت عليه عنده في مطلع التسعينات، ونشأت بيننا صداقة مماثلة، فحدثني ملياً عن تجربته الحزبية كلها، بما فيها المحاولة الإنقلابية المذكورة. ومن معرفتي الوثيقة بفؤاد عوض، وبرأيه في بعض قيادات الحزب، وبتصوراته الذاتية لما جرى ويجري في لبنان والمنطقة، أؤكد أنه صادق ومستقيم ولا يحابي أو يتحيز أو يوارب.

وفي زيارة لي الى لبنان جاء مع أخي لاستقبالي في مطار بيروت، وكان خارجاً لتوه من عملية جراحية في المستشفى، فتوجهنا الى بيت أخي المطل على القصر الجمهوري في بعبدا من ناحية «الجامعة الأنطونية»، وفتحت معه سيرة المحاولة الانقلابية، ولماذا شارك فيها، وهل يظن أنه كان من الممكن أن تنجح. وسوف أختصر جوابه هنا لأنني لست بصدد التأريخ لتلك المرحلة. فقد فاجأني بقوله إن الانقلاب لم يفشل من الناحية التقنية، بل إن هذا النجاح فاجأ المشاركين فيه، ولا سيما أن ضباطاً كباراً في الجيش من غير القوميين كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للانضمام اليه. فما أفشل الإنقلاب، كما قال لي، هو عدم الرغبة في سفك الدماء، خصوصاً عدم رغبته هو في ذلك.

•••

كانت البوابة الرئيسية لبيتنا تطل على ساحة البوسطة. لكن في الطريق الفرعي الواقع فوق مرآب البوسطة لجهة الشرق، كان هناك باب مقفل باستمرار لأنه يؤدي الى غرفة «الطحش»، كما كانت تسميها والدتي، أي مختلف الأدوات المنزلية من طناجر وحلاّت نحاسية الى دسوت وألكان وأطباق قش... ذلك أن الباب الذي ندخل منه اليها يقع في باحة الفناء الداخلي عند المصطبة، أما الباب الخارجي فلم يكن يفتحه أحد.

وذات يوم طرق بابنا شاب وسيم، أنيق المظهر، فهرعت والدتي الى استقباله بالعناق والقبلات والدموع تترغرغ في عينيها. أما أنا فلم أكن قد شاهدت من قبل هذا الرجل الذي تبدو عليه آثار النعمة. وعلمت بعد هذه «الترجومة» العاطفية، ودموع التأثر، أن هذا الغريب هو ابن خالتي سعيدة المهاجر في المكسيك. وكانت خالتي سعيدة تكنّى بأم عسّاف، وهي قريبة جداً من أمي على الرغم من الفارق الكبير بينهما في السن، وكانت في زيارتها عندما سقطت عن الدرج وفارقت الحياة. فعلمت أن هذا الرجل الغريب هو عسّاف العائد من المهجر.

وبعد السلام والكلام والاستفسار، طلب عسّاف من والدتي أن تعطيه تلك الغرفة الجانبية ليفتح بابها من الجهة الغربية على الطريق الفرعي ويسده من داخل البيت، فاستغربت والدتي هذا الطلب غير المتوقع، وسألته:

«لماذا تريد هذه الغرفة؟».

فأجاب: «أريد أن أفتح دكاناً».

فنظرت اليه أمي نظرة استخفاف مقطبة جبينها قائلة:

«أتقول لي إنك جئت من المكسيك لتفتح دكاناً في القرعون؟ هل جننت؟ كبِّر عقلك يا خالتي وروح رجاع لعند عيالك». لكن عسّاف أصر من غير أن يكشف شيئاً عن غايته الحقيقية.

ابن خالتي هذا هو عسّاف أبو مراد المنضوي في الحزب السوري القومي الاجتماعي، وكان أول من منحه الزعيم أنطون سعادة رتبة «الأمانة» سنة 1947.

نزلت أمي عند رغبة ابن شقيقتها وأعطته الغرفة و... فتح الدكان.

والد عساف واسمه مسعود أبو مراد كان من أغنياء القرعون، وسبق أن هاجر الى المكسيك، وله أقارب أغنياء هناك كان بعضهم يملك مناجم للفضة. ولم تصدِّق والدتي عينها، وظل يساورها الشك في تلك الدكان السخيفة، التي تحولت في الواقع الى ملتقى وكأنها ناد اجتماعي.

ولم ينقشع الغمام عن ذلك اللغز إلاّ عندما ألقت قوى الأمن القبض على عسّاف وأودعته السجن لمشاركته في الانتفاضة المسلحة التي قام بها الحزب القومي سنة 1949 وأدت الى إعدام الزعيم. وكانت المهمة الموكلة اليه مع مجموعات من رفاقه مهاجمة مخافر الدرك في المنطقة ابتداءً من مخفر مشغرة واحتلالها بغاية السيطرة على البلاد وعلى الحكم.

عندئذ فهمت معنى حداء أهل مجدل بلهيص: «يا زوبعة الله معك/ بكرا متى عاد الزعيم فوق السرايا بنرفعك».

وقد قضى عسّاف أبو مراد في السجن عدة سنوات، فعاد الى المكسيك بعد خروجه، ولم يعد الى لبنان. ثم انتقل من المكسيك الى مدينة هيوستون في ولاية تكساس الأميركية حيث وقع له حادث سيارة فتكسرت عظامه كلها ودخل في غيبوبة (كوما) استمرت سنة كاملة عاد اليه بعدها وعيه وانطبق عليه المثل اللبناني القائل: «من له عمر لا تقتله شدة». لكنه ما لبث أن فارق الحياة قبل سنوات قليلة لأسباب طبيعية.

ولم تكن العقيدة السورية القومية الاجتماعية مفهومة في العالم العربي خارج لبنان ومنطقة الهلال الخصيب.

فقد كانت تربطني بالدكتور ريشار جبارة قرابة لجهة زوجة شقيقه إدمون، وهو كان شريكاً للدكتور عبد الله سعادة مع الطبيبين عفيف عبد الوهّاب وجوزف يمّين في مستشفى لبناني أقاموه في مدينة جدة السعودية. وقبل

سنتين من وفاته زارني الدكتور ريشار في مكتبي في البنك المركزي حيث كنت أعمل في الستينات بخصوص معاملة مالية له مع «بنك إنترا» الذي كان قد توقف عن الدفع لزبائنه. وفي تلك الزيارة تحدثنا مطولاً في بعض الأمور منها موضوع الدكتور عبد الله سعادة الذي كان وقتها في السجن، فأبلغني أن الملك فيصل آل سعود استدعى مرة الدكتور سعاده ليشرح له ما هي القومية السورية التي ينادي بها. وبعدما فرغ الدكتور سعاده من حديثه، قال له الملك فيصل: «هذه بيزنطية». ولم يكن له تعليق غير هذه الكلمة.

وسألت الدكتور ريشار، ماذا يعتقد أن الملك فيصل قصد من وصف القومية السورية بأنها بيزنطية، فقال: «أظنه قصد إنها ضد العروبة»!

XI

الشيخ بشارة

بعد الهجوم الذي تعرَّض له بيت يوسف ابراهيم الفرزلي، شقيق الدكتور ملحم الفرزلي ووالد المحامي الياس الفرزلي والمهندسين الثلاثة أنطوان، ونقولا، وخليل، بسبب سقوط الدكتور عبد القادر القادري في انتخابات عام 1943، ونجاح النائب أديب الفرزلي في تلك الانتخابات على لائحة هنري فرعون وصبري حماده، ذهب أقاربنا الى جب جنين لتهنئة الدكتور ملحم بفوز نجله أديب. وكانت تلك الزيارة أول مرة أشاهد فيها جموعاً بشرية بهذه الكثافة. فقد زحف البقاعيون على جب جنين للتهنئة، بشكل وفود من كل قرية، وكل وفد يتقدمه شعّار وزجّالون، ومطبِّلون ومزمِّرون، فملأوا الساحات، وخاف أهل البيت أن يسقط بيتهم على رؤوسهم لكثرة الناس المتجمعين فيه. وكان المحامي أديب الفرزلي في تلك الانتخابات المرشح الوحيد في لائحته الذي واجهه فيها أكثر من عشرة مرشحين من مختلف البلدات البقاعية، من راشيا الوادي الى زحلة وبعلبك، لأن البقاع كله كان دائرة انتخابية واحدة.

كان بعض الوفود يحوربون بالقول:

يا بقاعي فتِّل شاربك   أديب صاير نايبك

في ذلك الوقت المبكّر لم أكن أعرف ماذا يعني «تفتيل الشوارب»، أو لماذا يتوجب على البقاعي أن يفتِّل شاربه. ثم علمت بعد سنوات أن تفتيل الشوارب هو من علائم الفخر والاعتزاز.

وجاءت وفود أخرى تحدو بالقول:

وحجارتك فضة وذهب   يا دار بيت الفرزلي

وكنت أتطلع الى تلك الدار فلا أرى فضة أو ذهباً، بل حجارة قديمة تكاد تتساقط، وليس فيها أيٍ شيء من مظاهر الغنى أو الفخامة، لا من الداخل ولا من الخارج. وهذه أيضاً من المبالغات اللبنانية التي تصوِّر الأشياء على غير حقيقتها.

فالدكتور ملحم الفرزلي الذي تأهل طبيباً في «شيكاغو» مع بداية القرن العشرين، عاد ليمارس الطب في القرعون ثم في جب جنين وجوارها... وعاش

فقيراً بملء اختياره، على قاعدة «فقر العلماء اختيار وفقر الجهلاء اضطرار». وقد آلت ملكية ذلك البيت أخيراً الى حفيده المحامي إيلي الفرزلي النائب السابق لرئيس مجلس النواب، فهدمه وبنى في مكانه بيتاً أكبر وأوسع قليلاً بحجارة منحوتة وقناطر، لكنها على أناقتها لا ترقى الى الفضة والذهب.

وكان جيرانه تحت بيته آل رزق، ومنهم الدكتور توفيق رزق الذي نزل الى بيروت وأسس المستشفى المعروف اليوم باسم «مستشفى رزق» الذي انتقل الى نجله الوزير السابق الدكتور أسعد رزق.

وفي السياسة كان آل رزق الكاثوليك، وآل الفرزلي الأرثوذكس، على طرفي نقيض. الدكتور توفيق رزق وعائلته بمن فيهم عبد الله رزق كانت ميولهم فرنسية، والدكتور ملحم الفرزلي وعائلته كانت ميولهم استقلالية معادية للفرنسيين، وعلى علاقة صداقة مع الشيخ بشارة الخوري أول رئيس لجمهورية لبنان المستقل، وسمّى حفيده الأول بشارة تيمناً بالشيخ بشارة. (هو الدكتور بشارة الفرزلي شقيق زوجتي، وهو متخصص بطب الأطفال من مستشفيات «أوتاوا» في كندا، ويعمل حالياً في عيادة بالضاحية الجنوبية من بيروت. ومن غرائب المصادفات أن الدكتور أسعد رزق كان في عداد «لجنة الكولوكيوم» التي تقدم الدكتور بشارة بالامتحان أمامها بعد تخرجه من كلية الطب). كذلك سمّى حفيدته «لور» (زوجتي) على اسم زوجة الرئيس بشارة الخوري.

وكان انحياز بعض المسيحيين الى فرنسا، في ذلك الوقت، يشكل حالة مرضية تندّر بها شخص له عين ثاقبة على الظواهر الاجتماعية، اسمه مخايل عنبر، (انتحر فيما بعد على صخرة الروشة على أثر مقتل ابنه الوحيد في حادث سير، حيث انقلبت فيه سيارة الجيب التي كان يقودها بسرعة)، يتهكّم على «تفرنس» بعضهم، فيصف واحدة منهن تأتي الى زوجته لتستعير منها الغربال مثلاً، فتقول لها: «بونجور جارتنا عيرينا الغربال»، باعتبار أن «البونجور» والغربال لا يلتقيان.

وقد قال لي مخايل عنبر مرة إنه يريد أن يجري اختباراً يكشف الحس المدني عند أهالي جب جنين. وكان بيته الى جانب الكنيسة الأرثوذكسية، والطريق المؤدي من الكنيسة صعوداً هو طريق ضيق وعلى طرفه من جهة الكنيسة حنفية ماء يملأ الأهالي جرارهم منها ويسمونها «السبيل». فقام مخايل عنبر ودحرج حجراً ضخما الى وسط الطريق الفرعي قبالة السبيل، وجلس يراقب المارة. وقال لي فيما بعد إن الأهالي كانوا يأتون لملء جرارهم من العين، وبعضهم يسوق بقراته من جانبها بعد سقيها، فيحيد عن الصخرة التي دحرجها الى وسط الطريق، ولم يفكر أحد منهم بإزاحتها، فبقيت في مكانها وكأنها من المعالم الأثرية!

وكان الدكتور ملحم الفرزلي يقرِّبه ويستحسن حسه الاجتماعي. وعندما

قام الدكتور ملحم بمشروع شق طريق وسط البلدة ليكون الشارع التجاري الرئيسي، كما هو اليوم، على الطريقة الأميركية، ولقي معارضة شديدة من بعض الأهالي الذين سيمر الشارع في عقارات يملكونها، كان مخايل عنبر الأشد حماسة للمشروع، ويقضي معظم وقته في إقناع المعترضين وقد وصفهم بأنهم «أصحاب العقول المتحجرة، وعملية إقناعهم كمن ينحت في صخر». وتقوم اليوم في الشارع الذي يقطع جب جنين من الشمال الى الجنوب محلات ومصالح تجارية على الجانبين لا تقل عن مثيلاتها في أي شارع تجاري أوروبي. كل ذلك بفضل إصرار الدكتور ملحم الفرزلي، فسمي ذلك الشارع باسم «أديب الفرزلي»، ثم ما لبثوا أن غيروه في الستينات الى «شارع جمال عبد الناصر»، ولا أدري ما هو اسمه اليوم!

تخرج الدكتور ملحم الفرزلي من كلية الطب في شيكاغو عام 1901 وعاد الى القرعون، لكنه ما لبث أن غادرها بعد الحرب العالمية الأولى بسبب حزازات محلية، فانتقل الى جب جنين بلد زوجته عطية، وهي الإبنة الوحيدة لوجيه في تلك البلدة يدعى الياس أفندي الحاج، وكان يملك عليّة قيل لنا إن الأمير بشير الشهابي استضيف فيها وهو في طريقه من والى دمشق. فكانوا يجعلون من «محدلة» السطح أريكة تلف بالسجاد ليتكىء عليها الأمير.

وكان لا بد له، لكي يمارس الطب في الإمبراطورية العثمانية من تقديم امتحان «كولوكيوم» في استانبول، فذهب الى هناك ليكتشف أن امتحانات الكولوكيوم تقدم باللغة الفرنسية التي لا يتقنها، فبقي شهراً في المدينة الى أن استطاع مقابلة رئيس جامعة استانبول الذي استمع اليه، وقرر أن يشكل له لجنة تمتحنه باللغة الإنكليزية، وكانت تلك المرة الأولى التي يجري فيها الكولوكيوم العثماني باللغة الإنكليزية.

وفي الحرب العالمية الأولى تم تجنيد الدكتور ملحم في الجيش العثماني كطبيب وضابط برتبة عالية، لكن الفرقة التي كان يعمل فيها خلال الحرب أسرها الروس، وانقطعت أخبارها، فاعتبرهم الأتراك «فرارية»، أي أنهم هاربون من الخدمة في زمن الحرب، فاعتقلوا جميع أفراد العائلة كرهائن ريثما يعود الفارّون. فقسم منهم نقل الى حلب، وقسم آخر الى حدود بلغاريا. وصادف أن الجنرال الروسي الذي أسر تلك الفرقة التركية يتحدث الإنكليزية بطلاقة، فنشأت بينه وبين الدكتور ملحم علاقة ثقة، خصوصاً بعدما علم منه أنه ينتمي الى الطائفة الأرثوذكسية، فقدمه الجنرال وميزه عن بقية الأسرى. وبعد فترة من الزمن، سأله ماذا يريد أن يفعل، فأجابه الدكتور ملحم إنه يريد أن يعود الى عائلته في القرعون، فنقله الى مدينة اصفهان الإيرانية حيث سلمّه الى ضابط بريطاني مع توصية بتسهيل عودته الى بلاده. وبسبب مشقة السفر وشظف العيش مرض الدكتور ملحم مرضاً شديداً اقتضى نقله الى المستشفى

العسكري البريطاني في إصفهان، لكن الأطباء هناك يئسوا من علاجه، وفضلوا إعطاء سريره الى مريض آخر مؤمل شفاؤه، فألقوه خارج المستشفى على كومة من القش تحت شجرة وارفة. وفيما هو ينازع ويهلوس بين الموت والحياة، ظهر له شبح سيدة ترتدي اللباس الأبيض ويشع منها النور، وقالت له، حسب روايته:

«لن أتخلّى عنك ولو أنك غير مؤمن».

وأفاق من غيبوبته فوجد نفسه مجبّلاً بعرقه، لكنه سليم معافى، ففوجىء الضابط البريطاني الذي أخذ منه سريره في المستشفى باعتبار أنه ميؤوس منه، وسأله ماذا يريد أن يفعل، فقال له إنه يريد العودة الى بلده، فنقله الضابط المذكور الى البصرة في جنوب العراق، حيث كانت هناك غوّاصة بريطانية متجهة الى مدينة جدة في الحجاز، فنقلوه معهم، ومن ميناء جدة انتقل الى مصر ومنها الى القرعون عبر فلسطين. وكانت الحرب في هذه الأثناء قد حسمت، فالتمّ شمل العائلة من جديد.

ثم في مطلع شهر آذار/مارس عام 1920 حضر الدكتور ملحم «المؤتمر السوري العام» في دمشق ومعه وفد من وجهاء المسيحيين في البقاع الغربي وعلى رأسهم سليمان طرابلسي من مشغرة، وكتبت مسودة الوثيقة الختامية للمؤتمر بخط يده، وما زالت الى اليوم في أحد متاحف العاصمة السورية. وعجبت لأن فواز طرابلسي في كتابه «يا قمر مشغرة» لم يكتب عن مشاركة جده في ذلك المؤتمر، إما لأنه لا يعرف ذلك، وإما لأنه حصر موضوعه في الشأن الاجتماعي والاقتصادي المحلي.

•••

كنت أستمتع بالجلوس مع الدكتور ملحم أصغي الى حديثه الشيِّق. ولم يقتصر علمه على الطب، لأنه كان مطلعاً على الآداب الإنكليزية والأميركية كلها، وكان شديد الإعجاب بالشعر العربي الجاهلي، ويقدم طرفة بن العبد على غيره من الشعراء. ومن الكتب التي كانت بحوزته وآلت اليّ: كتاب «تاريخ انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» للمؤرخ البريطاني إدوارد غيبون[1] الذي أنجزه قبيل الثورة الفرنسية، وديوان شعر اللورد بايرون (جورج غوردون)، وديوان شعر اللورد ألفرد تنيسون، وكتب اللورد طوماس ماكولي[2] الذي زعم أن رفاً

---

(1) The History of the Decline and Fall of The Roman Empire, by Edward Gibbon with variorum notes, including those of Guizot, Wenck, Schreiter, and Hugo 1900 , George Bell and Sons.

وهذا يعني أن الدكتور ملحم الفرزلي اشترى هذا الكتاب بعد تخرجه من كلية الطب في عام 1901 وحمله معه الى لبنان.

(2) طوماس ماكولي كاتب وشاعر ومؤرخ وسياسي مشهور في القرن التاسع عشر. وهو محام في المهنة لكنه فضّل العمل السياسي على المحاماة، فأصبح عضواً في مجلس العموم البريطاني.

واحداً من الكتب الإنكليزية يساوي كل آداب العرب والهند، وأشهرها كتابه عن روما القديمة بعنوان: Lays of Ancient Rome وفيه مقطوعته الشعرية عن بوبليوس هوراتيوس كوكليس، الضابط في جيش الجمهورية الرومانية، وبطل صد التدخل لإسقاط الجمهورية في القرن السادس قبل الميلاد من قبل ملك كلوسيوم، لارس بورسينا، الى جانب آخر ملك على روما أطاحته الجمهورية هو لوسيوس تاركينيوس سوبيريوس. وقد ترجمتُ تلك المقطوعة ذات يوم بشيء من التصرف، على النحو التالي:

هوراتيوس
يا أسطورة البطل، يا حارس الأبواب
ما قولُكَ والموتُ آتٍ:
منه على عجلٍ
منه على مهلٍ
وأطيبه بيد الأعداء فوق ثرى الأجداد
بحد السيف والنصل
وآلهةٌ تفيقُ في معابدَها، وأخرى في معابدها يغالبها الرقاد

ونالني منها أيضاً ديوان الشاعر الأميركي إدغار ألن بو، وديوان الشاعر البريطاني صاموئيل تايلور كوليريدج. أما بقية الكتب فقد تفرقت هنا وهناك.

ومع أن كتاب غيبون بقي عندي سنوات عديدة، إلاّ أنني لم أقرأه ملياً إلاّ في أواخر عام 1985، وهو من سبعة أجزاء مع الفهارس، ويضم نحو خمسة آلاف صفحة. وفي المجلد الرابع منه يقول غيبون إن اعتناق روسيا للمسيحية حمى أوروبا لجهة الخطر من الشرق، وإن الخطر الوحيد الماثل أمام أوروبا يأتي من العرب الذين سبق لهم أن احتلوا اسبانيا. لكنه يقول أيضاً إن أوروبا في مأمن بسبب أميركا التي وصفها بأنها «أوروبا عبر الأطلسي»، وبالتالي فإن أوروبا

ثم تقلد مناصب وزارية رفيعة فأصبح وزيراً للحرب من 1839 الى 1841، ومراقباً للمالية العامة من 1846 الى 1848، وبقي عازباً لم يتزوج. وقد اشتهر على المسرح السياسي بخطابه الأول في البرلمان حيث دعا الى إلغاء الحظر المدني على اليهود، وهو الإلغاء الذي سمح لليهود بالانتخاب والترشح وبتقلد المناصب الرسمية في إنكلترا بعد حظر دام ستة قرون منذ حكم الملك يوحنا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

وعندما عمل في الهند أقنع الحاكم البريطاني العام باعتماد اللغة الإنكليزية للتعليم في المدارس في عموم الهند بدلاً من السنسكريتية والفارسية، بغية تخريج طبقة من الهنود قائدة في مجتمعاتها وموالية للإنكليز. ويفتخر بعض الهنود بأن هذا القرار هو الذي يعود اليه الفضل في تخريج شخصيات هندية كبيرة منها الدكتور أمبيدكار واضع الدستور الهندي المعمول به حالياً. وهو أيضاً واضع قانون العقوبات الهندي الذي ما زال معمولاً به ليس في الهند فقط بل في دول آسيوية وإفريقية عديدة كانت تحت الحكم البريطاني مثل باكستان، وسنغافورة، وبنغلادش، وسري لانكا، ونيجيريا، وزيمبابوي.

وقد وصفه المفكر الشيوعي كارل ماركس بأنه «مزوِّر دؤوب للتاريخ»، لكن الإنكليز يضعون القيمة الأدبية لكتاباته في التاريخ في مصاف المؤرخين الكبار أمثال الإنكليزي إدوارد غيبون، والفرنسي جول ميشليه.

سوف تبقى ولو سقطت.

وبعد مجيئي الى لندن، عثرت في معرض للكتب على سيرة إدوارد غيبون[3]، كما كتبها بنفسه، فعلمت من تلك السيرة أنه بدأ تأليف كتابه الكلاسيكي باللغة الفرنسية من مقر إقامته في مدينة «لوزان» السويسرية. وعندما أنجز الفصل الأول، أرسل نسخاً منه الى بعض كبار المفكرين في بريطانيا وفرنسا للتعليق عليه، ومن هؤلاء المفكر الاسكتلندي السير دايفيد هيوم الذي كتب اليه ينصحه بأن يضع كتابه باللغة الإنكليزية إذا كان يريد له أن ينتشر ويفعل فعله، معتبراً أن أميركا الناطقة بالإنكليزية سوف تصبح قوة عالمية كبرى لها نفوذ في كل أنحاء المعمورة، فأخذ غيبون بهذه النصيحة. لكنه تعذّب كثيراً ريثما تأقلم على الكتابة باللغة الإنكليزية من غير أن يفكر ويترجم من الفرنسية.

وكان غيبون على علاقة مع المصرفي السويسري البروتستانتي جاك نيكر الذي عينه الملك لويس السادس عشر قبيل الثورة وزيراً للمال لضبط مالية الدولة، لكن الإصلاحات التي اقترحها لقيت معارضة شديدة وخصوصاً من الملكة ماري أنطوانيت، فلم يطل به المقام في الوزارة الفرنسية. وكان نيكر عاقداً خطوبته على أرملة ضابط فرنسي تدعى مدام دو فيرمينو التي اصطحبت معها من سويسرا الى باريس فتاة تدعى سوزان كروشو هي خطيبة إدوارد غيبون. فلما شاهدها نيكر تخلى عن خطيبته وتزوج خطيبة غيبون فانجبت له طفلة كان لها شأن أدبي وسياسي فيما بعد حيث احترفت الكتابة بتوقيع «مدام دو ستاييل». أما إدوارد غيبون فقد مات عازباً.

وكان الدكتور ملحم شديد الإعجاب بقصيدة الشاعر الإنكليزي صاموئيل تايلور كوليريدج وعنوانها: Rime of the Ancient Mariner وفيها بيت يقول:

Water, water, every where, and not a drop to drink

أي: «ماء .. ماء .. في كل مكانٍ، وليس نقطة للشرب». وتعليقاً على هذا البيت، قال لي الدكتور ملحم إن شعراً عربياً بهذا المعنى أهم وأبلغ بكثير، وهو:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماءُ فوقَ ظهورها محمولُ

وكان يحب في أعمال الأميركي إدغار ألن بو قصيدته «الغراب» The Raven، وفي ديوان اللورد بايرون قصيدة «تشايلد هارولد»، وقصيدة «دون جوان»، ويحب قصيدة «مود» للورد تنيسون. وكان في آخر أيامه بعدما هدّه مرض السرطان، وكلما جئت لزيارته، يطلب مني أن أقرأ له في أحد الكتب حتى ينام. وإذا جاء أحد من المغتربين القدامى لزيارته، ويعرف بضع كلمات بالإنكليزية بحكم الممارسة الطبيعية في الاغتراب، ويتعمد «فحص» الأولاد بتلك اللغة بلكنته الركيكة، كان الدكتور ملحم ينتهره بالقول: «تعرف كلمتين لمتهما من

(3) **Memoirs of Edward Gibbon Written by Himself, London, George Routledge and Sons, 1891**

الطريق، فلا تفسد على الأولاد علمهم».

ولما لم يكن في القرى المجاورة لجب جنين، باستثناء القرعون، طبيب آخر فكانوا يقصدونه في الحالات الطارئة الى قرى جبلية بعيدة في عز الثلج والمطر، فكان يلبي راكباً على فرس أهداه إياها الماركيز دو فريج. لكنه توقف عن ممارسة الطبابة بعد تخرج ابنه حسيب من كلية الطب في جامعة دمشق وأخذ منه عيادته ومعها «الفرمشية»، لأنه لم تكن هناك صيدليات كالتي تنتشر اليوم في جب جنين. ولم تطل بالدكتور حسيب ممارسته الطب بسبب السياسة، فدخل في مشاريع زراعية ومشاريع نقل، ثم عاد الى الطب بعد سنوات عديدة بدخوله في وزارة الصحة طبيباً لقضاء راشيا، ثم في وزارة الصحة الكويتية، حيث قضى في الكويت سحابة خمس سنوات.

•••

في عام 1947، بعد مضي أربع سنوات على انتخابه رئيساً للجمهورية اللبنانية المستقلة، قرر الشيخ بشارة الخوري أن يقوم بزيارة الى صديقه الدكتور ملحم الفرزلي في جب جنين، وبرفقته رئيس الحكومة آنذاك سامي بيك الصلح[4]. وكانت هذه سابقة غير مألوفة من قبل. بل كانت بالنسبة الى البقاع والبقاعيين حدثاً مهماً وفاصلاً، لأنهم لم يصدقوا أن رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة معاً ينويان القيام بزيارة خاصة الى رجل عادي لا صفة رسمية له، وفي بلدة تقع في آخر أطراف لبنان. وقد نزل البقاعيون بالآلاف المؤلفة الى جسر جب جنين القديم، وهو جسر ضيِّق مبني من حجر، استغني عنه لاحقاً بإقامة جسر أعرض من الإسمنت المسلّح يصل ضفة النهر الشرقية بالغربية، ليستقبلوا موكب الرئيسين، فتعارك أهالي القرعون مع أهالي كامد اللوز حول من منهم سيحمل سيارة الرئيس وهو فيها عبر الجسر القديم الضيق. وبالفعل حمل البقاعيون سيارة الرئيس ورفعوها عن الأرض وساروا بها على الجسر من ضفة الى أخرى.

وكان سامي بيك الصلح وقتها غير معروف كما اشتهر فيما بعد. ففي الحكومات المتعاقبة التي ترأسها كان يُعرف بلقب «أبو الفقير»، لأنه كان دائم الرعاية للفقراء وللسياسات التي تأتي في مصلحتهم. وعندما كنت تلميذاً ثانوياً في المدرسة الإنجيلية الوطنية في عين المريسة، وتقوم في مبنى جميل ملاصق للبحر (قبالة فندق قدموس لاحقاً)، كنت أذهب الى تلك المدرسة يومياً مشياً على الأقدام من «حاووز الساعاتية» حيث كنت أقيم، قبالة فندق «هوليداي إن» الذي لم يكن موجوداً في ذلك الوقت، ومستشفى الشرق لصاحبه الدكتور

---

(4) كان سامي الصلح اشد ما يكره «الثقلاء». وهو أصدر، لما كان قاضياً، حكماً ببراءة متهم بالقتل لعدم كفاية الأدلة التي تجرمه. وما كان منه إلاّ أن التفت صوب فيليب فارس، ممثل النيابة العامة، وقال له:

«فيليب بيك فيك تشوف لنا بالقانون نص نحكمه فيه لثقل دمه»!

وكان المتهم على ما يبدو بالفعل بغيضاً ثقيل الدم.

سامي حداد، نزولاً الى فندق «سان جورج»، مروراً بالمكان الذي أقيم عليه فيما بعد فندق «فينيسيا»، وفي هذا الطريق يوجد على البحر بين سان جورج وبين المدرسة مقهى «عجرم»، فكان سامي الصلح يؤمه يومياً لشرب قهوته وتدخين نارجيلته، فكنت أمر به كل يوم تقريباً.

وبعد انتقال المدرسة الإنجيلية لاحقاً الى مبنى آخر في شارع المطران شبلي، أخذت أوغيت، ابنة الشيخ بشارة، مبنى المدرسة وحولته الى مطعم فخم لا أتذكر اسمه، لكنني علمت أنه كان يقدم الأطباق الفرنسية والأصداف البحرية والأسماك، حيث كانت محلة عين المريسة في ذلك الوقت معقل الصيادين. وبقي ذلك ردحاً طويلاً من الزمن، لأنني كنت أنزل من بيتي على الروشة الى عين المريسة في أواسط الستينات لأشتري السمك الطازج من الصيادين العائدين من البحر مرة في الأسبوع.

وعلى الرغم من أن ارتباط سامي الصلح بالرئيس كميل شمعون في حوادث عام 1958، أنزل عليه غضب الحركات الوطنية المنتفضة على كميل شمعون، مما أدى الى سقوطه عن الدائرة الثانية في بيروت في انتخابات 1960، إلاّ أنه عاد فنجح في انتخابات عام 1964، وفي ذلك المجلس ألقى خطاباً حول شؤون التربية والتعليم تفوّق فيه على خطاب إدغار فور في الجمعية الوطنية الفرنسية حول الموضوع نفسه في عهد الجنرال ديغول. وهذا الخطاب المهول الذي ينضح بحقيقة سامي الصلح كرجل دولة متقدم، يمكن الرجوع اليه في محاضر المجلس النيابي اللبناني.

•••

بعد وصول موكب الشيخ بشارة الى منزل الدكتور ملحم الفرزلي في جب جنين، أبلغه الدكتور ملحم أن أهالي جب جنين يفتقرون الى المياه النظيفة، لأنهم يشربون ويغسلون في النهر هم وأبقارهم ومواشيهم، مما يجعل الأمراض متفشية، ودله على مساقط مياه الثلوج في قمة الجبل الغربي فوق بلدة خربة قنافار على المقلب البقاعي من جبل الباروك، في مكان يدعى «وادي الجوز». فوقف الشيخ بشارة على بلكون المنزل مخاطباً الأهالي المحتشدين في الساحة بقوله لهم: «لن نشرب قبل أن تشربوا».

وبالفعل برّ الشيخ بشارة بوعده وجُـرّت تلك المياه العذبة الى جب جنين في غضون ثلاث سنوات. وبعد إنجاز المشروع بأيام صعدت مع مجموعة من الشبان الى مساقط المياه في قمة الجبل حيث تم جرُّ المياه العذبة النظيفة من «وادي الجوز» الى جب جنين، وهي تشبه على نطاق أصغر مساقط المياه في جبل آيغر السويسري التي زرتها في صيف عام 1988، وهو جزء من سلسلة جبال الألب، ويرتفع نحو ثلاثة آلاف متر، أي تقريباً ثلاثة أضعاف جبل «وادي الجوز» فوق خربة قنافار في البقاع.

ومن الطبيعي أن يمتعض الموالون لفرنسا من الزيارة أولاً، ثم من مشروع المياه. وكان بعضهم يشاهد المهرجان من على السطوح في حارة بيت رزق المجاورة، وبعد عودة الشيخ بشارة وسامي الصلح الى بيروت وانفضاض الجموع البقاعية، جاء أحدهم ليتحدث الى الدكتور ملحم على غير عادته، فبقي واقفاً ولم يقبل الدعوة للجلوس وشرب القهوة، بل قال:

«اسمع مني يا دكتور لا تدع أهل جب جنين يشربون، لأنهم إذا شربوا فإنهم سوف يبطرون وينقلبون عليك»!

ومضى في سبيله.

الى هذا الحد كانت الحزازات الحزبية والسياسية متجذرة.

إلاّ أن زيارة الشيخ بشارة الى جب جنين في ذلك الوقت، تركت أثرها الى أمد بعيد في المستقبل، أولاً لمجرد حدوثها، ثم لنتائجها المباشرة، وأخيراً لأنها كذّبت ادعاءات المدعين بأن ما وعد به رئيس الجمهورية في تلك الزيارة هو لمجرد التخدير والكلام الفاضي.

وفي أواخر عام 1982، بين عيدي الميلاد ورأس السنة، التقيت في فندق «ريتشموند» في جينيف الشيخ بشارة الخوري الأصغر، حفيد الشيخ بشارة الرئيس، وهو نجل الشيخ خليل من زوجته الأولى. وعلى العشاء في مطعم الفندق حدثني بشارة عن جده وعن محيطه، وحدثته عن زيارة جده الى جب جنين وعن الدكتور ملحم الفرزلي، فتعجب من هذه المصادفة التي جمعتنا في مدينة سويسرية لنتحدث عن لبنان والريف اللبناني.



XII

«بنات الواو»

لم يكن في القرعون، أو في جب جنين آنذاك مدرسة ثانوية. ولذلك كان لا بد من تدبير مدرسة ثانوية بعد نيل الشهادة الابتدائية في أقرب مدينة، وهي مدينة زحلة.

وكان في زحلة آنذاك ثانويتان مشهورتان: «الكلية الشرقية»، وهي مدرسة كاثوليكية تدرِّس باللغة الفرنسية، و«المدرسة الإنجيلية»، وهي مدرسة بروتستانتية تدرِّس باللغة الإنكليزية. فاختيرت لي المدرسة الإنجيلية التي كان يرعاها القس شوقي حولي وزوجته حنّة.

بالنسبة اليّ، لم يكن هذا الانتقال مجرد إطلالة على نوع جديد من الدراسة، بل كان بمثابة إطلالة مفاجئة على العالم الأوسع. ففيما كان التلاميذ في القرعون من كل الصفوف الابتدائية يجلسون في قاعة واحدة يعلِّمهم معلِّم واحد، متنقلاً بين «البنوك» الخشبية التي يجلسون عليها متلاصقين، فإن التلاميذ في مدرسة القسيس شوقي في زحلة كانوا يُفرزون صفوفاً، وكل صف له غرفة خاصة به، ويتناوب على التعليم فيها معلِّمون لكل مادة دراسية. وحتى مقاعد التلاميذ اختلفت، حيث صار لكل تلميذ ما نسميه «طبقة» خاصة به يضع فيها أوراقه وكتبه وأقلامه، ولم نكن بحاجة الى أن نجلب معنا وقداً أو حطباً للتدفئة في الشتاء، كما كنا نفعل في القرعون.

وكانت مدرسة القسيس شوقي مختلطة من الذكور والإناث، وفي الصف الذي انتسبت اليه كان عدد البنات أكبر من عدد الصبيان بنسبة أربع بنات الى ثلاثة صبيان.

ولأول مرة أيضاً أصبحت أتعاطى بالنقود بصورة مباشرة. فقد كان لنا قريب من وجهاء زحلة في ذلك الوقت اسمه يوسف القرعوني، ويعرف باسم أبو ميشال، يملك مقهى ناجحاً في وسط زحلة التجاري على «الجسر» يعرفه القاصي والداني باسم «قهوة القرعوني»، فأوصاه والدي بأن يعطيني كل يوم اثنين ليرتين فقط. فكنت أنزل الى تلك «القهوة» في الموعد المحدد، لأقبض «خرجيتي» هذه من العم أبو ميشال، وإن لم يكن موجوداً فمن المحاسب على

الصندوق.

وكانت الليرة آنذاك ورقية، فلامستها لأول مرة، وعندما وضعت الليرتين في جيبي خامرني شعور بالاستقلال الاقتصادي، وربما كان ذلك في صلب تطوري اللاحق الى رجل مسرف ومبذِّر، بدلاً من أن أكون حريصاً وممسكاً يدي. ورسّخ هذا الميل الى الإسراف في حياتي اللاحقة، أول درس تلقيته في الاقتصاد بعد دخولي الجامعة، في تعريف ماهية علم الاقتصاد، على أنه «فن الإنفاق»، في مخالفة فقهية للقائلين بأنه «فن الادخار»، لأن الادخار هو أساس الاستثمار. ومما زاد في الطين بلّة السؤال الذي طرحه الأستاذ عن سبب اعتماد الإنسان الشكل الدائري للنقود المعدنية منذ أقدم الأزمنة. وكان جوابه أن ذلك يسهِّل على الكريم دحرجته، وعلى البخيل كدسه أو شقعه، أو كما كان يقال في القرى، «دكّه في القصبة». فكانت ليرتا العم أبو ميشال أشبه بديناري المتنبي اللذين قال فيهما:

وكلما لقيَ الدينارُ صاحبَه، في جيبه، افترقا قبلَ يصطحبا

وتكشفت لي مدينة زحلة عن عالم جديد تماماً. فمن ليرتي العم أبو ميشال، اشتريت وتذوقت أول «قرن بوظة» في حياتي، وصرت أنفق نصف خرجيتي على «البوظة». بينما كنا في القرعون، مثلاً، نعتبر منتهى الرفاهية أن نحصل على طاسة من «البقسما» عندما يأتي ثلج مرستي، أو على كاسة من «زلاعة» العسل في الشتاء بعد القطاف. وإذا جعنا نلف «عروسة» بالخبز المرقوق المدهون بزيت الزيتون المرشوش عليه بعض الزعتر، أو على عروسة لبنة أو جبنة، أو على رغيف مدهون بالسمن مرشوش عليه السكر. أما في زحلة فقد تعرفت على خبز «الباغيت» الفرنسي الذي تُقص منه سندويشات محشوة بالزبدة والمربّى. وتلك السندويشات اللذيذة ما زال طعمها تحت لساني، كما يقال.

فالزبدة في القرعون لم تكن تؤكل نيئة، بل كانت حالة انتقالية في عالم المونة والطبخ.

وكانت جدتي تصنع الزبدة بواسطة «الخضّاضة»، وهي عبارة عن جرّة من الفخّار المقوّى المصنوع من الصلصال الأسود (أو الدلغان) يُسكب الحليب في داخلها، وتجلس جدتي على الأرض وتضعها على «دوشك» أمامها وتظل تخضها الى الأمام والى الوراء الى أن ينفصل زبد الحليب عن مصله. وكان لديها قشة طويلة، هي ساق نبتة قمح يابسة، فتمدها من ثقب في جانب الجرة الى الداخل لتقف على منسوب عملية الفصل هذه، الى أن تنتهي. ثم تأخذ الزبدة بيدها من داخل الجرة فتعصرها وتضعها في وعاء الى أن تفرغ منها. ولم تكن جدتي تسمح لنا بأن نأكل الزبدة هذه نيئة، ربما لأن الحليب الذي صنعت منه ليس معقماً بالغلي على النار. بل كانت تأخذ تلك الزبدة و«تفقسها» على النار لتحويلها الى سمنة يُسمح لنا بأن نتناولها بعد أن تبرد، فنلفها في العرائس أو

نقلي بها البيض، ومعظمها يجري استخدامه في الطبخ، وخصوصاً في «فلفلة» الرز. أما في زحلة، فقد دخلت في عالم الزبدة عبر سندويشات المربّى بالخبز الإفرنجي.

ولم تكن في حياتنا الريفية حلويات كثيرة، باستثناء حواضر البيت مثل الدبس، والعسل، والزبيب، والتين اليابس، أو ما نشتريه من الدكان عندما كانت جدتي تعطيني بيضتين أو ثلاثة أحياناً لأبادلهما في دكان الحارة بالحلاوة الطحينية، أو الحلاوة الجوزانية، أو هريسة اللوز، أو «الملبّس»، أو «راحة الحلقوم». أو عندما كانوا يصنعون «العوّامات» و«المعكرونة» مع الزلابية في عيد الغطاس يوم السادس من كانون الثاني من كل عام.

وقد نلتُ إعجاب الأستاذ إنعام الجندي أثناء تدريسه لنا الأدب العربي في بيروت عندما وصفت له عملية صنع الزلابية وصف خبير، كما كنت أشاهدها في عيد الغطاس، في موضوع إنشاء يتعلق بقصيدة ابن الرومي ومطلعها:

رأيته سحراً يقلي زلابيةً في رقّة الماء والتجويف كالقصب

فنشأت بيننا صداقة استمرت ردحاً طويلاً من الزمن.

أما في زحلة، في «صالون العائلات» في وسط المدينة، ثم في وادي البردوني، المعروف باسم «وادي العرايش» الذي أنشد فيه أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدته الخالدة «يا جارة الوادي» وغناها الموسيقار محمد عبد الوهاب، فقد تذوّقت من أشكال وألوان الحلويات، ما لا حصر له. فعلى مدخل الوادي تستقبلك عربات مقفلة بالزجاج مليئة بأنواع السمسمية، والبندقية، واللوزية، والجوزية، والفستقية، والملبن وغيرها... وفي صالون العائلات تستقبلك أقراص التمر، وقوالب الكاتو، وصدورالنمورة، وما الى ذلك مما لذ وطاب ومما حرمني منه لاحقاً داء السكري.

•••

في السياسة كما في الأكل، انفتح أمامي مشهد أوسع من لبنان. ففيما كانت إطلالتي الأولى على السياسة اللبنانية في القرعون من خلال أول انتخابات نيابية في العهد الاستقلالي، وفي جب جنين من خلال زيارة الشيخ بشارة الخوري، أول رئيس لجمهورية لبنان المستقل، الى بيت الدكتور ملحم الفرزلي، (كما ذكرت)، فإن إطلالتي من زحلة كانت على السياسة العالمية عبر زميل لي في مدرسة القسيس شوقي اسمه أنيس عازار في بيته راديو يبث نشرات إخبارية. وكان أنيس يجلس الى جانبي في «طبقة» مجاورة، فيأتي كل يوم مزوداً بجعبة من أخبار الراديو حول الحرب في كوريا بين الشمال بدعم من روسيا والصين، وبين الجنوب بدعم من أميركا وقوات دولية تحت غطاء هيئة الأمم المتحدة.

لقد كانت لديّ إطلالة أولية على جحافل جيوش أجنبية خلال الحرب العالمية الثانية، وشاهدت بعضها بأم العين، كما ذكرت سابقاً، لكنني لم أكن أعرف

شيئاً عن سبب وجودها أو ماذا تفعل. أما في نشرة أنيس عازار اليومية عن الحرب الكورية فقد كنت على اطلاّع تام على المعارك وتحركات الجيوش. وبالطبع كانت عواطف عازار تميل الى الجانب الأميركي، مما يفسر حماسته اليومية للحرب ومتابعته لها بكل تفاصيلها عبر الراديو الذي لم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيته أو سمعته.

وفي زحلة أيضاً ركبت لأول مرة سيارة غير بوسطة نقل الركاب. فقد كان النجل الثاني للعم أبو ميشال، وهو أومير القرعوني، يملك سيارة «شيفروليه» أميركية مكشوفة السطح، خمرية اللون، لها دواليب ذات أطر بيضاء، زادتها أناقة، فكان بعضهم يستعيرها في الأعراس لتركب فيها العروس. وقد استخدمت لهذه الغاية في عرس المحامي نجيب الفرزلي عم زوجتي ووالد المحامي إيلي الفرزلي، الذي أكبره بأكثر من ثلاثة عشر عاماً. فكنت أخرج مع أومير في تلك السيارة الجميلة بجولة داخل المدينة، أو في مشوار الى محيطها في السهل، أو الى شتورا وتعنايل على طريق الشام.

كذلك تعلمت في زحلة ركوب الدراجة الهوائية. فقد كانت هناك محلات تقوم بتأجير الدراجات للأولاد بسعر ربع ليرة للساعة الواحدة. وكنت أستمتع بركوب الدراجة وأحاول توفير المبلغ اللازم للقيام بهذه الهواية بين حين وآخر. لكن منذ أن غادرت زحلة في عام 1951 الى اليوم لم أركب الدراجة الهوائية إلاّ مرة واحدة في جب جنين فسقطت منها وكسرت رجلي اليمنى مما اضطر الأهل الى استحضار المجبِّر أبو نصوح لتجبيرها. وكانت تلك خاتمة العلاقة مع الدرّاجات.

•••

تفتحنا في صغرنا في القرعون على المسرح، من خلال المسرحيات الكلاسيكية التي كانت تعدها وتقدمها «جمعية حب السلام» في البلدة عن طريق أعضائها. والمناسبات المسرحية آنذاك كانت قليلة ومتباعدة زمنياً، بحيث أنها لا تشكل تجربة متكاملة، لكنها تعطي فكرة عن اتساع الأفق الثقافي لدى أعضاء الجمعية. أما في زحلة فقد بهرتني السينما، مما جعل تجربة «صندوق الفرجة» في القرية تجربة تافهة وقليلة الشأن والمعنى. ففي صالة السينما كانت هناك شاشة ومقاعد يجلس عليها عشرات الأشخاص في وقت واحد. وكان أول فيلم حضرته في زحلة هو فيلم «بساط الريح» لفريد الأطرش، حيث كانت السينما المصرية أكثر رواجاً من غيرها في ذلك الوقت، قبل الاكتساح الأميركي للشاشات. وشاءت الأقدار أن ألتقي فريد الأطرش وجهاً لوجه عندما عملت في دار «الصياد» في عام 1963 يوم جاء به سعيد فريحه، صاحب الدار، الى قاعة التحرير ليسلِّم على الشباب. ثم عندما سكنت في منطقة الروشة بعد ذلك، كان بيتي لا يبعد عن «كازينو فريد الأطرش» سوى أمتار معدودة، لكن صورة فريد

الأطرش على الشاشة في زحلة هي التي ظلت عالقة في ذهني.

وأظن أن دار السينما التي كانت قائمة في زحلة قبالة مقر جريدة «زحلة الفتاة» لصاحبها شكري البخّاش، أصبحت الآن مخبزاً عصرياً. ومن الواجهة الزجاجية لمطبعة جريدة «زحلة الفتاة» المطلة على الشارع العام، ألقيت أول نظرة على كيفية تنضيد الحروف الأبجدية وصفِّها باليد حرفاً حرفاً لتصبح مقالات في الجريدة. فقد كانت هناك مناضد فيها أعداد كبيرة من الأحـرف النحاسية بمختلف الأحجام، يختار منها المنضِّد حاجته، ويشد الأحرف التي نضّدها في قالب ثم يطليه بالحبر ويضع فوقه صحيفة من الورق ويجر عليه مكبساً خشبياً ليأخذ «بروفه» بهدف تصحيح الأخطاء المطبعية.

وفي بداية عملي في الصحافة في ستينات القرن الماضي عاصرت الجيل التالي من عمليات الطبع ويقوم على صب الأحرف أوتوماتيكياً من الرصاص المذاب (إنترتيب). ولما كان الرصاص مادة مضرة بالصحة، وخصوصاً الأبخرة المتصاعدة منه عند تذويبه، فكان يُفرض على عمال المطابع أن يشربوا كميات من الحليب البارد لدرء هذا الخطر.

ولم تكن سنة مدرسية واحدة في زحلة كافية لتكوين فكرة ذات معنى عن الأحـوال الثقافية في المدينة التي خرج منها شعراء كبار أمثال سعيد عقل، وحليم دموس، والمعالفة فوزي وشفيق ورياض الذين نصب لأحدهم تمثال في حديقة «المنشيّة» بالقرب من «فندق قادري الكبير»، حيث كنا نمر من هناك في الطريق الى الوادي. وبعد عدة سنوات وقع في يدي ديوان شعر ملحمي لشفيق المعلوف بعنوان «عبقر»، لكنني ما لبثت أن فقدته من غير أن أقرأه.

وفي زيارة لي الى الأندلس في اسبانيا صيف عام 1987، قمت وزوجتي بزيارة الى قصر الحمراء في غرناطة. وفي حديقة من حدائق القصر تدعى «خنيراليفي» وجدت في جدار حائط الحديقة الغربي لوحة نحاسية وضعها شاعر برازيلي زائر، لم أعد أذكر اسمه، ومفادها أنه حضر لزيارة هذا القصر العربي العظيم بناء لتوصية من الشاعر اللبناني فوزي المعلوف، وأن المكان أدهشه الى درجة أنه شعر بضرورة إثبات أهمية توصية فوزي المعلوف له بلوحة نحاسية تخلّدها. وكان فوزي المعلوف يومها مهاجراً في البرازيل. وتعرفت في قصر الحمراء أيضاً على الكاتب الأميركي واشنطن أيرفينغ[1] الذي عاش في القرن التاسع عشر وجاء الى قصر الحمراء ومكث فيه سنة كاملة استمع خلالها الى

(1) واشنطن أيرفينغ من أشهر الكتاب الأميركيين في القرن التاسع عشر، وقد أسمته أمه «واشنطن» تيمناً بأول رئيس للجمهورية الأميركية. ومن أشهر مؤلفاته كتاب سيرة الرئيس واشنطن في خمسة أجزاء، وكتب عدة سير منها سيرة الرسول العربي محمد بن عبد الله بعنوان «محمد وخلفاؤه». وعيّنه الرئيس الأميركي جون تايلر ووزير خارجيته دانيال وبستر وزيراً مفوضاً لدى إسبانيا من 1842 الى 1846. وبالإضافة الى كتاب أقاصيصه عن قصر الحمراء في غرناطة كتب كتاباً عن سقوط غرناطة، وعن العرب في إسبانيا، وسيرة كريستوفر كولومبوس مكتشف القارة الأميركية.

القصص والروايات والخرافات المتداولة في غرناطة حول القصر وسكانه وتاريخه، كما استمع الى حكايات الغجر المتجولين في محيطه، ووضع عنه كتاباً من القصص القصيرة سمّاه «ذكريات الحمراء»، وكان الكتاب يباع في القصر بلغات متعددة، ليس منها العربية طبعاً، على الرغم من وجود عشرات الفيلات واليخوت العربية في ماربيا على مسافة قصيرة من قصر الحمراء، فاشتريت منه نسخة إنكليزية ما زلت أحتفظ بها.

•••

عندما كنا في القرعون ندرس اللغة العربية في كتاب الشرتوني الابتدائي للصرف والنحو، كنا نعرف أن «الواو» هي حرف عطف وحرف معيّة. لكن أستاذ اللغة العربية في مدرسة القسيس شوقي، وهو رجل مسن اسمه عبد الله شحادة، فتح لنا مع «الواو» أبواباً مغلقة، منها أبواب التندر والتخابث في الكلام. واحتراماً لسن الرجل ومقامه وعلمه لم نكن نجرؤ على الضحك المباشر في الصف كلما تحدث عن الأفعال «الواوية». بحيث صار بين التلاميذ في صفنا ما يمكن وصفه بالمسألة الواوية، كمادة للتندر. والواوية في عرف الفلاحين في البقاع هو الإسم الشائع للثعالب التي كانوا يخيفون بها الأطفال لضبط سلوكهم، ويسمونها في الكتب «ابن آوى». وأقول الحق إنني لم أكن قد رأيت بعيني ثعلباً حياً حتى ذلك الوقت، لكنني شاهدت جلد ثعلب كان معلقاً على الحائط في منزل الدكتور ملحم الفرزلي في جب جنين. وأول مرة شاهدت فيها ثعلباً حياً يسعى كانت أخيراً في حديقة منزلي في لندن حيث ضبطته ينبش أكياس الزبالة. فكان كلما نطق الأستاذ عبد الله شحادة كلمة «الواوية»، يحرك التلاميذ الخبثاء شفاههم وكأنهم يقلدون صوت «الواوي».

وإذا بالواو في درس الأستاذ شحادة حرف هجاء، وحرف قسم، وحرف ندب كقولك واحسرتي أو والهفي، وحرف نسبة مثل أخوي ونبوي وعفوي، وهناك واو الحال، وواو الجمع للذكور. ولم يغفل الأستاذ شحادة الإناث في حديثه عن كلمات قال إنها مبنيّة من بنات الواو، لأن الواو مقلوبة عن الهمزة أو عن الألف أو عن الياء، كما قال أيضاً. فصار صفنا فريقين: فريق الواوية وفريق بنات الواو. وأول مرة شعرنا فيها بعدم الحرج من الانفجار من الضحك عندما وصف الأستاذ عبد الله شحادة حرف الواو بأنه حرف أجوف، وسمي كذلك لأنه يشبه عواء ابن آوى.

وكان من بنات الواو فتاة حلوة تجلس في «طبقة» خلفي مباشرة، واسمها سعاد عيد وهي من طرابلس وتنتمي الىالطائفة العلوية لها خالة في زحلة كانت تقيم معها وأدخلتها في مدرسة القسيس شوقي.

في أحد الدروس الواوية التي لا نهاية لها في صف الأستاذ شحادة، خلعت سعاد عيد حذاءها ومدت رجلها من تحت الطاولة الى مقعدي. فانتبه الى ذلك

زميلي أنيس عازار المنشغل بالحرب الكورية أكثر من انشغاله بالواو وبناتها، فخفض رأسه والتفت اليّ بالورب، فأزحت الرجل المتطاولة عن المقعد من غير أن ألتفت الى الوراء. وكان لأنيس عازار قريب يعمل أستاذاً في المدرسة اسمه موريس عازار، يبدو أن قريبه المدمن على نشرات الأخبار المتعلقة بالحرب الكورية أبلغه من ضمن النشرة بما حدث في الصف. وكان الأستاذ موريس رجلاً ظريفاً خفيف الظل وصاحب نكتة، فاستدعاني خلال الفرصة وبعض التلاميذ متحلقون حوله، وقال لي ماذا فعلت بزميلتك فلانة، فهالني هذا السؤال وأنا لم أفعل شيئاً خارجاً عن الأصول والآداب. فقلت له:

«لم أفعل شيئاً».

فقال: «ألم تنغزها بالدبوس في رجلها؟»

قلت له: «ليس معي دبوس».

قال: «إذن بقلم الرصاص»

وانفجر ضاحكاً، فعلمت أن الأمر كله مزاح بمزاح فارتاحت أعصابي بعدما طفح الكيل من الواو وبنات الواو.

وبعد الواو وبنات الواو، جاء دور المضاف والمشبّه بالمضاف، كأن تقول يا طالعاً جبلاً، أو يا راكباً فرساً، فصرنا نتدرب على المضاف والمشبّه به بإطلاق النداءات الساخرة على بعضنا البعض كأن يقول واحدنا للاخر: «يا مدمناً كذباً» فيرد بنداء أشد كقوله: «يا آكلاً هواءً»، وما الى ذلك. فكنا نفكر دائماً في ابتكار النعوت الى درجة أن تلك القواعد رسخت في أذهاننا على نحو من الصعب أن تمّحي منها. وكذلك الأمر بالنسبة الى قواعد الهمزة ومتى تكون من تحت ومتى تكون من فوق ومتى تكون طليقة، أو بالنسبة لقواعد النصب على الحال، وقس على ذلك بالنسبة الى كافة قواعد اللغة العربية التي لا أظن أن المدارس في هذه الأيام تهتم بها على المستوى ذاته.

•••

إن زحلة من المدن التي يقع المرء في حبها من أول نظرة، مثل مدينة «باث» في بريطانيا، أو مدينة «مونبولييه» في فرنسا. والزحليون يحبون مدينتهم ويعتزون بها، وهي أيضاً محبوبة ومرغوبة في الجوار البقاعي وفي الجوار العربي. ثم هي المدينة المسيحية الكاثوليكية الوحيدة في الشرق العربي كله، وإن جرت محاولات عديدة في التاريخ المعاصر لمورنتها سياسياً. وللزحالنة في حبهم لمدينتهم نشيد معروف يقول:

زحلة يا دار السلام فيكي مربى الأسودي

أي أنها مكان لتربية الأسود بالمعنى المجازي للكلمة إشارة الى الرجال الأشداء. وهم، رجالاً ونساءً، يتحدثون بصوت عال يصم الآذان فيه نبرة واثقة.

ومن المشاهد المطبوعة في ذاكرتي من تلك السنة اليتيمة التي قضيتها في

زحلة، مسيرة «خميس الجسد» التي يمشي فيها معظم أهل المدينة، بما يشبه تقريباً مسيرات مماثلة في بلدان أميركا اللاتينية. لكنني أظن أن الاهتمام بهذه المناسبة قد تضاءل في الآونة الأخيرة. وفي السنة التي قضيتها هناك، أقيم فيها ما أطلق عليه «مهرجان الزهور»، وهو معرض للبنات أكثر منه معرض للزهور. فلا عجب والصبايا والزهور معاً من بنات الواو.

وهذا في اعتقادي من علائم الرقيّ. فالمدن العظيمة في العالم هي التي تقيم المهرجانات والكرنفالات السنوية. وقد سمعت الشيخ أحمد زكي اليماني، وزير النفط السعودي الأسبق، يقول في برنامج تلفزيوني أنه قبل الحكم السعودي في الحجاز كان يقام في مكة المكرمة كرنفال نسائي خالص يسمونه «القيس»، يُمنع الرجال من السير فيه، وإذا وقع أحد الرجال خطأً في طريق المسيرة الغنائية النسائية في شوارع مكة، فإنهن يرذلنه بالكلام الغنائي كالقول له، كما أتذكر من تلك المقابلة: «هذا القيس فماذا تفعل هنا يا تيس»، أو ما يشبه ذلك مما لست أذكره حرفياً. والمعروف أن أحمد زكي اليماني يتحدر من أقدم العائلات المكية.

كان لي في بيروت صديق من أهل مكة متزوج من سيدة لبنانية من آل شعبان في مدينة طرابلس، وقد أبلغني مرة أن أهل مكة يصنعون من عنب الطائف عرقاً أجود من عرق زحلة. وفي قراءتي للجغرافيا التاريخية للجزيرة العربية، تبين لي من الحملة العسكرية الفاشلة التي قام بها القائد الروماني إيليوس غاليوس بتكليف من أغسطس قيصر في العام 24 قبل الميلاد بهدف إخضاع المملكة الحِميَرية في اليمن بالحرب أو بالتفاوض بغية السيطرة على باب المندب والبِحر الأحمر، أن غاليوس عندما عسكر في الطائف وأكل من عنبها، وربما شرب من عرقها، اعتبرها جزءاً من سوريا أو امتداداً للولاية السورية. ولذلك أصدق أن مكة لم تكن يوماً مدينة سوداوية كما هو الانطباع الخاطىء لدى البعض عنها.

ولزحلة مع السياسة اللبنانية قصة يبدو أنها تتكرر باستمرار، لأنها مدينة مسيحية لكنها ليست في جبل لبنان، فيظن البعض إنها ذات هوية محيّرة وأن هذه الهوية الحائرة بحاجة الى حسم. ففي أواسط القرن التاسع عشر اهتاج أهل زحلة وتحمسوا لحركة يوسف بيك كرم، واتفقوا معه على دخوله زحلة بكلمة سرّ هي أنشودة: «يا مريم البكر فقتِ الشمس والقمرا». لكن يوسف كرم وصل الى جونية ثم صعد الى بكفيا، لكنه لَم يكن ينوي المجيء الى زحلة. بل إن الجنبلاطيين استطاعوا بأساليب مختلفة الحصول من رجاله على كلمة السر، فجاء شبلي آغا العريان ورجاله من الدروز حاملين الصلبان وهم ينشدون كلمة السر، فظن الزحليون إنه يوسف بيك كرم قادم لنجدتهم ففتحوا له الأبواب فأعمل السيف في رقابهم وحرق مدينتهم.

وحدث ذلك مرة ثانية مع الشيخ بشير الجميل مؤسس «القوات اللبنانية» الذي ترك زحلة لقدرها خلال الحرب الأهلية الأخيرة تنهال عليها القذائف والصواريخ من كل حدب وصوب، ثم عللوهم بطائرات مناحيم بيغن لتفك عنهم الحصار، وهذه الطائرات الموعودة لم يأت منها سوى طائرة استطلاع مروحية قبيل فتح المدينة أمام السوريين بالتفاوض.

وقد حدث ما يشبه ذلك في الانتخابات النيابية لعام 2009، عندما أفاق الزحليون على خدعة سياسية لم تنته مفاعيلها بعد. لكن زحلة في النهاية، وفي الواقع الجغرافي السياسي، وجهها باتجاه دمشق، وبقدر ما يحسن السوريون التعاطي مع الزحليين بقدر ما يكون ذلك في صالحهم. وعندما كان جوزف السكاف زعيماً لزحلة بغير منازع، وكان على تحالف وثيق مع المملكة العربية السعودية (بشخص الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع)، كتبت مقالاً في مجلة «الدستور» التي بدأت عملي الصحافي فيها في لندن عام 1977، حول موضوع زحلة، قلت فيه إن الناظر الى زحلة بعين السياسة لا يعرف أين هي حدود سوريا وأين هي حدود السعودية، نظراً الى كونها خط تماس سياسي بينهما. ويبدو أنه كانت للسعوديين دالة قديمة على زحلة منذ أن كان جميل بارودي أول مندوب للسعودية في هيئة الأمم المتحدة. لكن الأدوار تبدلت في الانتخابات المذكورة حيث كان وريث جوزف سكاف في الصف المعارض للسعودية، فبدا الاجتياح السعودي لها تحت راية الدم الحريرية ساحقاً ماحقاً بحيث أنه كتب على نفسه الزوال السريع.

•••

بعد انتهاء «السنة الواوية» في زحلة، بما فيها من أبناء آوى وبنات الواو، شددت الرحال في السنة التالية الى بيروت التي كانت في نظري آنذاك عاصمة العالم، لا عاصمة لبنان وحده. لكن تلك السنة في زحلة شحنتني شخصياً بانطباعات لا تمّحي من خلال حوادث تبدو لعبة أطفال تافهة. فالى جانب الساحة الإسمنتية للمدرسة حيث يتجمع التلاميذ بعد الحصص في الاستراحات الفاصلة بين الدروس، هناك غرفة لفرقة الكشافة كانوا يسمونها «اللوكال». ولم أكن أنا في عداد الفرقة الكشفية. لكن أمام تلك الغرفة تلاسنت مع زميل منتسب اليها اسمه جورج قادري وتطورت الملاسنة الى معاركة فصفعته على وجهه فبدأ الدم يسيل من أنفه، فركض الى خارج المدرسة وتوارى. وبدأت الهواجس تنتابني خوفاً من أن يقطع أولاد زحلة علي الطريق للأخذ بالثأر مني. ولم أنم تلك الليلة من شدة القلق. وفي الصباح التالي جئت الى المدرسة وأنا أتلفت عن يميني وعن شمالي خوفاً من انقضاض أشباح مخيلتي عليّ في الطريق. وعندما دخلت الى باحة المدرسة وجدت جورج قادري واقفاً هناك فهرع الي يعانقني ويصفح عما حدث، محملاً نفسه جزءاً

من المسؤولية. ولم أصدق عيني، وانتابني الخجل من نفسي، وتعلمت من تلك التجربة خطورة أن يخلق الإنسان أشباحاً مخيفة وحاقدة في نفسه، في الوقت الذي تكفيه للطمأنينة كلمة ود أو مسامحة. أما نزعة العين بالعين الانتقامية، فإنها تجعل من جميع الناس عمياناً من دون أعين.

وبعد انتقالي من زحلة لم ألتقِ جورج قادري إلاّ مرة واحدة بمحض المصادفة، وكان ذلك في راس بيروت أثناء حوادث عام 1958 عندما عدت في صيف تلك السنة الى الجامعة الأميركية بعد انقضاء سنتي الإنذار اللتين انقطعت خلالهما عن الدراسة. والتقيت جورج مرتدياً بزّة شبه عسكرية، فارتسمت أمامي صورته وهو في فرقة الكشافة أمام اللوكال في مدرسة القسيس شوقي، لكنني رأيت في يده بندقية حربية أيضاً، وعلمت منه أنه ينتمي الى الحزب السوري القومي الاجتماعي، وأنه يقوم بمهمة حراسة حزبية. ولم تتكرر تلك المصادفة.

بعد نزولي الى بيروت لم أنقطع عن زيارة زحلة كلما سنحت الفرصة. وكانت المرة الأولى التي عدت فيها الى زحلة في عام 1955 بعد طردي من الجامعة، لأتقدم بامتحان للدخول في سلك التعليم الرسمي الابتدائي، وذلك ضمن المساعي الرامية لإيجاد عمل يسعفني في «تقطيع» السنتين المقبلتين، ريثما يُرفع عني الحظر الجامعي. ذلك أنه عندما اتخذت الجامعة الأميركية قرارات الطرد بحق عدد من الطلاّب، أعلنت الحكومة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر قبول الطلاّب المطرودين من الجامعة الأميركية في بيروت في الجامعات المصرية على نفقة الحكومة، فذهب بعضهم بالفعل، لكن والدي لم يسمح لي بالذهاب الى مصر، وأنا أيضاً لم أكن متحمساً للفكرة.

وفي الليلة السابقة لامتحان الدخول، نزلت وبعض الأقارب المرشحين مثلي لتلك الامتحانات في نزل صغير في زحلة اسمه «نزل سعادة». وكان في زحلة عدد من هذه «الفنادق» الصغيرة التي ليست في الحقيقة فنادق بالمعنى الدارج، ولذلك سميت نزلاً كتوصيف واقعي. فالفندق الوحيد في زحلة كان وما زال ربما هو «فندق قادري الكبير». وكانت أجرة المنامة في تلك النُزُل رخيصة جداً لا تتعدى الليرة الواحدة لكل ليلة. وكان سريري الى جانب شباك في الغرفة، وفيما أنا نائم شعرت بقشعريرة في جسمي فاستيقظت مذعوراً لأجد النمل سارحاً في كل مكان من شعري الى أخمص قدمي. فقمت من السرير ورحت أنفض النمل عني نملة نملة خشية أن أقيم «عكرة» بين النزلاء قبل الفجر. لكن وبعد تأكدي من خلو جسمي من ذلك النمل اللعين الذي يختلف عن نمل البيادر، وهو ما يسميه الفلاحون في القرعون «الذر» ويخشون منه لأنه يهاجم مخزونهم من الأشياء الحلوة الطعم كالدبس والتين وما الى ذلك، خلافاً للنمل الكبير الذي يأكل الحبوب، بقيت أشعر بتلك القشعريرة المزعجة التي رافقتني في الامتحان، وفي الأيام التالية. وفهمت عندئذ معنى كلمة كانت تقال، ولم

أخبُرها من قبل، في معرض تلقي المرء خبراً أو خبرية عن شيء مؤثر، وهي «نمّل جسمي»، بمعنى «اقشعرّ بدني»، كما فهمت معنى «النملية»، وهي عبارة عن خزانة صغيرة واجهتها من الشريط المنخلي الناعم يدخل منها الهواء ولا تستطيع الحشرات الصغيرة دخولها، كانت جدتي تعلقها في السقف وتحفظ فيها الطعام لئلاّ يهاجمه هذا الذرّ اللعين.

أما في الليلة التالية بعد الامتحان فقد قررنا أن نحتفل بإنجاز المهمة بالذهاب الى ملهى قبالة مدخل الوادي في الجانب الآخر منه، يدعى «ملهى منصور»، حيث دخّنت أول سيجارة من نوع «بافرا» اللبنانية، وشربت أول كاس عرق. فكان ذلك إشارة الدخول الى عالم الرجال. والأهم من ذلك، أننا شاهدنا على المسرح المطرب وديع الصافي الذي سمعت غناءه لأول مرة أيضاً، وبذلك بقيت تلك السهرة محفورة في الذاكرة.

ولوديع الصافي ذكريات من طفولته في جب جنين لم أكن شاهداً عليها، لأن والده خدم في تلك البلدة في سلك الدرك، وكان على علاقة صداقة مع الدكتور ملحم الفرزلي ومع بيت الفرزلي عموماً. وفي مأتم الأستاذ نجيب الفرزلي، والد إيلي الفرزلي، في مطلع صيف 1994 وكنت حاضراً، جاء الأستاذ وديع الصافي على رأس وفد من نقابة الفنانين للتعزية، وقال كلمة طيبة عن ذكرياته في جب جنين وعن عائلتنا، فتأثرت بعاطفته وصدقه في التعبير عنها، وبتجشمه مشقة الطريق وقد بات في سن متقدمة.

وعدت الى زحلة في مطلع صيف 2009، ولكن في مناسبة حزينة لحضور مأتم الوزير السابق نقولا الخوري، الذي كاد يوماً أن يصبح عديلي، عندما طلب يد المرحومة ليديا الفرزلي، شقيقة زوجتي، لكن «لم يكن هناك نصيب»، كما يقال. إذ إن طرف قرابة يربط بين والدة نقولا الخوري ووالدة زوجتي، كما أن شقيقته فكتوريا متزوجة من خال زوجتي المرحوم سلامة عبود.

والمعروف أن نقولا الخوري يملك «مستشفى خوري» بالقرب من مدخل وادي العرايش، ويملك في شتورا فندق «بارك أوتيل» المشهور. وابن شقيقته فكتوريا، وهو مهندس بترول برازيلي الجنسية يقيم حالياً في ريو دي جانيرو، ويدعى ريكاردو عبود، كاد أن يصبح صهري عندما طلب يد ابنتي ريما، لكن أيضاً «لم يكن هناك نصيب».



II

مستقبلٌ حائرٌ



I

نسيم البحر

كان من الممكن أن أعود الى زحلة في السنة التالية، لولا بعض المصادفات، منها أن بعض أقاربنا في القرعون أرسلوا أولادهم قبلي الى بيروت وأشادوا بالمدرسة الجديدة التي انتسب أولادهم اليها في عين المريسة، على بحر بيروت.

الى ذلك الوقت لم أكن قد شاهدت بحراً إلاّ بالأوصاف الجغرافية في الكتب المدرسية، ومنها درس كان يستهويني عنوانه في الكتاب: «نسيم البر ونسيم البحر». وهذا الكتاب من تأليف المربي الفلسطيني الكبير خليل السكاكيني الذي احتل صدارة المشهد التربوي العربي في النصف الأول من القرن العشرين، لاهتمامه باللغة، وله كتاب من دليلين في كيفية تعليمها عنوانه «الأصول في تعليم اللغة العربية». وله كتاب آخر من أربعة أجزاء لا يقل أهمية عنوانه «الجديد في القراءة العربية». والسكاكيني مسيحي أرثوذكسي من مدينة القدس، وبصفته هذه قاد حملة في المدينة قبيل الحرب العالمية الأولى تدعو الى تعريب الكنيسة الأرثوذكسية في القدس التي كانت وما تزال يونانية الطابع[1].

إن الشعور الذي انتابني عند مشاهدتي البحر لأول مرة يشبه الى حد كبير الشعور الذي انتابني بعد خمس سنوات من ذلك عندما شاهدت الصحراء العربية لأول مرة، مزيج من الرهبة والدهشة والتأمل.

ومع أنني كنت على ثقة بما تعلمت في القرعون وفي زحلة، وبكفاية ذلك لمتابعة الدراسة في العاصمة، لكنني في الوقت ذاته كنت قلقاً بعض الشيء

---

(1) ناضل خليل السكاكيني في مطلع القرن العشرين من أجل تحويل السلطة العثمانية الى سلطة دستورية، وبعد اعتماد الدستور في تركيا عام 1908، أسس في القدس مدرسة خاصة به أسماها «المدرسة الدستورية». وقد انضم السكاكيني الى «الثورة العربية الكبرى» التي قادها الشريف حسين الهاشمي في الحجاز. وفي عام 1919 تم تعيينه مديراً لدار المعلمين في القدس، لكنه استقال من منصبه احتجاجاً على تعيين اليهودي البريطاني هربرت صاموئيل مندوباً سامياً على فلسطين، لكنه عاد الى الوظيفة كمفتش عام للغة العربية في فلسطين بعد مغادرة صاموئيل منصبه والبلاد.

خشية التقصير وعدم القدرة على مجاراة تلاميذ لا أعرفهم. ولذلك ذهبت الى بيروت وأنا مصمم على النجاح والتفوق إذا أمكن. وما زادني حماساً واندفاعاً لهفة والدتي على تعليمي واستعدادها الأكيد أن تقطع عن فمها وفم عائلتها من أجل هذه الغاية، فكنت مقدراً للهفتها هذه وإقبالها الذي لا هوادة فيه على التضحية من أجلي ومن أجل مستقبل أفضل لبقية أولادها. وكم كان يقال على مسامعنا من الصغر الحديث الشريف القائل «أطلب العلم ولو في الصين»، فكنت مقتنعاً بأن العلم غاية مهمة ونبيلة لا يجوز التهاون فيها، وبالتالي لا بد من التفاني والعمل من أجلها.

•••

ما حسم أمر نزولي الى بيروت أن عمتي رمزية التي كانت مقيمة في «حاووز الساعاتية»، عرضت أن تأخذني عندها، لأن المكان قريب من تلك المدرسة في عين المريسة، إذ يمكن قطع المسافة بين البيت والمدرسة مشياً على الأقدام بما لا يزيد عن عشر دقائق فقط.

ومن أهم معالم منطقة حاووز الساعاتية في ذلك الوقت «مستشفى الشرق» لصاحبه الدكتور سامي حداد، قبل تشييد فندقي «هوليداي إن» و«فينيسيا». وشاءت المصادفات أن تنشأ بعد عودتي الى الجامعة في صيف حوادث 1958، صداقة بيني وبين سعد حداد، النجل الأصغر للدكتور سامي حداد.

ففي العام الدراسي العادي 1958-1959، استأجرت وقريبي نقولا الفرزلي شقة بالقرب من شارع الحمرا في بناية أبو زهير العيتاني، فقرر سعد أن يترك منزل ذويه وينضم الينا. وكان الياس الفرزلي، شقيق نقولا، يعمل في الإذاعة اللبنانية مذيعاً، وفي وقت فراغه يساعد ألبير أديب[2]، صاحب مجلة «الأديب»،

---

(2) ولد ألبير أديب في المكسيك سنة 1908، والده سعيد أديب من دير القمر (الشوف) أرسله مع أمه الى لبنان لتعلم اللغة العربية، فلما وصلا الى الاسكندرية أصيب الفتى ألبير بمرض منعه من اكمال السفر؛ فبقي مع أمه فيها. ونشبت الحرب العالمية الاولى وهما لمّا يزالان في الاسكندرية، فاتم اديب دراسته الابتدائية والثانوية فيها اولاً ثم في القاهرة.

مال الى دراسة الحقوق، فدخل كلية الحقوق التابعة لجامعة القاهرة، فدرس سنة واحدة، ثم طرد من الكلية بسبب قيادته الاضرابات. فتحول الى الصحافة، فعمل في العديد من صحف مصر، وخصوصاً «الوفدية» منها: «كوكب الشرق» و«الرقيب». كما عمل في مجلة «الاسبوع»، التي كان يصدرها ابراهيم المازني، ثم في «الفكاهة»، كما كتب مدة في مجلة «السياسة الاسبوعية».

سنة 1927 غادر القاهرة الى الخرطوم، واصدر جريدة «حضارة السودان»، وراسل سراً صحف «الوفد» في القاهرة وزودها باخبار السياسة الاستعمارية البريطانية. سنة 1930 ترك السودان وعاد الى مصر، وكان ان وَصَلَ الى الحكم فيها مُعادون لحزب «الوفد» فغادر ألبير أديب مصر عائداً الى لبنان.

في بيروت التحق بجريدة «النداء»، التي كان يصدرها كاظم الصلح، وتعبر عن التيار الوطني، وكتب في مجلات «الجمهور»، و«البرق»، «التي كان يصدرها بشارة عبد الله الخوري(الأخطل الصغير)، و«العاصفة»، (التي كان يصدرها كرم ملحم كرم)، كما اسهم في مجلة «المكشوف» للشيخ فؤاد حبيش.

سنة 1938 كُلّف تأسيس «إذاعة الشرق »، (التي تحولت في ما بعد الى «إذاعة لبنان»)، وكانت غيوم

في تحرير المجلة. وعبر الياس الفرزلي، تعرفنا نقولا وأنا على ألبير أديب وصرنا نزوره في بيته في منطقة على طريق الشام بين الأشرفية وراس النبع، (أصبحت في الحرب الأهلية خط تماس السوديكو). وكان للأستاذ ألبير ابنتان، الكبرى ندى التي انضمت الينا في الجامعة الأميركية، والصغرى هدى وكانت تميل الى الشعر والموسيقى. ولما انتقل سعد ليعيش معنا في ديرة أبو زهير العيتاني، صار يذهب معنا في زياراتنا الى منزل ألبير أديب، فوقع في هوى ندى التي قال عنها الشاعر غنطوس الرامي صديق والدها عندما ولدت(3):

نـــدى، يـــا ابـتـــســـام الـســحـــر وبـــــــــوحَ غـــمــــــام أســــــرّ

وتزوج سعد وندى بعد تخرجهما من الجامعة وسكنا في راس بيروت، لكن افترقت بنا الطرق وما عدت رأيتهما. وفي أواسط التسعينات كنت في بيروت فقرأت في الجريدة نعي ندى، وعلمت أن سعداً يتلقى التعازي بزوجته في «نادي خريجي الجامعة الأميركية» فتوجهت الى هناك مصطحباً معي ابن العم إيلي الفرزلي، وتعجبت أنه لم يتغير كثيراً عما كان عليه قبل خمسة وثلاثين عاماً، فأبلغني أنه عاش فترة في باريس أثناء الحرب اللبنانية وكان يلتقي نقولا الفرزلي المقيم هناك بين حين وآخر. وسألته عما حلّ بالأستاذ ألبير في الحرب، فقال لي إنه عندما وصلت الحرب الى بابه، وأخذت تتساقط القذائف من حوله على خط التماس، أجبرته ابنته ندى على الانتقال الى منزلها في راس بيروت، وكان معتل الصحة. وسألته عن مستشفى «الشرق» وماذا حل به، فقال إنهم هدموه عمداً لكي لا يحتله أحد ويصبح من الصعب التصرف بأرضه فيما بعد.

الحرب العالمية الثانية تتلبد في الأفق، فلما نشبت تسلم «مركز الدعاية ضد النازية والفاشية في لبنان»، وهناك تعاون معه عدد من الذين اصبحوا من اشهر ادباء ومؤرخي لبنان منهم : عمر فاخوري؛ الياس أبو شبكة؛ يوسف إبراهيم يزبك؛ محمد النقاش...

سنة 1942 قرر البير اديب اصدار مجلة ادبية سماها «الأديب»، فكانت فتحاً في الادب العربي الحديث، وقدمت للادب العربي عدداً كبيراً من الكتاب والشعراء، الذين حققوا شهرتهم على صفحاتها.

قضى ألبير أديب في اصدار مجلته اثنتين واربعين سنة، يجلس الى المكتب نفسه، من الثامنة صباحاً الى ساعات متأخرة من الليل، يقوم وحده بالاعمال الابداعية والادارية الروتينية نفسها باصرار اسطوري وجلد عجيب. ولم يمنعه عمله هذا من الاسهام في الحركات السياسية. وقد تعاون في تأسيس «الحزب التقدمي الاشتراكي» مع نخبة من المفكرين، بينهم الدكتور ادمون نعيم. وألبير أديب هو الذي كتب ميثاق الحزب الاساسي، وعندما تولى كمال جنبلاط رئاسة الحزب، كان البير اديب سكرتيره العام.

في ايلول سنة 1983 اوقف البير اديب مجلته، وكأنه يعلن نهاية حياته مع حياتها، وكان يقول دائماً: «هذه حياتي، إذا راحت أموت». وما مضى على احتجابها سنتين حتى اعتل البير اديب. وفي 1985/9/26 وافته المنية. ترك البير اديب إرثاً ثقافياً، هو ثلاثة واربعون مجلداً من «الاديب» التي منحها شبابه وصحته، ثم بصره الذي فقده في خواتيم حياته.

(3) غنطوس الرامي شاعر وكاتب بقاعي من بلدة تربل بالقرب من زحلة، وهو رائد الإذاعيين في لبنان وراعيهم حيث عمل على تأسيس الإذاعة اللبنانية يوم كان اسمها «راديو الشرق». له ديوان شعر باسم «سمر» وكتابات صحافية وأدبية مختلفة، منها ترجمات للأديب الفرنسي أنطوان دو إكزوبيري.

وأبلغني أن له ابناً متزوجاً من سيدة يابانية ويعيش مع عائلته في اليابان.

وأخبرته في معرض الحديث عن عمِّه ألبير، أنه في أحداث 1958 كان يعيش في نزل «أستراليا» في الوسط التجاري قبالة فندق «ريجنت»، شخص اسمه ألبير ديب، ويبدو أنه كان يعمل لجهاز استخبارات خارجي، فوجدوه ذات يوم مقتولاً بطلق في رأسه، فنشرت الصحف في اليوم التالي خبر مقتله. وبسبب تقارب الأسماء بين «ديب» و«أديب» ظن البعض أن الشخص المذكور هو الأستاذ ألبير أديب، فانقلبت الدنيا قبل أن يتم تصحيح الخطأ.

•••

كان المشوار من حاووز الساعاتية الى عين المريسة كل يوم طقساً فيه مسحة رومانسية تبعث السعادة في النفس. وفي آخر النزلة من خط الترامواي الى البحر كان هناك ملهى ليلي اسمه «الفيل الأبيض» White Elephant، لكن عندما كنت أمرّ به في الصباح أجده مقفلاً. ومن ذلك المكان الذي كان يقع قبالة فندق «فينيسيا» اليوم يتصل الطريق عامودياً مع الطريق المؤدي الى عين المريسة يساراً والى فندق «نورماندي» يميناً. فالى اليمين يقع نادي الضباط، ومقبرة اليهود، ومنطقة الزيتونة بملاهيها المشهورة وأشهرها «كيت كات»، ثم فندق نورماندي وينحرف يساراً باتجاه مرفأ بيروت. وفي الطريق الى عين المريسة يمكن الاتجاه مباشرة الى المدرسة في خط مستقيم، ويمكن أخذ الفرع المؤدي الى فندق «سان جورج» ومقهى عجرم حيث كان يجلس الرئيس سامي الصلح كل صباح، وهو الطريق الذي كنت أسلكه وأفضله وقد وقع فيه الانفجار الذي أدّى الى مقتل الرئيس رفيق الحريري ومرافقيه يوم 14 شباط/فبراير من عام 2005.

كنت أفضل هذا الطريق لأنه بمحاذاة البحر مباشرة، ولأن دربي كان يتقاطع مع درب صبية حلوة ترتدي زياً مدرسياً كحلي اللون تتأبط كتبها وتذهب الى مدرستها في الوقت ذاته ولكن في الاتجاه المعاكس. ولا أعرف ما هي مدرستها، ربما كانت مدرسة راهبات «البيزانسون». وطوال تلك الرحلات المكوكية المتقاطعة كل يوم لم يكلم أحدنا الآخر كلمة واحدة، إذ كنت أظن أنها غير مبالية بي ولا يساورها شيء مما كان يساورني، ومع ذلك فإن إطلالتها بالقرب من فندق سان جورج كانت تضفي على المكان نسمة أرق من نسمة البحر، وكنت إذا نظرت الى عينيها العسليتين، على قول الكاتب المصري إحسان عبد القدوس في إحدى رواياته، «أشعر كأنني غرقت في بحر من العسل». وشاهدتها ذات يوم ممطر تركب في المقعد الخلفي لسيارة أميركية فخمة يقودها جندي ولها رقم عسكري، فعلمت بعد ذلك أنها ابنة ضابط كبير في الجيش اللبناني، فقلت في نفسي: «هذا حصرمٌ».

وعلى ذكر إحسان عبد القدوس، فقد التقيته وتعرفت عليه في بيروت عن

طريق الزميل ابراهيم سلامة الذي كانت تربطه به صداقة وثيقة، وعقدنا حلقة معه حضرها بعض الزملاء، ومنهم كبير محرري جريدة «النهار» آنذاك ميشال أبو جودة، وذلك في فندق «كارلتون» المطل على البحر في منطقة ساقية الجنزير ـ عين التينة، وهو الفندق الذي كان ميشال أبو جودة يقيم فيه. وكان إحسان عبد القدوس على خلاف مع عبد الناصر، لكنه أعجبني عندما انبرى للرد على أحد الحاضرين لتطاوله بكلام نقدي لاذع ضد عبد الناصر، معتبراً أن الاختلاف في الرأي مع قائد الثورة المصرية لا يجوز أن يغمطه حقه وإنجازاته.

أما الحب الحقيقي الذي وقعت فيه في ذلك الوقت فهو حب البحر ونسيم البحر. هو حب من أول نظرة، كما يقال. والى الآن أعتقد أنه ليس في العالم كله بحر أجمل من بحر بيروت في تلك البقعة التي قضيت فيها شبابي الأول من سان جورج الى الروشة.

وكلما قرأت في لندن مقالاً للصحافي الإيرلندي روبرت فيسك في صحيفة «إنديباندانت» يذكر فيه شقته التي يقيم فيها من نحو أربعة عقود على عين المريسة، يسرح بي الخيال عائداً الى تلك الحقبة الجميلة من تاريخ لبنان وتاريخ بيروت. وعندما كتب فيسك أنه كان أول من حضر الى موقع الانفجار الذي قتل الحريري، بسبب قرب شقته في عين المريسة من ذلك الموقع، تخيلت نفسي ماشياً في ذلك الطريق كما كان الأمر في مطلع الخمسينات من القرن الماضي، أو في المدرسة نتسابق للوصول الى المكان كما فعل الصحافي الإيرلندي.

وفي زياراتي الى بيروت منذ مطلع التسعينات لم أذهب الى تلك المنطقة إلاّ مرة واحدة في صيف عام 1993، وذلك لتناول العشاء مع ابن العم إيلي الفرزلي وأصدقاء على تيراس مسبح سان جورج، الذي كان لا يزال في عهدة مديره التاريخي سيرج نادر، الى جانب تلك البركة الجميلة التي تفوق في جمالها بركة المتوكل كما وصفها البحتري. وكان ذلك قبل قيام رفيق الحريري بتشويه البحر هناك بإقامة ذلك السنسول البشع الذي مات قبالته وهو يلقي عليه النظرة الأخيرة.

•••

قبل الدخول الى الكلية الإنجيلية الوطنية التي كان يديرها المربي كامل ديب، كان يجري عادة تقويم المنتسبين الجدد، على الرغم من الوثائق والعلامات التي يقدمونها من مدارسهم السابقة. وكان التدريس كله باللغة الإنكليزية في جميع الصفوف والمواد باستثناء الأدب العربي طبعاً. ولم تكن هناك «بنات الواو» لأن المدرسة كلها كانت من «الذكور الواوية»، وأكثر من نصف تلامذتها من اللاجئين الفلسطينيين، الذين كانت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين («انروا») تدفع أقساطهم.

وبعد التقويم الذي جرى معي على يد الأستاذ ابراهيم عبود[4]، ارتؤي أن أتابع دروسي في الصف الثالث الثانوي بدلاً من الصف الثاني كما كنت أتوقع، بالنظر الى متانة الأساس الابتدائي لدراستي في القرعون، خصوصاً مع أيوب حبش، ثم مدرسة القسيس شوقي في زحلة، وبالأخص مع عبد الله شحادة.

ودخلت الى الصف الثالث خائفاً، لأنني كنت أصغر سناً من معظم تلاميذ الصف، إن لم أكن أصغر منهم جميعاً. لكن الجو الجدي الذي كان شائعاً في المدرسة، لم يترك مجالاً كبيراً للصبيانيات والولدنات. ولا بد من القول هنا إن الطلاّب الفلسطينيين بجدهم واجتهادهم وتحفزهم الحمس للدراسة كانوا من أهم الأسباب التي أشاعت هذا الجو، بالإضافة الى نخبة محترمة من المعلمين كانوا يتعاملون بصداقة وجد مع طلاّبهم. ولذلك لم يكن أمامي سوى خوض التحدي بكل ما أوتيت من قوة وعزم.

وأول ما لفت نظري من اليوم الأول اجتماع جميع الطلاب في قاعة واحدة قبل الدخول الى صفوفهم. وعندما يجلسون في الكراسي المرتبة في القاعة يأتي رجل متقدم قليلاً في السن ويجلس أمام البيانو وظهره للطلاّب، ويبدأ عزف مقطوعة موسيقية كلاسيكية لمدة عشر دقائق فقط. وكان اسم عازف البيانو هذا هو «مستر» ضومط، هكذا قدم الينا وهكذا عرفناه ولا نعلم ما هو اسمه الأول. وبعد هذا العزف يقف المدير كامل ديب على المنصة المجاورة لآلة البيانو ويلقي كلمة تربوية وتنويرية لمدة عشر دقائق أيضاً، ينصرف الطلاّب بعدها الى صفوفهم. وكانت تلك أول مرة في حياتي أشاهد وأسمع آلة موسيقية بهذا الشكل والحجم، فسحرتني وأدهشتني. ذلك أن آلات الموسيقى والطرب التي عرفتها حتى ذلك الوقت اقتصرت على أشياء لا أدري ما إذا كانت تصح تسميتها بالآلات الموسيقية، وإن كانت تصدر أنغاماً موسيقية، مثل ربابة الريس منير، وطبل الريس مصطفى، ودف مرقِّص الدب المرافق لفرقة الحجي فطوم، أو المجوز الذي يستخدم في حفلات الدبكة القروية، أو منجيرة الراعي. أما بيانو «مستر» ضومط فقد نقلني الى عالم جديد بقي معي الى اليوم. وأول كتاب قمت بشرائه في معرض للكتب في لندن هو «دائرة المعارف الموسيقية» المؤلفة من خمسة أجزاء ضخمة[5].

(4) كان الأستاذ ابراهيم عبود يدرِّسنا مادة التاريخ باللغة الإنكليزية، وأثناء وجودنا في المدرسة الإنجيلية نشرت زوجته كتاباً مهماً بعنوان «اليهود بين التوراة والاستعمار» كان له وقع في حينه والنكبة الفلسطينية كانت لا تزال في بداياتها. وله ولد وحيد اسمه رياض لم أكن أعرفه، لكنه جاء لزيارتي في مجلة «الأحرار» عام 1969 للتعارف وأبلغني أنه خبير في الشؤون العسكرية والاستراتيجية، لكن بعد تركي «الأحرار» بفترة قصيرة علمت أنه توفي فجأة وهو في الثلاثين من العمر.

(5) Grove's Dictionary of Music and Musicians,Third Edition, In Five Volumes, Macmillan & Co 1928.

وقد زادنـي علماً واهتماماً بالموسيقى الصديق المصرفي العراقي صبيح محمود شكري، الذي كان يتقن العزف على آلة «تشيللو» ويقيم مع رئيس الحكومة البريطانية الأسبق السير إدوارد هيث حفلات موسيقية يعزفان فيها معاً، هو على آلته ورئيس الحكومة البريطانية الأسبق على البيانو، وقد دعاني وعقيلته طبيبة العيون الدكتورة رغداء مع زوجتي الى بعض تلك الحفلات الراقية الخارجة عن المألوف في المجتمعات العربية التقليدية، وتعرفت من خلاله على السير إدوارد الذي لفتني اهتمامه بالصين، وأظن أنه كان يرأس «جمعية الصداقة الصينية ـ البريطانية».

•••

كان في مبنى المدرسة في عين المريسة باحتان، باحة كبرى أمامية، وباحة خلفية صغرى فيها دورات المياه. والباحتان كلتاهما تقعان على حافة البحر مباشرة فوق صخور ضخمة، والعبور من الواحدة الى الأخرى يتم عملياً فوق الماء على معبر صخري عند زاوية المبنى لجهة البحر لا يتجاوز عرضه أربعين سنتيمتراً، فكان لا بد من التمسك أثناء العبور بزاوية المبنى خشية السقوط في الماء في حال عدم التأني في العبور. وكان يستهويني أثناء الفرص بين الحصص الجلوس على صخرة عند حافة الباحة الأمامية أتطلع الى البحر الساكن الذي يعلِّم الصمت ويحفِّز الفكر. فكأن رحلتي من «العامري» الى بحر بيروت، فالى دجلة والفرات، ثم «السين» و «التايمس»، كالقدر المحتوم.

وأذكر أنه في مطلع الستينات من القرن الماضي، قبل قليل من خطوبتي لزوجتي، جاء الى جب جنين مبصِّر مغربي فشاهد خال زوجتي شكري عبود، وكان خياطاً ينادونه «المعلِّم شكري»، وهو في طريقه الى منزل شقيقته جوزفين (حماتي لاحقاً)، فقال له: «يا شاب السعد مكتوب على جبينك. تعال أقرأ لك بختك».

ولم يكن المعلِّم شكري يحمل في جيبه نقوداً فحاول التملُّص لكن المغربي أصر فأعطاه الجاكيت التي كان يلبسها. فقال له المغربي إن ثروة عظيمة سوف تهبط عليه من السماء قريباً. ومضى في طريقه.

وتذكر المعلِّم شكري أنه كان في زحلة قبل يومين واشترى ورقة يانصيب ليتخلص من البائع الذي لاحقه في الشارع ووضع تلك الورقة في جيب الجاكيت التي أعطاها للمغربي فراح يركض وراءه وطلب منه أن يبقي الجاكيت لكنه ترك فيها ورقة يريد استردادها فتم ذلك. وفي اليوم التالي ربحت تلك الورقة الجائزة الكبرى وقدرها ستون ألف ليرة عداً ونقداً، أتاحت للمعلِّم شكري أن يتزوج ويغرس كرماً عرائشياً عظيماً، ويتخلى عن مهنة الخياطة. وبعدما فرغ المغربي من التبصير للمعلِّم شكري، استدار نحو ابنة شقيقته التي صارت فيما بعد خطيبتي ثم زوجتي، وقال لها: «إن فارس الأحلام سوف يطرق بابك قريباً

وسوف تعيشين معه دائماً قرب الماء».

وهذه التبصيرة تحققت تماماً أيضاً. فكان أول بيت سكناه في مدينة العمارة في جنوب العراق عام 1962 على ضفة ملتقى فرعين لنهر دجلة عند جسر «الكحلاء». وفي السنة التالية انتقلنا الى بيت في المدينة ذاتها على مقربة من الجسر الكبير على الطريق الى البصرة. وبعد سنة من عودتنا الى بيروت، وكنا قد رزقنا ابنتنا ريما، سكنا في منزل ببناية الحاج خالد محيو في منطقة الروشة مطل على البحر بقينا فيه الى حين مغادرتنا لبنان في عام 1976. وقد ذهبت الى باريس وحدي في ذلك الوقت ونزلت ثلاثة أشهر في فندق صغير بمنطقة سان شارل قرب جادة «الكونفانسيون» في القطاع الخامس عشر من المدينة، قبل أن توافيني عائلتي ويجد لي المستر روي المدير في الأكاديمية الأميركية في باريس شقة في الحي اللاتيني على مقربة من جامعة السوربون في شارع سان جاك من القطاع الخامس حيث كان يقيم الكاتب الإيرلندي صاموئيل بيكيت، وعلى مقربة من نهر «السين» أيضاً. وكان المستر روي متزوجاً من سيدة فرنسية كان والدها من علماء الفيزياء النووية في ذلك الوقت. وأهمية الأكاديمية التي كان يديرها، والتي كنت أنوي العمل معه فيها، لولا تطورات مهنية مفاجئة، أنها مخصصة لاستقبال الطلاب الأميركيين الوافدين الى باريس لتعلم اللغة الفرنسية، والانخراط في الحياة الثقافية والفنية فيها، وكانت تستقبل غيرهم من الطلاّب الأجانب. وفي الوقت ذاته كان المستر روي يتدبر إيجاد شقق صغيرة ورخيصة لطلاّبه في محيط الحي اللاتيني، من تقاطع سان ميشال ومونبارناس، الى سان جيرمان دو بريه، الى بوليفار راسباي، ومنطقة بور رويال أو الأوبزيرفاتوار[6]. أما شقتي الأولى فكانت تطل على شارع بيار نيكول، ثم انتقلت في المبنى ذاته الى شقة تطل على شارع هنري باربوس.

ولما انتقلنا الى لندن سكنّا في منطقة ساوث كنزينغتون القريبة من نهر «تايمس» حيث بقينا أربع سنوات قبل أن ننتقل الى بيتنا الحالي على مقربة من ملعب «الركبي» الدولي في تويكنهام، لا يبعد كثيراً عن مسار النهر بين تويكنهام وريتشموند، وهو في تقديري من أجمل مقاطع نهر «تايمس». وعندما كانت زوجتي تملك مقهى في تويكنهام على شط النهر مباشرة طوال التسعينات من القرن الماضي، كنت أحب أن أمشي كل يوم بمحاذاة النهر من هناك الى ريتشموند حيث الجسر العظيم المطل على أروع مشهد مائي في العالم، هو عبارة عن لوحة فنية بريشة الخالق. وفي شرق تويكنهام على ذلك الطريق، وقبل منطقة «أورلينز» المؤدية الى ريتشموند، هناك مبنى ضخم، لعله أضخم مبنى في منطقة تويكنهام، أطلق عليه اسم «ليبانون كورت»، فكان مؤنساً لي أن

(6) لكثرة الطلاّب الوافدين الى الأكاديمية من جميع أنحاء العالم أقام المستر روي نوعاً من الوكالة العقارية المتفرغة لتدبير شؤون سكن الطلاّب، وامتد عملها ليشمل آخرين غير الطلاّب لأنها متخصصة في عقود الإيجار المرنة والقصيرة الأجل.

أسير بمحاذاته، ولا سيما أن طريقاً فرعياً يتجه من جانب هذا المبنى الى النهر اسمه «شارع الأرز» أو «سيدر رود». وهذه النفحة اللبنانية التي تفوح منها رائحة الأرز، من شجرات أرز عديدة تظلل البارك المعروف أيضاً باسم «ليبانون بارك»، مما يدل على أن أغراس الأرز تلك استقدمت من لبنان، أضفت على المكان إغراءً إضافياً الى جانب الإغراء الطبيعي. وتلك المنطقة التي تقع فيها «ليبانون كورت» كانت مرغوبة من قبل المهاجرين الفرنسيين أثناء الثورة الفرنسية، خصوصاً من نبلاء العهد الملكي الذي أسقطته الثورة. ولذلك سُمِّيت تلك المنطقة «أورلينز» نسبة الى دوق أورليان الذي أصبح فيما بعد ملكاً على فرنسا بين 1830 و 1848. وقد قرأت في مذكرات دوق أورليان[7] منذ أن كان ضابطاً صغيراً في الجيش الفرنسي الى أن أصبح ملكاً، أنه نزل الى لندن مرة لحضور احتفال في القصر الملكي البريطاني، ولما جاء دوره ليسلم على الملك جورج الثالث، قال له العاهل البريطاني: «هل تجشمت مشقة السفر من تويكنهام الى هنا لحضور هذا الاحتفال». أما اليوم فإن تويكنهام تكاد تكون في وسط لندن الكبرى.

وبالقرب من مقهى زوجتي على النهر كان يعيش الشاعر الإنكليزي الكبير ألكسندر بوب Alexander Pope، الذي قرأت في مذكرات السفير الأميركي في باريس أثناء الثورة الفرنسية، غوفيرنور موريس[8]، الذي خلف طوماس جيفرسون في هذا المنصب، أنه جاء من لندن بزورق في النهر لزيارة الشاعر المذكور، قبل أن يكمل رحلته النهرية لزيارة أصدقاء له في بلدة «ستاينز». وللشاعر بوب قصيدة في النقد[9] يصف فيها أنصاف المتعلمين «الكثر في

---

(7) هو ابن الدوق فيليب أورليان من «أمراء الدم» الذين يحق لهم اعتلاء العرش، وكان يعتقد بأنه أحق بالعرش من قريبه الملك لويس السادس عشر، ولذلك انضم الى الثورة الفرنسية من وقت مبكر، وشارك في حملات التشهير والتحريض ضد الملكة ماري أنطوانيت، وكانوا يطلقون عليه في الثورة لقب «فيليب إيغاليتيه» (أي فيليب المساواة). أما نجله الذي هرب الى تويكنهام بعد إعدام والده خلال حكم الإرهاب، الذي قاده روبيسبيير، فقد كتب مذكراته بنفسه، ثم أصبح ملك الفرنسيين من 1830 الى 1848باسم «الملك لوي فيليب الأول»، وفي بداية عهده كملك بدأ الاحتلال الفرنسي للجزائر بموجب خطط محفوظة لدى الجيش من أيام نابليون بونابرت.

(8) The Diary and Letters of Gouverneur Morris, Minister of The United States to France, Member of The Constitutional Convention, ed Anne Cary Morris, 2 vols, 1888.

موريس هو من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأميركية، ومثّل ولاية بنسلفانيا في المؤتمر الدستوري لعام 1787، وأسهم في كتابة الدستور الأميركي، بل أطلق عليه لقب «كاتب الدستور». وهو من أنصار إقامة فدرالية مركزية قوية. وكان في زيارة عمل الى باريس عام 1789 عندما اندلعت الثورة الفرنسية، فعينته الحكومة الأميركية وزيراً مفوضاً لها لدى فرنسا فبقي في منصبه هذا من 1792 الى 1794، ولذلك تعد يومياته الباريسية الصادرة في جزئين من أهم المراجع في تاريخ الثورة الفرنسية، لأنه كان شاهد عيان عليها. وقد اشتريت الجزء الأول من تلك المذكرات في معرض للكتب القديمة لكنني لم أجد الجزء الثاني بطبعة قديمة.

(9) عنوانها Essay on Criticism.

جزيرتنا»، بأنهم «مثل بغال التحميل، لا خيول ولا حمير، بل مخلوقات غير مكتملة التكوين كالحشرات على ضفاف النيل». وفي تلك القصيدة يقول:

And little learning is a dangerous thing

Drink deep, or taste not the pierian spring

وقد تَرجمتُ هذا المقطع من تلك القصيدة الى العربية على الوجه التالي:

ضحلُ المعارفِ أمـرٌ خطيرْ، / فانهل عميقاً، أو لا تقرب النبعَ الغزيرْ

وكانت الفيللا التي أقام فيها ألكسندر بوب في تويكنهام من أجمل البيوت في المنطقة على النهر، وقد أقام فيها حديقة وارفة كانت في زمانها من أجمل حدائق بريطانيا.

•••

في مدرسة عين المريسة تعرفت لأول مرة على الصحافة العربية. فقد كان في صفنا طالب أكبر منا سناً بشكل واضح، فكان يحلق ذقنه، ويرتدي بدلة رسمية لها صدريّة وربطة عنق، اسمه زهير مأمون، وهو بيروتي على الأرجح. وكان زهير يأتي الى المدرسة متأبطاً مع كتبه جريدة «المصري» لليوم السابق، وهي جريدة مصرية لصاحبيها الأخوين أحمد ومحمود أبو الفتح. ولم يكن أحد من الطلاّب الآخرين يحمل أو يقرأ أي جريدة. ودعاني الفضول مرة الى الطلب منه أن يعيرني تلك الجريدة، فصار يعطينيها بعدما يفرغ من قرائتها، لكنها لم تشدني كثيراً ربما بسبب ركاكة اللغة العربية في مواضيعها وأخبارها.

وفي تلك المرحلة سمعت لأول مرة أن هناك لغة اسمها «لغة الجرائد»، بمعنى أن ركاكتها متعمدة لتنزل الى مستوى القارىء لأنه من الصعب أن ترفع القارىء الى مستواها. ولذلك رحت أبحث عن مطبوعات فكرية، قبل تعرفي على «الآداب» لسهيل ادريس، و«الأديب» للأستاذ لألبير أديب، وهما المجلتان اللتان من خلالهما تكونت لدي فكرة عن الأدب العربي المعاصر.

لكن الشيء الواضح في ذلك الوقت كان السيطرة اليسارية الشيوعية على المجال الثقافي. وقد تأثرت بتلك الثقافة اليسارية من خلال مجلة «الغد» المصرية التي كان يصدرها فؤاد أبو العيون ويكتب فيها الدكتور عبد العظيم أنيس، وعبد الرحمن الخميسي، ومن خلال جريدة «الثقافة الوطنية» اللبنانية التي كان يكتب فيها يساريون لبنانيون معروفون أمثال حسين مروة.

ويبدو أن هذه كانت ظاهرة عالمية انتبهت اليها الولايات المتحدة الأميركية في وقت متأخر من الخمسينات، فراحت أجهزة استخباراتها تموّل مجلات ثقافية عديدة حول العالم لكسر شوكة السيطرة الشيوعية على التَوجهات الثقافية. وقد تعرفت على عيِّنة من هذا الإنتاج الأميركي المبطّن بعدما زار الكاتب والشاعر البريطاني المعروف ستيفن سبندر الجامعة الأميركية في بيروت حيث ألقى محاضرة كنت في عداد المستمعين اليها، فذكر أنه يُصدر مجلة اسمها

Encounter، فصرت أقرأها وعلمت بعد فترة أن «وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية» هي التي كانت تمولها فانقطعت عن قراءتها.

وراجت في بيروت لاحقاً أقاويل حول التمويل الأجنبي، والأميركي خصوصاً، لبعض المطبوعات والصحف للبنانية الثقافية وغير الثقافية. وكان افتضاح أمر تلك المطبوعات يحدث ضجة في بيروت أين منها ما كان يحدثه المثقفون الشيوعيون ثقافياً وسياسياً، كتلك التي حدثت عند صدور كتاب «ضجة في صف الفلسفة» للدكتور جورج حنا الشيوعي المعروف، وعلى الرغم من ذلك سقط في الانتخابات النيابية عن الأشرفية في عام 1953 قبالة غسان تويني صاحب جريدة «النهار»، كما سقط في بيروت أيضاً المهندس أنطون ثابت الشيوعي الميول أيضاً. لكن المرشح الشيوعي الذي نجح بالأصوات البيروتية وأسقطوه بالسياسة الخفيّة في الأربعينات لمصلحة رياض الصلح هو الزعيم النقابي العمّالي مصطفى العريس.

وسمعنا في بيروت كلاماً مماثلاً عندما صدرت مجلة «شعر» التي قام عليها الشاعر يوسف الخال[10] واستقطبت في البداية نخبة من كتاب الشعر الحديث. ولذلك تكونت لدى اللبنانيين حساسية مفرطة تجاه الصحف والمجلات المشتبه بتمويلها الخارجي، سواء بصورة مبطّنة أو بصورة مكشوفة.

ومن نماذج تلك الضجة ما حدث لاحقاً عندما تكشف أن «بنك روتشايلد

---

(10) التقيت الشاعر يوسف الخال لآخر مرة في لندن قبيل وفاته بقليل، في أواسط ثمانينات القرن الماضي، وحضرت المأدبة التي أقامها على شرفه في «مطعم لبنان» الناشر رياض نجيب الريِّس وفي تلك المأدبة كان مقعدي بين شاعر إيرلندي مبتدىء وبين الكاتب والشاعر البريطاني كريستوفر لوغ الذي كان يكتب حينها في مجلة «برايفيت آي» الفضائحية. وقد وصف الشاعر الإيرلندي الطعام اللبناني في تلك المأدبة العامرة بأنه Filling and Fulfilling، أي أنه يملأ البطن ويملأ العين. أما كريستوفر لوغ الذي أعجبه النبيذ اللبناني «موزار»، فقد شرح لي تاريخ تطور النبيذ في بريطانيا من أيام الملك هنري الثامن الذي قضى على صناعة النبيذ لأن الرهبان الكاثوليك كانوا ممسكين بها، الى اليوم. وهو شاعر مجدد يعمل الآن وهو في الثمانينات من عمره على ترجمة إلياذة هوميروس الى لغة إنكليزية دارجة، وعمل في المسرح كاتباً وممثلاً، ومن مسرحياته «المسيح المتوحش» Savage Messiah، ونال جائزة «ويتبريد» للشعر عام 2005 على ديوانه «دعوات باردة»، وهو على مشارف الثمانين من العمر. وقد كتب سيرته الذاتية شعراً ، على طريقة يوسف الخال في كتابة «شعر الأنا»، حيث جاء فيه مقطوعة منها تقول:

أنا، المدعو كريستوفر لوغ
عمّدوني يوم خروج الإنكليز بالآلاف قبضاتهم مرفوعة في الهواء
وأمعاؤهم خاوية زاحفين على مدينة المال

بينما يقول يوسف الخال في «الأنا»:

أنا، كلُ ما أدّعي
حملتُ صليبي معي / أملّحُ يأسي وأخنقُ إمّا جرت أدمعي
فلا الليلُ في خاطري / ولا الهمُّ في أضلعي
أنا يا سماءُ اقشعي ويا.. يا.. ليالي اسمعي سأخلقُ فجراً جديداً إذا الفجر لم يطلع

وعن تلك المناسبة كتبت مقالاً حول يوسف الخال في مجلة «الصياد» التي كانت تصدرَ في لندن يومها وصفته فيه بأنه «خالٌ على خدِّ الشعر العربي الحديث».

اليهودي» هو الذي يقف وراء تمويل جريدتي «النهار»، و«الحياة»، لصاحبها كامل مروة الذي اغتيل في مكتبه لاحقاً، بعدما صارت جريدته منبراً للحلف الإسلامي الذي تولته وموّلته المملكة السعودية ضد الحركة الناصرية. وقد اتسع الحلف الإسلامي المذكور ليشمل قيادات دينية مسيحية معروفة بميولها الأميركية، ومنهم من زار المملكة السعودية في عهد الملك فيصل صاحب الحلف المذكور ضمن وفد من المطارنة لحضور مؤتمر إسلامي عقد هناك. وربما كان هؤلاء أول رجال دين مسيحيين يطأون أرض الجزيرة العربية منذ قس بن ساعدة.

زينة كتب اليسار في تلك المرحلة كان كتاب «الحقيقة اللبنانية» لمؤلفه عمر فاخوري، وكنت وما زلت أعجب لماذا طُمس هذا الكتاب الذي كان يجدر تدريسه في المدارس. وأظن اليوم أن طمس ذلك الكتاب كان متعمداً وبفعل السيطرة الثقافية والسياسية للقوى الحاكمة التي كانت وما زالت مدعومة من الخارج، والمتضررة من بروز الحقيقة الوطنية اللبنانية. ومما كتبه عمر فاخوري عن اللبنانيين قوله: «أهل هذه البلاد أشتات، روحاً ومقاصد، لا تسمو نفوسهم ولا تطمح هممهم ولا يضحُّون في سبيل المصلحة العامة سوى قلامة ظفر. هم تجّار: بعضهم يتاجر بالوطنية، ومن لا يتاجر بها فلأنه يتاجر بغيرها، أو لأنه عاجز، أو لأن الماء جار تحت قدميه ولا يدري».

وكانت بيروت في المرحلة التي سبقتنا ولحقتنا أطيافها تشع بالعمرين الأربعة: الكاتب عمر فاخوري، والفنانان عمر فروخ وعمر الأنسي، والشاعر الشعبي عمر الزعني. وفي تقديري أن التشوهات المتعمدة التي أنزلت بالكيان الإسلامي السنّي في بيروت سبقت التشوهات الخطيرة التي لحقت فيما بعد بالجسم المسيحي، بل ربما كانت أخطر منها وأوسع مدى.

فالصورة اليسارية في لبنان لم تقتصر على الحركة الثقافية والنقابية التي شكل الشيوعون القدامى نسيجها المتميز الذي بلي مع الوقت شأن معظم الأشياء في لبنان بما في ذلك لبنان نفسه ونظامه. بل كانت في أذهان اللبنانيين صورة روسيا القديمة التي يشكل المسلمون جزءاً أساساً منها. وقليلون اليوم يعرفون أن عدد المسلمين في الإمبراطورية القيصرية الروسية كان أكبر من عدد المسلمين في الإمبراطورية العثمانية، وأن الضباط المسلمين في الحرس القيصري كانوا يشكلون غالبية أفراد ذلك الحرس، وأن الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي السابق كانوا آخر من انفك عن الاتحاد، ولم تكن لديهم رغبة في الانفكاك. ولا أظن أن كثيرين من المسلمين في لبنان أو غير لبنان قرأوا شيئاً عن التاريخ الإسلامي في روسيا، وكيف نشأت معارضة لاتجاه القيصر نقولا الثاني لخوض الحرب العالمية الأولى الى جانب الحلفاء الغربيين، وتفضيل التحالف مع السلطنة العثمانية كقوة وسطية مانعة للحرب.

وكان من بين هؤلاء الراهب راسبوتين الذي جرى اغتياله معنوياً بتشويه صورته الحقيقية بشكل ممنهج الى وقتنا الحاضر، ثم جرى اغتياله جسدياً في مؤامرة غامضة. ذلك أن راسبوتين نصح القيصر بأن التحالف الطبيعي لروسيا هو مع العالم الإسلامي، وأنه إذا دخل الى جانب الحلفاء الغربيين فإنه سوف لن يخسر الحرب فقط، بل سيخسر عرشه ونظامه أيضاً فوق خسارته الحرب. وتعبيراً عن سخطه قام راسبوتين قبيل الحرب بجولة إسلامية شملت استانبول وبيروت والقدس.

ويروي قدامى الأرثوذكسيين أنه عندما تبرع القيصر الروسي بجرس كاتدرائية مار جرجس في ساحة النجمة قبالة البرلمان الحالي، وأرسل ذلك الجرس البالغ وزنه طنين اثنين من ميناء أوديسا الى بيروت، هرع أهل بيروت لاستقباله، وعلى رأسهم عدد من الأساقفة والخوارنة والرهبان بملابسهم الكهنوتية وهم ينشدون التراتيل الدينية، فأصر المسلمون في بيروت أن يتولوا هم نقل الجرس على أكتافهم، فعُلِّق بين رافعتين صلبتين حملهما على الصفين شبان مسلمون من بيروت على أكتافهم من مرفأ بيروت الى الكاتدرائية.

يضاف الى ذلك صورة المقاومة الروسية للاحتلال الهتلري، وانتصار الجيش الأحمر بقيادة المارشال جوكوف في الحرب العالمية الثانية، والأهم دور الاتحاد السوفياتي في استقلال لبنان وسوريا، عندما استخدم المندوب السوفياتي في مجلس الأمن الدولي حق الفيتو لأول مرة في تاريخ ذلك المجلس ضد محاولات التحايل الفرنسي والأميركي على الاستقلال اللبناني ـ السوري عام 1946. وكذلك لعب دوراً مهماً في بيروت السفير والمستشرق دانيال سيمونوفيتش صولود، سفير ستالين الى بيروت ودمشق، وهو من الشخصيات الديبلوماسية التي تركت أثراً ملموساً في الصالونات الاجتماعية اللبنانية في بيروت.

وخلال عملي في الصحافة اللبنانية كان ديبلوماسيون صينيون في زمن ماوتسي تونغ، يأتون لزيارتي للتحدث عن الشؤون السياسية في المنطقة، ومنهم واحد يدعى «المستر شو»، حتى من قبل افتتاح السفارة الصينية في بيروت، وكانوا شديدي التطرف ضد الاتحاد السوفياتي، فكنت أشير عليهم دائماً بعدم التهجم على الاتحاد السوفياتي في لبنان والبلاد العربية، لأن ذلك يضر بالصين أكثر مما يضر بالاتحاد السوفياتي، ولأن مقتضيات الصراع العربي ـ الإسرائيلي تحتم مراعاة الاتحاد السوفياتي بسبب الانحياز الغربي المطلق الى إسرائيل. والملفت أن الصين الشعبية في ذلك الوقت، وطوال وجود ماو تسي تونغ على رأس القيادة الصينية، لم تكن معترفة بالكيان الإسرائيلي، لكن الديبلوماسية الصينية في ذلك الوقت لم تستغل موقفها هذا استغلالاً إيجابياً في لبنان والعالم العربي، ربما بسبب انشغالها في المنافسة

مع السوفيات في الستينات ثم انشغالها في أواسط السبعينات بترميم وتعزيز علاقاتها مع الولايات المتحدة ومع الدول الغربية عموماً. وكان لبنان يومئذ غير معترف بجمهورية الصين الشعبية لأن الولايات المتحدة لم تكن راغبة في ذلك، فكان الديبلوماسيون الصينيون يأتون الى بيروت من دمشق في زيارات قصيرة لإجراء اتصالات مع شخصيات لبنانية[11].

وسط تلك التيارات الثقافية المتضاربة، استهواني تيار ثالث كان يعبر عنه أستاذنا في الأدب العربي إنعام الجندي الذي نشأت بيني وبينه صداقة امتدت الى آل الجندي عموماً. وذلك التيار هو التيار القومي المتمثل بحزب «البعث العربي الاشتراكي» الذي كان الأستاذ إنعام يميل اليه، وربما كان من المنضوين فيه. والأستاذ إنعام هو أصلاً من أهل مدينة السلميّة في سوريا لكنه عاش وعمل وتأهل في لبنان، وكانت له بصمات ملحوظة على أجيال من الطلاّب اللبنانيين وأنا واحد منهم.

ثم تعرفت من خلاله لاحقاً على شقيقه الأصغر عاصم الجندي، الذي توفي في سن مبكرة، وهو من كتّاب الشعر الحديث. ومن بعده على شقيقه الشاعر المعروف علي الجندي الذي كان ضمن جماعة من الشعراء يتحلقون حول السيدة لور غريِّب. وأخيراً تعرفت على شقيقه الأكبر الدكتور سامي الجندي، وهو في الأصل طبيب أسنان عمل في السياسة وصار في الستينات سفيراً لسوريا في باريس يوم كان السفير اللبناني هناك الصحافي الكبير الأستاذ جورج نقاش. وجاءت معرفتي بالدكتور سامي الجندي في لحظة مأسوية، أو بالأحرى مبكية ـ مضحكة (تراجي ـ كوميك). ففي ذلك اليوم كنت في زيارة الى الأستاذ صلاح الدين البيطار في منزله بالقرب من مبنى «ستراند» في منطقة شارع الحمرا، وكان هناك الصديق نبيل شويري ومعه نسيم سفرجلاني، حيث علمت منهم أن العقيد عبد الكريم الجندي مدير أحد أجهزة الاستخبارات

---

(11) حاولت في مطالع السبعينات من القرن الماضي مع الزميل شكري النجار إقامة جمعية للصداقة اللبنانية ـ الصينية، واتصلت لهذه الغاية بالوزير جوزف أبو خاطر الذي كانت تربطني به علاقة صداقة ليكون رئيساً لتلك الجمعية فرحّب بالفكرة، لكنني لم أتابع الموضوع بعد ذلك. وكنت في عام 1972 زرت جوزف أبو خاطر في بيته بتكليف من قريبي الياس الفرزلي المرشح في ذلك الوقت عن المقعد الأرثوذكسي في البقاع الغربي لحثّه على خوض المعركة الانتخابية في زحلة في انتخابات تلك السنة من أجل تخفيف الضغط عن البقاع الغربي، فقال لي بالحرف الواحد، وهو العليم الخبير: «انتخابات لبنان تصنعها الدول. وأنا لست مستعداً أن أنفق من مالي الخاص على الانتخابات، فثروة ابراهيم أبو خاطر هي لابراهيم أبو خاطر (أي من الجد الى الحفيد). فاذهب وجد لي دولة تموِّل المعركة وابشر». وذهبت ولم أعد. لكنني عدت فالتقيت به في فندق دورشستر في لندن في أواخر السبعينات من القرن الماضي، وكان ذلك الفندق يومها مملوكاً من رجل الأعمال الفلسطيني توفيق أبو خاطر الذي ما لبث أن باعه. وكان فندق دورشستر المطل على «هايد بارك» وسط العاصمة البريطانية قد تغيَّرت ملكيته عدة مرات خلال سنوات قليلة من رجل الأعمال السوري موفق الميداني، الى توفيق أبو خاطر، فالى الأخوين باركلي، وأخيراً الى سلطان بروناي عبر رجل الأعمال المصري محمد فايد صاحب محلاّت «هارودز» سابقاً.

السورية قد انتحر بإطلاق النار على رأسه من مسدسه الحربي. وما هي إلاّ لحظة حتى قرع جرس الباب فإذا بالدكتور سامي الجندي هو الطارق. وكانت تلك المرة الأولى التي ألقاه فيها وجهاً لوجه. وقد لاحظت على وجوه الحاضرين ومنهم الأستاذ صلاح البيطار نفسه علامات غير مريحة عندما بدأ الدكتور سامي يتحدث بشماتة عن انتحار ابن عمه، جازماً بأنه كان يتوقع له هذا المصير.

وقبل انتحار عبد الكريم الجندي بطريقة تشبه انتحار غازي كنعان بعد أربعين سنة، استدعى الجندي الزميل علي بلوط العامل آنذاك في جريدة «الأنوار» وأخذه معه في سيارته بجولة في دمشق، هو يقود السيارة وعلي الى جانبه، وراح يُفرغ له جعبته من كلام ووثائق تتناول حافظ الأسد، معتبراً أن كلامه ذاك بحق الأسد بمثابة «وصيّة» للنشر بعد موته. وبالفعل نشرت «الأنوار» بعد انتحار الجندي وصيّته تلك على صفحتها الأولى مع صور لبعض وثائقها.

أما الشخصية المتميزة بين من عرفتهم من آل الجندي فهو الأستاذ أحمد الجندي عضو المجمع العلمي العربي في دمشق، وكان شخصاً طريفاً وظريفاً في آن. وكانت أول مرة التقيت فيها أحمد الجندي في أحد مقاهي دمشق بصحبة الصديق العزيز منح بيك الصلح. وكان ابن شقيقه علي الجندي قد أصدر في بيروت ديوان شعر عنوانه «الرايات المنكّسة»، فسألت الأستاذ أحمد عن رأيه في ديوان ابن أخيه، فقال ضاحكاً: «يجدر به أن يعلقه على صارية فوق مخفر للدرك اللبناني». والتقيت الأستاذ أحمد الجندي مرة ثانية في مقهى «دولتشي فيتا» بالقرب من منزلي في بيروت بمنطقة الروشة، وكان يشكو من زوجة ابن أخيه إنعام لأنها اشترت لابنها الصغير رائد صباطاً بقيمة 45 ليرة في ذلك الوقت، قائلاً إنه على وعيه لم ينتعل أحد في الشام صباطاً بهذه القيمة غير عفيف بيك الصلح وميخائيل اليان.

وبقيت البذرة التي زرعها الأستاذ إنعام الجندي في رأسي حية الى اليوم، وأعطتني مناعة فكرية ضد جميع التيارات الأخرى المتضاربة، ولا سيما ضد تلك التي عصفت بالحركات القومية ذاتها، ومنها على وجه التحديد تلك التي عصفت بحزب البعث. فكنت يسارياً خارج اليسار، وقومياً خارج التيارات القومية، وبعثياً غير منتسب لحزب البعث. ولذلك كنت أرى الصورة من دون الشوائب التي حجبتها، وظل رأيي مستقلاً ومستقيماً بغير مواربة، أضع العلم والثقافة والنزاهة الفكرية فوق كل اعتبار. ولم يكن اهتمامي بالثقافة والعلم لغاية مادية شأن كثيرين من اللبنانيين الذين يدفعون أولادهم الى اختصاصات معينة لأن طريقها أسرع الى جني المال، بل لاعتقادي بأن غاية العلم والثقافة هي جعل الشخص الفرد إنساناً أفضل وأعدل ولو بقي فقيراً معدماً متآخياً مع الإملاق. وربما تأثرت في ذلك بالدكتور ملحم الفرزلي جد زوجتي. وبنظرة الى الوراء أجد أن الآفة الكبرى في لبنان والدول العربية هي فساد النخب الثقافية،

ولولا الفساد الذي نخر الجسم الثقافي اللبناني والعربي، لما تفشى وتراكم الفساد بين رجال الدين ورجال السياسة الى الدرجة التي باتت مستعصية على الفهم والإصلاح. فكانت المجموعة القصصية التي جمعها إنعام الجندي تحت عنوان «الشعب هو القائد»، تمثل في بداية تفتحي السياسي نوعاً من «حقل دلالة»، كما تأثرت بما كتبه المصري عبد الرحمن الشرقاوي بعنوان «من أب مصري الى الرئيس ترومان».

•••

إن ما تشكل في وجداني خلال دراستي في المدرسة الإنجيلية الوطنية، تكوّن أيضاً من خلال احتكاكي المباشر مع الطلاب الفلسطينيين الذين تأثرت بهم وبقضيتهم. فالمشهد الأول للفلسطيني كان، كما سلف القول، من خلال أفواج اللاجئين الذين توافدوا على «كامب» القرعون، أما في مدرسة عين المريسة فقد اختلف المشهد اختلافاً جذرياً عندما رأيت شباناً يلتهمون العلم التهاماً ويعضون على جراحهم من أجل غد أفضل، ومن أجل استعادة حقوقهم المسلوبة.

ويمكنني أن أقول إنني في مدرسة عين المريسة صرت فلسطينياً بالمعنى الإنساني المجرد، وفهمت التركيبة الظالمة في العالم التي ظلمت هؤلاء البشر ظلماً لا يمكن تصويبه إلاّ بتغيّر العالم كله. هذا العالم الذي حاول مداواة الظلم بالظلم، لا يستطيع أن يتخلص بالتسويات المرقّعة ترقيعاً من إطار الظلم الذي سجن نفسه فيه. ولذلك، كنت وما زلت أرى أن فلسطين والفلسطينيين في كفة، والعالم كله في كفة أخرى، فلا قضية في العالم إلاّ القضية الفلسطينية، وما عداها مجرد أزمات تأتي وتزول.

وفي الآونة الأخيرة التقيت الشاب الإيرلندي الأصل كين أوكيف، الذي تخلّى عن جنسيته الأميركية بعدما خدم في سلاح مشاة البحرية، «المارينز»، على أثر عودته من المشاركة في أسطول الحرية الذي حاول كسر الحصار على قطاع غزة في مطلع عام 2010، وشهد مقتل المشاركين الأتراك على يد القوات الخاصة الإسرائيلية على متن السفينة التركية «مرمره»، وذلك في منزل أهل زوجته الفلسطينية في لندن، وتحدثنا في الموضوع الفلسطيني، فأبدى إعجابه ودهشته بصمود الشعب الفلسطيني وصبره العظيم واحتفاظه بقيمه وتراثه وإنسانيته، وقال إنه حرام أن يجري تقسيم فلسطين على أسس دينية وعنصرية، وأبدى ثقته بأن مثل هذا التقسيم لن يتم، وإذا تم فإنه لن يدوم.

ولا بد من القول هنا إن الشعب الفلسطيني كان على الدوام أرفع مستوى من القيادات المتعاقبة التي تولت الدفاع عن قضيته. بل إن تلك القيادات أسهمت بشكل أو آخر في إطالة عذابات الشعب الفلسطيني وتعميقها، وما زالت. وهذا يندرج أيضاً في باب فساد النخب الثقافية. فالتردي كان متدرجاً بوضوح من

الماضي الى الحاضر. فمفتي الديار الحاج أمين الحسيني كانت زعامته أرفع زعامة في العالمين العربي والإسلامي، وكانت أصلب عوداً وأوضح مساراً من قيادة أحمد الشقيري لمنظمة التحرير الفلسطينية، ومن بعدها قيادة يحيى حموده، ثم ياسر عرفات وصولاً الى قيادة محمود عباس. فالحاج أمين على الأقل كان يسمي المنظمة التي عمل من خلالها «الهيئة العربية العليا»، لا الهيئة الفلسطينية، وكان الرجل الأول بعده في تلك الهيئة المناضل الوطني الفلسطيني المسيحي الأستاذ إميل الغوري.

وعندما كنت مدرِّساً في جنوب العراق بعد تخرجي من الجامعة في عام 1961، في زمن حكم الزعيم عبد الكريم قاسم، لاحظت مدى احترام العراقيين حكومة وشعباً للحاج أمين الحسيني. وبعد عودتي من العراق وانضمامي الى أسرة «دار الصياد» في عام 1963 سكنت سنة كاملة مع زوجتي وابنتي في الحازمية على مسافة قريبة من الدار الى جانب ما كان يسمى «قصر القدسي» الذي أصبح تالياً المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى أيام الإمام موسى الصدر. وكان الى جواري منزل الحاج أمين الحسيني الذي كنت أراه يومياً تقريباً، وكنت أرى تواضعه الجم ومدى احترام قدامى الفلسطينيين له الى درجة التقديس.

لكن حملات التشويه العالمية التي لاحقت الحاج أمين بسبب علاقته مع الزعيم النازي أدولف هتلر خلال الحرب العالمية الثانية أسهمت عن عمد وسابق تصور وتصميم في تشويه القضية الفلسطينية بشخص الحاج أمين. ومن الأمثلة على النفاق الغربي في هذه المسألة، أن الحاج أمين بالاتفاق مع هتلر أقام إذاعة عربية في روما بإشراف الأستاذ أكرم زعيتر غايتها الأساسية استنهاض مسلمي البوسنة والهرسك، ومسلمي الشرق الأدنى عموماً، ضد الحلفاء. أي أن مسلمي البوسنة والهرسك في الحرب العالمية كانوا في صف ألمانيا النازية التي يفترض أنها معادية لليهود. لكن في تسعينات القرن الماضي، قامت الدول الغربية تحت مظلة حلف شمال الأطلسي بتدمير دولة الصرب الذين كانوا معهم في الحرب ضد هتلر والنازية بحجة الدفاع عن مسلمي البوسنة والهرسك. وقد لفت نظري الى هذه المفارقة العلاّمة الشيخ عبد الله العلايلي في منزله في منطقة البطركية، وكان ذلك أول وآخر لقاء لي معه. وقد تم اللقاء عندما أبدى النائب السابق عبد الله الغطيمي رغبته في ترتيب لقاء بين الشيخ عبد الله وبين ابن العم إيلي الفرزلي، نائب رئيس المجلس النيابي في حينه، الذي طلب مني أن أرافقه في تلك الزيارة التي دامت ساعتين. ومع أنني لم أكن قابلت الشيخ عبد الله العلايلي وجهاً لوجه من قبل، إلاّ أنني كنت أعرف أفكاره ومواقفه، بل إنني مرة حفظت خطابه في رثاء عدنان المالكي في دمشق عن ظهر قلب. لكنني فوجئت ببساطته وبظرفه. وكان يجلس على الأرض وأمامه طبقة خشبية مائلة يكتب عليها ويسند كتابه في القراءة اليها. فقد قال

الشيخ عبد لله في تلك المفارقة إن الدول الأطلسية لم تقم بالحرب لنصرة المسلمين بل لتدمير وإضعاف الأمة الصربية، ولا أظن أن كثيرين في العالمين العربي والإسلامي اليوم يقولون بذلك أو يقرّون به.

وقبل أن نبدأ بالحديث الجدي الذي تطرق فيه الى قصة الحاج أمين الحسيني المشار اليها، روى لنا قصة له حدثت مع الكاتب اللبناني كرم ملحم كرم، والد النقيبين ملحم وعصام كرم، عندما كانا يعملان معاً في إذاعة الشرق الأدنى في فلسطين. فقال إن الأستاذ كرم كان يلثغ بحرف الراء، وكان عليه في اليوم التالي أن يقرأ في الإذاعة موضوعاً معيناً يعدّه. فدخل الى غرفته مبكراً لكتابة موضوعه، وفي الثالثة صباحاً فيما كان الشيخ عبد الله نائماً سمع طرقاً قوياً على بابه فأفاق ليفتح الباب، فإذا بالأستاذ كرم هناك يقول له وكأنه يزف بشرى:

«لقد فعلتها. . نعم فعلتها».

فقال له الشيخ عبد الله:

«وماذا فعلت؟»،

فأجاب:

«لقد أنجزت كتابة موضوعي وليس فيه حرف راء واحد».

أما بقية الحديث فقد تناول ثلاثة محاور: محور الدين، ومحور العلم، ومحور العقل.

وكان ذلك الحديث شيِّقاً الى درجة أنني سجلت بعض ما جاء فيه بحرفيته لئلا أنساه، وأكتفي هنا برؤوس عناوين سوف أختصرها بكلمات قليلة.

في موضوع الدين قال الشيخ عبد الله إن الدين طمأنينة للإنسان، لكن بعضهم بمن فيهم بعض رجال الدين في الشرق والغرب أفسدوا على الإنسان طمأنينته، فصار مصدر الطمأنينة مبعثاً للخوف والقلق. وقال إن كثيرين من الذين يذكرون ويتذكرون الإسلام اليوم ينسون الله، والأسوأ من ذلك أنهم يدافعون عن الشريعة السماوية بسلطة زمنية. واعترف الشيخ عبد الله بأن الدين يستهوي الناس العديمي الأفكار، معتبراً أن في ذلك ناحية إيجابية من حيث أن الدين مفيد للذين ليست لهم قدرة على التفكير. واعتبر أيضاً أن الفئوية المذهبية المنتشرة في هذه الأيام هي من علائم موت المشاعر الدينية الأصلية.

وفي موضوع العلم، وفي موضوع تقهقر لبنان أو تجمده في هذا المضمار، دحض الشيخ عبد الله ما قلته له من أن التراكم العلمي والثقافي السابق في لبنان من شأنه أن يبقيه متقدماً، أو على الأقل قادراً على استئناف مسيرته عندما تسنح الظروف. فقال:

«إن التراكم لا يعطي أرجحية، لأن الآخرين (يقصد بقية العرب) يمكنهم الانطلاق من حيث انتهينا نحن، وليس لزاماً عليهم أن يبدأوا من أول الطريق.

إنني لا أسلم بفرضية التراكم».

وفي موضوع العقل قال إن العرب الأقدمين، حتى قبل الإسلام، كانوا يقرنون العقلِ بالسمو الى أعلى، فيقولون «العقل طُلعة»، وشرح ما معنى الطلعة، ثم قال مازحاً أما اليوم فهو «نُزلة».

كانت تلك الجلسة مع الشيخ عبد الله العلايلي قبل وفاته بسنتين من أرقى وأبهى الجلسات التي صادفتها منذ مغادرتي لبنان قبل نحو أربعة عقود.



II

بيروت الأخرى...

كنت في مدرسة عين المريسة أحادي الجانب، لا أرى من الدنيا سوى بيروت الغربية، وفي قلبها فلسطين والعروبة. ولم أكن أعرف، أو يهمني في ذلك الوقت أن أعرف، أن هناك على الجانب الآخر من بيروت نزعات مختلفة تتعارض مع توجهاتي ومع مشاربي.

أول إطلالة لي على المشهد المختلف في بيروت الأخرى، كانت بعد دخولي الى الجامعة الأميركية من خلال أفكار الدكتور شارل مالك، ومن ثم بسبب حوادث عام 1958 وانقسام البلاد الى معسكرين، والوحدة السورية ـ المصرية، ونزول قوات المارينز الأميركية في بيروت بعد ثورة 14 تموز العراقية التي أطاحت النظام الملكي الهاشمي في بغداد.

أما قبل ذلك فكنا نتابع الحركة الثقافية العربية في بيروت الغربية من خلال المحاضرات والندوات والمناظرات والأمسيات الشعرية، في مختلف أنحاء تلك المنطقة من الجامعة الأميركية الى مدرسة حوض الولاية، ومن مقر «حزب النداء القومي» في ساحة رياض الصلح، الى مبنى «الأونيسكو» الذي دخلته لآخر مرة في عام 1959 لحضور السيدة أم كلثوم، التي كانت أيضاً جزءاً من التكوين الثقافي والنفسي لجيلنا في بيروت الغربية. وكان حاضراً في تلك الحفلة الرئيس رشيد كرامي رئيس الحكومة اللبنانية آنذاك.

وقد أسعدني الحظ بحضور حفلة لها على مسرحٍ قلعة بعلبك فيما بعد، ثم عندما توفيت في منتصف السبعينات، وكنت رئيساً لتحرير جريدة «بيروت»، كتبت عنها افتتاحية الجريدة في ذلك اليوم، الأمر الذي اعتبره بعضهم في حزب البعث، المالك للجريدة، أنه من قبيل «الخفّة»، لكن المقال وقتها لقي استحسان ميشال عفلق.

وكانت أولى المحاضرات التي حضرتها في تلك السنة الدراسية المحاضرة التي قدمها رمضان لاوند في مقر حزب النداء القومي، حيث جرت مناقشات وعلا الضجيج بسبب الازدحام، فلم نتمكن من فهم شيء من تلك المحاضرة. كذلك حضرت في إحدى مدارس الغربية أمسية شعرية للشاعر العراقي كاظم

السماوي. لكنني لم أتمكن في السنة التالية من حضور المناظرة المشهودة بين عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، وبين الأديب والمفكر اللبناني رئيف خوري تحت عنوان: «هل يكتب الأديب للكافة أم للخاصة» على منبر الأونيسكو أيضاً. فأخذ طه حسين موضوع الكتابة للخاصة، وأخذ رئيف خوري، الذي كانت له ميول شيوعية، موضوع الكتابة للكافة، فكان لتلك المناظرة صدى دام عدة سنوات.

بل كان لي في سنتي الأولى في بيروت الغربية احتكاك مع طلاب منتسبين الى «جماعة الإخوان المسلمين» الذين كانوا بدأوا في مصر عمليات مقاومة للاحتلال البريطاني لمنطقة قناة السويس، قبل أشهر معدودة من الثورة المصرية التي قام بها الضباط الأحرار في الجيش المصري لإطاحة نظام الملك فاروق. ولاحظت في حينه أن الحركة الإخوانية تستهوي الطلاّب الفلسطينيين أكثر مما تستهوي الطلاّب اللبنانيين، وهذا أمر مفهوم في سياق ما كان يجري في تلك المرحلة[1]. لكن الثورة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر سرعان ما قلبت المشهد وغيّرت الصورة، بفعل قوتها الإعلامية، وبفعل نَفَسها الإسلامي الابتدائي قبل بروز نزعتها القومية، وتصادمها بالتالي مع حركة الإخوان المسلمين، وإعدام الثورة المصرية لمفكرهم الأول ومرشدهم العام سيد قطب.

ثم بدأ النشاط الطلاّبي على الصعيدين السياسي والنقابي يتأطر في أطر أخرى غير الأطر الحزبية والحركية، وخصوصاً من خلال «اتحاد الطلاّب الثانويين»، وهو الاتحاد الذي ترأسه ملحم كرم الى أن صار نقيباً للمحررين حيث مكث أكثر من أربعين عاماً الى حين وفاته في 22 أيار/مايو 2010 عن عمرناهز الثامنة والسبعين. ولم أنتسب الى اتحاد الطلاّب لأنه لم يكن له توجه سياسي، بل كانت مطالبه تقتصر على تخفيض ثمن تذاكر دخول الطلاّب الى دورالسينما، وما الى ذلك، لكنني انتسبت الى نقابة المحررين في مطلع السبعينات، وفي ظرف استثنائي، لأن خلافاً وقع بين نقيب المحررين ملحم كرم وبين نقيب الصحافة آنذاك رياض طه، حال دون اجتماع لجنة الجدول، فظل باب الانتساب مقفلاً لسنوات عديدة. وقد قُبل انتسابي آنذاك بجريرة انتساب عبد الرحمن الأسير[2]. وكان الرئيس صائب سلام يهمه أمر الأسير

(1) كان هناك على الهامش أيضاً بعض أتباع الشيخ تقي الدين النبهاني مؤسس «حزب التحرير الإسلامي». وقد تردد في ذلك الوقت أن النبهاني قبض مبلغاً كبيراً من المال من السفارة الأميركية لتعزيز دعوته، فكان الطلاّب يتندرون بذلك زاعمين أن النبهاني برّر قبضه الأموال الأميركية بأنه دعا الأميركيين الى اعتناق الإسلام فلمّا أبوا فرض عليهم الجزية!

والشيخ النبهاني فلسطيني من منطقة حيفا ومتخرج في الشريعة الإسلامية من جامعة الأزهر، لكنه بعد نكبة فلسطين أقام في بيروت حيث أسس حزب التحرير في مطالع الخمسينات من القرن الماضي.

(2) نجل صلاح الأسير والمغنية المعروفة في زمانها سهام رفقي، الذي تعين فيما بعد ملحقاً في السفارة اللبنانية في القاهرة حيث تزوج من السيدة سميرة خاشوقجي شقيقة الثري السعودي

لأن صلاح الأسير والده كان مقرباً منه، «فمَان» على النقيبين المتخاصمين بفتح الجدول لتسجيله، وكنت أنا رئيس تحرير جريدة «الكفاح» لصاحبها رياض طه، فتسلل اسمي في تلك الجلسة تسللاً.

وفي مطلع التسعينات من القرن الماضي، ذهبت الى نقابة المحررين في بيروت لأستحصل على بطاقة من النقابة، ولم يكن النقيب ملحم كرم موجوداً، فاستقبلني الزميل العزيز الياس عون الذي طلبت منه تزويدي بالبطاقة، فأعطيته الصورة الفوتوغرافية اللازمة، ولما سلمني البطاقة قرأت فيها عني صفة «محرر متدرج»، لأن الملف ظل متجمداً في درج النقابة ربع قرن. وفهمت أن كل من ينتسب الى النقابة يدخل متدرجاً لمدة سنة أو سنتين، أما أنا فبقيت متدرجاً في درج نقابة ملحم كرم أكثر من عشرين سنة.

•••

بسبب أحادية التوجه والتفكير، ومن ثم بسبب جو التعبئة الذي استمر حتى الانفجار الكبير في عام 1958، كان لجوّنا في راس بيروت موقف سلبي، إن لم يكن عدائياً، من «الندوة اللبنانية» التي أسسها ميشال الأسمر، وهي بالفعل كانت ندوة راقية مرّ على منبرها كثيرون من رجال القلم والفكر والثقافة والسياسة. وفي أواسط الستينات عندما جاء الرئيس التونسي «المجاهد الأكبر» الحبيب بورقيبة الى بيروت، ضمن جولته العربية التي أطلق فيها أول دعوة للصلح مع إسرائيل، وقيل يومها بالاتفاق مع جمال عبد الناصر، استضافته الندوة اللبنانية فألقى فيها محاضرة أتذكر أنها قوبلت بالاستياء في الأوساط العروبية، وانعكس هذا الاستياء على الندوة اللبنانية ذاتها فاتهم بعضهم ميشال الأسمر بأنه متواطىء في هذه المسألة.

وقد كتبت جريدة «الأنوار» أبرز الصحف الناصرية وقتها، افتتاحية عن محاضرة بورقيبة بعنوان «محاضرة أم مصادرة»، أظن أن كاتبها كان منح الصلح، وفيها موقف نقدي لاذع للرئيس التونسي ومهمته.

أما بالنسبة الي والى أمثالي في ذلك الوقت، فإن الندوة اللبنانية لم تكن موجودة، لأن «بيروت الأخرى»، بيروت الشرقية، لم تكن موجودة في مرمى نظرنا. إذ إن بيروت الغربية، وخصوصاً منها راس بيروت، كانت عالمنا وملعبنا المسيّج بأفكار مسبقة.

والى جانب الحيوية الثقافية والفكرية التي اتسمت بها بيروت في تلك المرحلة من الخمسينات، نشأت ظواهر فولكلورية كوميدية أو كاريكاتورية، لقيت جمهوراً واسعاً. وكان من أبرز تلك الظواهر في حينه الشيخ بطرس عيد الديب الذي كان باستمرار يخرج لابساً حلّة «الفروك» السوداء ذات الذيل

المعروف آنذاك عدنان خاشقجي، وهي طليقة محمد الفايد ووالدة دودي الفايد الذي قتل في حادث السير المروع تحت جسر «ألما» في العاصمة الفرنسية مع الأميرة ديانا طليقة ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز في صيف عام 1997.

الطويل، وقبعة كتلك التي يلبسها أكابر الإنكليز عندما يذهبون الى سباقات الخيل، فكأنه اللورد هنري الخارج من رواية «دوريان غراي» لكاتبها الإيرلندي أوسكار وايلد. وكان كلما خرج الشيخ بطرس من مكتبه بالقرب من سينما «روكسي» على البرج، يمشي خلفه عشرات من الصبية والفتيان والفضوليين لسماع خطابه الذي يؤكد أننا «من السمك خلقنا والى السمك نعود». وأذكر مرة أننا ذهبنا الى حديقة الصنائع في عيد الشجرة لنشاهد الرئيس كميل شمعون يغرس شجرة في الحديقة بتلك المناسبة، وكان هناك جمهور غفير، حتى ظهور بطرس عيد الديب فجأة، فانفض الناس، ما عدا الرسميين، عن رئيس الجمهورية وتبعوا الشيخ بطرس الى أن جاءت الشرطة وفرقتهم. هذا يوم كان الناس في لبنان يزرعون ولا يقطعون أو يحرقون[3].

والشخصية الكاريكاتورية الثانية التي انطبعت في أذهان اللبنانيين حقبة طويلة من الزمن، هي شخصية إدمون خياط حامل «صليب الإنسانية المعذبة» الذي كان يطوف بصليبه في العالم داعياً الى السلام والعدل. وينتمي إدمون الى عائلة معروفة في راس بيروت كانت لديهم «مكتبة خياط» المشهورة في «شارع بليس» قبالة الجامعة الأميركية.

أما الشخصية الثالثة في هذا المضمار، فهو كامل شعيب العاملي المرشح الشيعي الأزلي لرئاسة الحكومة، الذي كان موضع تندر دائم من قبل السياسيين قبل العامة.

•••

وقد كان في لبنان خلال تلك الحقبة مجتمع مدني متحرك، ودولة لا بأس بها بالمقاييس العالمية، خصوصاً لجهة القضاء، والى حد ما لجهة الإدارة، والتمثيل النيابي.

ومع أن ذلك كان من بقايا الانتداب الفرنسي العلماني، فقد تأقلم معه اللبنانيون بدرجة ملحوظة، قبل تسلل التحريضات والانقسامات الطائفية، الى الشارع ثم الى الدولة. وتمثل ذلك الحس المدني والاجتماعي في بعض الجمعيات الأهلية، مثل جمعية «كل مواطن خفير» التي تولاها في تلك الأيام الكاتب سعيد تقي الدين والصحافي المعروف وفيق الطيبي، أو «جمعية الرفق بالحيوان». وكانت دوريات الدرك في القرى تسهر على النظافة العامة، وتحرر محاضر ضبط أوساخ بحق المتمادين في تلويث البيئة المحيطة.

---

(3) لا يزال بعض الذين عايشوا تلك الحقبة في بيروت يذكر كيف ان بطرس عيد الديب، رفع يافطة على ساحة البرج بمناسبة زيارة العاهل العراقي، الملك فيصل الثاني، كتب عليها: «بطرس الأول يرحب بفيصل الثاني».

اما النشيد الذي كان اتباع «الشيخ» بطرس يحوربون به خلفه فمطلعه:

قـلـب الـلـوزيـا تـرمـس زعـيـم لـبـنـان يـا بـطـرس

وقد اشيع ان واضع هذا النشيد كان محمد يوسف حمود المولع بنظم الاناشيد. والله واعلم.

ومن القصص التي كنا نتندر بها في جب جنين في مطالع الخمسينات، أن رجال الدرك حرروا ضبط أوساخ بشخص من بلدة كامد اللوز التي انتشر فيها من قبل وباء التراخوما، وسيق ذلك الشخص الى المحكمة فسأله القاضي:

«هل تعترف بأنك ألقيت الأوساخ في الشارع أمام منزلك؟».

قال الرجل:

«نعم سيدي».

فقال له القاضي:

«وماذا تقول في ضبط رجال الدرك بحقك؟».

قال:

«إنه قليلٌ عليّ يا سيدي؟».

قال القاضي:

«وكيف ذلك؟».

قال:

«إذا جئت للحق يا سيدنا، جاكيتتي يلزمها ضبط أوساخ، وشعري يلزمه ضبط أوساخ، بل سقف حلقي يلزمه ضبط أوساخ».

فضحك القاضي وأعفاه من العقوبة، باعتبار أن المسألة لا تعالج بالاقتصاص من شخص واحد.

وفي بلدة كامد اللوز أيضاً ضبطت دورية من الدرك رجلاً «نَوْعَر» حماره في وسط الطريق وحَرَن، فانهال عليه ضرباً بالعصا على رأسه، فرفعت القضية الى «جمعية الرفق بالحيوان» التي ادعت على الشخص المذكور أمام القاضي محمد أفندي دويك. وبعد الاستجواب للتأكد من الإفادات، قرر القاضي دويك أن يلقي موعظة على المتهم بضرورة الرفق بالحيوانات، خصوصاً تلك التي تساعدنا في أعمالنا وأمور معيشتنا، لا سيما الحمير منها، وقال له:

«إن هذه الحيوانات يا أخ هي كائنات حية لها أرواح مثلنا تماماً. هذه المرة سوف أسامحك، أما إذا عدت الى مثل هذا التصرف المشكو منه، فسوف تكون عقوبتك قوية».

وكان الرجل قد ربط حماره في مكان قريب من المحكمة، ففك رباطه وراح يتودد اليه مربتاً على رقبته ليسوقه، فأمسك برسنه وهمس في أذنه برفق قائلاً:

«حا يا حماري حا، قيمتك وقيمة محمد أفندي سوا».

•••

بعد معركة الأحلاف، وخصوصاً حلف بغداد، ومشروع الدفاع المشترك، غيّر الأميركيون تكتيكاتهم في محاولة السيطرة على لبنان، فدخلوا بقوة من خلال مشروع «النقطة الرابعة» الذي يمثل الجزرة لكونه مشروعاً إنمائياً أو وسيلة لكسب الرأي العام اللبناني من المدخل الاقتصادي، بما يشبه اليوم

برنامج الأمم المتحدة للإنماء UNDP، أو الوكالة الأميركية للتنمية الدولية USAID. وكان في لبنان سفير للولايات المتحدة هو رايموند هير يُعدُّ في ذلك الزمان من أهم الديبلوماسيين الأميركيين في العالم. وصادف أن وزير الداخلية اللبناني آنذاك جورج هراوي، (والد النائب السابق خليل الهراوي وشقيق الرئيس الياس الهراوي ، والدكتور جوزف الهراوي الذي ولد على يديه ثلاثة من أولادي الأربعة في مستشفى تل شيحا في زحلة)، كان في زيارة الى روما لحضور اجتماع لمنظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة التي كان من مؤسسيها. وكان في بلاد المجر لاعب كرة قدم عالمي اسمه «بوشكاش»، فقرر جورج هراوي أن يذهب الى بودابست من روما بدل العودة الى بيروت لحضور مباراة يلعب فيها بوشكاش، لأنه كان من هواة لعبة الكرة، وبالذات المباريات التي يلعب فيها المجري الذائع الصيت. وما أن أذيع خبر وصول وزير الداخلية اللبناني الى العاصمة المجرية، حتى قام السفير الأميركي رايموند هير بالاحتجاج على زيارة وزير الداخلية في الحكومة اللبنانية الى دولة وراء «الستار الحديدي»، حسب اللغة الأميركية في ذلك الوقت. لكن المجلس النيابي اللبناني هب بدوره للاحتجاج على تدخل السفير الأميركي في الشؤون اللبنانية، مما اضطر الولايات المتحدة الى سحبه من بيروت شبه مطرود.

•••

«الترامواي» كان من أهم معالم بيروت في ذلك الوقت، وهو أهم وسيلة حضارية لنقل الركاب في المدن الكبرى حيث ما زالت مدن عديدة تحافظ عليه، على الرغم من وجود خطوط «مترو» تحت الأرض فيها. ومن المؤسف أن الحكومة اللبنانية قررت بعد حوادث عام 1958 الاستغناء عنه، بسبب انفجار قنبلة في إحدى حافلاته ومقتل ما لا يقل عن 50 شخصاً في ذلك الانفجار، خصوصاً أنه مناسب لنظافة البيئة ويتسع الى أعداد كبيرة من الناس دفعة واحدة. وكانت أجرة الركوب في «الترامواي» رخيصة وفي متناول الجميع، حيث تذكرة الركوب في الدرجة الأولى عشرة قروش، وفي الدرجة الثانية خمسة قروش.

ويتألف «ترامواي» بيروت من خطين متقاطعين: خط فرن الشباك المنارة، وخط الدورة البسطة، لكنني لست متأكداً من طريق مسار هذا الخط الثاني لأنني لم أستخدمه قط، بل كنت أستخدم الخط الأول للنزول من راس بيروت الى البرج لمشاهدة الأفلام السينمائية وتناول سندويشة فلافل فريحة المشهورة هناك، وكان سعرها معقولاً أيضاً، هو ربع ليرة فقط، أي 25 قرشاً للسندويشة الواحدة، مع الطراطور والكبيس.

ومن غرائب الأمور، أن الفيلم السينمائي الأول الذي شاهدته في صالات السينما في ساحة البرج، وقد أخذ ضجة ودعاية كبيرة في حينه، هو الفيلم

الهندي «آنا مانغالا». وأفهم اليوم أن السينما الهندية تكاد تتفوق على السينما الأميركية، الأولى في «بوليوود» والثانية في «هوليوود»، لكنه كان غريباً في ذلك الوقت المبكر أن يكتسح فيلم هندي بيروت بذلك الشكل، مما يعني أنه إذا اكتسح بيروت فقد اكتسح العالم كله. ويليه في النجاح آنذاك الفيلم الإيطالي «ريزو أمارو»، أي «الرز المر» الذي لعبت دور البطولة فيه الممثلة المشهورة سيلفانا مانغانو، قبل ظهور صوفيا لورين وجينا لولوبريجيدا. وبعد ذلك كرّت سلسلة الأفلام الأميركية، ومنها على وجه الخصوص أفلام الكاوبوي التي تنتهي عندما يقضي جميع الممثلين قتلاً بالرصاص.

وكانت ساحة البرج ومحيطها ملتقى جميع اللبنانيين القادمين اليها بالبوسطات التي تتخذ مواقف لها هناك من جميع أنحاء لبنان. كانت شيئاً مختلفاً تماماً عمّا هي عليه اليوم بعدما تحولت الى ضريح لرفيق الحريري ومرافقيه. ومن المؤسف أن المسؤولين اللبنانيين، أو بالأحرى اللامسؤولين، وافقوا على تغيير المعالم التاريخية لبيروت بهذا الشكل القبيح. إذ ليس من بلد في العالم مركز القلب في عاصمته مقبرة، لأن ذلك في الرمز يعني أنه لا قيامة لها. ويقع اللوم على البيارتة في الدرجة الأولى، لأنه كان عليهم أن يحبوا ويتمسكوا بما كان هناك لمجرد أنه هناك، فما كان هناك هو بيروت الحقيقية الحية النابضة الدافقة بالحياة اللبنانية الأصيلة، وملتقى جميع اللبنانيين. لكن مما يحزّ في النفس أن بيروت الحقيقية خسرت معركتها مع بيروت الهجينة المزيّفة.

وفي بيروت تلك، كان العتّالون، أو الحمّالون، على مواقف البوسطات من جملة زينتها. وكانت والدتي تبعث لي بين حين وآخر بصندوق مؤونة فيه زيتون، وتين معقود، أو مجمع دبس، و لفّة خبز مرقوق، وأكلة كبّة بالصينية، وما تيسر من الأشياء التي لا تفسد بسرعة. فكان العتّال أمين يحملها من موقف البوسطة الى محل إقامتي في حاووز الساعاتية بأجرة زهيدة. وكان البيارتة يحترمون أولئك العتّالين ويكرمونهم، ومعظمهم من السوريين الحوارنة أو الأكراد، بينما بيروت الجديدة قتلت العمال السوريين من دون سؤال أو جواب. وقد قيل في أورشليم القديمة: «أيتها المدينة القاتلة الأنبياء»، أما بيروت الجديدة فيقال لها: «أيتها المدينة الطاردة الفقراء زينتك لتستقبلي في أحشائك الموتى الأغنياء، فقضيتِ عشرين سنة من التجديد لتصبحي ضريحاً».

وسط بيروت الذي كان يعج بباعة عرق السوس والجلاّب، وباعة الصبّير، وباعة الجرائد، وباعة السحلب السخن، وباعة الكستنا، وباعة فستق العبيد المسخّن، وباعة الكعك، والبويجية، والمصورين المتجولين، والذي كان فيه مسرح فاروق وملهى الباريزيانا، وحتى السوق العمومي في شارع المتنبي، صار مجرد عقار بارد لا دم يجري في شرايينه.

هؤلاء الفقراء كانوا زينة بيروت، وهم الذين أعطوها مجدها الغابر. وكان الرئيس الأميركي الثالث طوماس جيفرسون يقول: «إن الله يحب الفقراء». ولما سئل كيف عرف ذلك، قال:

«لأنه خلق منهم كثيرين. وكل خالق يحب ما خلق».

وجاء ذلك في سياق أول صراع اقتصادي اجتماعي في الجمهورية الأميركية الوليدة، بين جيفرسون وبين ألكسندر هاميلتون وزير المالية في حكومة الرئيس الأول جورج واشنطن، الذي كان نصير رجال المصارف والتجار وكبار الملاّكين، وهو الذي سمح للمصرفي اليهودي روتشايلد بإقامة أول بنك مركزي بإجازة لمدة عشرين عاماً هو: First Bank of the United States بهدف إقراض الحكومة الفدرالية، والسيطرة عليها من خلال الدين العام. وقد قاوم جيفرسون هذا التوجه، وقال كلمته المشهورة: «أتمنى لو أستطيع إدخال تعديل وحيد على الدستور لسحب سلطة الاقتراض من يد الحكومة الفدرالية». وفي ذلك الوقت المبكر فهم الرئيس جيفرسون العلاقة بين السيطرة المالية والسيطرة الإعلامية، فقال وهو في سدة الرئاسة مطلع القرن التاسع عشر عن فساد الصحافة وعدم صدقيتها:

«لا شيء ينزل في الجرائد الآن يمكن تصديقه. فالحقيقة ذاتها تصبح موضع شك إذا وضعت في تلك الوسيلة الملوّثة. إن المدى الحقيقي لهذه الحالة من التضليل لا يدركه إلاّ الذين يكونون في موقع يسمح لهم بمقارعتها بالوقائع لمعرفتهم بالأكاذيب المروّجة».

ليست بعد هذا الكلام حاجة أمام اللبنانيين ليعرفوا كيف وُضع نير الديون في رقابهم ورقاب أولادهم باسم إعادة إعمار وسط بيروت التجاري.

•••

في بيروت تلك فهمت العلاقة بين تردي «الوحدة الوطنية» وانتعاش «الطائفية»، وإن لم يكن ذلك على النطاق الذي نشهده اليوم. فقد كانت هناك تيارات خارج الطبقة السياسية التقليدية تجاهر بأنها تسعى الى الاتحاد، وأبرزها حزب «النجادة» بقيادة عدنان الحكيم في المنطقة الإسلامية السنِّية من بيروت، وحزب «الكتائب اللبنانية» بقيادة الشيخ بيار الجميل في المنطقة المسيحية. وكان الشيوعيون والعروبيون واليساريون عموماً، الذين شاءت الأقدار أن أدور في فلكهم آنذاك يصفون هذين الحزبين، بالإضافة الى الحزب السوري القومي الاجتماعي، بأنهم أحزاب «فاشستية»، أو «ميليشياوية» بلغة هذه الأيام. وعلى وجه العموم أظهرت الصورة المجسمة لتلك الحالة أن النجادة حزب إسلامي سنّي، والكتائب حزب مسيحي ماروني.

وراجت في ذلك الوقت أخبار عن محاولة لدمج حزبي النجادة الإسلامي والكتائب المسيحي في حزب وطني لبناني واحد، لكن الحوادث الطائفية كانت

أسرع من المحاولة التوحيدية[4].

ذلك أن شخصاً يدعى جورج شكر، نشر كتاباً أو قال شيئاً اعتبر المسلمون أن فيه مساساً بدينهم وبرسولهم، فزحفوا الى ساحة البرج وفشّوا خلقهم بتحطيم حافلات الترامواي، تماماً كما فعل محازبو «تيار المستقبل» المزودون بفتوى من دار الإفتاء، بالزحف على الأشرفية يوم الخامس من شباط/فبراير عام 2006، بسبب رسوم كاريكاتورية ظهرت في الدنمارك اعتبرت مسيئة للرسول.

وقد خبّرني يوماً الجار والصديق أوغوست حاماتي، وهو من أبناء ميناء طرابلس ومن قدامى الحزب السوري القومي الاجتماعي، أن شخصاً من عائلة «ريفي» الطرابلسية السنّية، كان في كلية الصيدلة زميلاً للشيخ بيار الجميل. وبعد تخرجهما، فتح الجميل صيدلية في ساحة البرج وسط بيروت، وفتح ريفي صيدلية في ميناء طرابلس. ويقول حاماتي إن ريفي والجميل كانا معاً من مؤسسي حزب الكتائب، ودليله على ذلك أن ريفي كان ناشطاً في طرابلس والميناء لصالح ذلك الحزب، لكن نشاطه خبا مع الوقت بسبب التطورات الطائفية، وظهور الكتائب لاحقاً بمظهر مسيحي.

وسنحت لي الفرصة أن أترافق مع محمود الحكيم شقيق عدنان الحكيم في رحلة شملت معظم الاتحاد السوفياتي السابق، وأثناء وجودنا في مدينة «بياتيغورسك» عند أطراف القوقاز، وهي مدينة رائعة تحيط بها الجبال، اشتهرت بمصحاتها ومياهها المعدنية، قمنا بزيارة الى المكان الذي قُتل فيه الشاعر الروسي ميخائيل ليرمينتوف بمبارزة بالرصاص الحي، وفيما كنا نتمشى محمود وأنا حول النصب التذكاري للشاعر الروسي المحاط بكتل حجرية بشكل رصاصات كالتي قتلته تربط بينها سلاسل حديدية، فتحت معه موضوع حزب النجادة وعلاقته بالكتائب، فأكد لي أن محاولة التوحد مع حزب الكتائب كانت جدية، وقال إن حزبه هو تنظيم مؤمن بالهوية اللبنانية المستقلة، وإن الصورة الإسلامية العروبية اللاصقة به لا تعبر عن حقيقته كحزب لبناني. وأضاف إن النجادة لا يهمهم شيء سوى لبنان، والدليل على ذلك أن رئيس تحرير جريدة «صوت العروبة» الناطقة بلسان الحزب، ابراهيم الشماس، هو مسيحي لبناني لا غبار عليه.

أما أول احتكاك مباشر لي مع حزب الكتائب فكان هاتفياً ومع الشيخ بيار الجميل شخصياً، وقد بادر هو بالاتصال بي، لأن جريدة «بيروت» التي كنت أرأس تحريرها في عام 1974 نشرت خبراً عن تدفق شحنات من الأسلحة الى حزب الكتائب عبر مرفأ بيروت، فنفى ذلك بلهجة لطيفة ومهذبة. لكن مكاتب

---

(4) يزعم البعض أن رياض الصلح كان وراء فكرة دمج «الكتائب» و«النجادة» في حزب واحد. وقد عمل لهذه الفكرة سنة 1949 وليس لدينا ما يثبت او يدحض هذا الزعم.

الجريدة آنذاك كانت على «التباريز»، وهي منطقة نفوذ كتائبية، فصارت عناصر مسلحة تحوم حول المبنى في الليل، مما اضطرنا الى الانتقال من هناك الى منطقة الشيّاح.

وبعد أيام من عودتي الى لبنان رئيساً لتحرير مجلة «الصياد» في خريف عام 1982، صادف ذكرى أربعين الشيخ بشير الجميل الرئيس المنتخب للجمهورية، فاقترح عصام فريحة أن نذهب الى مقر الكتائب في «الصيفي» لتعزية الشيخ بيار، فذهبنا عصام فريحة ورفيق خوري وأنا الى هناك، فاستقبلنا جوزف أبو خليل رئيس تحرير جريدة «العمل» الكتائبية وعضو المكتب السياسي لحزب الكتائب، ودخلنا معاً الى مكتب الشيخ بيار الذي رحب بنا أجمل ترحاب. وكانت تلك أول وآخر مرة أتحدث فيها مع الشيخ بيار وجهاً لوجه. وخامرني شعور بالتهيب لأنني أدخل عريناً كنت أعتبره معادياً، فسألت الزميل رفيق خوري ماذا يجب أن أقول في هذا الموقف، فقال: «لا شيء، لأن الشيخ بيار سوف يأخذ الحديث كله. استمع فقط». وبالفعل، وبعد مجاملات التعزية، أخذ الشيخ بيار يتحدث عن أيام الصيدلية في ساحة البرج، وكيف كان رياض الصلح يأتي للجلوس معه في الصيدلية. ومع أنه لم يذكر حزب النجادة بالإسم، إلاّ أنه قال إن علاقته بالمسلمين قبل الحرب كانت على خير ما يرام.

وفي مداخلة بسيطة لي أثناء الجلسة التي دامت قرابة الساعة، قلت للشيخ بيار:

«إن فكرة القومية العربية تشكل حلاً لمعضلة الأقليات في لبنان والمنطقة».

فقال:

«ونحن مثلك كنا نعتقد كذلك، لكن شو بنعمل إذا كان القومية العربية طلعت إسلام».

وقام من مقعده الى رف في المكتبة القريبة وتناول صورة عرضها أمامنا وفيها الشيخ بيار والى جانبه نجله بشير، وكان لا يزال صبياً يافعاً، يسلمّان على الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وقال:

«لقد كنا من أكثر الناس حماسة لعبد الناصر، وقد أبرقت اليه مرة إننا نضع بتصرفه خمسة آلاف مقاتل».

ولست أذكر ما إذا كان ذلك العرض بمناسبة العدوان الثلاثي على مصر، أو بمناسبة حرب حزيران/يونيو عام 1967. أو أن الشيخ بيار ذكر العرض ولم يذكر المناسبة.

وكنت يومها قد كتبت مقالاً افتتاحياً في مجلة «الصياد»، بمناسبة أربعين بشير الجميل، حول وهم انتظار أي جماعة من الناس للبطل المنقذ، أو الرهان عليه. وقلت في ذلك المقال الذي أشاد به المرحومان جان عزيز ونهاد بويز في لقاء معهما في بيت مسعود كرم في الأشرفية برفقة الزميل جهاد فاضل،

إن الشيء الوحيد المنقذ هو المجهود الوطني الذي ينخرط فيه جميع الناس. وأعطيت مثلاً على ذلك رحلة فرنسا مع الجنرال شارل ديغول، وما جره ذلك من خيبة. وقد أثار الرجلان كلاهما إعجابي لسعة ثقافتهما العربية، بحيث تلا علينا جان عزيز مقاطع كاملة غيباً من مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي، وخصوصاً من كتابه «تحت ظلال الزيزفون».

أما رئيس تحرير جريدة «العمل»، جوزف أبو خليل، فقد تعرفت عليه في مطعم «فخر الدين» في لندن مع الزميل ريمون عطا الله، عندما جاء مع الصحافي جورج بشير القريب آنذاك من بشير الجميل بحكم عمله في «وكالة الأنباء المركزية»، لإجراء اتصالات تمهيدية حول حتمية الاجتياح الإسرائيلي للبنان للتخلص من السلاح الفلسطيني، وذلك قبل أقل من ثلاثة أسابيع من وقوع ذلك الاجتياح، ثم انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية.

•••

عندما عدت الى «دار الصياد» في خريف عام 1982، كان يعمل في المجلة شاب من أطيب الشبان اللبنانيين الذين تعرفت عليهم سواء في لبنان أو في الخارج، هو طوني كرم. وقد اقترح علي طوني أن نقوم بزيارات الى بعض الأشخاص الذين يعرفون ما يدور في البلاد، وكان الشيخ أمين الجميل قد انتخب رئيساً للجمهورية، وبدأت المفاوضات اللبنانية ـ الإسرائيلية بين خلدة ونتانيا برعاية المبعوث الأميركي موريس درايبر. فكانت أول زيارة قمنا بها معاً الى مكتب المحامي كريم بقرادوني في الأشرفية، فاستقبلنا بحفاوة ورحنا نتحدث في تطورات الأوضاع. وقلت لبقرادوني:

«إنني أفكر بزيارة الرئيس أمين الجميل لتهنئته، فما رأيك؟».

قال: «وهل لديك شيء تقوله له؟»

قلت: «لا شيء على وجه التحديد».

فقال: «إذن بلاها».

ولاحظت من هذا الجواب أن العلاقة بين كريم بقرادوني وبين الرئيس أمين الجميل ليست على ما يرام. ثم دعاني طوني كرم الى عشاء في منزل سيدة جزينية محترمة من آل عازار، لم أكن أعرف طبيعة علاقته بها سوى أنه يجلها ويحترمها الى أقصى الدرجات. وكان جميع الحاضرين من لون واحد كدت أشعر معه بالغربة لولا وجود طوني كرم. ومن جملة الحضور المحامي ابراهيم النجار وزوجته، وكان في ذلك الوقت يكتب افتتاحيات جريدة «العمل» الكتائبية[5]. ولا أدري لماذا حضرت في خاطري مقارنة ابراهيم النجار في جريدة «العمل» الكتائبية، مع ابراهيم الشماس في جريدة «صوت العروبة» النجادِّية، ربما

(5) ابراهيم نجّار أستاذ في القانون تم تعيينه وزيراً للعدل في حكومة سعد الحريري ممثلاً عن القوات اللبنانية بقيادة سمير جعجع في عام 2009.

لكونهما ينتميان الى الطائفة الأرثوذكسية، أحدهما منغمس في الطائفية السنّية ويشكل غطاءً لها، والثاني منغمس في الطائفية المارونية ويشكل غطاءً لها. وقد أطلقت على الحزبين اللذين اتخذا ابراهيمين أرثوذكسيين لساناً لهما، «الأحزاب الإبراهيمية»، باعتبار أن رجال الدين أيضاً، مسيحيين ومسلمين، يصفون الديانات التي ينتمون اليها بأنها «ديانات إبراهمية».

وفيما نحن نتناول طعام العشاء، دخل شخص كان حاضراً في جولة مفاوضات في إسرائيل، فراحوا يسألونه عن المفاوضات وعن إسرائيل ذاتها. وأقول الحق إن جواب ابراهيم النجار أثار إعجابي عندما سأله أحدهم عما إذا كان ينوي زيارة إسرائيل، فقال:

«أنا لن أزور إسرائيل قبل اعتراف الحكومة اللبنانية بها اعترافاً رسمياً».

وهمس طوني كرم في أذني: «وأنت يا أستاذ سليمان؟»

فقلت له بالهمس أيضاً:

«أنا لن أزورها سواء اعترفت الحكومة اللبنانية بها أم لم تعترف».

III

ما قبل وما بعد

أشياء عديدة حدثت في تلك المرحلة الثانوية بين نزولي الى بيروت في أواخر عام 1951، وبين دخولي الى الجامعة الأميركية في أواخر عام 1954. منها ما يتعلق بي شخصياً، ومنها ما يتعلق بلبنان، ومنها ما يتعلق بالمنطقة المحيطة، ومنها ما يتعلق بالعالم. ففي تلك المرحلة توفيت جدتي حبوبة الخوري صليبا، وقد كنت شديد التعلق بها. شعرت آنذاك أن قطعة من روحي انسلخت ولن تعود، وبالتالي لن أعود كما كنت. وأظن الآن أن والدي اكتسب من والدته معظم مزاياه الحميدة، وأهمها طول البال، والترفع، وسخاء النفس، والشعور مع الناس. كانت دائماً مستعدة أن تتقاسم ما لديها مع الآخرين. أو كما يقول الفلاّحون: «اللقمة التي في فمها ليست لها». كان جدي رجلاً كادحاً وحكيماً ومنصفاً، لكنه لم يكن مثلها. كانت جدتي حبوبة دنيا كاملة قائمة بذاتها. كلمتها مسموعة، لأنها لا تقول إلاّ الحق. تعطي من قلبها ومن وجدانها، وتأخذ بطيب خاطر ما يأتي من الله. قبل أن تموت فجأة هكذا، بلا وجع ولا حزن ولا تنهد، لم يخطر ببالي قط إنها سوف تغادر الى غير رجعة، ولذلك بقيت تسكن في كياني ردحاً طويلاً من الزمن.

ثم توفي الدكتور ملحم الفرزلي بعد مرض عضال، إذ أصابه السرطان في شفته السفلى، لأنه على الأرجح كان يدخن الغليون باستمرار. وقد عانى طويلاً، لكن عقله المتوقد بقي خارج المحنة بـإرادة عزّ نظيرها. وفضله عليّ ليس انتسابي الى بيته، بل انتسابي الى ثقافته الواسعة والى علمه الغزير. ويؤسفني أن أقول إن أحداً من أولاده، أو من أحفاده، أو من بقية أقاربه المباشرين، على الرغم من المكانة العالية التي بلغها بعضهم ، لم يصل الى قدر يذكر من مستواه. وقد تكون زوجتي لور هي الأقرب اليه من الباقين، وكان يعرف ذلك ويجاهر به منذ أن كانت طفلة. وفي حفيده إيلي الفرزلي بعض من مزاياه كالجرأة في القول والتعبير عن الرأي ونصرة الضعفاء، لكن إيلي لم يدركه ولو أدركه لربما كان قد اكتسب منه مزايا أخرى.

فمنذ أن دخلت الى بيته لأول مرة، شعرت بأن شيئاً ما فيه جذبني وشدني ولم يفارقني. كان العلم والثقافة في كل زاوية. كان الأدب والرقي والرفعة من

طبيعة المكان، ممزوجاً فيه مع التفاني والحرص على الصالح العام، على الرغم من عقبات الجهل والتعصب والتحجر في المحيط. في بيته كان لي أول احتكاك مع كتب وأفكار أكبر بكثير مما هو معروف أو شائع بين الناس في ذلك الوقت، وكان لي أول إطلالة على السياسة ومن نافذة واسعة. وفيما بعد، أي بعد وفاته، فهمت كيف أن شخصاً متواضعاً في قرية نائية ليست في حساب أحد، يكلف رئيس البلاد نفسه عناء الزيارة الى بيته البعيد والمنقطع عن العالم، ومعه رئيس الحكومة أيضاً.

•••

بالإضافة الى كتاب إدوارد غيبون عن «تاريخ انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية»، وبعض دواوين الشعر الإنكليزي، نالني من كتبه اثنان بالعربية، فقدت الأول قبل أن أقرأه، وأدخلني الثاني بعد قراءته لاحقاً في مسعى حثيث لفهم حقيقة لبنان وعلة وجوده. الكتاب المفقود هو عن «الحركات الهدّامة في الإسلام». ولم أحفظ منه غير جزء من العنوان. أما الكتاب الثاني فهو «ثورة وفتنة في لبنان: صفحة مجهولة من تاريخ الجبل 1841- 1873»، وقد كتبه باللغة العامية أنطون ضاهر العقيقي، وهو ماروني من كسروان عايش تلك المرحلة، وشرحه وعلق على حواشيه المؤرخ الراحل يوسف ابراهيم يزبك، الذي التقيته مرة واحدة في باريس في عام 1976. ولم يكن من السهل قراءة ذلك الكتاب بالعامية، بل هناك صعوبة في فهمه حتى مع الشروح والحواشي التي قدمها يوسف ابراهيم يزبك.

لكن بعدما عدت الى الجامعة الأميركية في بيروت صيف عام 1958، كان مالكولم كير يضع أطروحته للماجستير حول هذا الكتاب، فدققه وترجمه الى الإنكليزية، ووضع الأطروحة بعنوان: «لبنان في السنوات الأخيرة للإقطاع: نظرة معاصرة». والمعروف أن مالكولم كير أصبح فيما بعد رئيساً للجامعة الأميركية، وجرى اغتياله في مطلع عام 1984 أمام مكتبه داخل الحرم الجامعي. وكان مالكولم كير لبنانياً بكل معنى الكلمة، لأنه ولد في بيروت حيث كان والداه يعملان في الجامعة، واهتم بالتاريخ اللبناني وبالنهضة العربية عموماً، حيث وضع أطروحته للدكتوراه في جامعة «جونز هوبكينز» في أميركا عن الحركة الإصلاحية العربية ممثلة بالشيخ محمد عبدو ورشيد رضا. كما درس في جامعة أكسفورد البريطانية مع المؤرخ اللبناني ألبرت حوراني[1] سنة كاملة.

---

(1) ألبرت حوراني مؤرخ لبناني الأصل من بلدة مرجعيون في جنوب لبنان لكنه مولود في مدينة مانشستر البريطانية. وهو من عائلة أرثوذكسية لكنها في بريطانيا اعتنقت البروتستانتية على المذهب البريسبيتيري الاسكتلندي. وفي شبابه عاد ألبرت فاعتنق الكاثوليكية. درس في جامعة أوكسفورد ودرّس فيها أيضاً وفي كبريات الجامعات الأميركية (ومنها الجامعة الأميركية في بيروت). وقد تخرج من صفوفه باحثون في شؤون الشرق الأوسط يفوق عددهم ما تخرج على أيدي أي مؤرخ آخر في العالم، وقد ملأ هؤلاء ويملأون معظم الجامعات الكبرى في الغرب. وللحوراني مؤلفات مهمة آخرها وأشهرها «تاريخ الشعوب العربية» (1991)، ومنها أيضاً

ولذلك، يمكن اعتبار مخطوطة العقيقي بالعامية حول تلك الصفحة المجهولة من تاريخ جبل لبنان، من المراجع الأساسية في تاريخ لبنان المعاصر، وقد أسدى مالكولم كير خدمة جليلة للبنان باهتمامه بها، وإصدارها بأوسع اللغات انتشاراً في العالم. ولم أفهم إقدام أيادٍ لبنانية على اغتيال ذلك الرجل العالم المحب للبنان واللبنانيين، خصوصاً أن رؤساء الجامعة الأميركية يكونون عادة موضع احترام وتقدير من قبل جميع اللبنانيين. وما زلت أذكر الجنازة المهيبة التي جرت لرئيس الجامعة الدكتور ستيفن بنروز[2] الذي توفي في بيروت وهو يُعدُّ نظاماً أساسياً جديداً للجامعة في أواخر عام 1954، وكنت وقتها طالباً جديداً، لم يمضِ على وجودي في الجامعة ثلاثة أشهر.

•••

من غرائب الأمور أن أجد نفسي في تلك المرحلة المبكرة من الخمسينات أطل من نافذة غير متوقعة على تأسيس دولة باكستان المنفصلة عن الهند بقيادة محمد علي جناح. فقد كان أحد أبرز زعماء باكستان بعد محمد علي جناح سياسي مشهور يدعى شودري محمد علي، أصبح رئيساً للحكومة الباكستانية بصفته زعيماً لحزب «الرابطة الإسلامية». وشاءت الأقدار أن يتزوج شودري سيدة لبنانية الأصل من بلدة جب جنين هي عليّا الحاج أحمد، وكان كلما سنحت له الفرصة يمر وزوجته ليوم أو يومين الى جب جنين، وهو رئيس للحكومة الباكستانية. وكانت عليّا الحاج أحمد واسعة الثقافة وتنتمي الى عائلة مهاجرة الى أميركا، أظن الى كندا، ويبدو أنه تعرف عليها في الأمم المتحدة حيث كانت تعمل.

لكن المقام لم يطل بشودري محمد علي في رئاسة الحكومة الباكستانية، لأن جماعة في الحزب انشقت وأطلقت على نفسها «الحزب الجمهوري»، فطلب حزب الرابطة الإسلامية منه أن يتدخل لقمع المنشقين لكنه رفض وقدم استقالته بكلمته المشهورة: «على عاتقي مصلحة الأمة لا مصلحة الحزب».

وكثيرون في العالم العربي والإسلامي لا يعرفون أن شودري محمد علي هو الذي أعلن باكستان نظاماً جمهورياً في عام 1956، وهو الذي وضع أول دستور

«سوريا ولبنان» (1946)، و«الأقليات في العالم العربي» (1947)، و«الفكر العربي في عصر التحرر 1939/1789» (1962). وهو شقيق الديبلوماسي ورجل الأعمال سيسيل حوراني الذي لعب دوراً مهماً في استقلال تونس لعلاقته الوثيقة بالمجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة أول رئيس لجمهورية تونس المستقلة.

(2) الدكتور ستيفن بنروز خلف الرئيس دودج بعد تقاعده في عام 1948، وترك بصمات مهمة على تحديث وعصرنة الجامعة الأميركية وتوسيعها بنشاط دؤوب قل نظيره. وقد جاء بنروز الى الجامعة الأميركية في بيروت عام 1928 كأستاذ للفيزياء، وبقي في تدريس هذه المادة حتى عام 1931، ثم عاد الى الولايات المتحدة لينال درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كولومبيا، وبتقاعد الرئيس دودج عرضت عليه رئاسة الجامعة في بيروت. وقد توفي بنروز في فراشه وهو نائم بنوبة قلبية ولم يكن قد بلغ 47 سنة من العمر.

لجمهورية باكستان المستقلة. وفي المرة الوحيدة التي التقيته فيها في دار علي سعيد الحاج أحمد عم زوجته في جب جنين، وكانت بينه وبين أهلي صداقة متينة، كان شـودري يقول إن خلاص العالم الإسلامي هو في الموالفة بين الإسلام والديموقراطية، فإذا تعارضا فلا حياة للإسلام ولا حياة للديموقراطية في الشرق، بل حروب وويلات.

•••

أما الحادث الأهم الذي خيّم فوق تلك الحقبة فهو ثورة الضباط الأحرار في مصر التي تصدرها اللواء محمد نجيب في البداية. وفي 23 تموز/يوليو من عام 1952 كنت في العطلة الصيفية في جب جنين، فلم أكن على تماس مع الجسم الطلاّبي، لكن الناس في البلدة كانت لديهم في أول الأمر تحفظات حول ما جرى في مصر، لأنهم لم يكونوا على بينة من الهوية الحقيقية للثورة فيها. وهذه النظرة المحافظة، أو المتحفظة، هي من طبيعة المجتمعات الريفية التي ترى أن أي تغيير مفاجىء ليس بالضرورة الى الأحسن!

ولما عدت الى مدرسة عين المريسة في مطلع السنة الدراسية 1952 ـ 1953، وجدت زملائي من الطلاّب الفلسطينيين على حماسة شديدة للثورة المصرية، لأنهم كانوا يعتقدون بأن قضيتهم هي في صلب تلك الثورة، وأنها نتيجة حتمية لتخاذل النظام الملكي المصري في حرب فلسطين، ونتيجة نقمة الجيش المصري على ما كانوا يسمونه «الأسلحة الفاسدة» التي أعطيت للجيش في حرب فلسطين الأولى عام 1948. لكن لفت نظري أن الطالب البيروتي زهير مأمون لم يعد يتأبط معه الى المدرسة جريدة «المصري»، وصار يجلب معه جريدة أصغر حجماً هي جريدة «بيروت» لصاحبها آنـذاك محيي الدين النصولي[3]، وكأنه بذلك يطرح شعاراً صامتاً عنوانه «لبنان أولاً» من غير أن يقول ذلك صراحة، وقبل طرحه من قبل سعد الدين الحريري بأكثر من نصف قرن. والمعروف أن جريدة «المصري» كانت ضد الثورة المصرية التي ما لبثت أن أغلقتها ودفعت أصحابها الى مغادرة مصر واللجوء الى الخارج. ولم أكن أتصور بأي شكل من الأشكال أن الأقدار سوف تقودني الى رئاسة تحرير جريدة «بيروت» تلك بعد ربع قرن.

---

(3) محيي الدين نصولي من الخريجين الأوائل للجامعة الأميركية، وهو مؤسس «جمعية الكشّاف المسلم » في أواسط عشرينات القرن الماضي، وقد تم تعيينه نائباً عن بيروت في البرلمان اللبناني عام 1937 بعد تأسيسه جريدة «بيروت»، وفي مطلع عهد الرئيس كميل شمعون تم تعيينه وزيراً للإعلام في ثلاث حكومات متعاقبة بين 1953 و 1955. واشتهر النصولي برعايته للرياضة من ضمن النشاط الكشفي، فترأس «اتحاد هواة الرياضة في سوريا ولبنان»، وجمعية «اتحاد الشبيبة الإسلامية»، و «النادي الرياضي»، و«مكتب الاتحاد الكشفي». ويمكن القول إنه مؤسس «فرقة النجادة» التي عهد بها الى محيي الدين علماوي كجمعية كشفية لمعونة الفقراء والمحتاجين في بيروت باسم «نجادة الجراح»، قبل أن يتسلمها منه عدنان الحكيم ويحولها الى حالة شبه ميليشياوية ثم الى حزب سياسي شبه طائفي.

فالحماسة البيروتية واللبنانية عموماً للثورة المصرية لم تظهر وتتجسم، أو تتضخم، إلاّ بعد بروز البكباشي جمال عبد الناصر كقائد للثورة، واتضاح معالم خياراته القومية، خصوصاً بالنسبة الى قضية فلسطين، والوحدة العربية، ومواجهة الاستعمار.

قبل ذلك، حدث زلزال سياسي في لبنان باستقالة الشيخ بشارة الخوري من رئاسة الجمهورية تحت ضغط المعارضة المتمحورة حول كميل شمعون وكمال جنبلاط، وهي المعادلة التي أطلق عليها اللبنانيون في حينه «كميل وكمال». وقد تألمت كثيراً لسقوط الشيخ بشارة الذي كانت صورته وهو يخطب من على بلكون بيت الدكتور ملحم الفرزلي في جب جنين ما زالت تملأ مخيلتي الطفولية. لكنني أدركت مع الوقت أنه ما كان يجب العبث بالدستور في دولة دستورية تقوم على التداول السلمي للسلطة، لأن ذلك زرع بذرة الخلل الدستوري الذي ما زال قائماً في لبنان الى اليوم. إذ ليس أخطر على أي بلد دستوري في العالم من سير الحكم فيه في اتجاهات غير دستورية. فهذا مقتل وليس مجرد خلل. لكن على الرغم من ذلك يبقى ارتباط اسم الشيخ بشارة بالاستقلال اللبناني علامة فارقة ومميزة في تاريخ لبنان الحديث.

إلاّ أن معادلة «كميل وكمال» التي أسقطت الشيخ بشارة ما لبثت أن انفصم عراها، ومع هذا الانفصام انزلق لبنان الى صراع ذي طابع عنفي، فصار العنف سيد السياسة في البلاد على كل المستويات، من أصغر قرية الى العاصمة. ولا شك في أن معظم اللبنانيين يعرفون العبارة المجلجلة التي أطلقها كمال جنبلاط، للتأكيد بأنه هو «صانع الرؤساء»، وهي: «قلنا لهذا كن فكان، وقلنا لذاك زل فزال». لكن قلة يعرفون أن الزعيم الدرزي أطلق عبارته تلك في مأدبة على شرف ولي العهد السعودي آنذاك الأمير سعود بن عبد العزيز (الملك سعود لاحقاً)، الذي كان في زيارة رسمية الى لبنان، وذلك في بيت نجيب بيك جنبلاط في راس بيروت.

وهذا البيت الذي يقع على خط الترامواي المتجه الى المنارة مروراً بشارع بليس قرب الجامعة الأميركية، هو من البيوت اللبنانية العريقة مثل قصر الداعوق القريب منه، أو مثل قصر هنري فرعون بالقرب من القنطاري. وكان شخص منعم من بلدتنا القرعون اسمه منصور خليل الحداد، كان مقيماً في بيروت ويملك ثروة محترمة في زمانه، اشترى ذلك البيت الجنبلاطي العريق بمبلغ عشرين ألف ليرة ذهبية من صاحبه آنذاك، وأظن أن اسمه علي بيك جنبلاط. ولما علمت الست نظيرة والدة كمال جنبلاط بالأمر جن جنونها... وعملت قصارى جهدها بما لديها من نفوذ لدى الفرنسيين، وتمكنت من فسخ عقد البيع بحجة أن صاحبه الذي باعه لم يكن بكامل قواه العقلية، فضاع البيت على منصور الحداد وضاعت فلوسه، فاعتل ومات.

وقد أبلغني المرحوم فؤاد عوض أنه عندما زار الأمير سعود لبنان آنذاك كان هو لا يزال ضابطاً صغيراً في الجيش اللبناني برتبة ملازم، فانتدبته الحكومة اللبنانية مرافقاً لولي العهد السعودي خلال زيارته الى لبنان. وبعد انتهاء الزيارة قدم له الأمير السعودي هدية هي عبارة عن مبلغ من المال، وهذا كما يبدو من العادات العربية الدارجة، فاحتار بين قبولها أو رفضها، فخاف إذا قبلها أن يعتبر ذلك من قبيل «دناوة النفس»، وخاف إذا رفضها أن يُعتبر ذلك إهانة للضيف، فأخذها من الأمير ووزعها على مرأى من الجميع على الدرّاجين المرافقين للموكب وبقية الحرس المرافقين، ولم يستبقِ منها شيئاً لنفسه.

والمعروف عن الملك سعود أنه كان سخياً في أعطياته بمقاييس ذلك الزمان، حتى بعد خلعه عن العرش ولجوئه الى الخارج. وقصة المليون دولار التي دفعها الى زهير عسيران، نقيب الصحافة اللبنانية في ذلك الوقت، معروفة للقاصي والداني، لأنها كادت أن تدخل في موسوعة «غينيس» للأرقام القياسية.

ومع أن زهير عسيران كسب المليون دولار، لكنه بسببها خسر نقابة الصحافة، باعتبار أنه استأثر بتلك الدولارات من غير أن «يشوف خاطر» بقية أصحاب الصحف الذين تجمهروا عليه بقيادة رياض طه وخلعوه عن عرش النقابة، كما خلع الأمراء السعوديون بقيادة الأمير فيصل قبل ذلك شقيقهم الأكبر الملك سعود ليحل فيصل محله على عرش المملكة.

•••

كان لنا أقارب يعيشون في «شارع عبد الوهاب الإنكليزي» في الأشرفية، هم بيت دياب متري الفرزلي. وهذه العائلة مؤلفة من الأب والأم التي كنا نسميها «العمة بهيجة» وست بنات اثنتان منهن كن متزوجات، ثم تزوج عمي موسى فيما بعد واحدة منهن اسمها جوزفين.

وكنت كل يوم أحد تقريباً أركب الترامواي من راس بيروت على خط طريق الشام الى ما بعد سينما «غومون بالاس» وأسير الى منزلهم من هناك ماشياً مسافة قصيرة لتناول طعام الغداء، أحياناً لوحدي وأحياناً برفقة عمتي رمزية التي كنت أقيم معها في حاووز الساعاتية، لأن العمة بهيجة كانت تعد ليوم الأحد طعاماً شهياً لا مثيل له. وكانت تسكن في الطابق العلوي من ذلك المبنى المؤلف من طابقين فقط عائلة من آل أبو جودة مكوّنة من الأب والأم، التي كانت على قسط وافر من الجمال والطلة البهية واسمها «الست ماري»، ولهما ابنة في مثل عمري تقريباً عليها أيضاً مسحة وافرة من الجمال، تدعى سيلفي، وكانت بيضاء اللون مثل أمها، وابن داكن السمرة مثل والده اسمه جورج. بعد الغداء كنت أذهب وابنة العمة بهيجة الصغرى التي تكبرني قليلاً، واسمها سعاد، وجارتها سيلفي أبو جودة، الى السينما في ساحة البرج مشياً على الأقدام من شارع عبد الوهاب الإنكليزي مروراً بسوق النجارين. وكنا عادة

نشاهد أفلاماً مصرية لشادية، وفاتن حمامة، ووحش الشاشة فريد شوقي، وكمال الشناوي، وشكري سرحان، وعماد حمدي، وغيرهم من نجوم السينما المصرية في حينه. لكنني انقطعت عن ذلك بعد دخولي الجامعة في العام الدراسي 1954ـ1955. وعلمت فيما بعد أن سيلفي أبو جودة تزوجت النائب ميشال المر الذي كان يدرس الهندسة في الجامعة اليسوعية القريبة ويسميه زملاؤه وقتها «البريزيدان»، وهي والدة الوزير الياس المر.

ومع أنني في الطريق الى شارع عبد الوهاب الإنكليزي كنت أمر بسينما «غومون بالاس»، إلاّ أنني لم أدخلها إلاّ مرة واحدة، ربما لأنها كانت تعرض أفلاماً فرنسية وإسبانية، وهي على كل حال أفلام طليعية راقية. والفيلم اليتيم الذي شاهدته على شاشتها كما أذكر مقتبس من كتاب للفيلسوف الفرنسي جان ـ بول سارتر يوم كان معادياً للشيوعية وقبل أن يستدير الى اليسار. وقد حاولت أن أقرأ لسارتر لاحقاً لكنني لم أتابع، وما زال كتابه «الوجود والعدم» المترجم الى اللغة الإنكليزية بعنوان Being and Nothingness قابعاً في رفوف مكتبتي في لندن لم يتحرك من مكانه الى اليوم.

عندما سكنت في باريس عام 1976، كان الصديق الحبيب الراحل محمد الشابي الذي كنت متآخياً معه بكل معنى الكلمة، يأخذني الى المقاهي الباريسية التي لها تاريخ، أو ارتبط اسمها بأشخاص صار لهم شأن. ومن جملة تلك المقاهي تلك التي كان يجلس فيها جان ـ بول سارتر مع سيمون دو بوفوار في «سان جيرمان دى بريه» في الحي اللاتيني على الضفة اليسرى من نهر «السين»، وأشهرها «لو دو ماغو»، و«براسري ليب». وعلمت منه أن المقهى الذي كان قرب منزلي على تقاطع «مونبارناس» و «سان ميشال»، ويدعى «كلوسري دى ليلا» الذي يعود الى سنة 1847، هو المكان الذي بقربه في جادة «الأوبزيرفاتوار» عام 1958 جرت المحاولة المفتعلة لاغتيال فرانسوا ميتران الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية الفرنسية، وقيل إنه هو الذي دبرها بغية اكتساب الشعبية، والى حيث كان يجلس الزعيم الشيوعي الروسي فلاديمير لينين، والبوليس السري الذي يلاحقه، والى ما هنالك. وتبين لي من لوحة زرقاء على جدار أحد المباني في منطقة شرق «السيتي» في لندن، على مقربة من مكاتب جريدة «الميزان» في شارع «روزباري آفنيو» التي كنت بدأت إصدارها هناك في عام 1993، أن لينين سكن أيضاً في لندن فترة ولذلك أقيمت تلك اللوحة الزرقاء على جدار المبنى للدلالة على مكان سكنه.

ولست أتذكر أين قرأت أن الكاتب المجري المعروف آرثر كوستلر، بعد تعارفه على جان ـ بول سارتر في باريس فور انتهاء الحرب العالمية الثانية، وخروجهما معاً بصحبة شلة من الكتاب في أمسيات صاخبة، (أظن أن ذلك ورد في كتاب تذكاري عن الكاتب الإيرلندي الذي عاش في باريس صاموئيل

بيكيت)، استطاع كوستلر أن يستميل سيمون دو بوفوار، صديقة سارتر وخليلته في ذلك الوقت، ودخل في مغامرة غرامية عابرة معها، فحاول سارتر عبثاً استمالة زوجة كوستلر الثانية، مامين باجيه، في محاولة انتقامية فاشلة. وقد اشتهر كوستلر في باريس بعد النجاح الكاسح الذي لقيته روايته «ظلام وقت الظهيرة» التي كانت ترجمت الى الفرنسية في حينه بعنوان:

Le Zero et L'infini وكان هذا الكتاب مقرراً لنا في برنامج الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت بعنوان Darkness at Noon، وهو يتناول التصفيات الستالينية لقيادات الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي في مطلع الثلاثينات من القرن الماضي، وقد كتبه بعد ارتداده على الشيوعية التي انضم اليها عن طريق الحزب الشيوعي الألماني. بحيث يمكن القول أن مسيرة كوستلر كانت على نقيض مسيرة سارتر. وهناك قول بأن سارتر كان يشعر بالغيرة من كوستلر، لكن سارتر أقر بالتعادل بينهما بقوله له: «لا أظن أن وجهة نظري متفوقة على وجهة نظرك، ولا وجهة نظرك متفوقة على وجهة نظري». لكن كوستلر تفوق عليه في الفراش، ليس فقط لأنه استطاع أن يحمل سيمون دو بوفوار الى سريره، بل لأنه اشتهر بكونه مزواجاً وزير نساء، الى درجة أنه أقنع زوجته الأخيرة في لندن بالانتحار معه في مطلع ثمانينات القرن الماضي وهي بكامل قواها الجسدية والعقلية.

ولعل من أجمل مقاطع ذلك الكتاب وضعه مقياساً لجمال نهد المرأة، حيث اعتبر أن النهد المثالي هو الذي تكون دورته مطابقة لدورة كأس الشامبانيا فيمكن لذلك الكأس أن يستوعبه. لكن المقياس الذي وضعه ملك فرنسا لويس الحادي عشر (1461-1483)، الملقب بـ «الملك العنكبوت» الذي نقل عنه المؤرخون تحديده لمواصفات النهود على الوجه التالي:

Droit, Séparé, Rond et Dur أي «مستقيم، ومنفصل، ومكوّر، وشديد»[4]، ربما كان المقياس الأدق.

والمعروف أن كوستلر هو من أوائل اليهود المتصهينين الذين وفدوا الى فلسطين في عشرينات القرن الماضي حيث عمل لفترة من الزمن قبل العودة الى أوروبا للعمل في الصحافة.

عندما زرت الاتحاد السوفياتي عام 1971، وشاهدنا في لينينغراد (سانت بطرسبورغ) المكان الذي تم فيه اغتيال سيرجي كيروف أمين الحزب الشيوعي في لينينغراد (وهو أصلاً من القوقاز) ، رجعت الى ذاكرتي رواية كوستلر «ظلام وقت الظهيرة»، لا سيما عندما أبلغتنا المرافقة أن الشخص الذي اغتاله ويدعى

---

(4) وردت في كتاب «التاريخ السري لمدينة باريس»، صفحة 109
Paris, The Secret History, Andrew Hussey, Penguin Books
نقلاً عن كتاب «مسافر في باريس» صفحة 64
1998 ,A Traveller's History of Paris, Robert Cole, New York

نيكولاييف كان مهووساً، بينما الروايات المتداولة خارج الرواية الرسمية تفيد بأن ستالين هو الذي دبر اغتياله واتخذ من ذلك ذريعة لتصفية جماعية في صفوف القيادات الحزبية العليا، وهو موضوع كتاب كوستلر.

وفي زيارتنا الى مقر لينين في لينينغراد، حيث سريره ومكتبه وأسطوانات مسجلة لخطابات بصوته، كانت هناك صورة فوتوغرافية معلقة على الجدار تضم القيادات التاريخية للحزب الشيوعي ومن بينهم ستالين، لكن صورة أحدهم الى جانب ستالين قد محيت، فسألت المرافقة، وهي سيدة محترمة ومثقفة: «وما هذه الفجوة في الصورة؟». فقالت لي بصدق: «هي صورة ليون تروتسكي وقد محوها في عهد ستالين وما زالت ممحوة».

•••

من المحطات المهمة التي توقفت عندها في السنة الدراسية 1952ـ1953 في مدرسة عين المريسة، وفاة ستالين في مطلع شهر آذار/مارس من عام 1953. وكان ستالين في أيام نشأتنا مالىء الدنيا وشاغل الناس، وصورته في أذهاننا الطرية يومئذ زاهرة وإيجابية، تكونت في جزء كبير منها بفعل الدعايات الغربية ذاتها خلال الحرب العالمية الثانية، وهي دعايات أعطت انطباعاً مغايراً تماماً لما سلكته لاحقاً، حيث كانوا يسمونه في الغرب «العم جو»، ثم بفعل التعلق الأرثوذكسي التاريخي بروسيا على الرغم من قسوة ستالين على الأديان ورجال الدين، وبفعل المقاومة البطولية التي خاضها الروس بقيادته ضد ألمانيا النازية، فكانت تلك المقاومة العامل الأول في هزيمة هتلر.

ومن خلال كتاب آرثر كوستلر أخذت تتبلور في ذهني الصورة الستالينية القمعية الواسعة النطاق حتى قبل أن يتسرب ويشيع خطاب نيكيتا خروشوف السري أمام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي في مطلع عام 1956، الذي دان فيه الممارسات الستالينية، وبدأ مسيرة جديدة من الانفتاح على العالم الخارجي، ولو بصورة تدريجية ومتحفظة.

وفي الزيارة التي قمت بها الى الاتحاد السوفياتي عام 1971 مطلع عهد ليونيد بريجنيف، كان جثمان ستالين قد نقل من جانب قبر لينين في الساحة الحمراء الى مقبرة الكرملين الداخلية حيث أقيم على قبره تمثال نصفي صغير. وطلبت من مرافقي المستر رومانوف أن يأخذني الى قبر ستالين، وعندما وصلنا اليه شاهدت باقات مختلفة من الزهور الحية الجديدة ملقاة على القبر، فقال لي رومانوف:

«إن كثيرين من الناس هنا ما زالوا يحبون ستالين، ويربطون اسمه بعظمة الاتحاد السوفياتي ومكانته وهيبته الدولية، وكل يوم يأتي أناس ليضعوا الزهور على قبره».

لكنه كان واضحاً لنا في مدرسة عين المريسة آنذاك أنه مع استقالة الشيخ

بشارة الخوري من رئاسة الجمهورية اللبنانية، ومع الثورة المصرية، ومع وفاة جوزف ستالين، بدأ يطل مشهد جديد على لبنان والعالم العربي والعالم كله. لكنه في حينه لم تتبادر الى أذهاننا الطرية أن قضية فلسطين سوف تكون في صلب التطورات التي تلت تلك المحطات.

•••

علمت أثناء السنة الدراسية الثانوية في مدرسة عين المريسة 1952ـ1953، وهي السنة ما قبل الأخيرة، أن المدرسة تتبع مناهج شبيهة بالمناهج التي كانت قائمة في فلسطين تحت الانتداب البريطاني، حيث يسمون التأهيل الثانوي Matriculation، أو ما يسميه السوريون «التجهيز». وقيل لي إن بإمكان طلبة الإنجيلية في عين المريسة التقدم الى امتحانات الثانوية الإنكليزية العامة التي تعدها جامعة لندن، ويتقدم اليها الطلبة الراغبون في لبنان، خصوصاً الطلبة الفلسطينيون، عن طريق السفارة البريطانية في بيروت التي تأتي بأوراق الامتحان مقفلة من لندن ويجلس المتقدمون للامتحانات في قاعة للجامعة الأميركية يجيبون عن أسئلة الامتحان، كل في المواد التي يختارها. وكان اسم تلك الشهادة الإنكليزية للدروس الثانوية في حينه هو:

GCE (General Certificate of Education)

وهي قسمان: القسم العادي والقسم العالي الذي يأخذه من يريد إكمال دراسته الجامعية في الجامعات البريطانية.

وكان يتقدم الى امتحانات القسم العادي Ordinary Level طلاب السنة النهائية في مدرسة عين المريسة. لكن أستاذ التاريخ ابراهيم عبود قال لي إنه بإمكاني أن أتقدم الى الامتحان المذكور في مواد معينة وأنا في السنة قبل النهائية مقترحاً علي مواد اللغة العربية، واللغة الإنكليزية، والتاريخ، ففعلت كما أوصى ونجحت في المواد الثلاث.

ومن ضمن امتحان اللغة الإنكليزية للطلّاب العرب قطعة عربية يتوجب على الطالب المتقدم للامتحان أن يترجمها الى الإنكليزية. وتبدأ القطعة التي تضمنتها ورقة الامتحان بعبارة «... ثم غزوة رسول الله في رجب تبوك من أعمال دمشق... الخ». أما في السنة التالية النهائية فقد تقدمت للامتحان ذاته بثلاث مواد إضافية هي: الفيزياء، والرياضيات، والأحياء، ونجحت فيها كلها أيضاً. وهكذا نلت الشهادة الثانوية الإنكليزية العامة على دفعتين، منهما دفعة قبل أوانها.

ومع ذلك فإن الثانوية الإنكليزية لا تؤهل حاملها لدخول الجامعة الأميركية في بيروت، بل عليه أن يخضع أيضاً لامتحان دخول وجدته أصعب كثيراً من الامتحان الإنكليزي. فقد جاءني في اللغة العربية سؤال يقول: «فسِّر واشرح واعرب هذين البيتين:

قـل لـلـذي بـصـروف الـدهـر عيّرنا   هل حاربَ الدهرُ إلاّ من له خطرُ؟
فـفـي الـسـمـاء نــجـومٌ مـا لـهـا عـددٌ   وليس يُكسف إلاّ الشمسُ والقمرُ»

لكنني نجحت فيه ودخلت الى الجامعة في السنة الدراسية 1954ـ1955. إلاّ أنني طردت منها في منتصفها لمدة سنتين لأسباب سياسية، قبل أن عدت لمواصلة الدراسة بعد انقضاء السنتين.



IV

«منبيع فوقنا وتحتنا لتتعلّم»

لم تكن الأمور ميسورة عندما دخلت الى الجامعة، لكنها تيسرت من حيث لم نتوقع.

وكانت أمي تعرف أن المسألة جدِّية وفوق مقدورنا، لكنها كانت مصممة على تعليمي حتى لو اقتضى الأمر، كما كانت تقول، «أن نبيع فوقنا وتحتنا». وما فوقنا وتحتنا في ذلك الوقت لم يكن شيئاً يذكر. فالقيمة الوحيدة لدينا هي في الأرض، والأرض لجدي، وجدي لا يبيع.

كانت الجامعة الأميركية في حينه تتقاضى 1200 ليرة لبنانية عن كل سنة دراسية، على ثلاثة أقساط كل منها 400 ليرة، وهذا بالمقاييس الراهنة مبلغ زهيد، حيث تبلغ الأقساط الحالية قرابة 20 ألف دولار أميركي في السنة، لكنه بالنسبة الى أهالي القرى آنذاك كان مبلغاً وارماً، أو ثروة يعتد بها.

وحدث أن أبلغتنا إدارة الجامعة أن وزارة التربية اللبنانية خصصت منحة قدرها 400 ليرة في السنة لكل طالب لبناني يحصل على قبول في الجامعات الخاصة، وبدون واسطة، فانحلت قصة القسط الأول. ثم جاء أحد أقاربنا المهاجرين الى السنغال في غرب إفريقيا حاملاً الينا رسالة من عمتي زكية المقيمة مع زوجها وعائلتها في داكار آنذاك، وفيها هدية لي لإكمالي الدراسة الثانوية ودخول الجامعة، هي عبارة عن ساعة يد، ومبلغ 200 ليرة، فانفرجت الأمور نوعاً ما، وتكفلت الوالدة بإرسال «ذهبة» أسبوعية مع البوسطة فلم تعد مسألة الأكل مشكلة، مع العلم أن إمدادات المناقيش والفلافل والكعك في بيروت كانت وفيرة وفائضة وبأرخص الأثمان.

واتكلنا على الله ونزلنا الى بيروت، لكنني عشت تلك الأشهر الأولى في العاصمة مثل البدو الرحّل، فقد اتفقت مع ثلاثة من الأقارب نزلوا الى بيروت للدخول في مدرسة الصنائع المهنية لعدم توفر المؤهلات اللازمة لديهم لمتابعة الدراسة النظامية، واستأجرنا سوياً غرفة في منطقة الصيفي المؤدية الى ساحة البرج، لقربها من مرآب البوسطة التي تحمل الينا المؤونة الأسبوعية، بكلفة 12.5 ليرة لكل منا، أي بمبلغ 50 ليرة في الشهر.

كنا ننام اثنين على الأسرّة واثنين على الأرض. وكانت صاحبة البيت التي

أجَّرتنا الغرفة، واسمها أم نعيم، غير مكترثة لحالتنا فوضعت علينا شروطاً قاسية تقيد حركتنا، وتمنعنا من استعمال الحمّام إلاّ مرتين في الأسبوع، مرة يوم الأربعاء ومرة يوم السبت. وكانت لها ابنة صبية أكبر منا قليلاً، لكنها كانت تغار عليها، وتمنعها وتمنعنا، من التلاقي حتى في النظرات. وسرعان ما ضقتُ ذرعاً بهذا الجو المزدحم غير المؤاتي للدرس، فرحت أبحث عن بدائل. وكان في عدادنا قريب لي من آل منصور الفرزلي اسمه نصر الفرزلي، رحمه الله، قتل قنصاً مع زوجته في أوائل الحرب اللبنانية وهو متجه بسيارته في شارع بشارة الخوري الى منطقة المتحف، فتيتّم أطفاله قبل بلوغهم سن الدخول الى المدرسة. ويوم مقتل نصر وزوجته كنت ما زلت في لبنان، وكانت الحرب في بداياتها الأولى، ولا أحد يتوقع أن تطول وتتطور الى هذا الحد. وخرجت من ديرة أم نعيم لأقيم مع زميل لي اسمه عزيز طهبوب في شقة صغيرة تقع في الطابق العلوي من مبنى بالقرب من مرفأ بيروت كان يعيش فيها مع والدته، لكن هذا المكان أيضاً لم يكن مناسباً.

ثم قال لي ابن خالتي جورج أبومراد، الشقيق الأصغر للأمين في الحزب القومي عساف أبو مراد، إن صاحب المبنى المتواضع الذي يقيم فيه مع عائلته، لديه غرفة صغيرة في الشقة المقابلة التي يسكنها، وهو شخص عازب يدعى أبو عمر الغلاييني ويعمل سمكرياً ولديه محل للسمكرة في منطقة الصنوبرة بالقرب من أوتيل «بريستول» في راس بيروت. ويقع المبنى بالقرب من شارع الحمرا وبمحاذاته تماماً. فاستأجرت تلك الغرفة بالشراكة مع ابن عمتي أنطوان شكيب متري الفرزلي الذي كان لا يزال طالباً في مدرسة عين المريسة التي تخرجت منها في السنة السابقة[1]. وكانت غرفة بدائية لكنها مريحة نسبياً بالمقارنة مع قاووش أم نعيم، وأجرتها أقل بعشر ليرات.

وكنا أيضاً ننام على الأرض لأن أبو عمر الغلاييني قدم لنا تلك الغرفة عارية تماماً ليس فيها أي شيء، خالية حتى من الكراسي، فاستعرت كرسياً عتيقاً من ابن خالتي لأضع ملابسي عليه عند الخلود الى الفراش المسجى على الأرض كالجثة الهامدة، وهو أيضاً أحضرته معي من جب جنين لأنه محشو بالصوف وبالتالي يمكن طيه ونقله بسهولة.

وكان أبو عمر الغلاييني رجلاً خفيف الظل وحكواتي صاحب نكتة وظرف، فصرنا نجلس معه نستمع الى حكاياته أكثر مما نسهر مع الكتب والأوراق، لأن ذلك أفضل من الكتابة على الأرض. ولذلك كنت أتمم واجباتي الجامعية المطلوبة خطياً في مكتبة الجامعة، وهي مكتبة أنيقة ومجهزة أحسن تجهيز.

وقد روى لنا أبو عمر، من جملة رواياته بلهجته البيروتية وأسلوبه البسيط

(1) توفي ابن عمتي أنطوان أخيراً بتاريخ التاسع من شباط/فبراير 2012 بعد معاناة طويلة مع مرض عضال أقعده وحرمه من النطق. وقد عمل لسنوات مدرِّساً للأدب العربي في كلية برمانا، ثم احترف الترجمة وعمل في مطبوعة «عالم النفط» لفترة.

والمضحك، كيف قصفت الفرقاطات الطليانية بيروت في الحرب العالمية، وكيف أن أهل راس بيروت، الذين كان عدد كبير منهم من كشاشي الحمام، ماتوا رعباً على حماماتهم أكثر مما خافوا على مدينتهم. وقسّم لنا أبو عمر الغلاييني الخريطة الديموغرافية لأهل راس بيروت الى أربعة أقسام: أدناهم كشاشو الحمام الذين لم تكن تُقبل شهادتهم أمام المحاكم من غير أن يفسر لنا الأسباب، ربما باعتبار أن كل كشاش للحمام سارق غير موثوق، وأعلاهم الصناعيون الذين عدّ نفسه في عدادهم، ومنهم السمكرية والنجارون والحدادون ومقششو الكراسي وما الى ذلك، وفي الوسط هناك التجار والدكنجية الذين كان يصفهم بأنهم حرامية وغشّاشون، لأنهم يكذبون عليك بالسعر ليأخذوا منك أكثر مما يستحقون ثم يغشّونك في البضاعة، وفي المرتبة التالية يأتي زرّاع الفجل وقاطفو أكواز الصبّير لأن راس بيروت قبل طفرة البناء التي حدثت بعد الحرب كان بورة مليئة بالنباتات والأعشاب والأشجار، ولا سيما أشجار الصبّير، يذهب اليها الناس غير القادرين على الاصطياف في المصايف الجبلية ليتفسحوا ويشموا هواء البحر المرطّب.

وكل ليلة كانت هناك حكاية في جعبة أبو عمر الغلاييني يقصها علينا وهو متربّع على الأرض بثيابه الزرقاء المتسخة، وأظافره المسودّة من الشغل والقردحة ببوابير الكاز، وملكها بابور «بريموس» الذي يحقن حقناً، ويجري نغزه بإبرة خاصة لفتحه إذا تسطّم وانسد. وعلى مثل هذا البابور كان أبو عمر يُعد الشاي في المساء ويسقينا معه.

ومن تلك الروايات أن بعض رفاقه أقنعوه بأن الله يستجيب لدعائه فيتيسر له إيجاد بنت الحلال المناسبة في ليلة القدر (في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك)، إذا هو أقام عرزالاً على البحر ونام فيه تلك الليلة وطلب وتمنى قبل أن ينام، وتعهدوا بمساعدته على إقامة ذلك العرزال في المكان المناسب. وفي اليوم التالي أحضروا أربعة عواميد خشبية، ولوحاً من الخشب لينام عليه، وجلبوا أغصان الأشجار اللازمة لبناء العرزال على ارتفاع عالٍ عن الأرض، وقرروا إقامة العرزال على شاطىء الرملة البيضاء حيث الرملُ ناعم وكثيف ويمكن غرز العواميد فيه بسهولة. لكنه فطن فيما بعد الى أنهم اختاروا المكان لكي يتسللوا في الليل من غير أن يحسّ على خطواتهم، ولأن المياه هناك ضحلة خلافاً لما هي عليه في المناطق الصخرية المجاورة. وقبل السحور في ليلة القدر، وفيما أبو عمر نائم في العرزال بعد الدعاء والتمني، جاءوا في الليل وحملوا العرزال من قوائمه الأربع وأبو عمر نائم فيه، ومشوا به باتجاه البحر، فظن أنه يسير بهودج الى الجنة، ثم ألقوا العرزال ونزيله في البحر فأفاق أبو عمر من ذلك الحلم اللذيذ بالجنة ليجد نفسه مبللاً بالماء المالح.

ومن رواياته أيضاً أن الجامعة الأميركية أقامت برنامجاً لمحو الأمية خاصاً

بأهالي راس بيروت من الكبار الذين لا يقرأون ولا يكتبون. وقرر أبو عمر أن ينتسب الى ذلك البرنامج، فآثر الجلوس في الصف الأمامي ليعطي أذنه للمعلم كما قال. وفي أحد الدروس أخذ المعلم طبشورة وراح يسطر خطوطاً متوازية على اللوح الكبير في القاعة، ثم راح يكتب وهو يتمتم بصوت شبه مسموع وظهره للتلاميذ. وكتب المعلم على اللوح عبارة «فصل الشتاء يليه فصل الربيع». ولما كان أبو عمر الغلاييني في الصف الأمامي وسمع شيئاً مما يتمتم به المعلم وهو يكتب، فقد اعتبر نفسه على بيِّنة مما كتب المعلم خلافاً لبقية زملائه الذين لم تصلهم تلك التمتمة. ولما فرغ المعلم من الكتابة، استدار لمواجهة الحاضرين سائلاً:

«من منكم يعرف أن يقرأ ما كتبت؟».

فهبَّ أبو عمر الغلاييني من مقعده وقال إنه يعرف. ولما سأله المعلم أن يقرأ ما كتب على اللوح قال له: «فاصوليا».

وانفرط المعلم ومعه أميّو راس بيروت من الضحك. فقد سمع أبو عمر كلمة «فصل» فركّبها على مزاجه. ولما سأله المعلم كيف توصل الى هذه الفهلوية قال له:

«رأيتك تسطر فقلت في نفسي إنه يصور ثلوماً، ولما سمعت كلمة «فصل»، قلت إنه يريد أن يعلمنا زرع الفاصوليا، لأن أهل راس بيروت لا يزرعون إلاّ الفجل، خصوصاً أنني من محبي أكل الفاصوليا».

وقس على ذلك من الحكايات التي لا نهاية لها.

ولم يطل بي المقام في ديرة أبو عمر الغلاييني أكثر من شهرين. ذلك أن عمي موسى فتح محل سمانة في ساحة الوردية على زاوية الشارع المؤدي الى القنطاري بمحاذاة شارع الحمرا من فوق وكليمنصو من تحت. وكان مع المحل شقة صغيرة هي في الأصل مبنية لتكون مسكناً للكونسييرج، فانتقلت اليها لأسكن مع عمي وأساعده في المحل في أوقات الفراغ بتوصيل الطلبيات الى البيوت المجاورة. ومع أن الوضع كان هذه المرة مريحاً ومؤاتياً للدرس، إلاّ أنني شعرت بالحنين الى أقاصيص أبو عمر الغلاييني وتجربته الفريدة في الحياة في راس بيروت كما كان قبل أن يداهمه العمران.

•••

في الجامعة، يختلف الأمر اختلافاً جذرياً عن بقية المدارس، لأن الطالب يشعر بحريته الفكرية على الفور. ففي مرحلة الطفولة تتشكل مواقف الطفل من خلال القيم المنزلية التي يحددها الأهل بدءاً من «هذا دح وهذا كخ»، وانتهاءً بالتحريم والتحليل: «هذا حرام وهذا حلال». وفي المدرسة الابتدائية يصبح المعلِّم هو البوصلة الأخلاقية بتوسيع المدارك ومعها أفق المسموح والممنوع. لكن في المدرسة الثانوية يصبح الطالب شريكاً في شراكة ثلاثية الأطراف،

تتكون من الطالب ودرجة تطوره، من جهة، وتوجيه المدرسة وأساتذتها، من جهة ثانية، وتفاعل الطالب مع بقية زملائه الطلاّب ومع الأفكار والقيم الأخلاقية التي يحملون فيؤثر فيهم ويتأثر بهم.

أما في الجامعة فالخيار له وحده. ومع أنني لم أنتسب الى أي حزب أو تنظيم سياسي، إلاّ أنني أعتبر أن الحزبية تقع في درجة أعلى من الجامعة في تشكيل القيم الثقافية، لأنه يفترض في الحزبي، إذا كان حزبه ديموقراطياً حقاً، وهذا قلما توفر في الأحزاب العربية الراهنة، أن يستطيع محاكمة قيم المجتمع كله ويصدر عليها أحكامه من خلال مفاهيمه السياسية.

لكنني في سنتي الأولى غير المكتملة في الجامعة الأميركية تصرفت كحزبي ولم أكن حزبياً، وكان بمقدوري أن أجتنب الطرد، لولا التزامي الأخلاقي مع الطلبة الآخرين الذين كنت أشاركهم الرأي في مخاطر دخول لبنان في الأحلاف العسكرية الأميركية، وفي اعتبار قضية فلسطين هي الأولى والأهم في لبنان والبلاد العربية والعالم.

وكانت الاعتراضات اللبنانية على مشاريع الأحلاف التي تتالت من مشروع الدفاع المشترك، الى حلف بغداد، الى «مبدأ أيزنهاور»، قد بدأت تتجه الى العنف، فسقط أول قتيل من الطلاّب برصاص قوى الأمن هو حسان أبو اسماعيل في عهد حكومة عبد الله اليافي الذي رماه كمال جنبلاط بكأس ماء كانت أمامه خلال جلسة صاخبة لمجلس النواب كادت تتحول الى اشتباك بالأيدي بين النواب. كذلك أصيب طالب آخر برصاصة شلته وأقعدته. ويبدو لي الآن أن انفعال كمال جنبلاط في ذلك الوقت لم يكن كله من أجل القضية القومية والنضال الوطني، بل إن بعضه يعود الى كون الشهيد حسان أبو اسماعيل درزياً، مما يفسر تلك الجنازة الضخمة التي تحولت الى تظاهرة شعبية عارمة عند مقبرة الدروز في عائشة بكّار، حيث ألقى كمال جنبلاط خطاباً شديد اللهجة وصف فيه عبد الله اليافي بأنه «مسخ الدكتاتوريين».

وكانت تشكيلة الطلاّب في الجامعة الأميركية يومها مختلفة عن تشكيلة مدرسة عين المريسة التي كانت مؤلفة من لبنانيين وفلسطينيين فقط. أما في الجامعة فكانت متعددة الجنسيات حيث ضمت مجموعة كبيرة من الطلاّب السوريين الذين شكلوا غالبية المطرودين وأذكر منهم عمر البرازي والحكم دروزة. ومن اللبنانيين نبيهة لطفي من صيدا، (علمت لاحقاً أنها ذهبت الى مصر وتزوجت من علي مختار، وهو أحد المصريين القلائل المنتسبين في تلك الأيام الى حزب البعث العربي الاشتراكي)، والأردنية طروب شبيلات. وكان معظم الطلاّب السوريين في ذلك الوقت من أبناء العائلات البرجوازية والإقطاعية السابقة، أمثال البرازي، ونظام الدين، والكعكجي، والفاعور، وغيرهم...

ولم يكن لحزب البعث وجود ملحوظ في الجسم الطلاّبي الجامعي آنذاك، بل

كانت القوة الضاربة لحركة القوميين العرب التي كان الدكتور جورج حبش من مؤسسيها، يليهم السوريون القوميون، ثم الشيوعيون. وكان القوميون العرب أكثر الطلاّب حماسة للقضية الفلسطينية، وكانوا يصدرون نشرة دورية اسمها «الثأر»، تدعو الى الكفاح المسلح لتحرير فلسطين بالحديد والنار والدم.

كذلك كان القوميون العرب مسيطرين على جمعية «العروة الوثقى» التي جرى حلها من قبل إدارة الجامعة بعد الصدامات مع الطلاّب فلم أتعرف عليها إلاّ من خلال أحاديث الطلاّب. ومن المفارقات أن تلك الجمعية التي كانت معقل القوميين العرب لها نشيد مشهور وضعه الشاعر اللبناني سعيد عقل الذي أصبح على نقيض تام مع العروبيين على اختلاف مشاربهم. ومطلع «نشيد العروة» الذي وضعه سعيد عقل، يقول:

للنسور ولنا الملعبُ

والجناحانِ الخضيبانِ بنورْ:

العلى والعربُ

وما من شك في أن الشاعر الزحلي سعيد عقل هو من كبار الشعراء الذين أنجبهم لبنان بالعربية، خصوصاً في الشعر الغزلي وفي الشعر المنبري، وعلى الأخص في صناعة السبك والصياغة، حيث تبدو اللغة العربية منجماً عميقاً من الأفكار والمفردات الخام التي تصبح مطواعة بين يديه الى أكثر مما تحتمل. ولذلك لا أفهم لماذا حاول في فترة من الفترات أن يبدد هذا الكنز بمحاولة اعتماد العامية اللبنانية وجعلها لغة مستقلة بذاتها. ولست أظن، كما يظن بعض الزملاء، بأن ذلك نابع من عداء تجاه العروبة والقضايا العربية، فاتخذوا من سعيد عقل موقفاً على هذا الأساس، بل هو في تقديري نوع من السعي للابتكار والاشتهار، ولو انه سعي غير مألوف.

ومن الأمثلة على هذا النوع من السعي لدى سعيد عقل المقالات التي كان يكتبها في جريدة «لسان الحال» لصاحبها آنذاك جبران الحايك، حول ما يمكن تسميته بـ«الفضائيات والأيونات الفضائية»، مما حمل الزميل ابراهيم سلامة على كتابة تعليق خبيث حول تلك المقالات في مجلة «الحوادث»، قال فيه: «إن سعيد عقل بحاجة الى أيون واحد لتُحل مشكلته».

وفي سهرة في برمانا عند بيت ابن عمتي أنطوان قبل سنوات قليلة من مرضه، مع ابن العم إيلي الفرزلي، فاجأنا السفير فؤاد الترك الذي تربطه علاقة وطيدة مع الشاعر سعيد عقل الى درجة أنه يحفظ شعره كله غيباً، بأن تلا شعراً نثرياً لسعيد عقل يجاري فيه الفاتحة القرآنية، حيث يبدأ مقطوعة لكل جملة من الفاتحة، فيأخذ مثلاً «باسم الله الرحمن الرحيم» ويقسِّم عليها، ثم «الرحمن الرحيم» ويقسِّم عليها، ثم «مالك يوم الدين» ويقسِّم عليها، وهكذا الى آخر الفاتحة. ولست أدري لماذا لم تنشر تلك المقطوعات، ربما خشية من

الحساسيات الدينية، لكنها من أجمل ما كتب باللغة العربية في تقديري.

بعد الاعتصامات الواسعة التي قام بها الطلاّب داخل الحرم الجامعي، حاولت إدارة الجامعة أن تفض المشكلة بالمرونة المقرونة بالوعيد، لكن ذلك لم ينفع لأن رؤوس الطلاّب كانت حامية. ثم بعد أيام تدخل النائب إميل البستاني صاحب شركة «كات» بوصفه رئيساً لجمعية خريجي الجامعة، فجاء للقائنا وإقناعنا، وكان رأيي الشخصي أن نقبل وساطة البستاني وتعهداته، لكن أحد الطلاّب السوريين، (لا أذكر سوى اسمه الأول «فؤاد») تلاسن مع البستاني الذي حاول أن يكون ملطفاً للجو قبل أن يخرج غاضباً، مما حمل إدارة الجامعة على اتخاذ إجراءاتها الصارمة بحق معظم المعتصمين في القاعة. ومن جملة ما جاء في تلك المشادة قول إميل البستاني للطالب السوري المذكور بعدما سمع منه مطالعة نارية: «لو كنت ابني لوبختك لكنني لا أستحي بك».

وهذا في الحقيقة نوع من الإطراء الراقي. لكن الطالب السوري رد عليه بالقول: «لو كنت والدي لاستحيت بك». وكان ما كان.

وإميل البستاني من الشخصيات اللبنانية المميزة بحضوره الملحوظ والوازن على مسرح أكبر من لبنان بكثير، ولو أن بعض «الثوريين» العرب كان يتحفظ على صلاته الخارجية. فهو أول من فتح الخليج العربي[2] للبنان واللبنانيين، وعرّف اللبنانيين على أعلام لبنانية في الخارج أمثال السير بيتر مدوّر الحائز على جائزة نوبل في الطب عام 1960، لأن بحوثه جعلت من الممكن إجراء عمليات نقل الأعضاء من إنسان الى آخر. وقد عثرت عند الزميل المرحوم عماد التكريتي، وهو شامي من حي التكريتي في دمشق، في مدينة «بيتربورو» البريطانية بالقرب من مدينة كمبريدج، على نسخة من كتاب لإميل البستاني بالإنكليزية عليها إهداء بخط يده الى السير بيتر مدوّر، قال لي إنه اشتراها في معرض للكتب في لندن. وصادف عندما كنت أعمل في مجلة «الصياد» أثناء صدورها في منتصف الثمانينات من لندن، أن تعرفت على تشارلز مدوّر ابن السير بيتر مدوّر الذي زارني في مكاتب المجلة، وكان يقوم بحملة ضد شركات الأدوية العالمية الكبرى، لأنها كانت تورد الى العالم الثالث أدوية غير مجربة،

(2) في اولى سنوات حكم عبدالناصر، كان العرب يتكلمون ببساطة عن الخليج الفارسي، وجمال عبدالناصر في خطابه المشهور عن «الوحدة العربية» تحدث عن «الأمة العربية من المحيط الأطلسي الى الخليج الفارسي»، ثم بدأت تظهر تسمية «الخليج العربي» بشكل رسمي ومن دون اي تخوف من ردة فعل الشاهنشاه محمد رضا بهلوي، «الذي كان يعتبر ان تسمية الخليج الفارسي مسألة شرف وتثبيت وجود في هذا الجزء من العالم»، عندما بدأ زعماء المنطقة يعون شأنهم السياسي. ويجمع كثيرون على ان إميل البستاني هو اول من جرؤ على استعمال تسمية «الخليج العربي» في الصحف ايام كان جمال عبدالناصر نفسه غير مهتم بالتسمية. وقد لجأ الشاه الى سحب سفرائه من الدول العربية التي تستخدم في بياناتها وصحفها تسمية «الخليج العربي» فقطع علاقاته الديبلوماسية مع كل من المغرب وتونس على اثر زيارة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان لتينك الدولتين وصدور البيانات الختامية للزيارتين تحمل تعبير «الخليج العربي» بدلاً من «الخليج الفارسي».

فجعلت من شعوب العالم الثالث حقل تجارب لمنتوجاتها. وقد لمست من حديث تشارلز مدوّر معي بأن له ميولاً يسارية وربما شيوعية.

والمعروف أن إميل البستاني سقطت به طائرته الخاصة ومعه بعض أصدقائه والعاملين في شركته في البحر في 15 آذار/مارس عام 1963، من بينهم المهندس مروان خرطبيل، وهو متجه من بيروت الى دمشق، فور تشكيل أول حكومة سورية برئاسة صلاح الدين البيطار، بعد الانقلاب البعثي على حكم الانفصال. وقيل إنه كان ذاهباً الى دمشق للتهنئة بالعهد الجديد، لكن الى اليوم لم يعثر على أي أثر للطائرة وركابها، ولم يُعرف شيء عن ظروف سقوطها[3].

وبعد تلك الصدامات الدامية وقرار الطرد عدت الى جب جنين من حيث جئت بخفّي حنين. ومن أصل المايتي ليرة اللتين سافرت بهما الى بيروت عدت ومعي أقل قليلاً من خمسين ليرة تبقت لي من تلك الرحلة المضنية بين أم نعيم في الصيفي وأبو عمر الغلاييني في راس بيروت.

---

(3) في رواية أخرى لنقيب الصيادلة أديب قدورة في مذكراته «حقائق ومواقف»، أن وجهة سفر اميل البستاني كانت الى الاردن للاشراف على مد انابيب صممت من قبل الدولة الاردنية، ورافقه في الرحلة المشؤومة المهندس الشاب مروان اديب خرطبيل (إبن شقيقة قدورة)، والدكتور نمر طوقان، فقضى الثلاثة نحبهم في الحادثة. وقد ذكرت جريدة «النهار» البيروتية في عددها الصادر في 1963/3/16 ان اميل البستاني اتصل وهو في الجو بمكتبه في مطار بيروت الدولي قبل ان تنقطع اخبار طائرته عن برج المراقبة، وروى شهود عيان انهم شاهدوا الطائرة فوق البحر وكانت في حالة طبيعية، ثم سمعوا دوي انفجار فتطايرت مقدمتها وهوت بسرعة وهي تدور حول نفسها، ويقدر انها دارت خمس دورات قبل ان سقطت في البحر وابتلعتها الامواج.

V

في رحاب الصحراء

عدت الى جب جنين مهزوماً كسير القلب وليس معي من متاع الدنيا سوى حقيبة الكتب وفرشة الصوف الملفوفة ببساط مجدول من قماش يعزل بينها وبين أرض الغرفة عند مدِّها للنوم، و48 «ورقة»، أي 48 ليرة، لا أكثر ولا أقل. وأول ما فعلته أمي بعد عودتي، أنها علقت الفرشة في الشمس، لأن الصوف عادة يمتص الرطوبة وتعشش فيه البراغيث أحياناً. والفرش الأرضية في الليل تنقل في النهار وتكدس فوق بعضها البعض الى مكان في جدار الغرفة يشبه الخزانة لكنه ليس بخزانة، إنما هو فجوة في الحائط بعضهم يسميها «اليوك»، وبعضهم يسميها «المقصورة»، ثم تسدل عليها ستارة معلقة فوقها في الحائط لحجبها عن العيان.

وبعد فترة من الزمن جاء الى البلدة «المعلم خيرو»، وهو منجِّد من سوريا يأتي كل سنة في الربيع قبيل الصيف ويطوف على البيوت ومعه أدوات التنجيد وآلة «الندف»، فالذين يريدون صنع الفرش والمدّات يلبي طلبهم بالعمل في بيوتهم، وكذلك الأمر بالنسبة الى الذين تفتقت فرشهم ويريدون إعادة تخييطها، أو الذين همدت حشوتها من الصوف أو القطن بفعل الوزن الملقى عليها وكثرة الاستعمال ويريدون ندفها وإعادة تنجيدها. وآلة الندف التي يعمل عليها المعلم خيرو تشبه آلة موسيقية ضخمة كالقيثارة، بل هي بالفعل تُصدر أصواتاً موسيقية، لأنها عبارة عن قوس خشبي ضخم يصل بين طرفيه وتر مشدود يمرّر عليه القطن الملبّد لندفه فينتفش، فيصدر الوتر أصواتاً موسيقية عند الضرب عليه للندف.

وأخذ مني الوالد 45 ليرة وأبقى لي ثلاث ليرات، واستدعى المعلم خيرو ليتشاور معه في ندف قطن بعض الفرش والدواشك، والأهم من ذلك بشأن إقامة «طزر» في غرفة الاستقبال يجلس عليه الضيوف، لأن الصالونات الحديثة لم تكن في متناولنا، بل لم تكن في متناول الغالبية العظمى من الناس في القرى. فالطزر الذي يقام على جوانب الغرفة بحاجة الى هيكل خشبي يصنعه النجّار خصِّيصاً، ثم يجب تنجيد طنافس أو فرش قليلة العرض تمد عليه،

وخياطة شراشف وستائر جانبية تخفي الخشب، وهذه عملية مكلفة ليست في مقدورنا. لكن المعلم خيرو اقترح على والدي حلاً رخيصاً وممتازاً يغني عن كل تلك الكركبة، وهو تنجيد مدّات تشبه الطزر محشوّة بقشر عرانيس الذرة الميبّس الذي يصبح قوياً كالصخر عند رصِّه وتنجيده، وبعد تنجيده بالخام يجري تلبيسه ببساط يشبه السجّاد لكنه ليس بسجّاد، وهذه لعبة خداع بالديكور، وكان المعلم خيرو يتقن تلك الألاعيب. وفي حياتي السابقة واللاحقة لم أنم نوماً أهنأ من النوم على تلك المدّات في قيلولة بعد الظهر. والأهم من ذلك أن قشر الذرة الميبّس المشدود جيداً لا يخفس تحت الجالس أو النائم عليه شأن الصوف والقطن، وبالتالي فهو ليس بحاجة الى إعادة تنجيد. ولست أدري لماذا اختار المعلم خيرو هذا الحل مع أنه لغير مصلحته، ربما خدمة لوالدي من قبيل الاحترام.

وكان المعلم خيرو رجلاً ظريفاً يتحدث بلهجة ناعمة حلسة ملسة، خصوصاً مع النساء. وهو أصلع الرأس تماماً بحيث أن قرص رأسه يلمع كالمرآة كأنه مصقول على آلة المجلِّخ الذي كان أيضاً يطوف في القرى مع دولاب الجلخ لتجليخ السكاكين المعدنية أو سنِّها آلياً على حجر بركاني خاص بشكل دائري.

وذات يوم من تلك الأيام أقام قريبنا النائب أديب الفرزلي، عم زوجتي، حفل غداء في مطعم على نبع الخريزات، وهو منتجع صيفي في الجبل الغربي على الضفة الأخرى من نهر الليطاني قبالة جب جنين بين «عين زبدة» بالقرب من صغبين وخربة قنافار، دعا اليه كبار المسؤولين في محافظة البقاع، وفي أثناء الغداء صادف مرور المعلم خيرو من هناك فدعاه أديب الفرزلي للغداء، فسلّم وحيّا الحاضرين الذين راح صاحب الدعوة يعرِّفه عليهم واحداً واحداً: هذا محافظ البقاع، هذا قائد سرية درك البقاع، هذا مدير جمارك البقاع، هذا رئيس محكمة استئناف البقاع، وبعدما فرغ من هذه المعارفة انحنى المعلم خيرو ويده على صدره قائلاً:

«ومحسوبكم منجِّد البقاع».

ففرطوا من الضحك حتى وصلت قهقهاتهم الى الضفة الأخرى من النهر.

•••

في ذلك الوقت جاء الى جب جنين مدرِّس فلسطيني اسمه يوسف كعوش، وأراد أن يفتح مدرسة خاصة فيها صفوف ثانوية دنيا، هما على الأرجح الصفّان الأول والثاني. وطلب مني كعوش أن أدرِّس الرياضيات والفيزياء لهذين الصفين اللذين كانت لور، زوجتي لاحقاً، في عداد طلاّب الصف الثاني منهما. فعندما دخلت الى الجامعة كنت أنوي دراسة العلوم بسبب علاماتي العالية في الفيزياء والكيمياء والأحياء والرياضيات أثناء دراستي الثانوية في مدرسة عين المريسة التي كانت فيها المنافسة على العلامات شديدة لا هوادة فيها. وعندما تخرجت

منها في السنة الأخيرة بما يسمونه High School، كنت الأول على لائحة الشرف العليا High Distinction بالشراكة مع طالب آخر من بلدة مرجعيون هو سليم مسلّم، الذي أصبح فيما بعد طبيباً من أشهر أطباء الأطفال في محيط مستشفى الجامعة الأميركية حيث عيادته الخاصة في شارع عبد العزيز، وكان ابني عماد أول طفل يدخل عيادته تلك بعد افتتاحها.

وعرض عليّ يوسف كعوش راتباً قدره 175 ليرة في الشهر فقبلت على الفور. وقد فرحت فرحاً عظيماً عندما قبضت أول راتب، والراتب الأول في القرى عادة يُهدى الى الوالدين بكامله للرضا، حيث كانوا يقولون: «رضا الله من رضا الوالدين». لكن الراتب الثاني كنت «أغني له في رأسي موّالاً»، حسب التعبير الشعبي عن التخطيط لأمر ما. ذلك أنني كلما مررت من أمام «فندق مسابكي» في شتورا أرى في حدائقه الوارفة شخصيات ووجهاء يعج بهم المكان، منهم من يشرب القهوة أو يتغدى في الهواء الطلق، ومنهم من يقيم الحفلات والدعوات أو الاستقبالات. وحتى بعدما قبضت راتبي كاملاً كنت أتهيب الدخول اليه، لظني أن ذلك الراتب كله لا يكفي ثمناً لفنجان قهوة في ذلك المكان المنعم. وأخيراً تجرأت ودخلت وجلست على طاولة في الحديقة الخارجية وطلبت فنجان قهوة من النادل الذي جاء يسألني عن مطلبي. وعندما طلبت أن أدفع الحساب لم أصدق أن فنجان القهوة ذاك، وفي فندق مسابكي بالذات، لا يزيد ثمنه عن نصف ليرة فقط لا غير! فشعرت أن الراتب الذي في جيبي يكفي لشراء الفندق بكامله.

ومع ذلك ظل فندق مسابكي في خاطري بحيث أنني قضيت فيه شهر العسل بعد زواجي، وكان بالفعل شهر عسل لحسن الضيافة وجودة الطعام خصوصاً. لكن ذلك الشهر كان أسبوعاً واحداً، ولم تزد كلفته عن 250 ليرة في ذلك الوقت.

كان يدرِّس الفرنسية في مدرسة كعوش معلِّم أرمني يدعى فرنسوا، وهو رجل محترم لكنه لا يجيد التكلم باللغة العربية، بل ينطق بها بلهجة مكسّرة إنما طريفة أيضاً. وكان عضواً في الحزب الشيوعي الذي كان أمينه العام أرمنياً أيضاً يدعى مادويان. وعندما عرضت الحكومة السوفياتية على الأرمن الراغبين بالعودة أن يرجعوا الى بلادهم أرمينيا التي كانت جمهورية سوفياتية في ذلك الوقت، قبل هذا الخيار وعاد مع عائلته الى بلاده الأصلية، لكن بعدما كنت قد غادرت جب جنين للعمل في الخارج.

وعندما زرت العاصمة الأرمنية «يريفان» في ربيع عام 1971، التي كانت محطتي الأولى في تلك الجولة السوفياتية، قضيت ثلاثة أيام فيها من بينها يوم في بحيرة «سيفان» الجبلية التي يبلغ ارتفاعها 2000 متر عن سطح البحر، حاولت البحث عن فرنسوا لكنني لم أكن أعرف اسمه العائلي. وفي مطعم الفندق الذي كنا ننزل فيه وجدنا شخصاً يخدم في المطعم اسمه ميخائيل ويتكلم العربية

بطلاقة، فقال لنا إنه كان يخدم في «مطعم طانيوس» في عاليه، وهو من الذين قبلوا العرض السوفياتي بالعودة الى أرمينيا أيضاً لكنه لا يعرف شخصاً باسم فرنسوا.

وخلال السنة الدراسية تزوج مدير المدرسة يوسف كعوش للمرة الثانية، وهو في الأربعين من العمر، من تلميذة في المدرسة بعمر ابنته. ولست أذكر ما هي ملابسات تلك الخطوة غير المألوفة، بل والمستغربة، في حينه. لكن فرنسوا الأرمني هو أول من أخبرني وكان بادي الغضب ترقص السيجارة بين شفتيه وهو يتمتم بلهجته الأرمنية المكسّرة، وقال لي:

«بني آدم راسين. راس فوق راس تحت. راس فوق يغلب إنسان. راس تحت يغلب حيوان».

بهذه الكلمات «الأرمنية» القليلة اختصر فرنسوا القضية.

•••

في رحلة البحث عن فرنسوا في العاصمة الأرمنية يريفان، حدثت أمور غريبة.

وكنا سليمان أبو زيد، وتوفيق المتني، ومحمود الحكيم وزوجته وأنا، وصلنا من بيروت الى يريفان كمحطة أولى للرحلة السوفياتية في شهر نيسان/أبريل من عام 1971، وصادف عيد مولد لينين أثناء وجودنا هناك، وأظن أنه يوم 21 نيسان/أبريل، واستقبلنا مرافقون منتدبون من اتحاد الصحافيين في صالون الشرف في المطار، ثم انتقلنا الى الفندق.

وفي الليلة الأخيرة في يريفان، أقام لنا وزير السياحة السوفياتي، وهو روسي وليس أرمنياً، حفل عشاء رسمي في فندق آخر هو فندق «آني»، الإسم التاريخي القديم لدولة أرمينيا التي قلما كانت دولة مستقلة لوقوعها على خط التماس بين الروم والفرس، وعلى خط التماس بين الإمبراطورية العثمانية والدولة الصفوية في إيران.

وفي حفل العشاء، وبعد تبادل الأنخاب، فتح توفيق المتني كيساً أحضره معه من بيروت وفيه فول أخضر و«جنارك»، وأفرغ المحتويات في صحن أمامه، وأفرغ في صحن آخر مكسّرات لبنانية منها الفستق الحلبي والبندق وما الى ذلك. وعندئذ انتفض الوزير السوفياتي وقال ما معناه إن المتني خرق القانون الذي لا يسمح بإدخال خضار وفاكهة من أي نوع الى البلاد إلاّ بعد فحصها والتدقيق فيها ومعرفة الغرض من إحضارها، مستغلاً الضيافة الرسمية التي تغض النظر عن تفتيش حقائب الضيوف المدعوين من جهات لها صفة رسمية.

وزعل توفيق من كلام الوزير ووقف وانسحب من القاعة وقال إنه يريد أن يعود الى بيروت. وكنت أنا أول المحرجين لأن الزملاء كانوا اتفقوا على أن أكون الناطق باسم الوفد. فقمت عن المائدة ولحقت بتوفيق المتني ورحت

أطيب خاطره وأرجوه أن يجنبنا هذا الإحراج الذي يضر بسمعة لبنان وسمعتنا كلبنانيين، خصوصاً أن العلم اللبناني كان يتصدر المائدة.

وبعد طول أخذ ورد بيني وبينه، عاد الى القاعة وأخذ مقعده على المائدة. وبقيت أنا واقفاً لألقي كلمة الوفد قبل أوانها، من أجل تطييب خاطر مضيفينا أيضاً، فقلت في تلك الكلمة: «أنا أعرف أن التذرع بجهل القانون لا يشكل مبرراً لخرقه. لكن الزميل توفيق المتني ربما اعتبر أن الأمور هنا مثل لبنان، لا حسيب ولا رقيب، لكنه فعل ذلك حتماً كمجرد نزوة، أو ما يسميه البعض «المحن اللبناني»، وإنني أعتذر باسمه وباسم بقية أعضاء الوفد عما حصل، وهو ما لم نكن نتوقعه، وأرجو أن نطوي هذه الصفحة بنخب للصداقة اللبنانية ـ الأرمنية، والصداقة اللبنانية ـ السوفياتية».

وأخذت الكيس الفارغ من تحت كرسي توفيق وأعدت ملء ما تبقى من فول أخضر وقشور في الكيس، وسلمته الى أحد المرافقين لإتلافه حسب أصول الكرنتينا المعمول بها، لئلا ينقل الآفات والأمراض اللبنانية الى التربة السوفياتية.

وعندما طرنا في اليوم التالي من يريفان الى «مينرال نوفودني» في القوقاز متجهين من بعدها الى منتجعات «بياتيغورسك» اكتشفت أن الزميل توفيق المتني ارتكب خرقاً آخر أفدح من قضية كيس الفول، حيث أطلعني أنه أحضر معه من بيروت كمية كبيرة من الروبلات الروسية لشراء بعض الأشياء، خارقاً قوانين القيود على النقد. وقال لي إنه اشترى تلك الروبلات من برج حمود بسعر ستة روبلات للدولار الواحد، بينما السعر الرسمي للتحويل داخل الاتحاد السوفياتي كان دولاراً ونصف الدولار للروبل الواحد. وسحب من جيبه رزمة ضخمة من العملة السوفياتية وأعطاني منها 1500 روبل مقابل 250 دولاراً، طالباً مني عدم ذكر الأمر أمام أحد من بقية أعضاء الوفد.

وهذا في ذلك الوقت مبلغ كبير بالمقاييس السوفياتية لم أستطع إنفاقه على الرغم من شراء كمية كبيرة من صناديق السيجار الكوبي الفاخر المتوفر بكثرة في الاتحاد السوفياتي آنذاك، وبعض القطع الفنية والهدايا والمجوهرات. وبعدما سافر الوفد عائداً الى بيروت من موسكو، بقيت أنا في العاصمة السوفياتية أسبوعاً آخر. وقبل عودتي الى بيروت التقيت في الساحة الحمراء بالقرب من «أوتيل ناسيونال»، حيث كنت نازلاً، الكاتب المسرحي فارس واكيم الذي كان يكتب مسرحيات «شوشو» في ذلك الوقت، فأعطيته ما تبقى من روبلات توفيق المتني.

ومن غرائب المصادفات أنه بعد سنتين كنت متجهاً مع قريبي المحامي الياس الفرزلي الى البقاع عن طريق جزين، فاقترح أن نتناول طعام الغداء في مطعم قلعة صيدا قبل الذهاب الى البقاع، فدخلنا الى المطعم فإذا بمائدة

كبيرة ممدودة في صدر القاعة عليها ضيوف أجانب، ومن بينهم وزير السياحة السوفياتي إياه، فحييته وقام من مقعده وجاء للسلام علينا. وكانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي أدخل فيها الى قلعة صيدا.

•••

لم يكن التعليم في مدرسة كعوش في جب جنين هدفاً لي بل كان بمثابة تقطيع مرحلة. وكانت وزارة التربية في لبنان قد أعلنت عن مسابقات لاختيار عدد من معلمي المدارس الرسمية التي كانوا يطلقون عليها التسمية السورية المألوفة «المعارف»، لأن التعليم في المعارف وظيفة ثابتة ذات راتب دائم، قابل للزيادة مع الوقت. فذهبت مع آخرين من الشبان، معظمهم من القرعون، الى زحلة حيث جلسنا للامتحان، فنجحنا جميعاً، ربما لحاجة الوزارة الى المعلمين أكثر مما هي شطارة المرشحين.

وقبل توزيع المراكز والالتحاق بها، جاء لزيارتنا في جب جنين في طريقه الى القرعون ابن خالتي جورج أبو مراد، وكان يعمل موظفاً في مكتب لشركة «تابلاين» الأميركية التي كانت تنقل النفط بالأنابيب من المملكة السعودية الى السواحل اللبنانية، وقال لنا إن شركة «أرامكو»[1] (شركة الزيت العربية الأميركية) التي تقوم شركة «تابلاين» بخدمتها بحاجة الى موظفين لبنانيين للعمل في المنطقة الشرقية من المملكة السعودية برواتب عالية، حيث راتب كل شهر في «أرامكو» يعادل راتب سنة لمعلِّم المعارف.

تحمست لهذه الفكرة، أو بالأحرى المغامرة، لأنها تقتضي أن أركب الطائرة لأول مرة في حياتي، لأطير الى مكان بعيد مجهول، فتصورت نفسي في مكان جدي في القرن التاسع عشر عندما أخذ حمل العنب الى صيدا ليبيعه، فانتقل الى بيروت ومنها ركب البحر الى نيويورك، وهو لا يعرف شيئاً عن تلك الأمكنة، أو ما ينتظره فيها.

كان ذلك يوم سبت. ويوم الإثنين نزلت الى بيروت حيث دلني ابن خالتي على مكتب الشركة الذي يتوجب علي التقدم اليه طلباً للوظيفة، فذهبت حسب تعليماته وسألت السكرتيرة فأخذتني الى مكتب شخص فلسطيني لا تبدو عليه ملامح اللاجئين اسمه حسن حلاق. فأخذ يستجوبني كأنه محقق عدلي يستجوب متهماً بجريمة، لكنه كان لطيفاً دمثاً ومشجِّعاً.

---

(1) «أرامكو» هو اختصار بالأحرف الأولى لما سمي «شركة الزيت العربية ـ الأميركية». ولم يكن هذا اسمها الأصلي عندما حصلت شركة «ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا» على امتياز التنقيب عن النفط في المملكة السعودية من الملك عبد العزيز آل سعود في 29 أيار/مايو من عام 1933. فالإسم الأصلي هو «ستاندرد أويل كاليفورنيا العربية». وفي عام 1938 باعت الشركة صاحبة الامتياز الأصلي نصف امتيازها الى «شركة تكساس للنفط». ثم اعتمد اسم «أرامكو» في عام 1944. وبعد أربع سنوات انضمت شركة ثالثة الى الامتياز هي «ستاندرد أويل أوف نيوجيرسي»، بحصة 30 % ، ثم «سوكوني فاكيوم» بحصة 10 % ، فأصبحت المحاصصة بين الشركات الأربع بنسبة 30 % لكل من الشركات الثلاث الأولى، و 10 % للشركة الرابعة.

تناول استمارة من درج مكتبه وراح يكتب عليها بالإنكليزية اسمي وبقية ما استنتجه من أجوبتي، ثم أخذ الاستمارة وتركني في مكتبه وخرج ليعود بعد ربع ساعة ويطلب مني أن أرافقه الى مكتب فؤاد قعوار، وهو فلسطيني أيضاً يبدو عليه أنه منعم أكثر من حسن حلاّق. وكان هو الآخر لطيفاً ومهذباً، وأعاد استجوابي لدقائق ثم قال لي إنه قرر قبولي وأن عليّ أن أسافر من بيروت في طائرة للشركة بعد أسبوع.

وتعجبت لهذه السرعة في البت مقارنة بالوظيفة التي تقدمت اليها للتعليم في المدارس الرسمية حيث كان علينا أن ننتظر ثلاثة أشهر لنعرف نتيجة الامتحان، ومثلها للالتحاق بالوظيفة.

•••

في اليوم السابق للسفر ودّعت والدي ونزلت الوالدة معي الى بيروت لوداعي، لكنني هذه المرة منعتها من أن تلفّ لي «ذهبة» كتلك التي كانت تمدني بها أيام الدراسة في بيروت. ولاحظت أن الطائرة التي عليّ أن أركبها ليست كبقية الطائرات المتوقفة في المطار، بل كانت أصغر حجماً ولها محركان مروحيَّان فقط. ولم يكن يومها في آذار/مارس من عام 1956 قد بدأ الطيران النفّاث، بل كانت الطائرات كلها بمحركات «فراشيّة».

دخلت الى الطائرة فوجدت نفسي الراكب الوحيد فيها الى جانب الطيّار ومعاونه، وكانت محمّلة بصناديق الخضار والفاكهة، والمقعد الذي أُجلست عليه ليس مقعداً بالمعنى المألوف، بل هو عبارة عن قطعة من القماش العسكري القوي بين ركيزتين حديديتين وظهر المقعد من قماش أيضاً، لكنه مقعد مريح. وعلمت أن تلك الطائرة من طراز «كونفير»، وهي طائرات كانت «أرامكو» تستخدمها لنقل المواد الغذائية بين بيروت والظهران حيث مقر الشركة في المنطقة الشرقية من المملكة السعودية.

عندما وصلت الى الظهران، كان منير أبو حيدر موظفاً في دائرة المشتريات في الشركة مسؤولاً عن عمليات التموين هذه، لكنه بعد فترة وجيزة توصل الى اتفاق مع «أرامكو» يقضي بأن يستقيل من وظيفته في السعودية ليتولّى تزويد الشركة باحتياجاتها من بيروت كمقاول بموجب عقد سخي، خصوصاً أنه كان يعرف المداخل والمخارج من خلال وظيفته السابقة في دائرة المشتريات، فأعطته «أرامكو» الطائرات التي كانت تُستخدم لنقل المواد التموينية، ومنها تلك التي ركبتها لأول مرة، فعاد منير أبو حيدر الى بيروت وأسس شركة TMA، لهذه الغاية، قبل أن تتحول الى شركة نقل عالمية[2].

---

(2) شركة «الخطوط الجوية عبر المتوسط» تأسست على الورق عام 1953 لكن الترخيص الرسمي لها بالعمل من قبل السلطات اللبنانية المختصة كشركة شحن حصراً لم يصدر إلاّ في عام 1959. ولأنها في البداية لم تكن تملك أسطول طيران حديث سوى ما ورثته من «أرامكو» في البدايات الأولى، فقد اتهمها اللبنانيون بأنها تهمل قواعد السلامة المقررة، وذلك بعد سقوط أكثر من طائرة

أستطيع أن أقول إن تلك الطائرة التي أقلتني الى الظهران كانت بمثابة «طائرة خاصة». ومع ذلك شعرت بالخوف عندما أقلعت وصارت في الجو. ولم يكن خوفي من الطيران، لأن الإنسان عندما يصبح في الجو فلا حول ولا قوة إلاّ بالله، بل كان خوفي من الوحدة ورهبة الانفراد حيث لم يكن مؤنس غير ذبابة مزعجة تسللت الى جسم الطائرة، ربما بسبب وجود الخضار والفاكهة على متنها.

ومما زاد من شعوري بالانقباض أنني لم أكن مُعتبراً «راكباً» بالمعنى المألوف اليوم، لا لأنني كنت مسافراً من دون تذكرة شأن المسافرين في زماننا هذا، بل لأنني شعرت بوجودي في ذلك المقعد العسكري اليتيم وكأنني جزء من حمولة الطائرة من البضائع. وأسوأ شعور يخامر الإنسان في مثل هذه الأحوال أن يكون رقماً أو شحنة أو سلعة. وقد زاد شعوري من هذه الناحية بعدما تعرفت على صلب العقلية الأميركية الاستعلائية أثناء العمل، حيث كان التمييز العنصري على أشده، والنزعة الاستعمارية بادية بلا رتوش، خلافاً لما كان عليه الأمر في الجامعة الأميركية في بيروت مثلاً.

استمرت الرحلة من بيروت الى الظهران في تلك الطائرة الشبيهة بالسجن الانفرادي نحو ست ساعات، كنت خلالها وكأنني راكبٌ دابّة لأنني شعرت بأنها بطيئة وليست عالية كثيراً عن الأرض كما توقعت، وهذا أيضاً عامل مؤنس لأن رؤية الصحراء الممتدة آلاف الأميال من الجو يعطيك شيئاً من الاطمئنان، خلافاً للشعور الذي ينتابك أثناء الطيران فوق المحيط، أو فوق الجبال. لكن رؤية الصحراء من الجو شيء والعيش فيها على الأرض شيءٌ مختلفٌ تماماً.

•••

عندما خرجت من باب الطائرة في مطار الظهران، شعرت بأن أبواب جهنم الحمراء قد انفتحت على مصراعيها، حيث الحرارة شديدة الى درجة أنك تشعر بالدماء تغلي في عروقك. وعلمت من الموظف الفلسطيني الذي جاء يستقبلني أن مقري لن يكون في الظهران، بل في مكان بعيد في عمق الصحراء يدعى «أبقيق»، وأننا سوف نذهب الى هناك بالسيارة في رحلة تستمر نحو ساعتين. ثم أعطاني نسخة من الأوراق الثبوتية لأسلمها الى حارس البوابة عند مدخل المجمع السكني، أو بالأحرى المعسكر الشبيه بمعسكرات الاعتقال، لأنه عبارة عن كامب كبير محاط بالأسلاك التي تسيجه من كل جانب، فتذكرت على الفور

واحدة لها ومقتل بعض خيرة طياريها، فأطلق عليها الإعلام اللبناني في إطار حملة واسعة لقب «طائرات الموت». وظلت هذه المشكلة تلاحقها الى أن أوقفتها السلطات اللبنانية وسحبت منها رخصتها عام 2004 بسبب إهمال قواعد السلامة وتقادم أسطولها، فاشتراها رجل الأعمال اللبناني مازن البساط بدولار واحد متعهداً سداد ديونها البالغة 60 مليون دولار وتحديث أسطولها لتستأنف الطيران في عام 2009.

كامب القرعون عند جسر «بريمو»، وفيه عند المداخل والمخارج ما يسمونه مراكز Security، أو الأمن، تشبه بالفعل مراكز الأمن في معسكرات الاعتقال التي نشاهدها في الأفلام الأميركية.

وعند البوابة الخارجية استوقفني الحارس عدة دقائق ريثما استدعى موظفاً في مكتب شؤون الموظفين. وجاء هذا وكان فلسطينياً أيضاً وقبل أن يلقي التحية والسلام طلب مني جواز السفر وقال إن سياسة الشركة هي استبقاء جوازات الموظفين في عهدتها الى أن يحين وقت إجازاتهم أو عودتهم الى بلادهم، فكان ذلك الطلب الغريب أشبه بالمصادرة، وكأنك في دولة بوليسية بالفعل.

وكانت المباني التي يتألف منها المجمع السكني من طابق واحد مبنية من الخشب على قاعدة اسمنتية، وفي أغلب الظن أنها مصنوعة مسبقاً ويجري تركيبها على تلك القواعد، وهي تقع في صفوف متوازية كل صف منها هو عبارة عن «بلوك» مستطيل المباني على جانبين متقابلين، والحمامات الجماعية والمطابخ على الطرف الضيق بينهما من جهة واحدة والجهة الأخرى المقابلة مكشوفة على الصحراء، وفي الوسط حديقة مشغولة بعناية تحيط بها ممرات اسمنتية تفصلها عن المباني والمنتفعات المحيطة. لكن المجمع كله كان فيه تبريد مركزي جيد، وفيه تمديدات للماء والغاز.

وأخذني الى غرفة في أحد تلك المجمعات وقال لي إن هناك شخصاً آخر يقيم فيها أيضاً لكنه غائب في إجازة، وإن إقامتي هناك سوف تكون مؤقتة ريثما يتدبرون لي غرفة بمفردي. ثم دلني الى أين أذهب في الصباح وقت الدوام لتقديم أوراق اعتمادي وتقديم نفسي للمدير المسؤول. لكنني في اليوم التالي، بدلاً من الذهاب الى مركز عملي، وجدت نفسي ذاهباً الى المستشفى، بحالة يُرثى لها.

•••

وصلت الى الغرفة المبرّدة متعباً محطم الأوصال من تلك الرحلة التي استمرت 12 ساعة تقريباً من مطار بيروت الى كامب أبقيق، فألقيت نفسي على السرير واستغرقت في نوم عميق الى الصباح، حين استيقظت على حركة في الخارج، ففتحت الباب لأرى ماذا هناك، فوجدت شخصاً يهيء دراجته النارية الضخمة للذهاب بها الى عمله الذي يبدو إنه في مكان بعيد في الصحراء. وكان ذلك الشخص يحتل هو ودراجته النارية الغرفة المجاورة. ولما رآني عرّفني على نفسه على أنه أديب الصلح من صيدا، وقال لي إنه لا يوجد لبنانيون في منطقة أبقيق سواه وسوى شخص من جهات ضهور الشوير يدعى هنري مجاعص، وأن معظم الموظفين فلسطينيون. واستأذنته لحظة لكي آخذ دوشاً في واحد من الحمّامات الأربعة التابعة للمجمع وتقع خارج الغرف، فلففت منشفتي على

خصري ودخلت الحمّام الذي يشبه حمّامات البلاجات البحرية، فلم تكن على الحنفيات إشارات تدل على الساخن والبارد، أو كانت هناك إشارات لا أعرفها، ففتحت اليسرى منها فإذا برشّاش من البخار يلفحني في كتفي وهو ينفث نفثاً كالنفاثات في العقد، فشعرت بلسعة قاتلة من شدة الألم وصرخت بأعلى صوتي وأنا أخرج مسرعاً ألفُّ المنشفة على خصري، فهرع أديب الصلح ليرى ما الحكاية، فقال لي سآخذك الى المستشفى لأنك أصبت بحروق جسيمة في كتفك، لا تلبس قميصاً، إنما فقط البس البنطلون واركب ورائي على الدراجة لأن المستشفى قريب. وهكذا كان.

وفي المستشفى جاء طبيب أميركي يدعى الدكتور آيف، ربما كان من أصل نرويجي لأنه يبدو مثل رجال الفايكينغ الأقدمين في أقاصي أوروبا الشمالية.

وبعد الفحص والتدقيق قال الدكتور آيف إن الحروق التي أصابتني هي حروق من الدرجة الثانية ولذلك تستدعي بقائي في المستشفى عدة أيام لتلقي علاجات متواصلة، وطمأنني أن تلك الحروق لن تترك آثاراً أو ندوباً مشوهة للجلد، إنما يلزمها وقت لكي تبرأ. وكان الدكتور آيف يتفقدني كل يوم ويشرف على العلاج بنفسه. وقال لي إنني محظوظ لأن رشّاش البخار لم يصبني في عيني ووجهي، أو في خصيتي، وأن خروجي السريع من الحمّام هو الذي أنقذني، لأن بعضهم قد يصاب بصدمة عنيفة من جراء ذلك فيتوقف القلب عن الخفقان. وبعد فحص القلب قال لي لا تخف إن هذا المحرك الخافق في صدرك يوصلك الى مسافة بعيدة.

وبقيت في المستشفى عشرة أيامٍ قبل أن يسمح لي الدكتور آيف بالمغادرة. ولما كان الكامب السكني محدوداً، فإن الخبر انتشر بسرعة فجاء لعيادتي أشخاص لا أعرفهم كلهم من الأخوة الفلسطينيين، باستثناء أديب الصلح وهنري مجاعص. وأذكر منهم واحداً يدعى فايز درويش، وآخر يدعى الياس مجج من بيت لحم، ونقولا الجمّال، ولا أنسى طبعاً الشخص الذي ربطتني به فيما بعد صداقة وثيقة امتدت الى لندن حيث عمل لاحقاً في القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية BBC، هو أمين عبد الحفيظ من بلدة قلقيلية في الضفة الغربية. فقد جاء لعيادتي في المستشفى وعرفني بنفسه، وقال لي إنه مسافر في إجازة الى لبنان، وإنه مستعد أن يأخذ الى أهلي أي شيء، خصوصاً أنه كان يعرف ابن خالتي في بيروت وعلى صلة طيبة معه. فقلت له شاكراً:

«إنني قادم لتوّي من بيروت وليس لدي ما أرسله». فقال: «ألا تريد أن ترسل مبلغاً من المال لَأهلك؟».

قلت: «ليس لدي مال في الوقت الحاضر». قال:

«ليس مهماً، أنا سأعطي أهلك 500 ليرة وأنت تردها لي بعد عودتي».

وظننت أن أمين سوف يسلم المبلغ الى ابن خالتي في بيروت، لكنه بدلاً

من ذلك أخذ سيارة تاكسي الى جب جنين حيث تعرف على والدي ووالدتي وأخوتي وقضى بعض الوقت معهم. وفي غيابه تلقيت رسالة بريدية من والدي يتحدث فيها عن شهامة وأخلاق أمين عبد الحفيظ الحميدة ويوصيني بأن أتخذه مثلاً وقدوةً ومرشداً.

بعد مغادرتي أرامكو، انقطع اتصالي به، الى أن جئت الى لندن عام 1977 للعمل في مجلة «الدستور» نائباً لرئيس تحريرها وصاحبها علي بلوط. وكنت قد علمت أن أمين عبد الحفيظ يعمل في هيئة الإذاعة البريطانية فاتصلت به وتلاقينا في مقهى قريب من مكتبنا بين «كينزينغتون هاي ستريت» و «نوتينغ هيل غايت»، وعرضت عليه أن يكتب لـ«الدستور»، كمصدر دخل إضافي له، فاعتذر بأسلوبه الرقيق وتهذيبه الجم.

•••

بعد خروجي من المستشفى ذهبت الى مركز العمل في مبنى حديث مجهز أحدث تجهيز، ومكيف أفضل تكييف، وهو أنظف من نظيف، فيه نوافير ماء مبرّد للشرب في كل مكان، وفوق كل نافورة علبة فيها أقراص ملح ملوّنة، لأن الماء الجاري في النوافير مقطّر وخال من الأملاح المعدنية، فكانت تلك الأقراص تعويضاً عن الملح الطبيعي المفقود.

واتجهت الى مكتب الإدارة حيث استقبلني الموظف المسؤول وهو فلسطيني يدعى أحمد خورشيد، فأخذني في جولة على مرافق المركز، ومنها مكتبة جيدة تضم الى جانب الكتب الإنكليزية الحديثة، الجرائد والمجلات الأميركية على اختلافها. وكان المركز مخصصاً لتدريب العمال السعوديين في مختلف المرافق النفطية على أعمالهم المطلوبة منهم، كوسيط بينهم وبين رؤسائهم الأميركيين. إذ يبدو أن الشركة رأت أن العمال السعوديين لديهم حساسية مفرطة ضد الأميركيين، فكان من الضروري إحضار جماعة من الدول العربية المشرقية للتعاطي مع السعوديين تفادياً للاحتكاك المباشر، حيث كان العمال السعوديون يعتبرون الأميركيين «كفّاراً»!

وعندما وصلت الى المركز، واسمه «مركز التدريب المهني الصناعي»، أو بالإنكليزية Industrial Vocational Training Centre، كان معظم العاملين هناك من الأميركيين باستثناء أحمد خورشيد، وموظف سوداني يدعى بابكر، وكنت أنا اللبناني الوحيد في المركز، ثم بدأ اللبنانيون يفدون حتى أصبحت غالبية العاملين في المركز من اللبنانيين. وأذكر من الوافدين بعدي على دفعات: وهيب صليبا، الذي أكمل دراسته لاحقاً في أميركا وعاد الى بيروت أستاذاً في كلية بيروت للبنات، واسكندر الدرزي، خريج كلية الفلسفة في الجامعة الأميركية وهو من الكورة وكان شديد التحيز لشارل مالك ويخوض جدالات حامية مع الآخرين من أجله، وأنطوان ملاعب من كفرشيما، والياس معتوق الذي كان عمه

الدكتور معتوق شيوعياً مراً وهو على النقيض منه، وفؤاد الريس من عاليه الذي التقيته بعد أربعين عاماً داخل طائرة ميدل إيست المتجهة من لندن الى بيروت فعرفني وعرفته وأبلغني أنه يعمل في مشروع صناعي يخصّه، ثم المحامي كمال نصر من دير العشائر، وريمون سماحة الذي أصبح فيما بعد عديلي إذ تزوج بعد رجوعه الى لبنان من ليديا الفرزلي الراحلة شقيقة زوجتي وعمل في مجال التأمين، ورجا أبو شقرا من بلدة بيصور الذي علمت لاحقاً أنه عاد الى دولة خليجية ليفتح فيها مدرسة ناجحة. وجاء في مرحلة متأخرة قريبي نقولا الفرزلي الذي عدت وإياه سوياً الى الجامعة الأميركية في صيف 1958 الساخن في لبنان. فقضيت سنتين وثلاثة أشهر في رحاب الصحراء، وقضى هو ثمانية أشهر تقريباً، وأظن أنه كان في ذلك الوقت المبكر قد انضم الى حزب البعث العربي الاشتراكي.

وعرّفني خورشيد على لاري إميغ، رئيس المركز، وهو أميركي من أصل ألماني عليه ملامح النازيين، سريع الغضب وسريع العودة عن الغضب، يشرب القهوة طوال النهار، فإذا لم يجد ماءً ساخنا يصنع به قهوته، فإنه يذيبها بماء بارد، فنشأت فيما بعد بيني وبينه علاقة طيبة بعد توتر واضطراب.

وكان إميغ يمقت نائبه الأميركي واسمه «جيري دنبار» المصاب بالإكزيما الجلدية في كف يده ويقضي وقته يحف الجلد المتشقق في يده بالسكين.

وأخذني إميغ الى المقر الرئيسي المسؤول عن المركز ليعرفني على رئيسه فرانك جارفيز الذي يبدو لناظره إنكليزياً قلباً وقالباً، شكلاً ومضموناً، وهو على نقيض إميغ يسمع أكثر مما يتكلم، لكن تعليماته هي التي يؤخذ بها.

لم تمض أيام حتى عاد حنا الشيخ «أبو جورج» زميلي في الغرفة من إجازته، وهو من بلدة بيت ساحور بالقرب من القدس، ووالده كاهن مثل والدي، فوافق شنٌّ طبقة، كما يقال. وكان أبو جورج يعمل في دائرة أخرى، لكنه رجل طيب ومحترم وخلوق، وكنا نتحدث فترة طويلة قبل النوم، ونغربل كل ليلة رأينا في الناس والأمة والأحداث. وهو متزوج وعنده عائلة تركها في فلسطين وجاء يعمل في الصحراء ليعيلها. وقبل حرب 1967 واحتلال اليهود للقدس والضفة الغربية جاء الى بيروت وزارني وتذكرنا سوياً تلك المرحلة القاسية من حياتنا.

•••

عندما يكون الطقس مقبولاً خارج الغرفة كنت أخرج مع أبو جورج الى الحديقة ونجلس في الجانب المحاذي للصحراء المترامية الأطراف التي تنيرها شعل الغاز المنبعث من آبار البترول كالنار الأبدية، الى ساعة متأخرة من الليل. والصحراء على رهبتها، فيها شيء سحري، فيشعر الناظر اليها وسط ذلك الصمت المهيب بأنها ملتقى السماء والأرض، أو أنها مهبط للوحي، فلا يعود يعجب كيف أن العرب في القديم أتقنوا فن الشعر الملهم، لأن الناظر الى

الصحراء نظرة المتأمل المتفكر، لا يعود يعرف كيف تأتيه الأفكار والتأملات الكونية، لكن الحياة فيها شاقة وعسيرة، تعلم ناسها القسوة والدهاء.

ومرة كنت أجلس وأبو جورج في الحديقة ليلاً على مدخل الصحراء الى غرب المجمع، وكانت النجوم تتلألأ قريبة كأنها زهور في الحديقة، وفيما نحن نتأمل في تلك الثريا البديعة، رأيت أبو جورج حزيناً تكاد تطفر دمعة من عينه شوقاً الى عائلته التي قال لي إنه انسلخ عنها انسلاخاً في إجازته الأخيرة. فقلت له:

«أنظر الى النجوم، وتأمل في قول الشاعر العربي:

الى الطائر النجم انظري كل ليلة   فإني اليه في العشية ناظرُ

عسى يلتقي طرفي وطرفك عنده   فنشكو اليه ما تجنُّ الخواطرُ



VI

مستعمرة أميركية في الصحراء السعودية!

عندما تم قبولي للعمل في شركة «أرامكو»، لم تكن لدي فكرة عمّا سأجد هناك. كانت فكرتي عن الشركة، أي شركة، أنها عبارة عن مكاتب في مبنى، أو عدة مبانٍ، وأنني سوف أجلس الى طاولة مكتب في أحد تلك المباني لأقوم بعمل روتيني. فما خطر ببالي أن أرى ما رأيت: دولة عظمى في شركة، لها أساطيل، وطائرات، ومنشآت صناعية ضخمة بل أسطورية، وقواعد عسكرية، وجيش من الموظفين والعمال يناهز عديده الخمسين ألفاً، وفيها أجهزة كومبيوتر كل منها بحجم غرفة، وتحوي كل ما في أميركا. إنها «ميكروكوزم» عن الولايات المتحدة الدولة المهيمنة على العالم بعد الحرب العالمية الثانية.

على الفور يشعر المرء بأن تلك الدولة العظمى، الولايات المتحدة، بقضها وقضيضها في خدمة تلك الشركة العملاقة.

كانت تلك التجربة المفتِّحة للأعين أول إطلالة حقيقية لي على عالم المصالح الدولية، وعلى طبيعة الصراع الخفي على تلك المصالح، قزّمت نتف المبادىء والتحليلات النظرية التي كنا نستقيها من هنا وهناك في كتب أو محاضرات ومقالات وندوات. هنا في عالم «أرامكو» تقف وجهاً لوجه مع العملاق الأسطوري الذي ينفث ناراً، فتحزن لحال السعوديين، خصوصاً العمال منهم، الذين تشعر أنهم عالقون في شرك لا انفكاك منه.

عند وصولي الى هناك في عام 1956، كان العمال السعوديون خارجين مهزومين من محاولة بائسة لتشكيل نقابة تحصِّل لهم بعض حقوقهم البسيطة، فجرى قمعهم قمعاً لا هوادة فيه من الشركة ومن الحكم السعودي، الممثل آنذاك بابن جلوي، الأمير على «الأحساء»، الذي له في تلك المنطقة الشرقية من المملكة سمعة الجلّاد. والتهمة الشيوعية، في مملكة آل سعود، كما في بقية ما يسمّى «العالم الحر»، تهمة جاهزة يلصقونها على قفا من يشاؤون، كما هي تهمة «الإرهاب» في هذه الأيام. وقتذاك سمعت اسم ناصر السعيد لأول مرة قبل أن التقيته في بيروت مطلع السبعينات من القرن الماضي، عندما زارني في مكتبي في جريدة «الكفاح» في الطابق الثالث فوق مكتب نقابة الصحافة

في مبنى «اللعازارية» يومها، وقبل سنوات من اختطافه واختفائه في بيروت في عملية ما زالت تفاصيلها غامضة الى اليوم.

بعد أشهر من وجودي في «أبقيق» أُبلغنا أن أمير المنطقة بن جلوي سوف يزور مركز التدريب الذي كنت أعمل فيه. فتجمعنا للقائه وراء رئيس المركز المستر إميغ، وكان رجلاً مهيباً له لحية طويلة وكثّة ومتقدماً في السن، ويعتمر كوفية من غير عقال. وتقدمنا للسلام عليه بالمصافحة، أميركيين وعرباً، لكن أحمد خورشيد انحنى وقبّل يد بن جلوي، وهي عادة سعودية ليست مألوفة عندنا في المشرق حيث يجوز فقط أن يقبِّل الرجل يد أبيه أو أمه، أو جدّيه، وفي القديم يد المطران أو الكاهن، وهذه أيضاً بطلت من زمان بعيد. لكن «بوسة» خورشيد على يد بن جلوي تركت أثراً سيئاً بين العاملين في المركز، وخصوصاً بعد القمع الشرس للحركة النقابية السعودية.

والأحساء، أو المنطقة الشرقية من المملكة السعودية، هي منطقة النفط الأساسية في المملكة، ومن مدنها القطيف، والهفوف، والدمّام، والخُبَر، والظهران، حيث كانت توجد قاعدة عسكرية جوية أميركية كبرى تضم قاذفات نووية تطال الاتحاد السوفياتي في مداها. وسكان هذه المنطقة هم في غالبيتهم من الشيعة الجعفرية الإثني عشرية، مثل شيعة لبنان، والعراق، وإيران والخليج... لكن حكم بن جلوي لتلك المنطقة كان شديد التمييز ضد الشيعة، بل كان شيعة الأحساء محتقرين في موطنهم. لكن هؤلاء، أو على الأقل الأشخاص الذين عرفتهم منهم، كانوا مُستنيرين ومتحسسين لوضعهم القلق إزاء السلطة السعودية القمعية آنذاك. وسر استنارة أهل تلك المنطقة أنهم كانوا من أقدم الأزمنة، حتى قبل الإسلام، على احتكاك وتفاعل مع العالم الخارجي، خصوصاً القطيف التي سمّاها الجغرافيون الإغريق Cateus، وكانت دائما، كميناء بحري وفير المياه العذبة، على خط التجارة الدولية بين أوروبا والهند، ولذلك احتلها البرتغاليون لفترة وجيزة في القرن السادس عشر.

ومنذ الدولة السعودية الأولى في نجد كانت الأحساء موضع تجاذب بين السعوديين والعثمانين الى أن حسم الإنكليز الأمر في المفاوضات بين السير بيرسي زكريا كوكس وبين الملك عبد العزيز آل سعود، بضمها الى مملكة آل سعود عند ترسيم الحدود مع الكويت والعراق. وقد اطلّعت على مفاوضات السير بيرسي كوكس والملك عبد العزيز في عام 1963 عندما طلب مني المرحوم الدكتور بشير الداعوق، زوج الكاتبة غادة السمّان وصاحب «دار الطليعة للنشر»، ترجمة كتاب «الكويت وجاراتها»[1] للمقيم البريطاني في

(1) Kuwait and Her Neighbours, London, George Allen and Unwin، 1956

وكان المرحوم بشير الداعوق، صاحب «دار الطليعة»، منتسباً الى حزب البعث في وقت من الأوقات، وقد ترافقنا معاً في أواسط السبعينات في دورة تدريب عسكري أقيمت في مخيم شاتيلا الفلسطيني آنذاك، لكننا كلانا لم نحضر أكثر من يومين فقط وانقطعنا عن التدريب بعد ذلك

الكويت الكولونيل هارولد ديكسون الذي حضر تلك المفاوضات، وقال إن الشاهد الآخرعليها هو الكاتب اللبناني أمين الريحاني المعروف في لبنان بلقب «فيلسوف الفريكة»[2].

ولعل الانطباعات التي أعطاها الكولونيل ديكسون عن شخصية الملك عبد العزيز في ذلك الكتاب هي، في رأيي، أدق وأصدق الصور عن حقيقة مؤسس المملكة السعودية الحديثة، ولا أظن أن السعوديين يستسيغون كل ما قاله عن مؤسس مملكتهم.

كان الكويتيون يسمّون الكولونيل ديكسون «دكسان»، ويسمّون زوجته السيدة فيوليت ديكسون «أم سعود»، وكان ديكسون تعرف عليها في مدينة مارسيليا الفرنسية حيث كانت تعمل في أحد مصارفها. وبعد وفاة زوجها الكولونيل ظلت أم سعود تعيش في الكويت الى أن توفيت وقد تجاوزت التسعين من العمر منذ سنوات قليلة.

ولد الكولونيل هارولد ديكسون في بيروت، وعاش في سوريا حيث كان والده قنصلاً لبريطانيا في دمشق. وعندما انتقلت العائلة الى سوريا والطفل ما زال رضيعاً جف حليب والدته فسلّمه الشيخ مجول المزراب، المتزوج آنذاك من سيدة بريطانية هي اللايدي جاين ديغبي، الى مرضعة من قبيلة «عنزة»، وقد استخدم ديكسون هذه الواقعة أحسن استخدام مع العشائر العربية التي تعاطى معها باعتبار أنه رضع من حليب «عنزة» التي تعد من أرفع القبائل العربية[3].

لقناعتنا بعدم جدوى ذلك.

(2) كان أمين الريحاني بالإضافة الى كتاباته الأدبية الواسعة، من أبرز الناشطين في السياسة العربية والدولية بين الحربين العالميتين، وكان على علاقة جيدة مع مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز آل سعود، فلا عجب أنه كان حاضراً في المحادثات الحدودية التي أشار اليها الكولونيل ديكسون. وكان الريحاني الحامل أيضاً للجنسية الأميركية منذ عام 1902، من أوائل الذين تنبهوا للخطر الصهيوني على العرب، وأقام أول لوبي عربي في الولايات المتحدة لمواجهة اللوبي الصهيوني قبل عقود من إنشاء دولة إسرائيل. وقد قابل الريحاني البابا بناديكتوس الخامس عشر في عام 1917 ليشرح له المخاطر الصهيونية الداعية الى إقامة وطن لليهود في فلسطين، وفي تلك السنة أيضاً قابل الرئيس الأميركي ثيودور روزفلت للغاية ذاتها. وبالإضافة الى دوره الديبلوماسي مع ملوك العرب، لعب أدواراً ديبلوماسية على الصعيد الدولي، حيث مثل العرب في «مؤتمر لا هاي للسلام» في عام 1919، وكان العربي الوحيد الذي حضر مؤتمر خفض التسلح في العاصمة الأميركية واشنطن عام 1921. وكان الريحاني متزوجاً من سيدة أميركية تعتبر في مصاف كبار الفنانين التشكيليين في باريس، حيث كانت ضمن مجموعة ماتيس، بيكاسو، سيزان، دورين، الذين عرضت أعمالها مع أعمالهم في «صالون دو ماي» الباريسي.

(3) الشيخ مجول هو شيخ عشيرة «السبعه» المتفرعة من قبيلة «عنزة» (راجع كتاب «عشائر الشام» لمؤلفه أحمد وصفي زكريا) وقد تزوج من الليدي ديغبي المعروفة بجمالها الباهر عندما جاءت الى دمشق في عام 1853 وهي في السادسة والأربعين من العمر فكانت أكبر منه بعشرين سنة، لكن زواجها منه دام 28 سنة الى حين وفاتها في العاصمة السورية حيث ابتنت بيتاً مهيباً لإقامتها، فكانت حياتها السورية نقيضاً لحياتها ومغامراتها الغرامية الفضائحية وزيجاتها الأربع

وفي تقديري أن كتاب «الكويت وجاراتها»، الذي أصرّ ديكسون على وضع هذا البيت من الشعر العربي على غلافه:

وما قيمةُ الدنيا إذا لم يَكنْ فيها صديقٌ صدوقٌ خالصَ الودِّ مخلصا

هو من أهم المراجع الصادرة عن الفترة الممتدة من الحرب العالمية الأولى الى أربعينات القرن العشرين، وقد قضيت ستة أشهر في ترجمته وأصدرته «دار الطليعة» في جزئين لضخامته.

•••

من الظواهر الملفتة في تاريخ الأحساء القديم والمتوسط والحديث، أن شعبها يميل دائماً الى الأفكار المنشقة عن التيار السائد. فقد كانت القطيف في القرن الرابع الميلادي مركزاً لإحدى المطرانيات المسيحية القليلة التي اعتنقت «النسطورية» المنشقة عن الأرثوذكسية، شأن نساطرة العراق، تماماً كما اعتنقوا المذهب الشيعي الإسلامي شأن شيعة العراق. وحتى في زمن الدولة العباسية والَت القرامطة المنشقين عن بغداد في أواخر القرن التاسع ومطالع القرن العاشر للميلاد، فحكموها بقيادة الجنّاب. والملفت أيضاً أنه في زمن الحركة القرمطية الإسلامية، نشأت في العراق أيضاً حركة «قرمطية مسيحية» ضد الكنيسة البيزنطية هي الحركة «البولسية» مماثلة لها في الأهداف والتوجهات، واحدة ضد العباسيين، والثانية ضد البيزنطيين، وقد كتب عنها إدوارد غيبون ملياً في كتابه «تاريخ انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية».

وفي حفريات جرت في القطيف أخيراً يقال إنه عثر على كنيسة تعود الى القرن الرابع، تم طمسها وإخفاء الصلبان التي عثر عليها، ويقدر أنها أقدم من أي كنيسة أقيمت في أوروبا بما في ذلك كنائس القسطنطينية.

•••

حدث مرة أن كنا في مختبر للمركز نتابع بعض الاختبارات، فوقع أو انفجر وعاء زجاجي تطايرت شظاياه فأصابت واحدة منها طرف عيني اليمنى، فنقلت بسيارة إسعاف الى مستشفى الشركة المركزي في الظهران، حيث أجرى لي الدكتور دياب، وهو طبيب لبناني زائر، جراحة بسيطة لوقف النزف، وكان أن تزاملت مع ابن الدكتور دياب في الجامعة فيما بعد.

من حسن الحظ أن الجرح كان طفيفاً ولم يؤثر على نظري إطلاقاً. وفيما كنت نائماً في المستشفى مضّمد العين، جاء لزيارتي موظف في الشركة من أهل الأحساء كان على قسط كبير من الثقافة، التقيته بحكم عملي في مركز التدريب المهني، نعرفه باسم «السيد عبد الله». ولما وجدني نائماً لم يشأ أن يوقظني، فترك الى جانب السرير كيساً فيه بعض الفاكهة من تفاح وبرتقال وموز. وكانت

في أوروبا، منها واحدة اضطر البرلمان البريطاني أن يفسخها بقانون لتعلقها بأمن الدولة. وفي دمشق كانت على علاقة صداقة قوية مع المجاهد الجزائري الأمير عبد القادر الذي نفاه الفرنسيون الى هناك. وكانت الليدي جاين تتقن ثماني لغات من بينها اللغة العربية.

القلاقل العمالية قد تجددت أثناء وجودي في مستشفى الظهران، ولما عدت الى أبقيق بعد أيام قليلة، حاولت الاتصال به لشكره على زيارته وهديته فلم أعثر له على أثر، لكنني علمت فيما بعد أنه تم اعتقاله ولم يعد أحد يعرف عنه شيئاً. ثم قيل لي إن السيد عبد الله كان بين الناشطين العماليين الذين اعتقلوا وجرى إلقاؤهم أحياء من الطائرات فوق صحراء الربع الخالي، والله أعلم.

وكانت تلك مرحلة حرجة، لأنني شاهدت بأم العين مدى حماسة العمال السعوديين لخطوة الرئيس جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس، وكأنهم يحلمون بتأميم مماثل للشركة الأميركية. ولست أظن أن أحداً من العمال السعوديين لم يستمع الى خطاب عبد الناصر يوم 26 تموز/يوليو من عام 1956 بمناسبة الذكرى الرابعة للثورة المصرية، ورداً على سحب العرض البريطاني ـ الأميركي بتمويل مشروع السد العالي في أسوان بسبب اعتراف مصر آنذاك بجمهورية الصين الشعبية. وفهمت يومها أسباب تخوف إدارة «أرامكو» والسلطات السعودية من تلك التطورات.

وتحوّلت حماسة العمال السعوديين الى ما يشبه الهستيريا عندما شن الفرنسيون والبريطانيون بالتواطؤ مع إسرائيل العدوان الثلاثي على مصر في أواخر شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام 1956، وراحوا يتبرعون برواتبهم كاملة لنصرة مصر.

كان العمال السعوديون العاملون في الصحراء تحت حرارة تقارب الخمسين درجة مئوية، يأتون الى المركز المبرّد والمكيّف أحسن تكييف، فيسترخي بعضهم، ومنهم من يغطّ في النوم، إلاّ في تلك المرحلة حيث كانوا يبدون لي متوثبين لأمر ما. ففي اليوم التالي لخطاب التأميم سألني أحدهم عن الموضوع من خارج البرنامج، لكنني لم أحاول التملّص، فأرسلت السائل الى أمين المكتبة ليحضر لي خريطة للمنطقة، حيث كانت هناك مجموعات من الخرائط المتقنة التي يمكن فلشها على الحائط أو اللوح الأخضر. ففلشت الخريطة على اللوح ورحت أشرح للعمال الموجودين تاريخ قناة السويس، وكيف تم ذلك المشروع على يد الفرنسي «فرديناند دو ليسيبس»، «بل بأيدي عمال مصريين مثلكم»، ولأي غاية، وكيف أدى ذلك الى الاحتلال البريطاني لمصر، وما الى ذلك. ويبدو أن أمين المكتبة أبلغ مدير المركز المستر إميغ، فجاء وفتح الباب من غير أن يقرع أو يستأذن، كما جرت العادة، وقال لي وهو يرتجف بعدما شاهد الخريطة على اللوح: «أريد أن أراك في مكتبي بعد انتهاء الحصة».

وكنت أعرف طبعه، وأقمت معه علاقة عمل جيدة قصدت منها «كسر سمِّه»، وذلك بتبرعي تغطية الشواغر، أو العمل بعد انتهاء الدوام، أو ممازحته بشكل لطيف ومهذب، أو بدعوته الى العشاء عندما أصنع التبولة اللبنانية لأنه يحبها. لكنني رأيت عندما دخل الى القاعة بالشكل المشار اليه، أن الشرر يتطاير

من عينيه، والزبد يرغي على شفتية، فأيقنت أن في الأمر مشكلة عويصة من الصعب معالجتها. وبعد نهاية الحصة توجهت الى مكتبه، فبادرني بالصراخ قائلاً:

«لم أكن أعرف أنك معاد».

فقررت عندئذ أن «أسوقها حمصية» كما يقال، فسألته:

«معاد لمن؟ لك يا مستر إميغ؟ على العكس أنا أحبك وأحترمك. فكيف تقول عني إني معاد لك؟».

عندما شعر بحرارة جوابي لانت لهجته، فقال:

«لسنا هنا لنعلِّم هؤلاء، (وكاد أن يقول «هؤلاء البهائم»، لكنه تراجع قبل أن ينطق بها عندما رأى تغيّر ملامح وجهي) مثل هذه الأشياء».

فقلت له:

«أنا معك يا مستر إميغ في ذلك. لكن ما العمل إذا كان أحدهم سألني سؤالاً أمام جميع زملائه، فإذا تمنعت عن الجواب اعتبروني جاهلاً أو متهرباً فأفقد مكانتي المعنوية في نظرهم، وإذا أعطيتهم جواباً مزوّراً أكون قد فقدت احترامي لنفسي، وهذا ما لن أفعله مهما كانت النتائج».

ولما رأى أنني صرت محتداً وأدافع عن نفسي بهذا الشكل، راح يطيب خاطري، لكن من غير أن يعتذر عن دخوله الى القاعة من غير استئذان، ولفت نظره الى ذلك بعد أن هدأ وراق، وشربنا القهوة سوِّياً. ولم يعد الى مداهمتي في القاعة بعد ذلك.

•••

على أن التمييز السعودي ضد الشيعة في الأحساء يهون عند التمييز الأميركي ضد بقية البشر. فشركة «أرامكو» لم تكن توظف أي أميركي يهودي باتفاق مع الحكومة السعودية، خلافاً للقوانين الأميركية ضد التمييز، وبتطنيش متعمد من الحكومة الأميركية التي تقود العالم الحر وتغزو الدول والأوطان باسم حقوق الإنسان والديموقراطية وحكم القانون. ومن ثم أقامت جداراً عنصرياً فاصلاً بين فئات الموظفين قبل جدار شارون في فلسطين المحتلة بنصف قرن.

كان الموظفون الأميركيون صغاراً وكباراً يعيشون في مدينة مسيّجة ممنوع فيها الاختلاط مع الآخرين أو دخول أحد من الكامبات الأخرى إلاّ بمرافقة أحد الأميركيين الذي يجب أن يسجل اسمه واسم ضيفه عند أي مركز أمن من المراكز الأمنية المحيطة بالمداخل والمخارج. وهم يسمون ذلك المكان American City، أو «المدينة الأميركية»، التي تشكل مستعمرة أميركية لا علاقة لها بمكان وجودها، فكأنك في مدينة دالاس بولاية تكساس، وفيها كل شيء مباح لساكنيها. فيها المسابح المختلطة للرجال والنساء، ونوادي التسلية، والفرق الموسيقية، ودور السينما التي تعمل ليل نهار من دون توقف، وبين

حين وآخر كانت إدارة الشركة وعلى حسابها الخاص تدعو الى هناك محاضرين من العالم الأنغلو ـ سكسوني، ومغنِّين مشهورين في الغرب آنـذاك، ومنهم ماريا كالاس مغنية الأوبرا العالمية المعروفة، وكانوا يشترون إنتاج هوليوود السينمائي كله قبل نزوله الى الأسواق في بقية العالم لأنهم كانوا يعرضون فيلماً جديداً كل يوم. هذا بالإضافة الى أن أقل راتب لأي أميركي يعادل على الأقل عشرة أضعاف أكبر راتب سعودي، أو خمسة أضعاف أي موظف آخر غير أميركي من أمثالنا، بالإضافة الى منافع أخرى لا تُعدُّ ولا تُحصى.

فكانت المدينة الأميركية في أبقيق أشبه بجنّة مصغّرة لا يعكِّر صفوها معكِّر وأعين المراكز الأمنية مفتوحة عند بواباتها في الليل وفي النهار. والأميركي، أياً كانت وظيفته يُعتبر من كبار القوم ويسمونه Senior Staff أما نحن غير الأميركيين وغير السعوديين، فيسموننا Intermediate Staff، أي الموظفون المتوسطون أو الوسطيون، وهم أيضاً مميزون عن السعوديين وبقية الشعوب الآسيوية، لأنه كانت لديهم نوادي ومسابح ودار للسينما تعرض الأفلام ذاتها لكن في الهواء الطلق، ويُمنع على السعوديين دخولها منعاً باتاً، ومن يدعو سعودياً اليها يصبح موضع شك ومراقبة من قبل المراكز الأمنية. فالسعوديون على كل حال كانوا ممنوعين من دخول الكامب الأوسط، كما كانوا ممنوعين من دخول المدينة الأميركية.

أما العمال السعوديون وبقية الأقوام الآسيوية فكانوا يسمونهم هناك

General Staff، أو الموظفون العموميون، وليس لهم كامب خاص بهم، بل كان عليهم أن يتدبروا سكناهم بأنفسهم خارج الأسـوار وبعيداً عن المراكز الأمنية الساهرة. وهناك حدِّث ولا حرج عن الأحوال الصحية والأحوال العامة للعموميين.

وكان يقطن في المدينة الأميركية نفر قليل من اللبنانيين والفلسطينيين من حملة الجنسية الأميركية، وبعض المحظوظين من السعوديين، الذين كنت أتردد عليهم في مدينتهم المغلقة بدعوة منهم، ومن بينهم الدكتور ميشال أبو عسلي وزوجته اليونانية، وهو من بلدة عيثا الفخار البقاعية في قضاء راشيا، وكان طبيباً في المستشفى، وتشارلي فارس وزوجته الإيرلندية آلي، وهو من جب جنين أصلاً لكنه لا يتكلم العربية خلافاً للدكتور أبو عسلي الذي يتقنها قراءة وكتابة. فالأطباء والمهندسون من غير الأميركيين كانوا يُعتبرون من كبار الموظفين المسموح لهم بالسكن في المدينة الأميركية. وكان من أصدقائي بين هؤلاء الأخوان حيدر ومحمد علي أحمد من النبطية، وعلمت فيما بعد أن حيدر توفي مبكراً، لكنني التقيت محمد علي أحمد في بيروت مرة وكانت لنا جلسة وحديث في مقهى «ديبلومات» على الروشة قرب منزلي، وعلمت منه أنه ترك أرامكو وأقام مستشفى خصوصياً في المملكة السعودية يضم 200 سرير.

ومنهم أيضاً الفلسطينيان شوقي مسلّم وإميل حبيبي (هو غير إميل حبيبي الكاتب الشيوعي الذي بقي في حيفا بعد اغتصابها من الإسرائيليين)، وهو مهندس كيميائي زوجته قريبتي، هي هيام ابنة خال والدتي يوسف سلوم.

وكان نظام «الأبارتيد»، أو الفصل العنصري، بين الأميركيين الأعلين، وبين العرب الأوسطين، وبين السعوديين الأدنين، صارماً ومطبقاً بحزم أكثر من نظام الأبارتيد في جنوب إفريقيا في أسوأ مراحله، باستثناء العنف الجسدي، وهو ما يشكل صورة سوريالية عن «الكوميديا الإلهية» لدانتي حيث الجحيم في أسفل السافلين، والمطهر في الوسط، والفردوس في أعلى الأعالي.

ولم يكن التمييز العنصري يقتصر على الفصل بين الأعراق، بل كان هناك نوع من التمييز الديني، حيث كان لزاماً على كل مسيحي يعمل في الشركة، مثلي، أن يعلّق على حزام خصره، أو في مكان بارز، شارة يسمونها Badge، وهي شارة مستديرة عليها صورة الشخص واسمه وحرف C مكبّراً للدلالة على أنه «كريتياني» أو «كريستياني»، بحجة الحماية من «المطاوعة» أو الشرطة الدينية المعروفة باسم «هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» الذين كانوا يطوفون في السوق خارج الأسوار لدعوة الناس الى الصلاة في مواعيدها، في حال تواجد أحدهم في السوق في تلك الأوقات. فإذا وجدوا على شارته ذلك الحرف اعتبروه «كافراً» وأشاحوا عنه، ومنهم من كان يبصق على الأرض ويتمتم بكلمة «خسا» كنوع من اللعنة. وهذا يذكرنا بقصيدة «الخمّار اليهودي» لأبي نواس عندما كان يُفرض على غير المسلمين في بغداد الرشيد أن يلبسوا زنّاراً أصفر، فلبس زنّاراً لكي يسمح له السموأل اليهودي بدخول خمّارته، وقال عند دخوله الخمّارة:

فلمّا حكى الزنّار أن ليس مسلماً / ظننا به خيراً فظنّ بنا شرّا

أما في إمارة سعود بن جلوي فكان «البادج» على الزنّار هو الذي يحكي.

والذين يشربون الخمر في إمارة بن جلوي كانوا يُجلدون جلداً مبرحاً في ساحة السوق أمام الملأ إذا حُكموا بذلك. وقد حضرت حفلة جلد لاثنين من البدو اتهما بصنع الخمر في السر. ولم أكن يومها أعلم بذلك، لكن صديقاً مصرياً هو المهندس مصطفى تيمور من أهل الإسكندرية، وكان يعمل في مشروع لمد الكهرباء في مدينة الهفوف التي زرته فيها مرة بناءً على إلحاحه فوجدت حالتها بائسة، ضمن فريق تابع لشركة مقاولات مصرية خاصة، أظن أنها شركة «المقاولون العرب» لصاحبها المهندس عثمان أحمد عثمان، لكنني غير متأكد من ذلك، جاء يوماً على حين غفلة يطرق بابي ويدعوني الى الإسراع للذهاب معه الى سوق أبقيق الصغير خارج أسوار المجمع الأوسط، حيث سنشاهد حفلة جلد. وذهبنا الى هناك، فوجدنا تجمعاً كبيراً من الموظفين والعمال، يتفرجون على اثنين من البدو مبطوحين على الأرض، ويقف الى

جانبهما شرطي سعودي يتلو الحكم بجلد كل منهما ثمانين جلدة على ظهره. وبعدما فرغ من تلاوة الحكم المتضمن للتهمة والأدلة الشرعية، ركع شرطي على كتفي كل منهما فيما انهال شرطيان بالضرب عليهما بقضيب طري من سعف النخل الى أن انتهى العد، فنهض واحد منهما لوحده بعد تنفيذ الحكم، أما الثاني فقد عجز عن الوقوف واقتضى الأمر مساعدته من قبل الشرطة، واقتيدا بعد ذلك الى السجن.

لكن قانون بن جلوي هذا لا ينطبق على الأميركيين في مدينتهم المقفلة والمحصّنة، حيث كان صنع الخمر على أشده. فقد دعاني زميل أميركي في المركز الى بيته داخل المدينة الأميركية وسقاني كأساً من النبيذ الأحمر صنعه بنفسه بتخمير عصير العنب الأسود في البيت، ويبدو أنه كان يتقن تلك العملية. وعندما دعيت مرة الى حضور حفلة غنائية في النادي الأميركي، كان معظم الحاضرين يشربون نوعاً من البيرة يسمونها «بيرة الزنجبيل» أو بالإنكليزية Ginger Beer، وهو في الأصل شراب غير كحولي لكن الأميركيين بطرقهم الخاصة كانوا «يكوحلونه».

ولم يكن بين الأميركيين العاملين في أبقيق على الأقل أي أميركي أسود اللون من أصول إفريقية. كلهم بيضٌ شقرٌ زرقُ العيون، رجالاً ونساءً وأطفالاً. لكنني شاهدت بعض الجنود الأميركيين السود في قاعدة الظهران العسكرية الجوية عندما دعاني الى العشاء فيها تشارلي فارس وزوجته آلي اللذان كانا مدعوين من قبل ضابط صديق لهما في القاعدة. وهناك أيضاً عالم آخر معزول ومقفل تماماً تحيط به أجهزة أمنية متطورة من كل جانب. فكان بعض الجنود السود يخدمون الموائد على أنغام موسيقى الجاز. وكان الضباط في مصاف الآلهة والجنود في مصاف العبيد، وكل ذلك في قاعدة تابعة الى أكبر دولة ديموقراطية في العالم. وكانت تلك القاعدة موضوعاً متوتراً بين السعوديين والأميركيين أثناء وجودي في المنطقة الشرقية، خصوصاً عندما اقترب موعد تجديد المعاهدة المتعلقة بتلك القاعدة في عام 1957، واقترب معها موعد زيارة الملك سعود بن عبد العزيز الى أميركا للقاء الرئيس دوايت أيزنهاور في أواخر تلك السنة.

•••

كنت في مدينة الخُبَر حيث توجد متاجر مهمة، منها متجر اسمه «شرق وغرب»، يوم جاء الملك سعود بن عبد العزيز الى مدينة الدمّام عاصمة المنطقة الشرقية منذ الأربعينات من القرن الماضي، حيث كانت العاصمة سابقاً في مدينة القطيف. وقد حضر الملك سعود الى هناك لعقد مؤتمر عربي مع الرئيس جمال عبد الناصر، والرئيس السوري شكري القوتلي، وانضم اليهم ملك العراق فيصل الثاني، فصار المؤتمر رباعياً ويضم أهم الدول العربية القليلة المستقلة

آنذاك. وسمعت في الخُبَر أن مواطنين سعوديين من المنطقة الشرقية رشقوا موكب الملك سعود بالحجارة، احتجاجاً على اعتقال وقمع العمال السعوديين في «أرامكو».

وعلى الرغم من شعبية عبد الناصر الكاسحة في ذلك الوقت، وظهور بوادر أولية عن مشروع الوحدة السورية ـ المصرية، فإن أهل المنطقة الشرقية الذين تحدثت معهم حول الموضوع لم يكونوا مرتاحين لمؤتمر الدمّام الذي قال بعضهم إن الملك سعود يستغله للاستمرار في قمع شعبه من غير مساءلة. يعطي الدول العربية الفاعلة موقفاً مسايراً في الشؤون الخارجية، مقابل إطلاق يده في الأمور الداخلية، وهذا الأنموذج من الترتيبات الإقليمية خبرناه تالياً في لبنان بعد لقاء الخيمة على الحدود السورية ـ اللبنانية بين عبد الناصر والرئيس فؤاد شهاب.

لكني في موضوع الملك سعود أختلف عن هذا الرأي الذي سمعته في الأحساء. طبعاً لا أنكر السياسات القمعية الشديدة المتبعة ضد العمال في منطقة عمل «أرامكو»، لكن ذلك في تقديري لم يكن بهذا الشكل في المناطق الأخرى من المملكة السعودية، حيث كان يسود نوع من الانفراج وشيء من الحريات ملفت. وهناك ثلاثة أسباب جوهرية للتشدد الاستثنائي في المنطقة الشرقية:

السبب الأول، كون المنطقة شيعية ووجهها الى العتبات المقدسة في العراق، مما يثير مخاوف لدى المسؤولين من إمكانية وجود حركات سياسية متطرفة، أو حتى انفصالية، لأن تلك المنطقة لها وضع إقليمي خاص تاريخياً منذ أيام الإمبراطور الروماني تراجان في مطلع القرن الثاني للميلاد، إذ زارها بشخصه وجعلها حدوده مع الفرس في الخليج، الذي لم يكن الى أمد منظور لا خليجاً عربياً ولا خليجاً فارسياً، بل كان اسمه الرسمي في الخرائط الأوروبية «خليج القطيف».

السبب الثاني، ضيق أفق أمير المنطقة سعود بن جلوي، الذي كان له وضع خاص في المملكة السعودية، باعتباره حليفاً وشريكاً لآل سعود وليس تابعاً لهم بمعنى أنه موظف عندهم. وقد غيّر الملك فهد هذه العلاقة مع عائلة بن جلوي بعد تسلمه العرش في مطلع ثمانينات القرن العشرين على أثر وفاة الملك خالد بن عبد العزيز يوم الاجتياح الإسرائيلي للبنان في عام 1982، بتعيين نجله الأمير محمد بن فهد أميراً على المنطقة الشرقية.

السبب الثالث، كون المنطقة الشرقية المصدر الأول للنفط بالنسبة الى السعوديين وبالنسبة الى الأميركيين، وكلاهما لا يستطيع أن يدع الأمور تفلت من عقالها، لأن ذلك من شأنه تهديد المصالح الاستراتيجية الحيوية للولايات المتحدة وحلفائها الغربيين.

ولذلك، فإن قراءة أو تقويم حكم الملك سعود من منظور الوضع الذي كان سائداً في المنطقة الشرقية، هي في رأيي قراءة خاطئة ومضللة.

فالملك سعود هو الذي عيّن الشيخ عبد الله الطريقي وزيراً للبترول والثروة المعدنية، وهو من القوميين العرب المشهود لهم بالجرأة والنزاهة، وهو الذي أسهم بشكل خاص في تأسيس منظمة «أوبيك»، وأطلق شعار «نفط العرب للعرب» في مؤتمر البترول العربي الأول في القاهرة عام 1960.

والملك سعود في زيارته المشهورة الى الولايات المتحدة، رفض تجديد معاهدة قاعدة الظهران العسكرية الجوية، وعند زيارته الى نيويورك نظمت ضده تظاهرات صاخبة ووقحة، حيث جرت تظاهرة نسائية ألبست فيها النساء البراقع السود من فوق الى تحت وسرن أمام مبنى الأمم المتحدة مقيدات بالسلاسل، وتطاولت عليه الصحافة ووسائل الإعلام، والأهم من ذلك أن رئيس بلدية مدينة نيويورك روبرت واغنر الإبن، الذي ظل في رئاسة البلدية ثلاث دورات متتالية من 1954 الى 1965، رفض المشاركة في استقبال العاهل السعودي خلافاً لمقتضيات البروتوكول، فيما يشبه الى حد ما رفض رئيس البلدية رودي جولياني تبرعاً من الوليد بن طلال بمبلغ عشرة ملايين دولار لضحايا التفجيرات الإرهابية في نيويورك في 11 أيلول/سبتمبر 2001. وعندما وصلت الصحف الأميركية الى مكتبة «أرامكو» في ذلك الوقت رأيت في مجلة «نيو يوركر» رسماً كاريكاتورياً يعلّق على رفض واغنر استقبال الملك سعود، يصور اثنين من البدو جالسين على الأرض يستظلان الى جانب سيارة «كاديلاك» ضخمة، ويقول أحدهما للآخر:

Who the hell is Wagner, and where the hell is New York, anyway?

وكانت الصحافة السعودية في أيام الملك سعود تتمتع بقدر من الحرية أكبر مما تمتعت به بعده، أو تتمتع به الآن. وكانت الصحف اللبنانية والمصرية على اختلاف اتجاهاتها توزع في المملكة في عهده من دون رقابة تقريباً إلاّ في بعض الحالات الخاصة.

أما في السياسة الخارجية التي انتهجها، وعلى الرغم من أن شقيقه فيصل الذي حل محله بعد خلعه كان وزيراً للخارجية، فكانت مواقفه مناقضة لتوجهات فيصل بعده، سواء في العلاقات العربية أو في العلاقات مع دول عدم الانحياز، حيث رعا سعود علاقات مميزة مع الهند، واستقبل بنفسه الزعيم الهندي جواهر لال نهرو في مطار الظهران وهو في طريقه الى بلده استقبالاً ملفتاً، بينما اعتمد فيصل العلاقة مع باكستان في إطار الحلف الإسلامي الذي أقامه لمواجهة المد الناصري في المنطقة.

وأما الفساد الذي رمي به تبريراً لخلعه فلا يقاس بشيء أمام الفساد العظيم الذي ساد في المراحل التالية والمستمرة الى اليوم.

أقول ذلك معتمداً على ملاحظاتي أثناء وجودي في المنطقة الشرقية آنذاك، مختلفاً في الـرأي عن بعض أصدقائي الشيعة من أهـل الأحـسـاء، بسبب التوترات الخاصة بتلك المنطقة، ومعتمداً أيضاً على ملاحظاتي اللاحقة أثناء عملي الصحافي في بيروت، ومن خلال معرفتي الشخصية بالشيخ عبد الله الطريقي الذي كان مقيماً في العاصمة اللبنانية ويصدر مجلة نفطية مع الخبير النفطي نقولا سركيس، وكنت يومها أسهم في تحرير نشرة نفطية كان يصدرها في بيروت أيضاً الصحافي السعودي عبد العزيز مومنة، وهو من عائلة مكّية معروفة، كما شاركت في تحرير نشرة «عالم النفط» التي كان يصدرها الصديق العزيز مكرم عطية، رحمه الله، وكان موظفاً في «أرامكو» أثناء وجودي هناك لكن في الظهران. وبعد مغادرتي «عالم النفط» تسلمها زميل الدراسة رجا صيداوي، الذي آلت اليه كلياً فيما بعد، فاختار الزميل سمير عطا الله رئيساً لتحريرها.

وذات يوم قرر بعض الزملاء زيارة الشيخ عبد الله الطريقي في بيته في ضاحية من ضواحي بيروت الشرقية، حيث كان يقتني مجموعة كبيرة من الطيور والعصافير الجميلة في أقفاص واسعة. وكان في عدادنا آنذاك الزميلان ميشال أبو جودة وابراهيم سلامة. وكان ابراهيم سلامة مرتدياً جاكيت جديدة اشتراها حديثاً، وعند دخولنا الى باحة المنزل هجم كلب الشيخ عبد الله عليه وأنشب أنيابه في طرف تلك الجاكيت من الخلف، فصرنا نمازح ابراهيم بالقول:

«كيف عرف كلب الشيخ عبد الله أنك متنكر بتلك الجاكيت الجديدة؟».

ذلك أن ابراهيم سلامة كان قد أصدر أول وآخر ديوان شعر له بعنوان «جنازة كلب»!

وخلافاً للشيخ عبد الله الطريقي الذي كان يعتني بالطيور والعصافير ويهتم بها ويدللها، كان زميلنا في «أرامكو» المحامي كمال نصر يصطادها ويأكلها. وذات يوم تم نقل كمال نصر من مركز التدريب الصناعي في أبقيق الى محطة لضخ النفط في عمق الصحراء في مكان اسمه «شدقم»، فكان يعيش هناك وحيداً في وحدة الرهبان بعد انتهاء دوام العمل مع عمال المحطة. ولكي يتسلّى نصب «دبقاً» في حديقة المسكن حيث تأتي الطيور لتأكل وتشرب، فيصطادها. ومرة قرر بعض الزملاء وكنت واحداً منهم أن نفاجىء كمال نصر في شدقم فاستأجرنا سيارة وذهبنا الى هناك في رحلة صحراوية استغرقت أكثر من ساعة ونصف الساعة. وقد وصلنا الى هناك قبل وقت الغداء بقليل، فقال إنه سوف يغدِّينا أكلة فريدة من نوعها، فصرنا نتحزر: واحد يقول «كبة»، وآخر يقول «هريسة»، وثالث يقول محشي ملفوف، وهكذا، الى أن قام الى الثلاّجة وفتحها وإذا بجاط من العصافير المنتوفة والمنظفة تنتظرنا، فشويناها لتزقزق في أمعائنا. ومع الأسف أن هذه أكلة دارجة في المطاعم اللبنانية وفي أي

«سوبرماركت» في بيروت، لكن عندما عشنا في لندن أقلعنا عن هذه العادة، مع أنني أجد أحياناً عند بعض الجزارين الإنكليز علباً تضم طيور «الفرّي» التي أظن إنهم يربونها في المزارع لهذه الغاية. وفي مواسم الصيد المسموحة قانونياً توجد في الأسواق البريطانية أنواع عديدة من الطيور كالحجل، ودجاج الأرض، والطيهوج، وغيرها.

وفي البقاع كنت أخرج مع كمال نصر في الشتاء أثناء تساقط الثلوج لصيد طيور مهاجرة نسميها «الطيبط» تشبه الحمام، وذلك وسط الثلوج في المرتفعات بين بلدتي ينطا وعيثا الفخار في قضاء راشيا. وطير الطيبط هذا من الصعب بل من المستحيل صيده إلاّ من داخل السيارة، حيث يمد كل صيّاد جفته من نافذة السيّارة ليطلق النار على الطيور المتجمعة على الأرض أو الطائرة في الهواء على ارتفاع منخفض. أما إذا نزل الصيّاد من السيارة فلا يعود يعثر لها على أثر. وفي إحدى رحلات الصيد اصطدنا، كمال نصر وأنا، 72 طيراً قمنا بتوزيعها لأن أهل البيت يكرهون عملية نتفها وتنظيفها.

وعندما جاء كمال نصر الى لندن مرة حاولنا تنظيم رحلة صيد الى اسكتلندا في الموسم، لكننا وجدنا أنها سوف تكون مكلفة فوق طاقتنا فعدلنا.

وعندما ترك كمال نصر «أرامكو» عاد الى لبنان ودرس الحقوق وصار محامياً، لكنه ما لبث أن عاد الى المملكة السعودية كمستشار قانوني، وقام بعمل مهم جداً وهو أنه ترجم القوانين التجارية السعودية الى الإنكليزية، فلقيت رواجاً لدى الشركات الأجنبية المتزاحمة في السبعينات والثمانينات على الفوز بالعقود في المملكة. وقصدته مرة لزيارته في منزله في شتورا فلم أجده، لكنني علمت أنه يسكن في شارع الحمرا في بيروت حيث له مكتب في مبنى «ستراند».

ولم تكن رحلتنا الى شدقم الرحلة الصحراوية الوحيدة التي قمت بها خارج أبقيق والخُبَر والظهران. فقد دعاني مرة صديق من أهل الأحساء الى غداء في بساتين النخيل في الدمّام، وفيما نحن نسير في البساتين، كنا نرى قناني العطر الزرقاء المعروفة باسم «سوار دو باري» فارغة وملقاة على الأرض هنا وهناك، فأبلغني مضيفي أن بعض الشبان يشربون تلك العطور، لعدم توفر الكحول، وهذا يشكل خطراً على صحتهم، ومع ذلك يُقبلون عليها.

لكن أمتع الرحلات التي قمت بها هناك كانت مع بعض الزملاء الأميركيين الذين استهدوا على مكان جميل على البحر بين أبقيق والظهران، يبدو أنه غير مقصود، وأطلقوا عليه اسم Half Moon Bay، أي بالعربية «خليج نصف القمر»، وهو بالفعل بشكل نصف دائري ورمله ناعم ونظيف يميل لونه الى البياض، أي أفتح من لون الرمال الصفراء في بطن الصحراء. وكنا أحياناً نخيِّم هناك. وفي تلك الرحلات الى ذلك الخليج خبرت لأول مرة ما هي حركة المد والجزر التي كنا نتعلم عنها في المدارس الابتدائية من غير أن نراها. ففي الرحلة الأولى

الى هناك، استغرقت في النوم قليلاً بعد الغداء على شاطىء البحر تماماً. وعندما أفقت من النوم لم أجد بحراً في المكان بل صحراء من الرمل الأبيض على مدى النظر. وخفت للحظة أن نكون قد تُهنا، لكنني وجدت الزملاء هناك كعادتهم، فأيقنت أن البحر غاب في رحلة الجزر وسوف يعود في بضع ساعات الى حيث كان.

وهكذا الحياة أيضاً، مد وجزر. أو كما قال الشاعر أحمد الصافي النجفي مخاطباً البحر:

«فإنني مثلك يا بحرُ... بحرُ»

VII

عَودٌ على بدء

كنت أرسل الى أهلي في لبنان نصف راتبي، وهو مبلغ محترم في ذلك الوقت، فغيّرت الوالدة فرش البيت، متخلِّصة من المدّات والدواشك والفرش، واشترت بدلاً منها كنبات وثيرة، وبدلاً من البساط سجادة، وبدلاً من فُرش اليوك تخوتاً، واشترت راديو، ولوازم عصرية أخرى،ُتجارِي الجاري في ذلك الوقت.

في العام الدراسي التالي استأجرت بيتاً في زحلة وانتقلت اليه مع أخوتي وأدخلتهم المدرسة هناك، وكانت تدفع أقساطهم من المبالغ التي كنت أرسلها. فقد كانت، رحمها الله، تؤمن بالعلم كسبيل للتقدم والخروج من دوّامة التخلّف والجهل، وهي أيضاً كانت تقرأ وتكتب خلافاً لكثيرات من جيلها. وفي حين كان كثيرون من الفلاّحين وأهل الريف يسعون الى تعليم أولادهم طمعاً بوظيفة أو لغايات ومنافع مادية فقط، كانت والدتي ترى أن المنافع المادية للعلم هي من قبيل تحصيل الحاصل، لكن غاية العلم هي أن تجعل طالبه إنساناً أفضل بأفق أرحب وعقل أرجح، وأن السعي اليه بأهمية الحصول عليه.

أما النصف الآخر من الراتب فكنت أدخره من أجل العودة الى الجامعة لأنني كنت مصمماً على ذلك. والفارق هذه المرة أنني غيّرت فكري من دراسة العلوم الى دراسة الاقتصاد، لشعوري خلال العمل في «أرامكو» أن علم الاقتصاد هو مفتاح فهم ما يجري في العالم من خلال الصراع الدولي على المصالح. وكنت مدركاً خلال الفترة الأولى القصيرة التي قضيتها في الدراسة الجامعية قبل الطرد، (كما مرّ)، أن الجامعة لا تعلِّم الطالب، بل ترشده الى كيف يتعلّم بنفسه. ولذلك كنت في «أرامكو» أحد القلائل جداً المداومين على المكتبة، وفي المرحلة التالية بعد العودة أدركت أن الجامعة تتطلب من الدارس فيها أن يكون كاتباً من خلال الأوراق المطلوب إعدادها في مواضيع مختلفة.

طبعاً ليس كل الطلبة الجامعيين يصبحون كتّاباً محترفين، لأن للاحتراف شروطاً أخرى، وإن كانت الدراسة الجامعية من أهمها. ومن غرائب الأمور أنني تعلمت أصول الكتابة في درس للاقتصاد على يد أستاذ أميركي يدعى «البروفسور باتينغل»، وهو خبير اقتصادي مرموق كان خلال الحرب العالمية

الثانية عضواً في المجلس الأعلى للأسعار في الولايات المتحدة، وهو وكالة فدرالية عرفت باسم «مكتب إدارة الأسعار» Office of Price Administration OPA، برئاسة المفكر الاقتصادي الأميركي الكندي المشهور جون كينيث غالبريث، صاحب الكتاب الكلاسيكي «الرأسمالية الأميركية»، الذي أطلق عليه الإعلام الأميركي في حينه لقب «قيصر الأسعار»، لأن مهمات وكالته في زمن الحرب شملت تقنين المواد الضرورية وتحديد أسعار السلع غير الزراعية في الأسواق.

وكان باتينغل يدرسنا ما نسميه Micro Economics، أي الاقتصاد المتعلق بمؤسسات الإنتاج الخاصة، المحكومة بالعرض والطلب. وبعد انقضاء الأسبوع الأول طلب منا أن نكتب ورقة صغيرة عن هذا الموضوع ففعلنا، لكنه في الدرس التالي قال لنا إنه سيلقي هذه الأوراق كلها في سلة المهملات لأنها ليست في المستوى المطلوب، وسيباشر تدريبنا على أصول الكتابة ذات المعنى لتحفيز الوعي والانتباه الى ما أسماه Semantics[1]، أو دراسة المعاني التي تعبر تماماً عن القصد، وربما هو الشيء الذي يُطلق عليه بعضهم اليوم اسم «الألسنية». وأصر باتينغل على دقة المعاني شفاهاً وكتابةً، بحيث كنا «نتسرسب» فعلاً و«نترزّى بالهم»، كما يقولون، كلما توجّب علينا أن نتحدث عن شيء أو نكتب ورقة عن أي موضوع. لكن البروفسور باتينغل ظل مصراً على طي صفحة درس الاقتصاد ومواصلة التدرب على إعطاء المعاني الصحيحة للكلام الى أن اقتنع بعد أكثر من شهر بأن طلاّبه صاروا يقدِّمون تعابير مرضية ومفيدة. والآن بعد خمسين عاماً ونيِّف أشعر بفضله، وأقدِّر تأثيره عليّ من حيث تقديم المعاني المتضمنة في المفردات والجمل المفيدة على صف الكلام الإنشائي ولو كان بليغاً. وفوق ذلك لا أحد كان يتوقع أن يأتينا هذا الذي كان من المفترض أن ندرسه في علم اللغات من أستاذ في الاقتصاد له باع طويل في مضماره.

هذا في «المايكرو». أما في «الماكرو»، أي في السياسات العامة للدولة، من مالية ونقدية، فقد تعلمت كثيراً من الدكتور ألبرت بدر الذي كان يدرِّسنا نظريات المفكر الاقتصادي البريطاني جون مينارد كينز في كتابه الكلاسيكي المعروف بعنوان«النظرية العامة للعمالة والفائدة والمال» الصادر عام 1936
The General Theory Of Employment, Interest And Money

---

(1) قرأت في الصحف البريطانية أخيراً أن الشركات الكبرى في بريطانيا لاحظت أن موظفيها من الجامعيين الجدد يكتبون تقاريرهم بلغة ركيكة وغير مفهومة في معظم الأحيان، فقررت إخضاعهم جميعاً لدورات تدريبية كالتي فرضها علينا البروفسور باتينغل قبل ستة عقود في الجامعة الأميركية في بيروت. وأظن أن هبوط مستويات الطلاّب الجامعيين في هذه الأيام هو ظاهرة عالمية لا تقتصر على بلد دون الآخر، لأن مستويات التعليم السابقة للتعليم الجامعي لم تعد كما كانت من قبل.

وذلك من ملاحظات في دفتره تكاد تبلى لأنها ربما كانت من محاضرات ألقاها كينز بنفسه. وكنت كلما حاولت إحراج الدكتور بدر بسؤال عويص، كان يقول لي بالإنكليزية ما ترجمته: «انتظر قليلاً وسوف ترى أن البيضة التي بضتها لن تفقس صوصاً»[2]. وقد تشكل جزء كبير من أفكاري اللاحقة بتأثير هذين الأستاذين الكبيرين البروفسور باتينغل والدكتور ألبرت بدر.

•••

عندما عدت الى بيروت في مطلع حزيران/يونيو من عام 1958، كان ذلك هذه المرة على متن طائرة نفاثة لشركة «ميدل إيست» اللبنانية من طراز «فايكونت» أو ربما «كوميت»، اختصرت وقت السفر الى النصف تماماً. وكانت بيروت عندما وصلت اليها في حالة «ثورة» يسود فيها المسلّحون وحواجزهم، إنما بدرجة أخف كثيراً مما وصلت اليه الحال في حرب السبعينات، وكأن «ثورة» 1958 التي دعا الرئيس رشيد كرامي الى قطف ثمارها، ففجّر غضب الفئات المسيحية وعلى رأسها الكتائب اللبنانية بقيادة الشيخ بيار الجميل، «بروفه» أولية للثورة التالية التي ذهب ضحيتها، أو كأن كل ثورة في لبنان، منذ تلك التي كتب عنها أنطون ضاهر العقيقي، وعلّق على حواشيها يوسف ابراهيم يزبك، وترجمها مالكولم كير، الى اليوم، هي تأسيس لثورة أسوأ منها، فبقي لبنان في حالة تأسيسية دائمة، إنما الى الأسوأ.

وكنت مصمماً أن أذهب الى جب جنين من المطار فوراً، لكن بعض سائقي

---

(2) جون مايناردكينز هو المفكر الاقتصادي الأول في القرن العشرين، وقد ترك بصمات مهمة على الصعيد العالمي بعد الحربين العالميتين. ففي مؤتمر فرساي للصلح في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وكان مفوض المالية البريطانية في المؤتمر كمستشار لرئيس الحكومة للويد جورج، حذر الحلفاء من مغبة فرض عقوبات مالية قاسية على ألمانيا، لأن ذلك سوف يرتد سلباً على الدول الحليفة ذاتها، لكن الحلفاء لم يلتفتوا الى هذه النصيحة وآثروا العقوبات الانتقامية. وبعد الحرب العالمية الثانية كان مهندس اتفاقيات «بريتون وودز» التي تم بموجبها إنشاء مؤسسات مالية عالمية مثل «صندوق النقد الدولي» و «البنك الدولي للإنشاء والتعمير». والى جانب كتاباته الاقتصادية كان كينز يكتب في النقد الفني لأنه من هواة الفنون على أنواعها، وقد تزوج في عام 1925 من راقصة الباليه الروسية المعروفة ليديا لوبوكوفا. وفي كتاباته وحياته كلها لم تفارقه النكتة الذكية حتى وهو على فراش الموت عندما جاءه الكاهن لتقديم مراسم الاعتراف الأخير، فسأله: «هل هناك أشياء في حياتك أنت نادم عليها يا مستر كينز؟».

فأجابه: «نعم».

فسأله الكاهن: «وما هي؟».

قال له كينز: «إنني لم أشرب ما يكفي من الشمبانيا».

وكان كينز يمارس الظرف أيضاً في أفكاره الاقتصادية حيث كان ينتقد الاقتصاديين الذين يتحدثون عن التوقعات للمدى البعيد، بقوله: «المدى البعيد مقياس سيء في الاقتصاد، لأننا في المدى البعيد سوف نكون كلنا أمواتاً». أو يقول عنهم: «إن الاقتصاديين يضيعون وقتهم عندما يجهدون أنفسهم ليقولوا لنا إن البحر سوف يكون هادئاً بعد الطقس العاصف».

ولكونه مجدداً في علم الاقتصاد، فإنه لم يكن يجد حرجاً في طرح الأفكار الجديدة، بصرف النظر عن قبولها أو رفضها من الآخرين، لكنه كان يرى أن الصعوبة ليست في طرح الأفكار الجديدة، بل هي في الخروج من الأفكار القديمة.

التاكسي رفض أن يقوم بتلك الرحلة في الظروف المعروفة، لأن عودته ستكون في الليل، ولا أحد يدري ماذا يمكن أن يحدث على الطريق. لكن واحداً منهم قبل أن يأخذني لأنه قال إن زوجته من بلدة قب الياس، فيوصلني ويبيت عند أهل زوجته الى صباح اليوم التالي، فاتفقنا على مائة ليرة مقابل تلك الرحلة.

درجت العادة أنه عندما يأتي مهاجر أو مسافر من الخارج يتوافد الأهل والأصدقاء والجيران للسلام والكلام، كما يقولون. لكن هذا السلام والكلام طال أسبوعاً، فأبلغت الوالدين أنني سأعود الى بيروت لأدخل الجامعة في دورة صيفية أعوِّض بها ما فاتني عن السنة الدراسية البتراء 1954ـ1955، لكي تستقيم الأمور في السنة الدراسية التالية من أولها. وعند التسجيل في الجامعة واختيار المواد اللازمة، وبعد التشاور حول الحوادث الجارية في البلاد، قررت أن أقضي تلك الصيفية في القسم الداخلي داخل الحرم الجامعي، لمقتضيات الأمان، وهكذا كان.

في تلك الصيفية كنت أحضر دروسي في المكتبة وأنام في القسم الداخلي وأقضي فترة بعد الظهر مع بعض الزملاء في «بار» يقع عند آخر خط المنارة بالقرب من السفارة السعودية آنذاك اسمه «لايم لايت» وصاحبه بيروتي يدعى كمال قريطم. لكننا توقفنا عن ارتياد ذلك البار بعد ثورة 14 تموز/يوليو في العراق ونزول قوات «المارينز» الأميركية على شواطىء بيروت، حيث صار هؤلاء الجنود يترددون الى هناك، فانتقلنا الى مكان آخر قريب في شارع جان دارك الذي يصل شارع بليس حيث الجامعة بشارع الحمرا، يدعى «إيغلز نيست»، أي «عش النسر».

وقد أحدثت ثورة 14 تموز العراقية صدمة مذهلة في لبنان والعالم العربي، خصوصاً أنها جاءت في أعقاب إتمام الوحدة ـ السورية المصرية بقيادة جمال عبد الناصر، فاشتعلت بيروت الغربية برصاص الابتهاج، حيث أطلق المسلحون يومها عيارات نارية في الفضاء أضعاف ما أطلقوا في المعارك الوهمية. ومما زاد في الانفعال اللبناني من جراء تلك المفاجأة، ما تردد آنذاك من أن الجيش العراقي الذي قام بالثورة وقلب النظام الملكي الهاشمي في بغداد وقتل رموزه من الملك فيصل الثاني ونازلاً، كان بصدد المجيء الى لبنان لنصرة الرئيس كميل شمعون في إطار حلف بغداد ضد خصومه الثائرين عليه بحجة عزمه على تجديد ولايته والانضمام الى ذلك الحلف.

وما لبثت الأمور أن هدأت نسبياً بعد نزول المارينز في بيروت، والتفاهم الأميركي مع عبد الناصر حول تهدئة الوضع في لبنان عبر المبعوث الخاص للرئيس دوايت أيزنهاور الديبلوماسي المعروف روبرت مورفي، وانتخاب قائد الجيش آنذاك اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية. لكن الافتراق بين الناصرية والثورة العراقية أحدث فيما بعد ترددات هائلة، لعل من أهمها تحرك القوى

الانفصالية في سوريا، وانعكاس ذلك على لبنان لاحقاً. وقد لاحظت في تلك المرحلة أن التأثر بالثورة المصرية في لبنان والعالم العربي كان بطيئاً ولم يأخذ زخمه المعروف إلاّ بعد تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر، وبلغ ذروته في الوحدة السورية ـ المصرية. أما الثورة العراقية فقد أحدثت وقعاً مباشراً، زادته حدة دمويتها وما أعقبها من أعمال عنف تقشعر لها الأبدان ولم تنقطع الى اليوم.

•••

بعد استتباب الأمور وانقشاع الغبار بانتخاب فؤاد شهاب رئيساً، وحل «مشكلة قطف ثمار الثورة» حسب تعبير الرئيس رشيد كرامي، بتشكيل الحكومة الرباعية التي ضمت اثنين من السنّة هما رشيد كرامي وحسين العويني، واثنين من الموارنة هما بيار الجميل وريمون إده، تداعى بعض الطلاّب في الجامعة الأميركية، وكنت في عدادهم، لتشكيل وفد منّا يقوم بزيارة الى بكركي لمقابلة البطريرك مار بولس بطرس المعوشي والتحدث اليه عن الأوضاع العامة في البلاد. وكانت تلك أول مرة دخلت فيها الى الصرح البطريركي الماروني «الذي أعطي له مجد لبنان». لكنني دخلته مرة ثانية في عام 1983 لإجراء مقابلة صحافية مع البطريرك أنطونيوس بطرس خريش لمجلة «الصياد» التي كنت أرأس تحريرها، وزرتها مرة ثالثة في أواخر عام 1992 برفقة قريبي إيلي الفرزلي نائب رئيس المجلس النيابي آنذاك لمعايدة البطريرك نصر الله بطرس صفير بعيد الميلاد.

لكن جلستنا الطلاّبية مع البطريرك المعوشي كانت ظريفة لطيفة ومن دون رتوش، وكان مقعدي في تلك الجلسة الى يساره مباشرةً في قاعة الاستقبال الكبرى للصرح البطريركي، بينما في الزيارتين اللاحقتين كان مقعدي الى اليمين. ومن حسن الحظ أنني احتفظت بمدوّنة مختصرة لأهم النقاط التي طرحها البطريرك المعوشي في حديثه الينا بادئاً بالشكوى من الموارنة الذين يترأس كنيستهم، حيث قال إنهم لم يتركوا مذمّة إلاّ وقالوها فيه. فهذا يريد أن ينتف لحية البطريرك، وذاك يريد أن يفعل فيها فعلته، وآخر يريد أن يمص دمه، وما الى ذلك من التشنجات المألوفة وغير المألوفة. وقال:

«لم يكن لي من معزٍّ في حوادث 1958 سوى إخواننا الأرثوذكس في عكار».

مشيراً الى أنه كان وقتها يعيش في شبه عزلة أو مقاطعة مارونية.

وانتقل الى الحديث عن لقاءاته مع السفير روبرت مورفي المبعوث الخاص للرئيس أيزنهاور، فانتقد التعاطي الأميركي مع الأزمة اللبنانية وقال إنه أبلغ المبعوث الأميركي كلاماً يقرب من التوبيخ، حيث قال له رداً على مقترحات معينة:

«أنا عشت 14 سنة في الولايات المتحدة الأميركية وأعرف عقلية البيزنس

التي يسير عليها الأميركيون، وهي فيفتي ـ فيفتي، أي بالمناصفة، لكنني أرى أنكم تحاولون تطبيش الميزان خلافاً لعاداتكم. أنتم يا مستر مورفي تفعلون المطلوب في النهاية لكن بعد أن تُزعلوا زبائنكم».

ثم ردد تلك العبارة باللغة الإنكليزية، كما يلي:

In the end, Mr Murphy, you do your job, but you displease your client

وهذا ما فهمنا منه أن البطريرك كان على شيء من الاستياء من التعاطي الأميركي بالأزمة اللبنانية، وربما بالتسوية التي تمت على أساس ذلك التعاطي.

وبعد ذلك انتقل البطريرك المعوشي للحديث عن لقاءاته مع أنور السادات الذي كان يومها رئيساً للمؤتمر الإسلامي، فتحدث اليه بصفتين ولسانين: صفته كمسؤول في الجمهورية العربية المتحدة، وصفته كرئيس للمؤتمر الإسلامي، مشيراً الى أن السادات كان يتحدث بلغة ضبابية، لكنه طمأنه الى أن الإطار الإسلامي الذي يعمل على بلورته يكفل أمن الأقليات الدينية في المنطقة بمن فيهم اليهود. وأبدى البطريرك المعوشي إعجابه بالطريقة المسرحية التي يتحدث بها أنور السادات، بما يعني أنه يُضمر أكثر مما يُفصح. وفي ذلك الوقت لم يكن للسادات موقع قيادي لا في مصر ولا في الجمهورية العربية المتحدة، لكنه كان يتحدث بثقة وكأنه المسؤول الأول. ولا أدري لماذا أحجم البطريرك عن الحديث عن مضمون محادثاته مع أنور السادات، بالطريقة المكشوفة التي تحدث فيها عن روبرت مورفي. ربما لأنه شعر بأن السادات قال له أشياء من غير المناسب كشفها في ذلك الوقت.

لكنني كلما استذكرت تلك المقابلة وتفكرت فيها لاحقاً بعد عقود طويلة وتطورات جسيمة، تصورت البطريرك المعوشي، في كلامه الحذر عن أنور السادات، وكأنه يعيش في حقبة حكم المماليك المصريين لسوريا، وأنه يتوخى تجنيب الموارنة ما حل بهم على أيدي أولئك المماليك.

•••

في الفصل الدراسي الثاني من عام 1959، بعد التسوية التي ختمت الجرح اللبناني «على زغل»، كما يقولون، كان لدي بعض الوقت بين دروس متباعدة، فقررت أن أنتسب الى درس اختياري في تاريخ لبنان مع الدكتور كمال الصليبي، عن الحقبة التي يمكن اختصارها بمرحلة «حرّاس الثغور»، خلال الفترة الأيوبية ـ المغولية ـ المملوكية في سوريا. وكان هدفي من ذلك أن أفهم حقيقة الوضع اللبناني المفرِّخ دائماً للحروب الأهلية، كنزوة شخصية مني، لأن الموضوع خارج اختصاصي ولا يُحتسب من ضمن المؤهلات، بل هو مجرد سد فراغ.

وتبين لي من ذلك أن زعماء لبنان تجارتهم الوحيدة هي استدراج الدول الأجنبية لتحقيق مصالحهم على حساب أمن الداخل السوري. فعندما ذهبوا

ليقدموا فروض الطاعة الى الناصر يوسف الأيوبي وجدوا أن القائد المغولي كتبوغاه منتاش، الذي أوفده هولاكو لاحتلال سوريا، هو الذي أصبح الآمر الناهي بدلاً من الناصر يوسف، فقدموا للمغولي فروض الطاعة وكأن شيئاً لم يكن، وتعهدوا له أيضاً بحراسة الثغور البحرية. وعندئذ فهمت لأول مرة لماذا ركّز الميثاق الوطني اللبناني الذي وضعه رياض الصلح وبشارة الخوري على مسألة الأمن السوري وخصّه باهتمام محدد وواضح بالقول إن لبنان المستقل لن يكون للاستعمار مقراً أو ممراً، لأن هذه العبارة لوحدها تجزم بأن الحقيقة التاريخية هي أن لبنان ما هو إلاّ مقر وممر للدول الأجنبية، أو هو فخ دائم نصبته الدول الكبرى بالاتفاق مع الزعماء اللبنانيين لزعزعة استقرار سوريا إذا اقتضت مصالحها ذلك.

وفي محاضرة لي في 24 تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1994، بمناسبة عيد الاستقلال اللبناني، ألقيتها في نادي مراسلي الصحافة الأجنبية في لندن، قلت باختصار بعد استعراض للحالة اللبنانية الراهنة، إن استقلال لبنان مرهون بالأمن السوري، بموجب تلك العبارة من الميثاق الوطني اللبناني، فلا استقلال للبنان إذا كان ضد سوريا، أو إذا كان يعرِّض أمنها للخطر. وهذا طبعاً لا يعفي سوريا من حسن التعاطي مع لبنان واللبنانيين، لأن التجربة السورية السابقة في لبنان أظهرت أن السوريين أيضاً يتعاطون في لبنان بالأساليب والمفاهيم ذاتها التي تتعاطى فيها معهم الدول الأجنبية من حيث استخدامه كمجرد ساحة للنزال أو فخ للإيقاع بالآخرين[3].

وبعد نحو ربع قرن من تخرجي من الجامعة، لفتني أثناء قراءتي كتاب إدوارد غيبون عن «تاريخ انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية»، أنه أدخل بعداً دينياً على موضوع الاحتلال المغولي لسوريا، حيث قال إن القائد المغولي كتبوغاه كان مسيحياً نسطورياً، وأن نساطرة العراق هاجروا الى الهند والصين وأسسوا كنائس هناك احتجاجاً على معاهدة الدولة العباسية بقيادة هارون الرشيد مع الإمبراطور الغربي شارلمان في نهاية القرن الثامن ومستهل القرن التاسع الميلادي، وأن أحفاد هؤلاء النساطرة هم الذين حرضوا المغول على التوجه غرباً لإسقاط الدولة العباسية، ضمن عوامل أخرى طبعاً. وقال أيضاً إنه لأول مرة منذ أكثر من 700 سنة دخل الى دمشق ثلاثة من الأمراء المسيحيين كحكام لها، هم كتبوغاه المغولي، وهيثم الأول ملك أرمينيا الصغرى (أو كيليكيا الأرمنية) الذي سبق له أن زار الخان المغولي الكبير مونخ ابن طولوي خان من زوجته الأميرة سورغاغتاني بيكي والدة هولاكو وقبولي خان أيضاً،

---

(3) واليوم كما في الأمس القريب والبعيد، أرى أن الشغل الوحيد لزعماء لبنان، هو إما حراسة الثغور كفرض طاعة لحاكم دمشق، أو المقاولة مع الدول الأجنبية لتأجيرها الخدمات وفي مقدمها فتح تلك الثغور على سوريا، وكل مهمة بثمن. فإذا انحلت مسألة العلاقات السورية ـ اللبنانية بصورة نهائية، فإن ذلك يعني أنه لا يعود لديهم شغل، وبالتالي ينقطع رزقهم.

وهي مسيحية نسطورية لكنها كانت تتعاطف مع المسلمين ومع البوذيين والكونفوشيين، في عاصمته «قرا قورم»، واتفق معه على المشاركة الأرمنية في الحملة. وثالثهما هو الأمير النورماني بوهيموند السادس أمير أنطاكية الصليبية الذي كان بواسطة الملك الفرنسي لويس التاسع قد تصالح مع كيليكيا الأرمنية بعد نزاع طويل، وتزوج من ابنة الملك هيثم الأرمني. لكن بعد عشر سنوات، أي في عام 1268، احتل المماليك المصريون أنطاكية وطردوه منها. أما ملك جورجيا فلم يشارك في حملة احتلال دمشق، لكنه بموجب المعاهدة التي عقدتها الملكة روسودانا مع المغول في عام 1243 أرسل كتيبة من جيشه للمشاركة الرمزية.

كانت تلك الحقبة التي تلت الاضطرابات الأمنية اللبنانية والوحدة السورية - المصرية هي التي أطلقت يد عبد الناصر في المنطقة، وانطلق معها مد ناصري واسع في لبنان. وعندما كان عبد الناصر يأتي الى دمشق، كان اللبنانيون يتسابقون ويتزاحمون للذهاب الى هناك، للقائه أو سماع خطابه من شرفة قصر الضيافة. حتى طلاّب الجامعة الأميركية نظموا رحلات الى دمشق في تلك الفترة وشاركت في واحدة منها، لكن الغوغائية التي طبعت تلك المرحلة لم ترق لي، فما عدت ذهبت مرة أخرى.

وقد رأيت في دمشق خلال تلك الرحلة الطلاّبية لمشاهدة عبد الناصر، صورة مختلفة عن تلك التي انطبعت في مخيلتي يوم زرتها لأول مرة لحضور معرض دمشق الدولي قبل ذلك بأربع سنوات. يومئذ كانت الحياة السياسية السورية متميزة تنبىء بمستقبل ديموقراطي واعد بعد الانتخابات الحرة التي جرت في ظل حكومة سعيد الغزّي الذي سقط في الدورة الأولى من تلك الانتخابات. ولم يفز بدورتها الأولى عن مدينة دمشق إلاّ ثلاثة فقط من بينهم خالد بكداش الأمين العام للحزب الشيوعي السوري المعروف جيداً في لبنان. وفي تلك الانتخابات فاز أيضاً عدد من النواب البعثيين، مما أتاح انتخاب أكرم الحوراني رئيساً للمجلس النيابي.

وعندما كنت في الكويت أزور شقيقتي سلمى وعائلتها هناك في مطالع عام 1977 محاولاً البحث عن عمل مناسب، التقيت صلاح الدين البيطار، المفكر والسياسي البعثي المعروف ورئيس الحكومة السورية الأسبق، وكان نزيل فندق «شيراتون» بضيافة الشيخ جابر العلي وزير الإعلام الكويتي آنذاك، فكنا نتمشى كل عشية طوال مدة إقامته في الكويت لعدة أيام، نستذكر الماضي وتطوراته، ونتحدث في الشؤون الجارية. وقرأ عليَّ مرة في الفندق مقالاً كان ينوي نشره في صحيفة كويتية بعنوان «جنيف .. حكاية». ذلك أن محادثات السلام الإسرائيلية - العربية كانت قد انطلقت في مؤتمر جنيف، وكان يرى أنها عبثية ولن توصل الى نتيجة. وفي الحديث عن مرحلة الوحدة السورية - المصرية، والمد الحماسي الذي رافقها في سوريا ولبنان، قال لي إن بعض

المصريين، ومنهم مسؤولون في نظام عبد الناصر، اندهشوا من ذلك المد وتخوّفوا منه، فاتصلوا به وببعض البعثيين المندفعين في مشروع الوحدة ليقولوا لهم: «يا واش.. يا واش.. على مهلكم، لأن عبد الناصر سوف يستخدم هذا التفويض الكاسح في سوريا لسحقنا في مصر».

وفي طريق العودة من الرحلة الطلاّبية الى دمشق قلت لطالبة أردنية من آل منغو تجلس الى جانبي في البوسطة، لا أظنني أستطيع الانسجام في هذا الجو، على الرغم من عواطفي الوحدوية. وبقيت من يومها الى اليوم على موقف نقدي من عبد الناصر والناصرية، ومن حزب البعث أيضاً. ولا بد من أن أشدد هنا على أن مواقفي النقدية هذه التي سأتحدث عنها في السياق ليست مواقف عدائية من المفاهيم المحركة لها.

في مطلع السنة الجامعية الأخيرة، 1960ـ1961، نفدت مدخراتي التي جلبتها معي من «أرامكو»، بما في ذلك التعويض الذي حصلت عليه من محكمة العمل التحكيمية اللبنانية برئاسة القاضي رشيد الصلح الذي أصبح فيما بعد نائباً عن بيروت ثم رئيساً للحكومة. فقد امتنعت «أرامكو» عن دفع تعويض عن فترة العمل التي قضيتها هناك بعد انتهاء العقد، فأقمت دعوى أمام محكمة العمل، وكان محامي الشركة ألبير لحّام، وهو أصلاً من بلدة راشيا الوادي في البقاع، فقال له رشيد الصلح رئيس المحكمة:

«هذه شركة استعمارية، فما يضيرها أن تدفع؟».

وأمر لي بمبلغ 1250 ليرة لبنانية. والمحامي ألبير لحّام وثيق الصلة بالأميركيين، وهو من مؤسسي «حركة الشبيبة الأرثوذكسية».

أما الرئيس رشيد الصلح فقد توطدت علاقتي معه فيما بعد، خصوصاً خلال زياراته المتكررة الى لندن. وفي إحدى الجلسات معه في فندق «هايد بارك» في حلقة ضمّت الزميل ريمون عطا الله والصديق واجد دوماني (أبو أحمد والد زوجة الرئيس نجيب ميقاتي) الوثيق الصلة برشيد الصلح آنذاك، لاحظت أنه كان له موقف سلبي من رفيق الحريري، ولكن بالوشوشة. فما أن أحس باقتراب عديله الدكتور شاتيلا الذي يبدو أنه من أنصار الحريري حتى غيّر الحديث. وفي تلك الجلسة طلبت منه أن يكتب لي مقالاً عن الوضع اللبناني لجريدة «الميزان»، فوضع يده على رأسه، فاعتبرت أن الشيء حاصل لا محالة، لكن طبعه السياسي غلب عليه فطنّش وبقي مطنّشاً.

•••

لما نفدت مدخراتي، طلبت من الوالد المساعدة فقال لي إن له تعويضاً من مصلحة الليطاني عن أرض صادرتها لتغمرها مياه السد، وطلب مني المراجعة بشأنها في بيروت. وكان من موظفي مصلحة الليطاني آنذاك المحامي عصام نعمان الذي كنت على علاقة جيدة معه ضمن الحلقات السياسية المألوفة في

«مطعم فيصل»، وكانت له في ذلك الوقت ميول بعثية، فقصدته لإنجاز تلك المعاملة فلبّى مشكوراً على الفور، وأخذت من ذلك التعويض العائد الى والدي 600 ليرة، لكنني مع ذلك وجدت ضرورة للعمل فاتصلت بخليل خير الله صاحب ومدير «المعهد العربي» في بحمدون للوقوف على إمكانية التدريس في المعهد، فأوكل الي تعليم الأدب الإنكليزي لصف البكالوريا المؤلف من 20 تلميذاً. وبالإضافة الى الراتب الشهري المحدود، اتفقنا على أن يعطيني غرفة في القسم الداخلي مع الأكل في مطعم القسم المذكور. فكنت أنزل بسيارة الأجرة «السرفيس» الى الجامعة في بيروت صباحاً وأعود ظهراً للغداء ثم التدريس بعد الظهر.

ومن أصل العشرين نجح في البكالوريا تلك السنة 17 تلميذاً. أما اللغة العربية فكان يقوم بتدريسها للصفوف العليا الدكتور علي شلق من بلدة كفريا في قضاء الكورة، وهو والد المهندس والوزير السابق الفضل شلق، وكان الشيخ هاني أبو مصلح من عين كسور يدرِّس العربية لصف «البروفيه»، وكلاهما من المثقفين المرموقين، ومن أفاضل الناس.

لكن أوقات دوامي في المعهد العربي لم تكن تتقاطع كثيراً مع أوقات الدكتور علي شلق، فلم تتوطد العلاقة بيننا، لكنني في لندن توطدت علاقتي مع نجله المهندس الفضل شلق، العامل آنذاك مع «دار الهندسة» لصاحبها كمال الشاعر، وكان متزوجاً لتوِّه. وكنت عرفته عرضاً من قبل عندما يأتي أحياناً الى مجلة «الأحرار»، لأنه كان قريباً من البعثيين، وهو قارىء جيد ويهتم بالقضايا الفكرية والثقافية. وأذكر مرة أنه أرسل إليّ كتاباً بالإنكليزية عنوانه: «الهاجرية: كتاب من ملحدين الى ملحدين»، كتبه في عام 1977 اثنان من الباحثين الشباب هما مايكل كوك وباتريشيا كرون، يقوم على دحض الإسلام والقرآن، وفيه إشارات الى الأصول اليهودية للمشروع الإسلامي. وقد علّق الفضل شلق على حواشي الكتاب بالأحمر، وطلب مني أن أقرأه وأعلق على حواشيه بالأزرق. لكنني لم أعد أجد الكتاب المذكور في مكتبتي، وربما أكون قد أرجعته له.

ولا أدري ما إذا كان الفضل شلق، وقد تقاعد عن العمل العام، ما زال يتابع الشؤون الفكرية ومنها ما يتعلق بأطروحة كتاب «الهاجرية»، حيث تراجع الكاتبان كلاهما عن أطروحتهما تلك في عام 2006، فقال مايكل كوك: «إن الأطروحة المركزية للكتاب كانت خاطئة. ومع مرور الوقت توصلت تدريجياً الى أن الأدلة لدعم تلك الأطروحة ليست كافية أو منسجمة داخلياً». أما باتريشيا كرون فقد قالت: «كنا حينها في مطلع الشباب ولا نعرف شيئاً. لا أظن أن أطروحة الكتاب صائبة».

ذلك أن الظروف لم تسمح لي خلال العقود الأخيرة من لقاء الفضل شلق بعد انتقاله من لندن الى باريس للعمل في مؤسسة رفيق الحريري، لكنني شاهدته

مرة أو مرتين على شاشات التلفزة يعلّق على الحوادث الجارية، فوجدت أنه ما زال حاضر البديهة ينطق بفهم وذكاء ودراية.

أما علاقتي بالشيخ هاني أبو مصلح فلم تنقطع، حيث كنت أزوره في عين كسور حتى بعد تركنا «المعهد العربي». وهو من الرجالات الوطنيين الكبار، وقد حكم عليه الفرنسيون بالإعدام ففر من لبنان ليعود اليه بعد زوال الانتداب. ومن المصادفات أنني في زياراتي تلك الى عين كسور لم أتقاطع مع نجله غالب أبو مصلح، لكننا التقينا وتصادقنا عندما دخلنا سوياً الى البنك المركزي فور تأسيسه في عهد الرئيس فؤاد شهاب، (كما سيمر) يوم كان وزير الخارجية آنذاك فيليب تقلا حاكماً للبنك. وكان غالب أبو مصلح يتصل بي كلما جاء في مهمة الى لندن، وقبل انتخابات 2009 قرأت أن هناك نية لدى المعارضة لترشيحه عن المقعد الدرزي في بيروت، فقصدته الى عين كسور من غير علم أو خبر فوجدته يكتب وما زال يرتدي عباءته، فعرّفني على زوجته وابنته لبنى التي شرحت لها علاقتي «التاريخية» مع جدها ثم مع والدها.

وبعد استقالتي من الوظيفة في البنك المركزي عام 1969، تدرَّج غالب في الوظيفة الى أن أصبح مديراً للتسليف، وقد تقاعد من البنك، لكنه ما زال ناشطاً في العمل الفكري والسياسي، وفي الكتابة والتأليف. وعندما زرته في عين كسور أخيراً أهداني مجموعة من إنتاجه بينها كتاب وضعه بالاشتراك مع المحامي والنائب والوزير السابق عصام نعمان.

•••

كان خليل خير الله شخصية تربوية ليبرالية متميزة، وكان الطلاّب والأساتذة في «المعهد العربي» يجلّونه ويسمعون كلمته، وكان يتعامل معهم بكل احترام وبنديَّة ملفتة، من كبيرهم الى صغيرهم، ولذلك كان الإقبال على معهده كبيراً حيث ضم طلاّباً من كل لبنان. فكان صف البكالوريا الذي درّست فيه تلك السنة يضم طلاّباً من جبل لبنان، ومن حاصبيا في الجنوب، ومن جب جنين في البقاع، وحتى من بيروت. ويمكن اختصار الوضع في «المعهد العربي» آنذاك بإنه كان عائلة موسّعة لخليل خير الله. ولا أدري لماذا ظل مصرّاً على الترشح للانتخابات النيابية مرة تلو المرة، مع أن منزلته التربوية كانت في نظري لا تقل عن المنزلة السياسية لأي نائب في لبنان. بل ربما كان أن إصراره على الترشح للانتخابات قد أكل من رصيده المعنوي ولم يضف اليه شيئاً، لكنني لست في موقع الحكم من هذه الناحية لأنني لم أعمل معه سوى سنة دراسية واحدة.

وبعد مغادرتي «المعهد العربي» في بحمدون قلما التقت بي الطرق مع خليل خير الله، لكنني اجتمعت به مرة في لندن في منزل شقيقه الأصغر الزميل حافظ ابراهيم خير الله، حيث استذكرنا تلك الأيام الجميلة الحافلة بالخصب الفكري والثقافي والتربوي.

وفي صيف تلك السنة بعد حفلة التخرج الكبرى في ملعب الجامعة الأميركية عدت الى جب جنين أكثر ثقة بالنفس من العودة السابقة قبل خمس سنوات. وكان أول شيء فعلته أنني طلبت يد زوجتي لور من والدها بتشجيع من والدتي، فتمت الخطوبة في منزل والديها بحضور جدي اسكندر الذي كان قد بلغ من العمر آنذاك 88 عاماً، وكان عمري 24 سنة. واتفقنا على الزواج بعد سنة ريثما أجد عملاً وأفتح بيتاً حيثما يسّر الله.

وحدث أن جاء لزيارتي صديق من جب جنين هو نجيب محمد علي رحّال (عمّ الوزير محمد رحّال في حكومة سعد الحريري) الذي كان قادماً للتوّ من العراق حيث عمل تلك السنة في التدريس في مدينة «العماره»، القريبة من البصرة في جنوب العراق، وقال لي إن الحكومة العراقية بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم تهتم بالتعليم اهتماماً واسعاً، وأنهم بحاجة الى مدرِّسين من جميع الفئات، وهم يفضِّلون اللبنانيين على وجه التحديد. وأشار عليّ الاتصال بالملحق الثقافي العراقي في السفارة في بيروت إذا كنت راغباً في العمل هناك.

وجدت ما قاله لي الصديق نجيب رحال مقنعاً ومغرياً فقررت النزول الى بيروت في اليوم التالي لمقابلة الملحق الثقافي، وكانت نتيجة اللقاء به أن تعاقدت للتدريس في العراق، وكذلك فعل محمد بديع الخطيب من جب جنين وزوجته فايزة الشريف، وهو شقيق اللواء سامي الخطيب، الذي كان في ذلك الوقت لا يزال ضابطاً صغيراً في الجيش اللبناني.

وكانت تلك التجربة في العراق فريدة ومليئة بالحوادث والعبر.

VIII

«ماكو» زعيم إلاّ كريم

تضمن العقد مع الملحق الثقافي العراقي شروطاً مادية جيدة، حيث كان مسموحاً لنا أن نحوِّل كامل الراتب بالعملة الصعبة وبالسعر الرسمي، أي أكثر من ثلاثة دولارات للدينار العراقي، وكان أساس الراتب 120 ديناراً، تأتيه دروس إضافية بما لا يقل عن 50 ديناراً. والأهم من ذلك أننا نعود الى لبنان في العطلة الصيفية الممتدة ثلاثة أشهر مدفوعة الراتب سلفاً. فحتى إذا لم يوفر أحدنا شيئاً فإنه يستطيع أن يعود الى بيروت في شهر حزيران/يونيو بمبلغ أقله ثلاثة آلاف ليرة لبنانية. وكانت الليرة تحكي في تلك الأيام. لكن الساعات الإضافية التي كنا نعلِّمها كانت أكثر من كافية لتغطية كلفة المعيشة في العراق، فيبقى الراتب على حاله أو أحياناً يزيد قليلاً.

عندما وصلنا الى بغداد في شهر آب/أغسطس كانت الحرارة لا تزال على أشدها، بحيث أنها أحياناً تذيب الزفت على الطريق فيلين تحت نعليك عندما تسير عليه. ولم يكن في بغداد حينها سوى فندقين أو ثلاثة فنادق معقولة، فاختار نجيب رحال، وهو أدرى بشعاب بغداد لأنه أمضى في العراق سنة قبلنا، أن ننزل في فندق «سميراميس» لأنه مريح ورخيص نسبياً وفيه حديقة جيدة على نهر دجلة نستطيع أن نجلس فيها الى ساعة متأخرة من الليل نأكل ونشرب و«نسولف». وهو يقع في شارع الرشيد القريب من شارع أبو نواس، حيث المقاهي والمطاعم التي تقدم السمك «المسقوف». وبالإضافة الى ذلك، فإن المشي في الليل في ذلك الشارع يفتح الشهية لأن رائحة اللحم المشوي الذي يسميه العراقيون «تكّة» تفوح في كل مكان، أو كما قال أبو نواس نفسه في إحدى الغانيات: «فاحت كما فاح تفّاحٌ بلبنانِ». ورائحة الشواء تلك لا تفوح من المطاعم بل من باعة متجولين على عربات، فَيشوي لك شيشاً على نار جمر أمامه ويلفه لك برغيف من الخبز وقضي الأمر. وكان هؤلاء الباعة المتجولون يملأون الشوارع في الليل.

وفي الليلة الأولى في تلك الحديقة التقيت الصديق العزيز والأخ الحبيب كمال فرج الله، الذي آلت اليه شركة «فرج الله للمطبوعات»، وكانت من أكبر شركات

توزيع الصحف والكتب في العالم العربي قبل تأميمها في مصر من جملة التأميمات التي قام بها النظام المصري في عهد عبد الناصر، ومعه محاسب الشركة سبيرو سابا. وكانا هناك لأمور تتعلق بشؤون التوزيع في العراق. وكنت أعرف كمال فرج الله معرفة سطحية في بيروت أيام الجامعة لأنه كان على علاقة مع فريد فيصل صاحب «مطعم فيصل» المشهور قبالة مدخل الجامعة الأميركية في شارع بليس. فقد كان في ذلك الوقت يهتم بسيارات السبور، ويشاركه فريد فيصل في هذه الهواية، حيث كانا يقيمان سباقات للسيارات على كورنيش الرملة البيضاء. وعندما عرفته في بيروت كان يأتي الى مطعم فيصل بسيارة «ثاندر بيرد» أميركية كنت أحلم دائماً باقتناء واحدة مثلها. لكنه ما لبث أن تخلص منها واشترى مكانها سيارة «بورش». وأذكر هذه الوقائع المتعلقة بالسيارات لأننا عدنا وتعاطينا سوياً في رياضة السباقات في أوروبا طوال الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي.

ثم ما لبث كمال فرج الله أن أقام «نادي الحصان العربي» لتعليم ركوب الخيل بالقرب من مطار بيروت بعد زواجه الأول من ليوني السويدية الجنسية، وكانت تحترف هذه الرياضة، لكنه خسر ذلك النادي بعد انتهاء الحرب اللبنانية في مطلع التسعينات بسبب غيابه في لندن.

وكانت شركة «فرج الله للمطبوعات» مملكة بكل معنى الكلمة في زمن والده فرج فرج الله، وكان يديرها شقيقه الأكبر سني، الذي قتل في ظروف غامضة في فندق «طهران هيلتون» في 9 كانون الأول/ديسمبر 1963 في العاصمة الإيرانية حيث كان يتابع أعمال توزيع الصحف الأجنبية هناك. وبوفاة والده ثم شقيقه الأكبر، وبعد التأميمات المصرية، لم يستطع كمال أن يفعل شيئاً لتعويم الشركة، فأقفلت أبوابها. لكن عندما التقيته مع سبيرو سابا في بغداد، كانت لا تزال تعمل على الرمق الأخير. وقضينا سهرتنا الأولى في بغداد نحتسي البيرة على شاطىء دجلة ونتحدث عن تجاربنا السابقة في مطعم فيصل حتى طلوع الفجر. كانت تلك ليلتي الأولى في بغداد.

•••

وفي صباح اليوم التالي كان علينا أن نلتحق بوزارة المعارف، وكانت في مبنى قديم وجميل بطريقة هندسته العثمانية حيث المكاتب على الجوانب الأربعة وفي الوسط ساحة مبلّطة تعج بالمراجعين وأصحاب المعاملات. وكنا مجموعة كبيرة من المعلمين اللبنانيين، وعندما وزعوا علينا قرارات التعيين، كان نصيبي أن أكون في مدينة العمارة[1] مع الزميلين نجيب رحال ويوسف الجاروش من

(1) مدينة العمارة في جنوب العراق حديثة العهد، فقد أنشأها العثمانيون في منتصف القرن التاسع عشر كمقر لحامية عسكرية مهمتها فض الاشتباكات المتكررة بين قبائل البومحمد وقبائل بني لام.

بلدة السلطان يعقوب في البقاع الغربي. أما محمد الخطيب وعبدو بعقليني[2] فكان نصيبهما مدينة «الحلة» في محافظة بابل. وتوزع آخرون في مختلف المحافظات العراقية.

يومها لم تكن تُسمّى «محافظة» يديرها محافظ، بل «متصرفية» يديرها متصرف. وكان المتصرف متصرفاً بالفعل لأنه يأمر وينهي، خلافاً لما صار عليه الوضع في العهود اللاحقة عندما تغير الإسم. وأذكر أنه يوم كان مزهر الشاوي مديراً للموانىء في البصرة، كان أهل العماره يعتبرونه الحاكم بأمره في عاصمة الجنوب.

لكن قبل الالتحاق بمراكزنا كان علينا أن نأخذ موعداً لمقابلة الوزير كل على انفراد. وكان وزير المعارف يومئذ ضابطاً في الجيش اسمه اسماعيل عارف، فحددوا لي موعداً معه في الساعة الثامنة إلاّ ربعاً من صباح اليوم التالي. وتوهمت أن هناك خطأً ما في الموعد، لأنني اعتقدت أنه من غير الممكن أن يأتي وزير الى مكتبه في الوزارة مبكراً الى هذه الدرجة. ذلك أن الوزير عندنا في لبنان لا يأتي قبل الثانية عشرة، هذا إذا أتى. لكنهم أكدوا لي الموعد وأكدوا على ضرورة الوصول في الوقت المحدد.

وصلت الى الوزارة في السابعة والنصف، وتوجهت الى ما يسمونه «الذاتية»، أي مكتب شؤون الموظفين، فأخذني أحدهم الى سكرتيرية مكتب الوزير حيث انتظرت عشر دقائق، ثم أدخلني السكرتير الى الوزير في مكتبه المتواضع وخرج. وكان الوزير اسماعيل عارف عندما دخلت يتناول طعام الفطور على صينية فوق مكتبه، فصدمني المشهد، لا لأنه كان يأكل في المكتب، بل لمحتويات الترويقة المؤلفة من الكباب المشوي و«الباجه» أي «الغمة والكراعين» أو «الفوارغ» حسب التعبير اللبناني، ثم «القيمر» والعسل. والقيمر هو قشطة الحليب. فرحب بي أجمل ترحيب ودعاني الى الترويقة معه فاعتذرت بحجة أنني تروقت لتوِّي في الفندق، والحقيقة أنني لا آكل اللحم في الصباح الباكر. وعندما فرغ من ترويقته ذهب الى الحمام الملحق بالمكتب وغسل يديه وعاد. ولاحظت أنه يرتدي الزي العسكري الذي بات ضيقاً عليه قليلاً لميله الى السُمنة.

وبقينا ساعة كاملة نتحدث عن لبنان وعن العراق وعن عزم الزعيم عبد الكريم قاسم على تحديث نظام التعليم المتخلف في البلاد، وما الى ذلك. ولفتتني كلمة عابرة قالها لي في معرض الحديث عن لبنان تنم عن احترام وتبجيل يفوق الوصف. فقد قال اسماعيل عارف في تلك الجلسة:

---

(2) التقيت عبدو بعقليني مرة ثانية عندما زرت جامعة نيويورك في مدينة ألباني عاصمة الولاية حيث كان يدرِّس، ويعمل مع الوكالة الأميركية للتنمية USAID، وذلك برفقة قريبي إيلي الفرزلي نائب رئيس مجلس النواب الذي كان مدعواً الى الولايات المتحدة من قبل الوكالة المذكورة في منتصف شهر تموز/يوليو من عام 1994.

«إن أقل رجل في لبنان يعيش حياةً أفضل من أكبر رجل في البلاد العربية». وأعرب عن أمله في أن يصبح العراق يوماً مثل لبنان، ولم يكن يدور في خلده، ولا في خلدي، أن لبنان سوف يصبح يوماً مثل العراق.

ودارت الأيـام دورتها المعروفة، وربما الظالمة، فكنت أتمشى في «بارك لاين» في لندن متوجهاً الى فندق «دورشستر» حيث كنت أتردد في أواسط الثمانينات. وفي الطريق التقيت رجلاً عليه ملامح عراقية، فخيِّل اليّ أنني أعرفه، والتفت هو أيضاً مشتبهاً، ثم اقترب مني وسلّم وقال لي :

«وجهك ليس غريباً عني. أنا اسماعيل عارف».

فسلمت عليه بحرارة وذكرته بتلك الجلسة في مكتبه بالوزارة في بغداد، ودعوته الى تناول الشاي معي في فندق «دورشستر»، وصرنا نلتقي هناك باستمرار، فأبلغته إنني بعد مغادرتي العراق اتجهت الى مزاولة مهنة الصحافة وأعمل الآن في مجلة «الصياد» التي تصدر من لندن، وقال لي إنه يعيش في بريطانيا كلاجىء سياسي منذ سقوط نظام عبد الكريم قاسم. ولاحظ في البداية أنني أحار في مخاطبته، مرة أقول له «سيد اسماعيل»، ومرة «أستاذ عارف»، فقال لي :

«يا أخي أنا أبو عضيد».

واعجبني اسم «عضيد» واستسغته، فصرت أناديه «أخي أبو عضيد».

وحدثني أبو عضيد عن حياته العسكرية منذ أن كان سكرتيراً في مكتب نوري السعيد الى حين رأيته يأكل الكباب «والباجه» و«القيمر» في وزارة المعارف. وكم كان سروري عظيماً بلقائه لأنه حدثني عن أشياء في خفايا السياسة العراقية آنذاك لا تخطر على بال. وكان يحب عبد الكريم قاسم ويحترمه لأنه نذر حياته للفقراء، ولأنه لم يكن لديه شيء من متاع الدنيا، ولأنه كان رجلاً وطنياً من أشرف الرجال. وقال لي إن عبد الكريم قاسم كان يحب اللبنانيين ويفضلهم، وأن متعته الوحيدة هي سماع أغاني المطربة اللبنانية نزهة يونس وشقيقتها هيام يونس، وأنه كان يدعوهما باستمرار لزيارة بغداد.

وذات يوم دخل أبو عضيد الى مكتبي في «الصياد» عند تقاطع «أوكسفورد ستريت» مع «ريجنت ستريت» ويحمل ملفاً كبيراً في يده. ووضع الملف على مكتبي وقال إنه يتضمن كتابه عن ثورة 14 تموز العراقية، وأنه ينوي نشره مسلسلاً قبل نشره في كتاب، طالباً مني أن أنشره في «الصياد».

فقلت له:

«يا أخي أبو عضيد، أنت تريد أن تنشره لتحصل على مبلغ من المال أنت بأمسِّ الحاجة اليه، أليس كذلك؟».

قال:

«هو كذلك».

فقلت له:

«يا أخي أبو عضيد، هنا في «دار الصياد» يقبضون ولا يدفعون، وإذا دفعوا فلا شيء يُسمن أو يُغني من جوع. ولذلك أنصحك أن تذهب به الى عثمان العمير في جريدة «الشرق الأوسط»، لأن السعوديين هناك يدفعون ويشكرون، وهم كما تعلم يشرشر المال من جيوبهم على العمّال والبطّال. اسمع مني وأنت تعرف أنني أريد مصلحتك، وأعرف حاجتك».

واقتنع أبو عضيد بهذه النصيحة فأخذ مخطوطة كتابه الى السعوديون في «الشرق الأوسط» فنشروه له بالفعل على حلقات، لكنني لم أعرف كم دفعوا له، ولم أسأله. ثم عاد عام 1986 وأصدر الكتاب في لندن تحت عنوان: «أسرار ثورة 14 تموز وتأسيس الجمهورية العراقية»، وعلمت لاحقاً أنه توفي في لندن. تغمده الله بواسع رحمته، فقد كان رجلاً طيباً.

•••

أيقنت من أول لقاء لي مع الوزير اسماعيل عارف أن إعطاء أفضلية مطلقة للبنانيين هو سياسة مقررة للدولة. فلم يكن هناك لا سوري، ولا مصري، ولا فلسطيني، فقط لبنانيون، مع أن شركات لبنانية خاصة مثل «شركة كتّانة» المولجة آنذاك بأعمال توسيع ميناء «أم قصر» القريب من البصرة كانت تُشغّل مهندسين فلسطينيين تعرفت على بعضهم في البصرة مثل إدوار رزق، وفوزي كعوش (شقيق يوسف كعوش مدير المدرسة التي عملت فيها مؤقتاً في جب جنين)، ومع أن حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم كانت تخصص في ميزانية الدولة مبالغ محترمة للفلسطينيين عن طريق «الهيئة العربية العليا» بقيادة المفتي الحاج أمين الحسيني.

وقد لاحظت الاهتمام باللبنانيين والترحيب بهم على المستويات كافة وفي جميع الدوائر الحكومية، وفي الوسط الشعبي أيضاً. ومن ذلك مثلاً أننا عندما كنا نذهب الى البنك المركزي لتحويل أي مبلغ من المال الى الخارج، وهو إجراء صعب بالنسبة الى العراقيين ويستغرق وقتاً طويلاً وربما عدة أيام، كان الموظف المختص يستقبلنا بحرارة ويجلسنا في مكتبه ويطلب لنا الشاي ويقوم بنفسه بملاحقة المعاملة والحصول على التواقيع اللازمة وتسليمنا صك التحويل في أقل من نصف ساعة من دون سؤال أو جواب. وفي بعض الأوساط في العمارة لاحظت مدى احترامهم لشيوخ جبل عامل، وللعامليين عموماً، وقد حدثني بعضهم عن الأثر الفكري الذي تركه العامليون في بلدهم.

في ذلك الوقت، لم يكن الطريق بين بغداد والبصرة ممدوداً بالزفت كله حسب المواصفات العالمية، كما أصبح لاحقاً. فقد كان القسم المزفّت منه يصل الى مدينة «الكوت» فقط مروراً بعلي الشرقي وعلي الغربي، ثم من هناك الى العماره يسلك مساراً ترابياً أو رملياً في الفلاة أو في الصحراء، ليعود طريقاً

حسب الأصول من العماره الى البصرة مروراً بقلعة صالح، ثم بقرنة علي، على شط العرب وصولاً الى البصرة.

وقد استغرقت تلك الرحلة بين بغداد والعماره قرابة خمس ساعات، قطعناها بسيارة تاكسي أميركية قوية استأجرناها سوياً، نجيب رحال ويوسف الجاروش وأنا.

في العماره نزلنا في فندق في الشارع الرئيسي اسمه «فندق عمر الخيّام» لا علاقة له بعمر الخيّام سوى بالإسم، وهو ليس فندقاً بالمعنى المعروف، لكن كان فيه حمّامات وغرفه نظيفة نسبياً، وقد ذكّرني بفندق «الزهراء» على مدخل سوق الخضرة في بيروت في شارع الأرجنتين بالقرب من المالية القديمة لصاحبه والد الصديق محمد خير الدويري الذي كان ناشطاً معنا في الحركة الطلاّبية وله ميول بعثية في ذلك الوقت، ثم عدنا الى التواصل بعدما علم أن ابنه في صف إبني عامر في مدرسة «زهرة الإحسان» في الأشرفية.

إلاّ أن «عمر الخيام» كان أكبر من فندق «الزهراء» الذي كان سعر الغرفة فيه ليرة واحدة في الليلة. أما في فندق عمر الخيّام في العماره فكنا ندفع عشرة دنانير في الشهر للغرفة الواحدة. ما شدنا الى المكان هو صاحب الفندق واسمه «كثير»، ويلفظونها «تشيثير»، وشريكه سعدون، وهما من ألطف الناس وأنبلهم خُلقاً وأخفُّهم دماً، فصارا لنا بمثابة الأخوة الغيارى، يسهران على راحتنا وتلبية كل ما نحتاج اليه. وكانت سهراتنا مع «كثير» بشكل خاص ظريفة وممتعة ومسلّية ومفيدة في الوقت ذاته.

كان علينا من الناحية البروتوكولية أن نتعرف على كبار المسؤولين في المتصرفية، وفي دائرة المعارف، وفي الأمن العام، وفي قيادة الحامية العسكرية، فاستقبلونا جميعاً أفضل استقبال، خصوصاً مدير الأمن العام ويدعى «أبو إيمان» ومعاونه ويدعى «أبو رياض». وقد لفتني في زيارتي الى مدير الأمن العام ومعاونه وجود ملصقات كبيرة عليها صورة المجتهد الشيعي الأكبر في الحوزة النجفية السيد محسن الحكيم، ونص فتوى أطلقها، وهي: «الشيوعية كفر وإلحاد»، مع أن الشائع آنذاك، بعد حركة العقيد الركن عبد الوهّاب الشوّاف الفاشلة، أن حكم عبد الكريم قاسم أسير الشيوعيين، أو أن الشيوعيين يدعمونه.

وكان من الواجب أيضاً أن نزور قائد الحامية العسكرية آنذاك الزعيم عبد الرحمن التكريتي الذي صرت أتردد عليه في مكتبه، أو بالأحرى على مجلسه، لأن مكتبه كان فسيحاً ويعج بالزائرين والمراجعين. وكان التكريتي ضابطاً محترفاً وملماً بالتاريخ العربي والإسلامي والعالمي، وما زلت أذكر حديثه لي عن التصورات الاستراتيجية لمحمد علي الكبير حاكم مصر في مطلع القرن التاسع عشر، باعتبارها أنموذجاً يُحتذى للخروج من عبثية الاعتماد على الدول الأجنبية

عسكرياً واقتصادياً، وخصوصاً لجهة السلاح والتسلُح. ولاحظت أن الزعيم عبد الرحمن التكريتي لم يحدثني ولا مرة عن عبد الكريم قاسم، ربما لأنه ندٌّ له في الرتبة العسكرية، وربما لأنه كان يشعر بأن تعيينه في أقصى الجنوب، في منطقة معروفة بكثافتها الشيعية، هو بمثابة إبعاد له عن المناصب العسكرية الحساسة في بغداد.

•••

تم تعييني في مدرسة تكميلية للبنين، هي «المتوسطة المركزية» يديرها مدير من تكريت أيضاً يدعى «أبو غزوان» ، وكان كفؤاً.

ثم خصصت لي حصص إضافية باللغة الإنكليزية في ثانوية العماره. وتم تعيين يوسف الجاروش في دار المعلّمات. وعاد نجيب رحال الى وظيفته السابقة في دار المعلمين. وكنا بعد الدوام نلتقي في الفندق فنلبي أحياناً دعوات على العشاء في منازل بعض أهالي البلدة الذين كانوا يتسابقون لدعوتنا. ثم صرت عن طريق الزعيم عبد الرحمن التكريتي أتردد على نادي الضباط داخل ثكنة الحامية العسكرية، حيث المشروبات الكحولية الجيدة متاحة، وحيث الطعام أفضل نوعيّة من المطاعم الشعبية. وكان معظم الضباط الذين تعرفت عليهم في النادي من الأكراد المبعدين من الشمال الى الجنوب، بالنظر الى أن الحرب الكردية في الشمال كانت قد تجددت بعد عودة القائد الكردي الملاَّ مصطفى البارزاني من منفاه السوفياتي الى العراق في أعقاب ثورة 14 تموز 1958.

وهناك تعارفت وتصادقت مع ضابط كردي من أهل الموصل، متخرج من الأكاديميات العسكرية السوفياتية، اسمه سالم الحاج عيسى، وقد قامت بيننا علاقة صداقة استمرت سنوات بعد عودتنا من العراق، حيث مرت تلك العلاقة بمحطات تشبه ما يحدث على المسرح الخيالي. ومن خلال سالم الحاج عيسى تعرفت على ضابط كردي آخر أعلى رتبة كان له شأن في الحركة الكردية اسمه «الرئيس» محمد أمين. و«الرئيس» رتبة عسكرية في الجيش العراقي أدنى من رتبة «الزعيم».

وتستحق قصة سالم الحاج عيسى كتاباً لوحده، خصوصاً أنه كان في قاعدة كركوك عند حصول حركة التمرد التي قادها العقيد الشوّاف في 8 آذار/مارس 1959، وأدت الى ما أدت اليه من أعمال عنف وقتل وسحل شملت العراق كله، وقيل يومها إن الشيوعيين هم الذين أطلقوها بإجازة من عبد الكريم قاسم. وكان سالم يومها ضابطاً صغيراً برتبة متدنية، لكنه بقي الضابط الوحيد في القاعدة بعد مقتل عشرات الضباط وهروب أعداد منهم الى مناطق آمنة، مما جعله حكماً آمراً للقاعدة بكل ما في ذلك من مخاطر في جو تسوده الفوضى والعنف وتمرد الجنود على ضباطهم. وقال لي إن مرافقه هرع اليه في غرفته

يدعوه الى عمل شيء لإنقاذ ضابط طرحه الجنود أرضاً وانهالوا عليه بالضرب، لكنه عندما وصل الى المكان ورشاشه في يده كانوا قد سحقوا رأسه بأعقاب أحذيتهم فخرج نخاعه من رأسه وامتزج بالتراب.

وظل سالم الحاج عيسى بصفته الضابط الوحيد المسؤول في القاعدة يداري الوضع بحذر وروية وحنكة الى أن هدأت الأمور بعض الشيء خلال أيام، فبقي في هذا الوضع حتى تعيين آمر جديد للقاعدة هو اللواء حسن عبود، وكان من الضباط الأكفاء في الجيش العراقي، فاستطاع أن يعيد الانضباط والهدؤ الى القاعدة وفي المنطقة.

وكان الضابط سالم الحاج عيسى أيضاً كاتباً وشاعراً يجيد اللغة العربية الى جانب الكردية والروسية وبعض الإنكليزية. وقد أطلعني على بعض كتاباته، لكنني لا أعرف ما إذا كان قد نشر شيئاً منها لاحقاً، أو عن حياته العسكرية الحافلة بالمفارق الخطيرة. فقد ضيّعته بعد عودتي من بيروت الى العماره بانتهاء الإجازة المدرسية النصفية في شهر شباط/فبراير من كل سنة، وكان وقتها الضابط المسؤول عن التجنيد. ذلك أنه خلال وجودي في بيروت في تلك الإجازة وقع الإنقلاب البعثي - العارفي على عبد الكريم قاسم، وحدثت انتقامات قام ببعضها «الحرس القومي» الذي كان بمثابة ميليشيا للقوى البعثية والقومية مهمتها المعلنة حماية النظام الجديد، لكنها في الواقع كانت مطاردة الشيوعيين وأنصارهم والاقتصاص منهم.[3]

ولما عدت الى العماره سألت عن سالم الحاج عيسى فقالوا لي إنه تم اعتقاله ولا يعرفون مكانه. إذ كانت هناك شكوك بميوله الشيوعية، وبما يتعلق بحساسية الظروف التي حصلت أثناء وجوده في قاعدة كركوك في أعقاب حركة الشوّاف. وبعد الاستقصاء، تبين لي أنه موجود في سجن الحلّة (بابل)، وهي بعيدة جداً عن العماره، لكن الأصدقاء في العماره ومنهم «كثير» نصحوني بعدم التوغل في هذه المسألة لئلا أقحم نفسي في متاعب أنا بغنى عنها. وكنت وقتها قد قررت إنهاء خدمتي في العراق والعودة الى لبنان مع انتهاء السنة الدراسية في مطلع الصيف، ولا سيما أنني تركت زوجتي في جب جنين وهي حامل بابنتي ريما، فقد عادت معي في الإجازة النصفية وهي حامل في شهرها الخامس.

لكن آخرين من الزملاء قرروا البقاء ومنهم فؤاد صقر من بلدة عين إبل، شقيق إتيان صقر، (المفوض السابق في الأمن العام اللبناني وكان خدم في مخفر شتورا، وعُرف خلال الحرب اللبنانية بلقب «أبو أرز» بعد تشكيله لتنظيم

---

(3) اعترف علي صالح السعدي لاحقاً، وهو أحد أقطاب ذلك الانقلاب، بأن الأميركيين كانوا يقفون وراء ذلك الإنقلاب بقوله بعد سقوط حكمه: «لقد جئنا الى الحكم في قطار أميركي». وتحدثت مراجع عديدة تالياً عن لوائح بأسماء شيوعيين مطلوب تصفيتهم أعدتها الاستخبارات المركزية الأميركية وسلمتها الى المسؤولين الجدد لتنفيذها.

«حرّاس الأرز»)، وزوجته الفلسطينية هيام ملحس التي كانت مدرّسة هي الأخرى في العماره. وقد عادت هيام لاحقاً الى بيروت حيث أسست الجامعة المعروفة اليوم باسم «الجامعة الأميركية للعلوم والتكنولوجيا» AUST، في الأشرفية بالقرب من مستشفى «أوتيل ديو». وقد زرتها هناك في عام 2003 برفقة الزميل السابق في العماره يوسف الجاروش الذي تفضل وأعطاني صورة لكامل الهيئة التدريسية التي كنت في عدادها آنذاك يتقدمهم المدير «أبو غزوان».

ومرت الأيـام والسنون سريعاً، وتقلبت المسارات، وتغيّرت الأحـوال، الى أن عملت في مجلة «الأحـرار» رئيساً لتحريرها، وكانت تابعة للقيادة القومية لحزب البعث الحاكم في العراق بقيادة الرئيس أحمد حسن البكر. وكان أن قمت بزيارة عمل الى بغداد في مطلع عام 1970، وفيما كنت في مكتب القيادي السوداني محمد سليمان الخليفة المتحدر من سلالة المهدي، وكان عضواً في القيادة القومية آنذاك، جاءته مخابرة تلفونية من نائب رئيس الجمهورية صالح مهدي عماش، إذ يومها كان للرئيس البكر نائبان هما صالح مهدي عمّاش وحردان عبد الغفّار التكريتي، قبل أن يصبح صدّام حسين النائب الأوحد.

وفيما محمد سليمان يتحدث الى عماش التفت وقال لي:

«أبو هدى مسافر غداً الى القاهرة على رأس وفد لحضور قمة لدول المواجهة مع عبد الناصر، فهل تريد أن تذهب مع الوفد للتغطية الصحافية كي نجري الترتيبات اللازمة؟».

فرحبت بالفكرة على الفور. وفي صباح اليوم التالي توجهنا الى مطار بغداد حيث كانت تنتظرنا طائرة خاصة بالوفد، فأخذ كل من أعضائه مقعده. وكنت جالساً الى جانب ضابط شاب بملابسه العسكرية يدعى المقدم مهدي عبد الله. وبعد السلام والكلام على غير معرفة، قلت له:

«إنني عندما كنت مدرساً في العماره قبل ثماني سنوات عرفت ضابطاً في الجيش اسمه سالم الحاج عيسى، فهل تعلم عنه شيئاً؟».

قال: «طبعاً أعرفه وهو ابن دورتي وتخرج معي».

قلت له:

«علمت أنه اعتقل في انقلاب شباط/فبراير 1963، فما كان مصيره؟».

قال:

«لم يكن عليه شيء فأعادوه الى الخدمة وترقّى وهو الآن ضابط مدفعية في القوات العراقية المرابطة في الأردن بقيادة اللواء الركن حسن مصطفى النقيب».

قلت للضابط مهدي عبد الله:

«هل بالإمكان الاتصال به؟».

قال:

«طبعاً أكتب له رسالة وأنا أنقلها له في بريد الجيش، ولتكن مفتوحة لأنها ستمر على الرقابة العسكرية».

وأخذت من جيبي بطاقة تحمل اسمي وعنواني في بيروت وكتبت على متنها ما حدث مع زميله مهدي عبد الله في الطائرة وتبرعه مشكوراً بنقل هذه الرسالة، وأرجو أن يتصل بي في بيروت إذا أمكن.

وبعد أسبوعين تماماً وصلتني الى مكتب المجلة بالقرب من فندق «بريستول» في منطقة «الصنوبرة» رسالة مختومة بأختام الرقابة العسكرية للجيش العراقي في الأردن، يعبر فيها عن شوقه ومحبته لي، ولزوجتي لور التي تعرف عليها في منزلنا في العماره، ويتمنى أن نلتقي في وقت قريب إذا سمحت الظروف. وكان عنوانه على الظرف المتضمن للرسالة، فتركت الرسالة في ظرفها على مكتبي في المجلة بغية الإجابة عنها في اليوم التالي.

وفي اليوم التالي عدت الى المكتب متأخراً لأجد على المدخل ضوضاء وكركبة وشرطة، ولما دخلت الى المبنى وجدت وزير الداخلية كمال جنبلاط، ومعه نقيب الصحافة رياض طه وغيرهما من المعنيين، لأن قنبلة قد انفجرت في المكتب في الصباح الباكر، ولم يصب أحد بأذى، إلاّ مكتبي تطايرت منه الأوراق وتحطم زجاجه، فخرجت منه للتحدث الى وزير الداخلية ونقيب الصحافة، ولم أعد الى المكتب إلاّ بعد السماح بتنظيفه وإعادته الى حالة سليمة. ففقدت في تلك الحادثة رسالة سالم الحاج عيسى وعنوانه. ولم تسنح الظروف للاتصال به من جديد إلاّ في ربيع عام 1981، أي بعد مرور أحد عشر عاماً على تلك المراسلة اليتيمة.

وفي مؤتمر دول المواجهة ذاك كان الوفد السوري برئاسة نور الدين الأتاسي، رئيس الجمهورية آنذاك، وعضوية وزير الدفاع حافظ الأسد، ووزير الداخلية محمد رباح الطويل. وقد دعاني الصحافي والمذيع السوري المعروف اللاجىء في مصر عبد الهادي بكّار الى الغداء في مطعم مكشوف بالقرب من الأهرامات، فوجدنا هناك على طاولة مجاورة نور الدين الأتاسي، وحافظ الأسد، ووزير الداخلية السوري.

أما المرحوم محمد سليمان فقد توفي في ظروف مأسوية وهو في ريعان الشباب في العام التالي. وكنت بعد زيارتي له تلك في مكتبه ببغداد التقيته ثلاث مرات: مرة عندما زارني في بيتي على الروشة وكان ابني الثالث عماد في الخامسة من العمر، أو أقل قليلاً، ولم يكن قد شاهد من قبل رجلاً أسود اللون. وفيما كنا جالسين على البلكون الدائري المطل على البحر، سأله عماد:

«لماذا أنت أسود؟».

فضحك محمد سليمان وقال له:

«عندما كنت صغيراً مثلك، كانت أمي تطعمني الشوكولاته، فصار لوني بلون

الشوكولاته. فإياك أن تأكلها».

وبالفعل امتنع عماد عن أكل الشوكولاته الى أن أصبح شاباً مدركاً للأمور.

والمرة الثانية التي التقيت فيها محمد سليمان كانت في حفل عشاء تكريماً له ولخطيبته السودانية أقامه نقيب الصحافة رياض طه في منزله في بيروت. والمرة الثالثة التي التقيته فيها كانت في العاصمة السوفياتية موسكو، حيث كنت زائراً، وكان هو في طريقه الى بغداد قادماً من «بيونغ يانغ» عاصمة كوريا الشمالية على رأس وفد من حزب البعث، حيث قابل هناك «الزعيم المحبوب المبجّل من أربعين مليون كوري» كيم إيل سونغ.

أما ظروف وفاته فإنها لا تُصدّق. ذلك أنه عندما جرت المحاولة الإنقلابية في الخرطوم ضد نظام جعفرالنميري، بقيادة الضابط هاشم العطا، الذي أعلن تعيين زميل له هو بابكر النور رئيساً لمجلس قيادة الثورة بدلاً من النميري، اتهم النميري الشيوعيين بالانقلاب الفاشل، فتم إعدام زعيم اتحاد النقابات العمالية السودانية شفيع أحمد الشيخ، وأمين الحزب الشيوعي عبد الخالق محجوب، والضباط المشاركين في الانقلاب، ومنهم ثلاثة كانوا في لندن، فلما علموا بالانقلاب ركبوا طائرة بريطانية عائدين الى الخرطوم، لكن السلطات الليبية أثناء مرور الطائرة في أجوائها أمرتها بالهبوط في ليبيا، وتم تسليم الضباط الى النميري فأعدمهم، وهم: بابكر النور المعلن زعيماً للانقلاب، وفاروق عثمان عبد الله[4]، الذي يقال إنه كانت له علاقة بالبعثيين السودانيين، ومحمد محجوب عثمان شقيق الأمين العام للحزب الشيوعي.

وقررت القيادة القومية لحزب البعث في بغداد إيفاد العضو السوداني فيها محمد سليمان الى الخرطوم مع عدد من الحزبيين في طائرة خاصة للوقوف على ما يجري في السودان عن كثب. وعندما وصلت الطائرة الى الأجواء السودانية أُمرت بالعودة لأن مطار الخرطوم كان لا يزال مغلقاً، فعادوا للهبوط في مطار جدة في المملكة السعودية هبوطاً اضطرارياً بسبب سوء الأحوال الجوِّية، وكان محمد سليمان يغط في نوم عميق أثناء الهبوط الاضطراري الذي تم على الرمال الى جانب المدرج، فانخلعت رقبته عند ارتطام الطائرة بالرمال وقضى وهو نائم فلم يشعر بشيء. وسلم جميع ركاب الطائرة الآخرين.

كان العراقيون عندما وصلنا الى بلدهم منقسمين على مرارة وحدّة، الى درجة أن كل فريق يعاتبك إذا شاهدك تحكي مع شخص من الفريق الآخر. والفريقان

(4) في أغلب الظن أنه كانت لفاروق عثمان علاقة بالبعثيين لأن السفير العراقي في بيروت عبد الفتاح ياسين كلفني مرة بنشر مقالة للضابط السوداني المذكور في جريدة لبنانية محايدة فاتصلت بالزميل فؤاد مطر في جريدة «النهار» وعرضت عليه الأمر فاعتذر بحجة أن المحرر المسؤول هو عبد الكريم أبو النصر، وأظن أنه في ذلك الوقت كان على علاقة مع جعفر نميري فعذرته. لكن جورج سكاف رئيس تحرير جريدة «الجريدة» آنذاك قبلها ورحب بها مع تعديلات طفيفة تتعلق بالموقف من السعودية.

المذكوران هم البعثيون والشيوعيون. وكان لعبد الكريم قاسم شعبية ملفتة بين الفقراء، خصوصاً بين أولئك الذين يسمونهم «أهل الصرايف»، والذين يسمونهم في بيروت وبقية المدن في العالم الثالث «حزام الفقر» الذي يقيم سكانه في بيوت التنك والتخشيبات في محيط المدن. أما أهل الصرايف في العراق فكانوا يقيمون في خيام من سعف النخل، يسمون كل خيمة منها «صريفة». وحتى بعد مقتل عبد الكريم قاسم سرت كالنار في الهشيم بين أهل الصرايف إشاعات مفادها أن الزعيم لم يمت، وأن بعضهم شاهد صورة وجهه على سطح القمر في الليالي المقمرة!

وكانت النخب السياسية الموالية له، خصوصاً في الجيش، تطلق عليه لقب «الزعيم الأوحد»، بينما كان موالوه في الشارع الشعبي يهتفون له بالقول: «ماكو زعيم إلاّ كريم»، أي لا زعيم غير عبد الكريم قاسم، وهو ترجمة شعبية حرفية للشعار النخبوي «الزعيم الأوحد».

وفي العماره كنت أقص شعري عند حلاّق بعثي اسمه نصيّف، فكان وهو يقص لي شعري يفتح الجارور في الطاولة التي تقف عليها المرآة حيث يضع مقصّاته، وفي داخله النشرة السرية لحزب البعث، فكنت أقرأها من غير أن أخرجها من الجارور لئلا يراها أحد فيشي به الى الأمن. وبسبب عملية القراءة المضنية هذه كان قص الشعر في دكان نصيّف يستغرق أكثر من ساعة. وذات يوم جئته لأقص شعري، فإذا به متجهم الوجه وقال لي:

«استاذ، شلون انت تمشي مع هذا الشيوعي الخنزير؟».

فقلت له متفاجئاً:

«ومن هو هذا الشيوعي الخنزير؟».

قال:

«هذا الضابط الكردي. ألا تدري إنه شيوعي؟».

قلت له:

«لا والله لا أدري. لكنه رجل طيِّب دافىء القلب واللسان ولا يذكر أحداً بسوء».

قال:

«على كل حال، خذ حذرك منه».

هكذا كان الحال في العراق متأزماً في الشارع والأوضاع محتقنة تنتظر شرارة الانفجار التي سرعان ما أتت. وكان دليلي في العماره لمعرفة هذا من ذاك، صديقي «تشيثير» صاحب الفندق الذي يعرف كل الناس وكل الناس تعرفه. وكان يهزأ أمامي بلهجته الخاصة المحببة بالجهل والتعصب والحزبية الضيقة. وكلما رآني أسير مع شخص مثير للجدل أجده يضحك ويقول لي:

«أبو داوود.. الله يعينك».

لكن «تشيثير» كان بالغ السرور عندما توطدت صداقتي مع شيخ من شيوخ

العشائر العربية عرّفني عليه واسمه أيضاً «تشيثير» بن مطلق السلمان زعيم قبيلة عرب البومحمد[5] التي ينتمي اليها هو أيضاً. وهذا الشيخ الجليل والوقور والمهاب والمعتد بنفسه وبعروبته، وبمحبته للبنان واللبنانيين، هو وريث الشيخ مطلق السلمان الذي أسس «حزب الأحرار» مع سعد صالح في العهد الملكي الهاشمي وكان عضواً في البرلمان العراقي. وكان تشيثير بن مطلق السلمان في ذلك الوقت قد أصبح «على الأرض يا حكم»، كما يقول اللبنانيون، ويعيش في ظروف مزرية بعد مصادرة أراضيه وأملاكه الواسعة، لكنه احتفظ بوقاره وهيبته واحترامه لنفسه، فكان أبناء العشيرة عندما يأتون للسلام عليه، أو يلتقونه في الشارع، ينحنون له ويقبِّلون يده، ومنهم «تشيثير» صاحب الفندق نفسه.

وبعد الثورة مباشرة نُفي الشيخ «تشيثير» بن مطلق السلمان الى الشمال الكردي في «شقلاوة» مع آخرين من الإقطاعيين الذين صودرت أراضيهم وأملاكهم ليتصرف بها الإصلاح الزراعي على هواه. ثم سُمح له بعد فترة بالعودة الى عياله في العماره. ولم يكن هو الشيخ الوحيد في العماره، بل كان هناك الشيخ العريبي الذي لم أتعرف عليه، لكنني علمت أن أحواله أحسن بما لا يقاس من أحوال الشيخ «تشيثير»، إذ إنه كان يملك مجموعة ثمينة من السجّاد العجمي القديم، تمكن من التصرف بها. لكنني تعرفت على شخصين آخرين من أبرز وجهاء العماره آنذاك أحدهما المحامي جاسم العوّادي، والآخر مزارع كبير من عائلة «المقداد»، وكان يقوم بزراعة الرز في مناطق قريبة من الأهوار، وقد اصطحبني مرة الى هناك لتفقُّد مزارع الرز. وكان العراقيون يومها يسمّون الرز الأخضر «الجلب»، وتلفظ «تشيليب»، ويسمّون الرز المقشور الذي نعرفه ونأكله كل يوم «التَمّن»، وكانوا يزرعون منه نوعاً نادراً رائحته طيّبة ويمكن تعتيقه كالنبيذ الفاخر، يسمونه «العنبر»، أظن أنه انقرض في العراق الآن، وتُزرع كميات محدودة منه في باكستان، قيل لي إن شيوخ الخليج يشترونه كله، ولذلك فإنه ليس متوافراً في الأسواق. وعائلة المقداد هي إحدى العائلات السنِّية القليلة في العماره، إن لم تكن العائلة الوحيدة.

ويصنع أهل جنوب العراق من طحين الرز خبزاً شهياً على الصاج يسمونه «المُسيَّح»، وهو لذيذ عند أكله ساخناً نازلاً عن الصاج لتوِّه، خصوصاً عندما يؤكل مع السمك المشوي مع مخلل المانغو الذي يسمونه «العنبه». وبعد السمك المشوي كانوا يشربون لبن العيران الذي لم أكن أجرؤ على تناوله بسبب

(5) البومحمد واحدة من تسع قبائل عربية سنِّية هاجرت من نجد الى جنوب العراق واعتنق بعضها المذهب الشيعي، ومنهم قبيلة البومحمد. ومن أبرز تلك القبائل «ربيعة»، و «الخزعل»، و«العُبيد»، و«بنو لام»، و«الدليم»، و«الزبيد». لكن السبب الموجب لنشوء العمارة هو التنازع مع عرب بني لام الذين هاجروا من نجد في القرن السادس عشر لكنهم لم يعتنقوا المذهب الشيعي إلاّ في القرن التاسع عشر، وهم يدّعون الانتساب الى قبائل طي. («شيعة العراق»، اسحق نقّاش، صفحة 27).

الخرافة اللبنانية التي تمنع أكل السمك مع اللبن. ولاحظت أيضاً أن العراقيين في الجنوب بعد الوجبات الدسمة يأكلون الرمّان، فاستحسنت هذه العادة واتبعتها، وما زلت أتبعها، كلما نزل الرمّان الى الأسواق.

وأصر الشيخ «تشيثير» مرة على دعوتي الى الغداء في منزله على الرغم من الحالة المزرية للمنزل الذي لا يصلح للسكن البشري، ليعرِّفني على والدته، وهي سيدة جليلة قهرتها غدرات الزمان. وعندما وضعت لنا الطعام الذي هو عبارة عن صحن من «التمّن والمرق»، أي مرق البامية مع الرز، وبعض الدجاج قالت لي وهي تكاد تدمع:

«هجم بيتنا أبو خرطوم هجم بيته».

فرأيت ابنها الشيخ مستلقياً على ظهره من الضحك، عندما كررت تلك العبارة ولاحظ أنني لم أفهم ما قصدته، فترجم ذلك لي على أن المقصود منه أن أبو خرطوم هو عبد الناصر الذي خرب بيتنا فليخرب الله بيته. كلمة تقال من عزيز قوم ذُلّ . ذلك أنها كانت تعتقد بأن عبد الناصر يقف وراء ثورة 14 تموز التي أطاحت الإقطاعيين.

وبعد سنوات عدت الى بغداد بصفة صحافية، وكان القيادي في حزب البعث آنذاك صلاح عمر العلي وزيراً للإعلام ورئيساً لتحرير جريدة «الثورة»[6]، ويشغل منصب وزير الإصلاح الزراعي والريّ بالوكالة، فقال لي إنه ذاهب الى العماره لتدشين معمل للسكر في ناحية «المجر»، والبدء بقص قصب السكر المزروع هناك لتشغيل المعمل، وسألني ما إذا كنت أرغب في مرافقته لاستذكار الماضي، فوافقت على الفور، فطلب مني أن أستيقظ باكراً لأنه سيمر علي في فندق «بغداد» ليأخذني معه. وبعد تدشين المعمل وقص القصب الذي شاركنا فيه مشاركة رمزية أو إعلامية، عدنا الى العماره فذهب صلاح الى دار المتصرفية للاجتماع بالمتصرف والمسؤولين عن الشأن الزراعي، وذهبت أنا الى فندق «تشيثير» ففوجىء بوجودي، وطلبت منه أن يأخذني الى بيت الشيخ «تشيثير» (أبو محمد) الذي رحب بي أجمل ترحيب، فشرحت له أسباب مجيئي الى العماره مع الوزير، فحدثني عن نزاع مع الوزارة على أرض كان يملكها ومن الممكن استردادها، وطلب مني بشكل عرضي أن أفاتح الوزير صلاح عمر العلي بها. وبعد قليل غيّر رأيه واستحلفني أن أنسى الموضوع وأخذ مني وعداً بأن لا أفاتح أحداً فيه بقوله لي:

«لا أريدك أن تكسر نفسك لأحد»!

وقبل الثورة كان الشيخ أبو محمد يأتي في الصيف مرة الى لندن ومرة الى

---

(6) تسلّم صلاح عمر رئاسة تحرير «الثورة» لأن الرئيس البكر كان غاضباً على طارق عزيز لسبب من الأسباب. وفي ذلك الوقت جاء طارق عزيز الى بيروت مع زوجته ووالدته، فدعوتهم الى الغداء في منزلي، لكن طارق لم يخبرني شيئاً عن الموضوع، ولم أكن على علم به إلاّ بعد تلك الزيارة الى بغداد.

لبنان، وكان يحب الذهاب الى زحلة لكنه كان يخاف من طريقة سائقي التاكسي في قيادة سياراتهم بسرعة على الطرقات الجبلية. وقال لي إنه ذات يوم كان صاعداً الى زحلة بسيارة تاكسي فأخذ السائق يسرع على المنعطفات الجبلية، فقال له:

«على كيفك أخي»، أي بالمعنى العراقي «على مهلك».

فأخذها السائق بالمعنى اللبناني، أي «خذ راحتك»، وأطلق العنان لسيارته حتى كاد يدوخ أبو محمد قبل أن يصل.

•••

من المواضيع المثيرة للجدل في العراق آنذاك، خصوصاً بين قدامى العراقيين الذين خبروا الحياة البرلمانية في العهد الملكي، ومنهم الشيخ أبو محمد المطلق (الشيخ تشيثير)، ليونة الحزب الوطني الديموقراطي بقيادة كامل الجادرجي تجاه نظام عبد الكريم قاسم، ومشاركة محمد حديد في حكومة قاسم كوزير للمالية. ولم أكن في ذلك الوقت أعرف شيئاً بالعمق لا عن الجادرجي ولا عن محمد حديد، لكنني من خلال صداقتي مع المصرفي العراقي المعروف صبيح محمود شكري في لندن لاحقاً، توضحت لدي الصورة أكثر، وأيقنت أنه كان هناك تمايز بين موقف الجادرجي وموقف محمد حديد، لأن هذا الأخير، كما يبدو، كان شغوفاً بالسلطة خلافاً للجادرجي الذي يُعتبر أكبر وأهم الشخصيات الديموقراطية التي مرت في تاريخ العراق الحديث حتى الآن.

وفي لندن تعرفت بصورة عابرة على نجله رفعت الجادرجي في مكتبه في العاصمة البريطانية عن طريق صديق أردني كان يعمل معه هو المرحوم جورج الورّ. أما محمد حديد والد المهندسة المعمارية المعروفة عالمياً زها حديد، فإنني لم أتعرف عليه لكنني قابلت نجله فولاذ على موعد في فندق «شيراتون» اللندني في «نايتسبريدج»، رتّبه الزميل سعيد أبو الريش الذي كان في ذلك الوقت يعدّ لكتابه عن صدّام حسين[7] باللغة الإنكليزية، وهو أهم كتاب مستقل صدر عن صدّام على الرغم من بعض الأخطاء السطحية فيه. وهو يختلف نوعياً عن كتاب الكاتب المصري أمير اسكندر[8]، وعن كتاب الصحافي اللبناني فؤاد مطر[9]، وكلاهما كتب سيرة صدّام من وجهة نظره وكما أرادها هو.

فقد اتصل بي سعيد أبو الريش لملاقاته في الفندق المذكور، وقال لي إن فولاذ حديد يريد شخصاً يعرف العراق جيداً ليكتب مذكرات والده محمد حديد

(7) Saddam Hussein, The Politics of Revenge, Said Aburish, Bloomsbury Publishing PLC 21 January 2000

(8) «صدام حسين، قائداً ومفكراً وإنساناً»، نشرته دار هاشيت في باريس عام 1980 بعنوان:
Saddam Hussein, le Militant, le Penseur, et L'Homme

(9) «صدام حسين: الرجل والقضية والمستقبل»، وهذا أيضاً صدر أولاً بالفرنسية عام 1980 عن دار «لو سيكومور» بعنوان: Saddam Hussein, ou le Devenir Irakien

قبل أن يغادر الحياة، وإنه اقترح عليه أن أقوم أنا بهذه المهمة، فوافقت من حيث المبدأ، وقال إنه سيحدد موعداً للقاء معه بحضوره. وفي الموعد المحدد جاء فولاذ فتعارفنا وتحدثنا في شتى الأمور العراقية وغير العراقية قبل أن نبدأ الحديث في صلب الموضوع، فشرح لي أوضاع والده الحالية وتقدمه في السن وشعوره بضرورة وضع كتاب عن تجربته السياسية، وقال إن هذه المهمة تشمل ثلاث مراحل: أولاً مرحلة إجراء أحاديث مع والده على عدة جلسات للوقوف على ما عنده وعلى تصوراته ومحاورته لتنشيط ذاكرته واستدراج آرائه وأفكاره. وثانياً مرحلة مراجعة ما لديه من أوراق ووثائق ودرسها وغربلتها والتشاور معه بشأنها، والمرحلة الثالثة الذهاب الى بغداد للبحث في أرشيف الحكومة العراقية عن بعض المستندات حول القضايا التي كان طرفاً فيها أثناء وجوده في الحكم. وقال إننا سنبحث في جلسة لاحقة الأمور المالية المترتبة على هذا الجهد المكثّف، التي أشار الى أنها لن تكون مشكلة. وافترقنا على أن نتواصل لتحديد موعد جديد وقريب.

وبعد أيام اتصل بي سعيد أبو الريش وقال لي إن فولاذ عرض الموضوع على والده، فقال له إنه يفضّل أن يقوم بهذه المهمة شخص عراقي. وانتهى الأمر عند هذا الحد.

•••

إضافة الى التوتر السياسي الذي قام في تلك الأيام، بعد محاولة صدّام حسين الفاشلة لاغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم بإطلاق النار على سيّارة «الشيفروليه» التي كان يركبها في بغداد، (ظلت معروضة في ساحة من ساحات العاصمة العراقية حيث وقعت المحاولة كنصب تذكاري الى أن أزيلت بعد سقوط نظامه وإعدامه) وبعد أعمال القتل والسحل والعنف والاعتقالات الواسعة التي أعقبت محاولة الشواف الفاشلة، برز على الصعيد المدرسي توتر من نوع آخر. ذلك أن كل طالب في المدارس التكميلية المتوسطة والمدارس الثانوية يرسب في صفه يساق الى التجنيد في الجيش، وبطبيعة الحال الى حرب الأكراد في الشمال. فكان أهالي الطلاّب يتخوّفون من رسوب أولادهم، ويحاولون استرضاء المعلمين بشتى الوسائل في أوقات الامتحانات.

وكانت رقابة وزارة المعارف على المدارس شديدة وصارمة، فكان يأتي الينا من وقت الى آخر وعلى حين غَرّة مفتشون من البصرة أو من بغداد أحياناً، يحضرون الى الصفوف ليراقبوا كيفية أداء المعلمين في التدريس وفي التحضير للواجبات المدرسية.

وفي يوم بعد الامتحانات خرجت من المدرسة برفقة زميل عراقي يدعى عبد الرزاق، وكنا نمشي سوياً في السوق، وفجأة جاءنا من الوراء طالب راسب كان عبد الرزاق قد أعطاه علامة ساقطة على الرغم من الوساطات والترجيات،

وانهال على معلمه بالضرب على كتفيه ورأسه بقضيب حديدي شج رأسه وترك رضوضاً في جسمه وهرب وتوارى عن الأنظار. وفي أغلب الظن أنه هرب الى منطقة الأهوار التي يلجأ اليها عادةً الخارجون عن القانون.

وتقدم عبد الرزاق بشكوى الى المحكمة، فاستدعيت كشاهد في المحاكمة الغيابية. ولما كان على الشهود أن يقسموا اليمين على القرآن، فقد أحضر الحاجب قرآن المحكمة لأقسم اليمين عليه، فاضطرني ذلك الى الإفصاح لهيئة المحكمة إنني لست مسلماً، لكنه لا مانع لدي من حلف اليمين على القرآن، فأمر القاضي بإحضار إنجيل لهذه الغاية. فغاب الحاجب قرابة ربع ساعة ثم عاد بنسخة من الإنجيل ربما تعود الى القرن الأول للميلاد لكثرة ما عليها من غبار وبيوت عنكبوت لقلة الاستعمال، فجرى تنظيفها برقعة على الأقل ليظهر عنوانها فحلفت اليمين على ذلك الإنجيل المعتّق.

وكان في العماره عائلات مسيحية قديمة، لكنها قليلة، ومنهم عائلة حنا الشيخ. وتعرفت في العماره على معلّمة في دار المعلّمات حيث كان يعمل الزميل يوسف الجاروش، وهي من عائلات البصرة واسمها ليلى هنري.

وكان في العماره أيضاً عائلات عديدة تنتمي الى طائفة الصابئة المندائية، اشتهر منهم كثيرون بصياغة الذهب. ومن أصدقائي الصابئة زميل يدعى «ثمين الشيخ»، كان والده أحد شيوخ الطائفة. ولاحظت أن الصابئيين في المجتمع العراقي كانوا أكثر خوفاً وحذراً من المسيحيين، لكن يبدو أن نصيب المسيحيين من التهجير والقتل بعد الاحتلال الأميركي للعراق كان أكبر بكثير من نصيب غيرهم نسبياً[10]. كما لاحظت أن الصابئة يتزاوجون مع المسلمين أكثر من المسيحيين، خصوصاً البنات منهم.

وكان يأتينا من أهل الأهوار تلاميذ أسماؤهم غريبة، لكنها من بيئة برِّية كما هو متوقع، لأن تلك المنطقة كانت دائماً عصيّة على الدولة لصعوبة مسالكها وارتفاع علو القصب والنباتات فيها، حتى جفّفها صدّام خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية بإقامة نهر اصطناعي ثالث بين دجلة والفرات. ومن تلك الأسماء، مثلاً، «مطشّر»، أي المتواري عن الأنظار. ومنها أيضاً «جريو ابن كليب»، أي الجرو ابن الكلب. أو «جحش ابن زمال»، أي الجحش ابن الحمار. وما الى ذلك.

ومن أهل العماره أبو طالب عبد المطّلب الهاشمي الذي برز اسمه في الانقلاب ضد عبد الكريم قاسم في ذلك الوقت، قبل بروز اسم علي صالح السعدي، وكان أحد أقربائه، وهو عبد الزهرة الهاشمي، من تلاميذي. وقد التقيت عبد الزهرة في لندن خلال الثمانينات بمحض المصادفة وأنا أسير في الشارع في سوق «هاونسلو» غرب لندن، فعرفني وعرفته وتحدثنا عن العراق والعماره

(10) في مقابلة أجرتها محطة «سي بي أس» الأميركية مع أسقف أنكليكاني بريطاني في بغداد قال الأسقف المذكور إن ما جرى للمسيحيين في العراق في ظل الاحتلال الأميركي هو أسوأ ما واجههم في تاريخهم منذ القرن الميلادي الأول.

وعن ظروف مجيئه الى لندن. وكان من أنجب تلاميذي في المدرسة المتوسطة واحد يدعى أبو ذر طه الشيخ، الذي كان والده طه الشيخ أحد كبار ضباط الثورة مع عبد الكريم قاسم. وكان معنا في المدرسة فنّان يُدرِّس الرسم والفنون التشكيلية، هو عبد الرحيم البيّاتي، فطلب مني أن أجلس في استوديو المدرسة حيث يعلّم الرسم لكي يرسم لي صورة زيتية، ففعلت لكن تلك الصورة لم تكتمل قبل مغادرتي العراق نهائياً فبقيت على قاعدتها في الاستديو، ولا أدري ماذا حلّ بها.

•••

كان من المقرر أن أعقد زواجي خلال العطلة الصيفية عام 1962، لكن خلال العطلة النصفية في أواخر كانون الثاني/يناير ومطلع شباط/فبراير، عدت الى لبنان لمدة أسبوعين. فقالت لي خطيبتي آنذاك، وزوجتي لاحقاً، إن عيد ميلادها يقع في الرابع من شباط/فبراير، فاتفقنا أن نعقد زواجنا في يوم عيد ميلادها لتلحق بي فيما بعد الى العراق ريثما يجري استكمال المعاملات القانونية وأتدبر أمر السكن في منزل خارج الفندق. وبعد أسبوع شهر العسل عدت الى العراق منفرداً. وفي بغداد قبل توجهي الى العماره علمت أن الدكتور سعدون حمادي الذي كنا نعرفه من مطعم فيصل في بيروت قبالة الجامعة الأميركية صار وزيراً للإصلاح الزراعي في حكومة أحمد حسن البكر التي تشكلت بعد الانقلاب الذي قاده عبد السلام عارف ضد حكم عبد الكريم قاسم. واستأجرت سيارة تاكسي بنصف دينار وذهبت الى وزارة الإصلاح الزراعي لتهنئته، فسألني الحارس على المدخل ماذا أريد، فقلت له مقابلة السيد الوزير. فاتصل بالهاتف بعدما أخذ اسمي وسأل فقالوا له ليصعد، وأظن أن مكتب الوزير كان في الطابق الثالث، فصعدت الى هناك، فوجدت باب المكتب مفتوحاً ورأيت الدكتور سعدون واقفاً على الباب مع وكيل الوزارة الذي يحمل في يده مجموعة من الملفات وهما يتناقشان، فبقيت بعيداً من قبيل اللياقة، لكن الوزير أشار اليّ بيده طالباً مني المجيء وهو لا يزال يكلّم وكيل الوزارة. فسمعت الوكيل يقول له إن المشكلة في هذه «القاع»، أي قطعة الأرض، أن الجيش يريدها ويطالب بها، فرد عليه الدكتور سعدون بقوله:

«لا تدخلني في مشكلة مع الجيش».

وسلمت عليه وهنأته بالوزارة، وشربنا الشاي، وسألني عن الإخوان في بيروت، وغادرت متوجهاً الى العماره. وكنت أتمشى في باريس مرة مع الأستاذ صلاح البيطار، وهو يخبرني عن مقال له سوف ينشره في جريدة «لوموند» الفرنسية بطلب من رئيس تحريرها آنذاك أندريه فونتين[11]، الذي كان قد

(11) أندريه فونتين من أشهر وأقدم وأهم الصحافيين الفرنسيين في القرن العشرين، وقد بدأ حياته الصحافية والكتابية قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها في مجلة «الأزمنة الراهنة»، ثم انضم الى جريدة «لو موند» في عام 1947، ليصبح رئيساً للتحرير فيها من عام 1969 الى عام 1985.

تعرف عليه سابقاً. ومن جملة الحديث أخبرته قصة زيارتي لسعدون حمادي في بغداد، والحديث الذي سمعته على باب وزارته. فقال لي إنه عندما احتدم الخلاف الحزبي في دمشق قبل انقلاب صلاح جديد، وكان سعدون حمادي لاجئاً فيها بعد سقوط حكم البعث الأول في العراق، سأله البيطار عن رأيه في ما يجري داخل الحزب، فقال له:

«يا أستاذ صلاح أنا رجل تقني ولا رأي لي في السياسة».

وقد تذكرت هذه الكلمة بعد تدهور العلاقات العراقية ـ الأميركية في عهد صدام وكان سعدون حمادي رئيساً للمجلس الوطني، فاعتصم ونواب المجلس أمام المبنى للتنديد بالسياسة الأميركية، فكتب سعد البزاز الذي كان ملحقاً إعلامياً في السفارة العراقية في لندن أواخر السبعينات ومطالع الثمانينات من القرن الماضي مقالاً لا أذكر أين نُشر، إما في جريدة «الشرق الأوسط» السعودية، أو في جريدته «الزمان» التي كتبت عنها تعليقاً في جريدة «الميزان» بعنوان «زمان البزاز صدرت قبل زمانه»، وفيه يقول البزاز إنه أشفق على سعدون حمادي الذي جلس على الأرض يكتب شعار «لتسقط أميركا».

•••

باشرت البحث عن منزل في العماره فور وصولي، فوجدت بمساعدة «تشيثير» صاحب الفندق شقة صغيرة في أول البلدة فوق مقهى داخل حديقة كبيرة ومسيّجة ولها مدخل لوحدها بعيداً عن مدخل المقهى، وهي قريبة من ساحة تتجمع فيها عربات الحنطور للنقل وتمر من أمامها باصات نقل الركاب الحمراء الشبيهة بالباصات الإنكليزية ويسمون تلك الحافلات «باصات الأمانة»، أي باصات البلدية أو النقل العام. وقد قام صاحب المقهى المذكور ويدعى «أبو عقيل»، وهو رجل طيِّب وآدمي وابن حلال، بتجهيز تلك الشقة المؤلفة من غرفة نوم واحدة، وصالون صغير، وحمّام، ومطبخ ليس مطبخاً بالمعنى المألوف بل هو عبارة عن فجوة لها نافذة صغيرة تطل على سطح المقهى الواقع تحتها فيها مجلى وتحته خزانة وطبّاخ له فتيلة مستديرة بعينتين يعمل بزيت الكاز أو الكيروسين لأن الغاز الطبيعي المعبأ بالقناني المضغوطة لم يكن قد وصل الى العماره بعد. وكان موقع الشقة جميلاً لأن لها مدخلاً الى سطح المقهى الفسيح الذي يطل على الحديقة المليئة بالأشجار الباسقة من جهتين ويطل على نهر دجلة من جهة واحدة، هي جهة «جسر الكحلاء» عند ملتقى فرعين للنهر يشكلان جزيرة صغيرة قبالة المكان الذي أنا فيه.

وكان من أصدقائنا في العماره مدير فرع «بنك الرافدين»، وهو البنك الوحيد في المدينة، واسمه «أبو عروبة»، نلعب معه الورق في السهرات أحياناً، فأعطى «أبو عقيل» قرضاً قدره مائة دينار بكفالتي الشفهية لتجهيز الشقة، لأنني كنت واصلاً لتوِّي وليس معي ما يكفي.

وعلى انعطافة النهر قبل المقهى الذي سكنت فوقه بعد زواجي، كان هناك استراحة، أو فندق صغير، في موقع جميل جداً على منعطف النهر تحيط به حديقة مزهرة وفيه مكان رائع للعشاء في الليل على الشاطىء مباشرة يبدو فيه ملتقى فرعي النهر وكأنه بحر وليس نهراً. وتلك الاستراحة التي يديرها شخص أرمني يدعى «قره بات» يتكلم عربية مكسّرة مثل المعلِّم فرنسوا، كان يأتيها فقط خبراء أجانب يعملون في العراق كالمهندسين البولونيين، والروس، والإنكليز، والمسافرين الى البصرة أو الى الكويت. وبالإضافة الى التيراس المطل على النهر حيث يتناول النزلاء والروّاد طعام العشاء، كان فيها مطعم داخلي له مروحة ضخمة في السقف يديره أيضاً طاه أرمني. وكان إذا سكر بعض النزلاء، وخصوصاً الإنكليز منهم، يبدأون قذف الصحون الخزفية الفارغة في النهر، ويتبارون بينهم لمعرفة من يقذف صحنه الى أبعد مسافة ممكنة. فسألت «قره بات» مرة:

«لماذا تسمح لهم بإلقاء الصحون بهذا الشكل؟».

فقال:

«أنا بياخذ ثمن كل صحن تريبل».

وذات ليلة سألت شخصاً إنكليزياً متقدماً في السن وليس شاباً أرعن:

«لماذا تقذف بالصحون الى النهر؟»، فقال:

«إنني أحب صوت ارتطامه بالماء». وما قاله لي بالإنكليزية هو:

I like the 'blop' in the water.

وكنا أحياناً نتناول طعام العشاء هناك إذا كان الطقس معقولاً، ومرة واحدة تناولنا طعام الغداء في الداخل ولم يكن في القاعة سوى ثلاثة من الخبراء الروس. وقبل تقديم الطعام المؤلف من ثلاثة أصناف تبدأ بالحساء وتنتهي بالشواء، فتح الروس قنينة فودكا صغيرة وصبوها بالعدل والقسطاس في ثلاث كؤوس، فملأت تقريباً نصف كل كأس، ثم صبّوا فوقها الكوكاكولا الى أن امتلأت الكأس، ورفعوا كؤوسهم للأنخاب وكرعوا الكاسات كرعة واحدة تسطح الفيل، ثم بدأوا الأكل، لكنهم لم يثنّوا. وفي سهرة على شاطىء النهر وكنا وحدنا مع «قره بات» نتحدث معه، فقال لنا إنه يحب العراق، الذي اعتبره أخصب مكان في العالم، حيث الغنم يعطي بطنين في السنة، وأي بذرة تلقيها في الأرض تنبت بعد حين، لكنه أسف لأن العراقيين لا يقدّرون بلدهم حق قدره، ولا يعملون كما يجب، ثم قال بعربيته الأرمنية:

«أنا محل زعيم، بيجيب كلو أرمن، بيصير هون جنة».

وبالفعل كانت استراحة «قره بات» قطعة من الجنّة.

•••

جاءت زوجتي لور الى العماره بعد أيام برفقة الزميل نجيب رحال الذي كان قد

تأخر في بيروت، وأحبت المكان خصوصاً موقع الشقة على النهر. ولم يكن في الشقة مكيِّف أو مبرِّد، ولأنها على السطح فقد كانت الحرارة فيها أعلى. فاقترح «أبو عقيل» أن نقيم مبرِّداً بدائياً يقضي بأن يزوِّدنا بلوح كبير من الجليد كالذي يستعمله في المقهى نضعه في وعاء كبير على الطاولة في الصالون وندير مروحة الى جانبه، وهكذا كان «فبوردنا» على أحسن ما يرام.

وبقينا في شقة أبو عقيل أربعة أشهر فقط من شباط/فبراير الى نهاية السنة المدرسية في مطلع حزيران، فعدنا الى جب جنين لقضاء عطلة الصيف.

عندما عدنا في مطلع السنة الدراسية التالية، قرر نجيب رحال أن يصطحب زوجته نهى معه، وهي ابنة عمه محمد عمر رحَّال، فاتفقنا أن نستأجر بيتاً واحداً كبيراً نعيش فيه كلنا ونعطي فيه غرفة ليوسف الجاروش أيضاً، لكي يكون في مقدورنا استقبال الضيوف وردّ العزايم. ووجدنا فيللا واسعة من طابق واحد تعود الى ضابط في الشرطة اسمه «المقدم يوسف»، وقد كان ابنه تلميذاً عندي، فاستأجرناها بمبلغ ثلاثين ديناراً في الشهر، وهي تقع في الطرف الآخر من المدينة على مقربة من الجسر الكبير المؤدي الى البصرة، وفي جوارها يوجد بعض «الصرايف» منها واحدة تعود الى شخص يدعى «أبو محسن»، فكانت أم محسن وابنتها سميرة يأتيان لمساعدتنا عندما يقتضي الأمر المساعدة أو تنظيف البيت. وكانت غرف الفيللا واسعة بحيث أنني أقمت في غرفة نومنا مكتباً للقراءة والكتابة وتصحيح المسابقات. وكان مدخلها المطل على الجيران قبالتها عريضاً، وهناك ممر اسمنتي من البوابة الى شرفة المبنى العريضة والممتدة على طول البيت عبر الحديقة الأمامية التي لم تكن مزروعة مع الأسف، لكن كانت بجوارها جنوباً بساتين نخيل.

•••

بين حين وآخر كنا نذهب الى البصرة إذا توفّرت لنا غرفة في فندق «شط العرب»، وكان يومها الفندق الوحيد في المدينة الذي ينزل فيه الأجانب، لأنه مجهز تجهيزاً معقولاً بمواصفات عالمية مقبولة. وفي ذلك الوقت كانت للعراق سيادة كاملة على شط العرب حتى الحدود الإيرانية. وشط العرب المتكوِّن من لقاء نهري دجلة والفرات، يصبح بحراً قبل لقائه ببحر الخليج، امتداداً من «قلعة صالح» و «قرنة علي» الى البحر.

إنه من أبدع المشاهد التي صنعتها الطبيعة في الدنيا، وهناك يشعر المرء بالغبن الذي ألحقته السياسة الدولية بالعراق، حيث حرمته من المياه العميقة باستثناء موقع واحد على مسافة قصيرة، حيث صيانة الميناء مكلفة، وغير كافية أو وافية بحاجات بلد كبير كالعراق، بينما جميع دول الجوار تتمتع بمسافات بحرية واسعة في المياه العميقة.

ولما كانت البصرة، وميناء أم قصر، هما المنفذ الوحيد على بحر الخليج، فإنه

من الطبيعي أن يبقى ذلك نقطة توتر مع الجيران، وهو على الأرجح ما تعمدته السياسة الدولية التي تحركها الدول الكبرى المسيطرة.

والبصرة هي المدينة الثانية في العراق بعد بغداد، لكنها في موقعها من أجمل مدن المنطقة العربية. وكثيرون يظنون خطأ أن البصرة مدينة شيعية، لكنها تاريخياً ليست كذلك، فكانت حتى أيامنا هناك نصف شيعية أو أكثر قليلاً، لأن سكانها من السنّة في عهد عبد الكريم قاسم، مع المسيحيين، والصابئة المندائيين، كانوا يشكلون نصف سكان المدينة تقريباً.

وكانت البصرة دائماً في مخيلتنا في صغرنا من خلال قصص ومغامرات السندباد البحري، أما يوم كنا في جوارها فقد كانت منطلقاً لمغامرات من نوع مختلف أبطالها المهرِّبون بين إيران والعراق، عبر شط العرب، ويسمُّونهم هناك «القشقجية»، ويسمُّون البضاعة المهرّبة «قَشَق». وفي صف الأدب العربي عند إنعام الجندي في مدرسة عين المريسة، سمعنا بالبصرة من خلال البحتري في قصيدته عن احتلال الزنج لها في عام 871 للميلاد، بعنوان: «البصرة عندما دخلها الزنج»، ومطلعها: «دخلوها كأنهم قطع الليل». وهؤلاء الزنج هم عبيد سود كانوا عمالاً زراعيين بالسخرة في أهوار البصرة والجنوب، وقد تمرد هؤلاء العبيد على أسيادهم، ولذلك يسمِّي بعض المؤرخين انتفاضتهم تلك «ثورة الزنج»، ومنهم من يشبِّهها بثورة «يونس السوري» في جزيرة صقلية في عهد الجمهورية الرومانية في القرن الثاني قبل الميلاد، أو بثورة «سبارتاكوس» في جنوب إيطاليا في القرن الأول قبل الميلاد. وقد زحف الزنج على البصرة من الأهوار بقيادة «صاحب الزنج علي بن محمد»، فاحتلوها وعملوا بها نهباً وتدميراً.

وبعد خمسين سنة من احتلال الزنج لها، احتلها القرامطة وحكموها ضمن المناطق من دولة الخلافة العباسية التي وقعت تحت سيطرتهم، امتداداً من البصرة الى البحرين (أي المنطقة الشرقية من المملكة السعودية اليوم، وهي الأحساء). ومن أهم أعلام البصرة العالميين ابن الهيثم البصري واضع علم «البصريات»، الذي عاش في البصرة في القرن العاشر.

ولا يشبه هجوم الزنج على البصرة، في العصور الحديثة إلاّ هجوم الوهابيين من نجد في الجزيرة العربية على مدينة النجف في أواخر القرن الثامن عشر، حيث قتلوا ألفي نجفي لكنهم لم يستطيعوا دخول المدينة بسبب تحصيناتها.

•••

في السنة الثانية من وجودنا في العماره، عدنا بالطائرة من الإجازة الصيفية، وكان يوسف الجاروش اشترى سيارة «فولكسفاكن بيتل» وعاد بها الى العراق، فلم نعد بحاجة الى ركوب الحنطور أو باص الأمانة. وفي تلك الفترة حملت زوجتي بابنتنا ريما، وقررنا الرجوع الى لبنان في العطلة المدرسية النصفية

في شباط/فبراير 1963. واقترح يوسف الجاروش أن نعود سوياً في سيارته، فقبلنا. وكانت رحلة متعبة لزوجتي، خصوصاً بين العمارة والكوت حيث الطريق ترابية ومحفّرة وغير سويّة. فرأينا من المناسب أن نبيت ليلتنا في بغداد للاستراحة، وسألت زوجتي ما إذا كانت تفضل السفر من بغداد بالطائرة بسبب حملها ، فقالت إنها لا تمانع في إكمال الرحلة بالسيارة. وعبرنا بغداد باتجاه مدينة الرمادي، ومنها باتجاه الحدود الأردنية. وارتأى يوسف الجاروش أن نبيت في استراحة قبل الحدود الأردنية في نقطة تدعى «الرُطبة».

استأجرنا غرفتين في استراحة الرطبة، وكان الوقت متأخراً ودب فينا الجوع. فطلبنا من صاحب الاستراحة أن نأكل شيئاً، فقال إنه لا يوجد لديه في ذلك الوقت شيء يؤكل بما في ذلك الخبز الحاف. ثم قال: «لدينا دجاج»، فطلبنا منه أن يشوي لنا الدجاج على النار، وبعد نصف ساعة تقريباً عاد بدجاجة مشويّة، لكننا لم نستطع أن نقرب منها لأن رائحتها تزكم الأنوف. فقد شواها على النار بكل أحشائها من غير أن يشق بطنها وينظفه، وربما شواها وهي ميتة من زمن. فرفعنا يدنا ونحن نشتهي أي طعام، لكننا مع ذلك دفعنا ثمنها لأننا لا نريد أن ندخل في مشكلة في تلك المنطقة النائية المقطوعة عن العالم.

ولم ننم كثيراً تلك الليلة، لكننا في الصباح الباكر قمنا واستأنفنا السير باتجاه الأردن فوصلنا الى منطقة يسمّيها الأردنيون «الجفور»، نسبة الى محطة H 4، وهي المحطة الرابعة لضخ النفط العراقي في خط كركوك ـ حيفا، التابع لشركة نفط العراق IPC، والمقفل منذ عام 1948، فوجدنا هناك استراحة نظيفة تضاهي المستويات الأوروبية فطلبنا فطوراً، فجاءنا خبز فرنسي ساخن مع الزبدة، وأنواع مختلفة من المربّيات، واللبنة، والجبنة، والبيض المقلي، وكأنك في فندق باريسي من خمس نجوم. فعوّضنا في الجفور الأردنية ما أصابنا من غثيان في الرطبة العراقية.

وبعدما شبعنا بحمد الله وشربنا الشاي والقهوة، استأنفنا المسير باتجاه الحدود السورية.

وفي نقطة الحدود السورية قبل درعا، توقفنا لإتمام معاملات الدخول والتأكد من الهويات، لكن شرطياً هناك أصر على فتح الصندوق، وهو في مقدمة السيارة. وكنا قد حملنا معنا من بغداد نحو 20 علبة تمر لتوزيعها هدايا، ولما فتحنا له الصندوق ورأى علب التمر، قال: «هل هذا كله لكم؟».

فأجبته متودداً: «لا والله إنه لنا ولك».

فقال: «بارك الله فيكم».

ولم يأخذ منها إلاّ علبة واحدة. ومن هناك انطلقنا الى الحدود اللبنانية، فالى جب جنين مباشرة.

وبقيت زوجتي في جب جنين لتلد، وعدت أنا بعد انتهاء الإجازة النصفية لأجد

المشهد العراقي تغيّر كله. صار الزعيم الأوحد في ذمة الله، ليحل محله حكم ميليشياوي وزعماء متناحرون لم يطل بهم المقام. وما رأيناه في العراق بعد عبد الكريم قاسم لم يكن مشهداً مريحاً، فقررنا عدم الرجوع بعد انتهاء السنة الدراسية.

III

حبرٌ على ورق



I

«في الليل موت، في الصباح قيامة»

صيف 1963 عدت الى لبنان من العراق، وكلي قلق على زوجتي الحامل التي كانت على وشك الوضع.

في منتصف حزيران/يونيو من ذلك العام أُدخلت الى مستشفى تل شيحا في زحلة، برعاية الدكتور جوزف هراوي الذي أنقذ المولودة بمهارته، بسبب اشتراكات ربما نتجت عن الرحلة القاتلة بسيارة «فولكسافكن بيتل» من العمارة الى جب جنين مسافة تزيد على 1550 كيلومتراً.

ليس في الدنيا شيء يعطي الرجل شعوراً بإنسانيته، مثل أن يصبح أباً. هو شعورٌ لا وصفَ له في اللغة. إنه يُفهم بالأحاسيس فقط. لا تعود الدنيا تسعه. لا يعود شيء يملأ عينيه وقلبه مثل حبِّه لولده. حتى أنه لا يعود يعيش لنفسه، ولا يستطيع أن يعود كما كان من قبل. إنه يولد من جديد مثل وليده. فيصيران طفلين معاً. إنه لسرٌّ عظيم، بل هو سرُ الأسرار في الحياة الإنسانية.

وكنت في قرارة نفسي أنوي العودة الى ممارسة التعليم، أو الدخول في شراكة لفتح مدرسة، كما فعل فؤاد وهيام صقر بعد عودتهما من العمارة، ونجحا نجاحاً باهراً. وحدث أن التقيت في بيروت بسّام فريحة المدير العام لدار «الصيّاد»، الذي كان زميلي في الجامعة الأميركية، فأغراني بالصحافة وبالكتابة، وعرّفني على والده سعيد فريحة الذي كنت أقرأ له «الجعبة» بين حين وآخر.

وكان أن اتفقنا على أن أعمل في جريدة «الأنوار»، الجريدة الناصرية الأولى في ذلك الوقت، براتب قدره 600 ليرة لبنانية، فاستأجرت بيتاً في الحازمية قريباً من «دار الصيّاد»، الى جانب بيت الحاج أمين الحسيني.

وتعهد بسام فريحة بفرش ذلك البيت بأن أرسلني الى تاجر مفروشات أرمني على الجمّيزة اسمه «بيزنط»، فانتقيت من مشغله ما يلزم، وكان من الـ«فورمايكا» وليس من الخشب. وأعطاني بسام سجادتين واحدة منهما تبريزية قال إنهما كانتا في شقة صديقه الأمير طلال بن عبد العزيز في راس بيروت، يوم كان لاجئاً خارج بلاده لكونه من تنظيم «الأمراء الأحرار» الموالي لعبد الناصر في حينه.

باشرت العمل في «الأنوار» وكان عصام فريحة رئيس تحريرها. وفي الجريدة نشأت صداقة بيني وبين الزميل علي بلوط استمرت الى أمد طويل. وقد أسند اليّ عصام فريحة متابعة ما كانوا يسّمونه «تيكر»، أي وكالة الأنباء التي تبث الأخبار بصورة متواصلة باللغة الإنكليزية، وهي وكالة «يونايتد برس». فصرنا في البداية ننتقي الأخبار اللازمة سويًّاً، قبل أن توليت المهمة منفرداً.

وفي مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1963، ترجمت عن تلك الوكالة خبراً عن سيدة فيتنام الجنوبية الأولى «مدام نهو» الكاثوليكية، زوجة شقيق الرئيس الفيتنامي الجنوبي «نغو دينه دييم»، الذي اغتاله ضباط انقلابيون في الجيش يومئذ بعدما أدار له الرئيس جون كنيدي ظهره، موصياً هنري كابوت لودج، سفيره في سايغون، عدم استقباله، ففهم الرسالة. وكان عنوان الخبر: «السيدة التي تربعت على العرش الجمهوري في سايغون». ويوم اغتيال الرئيس دييم، قال «هوشي منه» الزعيم التاريخي لفيتنام الشمالية الذي هزم الاحتلال الفرنسي، ومن بعده الاحتلال الأميركي، لبلاده: «ما كنت أظن أن الأميركيين أغبياء الى هذا الحد».

ولم يكن ببال أحد أن الرئيس كنيدي الذي أجاز اغتيال دييم سوف يلحق به بعد عشرين يوماً فقط.

في قاعة التحرير في اليوم التالي، دخل علينا صاحب الدار سعيد فريحة لابساً العباءة، منفوش الشعر، إذ إن قاعة التحرير كانت في الطابق الثاني من المبنى، بينما منزله في الطابق العلوي، وحاملاً بيده نسخة من عدد جريدة «الأنوار» الصادر صباح ذلك اليوم، ويبدو أنه قرأه، فقال فور دخوله من الباب:

«من كتب هذا الخبر؟»

وأشار بيده الى خبر «مدام نهو» الذي ارتأى عصام فريحة نشره على الصفحة الأولى. فران صمت في القاعة خشية أن يكون وقع خطأ ما في الجريدة، وجاء صاحب الدار غاضباً للمحاسبة.

وأخيراً قلت له:

«أنا الذي كتبته»، موطداً النفس على تحمل التبعة مهما كانت جسيمة. فالتفت الى المحررين الجالسين على مدار القاعة. وقال:

«هكذا أريد أن تكتبوا جميع الأخبار في الجريدة».

فتنفست الصعداء وانزاح عن صدري كابوس ثقيل ليحل محله شعور طالبٍ نجح في الامتحان وهو يتوقع الرسوب.

•••

كان من عادة سعيد فريحة أن يحلق ذقنه في مكتبه، على موسى «المعلّم الياس»، وكان هذا الحلاّق طويل البال دمث الأخلاق. فكانت عملية الحلاقة تستغرق وقتاً طويلاً، لأن المعلّم الياس كان مضطراً للتوقف عند دخول أحد

المحررين أو الضيوف للسلام على سعيد فريحة، أو تأتيه مكالمة تليفونية أثناء الحلاقة فيرفع المعلّم الياس موسه عن وجه الأستاذ سعيد لئلا يجرح خدّه. وأحياناً كانت الحلاقة والكتابة بالإملاء تسيران يداً بيد، فلا ينفك المعلِّم الياس عن الحلاقة إلاّ بعدما ينفك الأستاذ سعيد عن الإملاء. وقد اكتسب بعض الزملاء عادة الحلاقة في المكتب، ومنهم على الأخص حاتم خوري وسامي غميقة، اللذان كانا يستدعيان المعلِّم الياس أيضاً لهذه الغاية الى قاعة التحرير قبل توافد المحررين للعمل. فعندما يحدث ذلك، تخال أن «دار الصياد» تحولت الى ما يشبه صالون الحلاقة.

سعيد فريحة صحافي فريد من حيث الأسلوب والعفوية المفرطة، وفي تلك الأيام التي عرفته فيها كان يستصعب الكتابة بيده وبمفرده، فكان يملي على جورج ابراهيم الخوري، رئيس تحرير مجلة «الشبكة» ما يريد كتابته. ولم يكن يتضايق من تدخُّل المُملى عليه في صياغة وبلورة الأفكار والعبارات أو حتى اقتراحها عليه عندما «يُدقِّر»، أي عندما يجد أن عبارة ما أو فكرة ما غير راكبة تماماً في سياق ما يريد أن يقوله أو يعبِّر عنه. وقد استعان بي لهذه الغاية مرة أو مرتين، ولم أكن مرتاحاً في هذه المهمة مثل جورج ابراهيم، الذي كان «يطيِّب» له أحياناً أو يرقص طرباً عندما يتوفق الأستاذ في «نتعة»، أو في «ردحة» خفيفة الدم.

ولا أدري لماذا انطبع في ذهن سعيد فريحة أنني «اشتراكي متطرف»، وأن أصحاب الأفكار الاشتراكية يتمنون زوال نعمة المنعمين. فعندما تزوج نجله الأكبر عصام، وذهبنا لتهنئته في منزله الجديد بعد عودته من شهر العسل، كنت جالساً الى جانبه عندما دخلت المطربة صباح للتهنئة، وكنت أراها لأول مرة، فعرّفها عليّ بقوله:

«هذا الأستاذ سليمان، وهو من الذين يتمنون لهذه السجادة الجميلة أن تصبح رماداً».

وأشار بيده الى سجادة «نايين» حريرية جميلة بالفعل ملقاة فوق سجادة «الموكيت». وكان بكلامه هذا يتقصد المزاح، فتلقّيت تلك المزحة بروح طيّبة، إلاّ أنني أصبحت بعدها أكثر جرأة في انتقاده وجهاً لوجه، فكان هو أيضاً يتلقّى النقد بروح طيّبة، ولو بطريقة انفعالية أحياناً.

وفي دفتر ذكرياتي ثلاث مداخلات لي معه لم تكن ناجحة في كبح جماحه في إطلاق العنان لقلمه ومواقفه وقراراته، وربما أكون قد تأثرت به من هذه الناحية فيما بعد عند شعوري بالشطط وأنا أكتب، أو عندما أكتب شيئاً أعرف أنه خارق لجدار الصوت، مع أن سعيد فريحة كان يعتز ويتباهى بالكتابة التي «تجرح ولا تُسيل الدماء»، على حد تعبيره في وصف أسلوبه في الكتابة.

مرة استوقفته وهو يملي على جورج ابراهيم الخوري في مكتبه رداً على

مقال لعليا الصلح، كريمة رياض الصلح، نشرته في جريدة «النهار» المنافسة لجريدته بعنوان «أنا ضد»، عرضت فيه أسبابها للوقوف ضد التجديد للرئيس فؤاد شهاب. وكان سعيد فريحة في طليعة المؤيدين للتجديد وللنهج الشهابي. واقترحت عليه التخفيف من العبارات القاسية التي ساقها ضد عليا الصلح شخصياً، والتوسع في مناقشة أفكارها بدلاً من ذلك، لاعتقادي أن المناقشة الموضوعية تخدم قضيته، وتوفر عليه ردود الفعل التي سيثيرها فيما بعد التجريح الشخصي، ولا سيما أنه كان يعدُ نفسه من الأصدقاء المقرّبين لوالدها الراحل، لكنه لم يقبل تلك الملاحظة. وما زال يرنّ في أذني إطراء جورج ابراهيم الخوري له وهو يكتب ما يمليه عليه، بقوله: «هذا يا أستاذ سعيد ليس مقالاً. إنه قصيدة»، مما زاده حماسةً في حدّته.

والمرة الثانية التي لم أكن فيها حاضراً، لكنني سجّلت ملاحظة اعتراض عليها، تتعلق بمقال كتبه سعيد فريحة ضد زميله سليم اللوزي صاحب «الحوادث»، لم أكن أعرف ملابساته، لكنه يخرج عن المألوف في التخاطب بين الزملاء في إطار الزمالة، حيث قال عنه: «إنه يأكل خبزه بعرق ركبتيه»، في استعارة غير مألوفة للعبارة التوراتية: «إنك تأكل خبزك بعرق جبينك»، التي وردت في معرض طرد آدم من الجنّة والحكم عليه بالشقاء في الحياة.

أما المرة الثالثة المسجلة عن سعيد فريحة في دفتر الذكريات، فهي عندما أراد أن يرشِّح نفسه للانتخابات النيابية عام 1964 عن المقعد الأرثوذكسي في دائرة بيروت الثالثة في مواجهة النائب نسيم مجدلاني. وكان الشهابيون يحرضونه ويعدونه بالدعم ويضمنون له الفوز، وكنت أرى الضابط في المكتب الثاني في الجيش آنذاك جوني عبدو يتردد عليه، وقد ذكر اسمه لي عندما دخلت الى مكتبه مرة وكان ذلك الضابط جالساً معه. يومها قلت لسعيد فريحة: «ألا تخشى من الانعكاسات السلبية على صحف الدار، وخصوصاً على «الأنوار» بصفتها جريدة يومية، إذا ما غطّستها معك في حملتك الانتخابية. فإذا حدث ذلك وخسرت الانتخابات فإنك قد تخسر معها منزلة صحفك في البلد».

فانتفض غاضباً وقال لي:

«من تظنني، أتظن إنني مثل رياض طه؟!».

وكان رياض طه في ذلك الوقت مدمناً على ترشيح نفسه للانتخابات في منطقة الهرمل، وعلى خسارتها أيضاً، بحيث لم تعد هناك قيمة لصحف محترمة وناجحة أصدرها وسرعان ما انطفأ نجمها، مثل «الأحد» و «الكفاح» و«أفكار» التي أصدرها بالفرنسية من مدينة جنيف السويسرية.

ورياض طه قبل كل الصحافيين اللبنانيين كان متوكأً على عبد الناصر، وقبلهم جميعاً بمن فيهم سعيد فريحة كان أثيراً لدى الزعيم المصري، وهو الصحافي الوحيد في العالم العربي الذي سمح له عبد الناصر بالوقوف الى ورائه أثناء

توقيع اتفاقية الوحدة السورية ـ المصرية مع الرئيس السوري آنذاك شكري القوتلي. وكانت صورة رياض طه تلك تاريخية ومميّزة، وهو في ريعان الشباب لم يطرّ شاربه بعد كما يقال، فعاد الى بيروت من القاهرة متسلحاً بتلك الصورة الفريدة.

ثم حدث ما حدث، وبدأت «الأنوار» تنغمس في حملة سعيد فريحة الانتخابية، لا سيما أن تلك الحملة اتخذت منحى تهاترياً عندما طرح نسيم مجدلاني في وجه سعيد فريحة شعاراً يقول:

«انتخبوا نسيم مجدلاني العربي المجاني»، إشارة مبلّقة الى أن عروبة سعيد فريحة مدفوعة الأجر.

وكانت الشعارات الانتخابية في ذلك الوقت لها وقعها وليست مبتذلة كما هي اليوم. وقد رفع المرشح عن الدائرة الثانية في بيروت جميل عطيّة الذي يبدو أنه كان ميسور الحال شعاراً زجلياً يقول:

«يا شباب صفّوا النيّة/ انتخبوا جميل عطيّة».

فخرج ضده في اليوم التالي شعار زجلي أيضاً يقول:

«صفّى الشباب النيّة/ بدهم ورقة «الميّة»، أي أنهم يريدون مائة ليرة للصوت الواحد.

وخسر سعيد فريحة تلك الانتخابات فصبّ جام غضبه على زميله في اللائحة رشيد الصلح، متهماً إياه بخيانته، مؤثراً مصلحته الشخصية على مصلحة زملائه في اللائحة متبادلاً الأصوات التي يمون عليها مع خصومه لضمان فوزه.

وخرج سعيد فريحة من تلك الانتخابات البائسة، خاسراً من جميع النواحي: في السياسة، وفي الصحافة، وفي المعنويات، منهكاً مجرّحاً والأهم من ذلك كله، خرج مفلساً مالياً. ولم أكن أعرف ما يدور في فكره لمعالجة الوضع الناشىء بعد تلك الانتخابات، الى أن استدعاني يوماً الى مكتبه ليكتب مقالاً، وأظن أنه اختارني لتلك المهمة كنوع من الاعتراف لي بصدق ملاحظتي له قبل الانتخابات، من غير أن يقول ذلك، ومن غير أن أفتح له الموضوع من جهتي حرصاً مني على حفظ كرامته، لأنه قامت بالفعل مودّة بينه وبيني.

وقبل أن نبدأ بالكتابة، قال لي:

«أتدري أن ابني بسّام في الكويت؟»

قلت له: «وماذا يفعل في الكويت؟».

قال: «ذهب ليعقد اتفاقاً مع الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح يبيعه بموجبه حصّة النصف في دار الصيّاد، ليصبح شريكاً لنا فيها».

وقبل أن أطرح عليه مزيداً من الأسئلة حول الموضوع، قال:

«لكنني لن أطمئنّ، إلاّ عندما يعود بسام ومعه «الشيك».

وفهمت فيما بعد أن ذلك «الشيك» الموعود كان بقيمة مليون ونصف المليون

ليرة لبنانية، وهو مبلغ كبير في تلك الأيام. وما لبث الشيخ جابر عندما أصبح أميراً أن تنازل عن حصته، فكان اتفاق البيع مجرد شكليات.

وحاول بسّام فريحة في التسعينات من القرن الماضي، أي بعد ثلاثين سنة من الصفقة الكويتية، أن يعيد الكرّة مع الأمير السعودي الوليد بن طلال، لكن بمبلغ 12.5 مليون دولار هذه المرة. غير أن صفقة الوليد بن طلال شاطت وطاش سهمها فوصلت الى القضاء اللبناني في مراحله الثلاث، البداية، والاستئناف، والتمييز، بدعوى أقامتها والدته منى الصلح، التي تمت الصفقة باسمها[1]، وخسرتها كلها، زاعمةً أن والدها رياض الصلح هو المؤسس الحقيقي لدار «الصيّاد»، وهو الذي موّل سعيد فريحة ووقف وراءه، فبانت وكأنها تطالب باسترداد أملاك والدها، كما حاول والدها، بعد الاستقلال ووصوله الى رئاسة الحكومة، استرداد «جفتلك» درويش باشا في البقاع ليستعيد بلدة عنجر من سكانها الأرمن. وفي الحالتين كانت تلك المحاولات فاشلة وبائسة.

•••

من المعروف أن العمل في الجريدة اليومية هو عمل ليلي، وفي بعض الأحيان يمتد الى الفجر لمراقبة صدور الأعداد الأولى من المطبعة في الطابق الأرضي. ولعل أجمل وأبدع وأدق وصف للعمل الليلي في الصحافة، ما قاله يوماً الصحافي الألمعي الكاتب بالفرنسية والوزير والسفير المتميز جورج نقّاش: «في الليل موت، وفي الصباح قيامة».

وما كان مريحاً لي أن أترك زوجتي ووليدتي في الليل لوحدهما، فصرت آخذهما بعد الظهر من بيتنا في الحازمية الى الروشة حيث بيت عم زوجتي، ثم أعود الى دار «الصياد» في الحازمية للعمل الليلي، وبعد انتهاء العمل في آخر الليل أعيدهما من الروشة الى بيتنا في الحازمية، فكنت أقطع تلك المسافة أربع مرات كل يوم، وهو أمرٌ شاق ما كان ممكناً أن يستمر. إلاّ أن امرأة عم زوجتي اقترحت علينا أن ننتقل الى جوارهم، واتصلت بسمسار عقاري تعرفه لهذه الغاية، فوجد لنا شقة مناسبة على الروشة تبعد عن بيتها أقل من خمسين متراً فقط. ولذلك صرت أذهب الى عملي في «دار الصياد» مرتاح البال، مختصراً المسافة الى النصف.

وذات يوم التقيت سعيد فريحة على مدخل الدار وكنت عائداً الى منزلي مبكراً في ذلك المساء، فسألني:

«الى أين أنت ذاهب؟».

قلت له: «الى الروشة».

---

(1) يومئذ لم يكن الأمير الوليد بن طلال يحمل الجنسية اللبنانية، وكان القانون اللبناني الصادر في عهد الرئيس سليمان فرنجية يحظر تملك غير اللبنانيين لوسائل الإعلام اللبنانية، ولذلك حاول الدخول في صفقة شراء حصة النصف في «دار الصياد» باسم والدته منى الصلح كريمة رياض الصلح.

قال: «خذني معك لأنني ذاهب الى هناك على موعد في مقهى ديبلومات»

جلس الى جانبي، وكان راديو السيارة مشتعلاً، فإذا بجمال عبد الناصر يلقي خطاباً دعا فيه الى مؤتمر القمة العربي الأول، فقفز سعيد فريحة من مقعده وكأنه يطير من الفرح، وقال:

«لو لم يدعُ عبد الناصر الى هذا المؤتمر، لكنت أنا سأدعو اليه».

ومن شدة فرحه أصر عليّ أن أنزل معه لناخذ كاساً، فامتثلت. وكان هناك أربعة أشخاص لا أعرفهم، من بينهم المطربة نجاح سلام التي طلب منها أن تغني شيئاً، فامتثلت هي الأخرى. وتركتهم مستأذناً، وهو في حالة نشوة لم أفقه سببها في حينه، إذ إن أمر انعقاد قمة عربية، مهما كانت مهمة، لا يستدعي مثل تلك الفرحة والبهجة. لكنني أيقنت فيما بعد أنه أراد أن يتخذ من الانفتاح المستجد لعبد الناصر مناسبة للتفلت من القيود الناصرية التي فرضها الصراع العربي - العربي في حينه، ليفتح نافذة يتنشق منها «الهواء العليل» لدول عربية أخرى حرمه التزامه الناصري منها.

فلم تكن تلك قمة عربية بقدر ما كانت قمة سعيد فريحة.

•••

كان أنور الجمل الملحق الصحافي المصري في بيروت هو «القوميسار» الفعلي للصحافة اللبنانية. وباستثناء الجريدتين اللتين قيل إن «بنك روتشايلد» اليهودي يمولهما، كانت الصحف الأخرى كلها تقريباً ناصرية الهوى يحركها أنور الجمل الذي كان هو الصوت والصدى في آن. بمعنى أن إذاعة «صوت العرب»، أو صوت أحمد سعيد، كانت تنيع خبراً فتنقله الصحف الناصرية في بيروت، لتعود «صوت العرب» فتذيعه نقلاً عن الصحف البيروتية هذه المرة لإضفاء «الصدقية» عليه، وكأن الأمر «لعبة مرايا».

في شباط/فبراير من عام 1982، وكنت في زيارة الى العاصمة القطرية الدوحة ممثلاً مجلة «الحوادث» في افتتاح فندق شيراتون برعاية أمير قطر آنذاك الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، التقيت أحمد سعيد في فندق «رمادى» الذي كنت نازلاً فيه، فوجدته رجلاً طيباً بخلاف الصورة الشائعة عنه، والمشيطنة له. وهذه المفارقة بين الصورة الحقيقية والصورة الشائعة تشبه تماماً ما راج عن محمد سعيد الصحّاف وزير إعلام صدّام أثناء الغزو الأميركي للعراق عندما أدخل الى القاموس السياسي كلمة «علوج» الصائبة على الغزاة الأميركيين. أحمد سعيد لم أكن أعرفه قبل لقائه في الدوحة، لكن محمد سعيد الصحّاف عرفته منذ أن كان مديراً للتلفزيون العراقي في عام 1969.

ولم أكن التقيت أنور الجمل شخصياً في بيروت أثناء الحقبة الناصرية، لكنني تعرفت عليه في القاهرة عام 1974 بعد «حرب أكتوبر» 1973 في عهد أنور السادات، في ردهة فندق «شبارد» حيث كنت نازلاً. وفي بيروت دعاني

الى غداء مع مجموعة من الصحافيين اللبنانيين من مختلف الاتجاهات في فندق «بريستول» على شرف الوزير المصري كمال أبو المجد الذي كان يزور العاصمة اللبنانية.

وبالفعل كان أنور الجمل ظاهرة لا شك في أنها أثارت بنجاحها الإعلامي الملحوظ غيرة السعوديين المناوئين لمصر الناصرية، فما لبثوا أن حاولوا تقليدها في مرحلة لاحقة عندما دالت دولة عبد الناصر وصارت المملكة السعودية هي التي تقود الدفة العربية، أولاً بشخص الفريق علي الشاعر، ثم بشخص عبد العزيز خوجة. ويمكن اختصار الفارق بين الحالتين بالقول إن أنور الجمل كان يحمل الكثير من القضايا المقنعة مشفوعة بقليل من المال، بينما الشاعر وخوجة كانا يحملان الكثير من المال الذي يظن السعوديون إنه يغني عن القضايا المقنعة.[2]

واتضح لي من وقت مبكّر أن الصحف اللبنانية في ذلك الوقت كان لها «معلِّم» أو رئيس تحرير واحد غير منظور، لأن السوق اللبناني لا يستطيع أن يموِّل هذا الكم الهائل من وسائل الإعلام. وقد عبّر الرئيس شارل حلو عن هذه الظاهرة في استقباله أعضاء مجلس نقابة الصحافة اللبنانية بقوله لهم: «أهلاً بكم في وطنكم الثاني لبنان». ومنهم من كان لبنان وطنه الثالث أو الرابع.

باتت ظاهرة الصحافة اللبنانية هذه حالة مركّبة بوجود نقابتين للمهنة ذاتها، نقابة المحررين، ونقابة الصحافة التي تضم أصحاب الصحف. وكان من الطبيعي أن تتضارب المصالح بينهما، بحيث أن نقابة المحررين لم تعد تمثل المنتسبين اليها، ونقابة الصحافة باتت نادياً لا علاقة له بالصحافة إلاّ بالإسم. والدليل على هذا الشذوذ المعطِّل أن نقابة الصحافة أصبح يرأسها عادةً نقيب ليس لديه صحيفة، أو لديه واحدة متوقفة عن الصدور، بينما نقيب المحررين الذي بقي على رأس النقابة أربعين عاماً، شأن معظم الحكام العرب، لديه أكثر من عشر صحف تصدر في السوق جميعها وبمختلف اللغات.

ويبدو أن هذه الحالة الإعلامية اللبنانية ليست جديدة، وقد ظهرت ملامحها من خلال «الصحافي التائه» اسكندر رياشي[3]، الذي تُعتبر قصته مع الشيخ تاج الدين الحسني مثالاً كلاسيكياً على علاقة بعض الصحافيين اللبنانيين مع

(2) الملفت أن كلاً من الفريق علي الشاعر والشاعر عبد العزيز خوجة أصبح وزيراً للإعلام في الرياض بعد عودته من الخدمة في بيروت، الأول في عهد الملك فهد، والثاني في عهد الملك عبد الله.

(3) للرياشي كتاب مهم عن لبنان في زمانه عنوانه «قبل وبعد»، بالإضافة الى كتابه «الصحافي التائه». وكان كتابه «قبل وبعد» على درجة من الأهمية بحيث أن الأديب والسفير الراحل توفيق يوسف عوّاد كتب عنه أطروحة من عدة حلقات في جريدة «الأحرار» يوم كان يصدرها كميل يوسف شمعون. وقد قتل توفيق عواد بصاروخ خلال الحرب اللبنانية مع صهره زوج ابنته، السفير الإسباني في بيروت يومذاك. وله روايات أدبية راقية أبرزها «الرغيف»، و «الصبي الأعرج».

الخارج. فقد علّل اسكندر رياشي الشيخ تاج بأن يعمل لصالحه مع الفرنسيين ليصبح رئيساً للدولة في سوريا لقاء مبلغ من المال، بالنظر الى علاقته مع المندوب السامي الفرنسي في بيروت الذي كان يكلف رياشي بمهمات خاصة. وعندما أصبح الشيخ تاج رئيساً للدولة في سوريا لأسباب لا علاقة للرياشي بها، بعث اليه الصحافي التائه ببرقية يقول له فيها: «تدفعون أو نقول الحق». فالدفع قبل قول الحق. وبالتالي فإن قول الحق هو بمثابة تهديد أو ابتزاز.

هذه كما تبدّى لي فيما بعد ظاهرة عالمية قديمة، مما يفسِّر كلمة الرئيس الأميركي الثالث طوماس جيفرسون بأن الحق إذا قيل في الصحف يصبح موضع شك، لأن معظم ما في تلك الصحف مشكوك فيه.

وقد فهمت حينها ما قصده الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري بقوله في قصيدة رثاء المغفور له عبد الحميد كرامي:

وصحافةٌ صفرُ الضمير كأنها ... سلعٌ تُباع وتُشترى وتُعارُ

ومع ذلك، فقد كانت «دار الصَيّاد» في زمن سعيد فريحة حالة صحافية مختلفة، لأنها من البداية شكّلت مدرسة صحافية تخرّج منها عدد كبير من الصحافيين اللبنانيين الذين صار لهم شأن فيما بعد. وكان سعيد فريحة صحافياً متميزاً عن أقرانه بأنه فتح الباب أمام الناشئين الذين كانت مؤسسات أخرى تسدُّ الأبواب في وجوههم.

وكما افتتح المثقفون اللبنانيون عصر الصحافة المصرية الذهبي في مصر من خلال «الأهرام»، و«الهلال»، و«المقطّم» و«المقتطف»، وغيرها... فإنه يمكن القول بأن سعيد فريحة افتتح عصر ما يمكن أن نسمِّيه عصر «الصحافة العربية» في لبنان، التي صاروا يطلقون عليها للأغراض الإعلانية الإسم الإنكليزي Pan-Arab، أي أنها تغطي العالم العربي كله، قبل اختزال العالم العربي بالمملكة السعودية.

ويمكن القول بأن صحافة «البان آراب» جاءت، عن قصد أو غير قصد، موازية لصعود الحركة الناصرية كحالة قومية وحدوية جامعة لكل العرب. لكن بعد زوال المرحلة الناصرية وصعود الدور السعودي، أصبحت تلك الصحافة مرتبطة حكماً بالدخول الى المملكة السعودية والتوزيع فيها، خصوصاً بالنسبة الى شركات الإعلان المرتبطة بدورها بالشركات العالمية الكبرى ذات المصالح الواسعة والميزانيات الإعلانية الوارمة. وأي صحيفة عربية لو كان توزيعها يفوق توزيع كل زميلاتها معاً ولا تدخل الى السوق السعودي لا يمكنها أن تحصل على أي إعلانات[4].

---

(4) يمكن القول بأن توزيع الإعلانات على الصحف هو الى درجة كبيرة، تبعاً لما تقدم، توزيع سياسي له ضوابط وقيود لا يمكن للصحف التي تتلقى تلك الإعلانات أن تتجاوزها، إلاّ في حالات نادرة، وهو ما لمسته بالتجربة والخبرة وبالتواتر. فقد أبلغني الزميل الفلسطيني مازن البندك عندما كان يصدر مجلة «الجيل» من ضاحية «نويي» الباريسية أنه اتصل بشركات توزيع الإعلانات

وقد كان سعيد فريحة شديد التأثر ووثيق الصلة بصديقيه الصحافيين المصريين الأخوين علي ومصطفى أمين، وفي وقت من الأوقات حاول أن يدرِّج مدرستهما الصحافية المختلفة في مضمونها عن المألوف في الصحافة اللبنانية، وقوامها عموماً هو الابتعاد قدر الإمكان عن السياسة والتركيز على النواحي الأخرى. لكن صاحب «دار الصيّاد» أبطأ السير في هذا الاتجاه بعد اعتقال صديقه مصطفى أمين في مصر بحجة التعامل مع جهة أجنبية، فتبناها من بعده نجله بسّام بصورة عشوائية لأنه لم يكن صحافياً أو كاتباً في الأصل.

ولا بدّ من التنويه هنا بأن من المزايا الأساسية لسعيد فريحة أنه كان وفيّاً لأصدقائه. فقد كان جريئاً الى درجة أنه طالب عبد الناصر وجهاً لوجه بالإفراج عن مصطفى أمين، وكتب ذلك في جريدة «الأنــوار». كما استقبل علي أمين في «دار الصيّاد» حيث التقيته لأول مرة، وكان في جلسة «توجيه» مع الكاتب الفلسطيني المغدور غسّان كنفاني[5] الذي كان يكتب افتتاحية الصفحة الأولى في «الأنوار» قبل مجيء رفيق خوري الى الدار ليحل محله، وكان في تلك الجلسة أيضاً بعض المحررين ومن بينهم الشاعر روبير غانم، ولاحظت أن المحررين لم يكونوا مقتنعين بتوجيهات علي أمين. وقد يكون ذلك من أسباب فشل علي أمين في ترك انطباع يذكر على «دار الصياد» في حياة سعيد فريحة.

والتقيت علي أمين مرة ثانية في بيت سعيد فريحة في شتورا في جلسة اجتماعية غير صحافية، وهو البيت الذي استخدمه اللواء غازي كنعان (كان

علّه يحصل منها على شيء يغطي بعض نفقاته، فقالوا له إن ذلك يتوقف على مدى انتشار المجلة. فسألهم ما هو المدى الذي تحددونه لهذه الغاية، فقالوا له بين 30 و 40 ألفاً. عندئذ أظهر لهم كشوفات توزيعية من الموزعين المعتمدين تثبت أن مجلته توزع في مصر وحدها أربعين ألفاً، فقالوا إنهم يريدون أن يتأكدوا من ذلك بأنفسهم من خلال استطلاعاتهم الخاصة، فرجعوا اليه قائلين إن أرقامه صحيحة لكن قرّاء مجلته أغلبهم من الفقراء الذين ليس لديهم قدرة شرائية. وفي الغالب أنهم ساقوا ذلك كحجة لحجب الإعلانات عن مطبوعته. وعندما انتقل سليم اللوزي بمجلة «الحوادث» الى لندن، ولم يكن مسموحاً دخولها الى المملكة السعودية، ذهب الى واشنطن حيث قابله وزير الخارجية الأميركي يومها سايروس فانس الذي سأله ماذا يريد، فقال له اللوزي إنه يريد أموالاً كافية لتغطية نفقاته في لندن، وإن مجلته لا تدخل الى السعودية، فقال له فانس إن الحكومة الأميركية ليست مثل الدول الخليجية التي تعطي الأموال من أدراج المسؤولين دون سؤال أو جواب، لكن وعده بأن يفعل له شيئاً. وما كاد اللوزي يعود الى لندن بعد أيام حتى انهالت عليه إعلانات من شركات يابانية محترمة ناهزت عقودها ما يقرب من العشرة ملايين دولار سنوياً في ذلك الوقت.

(5) الكاتب والصحافي الفلسطيني غسان كنفاني من مواليد مدينة عكا في فلسطين المحتلة، وكان ناشطاً في صفوف «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» بقيادة الدكتور جورج حبش، وكتب في جريدة «الحرية» الصادرة في بيروت والناطقة بلسان حركة القوميين العرب المرتبطة بالجبهة الشعبية، ثم عمل في صحف لبنانية عديدة ذات توجه عروبي مثل «الهدف»، و «المحرر»، وأخيراً جريدة «الأنوار». وقد اغتيل بالقرب من منزله في الحازمية بتفجير سيارته. وفي أغلب الظن أن عملاء الموساد الإسرائيلي في بيروت هم الذين قاموا بتفخيخ سيارته وتفجيرها عندما دخل اليها ليقودها.

يومها برتبة «عميد») منزلاً له ولعائلته أثناء خدمته في عنجر كرئيس لجهاز الاستقصاء السوري في لبنان من منتصف الثمانينات حتى مطلع القرن الجديد. وقد زرت ذلك البيت الجميل مرة ثانية مع غازي كنعان وزوجته في أواخر عام 1992 بعد غداء في شتورا مع اللواء عيسى الشدياق قائد القوات السورية في لبنان آنذاك، وعدد من نوّاب البقاع وزوجاتهم، بينهم إيلي الفرزلي، وخليل هراوي، وعلي ميتا، وآخرون.

وعندما توفي المرحوم سعيد فريحة في عام 1978، وكنت يومها في مجلة «الدستور» في لندن، كتبت في رثائه كلمة بعنوان «شيخ الصحافة»، لأنني كنت وما زلت أعتقد بأن سعيد فريحة، على مزاجيته وانفعاليته، هو من المداميك الأساسية للصحافة اللبنانية كما عرفناها في ذلك الوقت، وكما نعرفها اليوم بعجرها وبجرها.

دخلت الى «دار الصياد» في وقت كانت فيه معركة التجديد للرئيس فؤاد شهاب محتدمة. وسبب احتدامها أن الرئيس شهاب لم يجاهر برغبته في التجديد، وهو ما فعله كميل شمعون من قبل، لكن الرغبة في التجديد كانت جامحة لدى بعض القوى السياسية المدعومة من «المكتب الثاني» (جهاز استخبارات الجيش). وكان سعيد فريحة وصحفه في طليعة المطالبين بالتجديد، وكذلك معظم الصحافيين العاملين في الدار آنذاك، ومنهم الزميل طلال سلمان الذي كان يومئذ رئيساً لتحرير مجلة «الصيّاد»، والزميل علي بلوط محرر الشؤون البرلمانية في «الأنوار» وكان على علاقة وثيقة مع الرئيس صبري حمادة رئيس المجلس النيابي.

وكنت أنا أيضاً من جملة مناصري التجديد للرئيس شهاب ووقعت عريضة لهذه الغاية كان بعض الصحافيين في الدار يجمعون التواقيع عليها. لكنني كنت مع التجديد من زاوية مختلفة: شرط ألاّ يكون قسرياً إنما بإجماع القوى السياسية، لاعتقادي بأن التجديد القسري سوف يؤدي الى مزيد من الاحتقان، فيتحول بطبيعة الحال الى أعمال عنف، أو الى حالة ديكتاتورية لا تتلاءم مع طبيعة اللبنانيين. وحجتي في ذلك كله أنه طالما هناك شكوى عارمة من سيطرة الأجهزة العسكرية وتدخلها في شؤون السياسة وغير السياسة، وأنها زادت إمساكاً بمقدرات البلاد بعد المحاولة الانقلابية الفاشلة للحزب السوري القومي الاجتماعي، فإن الطرف الوحيد القادر على لجم تلك الأجهزة ووضع حدّ لتدخُّلاتها هو الرئيس فؤاد شهاب نفسه، لكونها تتدخل باسمه.

ولعل الرئيس شهاب نفسه كان مدركاً للطبيعة الابتزازية للطرح المخيِّر للبنانيين بين التجديد وبين الفوضى والعنف، بدليل أنه في كتاب عزوفه عن ترشيح نفسه لدورة رئاسية جديدة، بما يقتضيه ذلك من تعديل للدستور، أعلن يأسه من النظام اللبناني القائم، وألمح الى تدحرجه الحتمي نحو العنف.

وقد لعبت زيارات «الاستئناس» التي كان يقوم بها رئيس المجلس النيابي آنذاك كامل الأسعد الى الرئيس شهاب دوراً ملحوظاً في الضغط باتجاه حسم الخيارات. وفي رأيي أن كامل الأسعد كان ضد التجديد.

وقد كنت شاهداً جانبياً على تلك الحالة في لبنان من داخل الجسم الصحافي، وليس فقط بتوقيع عريضة التجديد. ذلك أن الزميل علي بلوط قال لي ذات يوم إن الرئيس صبري حمادة كلفه بكتابة خطاب له يلقيه على النواب بعد انتخابه رئيساً للمجلس، وبما أن معركة التجديد للرئيس شهاب حامية، فإن صبري حمادة يريد خطاباً مميزاً لتلك المناسبة، وطلب علي مني أن أحك دماغي وأكتب له الخطاب المطلوب، فلبيت طلبه وكتبت بكل ما أوتيت من قدرة على التعبير خطاباً يركّز على المفاهيم الحديثة للدولة والمجتمع.

أخذ علي بلوط الخطاب الى صبري حمادة معتداً مزهواً به، فأعجب الرئيس حمادة به أيما إعجاب. إلاّ أن الرئيس حمادة سقط في انتخابات رئاسة المجلس وفاز بها الرئيس كامل الأسعد الذي أطلق مسيرة «الاستئناس» بين ساحة النجمة وصربا مقر الرئيس شهاب.

في السنة التالية أعيد انتخاب صبري حمادة رئيساً لمجلس النواب. وصادف أنني بعد ظهر يوم الانتخاب كنت ماراً من أمام مقهى «ستراند» في الحمرا، فلقيت الرئيس تقي الدين الصلح جالساً في المقهى مع المحامي عمر زين وآخرين، وفي يده جريدة «لسان الحال» التي كانت جريدة مسائية تصدر بعد الظهر، فاستدعاني وناولني الجريدة وقال لي:

«إقرأ هذا الخطاب للرئيس صبري حمادة».

فأخذت الجريدة من يده ورحت أقرأ الخطاب، فبدا لي الكلام الوارد فيه مألوفاً، فتذكرت ما كنت كتبته لعلي بلوط في السنة السابقة، ولم يكن يخطر ببالي أن صبري حمادة سوف يحتفظ بالخطاب من سنة الى سنة، باعتبار أن مضمونه قد لا يكون مطابقاً للأوضاع الجديدة.

وسألني تقي الدين الصلح:

«ما رأيك في هذا الخطاب؟»

قلت له: «جيِّد».

قال: «يبدو أنك لم تقرأه كما يجب. إنه أهم خطاب ألقاه رئيس للمجلس النيابي في تاريخ لبنان».

فلذت بالصمت، ولم أفصح له أنني أنا كاتب الخطاب، بل قلت له:

«وهو كذلك».

ومضيت في طريقي.

•••

عندما كتبت خطاب صبري حمادة وسلّمته الى علي بلوط، كنت قد فرغت من

ترجمة كتاب الكولونيل ديكسون «الكويت وجاراتها» الى «دار الطليعة»، (كما مرّ) فكتبت أكثر من ثلاثة آلاف صفحة كلها بخط اليد، لأنه لم تكن لدي آلة طابعة (دكتيلو)، وحتى لو كان عندي فإنني لم أكن أعرف «العزف» عليها، كما بدأت أفعل على شاشة الكومبيوتر منذ أن أصدرت جريدة «الميزان» في خريف عام 1993. ولذلك قررت أن أبحث عن عمل آخر ليس فيه مثل هذه المشقّة.

والواقع أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي حملني على البحث عن عمل آخر. فقد تبيّن لي خلال تلك الفترة من العمل في الصحافة، أن الصحافة اللبنانية ليست حرة كما يتوهم اللبنانيون من الخارج، بسبب جو الحريات النسبية السائد في البلاد. فلا أحد مسموح له أن يكتب رأيه المجرّد، لا لأن أحداً يقول له ذلك، بل لأنه يعرف حقيقة الأمر بنفسه في سياق العمل. فكانت الصحافة اللبنانية تعمل في إطار «الرقابة الذاتية»، خلافاً للصحافة في البلدان العربية الأخرى حيث الرقابة تامّة ومطبقة من الداخل ومن الخارج. وكان هذا من العوائق الأساسية أمام صحافة الـ«بان آراب» اللبنانية، لأنها لا تستطيع الدخول الى أي بلد عربي إلاّ بالمرور من خلال أجهزة المراقبة الصارمة. وبذلك كانت الرقابة العربية عائقاً كبيراً في وجه حرِّية الصحافة اللبنانية، تضاف الى العوائق المحلية المختلفة من سياسية وإعلانية وتسويقية.

وبقدر ما فهمت تلك القطبة المخفيّة، أو قل «العلاقة الجدلية»، بين حاجة الصحافة اللبنانية التي يفترض الناس أنها حرّة الى الأسواق والتمويل، وبين الواقع الديكتاتوري القمعي الرقابي في بقية العالم العربي، خصوصاً فيما يتعلق بالأخبار والأفكار والآراء، شعرت بأن ذلك الجيش العرمرم من المحررين والكتّاب والمصحِّحين إنما يكتبون لقارىء واحد هو الرقيب العربي. ولذلك لم يكن في البلاد العربية، وليس فيها الآن، «سوق» بالمعنى المعروف في الغرب، أو حتى في لبنان.

ومع أنني زرت بلداناً عربية عديدة من المغرب الى العراق، حيث التقيت بعض وزراء الإعلام، إلاّ أنني لم أكن بحاجة الى لقاء أي رقيب في وزاراتهم، لأن تلك مهمة يقوم بها عادة ممثلو الصحف في تلك البلدان، وهو عمل يشبه عمل مخلِّصي البضاعة في الجمارك. والمرة الوحيدة التي التقيت فيها رقيباً كانت في عام 1993، بعد إصداري جريدة «الميزان» في لندن، فزرت العاصمة السورية دمشق والتقيت خلالها محمد حديفي المولج بالرقابة على الصحف الوافدة من الخارج، فكانت جلستي معه في مكتبه بوزارة الإعلام، بعد لقائي الوزير محمد سلمان، جلسة ممتعة وظريفة حيث حاول أن يشرح لي بأن الهوامش السورية أرحب كثيراً من بعض الهوامش العربية الأخرى.

والمرة الأخرى التي كان لي احتكاك مباشر في مسألة الرقابة حدثت عندما جمعت الشاعر أدونيس مع طارق عزيز ، وزير الإعلام العراقي آنذاك في فندق

«نابليون» في الحمرا، حول منع السلطات العراقية لمجلة ثقافية كان يصدرها أدونيس في بيروت[6]، وجلست بينهما للاستماع الى وجهتي نظرهما في المسألة. فكان بين الرجلين نقاش ممتع حول الحرية والالتزام، واعتبارات المثقف واعتبارات الدولة، وحول تأثير المطبوعة على القارىء و«تسميمها» لأفكاره، وما الى ذلك من مواضيع على مدى ساعة ونصف الساعة، ولم يُقنع أي منهما الآخر. وخاب فأل أدونيس في الدخول الى سوق العراق.

وبعد سنوات من تركي «دار الصياد» اتصل بي بسام فريحة وطلب مني أن أكتب موضوعاً عن الجزائر لمجلة «الصياد» ففعلت وأرسلت له الموضوع، لكنني فوجئت بعد صدور العدد أن الموضوع لم يُنشر، فاتصل بي بسام مشيداً بالمقال وبصحّته وأهميته، لكنه لم ينشره لأنه عرضه قبل النشر على السفير الجزائري في بيروت، فنصحه بعدم نشره.

في هذا الجو الذي يتعين فيه على الصحافي الذي يأخذ مهنته مأخذاً جدياً أن يمارس نوعاً من «التقيّة»، أي باللغة اللبنانية، أن «يمشي بين النقط». والخلاصة التي تصل اليك خالصة بعد تلك الممارسة أنك تتقاضى راتبك لتخفي رأيك الحقيقي لا لتبديه. وإلاّ فإن عليك أن تبحث عن عمل آخر ليس فيه مثل هذه اللبكة.

حتى عندما أصدرت جريدة «الميزان» من لندن، على نفقتي الشخصية، لم أستطع أن أجد لها مشتركاً واحداً لأنها أخذت على عاتقها منذ ذلك الوقت المبكر (1993 ـ 1998) كشف حقيقة الظاهرة الحريرية في لبنان ومخاطرها على البلد والمنطقة، كما أثبتت الأحداث لاحقاً. فقد كان عنوان عددها الأول: «لبنان برسم البيع»، والصورة الكاريكاتورية التي رسمها رسّام الجريدة الفنان علي عثمان من أسفل الصفحة الأولى الى رأسها تُظهر الشعب اللبناني حانياً ظهره، وفوقه يركب رفيق الحريري، وفوق الحريري يركب الملك فهد، وفوق الملك فهد يركب كلينتون، وفوق كلينتون يركب اسحق شامير.

ثم أكدت لي التجربة التي امتدت أكثر من أربعة عقود، أن مهمة الصحافي حتى في البلدان الرأسمالية المتقدمة التي فيها قدر أكبر من الحريات، هي أن يجافي الحقيقة ولا يبديها، ومنهم من يعرف أن المطلوب منه هو أن يكذب جهاراً نهاراً، وبعضهم مطلوب منه أن يزوِّر ويحرِّف، ومنهم من هو مطلوب منه أن يتهجّم على أناس لا يعرفهم، أو أن يلطِّخ سمعتهم، أو أن يبتزّهم، بالكشف أو الستر. وفي بعض الحالات ينزلق صحافيون ضعاف النفوس الى ارتكاب الخيانة العظمى بالوقوف مع الأجنبي ومع العدو من أجل راتبه ولقمة عيشه.

أو كما قال لي زميل بريطاني في جريدة إنكليزية «مستقلة»:

«نحن أدوات في يد رجال أقوياء وأغنياء يقفون وراء الستار فلا نراهم ولا

---

(6) مجلة أدونيس المقصودة هي مجلة «آفاق».

نعرفهم. نحن دمى بأيديهم. هم يعزفون ونحن نرقص».

هو في الحقيقة، ومع الأسف، سوق للدعارة الفكرية، أقل شرفاً وشئمة من سوق الدعارة الجنسية الذي فيه أحياناً منافع لبعض المحرومين من الناس. وقد لا يكون اللوم في ذلك على الصحافة والصحافيين، إنما على الثقافة المجتمعية السائدة بفعل تغلغل الانتهاز في طريقة حياة شعوبنا ورزوحها الطويل تحت نير الاستبداد، وهو ما يتجسد في الأمثال الشعبية السائدة عبر القرون، وهي أمثال تستحق في نظري أن تجري عليها دراسات سوسيولوجية معمَّقة، ومنها على سبيل التبيين، قول الناس بصورة طبيعية في معرض أحاديثهم العادية: «من أخذ أمي صار عمِّي»، أو «من يأكل خبز السلطان يضرب بسيفه»، أو «اربط الحمار أين يريد صاحبه»، أو «سوق مع السوق»، أو «من بعد حصاني ما يطلع حشيش»، أو «الكذب ملح الرجال والعيب على اللي بيصدق»، وأمثلة كثيرة غيرها تعبر عن تجذر مثل هذه الآفات في ثنايا الثقافة المجتمعية المتوارثة، وهي ظاهرة تتزايد وتتسع مع الأسف، بعد تجذرها في الأرض، لتملأ الفضاء، وتحتل الأثير، فتنبع من تحت وتهطل من فوق.

ولذلك فضّلت في المرحلة التالية من حياتي الصحافية أن انحرط في الصحافة الحزبية، باعتبار أنها تعبر عن قضايا وطنية وقومية ليست الصحافة التجارية مضطرة أن تعبر عنها لأن غايتها الحقيقية هي الكسب المادي، لأكتشف، كما سأبيِّن تالياً أن الصحافة الحزبية هي الأخرى منخورة بأمراض مستعصية.



II

بنك البنوك

حدث أن أنشأ الرئيس فؤاد شهاب «مصرف لبنان»، وهو أول مصرف مركزي في البلاد، ضمن إصلاحاته الإدارية الواسعة لإعادة تنظيم الدولة وتحديثها، وإنشاء الأجهزة الرقابية التي تسهر على حسن سيرها وانتظامها، بموجب الخطة الإنمائية الواسعة التي تم تكليف الأب لويس ـ جوزف لوبريه، الذي حضر الى لبنان على رأس بعثة «إيرفيد» من الخبراء الفرنسيين، فأجهضها السياسيون من بعده، وأسهمت في ذلك الأجهزة الأمنية التي حكمت باسم الرئيس شهاب.

فقد كان «بنك سوريا ولبنان» حتى ذلك الوقت يقوم بمهمات البنك المركزي كبنك إصدار.

ولم تكن تلك المحاولة الأولى لإصلاح الدولة اللبنانية واقتصادها الوطني. فقد اختار الرئيس كميل شمعون قبل الرئيس شهاب خبيراً عالمياً لإصلاح الدولة والوضع الاقتصادي، هو الخبير البلجيكي الكاثوليكي الليبرالي بول فان زيلاند. وفي أغلب الظن أن شمعون اختار فان زيلاند بتوصية من مستشاره القانوني آنذاك أنيس صالح. فقد سمعت أحد أصدقاء الرئيس شمعون يقول مرة إن مستشاره المذكور كان دائماً يفضّل القوانين البلجيكية للبنان، وربما إعادة تشكيل النظام اللبناني على القالب البلجيكي.

وكان فان زيلاند من الشخصيات الأوروبية اللامعة قبل الحرب العالمية الثانية. فقد بدأ أستاذاً للقانون والعلوم الاقتصادية في جامعة «لوفن» الكاثوليكية، ونائباً لحاكم «بنك بلجيكا الوطني» (البنك المركزي) ثم عيّنه الملك ليوبولد الثالث رئيساً لحكومة وحدة وطنية بهدف معالجة الأزمة الاقتصادية المستفحلة في البلاد، فقام بخفض قيمة العملة الوطنية، وبإصلاحات واسعة النطاق في النظام الضريبي. لكن حكومة الوحدة الوطنية سقطت تحت ضغط القوى الموالية لألمانيا النازية. ثم أعيد تكليفه بحكومة تقنوقراطية، فوضع برامج لمكافحة البطالة المستفحلة بين الشباب الذين دفعتهم البطالة الى تلقّي الدعاية النازية، وحدّد ساعات العمل، فجعلها 40 ساعة في الأسبوع، وساير

النازيين بإلغاء المعاهدة العسكرية مع فرنسا. وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح مستشاراً اقتصادياً للحكومة، ولمجلس وزراء «حلف شمال الأطلسي» (ناتو)، وكان من مؤسسي «رابطة التعاون الاقتصادي الأوروبي».

تردد فان زيلاند على لبنان لعدة أشهر لدرس الوضع، وفي أغلب الظن أن أجهزة الدولة في الخمسينات لم تتعاون معه كما تعاونت مع الأب لوبريه في عهد الرئيس شهاب بعد عشر سنوات. والشائع آنذاك أن فان زيلاند نصح كميل شمعون بإبقاء الوضع اللبناني على حاله لأنه يستعصي على الفهم!

إلاّ أنني لم أقرأ تقرير فان زيلاند، ولم أقف على طريقة عمله، لتأكيد أو نفي هذه المقولة التي تبنتها الصحافة اللبنانية في حينه، لكنني أشك في صحتها لمعرفتي اللاحقة بطريقة الخبير البلجيكي في التفكير والعمل.

•••

لم ينشىء فؤاد شهاب البنك المركزي من الصفر، فقد اعتمد على قدامى موظفي «بنك سوريا ولبنان»، مع قرار بتطعيمهم بعناصر جديدة وشابّة مع الوقت، أي صبّ الخمرة الجديدة في القناني العتيقة.

وأعلن البنك المركزي الجديد الذي تم تعيين وزير الخارجية فيليب تقلا أول حاكم له مع بقائه وزيراً في الحكومة، عن مسابقة لاختيار عدد من حملة الشهادات الجامعية في الاقتصاد لإشغال وظائف في المصرف الجديد، فتقدمت بطلب للدخول في المسابقة، الى جانب نحو أربعين مرشّحاً، لاختيار ستة منهم لقسم الإحصاء والدراسات الاقتصادية المستحدث برئاسة موظف قديم في «بنك سوريا ولبنان» اسمه ميشال طاسو، وهو كاثوليكي كان على صداقة وثيقة مع الضابط في الجيش اللبناني فرنسوا جينادري، أي أنه كان مدعوماً من الشهابية على رؤوس الأشهاد.

وخيّرونا أن نتقدم الى الامتحان باللغة الفرنسية، أو بالعربية، أو بالإنكليزية، فاخترت الإنكليزية لأنني أردت أن أمتحن ما تعلمته على يد البروفسور باتينغل من دروس في «الألسنية»، أو الكتابة بما يفيد من العبارات من غير «دشٍّ» أو دوران.

وبعد شهر أُبلغت أنني في عداد الفائزين الستة وهم: علي شريف، من بلدة اليمونة في بلاد بعلبك ومتأهل من سيدة صيداوية من آل البزري وكان أول موظف من الموظفين الجدد صار له شأن في البنك حيث تسلّم مديرية شؤون الموظفين بعد تقاعد عبد الرحمن الرفاعي الى أن بلغ الذروة في عهد حاكمية إدمون نعيم الذي صار نائباً عن «القوات اللبنانية» على اللائحة الجنبلاطية - الحريرية في دائرة بعبدا عاليه في انتخابات عام 2005، وأنطوان باسيل، الذي كان أول «الهاربين» من بنك البنوك بعد أشهر قليلة لأن الوضع لم يعجبه وأظن أنه كان يفضِّل الأعمال الحرّة الخاصة، وغالب أبو مصلح نجل الشيخ هاني

أبو مصلح، الذي أصبح فيما بعد مديراً للتسليف محل غبريال خوري الرئيس «التاريخي» لنقابة موظفي المصارف وللاتحاد العمالي العام أيضاً، وجورج حداد، الذي توفي شاباً لإصابته بمرض السرطان، وجوزف دمَّر، وأنا.

فور دخولنا الى «مصرف لبنان» قوبلنا وكأننا وباء بحاجة الى حجْر. وهذا شيء كنت أفهمه في حينه لأن قلة من الموظفين القدامى في «بنك سوريا ولبنان» كانت لديهم مؤهلات علمية عالية تستوجبها مناصبهم، وقلة كانوا يعرفون أن عمل البنك المركزي يختلف عن عمل البنك التجاري، إذ كانوا ينظرون الى البنك المركزي على أنه مجرد بنك للإصدار.

ومن اليوم الأول «نقعونا» في قاعة واحدة وتركونا من غير أي كلمة توجيه، أو أي إشارة الى مهامنا المقبلة، إلاّ ميشال طاسو مدير القسم الذي قال لنا إن الدائرة التي نحن فيها اسمها «دائرة الإحصاء والدراسات الاقتصادية»، وأن البدء بالعمل فيها سوف يتأخر لعدم وجود مقومات لها بعد. فكنا نقضي وقت الدوام بالمناقشات التي لا علاقة لها بالعمل، وبقراءة الصحف، والكتب، وتبادل النكات. وكان طاسو يطل علينا فترة بعد فترة ليتأكد من وجودنا، لكنه صار يخفِّف طلاّته تجنباً للأسئلة المحرجة التي يمكن أن نطرحها، وفي أغلب الظن أنه هو أيضاً لم يكن يعرف ماذا سيفعل.

ثم فجأة قدَّم أنطوان باسيل استقالته، فأسفت لذلك أسفاً شديداً، لأنني أعتقد أن أي دولة تحترم نفسها في العالم تتمنى أن يكون لديها موظف مثله، بشخصيته وعلمه وفهمه ونزاهته.

بعد مغادرته، بدأت الأمور تتلحلح قليلاً، فتم تعيين علي شريف مسؤولاً عن دائرة «المخاطر»، وهي دائرة مهمة في البنك لأن أشياء كثيرة تتعلق بها، مثل إعطاء القروض والسلفات أو حجبها تبعاً لدرجة المخاطر التي تقررها تلك الدائرة. وقيل لي فيما بعد أن علي شريف أساء استخدام وظيفته لمصلحته الشخصية، لكنني في المرات الثلاث التي التقيته فيها لاحقاً، مرة في بيروت ومرتين في لندن، حيث كان نجله يتخصص بأمراض السرطان في أحد أشهر المستشفيات المتخصصة في العاصمة البريطانية، أكد لي أن الحاكم إدمون نعيم يثق به ثقة مطلقة، وأنهما كانا يسهران معاً في البنك في زمن الحرب لأن نعيم كان ينام في مكتبه داخل البنك ويطهو طعامه بنفسه. وفي المرة الأخيرة التي التقيته فيها في فندق «شيراتون» في «نايتسبريدج» قبل وفاته المبكرة، أبلغني أن الرئيس الياس الهراوي تحامل عليه لأنه كان يحاول تمرير «مصالح معينة» عن طريق موظف كبير يخصّه من زحلة، وأنه أصر على إزاحته بعد وصوله الى رئاسة الجمهورية كعمل انتقامي غلّفه بتهمة الفساد.

والمرة الأولى التي التقيت فيها علي شريف في لندن كانت محض مصادفة، حيث تلاقينا على باب فندق «إن أون ذي بارك» في منطقة «مايفير» من غير

موعد، فتحدثنا قليلاً في العموميات لأن كلاً منا كان على موعد، هو خارج الفندق وأنا فيه. ثم قصدت زيارته في البنك المركزي عام 1993 بعد صدور جريدة «الميزان» ، واجتمعنا هو وغالب أبو مصلح وأنا في مكتبه، وكان في منصب مدير شؤون الموظفين. ثم في عام 1996 أثناء الانتخابات النيابية لتلك السنة، حيث كان البقاع كله دائرة انتخابية واحدة، وبعد إزاحته من وظيفته في البنك، دعاني الى غداء كبير أقامه في بيته في اليمّونة، لكنني اعتذرت عن ذلك لارتباطي بموعد آخر في الوقت ذاته.

ولست أدري ما هي الحقيقة في قضية علي شريف، وقد أصبح في ذمة الله. لكنني أعرف أن موظفي «مصرف لبنان» يتمتعون بامتيازات ورواتب جيدة، خصوصاً كبارهم، بحيث أن واحدهم ليس بحاجة الى استخدام مركزه للانتفاع الشخصي. وفي السنوات الأولى التي قضيتها في المصرف من 1965 الى 1969، كان الموظفون يتلقون راتباً إضافياً كل سنة، ثم راتبين بعد فترة، وكانت لهم حصة في أرباح المصرف توزّع عليهم حسب مناصبهم، وهي أحياناً أرباح طائلة تصل الى عدة ملايين أو عشرات الملايين من الدولارات. وأظن أنهم في الوقت الحاضر يتلقون راتباً إضافياً مرة كل أربعة أو ثلاثة أشهر.

حاولت مرة أن أعرف حقيقة ما جرى مع علي شريف لأنه كان صديقي وقضينا معاً وقتاً ممتعاً أثناء وجودنا في البنك المركزي. وقال لي بعض الذين سألتهم إن علي شريف استغل دالته على إدمون نعيم فكان يعرف منه حقيقة الوضع في أسواق القطع، فراح يضارب على الليرة والدولار عن طريق طرف ثالث، وجنى من ذلك ثروة طائلة، لكن ذلك غير مؤكد، ولم يشر اليه علي شريف في حديثه معي في لندن بعد إخراجه من البنك لا من قريب ولا من بعيد.

وطوال معرفتي به كان صريحاً للغاية معي في بعض الشؤون الخاصة. فعندما كنا في البنك سوياً أبلغني أنه في عداد الذين ابتنوا بيتاً في أملاك الغير في منطقة الأوزاعي، وحاول أن يقنعني ببناء بيت مماثل الى جوار البيت الذي ابتناه هناك، وشرح لي طريقة البناء وراء جدار من القصب لصرف انتباه رجال الأمن الى أن يُسقف البيت ويصير أمراً واقعاً، وقال لي إنه يتعهد لي البناء، فرفضت الفكرة من الأساس. وقد أسرّ لي مراراً خلال عمله في قسم «المخاطر» أنه وقف على مخالفات في بعض البنوك التي وصلته تقارير عنها، ومنها بنوك محترمة في الظاهر. ومع أنني حاولت استدراجه الى الحديث عن تلك الأمور، إلاّ أنه كان يجيبني ببراءة لا أظن أنها مفتعلة، وكنت أقرأه على درجة كبيرة من الوضوح. رحمه الله.

•••

بعد نقل علي شريف الى «المخاطر» جاء دوري فنقلوني الى دائرة «المقاصّة» مع بقية المصارف اللبنانية وعددها آنذاك تسعون مصرفاً. ولم يرُق لي ذلك،

لأننا دخلنا على أساس «الإحصاء والدراسات الاقتصادية» فتفرقنا أيدي سبأ، كل واحد في واد، وكانت معنوياتنا قد ضعفت بعد مغادرة أنطوان باسيل.

نزلت الى قاعة «المقاصّة»، فكانت أشبه بسوق الدلاّلين. كنت أجلس وحدي على طاولة في صدر القاعة التي يجلس فيها ممثلو المصارف التسعين كأنهم في صفّ مدرسة، وأمامي وأمام كل واحد منهم آلة حاسبة بدائية للجمع والطرح. وكان عليّ أن أتبادل الشيكات المسحوبة على البنك المركزي مع الشيكات المسحوبة على البنوك الباقية، بعد جمع قيمة المبالغ المدوّنة في تلك الشيكات. وتنتهي المقاصّة إذا كان مجموع البنك المركزي الذي كانت وظيفتي القيام به على الآلة الحاسبة، مع مجموع بقية المصارف. فإذا حدث فرق ولو بسيط في الجمع، تعاد العملية من أولها للوقوف على مكمن الخطأ. ولم يكن معي أي مساعد، إنما كنت وحدي مقابل تسعين. ولست أظن أن هذه الطريقة البدائية في المقاصّة ما زال معمولاً بها، خصوصاً في عهد حاكمية رياض سلامة.

وإذا وقع أي خطأ في الجمع، من قبلي أو من قبل أي من ممثلي المصارف، يحدث هرج ومرج، فتخال نفسك أنك في سوق الخضرة، وينهال السباب وتنتشر التمتمات، لأن العملية كانت شاقّة بالفعل. وفي بعض الأحيان كنت أتعمد الخطأ لإغاظة الحاضرين إذا تمادوا في سوء السلوك، الى أن ينهكهم التعب.

وبعد مضي شهر على هذا البازار البدائي، طلبت موعداً من الحاكم فيليب تقلا لمقابلته، فمضى ثلاثة أسابيع من غير أن يردّ على طلبي، فعذرته لأنه كان يداوم جزئياً لانشغالاته الدائمة في وزارة الخارجية. ولما طال الأمر، اتصلت بالزميل ميشال أبو جودة في جريدة «النهار»، وكان على علاقة جيدة مع فيليب تقلا، وأبلغته أن صاحبه لم يرد على طلب مقابلتي له منذ أسابيع، فاتصل به وحدد لي موعداً بعد يومين.

صعدت الى مكتب فيليب تقلا فاستقبلني بالترحاب، وبعد السلام والكلام شرحت له واقع الحال، وتناسي المسؤولين الأساس الذي دخلنا عليه الى البنك للقيام بأعمال الإحصاء والدراسات الاقتصادية، وأنني أُعطيت وظيفة في قاعة المقاصّة لا أريدها ولست مقتنعاً بها. وقلت له:

«يا سعادة الحاكم، يا معالي الوزير، يا فيليب بيك، نحن الجدد نعتبرك ضمانة لنا، ونستقوي بك لكي نمنع عنّا التهميش، والإبعاد، والمحاصرة. إننا نفهم مشاعر بعض قدامى المدراء تجاهنا، لكن هذا الأمر لا بد من تصحيحه».

وبعدما فرغت من مطالعتي وهو يسمع، قال لي:

«بالمختصر المفيد ماذا تريد؟»

قلت له: «أريد نقلي من المقاصّة».

قال: «وهو كذلك، فليكن... ارجع الى وظيفتك السابقة».

قلت له: «لكننا هناك لا شيء نعمله، ولا نعرف ماذا نفعل».

قال بشيء من الحدة: «ومن منا يعرف ماذا يفعل».

فأدهشني هذا الاعتراف بالجهل، وسررت بصراحته، وشكرته على نقلي من المقاصّة قبل أن يغيِّر رأيه، وخرجت لأقص على علي شريف وبقية الزملاء الذين كانوا ينتظرون عودتي من مكتب الحاكم بفارغ الصبر، فأصابهم نوع من اليأس والإحباط. أما أنا فكنت بالغ السعادة لخروجي من سوق الدلاّلين بكامل وعيي.

•••

بعد ذلك ترك فيليب تقلا البنك المركزي ليصبح في عهدة النائب الأول للحاكم، وهو أرمني يدعى أوغورليان، الذي قيل لنا إنه عديل الرئيس شارل حلو. وفي زمن أوغورليان حدث الزلزال الكبير بسقوط بنك «إنترا» لصاحبه الفلسطيني المقدسي يوسف بيدس. وكان بنك «إنترا» في حينه قد أصبح أكبر البنوك اللبنانية، وتحوّل يوسف بيدس الى «أيقونة» مصرفية من خارج نادي أصحاب البنوك التقليديين في لبنان، وصار له شأن إقليمي وعالمي.

وبعدما وضع البنك المركزي يده على بنك «إنترا»، صاروا يجلبون موجوداته من أوراق وسندات الى غرفة مجاورة لمكتبنا بأكياس الجنفيص، التي كانت تحتوي على سندات بمئات الملايين من الليرات هي ديون للبنك مترتبة على عشرات الشركات والمصانع والمصالح الخاصة، وكان بإمكان أي منا أن يأخذ منها ما يشاء، لأنها نقلت الى البنك المركزي لفرزها من غير إجراء جردة لها في مكانها، لكي يصبح معروفاً ماذا دخل الى البنك المركزي قبل دخوله.

ثم بدأنا نتلقى سيلاً من المراجعات من قبل المودعين بعدما توقف البنك المركزي عن دفع الشيكات المسحوبة على «إنترا»، فصار البنك المركزي في عهد أوغورليان مثل برج حمّود.

وكان ذلك أول امتحان حقيقي لمصرف لبنان، وأظن أنه رسب في ذلك الامتحان، لأنني شاهدت تلك الفوضى بأم العين، لا سيما أنه ثبت فيما بعد أن هناك جانباً مفتعلاً في سقوط بنك «إنترا»، بدليل أن موجوداته ما زالت تدر أموالاً على الحكومة اللبنانية، الى اليوم، وعلى الرغم من مرورها في أيدي هوامير كاسرة أمثال روجيه تمرز وغيره فيما بعد.

وقد تشرد مئات الموظفين في بنك «إنترا»، وصارت حالتهم يُرثى لها.

وصادف وقتئذ موعد انتخاب نقابة موظفي المصارف التي كان يسيطر عليها النقيب غبريال خوري المدير في البنك المركزي، والذي قضى في تلك النقابة طوال حياته منذ أن عمل في «بنك سوريا ولبنان»، وربما من أيام الانتداب، فتفوّق على ملحم كرم في نقابة المحررين، ومن نقابة موظفي المصارف سيطر غبريال خوري على الاتحاد العمالي العام طوال ثلاثين عاماً.

وعندما شاهدت بعيني مأساة موظفي بنك «إنترا»، قررت أن أخوض انتخابات نقابة موظفي المصارف ضد غبريال خوري.

في البداية لم يأخذ أحد ترشيحي على محمل الجد بمن فيهم بعض الزملاء الجدد في البنك المركزي، لكنني عملت قصارى جهدي لتشكيل لائحة مكتملة الأعضاء. ولما كنت عملت سابقاً في الصحافة وأعرف اللعبة الإعلامية، فقد قررت خوض حرب إعلامية ضد غبريال خوري، بإصدار بيانات متواصلة ونشرها في الصحف حيث لا يستطيع أن يجاريني.

عندئذ أخذ غبريال خوري المعركة جدياً، خصوصاً أنه في العقود السابقة لم يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه، فكان الإمبراطور المتوّج لنقابة المصارف والاتحاد العمالي العام.

وراح غبريال خوري يتصل بي بصورة غير مباشرة عن طريق علي شريف، لاستمزاجي حول التسوية والدخول في ائتلاف معه مع تلسينات بوعود حول مستقبل زاهر، ظناً منه أنني أسعى الى المناصب والوجاهة. فلما أيقن أنني رافض للتسوية والانضمام اليه، زاد من ضغوطه بشتى السبل على أعضاء اللائحة التي شكّلتها للانسحاب منها، مستعيناً بأصحاب المصارف العاملين فيها لتهديدهم بوظائفهم. وكان كلما انسحب واحد منهم تحت الضغط عملت سريعاً بالتعاون مع الزميل غالب أبو مصلح، الذي دعم الفكرة من البداية، واحتل لاحقاً وظيفة غبريال خوري في المصرف المركزي، على ملء مكان المرشح المنسحب.

وتكررت هذه العملية عدة مرات الى أن وصلنا بالفعل الى الانتخابات في مقر الاتحاد العمالي العام بلائحة مكتملة لأول مرة في تاريخ النقابة منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وفي تلك الانتخابات نال غبريال خوري نحو 900 صوت، ونلنا نحن نحو 400 صوت أغلبهم من موظفي بنك «إنترا» المعلّقين بحبال الهواء والذين لا يجدي الضغط عليهم.

لقد كانت معركة مشهودة، وغير متوقعة من أحد.

حدث بعد ذلك شيء يدل على العقلية المتحجرة في البنك المركزي آنذاك. فقد تقدمت بطلب للحصول على دفتر شيكات جديد. وانتظرت أسبوعاً فلم يصلني. فنزلت الى الصندوق في الطابق الأرضي وسألت عن الأمر فقالوا لي إنه عند المدير. والمدير المعني كان غبريال خوري. وقد حجز الدفتر في مكتبه لكي أتصل به وأتزلف اليه.

فعرضت الأمر على علي شريف فراح يقنعني بأن نذهب سوياً الى مكتب غبريال خوري لنطوي صفحة الانتخابات النقابية، ونفتح صفحة جديدة معه مما يمكن أن يسهِّل أمورنا. وبعد أخذ ورد بيننا استمر يومين، نزلت عند رغبته وتوجهت معه الى مكتب غبريال خوري الذي استقبلنا بالقبل والترحاب وكأننا

أصدقاء قدامى نلتقي بعد طول غياب، وراح يطريني ويمتدح طريقة إدارتي للمعركة الانتخابية معترفاً بأنني ضايقته، ثم شربنا القهوة وسلمني دفتر الشيكات معترفاً أيضاً بأنه تعمّد احتجازه بهدف أن يلتقيني ويتحاور معي.

•••

التقيت يوسف بيدس وجهاً لوجه مرة واحدة في ظرف عابر وغريب. فعندما كنت في الجامعة الأميركية قبل التخرج بقليل، طلب مني أبو سعيد أبو الريش أن أعطي دروساً خصوصية مدفوعة الأجر لواحد من أبنائه في منزله الكائن على الكورنيش في منطقة عين المريسة بالقرب من السفارة الأميركية القديمة التي تم تفجيرها في عام 1983. وكان أبو الريش[1] يومها مراسلاً لمجلة «تايم» الأميركية، التي كانت في ذلك الوقت المجلة العالمية الأولى، وكان يتخذ من بار فندق «سان جورج» مقراً له في أوقات عمله[2].

وبار «سان جورج» كان ملتقى بعض السياسيين اللبنانيين ورجال الاستخبارات ورجال الأعمال والمراسلين الصحافيين من كل أنحاء العالم، ومنه اختفى الجاسوس البريطاني كيم فيلبي ليظهر في موسكو لاحقاً. وقد كتب سعيد أبو الريش كتاباً بالإنكليزية عن بار سان جورج كما عرفه في زمن والده، يوم كان في أوجه.

وبعد اختفاء فيلبي عام 1963، وكان يعمل تحت غطاء مراسل صحافي لمجلة «إيكونوميست» البريطانية، كتبت مقالاً في جريدة «الأنوار» عن الموضوع ألمحت فيه بشكل غامض الى دور ما للأمن العام اللبناني بقيادة العقيد توفيق جلبوط آنذاك في تغطية الاختفاء أو تسهيله، إذ قيل إن موسى جلبوط شقيق مدير الأمن العام في ذلك الوقت كان من الشيوعيين المعروفين في لبنان.

ولم أكن أعرف العقيد جلبوط آنذاك، لكنني عرفت أنه منفتح واسع الإدراك. وأبلغني الدكتور بشارة الفرزلي شقيق زوجتي أنه كان زميلاً في الجامعة لعاطف قبرصي النجل الأصغر لعبد الله قبرصي أحد البارزين في الحزب السوري

---

(1) أبو سعيد أبو الريش هو محمد خليل أبو الريش من بلدة بيت عنيا في فلسطين المحتلة، وكان في مطلع شبابه من الحمسين للمفتي الحاج أمين الحسيني، وفي انتفاضة الشعب الفلسطيني عام 1936 قام بمحاولة فاشلة لاغتيال المفوض البريطاني هيو فوت (شقيق زعيم حزب العمال البريطاني الأسبق مايكل فوت) الذي عرف لاحقا باسم اللورد كارادون واضع القرار الدولي رقم 242. ثم عمل في الصحافة لاحتكاكه مع الصحافيين الأجانب في فلسطين. وبعد النكبة الفلسطينية وهجرته الى لبنان استمر في العمل الصحافي فأصبح مدير مكتب مجلة «تايم» الأميركية في العاصمة اللبنانية لمدة 37 عاماً من 1952 الى 1989. وهو والد الصحافي والكاتب الزميل سعيد أبو الريش الإبن الأكبر بين خمسة أشقاء وشقيقتين. وقد تقاعد أبو السعيد في مدينة سياتل بولاية واشنطن الأميركية حيث توفي في 3 أيار/مايو 2005 عن عمر ناهز 96 عاماً.

(2) كان بار فندق سان جورج في زمانه من أشهر البارات في العالم، وقد وضع سعيد أبو الريش كتابه عنه بالإنكليزية في صيف 1989، وصدر عن دار النشر البريطانية Bloomsbury Publishing، ونشرته بالعربية دار «رياض الريس للنشر» في بيروت بعنوان: «بار السان جورج: وكر الجواسيس».

القومي الاجتماعي، وأن القبرصي أراد أن يسافر الى كندا لمتابعة دراسته لكن الأمن العام اللبناني رفض أن يعطيه جواز سفر بسبب تورط والده في المحاولة الانقلابية للقوميين ضد فؤاد شهاب، فشكا الدكتور بشارة الأمر الى عمّه أديب الفرزلي الذي ذهب بنفسه الى جلبوط وسأله عن سبب عدم اعطاء جواز للطالب عاطف قبرصي، فقال له:

«إن القوميين ممنوعون من السفر».

فأجابه بقوله: «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون. لن أخرج من هنا إلاّ والجواز بيدي».

وهكذا كان.

وقد كشفت سرّ فيلبي للأجهزة الإسرائيلية في تل أبيب سيدة تدعى «فلورا سولومون» حيث كانت تقيم، وهي قريبة لعائلة روتشايلد المصرفية اليهودية، متزوجة من تاجر أسهم يهودي بريطاني في البورصة، وكانت عشيقة فيلبي قبل الحرب العالمية الثانية. ومما قالته للإسرائيليين عن فيلبي إنه مؤيد للعرب ولعبد الناصر، وإنه هو الذي ضلل الاستخبارات البريطانية في محاولتها اغتيال الرئيس المصري بعد تأميم قناة السويس، وإنه يعمل لصالح الاستخبارات السوفياتية. فما كان من الإسرائيليين إلاّ أن أبلغوا الاستخبارات البريطانية فأوفدت فكتور روتشايلد العامل في تلك الاستخبارات يومئذ لاستجوابها، لكونه يمت لها بصلة قربى، فأكدت له ذلك لكنها رفضت أن تشهد ضد عشيقها السابق في المحكمة.

وبعد فراره الى موسكو من بيروت في عملية لم ينكشف سرها الى اليوم، وضع كيم فيلبي كتاباً بعنوان «حربي الصامتة»[3] فيه أمور ملفتة منها دفاعه العقائدي عن انتمائه الى الشيوعية، وتبريره للنظام الستاليني في آخر الكتاب، ومنها رأيه في السعوديين حيث كان والده سانت ـ جون فيلبي، المعروف باسم عبد الله فيلبي، يعمل مستشاراً للملك عبد العزيز مؤسس المملكة السعودية[4]. ففي نهاية الحرب كان كيم مسافراً الى استانبول للالتحاق بعمله الجديد هناك عن طريق القاهرة، فعرّج على والده في مدينة جدّة السعودية. وهناك طلب منه والده أن يبقى في المملكة لأن الفرصة مؤاتية ليجمع ثروة كبيرة، فرفض هذا العرض بقوله له:

«إنني لا أطيق الجهل، فكيف إذا اقترن الجهل بالغرور»!

طلب مني أبو السعيد أن أوافيه الى بار سان جورج ليدفع لي أتعابي، فتوجهت

---

(3) My Silent War, Kim Philby صدر لأول مرة عام 1969 بعد فراره من بيروت الى موسكو بعدة سنوات ولقي رواجاً منقطع النظير بحيث ما زالت الطبعات الجديدة منه تتوالى.

(4) عبد الله فيلبي هذا هو الذي استقدم شركات النفط الأميركية العملاقة الى المملكة السعودية، ومنها تشكلت شركة «أرامكو». وقد توفي فيلبي الأب في بيروت عام 1960.

الى هناك، لكننا لم نجلس في البار بل على «التيراس» الخارجي المطل على المسبح.

وبعدما دفع لي ما في ذمته، قال لي:

«هل أنت على موعد في مكان ما؟»

قلت له: «لا».

قال: «أتذهب معي الى المطار؟»

قلت: «وماذا نفعل في المطار؟»

قال: «نستقبل يوسف بيدس العائد من أوروبا»

وركبنا سيارة أبو السعيد التي قادها بنفسه وأنا الى جانبه. وعندما وصلنا الى المطار، تركني لحظة في السيارة ثم عاد متأبطاً يوسف بيدس، فقمت من مقعدي الأمامي وجلست في الخلف، وراحا يتحدثان بأمور لم أكن في ذلك الوقت أعرف قيمتها ومدلولاتها، لا سيما أنهما كانا يتحدثان غير آبهين لوجودي معهما أسترق السمع. لكنه فاتني أن أدوِّن مضمونها، فغابت عني كلياً، لأنني لم أكن أعرف شيئاً عمّا تحدثا عنه في حينه، ولم يكن يعنيني هذا الأمر إطلاقاً. فقد كانا يتحدثان بعبارات غامضة أشبه باللغة الرمزية، مثل «صاحبنا الثاني»، أو «الحساب الذي قلت لك عنه في المرة الماضية»، وما الى ذلك مما لست أذكره.

ولا أدري لماذا حرص أبو الريش أن يذهب الى المطار بنفسه لملاقاة يوسف بيدس، ولا سبب طلبه مني أن أرافقه. لكنني كنت أعرف أنه يعمل لدى مؤسسة أميركية لها شأن سياسي مهم ونفوذ واسع، وأعرف أن بيدس صاحب مصرف كبير. فلا بد أن هناك أمراً مستعجلاً حمله على إبلاغه لبيدس، إلاّ أن هذا الأخير لم يكن يبدو عليه أي قلق، كما لاحظت أنه لا يحمل حقيبة ملابس كبقية المسافرين، إنما يحمل حقيبة يد فقط. وأنزلني أبو السعيد بالقرب من الجامعة الأميركية، وأكمل مشواره مع بيدس لوحدهما.

ثم دهمني موضوع يوسف بيدس من حيث لم أتوقع. فعندما عاد ميشال عفلق، مؤسس حزب البعث العربي الاشتراكي، من البرازيل بعدما أوفدت اليه قيادة الثورة العراقية في عام 1968 أحد أعضائها، وهو صلاح عمر العلي، لإقناعه بالعودة، أُسكن في منزل على الروشة خلف منزلي تماماً، كان يسكنه من قبل قريبي نقولا الفرزلي القيادي في حزب البعث آنذاك.

وكنت التقيت عفلق لأول مرة في مطار بيروت الدولي عام 1960، حيث كان في وداع قريبي نقولا الفرزلي العضو في حزب البعث، والمتوجه الى الولايات المتحدة لدراسة الهندسة. ثم التقيته ثانية عام 1963 في منزله الدمشقي، في منطقة السبع بحرات بالقرب من مبنى البنك المركزي السوري، بصحبة منح الصلح وقريبي المحامي الياس الفرزلي . وكانت ابنته رزان لا تزال طفلة

بحدود السنتين أو أكثر قليلاً من العمر، وهو الذي كان يهتم بها لوجود والدتها الدكتورة أمل بشّور خارج المنزل.

وفي بيروت كنت على صلة دائمة بميشال علفق، بحكم الجوار وبحكم علاقته مع أقاربنا، مما أدى الى الحوار المستمر بينه وبيني في شتى المواضيع السياسية وغير السياسية. وكنا في كل يوم تقريباً نقوم بنزهة مشياً على الأقدام، فنذهب بسيارتي الى مكان خال من المارة مثل كورنيش خلدة، أو مرتفعات بشامون، حيث كنا نمشي ساعة ونتحدث خلالها في كل شيء تقريباً.

وأبلغني مرة أنه عندما كان يقيم في منزل خاله الدكتور شكري زيدان في ساو باولو في البرازيل، قال له الخال إن شخصاً يدعى يوسف بيدس يقيم هناك يريد مقابلته والتحدث اليه، وأن أحد اللبنانيين المحترمين في ساو باولو اتصل به لإيصال الأمر الى الأستاذ ميشال.

وقال لي ميشال عفلق خلال أحد تلك المشاوير إنه قرر أخيراً النزول عند رغبة خاله واستقبال يوسف بيدس، مع أنه ليس هناك ما يجمعه به. وفي ذلك الاجتماع في بيت الدكتور زيدان في ساو باولو، عرض عليه يوسف بيدس قصة بنك «إنترا»، وما يعتقد بأنه مؤامرة دولية لإسقاطه. وقال لي إن يوسف بيدس حكى له قصة شرائه أحواض «لا سيوتا» في جنوب فرنسا لبناء ناقلات نفط عملاقة بالاتفاق مع عبد الناصر ومع الجنرال ديغول، في محاولة منهم لإبقاء منافع العصر النفطي المنبثق والواعد في إطار المنطقة العربية - الأوروبية. وأن التفاهم بين ديغول وعبد الناصر تمثل في الاستقبال التاريخي الذي خص به الرئيس الفرنسي في باريس المشير عبد الحكيم عامر قائد القوات المصرية المسلّحة، حيث أقام له حفل العشاء التكريمي في «قاعة المرايا» في قصر فرساي، ففتحها لمقتضيات الدولة لأول مرة منذ الثورة الفرنسية، تعبيراً عن الحلف الاستراتيجي الذي كان يتوخاه مع عبد الناصر والعالم العربي.

وقال يوسف بيدس لميشال عفلق إنه يعرف أن قرار إسقاط بنك «إنترا» بغير مسوِّغ مالي أو اقتصادي، هو حلقة من سلسلة استهدفت أيضاً جمال عبد الناصر والجنرال ديغول.

كذلك قال له إنه يعتقد بأن ضرب بنك «إنترا»، وكذلك استهداف عبد الناصر والجنرال ديغول، جاء عندما أيقن الإسرائيليون والأميركيون خطورة هذا التلاقي على مصالحهم الاستراتيجية، خصوصاً بعد نشوء بوادر الثورة الفلسطينية في مطلع عام 1965.

وهكذا سقط يوسف بيدس في عام 1966، وسقط عبد الناصر في الهزيمة المدوِّية عام 1967، وسقط الجنرال ديغول في استفتاء سخيف في عام 1968. فانفرط عقد تلك المسبحة، التي أكد مؤسس بنك «إنترا» لميشال عفلق في ساو باولو حيث قضى أيامه الأخيرة معزولاً كسير القلب، بأنها كانت تعد بمستقبل

زاهر للبنان والمنطقة العربية.

•••

في عام 1968 أقامت «مؤسسة فورد» الأميركية برنامجاً مكثفاً لسنة واحدة في الجامعة الأميركية يحصل المنتسبون اليه في نهاية السنة بعد تقديم أطروحاتهم على درجة «ماجستير في إدارة التنمية»تعادل الدرجة ذاتها في أي مجال آخر Development Administration وكان ذلك البرنامج مخصصاً لموظفين في البنوك المركزية من مختلف بلدان الشرق من الفيليبين وماليزيا الى العراق ومصر. وسألني الدكتور عدنان اسكندر منسِّق الجامعة مع البرنامج ما إذا كنت أرغب في الانضمام الى تلك الدورة فرحبت بالأمر وتحمست له.

كان التعليم مجانياً، وفوقه يُعطى لكل منتسب راتبٌ شهري قدره 400 ليرة لبنانية لتغطية نفقاته الجارية. ولما كانت لدي عائلة كبيرة، ثلاثة أولاد وزوجتي حامل بالرابع، والمبلغ المذكور لا يكفيني، اتصلت بالدكتور حسن عواضة مدير التفتيش المالي في الدولة، وهو صديق من بلدة مشغرة، وعلى علاقة طيبة مع الياس سركيس حاكم البنك المركزي آنذاك، وشرحت له القضية وطلبت منه أن يكلِّم الحاكم بالأمر من أجل أن يبقي لي راتبي في البنك سارياً طوال السنة الدراسية 1968 ـ 1969، لا سيما أن جميع المنتسبين الآخرين من مختلف بلدان المنطقة كانوا موفدين من قبل بنوكهم المركزية بكامل رواتبهم، ووعود بوظائف أعلى عند تخرجهم. وبعد أيام اتصل بي الدكتور عواضة وقال لي إن عليّ تقديم طلب خطي بهذا الشأن، وأن الأمر متيسر.

تقدمت بالطلب كما هو مطلوب فأعيد الي بعد أيام وعليه موافقة نائب الحاكم شفيق محرّم، أما سعادة الحاكم الياس سركيس فقد كتب عليه: «مرفوض لأنه مخالف للقانون». ولم أشأ أن أناقش في الموضوع أو أراجع الدكتور عواضة لأبلغه بما حدث، بل تقدمت بطلب آخر الى الياس سركيس بأن يعطيني إجازة سنة من دون راتب على أن أستعيد وظيفتي بعد التخرج، فوافق على هذا المقترح.

بعد حصولي على تلك الموافقة، توجهت الى «دار الصياد»، واقترحت على عصام فريحة أن نصدر ملحقاً اقتصادياً أسبوعياً لجريدة «الأنوار»، فرحب بالفكرة واتفقنا أن نباشر على الفور في الإعداد له، فشكلت فريقاً صغيراً للعمل معي فيه قوامه رغيد الصلح وبشارة مرهج ومعقِّب إعلانات سوري اسمه وليد، وتوافقنا على الرواتب والأجور، وأصدرنا الملحق الذي كنت أكتب افتتاحيته باسمي الصريح، وهو ما حمل الي متاعب جديدة مع الياس سركيس فيما بعد[5].

•••

(5) كان الملحق المذكور يصدر بشكل جريدة داخل الجريدة.

في الجامعة كان الأساتذة كلهم من الأميركيين، وكان الطلبة متعددي الجنسيات. فكان هناك فيليبيني اسمه «غرانادوس»، وسيدة ماليزية اسمها «عـزة»، وسيدة عراقية اسمها «ملك»، وطالبان مصريّان هما طارق حسني وسليمان حديد الذي تواصلت معه لاحقاً عندما كان يعمل في «الأهرام الاقتصادي». وكان هناك الأردني واصف عازر الذي عاد الى الأردن وتبوأ مناصب عليا. وكان العدد قليلاً بالمقارنة مع الصفوف الأخرى في الجامعة. وكانت الدروس تتناول مواضيع إنمائية، ليس فيها تدريس بالمعنى المألوف، بل تطرح المواضيع للمناقشة أو يُطلب من المنتسبين كتابة أوراق حولها لتناقش الأوراق لاحقاً، فكان هذا النظام ممتعاً ومشجعاً على المبادرة.

ومن بين الأساتذة واحد يدعى «مستر مورفي» لديه طريقة مبتكرة في إثارة الجدل حول المواضيع المطروحة. إذ من الحصة الأولى وزّع علينا واحداً واحداً كتاباً هو عبارة عن رواية أدبية بعنوان «ما السبب؟» The Reason Why، للكاتبة البريطانية سيسيل وودهام ـ سميث، عن حرب القرم بين تحالف بريطانيا وفرنسا وتركيا ضد روسيا في أواسط القرن التاسع عشر، وطلب منا أن نقرأ تلك الرواية وأن نكتب عنها ورقة بعد أسبوع. وتلك الرواية ممتعة لأنها تدور حول ما أسماه الإنكليز في ذلك الزمان «هجوم الفرقة الخفيفة»:

The Charge of The light Brigade، عندما قامت تلك الفرقة من الخيّالة وعددهم 600 خيّال بهجوم في واد تحيط به المدافع الروسية على الجانبين لتحصدهم تلك المدافع بنيران لا هوادة فيها. وقد أثارت تلك الواقعة مخيلة الشعراء والكتاب الإنكليز فكتبوا عنها الأراجيز، والأغاني الفولكلورية، والكتب والروايات، ونقلت الى السينما. حتى أن كارل ماركس نفسه كتب عنها تقريراً صحافياً في جريدة «نيويورك تريبيون» التي كان يراسلها في حينه، وهي الصحيفة ذاتها التي نشر فيها ماركس مقالته عن الحرب الأهلية اللبنانية بعد ذلك بسنوات قليلة «بين القبائل الدرزية والمارونية البربرية»[6]، عندما كان ماركس يستشفي في الجزائر، لأنه كان مصاباً بمرض جلدي أو بمرض روماتيزمي لا يلائمه الطقس البارد في أوروبا، فاقترح عليه الأطباء أن ينتقل الى بلد مشمس شديد الحرارة وقريب نسبياً، ومن هنا كان اختيار الجزائر الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي في ذلك الوقت لهذه الغاية. وكان ماركس في ذلك الوقت يراسل الصحيفة الأميركية المذكورة لقاء جنيه واحد لكل مقال. وفي أثناء وجوده في الجزائر نشبت الحرب الأهلية اللبنانية الأولى بين الدروز

(6) نشرتها في جريدة «الميزان» بعدما ترجمتها الى العربية عن مجلة «بانش» الكاريكاتورية النقدية في عدد لها صادر عام 1861. ومجموعة «بانش» الكاريكاتورية اشتريتها في معرض للكتب القديمة في لندن، وكانت تضم أجزاء من عام 1856 الى 1862، لكننا فقدناها بعد إغلاق «الميزان» حيث غادرنا المكاتب في ضاحية «هارو» وتخلصنا من الموجودات الفائضة على عجل.(كارل ماركس ولبنان، «الميزان» العدد الثالث المجلد الرابع، كانون الأول/ديسمبر 1996).

والموارنة (1860 - 1864)، وكان هناك تواصل بين الجزائر وبلاد الشام بحكم وجود الزعيم الجزائري الثائر ضد الفرنسيين الأمير عبد القادر الجزائري منفياً في دمشق حيث لعب دوراً قومياً مشرفاً في إطفاء لهيب الفتنة الطائفية المنبعث من الحرب في جبل لبنان.

فاستقى كارل ماركس معلومات الحرب الأهلية في جبل لبنان من أتباع الأمير عبد القادر الجزائري الذين كانوا يتنقلون بين الجزائر وبلاد الشام حاملين معهم الأخبار والحكايات في الاتجاهين[7].

وفي معرض وصفه لحرب القرم استشهد ماركس بقول لوليام شكسبير يرسم فيه لوحة عن شخصية الإنكليز، ترجمته الى العربية على النحو التالي:

أولئك الإنكليز
بطولةٌ خارقةٌ تفسدها مهزلةٌ تافهةٌ
مأساتهم فريدةٌ أولئك الإنكليز
مزيجٌ عجيبٌ غريبٌ مضيض(*)
سموٌّ في الأعالي، وانحطاطٌ في الحضيض

(*) (المضيض في «لسان العرب» هو الصابر على وجع المصيبة، أو من لا يحتمل شيئاً يسوءُه «كأن ذلك يمضُّه»).

وفي ورقتي التي قدمتها عن هذه الرواية الى المستر مورفي استعنت بالخبرات الألسنية التي تعلمتها من البروفسور باتينغل من قبل، فقلت إنها مثال كلاسيكي عن سوء الإدارة وما يترتب عليه من نتائج. ذلك أن سوء الإدارة في الشأن العسكري هو الشقيق التوأم لسوء الإدارة في الشأن الاقتصادي والمالي والإنمائي، وفي كل مجالات النشاط الإنساني والاجتماعي الأخرى. وقد

---

(7) الأمير عبد القادر الجزائري هو ابن الشيخ محيي الدين الحسني شيخ الطريقة القادرية في الجزائر. وقد اصطحبه والده معه الى الحج في مكة المكرمة في شبابه وزار في طريقه دمشق حيث وقف على ضريح محيي الدين بن عربي، وزار بغداد ووقف على ضريح عبد القادر الجيلاني، وزار القاهرة حيث أعجب بتجربة محمد علي باشا في مصر. ثم قاد ثورة مسلحة ضد القوات الفرنسية التي احتلت الجزائر عام 1830، مما اضطر الماريشال بوجو الى التفاهم معه باقتسام الجزائر بحيث يكون ثلثاها تحت سيطرة عبد القادر. لكن الفرنسيين خرقوا الاتفاق تالياً وتجددت المعارك العسكرية، مما اضطر عبد القادر الى تسليم نفسه للجنرال الفرنسي لاموريسيير على وعد السماح له بالذهاب الى مصر أو الى عكا في فلسطين، لكن الحكومة الفرنسية نكثت بوعد الجنرال لاموريسيير ونقلته الى فرنسا حيث بقي الى أن أفرج عنه الإمبراطور نابليون الثالث في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1852، فغادر فرنسا واتخذ من دمشق مقراً له، وهناك انصرف الى الكتابة والتأليف والبحوث الفقهية. ولعب دوراً بارزاً في حماية المسيحيين أثناء الاضطرابات والمجازر الدينية في عام 1860، مما حمل الحكومة الفرنسية على تكريمه بمنحه وسام «الصليب الأكبر لجوقة الشرف»، ودعاه نابليون الثالث الى باريس حيث قلده الوسام شخصياً. وللاعتبارات ذاتها كرّمه الرئيس الأميركي أبراهام لينكولن الذي خبرت أميركا في عهده، وفي الوقت ذاته، حرباً أهلية مماثلة، بهدية من الأسلحة ما زالت محفوظة في متحف الجزائر. وللأمير عبد القادر مراسلات مهمة حول الوحدة العربية مع الزعيم اللبناني الماروني يوسف بيك كرم. وتوفي الأمير عبد القادر في دمشق يوم 26 أيار/مايو 1883 ودفن الى جوار ضريح محيي الدين بن عربي في العاصمة السورية.

اثنى المستر مورفي على هذا التلخيص المركز للرواية قائلاً إن هذا هو المطلوب الذي قصده من التمرين على تشخيص الخلل الإداري واستخلاص العبر.

•••

كانت تلك السنة في الجامعة وفي جريدة «الأنـوار» ممتعة لي للغاية، وفيها أيضاً وضعت زوجتي مولودها الرابع جهاد في مطلع شهر آذار/مارس، لكن في مستشفى «سحاقيان» في القنطاري بالقرب من حديقة الصنائع، بينما الثلاثة الآخرون ولدوا على يد الدكتور جوزف هراوي في مستشفى تل شيحا في زحلة. وفي ذلك الربيع من عام 1969 دعوت الفريق كله طلاّباً وأساتذة الى البقاع الغربي حيث تغدينا في مطعم على البحيرة، وبعد الغداء أخذتهم الى القرعون مسقط رأسي عن طريق سد الليطاني، ثم الى جب جنين حيث تناولنا القهوة في منزلنا هناك.

لكن السحب أخـذت تتلبد في سماء لبنان مع بداية الظهور الفلسطيني المسلّح، خصوصاً بعد الجنازة «المهندسة» والحاشدة لشهيد فلسطيني قيل إنه من آل الجمل، وكانت الغاية من تلك التظاهرة في شكل جنازة، عرض قوة من قبل أحزاب الحركة الوطنية اللبنانية والمنظمات الفلسطينية.

وانعكس ذلك أيضاً على الحراك الطلاّبي في الجامعة، فاستذكرت حوادث الخمسينات التي أدت الى طردي، ولم أشـارك في أي نشاط من هذا النوع هذه المرة، خصوصاً بعدما لاحظت الطبيعة الغوغائية للحراك الجديد مقارنة مع النشاط الطلاّبي في زمن «العروة الوثقى». وحتى إدارة الجامعة كانت أكثر نضجاً من أن تتعامل مع الطلاّب بالطريقة التي تعاطت فيها معنا أواسط الخمسينات.

وعندما بدأت الأمور مع الفلسطينيين تتفاقم وتتطور في البلاد، أوفد الرئيس أحمد حسن البكر في بغداد نائبه صالح مهدي عمّاش الذي كان يقوم بمهام وزارة الخارجية الى بيروت للقاء الرئيس شارل حلو في بعبدا والوقوف منه على ما يجري. وبعد عودته من القصر الجمهوري، وكان نزيل فندق «فاندوم» بالقرب من فندق سان جورج، ذهبت مع مجموعة من البعثيين اللبنانين ومعهم سفير العراق في بيروت آنذاك عبد الفتاح ياسين[8] وكريم شنتاف البعثي العراقي المعروف في المرحلة السابقة من الحكم البعثي ـ العارفي، ولم يكن له أي صفة في الحكم البعثي الجديد، بل أعطي وظيفة ثانوية في وكالة الأنباء العراقية في

(8) عبد الفتاح ياسين هو أول سفير عراقي في بيروت بعد عودة البعث الى الحكم في بغداد. وهو متزوج من ابنة حماد شهاب وزير الدفاع العراقي الذي قتل على يد ناظم كزار مدير الأمن العام في محاولة انقلابية فاشلة، أو هكذا قيل. وقد عينه صدام فيما بعد وزيراً للرياضة والشباب فضاق ذرعاً بمداخلات عدي النجل الأكبر للرئيس، ولما كان أي وزير في حكومة صدام لا يستطيع أن يقدم استقالته من منصبه، فقد أقنع صدام بضرورة إلغاء الوزارة جملة وتفصيلاً طالما أن اللجنة الأولمبية التي يرأسها عدي وافية بالغرض. وهكذا «نفد بريشه»، كما يقولون.

بيروت، وكان صديقاً قديماً لصالح عمّاش، وهو على ما أظن متزوج من شقيقة البعثي السابق نسيم سفرجلاني. وبدخولنا الى غرفته وجدناه مستلقياً في السرير لإصابته بنزلة برد وفي يده كأس من الكونياك يستدفىء به، ويحلف بنعمته، حيث كان إذا أراد أن يشدِّد على شيء يقوله يرفع كأس الكونياك ويقول: «وحق هذه النعمة».

وسأله بعض «الرفاق» عما يحدث بالنسبة الى الفلسطينيين، فانتفض وراح يكيل السباب للفدائيين الفلسطينيين بقوله:

«ذول مو فدائيين أخي. ذول شلايتية، صانع شايجية، ذول قشقجية» وما الى ذلك، مما دفع كريم شنتاف باعتبار أنه أقدم منه حزبياً الى الاعتراض على كلامه هذا بصوته المهذب الرقيق قائلاً له:

«ترى أبو هدى الموضوع مو هالشكل. اسمح لي أبو هدى مو هالشكل».

فازداد صالح عمّاش حنقاً وقال له:

«أخي هَم حزبنا أسوأ. نطلب من الحزب ديبلوماسيين يروحون لليمن ما حد يتقدم. نطلب على باريس يتقدم خمسين. شنو هاي. يريدون يتونسون أخي».

ويبدو أن رذاذاً من هذا المازوخ العمّاشي وصل الى بغداد، فأقيل أبو هدى من مناصبه، وعُيِّن سفيراً في باريس، ثم نُقل الى استوكهولم بناءً على طلبه لأنه كان يجدها ثقيلة على قلبه أن يستقبل أشخاصاً كانوا دونه بكثير. أما في السويد فليس هناك ضرورة من هذا النوع. وبعد زوال صالح مهدي عمّاش وحردان عبد الغفّار التكريتي، النائبين السابقين للرئيس البكر، خلت الساحة لصدام حسين الذي أصبح النائب الأوحد، ينادونه «السيد النائب».

•••

انتهت مرحلة المحاضرات والندوات والأوراق والمناقشات، وجاء دور كتابة الأطروحات اللازمة لنيل شهادة الماجستير، فقررت أن أكتب أطروحتي عن دور البلديات في إدارة الإنماء. وفي ذلك الوقت كنت على علاقة صداقة وثيقة مع الفرسان الصلحيين الثلاثة: كاظم الصلح، وعادل الصلح، وتقي الدين الصلح، ومع الجيل الجديد من الصلحيين منح وشقيقه هشام زميلي في الجامعة، ورغيد الصلح وشقيقه خلدون الذي كانت له صلة ما بالعمل الصحافي.

عادل بيك الصلح والد منح وهشام، كان رئيساً لبلدية بيروت في عهد كميل شمعون، ووعدني بأن يعقد معي جلسات صباحية يحدثني فيها عن شؤون البلديات، بعدما كان قد فرغ من وضع كتابه القيِّم بعنوان «سطور من الرسالة» الذي يتضمن وثائق والده منح الصلح الكبير عن جده أحمد باشا الصلح، وهي تكشف في جانب منها التوجهات القومية العروبية للزعيم المسيحي الماروني يوسف بيك كرم، من خلال مراسلات بينه وبين عبد القادر الجزائري في دمشق. كما كان يعدّ لكتاب آخر عن «حزب الاستقلال الجمهوري» الذي لم يكن

يعرف عنه شيئاً سوى قلة قليلة من اللبنانيين آنذاك[9]. ولما كان بيت عادل بيك وراء سجن القلعة القريب من منزلي في الروشة، فقد كنت أقصده كل صباح للتحدث في القضايا البلدية اللبنانية ومقارنتها بما هي عليه في بلدان أخرى كما عرفها خلال عمله في رئاسة بلدية بيروت.

وعندما كان شقيقه تقي الدين الصلح وزيراً للداخلية، قام بحركة في غاية الأهمية لكن أحداً لم يتابعها من بعده، وهي تسليط الضوء على مفاهيم «الحكم المحلي»، فكان أول من أطلق هذه التسمية على البلديات في لبنان. ودعا تقي الدين الصلح جميع رؤساء بلديات لبنان الى مؤتمر عام في فندق فينيسيا لطرح الموضوع عليهم، ومناقشة التصورات الممكنة للحكم المحلي في لبنان. وكان مؤتمر تقي الدين الصلح هذا هو من المحاور التي فكّرت في الكتابة عنها من حيث دور البلديات في إدارة الإنماء المتوازن في البلاد.

أما كاظم بيك الصلح والد رغيد وخلدون، الذي كان سفيراً للبنان في العراق أيام النظام الملكي الهاشمي وحلف بغداد، فقد اختار الإقامة في منزل منفرد في عاليه، فكنت أمر عليه أحياناً في طريقي من البقاع الى بيروت. ويمتاز كاظم الصلح بخاصية التكيف مع الرواية والوقت. فأي رواية يريد أن يرويها لك تتوقف على وقتك معه. فإذا كان لديك خمس دقائق قدم لك حديثه في خمس دقائق، وإذا كان لديك نصف ساعة يقصُّ عليك الرواية ذاتها بمزيد من التفاصيل في نصف ساعة، فلا يُزيدك هذا شيئاً ولا يُنقص منك ذاك شيئاً.

إلاّ أنني لم أكمل أطروحتي لأسباب قاهرة.

فبعد انتهاء السنة الدراسية عدت الى وظيفتي في البنك المركزي، على أمل أن أبدأ كتابة الأطروحة خلال الصيف. وفي اليوم التالي صدرت جريدة «الأنوار»

---

(9) صدر كتاب «سطور من الرسالة» لعادل الصلح عن «دار العلم للملايين» في منتصف عام 1966. أما كتابه الثاني «حزب الاستقلال الجمهوري» فقد نشرته «دار النهار للنشر»، وصدرت منه طبعة ثانية في عام 1998. وكنت أحياناً أمازح عادل بيك بالقول له إنه أراد من كتاب «سطور من الرسالة» تبرئة الذمة تجاه الموارنة لأن جد زوجته السيدة ناظلي (والدة منح وهشام الصلح) المشير درويش باشا هو الذي كلفه السلطان عبد العزيز بقمع حركة يوسف بيك كرم باعتباره آنذاك قائد الجيش العثماني الرابع في دمشق. وكان درويش باشا يُعرف بلقب «حاكم الروملليّ»، أي المناطق غير الإسلامية في الإمبراطورية. وبنجاح درويش باشا في إخماد التمرد الماروني في جبل لبنان، وأيضاً حركة أحمد عرابي في مصر ضد الخديوي عباس، كافأه السلطان بإقطاعه أراض واسعة في سهل البقاع شملت عدة قرى منها: عنجر التي صادرها الفرنسيون تالياً لإسكان الأرمن الهاربين من المجازر التركية عليها، وبلدة «اسطبل» التي تم تغيير اسمها الى «الروضة» في العهد الشهابي، وبلدات «الدكوة» و«الخيارة» و«حوش الحريمي»، وكلها في البقاع الغربي والأوسط. وكانت تلك الأراضي الواسعة والخصبة في البقاع تعرف في أيامنا باسم «جفتلك درويش باشا» الذي أصبح مضرباً للأمثال في البقاع. فإذا تنازع شخصان على قطعة أرض تافهة قيل لهما في معرض التقليل من شأن النزاع «أهذه الأرض جفتلك درويش باشا لتستحق كل هذا العراك». ودرويش باشا هو والد رشدي بيك والد السيدة ناظلي زوجة عادل بيك الصلح. وقد ورث رشدي بيك الجفتلك لكنه بدده بسبب إسرافه. وقد حاول رياض الصلح رئيس حكومة الاستقلال اللبناني إصدار قانون لاسترداد بلدة عنجر من الأرمن لكنه فشل في ذلك، كما أشرت الى ذلك في السياق.

وفيها الملحق الاقتصادي الذي كنت أحرره ويتضمن افتتاحية تحمل اسمي على صفحته الأولى. وعندما جئت الى البنك في اليوم التالي اتصل بي عبد الرحمن الرفاعي، مدير شؤون الموظفين، وقال لي إنه يريد أن يجتمع بي مع مدير التفتيش جورج موصللي، فاتفقنا على موعد، ولم يخطر ببالي أن في الأمر مسألة مسلكية.

وجاء الرفاعي وموصللي الى الاجتماع ومعهما عدد «الأنوار»، وسألاني ما إذا كان كاتب المقال فيه هو أنا، فأجبت بالإيجاب، فقالا لي إن سعادة الحاكم أبلغهما أن ذلك مخالف للقانون، وأنه كان يجب علي أن أحصل على موافقة مسبقة من سعادة الحاكم.

وأتذكر تلك الحادثة بشيء من الندم لأنني تطاولت بالكلام عليهما وهما شخصان كبيران في السن بعمر والدي، وهما في الواقع رجلان محترمان، فشتمتهما وشتمت سعادة الحاكم، وقلت لهما إن سعادته رجل سخيف ومعقّد، ولا يعرف ماذا يفعل، يتلهى بالقشور وينسى الأمور الجوهرية. فلينظر الى البنوك المركزية الأخرى التي أوفدت موظفيها الى البرنامج كيف تتعامل مع أولئك الموظفين الذين تسعى الى تدريبهم وتأهيلهم. ألا يكفيه أنه حرمني من راتبي طوال السنة، ويلاحقني الآن على شيء فعلته في إجازتي غير المدفوعة لتدبر معيشتي ومعيشة عيالي. ها أنا أقدم استقالتي من هذه اللحظة ولا أريد أن أناقش الأمر مع أحد.

وقام عبد الرحمن الرفاعي من مقعده وعانقني مطيِّباً خاطري، وقائلاً لي:

«بسيطة يا أخي امسحها بها الذقن. لا تزعل. نصعد معاً الى سعادة الحاكم ونتصافى ونشرح له الظروف، وما بيكون إلاّ على خاطرك».

فطبعت قبلة على خده واعتذرت منه ومن جورج موصللي على الكلام الذي اطلقته في سورة الغضب التي انتابتني، لكنني قلت لهما إنني لا أريد الذهاب الى سعادة الحاكم، وأصر على الاستقالة.

وكان ذلك في الخامس من حزيران عام 1969.

•••

في الأيام التالية لم أعد الى الوظيفة في البنك، وكان المسؤولون في حزب البعث ينوون إصدار مجلة «الأحـرار» أسبوعياً مع أن امتيازها يومي، وبعد التشاور مع ميشال عفلق اتصلوا بي، عن طريق قريبي نقولا الفرزلي، لكي أتولى رئاسة التحرير، والأصعب من ذلك، أن أتولى الإعداد لها من الألف الى الياء، من المكاتب، الى المحررين والموظفين، الى الماكيت والمطبعة وما الى ذلك. فقبلت العرض وباشرت الإعداد على الفور، ونسيت في ورشة العمل هذه البنك المركزي وما فيه، ومن فيه، الى أن اتصل بي بعد فترة شخص في المحاسبة يدعى «المسيو يارد»، ليبلغني أن لي في ذمة البنك مبلغاً من المال،

وأن لي حساباً كنت أودع فيه رواتبي، تبقّى فيه مبلغ قليل، وأن علي أن أحضر لتصفية الحساب، فذهبت على الفور، لأنني تركت الوظيفة ولم أحسب أي حساب.

سلّمت على المسيو يارد، وهو شخص بالغ التهذيب والكياسة، فأطلعني على تصفية الحساب، وقدم لي حوالة بمبلغ فاجأني، لأنه تضمن تعويضات ومكافآت لم أكن أحسب لها حساباً، فأخذتها شاكراً ولم أعد الى هناك من عام 1969 إلاّ مرة واحدة في عام 1993 لزيارة علي شريف، كما مر.

ومن غرائب المصادفات أنني غادرت لبنان نهائياً في عام 1976 بعد أيام من انتخاب الياس سركيس لرئاسة الجمهورية.

وراحت أيام وجاءت أخرى، الى أن ذهبت الى بيروت في صيف عام 2003، وكانت ولاية الرئيس إميل لحود الأولى قد أوشكت على الانتهاء، وبدأ بازار الرئاسة في الصالونات والكواليس قبل أن يفكر أحد بالتمديد للرئيس لحود، بل كان المناخ السائد حتى في الأوساط الموالية للسوريين، معارضاً لفكرة التمديد. وكانت أسهم جان عبيد الصديق العزيز ورفيق الدرب في الصحافة يوم كان لها نكهة خاصة، مرتفعة وفرصته سانحة أكثر من أي وقت مضى.

وذات ليلة زرته في بيته في «بلّونة» مع قريبي النائب إيلي الفرزلي، فوجدت هناك بعض الأصدقاء والمعارف القدامى، منهم محمد الصبّاغ، وعبد العزيز شخاخير، وحنا أيوب، وكان هناك أيضاً وزير المالية آنذاك فؤاد السنيورة، وحاكم البنك المركزي رياض سلامة.

فقلت لجان عبيد ممازحاً:

«شو القصة؟ أراك مهتماً بالشؤون المالية. إذ قلما تجد وزير المال وحاكم البنك المركزي في مكان واحد».

فرد فؤاد السنيورة قائلاً:

«نحن هنا نتدبر بوليصة تأمين».

وفهمت من هذا الجواب أن حظوظ جان عبيد جدية، وأن السنيورة هناك ليحجز لنفسه مكاناً في العهد المقبل.

في تلك السهرة على «سطيحة» جان عبيد في بلّونة، وكنت جالساً بين السنيورة ورياض سلامة، حكيت لحاكم مصرف لبنان قصتي الماراثونية مع الياس سركيس، قبل ثلاث وثلاثين سنة، فقال مستغرباً:

«على العكس أنا أشجع الموظفين على اكتساب العلم والمهارات، لأنني أعتقد بأن إنتاجيتهم بعد الدورات العلمية والتدريبية ستكون أعلى بكثير من أي كلفة يتكبدها البنك في هذا المجال».

فقلت له: «لكن هذا ما حدث لي في ذات البنك الذي تقوده. فيا ليتك كنت في زماننا». والحقيقة، كما أرى الأمور من بعيد، أن قيادة رياض سلامة الطويلة

للبنك المركزي اللبناني، تمثل افتراقاً نوعياً عن جميع الذين سبقوه منذ تأسيسه. ولست بذلك أقول إن رياض سلامة هو عبقري زمانه، لكنني أشير الى عقم العقلية السياسية اللبنانية التقليدية التي اختارت من اختارت ممن سبقوه لاعتبارات لا علاقة لها بصلب العمل المنوط بالبنوك المركزية عادة.

ومن البنك المركزي الى الصحافة الحزبية رحلة ليست أقل مشقة.

III

«أحرار» من دون حرّيّة

عندما عُرضت عليّ رئاسة تحرير مجلة «الأحرار»، قيل لي إنها تعود الى القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، وإن تلك القيادة تحدد الخطوط العريضة لتوجهاتها.

قبلت العرض لأنني كنت على معرفة جيدة بميشال عفلق كشخص، وعلى معرفة بأفكاره من خلال لقاءات شبه يومية معه. وبعد تجربتي السابقة في الصحافة التجارية في صحف «دار الصيّاد»، أقنعت نفسي بأن الصحافة الحزبية الملتزمة هي مجال أفضل للتعبير عن قناعات كنت أحملها على كل حال، من جهة، كما أنني كنت وما زلت أعتقد، من جهة ثانية، بأنه يمكن للصحافي والكاتب أن يأخذ مداه على الأقل في اتجاه واحد.

وبعد قبولي العرض التقيت ميشال عفلق، الذي كنت أعتبر، ولمّا أزل، أنه هو «البعث»، وخلال الحديث صارحته قائلاً:

«تعرف يا أستاذ إنني لست حزبياً ملتزماً، ومع تقديري واحترامي للحزب والحزبيين، فإنني أعتبر نفسي صاحب أرجحية ككاتب ومعلّق، وفوق ذلك إنني مراقب من الخارج أتعاطى بالأمور بقدر ما أقتنع بها».

فقال: «هذا شأنك وحقك. لكن الحزب له خط عريض لا بد من مراعاته».

أجبته:

«من الناحية السياسية ألتزم بالخطوط العريضة للحزب. لكن أنت تعرف من أحاديثنا أنني مستقل من الناحية الفكرية، ولا استقلالية فكرية من غير مواقف نقدية. فأرجو أن يؤخذ ذلك بعين الاعتبار».

وكنت واثقاً من أن ميشال عفلق متفهِّم لهذه الأمور، لأنه في أحاديثنا الخاصة كانت له مواقف نقدية لاذعة من الحزب وبعض الحزبيين، بل هو في حديث بيننا في قصر الرشيد في بغداد في وقت لاحق، وصف بعض قيادات الحزب بأنهم «من المرتزقة». وقبل ذلك في بيروت، وصف بعض الحزبيين بأنهم «طاووسيون»، يتخذون من الحزب موقعاً لشوفة الحال أو لتحقيق أهداف خفيّة، ووصف بعضهم الآخر بأنهم «شلليّون» و«انتقاميون» أو «تحريفيّون»

يفهمون الحزب بما يتناسب مع مصالحهم الخاصة.

كل ذلك كان ميشال عفلق يعرفه ويشخِّصه أدق تشخيص. وكنت واثقاً من أن الأمور في مجلة «الأحرار» سوف تأخذ منحى له نكهة ليبرالية تمثل نقطة انفراج وتفاعل مع الواقع اللبناني، ومع التطلعات العربية.

أقول ذلك، لأن تجربتي في المنطقة الشرقية من المملكة السعودية، ثم في العراق بعد تخرجي من الجامعة، كشفت لي البرزخ الواسع بين لبنان والعالم العربي، ومدى التأثر العربي بالحالة اللبنانية. ذلك أن العرب تحت أنظمتهم القمعية يرون في لبنان أشياء يتمنونها ولا يرونها في بلادهم، كالحريّات الحزبية، والحريّات الصحافية، والحريّات النقابية، والحريّات الجنسية، والحريّات الدينية، والحريّات الفكرية، والانتخابات النيابية والبلدية، وفوق ذلك التداول السلمي للسلطة، حيث يتغيّر الرؤساء وتسقط الحكومات من غير أن يتغيّر مسار حياة الناس. هذا طبعاً قبل دخول ثقافة العنف وإسهام الأنظمة العربية في تدمير لبنان والتجربة اللبنانية.

فالشعوب العربية تحب لبنان لأنها ترى فيه ما تتمناه لنفسها، والأنظمة العربية تطفىء تطلعات شعوبها بالإمعان في تخريب لبنان لجعله مثلها.

هذه هي المعادلة التي قهرت لبنان وشعوب المنطقة معاً.

•••

بدأنا تأسيس المجلة من الصفر. فقد استأجرنا مكاتب في شارع مقابل فندق «بريستول» في منطقة «الصنوبرة» من راس بيروت. ولم يكن في تلك المكاتب هاتف، فتقدمنا بطلب الى وزارة البريد والبرق والهاتف (قبل تسميتها وزارة «الاتصالات»)، فقالوا لنا إنه ليست في تلك المنطقة خطوط. فاتصلت بنقيب المحررين ملحم كرم وأبلغته ذلك، لأنه كيف يمكن أن تعمل صحيفة من دون هاتف، فاتصل بدوره بالوزير فؤاد غصن آنذاك وألحَّ عليه، وبعد جهد جهيد مدّوا لنا خطاً هوائياً. والخطوط الهوائية غير موثوقة ومعرضة للانقطاع، يضاف اليه أننا بحاجة الى عدة خطوط شأن بقية الصحف.

وذات مساء كنت أتمشى من بيتي في الروشة باتجاه مقهى «ديبلومات»، فالتقيت جوزيف بيّوض من بلدة مرجعيون، وهو من المداومين في ذلك المقهى، وكان قد اشتهر بمهارته في تخليص المعاملات في دوائر الدولة، فعرضت عليه مشكلة الهاتف في المكتب، وقلت له إن الوزارة تؤكد لنا أنه لا خطوط أرضية في ذلك الشارع. فقال لي:

«هل معك 1500 ليرة؟».

قلت: «معي».

قال: «هاتها»

أعطيته الألف والخمسماية ليرة وجلسنا نشرب القهوة، فأكد لي إن الهواتف

ستكون في المكتب في غضون أيام.

وبعد يومين جئت الى المكتب، كما في كل صباح، فإذا بورشة عمل في الشارع تحفر الزفت بآلات ضاغطة تصدر صوتاً مزعجاً يصمّ الآذان، فتبين لي أن الألف وخمسماية ليرة فعلت فعلها سريعاً، من دون «جميلة» نقيب المحررين، ولا «جميلة» وزير البريد والبرق والهاتف.

وحتى قبل الانتهاء من تجهيز مكاتب المجلة، كلّفت المخرج نبيل أبو حمد، الذي عملت سوياً معه فيما بعد في مجلتي «الدستور» و«الحوادث» في لندن، بأن يعدّ لنا «ماكيت» للمجلة، لكنه لم يكن في عداد العاملين في «الأحرار». أما جهاز التحرير فقد آثرت تطعيمه بمبتدئين لديهم رغبة وحماسة في العمل من البعثيين أو المقربين منهم. وكان مسؤولاً عن الإدارة شاب دؤوب صاحب نخوة هو هشام خرطبيل، شقيق المهندس مروان خرطبيل الذي سقطت به الطائرة مع إميل البستاني عام 1963. وانضم الي من المحترفين الزميل فريد الخطيب فقط. وأنيط التصوير بشاب شديد الحماسة هو رفيق أبي يونس مع أنه لم يكن مصوراً محترفاً، لكنه خلال الحرب اللبنانية صار له شأن حزبي، ثم اعتقله السوريون في أواسط التسعينات لعدة أشهر وما لبثوا أن أطلقوا سراحه.

وكان هناك أيضاً بشارة مرهج، الذي سبق له أن عمل معي في ملحق «الأنوار» الاقتصادي في السنة السابقة مع رغيد الصلح.

وتحوّلت المجلة الى ما يشبه النادي، فاستقطبت ناشطين من الشباب والشابات، وبعض الفاعليات السياسية الحزبية وغير الحزبية على السواء. ومن الذين كانوا يزورونني في المكتب بين حين وآخر، القيادي الفلسطيني كمال عدوان الذي اغتاله الإسرائيليون في عملية «فردان» مستهدفين معه أبو يوسف النجار وكمال ناصر.

وكان آخرون يأتون مع بشارة مرهج أمثال إلهام كلاّب، وماري - روز بولس، التي اختطفها مسلحون في بيروت الشرقية أثناء الحرب ولم تعد. ومن الشبان الجدد الواعدين كان يأتي الى المجلة أيضاً كميل حوّا، وأمين معلوف، نجل الصحافي المعروف رشدي المعلوف. في البداية استغربت حضور الشاب أمين معلوف، البالغ يومها عشرين سنة من العمر، بالنظر الى أن والده رشدي المعلوف كان يحمل توجهات سياسية مناقضة تماماً لتوجهات «الأحرار»، وكذلك عمّه حلمي معلوف الذي كان زميلي في الجامعة الأميركية.

خلال الحرب اللبنانية غادر أمين معلوف لبنان الى فرنسا حيث احترف الكتابة باللغة الفرنسية وأصدر عدداً من الكتب التي لقيت رواجاً وأحدثت صدى، منها: «ليون الإفريقي»، و«صخرة طانيوس» الذي نال عليه جائزة «غونكور» في فرنسا عام 1993، وأخيراً «جائزة أمير أستورياس» الأسبانية للآداب لعام 2010. وفي أواسط العام التالي 2011 اختير عضواً كامل العضوية

في «الأكاديمية الفرنسية» التي تضم كبار رجال العلم والثقافة والفكر في فرنسا.

وربما كان أن أمين معلوف استهوته مجلة «الأحرار» لأن والده بدأ حياته الصحافية فيها يوم كانت جريدة يملكها آنذاك كميل يوسف شمعون، حيث كان يكتب تعليقاً بعنوان «مختصر مفيد». ثم في عام 1952 أسّس مع جورج نقّاش والمحامي نصري معلوف جريدة «الجريدة» حيث عمل عشر سنوات قبل أن ينفصل عنها في عام 1962 ليؤسس جريدة خاصة به هي جريدة «الصفاء» التي استمرت عشر سنوات أيضاً، وكانت أول صحيفة لبنانية تغلق أبوابها بحكم إفلاسي. والجديد الذي أدخلته جريدة «الجريدة» على يد رشدي معلوف أنها أول جريدة لبنانية صدرت بثماني صفحات فيما كانت الجرائد السابقة لها تصدر بأربع صفحات.

ومع أن رشدي معلوف كان من كبار المثقفين أصحاب الذوق الرفيع في الشعر والموسيقى، فإن السياسات التي انتهجها في كتاباته ضد الناصرية والقوى التي أطلقت على نفسها لقب «التقدمية»، جعل البعض، خصوصاً في أيام حرب اليمن بين الجمهوريين والإماميين، يصنِّفه في خانة «الرجعية»، ويشن عليه حملات شديدة. وفي هذا الاتجاه كتب ابراهيم سلامة مقالاً في «الحوادث» شبيهاً بمقاله عن سعيد عقل عنوانه : «أين رشدك يا معلوف؟».

والواقع أن رشدي معلوف وسط زحمة الأميين في الصحافة اللبنانية الأولى، كان يستحق أفضل مما ناله، لكن نجله أمين عوّض عن ذلك وزاد.

وما زلت أحفظ أبياتاً من القصيدة التي قالها رشدي معلوف في عيد الأمهات، ومطلعها:

ربّي سألتك باسمهنّ أن تفرشَ الدربَ لهنَّ
بالورد إن سمحت يمينُكَ والبنفسج بعدهنَّ

•••

كانت «الأحرار» في الأصل جريدة أسسها جبران تويني وأصدرها قبل جريدة «النهار» المستمرة حتى الآن. وآلت ملكيتها تالياً الى كميل يوسف شمعون، كما تقدم، ثم اشتراها البعثيون في عام 1963 في أعقاب الإنقلاب البعثي ـ العارفي ضد عبد الكريم قاسم في العراق، والانقلاب البعثي ضد حكم الانفصال في سوريا بعد الانقلاب العراقي بشهر واحد.

وقد اختير جان عبيد رئيساً لتحريرها، وبعد ذلك تم اختيار رفيق خوري نائباً لرئيس التحرير قبل انتقاله الى «النهار» ومنها الى «الأنوار». وكان من أبرز المشرفين عليها والمشاركين في الكتابة فيها أحياناً المحامي جبران مجدلاني، الذي أثار مقال له أثناء حملة الانتخابات الرئاسية الأميركية عام 1964، ضجة عندما وصلت أصداؤه الى واشنطن، مما دفع بالمرشح الجمهوري المحافظ

باري غولدووتر الى إرسال رسالة الى «الأحرار» يعلّق فيها على ما ورد في ذلك المقال. وكان غولدووتر مرشحاً ضد الرئيس ليندون جونسون الذي خلف الرئيس جون كنيدي بعد اغتياله كنائب له، فسعى الى الرئاسة من جديد بالانتخاب، وفاز على خصمه الجمهوري فوزاً كاسحاً.

والمعروف أن باري غولدووتر هو الطبعة القديمة للمحافظين الأميركيين الذين جددوا شبابهم في عهد الرئيس جورج دبليو بوش وأطلقوا على أنفسهم اسم «المحافظين الجدد».

ويبدو أن تحفُّظ الرئيس جونسون على فؤاد شهاب في ذلك الوقت هو السبب الحقيقي لتعثر مسعى الشهابيين لتجديد رئاسته. ذلك أن جونسون عندما زار لبنان وهو نائب للرئيس كنيدي، اجتمع الى الرئيس فؤاد شهاب الذي استقبله على الباب ورحب به، لكنهما عندما جلسا في صالون المكتب رفع جونسون رجليه ووضعهما على الطاولة أمامه على طريقة الكاوبوي الأميركي، مما أثار امتعاض الرئيس شهاب فلم يخرج مع نائب الرئيس الأميركي لوداعه كما خرج الى استقباله، متذرعاً بالأصول البروتوكولية لكونه رئيساً للجمهورية بينما جونسون نائب للرئيس.

إلا أن الضجة التي أثارها جان عبيد في «الأحـرار» لاحقاً هي التي أعطت الجريدة زخمها عندما كشف عن مقتل فدائي فلسطيني يدعى جلال كعوش أثناء توقيفه لدى المكتب الثاني اللبناني. وعندما انتشر الخبر أعلن المكتب الثاني أن كعوش مات وهو يحاول الهرب بإلقاء نفسه من نافذة مكتب التحقيق. لكن هذا الجواب لم يكن مقنعاً، مما زاد من البلبلة والاحتقان، الأمر الذي اضطر الشيخ ميشال الخوري وزير الدفاع آنـذاك، الى عقد مؤتمر صحافي كشف فيه أن لبنان كان يقوم بما تعهد به للقيادة العربية العليا التي تم إنشاؤها في مؤتمر القمة العربي الأول بقيادة الفريق المصري علي علي عامر، وأبرز كتاباً من القيادة العربية العليا يوصي بمنع أي تسلل الى إسرائيل من الحدود اللبنانية، لئلا تتخذ من ذلك ذريعة للقيام بعدوان واسع قبل استكمال الدفاعات والمشاريع التي أقرتها القمة العربية.

وكانت القمة العربية الأولـى قد أقرت القيام بمشاريع لتحويل روافـد نهر الأردن، رداً على مشروع إسرائيلي لتحويل مجرى نهر الأردن ذاته، كما أقرت إقامة القيادة العليا لمواجهة أي عدوان إسرائيلي على منشآت التحويل العربية.

وفي إطار القيادة العربية العليا، أقيم رادار جبل الباروك، وتم تزويد لبنان بطائرات مقاتلة فرنسية من طراز «ميراج» وصواريخ «كروتال» في صفقة أثارت جدلاً في حينه حول تقاضي سيدة تدعى ليلي سعد عمولات مزعومة عن تلك الصفقة، وجرت تلميحات تناولت العماد إميل بستاني، قائد الجيش آنذاك، كما تم إنشاء مستودعات جبلية ضخمة داخل تلال وادي التيم في قضاء راشيا،

وشق طريق عسكري واسع من صيدا الى البقاع يصل الى سوريا.

وتم تلزيم مشاريع تحويل الروافد في سوريا الى شركة بن لادن السعودية، التي تعرضت الى عدوان جوي إسرائيلي على منشآتها في شهر نيسان/أبريل من عام 1965 في عهد الرئيس أمين الحافظ (أبو عبدو)، من غير أن تحرك القيادة العربية ساكناً.

ويبدو أنه كان هناك نوع من الازدواجية في الخطاب السوري في القمة العربية المذكورة، لأن الخطاب المكتوب الذي قرأه الرئيس أمين الحافظ، ويقال إن كاتبه هو المنظّر البعثي عبد الكريم زهور، كان خطاباً مهادناً لعبد الناصر بعد التوتر الشديد الذي ساد العلاقات السورية المصرية في أعقاب تصفية الناصريين في دمشق التي أطلق عليها عبد الناصر في خطاب علني «حمّامات الدم في دمشق»، إلاّ أنه عندما خرج أبو عبدو عن النص المكتوب اتهمه الناصريون بالمزايدة.

ومن طرائف تلك المرحلة أن الرئيس الحافظ عقد مؤتمراً صحافياً حضره مراسلون فرنسيون، ولما سأله أحدهم عن العلاقات السورية ـ الفرنسية وعن رأيه في سياسة الجنرال شارل ديغول العربية، أجاب بقوله: «والله إن الجنرال ديغول رجل فحل». وقد ترجم صحافي لبناني تلك العبارة للسائل الفرنسي بكلمة Viril، مما أثار نوعاً من الاستغراب الضاحك على وجه المراسل الفرنسي. لكن الترجمة الرسمية اختلفت عن ذلك طبعاً.

رقد التقيت أمين الحافظ مرتين: مرة مع جان عبيد بعد انقلاب صلاح جديد على القيادة القومية للحزب ولجوئه الى لبنان حيث أقام في برمانا، وكان ذلك بعد حرب حزيران/يونيو عام 1967، ومرة ثانية في بغداد عام 1981 عندما كنت أزور شبلي العيسمي، الأمين العام المساعد لحزب البعث، في مكتبه في القيادة القومية، فدخل أمين الحافظ ورحنا نتحدث في شؤون عامة، فوردت على لساني عبارة «الدول النامية»، فقال أبو عبدو: « على الأصح الدول النايمة».

وبكشفه قضية مقتل الفدائي الفلسطيني جلال كعوش، والبلبلة التي أحدثها ذلك في حينه، دخل جان عبيد دائرة النجومية، خصوصاً بعد محاولة توقيفه بسبب مقال غير موقع كتبه جبران مجدلاني ضد قاضي التحقيق نقولا رزق الله، وتحمل جان عبيد مسؤوليته بصفته المدير المسؤول للجريدة بالإضافة الى كونه رئيس تحريرها.

واستقال جان عبيد من رئاسة تحرير «الأحرار» عشية انقلاب صلاح جديد في دمشق في شهر شباط/فبراير من عام 1966، فحل محله رفيق خوري لفترة قصيرة قبل إغلاقها.

وكنت أكتب في «الأحرار» من وقت الى آخر من دون توقيع في أيام جان عبيد. ومن المواضيع التي كتبتها وارتأى جعلها رئيسية الصفحة الأولى، موضوع

بعنوان: «وإذا امتلكت إسرائيل القنبلة الذرّية»، فكان أول موضوع في الصحافة اللبنانية عن البرنامج النووي السري في إسرائيل.

•••

عندما اشترى البعثيون امتياز جريدة «الأحرار» تم تسجيل الامتياز باسم صحافي يدعى جلال الترك. ولم أكن أعرف ذلك الرجل ولا تعرفت عليه، ولا عرفت أسباب تسجيل الجريدة باسمه، أو من الذي اقترحه. لكنني سمعت باسمه تالياً عندما اعتقلته السلطات السورية في دمشق في عهد الرئيس حافظ الأسد بتهمة قيل إنها التعامل مع العدو الإسرائيلي، لكن بعد انتزاع الامتياز منه وتسجيله باسم عماد الصلح الشقيق الأصغر لكاظم وتقي الدين وعادل الصلح، لأسباب لا أعرفها أيضاً.

كذلك لا أعرف سبب إعادة إصدارها كمجلة أسبوعية صيف 1969 بعدما كانت جريدة يومية في جميع مراحلها السابقة، ولا أعرف من اتخذ ذلك القرار.

وفي أغلب الظن أن إعادة إصدارها في ذلك الوقت له علاقة بعودة حزب البعث الى الحكم في العراق، كما أن ترنحها وإغلاقها يوم كانت من قبل جريدة يومية له علاقة بحسم الصراع على السلطة في سوريا حيث أُبعدت القيادة التاريخية للحزب، ونشأ صراع جديد على الخيارات بين فريق يقوده صلاح جديد وفريق يقوده حافظ الأسد، الى أن حسم الخيار السوري من جديد بقيادة الرئيس حافظ الأسد في أواخر عام 1970، بعدما كنت قد غادرت «الأحرار».

لكن توترات تلك المرحلة من الصراع العربي - العربي، والصراع العربي - الإسرائيلي تركت انفعالات مربكة على الساحة اللبنانية، وخصوصاً على الصحافة اللبنانية التي تزدهر عادةً مع احتدام صراعات من هذا النوع بسبب حاجة كل الأفرقاء المتصارعين اليها.

ومما زاد من تلك التوترات احتدام الجدل حول الوجود الفلسطيني المسلّح الذي تطوّر الى صراعات داخلية بالسلاح في الأردن ثم في لبنان. وكان للاشتباك المسلّح بين الفلسطينيين والجيش الأردني في عام 1970، أثره الكبير على لبنان وعلى حزب البعث بشقيه السوري والعراقي. فقد كان الجيش العراقي متواجداً في الأردن من خلال فرقة «صلاح الدين» التي كان يقودها اللواء حسن مصطفى النقيب (أبو فلاح)[1]، وكان كثيرون في حزب البعث وفي العالم العربي يتوقعون أن تدخل القوات العراقية في الحرب الى جانب

(1) اللواء حسن مصطفى النقيب هو والد وزير الداخلية العراقي في الحكومة العراقية المؤقتة برئاسة أياد علاّوي في عام 2005. وقد تم إبعاد اللواء النقيب من الجيش بعد سحب قواته من الأردن وتم تعيينه سفيراً للعراق في مدريد يوم زرتها بعد القمة العربية في الرباط عام 1974، ثم تم تعيينه سفيراً للعراق في استوكهولم ومن هناك أعلن استقالته واعتراضه على الحكم البعثي وانضمامه الى المعارضة الخارجية التي عملت في العواصم الغربية تالياً على إستدراج الأميركيين لاحتلال العراق وإطاحة نظام صدام حسين.

الثورة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات، لكن تلك القوات انسحبت من الأردن في اللحظة الحرجة، مما أثار بلبلة عارمة في صفوف البعثيين الموالين للعراق في كل مكان، خصوصاً في لبنان، مما اضطر صدّام حسين أن يأتي الى بيروت سرّاً باسم مستعار لشرح الموقف العراقي غير المفهوم في حينه[2]. وبعد عودة صدّام الى بغداد تسرّب خبر وجوده في العاصمة اللبنانية الى جريدة «النهار» التي نشرته على صفحتها الأولى بصيغة استفهامية.

لم أعرف بمجيء صدام حسين سراً الى بيروت إلاّ من خبر جريدة «النهار»، لكنني لم أسأل ميشال عفلق عن صحته أو عدم صحته، لأنني في غير الأمور الفكرية والنظرية لا أبادره بأي سؤال، بل أترك له أن يحدثني بمثل تلك الأمور إذا شاء لأنني في المحصلة لست ملتزماً حزبياً. وقلت له حينها إنه لا بد من «هزّة» أو «صدمة» في الوقت الحاضر تفوق في مفعولها البلبلة الحاصلة بفعل الانسحاب العراقي من الأردن وتنسي الناس ذلك لانسحاب غير المفهوم، كأن تقوم القيادة العراقية بتأميم النفط وتضع العالم كله في مدار مختلف.

فضحك ميشال عفلق لهذا الاقتراح، وقال: «هذا سيكون صدمة لأحمد حسن».

وفي الوقت الذي انسحب فيه الجيش العراقي من الأردن، دخل الجيش السوري في الأراضي الأردنية بقوات مدرعة لنصرة الفلسطينيين لكن من دون غطاء جوّي، لم يأمر به الفريق حافظ الأسد آمر سلاح الجو، فأصيبت القوات السورية بخسائر فادحة مما اضطرها الى الانسحاب، فأدى ذلك لاحقاً الى سقوط نظام صلاح جديد وصعود الرئيس حافظ الأسد الى سدّة الحكم باسم «الحركة التصحيحية»، أي تغيير مسار الحكم والدولة عما كان عليه في السنوات القليلة السابقة.

وقد تفاقم الوضع الى درجة محمومة، ومعه الصراعات والتشرذمات، بسبب وفاة الرئيس المصري جمال عبد الناصر في ذلك الوقت بالذات، مما جعل جميع القوى السياسية ذات التوجهات العروبية التقدمية على اختلافها، وفي خضم خلافاتها، تبدو عديمة الوزن، حائرة، وضائعة، ومضطربة الخيارات. وهذا كله انعكس على الصحافة اللبنانية.

وقبل أسابيع قليلة من لحظة الذروة تلك، جاءني الى مكتب مجلة «الأحرار» ثلاثة من السوريين لم يُفصحوا عن أسمائهم، بل قالوا لي إنهم جاءوا في مهمة لاصطحابي معهم الى دمشق لأمر مهم، لكنهم لم يقولوا لي من أوفدهم، وما هي طبيعة تلك المهمة، فقالوا إن الأمر في غاية السرّية وسوف أعرف كل شيء عندما نصل. لكنني أبلغتهم إنني لا أعمل بهذه الطريقة، ولا أقوم بمهمات

---

(2) من المبررات التي سيقت في حينه أنه لو تدخل الجيش العراقي لكانت الولايات المتحدة سوف تسحق ذلك الجيش، أو أنه سوف يعطي مبرراً للتدخل الإسرائيلي. وفي داخل القيادة العراقية الضيّقة استخدم الانسحاب كذريعة لإبعاد حردان التكريتي من وزارة الدفاع ومن العراق.

سياسية، ولا يعنيني ذلك، وإذا كانوا يرغبون فإنني على استعداد لوصلهم بحزب البعث في لبنان الذي يملك المجلة، ويستطيعون مباحثة المسؤولين فيه في الشؤون السياسية والحزبية.

فقالوا إنهم ليسوا في مهمة حزبية، لكن الأمر يتعلق بي شخصياً، فاعتذرت مجدداً بالقول إنني لا أفعل شيئاً من وراء ظهر الحزب، طالما أنني أعمل في صحيفته، فانصرفوا ولم يعودوا.

لكنني لم أبلغ أحداً بهذه الواقعة، ربما لأنني لم أعرها أي أهمية في حينه، وعندما أستذكرها اليوم أجد أنه ربما كان من الخطأ عدم التدقيق في ذلك، أو على الأقل التدقيق في هويات الأشخاص المذكورين، وكذلك عدم إبلاغ أحد عنها أو التشاور بشأنها. وبمراجعة أوراقي، وذكرياتي، الخالية من أي أسباب موجبة لتصرفي ذاك، أرجح أنني تغاضيت عن ذلك خشية أن يكلفني أحد بمواصلة الاتصال لغايات غير صحافية، فأقحم نفسي بأمور لا تعنيني، وأعرض نفسي لتبعات لا ناقة لي فيها ولا جمل. واعتبرت أن الأمر انتهى بخروج الأشخاص الثلاثة من الباب.

•••

بدأت المشكلات تظهر في «الأحرار» من العدد الأول، مما يدل على أن التوترات التي تحدثت عنها آنفاً كانت تتفاعل تحت السطح قبل انفجارها في العلن.

ففي مرحلة الإعداد لصدور العدد الأول في منتصف تموز/يوليو من عام 1969 بالتزامن مع الذكرى الأولى للثورة العراقية، تجمّعت لدي معلومات عن توترات وتيارات خفيّة في المملكة العربية السعودية تستهدف حكم الملك فيصل بن عبد العزيز. واتصل بي شخص سعودي كان نزيل فندق «هوليداي إن» على حاووز الساعاتية، طالباً مني أن أوافيه الى هناك، حيث كان قادماً من طهران في عداد وفد نفطي أظن أنه كان برئاسة أحمد زكي يماني، وزير البترول آنذاك. وعلمت منه أنه قريب من حزب البعث العراقي، ولديه معلومات وتحليلات حول الوضع السعودي يُستحسن نشرها.

وبموجب التفاهم الذي أجريته مع البعثيين، وبمعرفة ميشال عفلق شخصياً، أنه لا أحد منهم يتدخل في شؤون التحرير، وأنني لا أعرض المواد التحريرية على أحد لمراقبتها. وبناءً على هذا التفاهم، أصدرت العدد الأول وعلى غلافه الملك فيصل وشقيقه الأمير فهد بن عبد العزيز بعنوان: «واشنطن تعدُّ فهد لحكم السعودية».

وفور صدور العدد لقي رواجاً كبيراً، وخصوصاً في أوساط المصطافين السعوديين في المصايف اللبنانية. إلاّ أنه لقي اعتراضات في صفوف البعثيين في العراق وفي لبنان. إذ كان بعضهم يتوقع وينتظر أن يكون أحمد حسن البكر على الغلاف، أو مقابلة مع ميشال عفلق، أو شيء من هذا القبيل، وبدأ بعضهم

يقول إنني أريد تحويل المجلة الى منبر للسعوديين، بدل أن تكون ناطقة بلسان حزب البعث.

لكن يبدو أن الرئيس أحمد حسن البكر ونائبه صالح مهدي عمّاش، تضايقا من العدد الأول وراج كلام في بغداد حول الموضوع، ربما لأنهما كانا يتوقعان أن يكون العدد الأول من «الأحرار» عن العراق بمناسبة الذكرى الأولى للانقلاب على الرئيس عبد الرحمن عارف الذي حمل الحزب الى السلطة في بغداد، وربما لسبب سياسي غير معروف له صلة بالعلاقات العراقية ـ السعودية. وقيل لي فيما بعد أنه عندما احتدم النقاش حول الموضوع كان حردان التكريتي في موقف مختلف حيث أشاد بالمجلة وبالموضوع.

وكنت قد التقيت حردان خمس مرات فقط وهو في السلطة قبل إبعاده ثم اغتياله في الكويت بعد ذلك[3].

المرة الأولى في بغداد بعد وصول البعث الى الحكم بفترة قصيرة، حين دعانا صلاح عمر العلي، عضو قيادة الحزب آنذاك، زميلي فريد الخطيب وأنا، الى العشاء في أحد مطاعم بغداد، وكان حردان يتناول طعام العشاء في ذلك المطعم على طاولة أخرى فسلّم علينا وتعارفنا. وكان اللقاء الثاني في بيروت في حفل استقبال في فندق «فينيسيا» أقامه وزير الدفاع اللبناني المير مجيد أرسلان على شرفه بصفته وزيراً للدفاع في الحكومة العراقية آنذاك. والمرة الثالثة في صالون الشرف في مطار بيروت الدولي وكان في طريقه مع طارق عزيز الى «لوساكا» عاصمة زامبيا لحضور مؤتمر للدول الأفرو ـ آسيوية. والمرة الرابعة في العاصمة المغربية الرباط حيث كان يترأس الوفد العراقي الى القمة العربية الخامسة عام 1969، وكان نائبه في الوفد العراقي صلاح عمر العلي أيضاً. والمرة الخامسة عندما كان مع الرئيس أحمد حسن البكر في قمة طرابلس عام 1970، حيث دعاني الى مرافقة الوفد العراقي في زيارة رسمية الى الجزائر فاعتذرت عن ذلك، بسبب ترتيبات أجريتها للسفر الى روما وباريس.

ولما كنت على معرفة سابقة بصلاح عمر حيث تعرفت عليه في بيروت في منزل قريبي نقولا الفرزلي في عام 1968 وكان في طريقه الى البرازيل لإقناع ميشال عفلق بالعودة، فقد ذهبت الى مقر الوفد العراقي الى قمة الرباط بعد العشاء في اليوم الثاني للمؤتمر، فوجدت حردان وصلاح وحدهما فسهرنا هناك حتى ساعة متأخرة، حيث أبلغني ما دار في تلك القمة، وعدم تفاؤله بها، وبأي مؤتمر عربي من الآن وصاعداً، وقال إنه لن يحضر أي مؤتمر من هذا النوع بعد

(3) حردان عبد الغفار التكريتي ضابط طيّار شارك في الانقلاب البعثي الأول ضد عبد الكريم قاسم وأصبح وزيراً للدفاع، وهو الذي أبلغ الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف في عام 1968 بأنه يجب أن يسلم مقاليد الرئاسة ورافقه الى المطار لإبعاده عن العراق. وفي الحكم البعثي الجديد أصبح وزيراً للدفاع ونائباً لرئيس الجمهورية قبل أن يدخل في صراع مع صدام حسين انتهى بإبعاده ومن ثم اغتياله في الكويت يوم 30 آذار/مارس 1971.

اليوم.

•••

أهمية مؤتمر القمة الخامس في الرباط أنه انعقد على مفترق حاسم في حرب الاستنزاف بين مصر وإسرائيل على قناة السويس، حيث دخل الاتحاد السوفياتي بقوة على خط الصراع بإرسال طيارين لمواجهة الطيران الإسرائيلي، وإقامة جدار من الصواريخ الدفاعية على الجانب المصري من القناة لمنع الطيران الإسرائيلي من التحليق فوق مصر.

وهذا زاد من الضغوط الأميركية لوقف إطلاق النار، والدخول في مفاوضات سلمية كان يميل اليها معظم العرب، وتبلورت فور ذلك بما أسمي «مبادرة روجرز» التي قبلها عبد الناصر لاحقاً، بعدما كان أنور السادات قد رفضها في غياب عبد الناصر عن البلاد.

وفي الرباط التقيت سليم اللوزي الذي كان يزور المغرب لأول مرة لتغطية القمة العربية لمجلته «الحوادث»، وقال لي إن بلاد المغرب أعجبته، وإنه سوف يأتي اليها لاحقاً مع زوجته ليقضي فيها شهراً كاملاً، ولا أدري ما إذا كان قد فعل ذلك، لكنني أعرف أن زوجته أميّة ترددت على المغرب في أوائل الثمانينات بعد مقتل زوجها في بيروت.

ثم أقام السفير اللبناني في الرباط غداءً للصحافيين اللبنانيين في السفارة دعا اليه أيضاً الصحافي الفرنسي إريك رولو العامل آنذاك في جريدة «لوموند» الباريسية، قبل انتقاله الى العمل الديبلوماسي حيث كلفه الرئيس فرنسوا ميتران بمهمة سريّة لدى القذافي بشأن سحب الجيش الليبي من تشاد، ثم تعيينه سفيراً في تونس في أواسط الثمانينات من القرن الماضي.

وأثناء الغداء على مائدة السفير اللبناني، أشار رولو، الذي يتقن العربية لأنه من مواليد القاهرة، الى أن الأميركيين وزعوا مذكرة سرِّية على بعض رؤساء الوفود العربية في قمة الرباط حول موضوع الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وضرورة إنهاء ذلك الصراع، صادرة عن وزارة الخارجية الأميركية، وأكد أنه شاهد نسخة منها مع أحد رؤساء الوفود.

وعندما زرت حردان التكريتي في مساء ذلك اليوم أبلغته ما سمعت عن المذكرة الأميركية من إريك رولو في السفارة اللبنانية فأكد لي ذلك وقام من مقعده الى حقيبة أوراقه وأعطاني نسخة عنها، وقال لي:

«احتفظ بها إذا شئت».

أخذتها منه وقرأتها، وأيقنت أن نار الحرب مع إسرائيل سوف تخبو قريباً، وربما كان ذلك مصدر قول حردان في السهرة معه إنه لن يحضر مؤتمراً عربياً بعد اليوم.

والتقيت في الرباط فتاة لبنانية الأصل من جب جنين اسمها ماري ـ آن جبّور

تعمل في السفارة الأميركية هناك، فأريتها تلك الوثيقة، فقالت إنها لا علم لها بها، لكنها سوف تسأل المسؤولين في السفارة عنها. وجاءت ماري ـ آن لزيارتي في فندق «تور حسّان» بعد ساعات وأبلغتني أنهم قالوا لها في السفارة إن تلك الوثيقة «مزوّرة». ولست أظن أنها كذلك، وقد قالوا إنها مزورة لأن الوثيقة تسرّبت.

وكان مؤتمر الرباط ذاك موضع جدل ليس في الأوساط السياسية والصحافية فحسب، بل في الأوساط الأدبية أيضاً، ففي مهرجان أقيم في قصر الأونيسكو في بيروت لإعلان الشاعر اللبناني بشارة عبد الله الخوري (الأخطل الصغير) أميراً للشعراء العرب حضر مؤتمر قمة الرباط في قصائد بعض الشعراء، من بينها قصيدة عمر أبو ريشة التي شاعت في حينه وفيها قوله:

إن خوطبوا أو طولبوا غضبوا — أو حوربوا هربوا، أو صوحبوا غدروا
خافوا على العار أن يُمحى فكان لهم — على الرباط لمحو العار مؤتمرُ

كذلك ألقى الشاعر الفلسطيني كمال ناصر قصيدة في المناسبة ذاتها كان قرأها عليّ في زاوية منعزلة من فندق «هيلتون الرباط»، حيث انعقد المؤتمر، وفيها يقول عن لبنان:

لبنانُ يا مهجةَ الدنيا ومقلتَها — ما زلت في الحسن أبهانا وأحلانا
إن يُشرك البعض إثماً في عروبته — تدفّق الجبلُ الجبّارُ عربانا
يا مُلهمَ الكون فيضاً من بشاشته — أغراك في الكون ما في الكون أغرانا

وفيما بعد، عندما تعاظم تدفق السلاح الفلسطيني على لبنان، كتبت تعليقاً حول هذه الأبيات لكمال ناصر، البعثي السابق، يوم أوصله حزب البعث الى البرلمان الأردني، قلت فيه: «يبدو أن الجبل الجبّار الذي تحدث عنه الشاعر كمال ناصر قد تدفّق أكثر من اللزوم».

وتطرق كمال ناصر في قصيدته هذه الى الهزيمة العربية النكراء في حرب حزيران/يونيو عام 1967 وتداعياتها وصولاً الى قمة الرباط بقوله:

تمّوزُ يحلمُ لو تدمى مدامعُه — فلا يعودُ لكي يلقى حزيرانا
سفينةُ المجد لم تبرحْ شواطئَها — أضحى على متنها القبطانُ قرصانا

•••

اتفقت مع الزميل طلال سلمان على كتابة مقال أسبوعي في «الأحرار»، فصار يكتب موضوعاً أسبوعياً بتوقيع «طه ابراهيم»، مع ترتيب مالي خاص بذلك. وكنت على علاقة طيِّبة مع طلال سلمان منذ أن تعرفت عليه يوم كان رئيساً لتحرير مجلّة «الصياد». وفي انتخابات عام 1964 جلنا سوِّياً في سيارته على مراكز الاقتراع في جبل لبنان، وذهبنا معاً الى دار الرئيس كميل شمعون في دير القمر حيث التقينا به قرابة ربع ساعة، وكان صالونه مليئاً بالنساء. وكانت تلك أول مرة التقي فيها الرئيس شمعون وأتكلم معه وجهاً لوجه.

وكنت سمعت عنه أنه سليط اللسان، يتكلم بلهجة حادة، وقد تأكدت من ذلك

عندما سمعته بأذني يتكلم بعبارات لا تقال عادة أمام النساء. ومع أنه شكا من بعض الضغوط والتدخلات في الانتخابات من قبل الأجهزة الأمنية، إلاّ أنه كان واثقاً من الفوز. ولاحظت كذلك أنه لم يتطاول على خصمه في الشوف كمال جنبلاط الذي زرناه أيضاً في عرينه في المختارة، وكانت تلك المرة الوحيدة التي دخلت فيها الى ذلك القصر التاريخي. فكان جنبلاط أقسى على كميل شمعون، مما كان شمعون قاسياً عليه بالكلام وباللهجة.

وبعدما أصبح صدام حسين نائباً للرئيس البكر في مجلس قيادة الثورة في بغداد، ذهب طلال سلمان الى العاصمة العراقية وأجرى حديثاً معه نشر في «الصياد»، وفيه أعلن صدام حسين لأول مرة قوله:

«إننا لسنا ضد التسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط بشكل مطلق».

هذا في وقت كانت بغداد بعد قمة الرباط ومشروع روجرز تقود ما أسمي «جبهة الرفض». وفي تلك المقابلة شبّه صدام حسين منظمة التحرير الفلسطينية بالصابونة التي يقوم كل نظام عربي، «بما في ذلك نظامنا» كما قال لطلال سلمان، بغسل يديه فيها الى أن تذوب وتصبح «بروة» لا فائدة منها فتلقى جانباً.

ثم سمعت في أوساط حزب البعث في لبنان أن صدام حسين وعد طلال سلمان بمساعدته في إصدار جريدة خاصة به، وأنه بالفعل حوّل مبلغ مليون دولار الى السفارة العراقية في بيروت لهذه الغاية، لكن تعقيدات نشأت من جراء ذلك لأن التوافق بين صدام حسين وطلال سلمان تم من دون علم الحزب الذي تدخل لوقف دفع المبلغ المشار اليه، ريثما يأتي موفد حزبي من بغداد للتباحث حول الأمر. فجاء لهذه الغاية عبد الخالق السامرائي عضو قيادة حزب البعث العراقي[4]، فأوقف الصفقة وأي بحث مع طلال سلمان لإصدار جريدة جديدة.

فعلى ما يبدو كان الحزب في لبنان يريد أن يمر كل نشاط إعلامي عراقي في بيروت من خلاله. وهنا دخل رياض طه، الذي كانت تربطه علاقة جيدة مع البعثيين، على الخط بعدما كان قد اتفق مع طلال سلمان على رئاسة تحرير جريدة «الكفاح»، بوضع جريدته في التصرف بدلاً من عناء إصدار صحيفة جديدة، فاستجيب لمطالعته، لكن طلال سلمان رفض القبول بهذه الصيغة وانسحب من المشروع كله، ليبحث عن بدائل أخرى تمكّنه من إصدار مطبوعته

(4) عزله صدام لاحقاً في عام 1973 وحُكم عليه بالإعدام، لكن تدخل ميشال عفلق في حينه أوقف تنفيذ الحكم، غير أن صدام عاد فأعدمه مع قيادات حزبية أخرى عندما تسلم الرئاسة من أحمد حسن البكر عام 1979، أي بعد ست سنوات. وقد تعرفت على عبد الخالق السامرائي في بيروت يومها في منزل قريبي الياس الفرزلي في منطقة الروشة. وهو متحدر من عائلة متدينة ومحترمة في مدينة سامراء، ومن أوائل البعثيين في العراق حيث كان في منتصف خمسينات القرن الماضي المسؤول الحزبي عن صدام حسين. وقد أوفد الى بيروت في المسألة المشار اليها بصفته المسؤول الثقافي والإعلامي في القيادة القومية يومذاك.

الخاصة. وعلى هذا المفترق طُلب مني أن أكون رئيساً لتحرير «الكفاح» باعتبارها جريدة غير حزبية، وإن كانت ممولة من العراق، لحل الإشكالات التي حدثت أثناء وجودي في رئاسة تحرير مجلة «الأحرار».

•••

وبعد أشهر من الإشكال السابق حول العدد الأول الذي حمل عنوان «واشنطن تُعدُّ فهد لحكم السعودية»، حدث إشكال آخر كان هذه المرة مع ميشال عفلق نفسه.

ذات يوم كنت أتناقش مع ميشال عفلق في مواضيع لبنانية، وبالتحديد عن رأيي في شارل مالك، لجهة كونه أرثوذكسياً، ونظرته الى حقوق الإنسان، وموقفه من القضية الفلسطينية. وكنت في المرحلة الجامعية الأولى قبل 1956 أرى شارل مالك بعين الإعجاب، مع أنني لم أكن على تماس مباشر مع أفكاره الفلسفية شأن تلاميذه في الجامعة أمثال الدكتور هشام الشرابي، لكن نظرتي هذه أخذت تهتز بعد تعيينه وزيراً للخارجية من قبل الرئيس كميل شمعون في السنة التالية، فاحترت بين شارل مالك المفكر وشارل مالك السياسي. فقد ظهر في تلك المرحلة أنه أميركي أكثر من الأميركيين، لكن مطالعاتي المتعددة بعد سنوات عديدة أظهرت لي أن الأميركيين كانوا مراراً يضيقون ذرعاً به، خصوصاً وزير خارجية الرئيس أيزنهاور جون فوستر داللس، شقيق آلين داللس المدير التاريخي لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA). غير أن شارل مالك كان يتمتع بحظوة كبيرة في الأوساط الأميركية المحافظة بسبب عدائه العقائدي للشيوعية من جهة، وبسبب مشاربه الفكرية المسيحية التي أخرجته عملياً من الإطار الأرثوذكسي. والملفت أن شارل مالك لم يكتب كثيراً بل لم يترك أثراً كتابياً يذكر، شأنه في ذلك شأن ميشال عفلق، كما أن الرجلين كليهما كانا يعرفان بالعمق المدلولات الفلسفية والفكرية لكتابات هايدغر وكيرغارد.

فكان رأي ميشال عفلق أن الأرثوذكسي الرافض للعروبة لا يعود أرثوذكسياً، وبالتالي فإن شارل مالك «ماروني بالعقيدة» كما قال لي. وقد شدني هذا الوصف الذي أطلقه عفلق على شارل مالك واستوقفني طويلاً في السنوات اللاحقة حيث بدت لي هذه الملاحظة تالياً صحيحة تماماً بعدما ظهر شارل مالك بصورة الأب الروحي للقوات اللبنانية بقيادة بشير الجميل، وتبنيه لنشاط الرهبانيات المارونية ودورها في الحرب اللبنانية، وهو ما ركز عليه وأظهره ملياً الآباتي بولس نعمان في الجزء الأول من مذكراته[5].

وعلى محور حقوق الإنسان، قال لي عفلق إن شارل مالك ركز نظريته على حقوق الفرد بمعزل عن الإطار المجتمعي الذي يتأطر فيه هذا الفرد. وفي القضية الفلسطينية قال إن شارل مالك على الرغم من تأييده النظري لحقوق

---

(5) «الإنسان، الوطن، الحرية»، مذكرات الآباتي بولس نعمان، الجزء الأول 1968 ـ 1982

الفلسطينيين، فقد عزل تلك القضية عن ارتباطها بقضايا الأمة العربية، ومركزيتها بين تلك القضايا، وكأنها شيء منفصل بذاته، وبالتالي فإن موقفه لا يخدم القضية الفلسطينية. وأجد الآن أن موقفي النهائي من شارل مالك يشابه تقريباً موقف هشام الشرابي مع أن الشرابي أدرى به مني لكونه تلميذه[6]. ووجه الشبه هو أن الشرابي بين شارل مالك وأنطون سعادة اختار أنطون سعادة في النتيجة، كخيار قومي، كما اخترت أنا ميشال عفلق لاعتبارات مماثلة.

ومن أجواء هذا النقاش قررت نشر مقال قديم لميشال عفلق بعنوان «لبنان والعروبة»، قال فيه: «إن مشكلة العروبة في لبنان هي مشكلة تقدمية العروبة». بمعنى أن لبنان يقترب من العروبة أو يبتعد عنها بقدر ما تتضمنه العروبة من خصائص تقدمية. فإذا كانت العروبة راقية ازداد لبنان رقيّاً، وإذا كانت همجية مال لبنان الى الهمجية.

فقلت له رداً على ذلك، إن كثيرين من اللبنانيين يعتقدون بتناسب عكسي، لا بتناسب طردي، بين لبنان والعروبة بمعنى أنهم يعتبرون لبنان نقطة نور وسط ظلام دامس، فكلما ازداد الظلام كثافة ازداد النور إشعاعاً. فأجاب عن ذلك بقوله: «إن لبنان هو في صميم الثقافة العربية التاريخية، وهو معني بالإسلام كأهم إفراز من إفرازات تلك الثقافة، وهذه الثقافة هي التي تجعلهما يتقدمان معاً ويتخلّفان معاً، وإن كان للبنان نوع من التمايز. فإذا اتسعت رقعة الظلام العربي، فإنها سوف تمتد الى لبنان لا محالة، ولا مفر من ذلك، لأن الثقافة العربية فيه تبقى هي الأقوى والأهم، ولها في النهاية صفة تقريرية راجحة».

وقلت لميشال عفلق: «إن أحد أصدقائي من السوريين القوميين أبلغني إن أحدهم وصف لبنان أمام أنطون سعادة بأنه «سويسرا الشرق»، فأجابه سعادة: «إنه لكي يكون كذلك يلزمه شعب سويسري».

فضحك عفلق لهذه الخبرية، ثم قال:

«يبدو أن سعادة إذا كان قال ذلك، فإنه قاله على سبيل الاستحالة، أو لإظهار وهميّة القول باختلاف لبنان اختلافاً نوعياً عن محيطه».

ورأيت من المناسب في تلك اللحظة أن أسأله عن الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي كنت أعتبره أحد الأحزاب القليلة غير الطائفية في لبنان، ففاجأني بالقول:

«إن هذا الحزب حزب طائفي مقنّع على الرغم من تعدد الطوائف بين منتسبيه».

قلت له: «وكيف ذلك؟»

قال: «هناك سببان جوهريان: أولهما أنه لا يأخذ بمفهوم العروبة، وبالتالي

---

(6) «صور من الماضي»، هشام شرابي، 1998. في هذا الكتاب يقول هشام شرابي: «كان مارتن هايدغر يدرّس الفلسفة في جامعة هايدلبرغ عندما التحق بها شارل مالك تلميذاً زائراً لسنة واحدة قبل الحرب العالمية الثانية، والغريب أن مالك لم يذكر اسم هايدغر إطلاقاً عندما تتلمذنا عليه، كان اسم كيرغارد الذي له أثر كبير في فلسفة هايدغر، هو الذي يتردد على لسانه».

فهو في موقف سلبي من الإسلام الذي يشكل العنصر المركزي بين عناصر العروبة. وإلاّ فإن القبول بالإسلام من دون العروبة، يجعل القابلين به على هذا النحو مثل ملايين المسلمين غير العرب، خارج الإطار التاريخي للأمة العربية. والسبب الثاني هو القبول بالثقافة العربية كرافد فرعي، باعتبار أن الأصول الفكرية للقومية السورية هي أصول غير عربية، أو هللينية بنوع خاص، تنضم اليها روافد أخرى من الأصول التاريخية البعيدة، فلا امتياز حتى للرافد العربي إلاّ كونه أمراً واقعاً، أو كونه آخر تلك الروافد. بينما العروبة والثقافة العربية، وقلبها الإسلام، هما الأصل والأساس، وكل ما عداهما فروع وإضافات».

وفي صباح اليوم التالي لصدور العدد الذي تضمن مقال «لبنان والعروبة»، اتصل الأستاذ ميشال بالمجلة بالإسم الذي كان يستعمله دائماً في المكالمات الهاتفية، وهو «أبو يوسف»، اسم سائقه ومرافقه. وعندما قالوا لي إن «أبو يوسف» على الخط عرفت إنه ميشال عفلق، لكنه لم يخطر ببالي أن المكالمة تتعلق بالمقال . وأجبت على المكالمة فإذا به غاضب من نشر المقال، فاتفقنا على اللقاء لبحث الموضوع.

وعندما التقينا سألته: «لماذا أنت غاضب؟ ألست أنت كاتب المقال؟»

فقال وقد برد غضبه بعض الشيء: «نعم أنا كاتب المقال، لكن ذلك كان منذ زمن بعيد، وهذا الوقت ليس وقته».

فقلت له: «هذه وجهة نظر. وأنا لي وجهة نظر أخرى. وبالتالي فإن نشر الموضوع من وجهة نظري يُعزِّز قيمة المقال من وجهة نظرك.»

قال: «يجب أحياناً مراعاة الظروف».

فقلت له: «ما أعرفه إنك لا تراعي أحداً في المسائل المبدئية. وعلى هذا الأساس تصرّفت».

وتصافينا عند هذا الحد، لكنني شعرت بأن وجودي في «الأحرار» بات محرجاً لي ولهم، فعرضوا عليّ جريدة «الكفاح» اليومية فقبلت. ولا أدري الى اليوم ما إذا كان ميشال عفلق تصرّف من تلقائه أو أنه تلقى اعتراضاً من قيادات حزبية تصرّف على أساسه.

بعد ذلك فقدتُ حماسي للعمل، لكنني بقيت على علاقة جيدة مع ميشال عفلق، ولم أتطرق الى الموضوع من جديد، لأنني أدركت تماماً أن القيود التي تكبِّل الصحافة التجارية الخاصة، تكبِّل الصحافة الحزبية بطريقة مختلفة، فليست هناك حريّة للصحافة حتى في اتجاه واحد. ومع أنه كان يمكنني أن أوظِّف هذا «الاكتشاف» لمصالح ذاتية، فإنني لم أدخل في هذا الباب الذي ولجه آخرون حتى من غير أن تكون مسألة الحريَّة في الحسبان، وذلك لأسباب تتعلق بأخلاقي وتربيتي من جهة، ولشعوري العميق من جهة ثانية، بناء على ذلك، بأن الإنسان متى فقد احترامه لنفسه فقد إنسانيته ولو كسب العالم كله،

وخصوصاً إذا اقترب من السلطة، وعلى الأخص إذا كانت سلطة قمعية. فبقيت قريباً وبعيداً من غير التزام لأحافظ على هامش نقدي في كتاباتي على الأقل.

وكان ميشال عفلق يعرف ذلك، لأنه كان في الموقف ذاته تقريباً داخل حزبه، وقد رأى بعينه شذوذاً هائلاً من الداخل اضطره الى الاعتكاف في بعض الأحيان، الى درجة أنه قال مرة إنه لم يعد يعرف حزبه، خصوصاً عندما كانت الشلل الحزبية تتصارع لاستمالته اليها، من أجل مآربها الخاصة.

إلاّ أنني لم أفقد حماستي وحبي للكتابة، وشعوري بأن الكاتب يستطيع أن يجد طريقة للتعبير عن أفكاره وتصوراته في أي ظرف من الظروف، فلم تفارقني قط الرغبة في العمل الصحافي وفي اتخاذ الصحافة منبراً، فبقيت في الصحافة أيضاً قريباً وبعيداً في الوقت ذاته. أما لحظة الحرية التي أمسكت بناصيتها، فكانت يوم أقمت منبري الخاص في جريدة «الميزان» في لندن بالتعاون مع الزميل الحبيب أنطوان شكر الله حيدر، حيث كانت تلك الجريدة تعيش مني ولا أعيش منها، فلم يكن في نظرنا كبير سوى الجمل، كما يقول اللبنانيون تعبيراً عن نفحة الاعتداد بالنفس بفعل الحرية من القيود الضاغطة.

ولذلك عندما جاءني الأشخاص السوريون الثلاثة في مجلة «الأحرار» وطلبوا مني أن أتوجه معهم الى دمشق لأمر مهم كما قالوا، وصرفتهم بكياسة ولطف، لم أبلغ أحداً بالأمر بمن فيهم ميشال عفلق، لأنني كنت قد صممت على البقاء بعيداً عن التجاذبات الحزبية وكأنها غير موجودة. ولم أعد أداوم في المكتب مبكراً كما كنت أفعل سابقاً. وعندما وقع الانفجار في مكاتب المجلة، من غير أضرار تذكر، وقد حدث مبكراً قبل أن يداوم فيها أحد، ارتفعت أصوات تتهم الحكم السوري بقيادة صلاح جديد. ولما سألني كمال جنبلاط عندما تفقد المكان بصفته وزيراً للداخلية عن الجهة التي أعتقد إنها قامت بذلك العمل، أجبته بأنني لا أعرف سبباً لأي كان أن يقوم بذلك.

فكانت تلك الرحلة مع «الأحرار» أقصر مما تصوّرت، فلم تدم أكثر من سنة. لكنها كانت سنة ممتعة تعلمت منها الكثير في وقت قصير. أما هي فلم تدم طويلاً من بعدي، وعندما غادرتها لم ألتفت الى الوراء، فلا أعرف حقيقة ما حلّ بها.



IV

كفاح في «الكفاح»

كانت زيارتي الى الرباط، عاصمة المملكة المغربية، أول رحلة لي الى العالم الخارجي بعد رحلة العمل الى «أرامكو» في المنطقة الشرقية من المملكة السعودية، ثم رحلة التدريس في العمارة عاصمة محافظة ميسان حالياً في جنوب العراق. وكانت أيضاً أول مهمة صحافية قمت بها في الخارج لتغطية القمة العربية الخامسة، وفيها شاهدت بأم العين وعن كثب جميع الملوك والأمراء والرؤساء العرب ومعاونيهم في قاعة واحدة.

هناك رأيت ملك المغرب الحسن الثاني يلقي خطاب الافتتاح والترحيب، ويشرح الآية الكريمة التي وضعتها جامعة الدول العربية ضمن شعارها «وكنتم خير أمة أُخرجت للناس»، قائلاً إن صيغة الماضي التي ورد فيها هذا النص تعني الاستقبال، ولا تعني أن كونها خير أمة هو شيء مضى وانقضى، بل هو شيء عابر للأزمنة ما مضى منها وما هو آت. وكان الأمين العام للجامعة في حينه عبد الخالق حسونة، الذي بقي في هذا المنصب مدة عشرين سنة متواصلة، وهي فترة أطول من فترات خدمة أي من الأمناء العامين الآخرين للجامعة.

وفي جلسة الافتتاح شاهدت كيف تعثر جعفر نميري، قائد الانقلاب العسكري في السودان ضد النظام الجمهوري الدستوري، وهو يسلِّم رئاسة المؤتمر التي كانت للسودان في القمة السابقة الى العاهل المغربي، مما اضطر حسُّونة باشا الى التدخل لتصحيح جهل النميري بقواعد البروتوكول. ففي القمة السابقة كان السودان رئيساً للدورة التي انعقدت في القاهرة، وكان من المفترض أن يترأسها آنذاك الرئيس اسماعيل الأزهري، لكنه اعتذر لدواع صحيّة فحل محله أحمد محمد محجوب، رئيس الحكومة آنذاك، وكان الشاعر الفلسطيني كمال ناصر، الذي تربطه بمحجوب صداقة وثيقة وممازحات ظريفة، حاضراً في القاهرة عندما علم برئاسة محجوب لدورة الجامعة، فهجاه تحبباً بقوله:

وجـــهُ الـــعـــروبـــةِ أســـودُ لـــمّـــا تـــــرأَّسَ أحـــمـــدُ

وكان أحمد محمد محجوب في سنوات المنفى في بيروت يتردد على مقهى

«دولتشي فيتا» في الروشة بالقرب من منزلي، وكنا نجلس معه أحياناً. وفي بعض تلك الجلسات كان المحجوب يصطحب معه زوجته، فكان كمال ناصر عندما يريد إحراجه يوجه الحديث الى زوجة محجوب واصفاً إياها بعبارة «هذه الصابرة»، لأنها صابرة على رجل جموح مثل محجوب. وهذا طبعاً للمزاح والتسلية.

وفي مؤتمر الرباط شاهدت جمال عبد الناصر عن قرب لأول مرة، وكان بادياً عليه التعب والإرهاق. وفي ردهات المؤتمر في فندق «هيلتون الرباط» عرَّفني رياض طه، نقيب الصحافة اللبنانية، على الشيخ سعد العبد الله الصباح، رئيس الحكومة الكويتية آنذاك. وقد التقيت الشيخ سعد مرة ثانية في لندن عندما اصطحبني الزميل سليم نصَّار معه لزيارته في المستشفى الذي كان يتعالج فيه وقتها في العاصمة البريطانية.

وخلال استراحة بين الجلسات ذهبت مع صلاح عمر العلي الى قلعة قديمة في الرباط على كتف المحيط الأطلسي، قيل لنا إنها «قلعة القراصنة»، فوقفنا هناك نتطلع الى المحيط الذي كانت تصدر عنه بالفعل أصوات هادرة. فقلت لصلاح يبدو أن ما جاء في الشعار الوحدوي أثناء المد الناصري: «من الخليج الثائر الى المحيط الهادر»، ليس قولاً مجازياً، بل هو حقيقة واقعة، لأن صوت الهدير المسموع في تلك القلعة شيء ملفت ومرهب.

•••

في تلك الرحلة الى مؤتمر الرباط تعرَّفت لأول مرة على المطبخ المغربي والمأكولات المغربية من الباب العالي، أي من المطابخ الملكية التي قيل لنا إن طاهياً إسبانياً مشهوراً يديرها. وقد شاءت الظروف لاحقاً أن يكون لي لقاء أطول مع الأكل المغربي على مائدة أسبوعية كان يقيمها لنا في منزله في لندن الصحافي السوري المعروف أحمد عسّة وحرمه السيدة فخرية هنانو. وكان عسّة مستشاراً في الديوان الملكي المغربي، ثم جاء في مطلع الثمانينات رئيساً لتحرير مجلة «الحوادث» بعد مقتل ناشرها ورئيس تحريرها سليم اللوزي في بيروت، في الأيام الأولى من عام 1980. وكنت في جهاز تحريرها عندما ترأسها أحمد عسّة[1].

---

(1) أحمد عسة من أشهر الصحافيين السوريين وأكثرهم إثارة للجدل. في أواخر الأربعينات من القرن الماضي شغل منصب المدير العام للإذاعة السورية حيث أصدر أول مجلة حديثة للإذاعة في مطلع الخمسينات. لكنه قبل ذلك كان قد عمل مبكراً في الصحافة كمحرر في مجلة «ألف باء» لصاحبها يوسف العيسى، وعمل أيضاً في جريدة «الأيام» لصاحبها نصوح بابيل ثم ترأس تحرير جريدة «الكفاح» لصاحبها أمين سعيد، كما ترأس تحرير جريدة «الشعب» الناطقة بلسان «حزب الشعب» بقيادة رشدي الكيخيا. لكنه في عام 1954 أصدر، بالتعاون مع نزيه الحكيم، مطبوعته الخاصة باسم جريدة «الرأي العام» التي استمرت حتى قيام الوحدة مع مصر بعد أربع سنوات. وفي فترة الانفصال أعاد إصدارها باسم «الصدى العام»، لكنه بعد سقوط الانفصال ووصول حزب البعث الى الحكم في دمشق غادر سوريا الى المملكة السعودية لفترة حيث وضع كتاباً عن حكم

ومنذ أن كان يعمل في الصحافة السورية قبل الوحدة مع مصر، وبعد الانفصال، أثار أحمد عسّة الاهتمام بمقالاته المتعمقة في التحليل، وفي «الحوادث» كتب مقالاً كان له وقع بالجدل الذي قام حوله في الأوساط السياسية والصحافية في مرحلة حرجة من تاريخ سوريا والعراق. وكان عنوان ذلك المقال: «حرب إيران لا تُسقط صدّام، وحوادث حماه لا تُسقط الأسد».

وفي منزل أحمد عسّة في لندن، وعلى مائدته المغربية، تعرَّفت على الصحافي والأكاديمي السوري رياح منير شيخ الأرض (والدته فرنسية اعتنقت الإسلام)، وقد نشأت بينه وبيني صداقة وحوارات ما زالت مستمرة، إذا سنحت الفرصة. وكان رياح يصدر مجلة شهرية فكرية الطابع، كان ينشر فيها ملخص الحوارات والنقاشات المتضمنة رأيي في قضايا فكرية وسياسية، سماها «خاص جداً»، لأنها انتشرت بين النخب المثقفة فقط، وأحدثت جدلاً بين تيارات تلك النخب. وقد أوقف صدورها وآثر التقاعد في الريف الإيرلندي، لكون زوجته إيرلندية. وفي آخر لقاء بيننا في عام 2008 أبلغني أنه يكتب كتاباً من عدة أجزاء عن عائلة «شيخ الأرض» التي ينتمي اليها.

وحدث أن دعاني صلاح عمر العلي بعد إحدى جلسات القمة الى الغداء في مقر البعثة العراقية، وكان رئيس البعثة حردان التكريتي غائباً على موعد مع بعض القادة العرب، وتأخر أكثر من ساعة عن موعد الغداء، لكن المسؤول عن البروتوكول رفض أن يكسر الطعام قبل حضور الرئيس، مما اضطر صلاح عمر الى استخدام كل ما لديه من وسائل الإقناع لحمله على إطعامنا. ذلك أن الطعام كان يأتي مختوماً من المطابخ الملكية الى رؤساء الوفود، وبالتالي فإنه لا يجوز كسر الطعام قبل حضور الرئيس.

•••

بعد انتهاء مؤتمر القمة لم أعد الى بيروت، بل قررت التوجه الى باريس التي زرتها يومها لأول مرة في حياتي، وكان ذلك عشية عيد الميلاد في 24 كانون الأول/ديسمبر من عام 1969، فوصلت الى مطار «أورلي» في العاصمة الفرنسية متوعكاً ومتأخراً في الليل. فاتصلت من المطار بقريب لي كان يدرس الطب في باريس هو المرحوم الدكتور غسان سالم الفرزلي، فجاء بسيارته الى المطار لملاقاتي على الرغم من أنه كان على عشاء خاص بمناسبة العيد مع خطيبته الفرنسية سيفرين، التي أصبحت زوجته لاحقاً.

وأعطاني الدكتور غسان بعض الأدوية لمعالجة التوعك، ووجد لي غرفة في فندق «جورج الخامس» الذي آلت ملكيته أخيراً الى شركة للوليد بن طلال بن عبد العزيز. وفي صباح اليوم التالي، أي يوم العيد، كانت باريس كلها مقفلة

الملك فيصل نشره في بيروت بعنوان «معجزة فوق الرمال»، ثم بعد اغتيال الملك فيصل لجأ الى المغرب حيث تم تعيينه مستشاراً في الديوان الملكي المغربي، وقد بقي في هذا المنصب حتى وفاته في عام 2005 عن تسعين عاماً.

فبقيت طوال الوقت حبيس الفندق، لأنني لم أحمل معي معطفاً يقيني من البرد، وبالتالي فلم يكن هناك مجال للخروج قبل شراء معطف مناسب. فقضيت يومي الأول في باريس وحيداً أكتب ملاحظاتي والنقاط التي يمكن معالجتها في مقالات لاحقة حول مؤتمر الرباط. ومن تلك الملاحظات التي سجلتها يومها، أبيات من قصيدة كمال ناصر كما تلاها علي في ردهات القمة العربية، وبعض الأحاديث التي دارت على مائدة السفير اللبناني في الرباط.

وفي اليوم التالي بدأ الأصدقاء يتوافدون، وفي مقدمهم رفيقي الباريسي الدائم المرحوم محمد الشابي الذي كنت قد تعرفت عليه سابقاً في بيروت عندما جاء مع وفد فرنسي من المهتمين بالقضايا العربية وزارونـي في مكتب «الأحـرار». وزارني قبل ذلك في بيروت برفقة خطيبته الفرنسية جاكلين التي تزوجها لاحقاً وأنجب منها ابنه زياد.

وعندما عمل محمد الشابي في السفارة الكويتية في باريس كان إضافة نوعية للديبلوماسية العربية بسبب معرفته العميقة بالواقع السياسي الفرنسي، وثقة الشخصيات الفرنسية البارزة به، من سياسية وغير سياسية، وبسبب صداقاته وعلاقاته الواسعة أيضاً مع شخصيات لبنانية وعربية من مختلف الاتجاهات، آخرها قبل وفاته في عام 1995 مع العميد ريمون إده الذي كان يثق به ثقة مطلقة، ومع الرئيس الجزائري الأسبق علي كافي الذي كان في مطلع الستينات من القرن الماضي سفيراً لبلاده في بيروت، وصلاح الدين البيطار، وأكرم الحوراني، وغيرهم.

وكان الشابي يعرف خريطة باريس الاجتماعية كما يعرف خريطتها السياسية والثقافية. ومن ذلك مثلاً، أنه كان يعرف معظم المطاعم والمقاهي التي لها خواص مميزة، من حيث أنواع الطعام، والشراب، وهوية الـروّاد، والقصص التاريخية التي كانت تلك الأماكن مسرحها في غابر الأيام والأزمنة.

وبرفقة محمد الشابي تعرفت على ابراهيم طوبال، المناضل الوطني التونسي المعارض آنذاك لنظام الحبيب بورقيبة، وعلى خميِّس الشماري وزوجته عليّا، ومن خلالهما وفي منزلهما في تونس تعرَّفت على أحمد المستيري[2]، وغيره من الشخصيات السياسية والنقابية التونسية.

وجمعني الشابي على الغداء مرة مع صحافي فرنسي كـان يصدر نشرة سياسية اقتصادية، اسمها «شرق وغرب» Est-Ouest يبدو أنها كانت تحظى

(2) أحمد المستيري سياسي تونسي تقلد مناصب رفيعة في الحزب الدستوري الحاكم، كما تقلد عدة مناصب وزارية، لكنه انسحب من الحزب احتجاجاً على السياسات الاقتصادية لوزير التخطيط أحمد بن صالح (سياسة التعاضديات)، وعاد الى الحزب والحكم في مطلع السبعينات بعد إبعاد بن صالح، لكنه ما لبث أن اختلف مع الحزب الحاكم من جديد وشكل حركة سياسية معارضة باسم «حركة الديموقراطيين الاشتراكيين»، كان الصديق خميس الشماري من أقطابها في البداية.

برعاية «الكي دورسيه»، وزارة الخارجية الفرنسية، اسمه نيكولا لانغ، شقيق جاك لانغ، السياسي الاشتراكي الذي أصبح وزيراً للثقافة أثناء رئاسة فرنسوا ميتران. وقد تعلمت من لانغ أشياء مهمة تتعلق بالحياة اليومية في باريس. فعندما سألته كيف يعرف النبيذ الجيد من شمه بالأنف، أو تذوقه قبل سكبه في الكؤوس، فقال لي:

«إن ذلك مجرد تقليد ولا يدل بالضرورة على معرفة بالنبيذ أو التمييز بين أنواعه ودرجات جودته، فلا تتعب نفسك بذلك. والقاعدة التي قلما تخطىء هي أن أغلى نبيذ على اللائحة هو الأجود. لكن نصيحتي هي أن تطلب النبيذ الخاص بالمطعم والمحفوظ في براميل خشبية صغيرة، فهو الأرخص ويكون عادةً من نوعية ممتازة، خصوصاً في المطاعم الحريصة على سمعتها وعلى رضا زبائنها».

والنصيحة الثانية التي أسداها لي لانغ حول الإقامة المعقولة في العاصمة الفرنسية، هي ضرورة عدم ارتياد المطاعم إلاّ عند الضرورة، وعدم استئجار سيارات التاكسي، والتعود على الانتقال بالباصات وبالمترو بدلاً من ذلك.

وجمعني الشابي مرة ثانية على الغداء مع صحافي فرنسي آخر لا أتذكر اسمه، كان يهتم بالشؤون العربية، وبالجوانب الفضائحية أو الخارجة عن المألوف في العلاقات العربية الفرنسية في الجريدة التاريخية الساخرة «لو كانار أنشينيه»، وكان يومئذ يبحث عن معلومات تتعلق بالصفقات النفطية وصفقات السلاح، وبأمور تتعلق باليمن.

وفي يوم أحد اصطحبني معه الى الغداء في منزل أهل زوجته في ضاحية من ضواحي باريس تدعى «مادلين» في مكان اسمه «أولنيه سو بوا» على مقربة من مطار شارل ديغول في «رواسي». وكان والد زوجته ضريراً مكفوفاً، فعرَّفه بي بأنني صديق لبناني. وعندما ذكر له أنني لبناني هزّ رأسه وراح يروي قصة لم أستطع فهمها وهو يرويها لأنني لم أكن أعرف الفرنسية جيداً، لكنني لاحظت أن صهره محمد يضحك ويقهقه وهو يستمع اليه. ولما فرغ من حكايته قال لي محمد إن صديقاً له ميسور الحال، لديه أراض ومطاحن في منطقة «بريتاني» غرب فرنسا، وله ابنة جميلة كانت تدرس في باريس حيث تعرفت على شاب لبناني ادعى أنه من عائلة عريقة في بلاده، وأن عائلته بالغة الثراء، وأشبعها كذباً وكنفشة الى أن علقت في شباكه، فتبين لها ولذويها بأن هذا «النبيل» اللبناني ما هو إلاّ نصّاب ومحتال.

وسألت محمد الشابي: «لماذا حكى لك تلك الحكاية أمامي؟».

فقال: «يريد تحذيري منك لئلا تكون مثل ذلك الشخص، لأن نصّاباً واحداً يجعل جميع اللبنانيين نصّابين في نظر العالم».

ثم جاءني الى الفندق البعثي التونسي عمر سحيمي الذي كان يعيش آنذاك

في باريس بعد خروجه من تونس لأسباب سياسية. وكان عمر يقيم في شقة مع الطالب الكويتي البعثي فيصل الصانع الذي تعرفت عليه هناك. وهذان الشخصان لقيا مصرعاً مأسوياً في ظروف غير واضحة وغير مفهومة، وكل في مكان مختلف.

وقد فهمت من عمر سحيمي أن العلاقة بين المنظمة الحزبية وبين السفير العراقي في باريس يومها محمد صادق المشّاط ليست جيدة، بل ربما عدائية، وألمح لي أن المشّاط مدعوم في بغداد من قبل صالح مهدي عمّاش. وبعد ذلك دعاني السفير المشّاط الى غداء خاص بينه وبيني فقط، فوجدته هو الآخر يشكو من تدخلّات التنظيم الحزبي، قائلاً إنه سفير الجمهورية العراقية لدى الجمهورية الفرنسية، وليس سفيراً لدى منظمة الحزب في باريس، ومعظمهم من الطلاّب.

ولم أخبر المشّاط أنني على علم بالمشكلة، فاستمعت اليه بأذن محايدة، وشعرت أنه يريد إبلاغ موقفه الى أحد في القيادة القومية للحزب في بيروت، لعلهم يضعون حداً لتمادي البعثيين العاملين في فرنسا.

وبما أنني لا أنقل أي كلام يقال لي في مجلس خاص الى الآخرين كائناً من كانوا، ولا أقوم بمهمات خارج إطار عملي المهني، ولا آخذ جانب أي وجهة نظر لفريقين متخاصمين على أنها تعبر عن واقع الحال، ولا أسمح لأحد أن يستخدمني في أمر لا يعنيني، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فقد أبلغت المشّاط بأن علاقتي الشخصية بالقيادات الحزبية، القومية والقطرية، ليست دائماً على ما يرام، فضلاً عن احتفاظي التقليدي بمسافات واضحة مع أي كان في علاقاتي الشخصية، حتى مع الأقارب الأقربين.

وكان عمر سحيمي يتردد على بيروت مرتين أو ثلاث مرات في السنة، ويجعلها محطته الإجبارية إذا ذهب الى بغداد. وفي مساء يوم من الأيام كنت في مكتبي في مبنى «اللعازارية» في وسط بيروت، حيث كانت جريدة «الكفاح» في الطابق الثالث ونقابة الصحافة في الطابق الثاني قبل أن تشيِّد النقابة صرحها الجديد المطل على البحر في منطقة عين التينة بين فردان والروشة، جاء لزيارتي المعارض السعودي المشهور ناصر السعيد، وبقي قرابة الساعة، ثم غادر. وبعده مباشرة جاء عمر سحيمي، فظننت لأول وهلة بأن ناصر السعيد قد عاد لأمر ما، لأن عمر وناصر متشابهان الى درجة ملفتة بالقامة وبالملامح.

وكان عمر سحيمي في زيارته تلك ضيفاً على منح الصلح في شقته في الطابق العلوي من مبنى مقابل لمبنى السفارة السعودية في آخر خط المنارة في راس بيروت. وجلس السحيمي عندي في المكتب قرابة الساعة أيضاً ثم استأذن ومشى على أن نلتقي في اليوم التالي على الغداء. وفي الصباح الباكر وكنت لا أزال مستغرقاً في النوم، رن جرس الهاتف في منزلي فإذا بأحد الأصدقاء

يبلغني بأن عمر سحيمي وجد مقتولاً بطلق ناري في رأسه داخل مصعد البناية التي كان يعيش فيها منح الصلح حيث يقيم السحيمي ضيفاً عليه.

لم أصدِّق الخبر في البداية، لكنني أيقنت أن الأمر صحيح، وأن الاغتيال تم بمسدس كاتم للصوت لأن أحداً من سكان البناية لم يسمع شيئاً على الإطلاق. وعلى وجه السرعة توجهت الى منزل قريبي المحامي الياس الفرزلي لأجد هناك بعض أصدقاء عمر سحيمي وبعض البعثيين بالإضافة الى السفير العراقي في بيروت عبد الفتاح ياسين، حيث كانوا يتداولون في القضية وفي الترتيبات اللازمة للدفن. وفهمت من الحاضرين أن الجهة المرجحة، أو المرشحة، للاتهام هي نظام الحبيب بورقيبة في تونس، باعتبار أن عمر سحيمي كان ناشطاً في الحزب الدستوري الحاكم عندما اكتشفو أنه عضو سرِّي في حزب البعث، فهرب من تونس قبل القبض عليه.

ومع أن معظم من عرفتهم من الأصدقاء المشتركين مع عمر سحيمي قبلوا هذه الرواية أو سلَّموا بها على أنها معقولة وممكنة، فإنني بقيت متحفظاً عليها في قرارة نفسي، لأنني شعرت عندما زارني عمر في ليلة اغتياله أنه مقطّب الوجه على غير عادته، وأنه يخفي شيئاً لا يريد أن يبوح به لأحد. طبعاً، من غير المستبعد أن يقوم النظام البورقيبي بعمل من هذا النوع خارج تونس، لكنني لم ألمس من السحيمي لا في باريس، ولا في بيروت، بأنه على خشية أو تحسب من النظام التونسي. بل كانت مشاكله مع المنظمات الحزبية ومع العراقيين هي محور اهتماماته.

وفي الجنازة التي حوّلها البعثيون الى تظاهرة ضد النظام البورقيبي في تونس، بالقرب من مقبرة الباشورة، فوجئت بوجود الصحافي اللبناني باسيل دقّاق هناك يراقب ما يجري. وكان دقّاق يعمل في جريدة «الحياة»، ويظن كثيرون من الصحافيين اللبنانيين أنه يعمل مخبراً لدى السفارة التونسية. واقترب مني باسيل دقّاق وقال لي:

«هذا هراء. التوانسة لا يفعلون شيئاً مما يدّعيه المتظاهرون».

قلت له: «هل أنت متأكد، وكيف تعرف ذلك؟»

قال: «هذا رأيي»

قلت له: «ومن اغتال صالح بن يوسف؟»[3]

قال: «لا أدري. لكن عمر سحيمي ليس صالح بن يوسف».

والمعروف أن أجهزة الأمن اللبنانية لا تستطيع كشف جرائم من هذا النوع، إلاّ ربما بمحض المصادفة. وهكذا طويت جريمة اغتيال عمر سحيمي على

---

(3) صالح بن يوسف مناضل وطني تونسي قاد الحزب الدستوري الجديد أثناء معركة الاستقلال بعد اعتقال بورقيبة، لكنه اختلف على الخيارات مع بورقيبة وغادر تونس الى القاهرة حيث عاش طيلة الخمسينات، وقد جرى اغتياله في مطلع الستينات أثناء وجوده في ألمانيا للعلاج، في عملية نظمها صديق لبورقيبة مقرب منه هو البشير زرق العيون.

مجهول، لكنها بقيت محفوفة بالشكوك.

•••

كان الشاب الكويتي فيصل الصانع، المقيم مع عمر سحيمي في شقة واحدة في منطقة «بلاس ديتالي» من باريس، أحد الطلاّب الكويتيين القلائل الناشطين في صفوف حزب البعث آنذاك، لكنه كان أقل ضجيجاً من الآخرين. وما جمعني أكثر بالصانع أنه كان على علاقة طيبة ووثيقة مع محمد الشابي، الذي كان يعمل في السفارة الكويتية، فكنا نخرج سوياً في بعض الأحيان وكلما مررت بباريس.

وصادف أن كنت في العاصمة الفرنسية أثناء وفاة الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وشاهدت جنازته على التلفزيون الفرنسي، وقد لاحظت انقساماً في الرأي بين الطلاّب والناشطين العرب الدائرين في الأجواء البعثية هناك، بين من رأى فرصة سانحة للحزب بأن يملأ الفراغ الذي تركه عبد الناصر، وبين من رأى فيه نقطة تحوّل ليست في صالح الحركات القومية والاشتراكية والثورية بمجملها. وكان فيصل الصانع يميل الى هذا الرأي الثاني، باعتبار أن الانقسامات البعثية الحادة بين سوريا والعراق لا تسمح للحزب بأن يلعب الدور القيادي الذي لعبه جمال عبد الناصر في مجال العمل العربي المشترك.

والكويتيون بنوع خاص، وبكل مشاربهم، كانوا يقدرون لعبد الناصر وقوفه الى جانبهم يوم إعلان استقلال الكويت في مطلع الستينات عندما تحرك الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم للمطالبة بضم الكويت الى العراق. وبعد الانقلابات المتتالية في بغداد خلال مرحلة ما بعد عبد الكريم قاسم نشأ نوع من «بازار» عربي كثر فيه الوسطاء لحمل العراق على الاعتراف الكامل بدولة الكويت المستقلة، وخصوصاً في لبنان، حيث كان نقيب الصحافة رياض طه أحد الساعين الكثر في هذا الاتجاه.

وعندما زرت الكويت في أواخر عام 1976، كنت أتردد أحياناً على مكتبة أقامها فيصل الصانع في الوسط التجاري لمدينة الكويت، أظن أن اسمها كان «مكتبة الوحدة».

وغاب فيصل الصانع عني لسنوات قليلة، ووصلني عام 1985، وكنت في مجلة «الصياد» زمن صدورها من لندن، خبر فوزه في الانتخابات البرلمانية عن دائرة «كيفان» ضد رئيس مجلس الأمة السابق محمد يوسف العدساني، وهو الرئيس السادس لمجلس الأمة الكويتي، فاتصلت به مهنئاً وكتبت عنه تعليقاً في «الصياد»، مستذكراً أيام باريس.

ومنذ أن صار نائباً في مجلس الأمة بقيت أتابع أخباره ونشاطه البرلماني حيث كان من النواب الذين أيدوا حجب الثقة عن الوزير الشيخ سلمان الدعيج الصباح الذي اضطر الى الاستقالة بسبب قضية انهيار «سوق المناخ»، وكان ذلك من الأسباب التي حملت أمير الكويت جابر الأحمد الجابر الصباح على

حل ذلك المجلس في عام 1986، فبقيت الكويت من دون مجلس أمة الى ما بعد «عاصفة الصحراء» لإخراج صدام حسين وقواته من الأراضي الكويتية.

وفي انتخابات 1985 فاز فيصل على العدساني بفارق بسيط قدره 21 صوتاً، حيث نال 594 صوتاً مقابل 573 صوتاً للعدساني، أي 44.5% من مجموع الأصوات، مقابل 42.9%. لكنني لم أفهم لماذا امتنع عن التصويت على مشروع قانون بإعطاء المتجنسين بالجنسية الكويتية من غير الكويتيين الأصليين حق الاقتراع في الانتخابات، ولم تسعف الظروف في لقائه من جديد لكي أسأله عن الموضوع، لاعتقادي بأنه كان يجب أن يصوِّت الى جانب إعطاء الحق للمتجنسين لكونه عاش في أوروبا ويعرف أهمية تلك الحقوق المصانة دستورياً في البلدان الأوروبية.

طبعاً، التمييز شبه العنصري في الكويت، بل في منطقة الخليج عموماً، أمر معروف وموصوف. وفي زيارة قمت بها مع الزميل المصري فيليب جلاّب الى نادي الكتّاب في إمارة الشارقة، بحضور أمير الشارقة الشيخ سلطان القاسمي، في عام 1980، فتحت خلال الحديث معه موضوع حالة التمييز السائدة في الخليج، فقال إن هذه الحالة لم تكن موجودة من قبل لكن الإخوان الكويتيين هم الذين استحدثوها!

ثم علمت أنه قبل الاجتياح العراقي للكويت بسنة، أي في عام 1989، انضم فيصل الصانع الى صفوف «الحركة الدستورية» التي كان من أقطابها آنذاك أحمد السعدون، رئيس مجلس الأمة السابق، والدكتور أحمد الخطيب، وهو من قدامى مؤسسي حركة القوميين العرب مع زميله الدكتور جورج حبش منذ أن كانا يدرسان الطب في الجامعة الأميركية في بيروت. وكانت غاية تلك الحركة الدستورية الضغط على الأمير من أجل العودة الى الحياة البرلمانية. وسمعت من بعض الكويتيين الذين وفدوا الى لندن بعد الاجتياح العراقي أنه لو نزل الأمير عند رغبة الحركة الدستورية، وجرت انتخابات جديدة بين 1989و1990، لما كان من الممكن أن يحصل الاجتياح، لأن عودة الحياة الدستورية كانت ستنفي الأسباب الموجبة التي استفزت العراقيين.

وبعد دخول الجيوش العراقية الى الكويت في مطلع شهر آب/أغسطس من عام 1990، علمت أن صدام حسين طلب من فيصل الصانع تشكيل حكومة كويتية موالية للعراق، لكنه رفض فاعتقلوه وساقوه الى بغداد فصار في عداد المفقودين. ويقال إنهم استجوبوه في بغداد، وأجروا له محاكمة حزبية شكلية، وتم إعدامه. لكن حقيقة ما جرى لم تظهر حتى كتابة هذه السطور، على الرغم من مضي سنوات عديدة على زوال نظام صدام حسين في العراق.

•••

فور معرفتي بوفاة جمال عبد الناصر أجريت ترتيبات عاجلة للعودة الى

بيروت ولم يكن قد مضى على وجودي في العاصمة الفرنسية خمسة أيام، فوجدت عند وصولي الى المطار أن هناك حالة اهتياج غير عادية في شوارع بيروت الغربية، بحيث أنني لم أستطع الوصول الى مكتبي في جريدة «الكفاح» إلاّ بشق النفس، بسبب إغلاق بعض الطرقات، وإحراق الإطارات في العديد منها.

وبعد أقل من شهرين على وفاة عبد الناصر كتب محمد حسنين هيكل، المقرب من الرئيس المصري في حياته، مقالاً في زاويته الأسبوعية «بصراحة» في جريدة «الأهرام» التي كان يرأس تحريرها، غمز فيه من قناة حزب البعث ودور قادته في «تدويخ» عبد الناصر، وإدخاله في متاهات أنهكته، وأسهمت في إضعافه، بدافع الطموح للحلول محله في قيادة الوضع العربي. وقد تضايق ميشال عفلق من ذلك المقال، وبدأ يحدثني عن العلاقات السابقة مع عبد الناصر وكأنه يرد بذلك على هيكل، فجالت في خاطري فكرة أن أتناول ما جاء في مقال هيكل بالرد عليه في جريدة «الكفاح» من غير أن أبلغ ميشال عفلق بأنني عازم على ذلك. وكان عفلق يولي اهتماماً خاصاً لبعض الكتابات الصحافية المعادية للبعث، مع أنه لم يكن يقرأ الصحف كعادة يومية مثلنا إلاّ عندما يلفت أحدهم نظره الى أمر يعتقد بأنه يهمه. ومن هذا القبيل، كان يولي اهتماماً خاصاً بتعليقات كان يكتبها أحدهم في جريدة «الحياة» البيروتية بتوقيع «كريم»، ويسألني رأيي حولها أحياناً. فكانت تلك التعليقات تستفزه وتستنفر تفكيره بشكل ملحوظ، لأنها كانت تمثل النقيض العقائدي للبعث، متضايقاً من أن يكون للرجعية العربية منظِّر من هذا العيار، مشتبهاً بأن الشخص الذي يوقع بهذا الإسم المستعار، «كريم»، قد يكون سورياً، بل ربما كان بعثياً سابقاً.

وبدأت تالياً بأول حلقة في مسلسل من أربع عشرة حلقة بعنوان «هيكل وبؤس الصراحة»، لم يتدخل فيها عفلق إلاّ بشرح بعض المواقف والنقاط. ثم جُمعت تلك المقالات في كتيِّب تم توزيعه في العراق، ومع الأسف فقدت نسختي منه بعد تركي «الكفاح» في نهاية عام 1971.

في التعليل النظري للرد على مقال هيكل، لم يكن الهدف الدفاع عن حزب البعث الذي لا يستطيع أحد أن ينكر مضاعفات خلافاته مع عبد الناصر على الواقع القومي. بل كان المقصود وضع إطار نقدي سليم للبحث، لا مجرد إطلاق انتقادات في الهواء تبعاً لأهواء سياسية عابرة. وخلاصة هذا الإطار الذي سقته في منحى فكري تاريخي قياساً على الخلافات الأثينية القديمة في مواجهة عدو استراتيجي للأمة الإغريقية يومذاك هو الدولة الإخمينية في بلاد فارس في القرن الخامس قبل الميلاد، حيث قام بعض المفكرين الإغريق بنقد أحوال أمتهم، لأن ساستهم لا يقيسون ضعفهم بقوة أعدائهم، بل يقيسون قوتهم بضعف بعضهم البعض.

وكان في رأيي آنذاك، وما زال الى اليوم، أن القياس الوحيد الصحيح لقوة أو ضعف أي موقف عربي، من قبل الدول والحركات والأحزاب وحتى الأفراد، هو وضعه في موازاة العدو الاستراتيجي للأمة. وهذه نقطة إيجابية تسجل لـ«حزب الله» والمقاومة الإسلامية واللبنانية في الوقت الحاضر، لا على أساس مقاييس مغلوطة دليل المقارنة فيها أن يفاخر أي طرف عربي بأنه الأسلم أو الأقوى أو الأهم بين أفرقاء من جنسه ويفترض أن يكونوا معاً في مجرى واحد، وإن تعددت روافده.

كان رأي ميشال عفلق أن الإخوان المصريين فاتهم استيعاب مغزى الاندفاع السوري نحو الوحدة مع مصر، بسبب هذه المفارقة في المقاييس، فرأوا أن مصر هي الدولة الأكبر والأقوى، وأن سوريا هي الطرف الأصغر والأضعف، وذلك بالقياس العددي والكمّي. لكن القياس الصحيح بالمنظور الوحدوي الاستراتيجي هو أن ترى مصر الوحدوية، أو السائرة في طريق الوحدة العربية، أن سوريا هي بقية العرب، لا مجرد دولة سكانها أقل من عشرين في المائة من سكان مصر، لأن غاية الوحدة هي اجتذاب بقية العرب اليها من خلال كيفية التعامل مع سوريا. وفي رأيه أن هذا الإخفاق النظري في تصور مصر الناصرية للوحدة مع سوريا هو مكمن العلة الأساسي في انتكاس المد الوحدوي، وإذا كانت هناك من مسؤولية على حزب البعث، خصوصاً بعد الانفصال، فهي مسؤولية ثانوية.

هذا مع العلم أن المواقف البعثية من الانفصال لم تكن موحدة، مما يعني أنها أيضاً لم تكن موحدة من مسألة الوحدة مع مصر. فقد كانت هناك مواقف اضطرارية عديدة في الاتجاهين.

والخلل في هذا القياس كان في تقديري سبباً أساسياً في اختلال العلاقات السورية ـ اللبنانية أيضاً في مختلف العهود، خصوصاً في مرحلة الوجود السوري المباشر في لبنان، وما أدى اليه ذلك تالياً من مضاعفات ما زالت تجرجر ذيولها الى اليوم.

وعندما تجددت المحادثات البعثية ـ الناصرية بعد الانفصال بهدف تجديد تجربة الوحدة، أرسل عبد الناصر الى دمشق السوريين الذين كانت عليهم تحفظات في زمن الوحدة السابقة، فقال ميشال عفلق:

«ما بال عبد الناصر يرسل الينا أخطاء الوحدة قبل تجديد الوحدة».

وقد سيق ذلك في معرض القول بأن أحداً لم يتعلم من التجربة، بسبب الخلل الأساسي في الوسائل النظرية للقياس.

روى لي ميشال عفلق مرة حكاية على سبيل التفكهة، لكن لها دلالاتها في الواقع السياسي السائد في زمن الوحدة. وأشرت الى تلك الحكاية في موضوع الغلاف الذي نشرته مجلة «الحوادث» في صيف 1979، بعد حوادث بغداد عندما

تسلّم صدام حسين رئاسة الجمهورية من أحمد حسن البكر، وقام بإعدام عدد غير قليل من القيادات الحزبية، بينها قيادات عليا، بعنوان: «الصادم والمصدوم».

يومئذ، أي في زمن الوحدة، كان الدكتور فؤاد جلال صلة الوصل بين ميشال عفلق وجمال عبد الناصر. وعندما لاحظ فؤاد جلال أن هناك فتوراً في العلاقة سعى الى لقاء بين الرجلين، فتم اللقاء في حديقة منزل جمال عبد الناصر في منشية البكري في القاهرة.

وفيما كانا يتحدثان عن القضايا المقلقة، فتح ميشال عفلق معه موضوع توسيع الهوامش الديموقراطية، خصوصاً في المجالس والمؤسسات الإقليمية، لكي يصار الى التعرف على المشكلات الحقيقية ومناقشتها وإيجاد الحلول والبدائل لها. وكان عبد الحكيم، النجل الأصغر للرئيس عبد الناصر، وهو بعد في مرحلة الطفولة، يلعب في الحديقة حيث كانا يجلسان فأمسك بخرطوم الماء الذي يسقي الحديقة ورش والده بالماء، فأخفى عبد الناصر غيظه، والتفت الى ميشال عفلق وقال له ضاحكاً: «أهو .. دي الديموقراطية».

وبصرف النظر عن المشاعر الوحدوية العارمة في سوريا، وفي لبنان أيضاً، هناك عوامل ضاغطة عديدة عجّلت في إتمام الوحدة السورية ـ المصرية، منها عوامل داخلية وعوامل خارجية، بحيث أن الناتج النهائي لم يكن مطابقاً للتصورات الفكرية والنظرية السابقة لها. فقد شن الأميركيون وحلفاؤهم الغربيون حملة شعواء على سوريا بعد تسليح الجيش السوري بأسلحة روسية، بدعوى أنها واقعة قريباً في أحضان الشيوعية. وتلاقت هذه الحملة مع اتجاه سوري محافظ ليس قليل الشأن يدعو الى التلاقي مع عراق نوري السعيد الداخل يومئذ في حلف بغداد، بل هو عاموده الفقري. ولذلك فضّلت القوى الوطنية والوحدوية في سوريا التوجه الى الوحدة مع مصر بأي شكل كان، على الوقوع في الشرك الأميركي. فالوحدة السورية ـ المصرية كان فيها عنصر اضطراري ضاغط من الداخل ومن الخارج، وإن كان قلة من المعنيين اعترف بذلك في حينه، لكي لا يُفسَّر الأمر في غير محله، أو يوضع في غير نصابه.

والواقع أن الحملة الناصرية الإعلامية المقصودة والمتعمدة ضد ميشال عفلق لاحقاً أخطأت الهدف، لأن ميشال عفلق هو أحد القلائل من القادة السوريين الذي أخذ مسألة الوحدة ليس على محمل الجد فقط، بل أخذها أيضاً كخيار حاسم ودائم، لا كاضطرار مؤقت وعابر.

وفي محادثات تجديد الوحدة بعد الانفصال، سرّبت الأجهزة المصرية الى الصحافة اللبنانية الموالية لها آنذاك، وبصورة انتقائية، بعض محاضر تلك المحادثات، مركّزة على إظهار ميشال عفلق بأنه متردد ولا يفصح عن رأيه، في

تأويل سيء النية، حيث أبرزت تلك الصحف الموجهة في بيروت بأحرف كبيرة عناوين تقول: «كان عفلق يقول يعني .. يعني.. يعني.. وهو لا يعني شيئاً».

بل إن تلك الحملة اتسع مدارها لتأخذ منحى طائفياً بالتلميح الى كون عفلق مسيحياً. ففي خطاب علني للرئيس اليمني عبد الله السلاّل هاجم فيه ميشال عفلق، مركزاً على اسمه الأول ميشال، قائلا: «ما لنا ولهذا الإسم».

ولذلك، عندما انبريت لكتابة مسلسل «هيكل وبؤس الصراحة» كنت أتوخى إنصاف ميشال عفلق وليس الدفاع عن حزب البعث الذي كنت أعرف أنه بات حالة مشرذمة منذ زمن غير قصير. أو كما قال لي صلاح البيطار مرة في باريس: «ليس هناك حزب بعث. هناك أحزاب تتنازع على الإسم». وكان البيطار عندما يتحدث عن الموضوع يقول «أحزاب البعث»، ولا يقول «حزب البعث». ولما حزم أمره لإصدار صحيفة خاصة به في العاصمة الفرنسية، اختار لها اسم «الإحياء العربي»، وهو إسم اتخذه مع عفلق لحركتهما في المرحلة الأولى من نشاطهما السياسي في سوريا بعد عودتهما من الدراسة الجامعية في باريس، وقبل تلاقيهما مع أكرم الحوراني في حزب واحد أطلقوا عليه اسم «حزب البعث العربي الاشتراكي». فقد كان اسم الحركة الأصلية «الإحياء العربي»، وكان اسم حزب أكرم الحوراني «الحزب العربي الاشتراكي».

•••

كان انتقالي الى جريدة «الكفاح» بمثابة انفراج نفسي لي، بعد الاحتقان والحذر والأعصاب المشدودة خلال عملي في «الأحرار»، بسبب ضرورة التدقيق في كل كلمة، وبسبب تفلسف عديدين ممن لا يعنيهم الأمر، وبسبب إصراري على الفصل بين الحزبية والمهنية، وبين روحية المبادىء وشكليتها، وبين اعتبارات السلطة القطرية ودواعي القضية القومية، وكلها خيوط رفيعة متعبة للشخص الذي يتعهد تجسيدها وتوثيقها بالكلمة المكتوبة القابعة على الرفوف أبداً، بينما هي تسلية للذين يطلقون الكلام والأحكام في الهواء بغير حساب، كالفقاقيع المتلاشية.

وقد مرت أيام عديدة حرجة في العامين 1969 و 1970، بين أفول الناصرية بعد وفاة جمال عبد الناصر، وصعود الثورة الفلسطينية وتمددها العشوائي في لبنان، واتساع مدى الانتهازية اللبنانية تجاه الثورة الفلسطينية أضعاف ما كانت عليه في زمن المدّ الناصري. فلا عجب أن كثيرين ممن كانوا أكثر حماسة للثورة الفلسطينية صاروا أول الأسماء على دفتر حساب رفيق الحريري[4] بعد

(4) لم يدقق أحد من الباحثين اللبنانيين بصورة جدية حتى الآن في الدور الذي لعبه رفيق الحريري في تمويل الحرب اللبنانية والميليشيات المختلفة التي أضرمتها وأدامتها. وعندما كنت في «الصياد» في بيروت عام 1983 وكان المرحوم محمد عطا الله رئيساً لمجلس الإنماء والإعمار، أبلغني أن مهمة رفيق الحريري في إزالة الركام والزبالة من شوارع بيروت باسم الملك فهد، هي واجهة لأشياء أخرى، لأن ما قام به يومها هو من مهام البلدية ولا يحتاج الى هذه الزيطة

خروجها من لبنان وربما قبل ذلك.

وجاءت المعارك بين الجيش الأردني وبين الثورة الفلسطينية وانسحاب القوات العراقية من الأردن في الوقت الذي كان فيه كثيرون من البعثيين يتوقعون أن تحسم الصراع لصالح الثورة الفلسطينية، بمثابة صدمة غير متوقعة، مما أثار بلبلة كبيرة، وإحراجاً مؤلماً للذين استغرقوا في الشعارات الزاهية ليفيقوا على حقائق مؤلمة.

وكان صلاح عمر العلي قد أبعد عن القيادة في بغداد قبل ذلك بأشهر فاختار القاهرة لإقامته، لكنه قرر الانتقال الى بيروت خلال تلك الأزمة وأقام في شقة في منطقة سجن القلعة بالقرب من منزلي، فزارني يوماً في مجلة«الأحرار»، وتفاجأ بمطالعتي المغايرة بعض الشيء للرأي السائد حول موضوع الجيش العراقي في الأردن.

وبعد انتقالي الى مجلة «الدستور» في لندن عام 1977، جاء صلاح عمر الى العاصمة البريطانية من مدريد حيث كان سفيراً لبلاده فيها، واتصل بي وتلاقينا في فندق «رويال غاردن» في منطقة «هاي ستريت كنزينغتون» بالقرب من مكاتب المجلة، وأعاد فتح الموضوع. فقال، وهو على حق في ذلك، إن مسألة الصراع مع إسرائيل يجب أن تكون لها الأولوية. وقال، كما سجلت لاحقاً في دفتر ملاحظاتي:

«إنني لا أرى سبباً لعدم دخول الجيش العراقي في مواجهة مباشرة مع إسرائيل، واتخاذ المبادرة في الزحف عليها لتحرير الجولان وإحداث هزة عالمية عنيفة».

وقال صلاح أيضاً إنه واثق من أن الجيش العراقي قادر على ذلك وراغب فيه.

وكان جوابي عن ذلك، إن مثل هذا الشيء ممكن في حال وجود توازن استراتيجي، وإلاّ فإنه قد يكون غير محمود العواقب.

وسألني: «وكيف يكون ذلك؟»

قلت: «في حال الحصول على رادع نووي».

ولم يكن أحد حتى ذلك الوقت قد بدأ يتحدث عن الخيار النووي العربي كرادع استراتيجي. وكنت قد طرحت سؤالاً عن الموضوع على الرئيس أحمد حسن البكر في مطلع صيف عام 1970 في العاصمة الليبية طرابلس حيث كان يحضر القمتين: القمة العربية العادية، وقمة دول المواجهة، بحضور جمال عبد الناصر ومعمر القذافي قائد الثورة الليبية الوليدة التي كان عمرها في حينه تسعة أشهر فقط. لكن الرئيس البكر لم يجب عن السؤال، بل طلب مني أن أرسل اليه أي أسئلة مكتوبة ليجيب عنها خطيًّا في وقت لاحق، لكنني لم أفعل. وكان برفقة

والزمبليطة، فكتبت مقالاً حينها من وحي كلام محمد عطا الله لي، استعرت فيه عبارة من كتاب «ألف ليلة وليلة» (طبعة بولاق)، هي: «الملك الزبلّكان». والمعروف أن محمد عطا الله هو أيضاً من أبناء مدينة صيدا مثل الحريري قبل أن يستأثر هذا الأخير بالهوية البيروتية.

الرئيس البكر في ليبيا نائباه صالح مهدي عماش وحردان التكريتي، ووزير الخارجية آنذاك عبد الكريم الشيخلي الذي اغتيل طعناً بالسكين بعد ذلك في أحد شوارع بغداد، فكان ثاني وزير للخارجية العراقية يقضي اغتيالاً في بغداد البعثية بعد ناصر الحاني.

وبعد انتهاء القمتين طلب مني عبد الكريم الشيخلي (أبو شهاب)، وكذلك حردان التكريتي، أن أنضم الى الوفد الذاهب الى الجزائر في زيارة رسمية. إلاّ أنني اعتذرت لأنني كنت مصمماً على الذهاب الى باريس عن طريق روما، وكنت أجريت الترتيبات اللازمة لذلك. وقد أُنزل الوفد العراقي في قصر الأمير الحسن الرضا ولي العهد السابق في المملكة السنوسية، فتوجهت مع رياض طه الى هناك حيث تمشينا في الحديقة ليلاً مع الرئيس البكر الذي كان يكن مشاعر ودية لرياض طه[5]، كما لاحظت.

وانطباعي عن تلك الجلسة مع صلاح عمر العلي في لندن، أنه لم يكن مقتنعاً بكل التبريرات المساقة لهذا التقاعس، بما في ذلك التبرير النووي الذي سقته له من عندياتي، ولم يسبق لي أن بحثته مع أحد.

ولم ألتقِ صلاح بعدها إلاّ في شهر أيار/مايو من عام 1981، وكان ذلك في نيويورك حيث عمل سفيراً للعراق في الأمم المتحدة التي كان أمينها العام يومذاك كورت فالدهايم في سنته الأخيرة.

•••

كان عملي في جريدة «الكفاح» ممتعاً، وكانت صحبتي مع مالكها النقيب رياض

---

(5) ولد رياض طه في الهرمل (بعلبك) سنة 1927. بدأ عمله في الصحافة سنة 1943 في مجلة «الطلائع» ثم في «النضال» و«الدنيا».

سنة 1947 أصدر «أخبار اليوم» جريدة أسبوعية وأخذ يراسل صحف القدس سنة 1948.

سنة 1949 أسس «وكالة أنباء الشرق» فكانت أول وكالة أنباء خاصة في العالم العربي.

سنة 1950 أصدر جريدة «الأحد» محققاً قفزة صحافية مميزة في التبويب والإخراج؛ وأدخل «الملاحق» على الصحافة اللبنانية والعربية.

سنة 1953 أصدر جريدة «البلاد» وفي جنيف مجلة «الأفكار» Les Pensees باللغة الفرنسية.

سنة 1955 أسس «دار الكفاح للنشر» لتنفيذ مشاريعه الصحافية، فأصدر جريدة «الكفاح» يومية وحول «الأحد» الى مجلة أسبوعية.

سنة 1967 انتخب نقيباً للصحافة اللبنانية.

في 1980/2/14 طارده مسلحون وهو في طريقه من نقابة الصحافة لمقابلة رئيس الحكومة المستقيل سليم الحص، فأطلقوا عليه ست رصاصات متفجرة أودت بحياته.

وقد تردد أن مقاله الأخير الذي خاطب فيه أحد الزعماء العرب كان السبب في تصفيته وقد جاء فيه:

...(«ان قافلة الوعي والتقدم تنطلق بسرعة، فاياك ان تتعرض لها لانها ستجتاح كل من يقف دونها. ليتك تقرأ لتدري ان المصارعين من رجال الافكار والمبادىء لا يوهن عزائمهم سلاح، لانهم لا يخشون الموت... ولكنك لا تقرأ ولا تدري (...) واذا قتلت رياض طه فإن قتله سيخلده وستشب من دمه نار تلتهمك انت وذريتك(...) حقاً انني لا احقد عليك بقدر ما ارثي لك (...).

ترك رياض طه خمسة كتب: شفتان بخيلتان (1950)، في طريق الكفاح (1958)، فلسطين اليوم وغداً (1963)، الإعلام والمعركة (1973)، قصة الوحدة والانفصال (1974).

طه ممتعة أيضاً. واتخذت عادة المرور قبل الظهر على مكاتب النقابة الواقعة في الطابق الثاني طقساً يومياً قبل الصعود الى مكتبي في الطابق الثالث. وقلما كنت أجد النقيب وحده. فكان هناك دائماً بعض قدامى الصحافيين يشربون القهوة ويتبادلون أطراف الحديث والذكريات والحكايا الطريفة التي مروا بها أو سمعوها في التداول بين الأجيال السابقة من الصحافيين. وتلك كانت من أمتع الجلسات التي يتمناها أي صحافي، فكيف إذا كانت طقساً يومياً بلا انقطاع.

ومن المداومين يومياً على مكتب النقيب آنذاك الصحافيان جورج نقاش الكاتب بالفرنسية، وألفرد أبو سمرا صاحب «القلم الصريح» الآتي من تخوم جبل عامل في بلدة مرجعيون. وكنت أعرف عن جورج نقّاش لكنني لم أكن أعرفه قبل ذلك، ولم يسعفني الحظ في قراءته لأنني لم أكن أتقن اللغة الفرنسية. أما ألفرد أبو سمرا الذي أصدر مجلته «القلم الصريح» في مطلع ثلاثينات القرن الماضي، وصار فيما بعد من أقرب المقربين الى الرئيس كميل شمعون، فإن مطبوعته في سنواتها الأولى أيام الانتداب الفرنسي تشكل نافذة مهمة للإطلال على أحوال لبنان والجنوب اللبناني في تلك المرحلة.

ففي افتتاحية العدد الأول بتاريخ 3 آب/أغسطس من عام 1931 كتب أبو سمرا يقول:

«هذا هو القلم الصريح. أنزلناه الى الميدان لكي نشترك أيضاً في خدمة هذا الوطن، حسب طاقتنا وإمكاناتنا، ولا نقول على مقدار عاطفتنا ورغبتنا وأميالنا، فلو تسنى لنا أو لأي وطني قح أن يتمشى بموجب هذه لبلغ بوطنه الأوج الأعلى والغاية الأقصى، ولكن ما لا يُدرك كله لا يُترك جلّه».

وكان أبو سمرا قد وصف طريق الصحافي في لبنان بأنه «طريق الحسك والشوك»، مشيراً في العدد الثاني بتاريخ 12 آب/أغسطس الى «المصاعب والعقبات والمعاكسات» ومصمماً على الانخراط في مضمار الصحافة «وإن كنا لضيق المحيط لا ننتظر الالتحاق بكبار الصحافيين».

وبتاريخ 10 تشرين الأول/أكتوبر 1931 كتب مقالاً له مدلولات تاريخية مهمة سوف أتوقف عندها قليلاً، تحت عنوان: «جبل عامل يطلب الوحدة السورية، ومرجعيون ماذا تطلب؟». وكان بذلك يعلّق على ما كتبه مراسل جريدة «الشعب» في جبل عامل حول الأسباب التي دفعت العامليين الى المطالبة بالانضمام الى «سوريا السياسية والانفصال عن لبنان». وقال أبو سمرا في تعليقه هذا: «نحن وإن كنا نجهل مقصد الكاتب في جبل عامل فيما إذا كان يعني بعامل الطبيعي وحدوده الأصلية، إذ يضم بذلك مرجعيون وملحقاتها العاملية، الى فكرة المطالبة بالوحدة السورية، أم معناه جبل عامل الشيعي فقط».

ويبدو لي أن ألفرد أبو سمرا كان ميالاً الى الوحدة السورية حيث قال في مقاله المذكور: «طلبنا الوحدة السورية وسعينا للحصول عليها بكل قوانا،

ونحن على حق في طلبنا، لأنّا أُلحقنا بلبنان رغم إرادتنا». وكان لهذه الدعوة الى الالتحاق بسوريا أثر سلبي في نفوس من أسماهم بالرجعيين، قائلاً: «لا نعرف سبب الخوف الذي اعتراهم وأقلق راحتهم فقاموا يحرضون بعض صنائعهم على تقديم عريضة الى المفوضية (الفرنسية) ينكرون فيها ميل جبل عامل الى الوحدة السورية والقول بأن العامليين لا تحدثهم أنفسهم بالانفصال عن لبنان».

وقد توقفت ملياً أمام هذا الموضوع الذي تطرق اليه ألفرد أبو سمرا مطولاً، الى جانب مضمون مقابلة له مع فارس الخوري حول الوحدة السورية ـ العراقية تحت العرش الهاشمي، لأنني فيما بعد وقفت على رواية مغايرة، تنكر ميل العامليين الى الوحدة السورية. ففي أواخر عام 1976 وكنت يومها مقيماً في باريس، توجهت الى ساحل العاج لزيارة أخي الأصغر دانيال المهاجر الى هناك حينها، ويقيم في مدينة أطلسية تدعى «غران بسام». وكان هناك مهاجرون لبنانيون كثيرون، معظمهم من الجنوبيين، وبالتحديد من مرجعيون وجبل عامل.

وجاء لزيارتي صديق لأخي يدعى ابراهيم بلال (أبو بشير) الذي راح يحدثني عن جبل عامل، وعن رواية قال إنه سمعها من والده، ومؤداها أن كبير علماء الشيعة آنذاك السيد عبد الحسين شرف الدين تلقى رسالة من الملك فيصل الهاشمي المعيّن ملكاً على سوريا دعا فيها شيعة جبل عامل الى الانضمام للدولة العربية في دمشق، لكن السيد عبد الحسين تكتم عليها، لأنه كان يعرف مدى المشاعر الوحدوية لأهل الجنوب، إلاّ أنه دعا نخبة من مشايخ الجبل الى خلوة أطلعهم فيها على رسالة فيصل. وقال لي أبو بشير، إن السيد عبد الحسين اختصر رفضه لدعوة فيصل بقوله للمشايخ: «قلنسوة مار مارون ولا لفّة معاوية». ولذلك، كما قال لي، فإن الشيعة هم الأحق بالشراكة مع الموارنة في لبنان، وأنهم حرموا منها قسراً بالتواطؤ مع فرنسا[6].

•••

كانت زيارتي الى ليبيا في حزيران/يونيو 1970 لتغطية القمتين، القمة العربية وقمة دول المواجهة، من الزيارات الفارقة التي تفتح الأعين. ويبدو أن السبب الداعي الى هذا التجمع العربي الواسع هو مشاركة العقيد معمر القذافي

---

(6) في مذكراته عن مرحلة الحرب اللبنانية تطرق الآباتي بولس نعمان الى الموضوع ذاته ناقلاً عن لسان كاظم الخليل شذرات عن الغبن اللاحق بالشيعة في أحقيتهم اللبنانية، حيث نقل عنه قوله: «كنت أود أنٍ يبدأ الوعي الشيعي في لبنان بالذات من خلال اتفاق بين الشيعة والمسيحيين». وقوله أيضاً: «إن الشيعة هم سلاح قوي ضد أعداء لبنان». الى أن قال: «إن الدولة اللبنانية تتآمر حتى الساعة مع السنّة على الشيعة، ولم تأت حكومة منذ الاستقلال عملت على تأمين حقوقهم». (الصفحات 284 ـ 286).

بالاحتفال بجلاء الأميركيين عن قاعدة «ويـلاس»[7] الجوية في طرابلس، لأن القمة العربية جاءت بعد أيام من إتمام الجلاء في 11 حزيران/يونيو من عام 1970.

وكانت هناك قاعدتان حربيتان في ليبيا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية: قاعدة «ويـلاس» الأميركية في طرابلس، وكان الأميركيون يسمونها «أميركا الصغرى على شواطىء المتوسط»، وأسماها الليبيون بعد الجلاء «قاعدة عقبة بن نافع» تيمناً بالقائد العربي الذي فتح شمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي، وقاعدة بريطانية بين بنغازي والجبل الأخضر أسماها الليبيون «قاعدة جمال عبد الناصر»، تيمناً بالرئيس المصري. وجلا البريطانيون من تلك القاعدة قبل الأميركيين بنحو ثلاثة أشهر، وتحديداً في 31 آذار/مارس 1970.

ولذلك كان لعقد القمة العربية في قلب القاعدة الأميركية السابقة قيمة رمزية ملحوظة. وأذكر أنني كنت أتمشى مع رياض طه في تلك القاعدة الفسيحة، بعد الغداء الرسمي الذي أقامه القذافي للوفود هناك، فمال النقيب طه الى أذني وقال هامساً: «كيف تظن أن الأميركيين تخلوا عن هذه القاعدة بسهولة؟». قال ذلك، وكأنه غير مصدِّق.

وقلت للنقيب طه: «إن اتفاقية انسحاب القوات الأميركية والبريطانية من قاعدتي طرابلس وبنغازي تمت في العهد الملكي أيام الملك إدريس السنوسي، وقطف القذافي ثمارها».

فقال رياض طه تعقيباً على ذلك: «لا بد أن الأمرين متلازمان، إذن». ويقصد بذلك الانسحاب والانقلاب.

وفي قاعة الطعام أثناء الغداء أُجلس الملوك والرؤساء والأمراء على مائدة واحدة منفصلة، وبقي القذافي واقفاً يساعد على خدمة ضيوفه، وأُجلس باقي أعضاء الوفود على موائد أخرى بدون بروتوكول، لكن في القاعة ذاتها. وقد جلس رياض طه قبالتي على المائدة، وكان الى جانبه الفريق عبد الجبار شنشل رئيس أركان الجيش العراقي في ذلك الوقت (أبو مها)، والى جانبي ضابط ليبي علمت أنه الرائد حمزة، وكان من الأعضاء القياديين في الثورة الليبية[8].

---

(7) هي في الأصل ومنذ مطلع العشرينات قاعدة جوية إيطالية باسم «قاعدة الملاحة الجوية»، وقد استخدمها الألمان في الحرب العالمية الثانية حتى احتلال الأميركيين لها في عام 1943. وقد غيّر الأميركيون اسمها في 17 أيار/مايو 1945 الى «قاعدة ويلاس» على اسم ضابط في سلاح الطيران الأميركي يدعى ريتشارد ويلاس قتل بتحطم طائرته في إيران.

(8) هو الرائد عوض حمزة من مدينة مصراتة، وكان صديقاً لمعمر القذافي في الكلية العسكرية، وانضما معاً الى تنظيم «الضباط الأحرار»، لكنه عند وقوع الانقلاب ضد الحكم الملكي في طرابلس كان منقولاً مع كتيبة عمر المختار التي يقودها الى سبها في الجنوب. ثم ما لبث القذافي أن أبعده مع ضباط آخرين ضمن محاولته الاستئثار بالسلطة وأبقاه في الإقامة الجبرية مدة 36 سنة كاملة. وفي نهايات الحرب الليبية التي أطاحت القذافي سمعته في حديث تلفزيوني مع قناة «ليبيا أولاً» يقول إن أولاده ولدوا وتخرجوا من الجامعة وهو في الإقامة الجبرية. ووصف علاقته الأولى

وفي خلال أحاديث المائدة المعتادة عن الطعام وأشياء أخرى غير سياسية، التفت الرائد حمزة مشيراً بيده الى مائدة الملوك والرؤساء، وقال:

«أترون هؤلاء؟»

قلنا له:

«نعم نراهم، ما بهم؟»

فقال بلهجة قاطعة فيها شيء من الإزدراء:

«هؤلاء كلهم خونة».

وحاول رياض طه أن يلطف الجو، فقال له:

«يا أخ، ألا تتساهل قليلاً؟»

فقال مشدداً أكثر من السابق:

«كلهم».

فقال رياض:

«يا سيدي كلهم، كلهم، وأمرنا لله».

وقضينا بقية الوقت صامتين ننتظر وقوف رؤساء الوفود لكي ننصرف.

وقد ذهب الوفد العراقي الى قمة طرابلس تلك في طائرتين. طائرة أقلت الوفد الرسمي برئاسة أحمد حسن البكر وتوجهت الى طرابلس مباشرة، وطائرة إعلامية حطت في بيروت لتقلني مع مدير إدارة «الكفاح» آنذاك حسن العزير، وهي طائرة روسية صغيرة وغير نفّاثة، وحطت أيضاً في بنغازي قبل استئناف رحلتها الى طرابلس.

وبعد انتهاء القمة العربية الموسعة، وحضور العرض الاحتفالي في القاعدة العسكرية، عزم الرئيسان اللبنانيان شارل حلو ورشيد كرامي على العودة الى بيروت، لأن لبنان لم يكن في عداد الدول العربية التي تصنف نفسها على أنها «دولة مواجهة». لكن القذافي أصر على الرئيس حلو أن يبقى يوماً إضافياً لكي يريه المدينة الرومانية الأثرية في «الخمس»، على بعد نحو مائة كيلومتر من طرابلس، وكان اسمها في العهد الروماني Leptis Magna، وقال له:

«لستم وحدكم من لديه قلعة رومانية. سوف أريكم ما هو أبدع من قلعة بعلبك».

وفي الحقيقة فإن تلك المدينة الرومانية في ليبيا، هي من أهم الآثار الرومانية القائمة حتى الآن. ويعود سبب فخامة وضخامة ساحاتها ومبانيها وأعمدتها الى

مع القذافي بأنها «علاقة عاطفية» وليست سياسية، وأن القذافي تحول من رجل متدين وقديس مستقيم السلوك قبل الثورة الى شيطان بعد وصوله الى السلطة واستئثاره بها بطرق غير أخلاقية، حيث كان مبتغاه إقامة «مملكة قذافية على غرار المملكة السعودية» حسب تعبيره (وهو أيضاً ما قيل لي في بغداد عن نظام صدّام كما سنرى لاحقاً). وقال الرائد حمزة في تلك المقابلة إن القذافي استقوى بجمال عبد الناصر والمد الناصري في البداية لكي يتمكن، ثم غير مساره بعد ذلك. بل إنه انقلب على الإسلام بحيث «أنكر السنّة بالكامل»، وقال إن القذافي أبلغه مرة «إن طواف المسلمين حول الكعبة هو حركة وثنية». ومما قاله أيضاً في تلك المقابلة التي أجهش بالبكاء في نهايتها: «إن القذافي كان يصنف الليبيين الى ثلاثة أصناف: الحمير، والكلاب، والجرذان».

كون الإمبراطور الروماني سبتيموس ساويروس في القرن الثاني الميلادي من أبنائها، فلما أصبح إمبراطوراً اهتم بها وبعمارتها اهتماماً خاصاً. وهي الآن قبلة السائحين من أنحاء العالم.

وتلك المدينة أسسها الفينيقيون القادمون من سواحل لبنان وسوريا في العام 1100 قبل الميلاد، لكن بعد الحرب البونية الثالثة بين روما وقرطاجة ضُمّت الى الجمهورية الرومانية غير أنها حافظت على استقلالها الى أن ضمها كلياً الإمبراطور تايبيريوس (الذي صُلب السيد المسيح في عهده)، وقد آلت اليه السلطة في روما كوريث لزوج أمه أوغسطس قيصر الذي ولد السيد المسيح في عهده.

•••

القمة العربية الموسعة انعقدت في قاعدة «عقبة بن نافع»، أما قمة دول المواجهة فقد انعقدت في مبنى مجلس الوزراء وسط العاصمة الليبية. وقبل أن تتحول الجلسات الى السرِّية وجدت نفسي في الغرفة ذاتها مع جمال عبد الناصر، فتأملته ملياً عندما ألقى نفسه على الأريكة الى جانب الرئيس السوري نور الدين الأتاسي، وكان الإرهاق بادياً عليه بوضوح، لكنه كان دائم الابتسام. وعندما شاهدته في قمة الرباط قبل أقل من سنة كانت المسافة بعيدة، فلم أستطع التأمل في ملامحه عن قرب كما كان الحال في طرابلس. ومع ذلك لم يخطر ببالي، ولا ربما ببال أحد أنه سوف يفارق الحياة بعد ثلاثة أشهر فقط.

وكان الوفد المصري يضم عدداً كبيراً من الصحافيين من بينهم زكريا نيل الذي راح يحث زملاءه على الأكل والاستمتاع بأطايب الضيافة الليبية، قائلاً لهم: «اغتنموا الفرصة، لأنه غداً سوف تأتي الاشتراكية ولن تجدوا في هذا البلد رغيف خبز».

وكان بذلك يوجه نقداً ساخراً للأحوال السائدة في مصر آنذاك.

وفي ردهة الفندق الذي نزلنا فيه، التقيت لأول مرة محمد حسنين هيكل رئيس تحرير «الأهرام» (ووزير الإعلام أيضاً)، فعرفني عليه رياض طه. وقال هيكل للنقيب طه:

«الآن سوف أعرفك على أهم ضابط في الجيش المصري، هو الفريق محمد فوزي، الذي يمثِّل نمطاً مختلفاً من العسكريين المحترفين، ويتولى مهمة إعادة بناء الجيش المصري».

وقال له رياض ممازحاً:

«لم نعد نصدق أن العسكريين العرب يملأون العين بعد هزيمة 1967».

وبدأت الحلقة تتسع في ردهة الفندق. وكان هناك مدير المخابرات في الجيش اللبناني غابي لحود الذي لم أكن رأيته من قبل في لبنان. وعندما وجد لحود أن هيكل يدخن السيجار أوعز الى أحد مرافقيه بأن يُحضر له من غرفته صندوق

سيجار «مونت كريستو باب أول»، وقدمه الى رئيس تحرير «الأهرام» الذي أخذه شاكراً.

والتقيت محمد حسنين هيكل مرة ثانية في أواسط الثمانينات في مكتب الزميل فؤاد مطر في لندن. وكان من عادة الزميل مطر أنه يدعوني كلما جاءه ضيف مرموق مثل محمود رياض الأمين العام السابق للجامعة العربية، أو محمد حسنين هيكل، وغيرهما. وكان من الطبيعي أن يدور الحديث عن الحرب العراقية ـ الإيرانية التي طال أمدها وراوحت في مكانها. وقلت في مداخلة لي في تلك الجلسة:

«ليس مهماً الآن أو مجدياً البحث في أسباب الحرب، أو في صحة مبرراتها أو عدم صحتها. المهم الآن البحث في أسباب إطالتها».

وسأل هيكل موجهاً الحديث لي:

«ولماذا في رأيك طالت الحرب؟»

قلت: «السبب الحقيقي الذي لا يتناوله أحد في وسائل الإعلام هو إسرائيل. فالحرب غيّرت أولويات الصراع في المنطقة، ومن مصلحة إسرائيل إضعاف الفريقين، وأفضل سبيل الى ذلك هو إطالة أمد الحرب. ثم إن إسرائيل التي دأبت على فتح ثغرة في جدار الأمن القومي للعراق في شماله من خلال دعمها للتمرد الكردي في مراحل مختلفة، تريد إزالة العراق من معادلة الصراع العربي ـ الإسرائيلي، أو جعله ظهيراً للأردن في الاتجاه الضاغط على الفلسطينيين من جهة، والضاغط من جهة ثانية باتجاه الصلح المنفرد بينها وبين الأردن بما يتلاءم مع مقتضيات أمنها. هذا في رأيي السبب الحقيقي لإطالة الحرب».

ولم يفتح أحد منا موضوع السجال الذي دار في عام 1970 قبل أكثر من خمسة عشر عاماً، وكانت تلك آخر مرة التقيت فيها هيكل. لكنني شاهدت بعض حلقاته على شاشة «الجزيرة» القطرية في السنوات الأخيرة. ورأيي في ما شاهدت من تلك الحلقات أن هيكل غاص كثيراً في التفاصيل المتعلقة بتاريخ مصر الحديث بحيث يضيع على المشاهد غير الملم بدقائق الأحداث التي يتحدث عنها تلمُّس المجرى العام لتلك الأحداث ومعانيها. وعلى الشاشة كما على الورق، يبدو لي أن الأستاذ هيكل تستهويه الجمل المعترضة، التي يستخدمها بصورة مفرطة، بحيث يدفع المشاهد، كما القارىء، الى التنقل بين فكرة وفكرة قبل استكمال أي منهما.

•••

بعد انتهاء القمتين الكبرى والصغرى في طرابلس وعودة الوفود من حيث أتت أجريت ترتيبات للسفر الى روما وباريس، وذهبت الى المطار. وعندما قدمت جوازي الى ضابط الأمن الليبي للخروج، فتحه وقلّبه ثم سألني:

«كيف دخلت الى ليبيا؟».

قلت له: «جئت مع وفد رسمي الى المؤتمر ودخلنا من غير أن يختم أحد جوازاتنا».

قال: «هل معك فلوس؟»

قلت: «معي 2600 دولار».

قال: «هاتها».

أعطيته فلوسي فوضعها داخل جواز السفر وتركني ودخل الى غرفة أخرى داخل قاعة المغادرة، وغاب نحو ربع ساعة. ثم عاد ومعه ضابط أرفع منه رتبة، فسألني الأسئلة ذاتها، وكان لطيفاً ومهذباً، ثم أعطاني الجواز مختوماً ومعه الفلوس، ودعاني الى الشاي في مكتبه ريثما يحين موعد الطائرة.

ومن تلك التجربة تعلمت أن أدقق في هذه الأمور التي قد تُدخل صاحبها في متاعب غير محسوبة. ففي مطلع الثمانينات، وكنت ما زلت أسافر بجوازي اللبناني، ذهبت في رحلة بالسيارة مع بعض الأصدقاء من مدينة «نيس» الفرنسية الى إيطاليا من «سان ريمو» الى «جنوا»، فإلى «فلورنسا»، و «بيزا»، و«سيينا». وعلى الحدود بين فرنسا وإيطاليا لم نجد ضابط أمن يراقب الدخول والخروج، فأصريت على التوقف والدخول الى المركز لختم الجواز.

وعندما كان الخط العسكري شغّالاً بين بيروت ودمشق في التسعينات، كنت كلما مررت على ذلك الخط أتوقف عند الحدود السورية لأختم الجواز في الدخول والخروج.

توقفت في روما يومين، وفي باريس ثلاثة أيام، ثم عدت الى بيروت حيث كانت معركة رئاسة الجمهورية محتدمة بين الشهابيين الذين يدعمون الياس سركيس، وبين المعارضة التي أيدت سليمان فرنجية. وكان الانقسام اللبناني يومها مشابهاً للانقسام الراهن بين فريق 8 آذار وعصبه حزب الله (مدعوماً من سوريا وإيران)، وبين فريق 14 آذار وعصبه «تيار المستقبل» لصاحبه سعد الحريري (مدعوماً من المملكة السعودية ومصر والأردن ومن خلفهم أميركا وإسرائيل). والفارق في الحالتين صوتٌ واحد، أو تعادلٌ معطِّل، تأسيساً لحرب جديدة.

وكنت أنا أيضاً منشطراً مثل لبنان. ميولي الموضوعية الى الشهابية، وعواطفي الشخصية نافرة من الياس سركيس بسبب تجربتي معه في البنك المركزي في السنة السابقة. ولم تكن لدي قناعة بتوجهات الحلف الثلاثي (شمعون، الجميل، إده)، الذي انضم اليه سليمان فرنجية فتبنوه للرئاسة. ولم أكن على معرفة شخصية بالرئيس فرنجية، لكن الزميل جان عبيد كان شديد الحماس له من الدورة الرئاسية السابقة في عام 1964، فتحمست لفرنجية على حماسة جان عبيد تحت شعار «جان عبيد دائماً على حق»، مستعيراً شعار فرنجية نفسه في مقاله المشهور في «النهار» بعنوان «وطني دائماً على حق».

وفي رحلتي الموسعة في الاتحاد السوفياتي في السنة التالية، أبلغني أحد المرافقين الروس في موسكو بأنه كان مرافق سليمان فرنجية في زيارته السوفياتية يوم كان وزيراً للاقتصاد قبيل انتخابه لرئاسة الجمهورية، مشيراً الى أن الوزير فرنجية «أكرمه»، مما اضطرني الى «إكرامه» بدوري من روبلات توفيق المتني التي لا تنفد.

•••

من أسباب ارتياحي في جريدة «الكفاح» وجود مدير التحرير محمد باقر شرِّي الى جانبي، لأنه رجل موثوق وأمين، ولديه فراسة ثاقبة في الأشخاص والأحوال. وفي الحقيقة كنت أستسيغ طريقته في الكتابة، مع أن بعض الزملاء لم تكن تروق له تلك الطريقة. فقد قال لي أحدهم مرة:

«إن صاحبك يكتب بالدبابيس لا بالأقلام». ووصفه آخر بأنه «باقر عقول القراء»!

ولم يكن عندي أي شك في مشاعره الوطنية والقومية والشخصية، وإن كانت لديه «فرادة» في التعبير عن تلك المشاعر.

وتعلمت من التجربة أنه لا يسعف رئيس التحرير شيء مثل أمانة وصدق مدير التحرير. ولسبب وجود محمد باقر شري معي في «الكفاح» كنت مطمئناً الى وجود عين ساهرة تقي من الأخطاء والتمريرات المغرضة. فنشأت بينه وبيني صداقة شدّت أواصر العلاقة المهنية، وبلورت وحدة المواقف القائمة على حرية الرأي ضمن تلك المواقف.

فكان شرّي يتحمل مسؤولية كل ما يصدر عني، وأتحمل كامل المسؤولية عما يصدر عنه، بروح من التعاون والتفاني قلّ نظيرها بين زملاء المهنة الواحدة. وقد صادفت مثل هذه العلاقة الصافية في لندن مع الزميل العزيز أنطوان شكر الله حيدر الذي يستطيع أن يوقِّع باسمي وأوقِّع باسمه في أي أمر.

وعن طريق محمد باقر شرّي تعرفت على شقيقه الشيخ محمد جواد شرّي مؤسس ورئيس المركز الإسلامي في مدينة ديترويت، بولاية ميشيغان الأميركية، ونشأت أيضاً صداقة بين الشيخ محمد جواد وبيني، فكان على اتصال معي بين حين وآخر. وفي عام 1978 دعاني اتحاد الطلاّب العرب في بريطانيا الى إلقاء كلمة في مؤتمر بجامعة مانشستر بمناسبة توقيع ميثاق العمل القومي بين سوريا والعراق، في عهدي الرئيسين حافظ الأسد وأحمد حسن البكر، وبحضور السفير العراقي هشام الشاوي والسفير السوري عدنان عمران.

ولم أركز في تلك الكلمة على الميثاق المذكور، لشعوري بأنه لن يصمد، لكنني توجهت الى الطلاّب بأطروحة فكرية حول «النخبوية» و «الطليعية»، والخط الفاصل بين النخبة والطليعة، والسمات الطبقية لكل منهما، وتأثيرهما

بالتوافق والتعارض على مسيرة الأمة والأحداث التي تعصف بها. ولاحظت وأنا أتحدث من على المنبر أنه ران صمت ملفت وعلى نقيض تام مما سبق ذلك من فورة حماس لميثاق العمل القومي، وشعرت وكأن عقول الطلاّب قد تبلبلت، لسماعهم شيئاً غير متوقع في تلك اللحظة السياسية الفوّارة، حيث كانوا يتوقعون خطاباً حماسياً وعاطفياً غير ذي موضوع.

والواقع أن هذا الموضوع لم أتطرق اليه لأول مرة في جامعة مانشستر، بل طرحته بشكل أقل نضجاً في محاضرة لي في بلدية بعلبك بدعوة من رئيس البلدية آنذاك حسين عثمان قبل مغادرتي لبنان الى أوروبا. وفور عودتي الى لندن من مانشستر وكنت متعباً ومرهقاً، تلقيت مكالمة هاتفية من الشيخ محمد جواد شرّي من فندق قريب من مطار «هيثرو»، وقال لي إنه سوف يبيت ليله هناك ليسافر الى أميركا في اليوم التالي، وقال إنه يريد أن يراني. ومن حسن الحظ أن بيتي ليس بعيداً كثيراً عن المطار، فتوجهت الى الفندق الذي ينزل فيه الشيخ محمد جواد وظني أنه عائد من بيروت، فرحت أسأله عن شقيقه محمد باقر، لكنه أبلغني أنه قادم من القاهرة، فلاحظ استغرابي لزيارة شيخ شيعي مرموق الى مصر، وقال إنه ذهب الى هناك بصدد بعض المطبوعات، وأن علاقة جيدة تربط بينه وبين الأزهر، وأن موضوع الوحدة الإسلامية هو من الأولويات التي يعمل من أجلها. وقد حزنت كثيراً عندما علمت بمرضه ثم بوفاته.

وعن طريق محمد باقر شرّي تعرفت أيضاً على المرحوم الشيخ عبد الحليم الزين الذي كانت لنا معه أيضاً جلسات ممتعة. وكانت رحلتي مع «الكفاح» قصيرة هي الأخرى لم تتجاوز السنتين، فالأشياء الممتعة والمريحة في بلادنا لا تدوم، لأنه مكتوب على تلك البلاد أن تعيش على خط الزلازل باستمرار.

V

في عرين «كاكا مصطفى»

كانت القضية الكردية، وما زالت، من أكبر التعقيدات في الوضع العراقي والإقليمي، بسبب امتداداتها في إيران وتركيا وسوريا أيضاً. وقد تعرّفت مبكراً على المسائل المتعلقة بتلك القضية من خلال احتكاكي مع الضباط الأكراد المبعدين الى الجنوب في العهد القاسمي، وخصوصاً من خلال صداقتي مع سالم الحاج عيسى، ومن خلاله تعارفي مع الرئيس محمد أمين، ثم تالياً في بيروت مع الدكتور محمود عثمان، المستشار المقرّب في ذلك الوقت من الملا مصطفى البارزاني، زعيم الحركة الانفصالية الكردية في شمال العراق.

لكن التعاطي الأول لي مع المسألة الكردية كان من خلال عملي في رئاسة تحرير مجلة «الأحرار» عام 1969، عندما زرت بغداد لأول مرة بعد عودة حزب البعث الى السلطة هناك. ففي تلك الزيارة اتصلت بطارق عزيز الذي كان رئيساً لتحرير جريدة «الثورة» الناطقة بلسان الحزب، فدعاني الى العشاء في أحد نوادي بغداد، وكان ثالثنا غانم عبد الجليل، العضو القيادي في الحزب الذي كان لا يزال وقتها موظفاً في البنك المركزي العراقي. وقد جلسنا الى طاولة منفردة في الحديقة لم يكن فيها أحد غيرنا.

خلال الحديث ألمح طارق عزيز الى حل ما لوقف الحرب الكردية في الشمال من خلال بحث أعده عن الموضوع وبدأ بنشر خلاصة عنه. ولذلك لم أفاجأ عندما أعلن مجلس قيادة الثورة، بعد اتفاق الحكم الذاتي للأكراد في عام 1970، أن غانم عبد الجليل جرى تعيينه محافظاً لكركوك، كأول منصب حكومي رفيع يتسلمه بعد وظيفته المتواضعة في البنك المركزي. وعلى طريقته في تناول الأشياء الحساسة، أشار طارق عزيز بأن تناول القضية الكردية وطرحها على بساط البحث في بيروت قد يكون مفيداً. لكنني لم أكن أعرف أن المسألة قد أوشكت على الوصول الى نقطة فاصلة. وفي تقديري أن طارق عزيز كان يعرف أكثر بكثير مما أفصح لي عنه، لأنه لعب دوراً أساسياً في الديبلوماسية غير الرسمية التي أدت الى اتفاق 1970 مع الأكراد كما علمت لاحقاً.

ولما عدت الى بيروت كتبت في «الأحـرار» موضوعاً «حيادياً» في معالجة

المشكلة الكردية، لأنني لم ألمس شيئاً يدل على أن حزب البعث في لبنان، أو حتى ميشال عفلق، على اطلاع كاف على ما يجري حول هذا الموضوع، بدليل أن بعض الحزبيين المعنيين في لبنان خاف أن يؤدي طرحي للموضوع الكردي الى مشكلة على غرار ما جرى في العدد الأول بشأن الموضوع السعودي، كما مرّ. لكن الموضوع المنشور كان في العموميات الى درجة أنه يصلح للنشر في أي مكان وزمان، إنما طرح الموضوع بحد ذاته، وفي مطبوعة محسوبة على العراق، يثير المخاوف. وفي النتيجة مر الموضوع من غير أن يثير أي تساؤلات تذكر، خصوصاً بعدما لمس الوسط الحزبي في كل مكان أن اللهجة العراقية الرسمية بدأت تتغير كلما اقترب الوقت من السنة الجديدة.

ما علمته فيما بعد أن اتفاق 1970، المعروف باسم «اتفاق الحكم الذاتي للأكراد في إقليم كردستان»، كان بفعل ضغط سوفياتي على الفريقين لإحلال السلام في شمال العراق. وقد اشترط السوفيات على النظام البعثي في بغداد وقف ملاحقة الشيوعيين العراقيين وإشراكهم في السلطة، لقاء المساعدة السوفياتية على وقف الحرب الكردية ضد الجيش العراقي، وإعادة تسليح هذا الجيش بأسلحة سوفياتية متطورة، وعقد معاهدة صداقة بين الاتحاد السوفياتي والنظام البعثي. وقد نفذ الاتحاد السوفياتي ما تعهد به على أكمل وجه، لكن ضم الشيوعيين الى الحكومة العراقية بقي شكلياً وقصير الأجل.

وأذكر من تلك المرحلة أن طارق عزيز جاء الى بيروت وبصحبته عامر عبد الله، عضو قيادة الحزب الشيوعي المعين وزيراً في حكومة «الجبهة الوطنية التقدمية»، فزاراني في مكتبي في «الأحرار» وتناولنا بعدها الغداء في مطعم قريب من شارع الحمرا في راس بيروت. وخلال الغداء طرح عامر عبد الله موضوع الحذر العربي من التعاطي مع الاتحاد السوفياتي، وكأنهم يتعاطون معه غصباً عنهم على الرغم من وقوفه مع العرب بشكل قوي، وقطعه العلاقات مع إسرائيل بعد حرب 1967 واحتلالها للأراضي العربية، ومعه كامل أعضاء الكتلة الاشتراكية[1].

فقلت لعامر عبد الله:

«قطع العلاقات مع إسرائيل خطوة جيدة، لكن لماذا لا يسحب الاتحاد السوفياتي اعترافه بالدولة اليهودية نهائياً».

فانتفض عامر عبد الله قائلاً:

---

(1) كان عامر عبد الله الذي توفي في عام 1999 من الشخصيات الوطنية العراقية المتميزة وليس فقط في الحزب الشيوعي الذي انخرط فيه منتصف الخمسينات من القرن الماضي الى جانب عزيز شريف، لأنه كان يسعى دائماً الى الحوار مع الآخرين من زمن عبد الكريم قاسم الى زمن صدام حسين. وقد ترك قبل رحيله أثراً سياسياً نقدياً مهماً حول أسباب انهيار الاتحاد السوفياتي والنظام الاشتراكي في كتاب عنوانه: «مقوِّضات النظام الاشتراكي العالمي». وكان له موقف متميز في الحرب العراقية ـ الإيرانية حيث انتقد العراقيين المتعاونين مع الإيرانيين ضد القوات العراقية مع أنه كان معارضاً لنظام صدام وللحرب.

«يا أخي يبدو أن العرب يريدون أن يحارب الآخرون عنهم. فكيف يكون ذلك والدول العربية كلها تعتبر أن الاتحاد السوفياتي هو أبغض الأصدقاء، وأن أميركا هي أحب الأعداء. هل تريد أن يكون السوفيات عرباً أكثر من العرب».

فضحك طارق عزيز لهذا التعبير، وقال:

«فلنفترض أن المعادلة مقلوبة حيث أميركا هي أبغض الأصدقاء بينما الاتحاد السوفياتي هو أحب الأعداء، فماذا سيكون موقف رفاقنا الشيوعيين في هذه الحالة».

فقال عامر عبد الله:

«إذا بقي الوضع العربي على هذا الحال فإن ذلك سوف يحصل حتماً. تمشي الدول العربية مع أميركا وهي تشتمها، وتعتبر الاتحاد السوفياتي والشيوعية أعداء للعرب والإسلام وهي تتوق الى دعمه لها وتأييده لقضاياها».

وبعد الغداء اقترح عامر عبد الله أن نذهب الى السينما، فذهبنا مشياً على الأقدام الى سينما «إلدورادو» حيث شاهدنا فيلماً فرنسياً. ثم علمت أن السوفيات بدأوا ديبلوماسيتهم السرِّية لوقف الحرب الكردية في شمال العراق عام 1970، بصورة غير رسمية من خلال غطاء صحافي. حيث أوفدت الاستخبارات السوفياتية الى بغداد الصحافي يفجيني بريماكوف[2]، الذي يتقن اللغة العربية، ليجري اتصالات تمهيدية مع العراقيين من خلال أبرز صحافييهم في ذلك الوقت وهو طارق عزيز المقرب من صدام حسين نائب الرئيس أحمد حسن البكر.

وذكرت المصادر الروسية بعد سقوط الاتحاد السوفياتي أن الإسم السرّي الذي اتخذه بريماكوف في ذلك الوقت هو «ماكس» أو «ماكسيم».

ومع أن طارق عزيز في العشاء البغدادي معي ومع غانم عبد الجليل لم يُشر لا من قريب ولا من بعيد الى وجود بريماكوف في بغداد، أو الى أي مسعى خارجي بهذا الخصوص، إلاّ أن طرحه للموضوع الكردي في ذلك العشاء، أشعرني بأنه مطّلع على جوانب عديدة من المشكلة.

والمعروف أن الاتحاد السوفياتي تعاطى مع المشكلة الكردية منذ بداياتها الأولى، وربما استخدمها ورقة للضغط على الغرب في مناطق النفط في إيران والعراق. بحيث يمكن القول بأن القضية الكردية بدأت مسيرتها مع الاتحاد

(2) يفجيني بريماكوف صحافي وديبلوماسي وسياسي روسي يمت بصلة قرابة الى رئيس الحكومة السوفياتية آنذاك ألكسي كوسيغين. بعد تخرجه من كلية الدراسات الشرقية في معهد العلوم عمل في الصحافة من عام 1956 الى عام 1970 لدى الإذاعة السوفياتية أولاً ثم مراسلاً لجريدة «برافدا» الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي في الشرق الأوسط لكونه يتقن اللغة العربية. ثم تبوأ مراكز أمنية وسياسية حساسة، حيث أصبح مديراً للمخابرات ووزيراً للخارجية ثم رئيساً للحكومة في عهد غورباشوف. وقبل الغزو الأميركي للعراق نقل رسالة من الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الى الرئيس العراقي صدام حسين دعاه فيها الى الاستقالة الطوعية، لكن صدام لم يستجب.

السوفياتي قبل أن تنتهي في أحضان أميركا وإسرائيل وشاه إيران، حسب المعادلة المقلوبة لعامر عبد الله تبعاً لفرضية طارق عزيز المشار اليها.

وليس غرضي هنا استعراض تاريخ الحركة الكردية من أيام الشيخ محمود البارزنجي[3] في العشرينات، والثورات المتعاقبة التي أخمدها الإنكليز أثناء انتدابهم على العراق، ومنها ضربهم بالغازات السامة بأمر من وينستون تشرشل، وزير الدفاع البريطاني آنذاك، أي قبل أكثر من نصف قرن على اتهام صدام حسين باستخدام الغازات المحرمة دولياً ضد الأكراد في نهاية الحرب مع إيـران. لكنني أتوخى إيضاح بعض المسائل والحوادث التي عرفتها من مصادرها، أو التي خبرتها بنفسي، ومنها لقائي مع الملا مصطفى البارزاني في مقره في منطقة «حجي عمران» على مقربة من الحدود الإيرانية فور توقيع اتفاقية الحكم الذاتي مع الحكومة العراقية في آذار/مارس من عام 1970.

ويبدو لي أن اللعبة الأخطر التي لعبها السوفيات في الورقة الكردية كانت على زمن عبد الكريم قاسم، وكنت يومها أعمل في جنوب العراق وعلى تماس مع الضباط الأكراد المبعدين، كما مر، ومنهم سالم الحاج عيسى، الدارس في الأكاديميات العسكرية السوفياتية. وهو وإن كان ضابط مدفعية في الأصل، إلا أنه خضع لدورة متخصصة في «الطوربيد» في تلك الأكاديميات.

والمعروف أن الملا مصطفى البارزاني نفسه درس في الأكاديميات العسكرية السوفياتية حيث أعطي رتبة «جنرال»، وذلك بعد فراره من إيران ولجوئه الى موسكو عندما سقطت «جمهورية مهاباد» في كردستان الإيرانية نتيجة لاتفاقية يالطا بين ستالين وروزفلت وتشرشل، عندما تقرّر سحب الجيوش السوفياتية من المنطقة الكردية في إيـران حيث أقيمت الجمهورية المذكورة بحماية ستالين، وترأسها البارزاني الذي جاء من العراق لمساندة الحركة الاستقلالية الكردية الإيرانية بقيادة الغازي محمد[4] في خلال الحرب العالمية الثانية.

فقد جرت في عهد عبد الكريم قاسم تحولات عديدة، بعضها لم يكن منظوراً. ومن ذلك العلاقة الملتبسة بين قاسم وبين الشيوعيين، حيث الفكرة السائدة حتى اليوم أن عهد قاسم كان عهداً شيوعياً بامتياز، وهو ما روجته بشكل خاص الدعاية الناصرية في عهد الوحدة مع سوريا بعد فشل محاولة التمرد التي قادها عبد الوهاب الشواف من كركوك والموصل. ذلك أن التمادي والتطرف

(3) محمود البارزنجي هو شيخ الطريقة القادرية في مدينة السليمانية الكردية في شمال العراق، وقد قاد عدة انتفاضات كردية ضد الانتداب البريطاني على العراق، وأعلن نفسه مرتين ملكاً على مملكة كردية مستقلة.

(4) الغازي محمد، أو القاضي محمد، هو رئيس الحزب الديموقراطي الكردستاني الإيراني الذي تأسس خلال الحرب العالمية الثانية بديلاً من «مجلس الإحياء الكردي»، وهو الذي أعلن جمهورية مهاباد وأصبح أول رئيس لها قبل أن يحل الملا مصطفى البارزاني محله، ولم تدم تلك الجمهورية سوى 11 شهراً.

الذي مارسه الشيوعيون في أعقاب تلك الحركة أعطى انطباعاً بأن ما فعله الشيوعيون هو بدعم وتوجيه من عبد الكريم قاسم.

والحقيقة هي أن عبد الكريم قاسم بعد الفظاعات التي ارتكبها الشيوعيون، أو ارتكبت باسمهم، على الأرجح، بعد حركة الشوّاف، بدأ ينتهج سياسة تقليم أظافر الحزب الشيوعي العراقي بصورة تدريجية وصولاً الى منع الاعتراف القانوني به بموجب قانون الأحزاب لعام 1960، بينما سمح لشيوعي منشق عن الحزب هو داوود الصايغ[5] بتسجيل حزبه تحت اسم «الحزب الشيوعي العراقي»، كذلك سمح في المناطق الشيعية حيث الانتساب الأكبر للحزب الشيوعي بنشر فتوى مرجعية النجف بقيادة السيد محسن الحكيم القائلة بأن «الشيوعية كفر وإلحاد»، كما حلّ بعض الجمعيات الأهلية والاتحادات النقابية التي كان يسيطر عليها الشيوعيون. وهكذا جعل قاسم الشيوعيين تحت رحمته بعدما اعتقد كثيرون أنه كان تحت رحمتهم.

وعندما ذهبت الى العراق في عام 1961 بعد اندلاع الحرب الكردية في الشمال، كانت الحملة الرسمية على الشيوعيين ملحوظة وظاهرة للعيان، وهو ما أعطى فسحة للأحزاب والحركات القومية الحاقدة على الشيوعيين من أيام حركة الشوّاف لكي توسع نشاطها وتطل برأسها من جديد مستفيدة من التناقض الحاصل بين عبد الكريم قاسم وحلفائه السابقين.

في بداية ثورة 14 تموز التي أطاحت النظام الملكي الهاشمي عام 1958، عاد الملا مصطفى البارزاني الى بغداد من منفاه في موسكو، فاستقبله عبد الكريم قاسم أحسن استقبال ووعده بنوع من الحكم الذاتي والاهتمام بأحوال الأكراد في المناطق الشمالية من البلاد. لكن قاسم تلكأ في تنفيذ وعوده بسبب ما حل بحكمه بعد حركة الشواف، فاستغل البارزاني نقطة الضعف هذه وراح يضغط باتجاه الافتراق مع النظام القائم، بتشجيع من الاتحاد السوفياتي بعد انقلاب قاسم على الشيوعيين التابعين لموسكو.

وعندما بدأت «البشمركة» البارزانية تتحرش بالجيش العراقي، شعر قاسم بضعف موقفه العسكري لسببين جوهريين:

أولهما، ضعف تسليح الجيش وتمنع الاتحاد السوفياتي عن تزويده بالسلاح والذخيرة.

---

(5) داوود الصايغ محام مسيحي من بغداد كان من الأعضاء المؤسسين للحزب الشيوعي العراقي في مطلع ثلاثينات القرن الماضي (مع «فهد» الذي أعدمه نوري السعيد)، ثم انشق عن الحزب لخلاف مع «فهد» ليعود ثانية الى صفوف الحزب، حيث طرد من جديد في عام 1958. وعندما أعطاه قاسم ترخيصاً باسم «الحزب الشيوعي العراقي» حاول الشيوعيون استيعابه من خلال مفاوضات قادها بهاء الدين نوري (أمين عام الحزب من 1949 الى 1953). وقد اشترط الصايغ طرد بعض القيادات التي عملت على طرده من الحزب سابقاً، وتحديداً سلام عادل (حسين الراضي)، وجمال الحيدري، وأمير عبد الله، فرفضت شروطه. لكن الحزب في مرحلة لاحقة قبل تلك الشروط وأعفى المذكورة أسماءهم من مناصبهم، لكن الصايغ هو الذي رفض هذه المرة.

وثانيهما، خوف عبد الكريم قاسم من انقلاب عسكري ضده، الأمر الذي دفعه الى إرسال الجيش للقتال من دون ذخيرة كافية، لأن تقنين الذخيرة كان سياسة متعمدة، وليس فقط بسبب الشح. ولذلك، راح قاسم يستخدم سلاح المال لاستمالة بعض الأكراد ووضعهم في وجه البارزاني. وقيل لي عندما كنت في العراق آنذاك إن الأكراد المتعاونين مع الجيش العراقي، ومعظمهم من الزيباريين، كانوا يسمونهم «الجحوش».

الشيء الذي قلما يتحدث عنه الباحثون العرب في تلك المرحلة هو الدور الذي لعبه جمال عبد الناصر في العراق قبل الحرب الكردية وأثناءها. فقد بدأت حركة الشواف بدعم من الجمهورية العربية المتحدة الوليدة التي ضمت سوريا ومصر بقيادة عبد الناصر. وكان منسق التدخل الناصري في شمال العراق عبد الحميد السرّاج. فقد كان كثيرون من العروبيين والناصريين بعد نجاح الثورة العراقية على النظام الملكي الهاشمي يتوقعون انضمام العراق الى الجمهورية العربية المتحدة مراهنين على عبد السلام عارف، لكن إبعاد عارف خيّب تلك الظنون.

وعند هذا المفترق الغامض، وعلى الرغم من الموقف السوفياتي السلبي من الجمهورية العربية المتحدة، والموقف الرافض للوحدة من قبل الحزب الشيوعي السوري بقيادة خالد بكداش (وهو كردي)، والتنكيل الناصري بالشيوعيين في مصر، فإن الاستخبارات السوفياتية أقنعت عبد الناصر بدعم تمرد مصطفى البارزاني في شمال العراق لقاء وعدين خطيرين في تلك المرحلة: الأول يقضي برفع مستوى تسليح الجيش (المصري والسوري)، والثاني والأهم هو ضم العراق العربي غير الكردي الى الجمهورية العربية المتحدة.

وبناءً على ذلك تورط عبد الناصر في الحرب الى جانب الأكراد البارزانيين ضد نظام عبد الكريم قاسم، لكنه ليس معروفاً الى اليوم مدى هذا التورط وحجمه وكيفية ممارسته. أما الموقف السوفياتي الذي بقي سراً الى فترة طويلة، فهو من هندسة مدير الاستخبارات (كي جي بي) آنذاك ألكسندر شيليبين الذي قدم مطالعة حول الموضوع الى الزعيم السوفياتي آنذاك نيكيتا خروشوف تتضمن الأسباب الموجبة للتدخل السوفياتي في العراق بغطاء ناصري، وفي مقدمها الضغط على المصالح النفطية الغربية في العراق وإيران، والضغط على تركيا بسبب القواعد العسكرية الأميركية القريبة من الحدود العراقية. وقد جرت الاتصالات السوفياتية مع عبد الناصر بصورة غير رسمية أيضاً على غرار ما حدث تالياً مع الحكومة العراقية البعثية عن طريق الصحافي بريماكوف إياه[6].

(6) ألكسندر شيليبين هو عضو اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي، وقد أسندت اليه رئاسة الاستخبارات من 25 كانون أول/ديسمبر 1958 حتى 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1961. وكان من المتوقع أن يحل محل خروشوف بدعم من فلول

بعد الانقلاب السوري على عبد الناصر وانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة، تحسنت ظروف عبد الكريم قاسم قليلاً، فعقد اجتماعاً حدودياً مع ناظم القدسي، الرئيس السوري آنـذاك، للتنسيق معه في الأمر، ومعرفة مدى وماهية تدخل عبد الناصر، عن طريق الإقليم السوري، في الحرب الكردية في المرحلة السابقة. لكن شهر العسل بين قاسم والقدسي لم يدم طويلاً لأن حزب البعث في سوريا والعراق نجح في الوصول الى السلطة في البلدين بفارق شهر واحد بينهما (8 شباط/فبراير 1963 في العراق، و8 آذار/مارس 1963 في سوريا).

وعادت سوريا البعثية الى التدخل في الحرب الكردية لكن بصورة علنية هذه المرة عندما أرسلت فرقة من الجيش السوري الى العراق بقيادة اللواء فهد الشاعر، الذي أطلق عليه عبد الناصر لقب «الأخ فهد»، في أحد خطبه الشاجبة لحكم البعث في دمشق. لكن بعد انقلاب عبد السلام عارف على البعثيين في العراق انسحب الجيش السوري، ثم عقد عارف مع البارزاني هدنة خرقها الأكراد بعد مقتله بسقوط مروحية عسكرية كان يستقلها.

وفي الحرب الكردية المتجددة في عهد الرئيس عبد الرحمن عارف، الذي تسلم السلطة بعد مقتل شقيقه، أصيب الجيش العراقي بنكسة كبيرة في معركة جرت عام 1966 في منطقة «راوندوز» بالقرب من جبل «هندرين»، وقد زرت تلك المنطقة وتجولت فيها مروراً بالوادي الكبير المعروف باسم «قلي علي بيك» في طريق العودة الى كركوك بعد لقاء الملا مصطفى عام 1970.

بعد زيارتي إقليم كردستان العراقي في أعقاب اتفاقية الحكم الذاتي بين صدام حسين والملا مصطفى البارزاني، بقيت مهتماً بتطورات الشأن الكردي، وحاولت دراسة الموضوع في نواحيه الجيوستراتيجية، ومن منظور تاريخي، فخرجت بخلاصة مفادها أنه من المتعذر على الأكراد، مهما حاولوا، أن يقيموا دولة كردية مستقلة خاصة بهم. فالمراجع التاريخية القديمة كلها تُجمع على ذلك. والحالتان الوحيدتان اللتان قام فيهما ما يشبه الدولة الكردية في العصور الحديثة، هما: «جمهورية مهاباد» في إيران بدعم من الزعيم السوفياتي جوزف ستالين، وانهارت بانسحاب الجيوش السوفياتية من الأراضي الإيرانية بموجب اتفاقية يالطا في أعقاب الحرب العالمية الثانية، و«جمهورية أراراط» التي أقيمت في شمال شرق تركيا وقادها حزب كردي - أرمني، بعد انتفاضة في مقاطعة «قراقوز» قادها الجنرال إحسان نوري باشا، لكن الأتراك قضوا عليها وأعدموا رموزها. أما في العصور القديمة فقد كان هناك ما يشبه الدولة الكردية عندما قامت الدولة الكاكاوية في إصفهان في القرن الحادي عشر الميلادي بقيادة

الستالينيين الذين عارضوا انتخاب بريجنيف بحجة أنه ما الفائدة من إطاحة خروشوف إذا لم تكن الغاية هي العودة الى الستالينية.

جعفر علاء الدولة بن كاكويا، الذي عمل الشيخ الرئيس ابن سينا وزيراً له لفترة من الزمن، لكنه كان أيضاً تحت وصاية الدولة البويهية، كما كانت مهاباد تحت الوصاية السوفياتية.

فالمصادر العربية من المقدّسي الى ابن حوقل والبلاذري، والمراجع الغربية من إدوارد غيبون الى البروفسور المعاصر ريتشارد فراي في كتابيه المشهورين «التراث الفارسي» و «العرب في الشرق: العصر الذهبي لبلاد فارس»، تصف الأكراد بأنهم قبائل جبلية تعيش على الغزو والسطو على القوافل التجارية، وأنه لم يكن لهم دولة أبداً، بل إن المراجع المعاصرة تجزم بأنه لن تكون لهم دولة في أي وقت. ويستغرب البعض في هذه الأيام الصلة الوثيقة لكردستان العراق بالإسرائيليين منذ آخر تمرد للبارزاني ضد النظام العراقي، لكن مثل ذلك حدث من قبل عندما كان الأكراد مع يهود الخزر في جبال القوقاز يهاجمون أذربيجان الإيرانية معاً.

ويستشهد البروفسور فراي بالمؤرخ العربي المقدّسي الذي يؤكد أن اليهود في بلدات الجبال كانوا أكثر عدداً من المسيحيين، ويقول:

«في الجبال كان الأكراد أكثر تمدداً في القرنين التاسع والعاشر مما هم عليه الآن، ومن الواضح أنهم كانوا ناشطين في السياسة المحلية. ويفترض المرء أن حياة سكّان كردستان لم يطرأ عليها أي تغيير الى اليوم. وهناك مراجع عربية عديدة تخبرنا بأن توجه الأكراد هو الى غزو المدن والقوافل التجارية والعودة بالغنائم الى الجبال».

وحتى عندما اتفق الحزبان الكرديان الرئيسيان في كردستان العراق، الحزب الديموقراطي الكردستاني (البارتي) بقيادة مسعود البارزاني، والاتحاد الوطني الكردستاني بقيادة جلال الطالباني، على صيغة وفاقية في واشنطن بإشراف الخارجية الأميركية عام 1998 بعد استعانة مسعود البارزاني بصدام والجيش العراقي لرد غزوة قوات الطالباني لمناطقه في عام 1996، شكك المعلقون الأميركيون بأي التزام جدي للولايات المتحدة بقضية الاستقلال الكردي، ومنهم من قال إن التأييد الأميركي للأكراد هو تأييد لفظي خال من أي مضمون فعلي.

وتعليقاً على اتفاق واشنطن بين أكراد العراق، قال آلان ماكوفسكي، المسؤول السابق في وزارة الخارجية الأميركية في 29 أيلول/سبتمبر 1998:

«إنه موضع تساؤل، في أحسن الأحوال، ما إذا كان الاتفاق سوف يساعد أو يقوِّض الأهداف المعلنة. وما إذا كان التأييد اللفظي الأميركي المتزايد لأكراد العراق، وهو ما جعل الاتفاق ممكناً، قابلاً للإدامة».

•••

كنت كلما طرح أحد موضوع الأكراد على بساط البحث أسأل:

لماذا يقع الأكراد في المطب ذاته فيدفعون كل مرة ثمناً كبيراً ويقدمون تضحيات جسيمة، ثم يعيدون الكرّة، ولماذا يركزون مطالبهم على العرب والعراق تحديداً، مع أن العرب هم الأكثر تفهماً لهم؟

في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام 1991 التقيت في ردهة الصحافيين على هامش مؤتمر السلام في مدريد بين العرب وإسرائيل برعاية أميركية ـ روسية مشتركة، صحافياً تركياً أظن أنه كان يراسل جريدة «حرِّيت»، وسألته عن رأيه في مؤتمر مدريد وجدية تعاطيه مع حل القضية الفلسطينية، فقال:

«الفضل في انعقاده يعود الى صدامٍ حسين».

قلت: «لكن صدام حسين ليس ممثلاً فيه، بل هو يعارضه في تقديري»

قال: «هذا صحيح، لكن لولا هجومه على الكويت لما تحركت القوى العالمية في هذا الاتجاه»

ثم انتقل الحديث الى المسألة الكردية في تركيا، بالنظر الى تحركات عنفية واسعة كان يقوم بها في الأناضول وديار بكر «حزب العمال الكردستاني» بقيادة عبد الله أوجلان المدعوم من سوريا آنذاك. فقال لي:

«إن مشكلة الأكراد هي في زعمائهم».

قلت: «يعني إذا انتهى عبد الله أوجلان تنتهي المشكلة. ها قد انتهى الملا مصطفى البارزاني في العراق ولم تنته المشكلة».

قال: «ليس هذا ما قصدته. ما قصدته هو أن الزعماء الأكراد يستغلون شعبهم ويعللونه بآمال غير قابلة للتحقق في الواقع، ليبيعوا الخدمات للدول، فيحصلون لقاء أعمال التخريب السياسي لصالح تلك الدول على أموال يواصلون من خلالها السيطرة على شعبهم. وهكذا. هذا عبد الله أوجلان يحصل الآن على دعم سوري لهدف سياسي ظرفي غايته التخريب في تركيا والضغط عليها، ومتى انتهت الأسباب الموجبة لذلك يتخلّى عنه السوريون ليبحث عن مصدر آخر للدعم في دولة أخرى. أنظر الى مسيرة البارزاني ترى الصورة مكبّرة. بدأ مع الاتحاد السوفياتي في إيران وانتهى مع الولايات المتحدة وإسرائيل وشاه إيران في العراق. هم دائماً على هذا المنوال».

قلت للصحافي التركي:

«لكن للشعب الكردي مطالب محقة من نواح عديدة، وإن كان من الصعب موافقتهم على الانفصال في دولة مستقلة».

قال: «مطالبهم المحقة هي جزء من مطالب شعوب المنطقة أيضاً، لكنه حق يراد به باطل».

قلت: «وما المشكلة، إذن؟».

قال: «في العشائرية الكردية التي تتصرف بالأكراد على أنهم قطعان للذبح. إن الزعماء الأكراد يتصرفون بشعبهم وكأنه شعب فائض عن اللزوم».

أعجبتني عبارة الزميل التركي الأخيرة، «شعب فائض عن اللزوم»، ورحت أستعرض في ذهني المجازر التي تحدث في أنحاء متفرقة من المعمورة بغير انقطاع، لعلني أحصي الشعوب الفائضة عن اللزوم في هذا العالم.

•••

كانت رحلتي الى أقاصي شمال العراق في مطلع صيف 1970 للقاء الملا مصطفى البارزاني في مقره في منطقة «حجي عمران»، ممتعة ومثيرة.

لم أكن وحدي، إذ اصطحبت معي الزميل فريد الخطيب، الذي كان يومها في عداد فريق «الأحرار».

في بغداد التقينا بعض الصحافيين المصريين الذين وفدوا أيضاً الى العاصمة العراقية ليسافروا الى الشمال للقاء البارزاني. فلم يكن عددنا عندما توجهنا الى كركوك يتجاوز الخمسة صحافيين.

في ذلك الوقت كان محافظ كركوك غانم عبد الجليل. فذهبنا الى مقره للسلام عليه وإجراء الترتيبات اللازمة للانتقال الى مقر البارزاني. فأحالنا الى آمر القاعدة الجوية في كركوك ليجهز لنا طائرة هليكوبتر تقلنا الى غايتنا لأنه ليست هناك وسيلة نقل أخرى متاحة في تلك الجبال الوعرة.

قضينا ليلة في كركوك حيث أقام لنا آمر القاعدة العسكرية حفل عشاء في نادي الضباط، ورحنا نتحدث معه عن طبيعة شمال العراق، وعن العمليات العسكرية في الجبال. ومما قاله لنا في تلك السهرة إن أشق التدريبات التي يقوم بها الجيش العراقي هناك هي تسلق الجبال، وأن فرق التسلق في الجيش العراقي تعدُّ من أهم الفرق العسكرية في البلدان الجبلية. وقال إنهم استضافوا مرة مجموعة من الضباط المصريين للتدرب على التسلّق، فأخذوا يتململون من اليوم الأول بعدما أيقنوا أن العملية ليست نزهة. وقال الآمر العراقي، إن الإخوان المصريين بدأوا يشككون بجدوى تلك التدريبات بالنسبة اليهم، بالقول: «إحنا ما عندناش جبال، أمّال نتدرب على التسلق ليه». فضحكنا لهذه الحكاية، لكن الصحافيين المصريين الموجودين لم يرق لهم ذلك.

في صباح اليوم التالي انتقلنا الى القاعدة الجوية في كركوك، فوجدنا طائرة هليكوبتر روسية الصنع في انتظارنا، بحضور الآمر وبعض الضباط ومنهم الطيّار ومساعده. وكان بين الصحافيين المصريين واحد يعمل في مجلة «آخر ساعة»، أظن أن اسمه ابراهيم حافظ، يخاف من الطيران. فلما شاهد الطائرة المروحية التي ستقلنا ساورته المخاوف وراح يسأل عن إمكانية السفر بوسيلة أخرى، فقالوا له إن الوسيلة الأخرى الوحيدة هي البغال في الممرات الجبلية، لكن ذلك يستغرق 48 ساعة على الأقل، فضلاً عن أن الرحلة البرية على البغال ليست مأمونة.

ورحنا نمازحه بالقول الى آمر القاعدة ما إذا كان ممكناً تدريب الزملاء

المصريين على التسلق لقطع المسافة سيراً على الأقدام. لكن الآمر طلب من قائد الطائرة أن ينزل، وأمسك بالزميل المصري الخائف من يده، وصعد الى المقود وأجلسه الى جانبه، وبقينا نحن على الأرض، وطار به في جولة حول القاعدة ليكسر خوفه ويشرح له أن تلك الطائرة بالذات مأمونة ومجرّبة وليست معقّدة كالطائرات الأميركية والفرنسية. استغرقت جولة التجريب أكثر من ربع ساعة، ظننا بعدها أن الزميل من «آخر ساعة» سيعود مرتفع المعنويات، لكن تطمينات الآمر لم تكن كافية لتطمينه.

وفي الجو على ارتفاع خمسة آلاف وخمسماية قدم، وكانت الطائرة تتمايل فوق التلال والوديان، لاحظنا، الزميل فريد الخطيب وأنا، أن الصحافي المصري ما زال متوتراً يتمتم آيات من الذكر الحكيم، فقال لي الخطيب بصوت مسموع:

«أليست هذه مثل الطائرة التي سقطت بالرئيس عبد السلام عارف؟».

فانفجرنا ضاحكين، لكن الزميل المصري زاد توتراً وامتعاضاً ظناً منه أننا نضحك عليه، فقال بعصبية:

«بتضحكوا على إيه؟ هو أنا كده.. أنا بخاف .. فيها إيه.. هو أنا أصلي كده.. أنا جبان يا أخي.. فيها إيه».

فرحنا نطيِّب خاطره ونقنعه بأننا لم نكن نسخر منه، وأننا خائفون مثله، لأننا نركب طائرة الهليكوبتر لأول مرة. وكانت في جيبي سبّحة أعطيتها للزميل المصري كي يهدِّىء روعه بعدِّ حبّاتها.

وبعد نحو ساعة وصلنا الى المكان المقصود فنزلنا من الطائرة حيث تجمّع بعض أفراد البشمركة، وفوجئت أنه لا توجد في المكان بيوت أو سكان، بل بيت واحد من حجر على مقربة من شاطىء نهر ضيِّق ينحدر مسرعاً، أظن أنه نهر الزاب الأصغر. وفي الجبل الذي يقع البيت على سفحه حُفرت عبارة في بطن أعلى الجبل بخطوط عريضة تقول: «كردستان يانامان». فسألت الدكتور محمود عثمان الذي كان حاضراً بلباس البشمركة أيضاً عن معنى تلك العبارة، فقال إن معناها هو: «كردستان أو الموت».

ودخلنا الى ذلك البيت الجبلي المتواضع الخالي من المفروشات تقريباً إلاّ من الأشياء الضرورية البسيطة، فوجدنا الملا مصطفى البارزاني بانتظارنا، فسلمنا عليه وقدمنا أنفسنا، وجلسنا معه في غرفة الجلوس بحضور عدد من الأشخاص الذين لا نعرفهم، باستثناء الدكتور محمود عثمان. وطلب البارزاني من بعضهم إعداد غداء طالباً منا أن نمالحه بما تيسر من طعام متواضع فعلاً.

وفي الأحاديث التي جرت في غرفة الجلوس، ثم على طاولة الطعام، لاحظت أن الملا مصطفى غير مرتاح للاتفاق مع صدام حسين (مهندس الاتفاق مع السوفيات في زمن حكومة أليكسي كوسيغين ومع البارزاني)، مع أنه كان يعبِّر

عن تفاؤله المشروط بالاتفاق.

بعد الغداء انتحيت به جانباً وتمشينا وحدنا على جانب النهر، الذي ذكّرني بنهر الليطاني في القرعون عند جسر بريمو، فوضعت يدي على كتفه وسألته عن حقيقة رأيه ومخاوفه، فالتقط مصور عراقي رافقنا تلك الصورة التي نشرتها في مجلة «الأحرار» في بيروت بعد عودتي، وبقيت في أرشيف المجلة ولا أدري ما حل بها. ولست أدري ما إذا كان أحد في حزب البعث لديه مجموعة «الأحرار» لعام 1970.

وأجاب البارزاني بكلمات عمومية كالقول:

«كل شيء ممكن إذا خلصت النيّات».

ولم يخطر لي حينئذ أن الملا مصطفى يشكك بنيّات النظام العراقي، لكنه توقف عن السير، والتفت اليّ قائلاً:

«هل تدري أننا هنا أقرب الى جورجيا منّا الى بغداد؟».

في حينه أخذت كلام البارزاني هذا ببعده الجغرافي، لكنني الآن أقرأه قراءة مختلفة بمعنى أن الأكراد ما زالوا بعيدين جداً عن بغداد على الرغم من مظاهر الاتفاق والتفاهم.

وبعد عودتنا الى غرفة الجلوس لنشرب الشاي، تناول الحديث مواضيع شتى منها مواضيع غير سياسية، مثل منافع العسل البرِّي الذي يفضله البارزاني. وكان بعض المتطرفين اليهود في ذلك الوقت قد أحرقوا المسجد الأقصى في القدس، فسأله فريد الخطيب، بصفته الفلسطينية، عن رأيه في حرق المسجد الأقصى، فأجابه بأنه يأسف لمثل هذه الأمور، فألح عليه الخطيب بالسؤال عن موقفه من الأمر، فقال له بشيء من الضيق:

«وماذا أستطيع أن أفعل للمسجد الأقصى؟».

فقال له الخطيب: «ألا تستنكر هذا الحادث وتشجبه؟»

قال البارزاني منهياً الموضوع:

«زعلنا للحادث، ثم ماذا؟»

•••

في المفاوضات التي أجراها صدام حسين مع أليكسي كوسيغين في زيارته الأولى الى موسكو لبحث الاتفاق الكردي في تلك السنة، أصر صدام على تضمين الاتفاق مهلة أربع سنوات لتطبيق البنود المتعلقة بالحكم الذاتي للأكراد في شمال العراق، وبعد محادثات صعبة حول تلك النقطة استطاع السوفيات أن يأخذوا ما يناسبهم على حساب الأكراد، فقبلوا شرط صدام لقاء أمرين:

الأول، إدخال الشيوعيين في الحكومة العراقية ضمن تحالف عريض بين القوى السياسية المختلفة في العراق في إطار «جبهة وطنية تقدمية»، وهو ما تم

في الشكل بعيداً عن المفاصل الأساسية للسلطة العراقية.

والثاني هو توقيع معاهدة للصداقة والتعاون بين بغداد وموسكو توخى منها العراقيون إعادة تسليح وتأهيل الجيش العراقي، وقد تم ذلك بالفعل بعد سنتين (في شهر نيسان/أبريل 1972) عندما زار كوسيغين العاصمة العراقية لهذه الغاية.

وقد اتضح مع الوقت أن صدام حسين توخى أن يكون الاتفاق مجرد هدنة لمدة أربع سنوات يكون خلالها قد تم استكمال تجهيز الجيش العراقي لجولة جديدة من الحرب. وفي المقابل لم يقف الأكراد مكتوفي الأيدي، فحولوا تلك الهدنة الى فسحة تتيح لهم عقد تحالفات جديدة مع شاه إيران وإسرائيل بمظلة أميركية، على أمل أن تكون حظوظهم مع الحلفاء الجدد أفضل من تحالفاتهم السابقة مع الاتحاد السوفياتي، فهربوا من تحت الدلف الى تحت المزراب.

ومن خلال متابعتي للمسألة الكردية منذ ذلك الوقت، تبين لي أن الأكراد يريدون العراق ضعيفاً، بمعنى أن تكون الحكومة المركزية في بغداد غير قادرة على الحركة بشكل يتهدد سيطرة زعمائهم التقليديين. فعندما قام التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة بإخراج الجيش العراقي من الكويت في عام 1991، وقام الأميركيون بضرب الجيش العراقي المنسحب من الكويت في واحدة من أبشع جرائم الحرب التي شهدها العالم منذ ضرب الأميركيين لليابان بالقنابل النووية، في نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945، قام الزعيمان الكرديان جلال الطالباني ومسعود البارزاني بزيارة الى بغداد وتبادلا العناق والقبلات مع صدام حسين في صورة تنضح منها الشماتة، بعدما أقاموا الدنيا وأقعدوها حول ضرب الجيش العراقي لبلدة حلبجة بالأسلحة الكيماوية المحرّمة دولياً، في نهاية الحرب العراقية الإيرانية عام 1988.

وعلى الرغم من الحصار الأميركي والدولي المشدد على العراق في تسعينات القرن الماضي، لم يجد البارزاني الإبن حرجاً في عام 1996 من الاستعانة بالجيش العراقي لحمايته من خصمه جلال الطالباني الذي احتل معظم المنطقة الكردية في شمال العراق بدعم من إيران، بما فيها مدينة أربيل عاصمة البارزاني. لكنه استعان بالجيش العراقي كميليشيا ضد ميليشيا كردية لها رباط في مكان آخر، لعلمه أن القوى الدولية لن تسمح للجيش العراقي بأن يستقر في تلك المنطقة. ومن الواضح أن صدام حسين استجاب لاستغاثة البارزاني كفرصة تكتيكية لخرق الحصار، وربما للتخفيف من السمعة الهمجية التي ألحقها به الأكراد على الصعيد الإعلامي العالمي بعد حلبجة. ولذلك ما زالت تطن في رأسي عبارة الصحافي التركي في ردهات مؤتمر مدريد عام 1991، بأن الزعماء الأكراد يتصرفون حيال شعبهم وكأنه «شعب فائض عن اللزوم».

بعد عودتي من زيارة الملا مصطفى البارزاني في مقره الذي قال لي عنه إنه

أقرب الى جورجيا منه الى بغداد، سجلت في مفكرتي: «إن الملا مصطفى عندما سمح بحفر الجبل ليكتب عليه عبارة «كردستان يانامان»، أي «كردستان أو الموت»، أقام رباطاً أبدياً بين الأكراد والموت».

وتبعاً لذلك، يمكن القول بأن عبارة «أقرب الى جورجيا منها الى بغداد»، هي الأخرى عبارة «وجودية» إذا صح التعبير، لأن إسقاطها على التاريخ الحديث للحركات الكردية يُظهر أن مهاباد أيضاً كانت أقرب الى أذربيجان وباكو وموسكو منها الى طهران، وأن ديار بكر كانت، بالنسبة الى عبد الله أوجلان، أقرب الى سوريا ودمشق منها الى أنقرة.

ولذلك، كما يبدو لي، أن المؤرخين القدامى والجدد، من سيبوس الأرمني الى الإنكليزي ريتشارد فراي، اتفقوا على أنه لم تكن للأكراد دولة بمعنى الكلمة في أي وقت مضى، للاستنتاج بأنه لن تكون لهم دولة في أي وقت مقبل، إلاّ ربما على غرار جمهورية الملا مصطفى في مهاباد التي سقطت بعد انسحاب الجيوش السوفياتية، وجمهورية نجله مسعود في أربيل التي ربما لاقت المصير ذاته، قياساً على ذلك، بعد انسحاب الجيوش الأميركية من العراق.

وعندما كنا صغاراً في القرعون، حيث هناك عائلة من آل الكردي يعتقد القراعنة أنهم أخذوا هذه الكنية من كونهم من أصول كردية، كنا نسمع من كبارنا مثلاً عامياً يصف كل إنسان عنيد يابس الرأس لا يحيد عن رفضه السلبي، لا بالحجر ولا بالفزّاعة، بأنه «كردي». والمثل المذكور منطوقه: «كردي وقال لا» فيضرب رأسه دائما بالحائط. أي أنه متى قال «لا» فإن من العبث إقناعه بالعودة عن موقفه، أو بالنقاش حوله. والمثل الدارج عند الفلاحين في بلادنا حول الموضوع عندما يعيي النقاش أحد فريقين، هو القول للفريق الآخر: «هذا الكردي وهذا الحيط»، أي أن خياره هو أن يضرب رأسه بالحائط!

وبعد تعارفي مع سالم الحاج عيسى وضباط آخرين من الأكراد المبعدين الى جنوب العراق في عهد عبد الكريم قاسم، رويت له هذا المثل القرعوني القديم فضحك وقال لي:

«إن لدى العراقيين حكايات وأمثال ونكات كثيرة من هذا النوع عن الأكراد. صحيح أن هناك شيئاً من الصلف في السلوك الفردي للأكراد، لكنهم ليسوا مستعصين على التفاهم مع الآخرين الى هذه الدرجة».

ويبدو لي أن النكات التي تروى عن الأكراد في العراق، هي للتندر مثل النكات التي تروى في لبنان وسوريا عن الحماصنة (أهل حمص)، أو التي يرويها الفرنسيون عن البلجيك، أو التي يرويها الإنكليز عن الإيرلنديين. وهذا يعني أن التحامل هو من الآخرين أكثر مما هو صفة متأصلة في الجهة المستهدفة بتلك القرصات.

خلال السنوات الأربع التي نص عليها اتفاق الحكم الذاتي، بين «السيد

النائب» (وهو لقب صدام قبل أن يصبح رئيساً) وبين «كاكا مصطفى» (أي «الأخ» مصطفى بالكردي الدارج)، حاول صدام حسين أكثر من مرة التخلص من الملا مصطفى البارزاني. ومحاولة الاغتيال الفاشلة التي جرت عن طريق أحد رجال الدين المسلمين تشكل مفصلاً تاريخياً لكونها أول محاولة تفجير بالأحزمة الناسفة التي أتقنها فيما بعد المتطرفون والأصوليون الإسلاميون.

والشيء الملفت أن الشيخ الذي حمل الحزام الناسف تحت جبّته لم يكن يعرف أن ما يحمله هو قنبلة، لأن الذين أقنعوه بحملها أكدوا له إنها جهاز تسجيل الغاية منه تسجيل الكلام الحرفي للزعيم الكردي. وكان ذلك الشيخ ضمن وفد من رجال الدين المسلمين أوفدتهم السلطة العراقية في بغداد للقاء البارزاني في موعد مقرر مسبقاً. لكن الحزام الناسف عندما انفجر قتل حامله ونجا البارزاني بأعجوبة.

ويقال إن محاولة ثانية جرت بضرب مقر البارزاني (وهو البيت الذي زرناه فيه) بصواريخ صغيرة أخفيت خلف مصابيح سيارة أوقفت قبالة المقر، لكنها لم تفعل فعلها لكون المقر مبنياً من حجر صوّاني صلب، فلم تؤثر فيه تلك القذائف. وحتى قبل انكشاف تلك المحاولات، لم يضيع الملا مصطفى وقته، حيث عكف على عقد تحالفات خارجية جديدة استعداداً لاستئناف القتال. ولم يوفر صدام نجل البارزاني عبيد الله الذي انشق عن أبيه فعينه العراقيون وزيراً في الحكومة، ثم ما لبث صدام أن أعدمه في إحدى «الوجبات» (كان العراقيون يسمّون كل دفعة من الأشخاص يجري إعدامهم بأنهم «وجبة»).

والواقع أن الطبيعة الجبلية لشمال العراق بديعة جداً كسائر المناطق الجبلية في العالم، ولذلك فإنه من العسير جداً السيطرة عليها عسكرياً. وقرأت في أحد كتب الأساطير عن الإسكندر المقدوني أنه بعد هزيمته للجيش الفارسي في معركة أربيل («أرابيللا»، حسب المصادر الإغريقية)، في طريقه الى بلاد فارس، ومن ورائها الى الهند، اعترضته قبائل كردية متحصنة في رؤوس الجبال، وقالوا له إنه لن يستطيع الوصول اليهم إلاّ إذا كان لديه جنود يطيرون. فراح الإسكندر يعد مجموعة من قواته متدربة على تسلُّق الجبال، وأخاط لهم أجنحة لبسوها على أكتافهم، ولما وصلوا الى قمة الجبل حيث يتحصن الأكراد ظنوا أن الإسكندر لديه بالفعل جنود يطيرون، فاستسلموا له وصاهرهم بزواجه من روكسانا حتى لا يغدروا به من الخلف.

ولذلك طلبنا أن نعود في طريق الرجعة من أقصى مكان تصل اليه السيارات، وكان ذلك مريحاً بعض الشيء لزميلنا في «آخر ساعة»، فذهبنا في رحلة برية عبر تلك المسالك الجبلية الرائعة بين التلال والوديان والجداول وصولاً الى راوندوز، ومن هناك عدنا بطائرة الهليكوبتر العسكرية العراقية، كما جئنا، الى القاعدة الجوية في كركوك، ومنها مباشرة الى بغداد، فلم يكن هناك متسع من

الوقت للقاء محافظ كركوك غانم عبد الجليل مرة ثانية. لكنني التقيته بعد أشهر داخل الطائرة المتجهة من بيروت الى بغداد، وكان قد أصبح وزيراً للتعليم العالي، وهو عائد من أحد المؤتمرات في الخارج عن طريق بيروت.

وكان غانم عبد الجليل تالياً من ضحايا إحدى «الوجبات» الرئيسية التي أقامها صدام قبل انتقال رئاسة الجمهورية اليه وتصفيته لمجموعة من القيادات الحزبية العليا، التي تم تصويرها على شريط فيديو شاهدته هنا في لندن بعد سنوات من تلك «الوجبة».

VI

«رؤوس القرنبيط»

شعرت في جريدة «الكفاح» ببداية جديدة خالية من التوترات، لأنها لا تشوبها ضغوط وقيود وتجاذبات حزبية. إنه شعور بالحرية في التصرف، وبالتالي توسيع دائرة الاهتمامات في إطار ليبرالي مريح. ومما ساعد على ذلك شخصية رياض طه المرحة والرحبة، وعدم تدخله في شؤون التحرير. كان مطمئناً الي وكنت مطمئناً اليه. وكذلك الأمر بالنسبة الى مدير التحرير محمد باقر شري، الذي كانت مواقفه الراديكالية متوافقة الى حد بعيد مع مواقفي، خصوصاً في القضايا الوطنية والقومية.

فقد كان رياض طه، رحمه الله، من الشخصيات اللبنانية الواعية لدور لبنان القائد في المنطقة العربية، ولأهمية تفاعله مع القضايا العربية، ومنها على وجه الخصوص قضية «الوحدة» التي كان الشاهد الوحيد على أولى تجاربها، وهو في مطلع شبابه متوقد الذهن والحماسة. وما كانت وحدويته مجرد فورة عاطفية أو نزوة، بل إن مدخله الى اعتناقها كان القضية الفلسطينية التي اعتبرها المفصل الرئيس للوحدة، بالقدر نفسه الذي كان يرى فيه قيام الدولة اليهودية الغاصبة في فلسطين ممراً إجبارياً الى تفتيت الأمة العربية وتشطيرها وضرب أشلائها بعضها ببعض. هذا باختصار هو رياض طه الحقيقي الذي تعاطيت معه من غير تعقيدات في مرحلة الهزيمة العربية التي أصابت بالخيبة كل الطموحات القومية، لكنها استفزت في الوقت ذاته مكامن المقاومة في النفوس، كل واحد بطريقته وحسب قناعاته.

إن التأجج الذي أحدثته الهزيمة التي اعتبرها كثيرون، ومنهم رياض طه وأنا، نتيجة حتمية لانفصال سوريا عن مصر وانهيار دولة الوحدة، التي شهد رياض طه قيامها، زاد لهيبه عندما تكشف إمعان دول عربية بدرجات مختلفة على فك وإسقاط دولة الوحدة، مستغلة الشوائب التي رافقتها، وربما على استدراج عبد الناصر الى الحرب لاستكمال الإنفصال بالهزيمة العسكرية. فانهزمت الجيوش وبقيت جذوة المقاومة في النفوس.

فقد كنا ذات ليلة ساهرين مع أكرم الحوراني في مقهى «دولتشي فيتا» على

الروشة، وكانت الحلقة تضم عدداً من الصحافيين والكتاب والمثقفين، فإذا بالشاعر السوري خليل خوري يطل علينا مترنحاً بادياً عليه أنه مخمور الى درجة ملحوظة[1]. وقبل أن يجلس، التفت الى أكرم الحوراني وقال له:

«أنت يا أستاذ أكرم لعبت في الثورة العربية دور تشانغ كاي تشك في الثورة الصينية».

ولا أدري من أين استحضر خليل خوري هذا التشبيه بالثورة الصينية، لأنني سمعت مثله بطريقة مختلفة عن ميشال عفلق من فم الدكتور عبد الله عبد الدايم، الذي عمل لفترة بعد خروجه من سوريا في منظمة الأونسكو في باريس، حيث قال وردّد أكثر من مرة، وعلى مسمعي : «إن ميشال عفلق وضع الثورة العربية في الحذاء الصيني»[2].

والحذاء الصيني هو عبارة عن قالب خشبي صغير يوضع في أرجل البنات لمنعها من النمو.

لكن أكرم الحوراني أخذ تلك الملاحظة السكرى على محمل الهزل، ولم يرد عليها، فيما اعتبرها جلساؤه نوعاً من الوقاحة والاستفزاز، فأظهروا له بوضوح أنه غير مرغوب فيه للجلوس معهم فمضى في طريقه.

وفي اليوم التالي، توجهت الى بيت ميشال عفلق في ساقية الجنزير، وكان لوحده، فرويت له ما حدث في مقهى «دولتشي فيتا» في الليلة السابقة، فضحك واستنكر، لكنني عجبت من إطرائه لأكرم الحوراني، وكنت أظن أنه على خصومة معه. عندئذ قلت له:

«ما رأيك أن نتمشى من هنا الى شقة أكرم الحوراني في الروشة لنفاجئه بزيارة غير معلنة؟»

---

(1) الشاعر خليل الخوري ولد في دمشق وعاش في بيروت وتزوج وتوفي في بغداد. وقد التقت الطرق بينه وبيني من جديد في جولة على مراكز البحوث الفرنسية نظمتها وزارة الخارجية الفرنسية لبعض الصحافيين العرب صيف عام 1977. وفي ليلة بتناها في مدينة بيربينيون استعداداً للصعود الى ارتفاع 2000 متر في جبال البيرينه لمشاهدة مركز بحوث الطاقة الشمسية في «أوديـو»، مرت في الفندق عاملة بالغة الجمال مكتملة القوام، فقلت عنها «سبحان الذي هندسها». فقال فيها بيتاً من الشعر سمّاه «هندسة» قال فيه: «هي الأشياءُ أكملها مدوّرها / وأجمل أجمل الأشياء في الدنيا مكوّرها»، إشارة الى كونها مكوّرة النهدين مقرمدة الرفغين، كما قالت العرب في جمال المرأة. وله دواوين شعر كثيرة نشر معظمها في بيروت، وبعضها في بغداد، ووضع كتاباً عن الشاعر آرثر رامبو وترجم له عن الفرنسية قصيدة Le Bateau Ivre بعنوان «المركب السكران». وفي فترة من الفترات عمل مترجماً للرئيس صدام حسين في لقاءاته مع شخصيات فرنسية.

(2) الدكتور عبد الله عبد الدايم من مدينة حلب ومتخرج بامتياز من جامعة السوربون، انتسب الى حزب البعث الذي عينه وزيراً للإعلام عدة مرات ثم وزيراً للتربية في سوريا قبل 1966 حين غادر الى بيروت وباريس وعمل أستاذاً في كلية الآداب التابعة للجامعة اللبنانية. له عشرات المؤلفات في الشؤون التربوية والقومية كلها تقريباً من منشورات «دار الآداب» في بيروت، كما ترجم بعض أعمال بيرغسون بالاشتراك مع الدكتور سامي الدروبي.

وفوجئت أكثر عندما تحمس للفكرة ونهض لنخرج معاً في تلك الزيارة. وفيما كنا نهمُّ بالخروج من مدخل البناية، التقينا الناشر البعثي الفلسطيني عبد الوهاب الكيالي[3] الذي كان قادماً لزيارة الأستاذ ميشال، فسألنا:

«الى أين أنتم ذاهبون؟»

فقلنا له: «لزيارة أكرم الحوراني».

فقال: «أنا أيضاً أذهب معكم».

ومع أن ميشال عفلق لم يعترض، إلاّ أنني لاحظت أنه لم يكن مرتاحاً لوجود طرف ثالث، وقد انعكس ذلك على اللقاء بين الرجلين، وهو الأول منذ سنوات طويلة. وعندما قرعنا الباب، وكانت الساعة قرابة الحادية عشرة والنصف صباحاً، فتح أكرم الحوراني الباب وهو لا يزال في «البيجاما» وكان في المطبخ يقلي بيضة يفطر عليها، فرفع حاجبيه مندهشاً وغير متوقع لهذه الزيارة، فاستأذن ليلبس ثيابه، ونسي فطوره.

وجلس معنا في الصالون الصغير. لكن الحديث لم يتطرق الى السياسة، إلاّ تندراً على ما قاله خليل خوري في الليلة السابقة. وأصر أكرم الحوراني على أن نشرب القهوة، فقام الى المطبخ وأعد الركوة بنفسه، لأنه حينها كان يقيم في الشقة منفرداً في غياب زوجته أم جهاد.

وكان ذلك أول لقاء بينهما، بعد انقطاع طويل، ولا أدري ما إذا كان قد جرى لقاء آخر في بغداد لاحقاً.

•••

بسبب من ذلك النفس الراديكالي الليبرالي المطعّم بأسلوب متميز في الكتابة وطرح المواضيع الحساسة من زوايا جديدة، بدأ يتوافد على مكاتب «الكفاح» ممثلون لدول عديدة، وناشطون في حركات وأحزاب من مختلف أنحاء المنطقة، ومن الخارج، ومنهم صحافيون أجانب أو مراسلون لصحف أجنبية.

وكنا في «الكفاح» أول من استحدث باب «التحليل الإخباري» في الصحافة اللبنانية، وهو باب لفت انتباه كثيرين من المراقبين والمهتمين، مما زاد من وعينا لأهميته، فصرنا نستخدمه لاستدراج الأخبار والتعليقات من مصادرها.

وفي تلك المرحلة، بعد انتخاب سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية بفارق صوت واحد في المجلس النيابي، كان لبنان واقفاً على مفترق حاسم، بما يشبه الوضع الذي ساد على الصعيد القومي بعد هزيمة جمال عبد الناصر في حرب 1967. ففي أعقاب تلك الهزيمة المدوية، كان منح الصلح يقول لسليم اللوزي،

(3) عبد الوهاب الكيالي هو ناشط في العمل الفلسطيني وفي حزب البعث ومؤسس «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» في بيروت، وقد اغتاله مجهول في مكتبه في العاصمة اللبنانية في مطلع الثمانينات. وقد آلت دار النشر الى شقيقه ماهر الكيالي، وهو يمت بصلة قرابة الى معد الكيالي الذي تزاملت معه في «عالم النفط». ويقال إن صدام حسين عرض عليه أن يبيع دار النشر الى الحزب لكنه لم يستجب.

وهو يشير عليه بتوجه مجلة «الحوادث» إزاء تلك المحنة، إن هناك فرصة شهر على الأكثر تتيح كتابة حرة وجريئة قبل تماسك الأنظمة العربية وامتصاصها للصدمة، فنشرت «الحوادث» مقالها المشهور: «الأمة المهزومة والقائد المنتصر».

وعندما سقطت الدولة الشهابية وأجهزتها المهيمنة بانتخاب فرنجية رئيساً للجمهورية، نشأ في لبنان فضاء واسع يستطيع فيه أي كان أن يدلي بدلوه كما يشاء قبل أن تعود الأمور الى سابق عهدها بعد امتصاص الصدمة، أو تنفجر وينفخت الدف وتتشظى البلاد وتتشتت العباد.

وهناك أكثر من وجه شبه واحد بين هزيمة عبد الناصر في مصر وهزيمة الشهابية في لبنان، لكون الحالتين مترابطتين في السياسة العامة، وفي تركيبة الحكم القائم على الأجهزة الأمنية. ولذلك عندما تزعزع حكم الأجهزة انطلقت من بين الشقوق والصدوع التي أصابت الدولة ككل ما يشبه الهزات الارتدادية بعد الزلزال. وهذا ما حدث في لبنان أيضاً بعد اغتيال رفيق الحريري وإسقاط رؤوس الأجهزة الأمنية، فانطلقت أبواق كثيرة من عقالها من دون ضوابط، منها الغث ومنها السمين، منها الأصيل ومنها العميل، منها الساعي الى الإصلاح ومنها الساعي الى التهديم، منها من ينطق بصوته، ومنها من ينطق بصوت سيده، والى ما هنالك من متناقضات.

في تلك المرحلة من وجودي في «الكفاح» تسارعت الحوادث وازدحمت التناقضات، وكان التغيير الذي شهده لبنان من خلال طي صفحة الشهابية وأجهزتها، وجهاً من أوجه التحولات التي شهدتها المنطقة، وأهمها وفاة عبد الناصر في وقت كانت فيه الثورة الفلسطينية تخوض صراعاً دامياً مع النظام الأردني وتتمدد بالتالي باتجاه لبنان قبل انتقالها اليه بصورة دائمة في أعقاب اتفاقية القاهرة[4] الموقعة بين العماد إميل بستاني، قائد الجيش اللبناني، وبين ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية[5] في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر 1969، برعاية الرئيس جمال عبد الناصر.

سادت في تلك المرحلة حالة تشبه الضياع والفوضى عبَّر عنها الشاعر

(4) عقدت اتفاقية القاهرة بين رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات وبين إميل بستاني قائد الجيش اللبناني آنذاك بوساطة من الرئيس المصري جمال عبد الناصر. لكن نص تلك الاتفاقية لم يعلن على الملأ قط، بل بقي سراً طي الكتمان الى اليوم. وقد تبين لاحقاً أنه أعطى الفلسطينيين حرية الحركة في جنوب لبنان (وهي المنطقة التي أطلق عليها الإعلام العالمي اسم «فتح لاند»، أي أرض فتح)، كما انتقلت السيطرة على مخيمات اللاجئين في لبنان، وعددها 16 مخيماً، من السلطة اللبنانية الى الكفاح المسلح الفلسطيني، ما جعل منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان دولة ضمن الدولة.

(5) تأسست منظمة التحرير الفلسطينية بقرار من مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة في شهر كانون الثاني/يناير 1964، لتكون الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. وقد اختير أحمد الشقيري أول رئيس للجنتها التنفيذية من 10 حزيران/يونيو 1964 حتى 24 كانون الأول/ديسمبر 1967، ثم خلفه يحيى حموده حتى 2 شباط/فبراير 1969، عندما تسلم رئاستها ياسر عرفات.

الفلسطيني كمال ناصر، الوثيق الصلة آنذاك بياسر عرفات، عندما شكلت الجامعة العربية بعثة برئاسة السياسي التونسي الباهي الأدغم[6] للتوسط بين الملك حسين والفلسطينيين، بقوله في عبثية ذلك المسعى:

تِـــــــرْلَـــــــم تـــــرلــــم تــــرلــــم ذهـــــب الــــبـــــاهـــــي الأدغـــــم

عـــــاد الـــبـــاهـــــي الأدغـــــم تــــــرلــــم تـــــرلــــم تـــرلــــم

وبالنظر الى ازدحام الحوادث وتسارعها، ازدحم أيضاً الديبلوماسيون والصحافيون الأجانب على أبواب مكاتب رؤساء تحرير الصحف اللبنانية لمعرفة ما يجري، وما هي توقعاتهم لمسار الحوادث والتطورات.

•••

على الرغم من أن منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة «فتح» ورئيسها ياسر عرفات، كانت تضم تنظيمات مختلفة، إلاّ أنها لم تكن ترتاح للحزبية والأحزاب، خصوصاً الأحزاب القومية وعلى رأسها حزب البعث. فكان هناك تنافر داخلي مضمر، لا أحد يبوح به. وما مناداة منظمة التحرير الفلسطينية ورئيسها باستقلالية القرار الفلسطيني إلاّ أحد وجوه ذلك التنافر. والمبرر الفلسطيني المعلن لهذا هو أن الدعوة الى استقلالية القرار الفلسطيني غايتها وضع حد لتدخل الأنظمة العربية في توجهات المنظمة وقراراتها. أما الأحزاب القومية فقد كان لها رأي مختلف في الأمر، باعتباره في نظرها يخدم تلك الأنظمة ولا يضيرها. ذلك أن القرار الفلسطيني المستقل فتح طريقاً للأنظمة العربية لكي تتنصل من مسؤولياتها تجاه القضية الفلسطينية تحت شعار: «نقبل بما يقبل به الفلسطينيون»، فاستخدمت الأنظمة هذا الشعار لكبح الأحزاب القومية التي لا تعفي الأنظمة العربية من مسؤولية تحرير فلسطين.

لكن الأنظمة العربية التي كانت تحكم باسم أحزاب قومية، مثل سوريا والعراق، فقد دخلت الى الساحة الفلسطينية من خلال تنظيمات مسلّحة منافسة أعطت انطباعاً انقسامياً في ثوب الوحدة الوطنية. وهكذا نشأت منظمة «الصاعقة» المدعومة من سوريا بقيادة زهير محسن[7]، وتنظيم «جبهة التحرير

---

(6) الباهي الأدغم من قدامى السياسيين التونسيين، وفي الحكومة الاستقلالية الأولى تولى وزارة الدفاع (1957 ـ 1966)، وتولاها ثانية للأشهر الأربعة الأولى من عام 1968 حين خلفه في هذا المنصب محمد مزالي، رئيس الحكومة لاحقاً. وبسبب تسليط الأضواء الإعلامية على الباهي الأدغم نتيجة لمهمته العربية في الأردن، خشي بورقيبة أن تتسع شعبيته فأبعده، وشهّر به في خطاب علني وصفه فيه بأنه «بهيم»، مما جعل بعض الصحافيين في بيروت يصفونه في مجالسهم الخاصة بأنه «الباهي الأبهم». لكن الزميل قصي صالح الدرويش في كتابه «يحدث في تونس» يروي أن الباهي الأدغم التقى الحبيب بورقيبة الإبن في عمان وطلب منه أن يعود الى تونس للاهتمام بصحة والده الرئيس الذي ظهرت عليه أعراض مرضية خطيرة بسبب الشيخوخة، فأبلغ الحبيب الإبن الحبيب الأب ما قاله له الأدغم فنقم عليه.

(7) اغتيل زهير محسن في مدينة كان على الريفييرا الفرنسية بتاريخ 15 تموز/يوليو 1979.

العربية» المدعومة من العراق بقيادة عبد الرحيم أحمد[8].

وقبل ذلك، تحولت «حركة القوميين العرب» الى العمل الفلسطيني من خلال تنظيم مسلّح ومستقل أطلق عليه اسم «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» بقيادة الدكتور جورج حبش، لكنها كانت تتعاطى مع بعض الأنظمة العربية حسب الظروف، وشكّلت نوعاً من المعارضة داخل الجسم الفلسطيني، باعتبارها مولودةً في الأصل من رحم حركة قومية. ولذلك، أعطت «الجبهة الشعبية» شرعية فلسطينية لما سمِّي فيما بعد «جبهة الرفض» بدعوى رفض توجهات بعض الأنظمة العربية المتنصلة من القضية الفلسطينية، ومنظمة التحرير، الى التسوية السلمية مع إسرائيل كبديل عن المقاومة، وهو انقسام ما زال قائماً الى اليوم في الساحتين العربية والفلسطينية، وإن بأسماء ومظاهر مختلفة.

وكان من الطبيعي، في مناخ كهذا، أن تنقسم التنظيمات الفلسطينية الأساسية على نفسها، أو تخرج منها وعنها تنظيمات جديدة، خصوصاً «فتح» و«الجبهة الشعبية». ومع هذا التشظي راجت التنظيمات التي قامت بعمليات عنف في الخارج، وتمكنت استخبارات أنظمة عربية معيّنة من استخدام بعضها لأغراض لا علاقة لها بالقضية الفلسطينية[9].

وفي تلك الحقبة المبكرة من النشاط الفلسطيني في لبنان، ووجود توجه خفي لتهميش الأحزاب القومية والطعن بها باسم الثورة الفلسطينية، تحت راية دعاوى يسارية مشبوهة ومتطرفة، صوّرت الأحزاب القومية بأنها يمينيّة، كتبت مقالاً في «الكفاح» تحت عنوان «رؤوس القرنبيط»، اعتبره بعض الفلسطينيين انتقاداً جارحاً لياسر عرفات، مشبهاً رأسه الأصلع برأس القرنبيط. لكن الحقيقة ليست كذلك، وإن كنت أتوجه بالنقد الى الحالة الفلسطينية النافرة من الحزبية والمعادية لها أحياناً.

والواقع أن الزعيم الليبي معمر القذافي كان طرح في ذلك الوقت شعارات تخوِّن الحزبية والأحزاب، ضمن حملة إعلامية منسّقة تحت شعار «من تحزّب خان». فتناولت في المقال ظاهرة العداء للحزبية سواء بين الأنظمة العربية، أو تحت المظلة الفلسطينية، مستشهداً بتوصيف للزعيم الشيوعي السوفياتي جوزف ستالين قال فيه:

---

(8) تأسست جبهة التحرير العربية في عام 1969 بقرار من حزب البعث العراقي، وبقيادة الدكتور زيد حيدر عضو القيادة القومية للحزب، وهو غير فلسطيني (لبناني، سوري الجنسية). ثم أنيطت لفترة بالدكتور منيف الرزاز (طبيب أردني وأمين عام سابق لحزب البعث) ثم بعبد الوهاب الكيالي قبل تسلّم عبد الرحيم أحمد لها.

(9) من تلك المنظمات التي وصفت بأنها «مرتزقة» منظمة «فتح المجلس الثوري» بقيادة أبو نضال. وتردد في بيروت أيضاً أن جماعة فلسطينية هي التي خطفت المناضل النقابي ناصر السعيد في العاصمة اللبنانية لحساب جهاز سعودي.

«إن رجلاً يحمل قرنبيطة بين كتفيه، تلك هي اللاحزبية».

لم أكن قريباً من ياسر عرفات وإن كنت التقيته عرضاً في بعض المناسبات الخاصة من غير معرفة، قبل قيام منظمة «فتح» عند إطلاقه مجلة «فلسطيننا»[10] في أواخر الخمسينات من القرن الماضي، أو بعد تمركزه في بيروت في أعقاب «أيلول الأسود» الأردني 1970. والمرة الوحيدة التي جلست معه عن قرب، كانت في بدايات الحرب اللبنانية عام 1975 عندما أقام قريبي المحامي الياس الفرزلي في منزله الكائن في ساقية الجنزير عشاء هدف منه جمع ياسر عرفات مع الرئيس تقي الدين الصلح، وطارق عزيز الوزير العراقي آنذاك .

ولم أصدِّق أذني في ذلك الاجتماع عندما سمعت كلاماً تقسيمياً واضحاً من لسان عرفات وجّهه الى تقي الدين الصلح بشكل رسالة الى رئيس الجمهورية اللبنانية آنذاك سليمان فرنجية، قائلاً:

«أنا سيطرت على منطقتي ونظّفتها، فليسيطر هو على منطقته وينظِّفها».

وقد أذهلني هذا الكلام، ولو لم أسمعه بأذني لما كنت صدّقته. لكن جواب تقي الدين الصلح كان قاطعاً وصميمياً في العمق عندما قال له:

«ليس هناك منطقتك ومنطقته، لا هذه منطقتك ولا تلك منطقته، هناك لبنان والدولة اللبنانية، ويجب أن نفكِّر ونتصرف على هذا الأساس».

وفيما عدا ياسر عرفات كنت على معرفة جيدة ببعض القيادات الفلسطينية مثل صلاح خلف (أبو أياد)، وخليل الوزير (أبو جهاد)، وفاروق قدومي (أبو اللطف)، وكمال عدوان، وخالد الحسن (أبو سعيد) الذي عدت فالتقيته مرتين في لندن، الأولى في فندق كان نزيله في منطقة «هاي ستريت كنزينغتون»، والثانية في منزل سليم اللوزي في «سلون آفنيو». كما كنت زرته في منزله في الكويت لتعزيته بوفاة والدته[11]، ومحمد أبو ميزر (أبو حاتم)، وزهير محسن، كما تعرفت في القاهرة تالياً على سعيد كمال ممثل منظمة التحرير هناك، وعلى عطا الله عطا الله (أبو الزعيم) الذي حدثني في لقاء مطوّل معه في العاصمة المصرية عام 1983 عن المرحلة التي عمل فيها كضابط ارتباط بين ياسر عرفات والشيخ بشير الجميل قبل وأثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان في مطلع صيف 1982.

•••

(10) راجع المقدمة التي وضعتها للنسخة المترجمة من كتاب هيلينا كوبان عن منظمة التحرير بعنوان «المنظمة تحت المجهر»، الصادر في لندن عام 1984 عن دار «هاي لايت» لصاحبها الزميل فؤاد مطر.

(11) عمل خالد الحسن في بلدية الكويت فترة طويلة ونال الجنسية الكويتية، ومع ذلك طرده الكويتيون من بلادهم بعد إخراج القوات العراقية منها في حرب الخليج بين العراق وقوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة في مطلع 1991، فانتقل الى العاصمة المغربية الرباط، وتوفي عام 1994 بمرض السرطان.

بعد صدور مقال «رؤوس القرنبيط» طرق بابي في جريدة «الكفاح» شاب فلسطيني اسمه الدكتور عصام السرطاوي، كان يومها مستشاراً لياسر عرفات للشؤون الأوروبية والأميركية، باعتبار أنه أمضى سنوات في الولايات المتحدة تخصص خلالها في أمراض القلب بعد تخرجه من كلية الطب في جامعة بغداد. وعرّفني السرطاوي بنفسه، وجلسنا نتناقش في الموضوع الفلسطيني، وفي المرامي الحقيقية والواقعية للثورة الفلسطينية.

وظل السرطاوي يتردد عليّ كلما سنحت له الفرصة، وبقيت العلاقة بيننا قائمة بعد انتقالي الى لندن، فكان يزورني كلما مر في العاصمة البريطانية، وكان آخر لقاء بيننا في مكتبي في مجلة «الحوادث» في لندن ربيع عام 1982، (قبل أقل من سنة على اغتياله قرب العاصمة البرتغالية لشبونة على هامش مؤتمر «الإشتراكية الدولية»)، وهو في طريقه من العاصمة النمساوية فيينا، فحدثني عن علاقته مع المستشار النمساوي، آنذاك، برونو كرايسكي، وعن أفكاره بخصوص حل القضية الفلسطينية حلاً سلمياً نهائياً، كما ناقشها مع المستشار النمساوي المتبني تبنياً كاملاً لمشروع الدولة الديموقراطية على كامل التراب الفلسطيني.

كان السرطاوي في ذلك الوقت معزولاً داخل الصف الفلسطيني، وكان الوضع الفلسطيني في لبنان يقف مترنحاً بسبب الحرب اللبنانية، ومن ثم بسبب الاجتياح الإسرائيلي للبنان بقيادة آرييل شارون، الرجل الذي جاء الى فلسطين ليقيم دولة يهودية لا ليقيم دولة ديموقراطية، كما قال في كتاب مذكراته.

قال لي السرطاوي في ذلك الاجتماع إن كرايسكي تبنّاه كابن له فوق تبنِّيه لمشروعه القاضي بإقامة دولة ديموقراطية على كامل التراب الفلسطيني، وإنه وعده بتسويق هذا المشروع بين الدول الأوروبية والأحزاب الاشتراكية في العالم، وفي المحافل الدولية. وقال إنه عندما يذهب الى العاصمة النمساوية فيينا لا يسمح له كرايسكي بأن ينزل في الفنادق، بل يصرّ على استضافته في منزله طوال مدة إقامته هناك.

وقد حثّ كرايسكي السرطاوي على التحادث مع شخصيات إسرائيلية راغبة في السلام الحقيقي، وعلى تشكيل إطار دائم قابل للاتساع يجري التحادث من خلاله، وبرعاية كرايسكي ضماناً لجدِّيته، والأهم من ذلك تأكيد شرعيته أمام بقية العالم والدول والأحزاب والقوى السياسية. وهكذا تشكّل في تلك المرحلة من السبعينات ما أطلق عليه اسم «مجلس السلام الإسرائيلي - الفلسطيني»، وكان في عداد أعضائه من الجانب الإسرائيلي يوري أفنيري، الكاتب والناشط في حركة السلام الإسرائيلية، الذي وضع عن ذلك كتاباً بعنوان: «صديقي العدو».

وكان المستشار النمساوي قد خصص جائزة على غرار جائزة نوبل أطلق

عليها اسم «جائزة كرايسكي للسلام»، وقد مُنحت تلك الجائزة في عام 1979 الى عصام السرطاوي بالشراكة مع الإسرائيلي الروسي الأصل آري إيلياف[12]، الناشط في حركة السلام الإسرائيلية والنائب في البرلمان الإسرائيلي (الكنيست).

ولست هنا في معرض الدفاع عن الخيار التفاوضي الذي سلكه عصام السرطاوي في تلك المرحلة المبكرة، لكنني أفهم عقل رئيس حكومة أوروبية محترم مثل برونو كرايسكي الذي يعتبر التفاوض بين الخصوم والأعداء هو السبيل الوحيد للسلام. إلاّ أنني ما زلت على قناعة بعدم تجزئة أو تقسيم فلسطين الى دولتين غير شرعيتين، ولا تحلاّن المشكلة. بل ازدادت قناعتي بفكرة السرطاوي الأساسية بوجوب إبقاء فلسطين دولة موحدة وديموقراطية تضم اليهود والفلسطينيين بكل أطيافهم. وما آلت اليه مفاوضات محمود عباس مع الإسرائيليين حول إقامة دولة فلسطينية مستقلة على أقل من خُمس مساحة فلسطين التاريخية، وبرعاية أميركية مباشرة، ينبيء بأن تقسيم فلسطين على هذا النحو لا يمكن أن يتم إلاّ بتقسيم الشرق كله، وربما دول العالم كلها، وما يستتبعه ذلك من حروب دائمة يظن الإسرائيليون بأنهم قادرون على إدارتها والتحكم بها، وهم أيضاً واهمون.

كان من أسباب دوام علاقتي مع الدكتور عصام السرطاوي، بالإضافة الى قناعتي التامة بوجوب بقاء فلسطين موحدة، وكذلك لبنان، وسوريا، والعراق، والسودان، واليمن، وكل بلد عربي آخر مرشّح للتفكك، أنني لم أكن على ثقة بأن الثورة الفلسطينية، كما شاهدناها في لبنان بكل فصائلها مجتمعة ومتفرقة، هي بمستوى القضية التي ادعت أنها تحملها وتكافح من أجلها، فأضرّت بلبنان ولم تنفع فلسطين والفلسطينيين.

قلة قليلة من الفلسطينيين ومن الإسرائيليين كانوا مقتنعين، أو لهم مصلحة، في الطرح الذي قال به عصام السرطاوي ولقي أذناً صاغية في بعض الدوائر الأوروبية، وخصوصاً منهم المنادون بحل الدولتين. ولذلك فإن كثيرين كانت تناسبهم عملية اغتيال عصام السرطاوي، وفي خلال مؤتمر الاشتراكية الدولية حيث كان لطرحه المشار اليه صدى له قابلية الانتشار والأخذ على محمل الجد.

ولمشاركة السرطاوي في مؤتمر الاشتراكية الدولية قصة تشكل علاقته الشخصية الوطيدة بالمستشار النمساوي برونو كرايسكي جانباً منها فقط. ذلك أن مؤتمر الاشتراكية الدولية، الذي اغتيل السرطاوي على هامشه، كان مقرراً له أن ينعقد في مدينة سيدني الأسترالية، لكن عندما اقترح ماريو سواريز رئيس وزراء البرتغال ورئيس تلك الدورة دعوة منظمة التحرير الفلسطينية

(12) ظل إيلياف نائباً في الكنيست من 1965 الى 1979، وفي مطلع السبعينات تبوأ الأمانة العامة لحزب العمل، لكنه طُرد من هذا المنصب بعد دعوته للسلام مع الفلسطينيين. له عدة كتب أبرزها «بين المطرقة والسندان»، و «مرحباً بالسلام».

الى المؤتمر بصفة مراقب، اعترض رئيس وزراء أستراليا بوب هوك المؤيد لإسرائيل تأييداً مطلقاً رافضاً الفكرة من الأساس، مما اضطر سواريز الى نقل المؤتمر من أستراليا الى البرتغال. فالجهة التي اختارت السرطاوي لحضور المؤتمر هي منظمة التحرير الفلسطينية وليس أي جهة أوروبية، أو برونو كرايسكي كما قد يتبادر الى الأذهان، على الرغم من ترحيب كرايسكي بهذا الاختيار من قبل المنظمة[13].

ولما كان حزب العمل الإسرائيلي ممثلاً في مؤتمر الاشتراكية الدولية (وكذلك الحزب التقدمي الاشتراكي اللبناني بقيادة وليد جنبلاط)، فقد كان أمين عام منظمة الاشتراكية الدولية السويدي بيرنت كارلسون[14] يتوخّى من دعوة ممثل فلسطيني الى المؤتمر إطلاق حوار فلسطيني - إسرائيلي برعاية الاشتراكية الدولية، وحتماً بدعم من المستشار النمساوي.

كان كرايسكي، كما فُهم لاحقاً، يصرّ على الحوار قبل التفاوض، على أن يكون التفاوض لاحقاً للحوار ويتم على أساس المبادىء المشتركة المتفق عليها. وهذا في المبدأ منطلق سليم، لكن ما جرى بعد ذلك في أوسلو كان مفاوضات على أسس غامضة ومبهمة، ولذلك لم تصل الى نتيجة حتى اليوم.

وجدول الحوار الذي كان في ذهن عصام السرطاوي، كما اقتنع به كرايسكي، حسبما قال لي في اللقاء الأخير عام 1982، يضم في البداية بنداً واحداً قوامه التسليم بمبدأ الدولة الواحدة في فلسطين، لأن مبدأ الدولة الواحدة يلغي بطبيعته فكرة الدولة اليهودية العنصرية. وبعد التسليم بهذا المبدأ يجري الحوار حول نقطة ثانية وحيدة فقط هي شكل الدولة الواحدة وطبيعة مؤسساتها، وهكذا دواليك قبل التفاوض بين مكوِّنات الدولة المتفق عليها حول التفاصيل.

ولذلك بقي اغتيال عصام السرطاوي في نيسان/أبريل 1983 على عتبات مؤتمر الاشتراكية الدولية، وعلى مرأى من أمينها العام، حادثة غامضة مع أن الجريمة

(13) تذرع رئيس الحكومة الأسترالية بأن وقوع الانتخابات العامة في بلاده في تلك الفترة لا يسمح له بالتحضير للمؤتمر في بلاده.

(14) بيرنت كارلسون هو المستشار الخاص لرئيس الحكومة السويدية المغدور أولاف بالمي، وقد أصبح أميناً عاماً للاشتراكية الدولية في عام 1976، لكن موافقته على نقل مؤتمر سيدني الى البرتغال بسبب دعوة السرطاوي الى المؤتمر، دفعت المستشار الألماني آنذاك ويلي براندت الى المطالبة باستقالته، فاستقال. وقد كانت تربطه علاقة وثيقة بالسرطاوي، وكان يتبنى طروحاته ويدافع عنها. ثم عمل لاحقاً في الأمم المتحدة حيث تم تكليفه بملف ناميبيا بصفته مساعداً للأمين العام للمنظمة الدولية، وفي طريق عودته من ناميبيا الى نيويورك قتل بسقوط طائرة بان أميركان في الرحلة 103 التي انفجرت فوق بلدة لوكربي الاسكتلندية، واتهم بها نظام معمر القذافي في ليبيا، مما حمل بعض المحققين على الاشتباه بأنه هو الذي كان مستهدفاً عن عمد في تفجير تلك الطائرة، بناءً على سابقة استهداف طائرته في رحلة إفريقية بنية اغتياله، أو انفجار طائرة الأمين العام للمنظمة الدولية داغ هامرشولد في الأجواء الإفريقية مطلع الستينات.

نسبت الى تنظيم أبو نضال[15] المنشق عن «فتح» والرافض للحلول السلمية. لكن المرجح أنها عملية استخباراتية منسّقة.

•••

كان الجسم السياسي الفلسطيني بكامله تقريباً معارضاً لطروحات عصام السرطاوي، وحاولوا مراراً فصله وطرده من المجلس الوطني الفلسطيني وإبعاده عن ياسر عرفات، لكن عرفات استطاع حمايته واحتضانه في البداية، إلاّ أنه ما لبث أن تخلّى عنه، مبتعداً مسافة ملحوظة عن طروحات السرطاوي.

في لقاءاتي مع الدكتور السرطاوي في بيروت مطلع السبعينات من القرن الماضي، كانت فكرته عن الدولة الديموقراطية على كامل التراب الفلسطيني تلقى رواجاً، خصوصاً في أوساط اليسار اللبناني والعالمي. لكنها لم تكن مقبولة في أوساط «فتح» ومنظمات حليفة لها، على الرغم من تبني ياسر عرفات لها تبنياً إعلامياً ولفظياً، بدليل أنه سرعان ما تخلّى عنها لحساب مشروع الدولة الفلسطينية المستقلة الى جانب إسرائيل.

كنت أناقش السرطاوي عن المخاطر الكامنة في مشروعه، لأنه يتضمن عنصراً دينياً وطائفياً غير معلن، لكونه سيضم اليهود والمسلمين والمسيحيين على اختلاف شيعهم ومذاهبهم، وبالتالي سوف يقوم على الاقتسام الديني والطائفي والمذهبي للسلطة مما سيدفع بتلك الدولة الى منزلقات التناحر، وربما العنف، على خطوط التماس الدينية والطائفية، كما هو الحال في لبنان. وكان رأيه أن هذا الاحتمال وارد لكنه يبقى أقل خطراً من قيام دولة يهودية الى جانب دولة فلسطينية يطغى عليها الطابع الإسلامي، لأن الأديان والطوائف المتناحرة في دولة ديموقراطية تظل محكومة بالتوافق مهما طال الصراع، وبالتالي فإنها تبقي على البلاد موحدة وقابلة للتطور والتأثير في محيطها.

وبعد استقراري في لندن أواخر السبعينات، مرّ في العاصمة البريطانية مناحيم بيغن رئيس الحكومة الإسرائيلية آنذاك، قادماً من الولايات المتحدة على الأرجح، ، فأجرى معه الإعلامي البريطاني المعروف دايفيد فروست مقابلة تلفزيونية، بعدما ذاع صيت مقابلته المشهورة مع الرئيس الأميركي المستقيل ريتشارد نيكسون. وقد شاهدت مقابلة فروست مع بيغن في منزل الزميل سليم نصّار القريب من منزلي، آنذاك، وفيها طرح معه موضوع الدولة الديموقراطية في فلسطين، كما تبناها في حينه ياسر عرفات على أنها «دولة تتسع للمسلمين والمسيحيين واليهود»، فأجابه بيغن: «هذه إسرائيل دولة متسعة للمسلمين والمسيحيين واليهود وللملحدين أيضاً. فهل تتسع دولة عرفات للملحدين؟».

وفي أول لقاء لي مع السرطاوي في لندن بعد أسابيع من تلك المقابلة أبلغته ما قال مناحيم بيغن بهذا الخصوص ولا سيما النقطة المتعلقة بالملحدين، فقال

---

(15) أبو نضال هو الإسم الحركي الذي عُرف به صبري البنّا المنشق عن منظمة «فتح».

لي:

«هذا نوع من التعجيز الكلامي غايته إحراج عرفات أمام الحركات اليسارية في العالم. فإذا نظرت ملياً في الأمر، تجد أن الإلحاد والملحدين منتشرون انتشاراً خفياً كالفطر في الدول الديكتاتورية القمعية، حتى تلك المحكومة باسم الدين، لأن الديانة الوحيدة المعترف بها عملياً هي عبادة السلطة والعائلة والعشيرة والحزب وما الى ذلك. لكن في الدولة الديموقراطية لا يعود الإلحاد ديناً في مصاف الأديان السماوية، كما حاول أن يصوِّره بيغن. وربما قال بيغن ذلك لأنه هو ملحد بالفعل لكونه قاتلاً وإرهابياً، وإن ظهر بمظاهر التديّن».

ولم أقتنع تماماً بمطالعة السرطاوي حول هذه النقطة المتعلقة بحرية الإلحاد في الدولة الديموقراطية، لكنها بقيت في ذهني أتفكر بها كلما وقعت في بلادنا حوادث طائفية مريرة. وبعد سنوات من اغتيال السرطاوي عاد الموضوع الى ذهني بقوّة وأنا أقرأ السيرة الذاتية لـ آرييل شارون، وزير الدفاع الإسرائيلي الذي اجتاح لبنان، وبطل ثغرة الدفرسوار في مصر أثناء حرب أكتوبر 1973، بعنوان Warrior ، أو «المحارب»[16]، وهو كتاب ضخم كتبه له الصحافي والكاتب دافيد تشانوف[17]، وفيه يقول شارون حول موضوع الدولة الديموقراطية:

«نحن جئنا الى هنا (أي الى فلسطين) لنقيم دولة يهودية لا لنقيم دولة ديموقراطية».

وهذا الكلام الذي قاله شارون في كتابه، أكد لي أهمية طرح السرطاوي لحل دائم للمسألة الفلسطينية، خصوصاً لجهة تأكيده، في غمرة النقاش معه حول الموضوع، بأن دولة يهودية في فلسطين لا يمكن أن تكون دولة ديموقراطية، كما أن دولة فلسطينية إسلامية لن تكون كذلك. فالدولة الديموقراطية في ذهنه هي أن تتشكل من نسيج موحّد يضم يهود إسرائيل وجميع مكوِّنات المجتمع الفلسطيني كما هو قائم حالياً في فلسطين المحتلة وبين الفلسطينيين المهجّرين في الخارج.

ولست أظن أن فكرة السرطاوي عن الدولة الديموقراطية مطابقة للطرح الشكلي الذي تقدم به تالياً الزعيم الليبي معمر القذافي القائل بإبقاء فلسطين دولة موحّدة متشكلة من يهود وعرب باسم «إسراطين»، وهو اسم مركب من إسرائيل وفلسطين!

بعد ما يربو على أربعين سنة من مقالي «رؤوس القرنبيط» في «الكفاح» أسأل اليوم وقد جرى في لبنان وفلسطين والمنطقة ما جرى: «من هي رؤوس

---

(16) Warrior, The Autobiography of Ariel Sharon, with David Chanoff, Published by Simon and Schuster

(17) دافيد تشانوف كاتب وصحافي يهودي أميركي اشتهر في كتابه عن فيتنام والفيتكونغ خلال حرب التحرير الفيتنامية ضد القوات الأميركية.

القرنبيط؟».

أهي رؤوس الفلسطينيين اللاهثين وراء سراب المفاوضات التي انطلقت من أوسلو تحت الماركة المسجّلة باسم محمود عباس، وما زالت تجرجر أذيالها من خيبة الى خيبة؟

أم هي رؤوس الإسرائيليين المغترّين بالقوة المجردة التي تؤمنها لهم الولايات المتحدة وحلفاؤها، فهزمهم اللبنانيون لوحدهم، بل نصف اللبنانيين فقط، وفضحوهم، على الرغم من وضعهم الداخلي المشرذم؟

أم هي رؤوس حركة السلام الإسرائيلية المتلاشية أمام التعصب العنصري المتفاقم بين اليهود؟

أم هي رؤوس الفلسطينيين الذين يتوهمون بأنهم قادرون بالسلاح وحده تحرير بلادهم المغتصبة، فيفرضون على شعبهم المزيد من التضحيات العبثية، فوق تلك التضحيات العظيمة التي لم يقدم مثلها سوى قلة من شعوب أخرى في العالم لم تطل عذاباتها الى أكثر من سنوات معدودة، بينما العذابات الفلسطينية مستمرة ومتواصلة منذ قرن كامل، وليس لها نهاية في الأفق؟

تلك هي رؤوس القرنبيط التي يبدو لي إنها تعتاش وترتزق من هذه القضية على جانبيها الإسرائيلي والفلسطيني، ولا مصلحة لأي من رؤوسها في حل عادل ونهائي للمشكلة. فلا أحد من تلك الرؤوس يريد الحل، لأن الحل يجعلها عاطلة عن العمل ويسد أبواب الارتزاق في وجهها.

وبصرف النظر عن مسألة العدالة والحق التي تساق من هنا ومن هناك بين الحين والآخر، أريد هنا وضع جردة حساب مالية واقتصادية ترتبت على العالم كله وذهبت أدراج الرياح: فهل من يعطي للناس الذين باسمهم دُفعت الأموال وقُبضت منذ مطلع القرن الماضي عندما بدأت فلسطين تشهد هجرات يهودية متلاحقة، جواباً أكيداً وموثوقاً عن الأسئلة التي تقتضيها هذه الجردة:

كم دفعت الوكالة اليهودية والمنظمات المماثلة في العالم لتسهيل الهجرات اليهودية الأولى الى فلسطين؟

وكم دفع اليهود من أموال لتسليح وتجهيز المنظمات الإرهابية الصهيونية التي تحولت بعد إقامة دولة إسرائيل الى ما يسمّونه «جيش الدفاع الإسرائيلي»؟

وكم دفعت الأمم المتحدة من أموال أعضائها طوال ما يزيد على ستة عقود لإدامة وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا)، لتغطية نفقات الإعاشة الشهرية للاجئين، ونفقات بناء المدارس لتعليم أبنائهم في المخيمات، ودفع رواتب جيش من الموظفين يقومون على إدارة تلك الوكالة، وتوزيع إعاشاتها، على مر تلك العقود؟

وكم دفعت الولايات المتحدة من أموال دافعي الضرائب الأميركيين من مساعدات عسكرية ومالية واقتصادية للكيان الصهيوني منذ إنشائه الى اليوم؟

وكم دفعت الولايات المتحدة وحلفاؤها الأوروبيون الى مصر منذ اتفاقيات الصلح المنفرد مع إسرائيل في كامب دايفيد، والى الأردن للغاية ذاتها؟

وكم دفعت الدول والشركات والبنوك الأوروبية، وخصوصاً ألمانيا بسبب ما حل باليهود في العهد النازي، من تعويضات الى إسرائيل، وما زالت تدفع الى اليوم؟

وكم دفع المتبرعون اليهود في أميركا وأوروبا من هبات ومنح معفية من الضرائب الى إسرائيل والى الجمعيات الأهلية فيها؟

وكم دفعت الأمم المتحدة لإقامة وإدامة قوات الطوارىء الدولية في سيناء والجولان ولبنان، وما زالت الى الآن تدفع نفقات «اليونيفيل» في جنوب لبنان وعددهم خمسة عشر ألف جندي وضابط؟

وكم دفعت الدول العربية مجتمعة ومنفردة لتسليح جيوشها من الشرق والغرب باسم فلسطين والدفاع عن فلسطين والصمود والتصدي في وجه إسرائيل؟

وكم دفعت الدول العربية مجتمعة ومنفردة لإدامة منظمة التحرير الفلسطينية، وتمويل مختلف المنظمات الفلسطينية من «فتح» الى أصغر منظمة، وما زالت تدفع؟

وكم دفع الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة والدول العربية لإقامة وإدامة السلطة الوطنية الفلسطينية الشكلية، وقوات أمنها الوهمية؟

وكم دُفع من هنا وهناك طوال ستين عاماً لإعادة إعمار ما هدمته إسرائيل في حروبها العدوانية المتكررة على الدول العربية المجاورة، وترميم ما لم يتهدم نهائياً؟

وكم دُفع من هنا وهناك على مؤتمرات السلام المزعوم، وعلى الوفود، وعلى تذاكر الطيران والفنادق والمطاعم والمصاريف النثرية وغير النثرية؟

أحسبوا كل ذلك من فضلكم، واعطونا رقماً.. مجرد رقم يكون صحيحاً، لا كأرقام الموازنات العربية العلنية والسرية؟

لو كانت فلسطين مجرد أرض عقارية، لكانت تلك النفقات الخيالية أعلى كثيراً من قيمتها العقارية المجردة، لكنها ليست للبيع، ولو كانت للبيع لوافق السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، آخر سلاطين بني عثمان، على بيعها الى ثيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية الحديثة، وهو مفلس ودولته على شفا الانهيار؟

لا أظن أن أحداً في العالم قام بمثل هذا الحساب أو الجردة، لأنه لو فعل لطلعت في وجهه أرقام مخيفة لا تتسع لها الدفاتر ولا حتى أجهزة الكومبيوتر. لو أحصيت تلك المبالغ وجمعت، لوصل الرقم الى عشرات التريليونات من الدولارات التي ذهبت هدراً ومن غير طائل، بل كانت سبباً مباشراً في إطالة أمد

المشكلة واستعصائها على الحل.

تلك أيضاً هي رؤوس القرنبيط التي ارتكبت بذلك جرائم ضد الإنسانية بحق اليهود وبحق الفلسطينيين وبحق لبنان وبقية الدول والشعوب العربية، وبحق شعوب أميركا وأوروبا التي تم التمويل المهول المذكور من جيوبها وباسمها.

•••

قبل قيام دولة إسرائيل في عام 1948 لم تكن المنطقة العربية، ومنها على وجه التحديد منطقتنا المشرقية، المتعددة الأديان والطوائف والأعراق، تعرف عمليات الاغتيال والإرهاب والقتل الجماعي على النطاق الذي نراه اليوم، على الأقل خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. فقد كان القتل والإرهاب والتهجير السلاح الأول للمنظمات الإرهابية الصهيونية[18] خلال الانتداب البريطاني لفلسطين وبعده. وقد استهدفت تلك المنظمات الوجود البريطاني ذاته بتفجيرها مقر القيادة العسكرية البريطانية المنتدبة في فندق «الملك داوود» في القدس حيث سقط عشرات القتلى والجرحى من البريطانيين والعرب ومن اليهود أيضاً.

فاتحة القتل والإرهاب في المنطقة جاءت مع المنظمات الصهيونية في فلسطين. ولا حاجة لذكر مجزرة دير ياسين وغيرها من المجازر التي أدت الى تهجير مئات الألوف من الفلسطينيين ليصبحوا لاجئين في الدول المجاورة والبعيدة. وهذه حقيقة ناقشها واعترف بها مؤرخون إسرائيليون مرموقون يسمّون أنفسهم «المؤرخون الجدد» ومن أبرزهم «بني موريس» الذي أحدثت كتاباته حول الموضوع في تسعينات القرن الماضي ضجة داخل إسرائيل وفي الأوساط الثقافية العالمية[19]. وعندما بدأت تظهر أفكار المؤرخين الجدد في إسرائيل، انقسمت الآراء النقدية حول عمليات الإرهاب والقتل والتهجير التي أمر بها دايفيد بن غوريون، أول رئيس لدولة إسرائيل، بين رأي يدينها كجرائم ضد الإنسانية، ورأي يدين بن غوريون لأنه أوقف تلك العمليات بعد الموجات

(18) أبرز المنظمات الصهيونية الإرهابية في فلسطين هي: إيرغون، وليهي، والهاغانا، والبالماه. ومنظمة إيرغون منشقة عن الهاغانا ومن أبرز زعمائها مناحيم بيغن الذي أصبح فيما بعد رئيساً للحكومة الإسرائيلية. وليهي هي المنظمة التي عرفت باسم «عصابة شتيرن» المنشقة بدورها عن إيرغون، ومن أبرز زعمائها اسحق شامير الذي خلف بيغن في رئاسة الحكومة الإسرائيلية. وقد أصبح وزير الخارجية السوري فاروق الشرع نجم مؤتمر مدريد للسلام في خريف عام 1991 عندما وقف بحضور شامير رافعاً صورة رئيس الحكومة الإسرائيلية وهو مطلوب من السلطات البريطانية المنتدبة في فلسطين بتهمة الإرهاب والقتل الجماعي.

(19) اشتهر بني موريس بكتابه «أصل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين» الصادر عام 1988، ثم نقّحه وزاد عليه في طبعة ثانية صدرت في عام 2004. وقد تخرج موريس من جامعة كامبريدج البريطانية، وعمل عدة سنوات في الصحافة كمراسل لجريدة «جيروزاليم بوست» حيث غطّى لتلك الصحيفة حرب لبنان عام 1982، كما شارك في حصار العاصمة اللبنانية بيروت بصفته جندياً في الاحتياط في الجيش الإسرائيلي.

الأولى منها، باعتبار أنه من غير الممكن إقامة دولة يهودية صافية في فلسطين من غير تهجير جميع الفلسطينيين، سكان البلاد الأصليين، لكي تكتمل المقولة الصهيونية الأساسية، التي ولدت منها فكرة الدولة اليهودية في فلسطين في نهاية القرن التاسع عشر، وخلافاً للحقائق التاريخية، بأن «اليهود شعب من دون دولة، وفلسطين بلد من دون شعب».

بل إن آرييل شارون في كتاب مذكراته «المحارب» يصر على أنه لا وجود للشعب الفلسطيني، وأن الناس الذين كانوا فيها قبل مجيء اليهود هم «سكان قدموا من مصر»!

ولست هنا بصدد الكتابة عن فلسطين والفلسطينيين، أو عن اليهود والحركة الصهيونية، لكنني سقت هذه الملاحظات لتسليط الضوء على حالة الإرهاب والاغتيالات الواسعة التي شهدتها منطقتنا خلال العقود الستة الماضية منذ اغتيال الوسيط الدولي في فلسطين الكونت برنادوت[20] في القدس يوم 17 أيلول/سبتمبر 1948 على يد تنظيم «ليهي» الصهيوني الإرهابي.

•••

دخلت ذات يوم في مطلع الثمانينات الى فندق «شيراتون» اللندني في منطقة «نايتسبريدج»، فإذا بي وبمحض المصادفة وجهاً لوجه مع الديبلوماسي العراقي القديم عبد الجليل الراوي الذي عرفته سابقاً في بيروت. وكان الراوي قبل ثورة 14 تموز 1958 في العراق نجم الديبلوماسية العربية في لبنان حيث كان سفيراً لبلاده هناك، بسبب علاقته الوثيقة مع نوري السعيد، رئيس الحكومة العراقية في العهد الملكي الهاشمي، ومع كميل شمعون، رئيس الجمهورية اللبنانية، وغيره من السياسيين والقوى المعادية لعبد الناصر والمد الناصري.

وبعد السلام والكلام جلسنا نتحدث مستذكرين ماضي بيروت، خصوصاً فترة كميل شمعون التي اعتبرها الراوي «الفترة الذهبية» في تاريخ لبنان الحديث.

وبدأ حديثنا في تلك الجلسة عن الأدب والشعر، حيث أبلغني أنه اختلف مرة مع صديق له حول بيت من الشعر العربي القديم، هو:

لا تنثني الأنفسُ عن غيِّها / ما لم يكن لها من نفسها زاجرُ

الراوي يقول إنه لأبي نواس، وصديقه يصرُّ على أنه لأبي العتاهية. وأخيراً قررا الاحتكام الى الأديب الفلسطيني حسن الكرمي الذي أفتى لصالح الراوي. وبعد

---

(20) الكونت فولك برنادوت ديبلوماسي سويدي لمع نجمه في أواخر الحرب العالمية الثانية كمفاوض ناجح تمكن من إطلاق عشرات الألوف من أسرى الحرب والسجناء في معسكرات الاعتقال. واختارته الأمم المتحدة بالإجماع وسيطاً لها بين العرب واليهود في حرب فلسطين بتاريخ 20 أيار/مايو 1948. وتضمنت مقترحاته الأولى قبل اغتياله جعل فلسطين دولة اتحادية بين الفريقين المتنازعين تشمل شرق الأردن.

حديث الأدب والشعر فتحت له مواضيع سياسية ذات أفق تاريخي. فسألت عبد الجليل الراوي:

«لماذا كان نوري السعيد على ذلك الغلو في موالاته للغرب، والدخول في الأحلاف العسكرية معه، والعداء المفرط لعبد الناصر والحركات القومية واليسارية؟».

قال الراوي:

«هذا سؤال وجيه، وقد سألته بنفسي لنوري السعيد شخصياً؟»

قلت له:

«وماذا كان جواب نوري السعيد؟»

قال:

«أجابني نوري باشا إن الغربيين يفعلون بنا ما يفعلون ونحن أصدقاءهم، فكيف إذا كنا أعداءهم. إننا نمشي معهم ونغالي في ذلك اتقاءً لشرِّهم».

وسار الحديث بين عبد الجليل الراوي وبيني في هذا السياق الى أن مرّ ذكر الاستقلاليين الأوائل في لبنان وفي مقدمهم رياض الصلح الذي فاجأني الراوي بقوله إن اليهود قتلوه. فقلت له:

«لكن السوريين القوميين هم الذين قتلوه».

فقال:

«اليهود قتلوه بيد القوميين السوريين»!

قلت له:

«والملك الأردني عبد الله بن الحسين من قتله؟».

قال بدون تردد:

«اليهود»

قلت له:

«لكن المعروف أن الفلسطينيين هم الذين قتلوه؟».

قال مكرراً:

«اليهود قتلوه بيد الفلسطينيين».

قلت له:

«لا تقل لي إن اليهود هم الذين قتلوا كمال جنبلاط، ومعظم اللبنانيين تقريباً يتهمون السوريين بقتله؟»

قال:

«نعم اليهود قتلوه، وإذا كان قاتله سوري، يكونون قد قتلوه بيد سورية».

ثم استطرد قائلاً:

«لا أحد يقوم بمثل هذه الجرائم ضد الزعماء الوطنيين غير اليهود»!

وكان قبل فترة من الزمن أقيم في مقر بلدية «كنزينغتون» في لندن احتفال

تأبيني لكمال جنبلاط في الذكرى الأولى لاغتياله، حضره عدد من السياسيين البريطانيين ضم نواباً عن مختلف الأحزاب، وأعضاء في مجلس اللوردات، وعدد غير قليل من الصحافيين والأكاديميين والديبلوماسيين. وقد تكلم باسم اللبنانيين المحامي جبران مجدلاني الذي ألقى خطاباً بالإنكليزية لكن بمضمون لبناني ضيِّق تضايقت منه، وتضايق أيضاً بعض اللبنانيين الذين يعرفون كمال جنبلاط، لأن ما جاء فيه يمكن أن يُحكى في الصالونات اللبنانية المعتادة على «النكوزة» بالكلام المبطّن، لكنه لا يقال في محضر جمهور جدِّي رفيع المستوى.

لكن خطاب اللورد فانر بروكواي الذي تناقلته وكالات الأنباء في حينه بعد خطاب جبران مجدلاني الذي ضايق اللبنانيين، قدم صورة عن الزعيم الاشتراكي اللبناني أدهشت مستمعيه، حيث قال إنه عرف كمال جنبلاط عندما ناضلا معاً في عام 1936 من أجل استقلال مصر، وأضاف قائلاً:

«في أوروبا الغربية اليوم لا يوجد بين الإشتراكيين الأوروبيين شخص بمستوى كمال جنبلاط. وإذا شئت أن أسمِّي نظيراً له في أوروبا سابقاً، فإنني أقول إن جنبلاط لا يقل عن جان جوريز».

وكان اللورد بروكواي آنذاك، أي في عام 1978، قد بلغ من العمر تسعين عاماً، وبلغ المائة سنة عندما توفي. ومع أنه كان عضواً قديماً في مجلس اللوردات عن حزب العمال، لكنه كان أول المطالبين بإلغاء ذلك المجلس[21].

•••

اعتادت سفارات الدول الأجنبية في بيروت على دعوة الصحافيين اللبنانيين الى حفلاتها ومناسباتها، والى زيارة بلدانها. لكنني لاحظت من بداية عملي في الصحافة، وخصوصاً بعدما تسلمت رئاسة تحرير بعض المطبوعات في لبنان وفي الخارج أيضاً، أنه لم تصلني أي دعوة من السفارات الغربية أو سفارات الدول العربية المتحالفة مع الغرب. لا من سفارة الولايات المتحدة، ولا من سفارة أي دولة أوروبية غربية من ألمانيا الى إسبانيا والبرتغال، ولا من سفارة أي دولة عربية موالية للغرب من المملكة السعودية والكويت الى سلطنة عُمان والبحرين.

وبدا لي ذلك في حينه وكأنه يتم بموجب تعميم، أو إدراج متعمد على لائحة سوداء.

---

(21) ولد اللورد فانر بروكواي في مدينة كالكوتا الهندية حيث كان والداه يعملان في الإرساليات المسيحية. وانضم مبكراً الى «حزب العمال المستقل» حيث أصبح رئيساً لتحرير جريدة الحزب «الزعيم العمالي». ووقف ضد دخول بريطانيا في الحرب العالمية الأولى واعتقل وهو يوزع منشورات ضد التجنيد للحرب المذكورة. وعمل منسقاً للمتطوعين في الحرب الأهلية الإسبانية ضد قوات الجنرال فرانكو، ومن أشهر المتطوعين على يده الكاتب البريطاني المشهور جورج أورويل.

لكن ذلك تأكد لي من أحد المحامين اللبنانيين الذي لا علاقة له بمهنة الصحافة لا من بعيد ولا من قريب، حيث أخبرني أنه التقى في الطائرة المتجهة من باريس الى بيروت مسؤولاً في شركة أميركية كبرى، وكان هذا المحامي يحاول الحصول على وكالات من شركات أجنبية لها أعمال في لبنان وبلدان الشرق الأوسط.

وفي الحديث بينهما طوال الرحلة اقتنع الأميركي بقدرة المحامي اللبناني فتبادلا البطاقات ووعده بتوكيله عن شركته، فبات المحامي ليلته تلك يحلم بعقد توكيل من شركة عالمية كبرى يُحدث اختراقاً في حياته المهنية. لكن في اليوم التالي اتصل به المدير الأميركي معتذراً عن عدم قدرته على توكيله لأنه عرض الأمر على السفارة الأميركية في بيروت، فقالوا له إن اسم المحامي ذاك ليس على «اللائحة».

فسأله المحامي عن أي لائحة يتكلم وما هي تلك اللائحة، فقال له إن لدى السفارة الأميركية لوائح بأسماء لبنانية يجوز التعاون معها، وأخرى لا يجوز التعامل معها إلاّ بعد إدخالها في اللوائح، طالباً منه أن يسعى الى إدراج اسمه فيها إذا كان يرغب في العمل مع الشركات الأميركية.

واليوم بعد تقاعدي وانقطاعي عن العمل الصحافي، وليس عن الكتابة، أقول إنني لست آسفاً أو متلهفاً لدعوات السفارات، وحتى تلك القليلة التي كانت تدعوني بَقيتُ انتقائياً في حضور مناسباتها. والدعوة الوحيدة من دولة شرق أوسطية لفتت انتباهي ولبيتها هي دعوة السفير الإيراني منصور قدر[22] (وكنت يومها في جريدة «بيروت») الى غداء محدود في مكاتب سفارته في شارع الحمراء في رأس بيروت بعد اتفاق الجزائر في أواسط السبعينات بين محمد رضا بهلوي شاه إيران، وصدام حسين نائب الرئيس العراقي، مما أدى الى انهيار التمرد الكردي بقيادة الملا مصطفى البارزاني في شمال العراق بدعم من إيران وإسرائيل وأميركا، كما مرّ. وكانت دعوة منصور قدر أول دعوة تلقيتها في بيروت من سفارة دولة حليفة للمعسكر الغربي.

لفتني وأحرجني في تلك الدعوة اهتمام السفير الإيراني بي، فأجلسني الى جانبه وراح يحدثني عن أهمية وضع حد للنزف الخطير في موارد وثروات المنطقة وضرورة ذلك، لكي تتمكن من تقرير مستقبلها بعيداً عن القوى الخارجية والتدخل الأجنبي.

وفاجأني هذا الحديث بالنظر الى الصورة غير المستحبة التي كنا نحملها عن نظام الشاه وارتباطاته الخارجية، ولا سيما علاقاته مع إسرائيل. لكنني مع ذلك كنت أعرف أن للشاه محمد رضا بهلوي موقفاً متميزاً في موضوع النفط الذي

(22) أبلغني أحد الأصدقاء الإيرانيين في لندن أخيراً أن منصور قدر كان قبل التحاقه بالسلك الديبلوماسي ضابطاً في جهاز الأمن الإيراني المعروف باسم «سافاك» الذائع الصيت، وأنه لجأ الى الولايات المتحدة بعد الثورة الإسلامية التي أطاحت الشاه عام 1979.

وصفه يوماً بأنه «مادة نبيلة لا يجوز تبديدها كمحروقات»، من ضمن اهتماماتي التي أشرت اليها في السياق بالشؤون النفطية وأدبياتها.

واليوم، أرى أن إصرار الجمهوية الإسلامية الإيرانية على تطوير برنامجها النووي، وهو برنامج بدأ في زمن الشاه، يشكّل ترجمة عملية لهذه النظرة الى النفط الذي يجري تبديده باستخدامه كوقود، بينما يمكن استخدامه لأغراض إنسانية مختلفة في صناعات الغذاء والدواء والأسمدة ومجالات كثيرة غيرها.

وفي تقديري أن السفير منصور قدر كان يشير الى الوضع القائم بين إيران والعراق آنذاك، وأن العداء والاقتتال بينهما، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، يعرِّض ثروات وطاقات البلدين للتبديد، ولا يخدم سوى القوى الخارجية.

ولست متأكداً الى هذه اللحظة من إشارته الى أن الهدف الحقيقي من اتفاق الجزائر لم يكن يتعلق بأي مكسب حدودي، بالنسبة الى شط العرب، فلا فرق أن يكون خط الحدود عند الشاطىء الإيراني كما كان، أو في الوسط، أو عند الشاطىء العراقي، لكن ذلك كان تبريراً للاتفاق الذي غايته الحقيقية «وقف الاستنزاف». بمعنى أن الاتفاق تم تسويقه باعتباره يعطي مكسباً لإيران، لكن هذا المكسب لا قيمة عملية له.

هذه المطالعة لم تغيِّر رأيي في نظام الشاه، لأن المقياس الأساس في نظري، كان ولا يزال، هو الموقف من إسرائيل. وقد كنت من وقت مبكِّر ملمّاً بتاريخ إيران الحديث منذ الحركات الدستورية الأولى في مطلع القرن العشرين، حيث كان الإيرانيون سبّاقين الى إقامة دولة دستورية، مع أنها لم تعمِّر طويلاً، ومنذ حكومة محمد مصدِّق التي أمّمت النفط وطردت الشاه الذي أعاده الأميركيون وحلفاؤهم بانقلاب عسكري، وملمّاً بالدور الشعبي والوطني للمؤسسة الدينية التي قادها في ذلك الوقت آية الله الكاشاني[23].

ولم تتكرر تلك الدعوة. وأظن أن السفير قدر كان يتوقع مني أن أوصل رسالة بمضمون ما قاله الي العراقيين، وهو لا يعلم أنني لست بمثل هذا الوارد، فلا أنقل رسائل أو كلاماً لأحد، ولا أوشوش في أذن أحد، لا من قبيل النصيحة ولا من قبيل النميمة، وأقول رأيي على رؤوس الأشهاد.

---

(23) هو آية الله أبو القاسم الكاشاني الزعيم الديني المعارض لنظام الشاه محمد رضا بهلوي، وكان مؤيداً ومناصراً لتنظيم «فدائيان إسلام» الذي أقامه رجل الدين نواب صفوي لمقاومة النظام بالسلاح بما في ذلك الاغتيالات السياسية، وكان ذلك من المآخذ على آية الله الكاشاني الذي سجنه الشاه في سجن «خرّم اباد» بعد محاولة من التنظيم المذكور لاغتياله في عام 1949، لكن الشاه عاد فأفرج عنه ونفاه الى لبنان حيث مكث نحو ثمانية عشر شهراً. وأثناء وجوده في لبنان قامت حكومة الجبهة الوطنية برئاسة الدكتور محمد مصدق بتأميم شركات النفط الأجنبية، فأبرق من لبنان مؤيداً مصدق في هذه الخطوة، ثم عاد الى طهران بعد رحيل الشاه فجرى له استقبال حاشد كالذي جرى للإمام الخميني بعد عودته من منفاه الباريس، حيث كان بإمكانه أن يستولي على السلطة كما فعل الخميني تالياً، لكنه لم يفعل، بل ما لبث أن انقلب على حكومة مصدق الوطنية بسبب إصرارها على علمانية الدولة.

•••

بعد أشهر من وجودي في رئاسة تحرير الجريدة بدأت تظهر مضايقات في بغداد لرياض طه، مع أنني رأيت بعيني على هامش قمة طرابلس في مطلع صيف 1970 مدى احترام الرئيس البكر له. وساورتني شكوك بأن تلك المضايقات كانت تستهدفني أكثر مما استهدفت رياض طه الذي كان من الطبيعي مراعاته، على الأقل، بصفته نقيباً للصحافة اللبنانية. ولم أبح بشكوكي هذه لأحد، لأنني بقيت حائراً في الأمر وليس في الظاهر ما يؤكد ذلك.

وعندما قام الرئيس حافظ الأسد بالحركة التصحيحية في دمشق يوم 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1970، أرسلت اليه في اليوم ذاته برقية تهنئة باسمي كرئيس تحرير لجريدة «الكفاح»، اعتقاداً مني بأن تلك الحركة سوف تُحدث انفراجاً ليبرالياً مطلوباً في سوريا وبقية العالم العربي.

لم أقل لأحد عن تلك البرقية، ولم أتشاور فيها مع أحد. وفي لقاءاتي التالية مع ميشال عفلق، لاحظت أن موقفه من الحركة التصحيحة التي قام بها الأسد في دمشق أكثر ميلاً الى الارتياح منه الى الانزعاج. ومع ذلك لم أفاتحه في الموضوع السوري، بل أردت أن أسمع رأيه بمبادرة منه.

ثم جاءت المبادرة من حافظ الأسد عندما أصدر قراراً بحفظ حكم الإعدام الصادر من النظام السوري السابق بحق ميشال عفلق، وكانت تلك إشارة إيجابية منه تجاه مؤسس الحزب على وجه التحديد، لأن قرار الحفظ الذي اتخذه الأسد شمله وحده من دون سائر المحكومين من القيادة القومية السابقة للحزب. وعلمت تالياً أن ميشال عفلق لم يمانع في عملية جس نبض غير مباشرة قام بها الشاعر الفلسطيني كمال ناصر كوسيط بين عفلق والأسد، لكنها لم تصل في تقديري الى أي نتيجة، ربما لأنها لم تكن جديّة من الفريقين.

وفي تحليلي الشخصي، وليس استناداً الى أي معلومات مباشرة، أن من الأسباب الحقيقية لتوقف تلك المفاتحات، التطورات التي جرت في بغداد بصعود صدام الى الواجهة بعد إبعاد حردان التكريتي وتحميله، بصفته وزيراً للدفاع، مسؤولية تراجع الجيش العراقي أثناء الاشتباكات بين الجيش الأردني والفلسطينيين في أيلول/سبتمبر من عام 1970، ومن ثم إبعاد صالح مهدي عماش، وصلاح عمر العلي، الذي أُبعد الى القاهرة في البداية، ثم انتقل الى بيروت بعد حوادث الأردن. ذلك أن الأسد لم يكن مرتاحاً الى صدام حسين، ومن الطبيعي أن يكون غير مرتاح لدعم عفلق لصدام.

وفي تقديري اليوم أن تلك المفاتحة الابتدائية التي جرت مع مستهل الحركة التصحيحية بين الرئيس حافظ الأسد وميشال عفلق حملت في طياتها نوعاً من إعلان النوايا لمرحلة ما في المستقبل، لأن الظروف السائدة في حينه لم تكن تسمح بمتابعتها. ولم أكن على اتصال مع عفلق خلال الفترة التي تم فيها

توقيع ميثاق العمل القومي بين دمشق وبغداد عام 1978 رداً على صلح مصر مع إسرائيل، لأعرف منه موقفه الحقيقي من ذلك الميثاق الذي أتاح الفرصة لعفلق كي يجدد اتصاله مع دمشق. لكن الانقلاب الدموي الذي قام به صدام حسين في بغداد ضد التفاهم السوري ـ العراقي منتصف عام 1979 أعاد خلط الأوراق ورسم اتجاهات جديدة تمثلت تالياً بالحرب مع إيران. ومن غير أي معلومات أو معرفة مباشرة بما جرى في تلك المرحلة أستطيع أن أتصور المواقف الناشئة في ذلك الوقت، ومنها موقف ميشال عفلق الذي أعتقد أنه كان يميل الى التفاهم مع دمشق، وأنه لم يكن يتوقع ما كان يخطط له صدام حسين مع الأميركيين عبر الملك حسين.

وكان أن أوقف العراقيون تمويلهم لجريدة «الكفاح» نهائياً عام 1971، مما اضطر رياض طه الى إقفالها في اليوم الأخير من تلك السنة، عشية عيد رأس السنة الجديدة.

أما أنا فكانت لي بداية جديدة مع صحافة من نوع جديد.

VII

«عالم النفط»

في السنوات الأولى من الستينات بعد عودتي من العراق، وخلال عملي في الصحافة ثم في البنك المركزي، عملت أحياناً في أوقات الفراغ في الترجمة، ومن ذلك ترجمة كتاب «الكويت وجاراتها». لكنني بسبب خبرتي في صناعة النفط أثناء وجودي في «أرامكو»، تيسر لي في بيروت تالياً أن أساعد في تحرير نشرة نفطية أصدرها من العاصمة اللبنانية الصحافي السعودي عبد العزيز مومنة، وذلك لفترة قصيرة. وكانت مكاتبها قبالة مكاتب «الأحرار» بالقرب من فندق بريستول، فكنت أطلّ على عبد العزيز بين حين وآخر. وأظن أن عبد العزيز مومنة عمل أيضاً في «أرامكو» لفترة من الوقت، لكنني لا أذكر أين، ومتى، وبأي صفة أو دائرة.

ومنذ ذلك الوقت لم أعد على اتصال معه، الى أن التقيته في لندن أواسط الثمانينات من القرن الماضي، وكان مع زوجته اللبنانية في العاصمة البريطانية، فجلسنا في مكان قريب من مكاتب «الصياد»، حيث كنت أكتب، قبالة «باكينغهام بالاس» المقر الرسمي لملكة بريطانيا.

كذلك كنت أساعد أحياناً الصديق الآخر الذي عمل في «أرامكو» في قسم الترجمة، مكرم عطيّة، الذي عاد الى بيروت حيث أسس داراً للترجمة والنشر، بموجب ترتيبات أجراها مع «أرامكو» شبيهة بالترتيبات التي أجراها منير أبو حيدر في قسم المشتريات، لكن على نطاق أضيق. وكان هذا العمل يقوم أساساً على الترجمة.

والصديق الراحل مكرم عطيّة هو نجل المرحوم وديع عطيّة الذي كان على صلة وثيقة مع كل من الرئيسين كميل شمعون وسليمان فرنجية، وكان يملك جريدة «الدستور»، الموالية في الأصل لكميل شمعون، واشتراها لاحقاً، وبعد توقفها عن الصدور بسنوات، الزميل علي بلوط الذي أصدرها بشكل مجلة أسبوعية، ثم انتقل بها الى باريس ومنها الى لندن خلال الحرب اللبنانية.

•••

قبل أن يُصدر مكرم عطيّة مطبوعة «عالم النفط»، كان اهتمامه حصراً بعقود

الترجمة، كامتداد طبيعي لعمله السابق في «أرامكو». وقد دخلت أنا على هذا الخط عندما شكّل مكرم فريقاً لترجمة كتاب ضخم عن صناعة النفط لشركة «شل/الملكية الهولندية»، بموجب عقد مع تلك الشركة. وقد توليت ترجمة جزء من الكتاب، الى جانب المترجم الرئيسي في منتصف الستينات معد الكيالي. والكتاب المذكور هو دليل تقني رفيع المستوى يتناول بالتعريف والبحث جميع مراحل الصناعات النفطية والبتروكيماوية، مع صور فوتوغرافية وبيانية ملوّنة ومتقنة.

ومع أننا كنا نعرف أشياء كثيرة عن صناعة النفط بحكم عملنا السابق في «أرامكو»، إلاّ أننا كنا على وجه العموم مبتدئين في هذا المجال البالغ التعقيد. ولذلك وجدنا من المناسب أن نحصي التعابير النفطية ونوحدها على بطاقات بحيث تكون هناك بطاقة لكل تعبير أو مصطلح، مع ترجمته أو شرحه بالعربية.

ومن هذا التدبير، نشأت فكرة لدى مكرم عطيّة، جرى تداولها مع معد الكيالي ومعي، تقضي بإصدار قاموس خاص بالمصطلحات البترولية، بالنظر الى أن القواميس العلمية والتقنية العربية كانت، ولا تزال، شحيحة وغير وافية بمواكبة التقدم العلمي العالمي. وتقرر أن نبدأ العمل على قاموس المصطلحات البترولية انطلاقاً من التعابير والمصطلحات التي واجهتنا في دليل شركة «شل».

لكن عملي هذا كان جزئياً فلم أكن متفرغاً له. ولذلك تركت العمل بعد صدور دليل «شل» لانشغالي بتأسيس مجلة «الأحرار». كما أن معد الكيالي، وهو من خبراء الترجمة المشهود لهم، لكنه كان بطيئاً في العمل أو يأخذ راحته، كما يُقال، ترك هو الآخر لأسباب لا أعرفها، فاستعان مكرم عطيّة لإنجاز القاموس بالأستاذ نزيه الحكيم[1]، وهو سوري متمرس باللغات ويتقن الفرنسية كما يتقن العربية والإنكليزية، فأنجز ذلك القاموس الأول من نوعه في العالم العربي باللغات الثلاث، وقامت بنشره «مكتبة لبنان». ولا أدري ما إذا كانت صدرت منه طبعات جديدة ومنقحة، لكنني أشك في ذلك.

ومع أن معد الكيالي كان بطيئاً في العمل، وبالتالي فإن عمله بالشكل المذكور

---

(1) نزيه الحكيم هو الزوج السابق لشقيقة ميشال عفلق، وقد عمل في الصحافة عندما أسس مع الأستاذ أحمد عسه جريدة «الرأي العام» في دمشق عام 1954، ثم أسس جريدة خاصة به في عهد الانفصال عام 1962 اسماها «الوحدة العربية». وقبل ذلك عمل في السلك الديبلوماسي السوري، ثم أعطي منصب مدير عام وزارة الأنباء عام 1949 وبقي فيه الى نهاية عهد أديب الشيشكلي، وبعدها انتقل الى لبنان ومصر، ثم عمل بعد ذلك في قسم الترجمة للأمم المتحدة في نيويورك. وقد ترجم عشرات الكتب ذات الصلة بالتجارب الثورية والاشتراكية في العالم، ووضع في بيروت أواخر الستينات كتاباً بعنوان «دفاعاً عن الثورية». وفي بيروت أيضاً ترجم كتاب المفكر الفرنسي روجيه غارودي «ماركسية القرن العشرين» (دار الآداب 1967). وكان قبل ذلك في دمشق قد ترجم كتاب أندريه جيد «الباب الضيِّق» الذي كتب له مقدمته عميد الأدب العربي طه حسين. ولاحقاً في بيروت كتب مقدمة كتاب منير الريِّس باسم «الكتاب الذهبي للثورات العربية» (دار الطليعة، بيروت، 1969). وقد تزاملت معه لفترة وجيزة أثناء وضع قاموس المصطلحات البترولية في «دار الترجمة والنشر لشؤون البترول» لصاحبها مكرم عطية في بيروت.

لم يكن مجدياً من الناحية الاقتصادية، إلاّ أنه كان متقناً في صياغة ونقش العبارات والمصطلحات الجديدة، وفي تركيب الجمل تركيباً أدبياً جميلاً لا تعوزه صناعة النفط. والكيالي متزوج من السيدة ليلى إتيِّم شقيقة الصحافي النفطي الرائد فؤاد إتيِّم الذي أصدر أول مطبوعة نفطية متخصصة باللغة الإنكليزية في العالم العربي أطلق عليها «النشرة الإقتصادية للشرق الأوسط» Middle East Economic Survey - MEES التي أناط رئاسة تحريرها بالصحافي الإنكليزي إيان سيمور، وكان لها نفوذ كبير في الأوساط النفطية، الصناعية والسياسية. وقد أسس فؤاد إتيِّم تلك المطبوعة في أواخر عام 1957، وانتقلت خلال الحرب اللبنانية من بيروت الى قبرص. ومع أن مؤسسها توفي في وقت مبكر، إلاّ أنها ما زالت تصدر الى اليوم، وقد فازت بجائزة تقديرية كأحسن مطبوعة متخصصة في عام 2000.

وربما كان أن نجاح فؤاد إتيِّم في تجربته هذه، هو الذي حفّز مكرم عطيّة على إصدار مطبوعة مشابهة باللغة العربية أسماها «عالم النفط». وقد عاونت مكرم في هذه المهمة في البداية بصورة جزئية، بالطريقة ذاتها التي تعاطيت فيها مع مطبوعة عبد العزيز مومنة من قبل. وكان من المؤمل أن يقوم الإثنان معاً بإصدار مطبوعة واحدة بالشراكة، لكن هذا المسعى لم يصل الى نتيجة، فأصدر كل منهما مطبوعته الخاصة.

ويبدو لي بعد أكثر من نصف قرن تقريباً على تلك التجارب الرائدة، أن عمل معد الكيالي مع مؤسسة مكرم عطية («دار الترجمة والنشر لشؤون البترول»)، كان بمثابة احتجاج على نسيبه فؤاد إتيِّم شقيق زوجته ليلى لأنه لم يستعن به في مطبوعته الإنكليزية. وكنا، مكرم وأنا، على علاقة طيِّبة مع فؤاد إتيِّم، ولم يكن هناك شعور بالمنافسة أو الرغبة في المنافسة، بدليل إصدار مكرم لمطبوعته باللغة العربية، مع أنه كان بالإمكان إصدارها باللغة الإنكليزية.

لكن مطبوعة فؤاد إتيِّم الإنكليزية، تحت رئاسة تحرير إيان سيمور، بقيت المرجع الأول في العالم لسياسات واقتصاديات النفط والغاز في منطقة الشرق الأوسط، ولم تستطع إزاحتها عن هذا العرش أهم مطبوعة أميركية مماثلة صدرت بعد أربع سنوات من MEES، هي : «بتروليوم إنتليجنس ويكلي». والمطبوعتان كلتاهما، «عالم النفط» والمطبوعة الأميركية المشار اليها، آلت ملكيتهما تالياً الى زميلي في الجامعة رجا وديع صيداوي، الذي دخل الى «عالم النفط» بعد خروجي منها في عام 1973 وترأس تحريرها.

•••

أقفلت جريدة «الكفاح» أبوابها في اليوم الأخير من عام 1971، كما مرّ، وفي مطلع السنة الجديدة عدت الى «عالم النفط»، وأدرت ظهري للصحافة السياسية. والى جانب المطبوعة النفطية كان هناك فريق الترجمة الذي ضم

عدداً من الأشخاص بعضهم من المبتدئين الذين كنا نقوم بالإشراف على إنتاجهم. وكان في عداد هذا الفريق الزميل الراحل وليد بركات، وأمل حرب، وراغدة سعادة الإبنة الصغرى للزعيم أنطون سعادة (زوجة المهندس الزراعي سركيس سعادة)، وأنيس الطويل، وفتاة بريطانية تدعى بريسيلا وغيرهم.

وبابتعادي عن الصحافة السياسية، خفّت علاقاتي مع الحزبيين ومع الصحافيين والسياسيين، كما خفّت أيضاً مع ميشال عفلق ومع العراقيين. فمنذ عام 1971 خفّت زياراتي الى بغداد أيضاً، فقد زرتها مرة عندما رافقت صدام حسين مع صحافيين آخرين الى موسكو في رحلة سريعة عام 1975، ومرة عندما دعيت اليها مع السيدة أميّة اللوزي صاحبة مجلة «الحوادث» في عام 1981. ثم زرتها لمقتضيات صحافية لمجلة «الحوادث» في عام 1983، وكانت الزيارة الأخيرة والخاصة في أواخر عام 1985.

لكنني بقيت على علاقة متقطعة مع ميشال عفلق، خصوصاً بعد حادث السير المروِّع الذي تعرضت له في البقاع صيف عام 1972، حيث أصبت بكسور بالغة في قدمي اليمنى ويدي اليمنى أيضاً، وتحطمت سيارتي تحطماً كاملاً، مما استدعى نقلي الى مستشفى تل شيحا في زحلة حيث بقيت عدة أيام، وتعطلت عن العمل مدة تزيد على ثلاثة أشهر. وقد زارني في المستشفى كثيرون من قدامى الزملاء في الصحافة السياسية، منهم محمد باقر شري، ورياض طه، ورجا صيداوي (الذي حمل اليّ صندوق سيجار كوبي كنت أدخنه في ذلك الوقت)، وبرفقته الزميل ميشال أبو جودة، ومنح الصلح، وغيرهم.

وبعد فك الجفصين عن كسوري التي برأت واضطراري بسبب ذلك الى معاودة رياضة المشي، عدت الى التمشي المسائي مع ميشال عفلق في الأماكن القريبة من البحر والبعيدة عن الناس، لكن بوتيرة أقل من السابق. ومن غرائب الأشياء أن الأحاديث بيننا هذه المرة كانت في منأى تام عن السياسة، ربما لأن عفلق استشعر أنني ابتعدت عن الصحافة السياسية، وصار حديث السياسة لا يعنيني، فتناولت المواضيع بعض المقولات الفلسفية، الوجودية وغير الوجودية، وتصورات عن الفكر الألماني في الأدب والفلسفة في القرن التاسع عشر (ماركس والماركسية، هيغل، كانت، نيتشه، غوته، هيردر، هايدغر، وغيرهم). وفي أحد المشاوير تناقشنا طويلاً في قول هيردر : «إنني أشعر وألمس عن بعد». فقد استندت في تحليل هذا القول على رسالة من تلميذ له يقول فيها إن كتابات أستاذه هي «وحي من الله»، لأصل الى تفضيله العواطف على العقل[2]، بينما استطرد عفلق طويلاً في تحليله للموقف العاطفي كتعبير عن الحالة القومية، لأن العاطفة القومية هي الطريق الوحيد لاستشعار الذات عند

(2) في تفضيله العاطفة على العقل تأثر هيردر بهامان الذي اختاره ليكون أستاذه بدلاً من كانط. وله موقف معروف من التاريخ يقوم على الاستشعار الذاتي وليس على التحليل العقلي، وهذا الموقف الفلسفي لهيردر يتقاطع مع المفهوم العاطفي للقومية العربية الذي قال به ميشال عفلق.

الفرد، ومن فقدها فقد ذاته.

ثم تناقشنا مرة في موضوع التقدم العلمي، وهو موضوع طرحته أنا من زاوية أن التقدم العلمي خارج الإطار المتعلق بحياة الإنسان على الأرض، كالتقدم الطبي والغذائي والطاقة الشمسية، سوف يصل الى مرحلة يصبح معها عبثياً وربما خطيراً على البيئة الإنسانية. وقد مازحني في البداية بقوله إنه من غير المجدي أن نضيِّع الوقت في هذا الموضوع طالما أنه ليست في الأمة العربية بحوث علمية يُعتد بها، وبالتالي فإنه لا يعنينا في الوقت الحاضر، لكنه عاد الى الجديَّة بالقول إن كل تقدم محفوف بالمخاطر، خصوصاً في مرحلة مواءمة الجانب النظري من الفكر المجرد بالتطبيق العملي من خلال التجربة والخطأ. ثم إن قلة من الباحثين في مجال العلوم يفكرون قبل المحاولات التطبيقية بما هو نافع للإنسانية وبما هو عبثي، بل إنهم يفترضون النفع المطلق لأن ذلك من طبيعة العلم ذاته. وكان هذا نقاشاً طويلاً يستحق كتاباً لوحده. والغريب في الأمر طرح الموضوع في ذلك الوقت المبكر، وقد بات اليوم من أهم مواضيع النقاش في العالم، خصوصاً مع الوعي العالمي لقضايا البيئة، والاستنساخ، والتعديل الجيني للكائنات الحيّة والمزروعات، وما الى ذلك.

لكن أخطر ما قاله لي ميشال عفلق في حينه حول الموضوع إن التخلف العلمي العربي الراهن مرده الى مشاريع التجزئة التي فرضت على العرب من قبل القوى الدولية النافذة التي تعادي النهضة العربية. وفي رأيه آنذاك أن الدول الأجنبية القوية تتعمد تدمير المجتمعات في الدول الضعيفة ليس فقط من أجل الاستيلاء على مواردها الطبيعية، بل لمصادرة العقول العلمية فيها بحجة أنه ليست في بلادها فرص متاحة لها، وتدعي أنها تتيح الفرص لهؤلاء باستضافتهم للإفادة من علمهم وبحوثهم. تلك الدول تعطيهم الفرص لخدمتها هي لا لخدمة أوطانهم الأصلية التي تعمل تلك القوى على تفتيتها وتفكيكها وتدميرها ونهبها عن سابق تصور وتصميم. هي تحرمهم من الفرص في بلادهم لتقول إنها تتيح لهم الفرص في بلادها. ولذا فإن السياسات الاستعمارية هذه لا تتوخى فقط نهب الموارد الطبيعية والسطو عليها، وإنما تبتغي وربما في الدرجة الأولى السطو على العقول العلمية فيها في ربحية مزدوجة لها: الإفادة من نتاج وعصارة تلك العقول، وإدامة الضعف والتخلف في المجتمعات الأصلية لهؤلاء العلماء المسطو عليهم بحجة إتاحة الفرص لهم.

وخلال النقاش في هذا الموضوع قال عفلق إن المجتمعات العربية والشرقية عموماً قابلة للتطور السريع لأنها تملك مخزوناً كبيراً من المعرفة تراكم لديها عبر القرون، من حضارات الهند والصين واليابان الى الحضارتين القريبتين الفارسية والعربية. ولذلك فإن من أبرز أهداف الهيمنة والتجزئة على الشرق، وعلى العرب خصوصاً، هو منعهم من التواصل مع مخزونهم من المعرفة والبناء

عليه، وبالتالي فإن الوحدة القومية العربية هي المعبر الوحيد الى التقدم العلمي العربي، وهو أمر لن يستطيع تحقيقه أي قطر عربي بمفرده، حتى لو تخلّص من الهيمنة الأجنبية.

•••

عندما يعمل الصحافي في مجال متخصص مثل النفط، يُصبح حسّاساً تجاه الأخبار والشؤون النفطية. فإذا وقع على خبر مهم يصبح لزاماً عليه أن يحيط بكل جوانبه من خلال البحث والتدقيق، والرجوع الى الخلفيات، ومحاولة تحديد المرامي والأهداف، حتى لو دخل فيما بعد في مجالات صحافية أخرى. ويوم كنت أدير الملحق الاقتصادي لجريدة «الأنوار» في أواخر الستينات وأنا في إجازتي غير المدفوعة في البنك المركزي، جاء في الوكالات خبر عن إثارة بعض السياسيين الأميركيين موضوع علاقة ما للرئيس ريتشارد نيكسون، قبل انتخابه للرئاسة، بالحصول لأحد رجال النفط على رخصة لإقامة مصفاة لتكرير النفط المستورد من الشرق الأوسط في شمال كندا.

طبعاً، الذين أثاروا الموضوع في واشنطن أرادوا تشويه صورة نيكسون بالقول إنه استخدم نفوذه السياسي من أجل الحصول على منفعة ما، سياسية أو مالية، من جراء ذلك.

وكنت أعرف من خلال متابعاتي السابقة في «عالم النفط» أن رجل النفط المقصود هو بوب شاهين اللبناني الأصل، الذي كانت له علاقات مع بعض السماسرة العرب في تجارة النفط، وهي قصة تكشفت فيما بعد عن غوامض كثيرة أدت في النتيجة الى إغلاق المصفاة وإفلاس شركة بوب شاهين، والدخول في منازعات قانونية معقدة استمرت سنوات طويلة وبلغت تكاليفها ما لا يقل عن نصف مليار دولار بعملة ذلك الوقت.

وقد بدأت القصة بوصول جون ديفينبايكر الى رئاسة الحكومة في كندا كأول سياسي محافظ يصل الى السلطة في أوتاوا بعد ثلاثة عقود من وجود المحافظين خارج الحكم، وهي ثلاثة عقود من الجفاء بين السياسة الكندية والسياسة الأميركية. لكن ديفينبايكر فور وصوله الى الحكم (ومكوثه فيه فترة طويلة) أقام علاقات جيدة مع الرئيس الأميركي آنذاك دوايت أيزنهاور ونائبه المحامي ريتشارد نيكسون، وتم الاتفاق بين الفريقين من باب النفط أولاً، حيث اقتضى ذلك التفاهم تصدير النفط الكندي جنوباً الى الولايات المتحدة، وإقامة معامل تكرير في القسم الشمالي من كندا تعمل بالنفط المستورد من الخارج.

والقصة التي نشرتها في ملحق «الأنوار» الاقتصادي آنذاك عن الموضوع تدور حول استحصال نيكسون لبوب شاهين، كواجهة لسماسرة نفط عرب، رخصة بناء المصفاة الكندية في مقاطعة نيوفاوندلاند القريبة من أوروبا في شمال

الأطلسي، مستغلاً العلاقة الطيبة المستجدة بين أوتاوا وواشنطن، على أساس أن يقوم بوب شاهين ببناء المصفاة وإيجاد التمويل اللازم لها من المصارف، وأن يقوم السماسرة العرب بشراء نفط عربي رخيص لتشغيلها. وكان التدقيق الأميركي في الأمر يدور حول ما إذا كانت لنيكسون مصلحة سياسية أو مالية مباشرة لقاء صرف نفوذه لدى رئيس الحكومة الكندية على هذا النحو، لا سيما أن ديفينبايكر هو من الزعماء التاريخيين في السياسة الكندية.

وفي عام 1984 التقيت بوب شاهين على عشاء خاص في منزل بسام فريحة، ناشر مجلة «الصياد»، في لندن، وكان بادياً عليه تدهور حالته الصحية، وربما كان يحاول من خلال بسام فريحة تجديد بعض علاقاته القديمة في الخليج، أو ربما إقامة علاقات جديدة. لكنه كان واضحاً خلال حديثي معه أن الوقت قد فاته.

حاولت إدخال البهجة الى نفس بوب شاهين في ذلك اللقاء بقولي له ممازحاً: «ألا ترى اليوم بعد التجربة الطويلة أن الغوص في بحر النفط هو من قبيل باطل الأباطيل؟».

فابتسم ابتسامة رجل مريض، مشيراً الى أن بعض السماسرة العرب الذين اتكل عليهم كذبوا عليه، وقال:

«أبلغني صديق لبناني كان على علاقة وثيقة مع أحد شيوخ الكويت النافذين في حينه، أنه يستطيع من خلال علاقته هذه أن يتدبر لي شحنات من النفط الكويتي على أهون سبيل، لكنه ذهب ولم يعد. ثم التقيته بعد سنوات قليلة في مناسبة خاصة، وعاتبته، فقال إنه فاتح الشيخ الكويتي فنصحه الشيخ بعدم الدخول في الموضوع».

وسألته:

«ألم يقل لك ما هي حجة الشيخ في هذه النصيحة؟».

أجاب شاهين، والعهدة على الراوي:

«قال له الشيخ، كما ادعى، إن النفط مادة وسخة وملوِّثة، فلا تلوِّث يديك بها».

وقد ضحكنا لهذا الكلام، خصوصاً أن الشخص المعني قال له كلام الشيخ وهو يعنيه بصورة جدِّية، كما روى. أما رأي بوب شاهين في ذلك فهو أن هناك سماسرة أقوياء ينتمون الى شيوخ آخرين لا يريد الشيخ المذكور أن ينازعهم.

ولا أذكر من قال لي مرة بعد ذلك، عندما انفجرت القضية المعروفة باسم «إيران كونترا»، خلال عهد الرئيس ريغان في عام 1985، ودور تجار النفط والسلاح فيها، وبروز اسم السمسار الإيراني منوشهر غوربانيفار الى جانب اسم السعودي عدنان خاشقجي، (وهو موضوع سوف أعود اليه لاحقاً)، أن خاشقجي ربما كان شريكاً لبوب شاهين في المشروع الكندي.

•••

الصيغة التي قامت عليها مطبوعة «عالم النفط» هي في الحقيقة صيغة مثالية

للحفاظ على دورها من خلال استقلاليتها سواء عن المصالح الشخصية، أو عن مصالح الشركات والقوى النافذة. وقوام هذه الصيغة أن تصدر المطبوعة عن دار للنشر والترجمة من خلال مكوِّنات تلك الدار وإمكاناتها الذاتية بحد أدنى من النفقة. أي أن تعيش هي وصاحبها من الدار لا أن يعيشوا هم منها، بعكس الصيغ السائدة في الصحافة اللبنانية ووسائل الإعلام المختلفة تاريخياً، حيث المطبوعة هي مصدر الدخل لصاحبها بتأجير خدماتها لكل من يدفع، شخصاً كان، أو مؤسسة، أو دولة.

وقد اعتمدت هذه الصيغة ذاتها في لندن عندما أصدرت جريدة «الميزان» في عام 1993 من خلال مكوِّنات وإمكانات شركة «اللبنانيون المتحدون للصحافة والنشر»، وذراعها التجاري «بروكسيما المحدودة». وقد قلت ذلك لرئيس الحكومة اللبنانية الراحل رفيق الحريري عندما التقيته في السراي الكبير في تلك السنة، من أنني سوف أصدر مطبوعة تعيش مني ولا أعيش منها. ولهذا تمكنت «الميزان» من معارضة السياسات الحريرية من عددها الأول الى عددها الأخير دون هوادة، وكانت سبّاقة الى استشراف ما سيؤول اليه الوضع اللبناني نتيجة لتلك السياسات، كما سأبيِّن عندما أستعرض مرحلة «الميزان».

ولذلك ظلت «عالم النفط» تصدر طوال الحرب اللبنانية، وعندما عدت الى دار «الصياد» في بيروت في خريف 1982 وجدتها تصدر بانتظام، مما دفعني الى المساهمة في تحريرها من جديد بصورة استشارية وجزئية، كلما أتاح الوقت، وكانت يومها بعهدة شاب جامعي من أهالي شرق صيدا هو جوزف متى. وكانت لا تزال تصدر عندما غادرت بيروت من جديد في مطلع صيف 1983.

وكان مكرم عطيّة مؤسس «عالم النفط» قد مرّ في لندن مطلع ربيع عام 1981 والتقينا في منزلي وتباحثنا في إمكانية الانتقال الى الخارج، وتواعدنا على اللقاء في نيويورك. وبالفعل التقينا في نيويورك في شهر أيار/مايو من تلك السنة، وكانت الفكرة أن ننتقل سوياً الى أميركا، ونستأنف العمل من هناك. وأثناء وجودنا في نيويورك أخذني مكرم الى لقاء مع السيدة واندا جابلونسكي ناشرة مطبوعة «بتروليوم إنتليجنس ويكلي»، فكان اللقاء ممتعاً مع تلك السيدة الرائدة والرائعة في عالم الصحافة النفطية. وقد كنت في بيروت أطّلع على مطبوعتها باستمرار، (كان اشتراكها في ذلك الوقت فلكياً بحدود 1500 دولار في السنة)، إذ كانت من عوامل التأثير الأساسية في السياسات النفطية الدولية، وتحسب لها الحكومات والشركات ألف حساب.

وربما كانت الفكرة من ذلك اللقاء جمع المطبوعتين، مطبوعة مكرم عطيّة ومطبوعة واندا جابلونسكي، تحت سقف واحد، واحدة بالإنكليزية والأخرى بالعربية. لكن الأمر لم يتم، إلاّ عندما آلت المطبوعتان معاً الى زميلي في الجامعة رجا صيداوي، الذي له اهتمامات نفطية مختلفة، فلم تعمِّر «عالم النفط» معه

طويلاً، فاختفت عن شاشات الرادار النفطي.

•••

واندا جابلونسكي هي ابنة العالم والخبير الجيولوجي التشيكوسلوفاكي المعروف عالمياً يوجين جابلونسكي الذي انتقل الى أميركا في أواخر الثلاثينات من القرن الماضي قبيل الحرب العالمية الثانية حيث أصبح في الخمسينات كبير الخبراء الجيولوجيين في شركة «موبيل أويل» الأميركية للنفط. ولذلك دخلت واندا في عالم النفط منذ ولادتها (وقد توفيت في نيويورك عام 1992 وهي في السبعين من العمر لشدة إفراطها في التدخين. وخلال حياتها تزوجت وتطلقت ثلاث مرات، فلم يدم لها زواج بسبب استقلاليتها الفكرية).

بعد إتمام دراستها الجامعية العليا، عملت واندا في جريدة اقتصادية مهمة في زمانها هي «جورنال أوف كومارس»، حيث أجرت مقابلة صحافية في عام 1948، ذاع صيتها وأحدثت ضجة كبيرة في أميركا، مع «مصدّق فنزويلا»، وزير النفط الفنزويلي آنذاك خوان بابلو بيريز ألفونسو، فنشأت بينهما صداقة استمرت طويلاً وكانت لها مفاعيل مهمة في التوجهات النفطية العالمية. وبعد ذلك أجرت مقابلات مهمة مع العاهل السعودي الملك سعود بن عبد العزيز، ومع شاه إيران محمد رضا بهلوي.

وقد استضافها الملك سعود في مملكته ستة أشهر ويقال إنه أنزلها في قصر حريمه، وكانت على صلة مع عبد الله الطريقي (وزير البترول السعودي لاحقاً)، ربما منذ أيام دراسته الجامعية في أميركا. وقيل في الدوائر النفطية يومها إن واندا جابلونسكي هي التي اقترحت على الملك سعود تعيين الطريقي وزيراً للبترول (ولا أدري ما إذا كان عبد الله الطريقي طالباً في محاضرات جيولوجية لوالدها، لأن الشيخ عبد الله تخرج في عام 1947 بدرجة ماجستير في الجيولوجيا من جامعة تكساس، نقطة الاستقطاب الأساسية لخبراء النفط والجيولوجيا في ذلك الوقت. والأرجح أن يكون الأمر كذلك، لأنني شاهدت لها صورة مع الطريقي وحصانه في مزرعته في السعودية تعود الى عام 1954، مما يدل على علاقة عائلية سابقة).

لكن الثابت تاريخياً أن واندا جابلونسكي هي التي جمعت الوزير الفنزويلي ألفونسو مع الوزير السعودي عبد الله الطريقي في عام 1959، حيث جرى تفاهم بينهما بحضورها أطلقت عليه عبارة «اتفاقية الجنتلمان»، وهو الاتفاق الذي على أساسه قامت منظمة «أوبيك» بعد سنة، أي في عام 1960.

وفي عام 1961 أسست واندا جابلونسكي مطبوعتها النافذة «بتروليوم إنتليجنس ويكلي»، التي من خلالها أصبحت من المراجع النفطية الأولى في العالم. وقد عبّرت كاتبة سيرتها آنا روبينو (التي أظن أنها عملت معها في المطبوعة لفترة) عن حقيقتها أفضل تعبير بعنوان كتابها، وهو: «ملكة نادي

النفط: العرش بقوة المعلومات».

•••

وقعت في التجربة من جديد، وعدت لأجـرِّب المجرّب، لأنني ما كنت لأردّ طلباً لميشال عفلق الذي تمنّى عليّ أن أعود الى الصحافة الحزبية. فقد تلقيت مكالمة هاتفية من عفلق في بحر عام 1973 قال لي فيها إنه يودُّ زيارتي في بيتي مع زوجته الدكتورة أمل بشور، وكنت وقتها قد تعافيت من الكسور في جسمي بعد ستة أشهر أو أكثر قليلاً على الحادث. وجلسنا نحن الأربعة فقط، عفلق وأنا وزوجته وزوجتي نتبادل أطراف الحديث، ولما جلسنا لوحدنا قال لي:

«هل علمت أنه وقع انقلاب في الحزب؟».

ولما شاهد علائم الدهشة على وجهي، استدرك قائلاً: «أقصد أنه انقلاب أبيض»، وضحك

قلت له: «كيف لي أن أعلم وأنا بعيد عن كل شيء. ثم ما هذا الإنقلاب؟ هذه كلمة كبيرة».

قال: «ألم يخبرك نقولا (يقصد نقولا الفرزلي العضو في قيادة حزب البعث)؟»

قلت له: «صار لي مدة لم أره، ثم إنه عادةً كتوم ولا يخبرني بمثل هذه الأمور؟».

قال: «هو وعبد المجيد الرافعي قاما بالانقلاب في داخل الحزب». وكاد يقول: «بتشجيع من العراقيين» لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة.

ولم يصرِّح بأكثر من ذلك. لكنني قدّرت أن الموضوع يتعلق بحسم الخلافات بين فريقين داخل الحزب، بعد اتهام صدام حسين لعبد الخالق السامرائي بالتآمر والحكم عليه بالإعدام. فريق يضم نقولا الفرزلي وعبد المجيد الرافعي يدعمه العراقيون، وفريق يضم بشارة مرهج ومعن بشور لقي فيما بعد دعماً من الفلسطينيين ثم من السوريين ورفيق الحريري عبر عبد الحليم خدام. وأظن أن ميشال عفلق تدخّل مع صدام حسين لخفض الحكم بحق عبد الخالق السامرائي من الإعدام الى السجن المؤبد بمسعى من فريق مرهج - بشّور. إلاّ أنني في تلك الفترة كنت خالي الذهن تماماً من هذه الأمـور، وتوجهاتي الشخصية في مكان آخر، ولذلك لم يكن لدي أي فضول لمعرفة أي شـيء خارج تلك التوجهات.

ثم قال لي:

«إنهم (أي القيادة الجديدة «الإنقلابية» للحزب) يريدون إصدار جريدة «بيروت» من جديد[3] وأنا اقترحت اسمك لرئاسة تحريرها، وأريدك أن تقوم بهذه المهمة».

(3) كان البعثيون قد أصدروا جريدة «بيروت» في وقت سابق واختاروا رئيساً لتحريرها صحافي من القرعون عمل في الكويت فترة طويلة، هو الياس عبود الذي كانت له ميول شيوعية، وهو والد الشهيدة لولوة عبود التي قامت بعملية انتحارية ضد القوات الإسرائيلية في الجنوب، وذلك ضمن المقاومة اللبنانية التي شارك فيها الحزب الشيوعي اللبناني. وقد كتبت عنها مقالاً في حينه في مجلة «الصياد» بعنوان «لؤلؤة القرعون». وفي مطلع صيف 2009 التقيت والدتها في منزل

قلت له بدون نقاش: «فليكن، إذا كانت هذه رغبتك».

وغادرت «عالم النفط» هذه المرة الى غير رجعة، لسنوات عديدة.

•••

بعد مغادرتي «عالم النفط»، استعان مكرم عطيّة بالزميل والصديق رجا صيداوي لرئاسة تحريرها. ورجا صيداوي هو النجل الأكبر للصحافي السوري وديع صيداوي صاحب جريدة «النصر» التي كانت في خلال الحرب العالمية الثانية موالية للحلفاء، ويقال للإنكليز تحديداً. وربما كان اسمها مستوحى من الولاء للحلفاء. لكنها كغيرها من الصحف السورية الحرة والخاصة انطوت صفحتها وأقفلت أبوابها بعد تأميم الصحف في عهد الوحدة مع مصر بقيادة جمال عبد الناصر.

وقد تعرفت على رجا صيداوي أول ما تعرفت عليه في الجامعة الأميركية في أواخر الخمسينات من القرن الماضي، وتزاملنا في درس واحد فقط هو «علم الإحصاء» على يد البروفسور فنيلون (وهو إنكليزي على ما أظن). ولاحظت في حينه أن رجا كان ملولاً في المحاضرات الإحصائية، وأظن أنه أصبح أكثر اهتماماً بهذا الحقل العلمي والاقتصادي في الحياة العملية لأن أعماله اللاحقة تتطلب قدراً كبيراً من الخبرات الإحصائية.

لكن قبل معرفتي به كنت أعرف بعض أفراد عائلته الذين كانوا يأتون الى جب جنين كل سنة ليصيفوا هناك ولهم علاقة صداقة وثيقة مع عائلتنا، وينزلون في بيت في حيِّنا كانت تستأجره لهم عمة زوجتي. وهؤلاء هم حسنى أرملة عمّ رجا وأولادها الثلاثة (ولدان من الذكور أكبرهما اسمه ليون، وصبية في مقتبل العمر اسمها نينا).

وفي الجامعة كنت على علاقة جيدة مع الطلّاب السوريين عموماً، وأذكر منهم محمود كوكش، وفؤاد حافظ الزين، وحازم الطرن، وإحسان نظام الدين وشقيقه حكمت وغيرهم... لكن العلاقة الشخصية كانت أقرب ما يكون الى رجا صيداوي الذي كنت أترافق معه في بعض أمسيات نهاية الأسبوع الى حانات وبارات راس بيروت حيث كنا نشرب كأساً ونجالس بعض المضيفات الأجنبيات، اللواتي كان رجا ينتقدني لأنني «لا أدخل في الموضوع» معهن مباشرة، بل أضيِّع الوقت في أحاديث «ثقافية» خارج مكانها وزمانها. وعلى العموم قضينا وقتاً طيباً معاً بالمعايير الشبابية في تلك المرحلة، وكان دائماً يمازحني لاحقاً بالقول إنني أشبه الممثل الأميركي «جايمس تونت». والنكتة في ذلك هي أن أكون جايمس تونت في عصر جايمس بوند!

وكنت في الحقيقة أحب رجا صيداوي وأقدره، وما زلت، على الرغم من التباين اللاحق في الأفكار والمواقف السياسية لكل منا. وفوق ذلك كنت أستلطف

مختار القرعون السابق ابراهيم عبود، وهي من قدامى المناضلين في الحزب الشيوعي.

معشره وتعليقاته الكلامية المرحة. لكننا في المرحلة التي تلت المرحلة الجامعية في بيروت، أي مرحلة الاهتمام بالصحافة، وإن كنا نلتقي في بعض جلسات المقاهي، كان كل منا يدور في فلك مختلف، أو في حلقة مختلفة: أنا في الدائرة البعثية، وهو في دائرة ضمت ميشال أبو جودة، ومحمد أحمد النعمان[4]، وعبد الفتاح ياسين خال رجل الأعمال السعودي المعروف في ذلك الوقت عدنان خاشقجي، وآخرين. ويبدو لي أن رجا صيداوي لم تدم علاقاته مع بعض هؤلاء القدامى قياساً على ما قاله لي عبد الفتاح ياسين في مونت كارلو بحق رجا في صيف عام 1984، وهو كلام ليس من اللائق قوله أو ترداده أو نشره، فضلاً عن أنني لم أصدقه، ولم أكرره على مسامع أحد. وكنت أرى في بيروت أن رجا وعبد الفتاح لصيقان، فكان جوابي على ما قاله في حق صديقه السابق: «ليس هذا رجا الذي أعرفه».

ومن الأمور الملفتة أن رجا صيداوي في بيروت بقي على هامش الصحافة ولم ينخرط فيها مهنياً، على الرغم من أهليته وذكائه وثقافته وقدراته التحليلية، وعلى الرغم من كونه ينتمي الى بيت صحافي معروف. فعندما أصدر الصحافي توفيق المقدسي مجلة «الجديد» في بيروت، تردد في الوسط الصحافي أن رجا صيداوي شريك فيها، أو هو من أركانها، لكنه لم يكتب فيها، أو في غيرها، أي مقال باسمه الصريح، بل كان دائماً يكتب تحت اسم مستعار. فكان شديد الاهتمام بالصحافة لكنه اهتمام غير مهني، ربما لأنه كان يعتبرها وسيلة لمآرب أخرى. وحتى عندما أصبح ناشراً لمطبوعات عديدة متخصصة وعالمية النطاق في مجال الطاقة، كان اهتمامه هذا من قبيل «البيزنس»، وليس من قبيل المهنية الصحافية المجردة.

بل عندما آلت اليه مطبوعة «بترروليوم إنتليجنس ويكلي»، وهي ما هي في عالم النفط، فإنه كان شيئاً مختلفاً تماماً عن صورة وتوجهات مؤسستها واندا جابلونسكي. وهذا مفهوم لأن مهنة الصحافة كمهنة بحد ذاتها لم تكن هي محوره كما كانت محوري أنا مثلاً، أو محور واندا جابلونسكي. ولذلك أيضاً أغلق مطبوعة «عالم النفط» لشعوره ربما بأنها لا تؤدي له الغاية التي ينشد، مع أنها في صلب اهتماماته، ويستطيع تحمل أعبائها التي لم تكن كبيرة على أي حال. وهذا شأنه طبعاً، وليس من حقي أن أتدخل في خيارات الآخرين.

وأبلغني مكرم عطيّة بعد سنوات من تخلّيه عن «عالم النفط» الى رجا صيداوي،

---

(4) هو نجل الزعيم اليمني المعروف في مطلع الثورة اليمنية ضد نظام الإمامة أحمد النعمان الذي كان أحد أضلاع المثلث اليمني المتقدم فكرياً في تلك المرحلة ويضم الى جانب النعمان القاضي الإرياني وعبد الله الزبيري. وكنا في بيروت نشبّه مثلث النعمان ـ الإرياني ـ الزبيري بالمثلث السوري المكوّن من ميشال عفلق، وصلاح الدين البيطار، وأكرم الحوراني. وفي وقت لاحقٍ تم تعيين محمد أحمد النعمان (النعمان الإبن) سفيراً لليمن في باريس، ثم جرى اغتياله لاحقاً في بيروت في ظروف غامضة.

أنه عندما تم الانتقال اقترح مكرم عليه أن ينيط بي رئاسة تحريرها، لكنه رفض. وهذا أيضاً من حقه ولا أناقش فيه. وعندما أبلغني مكرم بالأمر على سبيل الاستذكار لم يغيِّر ذلك في مودتي لرجا أو في صورة الذكريات الشبابية معه.

•••

قبل مغادرتنا بيروت في منتصف السبعينات من القرن الماضي، ظل عند رجا صيداوي اهتمام بالصحافة اللبنانية، لجهة التعاطي غير المباشر فيها، عندما اتفق مع سليم اللوزي على الشراكة في مجلة «الحوادث»، لكن يبدو أن سليم اللوزي تراجع عن الاتفاق عندما شعر أن مجلته لن تعود له. وعندما اتفقت مع سليم اللوزي في أواخر السبعينات على الكتابة في مجلته بعد انتقالها الى لندن، حاولت استيضاحه عن فشل اتفاقه مع رجا صيداوي، لأنني كنت بالفعل أتمنى لو أن الاتفاق مع رجا قد تحقق وخرجت «الحوادث» من دائرة الشخصانية المفرطة.

وفي الحديث عن الموضوع قال لي سليم اللوزي إن رجا صيداوي أراد أن يكون رفيق خوري رئيساً للتحرير، وقالها بلهجة تدل على أنه لم يكن راغباً في الأمر، وإن كان لم يصرِّح بذلك.

قلت لسليم اللوزي: «رفيق خوري صحافي جيد ومتابع حثيث، فهل من المعقول أن يكون خيارٌ كهذا سبباً لفسخ الاتفاق؟».

قال: «لا ليس هذا هو السبب».

قلت له: «وما السبب إذن؟ أم أنك تعتبر هذا السؤال تطفلاً، وفي هذه الحالة أسحب السؤال وأرجو المعذرة».

قال لي حرفياً، وهو ما اعتبرته تمويهاً أو تهرباً من الجواب: «أنا اتفقت مع رجا صيداوي فإذا بي أمام رجا شوربجي».

لم أعرف ماذا قصد بذلك، ولم أحاول الاستفهام.

وفي ذلك الوقت كان هناك اتصال هاتفي بيني وبين رجا صيداوي في لندن، وأجزم أنه كان مسروراً لتفاهمي مع سليم اللوزي، وربما سعى الى ذلك. وعندما أبلغته ما قاله سليم اللوزي عنه وعن رجا الشوربجي، ضحك واعتبر ذلك مزحة.

ثم قال لي إنه سأل سليم اللوزي عن اللقاء بينه وبيني، فأجابه سليم بقوله: «لا هو طلب ولا أنا عرضت. لكنه يعرف أنني راغب في دخوله الى «الحوادث»، وأعرف أنه هو راغب في ذلك».

وكان صادقاً في هذا التشخيص مائة في المائة، لأن هذا ما حدث فعلاً.

ثم التقيته تالياً في منزل سليم اللوزي في لندن في عشاء على شرف الرئيس تقي الدين الصلح الذي كان في زيارة خاصة الى العاصمة البريطانية. ولم نعد الى الالتقاء إلاّ بعد سنوات، عندما زرته في مكتبه في شارع «بيكاديللي» في لندن عام 1982، وكان معه رجا الشوربجي، وتناولنا طعام الغداء في المكتب حيث دار

الحديث عن مقال الأستاذ أحمد عسة في «الحوادث» عن صدام حسين وحافظ الأسد. وفيما كنا نتمازح كعادتنا في المرحلة الشبابية، وكما ذكرت سابقاً عن تشبيهه لي بالممثل جايمس تونت، أو الحديث «خارج الموضوع» مع بنات الحان، قال عني هذه المرة إنني لا أبالي إلاّ بمجرد البقاء، مطلقاً عليّ التعبير الإنكليزي survivalist . ولم آخذ وأعطي في الموضوع لأنني اعتبرته من قبيل الممازحات المعهودة. لكنني سجّلت هذا التعبير في مفكرتي تالياً محاولاً إيجاد إطار منطقي له من خلال مسيرتي التي أسردها في هذا الكتاب كما تجمعت فصولها تباعاً. وفي أغلب الظن أنني سجلت تلك الملاحظة لإعجابي بالتعبير الإنكليزي المشار اليه، لأنه تعبير «نضالي» يُطلق عادة على الزاهدين في متاع الدنيا، فلا يطلبون من دنياهم سوى راحة البال. لكنني وأنا أرجع الى مفكرتي لأكتب هذا التعليق خطر لي أنه استخدمه في معرض الأسف لأنني لم أنل ما أستحق لعدم دخولي في «سباق الجراذين» يوم استفحلت المناتشة الكبرى على النفط العربي، حيث تضم تلك المفكرة أيضاً مناقشة بالممازحة بحضوري ونحن نتمشى على الروشة بين رجا وبين الشاعر والشهيد الفلسطيني المناضل كمال ناصر حول هذه المسألة تحديداً، فنصحه رجا بأن يكمل مسيرته في النضال ولا يلتفت الى أي شيء آخر. والمعروف عن رجا صيداوي أنه خبير في استخراج النعوت والتشابيه استخراجاً فيه ملامح الاختصاص. وسوف ألخص في خاتمة الكتاب رؤيتي لنفسي في مرآتي الذاتية، علني من خلال ذلك أعطي جواباً مقنعاً في مسألة البقاء.

•••

لا يخلو الكلام الذي يطلقه رجا صيداوي أحياناً من قسوة في باطن المعنى، وإن كان مخملياً في الظاهر. وأذكر مرة أنني كنت أجالس رجا وجان عبيد وقريبي المحامي الياس الفرزلي ذات ليلة من عام 1966 في مقهى «ستراند»، وكان المقهى قد خلا من الروّاد. وكالعادة كان الحديث في السياسة، وتحديداً عن الانقلاب الذي جرى في سوريا ضد القيادة القومية وحكومة صلاح البيطار. وفي سياق الحديث أطلق رجا صيداوي عبارات نقدية قاسية بحق البيطار، مما أثار غضب جان عبيد الذي وقف وكال له صفعة قوية بيده على وجهه فسال الدم من أنفه وفمه، فقمنا الياس وأنا بالفصل بينهما، أو بالأحرى رد جان عبيد لأن رجا لم يبادله بالمثل. وفي النتيجة تمكنّا من إعادة الأمور الى مجاريها وذهب كل في سبيله.

لكن ذلك الحادث اخترقني الى الأعماق، فوجدت نفسي وكأنني أقف وجهاً لوجه مع شبح جورج قادري في زحلة يوم كلت له صفعة مماثلة فبادلني بالمسامحة والصفح والصداقة، فألقيت اللوم على جان عبيد مع اعتراضي على ما قاله رجا بحق صلاح البيطار. ولست أعرف كيف تطورت العلاقة بينهما تالياً،

لكنها في أغلب الظن تحولت الى صداقة دائمة، كما يحدث عادة في أعقاب نزوات من هذا النوع بين الزملاء والأصدقاء. لكن صوراً كهذه من الصعب أن تمّحي من الذاكرة، بدليل أنني أخجل من نفسي كلما تذكرت حادثة جورج قادري.

وفي ربيع عام 1993 كنت في جب جنين بمناسبة عيد الفصح، فجاء النائب سامي الخطيب لمعايدتنا باعتبارنا من بلدة واحدة، ولأن حليفه الانتخابي آنذاك إيلي الفرزلي كان يستقبل المهنئين بالعيد في بيت عمِّه (أهل زوجتي). وفي خلال الحديث جاء سامي الخطيب على سيرة رجا صيداوي، فراح يكيل له المدائح وعبارات الإعجاب بمواهبه، وبطريقته في الحديث وفي العيش، وبقراءته لصحف أجنبية مستعصية على الفهم، ولم يسمع سامي الخطيب، كما قال، بأسمائها من قبل ولا يتذكر تلك الأسماء. وطوال تلك الجلسة لم أنطق بكلمة، وحتى لم أقل لسامي الخطيب إنني أعرف رجا صيداوي، أو إنه كان زميلي في الجامعة، لأنني لم أشأ مقاطعته أو قطع سيل توصيفاته الدافقة، لكنني رحت أفكر، بيني وبين حالي، بما يمكن أن يجمع شخصاً مثل سامي الخطيب بشخص مثل رجا صيداوي.

وبعد نحو ثماني سنوات، وتحديداً في مطلع شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام 2001، التقينا في باريس إيلي الفرزلي وسامي الخطيب وأنا، ولم يكن قد مضى أكثر من ثلاثة أسابيع على التفجيرات الإرهابية في نيويورك وواشنطن يوم 11 أيلول/سبتمبر من تلك السنة، وكان النائبان إيلي الفرزلي وسامي الخطيب عائدين من المغرب حيث حضرا مؤتمراً برلمانياً عربياً حول الإرهاب.

وفي مساء اليوم الذي التقينا فيه قال لنا سامي الخطيب إنه سوف يتوجه الى بيت رجا صيداوي في العاصمة الفرنسية لتناول طعام العشاء على مائدته، ودعانا الى الذهاب معاً وكأنه يدعونا الى بيته، فقلنا له:

«أنت معزوم، ونحن لم يعزمنا أحد».

فقال: «لا أحد يحتاج الى عزيمة في بيت رجا صيداوي».

لكنه قام الى الهاتف واتصل بصاحبه وأبلغه بوجوده معنا فرحب بنا ودعانا الى منزله.

ولم يكن هناك أحد في الصالون عندما دخلنا سوى صاحب المنزل ومعه السفير السوري في باريس الياس نجمة، وجاء تالياً بعد العشاء الصديق القديم نبيل شويري الذي فوجئت باختفاء صوته، فتبين لي أنهم استأصلوا له حنجرته لإصابتها بحالة سرطانية متقدمة، وهي حالة أصابتني أيضاً فيما بعد، لكن طبيبتي اكتشفتها في وقت مبكر فتمت معالجتها من غير حاجة الى استئصال الحنجرة.

وكان من الطبيعي أن يدور الحديث عن التفجيرات الأميركية التي هزت العالم.

فانبرى سامي الخطيب للحديث بإفهامنا مدى نفوذ صاحبه في واشنطن، ومعرفته بمداخل ومخارج السياسة الأميركية وبأهل الحل والربط فيها. ومن هذا المنطلق طلب منه أن يبلغنا ما يقول حكماء السياسة الأميركية في الأمر، فكأنه جالسٍ في معبد «دلفي» يستنطق الآلهة.

طبعاً، رجا صيداوي يعيش على الأرض وليس في «دلفي»، فقال بتواضع جم إن أحداً في أميركا لا يعرف أين يقف وما هي الحقيقة، وأشار في الحديث الى توتر نفطي قد يحدث نتيجة لتوتر محتمل في العلاقات السعودية ـ الأميركية.

فقلت تعليقاً على هذه الإشارة الأخيرة:

«في هذه الحالة فإن الأميركيين سوف يضعون يدهم على نفط العراق».

وبدا لي أن رجا فوجىء بهذا الجواب، وقال:

«لكن كيف لهم ذلك؟»

قال ذلك وكأنه يرى صعوبة أو استحالة في الأمر. فقلت:

«بالتفاهم مع صدام حسين».

قال: «أنت أدرى بذلك، فهل هذا ممكن؟».

قلت: «إذا لم يكن ممكناً أخذ النفط العراقي بالتفاهم، فإنني لا أستبعد أن يأخذوه بالقوة».

وعاد رجا صيداوي الى منطلق الحديث عن الضياع الأميركي الحاصل في أعقاب تفجيرات أيلول، وعن جهل السياسيين الأميركيين بأحوال العالمين العربي والإسلامي، قائلاً إن السياسيين الأميركيين يعتمدون في مواقفهم على معلومات يتلقونها من مراكز الأبحاث، وبوجه خاص من مكتبة الكونغرس إذا كان الأمر يتعلق بأجوبة سريعة عن أسئلة ومشاكل طارئة. وقال إن مكتبة الكونغرس مضغوطة في الناحية العربية والإسلامية لأنه ليس في تلك الدائرة سوى نحو عشرة باحثين معظمهم من اليهود. ولذلك قال إنه استحدث كرسياً باسمه في مكتبة الكونغرس للدراسات العربية والإسلامية لسد هذا النقص، وإنه أوكل القيام بمهامها الى المفكر الجزائري المعروف محمد أركون[5]. فأثنيت على حسن اختياره، لأنني كنت على اطلاّع على أفكار أركون النقدية للعقل العربي والإسلامي.

وكان ذلك آخر احتكاك لي مع عالم النفط. وكان آخر لقاء لي مع رجا صيداوي، فتمالحنا أخيراً على مائدته المستديرة بدعوة من سامي الخطيب.

(5) توفي محمد أركون أخيراً في باريس يوم 14 أيلول/سبتمبر 2010، ويقال إنه أوصى بدفنه في الدار البيضاء، في المملكة المغربية. وهو من مواليد الجزائر حيث مسقط رأسه في منطقة تيزي أوزو التي هي عرين القبائل الأمازيغية. وقد تخرج من جامعة السوربون الفرنسية وقام بالتدريس فيها أيضاً. له مؤلفات كثيرة تدور في معظمها حول الفكر الإسلامي، وتشكل في مجموعها مكتبة كاملة في هذا الحقل.

VIII

وجهاً لوجه مع صدّام حسين

لم تكن جريدة «بيروت» حالة مستجدة في الصحافة اللبنانية. فقد تولّى إصدارها من قبل فريق من البعثيين، ثم توقفت لأسباب حزبية داخلية لا أعرفها ولم أحاول معرفتها. وفي أغلب الظن كانت نتيجة توترات بين التنظيمات الحزبية والسلطة العراقية في مرحلة ملبّدة بالتناقضات منذ زمن بعيد، ابتداءً من ابتعاد أو إبعاد ميشال عفلق عن الأمانة العامة للحزب وحلول البعثي الأردني المعروف الدكتور منيف الرزاز محله كأمين عام للقيادة القومية في سوريا أواسط الستينات قبل سنوات من عودة البعثيين الى الحكم في العراق[1]، وانتهاء بحكم الإعدام الذي أنزله صدام حسين برفيقه السابق عبد الخالق السامرائي.

كانت المكاتب القديمة للجريدة في طابق علوي من مبنى يقع في منطقة «التباريز» عند مدخل الأشرفية من جهة بيروت الغربية، وهي منطقة نفوذ كتائبية. وكان الطابق الذي نشغله منه فيه ما يكفي من التجهيزات لمباشرة العمل فوراً، إلاّ أن عقبات عديدة نشأت معظمها كانت له طبيعة تقنية.

فقد كان الدكتور عبد المجيد الرافعي، المولج في حينه بترتيب أمور الجريدة، متفاهماً مع الصحافي الياس الغريافي على طبع الجريدة في مطبعة جريدته «نداء الوطن» الواقعة في الطابق السفلي من مبنى في منطقة الروشة القريبة من منزلي، قبل تكليفي برئاسة التحرير. وكانت المطبعة مجهزة بآلات من طراز «غوس» بثلاثة رؤوس أوتوماتيكية. إلاّ أن صعوبة التعامل مع الياس الغريافي جعلت مشروع الطبع في مطبعته عملية غير موثوقة ومكلفة، مما اضطر عبد

---

(1) بسبب الخلافات الحزبية داخل سوريا ابتعد ميشال عفلق عن الأمانة العامة وحل محله الطبيب والمفكر القومي الأردني والبعثي القديم الدكتور منيف الرزاز في عام 1965 قبل سنة فقط من انقلاب صلاح جديد على القيادة القومية التي فر معظم أعضائها الى خارج سوريا. والرزاز هو البعثي الوحيد الذي قبل الأمانة العامة بديلاً عن ميشال عفلق في حياته. وقد اتهمه صدام حسين عام 1979 بالضلوع في المؤامرة ضده، وكان أميناً عاماً مساعداً لعفلق يومها، فسجنه وبقي محجوز الحرية الى حين وفاته في السجن في أواسط الثمانينات من القرن الماضي، وهو والد الكاتب الأردني المعروف مؤنس الرزاز.

المجيد الرافعي الى فسخ التفاهم معه ودفع تعويض له مقداره على ما أذكر 20 ألف ليرة لبنانية بعملة ذلك الزمان (نحو سبعة آلاف دولار)، من غير أن نطبع عنده أي عدد. وتقرر عندها شراء مطبعة جديدة خاصة بالجريدة لأن الجريدة اليومية لا تستطيع ضمان انتظام صدورها كل صباح من مطبعة بالأجرة لا تسيطر الإدارة عليها.

وكان علي أن أقرر جهاز التحرير اللازم على أسس مهنية، إلاّ أن الدكتور عبد المجيد الرافعي كان قبل تسلمي مهام التحرير قد فاتح الصحافي الطرابلسي محمد عبد المولى الزعبي، العامل آنذاك في أرشيف مجلة «الحوادث»، بشأن إسناد إدارة التحرير له من غير استشارة أحد!

عندما حضر الى بيروت شفيق الكمالي، الشاعر العراقي المعروف، موفداً من القيادة العراقية للإشراف على عملية تحضير إصدار الجريدة، اتصل بي فقصدنا طرابلس للاجتماع بالدكتور الرافعي والبحث في موضوع الجريدة. وخلال الاجتماع طرح الدكتور الرافعي اسم محمد عبد المولى لمهمة إدارة التحرير، وكانت تلك أول مرة سمعت باسمه. وقد لاحظ شفيق الكمالي دهشتي للأمر فطلب من الدكتور عبد المجيد ما إذا كان ممكناً لقاء عبد المولى، فاستدعاه الى الاجتماع، فقال لنا بصراحة إنه لم يمارس إدارة التحرير قط، وإنه يجيد العمل في إعداد المواد الأرشيفية اللازمة للدراسات والبحوث والتحقيقات...

في طريق العودة من طرابلس فاتحني شفيق الكمالي بعدم قناعته بتكليف عبد المولى إدارة التحرير، وبأنه إذا كان الأمر يهم عبد المجيد الرافعي الى هذه الدرجة فإنه بالإمكان تشغيله في عملٍ مماثل لعمله في «الحوادث»، لكن عبد المولى لم يقبل بهذا العرض، وحسناً فعل لأنه وقتها لم يكن يحمل الجنسية اللبنانية ولا أي جنسية أخرى، بل كان في عداد المكتومين. ولما علم سليم اللوزي بالعرض المقدم الى عبد المولى من قبل الدكتور الرافعي، سعى له مع السلطات المسؤولة في دولة البحرين لإصدار جواز سفر بحريني له، يفيد بأن مكان ولادته هو المنامة، مما مكنه من السفر الى خارج لبنان، فهاجر بجوازه هذا الى كندا حيث حصل على الجنسية الكندية، فانحلت مشكلة سفره، وعمله في الخارج.

واقترح شفيق الكمالي على من يعنيهم الأمر في الحزب في لبنان عدم التدخل في تشكيل فريق العمل، وترك الأمر برمته لرئيس التحرير لأن فريق العمل اللازم يجب أن يكون ملتزماً برئيس التحرير ومسؤولاً تجاهه، لئلا تتشكل داخل الجهاز شلل ومحسوبيات تطغى على رئاسة التحرير، وهكذا كان.

كان شفيق الكمالي، رحمه الله، قبل دخوله في مضمارِ السياسة الحزبية، شاعراً من الشعراء المميزين في العراق، لذلك حافظ دائماً في عمله السياسي

على نفحة ليبرالية أودت به في النتيجة الى حتفه.

تقلد الكمالي مناصب رفيعة في الدولة، منها وزارة الإعلام، وعضوية مجلس قيادة الثورة، كما تسلّم رئاسة اتحاد الكتاب العراقيين، وهو واضع النشيد الوطني العراقي في عام 1979 بعنوان «أرض الفراتين وطن»، وهو النشيد الذي بقي معتمداً في العراق حتى سقوط نظام صدام حسين بفعل الاحتلال الأميركي عام 2003، حيث الغي نشيد الكمالي وحل محله نشيد «موطني» القديم.

جاء في نشيد الكمالي الذي لحنّه الموسيقار اللبناني وليد غلمية:

وطنٌ مدّ على الأفق جناحا وارتدى مجد الحضارات وشاحا
بوركت أرض الفراتين وطن... بابلٌ فينا وآشور لنا
وبنا التاريخ يقتدُّ ضيا منذ أن لزّ مثنّى الخيل مهره
وصلاح الدين غطّاها رماحا وطن مدّ على الأفق جناحا
وارتدى مجد الحضارات وشاحا بوركت أرض الفراتين وطن...

وفي شهر حزيران/يونيو من عام 1982، وكانت الحرب العراقية ـ الإيرانية في ذروة سعيرها، قام نظام صدام حسين بإعدام شفيق الكمالي، في ما يشبه عملية الاغتيال في منزله حيث قيل إنه قُتل مع نجله.

كنت قد التقيت شفيق الكمالي لأول مرة في بيروت عندما زارها وزيراً للإعلام، وذلك في لقاء مع نظيره اللبناني آنذاك هنري طربيه المقرّب من الرئيس سليمان فرنجية. ثم التقيته بعد ذلك أثناء عملية تأسيس جريدة «بيروت»، وبعدها في لندن في مكتب الملحق الصحافي العراقي، وقتها، سعد البزاز، في عام 1981، قبل أقل من سنة على مقتله.

ومما تجمّع لدي من معلومات حول مقتله يشير الى أن ذلك يأتي في سياق تخلّص صدام حسين من أي شخص لا يثق بولائه المطلق. ففي تلك المرحلة من الحرب مع إيران جرت مساع وعروض عربية ودولية لوقفها شريطة تخلّي صدام حسين عن قيادة العراق. ويبدو أن هذا العرض لقي آذاناً صاغية في بعض الأوساط الحزبية، وحتى لدى بعض المقربين من الرئيس العراقي.

وقيل يومها إن من أبرز الذين جاهروا بأنه يجدر متابعة الموضوع للوقوف على حقيقة العرض وجديته ثلاثة، هم: رياض ابراهيم، وزير الصحة، الذي قال في جلسة لمجلس الوزراء بحضور صدام إنه إذا كانت الغاية وقف الحرب فإن تنحي الرئيس مؤقتاً قد يكون مخرجاً مناسباً، فقتلوه رأساً بعد انفضاض الجلسة بإطلاق النار عليه من مسدس حربي.

والثاني هو عمر الهزاع، قائد موقع بغداد في الجيش العراقي، وهو تكريتي من بلدة صدام حسين، وقد قال في مجلس خاص ضم بعض التكارتة: «فليذهب واحد منا ولا نذهب جميعنا».

وفي الليل أرسلت الجرافات وجرفت بيته في منطقة «قناة الجيش» وهو نائم مع عائلته.

وروى لي صلاح عمر العلي، في لقاء لي معه في لندن عام 1990 أنه عندما كان سفيراً للعراق في الأمم المتحدة في نيويورك جاءه أحد أنجال عمر الهزاع كان يدرس في الولايات المتحدة، ليرسل معه رسالة الى والده لأنه علم أنه مسافر الى بغداد. فحمل صلاح الرسالة وذهب الى العنوان المحدد فلم يجد رقم البيت المعنون، فراح يتنقل بين البيوت وكلها تحمل أرقاماً ما عدا الرقم المدون على الرسالة، فشاهدته امرأة عجوز من نافذة منزلها، فخرجت اليه ونصحته بأن يذهب من هناك قبل أن يراه أحد!

بعد الاستقصاء تكشّفت له حقيقة ما حدث، فوقع عليه همّ إبلاغ ابن الهزاع في أميركا ما حل بعائلته!

والثالث، الذي لقي مصيراً مماثلاً هو شفيق الكمالي، الذي جاهر هو الآخر بضرورة وقف الحرب مهما كان الثمن، فقرعوا باب بيته ولما خرج لفتح الباب قتلوه مع نجله الواقف الى جانبه، كما تردد في حينه.

•••

بعدما تقرر إطلاق يدي في إصدار الجريدة، شرعت في وضع تصور لجهاز التحرير قضى بالتعاون مع مجموعة من قدامى الصحافيين، مهمتهم ليست العمل الصحافي اليومي، إنما الإشـراف على توجيه وتدريب مجموعة من المبتدئين الذين كان بينهم شاب قريب للدكتور عبد المجيد اسمه مدّثر الرافعي ومعه خطيبته، وشاب آخر نشط وواعد اسمه عصام شريح، وآخرون من شبّان جامعيين بينهم سيدات أمثال إيفيت ضومط وغيرها...

وأنطت إدارة التحرير الى الزميل والصديق العزيز محمد باقر شري، الذي أثبت جدارة موثوقة في تجربة «الكفاح» السابقة، لكي تكون عملية التحرير ممسوكة ومتماسكة من البداية.

ثم ذهبت الى القاهرة لتأسيس مكتب تمثيلي فيها يقوم باستكتاب عدد من الكتّاب المصريين المعروفين بميولهم القومية واليسارية، وكلّفت إدارته الى الكاتب والناقد المعروف رجاء النقّاش، الذي اقترح علي أن أستعين بمخرج للجريدة مصري هو أحمد فوزي، فانتقل مع عائلته الى بيروت. ولقد كان مكتب القاهرة نشطاً وفاعلاً ومتابعاً وغزير الإنتاج، وركناً أساسياً من أركان الجريدة. ومن الطبيعي أن رجاء النقّاش اعتمد على بعض الكتّاب اليساريين، ومنهم صلاح عيسى الذي كتب مقالات مثيرة للجدل.

وكان رجاء النقّاش في حينه على صلة وثيقة، وربما على علاقة عمل، مع الدكتور محمد يوسف نجم الأستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت، وكنت أعرفه من أيام دراستي الجامعية، وله مكتب بالقرب من الجامعة ربما كان يدير منه بعض أعمال النشر، فاتفقنا على المراسلة والاتصال من خلال الدكتور نجم، لأن وسائل الاتصال اليومي لم تكن متاحة وميسورة كما أصبحت الآن.

كان مكتب القاهرة المكتب الوحيد المتكامل للجريدة في الخارج، لأنني تعمدت ذلك من حيث عدم التوسع في التمثيل الخارجي لأسباب مالية ومهنية، وخصوصاً بسبب مداخلات التنظيمات الحزبية الطلاّبية في الخارج.

وكنت من أيام مجلة «الأحرار» قد أسست مكتباً في بغداد أنيطت إدارته بالصحافي الحزبي محمد مناف الياسين (أبو مصعب) الذي تم تعيينه لاحقاً ملحقاً إعلامياً في السفارة العراقية في بيروت، وكان يشغل هذا المنصب عندما أعيد إصدار جريدة «بيروت»، فصار المكتب بعده تابعاً على ما أظن للقيادة القومية لحزب البعث، وكان يزودنا ببعض المواد بين حين وآخر، لكن عمله لم يكن منتظماً وغزير الإنتاج مثل مكتب القاهرة.

وقصدت من تشكيل جهاز التحرير على هذا النحو أن تكون جريدة «بيروت» صورة مجددة ومحسّنة عن صورتها في زمن مؤسسها محيي الدين النصولي، وكما عرفتها في الخمسينات على يد زميلي الطالب البيروتي زهير مأمون، حسب ما ذكرت سابقاً، أي جريدة لبنانية الروح والنفس، عربية المضمون والتوجه، يسارية المنحى، راديكالية الطرح، ليبرالية العبارة.

إلاّ أن تجربة مزج القديم مع الجديد في العمل الصحافي أجهضت أيضاً من دون مسوّغات أومبررات مهنية أو حتى حزبية، إنما يعود ذلك في رأيي، وبسبب تكراره معي في جميع التجارب السابقة واللاحقة، الى الطبيعة التآمرية والتنافسية للشلل البعثية القريبة من السلطة أو البعيدة عنها. وهذا ما دفعني في لندن لاحقاً الى التساؤل عن سبب نجاح دول نفطية عربية في الخليج، وعلى رأسها المملكة السعودية، أن تقيم في الخارج مؤسسات إعلامية ثابتة ومستمرة، بينما فشل البعثيون الحاكمون في العراق، الذين لم يكن إنفاقهم على الإعلام أقل من الإنفاق السعودي، في إدامة تجربة إعلامية واحدة لأكثر من سنوات قليلة قبل انهيارها من دون أي سبب موجب. فكتبت في ذلك مقالاً مشهوداً في مجلة «سوراقيا» التي يصدرها الزميل غسان زكريا من لندن، في مطلع تسعينات القرن الماضي، بعنوان: «زرع صدّام فحصد فهد»[2]. وهذا يلقي بعض الضوء على استمرار النظام السعودي وسقوط النظام البعثي في العراق.

•••

أول القدامى الذين استعنت بهم كان موريس صقر، وهو في الأصل صحافي وكاتب وشاعر باللغة الفرنسية، وكان رئيساً لتحرير مجلة «ماغازين» الصادرة بالفرنسية عن دار جورج أبو عضل، وهي الشقيق التوأم لمجلة «الأسبوع العربي» برئاسة تحرير ياسر هواري. وكان موريس صقر في بداياته اشتراكي الميول والثقافة، ولذلك كان قريباً من البيت الجنبلاطي، وربما كان من أوائل

(2) هو واحد من أربعة في سلسلة تناولت المملكة السعودية. أما المقالات الثلاثة الأخرى فهي: «اللوثة السعودية في العقل اللبناني»؛ «الوهابيتان»؛ «مملكة الصمت».

الذين نضجت على يدهم فكرة الحزب التقدمي الاشتراكي في أيام عذريته. وما كانت استعانتي به لمجرد كونه صحافياً مرموقاً، أو حتى بسبب عمق تجربته الصحافية وسعة ثقافته وعلمه وحسب، إنما كانت في الدرجة الأولى لإضفاء جوٍّ من الجدية والوقار الذي لا بد للمبتدئين من التطبع عليه لكي يسلكوا الطريق الحرفي الصحيح.

وقد نشأت بين موريس وبيني صداقة متينة استمرت حتى وفاته مع وفاة جريدة «بيروت». وما زلت شديد الاعتزاز بتلك الصداقة الصافية صفاء أفكار موريس ونياته. ومع الأسف أقول إنه في حياته وفي مماته قوبل بالجحود والنكران في مجتمعه، وفي المجتمع اللبناني عموماً، خصوصاً عندما أصيب الجسم السياسي الماروني في لبنان خلال السبعينات بتلك الهستيريا القاتلة التي سرّعت في تدمير النسيج اللبناني التاريخي.

كنت في جب جنين عندما بلغني نبأ وفاة موريس صقر في بلدته «بجّة» في أعالي جرود بلاد جبيل، وكان لبنان يومها في حالة احتقان وتوتر على مشارف الحرب الأهلية. لكنني مع ذلك عزمت على الذهاب الى بجّة لحضور الجنازة ومراسم الدفن، وكان سائق سيارتي يومها محمد حرب من بلدة المرج في سهل البقاع الغربي، واصطحابه معي هو في الحالة السائدة آنذاك نوع من المجازفة. ذلك أن السائق الآخر علي ساطي من بلدة كامد اللوز البقاعية أيضاً كاد أن يدخلني في إشكالية بسبب تلك الظروف الحرجة في حينه.

فقد نويت مرة أن أتوجه الى البقاع عن طريق صيدا، لكن السيارة التي يقودها علي ساطي تعطلت في بيروت، وبعد الفحص والتدقيق تبين أنها بحاجة الى دينامو جديد، فطلبت من السائق أن يبحث عن القطعة المطلوبة وتركيبها في السيارة ثم يوافيني الى جب جنين، لأنني تدبرت وسيلة للانتقال مع أحد الأقارب. وكان ذلك يوم «السبت الأسود» الذي قامت فيه عناصر كتائبية بقيادة بشير الجميل بقتل عدد من المواطنين المسلمين في منطقة مرفأ بيروت وجوارها.

في جب جنين لم أكن قد سمعت بحوادث السبت الأسود، لكنني في العشية، قرابة الساعة الثامنة مساءً، فوجئت بوفد كبير من بلدة كامد اللوز في دارنا وهم متوترون وقلقون لأن علي ساطي لم يعد الى بلدته، وأخبروني بما حدث في بيروت، معربين عن خشيتهم أن يكون قد تعرض لمكروه. فأبلغتهم أنني تركته بخير يحاول إصلاح السيارة، على أن يوافيني فوراً. والحقيقة أنني أصبت بالقلق والخوف، لكن من غير أن أظهر ذلك لأهالي كامد اللوز المتواجدين في دارنا، بل حاولت تطمينهم قدر المستطاع لكي ينصرفوا الى بيوتهم. وبعد ساعة تقريباً وصل علي ساطي، وتبين لي أنه لم يجد دينامو للسيارة في بيروت الغربية، فاضطر الى الذهاب الى حيث وكالة الشركة في الحازمية لشراء القطعة

اللازمة، وهو أيضاً لم يكن يدري بما حدث، فذهب الى الحازمية وعاد منها غافلاً عما حل في البلد.

وصلت الى بجّة فلم أجد في البلدة مظاهر جنازة حتى أمام الكنيسة، فتوجهت الى منزل موريس لأجد عائلته حائرة، فتبين لي أن الكنيسة المارونية رفضت تجنيز موريس صقر، باعتباره «مارقاً»، أو خارجاً عن صف الهستيريا السائد آنذاك. فقلت لنجله أليكس:

«هل لديكم مانع من قيام جورج خضر، مطران جبل لبنان للروم الأرثوذكس، بالقيام بمراسم الجنازة؟».

فلم يمانع، فجرى الاتصال بالمطران خضر الذي لبّى الدعوة مشكوراً بعد موافقة كاهن الرعية على فتح الكنيسة لهذه الغاية. والذين حضروا الجنازة من أهالي البلدة ومن أصدقاء موريس الذين تمكنت قلة منهم من الحضور، لم يملأوا سوى عدد قليل من المقاعد الأمامية في الكنيسة. فكان هناك من أصدقاء موريس: جبران مجدلاني، وفايز قزي، وأنا، وحضر أيضاً النائبان الجبيليان آنذاك ريمون إده وإميل روحانا صقر.

لكن الكلمة التي ألقاها المطران خضر في الكنيسة عبّرت تعبيراً راقياً عن مأساة لبنان في تلك المرحلة، فدوّنت في اليوم التالي مقطع الابتداء منها، حيث قال بمرارة وهو متكىء على عصاه:

«موريس صقر..

إنه صقرٌ ليس كبقية «الصقور»

كان يقول كلام الرب، لكن كان يقوله جميلاً..»

وفي مدونتي عن جنازة موريس صقر الأرثوذكسية في الجرود المارونية، حيث ولد مارونياً، وعاش اشتراكياً، ومات أرثوذكسياً، استذكرت أبياتاً من الشعر قالها لي إنعام الجندي في أيام الدراسة عن شاعر مصري كان ضابطاً على الجبهة في فلسطين (نسيت اسمه، وربما كان اسماعيل حقي) فعاد من الجبهة ليجد صديقته الوحيدة قد ماتت فوصف جنازتها على النحو الآتي:

وفي عصر يوم كئيب المساء — سخيٍّ البكاء بدمع المطر
مشى موكبٌ في رذاذ الشتاء — تحاشى الورى واتقّى من سخر
أنا والرفاتُ وحمّالُها — وحفّارُ مرقدها والذكَر
أنا والرفاتُ وحمّالُها — فكنا الهوى والردى والقَدر
قطعنا الطريقَ وكان الطريقُ — ختامَ سير البشر

وكان لي في بجّة معارف غير موريس صقر منهم بعض آل أبي عقل الذين عمل أحدهم، صعيب أبي عقل، معي في جريدة «بيروت»، والقاضي فريد عطا الله الذي كان رئيساً لمحكمة الجنايات في زحلة عندما زرته في بجّة برفقة ابن العم إيلي الفرزلي معزياً بشقيقه في مطالع التسعينات، فكانت تلك زيارتي الثانية الى تلك البلدة الجبيلية الجميلة.

في جولتي الأخيرة في الصين مع زوجتي عام 2006، حضر أمامي خيال موريس صقر فور دخولي الى متحف «صن يات صن» في بايجينغ، حيث وجدت صورة فوتوغرافية كبيرة في صدر إحدى القاعات فيها الطبيب اللبناني الأصل الدكتور جورج حاتم[3] يتبادل الأنخاب مع مدام صن يات صن احتفالاً بالنصر في الحرب العالمية الثانية عام 1945، فالتقطت صورة فوتوغرافية لتلك الصورة، لأنني كنت أعرف قصة جورج حاتم مع موريس صقر الذي اكتشفه في عام 1960 على هامش مؤتمر للكتّاب الأفرو ـ آسيويين في العاصمة الصينية برعاية الزعيم الصيني آنذاك ماو تسي تونغ.

فقد قررت إدارة المؤتمر مراسم بروتوكولية للسلام على الزعيم الصيني تقضي بأن يتقدم المندوبون الممثلون لبلدانهم واحداً واحداً، حسب الأحرف الأبجدية، فيعرِّف كل واحد عن نفسه ويذكر البلد الذي يمثل وهو يصافح زعيم الثورة الصينية ويمضي، لأن العدد كبير ويجب أن تنتهي المراسم بسرعة. ولما وصل الدور الى موريس صقر ليسلِّم على ماو، ذكر له اسمه وإنه يمثِّل لبنان، فاستوقفه ماو تسي تونغ وسط دهشة جميع الوفود، وقال له: «إن طبيبي الخاص من لبنان».

فاندهش موريس صقر من هذا التصريح، ظناً منه أنه هو اللبناني الوحيد الذي وطىء أرض الصين في ذلك الوقت المبكر، حيث لا توجد علاقات بين لبنان والصين. فسأله موريس:

«من هو هذا الطبيب، وهل بإمكاني مقابلته؟».

فأشار ماو الى أحد مرافقيه وكلّمه بالصينية، بما معناه أن يرتب له زيارة الى منزل الدكتور جورج حاتم، وسط دهشة الجموع الغفيرة من الكتّاب الأفارقة والآسيويين ومرافقيهم الصينيين وسكرتارية المؤتمر والمسؤولين الرسميين. فاستغرقت محادثة ماو مع موريس من الوقت نصف الوقت الذي استغرقته مراسم بقية الوفود مجتمعة.

وجرى بالفعل ترتيب زيارة موريس صقر الى منزل الدكتور جورج حاتم في بايجينغ (كان اسمها «بكين» في ذلك الوقت)، حيث تعارف معه ومع زوجته الصينية، وروى له حكايته في الصين.

---

(3) يسمّونه في الصين بلغتهم الدكتور «ما هت»، وهناك مصادر تقول إنه هو الذي أطلق على نفسه هذا الإسم في شنغهاي، أي اسم عائلته بالعربية مقلوباً، وهذه الكلمة باللغة الصينية الماندارينية تعني «الحصان»، أو « الفضيلة المنبعثة من البحر». لكن كلام الصورة التي التقطت صورتها في متحف صن يات صن في العاصمة الصينية يذكره باسمه اللبناني كما يُكتب باللغة الإنكليزية، لأن كلام الصورة مكتوب بالإنكليزية. وفي بعض الكتب التي ورد اسمه فيها أن اسمه الكامل هو شفيق جورج حاتم، والده نعوم سلامة حاتم من بلدة حمانا، ووالدته تمام يوسف من بلدة بحنِّس. وقد هاجر والده الى الولايات المتحدة في عام 1902، ثم عاد ليتزوج في عام 1909، فانتقل من ولاية ماساشوسيتس حيث كان يعمل الى مدينة بافالو في ولاية نيويورك حيث ولد ابنه الدكتور جورج في عام 1910.

الدكتور جورج حاتم مولود في الولايات المتحدة لكنه درس الطب في الجامعة الأميركية في بيروت، ومنها انتقل الى جامعة جنيف في سويسرا مع بعض زملائه الأميركيين الذين قرروا الذهاب الى شانغهاي في الصين لممارسة الطب هناك، بعدما بلغتهم أخبار عن سوء الأحوال الصحية فيها، وتفشي الأمراض الزهرية. وبعد سنتين من ممارسة الطب في تلك المدينة هاله حجمُ المأساة وحجم الفساد المتفشي، فقرر أن المعالجات الفردية لا تجدي نفعاً، فقدمته الصحافية الأميركية آينز سميدلي[4] الى أحد المسؤولين في الحزب الشيوعي الصيني ويدعى ليو تينغ الذي ساعده على الانضمام الى الجيش الشعبي في وسط الصين بقيادة ماو تسي تونغ، وهناك تعرف على الصحافي الأميركي المشهور إدغار سنو[5] Edgar Snow، الموالي للثورة الصينية. إلاّ أن الصحافي الأميركي أغفل ذكر حاتم في كتابه الذائع الصيت «نجمة حمراء فوق الصين»، مكتفياً بالقول إن طبيباً غربياً هو الذي طمأن ماو على صحته، فقربه منه وجعله طبيبه الخاص. وفي تبرير سنو لذلك فيما بعد قال إنه أغفل ذكر حاتم لكي لا يكشف أمره فيضعه في دائرة الضوء ويعرضه للمضايقات.

وجورج حاتم هو الأجنبي الوحيد الذي كان له شرف الانتساب الى الحزب الشيوعي الصيني، وكانت له مآثر طبية ملحوظة، لعل أبرزها نجاحه في القضاء على مرض الجذام (البرص) في الصين قضاءً تاماً، وكذلك العديد من الأمراض الزهرية، وجزاء لهذا الإنجاز الجبّار منح جائزة «لاسكار» الطبية لعام 1986، أي قبل وفاته بسنتين. وكانت حياته تالياً موضوع أفلام سينمائية وكتب عديدة من أبرزها في السنوات الأخيرة كتاب بعنوان: «طبيب الشعب: جورج حاتم والثورة الصينية»[6].

ولما عاد موريس صقر الى بيروت وكتب تحقيقه عن الموضوع، أثار الأمر في لبنان الشهابي آنذاك نوعاً من الاعتزاز برجل لبناني له مثل هذه المآثر، مع أن ذلك كان مخالفاً للسياسة الرسمية للدولة اللبنانية غير المعترفة بالصين الشعبية بسبب التزامها المواقف الأميركية. ولذلك جرى ترتيب اللقاء الأول لجورج حاتم مع أقاربه من حمانا في العاصمة السورية دمشق حيث للصين تمثيل ديبلوماسي.

---

(4) آينز سميدلي صحافية أميركية شيوعية الميول اشتهرت بتغطيتها يوميات الثورة الصينية، كما اشتهرت بنضالها المبكر من أجل استقلال الهند عن بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى.

(5) صحافي وكاتب أميركي مشهور عاش فترة طويلة في الصين والتصق بثورتها، وكان أول صحافي أجنبي يُسمح له بمقابلة ماو تسي تونغ. وكان سنو على صداقة متينة مع الدكتور جورج حاتم، لكنه برّر عدم ذكر اسمه في كتابه الكلاسيكي عن الثورة الصينية «نجمة حمراء فوق الصين»، بأنه تعمّد إخفاء اسمه حرصاً عليه، لئلا تتفتح عليه الأعين.

(6) The people's Doctor: George Hatem and The Chinese Revolution. Hawaii University Press, 1997.

وقد قام أهالي بلدة حمانا وبلديتها في السنوات الأخيرة بتكريم ذكرى الدكتور جورج حاتم حيث أقيم له تمثال في وسط ساحة البلدة، وأطلق اسمه على أحد شوارعها، وكان ذلك في الذكرى العشرين لوفاته[7].

•••

أنطون نبتي كان الصحافي العتيق الثاني الذي ضممته الى فريق العمل معي، وهو أرثوذكسي من البترون، وعُرف بتعليقاته اللطيفة والمبطّنة عن السياسة المحلية اللبنانية وأقطابها. وكان أنطون خفيف الظل، حاضر البديهة، نكتته جاهزة. آفته الوحيدة إدمانه على الشراب، لكنه نادراً ما تتعتع أو فقد وعيه. وكان أنطون يأتي الى الجريدة في المساء فيكتب تعليقه ويخرج باكراً نسبياً، وبعد التاسعة مساءً تنهمر علي مكالماته الهاتفية يدعوني فيها الى بار أوتيل نورماندي حيث كان «الميتر ميشال» يُعد له مائدة من المازات المرتبة والشهية، ويلح علي بالمجيء كل ليلة تقريباً. ومع الوقت صرت أتجنب تلبية دعواته اليومية، أولاً لأنني لا أستطيع أن أجاريه في الشرب، وثانياً لأنه بعد العشاء المتأخر كان يصر على السهر في أحد ملاهي الزيتونة، وغالباً في ملهى «كيت كات» الى ساعة متأخرة من الليل، وثالثاً لأن لي زوجة وأربعة أولاد وهو عازب لا قدامه ولا وراءه، على قول العامة في بلادنا.

وقد فوجئت فعلاً بمدى الاحترام الذي كان يحظى به في الوسط السياسي اللبناني العالي، وهو شيء لا يدل عليه مظهره الخارجي. وكان صادقاً في مودته، وعفوياً في التعبير عنها وعن كل ما يجول في خاطره من دون مجاملة أو تحفظ، إنما بأسلوب ساخر رقيق. والحقيقة أنني كنت أستمتع في الجلوس اليه، لكنني بسبب أوضاعي العائلية ومهامي ومسؤولياتي المهنية لم أستطع منادمته كما كان يرغب.

والصحافي العتيق الآخر الذي ضممته الى جهاز التحرير هو الحاج زهير السعداوي المعروف في الوسط الصحافي اللبناني بأنه «شيخ الندامى»، لأنه يهوى الجلوس في مقاهي الروشة والحمرا وحوله الندمان من الزملاء يستعرضون بأسلوبهم شؤون العالم والناس ويسلخون بألسنتهم الحادة كالسكاكين كل من لا يروق لهم كبيراً كان أو صغيراً.

والحاج زهير صحافي متمرس لكنه لم يكتب حرفاً لا في جريدة «بيروت» ولا في غيرها. وقد عمل سابقاً في جريدة «الجريدة» في بدايات صدورها على يد جورج نقاش ورشدي المعلوف.

وكنت أعرف أن الحاج زهير غير منتج من الناحية الكمية الملحوظة، ولذلك لم أستعن به ليمارس مهام تحريرية أو صحافية، بل ليلقن المبتدئين مفاتيح

(7) توفي الدكتور جورج حاتم في الصين عام 1988 عن عمر ناهز 78 عاماً، ودفن في مقبرة «باباوشان» المخصصة لكبار قادة الثورة الى جانب ماوتسي تونغ وشو آن لاي ودينغ هسياو بينغ وغيرهم.

العمل الصحافي. وقد أثار الحاج زهير إعجاب هؤلاء المبتدئين في الجلسة العامة الأسبوعية للمحررين، عندما قال لهم إن أول واجب عليهم هو أن ينظروا الى وكالات الأنباء وأخبارها نظرة عدائية من منطلق الشك والريبة، لأنها تحمل السم في الدسم. وقال لهم أيضاً إن عليهم أن يتحققوا من الأخبار بأنفسهم من خلال علاقاتهم مع الآخرين في الوسط الصحافي، وأن يقرأوا كثيراً لتعويد أنفسهم على التحليل وفهم النصوص، ومعرفة الصحيح من الخاطىء أو المدسوس.

ومن التوصيات التي تقدم بها الحاج زهير الى المبتدئين أن يتوقفوا عن قراءة أي خبر للحظات عندما تصادفهم جملة تبدأ بكلمة «ولكن..»، لأنها قد تحمل في طياتها منعطفاً يراد من خلاله دس شيء في غير السياق، وكذلك الأمر بالنسبة الى عبارة «هذا وقد...»، أو «وكان ... قد»، لكي يتعودوا على الغربلة والتقدير والاشتباه.

من الناحية النظرية كان الحاج زهير السعداوي منجماً ثميناً، أو نبعاً غزيراً من الملاحظات، لكنه لم يكن من أهل الممارسة، فبقي معظم حياته تقريباً عاطلاً عن العمل. ومن حسن الحظ أن أخي أنطون نبتي والحاج زهير كانا ينصرفان في وقت مبكر، وإلاّ لكانت تحولت الجريدة الى مقهى للندامى. ومع ذلك فقد كانت هذه التجربة في تقديري ناجحة وفريدة، وإن لم تكن نتائجها ظاهرة للعيان.

وقد آلمني تعليق سمعته بالتواتر عن أحد المسؤولين عن مالية الجريدة، قال فيه إنني أدفع رواتب كبيرة لعجائز الصحافيين ليسلوني لا ليعاونوني. وحتى لو كان ذلك صحيحاً، على سبيل الافتراض، فإنني لم أقدم يوماً التسلية على الواجب في أي أمر، في كل المجالات التي عملت فيها. لكن مع الأسف هناك في بلادنا هذا النوع من ضيق العين، ومرده ربما الى الحسد، أو الغيرة، أو الطبع المجبول بالأذية، أو البخل، أو الجهل بخصائص المهن الحرة، أو عدم القدرة على الفهم والتقدير، أو العجز عن التمييز بين القشور واللباب.

والحاج زهير السعداوي هو ابن شقيق المجاهد الليبي الحاج بشير السعداوي، الذي لجأ الى المملكة السعودية في زمن مقاومة الاحتلال الإيطالي لليبيا، وأصبح من المقربين الى الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس المملكة. بل بلغت هذه القربى حد المصاهرة، فتزوجت كريمته من أحد أبناء الملك عبد العزيز هو الأمير ناصر بن عبد العزيز، ولها منه ولد هو الأمير منصور بن ناصر[8]، الذي تعرفت عليه في لندن بصحبة الحاج زهير[9] عندما زارني في

(8) توفي الأمير ناصر بن عبد العزيز مبكراً، فنشأ ابنه الأمير منصور في كنف أعمامه. وبعد سنوات تزوجت أرملته من رجل لبناني يعمل في المملكة من آل الرحباني.

(9) كان الحاج زهير السعداوي، رحمه الله، متزوجاً من سيدة لبنانية مارونية وله منها ابن هو الصحافي سمير السعداوي الذي عمل لفترة طويلة في جريدة «الحياة» السعودية الصادرة من لندن. وهو شقيق الخبير النفطي سهيل السعداوي الذي كان في الثمانينات من كبار المسؤولين

«الصياد» في أواسط الثمانينات من القرن الماضي.

ومن الذين عملوا معي في تلك الحقبة أيضاً الزميل ابراهيم البرجاوي الذي مارس الصحافة بشقيها الفني والسياسي. وبعد جريدة «بيروت» عملنا سوياً في مجلة «الحوادث» في لندن، ثم عمل في مكتب مجلة «التضامن» في بيروت قبل أن يطلب منه صاحبها ورئيس تحريرها الزميل فؤاد مطر الإشراف على مكتب المجلة في بغداد في عز الحرب العراقية ـ الإيرانية.

المحرر الجديد المثير للجدل الذي أدخلته الى جريدة «بيروت» هو صعيب أبي عقل، وأثناء وجوده في الجريدة يبدو أنه «شبك» مع العراقيين، لأنه خلال الحرب انتقل الى بغداد حيث توفي هناك في أواسط الثمانينات. وكان لصعيب شقيق مفوض في الأمن العام اللبناني، فكان كل يوم يأتيني بنسخة عن التقرير الذي يرفعه الأمن العام الى رئاسة الجمهورية في بعبدا عن أحوال البلاد زاعماً أنه حصل عليه من أخيه. وفي البداية صدقته لأن تلك التقارير كان فيها قدر كبير من الصحة، إلاّ أنني بعد فترة لاحظت أن هناك تلفيقاً في بعض التقارير، مع أنها كانت مطبوعة على أوراق الأمن العام الرسمية. وسوف أتطرق الى علاقته اللاحقة مع الأمن العام العراقي في فصل آخر، كما استقيتها في بغداد.

•••

كان الانتقال من التباريز الى الشياح اضطرارياً لتفادي الاحتكاك مع الكتائب اللبنانية. فقد حدث أن نشرت خبر وروود أسلحة الى حزب الكتائب من الخارج عبر مرفأ بيروت، الأمر الذي أزعج الكتائبيين واعترضوا عليه وبدأنا نعاني من مضايقات كتائبية يومية. إذ كانت عناصر كتائبية تطوف حول مبنى الجريدة كل ليلة بشكل استفزازي، وقد تزامن ذلك مع عملية اختطاف ميشال أبو جودة، كبير المحررين في جريدة «النهار»، ونشوء جو من القلق في الوسط الصحافي عموماً، خصوصاً بعدما تبين أن السوريين هم الذين اختطفوا أبو جودة من سيارة الزميل سمير عطا لله فيما هو جالس الى جانبه.

وكان مبنى جريدة «بيروت» في الشياح مقابل مبنى جريدة «المحرر» التي كان يصدرها وليد أبو ظهر بعد وفاة شقيقه هشام مؤسسها وصاحبها الأصلي[10].

في منظمة الدول المنتجة والمصدرة للنفط «أوبيك»، ويعيش في بيروت.

(10) استمر وليد أبو ظهر في إصدار «المحرر» في بيروت لكنها توقفت عن الصدور بعد رحيله الى فرنسا حيث أصدر من باريس مجلة «الوطن العربي»، لأن «المحرر» كانت ملك عائلة شقيقه الراحل. وكان الصحافي نبيل المغربي، شقيق أرملة هشام أبو ظهر يعمل في باريس مع وليد أبو ظهر في «الوطن العربي»، لكن خلافاً دب بينهما فقام المغربي بإعادة إصدار «المحرر» من العاصمة الفرنسية باعتبار أن الجريدة مملوكة من شقيقته. لكن «المحرر» في طبعتها الباريسية لم تنجح كما يجب، مما اضطر صاحبتها الى بيعها، فاشتراها نهاد الغادري الصحافي السوري الأميركي الجنسية المقيم في بيروت حيث كان ما زال يصدرها حتى كتابة هذه السطور.

وقد تم شراء المطبعة الجديدة التي تم تركيبها في ملجأ المبنى عن طريق ريمون ناصيف.

عملية نشر خبر ورود الأسلحة الى الكتائب فتحت عيني على خيط من الشك حول ما يجري في البلاد من صراعات خفية، وصرت أكثر حذراً وتتبعاً، لكنني قاومت في نفسي تحوّل تتبعي للخيوط الخفية الى «سرساب».

بعد الانتقال الى الشياح، كتبت افتتاحية في جريدة «بيروت» عنوانها «كتائب سوريا»، تلقيت على أثرها مكالمات عديدة من قدامى البعثيين السوريين اللاجئين في لبنان، معظمهم لم أكن أعرفه إلاّ ربما بالإسم، وأذكر منهم، على سبيل المثال، أحمد رستم، يطالبون باستمرار الجريدة على هذا النهج، مما زاد من وعيي لضرورة ملاحقة الخيوط وربطها بعضها ببعض.

وصادف في تلك الفترة أنني كنت أحضر حفل استقبال ديبلوماسي في فندق بريستول، فالتقيت في من التقيت هناك، بعض الديبلوماسيين العراقيين الذين أبلغني أحدهم، ولم أكن أعرفه أو أعرف اسمه، أن لديهم معلومات بأن السوريين يلاحقونني، وأنهم ربما يريدون اغتيالي. فقلت له برباطة جأش:

«إذن، سوف أذهب الآن الى وزير الداخلية اللبناني لأبلغه بالأمر عن لسانكم وسنرى عندئذ ماذا تقول السلطات اللبنانية».

عندما سمع ما قلت تراجع مؤكداً لي أن الأمر مجرد شبهات ولا لزوم للتحدث بالأمر أمام المسؤولين اللبنانين.

من البداية عرفت أن هذه القصة ملفّقة، لأن الديبلوماسي المذكور التقاني بالمصادفة، فلو كان الأمر جدياً لكان اتصل بي من قبل وأبلغني الأمر بينه وبيني، لكن أن يصرح به أمام زملائه وفي حفل عام، وعلى غير موعد، فهو من قبيل التهويل. ولذلك فوجىء بجوابي وجديتي في إطلاع السلطات اللبنانية على الأمر، منتحلاً شتى الأعذار. وهذا أيضاً لم أبلغ به أحد لا في الجريدة ولا في الحزب، وكأنه لم يكن.

لاحظت يوم نشر خبر ورود الأسلحة الى الكتائب أن الصحف اللبنانية الأخرى لم تنشر الخبر أو أي مثيل له في هذا الاتجاه. وهذا ما أثار شكوكي في مصدر الخبر. لكن حفيظتي زادت عندما اتصل بي الشيخ بيار الجميل شخصياً على غير معرفة. ومع أنني نزلت عند رغبته في نشر نفي للخبر في اليوم التالي، فقد تنازعتني التساؤلات لأنني كنت أعرف أن السلاح يتدفق على البلاد، ومما جعل تلك التساؤلات ملحّة اتصال الشيخ بيار بنفسه، وكان بإمكانه أن يكلِّف أي مسؤول إعلامي في الحزب ليقوم بهذه المهمة.

هذه أول أزمة مررت بها في البداية، لكنها كانت أزمة صامتة في داخلي، وأهميتها أنها فتحت عيني على ضرورة تلمس الخيوط الموصلة الى التحليل الصحيح في كل أمر، ليس فقط من خلال ربط الخيوط ببعضها، بل أيضاً من

خلال طرح الأسئلة الصعبة وأصعبها إمكانية تلاقي الأضداد في السياسات التحتية، فأصبحت بعدها أكثر تحفظاً في الكتابة وفي المحادثة مع أي كان بمن فيهم ميشال عفلق نفسه. فقد رأيت من يومها شيئاً قبيحاً يلوح في الأفق، وأن ما يجري تحت السطح هو الذي يجب متابعته، لأن ما فوق الأرض مجرد «كاموفلاج».

ولذلك، ومع اكتشافي لبعض التلفيقات في تقارير صعيب أبي عقل المنسوبة الى الأمن العام اللبناني، بقيت أشجعه وأكافئه على «تقاريره الخاصة»، ولو انني لم أكن أنشر معظمها. ومن مفاجآت صعيب أن أحد تقاريره هذه حمل خبراً عن حصول سوريا على أكثر من أربعة أسراب من طائرات «ميغ» السوفياتية الحديثة، فتبين لي لاحقاً من مصدر سوفياتي أن الخبر صحيح مائة في المائة.

•••

في أواخر عام 1974 جرت استعدادات واسعة للقمة العربية السابعة في الرباط، وأُبلغت من بغداد أن الوفد العراقي الى القمة سيكون برئاسة «السيد النائب صدام حسين»، فقررت الذهاب الى المؤتمر الذي انعقد في العاصمة المغربية بتاريخ 28 تشرين الأول/أكتوبر من ذلك العام. وأجريت ترتيبات السفر الى الرباط ومنها، عن طريق باريس في الذهاب وعن طريق مدريد في الإياب. وطلبت من مسؤول في المحاسبة في الجريدة أن يوفر لي مبلغ 2000 دولار أميركي كنفقات، وكان ذلك بعد ظهر اليوم السابق للسفر، فذهب وعاد الي حاملاً المبلغ بورقتين نقديتين فقط كل منهما بقيمة 1000 دولار، وكانت تلك أول مرة وآخر مرة في حياتي أشاهد فيها ورقة نقدية بهذا الحجم، فخفت أن تكون مزورة، وجلست أستجوب الرجل، وهو شاب لطيف من آل شعيب في بلدة «الشرقية» الجنوبية، فأكد لي أنه اشتراها من أحد الصيارفة، ولأن الوقت كان متأخراً فإنه لم يكن لدى الصراف عملة أميركية أقل من ذلك تغطي المبلغ. فأخذت الورقتين النقديتين وسافرت في اليوم التالي الى باريس.

في الطائرة التقيت الصحافي اللبناني حنا غصن، وكان متجهاً الى الرباط في الرحلة ذاتها التي كنت حاجزاً عليها، فأخذت تلوح في خاطري صورة حنا غصن كما كان يتخيلها المرحوم سعيد فريحة، حيث كان يصوره على أنه «بوم» دلالة على الشؤم، مع أن حنا غصن كما عرفته كان رجلاً ودوداً طيب المعشر.

وعندما حطت بنا الطائرة في مطار باريس، وفي انتظار الرحلة المتوجهة الى الرباط، ذهبت الى صندوق للصيرفة في مطار أورلي وقدمت له ورقة الألف دولار لصرفها، فجفل الرجل وبدا كأنني أعطيته قنبلة، واعتذر بلباقة عن صرفها لكنه قال لي إنه بالإمكان صرفها في البنك المركزي. ولما كنت ماراً في باريس مروراً عابراً في المطار فقط، فإنه ليس بالإمكان الذهاب الى المدينة. فعدت أدراجي خائباً، متصوراً أن الشؤم آت من صحبة حنا غصن. وأسقط في يدي لأنني لم

أكن أحمل أي عملة سوى تينك الورقتين المشؤومتين، فجاءني الفرج من حنا غصن نفسه وبمحض المصادفة.

ففيما نحن نتمشى في ردهات المطار مرّ بنا السياسي اللبناني المعروف، زمن ذاك، مانويل يونس الذي لم أكن أعرفه شخصياً، فوقف معنا وسلّم على حنا الذي عرّفه عني، وحكى له قصتي مع ورقة الألف دولار، فمد يده الى جيبه وسحب منها «كدسة» من الفرنكات الفرنسية وطلب مني أن آخذ منها حاجتي، فأخذت منها ألف فرنك لتيسير الأمور وشكرته على هذه النخوة واعداً بردها له في بيروت، فقال لي ما معناه «اعطها لحنا»، وهكذا كان.

•••

كانت جلسة افتتاح مؤتمر القمة علنية كالعادة يحضرها الصحافيون. وفي تلك الجلسة تعرفت على صدام حسين لأول مرة، لأنني لم أكن قد قابلته من قبل. بل هو الوحيد من قادة النظام البعثي العراقي الذي لم أقابله وجهاً لوجه إلاّ في القمة العربية السابعة في الرباط أواخر عام 1974. ومن جميع الخطب التقليدية التي تلقى عادة في جلسات الافتتاح العلنية، لم أدوّن في مفكرتي سوى عبارة واحدة من خطاب الرئيس السوري حافظ الأسد قال فيها: «أيها السادة، إنني أرى المستقبل مظلماً»!

تلك القمة حضرها جميع الملوك والرؤساء العرب، فكان صدام حسين هو الوحيد الذي لم تكن له صفة الرئيس. كان هناك الملك حسين الأردني، والملك فيصل السعودي، والرئيس السوري حافظ الأسد، والرئيس المصري أنور السادات، وياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، الذي يمكن القول بأن تلك القمة كانت قمته، والرئيس اللبناني سليمان فرنجية، الذي أجمع الزعماء العرب على تفويضه التكلم باسمهم أمام الدورة العادية للأمم المتحدة المنعقدة آنذاك في نيويورك، وهي الدورة ذاتها التي اعترفت فيها المنظمة الدولية بالتمثيل الفلسطيني، وألقى فيها ياسر عرفات خطابه المشهور ومسدسه على وسطه، حين خاطب الوفود بقوله: «جئتكم حاملاً غصن الزيتون بيد، والبندقية باليد الأخرى، فلا تسقطوا غصن الزيتون من يدي».

وفي اليوم التالي لجلسة الافتتاح، تناولت الفطور مع طارق عزيز في غرفته بفندق «هيلتون الرباط»، وكان يساكنه في غرفته سعد قاسم حمودي[11]، ثم انضم الينا عدنان الحمداني وزير التخطيط العراقي الذي أعدمه صدام حسين في تموز/يوليو 1979 مع قيادات حزبية أخرى فور تسلمه رئاسة الجمهورية من الرئيس البكر.

وقبل الجلسة الصباحية ضمني طارق عزيز الى الوفد الرسمي، وأُعطيت شارة

(11) سعد قاسم حمودي من الإعلاميين العراقيين المعروفين، وأصبح لفترة نقيباً للصحافيين العراقيين.

أعضاء الوفود لتسهيل عملي، وكان بادياً أن الجهود كانت منصبّة على الملك حسين، لإقناعه التخلي عن الضفة الغربية الى منظمة التحرير الفلسطينية، من خلال القبول بقرار إجماعي يعتبر منظمة التحرير «الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني»[12]. وقد قدمت وعود الى العاهل الأردني بإعطائه معونة مالية سنوية دائمة. وتعليقاً على ذلك، قال لي عدنان الحمداني: «في النتيجة سوف يقع عبء هذه المعونة على العراق».

وبالفعل وافق الملك حسين، ولو على مضض، فصدرت القرارات الخمسة للقمة بالإجماع، وهي:

(1) تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، وتأكيد حقه في العودة الى وطنه.

(2) تأكيد حق الشعب الفلسطيني في إقامة سلطته الوطنية المستقلة بقيادة منظمة التحرير على أي أرض فلسطينية يتم تحريرها.

(3) دعم منظمة التحرير الفلسطينية في ممارسة مسؤولياتها على الصعيدين الوطني والدولي ضمن إطار الالتزام العربي.

(4) دعوة المملكة الأردنية الهاشمية، والجمهورية العربية السورية، وجمهورية مصر العربية، ومنظمة التحرير الفلسطينية الى وضع صيغة لتنظيم العلاقة فيما بينها في ضوء قرارات القمة لضمان تنفيذها.

(5) تتعهد الدول العربية بالدفاع عن الوحدة الوطنية الفلسطينية وعدم التدخل في العمل الفلسطيني.

كذلك وعدت قمة الرباط هذه بتقديم دعم مالي الى دول المواجهة مع إسرائيل.

وكان واضحاً أن هذا الإجماع العربي سوف يفرض نفسه على المسرح الدولي، على الرغم من الجهود المضادة التي بذلها الإسرائيليون بمساعدة هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأميركي السابق، خصوصاً في الأمم المتحدة حيث التعاطف مع الفلسطينيين في تلك المرحلة كان قوياً. بل إن الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد سنة من تلك القمة العربية اتخذت القرار رقم 3379 بتاريخ 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1975 باعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري تتوجب إدانتها وإزالتها[13]، وذلك بأغلبية

(12) كان قرار اعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني قد اتخذ في مؤتمر القمة العربي السادس المنعقد في الجزائر بتاريخ 28 تشرين الثاني/نوفمبر 1973، لكن العاهل الأردني الملك حسين اعترض عليه ولم يوافق. ويمكن القول بأن المؤتمر السابع هو مؤتمر إقناع الملك حسين للقبول في الرباط بما رفضه في مؤتمر الجزائر قبل سنة.

(13) ألغي القرار رقم 3379 بمبادرة من الرئيس الأميركي جورج بوش الأب في 16 كانون الأول/ديسمبر من عام 1991 بالقرار رقم 86/46 بأغلبية 111 صوتاً ضد 25 صوتاً وامتناع 13 صوتاً، وهو القرار الوحيد الذي اتخذته المنظمة الدولية وعادت فنقضته طوال تاريخها، كما أنه أقصر قرار بعدد كلماته في تاريخ المنظمة، حيث صدر بسطر واحد يقول: «قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة إلغاء القرار رقم 3379 الصادر في 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1975». وقال الرئيس جورج

72 صوتاً ضد 35 صوتاً (وامتناع 32 عضواً عن التصويت). كما أن الجهود الإسرائيلية لم تفلح في ثني الرئيس الأميركي آنذاك، جيرالد فورد، عن توقيع بيان مشترك مع الزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف في قمة فلاديفوستوك بينهما بعد ثلاثة أسابيع فقط من قمة الرباط العربية، يعترف بالحقوق المشروعة للفلسطينيين بموجب قرارات الأمم المتحدة، كما جاء في ذلك البيان المشترك.

•••

في ردهات المؤتمر لاحظت أن صدام حسين لا يختلط مع بقية الوفود، فتقدمت منه وعرّفته بنفسي وتبادلنا عبارات المجاملة المعتادة، وحديث في العموميات. كان الناشط في الردهات طارق عزيز، فانتحيت به جانباً وسألته ما إذا كان يمانع في لقاء الصحافي البريطاني دايفيد هيرست، مراسل جريدة «غارديان» في بيروت. فقد كان الصحافي البريطاني يتردد علي أحياناً في جريدة «بيروت»، وفي أكثر من زيارة شكا لي من مواقف سلبية تجاهه في بعض الأوساط البعثية والصحافية في لبنان، إذ كانوا ينظرون اليه على أنه «مشبوه» أو يميل الى إسرائيل، الأمر الذي كان ينفيه جملة وتفصيلاً.

لكنني فهمت من طارق عزيز أن التحفظ على دايفيد هيرست ليس لهذا السبب، بل لأن تقاريره عن العراق فيها انحياز زائد لجهة المتمردين الأكراد في شمال العراق. وفي المحصلة جمعت دايفيد هيرست مع طارق عزيز في ردهات مؤتمر الرباط، فشرح له حقيقة الوضع في الشمال، ومواقف الحكومة العراقية من مختلف القضايا الأساسية في المنطقة، ومنها القضية الفلسطينية التي كانت محور المؤتمر. وبعد ذلك عرض طارق عزيز على دايفيد هيرست زيارة مفتوحة الى العراق في أي وقت يناسبه. ولست أدري ما إذا كان الصحافي البريطاني قد لبّى تلك الدعوة أم لا.

إلاّ أن اللقاء الأهم في الكواليس، وكنت حاضراً فيه، هو لقاء على غير موعد بين طارق عزيز وعضو في الوفد السوري ما عدت أذكر اسمه، ومن ذلك اللقاء فهمت مدى الحساسيات العراقية ـ السورية، وهو أمر كنت أراقبه من أيام «الأحرار» و«الكفاح» من زاوية انعكاسه على الوضع اللبناني، لأن مضاعفات الصراع الحزبي والسياسي بين دمشق وبغداد بدأت تظهر ملامحه في لبنان.

فقد عاتب طارق عزيز عضو الوفد السوري لأن الرئيس حافظ الأسد لم يرد على رسالة من الرئيس أحمد حسن البكر، فأجابه عضو الوفد السوري بأن الرئيس الأسد بعث برسالة شخصية الى الرئيس البكر، لكن الرئيس العراقي عرض الرسالة تلك على القيادتين القومية والقطرية في بغداد، وبعث

بوش الأب في خطابه أمام الجمعية العامة وقتها: «إن مساواة الصهيونية بخطيئة العنصرية التي لا تغتفر، هي تحريف للتاريخ، ونكران لمأساة اليهود في الحرب العالمية الثانية، بل عبر التاريخ».

بجوابه الى الرئيس الأسد من خلال مناقشة تلك الرسالة في القيادتين. واعتبر العضو السوري إن الرئيس الأسد بعث برسالته الى الرئيس البكر من رئيس الى رئيس، ولم يبعث بها الى القيادتين القومية والقطرية، ولذلك توقف عن المراسلة متجاهلاً ما ورد في رسالة الرئيس العراقي. ومضى العضو السوري مستخلصاً أن مجرد عرض البكر رسالة الأسد على طرف ثالث يعني أنه لم يكن راغباً في التفاهم.

وكان رد طارق عزيز أن القيادة السياسية في العراق لا تفعل شيئاً من غير موافقة الحزب، أو من وراء ظهره، بينما الرئيس الأسد لا يقيم وزناً للحزب ويعتبر موافقته من قبيل تحصيل الحاصل.

•••

بعد العشاء ليلة الجلسة الختامية للمؤتمر، توجهت الى مقر الوفد العراقي حيث كان صدام حسين جالساً وحوله جميع أعضاء الوفد. وجلست في مقعد على الصف المقابل للصف الذي يجلس فيه بين طارق عزيز وسعد قاسم حمودي. وكان يجلس الى جانب نائب الرئيس العراقي، وزير الداخلية سعدون غيدان، الذي تعرفت عليه لأول مرة، فبادرني بالثناء على مقالاتي القديمة في «الكفاح» بعنوان «هيكل وبؤس الصراحة»، قائلاً إنه قرأها مجموعة في كتيب صغير. فقال صدام حسين موجهاً كلامه الى سعدون غيدان:

«أبو سمرا، أشوف إنك صاير تقرا هالأيام»؛

وضحك... فضحك الجميع بمن فيهم سعدون نفسه.

وبعد قليل استأذنت من الحاضرين وسلمت عليهم وهممت بالخروج، فسألني طارق عزيز ما إذا كنت راجعاً الى بيروت، فقلت له إنني ذاهب أولاً الى مدريد.

وعند خروجي من الباب تبعني محمد صبري الحديثي[14] من الخارجية العراقية، وقال لي:

«هل تعرف سفيرنا في مدريد؟».

قلت له: «لا أعرفه، فمن هو؟»

قال لي: «هو حسن مصطفى النقيب، أبو فلاح[15]. إنه إنسان رائع. بوسة مني له.

---

(14) محمد صبري الحديثي أعدمه صدام في وقت لاحق، كما أعدم شقيقه محمد شكري الحديثي. أما الشقيق الأصغر فهو ناجي الحديثي الذي كان عندما انتقلت الى لندن ملحقاً صحافياً في السفارة العراقية هناك، ثم انتقل الى بغداد ليحل محله في لندن سعد البزاز. وبعد عودته من لندن أناطت به وزارة الإعلام رئاسة تحرير الصحيفة الصادرة باللغة الإنكليزية «بغداد أوبزيرفر». وقد عينه صدام في نهاية عهده وزيراً للخارجية، وكان وزيراً للخارجية عندما احتل الأميركيون العراق، لكنه في أغلب الظن غادر العراق الى الخارج وبقي غائباً عن السمع والبصر.

(15) حسن مصطفى النقيب القائد العسكري السابق للقوات العراقية في الأردن قبل انسحابها في أيلول/سبتمبر 1970، سرِّح من الجيش وعين سفيراً. وبعد سفارته في مدريد نُقل الى استوكهولم، ومن العاصمة السويدية أعلن انشقاقه عن النظام العراقي، لينضم تالياً الى المعارضة العراقية في الخارج. وبعد سقوط نظام صدام صار نجله فلاح وزيراً للداخلية في حكومة أياد علاّوي.

ترى ينباس».

في مدريد في اليوم التالي تكرر ما حدث معي في باريس بعد قمة الرباط الخامسة، فقد وصلت غير مستعد للطقس البارد، فكان لا بد من شراء معطف شتوي، لكن ورقتي الألف دولار كانتا عقبة كأداء أمام هذه الحاجة. وكنت أعرف أن الديبلوماسي الفلسطيني الصديق يوسف البندك، الذي كان ينشط في مدريد بصفة وزير مفوض في السفارة العراقية هناك، يمكن أن يساعدني في الأمر فاتصلت به هاتفياً من الفندق، ومن حسن الحظ أنه كان في مكتبه فوافاني الى فندق «ميليا برينسس» حيث نزلت بتوصية من مكتب السفريات في الرباط. عندئذ تنفست الصعداء، واشتدت عزيمتي، لأنني لا أحب الإحراجات في مثل هذه الأمور. فقد كانت نجدة مانويل يونس في مطار باريس في وقتها المناسب، لكنني شعرت معها بالانقباض، خلافاً لشعور الزهو الذي ظهر على رفيق الرحلة حنا غصن، باعتبار أنه أسدى لي خدمة جليلة[16].

عرضت مشكلتي، التي أوقعني فيها ابن شعيب، على يوسف البندك وناولته ورقتي الألف دولار المشؤومتين، فاستغرب ذلك وقال متعجباً: «من أعطاك هذه؟».

قلت له ببراءة: «محاسب الجريدة. أراك تعجبت هل في الأمر مشكلة؟»

قال البندك: «هذه قد تعرضك لسؤال وجواب، لأن مثل هذه الأوراق لا يحملها عادةً غير المهرِّبين، أو رجال الاستخبارات، أو أقطاب الجريمة المنظمة».

قلت له بشيء من القلق: «إذن فلنتلفها، وأمرنا لله».

قال، رحمه الله: «لا. أنا أحمل بطاقة ديبلوماسية. فلنذهب الى البنك المركزي الإسباني لنصرفها بقطع من فئة المائة دولار».

ومع أنني شعرت بالارتياح لكلامه هذا، لكنني بقيت على شيء من القلق خشية ألاّ تنجح العملية. كان البنك المركزي في مدريد في مكان اسمه «القلعة»، فدخلنا المبنى حيث تركني في أحد الصالونات وتوجه الى مكتب معين في البنك، وبعد عشر دقائق فقط خرج حاملاً لي 20 ورقة من فئة المائة دولار بدل الورقتين المشؤومتين. عندئذ فقط هدأت أعصابي وارتاح بالي.

(16) كان المرحوم يوسف البندك من الناشطين الفلسطينيين المرموقين على الصعيد العالمي، وهو من مدينة بيت لحم، وكان يتقن الإسبانية لأنه نشأ في أميركا اللاتينية يوم كان والده عيسى البندك سفيراً للأردن في التشيلي، فبقي هناك بعد تركه السلك الديبلوماسي، حيث توجد في سانتياغو عاصمة التشيلي جالية فلسطينية كبيرة وميسورة، معظمهم من بيت لحم، استقروا هناك قبل عقود من نكبة فلسطين. وهو الشقيق الأكبر للصحافي المعروف مازن البندك ناشر مجلة «الجيل» من باريس والمتزوج من سيدة لبنانية من آل سلوم من بلدة خربة قنافار في البقاع الغربي، وشقيق الموسيقي والملحن الراحل رياض البندك المعروف في بيروت جيداً حيث عمل في الإذاعة اللبنانية. وبعد تركه العمل الديبلوماسي عمل يوسف البندك في السنوات الأخيرة من حياته في مجلس الكنائس العالمي الذي يتخذ من مدينة جنيف السويسرية مقراً له. وبقينا على اتصال كلما حضر الى بيروت.

ثم قال يوسف: «ماذا من هنا. هل نرجع الى السفارة؟»

قلت له: «نذهب أولاً الى السوق لشراء معطف خريفي يفيدني في بيروت».

أخذني يوسف البندك الى متجر كبير في قلب العاصمة الإسبانية، فيه أشكال وألوان من المعاطف الرجالية والنسائية، فاشتريت معطفاً لي وآخر لزوجتي واثنين للأولاد، وحقيبة تتسع لهذه المعاطف، وعدنا الى شقة يوسف في أحد شوارع مدريد الفخمة، فكانت تلك الشقة عبارة عن متحف فني، لأن يوسف الذي بقي عازباً طوال حياته، مع أنه كانت له صديقة أوروبية، يهوى اقتناء اللوحات الزيتية من مختلف أنحاء العالم، خصوصاً من أميركا اللاتينية.

لبست معطفي على الفور، وتركت الحقيبة المحتوية على معاطف الزوجة والأولاد في شقة يوسف، وتوجهنا الى السفارة حيث تعرفت على السفير حسن مصطفى النقيب، الذي كان بالفعل كما وصفه لي محمد صبري الحديثي في الرباط، فأوصلت اليه سلامه وتحياته وبوسته، ورحب بي أجمل ترحيب وأصر على دعوتي الى الغداء في مطعم جزائري، حيث اتصل بصاحب المطعم وأوصاه بأن يشوي لنا خروفاً مطيّناً على الطريقة الجزائرية، فكان أطيب خروف أكلته في حياتي.

لم أفاجأ ولم أستغرب أن يكون حسن مصطفى النقيب، الرجل الصافي الرفيع الخلق والوطني الصلب، معارضاً لنظام صدام حسين، وكنت أفهم جيداً اعتباراته. فقد كانت لدي أنا أيضاً اعتبارات لا تقل عنها. إلاّ أنني فوجئت فعلاً عندما رأيت صورته الى جانب مادلين أولبرايت، وزيرة الخارجية الأميركية آنذاك، ضمن وفد من المعارضة العراقية الخارجية ذهبوا الى واشنطن يستحثون الإدارة الأميركية على إسقاط نظام صدام بضرب العراق.

وموقفي في ذلك، يشبه موقف كيم فيلبي من ستالين، وهو أن الديكتاتور القمعي الدموي ما هو إلاّ إنسان زائل عاجلاً أو آجلاً، أما البلد والشعب فإنهم باقون الى الأبد، وبالتالي فإنه لا يجوز تدمير البلد من أجل التخلص من فرد. خصوصاً إذا كان المستعان به لهذا التدمير هو دولة رأسمالية كبرى لا تهمها إلاّ مصالحها، ولا تعير بالاً لما يحل بالآخرين، خصوصاً الشعب العراقي.

وعندما كنت أصدر جريدة «الميزان» من لندن في منتصف تسعينات القرن الماضي، قرأت في إحدى النشرات الأجنبية الخاصة المهتمة بشؤون النفط تحقيقاً عن العراق فيه إشارة الى خطورة التكاثر السكاني فيه، وإمكانية ارتفاع المستويات المعيشية والثقافية والعلمية لهؤلاء السكان، كُتب بنَفَس الدعوة الى استهداف الشعب العراقي وليس النظام فقط. ومن فحوى ذلك التحقيق نشرت موضوعاً رئيسياً في صدر الصفحة الأولى عنوانه:

«**برنامج غامض لتفريغ العراق من السكان**».

ومنذ ذلك الوقت المبكر، أي قبل عشر سنوات من الاحتلال الأميركي للعراق،

صرت شديد المراقبة لكل حركة تتعلق بالوضع العراقي، ومن هذا الباب أنتقد اعتماد المعارضة العراقية السابقة على الولايات المتحدة، ومجيئها الى الحكم في بغداد على الدبابات الأميركية.

وبقدر ما استغربت صورة حسن مصطفى النقيب مع مادلين أولبرايت، بقدر ما ثمّنت مواقف صلاح عمر العلي الذي رفض أن يكون له دور في النظام الجديد طالما أن الاحتلال الأميركي قائم، كما أقدِّر مسلسل المقالات الذي كتبه في جريدة «القدس العربي» الصادرة من لندن بعد زيارته بغداد في أعقاب الاحتلال، لا سيما استشرافه وتأييده للدور الوطني الممكن للقائد الشاب مقتدى الصدر، ورهانه عليه.

وفي الجلسات العديدة التي عقدتها مع السفير حسن مصطفى النقيب في مدريد، لم يسألني عن أحد في بيروت سوى عن بشارة مرهج. فقد كان يكن مودة خاصة له، ويبدو أنهما كانا على علاقة منذ أن كان النقيب قائداً للقوات العراقية في الأردن.

•••

عندما زرت مدريد في خريف عام 1974 كان الجنرال فرانكو لا يزال حاكماً، وكان رئيس حكومته آنذاك هو المحامي المحافظ كارلوس آرياس نافارو رئيس بلدية مدريد السابق. وكان واضحاً للعيان يومئذ أن في الأفق القريب حالة جديدة مطلة على إسبانيا، متوازية مع أوضاع بقية أوروبا الغربية. قبضة النظام الفاشي السابقة تراخت وشاخت.

وفي ذلك الوقت كان الشاعر العراقي المبدع حميد سعيد ملحقاً ثقافياً في سفارة بلاده في مدريد، وكنت على معرفة به من قبل، وأرى فيه وفي زميله سامي مهدي علامة فارقة في الشعر العراقي الحديث، تحمل إمكانية تجاوز الخيال الشعري للواقع المرير من غير خلعه من سلاحه المتمثل بالقوة المادية.

واقترح حميد سعيد علي أن يأخذني الى نُصُب وادي الشهداء في «إسكوريال» على بعد نحو 50 كيلومتراً عن مدريد. كان المشهد مهيباً بالفعل. وهذا النصب الذي أقامه الجنرال فرانكو لتكريم ذكرى ضحايا الحرب الأهلية من فريقه، أراده «أن يتحدى الزمان والنسيان». وهو عبارة عن كنيسة جوفية محفورة في بطن الجبل بشكل صليب، فصار الجبل وكأنه قبة الكنيسة الخارجية، فأقيم فوقها صليب حجري ضخم، ولذلك سميت «كنيسة صليب وادي الشهداء». وشاهدت في أرض تلك الكنيسة في بطن الجبل قبر خوسيه أنطونيو بريمو دو ريفيرا، مؤسس حزب «الفالانج» (الكتائب).

وفي السنة التالية لزيارتي، عندما توفي الجنرال فرانكو أودع جثمانه في قبر داخل تلك الكنيسة الى جانب خوسيه أنطونيو.

وأبلغني حميد سعيد أن في الأسكوريال مكتبة عربية مهمة تضم مخطوطات

للفارابي وغيره من المفكرين العرب القدامى. لكن تلك المكتبة كانت مقفلة عندما حاولنا زيارتها.

ومن خلال حميد سعيد ويوسف البندك تعرفت على محمود صبح، الأستاذ والباحث الفلسطيني في جامعة مدريد الذي له حضور ملفت في الحياة الثقافية الإسبانية والعربية. وقد دعاني صبح الى العشاء في منزله مع مستشرق اسباني اسمه فرديريكو، كان يومها معاراً للتدريس في جامعة فيلادلفيا الأميركية وموجود في مدريد في إجازة. وكان من الطبيعي أن يدور الحديث عن اللغة العربية وتداخلها مع اللغة الإسبانية بسبب الوجود العربي الطويل في إسبانيا. ومما قاله المستشرق الإسباني إن وصف اللغة العربية بأنها «لغة الضاد» ليس دقيقاً، لأن الحرف العربي الأصعب على اللفظ لدى غير العرب هو حرف «العين». فالأوروبي إذا قلت له أن يلفظ كلمة «عنب» فإنه يقول «هنب»، أو «عبد الله» يقول «أبدو الله». أما «الضاد» في رأيه فهو حرف مدمج من «اللام» و «الدال»، وكلاهما قابل للفظ في أي لغة. فالإسبان أخذوا عن العرب كلمة «القاضي»، وهي تعني في الإسبانية ما تعنيه في العربية، لكن الإسبان يلفظونها «القالدي»، لأن دمج اللام والدال يعطي صوت الضاد. وما الى ذلك من أحاديث في الألسنية.

وفي الليلة الأخيرة من وجودي في مدريد دعاني السفير العراقي حسن مصطفى النقيب الى العشاء في مطعم «كورال دو لا موريريا» كان يرتاده مشاهير كثيرون في العالم، منهم الفنانان سلفادور دالي وبابلو بيكاسو، والمغني فرانك سيناترا، والملاكم محمد علي كلاي . ولشهرة هذا المطعم سببان، الأول جودة أطباقه الشهية والمتقنة، والثاني أن فيه مسرحاً غنائياً راقصاً يؤدي عليه كبار المغنين والمغنيات والراقصين والراقصات.

وفي تلك الليلة رقصت على خشبة مسرح المطعم راقصة الفلامينكو المتميزة لوثيرو تينا، يرافقها في الغناء والعزف على الغيتار مغن إسباني رائع الصوت كأنه من الغجر. وأينما ذهبت لوثيرو تينا أو تواجدت ترافقها والدتها. وعندما دعاها السفير النقيب الى مائدتنا بعد وصلة الرقص حضرت ومعها والدتها، وكانت تلك الجلسة في غاية الأهمية بالنسبة الي لأنها لما علمت أنني لبناني، قالت لي إن أمنية حياتها هي أن تؤدي رقصاتها على مسرح مهرجانات بعلبك، وطلبت مني إذا كان بإمكاني أن أفاتح المسؤولين عن المهرجانات بالأمر، فلما قلت لها إنني مستعد لذلك، قامت من مقعدها ودخلت الى غرفة وراء المسرح وعادت الينا بألبوم كبير يضم صورها وهي تؤدي رقص الفلامينكو على مسارح عالمية في نيو يورك، وموسكو، ولندن، وباريس وغيرها... من العواصم، والمهرجانات العالمية مع قصاصات من صحف كتبت عنها وعن أدائها.

والحقيقة أن المغني الذي رافقها على المسرح هو الذي أثار انتباهي بصوته الصدّاح وكأنه يؤدي موّالاً عربياً حسب الأصول. فإذا أغمضت عينيك وركزت

على صوته فقط تحسب أنك تسمع موّالاً لمحمد عبد المطلب. وقد أسعفني الحظ لاحقاً أنني حضرت حفلة غنّى فيها أبو النور محمد عبد المطلب في ملهى «النيل» في لندن عام 1977، فكان أداؤه رائعاً بالنظر الى سنّه يومذاك.

وقلت ما جال في خاطري عن النفحة العربية لدى المغني الذي رافقها، فقالت له ذلك، فقام وأحضر أسطوانة تضم أغانيه فوقّع اسمه على غلافها وقدمها لي. ومما قالته لي لوثيرو تينا تعليقاً على ملاحظتي تلك، إن فن الفلامينكو من رقص وغناء هو خليط عربي وغجري في الأصل. فعندما استرد الإسبان بلادهم من العرب في أواخر القرن الخامس عشر وصادروا منهم الأراضي هرب الفلاّحون العرب واختلطوا مع الغجر الذين يتقنون الرقص والغناء فنشأ من ذلك التمازج هذا النوع من الرقص والغناء. ومما قالته أيضاً إن كلمة فلامينكو ذاتها تدل على هذه الحقيقة، لأن الكلمة مركبة من كلمة عربية وكلمة أخرى اسبانية غجرية هي: Fellah Mengu، أي «الفلاّح الهارب».

الراقصة لوثيرو تينا مكسيكية الأصل، وقد بدأت الرقص في السادسة عشر من العمر بانضمامها الى فرقة كارمن أمايا، راقصة الفلامينكو العالمية، قبل انتقالها الى إسبانيا في عام 1958، حيث أدخلت على فن الفلامينكو الرقص بالكاستانيت، أو الطقّاشات الخشبية، فكان ذلك إنجازها الأهم الذي بنت شهرتها عليه. وقد وضعت تسجيلاً باسمها غايته تدريس هذا الفن أسمته: Leccion de Castanuellas، أي «دروس في فن الكاستانيت».

ومما قالته في ذلك أن فن الكاستانيت سابق للفلامينكو، وأن الطقّاشات الخشبية حديثة العهد، فكانت في الأصل نحاسية. وفي تقديرها أن فن الكاستينات يعود الى أواخر القرن الخامس عشر، بينما الفلامينكو لم يتخذ صورته كفن قائم بذاته إلاّ في وقت متأخر من القرن السادس عشر، وكان يمارس في حفلات خاصة، وتحديداً في أعراس النبلاء والأغنياء، قبل أن يصبح عمومياً بالشكل الذي عرفه الناس منذ القرن التاسع عشر.

وعندما عدت الى بيروت اتصلت بالسيدة سلوى السعيد المولجة يومذاك بشؤون مهرجانات بعلبك ونقلت اليها رغبة لوثيرو تينا، فرحبت بالفكرة لكن في برامج ما بعد مهرجانات 1975. إلاّ أن الحرب اللبنانية أطفأت الفكرة كما أطفأت كل شيء جميل في لبنان.

•••

بعد أقل من أسبوعين على عودتي من مدريد، اتصلوا بي من السفارة العراقية في بيروت لإبلاغي بأن «السيد النائب» صدام حسين سوف يقوم بزيارة رسمية الى إسبانيا للقاء الجنرال فرانكو ورئيس حكومته نافارو، وسؤالي ما إذا كنت راغباً أن أوافيه الى هناك لتغطية زيارته. ولما كنت عائداً لتوي من مدريد، فقد اعتذرت عن الذهاب شخصياً، لا سيما أن أحداً في الوفد العراقي لقمة الرباط

لم يبلغني بأن صدام حسين سوف يزور إسبانيا. فأوفدت الزميل محمد باقر شري مدير التحرير لهذه الغاية.

وبالفعل استقبل فرانكو نائب الرئيس العراقي في 12 كانون الأول/ديسمبر من عام 1974 استقبالاً حافلاً ولقي حفاوة ملحوظة من الحكومة الإسبانية. وقد ألقيت في حفلة العشاء الرسمية التي أقامها له نافارو خطابات متبادلة عن أهمية العلاقات العربية الإسبانية وآفاق تطورها.

ولما وردتني الخطب المتبادلة الى الجريدة لنشرها، لاحظت أن صدام حسين في خطابه ركّز على العلاقات الاقتصادية والتبادل التجاري والتعاون العلمي والتقني، بينما ركز نافارو رئيس الحكومة الإسبانية على التاريخ المشترك بين العرب والإسبان، وعلى الجذور الثقافية والفكرية والإنسانية للعلاقات التاريخية بين الشعبين.

وقد أخذت الخطابين الى ميشال عفلق في منزله في ساقية الجنزير، فقرأهما ملياً ثم التفت الي وسألني:

«هل أنت متأكد من أن كلاً من هذين الخطابين منسوب الى قائله؟».

فقلت له: «طبعاً أنا متأكد، لكن ماذا تقصد؟»

قال ضاحكاً: «خطاب صدام كان يجب أن يقوله نافارو، وخطاب نافارو كان يجب أن يقوله صدام. فقد ظننت لأول وهلة أن في الأمر خطأً ما»!

IX

على خط بارليف

في منزل أديب الفرزلي، عم زوجتي، تعرفت عليه. كان أنيقاً وجذاباً، هادىء النبرة يتجاذب أطراف الحديث مع آمال المعوشي، زوجة أديب الفرزلي.

ظننت أنه أحد أشقائها أو أقاربها القادمين من المكسيك، الى أن قدمتني اليه:

«خوان لاشين، الزعيم العمالي البوليفي، وهو يمت لي بصلة قربى، فوالده من جزين، هاجر مع الذين هاجروا الى أميركا اللاتينية، وهو في الأصل من عائلة المعوشي».

كان خوان لاشين يتحدث الإنكليزية بلكنة مفهومة نوعاً ما. أما العربية فلا يعرف منها سوى بضع كلمات: «مرحبا»؛ «أهلاً وسهلاً»؛ «كيف حالك»؛ «مليح».

في ذلك اللقاء عرفت أنه جاء الى بيروت من روما، فهو منفي من بوليفيا بسبب الخلافات السياسية.

وازداد إعجابي به في لقائنا الثاني في منزل أديب الفرزلي أيضاً، بسبب وضوح رؤيته السياسية وراديكاليته، ولما علم أنني صحافي وأميل في الإيديولوجيا الى اليسار، راح يتباسط معي في الحديث.

وحدث ذات يوم أن تمشينا من الروشة الى شارع الحمرا، فجلسنا نستريح في مقهى «ستراند»، أحد مقاهي الأرصفة التي راجت في ذلك الوقت.

كان بادي الانشراح وهو يقول لي:

«في لاباز (عاصمة بوليفيا) يسمون المقاهي التي ارتادها «لاشينغراد»... حسناً إنني أجلس هنا ولا أحد يعرفني».

ولم يكد يكمل كلامه حتى مر بنا شاب من بلدنا جب جنين كان مغترباً في بوليفيا فعرف لاشين ويبدو أن لاشين عرفه أيضاً، فسلم علينا لكنني لاحظت أن خوان كان بارداً تجاهه، فلم يحاول الجلوس معنا. وقبل أن أسأله عن معرفته به، قال كلمة واحدة: «بانديدو»، أي أنه من رجال عصابات التهريب.

نُفي خوان لاشين من بوليفيا ثلاث مرات: في الستينات وفي السبعينات وفي الثمانينات من القرن الماضي، لكنه لم يأت الى لبنان إلاّ في مرحلة نفيه الأول في الستينات.

ومن زوايا اهتماماتي به أن الثورة البوليفية التي كان من أبرز قادتها عام 1952، واليه وحده يعود الفضل في نجاحها، لأنه اتخذ القرار الحاسم بتسليح العمال بصورة دائمة، لكونه زعيم نقابة عمال المناجم واتحاد النقابات العام، عاصرت الثورة المصرية التي قادها جمال عبد الناصر والضباط الأحرار، حيث حدثت الثورة البوليفية قبل أسابيع قليلة من الثورة المصرية، لكن الأولى كانت شعبية بدعم عسكري والثانية كانت عسكرية بدعم شعبي.

ومع أن خوان لاشين، بسبب شخصيته الجذابة، وقدرته الهائلة على الخطابة والنقاش، وشعبيته الكاسحة بين العمال، كان بوسعه أن يتسلم القيادة ويحكم البلاد آنذاك، إلاّ أنه فضل استدعاء الزعيم الوطني المنفي فكتور باز استانسورو[1] ليتسلم الرئاسة، ووافق على أن يكون وزيراً للمناجم والبترول في الحكومة الثورية الأولى، لكنه ما لبث أن اختلف مع الحكومة على خياراتها، مما أدى الى توترات غير منتظرة لأنه شكّل معارضة يسارية داخل مجلس الوزراء.

عندما انضم خوان لاشين الى «الحركة الوطنية الثورية»[2] MNR في الأربعينات وصار من أقطابها، بقيت علاقاته جيدة مع «حزب العمال الثوري» الذي أسسه مع بعض الشبان التروتسكيين، لأنه كان يلتقي معهم في فكرة «الثورة الدائمة». إلاّ أن الحركة الوطنية الثورية بعد ثورة 1952 جوبهت بتشويه كبير من الإعلام الأميركي والصهيوني حيث اعتبروها «معادية للسامية»، وهي التهمة الجاهزة لكل من لا يعجبهم، لأنها على حد زعمهم حمت القادة النازيين الفارين الى أميركا اللاتينية بعد الحرب العالمية الثانية.

ولذلك لم أفاجأ بعد وفاة خوان لاشين عام 2001 عن عمر ناهز السابعة والثمانين، عندما كتبت عنه جريدة «غارديان»[3] البريطانية أنه «الرجل الذي غيّر وجه بوليفيا»، ووصفته بأنه «المعارض الراديكالي الخالد» الذي دام تأثيره في

---

(1) عندما أصبح خوان لاشين الرجل القوي في بوليفيا في أواخر الخمسينات، استنجد السياسيون البوليفيون بالرئيس استانسورو وأقنعوه بأن يرشح نفسه من جديد للرئاسة بعد تقاعده، لأنه الوحيد الذي يستطيع لجم اندفاعات لاشين المتطرفة. وقبل استانسورو هذا العرض، لكنه أصر على ترشيح لاشين معه نائباً للرئيس في انتخابات 1960، وقبل لاشين نيابة الرئاسة بشرط تطبيق منهجية معينة في الحكم، وعلى أساس أن يكون لاشين هو مرشح الحركة الوطنية للرئاسة في انتخابات 1964. لكن الرئيس استانسورو أخلف بوعوده، أو هو لم يستطع تنفيذها بفعل الضغوط الداخلية والخارجية، فعزل لاشين من منصبه ثم عينه سفيراً في روما، وفي عام 1964 تم نفيه خارج البلاد بعد انتهاء ولاية استانسورو.

(2) MNR /Movimiento Nacionalista Revolucionario، أي الحركة الوطنية الثورية التي تأسست في عام 1941 بقيادة فكتور باز استانسورو، وضمت شخصيات وطنية وثورية عديدة من أبرزهم، خوان لاشين، ووالتر غيفارا، وليديا غويلر. وبعد انضمام الحركة الى حكومة الرئيس العسكري غيلبرتو فيلاروال في عام 1943، اتهمت الولايات المتحدة التي كانت قد دخلت الحرب ضد ألمانيا النازية، وزراء الحركة بأن ميولهم نازية وأنهم معادون للسامية وطلبت عزلهم كشرط للاعتراف الأميركي بالحكومة البوليفية.

(3) The Guardian, Thursday, 30 August , 2001

السياسة البوليفية نصف قرن.

سألته مرة عن رأيه في الثورة المصرية، وكانت لا تزال عام 1964 في عزّ تألقها، قال:

«إن طريقها مسدود لأنها تشبه الثورة المكسيكية من حيث ترددها وعدم رغبتها في الحسم. وهذا أيضاً مقتل الثورة البوليفية، الشقيق التوأم للثورة المصرية، لأن قادة بوليفيا الوطنيين يتطلعون الى أنموذج الثورة المكسيكية. ثورة فيدل كاسترو ليست كذلك، بل هي تحتقر الأنموذج المكسيكي. كاسترو خياراته واضحة ولذلك عبثاً تحاول الولايات المتحدة إسقاطه» (كان ذلك الحديث بعد ثلاث سنوات على فشل هجوم «خليج الخنازير» في عهد الرئيس جون كنيدي).

قلت له: «لكن الظروف السياسية أحياناً، خصوصاً في منطقتنا، تفرض المساومات والحلول الوسط».

فقال: «خذ ببالك أن اليميني المستقيم خير من اليساري المتذبذب وقس على ذلك. فلا شيء أسوأ من الثوريين المترددين، لأن ترددهم يوصلهم الى حتميتين: إما حتمية السقوط المفجع، وإما حتمية الاستسلام المهين. ولا شيء أخطر على الشعب والأمة من الاستسلام لأنه يقتل روح المقاومة في الأمة».

فسألت لاشين: «وماذا إذا كان لا بد من المساومة، أو تقديم بعض التنازلات لدرء خطر أكبر؟»

قال: «ليس هناك أخطر من المساومة والتنازلات. يمكن للثوري أن يكون مرناً ويداري الظروف. لكن المرونة شيء والمساومة شيء آخر. الثوري الحقيقي هو الذي يسعى دائماً الى الحسم. بإمكانه أن يؤجل الحسم، أو يحسم على دفعات، لكن هدف الحسم يجب أن يبقى هو المسيِّر للخيارات».

قلت له: «لكن ذلك قد يعرِّض صاحبه للسقوط والزوال».

قال: «لا بأس. إنني، مثلاً، أختلف اختلافات جوهرية مع الزعيم النازي أدولف هتلر، في كل شيء تقريباً، لكنني أقدِّر فيه شيئاً واحداً هو أنه قرر الاستمرار في المقاومة مع علمه الأكيد بأنه خاسرٌ الحرب قبل خسارتها بسنتين على الأقل، وبقي مستمراً فيها الى أن وصلت الى مخدعه. والحكمة من ذلك، على الرغم من المأساة، أنه أراد أن يبقي جذوة المقاومة في الأمة الألمانية حيّة. إن أقصر طريق الى العبودية هو قتل روح المقاومة في الأمة».

عادت كلمات خوان لاشين تطرق ذهني بعد سنوات عديدة من تلك الجلسات معه في بيروت عام 1964، عندما جاءنا الى مجلة «الدستور» في لندن عبد المجيد فريد، السكرتير السابق لجمال عبد الناصر، حاملاً في حقيبته رزمة من الأوراق والمحاضر من أيام عمله في مكتب قائد الثورة المصرية يريد نشرها، فاتفق على ذلك مع صاحب المجلة ورئيس تحريرها آنذاك علي بلوط، وكان يميل

الى الناصرية. فكُلِّفت، كوني نائباً لرئيس التحرير، بأن أطلِّع على تلك الأوراق، وأبوِّبها، وأقسِّمها، وأقدِّمها على حلقات متناسبة في المعنى والمبنى، وهو ما تم في حينه تحت عنوان «أوراق عبد الناصر».

في الواقع كانت تلك الأوراق قيِّمة ومفيدة، لكنها بالنسبة الي لم تكن في جزء كبير منها تحمل جديداً إلاّ في التفاصيل. ومما لفتني فيها محضر يعود الى المرحلة الأخيرة من حياة عبد الناصر، يُستشف منه نقد بلهجة الندامة على الانخراط في حركة عدم الانحياز، بل لفكرة عدم الانحياز أصلاً. وقوام تلك الفكرة العابرة التي لم يركز عليها الزعيم المصري كثيراً، أنه من غير الممكن الحياد بين الإمبريالية وبين حركة الشعوب الساعية الى التحرر، لأن الحياد بين الظلم والعدل هو في الواقع انحياز للظلم. ووجدت هذه الفكرة في حينه، على لسان عبد الناصر، متوافقة تماماً مع فكرة خوان لاشين عن الثوريين المترددين الذين يقدمون خدمة مجانية للإمبريالية من حيث يتصورون أن التردد موقف إيجابي. وحركة عدم الانحياز حسب تشخيص عبد الناصر نفسه في أوراق عبد المجيد فريد، هي أوضح أنواع هذا التردد، لأنها منافية لفكرة الحسم القاطع في الخيارات.

وفي متابعتي التالية لنشاط خوان لاشين، لاحظت أنه يعارض الحكومات اليسارية للحركات التي له يد فيها، بقدر ما كان يعارض الحكومات اليمينية المنحازة الى الولايات المتحدة. بل إن من المآخذ الأساسية عليه في «الحركة الوطنية الثورية» أنه أيد مرة الإنقلاب العسكري ضد حكومة لتلك الحركة التي ينتمي اليها.

لقد سقت هذه اللمحة من التجربة البوليفية لأنها تلقي الضوء على زيارتي لمصر في أعقاب حرب تشرين/أكتوبر عام 1973، والمسار التسووي التنازلي الذي اتخذه النظام المصري بعد تلك الحرب بقيادة الرئيس أنور السادات، كامتداد للخيارات المتذبذبة للثورة المصرية التي انقلبت على ذاتها انقلاباً كاملاً في عملية حسم قاطعة للخيارات إنما في الاتجاه الخطأ.

وإذا كان أنور السادات قد أقام نظامه من البداية على فكرة الحسم المضاد، ونجح في ذلك، فإن السبب الأساسي في تقديري، حسب توصيف خوان لاشين للحركات الثورية، هو تردد عبد الناصر في حسم خيارات الثورة المصرية في الاتجاه الصحيح من البداية. ومن الطبيعي أن الثوري التقدمي الذي لا يحسم يترك خيار الحسم لغيره، وهو ما حدث مع الأسف. فلم يكن في موقف أنور السادات أي غموض عندما طرد الخبراء السوفيات الذين استدعاهم عبد الناصر، وأعلن بوضوح أن أوراق اللعبة كلها تقريباً (99%) في يد أميركا، فوضع بيضه في سلة واحدة... واستراح.

سافرت الى القاهرة في مطلع ربيع عام 1974، بعد نحو أربعة أشهر من حرب

تشرين/أكتوبر، وكان هدفي من تلك الزيارة التشاور مع رجاء النقاش في مرحلة التحضير لجريدة «بيروت»، والاطلاع على الأحوال في مصر بعد الحرب. وقد نزلت في فندق «شبارد»، وكان في زمانه من أفخم فنادق القاهرة باعتباره من مخلفات المرحلة الكولونيالية البريطانية، وفيه تلتقي عادة النخب الثقافية والاجتماعية في مصر.

في ردهة فندق «شبارد» التقيت مجموعة من الشعراء الفلسطينيين منهم معين بسيسو، الذي عرفته في بيروت. ومحمود درويش، الذي تعرفت عليه لأول مرة، وآخرون...

ولعبت المصادفات دورها، فالتقيت أنور الجمل، الملحق الإعلامي المصري المعروف في بيروت بصحبة بعض الصحافيين اللبنانيين بينهم سليم اللوزي وفريد أبو شهلا. تعجب أنور الجمل، وتعجبت أنا أيضاً، كيف أننا لم نلتقِ من قبل في بيروت في زمن عبد الناصر، لنلتقي في القاهرة في زمن أنور السادات، فوعد بالاتصال عندما يعود الى العاصمة اللبنانية.

وفي اليوم التالي، كنت عائداً الى الفندق من لقاء مع رجاء النقاش، وجدت في صندوق غرفتي لدى «كونسييرج» الفندق ورقة تفيد بأن ديوان رئاسة مجلس الوزراء قد اتصل بي. للوهلة الأولى ظننت أن في الأمر خطأ ما، وأن الرسالة وضعت في صندوقي بالغلط، لكن الـ«كونسيرج» أكد لي أنه ليس في الأمر خطأ. ومع ذلك قررت تجاهل الرسالة. وما كدت أدخل الغرفة حتى رنّ جرس الهاتف، فإذا بالمصدر ذاته يكلمني مرحباً بقدومي الى مصر، ومشدداً أن إقامتي في القاهرة هي على «حسابهم»!، فحاولت عبثاً إقناع محدثي بأن زيارتي خاصة وليست صحافية معتذراً عن قبول الضيافة الرسمية، إلاّ أنه أصر وألح فقبلت الدعوة شاكراً. لكنني تفكرت في الأمر بعد ذلك متسائلاً عن كون الدعوة من ديوان رئاسة مجلس الوزراء وليست من وزارة الإعلام كما جرت العادة. وفي تقديري أن أنور الجمل، بذكائه الإعلامي المعروف، هو الذي اقترح عليهم ذلك، لأن دعوة وزارة الإعلام تكون في أغلب الظن للصحافيين المحسوبين عليهم.

في ردهة الفندق ذات صباح وجدت مجموعة من الصحافيين الأجانب يرتبون زيارة الى سيناء لمشاهدة أرض المعركة في حرب 1973 على الطبيعة، فقررت الانضمام اليهم، وكانت تلك الرحلة من أهم وأجلِّ الرحلات الصحافية وغيرِ الصحافية التي قمت بها في حياتي، لأنها بددت من ذهني جميع ما كان شائعاً من مغالطات بحق القوات المصرية المسلّحة والقدرة العربية على المواجهة الفعلية لإسرائيل. ومن يومها أيقنت أن العطب والخلل هو في القيادات السياسية وليس في القوات المسلّحة، بما في ذلك الخلل اللاحق بتبديد إنجازات الجيش المصري في المساومات والتنازلات والانسحاب بالتالي من ميدان الصراع، وصولاً الى حالة الغياب عن الوعي التي سادت في عهد الرئيس

حسني مبارك.

جميع الصحافيين الأجانب الذين ترافقت معهم الى سيناء، عابرين القناة على الجسر الضيِّق الذي أقامته القوات المسلحة المصرية للعبور عليه الى الضفة الأخرى، أبدوا دهشتهم وإعجابهم بما شاهدوا. إنه مشهد فوق الوصف، وأرى اليوم أنهم محظوظون هم الذين شاهدوه فعلاً، لأنه مشهد غير مسبوق.

بعد العبور الى الضفة الشرقية من القناة، وقفنا ملياً عند خط بارليف[4] المحصن بتحصينات منيعة وخيالية لا تصدّق على طول القناة وفوق الماء مباشرة. فما وضعه الإسرائيليون من حديد وإسمنت في تلك التحصينات يكفي لتشييد عدة مدن، مما يجعل عملية اختراقها واحتلالها معجزة من المعجزات الهندسية والعسكرية. وقد أيقنت في تلك اللحظة الصاعقة أن الإسرائيليين ما كانوا يفكرون قط في الانسحاب منها تحت أي ظرف من الظروف .

فعلى طول القناة أقاموا سواتر رملية وراء دشم اسمنتية منيعة معدل ارتفاع كل ساتر منها يزيد على 20 متراً، بانحناء يبلغ 60 درجة الى مستوى الماء، ووراء تلك السواتر التحصينات العميقة والقوية تحت الأرض، ووراء تلك التحصينات خط الدفاع الثاني الذي لا يقل تحصيناً عن خط الدفاع الأول، وبينهما على مسافات معينة حيث قدّر الإسرائيليون إمكانية العبور المصري منها، تم زرع حقول واسعة من الألغام التي تعيق تقدم الجيوش المصرية، لكن سلاح الهندسة المصري لم يضيِّع الوقت في تعطيلها كلها، بل فتح فيها وعبرها ممرات مأمونة للآليات. وقد استطاع ذلك الجيش تفليش السواتر الرملية الحاجبة لتحصينات خط بارليف بالمدافع المائية الشديدة الضغط، مما جعل تلك السواتر تنهار في دقائق.

إذا فكّر المرء فقط في كلفة تلك المرابض والاستحكامات، ليس فقط على شاطىء القناة، وإنما أيضاً في عمق الصحراء، حيث الخنادق القتالية معمّرة ومحصنة أيضاً على مدى مئات الكيلومترات، وحيث مقرات القيادة العسكرية في «عيون موسى» أين منها مقرات الجيش الألماني وجيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية كما نشاهدها في الأفلام الوثائقية والسينمائية، وكذلك مرابض المدفعية الثقيلة التي دمرت مدن القناة من مدينة السويس وبور فؤاد الى الإسماعيلية، وهي مدافع بعيدة المدى تقصف وترتد الى مرابضها تجنباً للقصف المضاد، وتحتها مهاجع محصنة تحت الأرض يتسع كل منها لأربعين جندياً مع ذخائرهم ومؤنهم لمدة عشرة أيام. وكانت عشرات الدبابات المحترقة منتشرة في قلب الصحراء متفحمة كالذباب المتساقط على الأرض بعد رشِّه بالمبيدات.

ليس ذلك شيئاً هيِّناً، والكلام الغيابي عنه لا يوازي كله لحظة واحدة من

---

(4) سمِّي «خط بارليف» نسبة الى حاييم بارليف رئيس أركان الجيش الإسرائيلي في ذلك الوقت.

المشاهدة العينية لذلك المسرح الرهيب. ولم أصدق نفسي أنني واقف على خط بارليف فوق قناة السويس وفي مقر القيادة العسكرية الإسرائيلية في عيون موسى، بما فيها من دهاليز وغرف عمليات وتجهيزات على عمق عشرات الأمتار تحت الأرض مبنية بدشم اسمنتية مسلحة تقوى على تحمل جميع أنواع القصف من البر والبحر والجو. فلم أصدق عيني على ما رأيت، إذ تشعر في تلك اللحظة أنك في فيلم من أفلام الخيال العلمي، لا على أرض الواقع.

إن ذلك المشهد لم يفارق خيالي وذاكرتي من يومها الى اليوم. إنه مشهد تشعر معه بالفخر والاعتزاز والأمل. تقرر على الفور أن الأمل ليس مقطوعاً من هذه الأمة كما يتصور كثيرون من الانهزاميين، حكاماً ومحكومين، على الرغم من مسيرة التدهور التي بددت ذلك الإنجاز العظيم الذي لا يعرفه ويقدره حق قدره إلاّ الذين شاهدوه على الطبيعة، وأنا أعتبر نفسي محظوظاً لأنني واحد منهم. وفي اعتقادي وتقديري أن الإسرائيليين لم يكن يخطر ببالهم لحظة واحدة أن أحداً في العالم يمكنه اختراق تلك التحصينات الرهيبة والمحكمة البناء بكلفة باهظة.

وفي طريق العودة من عيون موسى، مررنا على مقر قيادة الجيش المصري الثالث حيث دعانا قائده اللواء حسن أبو سعدى على الغداء، وتبادلنا معه الحديث عن الحرب. والجيش الثالث هو الذي استهدفه الخرق الإسرائيلي للضفة الغربية للقناة، بقيادة آرييل شارون، وهو الخرق المعروف باسم «ثغرة الدفرسوار»، والهدف منه تطويق الجيش الثالث وقطع طرق إمداداته بهدف دفعه الى الاستسلام. وآثر أبو سعدى عدم الحديث عن خططه لفك الحصار بعد ثغرة الدفرسوار لو لم يتم وقف إطلاق النار، لكنه قال إنه كان بإمكانه شن هجوم مضاد لخرق الحصار وسد الثغرة التي فتحها شارون على الضفة الغربية، كما حدثنا عن أسر الضابط الإسرائيلي عسّاف ياغوري[5]، وهو ضابط احتياط لديه فندق في تل أبيب، كما قال لنا القائد المصري، وقد عاد الى فندقه بعد الافراج عنه وفك أسره.

وعندما كان أبو سعدى يروي لنا قصة عساف ياغوري، مال الي صحافي كندي وقال لي:

«ألا ترى كيف يعتز القائد المصري بعسكريته من خلال تصوير عدوه على أنه مجرد فندقجي»!

لكن «عسكرية» حسن أبو سعدى لم تطل، لأن السادات أعاده الى «مدنيته» وعيّنه سفيراً لمصر في بريطانيا، فالتقيت به ثانية في لندن في مطلع الثمانينات على عشاء خاص في دارة أميّة اللوزي صاحبة مجلة «الحوادث» يومئذ، ضم

---

(5) الكولونيل عساف ياغوري القائد الإسرائيلي لكتيبة الدبابات 109 التي دمرها المصريون بكاملها وقوامها أكثر من مائة دبّابة.

أيضاً السفير المغربي آنذاك وزوجته.

كانت حرب تشرين تلك من المحطات الفاصلة في تاريخ المنطقة الحديث، لكنها مع الأسف أجهضت واستخدمت لحسم الخيار المصري في الدرجة الأولى بالاتجاه المعاكس لمصالح الأمة العربية وطموحاتها المشروعة. ولذلك، كان ما شاهدته بعيني على الطبيعة في سيناء، محفزاً لي من تلك الأيام على الفصل بين تلك الحرب وبين توظيفها السياسي القبيح.

ذلك أن الخيارات السياسية بعد الحرب، كان من الطبيعي أن تفعل فعلها في تشويه صورة الإنجازات العسكرية المدهشة للجيش المصري. وفي اعتقادي أن من أسوأ تلك الخيارات منع القوات المسلحة المصرية من تطوير إنجازاتها تلك والبناء عليها ومتابعتها الى أفق أعلى وأرحب، لكن ما حدث كان عكس ذلك مع الأسف، فتم التخلص من قياداتها المؤملة وتضييق أفقها.

وقد قلت رأيي حول تبديد تلك الإنجازات على غداء خاص في منزل الدكتور يوسف ادريس[6] حضره رجاء النقاش وكمال رفعت[7] ولطفي واكد[8]. فعلّق كمال رفعت على الموضوع بقوله إن عبد الناصر، أياً كانت الآراء المختلفة فيه، وعلى الرغم من هزيمته، حفظ لمصر كبرياءها، لكن ما جرى بعد حرب تشرين انتقص من كبرياء مصر، وبدّد إنجاز القوات المسلحة. وقال، كما دونت في مفكرتي:

«عندما كنت وزيراً للعمل أثناء إقامة جدار الصواريخ على القناة، وكان العمّال يموتون تحت القصف بالمئات، كانت مهمة وزارتي استحضار العمّال من

(6) طبيب احترف الكتابة وأصبح من كبار الكتّاب في مصر. وفي وقت زيارتي لمصر عام 1974 كانت له مواقف صارمة ضد إسرائيل، وهو موقف عبّر عنه في بعض كتاباته. وعندما مُنح الكاتب المصري نجيب محفوظ جائزة نوبل للآداب في أواخر ثمانينات القرن الماضي، احتج يوسف ادريس معتبراً نفسه أحق بالجائزة، متهما الأكاديمية الملكية السويدية التي تقرر منح تلك الجائزة بأنها حرمته منها بسبب موقفه العدائي من اسرائيل. لكن بعد ست سنوات على وفاته تم منحه جائزة ومدالية نجيب محفوظ للآداب عن روايته المميزة «مدينة الحب والرماد». وقد توفي يوسف ادريس في أحد مستشفيات لندن صيف عام 1991 من إخفاق في القلب.

(7) كمال رفعت من رجالات الثورة المصرية ويمت بصلة قربى الى رجاء النقاش.

(8) لطفي واكد من الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة المصرية في 1952، وكان في شبابه الأول منتمياً الى تنظيم «مصر الفتاة» المقاوم للاحتلال البريطاني، لكنه في الجيش كان على صداقة مع الضابط اليساري خالد محيي الدين وبعد رحيل عبد الناصر اشترك مع خالد محيي الدين في تأسيس حزب «التجمع» وأصبح فيه نائباً للرئيس. وقد تعرف واكد على عبد الناصر في الجبهة على حدود فلسطين عام 1948، فأدخله عبد الناصر في تنظيم الضباط الأحرار، وبعد الثورة أصبح مديراً لمكتب عبد الناصر من 1954 الى 1957، ثم سلمه عبد الناصر رئاسة تحرير جريدة «الشعب» بعد عزل صلاح سالم منها. وبعد انفصال سوريا عن مصر في الجمهورية العربية المتحدة انشق عن عبد الناصر محملاً إدارته مسؤولية الانفصال فسجنه عبد الناصر بحكم لمدة 15 سنة قضى منها 27 شهراً في السجن قبل إطلاق سراحه. وكان لطفي واكد متوافقاً في هذا الموقف من عبد الناصر في مسألة الوحدة مع داوود عويس، مدير مكتب المشير عامر أثناء وجوده في دمشق، وكان على علاقة طيبة مع ميشال عفلق مؤسس حزب البعث.

محافظة الشرقية، فكان هؤلاء العمال يتوافدون للعمل في منطقة القناة وهم يهزجون ويغنّون، وكأنهم ذاهبون الى عرس وهم يعرفون أنهم ذاهبون الى حتفهم. هذه هي روح مصر التي بدأت تنطفىء».

وكان كمال رفعت في ذلك الوقت يعدُّ لإصدار مجلة «الكاتب» مع لطفي واكد رئيس التحرير، الذي وصف نفسه بأنه «وحدوي وديموقراطي ويساري في جبلة واحدة».

والحقيقة أنه من النادر أن تجد ضابطاً عسكرياً محترفاً يظهر، بالإضافة الى كونه وحدوياً ديموقراطياً يسارياً، على أنه مفكر ليبرالي من طراز رفيع. وبعد انخراطه في حزب «التجمع» الى جانب خالد محيي الدين، ترأس لطفي واكد تحرير جريدة «الأهالي» الناطقة بلسان حزب «التجمع».

أما الدكتور يوسف ادريس، في تلك الجلسة الراقية في منزله، فقد طلع علينا بنظرية مفادها أن الرفض أفعل من الحرب، وحتى أفعل من المقاومة الميدانية، لأن إمكانية كسب الحرب في عالم اليوم تبقى أقل من احتمالات الهزيمة، وهي سوف تتوقف حتماً للتفاوض والتسوية. والمقاومة الميدانية في الوضع العربي والفلسطيني الراهن يمكن أن تنشق، أو تتعارض أهدافها، أو تنحرف في اتجاهات مغايرة لأهدافها الأصلية، لكن الرفض هو أبسط وأفعل الأسلحة وأقلها كلفة وأكبرها نتيجة.

ثم زاد بلهجة عصبية: «إنه عار على العرب جميعاً أن يكون السلطان العثماني عبد الحميد الثاني أول وأكبر الرافضين لتسليم فلسطين الى اليهود».

فالرفض العربي، في رأي يوسف ادريس، من شأنه أن يبقي صفة العدوان والاغتصاب لاصقة بالإسرائيليين أمام أعين العالم، وأمام أجيالهم هم.

وما جرى في حرب تشرين/أكتوبر 1973 كان موضع جدل ونقاش في كل مكان، خصوصاً بين النخب المصرية والعربية. وفي بعض الأحيان بلغ ذلك الجدل موضع التشكيك بها وبأهدافها، بين قائل بأنها «حرب تحريك» الى قائل بأنها «مسرحية مركبة» لإنهاء القضية الفلسطينية بمعاهدة سلام تُخرج مصر من دائرة الصراع العربي - الإسرائيلي، وبالتالي من دورها القائد في العالم العربي... وما الى ذلك.

وحتى قبل الحرب، وأثناء حكم عبد الناصر في سنواته الأخيرة بعد الهزيمة، كان موقف مصر من المسألة مثيراً ليس فقط للنقاش، بل للالتباس أيضاً. فعندما أثار محمد حسنين هيكل في «الأهرام» بعد وفاة عبد الناصر مباشرة موضوع حجم مصر في معرض نقده لمواقف حزب البعث، كان ردي في «الكفاح» (في مسلسل «هيكل وبؤس الصراحة» في أواخر 1970)، أن المسألة هي مسألة دور وليست مسألة حجم. فلبنان الدولة الأصغر حجماً في العالم العربي، كانت لها ولا تزال أدوار أكبر بكثير من دول يبلغ حجمها عشرات

الأضعاف. بل إن دور مصر عندما أصبحت أصغر حجماً بفقدها شبه جزيرة سيناء، كان أفعل وأقوى من أي وقت مضى خصوصاً أثناء «حرب الاستنزاف» على القناة في عام 1969 التي لولاها لما نجحت حرب تشرين/أكتوبر 1973 بذلك الزخم الذي أشرت اليه سابقاً. فالأدوار لا تقررها الأحجام، بقدر ما تقررها عوامل الصمود والمقاومة والالتزام بالأهداف القومية العليا. ولذلك فإن التزام القضية الفلسطينية بشكل جدي من أي بلد، أو حتى تنظيم سياسي، يجعله بحجم العالم كله لأن الكيان الإسرائيلي في فلسطين المحتلة هو مدار العالم كله.

ولذلك وجدت في مصر أثناء تلك الزيارة أن الخيارات السياسية لنظام أنور السادات انعكست انعكاساً غير منصف على حرب تشرين/أكتوبر كحالة معبِّرة عن حقيقة مصر المقاومة. وهذا الانطباع لم يكن من طرف واحد، أي من طرف الذين كانوا يتوخون استمرار المقاومة ضد إسرائيل، بل كان أيضاً من طرف القائلين بأن غاية تلك الحرب هي التعجيل في «تحقيق السلام». وتجسّد هذا التفاوت بين نظرتين في مواقف النخب السياسية والفكرية آنذاك من شخص أنور السادات نفسه، بين قائل بأنه بطل السلام لكونه بطل الحرب، وبين قائل بأنه جاء ليمثِّل دوراً مرسوماً له من قبل الأميركيين، وربما من قبل اليهود. وقد لاحظت بين بعض المثقفين المصريين الذين التقيتهم في القاهرة، خصوصاً في أوساط اليساريين منهم، نوعاً من «الاحتقار» لشخص أنور السادات.

والحقيقة أنني لم أكن أعرف شيئاً عن أنور السادات الذي سمعت باسمه لأول مرة، كما ورد، على لسان البطريرك الماروني مار بطرس بولس المعوشي في لبنان بعد حوادث عام 1958، حيث أخذت فكرة عابرة عنه بأنه «إسلامي» لكونه رئيساً للمؤتمر الإسلامي آنذاك.

فقد ارتسمت في ذهني تالياً صور عديدة لأنور السادات: صورة تشبه صورة ضابط كولونيالي بريطاني في الجيش الأنغلو ـ مصري في السودان، يرتدي «الشورت» في الحديقة حيث يدخن غليونه ويلاعب كلبه، كما وصفه لي أحمد

حمروش[9]. أو صورة الباشا الإقطاعي كما وصفه لي أحمد بهاء الدين[10]، عندما قال إنه كان يجلس في المساء بعد يوم العمل، فيأتيه خادم بموزة مقشرة يأكلها قبل أن يشرب كأساً من الويسكي معتقداً بأن الموزة تشكل غلافاً للمعدة يقيها من تأثير الكحول، ثم يأتيه عشاؤه الذي هو عبارة عن أرنب مسلوق أو طير حمام أو دجاج، وأخيراً يأتيه مدلك يظل يدلكه الى أن تخرج معدته، لأنه كان يعتقد، على قول بهاء الدين، بأنه لا يجوز النوم والسموم في الجسم. أو صورة الضابط النازي ببزته العسكرية المزينة بالنياشين، كالبزة التي ظهر فيها يوم اغتياله على المنصة في عام 1981، وهذه الصورة ارتسمت له خلال الحرب العالمية الثانية عندما التحق بالفريق عزيز المصري[11] المؤيد للألمان ضد الإنكليز، كما سمعت من أكثر من مصدر. أو صورة المهرّج الكوميديانتي الحشّاش التي رسمها لي الزميل فيليب جلاّب على صورة زكريا

(9) أحمد حمروش من الضباط الأحرار القريبين في الميول من خالد محيي الدين، لكنه لم يكن في مجلس قيادة الثورة شأن محيي الدين. وهو أيضاً كاتب غزير الإنتاج وكان رئيس تحرير أول مجلة ناطقة باسم الثورة وهي مجلة «التحرير»، كما كتب وعمل في صحف عديدة، منها مجلة «التضامن» حيث استكتبه ناشرها ورئيس تحريرها الزميل فؤاد مطر. وهو بحق وحقيق مؤرخ ثورة 23 يوليو التي كتب قصتها الكاملة في ثمانية مجلدات بعنوان «قصة ثورة يوليو»، كما وضع كتاباً قيماً عن الصحافة المصرية بعنوان «قصة الصحافة في مصر». وكانت له في الأصل ميول اشتراكية قريبة من الشيوعيين، لعلاقة مبكرة له مع «الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني» قبل انتسابه الى تنظيم الضباط الأحرار. ومن المآثر التي يُذكر بها إدارته للمسرح الوطني حيث ترك ذكريات طيبة في الوسط المسرحي والفني. وربما كان أحد القلائل من الضباط الأحرار الذين لم يكونوا على معرفة بأنور السادات قبل الثورة، بل تعرف عليه بعد الثورة في عام 1952. وفي السنوات الأخيرة ترأس لجنة التضامن الأفرو ـ آسيوي.

(10) أحمد بهاء الدين من أبرز الصحافيين المصريين في العهدين الناصري والساداتي، ترأس تحرير مطبوعات «دار الهلال»، وترأس تحرير «الأهرام» لفترة قصيرة في عهد السادات، ثم انتقل الى الكويت ليترأس تحرير مجلة «العربي».

(11) الفريق عزيز علي المصري ضابط من مواليد القاهرة، وهو من أصل شركسي تخرج من الكلية الحربية في استانبول وحارب مع أنور باشا ومصطفى كمال أتاتورك ضد الاحتلال الإيطالي لليبيا في منطقة برقة التي عينه أنور باشا قائداً عليها بعد عودته الى تركيا في أعقاب معاهدة لوزان الأولى مع إيطاليا في 1912، وذلك ضمن «منظمة الضباط الفدائيين» لمساعدة المجاهدين الليبيين ضمن التشكيلات السرية التي أجراها قبل رحيله وعرفت باسم «تشكيلاتي مخصوصة». لكن المصري اختلف مع الأتراك بسبب تبنيه لفكرة القومية العربية، فانضم الى الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين الهاشمي الذي عينه رئيساً لأركانه، لكنه عاد الى مصر بعد الحرب العالمية الأولى حيث دعا الى الفكرة القومية العربية بين قدامى الضباط، وأصبح مديراً لأكاديمية شرطة القاهرة (1927 ـ 1936)، ثم مفتشاً عاماً للقوات المسلحة المصرية في 1938. وفي السنة التالية عينه رئيس الحكومة المصرية علي ماهر باشا رئيساً للأركان ليسرّح من منصبه في السنة التالية بضغط من الإنكليز الذين اشتبهوا بميوله النازية. وبالفعل حاول الهرب من مصر للالتحاق بالجيوش الألمانية في ليبيا لكنه اعتقل ومثل أمام محكمة عسكرية في عام 1941، لكن الزعيم الوفدي مصطفى النحاس باشا أمر بإطلاق سراحه، فراح يتصل بضباط في الجيش ومنهم أنور السادات لتنظيم خلايا ثورية، فكان له أكثر من نقطة تماس مع تنظيم الضباط الأحرار. وبعد نجاح الثورة المصرية في 1952 تم تعيينه سفيراً لمصر في موسكو لعدة أشهر، كما طرح اسمه ليكون رئيساً للجمهورية قبل اختيار اللواء محمد نجيب.

الحجّاوي الذي كان السادات صديقه ومعجباً به الى درجة أنه كان يقلده في طريقة الحكي، ثم تنكر له بعد وصوله الى السلطة وكذب عليه. أو صورة المراوغ المتمسكن الوديع في إطار من «الخبث المصفّى» كما وصفته لي السيدة برلنتي عبد الحميد، زوجة المشير عبد الحكيم عامر[12]. أو صورة الفرعون الواقف ذليلاً أمام «الهكسوس»[13] كما وقف أمام مناحيم بيغن في الكنيست الإسرائيلي فلم يصدِّق الإسرائيليون أعينهم، كما شاهد جميع الناس في العالم على شاشات التلفزة.

كان لحرب 1973 ما قبلها: ما قبلها القريب، وما قبلها البعيد. ما قبلها القريب دار على ثلاثة محاور:

المحور السوفياتي، والمحور الأميركي، والمحور النفطي. ولكل من هذه المحاور أبعاد تتعلق بالصراع العربي ـ الإسرائيلي من زوايا مختلفة. وربما كانت الشبهة على أنور السادات، وبالتالي على أهداف الحرب، ناشئة من طريقة تعاطي الرئيس المصري مع موسكو، بما ينبىء أنه كان مصمماً على قطع العلاقة معها والسير في الاتجاه المعاكس ومصبه النهائي في إسرائيل، مهما تم تزيينه أو تبريره أو تغليفه. فعندما ذهب السادات الى الحرب كان في حقيقة الأمر ذاهباً الى إسرائيل. هذه خلاصة ما فهمته من أحاديثي ولقاءاتي مع الذين التقيتهم من المثقفين اليساريين وبعض رجال الثورة القدامى الذين ترافقوا مع عبد الناصر سلباً وإيجاباً.

قال لي الزميل فيليب جلّاب:

«تعامل السادات مع الاتحاد السوفياتي كما تعامل مع زكريا الحجّاوي ومع برلنتي عبد الحميد».

فقد كان في نمط تعامله هذا إهانة لمصر نفسها، وليس فقط عملية تشهير بالاتحاد السوفياتي. فما قاله وما فعله السادات بالنسبة الى السوفيات فيه نكران للجميل الى درجة الفضيحة، لأن ما قام به السوفيات لمصر من بناء السد العالي، الى بناء مئات المصانع، الى تسليح وإعادة تسليح الجيش المصري، الى المشاركة الفعلية في الدفاع الجوي عن مصر الى الغرب من القناة، يشكل علامة فارقة في التعامل بين الدول، الى درجة أن عبد الناصر نفسه، كما جاء في أوراقه التي نشرها مدير مكتبه عبد المجيد فريد في

(12) المشير عبد الحكيم عامر ظل قائداً للقوات المسلحة المصرية من بداية الثورة المصرية وحتى انتحاره بعد هزيمة حزيران عام 1967، وكان مسؤولاً عن الإقليم الشمالي في الجمهورية العربية المتحدة (سوريا) عندما بدأت الوحدة تتعرض للاهتزاز، كما كان مسؤولاً عن إدارة الحرب في اليمن بعد سقوط حكم الإمامة وإعلان الجمهورية.

(13) الهكسوس شعوب آسيوية غزت مصر واحتلت المنطقة الشرقية من دلتا النيل في عهد السلالة الفرعونية الثانية عشر بين القرنين العشرين والتاسع عشر قبل الميلاد، ويسمونهم باللغة العربية «الملوك الرعاة».

«الدستور»، راودته فكرة التخلي عن عدم الانحياز لأن معركة المصير العربي لا تتحمل عدم الانحياز للأصدقاء والحلفاء، فكيف بالانحياز الى الأعداء كما فعل السادات.

فقد طلب السادات من القيادة السوفياتية في شهر تموز/يوليو 1972 سحب جميع خبرائها المدنيين والعسكريين على السواء[14] بحجة أن موسكو رفضت إعطاءه أسلحة جديدة متطورة يقاتل بها إسرائيل، حسب زعمه. فبماذا حارب السادات، إذن، في عام 1973؟ هل حارب بأسلحة أميركية؟

عندما أدار السادات وجه مصر من الشرق الى الغرب، ومن موسكو الى واشنطن تحديداً، في الوقت الذي استمر الاتحاد السوفياتي ومعه منظومة الدول الاشتراكية في قطع العلاقات مع إسرائيل منذ حرب 1967، حاول أنور السادات تصوير الأمر وكأنه «تمثيلية» لصرف أنظار العدو لكي لا يفطن للاستعداد المصري للحرب. وقد بدأ بوضع القصة في هذا الإطار الصحافي في مجلة «روز اليوسف» عبد الستار الطويلة الذي زعم في كتاب وضعه عن الحرب بعنوان «حرب الساعات الست» بأن ما قام به السادات كان عملية «كاموفلاج» لتضليل العدو.

قال لي الصحافي المصري محمود السعدني[15]، فيما بعد، إن السادات نفسه أسهم في وضع وتنقيح كتاب الطويلة لأنه مقرب منه.

ومما جعلني أصدق رواية محمود السعدني أن السادات نفسه، كما قرأت لاحقاً في إحدى الصحف الإنكليزية، وصف فعلته تجاه الاتحاد السوفياتي بأنها «غطاء استراتيجي لصرف الأنظار عن الاستعدادات للحرب»، وذلك نقلاً عن حديث له الى إذاعة القاهرة بتاريخ 24 تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1975[16].

أنا شخصياً لا أصدق هذه الرواية، أو هذا التبرير، لأن مجريات الأمور والتطورات اللاحقة كذبته في كل خطوة من محادثات فك الاشتباك في «الكيلو 101»، ومن رحلة السادات المشؤومة الى القدس المحتلة الى كامب دايفيد، فيما

---

(14) تختلف تقديرات عدد هؤلاء الخبراء بين 20 ألفاً و 30 ألفاً.

(15) محمود السعدني صحافي وكاتب مصري معروف اشتهر بأسلوبه الساخر، وقد لجأ الى خارج مصر في عهد السادات، فعمل فترة في الكويت، ثم انتقل الى بغداد وعاش فيها فترة من الزمن قبل رئاسة صدام حسين وبعدها. وقد قال لي ملاحظته عن كتاب عبد الستار الطويلة عندما استقر في لندن في مطلع الثمانينات بعدما تعارفنا يوم جاء الى العاصمة البريطانية في 1977 ليكتب سلسلة من المقالات في «الدستور» بعنوان «حمار من الشرق». ثم أسس تالياً في العاصمة البريطانية مجلة ناصرية اسمها «23 يوليو» التي لم تعمر طويلاً، فعاد بعدها الى مصر. وكان السعدني شديد الإعجاب بالأستاذ أكرم الحوراني منذ أيام الوحدة السورية ـ المصرية يوم كان الحوراني نائباً لعبد الناصر، فأطلق على نجله البكر اسم «أكرم».

(16) تبين لي من بعض المراجعات أن مجلة «روز اليوسف» نفسها، حيث كان يعمل عبد الستار الطويلة، كتبت أن السادات ساعد الطويلة في وضع كتابه، وذلك في عددها الصادر بتاريخ 7 تشرين الأول/أكتوبر، 1974.

الاتحاد السوفياتي طوال تلك المراحل كلها قاطع علاقاته مع إسرائيل. وعندما زرت القاهرة آنذاك لم أكن أعرف عبد الستار الطويلة، لكنني تعرفت عليه في لندن برفقة محمود السعدني.

أما على المحور الأميركي فقد كانت التطورات تدل على ضغوط داخل الولايات المتحدة ضد الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون، وليس لدي شك في أن اللوبيات الصهيونية كانت وراء تلك التحركات. ومع أن تلك الضغوط بدأت تظهر شيئاً فشيئاً منذ إقدام نيكسون على التفاهم مع الصين ومع الاتحاد السوفياتي، إلاّ أنها بلغت بداية ذروتها باتجاه الحسم في إبان الحرب العربية - الإسرائيلية عام 1973. ففيما كانت تلك الحرب في أيامها الأولى نشر الإعلام الأميركي المتصهين أخباراً حول مخالفات ضريبية تافهة بحق نائب الرئيس سبيرو آغنيو الذي اضطر الى تقديم استقالته من منصبه يوم 10 تشرين الأول/أكتوبر 1973، أي في اليوم الرابع لعبور الجيش المصري قناة السويس باتجاه شبه جزيرة سيناء المحتلة لتحريرها.

وبعد عشرة أيام فقط من استقالة نائب الرئيس الأميركي، بدأت وسائل الإعلام الأميركية إياها فتح ملف ما سمي بـ«فضيحة ووترغيت» التي دفعت نيكسون الى الاستقالة ومغادرة البيت الأبيض بصورة مهينة، أي في العشرين من تشرين الأول/أكتوبر 1973، قبل أسبوع واحد فقط من وقف إطلاق النار على الجبهة المصرية.

وهذا ينبىء بأنه في الوقت الذي كان فيه السادات يتهجم على القيادة السوفياتية ويجرِّحها ويواجهها بخطوات تشهيرية مهينة، كان اليهود يفعلون الشيء ذاته تقريباً، ولو بأسلوب مختلف، مع القيادة الأميركية. فكأن هناك اتفاقاً ضمنياً بأن يخلع كل منهما صاحبه في إنكار فاضح للأفضال السابقة لكل منهما على حليفه.

لكن توقيت التحركات النفطية على مشارف حرب 1973 هو أيضاً يثير الشبهات. وأكثر ما يثير تلك الشبهات أن التحركات بدأها شاه إيران محمد رضا بهلوي في شهر آب/أغسطس من عام 1973 بوضع يده على صناعة النفط الإيرانية منتزعاً تلك الصناعة من أيدي الشركات الغربية، بما في ذلك مصفاة عبادان.

وبعد ذلك بأيام فقط (في 24 أيلول/سبتمبر 1973) أعلن العاهل السعودي الملك فيصل بن عبد العزيز أنه لن يزيد إنتاج بلاده من النفط، وكان يومئذ يبلغ 6.6 مليون برميل في اليوم[17]. ثم أرفق ذلك بمضاعفة السعر المعلن للنفط السعودي من 1.5 دولار للبرميل الواحد الى ثلاثة دولارات للبرميل. فكان ذلك

---

(17) كان الإنتاج السعودي آنذاك يعادل ستة أضعاف الإنتاج العراقي البالغ 1.1 مليون برميل في اليوم، وثلاثة أضعاف الإنتاج الليبي البالغ 2.2 مليون برميل في اليوم.

بداية مرحلة نفطية جديدة على الرغم من الأزمات المفتعلة التي تلتها، بما في ذلك قطع النفط العربي عن بعض البلدان الغربية المؤيدة لإسرائيل بشكل مسرحي ما لبث القائمون به أن تراجعوا عنه من دون تحقيق أي نتيجة سوى النتيجة الدعائية الفارغة.

ما قبل الحرب البعيد، ومنه ما يعود الى ما قبل حرب 1967، يدور حول محور واحد هو استدراج مصر في الدرجة الأولى، ثم بقية الدول العربية، الى صلح مع إسرائيل يعترف بها كدولة طبيعية من دولِ المنطقة. وقد جرت عدة محاولات من هذا النوعِ مع جمال عبد الناصر شخصياً.

وقال لي أحمد بهاء الدين إن الرئيس عبد الناصر في عام 1963 تلقى رسالة شخصية من الرئيس الأميركي جون كنيدي قبيل أشهر من مصرعه، فدعا عبد الناصر بعض كبار المسؤولينِ ومنهم رؤساء تحرير الصحف القومية، وأبلغهم عن تلقيه رسالة كنيدي طالباً منهم عدم البوح بأي شيء عنها، أو حتى إنكار وجودها. وقال لهم إن مضمون الرسالة يتحدث عن ضغوط كبيرة يتعرض لها داخل أميركا لكي يوافق على تسليح الجيش الإسرائيليِ بأسلحة أميركية[18]، وإنه لن يستطيع أن يصمد في وجه تلك الضغوط طويلاً، ولذلك يدعوه الى البحث في إمكانية قيامه بمسعى سريع لحل سلمي بين مصر وإسرائيل يمكن له أن يرعاه ويدفع باتجاه إنجاحه. لكن بهاء الدين لم يقل لي ما كان جواب عبد الناصر، أو أنه لا يعرف الجواب.

الإشارة الثانية من عبد الناصر جاءت في كلمته عند استقباله في عام 1964 أعضاء المجلس التشريعي لقطاع غزة الذي كان يومها تحت الإدارة المصرية المباشرة. إذ قال إنه ليست لديه خطة لتحرير فلسطين. وكان ذلك، حسب اعتقاد بعض الغزيين، أول إشارة على جعل القضية الفلسطينية مسؤولية الفلسطينيين أنفسهم. ولذلك، لم يكن مستغرباً أن يدفع عبد الناصر باتجاه إقامة منظمة التحرير الفلسطينية في تلك السنة عينها.

في عام 1965 قام الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة بجولة عربية بدءاً من القاهرة حيث تباحث مع الرئيس جمال عبد الناصر، وبعد القاهرة انتقل الى المملكة الأردنية الهاشمية التي كانت تضم الضفة الغربية، حيث أطلق في مدينة القدس دعوة الى حل سلمي، لكن عندما انتقل من الأردن الى لبنان انفجرت في وجهه احتجاجات شديدة، فكانت حجته أن التجربة التونسية نجحت لأنها قامت على مبدأ «خذ وطالب»، وبالتالي فإنه من الحكمة القبول بما هو ممكن ثم المطالبة بالمزيد، لكن هذه الحجة لم تجد أي صدى إيجابي، بل إن

(18) حتى ذلك الوقت كان تسليح الجيش الإسرائيلي يتم بأسلحة فرنسية في مختلف المجالات، بما في ذلك مفاعل ديمونا النووي الذي استحصل عليه شيمون بيريز. ويبدو أن الإسرائيليين استشعروا ميل الزعيم الفرنسي شارل ديغول الى التحالف مع عبد الناصر، فراحوا يعملون للحصول على أسلحة أميركية خشية أن توقف فرنسا الديغولية تسليحهم.

عبد الناصر أعلن معارضته لها تالياً، بعدما رشح أنه شجّع بورقيبة على إطلاق دعوته بهدف جس النبض العربي تجاه المحاولات السلمية السريّة.

وبعد سنة على دعوة بورقيبة، أجرى ناشط في حركة السلام الإسرائيلية يدعى «أبي ناثان»[19] محاولة دونكيشوتية لإطلاق عملية سلام من تحت، فركب طائرته الصغيرة التي أطلق عليها اسم «شالوم 1» وطار الى مصر حيث حط في مدينة بورسعيد يوم 28 شباط/فبراير 1966، وطلب مقابلة جمال عبد الناصر، فما كان من المصريين إلاّ أن أعادوه من حيث أتى، فاعتقله الإسرائيليون بتهمة مغادرة البلاد بصورة غير مشروعة.

أما المحاولات الجدية التي أجريت مع عبد الناصر في هذا الخصوص، فهي تلك التي قام بها ناحوم غولدمان رئيس «المؤتمر اليهودي العالمي»[20] لسنوات عديدة، بالتعاون مع ملك المغرب الحسن الثاني. وفي عشاء في منزلي في لندن ضم أحمد بهاء الدين وعبد المجيد فريد وأحمد حمروش، ذكرت لهم ما سمعته من الزميلين فيليب جلاّب ومحمد عودة عن مهمة قام بها حمروش مع شيوعيين مصريين من اليهود في باريس بهدف ترتيب لقاء بين ناحوم غولدمان وجمال عبد الناصر. والحقيقة أنني سمعت بذلك لأول مرة في لقائي ومحمد الشابي مع الكاتب المصري لطف الله سليمان في شقته في العاصمة الفرنسية.

ولم يعط حمروش أهمية للموضوع، لأنه حصل بساعته في لقاء له في باريس مع إريك رولو، الصحافي الفرنسي اليهودي المصري الأصل، الكاتب في جريدة «لو موند»، حيث كان على صلة دائمة مع يهود مصريين شيوعيين هاجروا من مصر لكنهم آثروا عدم الذهاب الى إسرائيل، فاختاروا باريس لإقامتهم، وكان حمروش يعرف بعض هؤلاء منذ أن كانت له ميول وأنشطة شيوعية قبل الثورة، لأن غالبية قيادات الحزب الشيوعي المصري قبل ثورة يوليو 1952 كانوا من اليهود. بل يمكن القول بأن هؤلاء اليهود المصريين هم الذين أسسوا الحزب الشيوعي المصري منذ ثلاثينات القرن الماضي.

---

(19) كان ناشط السلام أبراهام «أبي» ناثان قبل طيرانه الى بور سعيد قد أسس محطة إذاعية أسماها «صوت السلام»، ثم أسس حزباً سياسياً باسم «نس»، أي «المعجزة»، لكنه فشل في الانتخابات، وبعد فشله في الانتخابات قام برحلته الجوية الى بور سعيد. وفي 1978 أعلن إضراباً عن الطعام احتجاجاً على حركة الاستيطان الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة. وفي مطلع الثمانينات أجرى اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية، ومع ياسر عرفات شخصياً، مما اضطر البرلمان الإسرائيلي (الكنيست) الى إصدار قانون بحظر مثل تلك الاتصالات، فأعلن إضراباً عن الطعام لمدة 40 يوماً، لكن الرئيس الإسرائيلي حاييم وايزمان تدخل معه لفك إضرابه، فأعاد الاتصال مع عرفات فأحيل الى المحاكمة وحكم بالسجن لمدة 18 شهراً، لكن رئيس الدولة وايزمان خفضها الى ستة أشهر. توفي ناثان في 27 آب/أغسطس من عام 2008.

(20) المؤتمر اليهودي العالمي تأسس في مدينة جنيف السويسرية بعد الحرب العالمية الثانية كاتحاد للجاليات والمنظمات اليهودية في العالم للتنسيق بينها، وأول رئيس له هو ستيفان وايز، ثم ترأسه ناحوم غولدمان بالوكالة من 1949 الى 1955، ثم أصبح رئيساً أصيلاً للمؤتمر بعد ذلك حتى عام 1977.

وألمح حمروش حول هذه المسألة الى أن عبد الناصر لم يكن بحاجة الى مثل هذا الاتصال، لأنه كانت له قنوات اتصال أهم عن طريق العاهل المغربي الملك الحسن الثاني، ثم عن طريق الزعيم اليوغوسلافي جوزيب بروز تيتو.

ولم يستطع أحد من الذين سألتهم عن الموضوع، بمن فيهم حمروش وجلّاب وعودة، تأكيد أو نفي أخبار راجت في الأوساط البعثية آنذاك عن قيام الملك المغربي بترتيب لقاء سري بين عبد الناصر وغولدمان. كما أن دور تيتو في الموضوع غير معروف وغير شائع، ولا أحد يعرف ما هي علاقة تيتو الحقيقية مع رئيس المؤتمر اليهودي العالمي.

والواقع أن غولدمان كانت له مواقف نقدية جريئة من إسرائيل، خصوصاً بعد حرب 1967، بسبب اعتمادها المفرط على القوة العسكرية الغاشمة، وعدم تقديمها أي تنازلات للدول العربية، ولعدم اعترافها بالحقوق الوطنية للفلسطينيين كشعب.

•••

في زيارتي الى مصر عام 1974 أقام رجاء النقاش عشاءً في منزله دعا اليه بعض الذين كان يستعين بهم للكتابة في جريدة «بيروت»، ومنهم صلاح عيسى، وحضر العشاء أيضاً عاملون في الوسط الفني والمسرحي، وكان من بين هؤلاء المغني محمد نوح الذي أعجبتني نظريته في التمييز بين الغناء والطرب. وقال نوح في نظريته هذه إن الغناء ليس مشروطاً بالصوت والموسيقى، فكل إنسان مهما كان صوته قبيحاً له الحق في الغناء. وشدد على ذلك بالقول: «أنا عايز كل الناس تغني. كل الناس بلا استثناء».

أما الطرب، في رأيه، فهو احتراف شأن الحرف المهنية الأخرى، يلزمه أصول وتدريب وتطوير وآلات موسيقية مرافقة. كل إنسان يستطيع أن يكون مغنياً، ولا حياء في ذلك، وليس كل إنسان يكون مطرباً، ولا غضاضة في ذلك. ثم سيّس محمد نوح المسألة بنكتة، قائلاً: «الغناء حزب الأكثرية، والطرب حزب الأقلية»!

وفي الليلة ما قبل الأخيرة في القاهرة اصطحبني رجاء النقاش الى بيت المغني الشعبي الوطني المعروف الشيخ إمام[21]، وكان هناك الشاعر أحمد

(21) الشيخ إمام هو إمام محمد أحمد عيسى، فقد بصره من صغره، وعاش طيلة حياته ضريراً مكفوفاً. لكن الشيخ درويش الحريري اكتشف موهبته وتولى تدريسه فعلّمه في عام 1945 مبادىء الموسيقى وغناء الموشحات. وفي سني شبابه اشتغل لفترة مع الملحن المعروف زكريا أحمد الذي كان يلحّن أغاني أم كلثوم، لكنه فضل الأغاني الشعبية فانصرف الى سيد درويش، وعبدو الحمولي، ومحمد عثمان. ثم في عام 1962 التقى الشاعر أحمد فؤاد نجم وشكلا معاً ثنائياً اكتسب شهرة كاسحة في مصر والعالم العربي بسبب مواقفهما وأغانيهما السياسية الراديكالية، خصوصاً بعد هزيمة 1967 والهجمة الأميركية والإسرائيلية على مصر في عهد أنور السادات، بحيث أن السادات سجنهما في عام 1972 بعد أغنيتهما «رجعوا التلامذة». لكن الشيخ إمام والشاعر نجم اختلفا في أواسط الثمانينات وافترقا كل في طريق. وفي مذكراته التي نشرها الشاعر نجم عام

فؤاد نجم[22] الذي كان يؤلف أغاني الشيخ إمام، فسهرنا تلك الليلة وحدنا نحن الأربعة فقط، وكانت تلك من أجمل السهرات التي قضيتها في حياتي. وبعد التعارف، ومقدمة رجاء النقاش عني وعن جريدة «بيروت»، طلب رجاء منهما تقديم أغنية جديدة تنفرد بها الجريدة، كان قد طلبها من الشاعر نجم، وتكون متضمنة لحقيقة الوضع السياسي والصحافي والإعلامي القائم الذي كان قد بدأ ينظّر للاتجاه الساداتي نحو الصلح مع إسرائيل والتفريط بالحقوق الوطنية والقومية.

وقام الشاعر أحمد فؤاد نجم بتسليمي الورقة التي كتب عليها قصيدته، ثم تناول الشيخ إمام عوده وعزف عليه قليلاً ثم أنشد تلك القصيدة التي تشبه نشرة إخبارية عما يجري في البلاد. وفور عودتي الى بيروت قمت بنشر تلك القصيدة على صدر الصفحة الأولى من الجريدة. ولم يكن دارجاً وقتها أن تنشر الصحافة السياسية، التي تعتبر نفسها جدية ورصينة، وخصوصاً الصحافة الحزبية، «طقاطيق» من هذا النوع، ولو كانت راقية في فكرتها. وحتى في بريطانيا، حدث مثل هذا الاستغراب عندما نشرت جريدة «فايننشال تايمز»، وهي من أهم الصحف المالية والاقتصادية في العالم، قصيدة عربية مترجمة الى الإنكليزية لوزير النفط الإماراتي في الثمانينات من القرن الماضي، مانع سعيد العتيبة، شخص فيها حالة منظمة «أوبيك» وأسعار النفط على أبواب مؤتمر للمنظمة تعصف فيه الخلافات. وفي ما يلي مقاطع من أغنية الشيخ إمام للشاعر أحمد فؤاد نجم أسترجعها من الذاكرة لأنني لا أعرف أين ذهب الأصل، وليس لدي عدد الجريدة الذي نُشرت فيه:

يا سلملم يا سلام
قول ياعمي الشيخ إمام
والوطن عايز كلام
والكلام عايز إذاعة
والاذاعة مستباعة للمياعة في الغرام
قول يا عمي الشيخ إمام، قول يا عمي الشيخ إمام

وغادر الشيخ الاذاعة منتقلاً الى «الاهرام»، فصدح قائلاً:

1993 في مجلة «روز اليوسف»، هاجم نجم الشيخ إمام فصار الفراق بينهما نهائياً. وبعد سنتين اعتل الشيخ إمام ومات في عام 1995. ومن أشهر الأغاني التي أدّاها الشيخ إمام من تأليف أحمد فؤاد نجم: «مصر يا بهية»، و «الفلاّحين»، و «غابة كلابها ذيابها»، و «شرّفت يا نيكسون بابا يا بتاع الووترغيت»، ويزيد المجموع عن 70 أغنية.

(22) الشاعر أحمد فؤاد نجم عُرف بمواقفه السياسية الراديكالية، وكان يسارياً لاذعاً. ويسميه عارفوه بلقب «الفاجومي». وظل طوال حياته يعيش عيشة فقيرة متواضعة، بحيث اختير من أحد البرامج الدولية في عام 2007 سفيراً للفقراء. تزوج ست مرات، وزوجته السادسة والأخيرة هي الكاتبة المعروفة صافيناز كاظم، وله منها ابنة اسمها «نوّارة» كان لها حضور مميز في ثورة ميدان التحرير ضد نظام حسني مبارك في 25 كانون الثاني/يناير 2011.

خدو هيكل جابو علوة[23]
كلهم في الهم بلوة.

ثم تناول لطفي الخولي وسماه «اصطافلس» كما تناول كيسنجر وسماه «الخواجا»:

وانت مالك يا «اصطافلِّس»[24]
جاي تحلِّس او تملِّس
انت شفلك حاجةحلوة، كم قزازة وجوز حمام
وإحنا صاحيين للخواجا واللي جايبين الخواجا
وانت تتنيل تنام
قول يا عمي الشيخ إمام، قول يا عمي الشيخ إمام...

لم يسعفني الحظ أن ألتقي الشيخ إمام مرة ثانية بعد تلك السهرة الممتعة، لكنني التقيت أحمد فؤاد نجم بعد عشر سنوات في باريس حيث ذهبت لزيارة الزميل السوري قصي صالح الدرويش في منزله بمنطقة «تولبياك»، وكان قصي قد عمل معي في «الدستور» بصفة مراسل من العاصمة الفرنسية يغطي شؤون دول المغرب العربي، كما عمل معي في «الحوادث»، ثم في جريدة «البيان» في إمارة دبي، وفي مجلة «الصياد»، ثم كتبت في المجلة العربية التي أصدرها في باريس عام 1999 باسم «الحدث»، وكان أحمد فؤاد نجم ضيفاً عنده في منزله. ويومها كان الخلاف قد دبّ بينه وبين الشيخ إمام لكنه لم يكن قد ظهر الى العلن. وكانت بصحبة نجم امرأة أصغر منه سناً بشكل واضح، لست أدري ما إذا كانت زوجة إضافية، لا أدري ولم أسأل.

وعندما التقيته في تلك السهرة في القاهرة مع رجاء النقاش والشيخ إمام، كان متزوجاً من الصحافية والكاتبة المعروفة صافيناز كاظم، أو «الأستاذة صافيناز» كما يسميها بعضهم في الوسط الصحافي المصري. وكان زواجها من أحمد فؤاد نجم في عام 1972 مثار استغراب كثيرين في ذلك الوسط. وقد قرأت منذ مدة تفسيراً لها لزواجها هذا فيه نفحة شاعرية وفكرية، حيث قالت: «كلما حاول بعضهم ثنيي عن هذا الزواج، كلما تعاظم شعوري بضرورة الإسراع به.

(23) عند تولي أنور السادات رئاسة الجمهورية فور وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، كان محمد حسنين هيكل وزيراً للإعلام ورئيساً لتحرير جريدة «الأهرام» في الوقت ذاته، لكنه بعد تسلّم السادات استقال من وزارة الإعلام وبقي في «الأهرام»، لكن السادات عزله بعد فترة وعيّن مكانه الصحافي علي أمين، الذي سمّاه الشيخ إمام في القصيدة «علوة»، وهو شقيق مصطفى أمين الصحافي المعروف الذي سجنه عبد الناصر بتهمة التعامل مع جهة أجنبية. وفي حياة عبد الناصر عاش علي أمين خارج مصر، فقضى فترة طويلة من وجوده الخارجي في بيروت حيث عمل في «دار الصياد».

(24) لطفي الخولي صحافي مصري معروف بميوله اليسارية، وقد أسماه الشيخ إمام «إصطافلّس» لأنه أول من تفلسف بإطلاق اسم «الساداتية» على مرحلة مناقضة للمرحلة «الناصرية». وقد نَشر لطفي الخولي مقاله عن «الساداتية» في جريدة «النهار» البيروتية.

لم تكن قصة حب بينه وبيني، لكنها قصة لا يصدقها أحد عندما أرويها. كانت نزوة شعرية من جانبي تجاوزت في جمالها قصص الحب التقليدية بين الرجال والنساء».

وقد لاحظت في تلك الزيارة الى مصر، وفي الزيارات الأخرى التي سبقتها ولحقتها، أن الصحافيين المصريين عموماً يؤثرون مصاحبة ومعاشرة الفنانين على مصاحبة ومعاشرة السياسيين. وذلك خلافاً لما هو عليه الحال في لبنان حيث تعاطي الصحافيين مع السياسيين مرتكز أساسي في عملهم. وأظن أن هذا النمط شائع ليس فقط في لبنان، بل في بلاد المشرق عموماً. فقد وصف لي أحد العراقيين المرموقين مرة مجتمع الموسيقيين والمغنين والمطربين والراقصين بأنهم «دمبكجية»، بمعنى أنهم ينتمون الى رتبة أدنى في المجتمع، وربما الى رتبة دونية.

أما في مصر فإن الصحافيين يعتبرون الفنانين في مرتبة مجتمعية مساوية لهم، ومنهم من يعتبر كبار الفنانين، خصوصاً أهل النجومية منهم، أرفع شأناً ومنزلة في المجتمع.

X

عرس «ديك المحدي»

كم كانت تلك الحقبة اللبنانية من أواسط الستينات حتى أواسط السبعينات مليئة بالتناقضات والمفارقات. خلالها كادت أن تتبدّل المقاييس، وتختلط الأوراق، ويضيع «الشنكاش»، حتى تشاكل الأمر والتبس على الفلسطينيين أنفسهم، لأن طريقة تواجدهم في لبنان في تلك المرحلة هي التي قلبت الأمور. فقد أبلغني أحد الأصدقاء الذين كانت لهم علاقة مع قادة «فتح» الأوائل، قبل انتظامهم في الثورة الفلسطينية في الستينات تحت اسم «العاصفة»، بأن بلدته في الجنوب أخذت تتعرض الى تجاوزات من قبل منتسبين الى «فتح»، فذهب لمقابلة ياسر عرفات في بيروت ليشكو له الأمر، آملاً في إمكانية تصحيح الوضع. غير أنه وجد أن ياسر عرفات نفسه غير قادر أن يفعل شيئاً، معترفاً له بأن «فتح» لم تعد هي تلك التي عرفها في البداية. لم تعد «جمعية إخوانية» يعرف كل واحد فيها الآخر، بل أصبحت في لبنان مثل «جراب الكردي» فيها كل شيء. ولم تعد «الثورة» متمحورة حول «القضية»، بل أصبحت مرادفة للمال والسلاح في معادلة مبسطة: «المال يشتري السلاح والسلاح يصنع ما يسمونه الثورة»، والواقع أنه كان يصنع الفوضى والانحراف.

ولم تقتصر تلك التناقضات والمفارقات على الأنماط اللبنانية والفلسطينية، المتعايشة منها والمتعارضة، بل امتدت الى شتى المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية وحتى الديبلوماسية. وقد هالني في تلك الحقبة أن يمتشق المسيحيون السلاح، على الرغم من صوابية مقولات عديدة برروا بها ذلك. ومن وقت مبكر أدركت أنهم خاسرون. ذلك أن هناك تناقضاً جوهرياً بين الحياة المسيحية والسلاح، لأنه لا سلاح في المسيحية غير الحق. الحق هو المحرر، كما قال السيد المسيح.

وهذا الموضوع ليس خاصاً بلبنان، بل هو موضع جدل في العالم المسيحي الأوسع منذ أقدم الأزمنة. وفي الغرب حديثاً صدرت أطروحات مهمة حول الموضوع لعل أهمها تلك التي وضعها أخيراً الدكتور مايكل سلاتاري الآتي من عالم الأعمال تاركاً أسواق المال وثروة طائلة ليتفرغ الى درس هذا الموضوع،

وهي بعنوان: «يسوع المحارب؟: التصورات والمشكلات المسيحية التاريخية حول أخلاقية الحرب وإحلال السلام»[1]. وخلاصة تلك الأطروحة، التي أنصح جميع اللاهوتيين والطلاّب والمثقفين بقراءتها، هي أن المسيحية الأولى نشأت على رفض الحرب بالمطلق، فلا يجوز للمسيحي أن يحمل السلاح في أي أمر، أو أن يشارك في أي حرب، أو أن ينخرط كجندي في أي جيش، ومن يفعل ويُقتل لا يجوز تجنيزه أو اعتباره شهيداً. لكن المسألة تغيرت وانحرفت المسيحية عن هذا المسار بسبب الواقعية السياسية الناجمة أصلاً من تبني الدولة الرومانية للمسيحية ديناً رسمياً لها، ومن انخراط رجال الدين المسيحي في الحياة السياسية بحكم تحولهم الى جزء لا يتجزأ من الطبقات الحاكمة في المجتمع.

وقد تكرس هذا المنحى من الافتراق عن المفهوم السلمي المطلق للحياة المسيحية بفعل فتوى القديس أوغوسطين[2] في القرن الخامس لما سمّاه «الحرب العادلة». ومع أن أوغوسطين وضع شروطاً قاسية لتعريف الحرب العادلة، فقد أصبحت مع الأيـام كل حرب عادلة، خصوصاً بعد تبنيها من القديس توما الإكويني في القرن الثالث عشر!

فما حداني الى نشر خبر عن تلقي حزب الكتائب شحنات من السلاح في جريدة «بيروت» في وقت مبكر لم تكن فيه ملامح الانفجار الكبير قد ظهرت بعد، هو شعوري بأن المسيحيين في لبنان سيكونون الخاسرين إذا امتشقوا السلاح، بعدما كانت لهم الريادة الفكرية والقومية طويلاً. ومع أنني نشرت أيضاً

---

(1) Jesus The Warrior?

Historical Christian Perspectives & Problems on the Morality of War & the Waging of Peace, W Michael Slattery, Marquette University Press, 2007.

عمل الدكتور مايكل سلاتاري لمدة عشرين عاماً مسؤولاً عن الشأن المالي الدولي في نيويورك وطوكيو لدى أكبر مؤسستين ماليتين في أميركا واليابان. وقد تعاطى لأربعة عقود في الشؤون الدولية ونشاطات السلام في الولايات المتحدة وآسيا، سواء في المجال المهني أو المجال الأكاديمي، وهو يحمل دكتوراه في العلاقات الدولية ودرجة ماجستير في الدراسات اللاهوتية، مع تركيز خاص على النواحي القيمية والأخلاقية. وفي أغلب الظن أن هذا الكتاب هو أطروحته للماجستير في الدراسات اللاهوتية.

(2) القديس أوغوسطين من مواليد بلدة «سوق أهراس» الجزائرية في منتصف القرن الرابع الميلادي، ثم تلقى علومه العليا في قرطاج، وبعد تخرجه مارس التدريس لفترة قصيرة في مسقط رأسه، وانتقل الى قرطاج من جديد ليدير مدرسة، فلم تكن تجربة ناجحة، وانتقل بعدها الى روما لتأسيس مدرسة لحسابه ففشل أيضاً. وقد اعتنق المسيحية بعد تجاوزه الأربعين من العمر، وأصبح مطراناً على مدينة «عنّابة» الجزائرية، حيث وضع معظم مؤلفاته ومات فيها. ومن أبرز تلك المؤلفات كتاب «اعترافات» الذي استعرض فيه حياته قبل اعتناقه المسيحية، وكتاب «مدينة الله» الذي وضعه في 22 مجلداً يتضمن أفكاره اللاهوتية وأهمها نظرية «الخطيئة الأصلية» ونظرية «الحرب العادلة». والحقيقة أن أوغوسطين ليس الأول الذي قال بالحرب العادلة في الكنيسة بل سبقه اليها بقرن تقريباً أحد أبرز آباء الكنيسة في القرن الرابع هو أمبروز مطران مدينة ميلانو في إيطاليا، الذي يعد من الآباء الأربعة الأوائل في الكنيسة. وقد طلع أمبروز بنظرية الحرب العادلة بعد سنوات قليلة فقط من إعلان المسيحية ديناً رسمياً للدولة الرومانية، ربما لتسهيل انخراط الشبان المسيحيين في الجيش، وهو ما كان محظوراً في السابق.

تكذيباً للخبر بطلب مباشر من الشيخ بيار الجميل، كما مر، إلاّ أنني كنت في قرارة نفسي أشعر بأنه صحيح، كما ثبت لاحقاً.

•••

اللافت من الستينات الى السبعينات، ذلك النشاط الكثيف الذي كان يقوم به دبلوماسيو كوريا الشمالية في بيروت، على الرغم من أنه لم يكن هناك تمثيل ديبلوماسي رسمي بين لبنان و«بيونغ يانغ»، إنما اقتصرت العلاقات على مكتب تجاري كوري كان يتولى ذلك النشاط. فالتمثيل الديبلوماسي الرسمي كان بين لبنان وكوريا الجنوبية المتحاربة والمتنافسة مع جارتها الشمالية.

وقد كان نشاط الكوريين الشماليين في لبنان يتركز بشكل خاص على نشر إعلانات مدفوعة في الصحف اللبنانية تمجِّد الزعيم الكوري كيم إيل سونغ، وتصفه بأنه «الزعيم المحبوب المبجّل من 40 مليون كوري!»، أي من جميع سكان كوريا بشمالها وجنوبها. وقد دفع الكوريون الشماليون أموالاً طائلة لهذه الغاية، بحيث أن أعداءهم الأميركيين والكوريين الجنوبيين اتهموا الديبلوماسية الكورية الشمالية بأنها تموِّل تلك الحملات الصحافية والإعلانية عن طريق تهريب المخدرات بالحقائب الديبلوماسية أو تبييض الأموال.

وكانت سياستنا في جريدة «بيروت» عدم قبول تلك الإعلانات المدفوعة للزعيم الكوري كما فعلت بعض الصحف اللبنانية الأخرى، مع أن صدام حسين أنفق لاحقاً على تمجيد نفسه أكثر بكثير من كيم إيل سونغ.

كان الديبلوماسيون الكوريون الشماليون يزورون مكتبي في الجريدة شأن العديد من ديبلوماسيي الدول الأخرى ليتبادلوا الأحاديث والمعلومات. والشخص الذي كان يأتي لزيارتي بين حين وآخر اسمه أيضاً «كيم»، فكنت أظن أن جميع الكوريين اسمهم «كيم» تيمناً بزعيمهم، لأنني ما سمعت اسماً غيره.

ومرة اتصل بي حارس مدخل مبنى الجريدة ليبلغني أن ديبلوماسياً كورياً يريد مقابلتي، فاستغربت قدومه من غير موعد، وعلى غير عادة، ظناً مني أنه «المستر كيم»، وربما خطرنا بباله وهو مار من قرب مكاتبنا في طريقه الى جريدة «المحرر» المقابلة التي كانت تنشر إعلاناته. لكن الرجل القادم لم يكن «المستر كيم» الشمالي الذي نعرفه، مع أن اسمه هو الآخر «المستر كيم».

قدم لي بطاقته، فإذا به الملحق التجاري في سفارة كوريا الجنوبية في بيروت، مما زاد من استغرابي. وقد خطر لي أن الكوريين الجنوبيين بدأوا يلحقون زملاءهم الشماليين «على الدعسة»، كما يقال، شأن السوفيات والصينيين.

وبعد المجاملات التقليدية، سألته عن الغاية من زيارته المفاجئة من غير موعد، فقال إنه قرر المجيء على غير موعد خشية عدم استقباله بسبب هويته الجنوبية، لظنه أن العرب «التقدميين» عموماً منحازون الى كوريا الشمالية. ثم قال إنه اختار الاتصال بي لأنه لاحظ أن جريدة «بيروت» لا تنشر إعلانات كيم

إيل سونغ كما تفعل بقية الصحف اللبنانية ذات الميول اليسارية والقومية.

ومضى قائلاً: «إن الرأي العام العربي واللبناني عموماً، بسبب تعاطفهم مع الدول الاشتراكية، ومنها كوريا الشمالية بقيادة كيم إيل سونغ، انطلاقاً من القضية الفلسطينية، يظنون أن كوريا الجنوبية منحازة الى إسرائيل، وهو انطباع غير صحيح، وإنني جئت اليك للدخول في حوار حول هذه المسألة لعلني أستطيع أن أوضح حقيقة هذا الأمر».

قلت له: «لكنك أنت ملحق تجاري، ومثل هذه المهمات يقوم بها عادةً المفوضون السياسيون».

أجاب: «هذا صحيح. لكننا نريد أن نعطي انطباعات إيجابية في العالم العربي من خلال التجارة والتبادل التجاري. ونحن، كما تعلم، دولة صناعية متقدمة يُعتمد علينا في العالم الصناعي. فنحن نصنع نحو نصف القطع اللازمة للصناعات اليابانية المختلفة، من الصناعات الثقيلة الى الإلكترونيات والأدوات المنزلية والرياضية. وأرى أن لدينا فرصة الآن لتطوير علاقاتنا التجارية مع العالم العربي شعوراً منا بأن في ذلك مصلحة للطرفين. ولهذا فإنني أوجه لك دعوة مفتوحة لزيارة عاصمتنا «سيول» والاطلاع بنفسك على نهضتنا الصناعية».

وسألت المستر كيم الجنوبي: «لماذا أنا وليس غيري؟».

قال: «بصراحة، نحن نرى أن أمام العراق مستقبلاً عظيماً، ونهضة عارمة في المجالات الاقتصادية، ونريد أن نسهم فيها. نريد أن ندخل الى العراق من الباب الاقتصادي والصناعي الواسع، لكن الانطباع العربي عنا، بسبب التوجه الذي أشرت اليه نحو كوريا الشمالية، يعيق ذلك. وأملنا أن نبدد ذلك الانطباع».

قلت له: «لكن أنا لا أمثل العراق. فالعراقيون لديهم سفارات وملحقيات تجارية في معظم العواصم العالمية، فلماذا لا تتصلون بهم مباشرة؟».

قال: «نريد في البداية أن نفرش أرضية إعلامية تُزيل الشكوك التي حدثتك عنها (فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وإسرائيل). وإذا كنت لا تمثل العراق، كما تقول، فإنه قد يكون من المفيد في هذه الحالة أن تمثلنا في العراق بشكل أو آخر».

قلت له: «أنا كاتب لا أتعاطى التجارة ولا أرغب في ذلك. لا أمثل العراق ولا أرغب في تمثيل أحد فيه. ثم إن كوريا الجنوبية حليفة للولايات المتحدة، بل يحتلها الأميركيون، والولايات المتحدة هي راعية إسرائيل وحاميتها. وهذا هو المعيار الذي يقيس به الناس الأمور في منطقتنا، وأنتم تظنون أن المقياس هو كوريا الشمالية وتبجيل كيم إيل سونغ أو عدم تبجيله. ولذلك فإن مهمتكم سوف تكون صعبة ما لم تنقلب الدنيا رأساً على عقب وتنقلب معها المعايير».

فذهب ولم يتكرر اللقاء.

في بداية حكم البعث في بغداد، كان العراقيون يتعاطون في السياسة اللبنانية بخجل، فحاولوا أن يكونوا على علاقة طيبة مع الجميع، وحصر التعاطي الرسمي مع الدولة. وكنت أعرف من خلال موقعي في الجريدة أنهم كانوا يكنون مودة خاصة للرئيس شارل حلو، ويستمعون اليه، وكانوا يلبون مطالبه، ومنها مثلاً الإفراج عن شخص آشوري معتقل توسط أهله لديه لهذه الغاية. وعلى علمي أيضاً أن الرئيس شارل حلو حاول تأخير عودة ميشال عفلق الى بيروت فترة من الوقت لئلا يثير حفيظة السوريين، في وقت كانت فيه العلاقات السورية ـ اللبنانية فاترة، وربما مضطربة، فأوفد جان عبيد الى باريس للقاء عفلق القادم من البرازيل الى العاصمة الفرنسية وإقناعه بالتريث قليلاً، لكنه لم يتمسك بموقفه وقدّر له العراقيون ذلك.

ويمكن القول إن التعاطي العراقي في لبنان في أواخر عهد شارل حلو كان تعاطياً ناعماً، يتناسب حقيقة مع نعومة وحساسية عهد الرئيس حلو. لكنهم «طحشوا» أكثر في السبعينات على عهد الرئيس سليمان فرنجية عندما تعاظم الوجود الفلسطيني على الأراضي اللبنانية، والأهم من ذلك مع بروز سلطة صدام حسين على المسرح العراقي كنائب وحيد للرئيس أحمد حسن البكر بعد إطاحة حردان التكريتي وصالح مهدي عماش.

ففي تلك المرحلة بدأوا يجسون النبض لدخول الساحة السياسية اللبنانية من مدخل التركيبة الطائفية عن طريق الزعامة السنِّية الأولى في بيروت، متمثلة بالرئيس صائب سلام، مع الاحتفاظ بعلاقة خجولة مع المسيحيين.

وأعرف أن السفير العراقي في بيروت آنذاك عبد الفتاح ياسين، زار مرة الرئيس صائب سلام حاملاً معه «هدية» شخصية من الرئيس البكر، هي عبارة عن حقيبة تضم مبلغاً كبيراً من المال. ولما اختلى السفير العراقي بالرئيس سلام وأبلغه أن الرئيس البكر أرسل له تلك الهدية، استدعى صائب بيك الدكتور محمد خالد وسلّمه الحقيبة وقال له: «هذه هدية الى المقاصد من الرئيس العراقي، عدّها وحرِّر بها إيصالاً الى سعادة السفير مع كتاب شكر».

فاندهش السفير لهذا التصرف الراقي، وانتابه في البداية نوع من الخجل، لكنه أقام في النتيجة صلة وصل أثمرت تالياً. وقد ظهر ذلك عندما وُجهت الى الرئيس سلام، الذي لم تكن له يومها صفة رسمية، دعوة لزيارة بغداد حيث جرى له استقبال حاشد بمراسم كاملة وكأنه رئيس دولة. وتطورت تلك العلاقة لاحقاً فتبرع صدام حسين ببناء كلية الطب التابعة للمقاصد الإسلامية في بيروت، وعرفاناً بذلك أطلق اسم صدام حسين على تلك الكلية. ولست أدري ما إذا كانت لا تزال تحمل اسم صدام بعد هيمنة رفيق الحريري على بيروت، وبعد سقوط نظام صدّام أمام الغزو الأميركي للعراق.

عندما بدأ نجم صدام حسين يتألق في بغداد، خصوصاً بعد الانسحاب

العسكري العراقي من الأردن في مطلع السبعينات، وما رافق ذلك من ارتياح في الدوائر الغربية عموماً، بدأ النشاط السياسي والديبلوماسي العراقي يتحرك في العواصم الغربية، بل في معظم العواصم العالمية المؤثرة. من باريس ولندن وواشنطن الى البرازيل[3] والأرجنتين وأستراليا.

لم يكن أي نشاط عربي في تلك العواصم سهلاً، فقد كانت عيون المنظمات اليهودية والصهيونية مفتوحة ولها في المجتمعات الغربية شبكات أخطبوطية ممتدة في كل مكان وفي كل المجالات. وقد وقعت في أستراليا حادثة سياسية مدوِّية، ثبت فيما بعد أنها ملفقة، وتتعلق بالصراع الذي كان يخوضه رئيس الحكومة العمالية آنذاك إدوارد غوف ويتلام[4] على المسرح السياسي الأسترالي، وفي داخل حزب العمال الحاكم.

وكان ويتلام من الشخصيات التاريخية التي تركت علامات فارقة في سياسة بلاده المعاصرة لافتراقه عن السياسة الأميركية في آسيا، من حيث معارضته لحرب فيتنام، ومن حيث علاقته المبكرة مع الزعيم الصيني ماو تسي تونغ، قبل سنتين على الأقل من قرار الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون ووزير خارجيته هنري كيسنجر زيارة الصين وفتح صفحة جديدة معها.

وكان العراقيون قد قرروا إقامة علاقات جيدة مع أستراليا في عهد ويتلام لأسباب غير سياسية، لكن الإعلام الصهيوني في حملته التشهيرية ضد رئيس الحكومة الأسترالية، زعم أن العراقيين قدموا له ولحزبه مساعدة مالية جانبية لدعمه في البقاء زعيماً لحزب العمال ورئيساً للحكومة. وأشيع يومها أن شخصاً عراقياً تكريتياً يعمل في الاستخبارات العراقية حمل الى ويتلام حقيبة فيها نصف مليون دولار نقداً لهذه الغاية، وتم تكبير إعلامي لهذا الخبر المدسوس من خلال النفخ في الأبواق المعروفة الى حين عزل ويتلام من منصبه، بل استمرت بعد ذلك لحرمانه من زعامة المعارضة. وقد دحضت التحقيقات القضائية التي جرت يومها كل تلك المزاعم، لكن بعد فوات الأوان كالعادة

---

(3) في تلك المرحلة الابتدائية من السبعينات قام الرئيس أحمد حسن البكر بتعيين المحامي البعثي اللبناني جهاد جورج كرم سفيراً للعراق في برازيليا، بالنظر الى وجود جالية لبنانية وسورية ضخمة وفاعلة في البرازيل، وبالنظر الى ظهور البرازيل كقوة اقتصادية ناشئة يمكن للعراق أن يستفيد من التعاون الاقتصادي والصناعي والتجاري معها. وقد بقي جهاد كرم في هذا المنصب عدة سنوات.

(4) هو الرئيس الواحد والعشرون للحكومة الأسترالية، وقد حكم من 1972 الى نهاية 1975 عندما قام الحاكم البريطاني العام السير جون كير بعزله من منصبه في أول سابقة من نوعها في تاريخ أستراليا بناء على طلب من زعيم المعارضة المحافظ، وفي عز أزمة دستورية خانقة هي الأولى أيضاً من نوعها، حيث جمّد المحافظون الذين يملكون غالبية مجلس الشيوخ الاعتمادات المالية للحكومة التي أقرها مجلس النواب في أغلبيته العمالية، فراح ويتلام يبحث عن مصادر مالية بديلة لتسيير أمور الدولة. وقد رفض الحاكم العام طلبه إجراء انتخابات نصفية لمجلس الشيوخ بغية إطاحة الأكثرية المحافظة فيه، لكن كير بدلاً من ذلك عزله من منصبه وعين خصمه الزعيم المحافظ فرايزر لتشكيل حكومة تصريف للأعمال.

المعهودة في ذلك النوع المألوف من الحملات الموجهة.

ولذلك بقي ويتلام على الرغم من عزله علامة فارقة في السياسة الأسترالية، بل إن عزله على يد الحاكم البريطاني العام خلق تياراً عريضاً في أستراليا ما زال سارياً الى الآن يدعو الى فك الارتباط الدستوري مع التاج البريطاني، وإعلان أستراليا جمهورية مستقلة تماماً.

والحقيقة أن ويتلام، عندما نشأت الأزمة الدستورية بمنع مجلس الشيوخ صرف الاعتمادات المالية للحكومة، حاول إيجاد مصادر مالية خارجية بديلة بطريقة لا توحي بالثقة، حيث أوهمه رجل أعمال باكستاني يدعى «تراث خملاني» أنه بمقدوره أن يجلب له قروضاً ومساعدات واستثمارات من دول عربية نفطية في الخليج، لكن تلك المحاولة لم تكن جدية على ما يبدو، أو أن رجل الأعمال الباكستاني دخل على الخط في محاولة للانتفاع الشخصي. وأياً كان الأمر فإن شيئاً من ذلك لم يتحقق، بل أسهم في إذكاء الحملة الإعلامية لإطاحة رئيس الحكومة.

أما العراقيون، وكما فهمت لاحقاً، فقد كانت لديهم سياسة تقضي بإقامة علاقات جيدة مع أستراليا لأغراض تموينية، أي للتزود منها باللحوم والقمح. فقد ورث النظام البعثي الجديد وضعاً زراعياً متدهوراً في العراق منذ ثورة 14 تموز/يوليو 1958 وما نتج عنها من إصلاح زراعي عشوائي حقق «قفزة الى الوراء» في الإنتاج. وكانت الغاية من العلاقات الجيدة مع أستراليا سد الثغرات التموينية ريثما تتم معالجة الإنتاج الزراعي في البلاد.

وقامت الحكومة العراقية في عهد الرئيس أحمد حسن البكر بتوزيع بذار القمح على الفلاّحين والمزارعين مجاناً لمساعدتهم وتشجيعهم على الزرع والإنتاج، لكن قسماً كبيراً من هؤلاء أكلوا البذار المعطى لهم ولم يزرعوه. وهذا الواقع اضطر الحكومة العراقية في الموسم التالي الى توزيع «بذار مزيبق»، أي أنه مسمم بالزئبق ولا يصلح للاستهلاك البشري، والغاية من ذلك، كما قيل يومها، منع الطيور من التقاطه بعد زرعه في الحقول، مع حملة توعية ريفية تحذر الفلاّحين من أكله أو إطعامه لمواشيهم ودواجنهم لئلا يتسمموا به. ومع ذلك فقد أكله كثيرون منهم وأطعموه لمواشيهم ودواجنهم مما أدى الى وفاة ما لا يقل عن خمسة آلاف شخص، ومئات المواشي والدواجن التي ألقاها الفلاّحون في النهر بعد نفوقها فتسممت الأسماك ولم يعد كثير منها صالحاً للأكل[5].

---

(5) في وقت لاحق كتبت مجلة «إيكونوميست» البريطانية تعقيباً على الوضع الزراعي والغذائي في العراق تقول: «إنها فضيحة أن يلجأ بلد نهري كالعراق يمر فيه نهران من أكبر أنهار العالم الى استيراد الدجاج من الخارج». وقد سجلت هذه العبارة في مفكرتي، لكنني مع الأسف لم أسجل تاريخ العدد الذي ورد فيه تعليق الصحيفة البريطانية الاقتصادية العالمية المعروفة. وفي أغلب الظن أنها لم تكتب ذلك في معرض فضيحة البذار المسموم، بل في معرض استيراد كميات كبيرة من لحوم الدجاج وصلت الى البلاد فاسدة، بسبب تردي الإنتاج الداخلي.

قد يكون إكليل الناشط الفلسطيني المعروف بسام أبو شريف على عروسه اللبنانية أمل الياس الخوري في منزل ذويها في بلدة «ديك المحدي» المتنية من أبرز التناقضات والمفارقات التي شاهدتها في المجتمع اللبناني، خلال النصف الأول من السبعينات، وفي ذروة الوجود الفلسطيني في لبنان.

لم أكن مدعواً الى العرس من العروسين أو من أي منهما. فمعرفتي ببسام أبو شريف كانت معرفة سطحية، ولم أكن أعرف أمل الخوري على الإطلاق، لكنني تعرفت عليها في لندن منذ فترة قصيرة بعد سنوات من انفصالها عن أبو شريف، وذلك على عشاء مع الزميلين ريمون عطا الله وهدى الحسيني، فكانت تنضح جمالاً وفهماً وحضوراً ورجاحة فكرية، ولم تكن مترددة في توضيح تجربتها. ففي زواجها من بسام أبو شريف ملامح مشابهة لزواج صافيناز كاظم من أحمد فؤاد نجم الذي وصفته بأنه «نزوة شعرية». لكن نزوة أمل الخوري كانت «نزوة قومية»، لأنها أقبلت على ذلك إعلاناً لزواجها من القضية الفلسطينية اللابسة لها فكراً ووجداناً.

فقد دعاني، وقتها، الى حضور «عرس ديك المحدي» الزميل السوري عدنان بدر الذي كان ناشطاً في صفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة الدكتور جورج حبش، وهي الجبهة التي كان ينشط فيها بسام أبو شريف أيضاً قبل انضمامه الى ياسر عرفات ليصبح مستشاراً له وناطقاً باسمه. فقد كان عدنان بدر يومها يكتب في جريدة «بيروت»[6]، وسألني ما إذا كنت أرغب في حضور عرس بسام أبو شريف فوافقت على ذلك، لكنه لم يخطر ببالي قط أنني سأرى ما رأيت، وسوف أصف هذا المشهد السوريالي كما رأيته من غير زيادة أو نقصان.

وصلنا الى دارة الياس الخوري، والد العروس في ديك المحدي، وهي عبارة عن فيللا أنيقة تنبىء بأن ساكنيها من المنعمين الموسرين، فراودتني صورة التناقض بين القصر الفاره والمخيم البائس. وفي الداخل كان هناك جمع من الصبايا والفتيات والأولاد يرتدون أحلى الثياب يقفون جماعات على الدرج المؤدي من داخل القاعة الرئيسية الى الطابق العلوي حيث توجد شرفة داخلية واسعة تطل على تلك القاعة، وهي الأخرى مكتظة بجمع من الفتيات والفتيان بأناقة ملفتة، وكانت تشكيلات الزهور والورود والشرائط الحريرية موزعة على نحو مصمم تشعرك وكأنك في «قصر فرساي» أيام «الملك الشمس».

---

(6) انتقل عدنان بدر لاحقاً الى بغداد ثم الى باريس حيث أقام حتى عام 2005. وعدنا فالتقينا في العاصمة الفرنسية عندما كنا معاً نكتب في مجلة «الحدث» لصاحبها الزميل قصي صالح الدرويش. وفي تلك الأثناء عاد عدنان من منفاه الباريسي الى مسقط رأسه في بلدة مشتى الحلو السورية، وكتب تحقيقات معبِّرة عن تلك العودة الى الوطن بعد أربعة عقود من التشرد. وقال لي عندما التقيته في باريس بعد عودته من سوريا في زيارته الأولى أن وزير الداخلية السوري آنذاك غازي كنعان هو الذي رتب له عودته.

وكانت الى جانب القاعة الرئيسية حيث جرت مراسم الإكليل مائدة عامرة بالمآكل والمشارب والأطايب.

أما في القاعة حيث جرت المراسم، فكان الحضور أشبه بمؤتمر دولي من عصر مترنيخ في فيينا. كان هناك سرفار عظيموف[7]، سفير الاتحاد السوفياتي في بيروت آنذاك. وكان هناك أيضاً خالد مكي الهاشمي (أبو أحمد) سفير الجمهورية العراقية. وكان هناك محمد يزيد سفير الجزائر[8] الذي كنت على علاقة جيدة معه، وهو السفير الجزائري الثالث في بيروت منذ استقلال الجزائر بعد علي كافي[9] وطالب شعيب. وكان هناك ديبلوماسيون آخرون لا أعرفهم،

(7) كان عظيموف من أبرز وأنشط الديبلوماسيين السوفيات الذين خدموا في الشرق الأوسط. وفي لبنان أقام شبكة من العلاقات مع سياسيين لبنانيين من مختلف الاتجاهات، شملت اليسار واليمين معاً. وكان الرئيس اللبناني السابق كميل شمعون ينوي إقامة غداء كبير على شرفه عندما أعلن الجاسوس البريطاني كيم فيلبي الهارب من بيروت الى موسكو أن ثمانية من الصحافيين والسياسيين اللبنانيين المعروفين خدموا في جهاز الاستخبارات البريطانية، ومن بينهم كميل شمعون، مما اضطر الرئيس اللبناني السابق الى إلغاء غدائه على شرف عظيموف. وفي معرض التعليق على هذا الخبر، قالت مجلة «تايم» الأميركية في عددها الصادر يوم الإثنين في 18 تشرين الأول/أكتوبر 1971، إن فيلبي عندما كان في الاستخبارات البريطانية كانت تربطه علاقة عائلية وثيقة بالرئيس كميل شمعون، وإن فيلبي هو الذي أشار على شمعون أن يسمي ابنه البكر عند ولادته «دوريان»، وقد تم انتخابه نائباً عن الشوف في البرلمان اللبناني على لائحة وليد جنبلاط في انتخابات عام 2009، ويعرفه اللبنانيون باسم «دوري».

(8) كان محمد يزيد في شبابه، وهو طالب يدرس في باريس، عضواً في «حزب الشعب الجزائري» بقيادة مصالي الحاج. وبعد حل الحزب بقي في الحركة البديلة باسم «حركة انتصار الحريات الديموقراطية». لكن علاقته مع مصالي الحاج توترت عندما اتهمه هذا الأخير بأنه ينتمي سراً الى الحزب الشيوعي الفرنسي (بقيادة موريس توريز آنذاك). وعندما أوفده الحاج الى القاهرة لمفاوضة «جبهة التحرير الوطني الجزائرية»، تخلى محمد يزيد عنه وانضم الى الجبهة التي عينته ناطقاً إعلامياً باسمها في نيويورك. ثم عينته الجبهة وزيراً للإعلام في الحكومة المؤقتة برئاسة فرحات عباس عام 1958. خدم محمد يزيد في السلك الديبلوماسي بعد انقلاب هواري بومدين على الرئيس بن بيللا، ثم عاد الى العمل الحزبي فأصبح عضواً في اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير عام 1989، وتوفي في عام 2003 عن 80 عاماً.

(9) علي كافي من المناضلين العسكريين الأوائل في الثورة الجزائرية، وكان تعيينه سفيراً في بيروت مثار استغراب المجتمع اللبناني المتفرنس لأنه لم يكن يعرف الفرنسية، وربما كان الوحيد بين قادة الثورة الذي لا يتقن تلك اللغة. لكنني لم أتعرف عليه في بيروت لأنني كنت تركت الصحافة للعمل في البنك المركزي، إلاّ أن الصديق التونسي الراحل محمد الشابي كان على علاقة حميمة معه. وعندما أصبح رئيساً للجمهورية الجزائرية في مطلع التسعينات بعد اغتيال الرئيس محمد بوضياف سألني الشابي ما إذا كنت أرغب في الذهاب معه الى الجزائر ليعرفني عليه، لكن ظروفي في ذلك الوقت لم تسمح لي بذلك. وبعد الخلافات الجزائرية الأولى مع الزعيم المصري جمال عبد الناصر في مطلع عهد هواري بومدين، وكان الرئيس الحالي عبد العزيز بوتفليقة وزيراً للخارجية، كتب محمد حسنين هيكل مقالاً في «الأهرام» حول الموضوع ضمّنه ما قال له علي كافي عن بوتفليقة على النحو التالي: «لولا أنني أرى سلطان الدولة فوق رأسه لصفعته بيدي»!

ذلك أنه بعد الانقلاب العسكري الذي قاده هواري بومدين ضد الرئيس أحمد بن بيللا، سرت في الجزائر موجة معادية للمصريين كتلك التي سرت أخيراً بعد مباراة كرة القدم بين البلدين في أواخر حكم الرئيس المصري حسني مبارك. وحدثني الزميل أحمد سعيد محمدية، صاحب «دار

ربما كانوا من اليمن الجنوبي الذي كانت تربط زعماءه الشيوعيين علاقات وثيقة مع الجبهة الشعبية.

وكان هناك أيضاً الشيخ أمين الجميل، نائب المتن الشمالي آنذاك، خلفاً لخاله الراحل الشيخ موريس الجميل.

في ذلك الوقت لم أكن أعرف الشيخ أمين معرفة شخصية، كما عرفته تالياً، فوجدته يقف وحده منفرداً متكئاً على حافة باب داخلي في القاعة، فتقدمت منه وسلّمت عليه، فقال لي بلهجة تبريرية لوجوده في بيئة مختلفة:

«أنا نائب المنطقة هنا. وكما تعلم يتوجب على النائب أن يحضر جميع المناسبات من عمادات وأعراس وجنازات وتهاني وتعازي. هذه من عدة الشغل في السياسة اللبنانية».

أما العروسان بسام أبو شريف وأمل الخوري فكان مشهدهما أشبه بالخيال السينمائي: «مناضل» فلسطيني مشوّه الوجه واليد بفعل محاولة اغتيال اسرائيلية عن طريق طرد ملغوم انفجر فيه وهو يفتحه[10]، فأفقده إحدى عينيه وقطع ثلاثة أو أربعة من أصابع يده وأحدث في وجهه جروحاً وندوباً عميقة وأجبره على ارتداء نظارات سوداء تخفي ما وراءها، يقف مرتدياً بزة «سموكن» سوداء مع ربطة «بابيون» سوداء أيضاً (ربطة الفراشة)، الى جانب فتاة حلوة منعمة من جبل لبنان في فستان عرس أبيض جعلها تتألق كالماس المصقول، وهو مشهد لا يستطيع أن يتخيله أو يصوره أبدع رسامي الكاريكاتور في العالم.

العودة للنشر»، وكنا نعمل سوياً في «الأنوار» أنه كان في الجزائر يوم الانقلاب فتوجه الى محيط «فيللا جولي»، حيث كان يقيم الرئيس بن بيللا، حاملاً بيده كاميرا للتصوير فاعترضه جنود جزائريون وانهالوا عليه بالضرب وهم يصرخون بالفرنسية «إيجيبسيان»، ولم يرتدوا عنه إلاّ عندما صرخ في وجههم: «بالاستينيان نو إيجيبسيان»!

(10) الطرد الملغوم الذي أرسله الموساد الإسرائيلي الى بسام أبو شريف هو عبارة عن كتاب بعنوان «مذكرات تشي غيفارا»، وكان ذلك في عام 1972، لأن الإسرائيليين اتهموه بالمشاركة في خطف عدد من الطائرات المدنية الغربية وتفجيرها في الأردن، وكان ذلك من الأسباب المباشرة لحرب الملك حسين على المنظمات الفلسطينية في عام 1970. لكنه لاحقاً تخلّى عن فكرة الكفاح المسلح لتحريرفلسطين ففصلته الجبهة الشعبية من لجنتها المركزية في عام 1981، ثم ترك الجبهة نهائياً وانضم الى ياسر عرفات بصفة استشارية، فأوفده عرفات لأول مرة الى مصر في عام 1987 لمقابلة الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك. وفي منتصف التسعينات أصدر كتاباً مع الصحافي الإسرائيلي عوزي ماهنيمي، وهو ضابط سابق في الاستخبارات الإسرائيلية قيل إنه هو الذي أرسل له الطرد الملغوم، بعنوان «أفضل الأعداء» الصادر بالإنكليزية في عام 1995. وقد تعرف أبو شريف على ماهنيمي في لندن أواخر الثمانينات عن طريق الصحافية الأميركية ماري كولفن العاملة في صحيفة «صنداي تايمز» البريطانية التي كان الصحافي الاستخباراتي الإسرائيلي المذكور مراسلاً لها في إسرائيل. وقد لقيت الصحافية المذكورة حتفها بقذيفة أصابتها في مدينة حمص السورية أواخر شهرشباط/فبراير 2012 عندما تسللت الى الأراضي السورية من شمال لبنان لتغطية القتال بين الجيش السوري والمعارضين المسلحين. وكانت قد فقدت عينها اليسرى عندما أصابتها رصاصة وهي تغطي القتال بين ثوار «التاميل» في سري لانكا وقوات الحكومة.

ووقف الى جانب العريس الذي بدا كأنه متنكر في زي لا يرتاح فيه، اشبينه الدكتور جورج حبش مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بلباس عادي. وكانت تلك المناسبة أول مرة أرى فيها جورج حبش وجهاً لوجه. وقام بمراسم الإكليل الكنسي مطران ماروني ألقى كلمة طنانة رنانة عن «العروبة» وعن «فلسطين العربية» وعن «تحريرها»، كما تقتضيه المناسبة.

عروس لبنانية مارونية من جبل لبنان، وعريس فلسطيني مسلم خارج من أعماق المخيمات، وإشبين مناضل معروف في كل العالم، ومؤسس حركة قومية ثورية فاعلة، أرثوذكسي المذهب، ومطران ماروني يتغزل بالعروبة في بيت ينتمي أصلاً الى عقيدة مختلفة أو مخالفة، وفي وقت كانت فيه الأحزاب والقوى المارونية تتحفز للانقضاض على الفلسطينيين والعروبيين والقوميين السوريين، وسفراء دول لا يجمعها جامع إلاّ علاقاتها مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين... والشيخ أمين الجميل منزوياً لوحده جانباً لشعوره بأنه موجود اضطرارياً في تلك البيئة المعادية بسبب مقتضيات المهنة.

هذا الإكليروس الماروني الذي ألقى «الحرم» على الكاتب والشاعر بالفرنسية موريس صقر بسبب أفكاره الاشتراكية، ورفض تجنيزه، كما مر، هو ذاته الذي قام مطارنته بمراسم الإكليل في «عرس ديك المحدي»، وهو ذاته الذي حرّض شعبه على مقاتلة الفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين، فخرب لبنان عليه وعليهم. وعلى هامش ما دونته في مفكرتي عن الموضوع، ذكرت ما قاله لي في جب جنين نقيب المحامين في البقاع يومذاك المحامي الراحل طانيوس البقاعي (كاثوليكي)، قبيل بداية الإرهاصات الأولى للحرب اللبنانية:

«الموارنة صنعوا لبنان، والموارنة سيخربوه»!

وشاءت الأقدار أو الظروف أن أكون حاضراً أو شاهداً في المناسبتين المتقاربتين زمنياً، ومكانياً، في جبل لبنان، فتجسدت أمامي وتجسمت بشكل نافر كل التناقضات والمفارقات التي يتشكل منها لبنان في نسيج واحد مزركش ومهلهل في الوقت ذاته، في المآتم والأعراس، وفي الأفراح والأتراح.

وعندما التقيت أمل الخوري في لندن بعد مرور أكثر من ثلاثة عقود على ذلك المشهد الذي دخلت اليه مغمضة العينين وخرجت منه مفجوعة الوجدان، حدثتها عن وجودي في عرسها الأسطوري ذاك وما شاهدت فيه، لكنني لم أشأ أن أخدش حساسياتها المرهفة بانطباعاتي التي دونتها في مفكرتي يومذاك.

•••

ظل الإعلام العراقي في العهد البعثي من بدايته الى نهايته يتخبط تخبطاً غير مفهوم، وأقصد بذلك الإعلام الخارجي، لأن الإعلام الداخلي كان محكوماً بضوابط صارمة. ولذلك لم تدم للعراقيين علاقة مع أحد ممن تعاونوا معهم، بل إن بعض الذين قطفوا أكبر الثمار المالية منهم كانوا الأسرع في التخلي

عنهم والانضمام الى خصومهم. فقد كان ذلك الإعلام خليطاً لا رابط يربطه في التوجه، لا في يساره ولا في يمينه ولا في وسطه، والرابط الوحيد هو تمجيد صدام حسين، على طريقة كيم إيل سونغ، ومن بعد ذلك فليقل كل منهم ما يشاء عن الآخرين. وحتى في الأمور المالية تفاوت الأمر بين مسك اليد الى درجة البخل والتقتير، وبين بسطها الى درجة الإسراف والتبذير، والحالتان كلتاهما من غير طائل.

وقد روى لي أحد المسؤولين في بغداد خلال السنتين الأوليين من الحكم البعثي (1968-1970)، أنه يوم كان عبد الله السلوم السامرائي وزيراً للإعلام تم تخصيص مبلغ خمسة ملايين دينار في ميزانية الوزارة للشؤون الدعائية، وفي نهاية السنة المالية وبدء مناقشة الموازنة الجديدة، أبلغ الوزير السامرائي مجلس الـوزراء مفاخراً بأنه لم ينفق من تلك المخصصات سوى 750 ألف دينار، ظناً منه أنه فعل حسناً بأن وفّر على الدولة مبلغاً محترماً، فما كان من الرئيس البكر إلاّ أن استشاط غيظاً، وقرر إقالته من الوزارة وتعيينه في السلك الديبلوماسي.

ومن ناحية أخرى، روى لي مسؤول آخر إنهم ينفقون على مطبوعة في الخارج نحو ثلاثة ملايين دولار أميركي في السنة، وصاحب المطبوعة دائم الشكوى يطالب بالمزيد، بينما هذا الشخص ذاتـه يذهب الى الرياض في المملكة السعودية وينتظر أكثر من أسبوعين ليحصل على أقل من خمسين ألف دولار.

في تلك الفترة من التخبط الإعلامي اجتذبت المراجع الإعلامية شتى الطفيليات الصحافية الباحثة عن منافع سهلة مستغلين السخاء العراقي في تلك الفترة من البحبوحة بعد تأميم النفط. ومن الأمثلة على ذلك أذكر أنني كنت في زيارة الى الملحق الصحافي العراقي في بيروت مناف الياسين في مكتبه، فدخل علينا صحافي لبناني معروف، لكنه لم يشأ أن يجلس معنا بل أراد أن يكلم الملحق على انفراد، فلم يستجب له بالانتحاء جانباً مما اضطره الى التحدث اليه بلغة رمزية أو «مشفّرة»، فسأله الملحق ماذا يريد، فقال له إنه جاء ليأخذ الكتب. فرد عليه الملحق بقوله إنه ليس لديه في الوقت الحاضر سوى كتب أجنبية، فقال له: «لا بأس، نستطيع أن نترجمها». وانصرف.

وبعد خروجه سألت مناف الياسين بسذاجة عن تلك الكتب وما هي موضوعاتها، فضحك وقال لي:

«بيني وبينك، الكتب هذه تعني الفلوس»!

ويبدو أن القيادة العراقية حاولت مرة تنسيق الجهود الإعلامية وإقامة شبكة من العلاقات الموسعة مع الصحافة اللبنانية كافة، فأوفدوا لهذه الغاية نقيب الصحافيين العراقيين سعد قاسم حمودي الذي اتصل بي يوم 23 آذار/مارس من عام 1975، فتلاقينا لبحث الموضوع. وقد طلب مني المساعدة على توفير

لقاءات مجدية وجدية مع كبار الصحافيين اللبنانيين، فاتصلت لهذه الغاية بغسان تويني صاحب جريدة «النهار»، وكانت يومها الجريدة الأولى في لبنان، وتواعدنا معه على الغداء في مطعم «البرمكي» تحت مكاتب «النهار» في المبنى ذاته، يوم 25 آذار.

وفيما كنا نحن الثلاثة نتناول الغداء في المطعم، نزل الينا من الجريدة أحد المحررين وأعطى غسان تويني ورقة تضم خبراً من وكالات الأنباء. فوقف تويني معتذراً وقال إنه مضطر الى العودة الى المكتب لأن الخبر الذي ورده على عجل ينبىء باغتيال العاهل السعودي الملك فيصل بن عبد العزيز، وإنه يريد متابعة الخبر من مكتبه.

ووجد سعد قاسم حمودي أنه بعد هذا الحادث غير المتوقع لا معنى لمتابعة الاتصالات، وقرر العودة الى بغداد فتواعدنا أن نلتقي في العاصمة العراقية في مطلع الشهر التالي.

وعدت أنا بدوري الى مكاتب جريدة «بيروت» لمتابعة التطورات في السعودية، لأن اغتيال الملك فيصل كان بمثابة انفجار مفاجىء، لم تكن ملابساته واضحة في البداية، خصوصاً أنه قد سبقه وقوع محاولة انقلابية جدية واحدة على الأقل ضد حكم الملك فيصل[11].

ثم بدأت تتوالى التفاصيل، فتبين أن القاتل الذي أطلق النار على رأس العاهل السعودي عن قرب هو ابن شقيق له يدعى فيصل بن مساعد بن عبد العزيز[12]، وقيل إن له ظلامة خاصة، ثم قيل إنه قادم لتوّه من الولايات

---

(11) كنت قبل ذلك بأكثر من أربع سنوات قد نشرت تفاصيل تلك المحاولة الإنقلابية الفاشلة، التي كان وراءها، كما يبدو، ضباط في القوات الجوية في موضوع غلاف العدد الأول من مجلة «الأحرار»، كما مر، بعنوان «واشنطن تعد فهد لحكم السعودية»، وذلك في شهر تموز/يوليو من عام 1969. وقد جرت بعدها حملة اعتقالات واسعة شملت أكثر من 60 ضابطاً وعدداً من المدنيين، ومن أبرز الشخصيات التي تم اعتقالها الديبلوماسي المعروف عبد العزيز المعمر، الذي كان سفيراً للمملكة في سويسرا، فاستدعي واعتقل في المطار، كما سمعت.

(12) قيل إن فيصل بن مساعد البالغ يومها 26 سنة من العمر كان مختلاً عقلياً، وإنه أطلق على رأس عمه الملك ثلاث رصاصات من مسدس حربي أصابته اثنتان وطاشت ثالثة. ولم يمت فيصل على الفور بل نقل الى المستشفى حيث فارق الحياة موصياً بعدم معاقبة الجاني، لكن السلطات السعودية أعدمته بقطع رأسه بعد ثلاثة أشهر، أي في حزيران/يونيو 1975. وكان الأمير القاتل يدرس في جامعات أميركية في كاليفورنيا وكولورادو، ووصفه زملاؤه الطلاّب هناك بأنه «حبّاب، وهادىء، لكنه غير مجتهد في الدرس». وتقول الشرطة الأميركية إنها اعتقلته مرة وهو يبيع الحشيش والحبوب المخدرة، وإنه كان على صداقة مع الممثلة السينمائية كريستين سورما التي وصفته بأنه «جنتلمان كامل»، وقالت: «إذا كان مجنوناً فإنه يكون قد جن بعد عودته الى بلاده». ومن الروايات التي شاعت آنذاك أنه قام بالعملية انتقاماً لمقتل شقيق له قبل سنوات على يد الشرطة السعودية وهو يقود مظاهرة احتجاج ضد محطة التلفزيون السعودية اعتراضاً على التلفزيون لأسباب دينية. وقيل أيضاً إنه قتل عمه الملك لأنه منعه من العودة الى أميركا بسبب سلوكه.

المتحدة، وترددت أقاويل أن له علاقة ما بالاستخبارات الأميركية، لكن حقيقة الأمر لم تُعرف فأُخذت ببساطتها على أنها مسألة عائلية داخلية لا علاقة لها بالسياسة أو بالتآمر السياسي. ومع ذلك فإن غياب الملك فيصل عن المسرح السياسي الداخلي والإقليمي والدولي ترك أثره على أكثر من صعيد. فقد قام العاهل السعودي قبل اغتياله بجولة عربية زار خلالها مصر وقدم مساعدة سخية للقوات المسلحة المصرية التي عبرت قناة السويس وحررت سيناء، كما زار سوريا وذهب الى مدينة القنيطرة المحررة في الجولان قبل سنة، فلقي استقبالات رسمية وشعبية حارة في كل من البلدين، لأنه خلال حرب تشرين/ أكتوبر عام 1973 قطع البترول السعودي عن الدول الغربية المساندة لإسرائيل في الحرب، وخفض الإنتاج السعودي منه، فأدى ذلك الى أزمات داخلية في تلك البلدان، وبدأت طوابير المنتظرين لملء سياراتهم بالوقود في عواصم تلك الدول تتسع يوماً بعد يوم.

والمسألة البترولية لها دلالتها في اغتيال الملك فيصل لأن العملية تمت جهاراً نهاراً في مجلس استقبالات الملك أثناء استقباله وزير النفط الكويتي آنذاك عبد المطلب الكاظمي، وهو وزير شيعي لم يكن يقل أهمية عن أحمد زكي يماني، الذي رافقه في تلك الزيارة، في تقرير السياسات والمناورات النفطية، إنما لم يكن بشهرة اليماني.

وقد حضر جنازة الملك فيصل في الرياض ملوك ورؤساء من جميع أنحاء العالم. وأخبرني الرئيس تقي الدين الصلح، رئيس الحكومة اللبنانية الذي حضر المأتم، أنه عندما ذهب الناس الى المسجد[13] كانوا يخلعون أحذيتهم، حسب العادة المتبعة قبل الدخول الى الصلاة، لكن الملك البلجيكي بودوان لم يدخل الى المسجد وبقي واقفاً على الباب لأنه لم يشأ أن يخلع حذاءه، فرأى تقي الدين أنه من اللياقة أن يبقى معه في الخارج، فرآهما الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير الرياض، فتقدم منهما وأصر على دخولهما المسجد من غير أن يخلعا حذاءيهما.

وصادف أن كنت في الكويت في أواخر 1976، وكان الكاظمي عائداً من زيارة خارجية، أو من اجتماع مهم لمنظمة «أوبيك»، لا أذكر، فجرى له استقبال حاشد في مطار الكويت تقدمه الشيخ جابر العلي الصباح، وزير الإعلام آنذاك وأحد كبار شيوخ العائلة الصباحية الحاكمة. وقيل لي يومها إن ذلك الاستقبال كان سابقة في الكويت، أولاً لأنه لم يحدث مثله لأي وزير من عامة الشعب، وثانياً لأن الاستقبال تقدمه أحد كبار الشيوخ.

وقد لفتني آنذاك الخطاب الذي ألقاه الشيخ جابر العلي في استقبال الكاظمي حيث شدد على أهمية الحفاظ على الوحدة الوطنية في البلاد. فلم يكن يخطر

(13) ربما كان المسجد المذكور على ما أظن هو «جامع العيد الكبير» في العاصمة السعودية.

ببالي أن في الكويت «مشكلة وحدة وطنية»، كما هو الحال في لبنان مما أدى الى حرب أهلية، لكنني فهمت من خطاب الشيخ جابر العلي مغزى استقباله الاستعراضي للكاظمي العائد من الخارج في رحلة يقوم بمثلها كل شهر أو حتى كل أسبوع!



XI

في «قصر الرشيد»

منذ مقتل العاهل السعودي الملك فيصل بن عبد العزيز اغتيالاً بيد ابن أخيه، أيقنت بأن الأوضاع في لبنان والمنطقة العربية لن تكون مريحة، أو أنها لن تعود كما كانت، خصوصاً أن الروايات المتداولة للحادثة لم تكن مقنعة أو موثوقة. فقد كانت هناك دوافع دولية، وربما إقليمية، للتخلص من الملك فيصل، لكنني كنت أعرف من يوم كنت في «الأحرار»، كما سلف القول، من قبل خمس أو ست سنوات، أن هناك تياراً قوياً داخل العائلة السعودية غير مرتاح الى طريقة فيصل في الحكم، وربما بتشجيع خارجي. ولذلك اعتبرت أن غياب الملك فيصل آل سعود عن المسرح السياسي العربي والدولي، هو نذير بتطورات جديدة وخطيرة في المنطقة. وبعد أيام قليلة حزمت أمري وحقيبتي وتوجهت الى بغداد، أولاً لحضور الذكرى الثامنة والعشرين لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي[1]، ومقابلة أمينه العام ميشال عفلق نزيل قصر الرشيد في ذلك الوقت. وثانياً لمعرفة التحليلات والمعلومات الرسمية في العاصمة العراقية. وثالثاً، لمتابعة ما بدأه سعد قاسم حمودي في بيروت ولم نستكمله بسبب حادثة اغتيال الملك فيصل، كما ورد سابقاً في السياق.

وقبل أن أقابل أو التقي أحداً هناك، توجهت الى مقر القيادة القومية لزيارة العضو السعودي في تلك القيادة علي غنّام لمعرفة رأيه ومطالعته[2]. وقد وجدت علي غنّام غير معوِّل على غياب الملك فيصل عن المشهد السعودي، وكنت من

(1) تأسس حزب البعث العربي الاشتراكي رسمياً في السابع من نيسان/أبريل عام 1947.

(2) عندما ذهبت للعمل في «أرامكو» عام 1956، كان علي غنّام معتقلاً بسبب نشاطه النقابي والعمالي. وبعد الإفراج عنه وتسريحه من العمل أصبح ناشطاً في حزب البعث، وتم انتخابه عضواً في القيادة القومية للحزب في دمشق، لكن بعد انقلاب صلاح جديد على القيادة القومية يوم 23 شباط/فبراير 1966، جرى اعتقاله مع آخرين من أعضاء القيادة آنذاك ومن بينهم جبران مجدلاني والدكتور عبد المجيد الرافعي، ثم أطلق سراحهم بعد سنة إثر هزيمة حزيران/يونيو 1967، فانتقل غنّام الى بيروت ومنها الى بغداد بعد عودة البعثيين الى الحكم فيها عام 1968. وبعد الاحتلال الأميركي للعراق وسقوط نظام صدام حسين انتقل الى العاصمة اليمنية صنعاء حيث لحزب البعث وجود قوي بقيادة زميله العضو اليمني قاسم سلّام. ويأتي علي غنّام من مدينة الجبيل في المنطقة الشرقية من المملكة السعودية على الخليج.

لقاءات سابقة معه، ومن مجلة «صوت الطليعة» المعارضة للوضع السعودي التي كانت تصدر في بغداد بإشرافه على الأرجح، أعرف رأي علي غنّام والبعثيين السعوديين بالملك فيصل وتوجهاته. لكنه لم يستبعد وجود عنصر خارجي في الحادث، مرجحاً أن يكون وجهاً من أوجه الصراع العائلي الداخلي، لأن فيصل كان مقتراً على بعض أفراد العائلة الذين كانوا يسنّون أسنانهم للحصول على مزيد من المغانم!

وعلمت،لاحقاً، من مصادرأخرى أن الأمير فيصل بن مساعد الذي اغتال عمه لم يكن راضياً عن العلاوة المعطاة له ولبقية أمراء جيله وقدرها 15 ألف دولار في السنة. لكن هذه لم تكن الرواية الوحيدة الشائعة في ذلك الوقت. بعض المصادر عزا الاغتيال الى أسباب انتقامية تتعلق بقتل شقيق له في هجوم مع إسلاميين متطرفين على مبنى التلفزيون اعتراضاً على هذه الوسيلة الإعلامية الجهنمية. وهناك من عزاه الى أسباب شخصية تتعلق بعدم سماح الملك فيصل له بالسفر الى الخارج أو تجديد جواز سفره (راجع الفصل السابق).

كذلك تداولت الأساط الإعلامية حينها رواية سياسية تدور حول حديث أعطاه وزير البترول آنذاك أحمد زكي يماني الى مجلة إيطالية[3] مفاده أن فيصل بن مساعد كان يسارياً، وأنه لم يكن يسعى الى القضاء على شخص الملك فحسب، بل كان يريد القضاء على النظام بكامله. والمعروف أن اليماني كان حاضراً في مجلس الملك فيصل لحظة الاغتيال برفقة وزير النفط الكويتي الزائر عبد المطلب الكاظمي.

وبعد سنتين تقريباً، أي في أواخر صيف 1977، أبلغني أحد المعارضين السعوديين، وكان نزيل فندق «بورتلاند» اللندني، أن الأمير القاتل كان على صلة ومقربة من ثلاثة من كبار أمراء العائلة السعودية، هم: الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران، والأمير سلمان بن عبد العزيز أمير الرياض، والأمير فهد بن عبد العزيز وزير الداخلية الذي أصبح ولياً للعهد بعد مقتل الملك فيصل. وقال لي إن فيصل بن مساعد التقى الأمير فهد في أوروبا مرة على الأقل[4].

•••

قبيل ظهر اليوم التالي للقائي علي غنّام، السابع من نيسان/أبريل 1975، قصدت قصر الرشيد للقاء ميشال عفلق المقيم فيه يومها. كنت الوحيد الذي طرق بابه ذاك النهار، وكان لوحده، فاستقبلني بفتور ملحوظ. ثم جلسنا معاً

---

(3) هي كما كان متداولاً مجلة «أوربيو» في عددها الصادر يوم 22 آب/أغسطس عام 1975.

(4) الشخص المشار اليه هو يعقوب الرشيد (أبو عبد الله) وقد سجنه الملك فهد في عام 1986 وبقي في السجن مدة 18 عاماً الى أن أطلق سراحه الملك عبد الله بن عبد العزيز في عام 2004، وكان يومها ولياً للعهد ونائباً للملك المريض والمقعد فهد بن عبد العزيز الذي توفي في السنة التالية.

في الصالون على أريكة واحدة أنا الى اليمين لجهة الباب وهو الى اليسار لجهة النافذة. وقد لفتني وجوده لوحده مع أن ذلك اليوم هو يوم السابع من نيسان/أبريل ذكرى تأسيس الحزب. وبعد المجاملات التقليدية افتتح الحديث بإبلاغي أنه مستاء من جريدة «بيروت»، وهذا يعني أنه مستاء مني. وكنت أعرف من تجربتي معه في السنوات السابقة أن ذلك ليس مصدر استيائه الحقيقي، وربما كان يتذرع بذلك لعلمه أن للحيطان في بغداد آذاناً تسمع.

وسألته ببرود: «ولماذا أنت مستاء؟ قل لي أين مصدر الإزعاج، وأنا كفيل بتصحيحه».

قال: «المقال الذي نشرتموه على الصفحة الأولى، كانت صورتي فيه مصغّرة على عرض عامود واحد، وهذا له معنى».

قلت له بلهجة حانقة: «ما بالك أصبحت مثل كيم إيل سونغ يجعل الصحف تعيد نشر المقالات المتعلقة به إذا كانت صورته على أقل من ثلاثة أعمدة؟ ظننت أنك معترض على المضمون، ولم أكن أعرف أنك تهتم بالشكليات الى هذا الحد. هل تريدني أن أكون هيبوكريتياً منافقاً أكبّر صورتك لأخفي وراء ذلك أشياء مريبة؟ هذا لست أنت. لم يكن عهدي بك كذلك».

بعد هذه الاستشاطة مني هدأ بعض الشيء وراح يصب جام غضبه على قيادة الحزب (القيادة القومية) ويصفها بنعوت شديدة، منها أنهم «مرتزقة»، و«بيروقراطيون»، و«سكرانون بالسلطة». ثم استدرك بالقول إنه لا يقصد العراقيين بهذا التوصيف. طبعاً، ليس المرء بحاجة الى كثير من الفطنة ليدرك أن هناك مشكلة كبيرة بينه وبين الآخرين، ومع العراقيين أيضاً على الرغم من استثنائه لهم بوضوح لا لبس فيه. ذلك أنني لاحظت أن أحداً من القياديين في الحزب، عراقيين وغير عراقيين، لم يطرق بابه لزيارته لتهنئته بالعيد كما جرت العادة، حيث توافد عليه الجميع في السنة السابقة للتهنئة من أحمد حسن البكر وصدام حسين الى آخر عضو في القيادات الحزبية. لكن أثناء وجودي معه يوم السابع من نيسان/أبريل عام 1975، لم يطرق بابه أحد، ولم يرنّ هاتفه.

وعندما هممت بالخروج طلب مني أن أبقى على الغداء فقبلت. وقبل دخولنا الى قاعة الطعام جاء عبد الوهاب كيالي، فسلّم وجلس معنا على المائدة، لكن ميشال عفلق توقف عن الكلام في الشأن الحزبي. وأدركت أنه لا يريد أن يتكلم في الموضوع مع أحد من الحزبيين، لأنه عندما طلب مني البقاء على الغداء شعرت من طريقته في الكلام بأنه ينوي استكمال الحديث على المائدة. ولهذا لاذ بالصمت بوجود طرف ثالث.

ولا أخفي أنني شعرت بالضيق من الجو السائد، ومن التوترات الضمنية التي لا يمكن البوح بها إلاّ بالكلام المبطّن، أو بالإيحاء. وبعد الظهر جاء المناضل

الحزبي المعروف ناصيف عواد[5]، وجلسنا معاً نحتسي القهوة. ثم بعد فترة جاء طارق عزيز، وكان وزيراً للإعلام، فأخذ بناصية الحديث عن مسيرة الحزب في العراق، خصوصاً في فترة وجوده في السلطة.

ومما قاله طارق عزيز في تلك الجلسة: «إن الثورة في العراق كانت خطواتها كلها تقريباً الى الأمام، ولم تتراجع أمام التحديات، باستثناء مسألة انسحاب الجيش العراقي من الأردن لاعتبارات كثيرة. هذا الانسحاب هو الخطوة الوحيدة الى الوراء، وهي خطوة اضطرارية لدرء خطر أعظم». ويبدو أن هذه الكلمة كانت الأهم في كلام طارق عزيز لأنني لم أسجل غيرها في مفكرتي عن تلك الجلسة.

وراودتني فكرة، وأنا أستعيد ملاحظة طارق عزيز هذه، هي أنه ربما كان يردُّ على تحفظات غير معلنة لعفلق على المسيرة الحزبية ومسيرة السلطة في بغداد، وإلاّ فما معنى هذه المطالعة الدفاعية أو التبريرية. وبعد خروج طارق عزيز، وقد أصبح الوقت متأخراً بعد الظهر، استأذنت للخروج بدوري، فاستوقفني ناصيف عواد وعرض أن ينقلني معه بسيارته الى الفندق الذي أنزل فيه. وفي الطريق سألني ناصيف عواد عن لقائي مع ميشال عفلق، فرويت له ما دار بيننا من حديث لوحدنا، لأن الحديث توقف عملياً بعد مجيء عبد الوهاب كيالي قبيل الغداء. وما أن سمع ناصيف عواد ما قلت له، حتى أوقف سيارته الى جانب الطريق، واستحلفني بأن لا أنقل هذا الحديث الى أي كان... وبالفعل لم أنقله الى أحد في بغداد، لكنني لاحقاً بعد عودتي الى بيروت أبلغت خلاصة عنه الى قريبي نقولا الفرزلي العضو القيادي في الحزب آنذاك والوثيق الصلة بميشال عفلق.

•••

كان ذلك اللقاء المشحون آخر لقاء لي مع ميشال عفلق، رحمه الله. فقد انتقل هو الى بغداد خلال الحرب وانتقلت أنا الى أوروبا، ولم تتقاطع بنا الطرق من وقتها. وعندما زرت بغداد برفقة صاحبة مجلة «الحوادث» أمية اللوزي في مطلع شهر نيسان/أبريل من عام 1981 خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، وصادف أيضاً وقوع العيد الرابع والثلاثين لتأسيس «البعث»، قصدت المقر الجديد للقيادة القومية للحزب[6] حيث قيل لي إن للأستاذ ميشال مكتباً مستقلاً خارجه

(5) انتقل ناصيف عواد تالياً الى العاصمة الفرنسية باريس حيث أصدر مجلة «الطليعة العربية» بدعم عراقي، لكنه ما لبث أن دخل في منازعة قانونية مع الصحافي اللبناني رياض أبو ملحم الذي كان قبله في باريس يصدر مجلة باسم «الطليعة» بدعم من ليبيا القذافية. وكان أبو ملحم سابقاً في العراق وعمل مع العراقيين، ثم انتقل من بغداد الى لندن حيث عمل معي في مجلة «الدستور» لفترة وجيزة انتقل بعدها الى باريس حيث كنت أمده ببعض المواد الاقتصادية الطابع.

(6) تم تدشين المبنى المذكور فور تسلّم صدام حسين رئاسة الجمهورية من أحمد حسن البكر في تموز/يوليو من عام 1979 وبعد أيام فقط من إعدام عدد من القيادات العليا في حزب البعث العراقي. وقد حضر التدشين الى جانب صدام كل من ميشال عفلق الأمين العام للحزب، والرئيس

يداوم فيه، فتوجهت الى ذلك المكتب لمقابلته ومعايدته فلم أجده، فتركت له خبراً مع السكرتير الذي لم أكن أعرفه من قبل، وهو عراقي على الأرجح. ثم توجهت الى المبنى الكبير للقيادة حيث زرت الأمين المساعد شبلي العيسمي، وأثناء وجودي عنده جاء الرئيس أمين الحافظ (أبو عبدو) فكانت جلسة ممتعة بالنظر الى أن الحافظ يتكلم بكلام مباشر، مهذب لكن لا تنميق فيه. وبعد زيارتي العيسمي توجهت الى مكتب علي غنّام، ثم جاء عضو القيادة اليمني قاسم سلام، ورحنا نتحدث في الشؤون العامة فوجدت أن هناك شيئاً من عدم الارتياح لديهما وكثير من التحفظ في الكلام حول الأمور الحساسة، وخصوصاً حول الحرب مع إيران.

ولم أدر ما إذا كان التحفظ بسبب الفتور السابق بين القيادة القومية وأمينها العام ميشال عفلق، لأنني لم أكن متأكداً ما إذا كان الوضع السابق قبل ست سنوات بقي على حاله، حيث تغيرت أمور كثيرة خلال السنوات الست الفاصلة بين الزيارتين والحافلة بالأحداث الجسيمة على كل صعيد، ومنها الصعيد الشخصي، بعضها يعود الى تغيُّر اهتماماتي وتغريدي في سرب مختلف. وهذا ما سأعود اليه عند استعراضي لمرحلة الثمانينات في الفصول المقبلة.

•••

ولا بد لي هنا، وقد انقطعت علاقتي الشخصية مع ميشال عفلق منذ تلك الزيارة له في قصر الرشيد عام 1975، من تقويم للرجل وللعلاقة الممتعة معه منذ تعرفت عليه في عام 1960. وأول ملاحظة لي في خضم السعي الحثيث لحزب «البعث»، (أو الأحزاب البعثية المختلفة حسب تعبير صلاح البيطار)، للوصول الى السلطة في بعض البلدان العربية عن طريق الجيش والانقلاب العسكري، هي أنه أسيء فهم أو تشويه فكرة عفلق الأم حول مبدأ «الانقلابية» لاستنهاض الأمة. فقد خلط كثيرون وما زالوا يخلطون بين الإنقلاب العسكري للوصول الى السلطة وبين «الفكرة الانقلابية» التي نادى بها ميشال عفلق، منذ خطابه المشهور على مدرج جامعة دمشق في الخامس من نيسان/أبريل من عام 1943، بعنوان «في ذكرى الرسول العربي». وغني عن القول إن مضمون هذا الخطاب هو من المرتكزات الفكرية الأساسية لحزب «البعث»، إن لم يكن المرتكز الأساسي.

ولم يقتصر سوء الفهم، أو سوء النية، من قبل البعض على هذا الخلط، بل امتد أيضاً ليشمل أموراً أخرى لا تقل أهمية، منها الجدل حول «الأحقية» في تأسيس الحزب ونكران بعضهم لكون عفلق هو مؤسس الحزب، أو الجدل حول اعتناق عفلق للدين الإسلامي قبل وفاته، كما قالت السلطات العراقية بقيادة صدام حسين بعد وفاته، أو عدم اعتناقه له.

السابق أحمد حسن البكر. والصور التي التقطت للاحتفال كانت معبرة ومثيرة للرثاء.

وعلى الرغم من «انقطاع» علاقتي الشخصية معه على النحو الذي ذكرت، وعلى الرغم من تحفظات كثيرة لي على الأنظمة التي حكمت سوريا والعراق باسم «البعث» خلال نصف القرن الأخير، وعلى تصرفات قيادات حزبية مؤثرة وفاعلة، ومنها ميشال عفلق نفسه، فإنني دأبت طوال الفترة الممتدة من ذلك الوقت الى اليوم على إنصاف الرجل وأفكاره ومقاصده، ومحاولة تبيان الشوائب التي لحقت بها بفعل «دمجها» بالسلطة، خصوصاً في العراق. وأتحدث هنا عن ميشال عفلق «المفكر الاستثنائي» لا عن ميشال عفلق «القائد السياسي الفاشل» بسبب دمجه القسري بالسلطة على يد شتى المستفيدين من تلك السلطة. ذلك أن الحملات المغرضة التي استهدفته للنيل من شخصه أو من حزبه أو من أفكاره، أو حتى من السلطة التي حكمت باسمه، لم ينقطع سيلها منذ بروزه على المسرح العام، ككاتب في مجلة «الطليعة» في مطلع ثلاثينات القرن الماضي، ثم كوزير للمعارف في سوريا أواخر الأربعينات[7]، مروراً بالوحدة والانفصال، وبالسلطة البعثية في دمشق وبغداد، الى اليوم بعد مرور أكثر من عقدين على وفاته.

في نقد كتاباته الأولى، قيل إنه عاد من باريس متأثراً بالأفكار والنظريات اليسارية والماركسية، للقول بأنه لم يأتِ بجديد. وفي مرحلة انطلاق وتأسيس «البعث» قيل إنه مغتصب للإسم لأنَ المؤسس الحقيقي للبعث هو زكي الأرسوزي[8]، وأنه استلهم أفكاره من تعاليم الأرسوزي.

وبعد اتهامه بأنه سطا على أفكار الأرسوزي[9]، قالوا عنه إنه سطا على شعبية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر[10] الذي اغتيل في عيادته في دمشق صيف عام

---

(7) بعد انقلاب الضابط سامي الحنّاوي على حكم حسني الزعيم في صيف 1949 أعاد الضابط المذكور الحكم الى السياسيين والأحزاب فتشكلت حكومة برئاسة الرئيس هاشم الأتاسي على النحو التالي: هاشم الأتاسي رئيساً للحكومة، اللواء عبد الله عطفة وزيراً للدفاع، ناظم القدسي وزيراً للخارجية، رشدي الكيخيا وزيراً للداخلية، خالد العظم وزيراً للمالية، ميشال عفلق وزيراً للمعارف، أكرم الحوراني وزيراً للزراعة، فيضي الأتاسي وزيراً للاقتصاد الوطني، محيي الدين الجابري وزيراً للأشغال العامة، بالإضافة الى وزيرين للدولة هما: فتح الله اسيون، وعادل العظمة. وكانت مهمة هذه الحكومة الإعداد لانتخاب جمعية تأسيسية تضع دستوراً جديداً للبلاد.

(8) الأرسوزي من دعاة الفكر القومي العربي، وهو ينتمي الى عائلة من جبال العلويين في شمال سوريا وقد انتقلت عائلته الى أنطاكية في لواء الإسكندرون الذي استولى عليه الأتراك في أواخر ثلاثينات القرن الماضي. درس الفلسفة في جامعة السوربون في باريس في أواخر العشرينات وعاد للتدريس في المدارس السورية من أنطاكية ودير الزور الى حلب وحماه ودمشق، ثم أصدر جريدة «العروبة» للتعبير عن أفكاره في القومية العربية.

(9) في أغلب الظن أن زكي الأرسوزي نفسه هو الذي روّج هذا الافتراء. ويقول محمد معروف في كتابه «أيام عشتها 1949 ـ 1969: الإنقلابات العسكرية وأسرارها في سوريا» (منشورات رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2003، الصفحة 90) إن الأرسوزي كان يجلس في مقهى «الهافانا» في دمشق، حيث تعرّف عليه، ويصرح جهاراً بأن عفلق والبيطار قد سرقا أفكاره.

(10) قام باغتيال الشهبندر في السادس من تموز/يوليو عام 1940 ثلاثة شبان قصدوا عيادته

1940. وإذا كانت قلة من الناس صدقت قصة سطو عفلق على أفكار الأرسوزي، فإن عفلق نفسه أخذ حركة الشهبندر على محمل الجد كحركة وطنية محدودة في مكانها وزمانها. وفي أحد مشاويري معه في تلال بشامون مطلع السبعينات حدثني ملياً عن مرحلة الشهبندر مع وصف تفصيلي لزياراته الى البيوتات الدمشقية الفسيحة والتفاف رجال الأحياء حوله لسماع خطبه الوطنية. فكان الشهبندر كل عشية يزور بيتاً من تلك البيوتات، وعندما يسمع الناس بوجوده في الحي يتقاطرون الى منزل الداعي ليسمعوا خطابه الوطني الحماسي.

ولم ينكر عفلق أن جانباً من شعبية الشهبندر وجد تالياً ضالته في حزب البعث وأفكاره، لكنه قال إنه غير صحيح أن البعث ورث الشهبندر أو أن الشهبندر كان الأرضية التي انطلق منها البعث في مسيرته اللاحقة. قال عفلق ذلك في معرض التأكيد بأن «البعث» حركة قائمة بذاتها وليست «حلقة» في مسلسل متتابع من الحركات الوطنية. وعلى سبيل التفكهة، أثناء الحديث عن الشهبندر، قال لي إنه في زياراته الى البيوتات والأحياء الدمشقية كان يقلد المبشرين البروتستانت الذين تأثر بهم عبر ثقافته الأميركية واحتكاكه بالإرساليات البروتستانتية في الجامعة الأميركية في بيروت حيث درس الطب وعمل أستاذاً للطب في الجامعة ذاتها مطلع القرن العشرين. ثم قال بصورة جدية إن الشهبندر كان ميالاً الى البروتستانتية المسيحية، ولم يجب عن سؤال لي ما إذا كان الشهبندر يبتغي الانطلاق ببروتستانتية إسلامية، بل قلب شفته وحرّك كف يده اليسرى بشكل يدل على شك بهذه الفكرة، وكأنه يقول: «من يدري؟»!

لكنه كانت له تحفظات فكرية جدية على الشهبندر وحركته ملمحاً الى عنصرٍ من الغوغائية فيها. ومما قاله لي في ذلك الحديث إن الشهبندر ليس رجلاً شعبياً، خلافاً للشائع عنه، بل هو «نخبوي» يؤمن بسيادة النخبة وينظر الى الجماهير بازدراء. فهو لم يلفظ كلمة «الجماهير» على لسانه، وكان يصفهم بكلمة «الدهماء»، وينظر اليهم على أنهم «رعاع» يجب جرهم الى التقدم والانخراط في القضية الوطنية بالقوة. وفي اعتقاده أن نخبوية الشهبندر تقوم على خلفية تنادي بضرورة قيام ديكتاتورية مستنيرة، أو ما كانوا يسمونه في تلك الأيام

في دمشق بحجة أنهم مرضى يبتغون العلاج فأطلقوا عليه النار في رأسه. وتبين فيما بعد أنها مؤامرة من الانتداب الفرنسي لإلصاق التهمة بالكتلة الوطنية. وفي المحكمة التي حاكمت القتلة ادعى هؤلاء أن الشهبندر تعرض للإسلام في إحدى خطبه وإنهم قتلوه ثأراً للدين الحنيف. وهذا ادعاء باطل لم تأخذ به المحكمة لأن لمؤسس «حزب الشعب» خطباً تدحض هذا الادعاء كقوله مرة: «الإسلام رجاء، والقنوط ليس من ديننا». وقال في خطبة أخرى: «رابطة العروبة أقوى من أن تصابٍ في قوتها وروحها ما دام القرآن يجمعها». وقد حكم على القتلة بالإعدام ونفذ الحكم فيهم شنقاً في العاصمة السورية. وقد رثاه الشاعر عمر أبو ريشة بقصيدة جاء فيها:

فمن المبكيات أن تُقتل الأحرارُ   في غير ملعب الأحرارِ

«المستبد العادل».

وأجدني الآن حائراً بين الصورة التي رسمها لي عفلق عن عبد الرحمن الشهبندر، وبين الصورة التي رسمها تالياً عن صدام حسين في المنظور الديكتاتوري المستنير. وللأمانة أقول إنني شخصياً لم أسمع منه مباشرة أي توصيف لصدام حسين في هذا الإطار، ربما لأن صورة نائب الرئيس العراقي حتى ذلك الوقت لم تكن قد اكتملت أو تظهرت بشكلها المعروف له بعد توليه الرئاسة... إلاّ أنني قرأت وسمعت من آخرين ما يدل على إعجاب عفلق بشخص صدام من خلال ما نقل عنه من أن «صدام هو هدية البعث الى العراق، وهدية العراق الى الأمة العربية». أو أن صدام «جسّد بشخصه عظمة العراق والأمة». لم أسمع منه شيئاً عن صدام حسين من هذا القبيل. الملاحظة الوحيدة التي سمعتها منه شخصياً هي حول خطاب صدام في إسبانيا، كما أشرت سابقاً، مستغرباً أن رئيس الحكومة الإسبانية نافارو تحدث حول العلاقة مع العرب بروحية تاريخية حية، بينما تحدث صدام بأشياء اقتصادية جامدة.

ولعل القسط الأكبر من التجني الذي لحق به هو موقفه الملتبس من انقلاب حسني الزعيم على الحكومة السورية الشرعية المنتخبة، التي كانت الأولى بعد الاستقلال بقيادة الرئيس شكري القوتلي، وبدعم من الأميركيين على أثر النكبة الفلسطينية مباشرة. فقد قيل إن عفلق أيد انقلاب الزعيم في البداية، ثم انتقده فقامت الحكومة الانقلابية باعتقاله وسجنه، وقيل إنه كتب من السجن رسالة اعتذار وتوسل الى حسني الزعيم فأطلق سراحه، لينضم الى الحكومة التي تشكلت بعد انقلاب الحناوي وإعدام حسني الزعيم[11].

في أواخر الستينات ومطالع السبعينات لم أكن ملماً بالعمق في مجريات الأمور السابقة للوحدة السورية - المصرية. وكان الانطباع الأبرز لدي عن حسني الزعيم يتعلق بتسليمه أنطون سعادة الى السلطات اللبنانية التي أعدمته بسبب الحركة التي قادها عام 1949 وشارك فيها ابن خالتي عساف أبو مراد الأمين في حزب سعادة آنذاك، كما مرّ، ولم أكن أعرف عنه أي شيء آخر. لكنني في أواخر خمسينات القرن العشرين التقيت في جب جنين في منزل محمد أفندي شرانق، وهو صديق لعائلتنا، شقيق حسني الزعيم الشيخ صلاح الزعيم، وكان ضيفاً عليه. وكان الشيخ صلاح يرتدي دشداشة بيضاء، وله لحية بيضاء أيضاً، وعلى وجهه ملامح الوقار والتدين والتقوى والنظافة والتواضع

---

(11) يقول بشير فنصة إن ميشال عفلق أرغم وهو في سجن المزة على كتابة الاعتذار وفوهة المسدس موجهة الى رأسه (النكبات والمغامرات: تاريخ ما أهمله التاريخ من أسرار الانقلابات العسكرية 1949ـ 1958 الصفحة 120). وفي رسالة الاعتذار المذكورة يقول فنصة في كتابه: «كانت رسالة مضحكة أثارت النفور والاشمئزاز، لا من كاتبها الذي خطّها تحت الضغط والإكراه، بل ممن انتزعها منه ونشرها على الناس وهو في مركز القوة. وكانت هذه الرسالة أول وصمة عار في جبين العهد الجديد، لا في جبين كاتبها المكره على أمره».

وصورة الأولياء. وقال لي محمد أفندي شرانق إن الشيخ صلاح الزعيم يقوم بجولة على أصدقائه القدامى في البلدات البقاعية، لكنه لم يذكر شيئاً عن أمور السياسة باستثناء قوله إنه شقيق حسني الزعيم.

لم أكن ملمّاً بتلك المرحلة، وميشال عفلق لم يتطرق اليها في أحاديثي معه. أما موضوع عبد الرحمن الشهبندر، الذي لم أكن أعرف عنه الكثير أيضاً، فهو الذي فتحه واستفاض في الحديث عنه. ولذلك لا أستطيع أن أقول ما هو الصح وما هو الخطأ فيما يتعلق بموقف ميشال عفلق من حسني الزعيم. لكن ما سمعته تالياً عن هذا الموضوع قيل في سياق التجريح به والنيل منه.

•••

ويبقى أهم من ذلك كله الموقف من الإسلام وما دار من فرضيات حول اعتناق عفلق للإسلام وإعلان ذلك من قبل السلطات العراقية فور وفاته مطلع صيف عام 1989، وكان مضى على انقطاع علاقتي معه أربعة عشر عاماً. وقبل الخوض في هذا الموضوع لا بد من تقدير شخصي للمواقف التي سمعتها منه في لقائنا الأخير في قصر الرشيد عام 1975. وما سأقوله هنا هو مجرد تقدير لا يستند الى أي معلومات. فالانطباع الذي خرجت به من ذلك اللقاء المتوتر هو أن ميشال عفلق كان يشعر بالضيق وكأنه يرى نفسه سجيناً في القصر. «فش خلقه» بي وتلقيت ذلك وامتصصته برحابة صدر، لكنني خرجت أرثي لحاله موقناً أن ذلك اللقاء سيكون اللقاء الأخير.

وفي تقديري أن ميشال عفلق كان ينظر بخوف وقلق الى ما يجري في الحزب وعلى صعيد السلطة في العراق، ولم تكن لديه الرغبة أو الجرأة في مواجهة الأمر علناً وعلى رؤوس الأشهاد. وقراءتي للمشهد أنه كان يريد من آخرين أن يتولوا المهمة ليقف وراءهم. وهذا ما لم يكن أحد مستعداً أن يفعله، خصوصاً في وجه صدام حسين. فماذا يعني غير ذلك قوله بأن أعضاء القيادة القومية للحزب هم من «المرتزقة» السكرانين بالسلطة؟ هجومه علي في بداية اللقاء بحجة باهتة تتعلق بحجم صورته الفوتوغرافية في مقال في جريدة «بيروت»، أنظر اليه اليوم من منظار مختلف. فقد كانت رغبته في استفزازي واضحة من اللحظة الأولى للقاء. ولم يكن لي في ذلك الوقت تفسير منطقي لذلك الاستفزاز، إلاّ التفسير المزاجي. لكن بالتفكر فيه اليوم بعد مرور نحو أربعة عقود أرى أنه قصد أحد مقصدين: إما إخراجي من المشهد، حرصاً علي أو تبرماً مني، وإما لدفعي الى تظهير موقفه الاحتجاجي في الجريدة على ما يشتهي، وكأنه كان يريد أحداً أن يقف معه في موقف لا يريد الإفصاح عنه بصورة مباشرة.

لا أعرف ماذا كانت مشاعره عندما أقدم صدام حسين على إبعاد الرئيس أحمد حسن البكر، وما رأيه في مسرحية صدام الدموية التي أعدم فيها مجموعة كبيرة من القيادات الحزبية العليا في العراق، وبينهم مقربون اليه، ثم حمله

عفلق والبكر معاً على افتتاح المبنى الجديد للقيادة القومية في بغداد بعد تلك المسرحية الدموية مباشرة. ولم أسمع من أحد حتى اليوم شيئاً حول هذا الموضوع. لكنني وقفت على العلاقة السلبية الخفية بين البكر وصدام. فقد قال لي صلاح عمر العلي بعد إبعاده من السلطة ونفيه الى القاهرة ثم انتقاله الى بيروت في عام 1970: «إن الرئيس البكر يخاف من صدام». وقد سجلت خلاصة مقتضبة عن ذلك الحديث بين صلاح عمر وبيني في بيروت. وفي معرض الحديث سألته ما إذا كان يعتقد بوجود علاقة لأي منهما مع قوى أجنبية، فقال إنه يرجح أن يكون صدام على علاقة مع الأميركيين!

وروى لي حكاية عن زيارة الى البصرة قام بها مع بعض شبان الحزب ومنهم صدام حسين قبل سنوات من وصول الحزب الى السلطة، وأثناء وجودهم في البصرة «اختفى» صدام متسللاً من غير أن يلحظه أحد، فبحثوا عنه ولم يجدوه، لكنه عاد بعد ساعات قليلة معللاً غيابه بزيارة الى بعض معارفه، ثم تبين لاحقاً أنه زار القنصلية الأميركية في البصرة!

وفي تقديري الآن، وبغير معلومات أو أحاديث مسندة، أن المفترق الحاسم في مسيرة ميشال عفلق العراقية كان يوم اعتقال وسجن عبد الخالق السامرائي، الذي كانت له سمعة عالية في داخل الحزب وخارجه، وكان له دور واعد في مستقبل مسيرة الحزب في العراق. صحيح أن ميشال عفلق تدخل لكسر حكم الإعدام بحق عبد الخالق السامرائي الى السجن المؤبد، لكنه كان عاجزاً ولم يصدر عنه أي عتراض عندما عاد صدام... وأعدم السامرائي مع بقية القيادات الحزبية في صيف عام 1979. إذ بعد خروجه من بيروت الى بغداد بسبب الحرب اللبنانية، فَقَدَ عفلق كل خياراته المستقلة، وقدرته الاعتراضية، وصار أسير صدام حسين بكل معنى الكلمة، فصادر منه صدام ختم الشرعية الحزبية وراح يمهر به تصرفاته التي كان عفلق مضطراً الى تبريرها، وهو معترض عليها ضمناً، حسب معرفتي به وبأفكاره. وأكون قاسياً عليه حتماً إذا شبّهت موقفه من صدام حسين بموقفه القديم المزعوم من حسني الزعيم، لكنني في الحالة الثانية أراه مغلوباً على أمره، لا سيما أن هناك سابقة لإبعاده عن قيادة الحزب وتنصيب البعثي الأردني المعروف الدكتور منيف الرزاز[12] أميناً عاماً في مكانه.

---

(12) الدكتور منيف الرزاز طبيب أردني درس الطب في القصر العيني بمصر وكان من مؤسسي الهلال الأحمر الأردني، ثم ناضل في صفوف حزب البعث فسجن وسحبت جنسيته الأردنية وتعرض لصنوف الاضطهاد قبل وبعد ترشحه للبرلمان وتسلمه قيادة حزب البعث في الأردن وانخراطه تالياً في العمل الفلسطيني من خلال «جبهة التحرير العربية» الموالية للعراق. انتخب أميناً عاماً للقيادة القومية للحزب في دمشق عام 1965 خلفاً لميشال عفلق وبقي في العاصمة السورية حتى انقلاب صلاح جديد في 23 شباط/فبراير 1966. وبعد انتقاله الى العراق في السبعينات انتخب أميناً عاماً مساعداً للحزب، لكن بعد تولي صدام قيادة السلطة في بغداد إثر المجزرة الحزبية ألقيت عليه شبهات التعاطف مع «المتآمرين» ففرضت عليه الإقامة الجبرية الى أن توفي في بغداد أواسط الثمانينات بنوبة قلبية، وترددت أقاويل بأن وفاته مشبوهة بتدبير من

وتنصيب الرزاز في مكانه لا يختلف كثيراً عن تنسيب تأسيس «البعث» الى زكي الأرسوزي في سوريا.

وفي يقيني أن عفلق فش خلقه بي في قصر الرشيد لأنه ضاق ذرعاً بصمته حول انحرافات فظيعة كان يستنكرها على طريقته، لا سيما التأثير السلبي للسلطة وانعكاس ذلك على الأداء القومي للحزب. ولذلك تلقيت هجومه علي في ذلك اليوم بروح طيبة. فقد كنت أعرف أن شكواه ليست مني، لأنه لا دور لي في الشأن السياسي أو الحزبي. وهذا ينطبق عليه الى حد ما المثل الذي كان يسوقه الفلاّحون في قريتنا حول «فش الخلق بالوكالة» بقولهم: «لا يقوى على البقرة فينطح العجل». وأنا متأكد، بل أجزم، بأن صمت ميشال عفلق في ذلك الوقت لا يعني أنه كان جاهلاً بما يدور حوله. فهو من الناس الذين يدركون الأمور بلمح البصر من دون مؤشرات، أو حتى من دون معلومات. ولست أشك للحظة واحدة بأن الموقف الاحتجاجي لميشال عفلق من إعدام عدد كبير من القيادات الحزبية العراقية بحجة التآمر مع النظام السوري، ومنها قيادات مشهود لها بنضالها السياسي وانضباطها الحزبي، وإن كان احتجاجاً صامتاً، لا يقل عن اعتراضه السابق على الحكم بإعدام عبد الخالق السامرائي. بل إن إصرار صدام على إعدام عبد الخالق السامرائي من جملة الذين شملتهم قرارات التصفية بعد سنوات ست من خفض عقوبته، هو في حد ذاته رسالة موجهة الى ميشال عفلق لكونه الوحيد الذي اعترض على الحكم بإعدامه، فاضطر صدام في حينه الى خفض العقوبة.

وهذا وحده كاف لرد التهمة بأن ميشال عفلق كان مطواعاً للسلطة العراقية في كل شيء، وإن تمكن صدام من وضع يده على ختم الحزب بالتطويع المتمادي. والذين يعرفون ميشال عفلق حق المعرفة، يعرفون معنى صمته أحياناً كتعبير عن ميزتي الصبر والثبات اللتين كان يعتبرهما من أبرز سمات النضال والبطولة. فالبطولة عنده لا تتجلى فقط في المجابهة والنزال. ذلك أن مفهومه للبطولة بهذا المعنى يشبه قول أمير الشعراء أحمد شوقي في المجاهد الليبي عمر المختار:

ليس البطولةُ أن تموتَ من الظما إنّ البطولةَ أن تعبَّ الماءَ

ومع ذلك فقد لصقت في أذهان كثيرين أن عفلق يهرب من المواجهة ويؤثر السلامة وكأنه في حالة اعتذارية دائمة. فقد كان هناك من يقول بعد صدور حكم بالإعدام في دمشق بحق ميشال عفلق وهربه الى لبنان عام 1966، كما سمعت من أحدهم: «من الأجدى أن يعود عفلق الى دمشق ليتحدى النظام الجديد ويشرب كأس السم طوعاً كما شربها سقراط». لكن المسألة في نظري أعقد

صدام حسين. وللدكتور الرزاز إنتاج فكري وثقافي غزير، ومن أشهر كتبه: «ألف باء البعث»، و «التجربة المرة».

من ذلك لوجود تفاوتات وفوارق شاسعة في فهم وصياغة الأطر النظرية التي كان المتنازعون على «البعث» يقدمونها باعتبارها تمثل «صحيح البعث»، إذا جاز التعبير، لتبرير البقاء في السلطة أو الوصول اليها. فالمثال السقراطي المشار اليه هو مثال افتراضي تنشأ منه أسئلة جدلية غير مجدية من نوع «ماذا لو حدث هذا ولم يحدث ذاك». كأن يسأل بعض القوميين السوريين اليوم: هل أصاب أنطون سعادة عندما عدل عن فكرة الفرار واللجوء الى الخارج وعاد ليلقى مصيره المعروف؟ أو: ماذا لو كان الخيار الآخر وبقي سعادة على قيد الحياة يمارس نشاطه ونضاله من الخارج؟ أو: ماذا كان سيحدث لحزبه لو أنه نجح في الوصول الإنقلابي الى السلطة في لبنان أو في سوريا؟ وأسئلة كثيرة من هذا النوع لا تقدم ولا تؤخر في سياق الفهم المنطقي لحالات من هذا النوع التي يزخر بها التاريخ البشري القديم والحديث.

لكنني كنت دائماً أتساءل كيف أن رجلاً مثل ميشال عفلق قام كيانه الفكري على حرية التعبير والتفكير، ارتبط اسمه بشكل أو آخر بأوضاع معادية لحرية التعبير والتفكير، وكيف يمكن لإنسان يقول بالحرية شعاراً أساس في أهدافه كشرط لنهوض الأمة أن يتعايش مع أوضاع تقمع الحريات الى درجة الهمجية ليس في المجتمع فحسب بل داخل الحزب ذاته. هذه أسئلة مشروعة ولا يجوز في رأيي معالجتها أو الإجابة عنها إجابات تبريرية، كما لا يجوز اتخاذها منصة للتشهير والتكويع وكأن الدعوة البعثية العفلقية باطلة جملة وتفصيلاً. لا، الأمر ليس كذلك. فما كان عفلق يعتبر أن كل من انتسب الى حزب «البعث» بعثياً. بل كان يعتبر كل حالة نضالية في الأمة تعبيراً عن «البعث» كما يراه حتى لو كانت لا تمت بصلة الى الحزب. كان يعتبر النضال الفلسطيني الساعي الى التحرير حقيقةً نضالاً بعثياً. وكذلك جوانب من الثورة الجزائرية والثورة المصرية. بل كان شديد القسوة على البعثيين المتسلقين بما يشبه القاعدة المحمدية المعروفة: «لا تقولوا آمنّا بل قولوا أسلمنا». قولوا دخلنا في حزب البعث لمآرب غير بعث الأمة. ولذلك كنت أشعر، وكان يعرف، أنني أقرب الى روحية البعث كما فهمها هو من كثيرين من الحزبيين.

وفي أحاديثي اللاحقة مع صلاح الدين البيطار في باريس من 1976 الى 1978 كان من مآخذه الأساسية على ميشال عفلق أنه لم يميز نفسه بما فيه الكفاية عن حالة الاستئثار الحزبي الرافضة للتعددية الصحيحة. وأبلغني أنه كان يقول لعفلق في دمشق بعد حكم الانفصال وقبل حكم الاستئثار، إنه من الأفضل والأجدى أن يكون لنا عشرة في المائة من شركة ناجحة ورابحة، من أن يكون لنا مائة في المائة من شركة فاشلة وخاسرة ومفلسة أو آيلة الى الإفلاس. أي أن تكون لنا مشاركة فاعلة مع الآخرين على خطوط تفاهم عريضة تنشأ منها حياة سياسية ووطنية ديموقراطية صحيحة، أجدى وأنفع للأمة من استبعاد جميع

الآخرين وحماية هذا الاستئثار بالقوة والسير في اتجاه الديكتاتورية.

وكما في مسألة السياسة الوطنية والحريات كذلك في مسألة الوحدة. ذلك أن الانطباع الشائع أن خلاف حزب البعث مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر هو سبب انهيار الوحدة السورية ـ المصرية، وأن البعث يعادي الحركة الناصرية، وأنه وافق على الانفصال ضمنياً وعملياً وإن لم يكن علنياً ونظرياً.

في هذا الكلام شيء من الصحة وكثير من المغالطات. ولا أريد هنا أن أدخل في نقاش عقيم حول تلك المغالطات، بل أكتفي بإيضاح نقطتين تتعلقان تحديداً بموقف ميشال عفلق من مسألة الوحدة. النقطة الأولى حول تركيز عفلق على الوحدة مع مصر بالذات باعتبارها تشكل نقلة نوعية لا تستطيع تلبيتها أي وحدة أخرى بين أي بلدين عربيين آخرين أو أكثر. الوحدة السورية ـ المصرية هي في نظره كانت «الانقلاب النوعي في الوضع العربي»، وأي وحدة أخرى هي حالة محدودة لا يمكن رفضها لكنه لا يمكن التعويل عليها. (مثل وحدة الجزيرة العربية بقيادة عبد العزيز آل سعود، أو الوحدة بين جنوب اليمن وشماله بقيادة علي عبد الله صالح). هذا في الأساس النظري والواقعي. أما على الصعيد العملي والتطبيقي، فإن النقطة الثانية توضح موقف ميشال عفلق من مسألة الوحدة في المطلق، ومن الوحدة السورية ـ المصرية على وجه التحديد.

فحول مسألة الوحدة العربية في المطلق، كان يقول إن الوحدة ليست مجرد تجميع الأقطار ولصقها بعضها ببعض تحت حكومة واحدة كما يتصور كثيرون، بل لكي تكون وحدة حقيقية تصل الى أهدافها المرجوة فإنها يجب أن تكون مصهراً للشعوب مولداً لهوية ثقافية جامعة. أما حول الوحدة السورية ـ المصرية تحديداً فإنه دعا حزب البعث في مطلع كانون الأول/ديسمبر من عام 1957 الى التقدم في البرلمان السوري بمشروع قانون يدعو الى إقامة «اتحاد فيدرالي» مع مصر. ولذلك يمكن القول بأنه لم يكن مستسيغاً للطريقة التي تم فيها على عجل «لصق» القطرين السوري والمصري بغراء غير متين ومحكوم مع الوقت بالانفكاك. فالانقلاب الانفصالي الذي جرى في سوريا لاحقاً هو نتيجة حتمية للطريقة التي تمت فيها تجربة الوحدة.

•••

كانت تلك المرحلة التي انتهت بإبعاد الرئيس أحمد حسن البكر بعد المجزرة الحزبية التي رافقت مسرحية استيلاء صدام حسين على السلطة المطلقة في بغداد، بالغة التعقيد وسوف أحاول ما استطعت أن أقدم هنا تفسيري الشخصي لها بصرف النظر عن الروايات الرسمية وغير الرسمية التي رافقتها أو أعقبتها، أو تلك التي اطلعت عليها وتلك التي لم أطلع عليها. فمن خلال المعاتبة الخاصة التي جرت بحضوري بين عضو في الوفد السوري الى القمة العربية السابعة في العاصمة المغربية الرباط عام 1974، وبين الوزير العراقي

طارق عزيز العضو في وفد بلاده الى تلك القمة برئاسة صدام حسين، كما أشرت سابقاً، أيقنت أن هناك مراسلة مهمة جرت بين الرئيسين العراقي والسوري، وأن تلك المراسلة قطعها الرئيس حافظ الأسد، لأن الرئيس البكر أطلع آخرين عليها في بغداد ومنهم صدام حسين.

وفي تقديري الشخصي أنه مع تسارع التطورات التالية التي أطلقتها زيارة الرئيس المصري الى القدس المحتلة ولقاءاته مع القادة الإسرائيليين، أيقن الرئيس البكر أنه لا بد من العودة الى الحوار والتلاقي مع الرئيس السوري حافظ الأسد بحجة الوقوف في وجه تداعيات التوجهات الساداتية. وفي الوقت ذاته أيقن صدام حسين أن هذا التلاقي الجديد بين بغداد ودمشق موجه ضده في الدرجة الأولى، لا سيما وأن الرئيس البكر في مباحثات «ميثاق العمل القومي» وافق على أن تكون الصدارة في هذا التجمع المرتقب للرئيس السوري.

بل إن الرئيس حافظ الأسد كشف بعد سنوات أن ميثاق العمل القومي تضمن إقامة وحدة بين سوريا والعراق، وأنه تم وضع دستور لهذه الدولة الموحدة، وأنه كان يفترض أن تقوم الوحدة في وقت قريب بعد الاتفاق، لكنه فوجيء بالانقلاب الذي جرى في بغداد واتهام سوريا بالوقوف وراء مؤامرة لإطاحة النظام العراقي. ويبدو أن السوريين في ذلك الوقت أخذوا مسألة الوحدة مع العراق على محمل الجد، ولفتني أخيراً أن وزير الخارجية اللبناني وقتها فؤاد بطرس الذي قال في كتاب مذكراته بعد مرور ثلاثين سنة على تلك المرحلة: «واللافت في تلك الفترة أن السوريين كانوا منشغلين بالمباحثات حول الوحدة مع العراق، وبقضاياهم الداخلية، ويهملون الى حد ما لبنان وتفاصيل ما يجري فيه»[13]. والقراءة الأقرب الى المعقول في كل ذلك هي أن الرئيس البكر بات في وضع حرج بسبب توسع سيطرة صدام على الحزب ومرافق الدولة، وأيقن متأخراً ضرورة إبعاد صدام عن السلطة، ولم يكن متيسراً له من فرصة أو مناسبة متاحة سوى استغلال الحالة الناشئة بسبب زيارة السادات الى القدس المحتلة، فسرّع بالتقارب مع سوريا لأن الوحدة السورية ـ العراقية هي السبيل الوحيد المتبقي أمامه للتخلص من صدام حسين وإعادة توحيد حزب البعث واستقطاب قدامى البعثيين وعلى رأسهم ميشال عفلق.

لكن صدام حسين كان قد بدأ يغزل خيوطاً مع الأميركيين منذ زيارة المصرفي الأميركي العالمي دايفيد روكفلر الى بغداد ولقائه نائب الرئيس العراقي في عام 1975 بتكليف من هنري كيسنجر. وبدأ يتضح شيئاً فشيئاً أن لقاء صدام ـ روكفلر هو الذي حدد مسار النظام العراقي اللاحق، بما في ذلك صعود صدام حسين الى قمة السلطة وصولاً الى الحرب مع الجمهورية الإسلامية في إيران،

---

(13) فؤاد بطرس، «المذكرات»، مدخل خليل رامز سركيس، إعداد أنطوان سعد، منشورات «دار النهار»، كانون الثاني 2009، الصفحة 354.

ثم حرب الكويت. وعلمت لاحقاً من بعض الزملاء الأردنيين أن الملك حسين لعب دوراً مهماً وأساسياً كحلقة وصل بين واشنطن ولندن من جهة وبين صدام حسين من جهة ثانية. وقد يكون أن الملك حسين هو الذي أعطى الضوء الأخضر لصدام للانقضاض على السلطة في صيف عام 1979، لأنه قبل يوم أو يومين فقط من إعلان صدام عن «المؤامرة» السورية المزعومة في الاجتماع الحزبي الذي جرت فيه تصفية القيادات الحزبية، تم لقاء سري بين الملك حسين وصدام على الحدود بين البلدين. ويبدو أن الرئيس السوري حافظ الأسد قد علم بالاجتماع المذكور فحاول أن يحذر عضو القيادة العراقية عدنان الحمداني الذي كان في زيارته حاملاً له رسالة من الرئيس البكر بنصحه بأن يبقى في دمشق بعض الوقت، لكن الحمداني أصر على العودة الى بغداد حيث كان الإعدام ينتظره في اليوم التالي. وفي هذا الإطار يمكن القول بأن التصفيات المذكورة شملت ميشال عفلق وأحمد حسن البكر أيضاً من الناحية العملية، لأن وجودهما أسيرين في يد صدام حسين كان مجرد «تسهيل» للنظام الجديد في بغداد بإضفاء الشرعية الصورية عليه. وقد بدا ذلك جلياً في صورة افتتاح المبنى الجديد للقيادة القومية بعد «وجبة» الإعدامات مباشرة ليعطي انطباعاً بأن عفلق والبكر موافقان على ما جرى خلافاً للواقع.

•••

إن الموضوع الأهم المُساء فهمه وتظهيره عن قصد أحياناً وعن غير قصد أو عن جهل أحياناً أخرى، هو ميشال عفلق والإسلام، ابتداء من خطابه على مدرج جامعة دمشق في ذكرى الرسول العربي عام 1943، وانتهاء بإعلان نظام صدام حسين اعتناقه الدين الإسلامي بعد وفاته في 1989، وإجراء مراسم جنازته في بغداد حسب الطقوس الإسلامية. وعندما كتبت مقالتي في مجلة «سوراقيا» صيف 1989 بعنوان «ميشال عفلق في ذمة الإسلام»، فعلت ذلك بشيء من الانفعال نظراً الى التشويه الذي أظهره ذلك الإخراج الطقسي المفتعل بأفكار عفلق الحقيقية حول الإسلام. بل إن بعض الأصدقاء وبعض قدامى البعثيين، أمثال الصديق الراحل منذر الموصلي، ألمح الى أن مقالتي تلك فيها خيوط طائفية رفيعة لكونها رد فعل عالي النبرة.

ولهذا أريد هنا أن أوجز الموقف الأساسي لميشال عفلق من الإسلام كما تجمع لدي من خلال أحاديثي السابقة معه في بيروت. فعندما كان عفلق يتكلم معي عن الإسلام لم يكن يقصد هذا الإسلام القائم بكل تفرعاته ومندرجاته وطقوسه، بل كان يعتبر هذا الإسلام، بواقعه الراهن، مرضاً من الأمراض العديدة المستشرية في الأمة. فالإسلام عنده هو الحالة المحمدية التي استنهضها الرسول العربي في روح الأمة، وكان يطلق عليه عبارة «دين محمد». وقد اختصر ذلك بكلمته: «كان محمد كل العرب، فليكن كل العرب محمداً».

أما الإسلام الراهن فهو صيغة للعيش في الماضي لا يعبر عن مستقبل الأمة ذات الرسالة الخالدة. فهو كان يحلم بأن يكون «البعث العربي الإشتراكي» هو «الإسلام الجديد» ليؤدي الرسالة التي عبر عنها في مرحلة سابقة دين محمد. فالإسلام له ما قبله كتعبير عن روح الأمة، وسوف يكون له ما بعده، بل تجسد فيه من ضمنه ما بعده في فترات معينة. وكان يعتبر أن البعث هو واحد من هذا الما بعد من ضمنه.

كان يرى أن هناك جذوة مشتركة تحرك روح الأمة لأداء رسالتها بين نقاط الضوء في الأمة قديماً وحديثاً، من شريعة حمورابي، الى الشعر الجاهلي، الى دين محمد، الى انطلاق الثقافة العربية من عقالها في عصر المأمون، الى النهضة العربية الحديثة المتمثلة بالإحياء العربي ومقاومة الاستعمار والصهيونية. هذه كلها تعابير عن روح الأمة في أزمان مختلفة ومتباعدة، ولها هدف واحد على الرغم من فترات الإنقطاع الطويلة، وما لحق بها من تشوهات وانحرافات بفعل عوامل كثيرة منها غلبة الشكل على الجوهر.

فكل حالة من هذه الحالات، بما فيها الإسلام المحمدي، هي عملية إفصاح للأمة عن جوهرها بما يؤكد شعورها بالحياة والترقي، وليس هناك من نمط واحد أو معين لهذا الإفصاح، بل هو إفصاح متعدد ومتنوع. وأي نمط يحتكر هذه العملية لوحده، فلا قبله ولا بعده، إنما يسد الباب في وجه التقدم والإفصاح الجديد الآتي معه عن روح الحياة في الأمة وعن رسالتها الخالدة.

وعندما تكون الأمة في واقع سيء، مواقفها منفعلة ومتنازلة عن مرتبتها الأصلية بين الأمم، فإن التعبير عن عدم الاعتراف بالواقع السيء للأمة هو في تلك الرسالة الخالدة التي اكتسبت صفة الخلود لأنها تذكر الأمة مهما بلغ فيها الانحطاط بأن لديها دائماً الكفاءة والجدارة لاسترجاع تلك المرتبة التي فقدتها مؤقتاً. فالإسلام كما أفصح عن نفسه بـ«دين محمد» هو في جوهره وفي زمانه استرجاع لتلك المرتبة. وكل من يسترجع، أو يحاول استرجاع، تلك المرتبة بعد أي انحطاط هو محمدي بهذا المعنى ولو لم يكن مسلماً بالشعائر.

فالرسالة الخالدة للأمة العربية هي انتفاضة دائمة عندما يطغى الجهل على العلم، وعندما تطغى المادة على الروح، وعندما يطغى الظلم والتعسف على العدل والإنصاف، وعندما يطغى الاستعباد على التحرر، وعندما يطغى الاستعلاء على المساواة، وعندما يطغى أي شكل أو مظهر خارجي على جوهر الأمة وحقيقتها الداخلية.

وبقدر ما يتحرر العرب تعبيراً عن هذه الرسالة، بقدر ما يسهمون في تحرير العالم وبقية الأمم. وبين تحرر العرب من أثقالهم وعيوبهم وبين تحرر العالم من انحرافاته علاقة جدلية تنبيء في محصلتها بأن العالم لن ينعم بالتحرر إذا لم ينعم به العرب. والواقع العربي الأليم اليوم هو تذكير بالواقع السيء للعالم

الراهن. ذلك أن الأمة العربية في هذا الزمان هي ضحية أكبر ظلم عرفه التاريخ، ولذلك فإن رسالتها الدافعة لنضالها بحجم الظلم يجب أن تكون من أجل تحرير العرب من هذا الظلم الواقع عليهم بهدف تحرير العالم من المظالم التي فرضها عليهم وعلى بقية الأمم. ولذلك فإن النضال العربي من أجل تحقيق الوحدة والتعبير عن الرسالة الخالدة، محكوم بأن يلتقي مع كل نضال إنساني في العالم من أجل قضايا التحرر على اختلافها.

وبالقياس ذاته يمكن النظر الى المسألة اللبنانية، بل إن ميشال عفلق استشرفها منذ زمان طويل قبل نشوء جدلية لبنان والعروبة، كما عبر عنها في مقاله المعروف بهذا العنوان، والذي أعدت نشره في مجلة «الأحرار» يوم كنت أرأس تحريرها في عام 1969، وفيه طرح مقولته الشهيرة: «إن مشكلة العروبة في لبنان هي مشكلة تقدمية العروبة». ولذلك يمكن القول الآن، حسب القياس الفكري الذي وضعه عفلق عن الوضع العربي إزاء العالم، بأن الوضع السيء الذي عاشه ويعيشه لبنان الآن هو تذكير بالواقع المرير في العالم العربي، ولا سيما الواقع الإسلامي.

هذا باختصار هو إسلام ميشال عفلق، كما فهمته منه، سواء صح، أم لم يصح، ما ادعاه نظام صدام حسين عن اعتناقه الإسلام تبريراً لجنازة إسلامية على الطقوس البغدادية، لأن ذلك يبقى في الشكل ولا يلامس الجوهر.

•••

يمكن القول بأن الكثير من أفكار ميشال عفلق، في مسألة الإسلام وحتى في مسألة العروبة، جعله في غربة داخل حزبه، لكنه لم يكن قط في عزلة. ومن ذلك مثلاً، أنه كان يفهم ازدواجية المعايير للقائلين بالتركيز على التجارب القطرية، أو نقطة الارتكاز في قطر واحد، لكنه كان قاطعاً في رفض المنحى القطري، ولو كان هناك ما يبرره مرحلياً. فقد قال لي مرة إن البعض يفضل الحديث عن سوريا أو عن العراق (حيث الحكم يحمل اسم الحزب) لاستبعاد الحديث عن العروبة والوحدة العربية ليس فقط بدافع انتهازي، بل بقناعة أصلية أساسها أن الالتزام القومي يرتب عليهم تبعات ومسؤوليات ثقيلة.

وبالعودة الى ما ذكرته سابقاً عن بعض المناقشات الفلسفية حول نظرية هيردر في استشعار التاريخ وتقاطعه مع فكرة ميشال عفلق حول العاطفة القومية ووصفه القومية بأنها حب في الدرجة الأولى، أود التأكيد هنا بأن عفلق كان يرفض اعتبار ذلك توجهاً رومانسياً، بل كان يصر على قوامه العقلاني أولاً. ومن ملامح هذه العقلانية، مثلاً، أنه على الرغم من موقفه القاطع في المسألة القومية، فقد كان شديد الارتياب بالمعايير المطلقة وبالقائلين بها على قاعدة «كل شيء أو لا شيء». فقد يتعايش مع الأمر الواقع، لكنه لا يقبل به، وإلاّ فإن حركته تفقد دوافعها الثورية. بل إن الأساس النظري للفكرة القومية يمكن أن

يتبدد في الصراع من أجل تحقيقها في الواقع. وهذا الصراع بحد ذاته يكون أقوى من المنطلقات النظرية، إذا اتخذت تلك المنطلقات مختبراً آخر لها غير مختبر الواقع المطلوب تغييره بفعل تلك المنطلقات في وجدان الأمة.

والأمر الآخر المكمل لهذه العقلانية في تفكيره هو ارتيابه بانتشار الانتقائية في المفاهيم السياسية السائدة في حزبه وفي الأحـزاب القومية الأخـرى. وكان يشعر، وأنا أوافقه في هذا الشعور، بأن تلك الانتقائية عند كثيرين ممن نعرفهم في تلك الحركات، هي مدخل للانتفاع الذاتي بغلاف عقائدي في الأمور المنتقاة، من خلال تطويع اللغة بمفردات حمّالة للأوجه، فنشأ داخل الحركات القومية ما يمكننا تسميته «البيزنس القومي»، أو المتاجرة بالشأن القومي لمنافع مادية أو غير مادية. ولسنا هنا بحاجة الى استعراض الحالات والأشخاص الذين انقلبوا على مبادئهم واعتنقوا مبادىء مخالفة، أو وصلوا الى درجة اعتبار العدو صديقاً والصديق عدواً. هؤلاء الشهود على فساد النخب الثقافية العربية أكثر من أن يستوعبهم أي كتاب أو دليل أو معجم.

ومن نافل القول بأن ما انطبق على الحركات القومية في النصف الثاني من القرن العشرين، ينطبق بشكل أوضح وأوسع مدى على الحركات الإسلامية التي تتصدر المشهد السياسي والعقائدي الدارج في هذه الأيام.

IV

لبنانيون ضدّ لبنان



I

من بغداد الى موسكو

آلمني كثيراً ما سمعته من ميشال عفلق في ذلك اللقاء المتوتر في قصر الرشيد. شعرت بالانقباض لأنه تناولني شخصياً بشيء لا قيمة له، لكن ما جعلني حزيناً ونادماً على ذلك اللقاء هو مشاهدتي بالعين المجردة كيف أصبح مؤسس حزب «البعث» أسيراً في نظام يتخذ منه غطاءً. ثم تفكرت ملياً في تمني ناصيف عواد علي بأن لا أبوح لأحد بمضمون ما دار من حديث بين عفلق وبيني لوحدنا في قصر الرشيد، فأيقنت عندها إن ما تفوه به الأمين العام للحزب أمام شخص غير معني بالأمر قد تكون له مفاعيل غير محمودة العواقب. ولهذا التزمت تماماً بما طلبه عواد مني فلم أبلغ أحداً في بغداد عنه لا من قريب ولا من بعيد، وكأن شيئاً لم يكن. ولست أظن أن آخرين كانوا ساهين عنه، لأن هؤلاء يعرفون الأشياء من الداخل.

وأن يقتصر زوار عفلق في ذلك اليوم الخاص، يوم عيد الحزب، عليّ وعلى ناصيف عواد وطارق عزيز وعبد الوهاب الكيالي، أمر فيه دلالات معينة. بل فيه تظهير لحقيقة العزلة المفروضة عليه. تجمعنا نحن الأربعة صفة صحافية بشكل أو آخر، وثلاثة منا لسنا مسلمين.

ولذلك تريثت ثلاثة أيام قبل ممارسة أي نشاط ملحوظ في العاصمة العراقية. وفي اليوم الرابع، أي في الحادي عشر من نيسان/أبريل توجهت الى وزارة الإعلام حيث قابلت الوزير طارق عزيز لفترة امتدت أكثر من ساعة كانت حافلة بالمفاجآت.

•••

في البداية تحدثنا عن الوضع في جريدة «بيروت» وعن وضعي الشخصي فيها فكنت متحفظاً في حديثي عن الموضوع، لكنه فوجىء عندما علم بالترتيب المالي المنخفض جداً الذي أعمل في إطاره ووعد بتصحيحه.

ثم حدثني عن اتفاق الجزائر بين نائب الرئيس صدام حسين وبين شاه إيران لإعادة ترسيم الحدود بين البلدين وانهاء الدعم الإيراني للتمرد الكردي بقيادة الملا مصطفى البارزاني، مما أدى بالفعل الى انهيار ذلك التمرد. ولم يكن قد

مضى على ذلك الاتفاق عندما زرت طارق عزيز سوى شهر فقط[1].

طبعاً، انهيار التمرد الكردي في شمال العراق أحدث انفراجاً كبيراً للنظام العراقي، لكن انعكاساته الإقليمية والدولية كانت أبعد مدى. وكنت أظن في البداية أن النظام العراقي سعى الى الاتفاق مع الشاه لأن الجيش العراقي بدأ يلاقي متاعب في حرب الأكراد بسبب النقص في المعدات والذخائر المرتبطة بالموافقة السوفياتية. وزادت قناعتي هذه عندما أبلغني طارق عزيز أن «السيد النائب» سوف يزور موسكو بعد يومين (في الثالث عشر من نيسان/أبريل). ولما سألته ما إذا كان لهذه الزيارة علاقة بالتمرد الكردي والاتفاق مع شاه إيران، فاجأني بقوله إن الزيارة تتعلق بخلاف مع سوريا حول اقتسام مياه نهر الفرات، وإن السوريين حجزوا في سدودهم كميات من المياه عائدة الى العراق، وإن الغاية من الزيارة توسيط السوفيات للإفراج عن تلك المياه.

وفاجأني مرة أخرى عندما سألني ما إذا كنت أرغب في السفر مع صدام الى موسكو لكي يجري لي الترتيبات اللازمة، فترددت للحظة ثم تذرعت بأنه ليس معي ملابس شتوية ولا معطف يقي من البرد، فقال لي: «إرجع الى بيروت واحضر ما يلزمك من ملابس وعد قبل الموعد المحدد». أحسست في كلامه رغبة في أن أكون في عداد الوفد، فوافقت على الفكرة، لكنه لم يقل لي إن هناك صحافيين آخرين سوف ينضمون الينا.

•••

كان الانطباع السائد لدي أن إسرائيل خرقت جدار الأمن العراقي من الشمال بدعمها للتمرد الكردي من خلال شاه إيران، وهذا الانطباع كان صحيحاً وحقيقياً، وما زال الخرق الإسرائيلي للعراق من الشمال قائماً حتى اليوم. لكن محادثتي مع طارق عزيز حول الموضوع في ذلك اليوم فتحت أمامي نوافذ للإطلال على الوضع الإقليمي في تلك المرحلة لم تكن في الحسبان. وبهذا المنظار الجديد أخذت أقلّب في رأسي من جديد معنى دعوة السفير الإيراني في بيروت، منصور قدر، لي بعد أيام من توقيع اتفاق الجزائر وحديثه عن امتلاك دول المنطقة لمقدراتها بعيداً عن الإرادات الخارجية.

فوجئت بما قاله لي طارق عزيز، لكنني لم أستغربه في ضوء المحادثة المذكورة مع السفير منصور قدر. فقد قال لي إن المبادرة الى الاتفاق لم تكن من العراقيين كما تبادر الى أذهان كثيرين، بل جاءت من شاه إيران نفسه. وكان

---

(1) تم توقيع الاتفاق يوم السادس من آذار/مارس 1975. لكن التوقيع بحضور الرئيس الجزائري هواري بومدين كان بالأحرف الأولى. أما المعاهدة التفصيلية فقد تم توقيعها تالياً بين وزير الخارجية العراقي سعدون حمادي ووزير الخارجية الإيراني عباس علي خلعتبري الذي أعدمته الثورة الإيرانية عام 1979 بتهمة تقديم غطاء الخارجية الإيرانية لعملاء «السافاك» والمخابرات المركزية الأميركية. ويقال إن رئيس الحكومة الإيرانية آنذاك مهدي بازركان تدخل لدى الخميني في قم لمنع إعدامه لكنه لم ينجح في ذلك. وخلعتبري أستاذ في القانون متخرج من جامعة «السوربون» في باريس.

العراقيون يتوقعون أن تُشنّ ضدهم حملات إعلامية، خصوصاً في بيروت، بحجة التفريط بحقوق العراق كثمن لسحب الدعم الإيراني من التمرد الكردي. وهنا فهمت مغزى إيفادهم سعد قاسم حمودي الى العاصمة اللبنانية قبل أيام لإجراء اتصالات مع الصحافة اللبنانية النافذة، وهي الزيارة التي قطعها اغتيال الملك السعودي فيصل بن عبد العزيز، كما مر في فصل سابق. بل إن الخيال شطح بي، من غير أن أفاتح طارق عزيز بظنوني، الى تصوّر وجود علاقة ما بين اغتيال الملك فيصل وبين توقيع المعاهدة الإيرانية ـ العراقية، لأن تلك المعاهدة أحدثت ذعراً في الخليج خوفاً من قيام نظام إقليمي جديد لغير مصلحة الخليجيين، أو لاقتسام النفوذ في الإقليم. ولم يكن ذلك بعيداً عن الواقع، لأن ولي العهد السعودي الجديد، فهد بن عبد العزيز، الرجل القوي في عهد الملك خالد بن عبد العزيز خليفة الملك فيصل، عكف على سياسة تقارب مع صدام حسين في محاولة لاحتوائه، وهو التقارب الذي كانت له مفاعيل مهمة تمهيداً للحرب العراقية ـ الإيرانية بعد قيام الثورة الخمينية في إيران، ثم توقيع معاهدة عدم الاعتداء بين صدام والملك فهد قبيل الاجتياح العراقي للكويت في مطلع تسعينات القرن الماضي[2].

ولست هنا في معرض التأريخ لهذه الحقبة أو للعلاقات السعودية ـ العراقية، لكنني أريد أن أوضح النقاط التي تلمستها بنفسي في تلك المرحلة المعقدة والمتشابكة داخل أقطار المنطقة وفيما بينها. وما كان متطابقاً بين ما سمعته من السفير الإيراني منصور قدر، وما سمعته من الوزير العراقي طارق عزيز، هو أن اتفاق الجزائر بين شاه إيران وبين نائب الرئيس العراقي على هامش مؤتمر لمنظمة الدول المنتجة والمصدرة للنفط (أوبيك)، تم بمعزل عن الدول العظمى، بصرف النظر عن الفريق المبادر الى الاتفاق. ففي ذلك الوقت كان الشاه هو اللاعب الأول على المسرح النفطي العالمي، وهو الذي بدأ موجة رفع أسعار النفط وفك قبضة الشركات الأجنبية على الصادرات النفطية، وحاول ترشيد الاستخدامات الاستهلاكية لها، بوصفه للنفط بأنه «مادة نبيلة». ولذلك كان مؤتمر «أوبيك» غطاءً مثالياً لتهريب الاتفاق الإيراني ـ العراقي عن أنظار الدول الكبرى وربما دول أخرى أيضاً.

وما جعلني أصدق أن الاتفاق كان بمبادرة من الشاه نفسه، هو الطريقة التي تم بها. فقد عجبت كيف أن رجلاً مثل الشاه محمد رضا بهلوي يرى نفسه فوق

---

(2) تم توقيع معاهدة عدم الاعتداء بين صدام حسين والملك فهد في شهر نيسان/أبريل من عام 1989. وكانت غاية صدام الضمنية من تلك المعاهدة اقتسام النفوذ في الخليج بين العراق والسعودية، وهو ما كان شاه إيران يتوخاه من المعاهدة مع صدام. ويقال إن صدام حسين فاتح الملك فهد بذلك صراحة، حيث قيل إنه كان يتوخى اقتسام الكويت مع السعودية، لكن بعضهم نقل عن العاهل السعودي الراحل أن صدام كان يمازحه بملاحظة عابرة من هذا النوع. وهناك من يعتقد بأن صدام حسين توخى من المعاهدة مع الملك فهد تحييد السعودية في حال إقدامه على ضم الكويت.

البشر، وفوق الملوك والرؤساء، كما ظهرت صورته على الملأ في احتفالات «بيرسيبوليس» قبل أقل من أربع سنوات[3] تنازل ووافق على التعاطي بصورة ندِّية ومباشرة مع شخص أدنى منه رتبة، لأن صدام حسين في ذلك الوقت لم يكن رئيس دولة.

•••

في هذا الإطار لم أكن من أصحاب الرأي السائد بأن تلك المعاهدة انطوت على تنازلات خطيرة في مياه شط العرب، أو على تنازلات عراقية تمس بسيادة العراق، كما حاولت الحملات الإعلامية المعادية تصوير الأمر، باعتبار أن النظام العراقي دفع ثمناً للشاه لقاء تخليه عن الأكراد المتمردين الذين أتعبوه وأنهكوه. ذلك أن أحد الاعتبارات الأساسية التي دفعت الشاه نحو التفاهم مع العراق هو خوف الحكم الإيراني من امتداد التمرد في شمال العراق الى المناطق الكردية المجاورة في إيران. في هذه النقطة هناك تقاطع واضح في المصالح والأهداف.

لكن النقطة الأهم في نظري، وكما تكونت لدي من اللقاء مع السفير الإيراني منصور قدر في بيروت، ثم مع طارق عزيز في بغداد، هي أن الاتفاق تم بمعزل عن الدول الكبرى ومن غير علمهم. فالأميركيون علموا به متأخرين وعن غير طريق العراقيين والإيرانيين. والملفت أن الأميركيين عندما علموا بالأمر لم يحركوا ساكناً، بل إنهم لم يبلِّغوا الإسرائيليين الذين كانوا طرفاً مباشراً في الحرب الكردية في شمال العراق. ولذلك جن جنونهم ضد الأميركيين بعد انهيار التمرد الكردي، وكانوا أكثر انفعالاً ضد شاه إيران الذي كانوا يعتبرونه حليفاً موثوقاً ويتدخلون في العراق عن طريقه. وهذا ما دفع بعض المحللين في حينه الى التعليق على ذلك بالقول بأن اتفاق الجزائر لم يكن خيانة من الشاه للأكراد، بل خيانة لإسرائيل[4]!

---

(3) احتفالات «بيرسوبوليس» أقامها الشاه محمد رضا بهلوي بين 12 و 16 تشرين الأول أكتوبر من عام 1971 على أرض المدينة القديمة المعروفة بهذا الإسم ودعا اليها كبار ملوك ورؤساء العالم بمناسبة مرور 2500 سنة على تأسيس الإمبراطورية الإخمينية بقيادة قورش الكبير في القرن السادس قبل الميلاد (529 ق.م). وهذه الكلمة يونانية مرادفها في اللغة الفارسية القديمة «پارسا»، أي «مدينة الفرس»، وهي تعرف الآن باسم «تخت جمشيد». وكان قدامى الفرس يتخذون من بيرسيبوليس عاصمة لاحتفالاتهم الرسمية، وخصوصاً أعياد النصر. وقد ضمت الإمبراطورية الإخمينية التي أسسها قورش الكبير كل الشرق الأدنى ومعظم جنوب غرب آسيا، فامتدت من البحر المتوسط ومضيق الدردنيل غرباً الى نهر السند شرقاً. ومن بعده توسع ابنه قمبيز فاحتل مصر والنوبة ومنطقة برقة في ليبيا الحالية التي عاصمتها مدينة بنغازي، فكانت في زمانها أضخم امبراطورية عرفها الشرق القديم في تاريخه.

(4) هناك رأي مخالف تماماً يقول بأن الأميركيين عندما علموا برغبة الشاه في الاتفاق مع العراقيين حاولوا عرقلة الاتفاق، وأن الإسرائيليين كانوا يشجعون الشاه على التظاهر بالابتعاد عن أميركا وإسرائيل تسهيلاً لتقاربه مع العرب. وفي هذا الموضوع يقول الصحافي السوري نذير فنصة الذي عمل لأكثر من عقدين مستشاراً لدى النظام الشاهنشاهي في طهران، والذي لعب دوراً

هذه المؤشرات تنبىء بأن الشاه عندما قرر عقد الاتفاق مع صدام حسين، بمعزل عن القوى الدولية، كان عاكفاً على سياسة إيرانية جديدة تجاه العالم العربي لم تكتمل معالمها بسبب التحولات الداخلية في بلاده من جهة، وبسبب المخاوف الأميركية والإسرائيلية من التفاهم الإيراني ـ العربي بمعزل عنهم. فالمعادلة الإسرائيلية في الموضوع واضحة، وهي أن اقتراب إيران من العرب يعني ابتعادها عن إسرائيل. وقد أيقن الإسرائيليون ذلك عندما قرر شاه إيران بعد أشهر قليلة من اتفاق الجزائر مع صدام حسين التصويت في الأمم المتحدة بتأييد القرار الأممي الذي يساوي بين الصهيونية والعنصرية المتخذ في الجمعية العامة للمنظمة الدولية بتاريخ العاشر من تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1975. حكومة الشاه في طهران صوتت بوضوح ضد أميركا وإسرائيل في الأمم المتحدة.

وقبل أن يبلغني طارق عزيز بأن زيارة صدام الى موسكو يوم 13 نيسان/أبريل 1975 تتعلق بمياه الفرات والخلاف مع دمشق حول الموضوع، كنت أظن أن للزيارة علاقة بشرح أسباب اتفاق الجزائر مع شاه إيران للقيادة السوفياتية. وعلى الرغم من إشارة طارق عزيز الى موضوع الزيارة على النحو المذكور، فإنني ما زلت أعتقد بأنها شملت قضايا أخرى، لأن الزيارة انقطعت فجأة قبل مرور 24 ساعة عليها مما يدل على وجود خلافات وتباينات في الموقفين العراقي والسوفياتي في ذلك الوقت[5].

فلا يستطيع المرء أن يصدق أن أمراً خطيراً من هذا النوع يمكن عزله عن السياسات الدولية، أو القيام به بمعزل عن الدول الكبرى، أو خلسة عنها أو في غفلة منها. وفي المحصلة هو اتفاق برغماتي من الشاه ومن العراق، كل منهما لغاية قد تكون مؤقتة وعابرة، وقد تكون دائمة وثابتة يمكن التأسيس عليها لبناء وضع إقليمي جديد. وهناك مؤشرات تدل على أن شاه إيران أراد الاتفاق مع العراق كمدخل لسياسة جديدة تقضي بأن تتوجه إيران نحو العالم العربي، بما يشبه التوجه التركي الجديد في عهد حكومة رجب طيب أردوغان في السنوات الأخيرة. أي استغلال الضعف العربي الناشىء من التوسع الإسرائيلي في محاولة لتكوين قيادة للعالم العربي من خارجه وتكون في صلبه

في التمهيد للاتفاق مع السناتور مسعودي، كما جاء في كتابه بعنوان «طهران مصير الغرب: من عهد الشاه الى جمهورية آيات الله»، باريس، 1988، الصفحة 46: «حتى أن الموساد الإسرائيلي (جهاز المخابرات الإسرائيلية) الذي شعر بالروابط الناشئة بين منظمة التحرير الفلسطينية والإمام الخميني، ذهب سنة 1976 الى نصح الشاه بالحد من روابطه مع أميركا وإسرائيل». وكان الخميني في تلك المرحلة ما زال منفياً الى النجف حيث الحوزة العلمية الشيعية في العراق.

(5) هذا الرأي أيضاً يؤكده نذير فنصة في كتابه المشار اليه، حيث يقول في الصفحة 137 منه: «السوفيات لم يروا بعين الرضا التقارب الذي حصل بين بغداد وطهران غداة توقيع اتفاق الجزائر في عام 1975».

وفي جـواره. وكاد الإسلاميون الأتـراك أن ينجحوا في ذلك بسبب دخولهم من الباب الإسلامي، وهو باب ما كان الشاه ليستطيع ولوجه بسبب طبيعة نظامه وعلاقاته الخارجية. لكن الثورة الإسلامية ضده بقيادة الإمام الخميني كانت أقدر من الفريقين على هذا التوجه، ومع ذلك يبقى هذا المنحى أمراً غير محسوم.

•••

في صباح اليوم التالي توجهت الى بيروت وعدت الى بغداد في اليوم ذاته حاملاً معي معطفاً سميكاً وبعض الملابس واللوازم الشتوية كما أشار طارق عزيز، وقيل لنا أن نتوجه الى المطار في اليوم التالي باكراً في الساعة السابعة صباحاً لأننا سوف نطير في الثامنة. فقمت مبكراً وتوجهت الى المطار لأجد حركة غير عادية وإجراءات أمنية مشددة، وكان هناك حشد كبير من المسؤولين ومن رؤساء البعثات الديبلوماسية المعتمدين في العراق جاءوا لتوديع «السيد النائب» بكامل المراسم. واقتضت التعليمات أن نصعد جميعاً الى الطائرة، أعضاء الوفد الرسمي والصحافيين، ويقوم بالترتيبات مسؤول للبروتوكول في الخارجية هو عبد الـودود الشيخلي. وجلسنا في مقاعدنا ننتظر قدوم نائب الرئيس. أما في الخارج على أرض مدرج المطار فقد أصطف السفراء والمبعوثون الديبلوماسيون والمسؤولون العراقيون صفاً واحـداً بالطول بمحاذاة الطائرة، وكانت هناك في المقابل بالعرض فرقة موسيقية عرفنا من عزفها أن نائب الرئيس قد وصل فرحنا نتفرج على هذا الاستعراض المبكر من شبابيك الطائرة.

وبعد قليل جاء صدام حسين على أنغام الموسيقى وراح يسلم باليد على المصطفين لوداعه من سفراء ووزراء واحداً واحداً قبل أن يصعد الى الطائرة، وهي طائرة جديدة من طراز «بوينغ». وقد جاء صدام الى المطار لابساً بدلة رمادية اللون وعلى رأسه برنيطة افرنجية سوداء كتلك التي ظهر فيها في بعض الصور وهو يطلق الرصاص من بندقية حربية على شرفة أحد المنازل في إحدى المناسبات أمام حشود شعبية. وأقول الحق إني فوجئت بهذه المراسم في الصباح الباكر، وأشفقت على المعتمدين الديبلوماسيين الذين اقتضت الضرورات البروتوكولية أن تحملهم الى المطار في تلك الساعة المبكرة لمجرد وداع مسؤول في الدولة مهما كان رفيع الشأن. ورحت أفكر بيني وبين نفسي أنه لا بد أن تكون هناك غاية من هذا الاستعراض، وكأن المقصود به تبليغ رسالة الى الدول، لأنه لا معنى لها إذا كانت مجرد مراسم اعتيادية.

وما لفتني تالياً أنه لم يكن على أرض المطار في موسكو عندما وصلنا أي استعراض من هذا النوع لا في الوصول ولا في المغادرة صبيحة اليوم التالي، بل جاء الى سلم الطائرة عند وصولها الى موسكو رئيس الحكومة السوفياتية

آنذاك أليكسي كوسيغين ومعه بعض المسؤولين الذين توجهوا مع ضيفهم الى قصر الضيافة فوراً من غير التوقف في صالون المطار. وكان عبد الودود الشيخلي قد أبلغنا قبل النزول من الطائرة أن هناك سيارة مرقمة لكل اثنين منا، لكن إذا تحرك موكب الوفد فوراً فلا ضرورة أن يبحث كل منا عن رقم سيارته، ويجب عليه أن يركب أي سيارة أخرى متواجدة لعدم إضاعة الوقت، وهكذا كان.

وكانت الطائرة العراقية مقسومة الى جناحين، الجناح الأمامي الذي يجلس فيه الوفد الرسمي وهو عبارة عن صالون فسيح يضم أرائك وثيرة كأي صالون منزلي فخم، والجناح الخلفي الذي يضم مقاعد كالمقاعد المألوفة في الطيران التجاري جلس فيها الصحافيون والمرافقون. وكان الوفد الإعلامي العراقي صغير العدد يتألف من خمسة أو ستة أعضاء يتقدمهم مدير الإذاعة والتلفزيون في ذلك الوقت لطيف نصيّف جاسم الدليمي الذي أصبح تالياً وزيراً للإعلام.

ووجدت هناك بعض الصحافيين غير العراقيين بينهم من اللبنانيين ثلاثة فقط، الزميلان أسعد المقدم وعلي هاشم وأنا. وبعد فترة من الإقلاع أطل صدام حسين علينا من مقصورته ووقف في الباب محيياً ومرحباً لكنه لم يتقدم منا للسلام علينا باليد بل اكتفى بالتحية عن بعد. وعلى الرغم من وجود أرائك مريحة ووثيرة في صالون المقصورة الرئاسية، إلا أن نائب الرئيس العراقي أحضر معه كرسياً عادياً من الخيزران المقشش ليجلس عليه، وقد برر ذلك بأنه يعاني من ألم في الظهر لا يسمح له بالجلوس على غير هذا النحو.

وبعدما عاد الى مقصورته وأغلق الستارة وراءه رحنا نتحدث عن الموضوع، الزميل أسعد المقدم وأنا، فقال لي على ما أذكر: «إن صدام له طلة مهيبة لكنه لا يستطيع أن يكون قائداً جماهيرياً مثل عبد الناصر. ومهما ظهر ودوداً يبقى لديك شعور بأنه بعيد». وأخذت هذه الملاحظة بعين الاعتبار وسجلتها، لأنني أعرف من بيروت أن أسعد المقدم له دراية بخصائص الزعماء باعتباره من قدامى الشهابيين المرموقين، وباعتباره من أبرز الصحافيين الناصريين في زمن عبد الناصر. وعندما التقينا في لندن في أواسط الثمانينات من القرن الماضي حيث كان مبعوثاً للجامعة العربية في العاصمة البريطانية تذكرنا تلك الرحلة وأعدنا توصيفها بالنظر الى الجدل القائم آنذاك حول قيادة صدام حسين للحرب مع إيران في ذلك الوقت. وعلمت تالياً أنه بعد تركه الجامعة العربية عمل بصفة استشارية لدى رئيس الحكومة اللبنانية المغدور رفيق الحريري.

•••

السيارة التي استقليتها مع علي هاشم من مطار موسكو لم تكن مخصصة للصحافيين، ولذلك لم تذهب الى الفندق، بل بقيت في موكب الوفد حتى وصوله الى قصر الضيافة. ويقوم قصر الضيافة هذا على مرتفع جميل فوق

نهر «موسكوفا» ويطل إطلالة مهيبة على الكرملين والساحة الحمراء. وهو قصر صغير تحيط به تصوينة عالية مبنية بحجر صلب وفيها بوابتان ضخمتان واحدة للدخول والثانية للخروج. وعندما دخلت سيارات الوفد الى داخل باحة القصر أقفل الحرس البوابتين ولم يعد أحد قادراً لا على الخروج ولا على الدخول.

ومع أن الربيع كان قد بدأ يطل بملامحه المزهرة في النصف الأول من شهر نيسان/أبريل، إلاّ أن الطقس كان شديد البرودة الى درجة أن المعطف السميك الذي استحضرته من بيروت لم ينفع كثيراً في رد البرد، خصوصاً أنه لم يكن لدي قبعة اعتمرها على رأسي. ومما زاد من فداحة الأمر أنه بعد دخول كوسيغين وصدام والرسميين الى القصر أغلق الباب المؤدي اليه وبقينا نحن في الخارج مكشوفين في الفناء وفي الحديقة.

وعندما عضنا البرد المسكوبي بنابه رحنا نحتج طالبين إما إدخالنا الى القصر أو فتح البوابات لنا لنخرج بسيارتنا الى الفندق فلم يفهم الروس علينا ما نقول. ولما علا ضجيجنا جاء موظف في الخارجية الروسية يتكلم اللغة العربية وتفهم شكوانا فأمر بفتح البوابة الخارجية ليسمح لسائقنا بنقلنا الى الفندق.

الفندق الذي أنزلونا فيه هو فندق «روسيا» الذي كنت أعرفه من زيارتي السابقة قبل أربع سنوات، ويقع في الطرف الآخر من فندق «ناسيونال» الذي نزلت فيه في الزيارة السابقة، والذي يطل على الساحة الحمراء حيث ضريح لينين ومنصة الاستعراضات الرسمية. وربما كان فندق «روسيا» أضخم فندق في البلاد في ذلك الوقت، بحيث أن كل طابق فيه هو فندق بحد ذاته له إدارته وترتيباته وخدماته. إنه مدينة في فندق، طوابقه بمثابة أحياء في تلك المدينة.

عندما وصلنا الى الفندق ورحنا نبحث عن حقائبنا في غرفة مخصصة لإيداع حقائب النزلاء، كان قد أصبح الوقت متأخراً بعد الظهر، وكان التعب قد حل بنا فنسينا أن نتناول أي طعام، وفضلنا أن نصعد الى غرفنا (كانت غرفتي في الطابق الخامس) لننام قليلاً ونأخذ قسطاً من الراحة. واتفقت مع الزميل علي هاشم أن نلتقي في «البار» الأنيق المطل على مطعم كبير تحته في الطابق العلوي. وبعد تلك القيلولة المريحة صعدت الى «البار»، وكانت الساعة قرابة السادسة مساء، وجدت المكان خالياً من الزبائن فآثرت الجلوس على مقعد منفرد قبالة الساقية الشابة التي تخدم هناك، وطلبت كأساً من الويسكي، فأحضرت لي كأساً مترعة وممتلئة بقطع ثلج صغيرة تتلألأ في الكأس وكأنها قطع من الماس المصقول. وقبل أن أمسك بالكأس طلبت مني ثمنها فناولتها ورقة نقدية أميركية بقيمة عشرين دولاراً، فرفضتها وقالت إنها لا تقبل غير العملة الروسية، وكانت القيمة المطلوبة روبلاً واحداً وثلاثين كوبك، وهي قيمة زهيدة لتلك الكأس المتلألئة التي كانت تستدعيني ولا سبيل للوصول اليها.

وسألتها ما الحل، فقالت أن تنزل الى الطابق الثاني حيث مكتب الصيرفة في الفندق وتبدل الدولارات بالروبلات حسب سعر الصرف الرسمي، وهو في ذلك الوقت نحو دولار ونصف الدولار للروبل الواحد.

تركت كأسي في مكانها ونزلت الى حيث مكتب الصيرفة فوجدت أمامي طابوراً من الأجانب يقفون في الصف وراء بعضهم البعض فوقفت وراءهم. وبعد عدة دقائق مضت متثاقلة وصلت الى شباك القطع وقدمت ورقة مائة دولار الى الفتاة العاملة هناك فكلمتني بلغة روسية، ولما أيقنت أنني لا أعرف الروسية قالت كلمات مبهمة بلغة إنكليزية «مطحبشة»، حسب التعبير اللبناني، فلم أفهم عليها. فتركت الشباك ودخلت الى داخل المكتب وغابت لدقائق ثم عادت ومعها رئيسها الذي يجيد اللغة الإنكليزية وطلب مني أن أريه ورقة التصريح الجمركي التي يملأها القادمون الى البلاد عن مبالغ العملات الأجنبية التي يدخلونها معهم. فقلت للرجل إنه لا توجد معي ورقة من هذا النوع، لكن معي جواز سفري، فأخذه مني ووجده أيضاً غير مختوم بختم الدخول، فقال متعجباً: «وكيف دخلت الى البلاد إذن؟». وكان صبري قد نفد تقريباً، فألقيت عليه محاضرة عن الصراع العربي ـ الإسرائيلي، وعن الصراع العربي ـ الكردي، وعن الصراع العراقي ـ السوري الذي قادني مع صدام حسين الى هذا المأزق المتعلق بكأس من الويسكي تركتها يتيمة في بار الفندق. ومن حسن الحظ أن الرجل كان ظريفاً ولطيفاً وليس عبوساً كمعظم الموظفين الروس، ففهم النكتة وصرف لي المبلغ بعدما كتب عنه أطروحة تبرر صرفه من غير ورقة التصريح الجمركي!

ورجعت الى مكاني فوجدت الكأس في انتظاري، فدفعت وشربت وشكرت. وكان بعض النزلاء قد بدأ يتوافد الى المكان قبيل العشاء. وبعد قليل جاء الزميل علي هاشم وجلس الى جانبي على مقعد منفرد وقرر أن يطلب مثلي، فأخفيت عنه حكاية الصرف في الطابق الثاني وأدرت وجهي عندما طلبت منه الساقية دفع الثمن قبل المساس بالكأس، فأبلغته نفس الحكاية فرفع يده محتجاً فأصابت يده الكأس المليء فاندلق على الطاولة وعلى السجادة والكراسي المجاورة. عندئذ أبلغته الحكاية وطلبت له ما يريد بينما انهمك العاملون هناك بتنظيف المكان.

وكان يجلس قبالتنا في صالون البار على الأرائك المنخفضة مجموعة من الأميركيين يبدو أنهم مبعوثون حكوميون أو ممثلون تجاريون، وكانوا على شيء من الصخب يتحدثون بصوت عال عن موضوع فضيحة ووترغيت التي أطاحت الرئيس ريتشارد نيكسون في السنة السابقة.

ودخلنا مع هؤلاء الأميركيين في حديث وممازحات، خصوصاً عن عملية التعذيب في صرف العملات الأجنبية في الطابق الثاني، في نوع من النقد المبطن الساخر للنظام البيروقراطي السوفياتي. لكن أحد هؤلاء، وهو إيرلندي

الأصل كما يبدو، وجد كلمة ثناء يقولها عن الحياة السوفياتية. إذ قال إنه لاحظ في تعاطيه مع السوفيات في مجال التبادل الثقافي أن هناك أربع مجالات متميزة لا يجدها المرء في أي مكان آخر في العالم، هي: الاهتمام بالموسيقى على نطاق واسع ومجاني، الاهتمام بالزهور والحدائق في الأماكن العامة، الاهتمام بالأطفال والشباب في جميع المجالات تقريباً، وأخيراً الأمان شبه المطلق في المدن، حيث يستطيع المرء أن يمشي آمناً في أي شارع وفي أي ساعة من ساعات الليل والنهار، وهو أمر غير متوفر أو مضمون في أي مدينة أميركية.

وفيما نحن مستغرقون في الحديث مع الندامى الأميركيين هناك دخل الى المطعم الذي يطل عليه البار الزميل أسعد المقدم ومعه مدير الإذاعة والتلفزيون العراقي وآخرون لتناول العشاء، لكنهم لم يدخلوا الى البار بل اكتفوا بإبلاغنا خبراً سيئاً عن حادث أمني خطير وقع في بيروت، هو حادثة بوسطة عين الرمانة. ولم تكن لديهم أي تفاصيل أخرى عن الحادث سوى أنه حادث كبير وخطير ينطوي على احتمالات لا تحمد عقباها. ثم أبلغنا مدير الإذاعة والتلفزيون العراقي أن علينا أن نستعد باكراً للعودة غداً الى بغداد، ملمحاً الى أن الزيارة لم تكن كما يجب، فيما كنا ننتظر أن تدوم لثلاثة أيام. وكان أمراً حسناً أن نعود على وجه السرعة لأنه انشغل بالنا على حادثة بوسطة عين الرمانة وصار يتعين علينا أن نعود الى بيروت بأسرع وقت.

لم نشاركهم العشاء في المطعم وآثرنا البقاء في البار لبعض الوقت، لكن الوقت في مثل هذه الحالة يمضي سريعاً. وعندما قررنا، علي هاشم وأنا، أن ننزل الى المطعم كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف ليلاً. لكن الحارس على باب المطعم رفض إدخالنا لأن المطبخ قد أقفل وانصرف عماله. فقلنا له: «لكننا جائعون ونريد أن نأكل شيئاً». فقال: «كان عليكم أن تجوعوا قبل الحادية عشرة لا بعدها». وعبثاً حاولنا التوسل اليه أن يعطونا أي شيء نقتات به ونسد رمقنا، فوقعت توسلاتنا على أذن صماء. وسألناه ما إذا كان هناك أي مكان آخر في الفندق يمكننا الذهاب اليه لشراء الطعام، فقال إنه لا يوجد مثل هذا الشيء في مثل هذه الساعة المتأخرة. فاستسلمنا لقدرنا ولصرامة النظام السوفياتي وذهبنا الى غرفنا كل في طابق.

ووجدت أن «الكونسييرج» في الطابق الذي أنزل فيه سيدة تبدو رقيقة بشوشة، فشرحت لها ما أعاني منه فنظرت الى ساعتها وكانت منتصف الليل تقريباً وقلبت شفتيها وقالت إنه من الصعب في مثل هذا الوقت تدبر الأمر، لكنها استمهلتني قليلاً وكأنها اهتدت الى حل فاستدعت امرأة متقدمة في السن تعمل في الطابق وكلّمتها، فدخلت الى مكان في الطابق ذاته وعادت بعد دقائق حاملة صينية عليها إبريق خزفي ضخم يشبه الجرة، التي كانت تستخدمها

والدتي في القرعون لنقل الماء من العين، مليء بالشاي والى جانبه فنجان فارغ وصحن صغير عليه خمس قطع صغيرة ومستديرة من الخبز تشبه «البرشان» وفوق كل منها قطعة بحجم باهم اليد من اللحم المقدد. وقالت إن هذا كل ما استطاعت أن تحصل عليه، فشكرتها وناولتها خمسة روبلات فرفضت أن تأخذها فأصرَّيت وأصرَّت الى أن حسمت الكونسييرج الموضوع بأن أشارت عليها أن تأخذها، فحملت تلك الصينية الى غرفتي وأفرغت محمولاتها غير المتناسبة وغير المتناسقة في جوفي واستغرقت في النوم الى أن رن جرس الهاتف يدعوني الى حزم حقيبتي والاستعداد للسفر.

لكن قبل النزول الى القاعة الكبرى في الطابق الأرضي، سألت السيدة الكونسييرج ما إذا كان بإمكاني أن أجري مكالمة هاتفية مع بيروت، فأجابت بالإيجاب، وطلبت الرقم فأعطيتها رقم الجريدة في الشياح لكنها وجدت الرقم معطلاً، مما زاد من وساوسي. ثم أعطيتها رقم منزلي على الروشة فردت زوجتي فوراً فسألتها عن الوضع فقالت إنها لم ترسل الأولاد الى مدرسة «زهرة الإحسان» في الأشرفية لأن «الأوتوكار» لم يحضر بالنظر الى المخاطر الأمنية، وأبلغتني عن حادثة بوسطة عين الرمانة باختصار لأنها لم تكن تعرف الكثير من التفاصيل، فأبلغتها أنني عائد في أسرع وقت.

•••

في طريق العودة من موسكو الى بغداد صباح اليوم التالي، ساورتني مخاوف وشكوك عديدة، خصوصاً حول الوضع اللبناني وتداعياته المحتملة. ولم تكن لدى أي من الزملاء اللبنانيين الآخرين أي فكرة عن حقيقة ما جرى في بيروت في غيابنا. بين الانفجار اللبناني، وبين ما تردد عن فشل محادثات صدام حسين في موسكو، وبين الخلافات العميقة المستحكمة بين بغداد ودمشق في تلك المرحلة، راودتني فكرة التساؤل والتحليل حول ما إذا كان هناك رابط ما بين أضلاع هذا المثلث. وأول فرضية وضعتها في هذا التحليل أن يكون ما حدث في بيروت هو نتيجة صراع أصغر داخل صراعٍ أكبر. أي أن يكون انفجار الوضع اللبناني بفعل الوجود الفلسطيني ناتجاً عن الصراع الدولي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي من خلال الصراع السوري - العراقي. فقد كانت دمشق وقتذاك مربط خيل حزب الكتائب والجبهة اللبنانية.

وبعد ساعة من الطيران تقريباً جاءنا من مقصورة نائب الرئيس أحد مرافقيه يطلب منا أن نوافيه للقاء ودردشة صحافية مع صدام حسين، فتوجهنا الى المقصورة وجلسنا على الأرائك الوثيرة بشكل نصف دائري فيما جلس صدام حسين على كرسي الخيزران في وسط ذلك القوس من المقاعد على الجهة المواجهة، فرحب بنا أشد ترحيب وقال إنه لا يريد الإدلاء لنا بحديث صحافي، لكنه يريد أن يستعرض بعض الأفكار، فبدأ حديثه عن أهمية القوة الذاتية

للأمة العربية، لأن هذا هو السبيل الوحيد لاستقلالية العرب عن الدول الكبرى وتضارب مصالحها. وكان ذلك أول مؤشر على إخفاقه في حمل السوفيات على تبني وجهة نظره.

لم أسجل حرفية ذلك اللقاء، لكنني سجلت بعض النقاط على ورقة صغيرة استخدمتها كرؤوس أقلام للموضوع الذي نشرته تالياً في جريدة «بيروت» فور عودتي، ويؤسفني اليوم أنني لم أحفظ نسخة من ذلك العدد. لكن كلمة واحدة من كلماته استوقفتني وحفظتها، ونشرتها أيضاً في الموضوع المشار اليه في الجريدة، هي رده على سؤال لأحدهم ما إذا كان يعتبر القطع السوري لمياه الفرات عن العراق «خيانة»، وكانت تهمة الخيانة في ذلك الوقت، كما هي اليوم، مثل شربة الماء. ولاحظت أن صدام حسين تأخر قليلاً في الجواب، وراح يتطلع الى سقف الطائرة، ثم قال لسائله: «ما من حاكم يختار الخيانة. لكن يمكن استدراجه اليها». واكتفى بهذا المختصر. ولم يدم ذلك اللقاء الذي يمكن وصفه بأنه «لقاء غير سياسي»، أكثر من نصف ساعة فقط. فبدا لي صدام حسين الجالس على كرسي الخيزران في الطائرة وهو ينظِّر أمام الصحافيين بعيداً عن المسائل السياسيِّة المباشرة، وكأنه كمال جنبلاط الجالس على كرسيه الهزاز في المصيطبة ينظِّر أمام ممثلي الأحزاب اليسارية اللبنانية عن رؤيته للمستقبل.

وفور الوصول الى بغداد بعد يوم واحد فقط من مغادرتها، كان همي الوحيد كيفية العودة الى بيروت بأسرع وقت ممكن.

•••

كان التوتر الذي ساد لبنان في ذلك اليوم بادياً بوضوح على الحركة في مطار بيروت. ولما خرجت من المطار لأستقل سيارة تاكسي الى منزلي في الروشة، أخبرني سائق التاكسي بما حدث قبل يومين، وعلمت منه أن البوسطة التي استهدفها المسلحون الكتائبيون تابعة لـ«جبهة التحرير العربية» الموالية للعراق. وشعرت عندئذ بوجوب الحذر لأن المخاوف قد ساورتني الى درجة أنه شطح بي الخيال الى الظن بأن حادث البوسطة كان رداً على زيارة صدام حسين الى موسكو، تلك الزيارة التي كنت شاهداً عليها.

وقال لي السائق إنه لن يذهب الى الروشة في الطريق المعتاد عبر دوار الكولا، مروراً بالمدينة الرياضية وبئر حسن، لأن الطرق هناك قد تكون مقطوعة وغير سالكة وفيها حواجز فلسطينية، لكنه بدلاً من ذلك سوف «يزورب» ليصل الى البحر عن طريق الأوزاعي ويأخذ الطريق البحري عبر الرملة البيضاء.

لكن خريطة الطريق هذه التي حاول السائق من خلالها أن يطمئنني، زادت من قلقي، لا لوجود خطر مباشر في الطريق، بل لشعوري بأن تداعيات ذلك الحادث سوف تغير خريطة البلد بكامله. وكانت ظنوني في محلها مع الأسف.

وفي صباح اليوم التالي توجهت الى الجريدة كالمعتاد، وقبل أن التقي الزملاء

أو أحداً في الإدارة، عكفت على قراءة الصحف الصادرة ذلك اليوم، ومنها جريدة «العمل» الكتائبية، فلمست مدى حدة الانقسام في البلد، وتعرفت بصورة عامة على وجهات النظر السائدة في ذلك الجو المحموم. فالانطباع الأول الذي تكون لدي أن حادثة بوسطة عين الرمانة قد تكون حدثت بمجرد المصادفة، لكنها لو لم تحدث لكان حدث شيء آخر، أو اندلعت شرارة أخرى لتفجير الوضع. وكان هناك ما يكفي من الذرائع لتفجير الوضع في أي مكان، خصوصاً في مجال مخيم تل الزعتر الواقع على طريق معقل الكتائب اللبنانية في المتن، وحيث كانت تندلع اشتباكات على أطرافه في الدكوانة بين المسلحين الفلسطينيين المتمددين خارج مخيماتهم في ذلك الوقت، وبين مسلحي الكتائب. بل إن الحواجز الفلسطينية هناك أوقفت مرة الشيخ بشير الجميل نفسه (رئيس القوات اللبنانية تالياً) وهو في طريقه الى منزله في بكفيا، مما استدعى وساطات كثيرة مع ياسر عرفات للإفراج عنه.

والواقع أن شرارة الحرب قد وقعت في شهر شباط/فبراير، أي قبل شهرين من حادثة بوسطة عين الرمانة، عندما قامت انتفاضة الصيادين في صيدا احتجاجاً على تأسيس شركة لصيد الأسماك على نطاق صناعي واسع، هي شركة «بروتيين»، قيل إن الرئيس كميل شمعون يملك فيها حصة كبيرة، فأسفرت تلك الانتفاضة عن إطلاق نار أدى الى استشهاد النائب الصيداوي معروف سعد، مما ألّب الرأي العام الإسلامي تأليباً حاداً ضد النظام اللبناني، وكذلك الأحزاب اليسارية المنضوية في تجمع فضفاض شكل تالياً واجهة للسلاح الفلسطيني كانوا يسمونه «الحركة الوطنية». ذلك أنه لا يجوز إغفال العوامل الطبقية والاجتماعية ـ الاقتصادية في معادلة الصراع اللبناني، حيث تطغى العوامل السياسية، ومنها على وجه الخصوص العوامل الطائفية، والتدخلات الخارجية دائماً، على المسائل الاجتماعية وتطمسها، وهو أمر ما زال يتكرر الى اليوم. ومن مظاهر هذه الحالة المرضية أن اللبنانيين يتداعون بعشرات الألوف تلبية للنداءات الطائفية، ولا يتحرك منهم سوى قلة قليلة للمطالب الاجتماعية والاقتصادية الملحة.

وفي رأيي أن التأريخ للحرب اللبنانية يجب أن يبدأ منذ اتفاق القاهرة لشرعنة السلاح الفلسطيني في لبنان في عام 1969، واعتبار اغتيال معروف سعد شرارتها الأولى لا بوسطة عين الرمانة كما درج لاحقاً. لكن السؤال عن هوية الجهة التي أطلقت النار على معروف سعد في صيدا يبقى الى اليوم حائراً بلا جواب، ولم يجرِ فيه تحقيق جدي في أي وقت. فشرارة الحرب اندلعت من الجنوب وليس من بيروت.

•••

ما جعل حادثة بوسطة عين الرمانة ذات دلالة هو سريان إشاعة منذ اللحظة

الأولى عن محاولة اغتيال للشيخ بيار الجميل مؤسس حزب الكتائب أثناء حضوره احتفال تدشين كنيسة «سيدة الخلاص» للروم الكاثوليك الملكيين في عين الرمانة في مكان قريب من الشارع الذي يحمل اسمه في تلك المنطقة. لكن ما جرى يظهر بوضوح أن الشيخ بيار لم يكن مستهدفاً شخصياً، وما أطلق الإشاعة هو مقتل واحد من مرافقيه هو جوزيف كميل أبو عاصي.

فقد كانت إحدى المنظمات الفلسطينية[6] تقيم في مخيم صبرا مهرجاناً حضرته جميع الفصائل الفلسطينية الأخرى، في الوقت ذاته الذي كان يجري فيه تدشين كنيسة عين الرمانة. وحدث أن مر شخص فلسطيني يقود سيارته بمفرده بالقرب من مكان تدشين الكنيسة فحاولت مفرزة السير التابعة لقوى الأمن الداخلي إيقافه فلم يمتثل وأكمل سيره فاعترضه بعض الكتائبيين المتواجدين هناك فلم يتوقف فأطلقوا عليه النار مما أدى الى إصابته بيده ونقله الى «مستشفى القدس» التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية. وبعد انتشار النبأ جاءت بعد قليل سيارة فيها أربعة فلسطينيين مسلحين وراحت تطلق النار عشوائياً باتجاه حشود المحتفلين بتدشين الكنيسة بحضور الشيخ بيار الجميل وبرعايته، مما أدى الى مقتل أربعة أشخاص من بينهم مرافق الشيخ بيار[7].

وصادف في تلك الأثناء، ووسط الفوضى الناشئة من حادث الكنيسة، مرور بوسطة ركاب تقل ثلاثين فلسطينياً كانوا عائدين من مهرجان صبرا في عين المكان الذي وقع فيه الحادث فأوقفها المسلحون الكتائبيون وأطلقوا الرصاص على ركابها فقتلوا منهم 26 شخصاً كلهم تقريباً ينتمون الى «جبهة التحرير العربية» الموالية للعراق بقيادة عبد الرحيم أحمد[8]. وبالنظر الى وجود صراع سوري ـ عراقي حاد في ذلك الوقت، فإن كون ضحايا البوسطة ينتمون الى جبهة موالية للعراق، قد أسهم في إعطاء الحادثة أبعاداً افتراضية أوسع مما تحتمل، وكنت أنا من الذين طرحوا مثل هذا الاستفهام في البداية.

---

(6) المنظمة المشار اليها هي «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة» بقيادة أحمد جبريل، المنشقة عن الجبهة الشعبية بقيادة الدكتور جورج حبش، وكانت تحظى بدعم من النظام السوري، وبعد الخروج الفلسطيني من لبنان اتخذت من دمشق مقراً لها واستبقت قواعد عسكرية داخل الأراضي اللبنانية ما زالت قائمة الى اليوم. وأقامت المنظمة المذكورة مهرجانها في صبرا يوم 13 نيسان/أبريل من عام 1975 بمناسبة نجاح عملية فدائية قام بها مقاتلوها ضد الإسرائيليين في الأرض الفلسطينية المحتلة.

(7) الثلاثة الآخرون هم: أنطوان ميشال الحسيني (كتائبي)، وديب يوسف عساف، وابراهيم حنا أبو خاطر.

(8) لم يكن جميع ركاب البوسطة ينتمون الى «جبهة التحرير العربية»، بل كانوا موزعين على النحو التالي: 22 راكباً من «جبهة التحرير العربية»، و4 من «الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة» بقيادة أحمد جبريل، و 2 من منظمة «فتح» بقيادة ياسر عرفات، و 2 من منظمة «الصاعقة» التابعة لسوريا بقيادة زهير محسن.

لكن آخرين راحوا يطرحون أسئلة أخرى أيضاً عن أسباب مرور البوسطة الناقلة لمجموعة فلسطينية في ذلك الاتجاه تحديداً، مما اعتبر استفزازاً متعمداً لغاية ما. وكان مثل هذا السؤال مبرراً في وقته، لكنه تبين لي لاحقاً أنه مرور طبيعي، لأن صاحب البوسطة من سكان الضاحية الجنوبية المحادّة لعين الرمانة وهو معتاد على المرور من هناك كل يوم تقريباً، يضاف الى ذلك أنه لا صاحب البوسطة ولا ركابها كانوا على علم بما جرى في ذلك الشارع قبل مرورهم فيه.

•••

كنت أعرف أن الأزمة اللبنانية تاريخية ومعقدة، أشبه بالملفوفة ورقة داخل ورقة داخل ورقة. بل هي قد تكون أعقد أزمة في العالم لأنها تحمل في طياتها وبين أوراقها أهم قضية في العالم، وهي القضية الفلسطينية. فهي أزمة دولية، وأزمة عربية، وأزمة لبنانية تحتوي على أوراق ملفوفة داخل بعضها البعض تتعلق بكل طائفة من مكونات المجتمع اللبناني، وبكل منطقة من مكونات جغرافية البلد. ولذلك كنت دائماً في عملي الصحافي والثقافي أتهيب الكتابة عن الموضوع اللبناني، وأستغرب استسهال بعض الكتاب والمعلقين العرب الكتابة السطحية عن الموضوع الى درجة السذاجة. وقد انتقدت مرة زميلاً عربياً كبيراً في وجهه بعد نشره مقالاً عن لبنان في صحيفة لندنية عربية، وقلت له إن الكتابة عن لبنان علم قائم بذاته ولا يمكن مقاربة أي موضوع لبناني بالمعايير الصحافية المألوفة، مثل وصف القوى المسيحية بأنها «يمينية»، أو وصف القوى الوطنية بأنها «إسلامية».

فعندما أعدت نشر مقال قديم لميشال عفلق عن «لبنان والعروبة» في مجلة «الأحرار» صيف عام 1969، مما أثار حفيظته في ذلك الوقت، كما مرّ، كنت في الواقع أستشعر هبوب العاصفة، وهو موضوع ما زال بحاجة الى بحث وتعمق، لأن الأزمة ما زالت قائمة وإن تعددت أوجهها ومظاهرها. وكان من تلك الأوجه في حينه التوصيف العام لوضعية المسيحيين والمسلمين في لبنان إزاءها، حيث كان التوصيف العام المسيحي لوضعية المسلمين بأنهم «ناقصو اللبنانية»، في مقابل التوصيف الإسلامي للمسيحيين بأنهم «ناقصو العروبة». وهذا يعني أن النقاش حول «لبنان والعروبة»، الذي لم يسبق لأحد أن طرحه بعين قومية مستقبلية ثاقبة كما طرحه ميشال عفلق في وقت مبكر، ما زال غير محسوم، وإن كان بعض اللبنانيين يظن أن الحرب اللبنانية قد حسمته في اتفاق الطائف لمجرد الاعتراف اللفظي بعروبة لبنان.

ولا بد من نقطة بداية تتعلق بالمعضلة الدينية المستحكمة بالأمة العربية، ومنها لبنان، وإن بأشكال مختلفة. فالدين بحد ذاته، كحالة فكرية وروحية، ليس معضلة. إنما المعضلة في «الهوس الديني». فالأمة المأخوذة بالهوس

الديني الجماعي لا تستطيع بسهولة أن تجد مسالك خلاصها، لأن الهوس الديني الجماعي بحد ذاته خانق للحرية، وفي مقدمها حرية التفكير والتعبير والانشقاق ورفض الحدود والفرائض. ومما يعقِّد المسألة في الواقع الراهن أن الهوس الديني جعل من الدين مجرد سياسة، أو حركات سياسية، بحيث بات من الصعب معها التفريق بين ما هو ديني وما هو سياسي. فهذه التبادلية بين الدين والسياسة هي السبب الأساس في تشويه الدين وتشويه السياسة معاً، بما يحول بصورة شبه مطلقة دون قيام مجتمعات مدنية حرة.

ولذلك فإن الكيانات السياسية في المنطقة كلها مريضة. الكيانات العربية مريضة، والكيان الإسرائيلي مريض، والكيان اللبناني حالة تجسيمية لتلك الأمراض، لأن الأديان فيه بتعددها وتجمّعها في مكان صغير ظهرت أشبه ما يكون بـ«سوبر ماركيت»، والطوائف والمذاهب الدينية بمثابة دكاكين أو أكشاك في ذلك المتجر الكبير، وبالتالي فهي في الواقع السياسي الراهن سوق للبيع والشراء، مع الأسف الشديد.

ولست أذكر أين قرأت وصفاً للدين بأنه «أزمة في حياة الله»، وبالتالي فهو أزمة في حياة البشر. لكنني قرأت في مذكرات نابليون بونابارت، كما كتبها سكرتيره الخاص دو بوريان في مجلدين من ثلاثة آلاف صفحة، أنه عندما كان يجهز مكتبة للجيش الفرنسي من ضمن استعداداته للحملة على مصر في أواخر القرن الثامن عشر، طلب من سكرتيره أن يضم الى القسم السياسي في المكتبة القرآن والإنجيل والتوراة. ولما قال له السكرتير: «لكن هذه يا جنرال كتب دينية». أجابه نابليون: «كل دين سياسة»[9].

ومما يؤسف له أيضاً أن معظم القوى السياسية في لبنان والمنطقة تتعامل مع هذه الحالة المرضية على أنها «واقع ثابت»، ليصفوا أنفسهم بأنهم واقعيون، فيبدو أن أي تصادمٍ مع هذه الحالة من أي نوع وكأنه ضرب من الوهم أو الخيال. هؤلاء جميعاً يقولون: «نحن واقعيون نتعامل مع الأمور كما هي على أرض الواقع». وهنا أيضاً يختلف الفهم العفلقي للواقع والواقعية والواقعيين عن هذا التعريف. فالواقعي في مفهوم ميشال عفلق ليس الذي يقبل الواقع، أو يسلم به، أو يستسلم له، بل هو الذي يفهم الواقع من أجل أن يعلو عليه ويغيِّره. فالواقعية في الوضع اللبناني الراهن، والأوضاع العربية عموماً، هي وصفة ضد التغيير، وهي حتى في حزب البعث «ضد العفلقية».

لكن النظرة المسيحية اللبنانية للحالة الإسلامية في الوضع اللبناني، قبل

---

(9) Memoirs of Napoleon Bonaparte, M. De Bourienne, His Private Secretary, Blackie & Son, Glasgow, Edinburgh & London

والملفت في هذا الكتاب الضخم والتفصيلي الذي يتضمن فهم القائد الفرنسي للإسلام والمسلمين واليهود أنه منشور بدون تاريخ النشر. وفي أغلب الظن أنه نشر بعد وفاة نابليون لأنه يتضمن وقائع حياته في منفاه الأخير في جزيرة سانت هيلينا.

انفجار الحرب، وخلالها، وبعدها، كما عبر عنها منظرو الجبهة اللبنانية، والكتائب اللبنانية، والقوات اللبنانية، جديرة بالتدقيق فيها خارج القوالب التقليدية للسياسة اللبنانية. فهذه النظرة المسيحية ترى أن المسلمين في لبنان يماشون أي موجة عربية أو إسلامية وافدة من الخارج على حساب لبنان كوطن نهائي لجميع أبنائه، من الموجة الفيصلية في الثورة العربية الكبرى بعد الحرب العالمية الأولى، الى الموجة الناصرية الوحدوية في منتصف الخمسينات من القرن الماضي، الى الثورة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات، حيث اعتبر المسلمون أن المقاومة الفلسطينية هي «جيش المسلمين» لأنهم اعتبروا الجيش النظامي الوطني جيشاً فئوياً للطائفة المارونية، الى الحالة الحريرية التي هي امتداد سعودي في الحياة اللبنانية، الى الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني التي استقطبت الجسم الشيعي اللبناني وسيطرت عليه.

هذا الانسياق الإسلامي مع الموجات الوافدة من الجوار القريب والبعيد هو في نظر المسيحيين، أو على الأصح الجسم السياسي المسيحي المهيمن الذي أطلقوا عليه اسم «المارونية السياسية»، السبب الجوهري لاضطراب الكيان اللبناني ووضعه في مهب الرياح الخارجية.

طبعاً، للمسلمين حجة مضادة ومماثلة تبدأ بتهمة «الاستئثار»، وتنتهي بتهمة الولاء والتبعية للغرب، وجاءت علاقة جهات كتائبية وشمعونية مع إسرائيل خلال الحرب لتؤكد هذه المقولة، على الرغم من أن الجسم المسيحي رفض هذا التوجه وانتقده وخرج منه الى حد كبير. والناقدون للعلاقة الكتائبية السابقة مع إسرائيل في الجسم المسيحي لم يقبلوا ذريعة الاضطرار التي سيقت في هذا الإطار، بمعنى أن الضرورات تبيح المحظورات. فكان النقد الذاتي المسيحي للتبعية الخارجية أقسى وأشد وأعمق من أي نقد إسلامي لأحوال الجسم الإسلامي في تبعيته، كما ورد توصيفها لدى بعض المرجعيات المسيحية، مثل الآباتي بولس نعمان الذي قال في الجزء الأول من مذكراته: «عند المسلمين انتماء يتقدم الانتماء الى لبنان الوطن». متسائلاً: «كيف يمكن للمسلم اللبناني أن يفضل غير اللبناني على أخيه في المواطنية؟». ليصل الى علاقة التوجهات الإسلامية بعدم الاستقرار حيث يقول: «تصاعدت ظاهرة الناصرية والقومية العربية التي اخترقت كل الحدود، بما فيها حدود لبنان، فأدخلته في الدوامة التي قضت على الاستقرار والأمن فيه»[10].

وعلى هذا المنوال كتب أيضاً فؤاد بطرس، وزير الخارجية اللبنانية الأسبق، في كتاب مذكراته، حيث قال: «الإسلام اللبناني، على وجه الإجمال، لا ينظر الى البعيد، وليست له رؤية سياسية مستقلة، ويتعاطف بسهولة مع أية جهة عربية

(10) مذكرات الآباتي بولس نعمان، الجزء الأول، الصفحة 480.

قادرة»[11].

لكن المفاهيم المسيحية أيضاً في هذا السياق تحمل بعض التناقضات، خصوصاً لجهة الخلط بين الإسلام والعروبة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، ما قاله الشاعر سعيد عقل بعد حضوره «خلوة سيدة البير» لأقطاب الجبهة اللبنانية التي ضمت رؤساء الحركات المسيحية ومفكريها في بداية الحرب اللبنانية: «لا أخاف من الأسلمة بل من العروبة»[12]. وفي هذا يناقض سعيد عقل نفسه أيضاً وهو واضع نشيد «العروة الوثقى» حيث الجناحان الخضيبان بنور هما «العلى والعرب»!

بينما نجد أن غسان تويني، صاحب جريدة «النهار»، الآتي من مشارب غير عروبية، مناقضة لمشارب سعيد عقل الأصلية، يقول: «أنا كمسيحي عربي ليس لي إلاّ أن أخشى أسلمة الحياة السياسية والثقافية في لبنان»[13].

فريق يخشى العروبة ولا يخشى الإسلام، وفريق يخشى الأسلمة ولا يخشى العروبة.

وهناك، طبعاً، فريق يخشاهما معاً، وفريق لا يخشى أياً منهما.

وهناك فريق صغير، وأنا منه، يراهن على تجدد العرب والمسلمين ذات يوم فينظرون الى أديانهم وطوائفهم وحياتهم ومجتمعاتهم نظرة نقدية حقيقية تنقلهم من الواقع المتجمد الى الواقعية المتحركة التي تمكنهم من العلو على الواقع وتغييره، وإن كان ذلك دونه صعوبات ومخاطر. الى واقع لا يعود فيه الإسلام معلّباً ببراميل النفط.

---

(11) فؤاد بطرس، المذكرات، الصفحة 426.

(12) مذكرات الآباتي بولس نعمان، الجزء الأول، الصفحة 150. وقد انعقدت «خلوة سيدة البير» لأقطاب الجبهة اللبنانية ومفكريها في 23 كانون الثاني/يناير 1977، واعتبرها بعض اللبنانيين أول دعوة الى تقسيم لبنان تحت اسم «الفيدرالية».

(13) غسان تويني، فلندفن الحقد والثأر، قدر لبناني، دار النهار، الصفحة 109.

II

نداء السادات...

شعرت بعد حادثة بوسطة عين الرمانة، وما تلاها من تداعيات، بأن سموماً غريبة دخلت على الجسم اللبناني، فغيرت طبيعته، وأفقدته توازنه، فغلظت أذهان اللبنانيين وقست قلوبهم، وسهل عليهم القتل والتنكيل والتهجير لبعضهم البعض، محطمين بأيديهم ذلك الحلم الجميل بالعيش المشترك على قواعد إنسانية رفيعة، فانحدر لبنان واللبنانيون سريعاً الى الهمجية والغرائزية، وصارت البلاد غابة لجماعات مفترسة لا تحدها أعراف ولا تردعها قوانين. هذا الانحدار اللبناني الى الهمجية، على غير طبيعة اللبنانيين الرحبة التي عرفتها ونشأت عليها في مجتمع قروي طبيعي تسوده الأخلاق الرفيعة، والعمل المنتج الدؤوب، والمشاركة الإنسانية الصافية، هو الذي كان في الحقيقة قرارة قراري بالهجرة من لبنان تالياً رأفة بأطفالي، وخوفاً عليهم من النشوء على طبائع تلك الغابة المظلمة.

وقد كنت وما زلت أرفض تلك المقولة التبريرية التي ساقها بعض اللبنانيين لنفض اليد من النتائج الوخيمة وغير المقبولة في مجتمع يفترض فيه أن يكون مجتمعاً مدنياً ومتمدناً، والقائلة بأن ما جرى هو «حرب الآخرين على أرضنا». هذا في رأيي عذر أقبح من ذنب. وإذا كان هذا الشعار صحيحاً، فإنه يشكل بحد ذاته إدانة مبرمة للشعب اللبناني بكامله، بأنه شعب مأجور، وبأنه مستعد أن يفعل أي شيء لمصلحة الآخرين ضد مصلحته ومصلحة وطنه، وبأنه غير مصدق وغير قابل لأن يكون شعباً واحداً له هوية ثقافية وإنسانية جامعة. وكل ذلك للقول أو الزعم بأنه بريء ومسكين ومغلوب على أمره.

ولا أقول ذلك في معرض الحرب ومجرياتها فقط، بل من ملاحظات شخصية بعدما وضعت الحرب أوزارها، وصار المحاربون هم الدولة بعد اتفاق الطائف. فعندما زرت بيروت في أواخر عام 1992، توجهت الى المجلس النيابي للقاء نائب رئيسه ابن العم إيلي الفرزلي، فوجدت في مكتبه جموعاً من المراجعين، فجلست أنتظر وأتفرج. ولفتني وأنا أراقب أن جميع المراجعات تلك إما للوساطة والمداخلة مع المسؤولين من قضاة ومدراء وأمنيين، وإما لطلب

وظائف وأعمال، وكلها تقريباً مخالفة للقوانين. وبعد انفضاض الجمع قلت له وقد أعياه الضغط: «ما هذا. الناس ينتخبون نوابهم في بلاد العالم ليسنوا لهم القوانين، وهم هنا ينتخبونهم لخرقها وهم واضعوها بأنفسهم. كيف تقبلون بذلك». فقال لي متأسفاً: «هذا هو الوضع. ماذا نفعل. لا نستطيع أن نرد طلباً لأحد».

ثم حضرت انتخابات عام 2009، وقد أدليت فيها بصوتي للمرة الأولى بعد انتخابات 1996 عندما كان البقاع كله دائرة واحدة، وللمرة الثانية منذ انتخابات 1972، فوجدت أن العملية لم تتغير كثيراً في مجرياتها، لكن حجم التزوير والتأثير فيها زاد بنسب فلكية عما كان عليه في الماضي، وكذلك حجم المخالفات في جميع المجالات تقريباً. وصادف بعد ذلك أن قمت في لندن بزيارة الى الكاتب والمفكر اللبناني المعروف المقيم في العاصمة البريطانية، خليل رامز سركيس، برفقة الزميلين رؤوف القبيسي وأحمد الإصفهاني، وطرحت عليه في تلك الجلسة سؤالاً عن رأيه في طبيعة اللبنانيين الذين يبدعون وينتظمون خارج بلادهم، وعندما يكونون فيها يخرجون عن كل معقول من قيادة سياراتهم الى تعاملهم الفظ مع بعضهم البعض، ونزوعهم الدائم الى المخالفات، وتهربهم من دفع الضرائب وهم على وعي بذلك، والى ما هنالك من أمور. وقال الأستاذ سركيس رداً على ذلك: «الملاحظة صحيحة، بل هي تشكل ظاهرة، لكنني لا أملك تفسيراً مقنعاً لها». ثم صمت برهة وقال: «ربما كانت موروثاً تاريخياً من زمن الفينيقيين. لا أدري».

وقد سرني أن وزير الخارجية الأسبق فؤاد بطرس اختار خليل رامز سركيس ليكتب له مدخل مذكراته، فشكل ذلك إضافة راقية اليها. وفي اللقاء معه في منزله في لندن أبلغنا سركيس أنه ظل صامداً في منزله البيروتي بمنطقة «زقاق البلاط» الى أن طرقت الحرب بابه، لكنه رفض الهجرة الداخلية، أي من زقاق البلاط الى مكان آخر في بيروت الشرقية، مؤثراً الهجرة الى خارج لبنان على القبول بانقسام البلد على خطوط طائفية.

•••

في البداية ومع تفاقم القصف المتبادل بين المناطق المختلفة في بيروت، وصعوبة الانتقال، واجهتني مشكلة مدرسة الأولاد، لأنهم جميعاً كانوا يدرسون في مدرسة «زهرة الإحسان» الواقعة في الأشرفية في بيروت الشرقية، باستثناء نجلي الأكبر عامر الذي كنت نقلته تلك السنة الى ثانوية الجامعة الأميركية المعروفة باسم «الآي سي»، القسم الفرنسي. فلم تعد بوسطة المدرسة (الأوتوكار) قادرة على الوصول الى بيتنا في بيروت الغربية بانتظام تبعاً للأحوال الأمنية. وبالتالي، رحت أتدارس وزوجتي كيفية حل هذه المشكلة، وقد كان متعذراً علينا أن ننقل سكننا الى بيروت الشرقية بالنظر الى طبيعة عملي،

وموقعه. بل إنني كنت أضطر أحياناً الى المبيت في المكتب في منطقة الشياح طوال الليل عندما يشتعل أوار القصف وتسوء الأحوال الأمنية، بالنظر الى قرب تلك المنطقة من خطوط التماس على القاطع الآخر من طريق الشام الدولي، من كنيسة مار مخايل الى غاليري سمعان وصولاً الى الحازمية.

وصار متعذراً علينا تماماً أن نذهب الى البقاع سالكين تلك الطريق، وكان لا بد لنا أن نبحث عن طريق آمنة أخرى، فانتقل خط سيرنا الى البقاع من طريق الشام الى طريق الدامور ـ صيدا ـ جزين وصولاً الى القرعون وجب جنين.

وأخيراً استقر الرأي على انتقال العائلة بكاملها في مطلع الصيف الى جب جنين، وأبقى أنا وحدي في بيروت ريثما ينجلي الوضع. وقررنا أن ننقل الأولاد الى المدارس المتاحة الأقرب الى مناهجهم في الجوار. فسجلنا الولدين الأصغرين للسنة الدراسية التالية 1975 ـ 1976، في مدرسة للراهبات في بلدة خربة قنافار المقابلة في البقاع الغربي، حيث كان يدرس أيضاً بعض تلاميذ الحي الذي يقع فيه منزلنا، وصارا ينتقلان مع زملائهما الآخرين الى المدرسة كل يوم ذهاباً وإياباً بسيارة مخصصة لهذه المهمة. وسجلنا الولدين الأكبرين ريما وعامر في مدارس الرهبانية المخلصية الكاثوليكية في دير المخلص بالقرب من صيدا في الأقسام الداخلية. وكان للرهبانية المذكورة مدرسة داخلية للبنات تبعد قليلاً عن مدرسة الصبيان، وقد اخترنا تلك المدرسة لابنتي ريما، أولاً لرفعة مستواها التعليمي، وثانياً لأن إحدى راهبات الدير العاملات في المدرسة، وهي الأخت أبو عراج من بلدة مشغرة تكفلت برعايتها لأن صداقة كانت تربط بين عائلتينا نظراً لكون إحدى شقيقاتها متزوجة من صديق لنا في جب جنين. أما نجلي عامر فقد سجلناه في مدرسة الذكور الداخلية التابعة لدير المخلص في قلب الدير، وكان يديرها في ذلك الوقت الأب أندريه حداد الذي أصبح تالياً مطراناً على زحلة حيث بقي راعياً لتلك الأبرشية طوال ربع قرن الى أن تقاعد في أواسط العام 2011. وكانت تلك المدرسة أيضاً على مستوى تعليمي رفيع، خصوصاً في اللغة العربية واللغة الفرنسية والرياضيات.

صحيح أن هذا الحل كان معقولاً بالنسبة الى تعليم الأولاد، لكنه أيضاً كان مرهقاً ومقلقاً في الوقت ذاته، لأن منطقة الجنوب التي يقع فيها دير المخلص تحولت تالياً الى منطقة اضطراب لكونها منطقة نفوذ أساسية للمنظمات الفلسطينية، ونظراً الى التناقض الذي وقع في وقت لاحق بين الفلسطينيين والحركة الوطنية بقيادة كمال جنبلاط من جهة، والسوريين من جهة ثانية، على مشارف مرحلة التدخل العسكري السوري في لبنان.

ثم قررت إدارة الجريدة تخصيص سائقين يتناوبان على قيادة سيارتي، واحد في الليل والآخر في النهار، وكلاهما من البقاع، وهما علي ساطي من بلدة كامد اللوز، ومحمد حرب من بلدة المرج، وفي وقت لاحق اشتدت فيه حدة القتال،

فرز لي الصديق عبد الرحيم أحمد، أمين جبهة التحرير العربية، مفرزة حراسة صغيرة من مقاتلي الجبهة مع سيارتهم الخاصة ترافقني في تنقلاتي. وأعترف أن هذا الترتيب الأمني الذي فرضوه علي، أو فرضته الظروف الأمنية، لم يكن مريحاً لي، فصرت أخاف من «أمني» أكثر من خوفي على أمني، لأنني وحدي لا ألفت نظر أحد، أما في موكب من هذا النوع فإنني ألفت كل الأنظار. ومن حسن الحظ أن هذا الوضع لم يدم طويلاً لأنني قبيل اقتراب السنة الدراسية من نهايتها في صيف 1976، قررت مغادرة لبنان الى فرنسا لترتيب إقامتي وإقامة العائلة في باريس، وتسجيل الأولاد في المدارس الفرنسية للسنة الدراسية التالية.

وعندما زرت بغداد لأول مرة بعد انتقالي الى أوروبا، وذلك في ربيع 1981، سألني مسؤول عراقي رفيع في ذلك الوقت بلهجة المعاتب عن سبب تركي لبنان على النحو المفاجىء الذي تم فيه ذلك، فقلت له بلهجة ناقدة راح يتفكر في مغازيها برهة: «في بيروت الغربية كنت في نظر الآخرين مسيحياً، وفي بيروت الشرقية كنت في نظر المسيحيين مسلماً، وكنت في نظر السوريين عراقياً، ولا أدري ما أنا في نظر العراقيين، فقل لي من أنا في نظركم». أخذ هذه الملاحظة بروح طيبة، وقال: «أنت أخ عزيز أينما كنت».

•••

كان جميع العاملين في الوسط الصحافي يعرفون بأن السلاح يتدفق على جميع الأفرقاء في لبنان، وكانت الحركة الوطنية اللبنانية بقيادة كمال جنبلاط، والمنظمات الفلسطينية المتحالفة معها، تتهم الجيش اللبناني بتسهيل تسليح حزب الكتائب وغيره من التنظيمات المسيحية، بدعم من الرهبانيات المارونية. وفي ذلك شيء من الصحة، وقد أكده بعض المسؤولين في تلك الرهبانيات تالياً[1].

وككل حادثة من هذا النوع في لبنان، راح السياسيون اللبنانيون يتبارون في تحميل كل فريق المسؤولية للفريق الآخر، فحمّل حزب الكتائب بشخص رئيسه الشيخ بيار الجميل المسؤولية للمنظمات الفلسطينية، خصوصاً في مخيم تل الزعتر، لتمددهم خارج المخيمات، وانبرت الأحزاب اليسارية المنضوية في الحركة الوطنية والمتحالفة مع الفلسطينيين تطالب بمحاسبة حزب الكتائب وتسليم مطلقي النار على بوسطة عين الرمانة. ومن هذا الاحتكاك الأولي في شهر نيسان/أبريل من عام 1975، انطلقت الدعوة الى عزل الكتائب التي تبناها زعيم الحركة الوطنية كمال جنبلاط[2].

---

(1) راجع الجزء الأول من مذكرات الآباتي بولس نعمان.

(2) كان أول من أطلق الدعوة الى عزل الكتائب جورج حاوي الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني في اجتماع لقادة أحزاب اليسار برئاسة كمال جنبلاط الذي تبنى الاقتراح. وأكد ذلك

في ذلك الجو المتوتر سياسياً وأمنياً، انعقد المجلس النيابي بعد أيام ليستمع الى رئيس الحكومة رشيد الصلح يتلو على النواب بياناً مكتوباً يتضمن تقديم استقالة الحكومة، وذلك بعد استقالة بعض الوزراء المسيحيين منها في أول جلسة لمجلس الوزراء منذ شهر بسبب مرض الرئيس سليمان فرنجية . وفي تلك الجلسة وقع تلاسن واشتباك بين رئيس الحكومة رشيد الصلح وبين نائب المتن الكتائبي الشيخ أمين الجميل، لأن خطاب رئيس الحكومة حمّل حزب الكتائب المسؤولية الكاملة عن حادثة بوسطة عين الرمانة، وقيل يومها إن أمين الجميل أراد منع رئيس الحكومة من مغادرة الجلسة بعد البيان محاولاً إلزامه البقاء لسماع وجهة نظر حزبه على الكلام الوارد فيه. ووسط ذلك العراك وما رافقه من هرج ومرج قال الرئيس رشيد كرامي لزميله ألبير منصور الجالس الى جانبه، إنه بات من المتعذر تشكيل أي حكومة في لبنان. وعلى الرغم مما قيل في وقته بأن البيان المكتوب الذي قرأه رئيس الحكومة في المجلس أعدته له الحركة الوطنية، فإن ذلك البيان تضمّن تشخيصاً مبكراً للأزمة العضوية في تكوين النظام اللبناني[3].

وفي أول لقاء لي مع الرئيس أمين الجميل في لندن أواخر تسعينات القرن الماضي، وقد جاء الى العاصمة البريطانية من مقر إقامته في باريس لإجراء مقابلة مع إحدى الفضائيات العاملة في لندن، حاولت أن أدقق معه في حادثة اشتباكه مع الرئيس رشيد الصلح، فقال لي إنه كان على علاقة ود وصداقة مع الرئيس الصلح، وإن الصور الفوتوغرافية التي ظهرت في الصحف في اليوم التالي أظهرت الأمر وكأنه اشتباك بالأيدي على عكس الواقع. فقد أراد شده من يده لإعادته الى مقعده لكي يستمع الى الرد الكتائبي، لأن الرئيس الصلح كان يريد مغادرة الجلسة من غير الاستماع اليه.

وتخفيفاً من الاحتقان الذي بدأ باستقالة بعض الوزراء المسيحيين[4]، ثم

جورج حاوي فيما بعد، معترفاً بأن شعار عزل الكتائب اتخذ كغطاء للحرب الأهلية.

(3) ركز بيان رشيد الصلح هذا على نقطتين ثم على استنتاجين. النقطة الأولى هي أن النظام اللبناني القائم لم يعد قادراً على الاستمرار بسبب التناقضات الحادة بين مكوناته. والنقطة الثانية هي أن النظام القائم بات على تناقض مع موجبات التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديموغرافي في البلاد. أما الاستنتاجان اللذان خلص اليهما فهما: إما أن يتجه النظام الى إلغاء الطائفية السياسية واعتماد الكفاءة والمساواة بين جميع اللبنانيين، وإما إعادة النظر في العلاقة بين الطوائف وفق وضعها الراهن لا وفق وضعها السابق المعتمد منذ عام 1943. وقال الصلح إنه يفضل الخيار الأول (إلغاء الطائفية السياسية)، وإذا تعذر ذلك فلا بد من الخيار الثاني (إعادة توزيع المحاصصة بين الطوائف). المرجع: محاضر مجلس النواب للعام 1975، العقد الاستثنائي الثالث.

(4) كانت حكومة رشيد الصلح المذكورة تضم وزيرين كتائبيين هما جورج سعادة ولويس أبو شرف، وقد قدما استقالتيهما من الحكومة عملاً بما هدد به الشيخ بيار الجميل في مؤتمره الصحافي. ولدى استقالتهما تضامن معهما وزيرا حزب الأحرار نديم نعيم ومحمود عمّار، وتبعهم المير مجيد أرسلان متضامناً. لكن جوزيف سكاف وزير الدفاع آنذاك لم يستقل بل اكتفى بالرد

العراك الذي نشأ بعد تلاوة بيان رئيس الحكومة، طلب رئيس المجلس النيابي كامل الأسعد شطب اتهامات الرئيس رشيد الصلح للكتائب من محاضر الجلسة، لكن رئيس حزب الكتائب الشيخ بيار الجميل عقد بعد الجلسة مؤتمراً صحافياً استنكر فيه بيان رئيس الحكومة منددا بما أسماه «انحداره الى هذا الدرك من اللاأخلاقية السياسية والوطنية واستغلال المجلس النيابي لخلق فتنة في البلاد».

•••

كان حزب البعث الموالي للعراق الذي تتبع له جريدة «بيروت» جزءاً من الحركة الوطنية برئاسة كمال جنبلاط، وبالتالي متبنياً لكل طروحاتها، بما في ذلك مضمون بيان رئيس الحكومة رشيد الصلح. وكنت بصفتي رئيساً لتحرير تلك الجريدة ملتزماً بهذا الخط بصورة عامة، وإن كانت لي تحفظات شخصية على تلك التركيبة، رجالات وأفكاراً، بما في ذلك الحالة الفلسطينية السائدة آنذاك، والتي كنت عبّرت عن بعضها سابقاً في جريدة «الكفاح» قبل نحو ثلاث سنوات. ولذلك هالني أن تنقسم البلاد وتنشطر على هذا النحو، ولم أكن في قرارة نفسي مرتاحاً الى الدعوة لعزل الكتائب، أياً كانت الظروف والمبررات، على الرغم من موافقتي وقبولي بتشخيص الحالة الكتائبية سابقاً ولاحقاً. ذلك أن فكرة العزل تحمل في طياتها نزعة الى تحكيم الاقتتال لأنها بطبيعتها رافضة للحوار الذي لا حياة وطنية سليمة في أي مكان من دونه. ومع أنه قد يكون منافياً للواقع تحميل الحركة الوطنية اللبنانية أي نزوع الى التقسيم، فإن طرحها فكرة العزل بالشكل الذي شهدناه في تلك المرحلة، هو مع الأسف طرح تقسيمي يتضمن مفارقة فكرية وأخلاقية بالنظر الى أن الفريق المطلوب عزله هو الداعي علناً الى حلول تقسيمية. فكأن تلك المفارقة لبست شكل معادلة غير معلنة مؤداها أن الفريق «المسيحي» يدعو الى التقسيم والفريق «الإسلامي» ينفّذه!

وهذه القسمة لا بد من توضيحها باختصار لئلا يساء فهمها وتوضع في غير إطارها، لأن «الفريق المسيحي» لم يكن يقتصر على المسيحيين، كما أن «الفريق الإسلامي» لم يكن مقتصراً على المسلمين. ولذلك كنت أدعو دائماً الى الحذر من الكليشهات التي كان يستسهلها بعض الكتاب في الشأن اللبناني في تلك المرحلة، وربما اليوم أيضاً، وخصوصاً بعض الزملاء العرب الذين لا يعرفون لبنان جيداً.

أول مرة التقيت فيها الأستاذ كمال جنبلاط، زعيم الحركة الوطنية اللبنانية، وجهاً لوجه وتحدثت اليه عن قرب، كانت عندما حضر الى مكتبي في مجلة

على ما جاء في بيان رئيس الحكومة من انتقادات لاذعة الى الجيش معلناً أن رئيس الحكومة لم يستشره قبل صياغة بيانه، واصفاً العبارات التي تضمنها حول الموضوع بأنها «جائرة بحق الجيش».

«الأحرار» بالقرب من فندق بريستول عام 1970 بصفته وزيراً للداخلية لتفقد آثار الانفجار الذي وقع عند الفجر في مكاتب المجلة. وقد كنت على معرفة تامة بأفكاره ومناحيه السياسية قبل أن ألتقيه، شأن معظم الصحافيين اللبنانيين في ذلك الوقت. بل إن بعض هؤلاء الزملاء كان مأخوذاً بالشخصية الجنبلاطية الفريدة الى درجة الهوس. ومن هذا القبيل، وبعد أكثر من سنة على اغتيال كمال جنبلاط في شهر آذار/مارس من عام 1977، وكنت حينها أعمل في مجلة «الدستور» الصادرة من لندن، جاءني زميل لبناني كان شديد القرب من كمال جنبلاط حاملاً الي موضوعاً صحافياً طالباً نشره، ويتضمن مقابلة حية مع زعيم الحركة الوطنية الراحل. وللوهلة الأولى ظننت أن تلك مقابلة أجراها مع جنبلاط قبل اغتياله لكنها لم تُنشر، الى أن أبلغني بصورة جدية أنه شاهده في منامه وأن الحديث المتضمن في المقابلة هو حديث في المنام!

أدهشني حضور كمال جنبلاط وزير الداخلية باكراً الى موقع الانفجار، قبلي وقبل نقيب الصحافة وحتى قبل بعض المسؤولين في المجلة، وعزوت ذلك الى ما عرف به الزعيم الوطني من تفانٍ في الخدمة العامة وإحساس مرهف بالمسؤولية والواجب. لكنني مع الوقت صرت ألاحظ تقرب العراقيين من جنبلاط، وتقربه منهم، وهذا له مدلولات مهمة في مرحلة كان من أبرز ملامحها الصراع السوري ـ العراقي، وانعكاساته بطبيعة الحال على الساحة اللبنانية.

وتصديقاً لهذه الملاحظة أبلغني مسؤول عراقي في ذلك الوقت أن كمال جنبلاط طلب من العراقيين تزويده بالسلاح، والملفت في الأمر أن ذلك كان في وقت مبكر جداً حتى قبل شيوع أنباء عن التسلح الكتائبي بثلاث سنوات على الأقل.

وعلمت تالياً أن العراقيين أبلغوا كمال جنبلاط أنه من المتعذر عليهم نقل الأسلحة المطلوبة الى لبنان، لكن بإمكانهم نقلها الى الأردن حيث للعراق وجود عسكري آنذاك، وهناك يسلمونها الى من ينتدبه لهذه الغاية، ويكون نقل تلك الأسلحة الى الأراضي اللبنانية، عبر المنظمات الفلسطينية أو بطرق أخرى، من مسؤوليته فقط. وبالفعل أوصل العراقيون ثلاثة آلاف قطعة سلاح مع ذخائرها الى الأردن، وانتدب جنبلاط معاونه في ذلك الوقت محسن دلول للذهاب الى الأردن لتسلمها.

في تلك المرحلة المبكرة كان ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية لا يزال في الأردن، وكان قائد القوات العراقية هناك حسن مصطفى النقيب، فاتصل عرفات بالنقيب وطلب منه أن يتفقد مخازن سلاح الجيش العراقي في الأردن، لأن الأسلحة العراقية تباع هناك على نطاق غير مألوف. وبالفعل شكل حسن النقيب لجنة من الضباط جالت على مخازن الجيش حيث أجرت جردة كاملة بأدق التفاصيل، فوجدت أن موجودات تلك المخازن كاملة ولم ينقص

منها قطعة واحدة. ثم تبين، كما علمت لاحقاً، أن كمال جنبلاط أوفد محسن دلول الى الأردن لتسلم الهدية العراقية وبيعها في أرضها لتعذر نقلها الى لبنان عبر الحدود السورية. ولذلك يمكن القول بأن الاستعدادات للحرب اللبنانية بدأت قبل وقت غير قصير من ظهور بوادر الاحتقان السياسي المعروفة أعراضه وتفاصيله للعموم. كما يُستدل من ذلك أن الأطراف اللبنانية المعنية كانت واعية ومدركة لانعكاسات الصراع السوري ـ العراقي في لبنان، فبدأت تتمحور حوله، بعضها عرض خدماته كالعادة اللبنانية التاريخية على هذا الفريق أو ذاك، وبعضها وجد فيه فرصة للاستقواء على خصومه، وبعضها أراد تأجيجه لمصلحة أطراف ثالثة، وربما رابعة أو خامسة.

•••

وكنت في ذلك الوقت أعرف المنزلة العالية لكمال جنبلاط في الاتحاد السوفياتي على المستوى القيادي، ولهذا لا أستطيع أن أفصل بين علاقة جنبلاط المبكرة مع بغداد وبين شهر العسل السوفياتي ـ العراقي في مطلع السبعينات والذي عبر عن ذاته في اتفاق الحكم الذاتي للأكراد بين صدام حسين والملا مصطفى البارزاني برعاية مباشرة من موسكو، كما مرّ[5]. وبالتالي، فإنني لا أستطيع اليوم إلاّ أن أضيف البعد الدولي في الأزمة اللبنانية الى الصورة المتداخلة بين العوامل المحلية والإقليمية للوضع اللبناني في ذلك الوقت. وهذا يفسر الى حد ما تصريحات عديدة أطلقها الشيخ بيار الجميل رئيس حزب الكتائب كان يحمِّل فيها الشيوعية الدولية مسؤولية تأجيج الحرب، لكنني في ذلك الوقت كنت أعزو ذلك الى حاجة دعائية بالنظر الى ارتباط الكتائب بالمعسكر الغربي آنذاك.

وهناك عنصران اثنان في التطورات السياسية اللبنانية يلقيان الضوء على هذه المناحي الدولية في سياق الدخول العسكري السوري الى لبنان بإجازة أميركية هما: الموافقة اللبنانية من جانب القوى المسيحية المعارضة للوجود الفلسطيني المسلح على الأراضي اللبنانية على دخول القوات السورية الى لبنان، والمعارضة السوفياتية للدخول السوري كما عبّر عنها آنذاك أليكسي كوسيغين رئيس الحكومة السوفياتية والنصير الأول في موسكو للعلاقات السوفياتية ـ العراقية[6].

ويمكنني أن أقول في هذا السياق إن علاقة كمال جنبلاط مع العراقيين في ذلك الوقت المبكر كانت أعمق وأوسع مدى مما كان ظاهراً للعيان. ووضع ذلك

---

(5) راجع الفصل من الكتاب بعنوان: «في عرين كاكا مصطفى» حول تفاصيل التوجهات السوفياتية والعراقية التي سهّلت الوصول الى الاتفاق المذكور.

(6) تم توقيع معاهدة الصداقة والتعاون بين الجمهورية العراقية والاتحاد السوفياتي أثناء زيارة رسمية قام بها رئيس الحكومة السوفياتية أليكسي كوسيغين الى بغداد في شهر نيسان/أبريل من عام 1972.

في إطار السياسة السوفياتية التي كان فيها للزعيم الجنبلاطي موقع متقدم، لا يعبِّر عن الحقيقة كاملة، بل ربما كانت تلك العلاقة عاملاً مساعداً، بسبب نفور جنبلاط من السياسة السورية الجديدة التي اعتمدها الرئيس حافظ الأسد بدعم من الغرب، بعد انقلابه على نظام صلاح جديد المتحالف مع موسكو، ومعرفته، في رأيي، بتفاصيل المغازل الدولية في تحييك النسيج السوري - اللبناني المطل مع ذلك الانقلاب برعاية أميركية، خصوصاً مع انتقال الثورة الفلسطينية انتقالاً كاملاً الى لبنان بعد اتفاقية القاهرة ومعارك الأردن . وبالتالي فإن الموقف المميز الذي اتخذه كمال جنبلاط، والمائل الى نوع من التطرف الملفت في ذلك الوقت، لم يكن مجرد شغف بالثورة الفلسطينية أو بقائدها ياسر عرفات. وليس بعيداً عن الواقع القول بأن كمال جنبلاط فهم الدخول السوري الى لبنان على أنه ضده أكثر مما كان ضد ياسر عرفات.

•••

مع استمرار الاحتكاكات المسلحة بين الميليشيات التابعة للكتائب والجبهة اللبنانية، وبين المنظمات الفلسطينية في محيط مخيمات اللاجئين وبؤر الفقر الإسلامية الواقعة في بيروت الشرقية، من ضبيه وتل الزعتر الى الكرنتينا والنبعة والمسلخ، بدأ الوضع الأمني في بيروت يأخذ منحى خطراً، فامتدت الاشتباكات وعمليات القصف المتبادل الى المحور القريب من مكاتب جريدتي «بيروت» و«المحرر»، على خط التماس بين الشياح وعين الرمانة عند كنيسة مار مخايل الى غاليري سمعان على طريق الحازمية، وهو الطريق الدولي الرئيسي المؤدي الى البقاع والى سوريا.

وبالتزامن مع التأزم الأمني تفاقمت الأزمة الحكومية بعد استقالة حكومة رشيد الصلح، والرفض الإسلامي في اجتماع انعقد بدار الفتوى، ومعه رفض الحركة الوطنية بقيادة كمال جنبلاط، ومعها ضمناً المنظمات الفلسطينية، للحكومة العسكرية التي شكلها الرئيس سليمان فرنجية برئاسة العميد أول المتقاعد نور الدين الرفاعي[7]، حيث جوبهت تلك الحكومة، وهي أول حكومة عسكرية في تاريخ لبنان الحديث، بموجة صاخبة من العداء والتجريح برئيسها

(7) تألفت الحكومة العسكرية التي لم تدم إلاّ ثلاثة أيام بتاريخ 23 أيار/مايو 1975 ولم تعقد سوى جلسة واحدة هي جلسة الاستقالة في 26 من الشهر ذاته تلبية لطلب الهيئات الإسلامية بعد اجتماعٍ دار الفتوى، وتشكلت على النحو التالي: العميد الأول الركن نور الدين الرفاعي (سني) رئيساً لمجلس الوزراء، ووزيراً للعدل، والصحة العامة، والصناعة والنفط، العميد الركن موسى كنعانٍ (أرثوذكسي) نائباً لرئيس الحكومة ووزيراً للإعلام والتربية، العماد اسكندر غانم (ماروني) وزيراً للدفاع والموارد المائية والكهربائية، العميد الركن فرانسوا جينادري (كاثوليكي) وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية والبريد والبرق والهاتف، اللواء سعيد نصر الله (شيعي) وزيراً للداخلية والإسكان والتعاونيات، العميد فوزي الخطيب (سني) وزيراً للاقتصاد والتجارة والتصميم العام، العقيد الركن زين مكي (شيعي) وزيراً للأشغال العامة والنقل والزراعة، لوسيان دحداح (ماروني، والمدني الوحيد في الحكومة) وزيراً للخارجية والمغتربين والسياحة.

في صحافة بيروت الغربية التي استضافت قبل أشهر قليلة مولوداً جديداً في نادي الصحافة اللبنانية، هو جريدة «السفير» الممولة آنذاك من الزعيم الليبي معمر القذافي.

عندما تفاقم الوضع الأمني واتسعت الاشتباكات على مختلف المحاور، خصوصاً على محور الشياح ـ الحدث ـ الحازمية، مما أدى الى قطع الطريق الدولية، بعد صدور بيان دار الفتوى المطالب باستقالة الحكومة العسكرية، أوفد الرئيس السوري حافظ الأسد في اليوم التالي، أي في 24 أيار/مايو، وزير خارجيته عبد الحليم خدام ومعه نائب وزير الدفاع آنذاك اللواء ناجي جميل، فاجتمع الموفدان السوريان بالرئيس فرنجية ثم بأركان الجبهة اللبنانية الشيخ بيار الجميل والرئيس كميل شمعون، وتم التفاهم على استقالة الحكومة العسكرية وتكليف الرئيس رشيد كرامي تشكيل حكومة سياسية أطلق عليها اسم «حكومة الإنقاذ الوطني». وقد استغرق تشكيل الحكومة الكرامية الجديدة شهراً ويومين (من 28 أيار/مايو الى 30 حزيران/يونيو). وجاء تشكيل تلك الحكومة مختصراً ومقتصراً على وزير واحد لكل طائفة من الطوائف الرئيسية، وذلك بعد إعلان كل من زعيم الحركة الوطنية كمال جنبلاط ورئيس حزب الكتائب الشيخ بيار الجميل رفضهما المشاركة في حكومة كرامي[8].

ومع أن هذه الحكومة أحدثت حالة من الانفراج النسبي في البلاد، إلاّ أن الأحداث الدامية ما لبثت أن دهمتها فذهبت ريحها بعد أشهر ستة فقط، حين جرى قتل أربعة من الكتائبيين في منتصف شهر كانون الأول/ديسمبر 1975، وهو الحادث الذي أطلق عمليات انتقامية عشوائية من قبل قوات الكتائب فيما عرف بيوم «السبت الأسود» الذي ذهب ضحيته عشرات القتلى من المسلمين ومئات المفقودين، خصوصاً في منطقة مرفأ بيروت وطريق النهر، وما تلا ذلك من اجتياح لمخيم ضبيه وتهجير لسكان الكرنتينا والمسلخ على يد القوات الكتائبية، ثم رد القوات الفلسطينية باجتياح بلدتي الدامور والجية على طريق صيدا وقتل وتهجير سكانهما من المسيحيين[9].

(8) هي الحكومة التاسعة برئاسة رشيد كرامي وقد تشكلت على النحو التالي: رشيد كرامي (سني) رئيساً لمجلس الوزراء وزيراً للمالية والدفاع والإعلام، كميل شمعون (ماروني) وزيراً للداخلية والبريد والبرق والهاتف والموارد المائية والكهربائية، عادل عسيرن (شيعي) وزيراً للعدل والأشغال العامة والنقل والاقتصاد والتجارة، مجيد أرسلان (درزي) وزيراً للصحة والزراعة والإسكان والتعاونيات، فيليب تقلا (كاثوليكي) وزيراً للخارجية والتصميم العام والتربية الوطنية، غسان تويني (أرثوذكسي) وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية والسياحة والصناعة والنفط.

(9) تم اجتياح الكتائب لمخيم ضبيه يوم 18 كانون الثاني/يناير من عام 1976 ، وقامت المنظمات الفلسطينية والجنبلاطية باجتياح الدامور وتدميرها وتهجير أهاليها يوم 20 من الشهر ذاته، أي بعد يومين فقط. وما زال الموقف السوري من واقعة الدامور ملتبساً، لأن هناك من يؤكد بأن قوات «الصاعقة» التابعة للنظام السوري كانت هي رأس الحربة في الهجوم، بينما هناك آراء عديدة

وبعد أقل من أسبوعين على الاجتياح المروِّع للدامور مررت في المكانِ في طريقيٍ الى البقاع لأن طريق الحازمية الدولي لم يكن سالكاً، فرأيت خراباً عاماً وشاملاً لم يسلم منه أحد أو شيء، بما في ذلك البيوت والبساتين والمواشي. إنه مشهد كارثي يصعب وصفه بكلمات قليلة، بل هو أشبه ما يكون الى صورة «غورنيكا» التي تمثلها الرسام الإسباني العالمي بابلو بيكاسو لما حل بتلك المدينة في الحرب الأهلية الإسبانية في أواخر ثلاثينات القرن الماضي. هي تعبير حي عن الهمجية التي ضربت اللبنانيين بمختلف أطيافهم، فنزعت الأقنعة عن جميع الوجوه. وقد توقفت بسيارتي لدقائق أمام تلك المدينة الخربة المنزوعة الأبواب والشبابيك والمراحيض والحمامات وبلاط البيوت، ولا ينقصها لتكتمل مشهديتها الفظيعة سوى أن ينعق البوم بين أطلالها.

وبعد ذلك بفترة وجيزة توجهت الى دير المخلص لزيارة ابنتي ريما في مدرسة الراهبات وابني عامر في مدرسة الدير، فوجدت في باحات الدير وجواره عائلات عديدة مهجرة من بيوتها في الدامور، وكان الأب أندريه حداد مديرِ المدرسة آنذاك يسهر على تقديم المعونات اللازمة لهم، وكان ذلك أيضاً مشهداً غير مريح. وبعد أسابيع قليلة من زيارتي تلك الى دير المخلص حيث تسنى لي أن أقف على أحوال أهل الدامور المهجرين، جاءني أن القيادة العراقية قررت إرسال مساعدات غذائية الى المحتاجين في لبنان بسبب التهجير المتبادل والضائقة المعيشية المرافقة له، وما هي إلاّ أيام حتى وفدت قوافل من الشاحنات الضخمة عن طريق سوريا محملة بمختلف المواد الغذائية، أُرسلت لي منها الى جب جنين شاحنة ضخمة محملة بأكياس الطحين وأكياس التمر لتوزيعها في البلدة، فاستأجرت جراراً زراعياً له قاطرة قمنا بتحميلها بنحو عشرين كيساً من الطحين ومثلها من التمر وطلبت من أحد الأصدقاء أن يوصلها الى الأبِ أندريه حداد في دير المخلص لفائدة المهجرين من الدامور، فكان مسروراً غاية السرور بهذه المبادرة غير المتوقعة لا منه ولا مني.

•••

كان الرئيس رشيد كرامي، رحمه الله، أحد الشخصيات السياسية الإسلامية القليلة التي فهمت علة الكيان اللبناني على حقيقتها، فكانت لديه القدرة على إدارته إدارة عملية ومرنة، خصوصاً عند المفاصل التاريخية التي تدفع أمواجها السفينة اللبنانية الى بحر هائج. كان يستطيع أن يعمل بحكومة من أربعة وزراء أو ستة بالسهولة ذاتها التي كان يعمل فيها بحكومة من ستة عشر وزيراً أو من أربعة وعشرين وزيراً وأكثر. وفي رأيي الشخصي أنه لم يأت على رأس الحكومة اللبنانية منذ الاستقلال شخص من عياره يستطيع أن يقدم ترجمة عملية

مخالفة بالنظر الى أن العلاقات بين النظام السوري والجبهة اللبنانية كانت ما زالت قائمة وغير منقطعة.

للصيغة المتفق عليها في لبنان للمحافظة على التوازن والاتزان. هو أدق وأكفأ من حمل الميزان، فلا عجب أنه كان رجل الملمات في كل العهود على اختلافها، وعلى اختلافه عنها.

أنا شخصياً لم أعرف رشيد كرامي عن قرب، بل كنت أنظر اليه نظرة ريبة لا مبرر لها في الواقع سوى انطباعات ضيقة مثل حماسي لانطلاقة الدكتور عبد المجيد الرافعي السياسية في طرابلس في وجه الحالة الكرامية التاريخية لأسباب طبيعية أهمها أنني كنت أعرف هذا ولا أعرف ذاك، مع علمي الأكيد بأن الرافعي بالمعايير اللبنانية ليس من عيار رشيد كرامي. لكن الحماسة للرافعي كانت من طبيعة الجو الذي كنت أعيش وأعمل فيه، ولو أن تجربتي اللاحقة في جريدة «بيروت»، من حيث العمل المباشر مع الدكتور عبد المجيد الرافعي، كانت مخيبة للآمال من أولها، ابتداءً من اختياره محمد عبد المولى لإدارة التحرير من غير مشاورة أحد، وانتهاء بتدخله في حديث الرئيس المصري أنور السادات للجريدة كما سأشرحه على حقيقته تالياً.

وقبل ذلك بزمان طويل، وكنت بعد على مقاعد الدراسة الثانوية، يوم كان تكويني السياسي على مدار مختلف وبعيد عن الحالة اللبنانية الواقعية، وتحديداً في عام 1954، حدث شيء يتعلق برشيد كرامي سلباً، قام به قريبي وعم زوجتي أديب الفرزلي الذي فاز في أول انتخابات نيابية جرت في عهد كميل شمعون، وتم اختياره رئيساً للجنة الطعون البرلمانية المكلفة النظر بالطعون المقدمة من المرشحين الراسبين، وكان كمال جنبلاط من بين أعضاء تلك اللجنة.

وأفقت ذات يوم لأجد هرجاً ومرجاً في عائلتنا ودائرتها القريبة، سببه المخاوف التي راجت عن إمكانية تعرض قريبنا النائب لاعتداء من أنصار رشيد كرامي الذين توافدوا من طرابلس احتجاجاً على قرار اتخذته لجنة الطعون النيابية برئاسة أديب الفرزلي بإبطال نيابة رشيد كرامي لمصلحة مقدم الطعن المرشح قبولي الذوق. طبعاً تلك المخاوف لم يكن لها مبرر، لأنه لا شيء في لبنان يصل الى نهاياته الطبيعية، فقرار الطعن بقي في الأدراج وبقي رشيد كرامي في مقعده، لكن الشيء الذي علق في ذهني من تلك الحادثة التي كنت أراها تافهة في حينه إزاء المثاليات المالئة لخيال جيلنا، هو نظرة سلبية الى رشيد كرامي السياسي الشاب المبتدىء للجوئه، أو لجوء أنصاره، الى أساليب غوغائية للتعبير عن مواقفهم.

لكنني اليوم أنظر الى رشيد كرامي بعين تاريخية مختلفة لا تحجبها الغشاوات الطفولية أو الحزبية. وأقول إن الذين قتلوه، أو قرروا اغتياله في ذروة الأزمة اللبنانية، كائناً من كانوا، إنما قتلوا إمكانية أن يكون الحل للأزمة حلاً لبنانياً خالصاً، لمصلحة الحلول الوافدة من الخارج. ومن هنا يمكننا أن نفهم سر

تمسك رشيد كرامي بكميل شمعون الى درجة جعله شريكاً في رئاسة الحكومة، على الرغم من خصومته السابقة معه يوم كان شمعون رئيساً للجمهورية.

فالتعديل الذي أجري على حكومة كرامي التاسعة ينبىء بذلك، مع أنه جرى بعد انتخاب الياس سركيس رئيساً للجمهورية وقبل تسلمه مهامه رسمياً، وكنت يومها قد هاجرت الى باريس، وبقيت متابعاً لما يجري في لبنان على أمل العودة اليه قريباً، وهو حلم لم يتحقق مع الأسف على الرغم من تجربة العودة القصيرة بعد انتخاب الرئيس أمين الجميل في خريف عام 1982.

هذا التعديل الوزاري الذي أجري على الحكومة الكرامية التاسعة، أهم ما تضمنه أنه جعل كميل شمعون نائباً لرئيس الحكومة[10]، لأن الحكومة المذكورة تألفت بدون تعيين نائب للرئيس. وفي هذا افتراق عن الأعراف السائدة بأن يكون منصب نائب رئيس الحكومة لطائفة الروم الأرثوذكس، والأهم من ذلك أنه جعل صلاحيات نائب الرئيس كاملة مثل صلاحيات الرئيس في حال غيابه أو تعذر حضوره. فأين هذا من الجدل الذي ما زال قائماً الآن حول صلاحيات نائب الرئيس واعتبارها انتقاصاً من صلاحيات رئيس الحكومة الى درجة أن فؤاد السنيورة في حكومة ما بعد الدوحة «طرد» نائبه عصام أبو جمرا من السراي ولم يسمح له بإقامة مكتب الى جواره في المقر الرسمي للحكومة.

لست هنا بصدد استعراض تفاصيل الوضع السياسي اللبناني الداخلي حتى مغادرتي لبنان في مطلع حزيران/يونيو من عام 1976، لكنني أردت أن أضيء على إمكانية الحل الوطني الداخلي للأزمة اللبنانية، وعلى المساعي الداخلية والخارجية لمنع هذه الإمكانية وطمسها، لأن هذا مستمر الى الآن، وكذلك إنصافاً للتوجه الوطني الذي قاده الرئيس رشيد كرامي في هذا السياق. ذلك أن إحباط الحل الوطني الداخلي بين الفئات اللبنانية المتنازعة، هو سياسة ثابتة للقوى الدولية والإقليمية النافذة التي تتوخى أن يبقى زمام الأمور في لبنان بأيديها لا بأيدي أصحاب الشأن.

والذين من اللبنانيين هللوا ويهللون لاتفاق الطائف، وتفاهم الدوحة، والاستقواء بمجلس الأمن أو ما يسمونه المجتمع الدولي، أو المنتظرين

(10) في هذا التعديل خرج الوزير فيليب تقلا من الحكومة ليحل محله الزميل الصحافي جورج سكاف صاحب ورئيس تحرير جريدة «الجريدة»، الذي أنيطت به وزارة المالية، فتوزعت الحقائب المعدلة على النحو التالي: رشيد كرامي رئيساً للحكومة ووزيراً للزراعة والسياحة والإسكان والتعاونيات، كميل شمعون نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية والداخلية والدفاع الوطني، عادل عسيران وزيراً للعدل والتربية الوطنية والتصميم العام، مجيد أرسلان وزيراً للأشغال العامة والنقل والموارد المائية والكهربائية والصحة العامة، غسان تويني وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية والإعلام والصناعة والنفط، جورج سكاف وزيراً للمالية والاقتصاد والتجارة والبريد والبرق والهاتف. ويمكن القول إن هذه الحكومة هي حكومة شمعونية مائة في المائة باستثناء رئيسها. ويمكن لأي محلل أن يقرأ في ذلك دلالات تفوق الحصر في السياسة اللبنانية على الرغم من أن هذه الحكومة لم تدم إلاّ لأيام معدودات.

الحلول لمشكلات البلاد من الخارج، بصرف النظر عن نوايا هذا الخارج والمعرفة الأكيدة بمراميه، (حسب التعبير اللاتيني المطابق لهذه الوضعية Ex Deus Machina)، ما لبثوا أن اكتشفوا أن المداخلات الخارجية ليس لديها حلول حقيقية، وأن ما تطرحه تلك المداخلات من حلول سطحية، كما ثبت من تجربتي الطائف (1989) والدوحة (2008)، هو في واقع الأمر تأسيس لمشكلات جديدة تمنع اللبنانيين من إيجاد حلولهم بأنفسهم. أليس هذا هو منطق الدعوة الى طاولة الحوار بين الأفرقاء اللبنانيين، سواء في طاولة الحوار الأولى التي دعا اليها رئيس المجلس النيابي نبيه بري في ساحة النجمة، أو طاولة الحوار الثانية التي دعا اليها رئيس الجمهورية ميشال سليمان في القصر الجمهوري في بعبدا؟ هو على الأقل اعتراف بأن الحلول أو الوصفات أو العلاجات الوافدة من الخارج لم تكن ناجعة، وربما لن تكون.

قبل كل ذلك بسنوات وعقود حاول الرئيس رشيد كرامي التأسيس لطاولة حوار وطني عندما عادت الأحوال الأمنية للاضطراب في أعقاب فترة الهدوء التي رافقت مجيء حكومته التاسعة. بل هو دعا الى طاولة حوار عقدت جلسة وحيدة قبل انهيار الأوضاع اللبنانية، إذ يمكن القول بأن الانهيار الأمني جاء نتيجة لنجاح الرئيس كرامي في عقد طاولة حوار وطني لبناني في 25 أيلول/ سبتمبر من عام 1975 بعد يوم واحد فقط من تشكيل هيئة الحوار على يده[11]. وهذه المبادرة الكرامية المبكرة الى الحوار اللبناني - اللبناني بغية إيجاد حل وطني داخلي للأزمة لم ترق للقوى الخارجية المتدخلة في الشأن اللبناني وعلى رأسها إسرائيل التي راحت تكثف غاراتها وقصفها على القرى اللبنانية الجنوبية، وعلى المنظمات الفلسطينية المتواجدة في جوارها، في تناغم واضح مع ميليشيات الأمر الواقع في الداخل اللبناني، ومع تصاعد الدعوة الى عزل الكتائب في أوساط الحركة الوطنية. وغني عن القول إن الحوار الوطني هو النقيض التام لفكرة العزل، أو لتهمة الانعزالية التي ألصقتها الحركة الوطنية بشريحة واسعة من اللبنانيين، في منطق مغلوط تلتبس فيه مفاهيم العزل والعازل والمعزول، حيث الجهة التي نادت بعزل فئة من اللبنانيين هي التي اتهمتها بالانعزالية، بحيث يمكن القول بأنها دفعتها اليها لتبرير اتهامها.

وأشد ما أستغربه الى اليوم أن الذين كتبوا في المسألة اللبنانية في تلك الحقبة من لبنانيين وعرب وأجانب تجاهلوا عن قصد أو عن غير قصد بذرة

---

(11) تشكلت هيئة الحوار الوطني التي شكلها الرئيس كرامي من الشخصيات التالية: كامل الأسعد، رشيد كرامي، كميل شمعون، عبد الله اليافي، صائب سلام، مجيد أرسلان، فيليب تقلا، غسان تويني، كمال جنبلاط، بيار الجميل، ريمون إده، رينه معوض، خاتشيك بابكيان، رضا وحيد، الياس سابا، عباس خلف، نجيب قرانوح، إدمون رباط، عاصم قانصو، حسين عواضة. وهي حسب التوزيع الطائفي المعمول به في لبنان تضم أربعة من الموارنة، وأربعة من السنّة، وأربعة من الشيعة، وثلاثة من الروم الأرثوذكس، واثنين من الدروز، واثنين من الروم الكاثوليك، وواحداً من الأرمن.

الحوار الوطني الداخلي التي زرعها الرئيس رشيد كرامي، بينما نراهم جميعاً تقريباً يسلمون بأن حرب لبنان هي مظهر لصراع خارجي، وهو ما صدّقه وصدّق عليه اللبنانيون أنفسهم بشعار «حرب الآخرين على أرضنا». وفي تقديري، حسب قراءتي لما آلت اليه الأمور تالياً، أن تظهير ما جرى في لبنان على أنه احتراب قوى خارجية بأدوات لبنانية، هو إعلان على الملأ، وخصوصاً للبنانيين، بأن الحلول لأزمتهم هي في أيدي تلك القوى الخارجية المحتربة على أرضهم، وليس عليهم سوى التحمل والانتظار الى أن تدق الساعة الخارجية. إنهم يقولون لهم: «أيها اللبنانيون أنتم لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً بأنفسكم، فلا تحاولوا». فليس من قبيل الصدفة أو الأمر العارض أن جميع طاولات الحوار اللبناني قد فشلت حتى الآن، بما فيها تلك التي انعقدت في الخارج.

•••

بعد تعارفي بمحض المصادفة العابرة مع أنور الجمل الملحق الإعلامي في السفارة المصرية في بيروت، في فندق شيبرد القاهرة عام 1974، عند زيارتي لمسرح العمليات العسكرية في سيناء خلال حرب السنة السابقة مع إسرائيل وعبور القوات المصرية المسلحة لقناة السويس عبر تحصينات خط بارليف، نشأت بيني وبين الجمل في بيروت علاقة ود واحترام كل منا ذكاء الآخر بدون مجاملة أو رتوش. وفي الأسبوع الأخير من شهر أيار/مايو 1975 اتصل بي وقال إنه يود لقائي والتحدث معي في أمر مهم، فتواعدنا والتقينا في اليوم التالي. وفي بداية اللقاء راح يطري جريدة «بيروت» وما فيها من مقالات وتعليقات، ثم يقول كما في اللقاءات القليلة السابقة: «كيف لم نتعارف من قبل؟» أو «ليتنا تعارفنا في السنين الماضية». ثم قال لي إن الرئيس المصري أنور السادات سوف يقوم بعد أيام بافتتاح قناة السويس أمام الملاحة الدولية بعد تنظيفها وإعادة تأهيلها، وسيكون ذلك في الخامس من حزيران/يونيو، في الذكرى الثامنة لنكسة حرب 1967، وهو (أي أنور الجمل) تقديراً منه لي شخصياً وللجريدة التي أقوم على رئاسة تحريرها، يريدني أن أكون حاضراً تلك المناسبة الفريدة، فلا تفوتني فرصة التعرف الى الرئيس السادات عن قرب والتحدث اليه.

ولم يفاجئني ذلك ظناً مني أن الدعوة عامة وتشمل جميع الصحافيين مما هب ودب، كما كانت العادة في المرحلة الناصرية يوم كان أنور الجمل شاغل الصحافة اللبنانية ومالىء أعمدتها. فاعتذرت منه وقلت له إنني لا أستطيع أن أذهب الى مصر في هذا التاريخ لارتباطي بأمور أخرى، لكنه بقي ملحاً على عدم تفويت هذه المناسبة الفريدة. وأخيراً قلت له إنني لن أذهب شخصياً لكنني سوف أنتدب مدير التحرير محمد باقر شري ليمثل الجريدة، وهو صحافي متمكن وناصري الهوى ويحب مصر والمصريين أكثر مني. كل ذلك ولم يقل

لي أنور الجمل، أو هو لم يكن يعرف في حينه، أن الدعوة لافتتاح قناة السويس خاصة بجريدة «بيروت» ولن يكون هناك أي صحافي آخر عربي أو أجنبي.

هذا علمته فيما بعد عندما أبلغني محمد باقر شري أن السادات استقبله لوحده على متن بارجة حربية مصرية وأعطاه حديثاً خاصاً بجريدة «بيروت»، وهو عائد مع الحديث والصور في اليوم ذاته، وأن «وكالة أنباء الشرق الأوسط» المصرية الرسمية سوف توزع الحديث تلك الليلة ليصدر في الصحف بالتزامن مع صدوره في جريدة «بيروت».

وقبل أن أقرأ الحديث، تأملت في صور أنور السادات على ظهر البارجة الحربية وهو يرتدي بزة أميرال بيضاء، وكأنه يقود أسطول دولة عظمى، حيث بدت على وجهه وتقاسيمه ملامح كبرياء واضحة. وكنت قبل ذلك بقليل تلقيت عبر الوكالة المصرية خلاصة للحديث مع تنويه بأنه حديث خص به الرئيس السادات جريدة «بيروت»، وأنا أعرف أهمية ذلك من الناحية الصحافية والمهنية البحت بالنسبة الى أي جريدة في العالم.

وأهم ما في الحديث أن السادات اختار جريدة «بيروت» بهذه المناسبة ليطلق من على منبرها نداءً خاصاً الى الشيخ بيار الجميل رئيس حزب الكتائب اللبنانية، يناشده فيه باسم وطنيته وعروبته ووشائجه مع مصر أن يعض على الجراح، ويتعالى على الصغائر، ويتحلى بالشجاعة لتجنيب لبنان والعرب كارثة قومية جديدة بعدما نجحت مصر في إزالة لطخة هزيمة حزيران/يونيو. وقد سبق للرئيس السادات أن أشاد بعروبة زعماء المسيحيين في الجبهة اللبنانية، خصوصاً الرئيس سليمان فرنجية والرئيس كميل شمعون الذي كرر وصفه بأنه «فتى العروبة الأغر»، مما أثار حفيظة العميد ريمون إده الذي بعث الى السادات مع كمال جنبلاط بمعاتبة لا تخلو من القسوة، حيث قال لجنبلاط إن السادات كان ليغدق عليه ألقاب العروبة لو أنه قام بقتل عدد من المسلمين في البسطة!

ولما كانت أجواء البلاد مكهربة وصاعقة، والدعوة الى عزل الكتائب على أشدها لدى الجنبلاطيين وأحزاب الحركة الوطنية، فقد ارتأيت مشاورة قيادة حزب البعث في لبنان في الأمر قبل نشر الحديث، وبعثت بنص الحديث الى الدكتور عبد المجيد الرافعي الذي عاد الي بعد نحو ساعة يطلب مني عدم نشره.

وعبثاً حاولت إقناع قيادة الحزب بأن الحديث أعطي خصيصاً لجريدة «بيروت» التي أوفدت مدير تحريرها لهذه الغاية، وبأن وكالة الأنباء المصرية الرسمية وزعته على كل حال منسوباً الى الجريدة، وسوف تنشره صباح اليوم التالي في السادس من حزيران/يونيو جميع الصحف العربية وربما العالمية أيضاً، وبالتالي فإن امتناع جريدة «بيروت» عن نشر حديث أعطي لها

خصيصاً يشكل سابقة فريدة في تاريخ الصحافة، بل هو فضيحة بكل معنى الكلمة، ملمحاً الى استقالتي من رئاسة التحرير إذا هم أصروا على عدم النشر. ثم حاولت تطرية الأمور بأسلوب آخر، فقلت لهم صحيح إنه أمر غير مألوف أن تنشر جريدة شيئاً يتعارض مع توجهات القائمين عليها، لكن هناك طريقة محترمة لتغطية ذلك، تقضي بأن ننشر الحديث كما ورد، ثم نناقشه ونعترض عليه في تعليق ننشره الى جانبه، فنكون احترمنا أنفسنا والمعايير المهنية، ونكون في الوقت ذاته قد عبرنا عن آرائنا ومواقفنا بحرية.

كل هذا الكلام والمنطق ذهب أدراج الرياح وأصروا على عدم النشر. وفي صباح اليوم التالي حدث ما توقعت، إذ نشرته الصحف الصادرة ذلك اليوم عن «وكالة أنباء الشرق الأوسط» منسوباً الى جريدة «بيروت» التي امتنعت عن نشره. وبطبيعة الحال ركزت عناوين الصحف على بيت القصيد فيه وهو «نداء السادات الى الشيخ بيار الجميل».

ساورني الغضب والقرف من قرار عدم نشر نداء السادات، وعزمت على الاستقالة، لكنني آثرت التريث لمعرفة الدوافع والحيثيات، وتبيُّن ما وراء الأمر كله من أوله الى آخره. لكنني على الأرجح كنت سأصر على الاستقالة مهما كلف الأمر لو أيقنت أنني أنا الذي كنت مستهدفاً، أو ربما لو كنت أنا الذي أجرى المقابلة مع السادات، كما أراد وتوقع أنور الجمل. وعلى كل حال، وبعدما صار ما صار، رحت أطرح على نفسي أسئلة صعبة حاولت من خلالها أن أستنتج شيئاً قد تكون له علاقة بما يجري في لبنان. ومن هذه الأسئلة مثلاً:

لماذا اختار الرئيس أنور السادات، أو اختاروا له، جريدة «بيروت» منبراً لحديثه وهم يعرفون هويتها وارتباطاتها، لكونها مملوكة من حزب البعث وموالية للعراق؟

لماذا، كما هو مفترض ومتوقع، لم يقم المصريون بدعوة الصحافة العربية والعالمية كلها الى هذه المناسبة الفريدة التي تهم العالم بأسره، لكونها تتعلق بإعادة الملاحة الدولية الى قناة السويس كشريان حيوي للتجارة العالمية ونقل النفط بوجه خاص، مع أنه من المعروف عن الرئيس السادات ميله الى المظاهر والفخفخة والأبهيات، وهذه فرصة استعراضية لا تفوّت لهذه الغاية؟

لماذا لم يخبرني أنور الجمل بأن جريدة «بيروت» ستكون الشاهد الوحيد في ذلك الاحتفال المهيب؟ هل كان يعرف الغاية من ذلك وأخفى الأمر عني، أم كان ينفذ تعليمات من القاهرة لا يعلم بغاياتها وأهدافها، ولا شك في أنه عرف قطعاً أن دعوته تشمل جريدة «بيروت» تحديداً، لأنه لم يقم بدعوة أي صحيفة لبنانية أخرى؟

لماذا اختار السادات أو اختاروا له منبراً عراقياً لتوجيه ندائه الى الشيخ بيار الجميل، وكل المنابر الأخرى متاحة له؟ وهذا السؤال طرق ذهني في الخارج

بعد أقل من سنتين على اغتيال كمال جنبلاط نفسه، حيث تساءلت بيني وبين نفسي، لماذا اختاروا سيارة ذات رقم عراقي لتنفيذ عملية اغتيال جنبلاط؟

هل أراد السادات الدخول على خط الصراع السوري ـ العراقي في محاولة لسحب الكتائب اللبنانية من دائرة التحالف مع النظام السوري، وتقديم مصر على أنها الضامن للمسيحيين؟

والواقع أن كل شيء أحاط بتلك المسألة كان غريباً ومستغرباً ومثيراً للجدل والتساؤل على كل صعيد. وربما كانت تلك آخر مهمة إعلامية قام بها أنور الجمل في بيروت قبل نقله منها، وهي على كل حال لم تكن مهمة ناجحة تماماً أولاً لقراري عدم تلبية الدعوة شخصياً، ثم لقرار القائمين على الجريدة عدم نشر الحديث.

•••

على الرغم من توتري ومن غضبي لما حدث، واستمراري في الاعتراض على قرار المنع لاعتبارات مهنية، فإن إصراري على فهم خفايا المسألة هو الذي دعاني الى التريث في الإصرار على استقالتي، مع شعوري في الوقت ذاته بأنه بدأ العد العكسي لخروجي من جريدة «بيروت» كما خرجت سابقاً من مجلة «الأحرار» ومن جريدة «الكفاح». كانت المسألة مسألة وقت بانتظار حادثة أخرى مشابهة. وفي المناقشات التي تلت ذلك بقيت مصراً على خطأ قرار عدم النشر، ومصراً على أن الصحيح، من الناحية المهنية واحترام الذات، وربما من الناحية السياسية أيضاً، هو نشر الحديث والتعليق عليه بأي اتجاه يريده المسؤولون في الحزب من دون تحفظ. ذلك أن المنع في رأيي أضر بالجريدة وبسمعتها ولم ينفع في تحسين صورة ومواقف حزب البعث الموالي للعراق لا في لبنان ولا في داخل الحركة الوطنية التي كان في عداد مكوناتها.

وأخذت المسألة بعد ذلك جدلاً طويلاً الى أن سمع به العراقيون، فجاء وزير الإعلام آنذاك طارق عزيز الى بيروت وعقدنا اجتماعاً موسعاً معه في مكتبي في مبنى الجريدة بالشياح حضره المسؤولون في قيادة الحزب. وفي بداية الاجتماع تقدمت بمطالعتي المشار اليها آنفاً من حيث عدم صوابية المنع والمقتضيات المهنية وحق التعليق والاعتراض بعد عرض الموقفين. وقدم الدكتور الرافعي تبريراً سياسياً لقرار المنع قوامه الموقف من الكتائب، ثم تناول الحديث طارق عزيز الذي قال إن مثل هذه المشكلات المحرجة يصادفها العمل الصحافي والعمل السياسي والحزبي في مراحل عديدة، وهي ليست فريدة من نوعها. لكنه قال بوضوح بأن القرار النهائي في الجريدة هو مسؤولية رئيس التحرير الذي يجب أن يكون مستعداً للمحاسبة والمساءلة في كل وقت، وفي المسائل الحساسة عليه واجب التشاور مع المسؤولين، وكان منصفاً عندما قال إنني لم أقصر من هذه الناحية.

ثم توجه طارق عزيز بالحديث نحو مقاربة موضوع العلاقة بين قيادة الجريدة وقيادة الحزب، فقال إن أخطر وأسوأ ما تواجهه صحيفة حزبية أو شبه حزبية هو تعدد مراكز التوجيه، وكأنه يطالب قيادة الحزب في لبنان أن تحدد حصراً هوية مركز التوجيه في الجريدة ليكون صلة وصل بين رئاسة التحرير وقيادة الحزب، وهو ما جرى لاحقاً بعد فوات الأوان.



III

وداعاً «بيروت»!

منذ أن دعا الرئيس رشيد كرامي الى طاولة الحوار الوطني في صيف 1975، وتجدد الاشتباكات المسلحة بشكل أشد عنفاً، صارت الحياة في بيروت أكثر صعوبة. وصار قطع المسافة من بيروت الى جب جنين في سهل البقاع أكثر خطورة. فقد عدت الى لبنان من المملكة السعودية في عز ثورة 1958 صيف تلك السنة، والبلاد منقسمة على نفسها على الخطوط ذاتها تقريباً، لكن حياة الناس بقيت طبيعية الى درجة كبيرة، بعكس ما حصل في الحرب الأهلية الأخيرة. ولذلك شعرت في تلك المرحلة المبكرة من الحرب بأن شعباً جديداً، أو مختلفاً، بدأ يتكوّن في لبنان، لا يشبه الشعب الذي نحن منه.

وسط تلك الحالة الهستيرية الناشئة في البلاد، كان أهم ما يمكن أن يحققه الإنسان اللبناني الذي يشعر بأنه لا مكان له في هذه البؤرة الميليشياوية الفاشية المتشكلة، هو أن يحتفظ بعقله وبإدراكه السليم، وأن يرفض الاحتكام الى السلاح، لأن اللجوء الى السلاح يضع حل الأزمة اللبنانية في أياد غير لبنانية، فيفقد اللبنانيون الأمل بعيش سلمي مشترك نابع من ذاتهم ومن إرادتهم الحرة. وقد بلغ التوتر حداً توهم معه أفرقاء النزاع من القادة المسيحيين أن هناك مخططاً دولياً لتهجير المسيحيين من لبنان، خصوصاً بعد الزيارات المتكررة التي قام بها الى بيروت دين براون مبعوث الرئيس الأميركي جيرالد فورد في ربيع 1976، حيث شاع عنه قول مزعوم للزعماء المسيحيين بأن الأسطول الأميركي جاهز في البحر لنقل مسيحيي لبنان الى المهاجر البعيدة في الغرب. وقد صدّق هذا الزعم معظم المسيحيين، وما زالوا يرددونه حتى الآن.

وفي أواخر صيف 1977، وكنت نائباً لرئيس تحرير مجلة «الدستور» الصادرة من لندن، جاءني أحد اللبنانيين المقيمين في واشنطن[1] وقال لي إنه حضر

---

(1) حرصاً مني على أمانة المهنة أمتنع عن ذكر اسمه، لأنه عمل طويلاً وكان لا يزال يعمل حتى كتابة هذه السطور في مكتب سناتور أميركي سابق معروف باهتماماته في الشرق الأوسط ولعب أدواراً مهمة في الشأنين اللبناني والفلسطيني.

عشاء محدوداً في العاصمة الأميركية ضم بعض الشخصيات السياسية والديبلوماسية من بينهم المبعوث السابق الى لبنان دين براون الذي أكثر من الشراب في تلك الليلة وراح يتكلم بطلاقة غير معهودة بالديبلوماسيين، فشعر بأهمية ما يقوله الرجل فقام بتسجيل صوتي لحديثه هذا، وعرض بيعي ذلك الشريط فاشتريته منه بمبلغ 700 جنيه استرليني. واستمعت الى الشريط عدة مرات لأنه كان رديء التسجيل، وظاهر أنه التقط عن بعد. لكنني في النتيجة تمكنت من فهم مضمونه.

ومما قاله دين براون إنه كان يزور بيروت على مضض، لأنه كلما التقى الزعماء المسيحيين يهرعون لسؤاله: «ماذا تحمل لنا؟»، وكأنهم ينتظرون منه حلاً سحرياً. وواضح أن براون كان يسخر من سذاجتهم، لأنه لم يكن يحمل لهم شيئاً، خصوصاً أن مبتغاهم هو فوق طاقة أي دولة من الدول. وقال براون إنه نصحهم لكنهم من النوع الذي لا يقبل النصائح. عبثاً حاول إقناعهم، كما قال، بفصل قضيتهم عن القضية الفلسطينية، لأن ربط الحل اللبناني بالحل الفلسطيني يعني انتظار زمن طويل من التأزم، لسبب بسيط وهو أنه ليس في الأفق القريب أو البعيد حل للقضية الفلسطينية. ثم قال إنهم استشاطوا غيضاً عندما أبلغهم إنه لا يحمل حلاً أو حتى أي تصور للحل، عندها قال لهم ما معناه: «حلّوا عنا»!

وقد بقي الشريط في أرشيف «الدستور» ولا أدري ما حل به بعد بيعها في صيف 1979.

وكان واضحاً من خلال النشاط الدولي الذي شهده لبنان في تلك المرحلة أن هناك تنسيقاً بين الأميركيين والفرنسيين، وبينهم وبين السوريين. في البداية بدأ هذا النشاط على أرفع المستويات الديبلوماسية قبل أن ينخفض مستوى التعاطي هذا. فقد تولّى الأمر كل من وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر، ووزير الخارجية الفرنسي موريس كوف دو مورفيل، ومن بعدهما المبعوثان الأميركي دين براون والفرنسي جورج غورس[2].

•••

من خلال ما رشح وما أشيع عن لقاء كيسنجر مع الرئيس سليمان فرنجية ولقاءات المبعوث الخاص دين براون مع البطريرك الماروني وقادة الجبهة اللبنانية، كان واضحاً أن هناك مناخاً من عدم الثقة بين القيادات المسيحية والولايات المتحدة، خصوصاً بعد توجه الرهبانيات المارونية برئاسة الآباتي شربل قسيس نحو طرح مشروع الفدرالية، أو التقسيم حسب التعبير الدارج، خلال الربع الأخير من عام 1975 والربع الأول من عام 1976. فقد كان

(2) من الملفت في تلك المرحلة المبكرة من الحرب اللبنانية أن المبعوث الفرنسي غورس التقى ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، بينما المبعوث الأميركي دين براون لم يلتقِ أي مسؤول فلسطيني خلال زياراته الثلاث الى بيروت في ربيع 1976.

هناك انطباع عام لدى الأوساط المسيحية بأن الولايات المتحدة تريد تهجير المسيحيين بغية توطين الفلسطينيين وحل القضية الفلسطينية على حساب لبنان، وبأنها، أي الولايات المتحدة، لا تقيم وزناً لوضع لبنان الخاص، وبالتالي فإنه لا مانع لديها من زوال لبنان.

ومع أنه تبين لي في لندن لاحقاً من خلال شريط دين براون، أن المبعوث الأميركي ضاق ذرعاً بالزعماء المسيحيين، إلاّ أنه كان واضحاً تمام الوضوح في رفضه لمشروع التقسيم، أو على الأصح في قوله: «إن التقسيم في لبنان ليس وارداً في أذهاننا».

وقد عبر عن هذه الريبة المارونية بالنوايا الأميركية الآباتي بولس نعمان في الجزء الأول من كتاب مذكراته بقوله: «كانت واشنطن تنظر نظرة ازدراء الى التجربة اللبنانية»[3]. وهذا الموقف انتقده بشدة وزير الخارجية الأسبق فؤاد بطرس في كتاب مذكراته، حيث قال: «خامرني شعور بأن المسيحيين ينتحرون جراء انتهاجهم هذه السياسات غير المدروسة»[4]. ومع أن فؤاد بطرس دحض القول بأن واشنطن تسعى الى زوال لبنان، إلاّ أنه في الوقت ذاته ترك الأمر معلقاً الى حين رسم السياسة النهائية للولايات المتحدة. فهو يقول في هذا الشأن: «إن الولايات المتحدة ترغب في أن تترك جميع الخيارات مفتوحة وممكنة بالنسبة الى لبنان، وهي تتدخل للحؤول دون زواله الى أن يأتي يوم تحدد فيه سياستها منه نهائياً في ضوء التطورات»[5].

وعلى الرغم من أن السياسة الأميركية في ذلك الوقت كانت تتم بالتنسيق مع الفرنسيين والسوريين[6]، فإن زعماء الموارنة كانوا أكثر ثقة بالموقف الفرنسي، ربما بسبب العلاقات التاريخية بينهم وبين فرنسا.

لكن فؤاد بطرس يحدد الموقفين الفرنسي والسوري على النحو التالي:

في الموقف الفرنسي يقول: «العمل مع الفاتيكان وواشنطن لدعوة المسيحيين الى التحلي بالواقعية، وتحذيرهم من مخاطر الأوهام التي تغذيها إسرائيل لديهم»[7].

---

(3) مذكرات الآباتي بولس نعمان، الجزء الأول، الصفحة 409.

(4) فؤاد بطرس، المذكرات، الصفحة 321.

(5) المصدر ذاته، الصفحة 375، وهذه الصيغة في كلام فؤاد بطرس تحمل معنى لا يستبعد أن يكون الخيار الأميركي ذات يوم هو زوال لبنان، إن لم يكن هذا خيارها الراهن. فهو خيار من بين خيارات عديدة تنتظر البت فيها مستقبلاً ريثما يحين البت النهائي بالموضوع، أي الى حين أن تقرر عدم التدخل للحؤول دون زواله.

(6) المبعوث الأميركي دين براون يرفض عبارة «التنسيق» بمعناها الحصري، ويقول إنه كان هناك نوع من التفاهم بين أميركا وفرنسا وسوريا، وإن واشنطن وافقت على تدخل سوري محدود بغية إعادة الأمن، ليس إلاّ.

(7) فؤاد بطرس، المذكرات، الصفحة 348.

أما في الموقف السوري، فيقول بطرس: «إن سوريا هي القوة الوحيدة الجاهزة للعمل في لبنان. فرنسا لا تريد الحلول محل دمشق بأي شكل من الأشكال. إن ارتياب المسيحيين بالنيات السورية أمر مبالغ فيه»[8].

•••

كانت الحرب اللبنانية في منطلقاتها ومضامينها تدور حول الموضوع الفلسطيني في لبنان: فريق قادته الجبهة اللبنانية، ومن ثم القوات اللبنانية بقيادة الشيخ بشير الجميل بدعم من الرهبانيات المارونية، يشتبه بأن هناك مؤامرة جدية لتوطين الفلسطينيين في لبنان، مما يخل بالتوازن الديموغرافي القائم، وبالتالي يخل بالصيغة المعمول بها منذ الاستقلال، أو بالأحرى التي قام الاستقلال اللبناني على أساسها في عام 1943، ولذلك فإن لبنان لن يعود كما كان. وفريق قوامه الحركة الوطنية بقيادة كمال جنبلاط وبعض القوى الإسلامية ومعهم المنظمات الفلسطينية المسلحة، تتمحور مطالبه أصلاً حول إصلاح النظام السياسي في لبنان، لكنه يدعي رفض مقولة التوطين الفلسطيني، زاعماً أن الوجود الفلسطيني في لبنان مؤقت ريثما يتم تحرير فلسطين أو على الأقل إقامة دولة فلسطينية مستقلة على التراب الفلسطيني. وفي كلا الموقفين ضمناً هناك عنصر صراع خفي على السلطة: في نظر الفريق المسيحي الماروني يحاول الفريق الآخر، مستقوياً بالفلسطينيين الذين يعتبرهم «جيش المسلمين»، انتزاع السلطة (أو ما كانوا يسمونه في حينه «الامتيازات المسيحية») من يدهم، وهو ما حدث فعلياً من خلال اتفاق الطائف بعد الحرب بموافقة عربية ودولية في مطلع تسعينات القرن الماضي. وفي نظر الفريق اليساري الإسلامي الفلسطيني يعمل المسيحيون لتقسيم لبنان وإقامة دولة خاصة بهم، عنصرية الطابع، بدعم من إسرائيل والقوى الغربية المساندة لها، بما يعني طرح معادلة جديدة من قبلهم مؤداها: «أن يبقى لبنان في يدنا كما نريد، أو فلنأخذ جزءاً منه نمارس فيه حريتنا على هوانا».

وفي الموقفين كليهما شيء من الصحة، لكن مشروع التقسيم المزعوم كان في الحقيقة مشروعاً وهمياً، ولو أن بعض القائلين به كان مصدقاً له ومقتنعاً به. أما مشروع التوطين الفلسطيني فقد كان، ولا يزال، مشروعاً جدياً ماثلاً تتمحور السياسات الدولية حوله، وقد سمعت ذلك بأذني في واشنطن من مراجع أميركية مسؤولة. وأذكر أنني كنت في باريس مرة في أواسط ثمانينات القرن الماضي، وكان طارق عزيز وزير الخارجية العراقي آنذاك في زيارة رسمية الى فرنسا، وعمل بعض اللبنانيين في العاصمة الفرنسية على ترتيب لقاء بينه وبين عميد الكتلة الوطنية اللبنانية ريمون إده المبعد حديثاً عن لبنان بعد محاولات عدة لاغتياله بسبب مواقفه المعارضة للتوجهات الكتائبية. وفي ذلك

(8) المصدر ذاته، الصفحة 348.

اللقاء بين طارق عزيز وريمون إده، سأل العميد إده الوزير العراقي قائلاً له:

«أنت تزور العواصم العالمية بحكم موقعك كوزير لخارجية بلادك، ولا بد أنك تتطرق في أحاديثك مع المسؤولين هناك الى قضايا المنطقة، فهل اشتممت رائحة وجود مشروع لديهم لتقسيم لبنان؟».

فأجابه طارق عزيز بالقول: «لست أدري ما إذا كان هناك مشروع لتقسيم لبنان، لكنني أعلم علم اليقين أن هناك مشروعاً لتقسيم العراق».

أما بالنسبة الى مشروع التوطين الفلسطيني، فقد حدث أن طلب مني قريبي إيلي الفرزلي، نائب رئيس المجلس النيابي، في منتصف شهر تموز/يوليو من عام 1994 أن أرافقه في زيارة رسمية له الى الولايات المتحدة لحضور مؤتمر للمجالس التشريعية في الولايات الأميركية انعقد تلك السنة في مدينة «نيو أورلينز» بولاية لويزيانا، ومن ثم نزور الكونغرس في واشنطن ونحضر جلسة استجواب وزير الخارجية وارن كريستوفر أمام لجنة الشؤون الخارجية برئاسة لي هاميلتون. واتفقنا أن نلتقي في مطار هيثرو في لندن ونتوجه من هناك الى نيويورك أولاً.

لكن إشكالاً حصل في مطار لندن بسبب تذكرة سفره المحررة من الناقلة اللبنانية، «شركة طيران الشرق الأوسط/ الميدل إيست»، المحظور التعامل معها آنذاك من قبل الأميركيين، مما اضطره الى شراء تذكرة جديدة على الخطوط الجوية البريطانية، الأمر الذي أدى بدوره الى تضارب مع تذكرتي المقطوعة على الخطوط الجوية الأميركية (أميركان آير لاينز)، مما اقتضى أيضاً إعادة ترتيب الموضوع، وفوق ذلك الانتقال من حيث كنا في مطار هيثرو الى محطة أخرى في المطار ذاته، لكي يتسنى لنا السفر سوياً.

في نيويورك استقبلنا سفير لبنان لدى الأمم المتحدة آنذاك سمير مبارك، وقمنا بجولة في مبنى الأمم المتحدة ومقر مجلس الأمن الدولي. وفي واشنطن كان السفير اللبناني رياض طباره مسافراً فتولى مرافقتنا قائم بالأعمال. أما في الكونغرس فقد كان مشهد استجواب وزير الخارجية كريستوفر مشهداً مهيباً. جلس أعضاء اللجنة على القوس يتوسطهم الرئيس لي هاميلتون، وعلى طاولة منفردة في وسط القاعة جلس الوزير المستجوب وجهه الى اللجنة وظهره الى مقاعد الحضور والضيوف.

وضع كريستوفر أوراقه على الطاولة وبدأت تنهال عليه الأسئلة والاستفسارات وكأنه تلميذ في مدرسة يؤدي امتحاناً شفهياً. وجاء موظف في الخارجية من وراء قوس اللجنة وهمس شيئاً في أذن رئيسها الذي قطع الاستجواب ليعلن عن وجود وفد برلماني لبناني في القاعة[9]، ورحب بنا بعبارات ودية مشدداً

(9) ضم الوفد المذكور الى نائب الرئيس إيلي الفرزلي، النائبين جاك جوخدريان وعبد الرحمن عبد الرحمن، وأيضاً قريب للرئيس نبيه بري هو سامي بري، والصحافي العامل في مجلس النواب آنذاك بلال شرارة.

على اعتزازه بلبنان واللبنانيين. ولم يتطرق استجواب كريستوفر الى موضوع لبنان تحديداً، لأنه في مجمله دار حول عملية السلام وتقدمها، وحول العلاقة اللبنانية ـ السورية إزاء تلك العملية، وذلك عندما أشار الوزير كريستوفر بطريقة غير مباشرة الى أن تلازم المسارين اللبناني والسوري لا يخدم عملية السلام في الشرق الأوسط، وهو موضوع استفاض فيه معنا لاحقاً مسؤول دائرة الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأميركية (ويدعى مارتينيز وهو من أصول إسبانية). فقد ركز مارتينيز على ضرورة البدء بفك المسارين، مشبهاً ما يقصد بفتح الباب قليلاً «لكي يدخل الضوء»، مستخدماً العبارة الإنكليزية الدارجة de - coupling

قبل أن نتوجه من نيو أورلينز الى واشنطن، قلت لابن العم إيلي الفرزلي، على سبيل الإيضاح: «إن السياسيين اللبنانيين يأتون الى واشنطن بوجه مختلف عما يُظهرون في بيروت. في لبنان يتملقون الى السوريين وينافقون، وفي واشنطن يقولون للأميركيين إنهم مغلوبون على أمرهم وقابلون بالوجود السوري على مضض، ثم يفرغون للأميركيين جعبتهم من التجريح بسوريا. والأميركيون الذين يسمعون هذا الكلام يبلغونه الى السوريين بدورهم، أو يسربون وثائق الخارجية بعد مدة من الزمن، فيفتضح أمرهم. إذا سمعت مني، فإنني أقترح أن نكتب مذكرة خطية الى الخارجية الأميركية تضمنها رأيك الحقيقي في الوضع اللبناني الراهن، مع التركيز على إيجابيات التأثير اللبناني في سوريا، بدلاً من التركيز على السلبيات السورية في لبنان كما يفعل باقي السياسيين أو بعضهم. فتكون قد قدمت مستنداً خطياً لا يمكن لأحد، لا في واشنطن ولا في بيروت ولا في دمشق، أن يسجل عليه مأخذاً أو يشكل انكشافه حرجاً أو ربما فضيحة». (على غرار ما شهدناه أخيراً بعد تفريغ الأرشيف الديبلوماسي في ما عرف بوثائق «ويكيليكس»، إيذاناً بسياسة خارجية أميركية جديدة).

وقد نشأت فكرة المذكرة أثناء حضور مؤتمر المجالس التشريعية حيث انعقدت ندوة على هامش المؤتمر عن تشكُّل السياسة الخارجية في عصر التلفزيون والاتصالات السريعة، خلص المتحدثون فيها الى القول بأن وسائل الإعلام والاتصالات السريعة جعلت السياسة الخارجية حالة متحركة، وربما فورية، بينما كانت في الماضي لا تتغير سوى مرة كل ربع قرن أو عشر سنوات.

رحب إيلي بالفكرة، وجلسنا نكتب المذكرة بالإنكليزية ونعيد قراءتها وننقحها الى أن اكتملت في خمس أو ست صفحات، قمنا بطبعها في الفندق وتجليدها في ملفات بعدد من النسخ قمنا بتوزيعها للمعنيين في واشنطن حيث أبدى بعض المسؤولين دهشتهم من هذه المبادرة غير المألوفة، على الأقل من الجانب اللبناني. وبعد ذلك دعانا السفير الأميركي السابق في بيروت، روبرت

ديللون، الى الغداء في ناد خاص بواشنطن هو «بريزيدانت كلوب»، أو «نادي الرئيس»، وهناك جرى حديث ساخن حول موضوع التوطين الفلسطيني في لبنان. فقد أصرّ السفير ديللون على أنه لا مفر من توطين اللاجئين الفلسطينيين في البلدان التي يقيمون فيها حالياً، وبالتالي فإنه على اللبنانيين أن يوطدوا أنفسهم على دمج الفلسطينيين في المجتمع اللبناني، رافضاً الحجة المقابلة بأن ذلك من شأنه أن يخل بالتوازن الديموغرافي في لبنان، مشيراً الى التغير الديموغرافي الجاري في أماكن عديدة من العالم، ومنها على وجه الخصوص الولايات المتحدة نفسها. ثم ألمح في نهاية الحديث الى أخطار قانون السرية المصرفية في لبنان[10]، إن لجهة تبييض الأموال، أو لجهة تمويل المنظمات الإرهابية، لكنه لم يطلب صراحة إلغاء القانون.

•••

لكن موضوع توطين الفلسطينيين في لبنان، وإن كان ما زال مطروحاً للنقاش والسجال والتداول في الأوساط السياسية والديبلوماسية في لبنان وفي الأوساط العربية والدولية، فإنه بقي محفوفاً بالغموض والإنكار، بل في الحالة المسيحية السائدة أثناء الحرب الأهلية، حين كان هذا الموضوع من المبررات الرئيسية للحرب، لفه الكثير من التفاوت والتناقض. ومن ذلك، على سبيل المثال، ما نقله الآباتي بولس نعمان عن قائد القوات اللبنانية بشير الجميل من أن «توطين الفلسطينيين في لبنان قد حصل في الواقع»[11].

بل إن الآباتي نعمان ينقل عن إتيان صقر[12]، قائد تنظيم «حراس الأرز»،

(10) صدر قانون السرية المصرفية اللبناني في 13 أيلول/سبتمبر من عام 1956 بموجب لائحة تقدم بها العميد ريمون إده، وتم العمل به بعد شهرين تقريباً من صدوره، أي في الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر من العام ذاته. ويتميز القانون اللبناني عن القوانين المماثلة المعمول بها في دول قليلة أخرى من حيث أن المعاملات المصرفية فيه تخضع لسرية شاملة ومطلقة، بينما القانون السويسري يضع قيوداً على الودائع الخارجية في المصارف السويسرية، مما شجع رساميل عربية وأجنبية عديدة على الانتقال الى لبنان. وقد استثنى القانون اللبناني المصارف ذاتها، لكنه اشترط حصولها على موافقة من وزير المالية، وهو ما حصل في الواقع.

(11) مذكرات الآباتي بولس نعمان، الجزء الأول، الصفحة 306.

(12) تعرفت على إتيان صقر لأول مرة في مطلع الستينات من القرن الماضي عندما كان مفوضاً للأمن العام اللبناني في شتورا، وكنت يومها أعمل مدرساً في العراق وعلى علاقة صداقة مع شقيقه فؤاد صقر وزوجته الفلسطينية الأصل هيام ملحس، اللذين كانا يعملان أيضاً في التدريس في مدينة العمارة في جنوب العراق الى الشمال من البصرة. وكان لقائي معه في مكتبه في شتورا عابراً لنقل رسالة له من شقيقه. لكنني تحدثت معه ملياً في الموضوع الفلسطيني عندما زار لندن في مطالع الثمانينات بدعوة من الخارجية البريطانية، وعرج على مكاتب مجلة «الحوادث» حيث كنت أعمل يومئذ. وفي ذلك اللقاء انتقد بشدة موقف بريطانيا وغيرها من الدول الغربية من موضوع توطين الفلسطينيين في لبنان، وقال لي إنه أبلغ البريطانيين إنهم لن يفهموا ما قاله لهم في الموضوع اللبناني إلاّ عندما يتكاثر الأغراب في بلادهم ليشكلوا خطراً داهماً على أمنهم الداخلي في غضون ربع قرن. وبعد انتهاء الحرب اللبنانية في مطلع التسعينات انتقل الى الجنوب اللبناني حيث تقع قريته «عين إبل» على الحدود مع فلسطين المحتلة، وكانت لا

وهو من أكثر التنظيمات تطرفاً في ذلك الوقت، وكانت له علاقات «مميزة» مع الإسرائيليين، قوله في الموقف الإسرائيلي من التوطين، كما يلي: «إذا قبل المسيحيون بتوطين الفلسطينيين في لبنان، فلن يرضى الإسرائيليون بذلك، لأنهم لا يريدون أي وجود فلسطيني على حدودهم الشمالية، بل يفضلون توزيعهم على الدول العربية. وأكثر ما هم على استعداد لقبوله هو استقبال عدد قليل منهم في إسرائيل، وبقاء عدد مماثل في لبنان»[13].

وكنا دائماً على الطرف الآخر من الانشقاق اللبناني، نقول ونكرر بأن مشروعي التوطين والتقسيم متلازمان، إذا حدث واحد حدث الآخر، وبأن الإسرائيليين يشجعون ويؤيدون تقسيم لبنان ويعملون من أجل ذلك، وبالتالي فإنهم مؤيدون للتوطين بموجب هذا التلازم بين المشروعين.

لكن مذكرات الآباتي نعمان تؤكد أن الإسرائيليين ما كانوا يوماً مع التقسيم أو مع التوطين. فإذا كان ما قاله إتيان صقر عن الإسرائيليين في موضوع التوطين الفلسطيني صحيحاً، فإن ذلك، بموجب المعادلة المذكورة، أو (الدياليكتيك) في العلاقة الجدلية بين التقسيم والتوطين، حسب لغة اليسار السائدة في تلك المرحلة، يستتبع القول بأن الموقف الإسرائيلي يكون بطبيعة الحال رافضاً للتقسيم، وهذا ما أكده الآباتي نعمان بقوله في مذكراته: «إسرائيل حسمت العودة الى الصيغة (أي الصيغة اللبنانية القائمة منذ الاستقلال)، بتفكيرها باحتلال لبنان حتى بيروت»[14].

بعد أربعين يوماً من وفاة العم نجيب الفرزلي والد إيلي، وبعد ذلك بأقل من ثلاثة أشهر دعاني إيلي لمرافقته في زيارة الى ألمانيا كانت هي الأخرى حافلة بمدلولاتها بالنسبة الى لبنان والفلسطينيين. فقد تمت تلك الزيارة بدعوة من مؤسسة «فرايدريش إيبرت»، وهي مؤسسة سياسية تابعة لـ«لحزب الديموقراطي الاشتراكي» المعارض في ذلك الوقت لحكومة «الحزب الديموقراطي المسيحي» بقيادة هلموت كول الذي كان قد فاز في الانتخابات العامة مرة أخرى قبل زيارتنا بثلاثة أسابيع تقريباً، أي في منتصف تشرين الأول/أكتوبر من تلك السنة. وقد أطلق على تلك المؤسسة اسم أول رئيس منتخب لجمهورية ألمانيا الاتحادية التي قامت بعد الحرب العالمية الأولى باسم «جمهورية فيمار». ورافقنا في تلك الزيارة التي بدأت في مدينة بون ممثل المؤسسة المذكورة في بيروت سمير فرح. ومؤسسة «فايدريش إيبرت» هي

تزال ضمن الشريط الحدودي المحتل، لكنه بعد تحرير الجنوب من الاحتلال الإسرائيلي انتقل الى إسرائيل، شأن الجنرال أنطوان لحد قائد «جيش لبنان الجنوبي» العامل آنذاك تحت أمرة الجيش الإسرائيلي، لكنه عاد فانتقل الى جزيرة قبرص وأقام فيها بصورة نهائية. وقد صدر في بيروت حكم غيابي عليه بالإعدام بعد الخروج الإسرائيلي من الجنوب.

(13) مذكرات الآباتي بولس نعمان، الجزء الأول، الصفحة 310.

(14) مذكرات الآباتي بولس نعمان، الجزء الأول، الصفحة 420.

أقدم مؤسسة في ألمانيا لدعم التوجهات الديموقراطية والثقافة السياسية، ودعم الطلاّب المبرزين ذوي القدرات الفكرية المتميزة.

وكانت زيارتنا الى البرلمان الألماني (البوندستاغ) في بون آخر العهد بذلك المجلس لأن الحكومة الاتحادية كانت قد أعلنت عن انتقالها الى العاصمة التاريخية برلين بعد عودة الوحدة بين شطري ألمانيا الشرقي والغربي، ثم حضرنا أول انتقال للبرلمان الى برلين حيث تم عقد الجلسة الأولى في مبنى «الرايخستاغ» لأول مرة بعد سقوط النازية قبل إغلاقه لإعادة تجديده على يد المهندس المعماري البريطاني نورمان فوستر. فقد كان حضورنا تلك الجلسة التاريخية بكل معنى الكلمة بمثابة تكريم خاص لابن العم إيلي الفرزلي. لكننا قبل ذلك، وفي يوم تاريخي آخر هو يوم التاسع من شهر تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1994، حضرنا جلسة لبرلمان مقاطعة وستفاليا في مدينة دوسلدورف، حيث أبلغنا نائب رئيس المجلس المذكور ماذا يعني يوم التاسع من ذلك الشهر.

ففي ذلك اليوم من عام 1918 تم عزل القيصر غليوم الثاني وقيام «جمهورية فيمار». وغليوم هذا كان قد زار لبنان قبل الحرب العالمية الأولى وتحالفه مع الأتراك فيها، حيث عُلِّقت له لوحة في قلعة بعلبك أطلق فيها على نفسه لقب «سيف الإسلام». وفي 9 تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1923 جرت محاولة الإنقلاب الفاشلة التي قادها أدولف هتلر في مدينة ميونيخ وتدعى «محاولة حانة البيرة»، ومنها يبدأ تاريخ الحزب النازي (الوطني الاشتراكي). وفي ذلك اليوم المشهود من عام 1938 قام النازيون بأول هجوم كاسح ضد متاجر اليهود في المدن الألمانية ويسمون تلك الليلة «كريستال ناخت»، أي «ليلة الزجاج». ويقولون أيضاً إن تشكيل القوات النازية المعروفة باسم «غيستابو» أو قوات الصاعقة SS قد تم في التاسع من ذلك الشهر عام 1925، وفيه أيضاً عام 1989 سقط جدار برلين الذي أقامه الزعيم السوفياتي خروشوف للفصل بين شطري العاصمة الألمانية في عام 1960. وقد كتبت مقالاً عن هذه المدلولات في جريدة «الميزان» التي كنت يومها أصدرها من لندن بعد عودتي من تلك الزيارة الى ألمانيا، كما سأبيِّن في كتابي المقبل عن قصة تلك الجريدة.

في تلك المرحلة كان الألمان يهتمون اهتماماً خاصاً بالموضوع اللبناني والفلسطيني من خلال التعاطي السياسي المباشر، ومن خلال الديبلوماسية السريَّة في حالات معينة مثل عمليات خطف الأجانب في لبنان، أو تبادل الأسرى مع إسرائيل. وقبل زيارتنا الى ألمانيا، كان وزير دولة للشؤون الخارجية (اسمه على ما أذكر «شيفر») قد زار بيروت حيث ألمت به وعكة صحية دخل على أثرها الى مستشفى القديس جاورجيوس (مستشفى الروم) حيث تمت معالجته، واهتم به في فترة وعكته ابن العم إيلي. ثم التقينا به في ردهة

الرايخستاغ في برلين بعد تلك الجلسة اليتيمة قبل إغلاق المبنى للتجديد، فتطرقنا معه الى موضوع التمادي اليهودي الإعلامي والسياسي في تقريع الشعب الألماني على ما يسمونه المحرقة النازية ضد اليهود خلال الحرب العالمية الثانية، وهو موضوع كان القائمون على السياسة الخارجية الألمانية قد بدأوا يطرحونه بخجل تحت عنوان «إعادة التقويم النقدي للتاريخ الألماني» عندما كان كلاوس كينكل وزيراً للخارجية في حكومة كول السابقة، وهو مدير سابق للمخابرات الألمانية العامة. ومما قاله الوزير الألماني الذي زار بيروت، كما سجلت في مفكرتي: «نقول إن هذا التمادي في الحملات اليهودية بدأ يشكل إهانة للشعب الألماني كله. ولا أظن أنه سوف يأتينا مرة ثانية مستشار نمساوي مثل هتلر، ولذلك يجب طي هذه الصفحة نهائياً. لكنني عندما أقول ذلك ينصحني زملائي بأن ألزم الحذر في هذا الموضوع ويقولون إنه قد يضر بمستقبلي السياسي».

لكن مسؤولاً آخر في الخارجية الألمانية تناول بالنقد اللاذع طريقة ياسر عرفات في إدارة حكومته الفلسطينية في رام الله قائلاً إنها غير مؤاتية للسير بحلول جدية للقضية الفلسطينية، أو حتى لتنمية الأرض الفلسطينية الواقعة تحت سلطته. أما الشخص المعروف بديبلوماسيته السرية الناجحة، هانس ـ يورغن فيشنيفسكي، المنتمي الى الحزب الديموقراطي الاشتراكي منذ عام 1948، وعمل موفداً خاصاً للمستشار هلموت شميدت الى الشرق الأوسط، فقد دعا خلال لقائنا معه الى التعجيل بعملية السلام مع إسرائيل قبل أن يعود «الليكود» الى الحكم في إسرائيل قريباً. فأجابه إيلي الفرزلي بقوله: «إذا كان عندهم ليكود واحد، فإن عندنا مائة ليكود، ولذلك لا داعي الى الاستعجال». وبدا لي فيشنفسكي غير ألماني، لأنه بالشكل لا يشبه بقية الألمان، لكنه متمرس بشؤون الشرق الأوسط ، وهو بالإضافة الى ذلك كان عضواً في مجلس أمناء «مؤسسة فرايدريش إيبرت» صاحبة الدعوة، ورأيت في حينه أنه يميل قليلاً الى العرب (في عام 1999 اختير رئيساً فخرياً لرابطة الشرقين الأدنى والأوسط، وهو صاحب فكرة توأمة مدينة كولون الألمانية مع مدينة بيت لحم الفلسطينية).

وقت زيارتنا الى برلين كان مكان مستشارية هتلر في وسط المدينة مردوماً وتخشى السلطات أن يتحول الى مزار للنازيين الجدد، وكان الجدل حامياً حول إقامة نصب لضحايا المحرقة اليهودية، لإن بعض الجهات اليهودية على الأرجح كانت تريد إقامة النصب على تلك الأرض المردومة فلقي ذلك معارضة شديدة ومعلنة. لكنني في زيارتي التالية مع زوجتي الى برلين خريف العام الماضي 2012، زرت نصب «الهولوكوست» على مقربة من مستشارية هتلر، وأقول صراحة إنني لم أستحسنه لأنه بشكل ساحة من التوابيت المائلة الى السواد، فهو لم يضف شيئاً حسناً الى جمالية المدينة إن لم يكن قد شوهها. وذكرني

ذلك بوسط مدينة بيروت الذي تحول الى مقبرة تضم رفات رفيق الحريري وبعض أتباعه وآخرهم وسام الحسن رئيس فرع المعلومات في مديرية الأمن الداخلي. ورأيي الخاص أن تحويل وسط أي عاصمة الى مقبرة ومحجة للموت أمر بشع وقبيح مهما كانت القضية التي أملت ذلك جليلة وعظيمة.

ومن المفارقات في الأمر أننا عندما زرنا بلدية برلين، إيلي وأنا، شاهدنا صور العاصمة الألمانية بعد انتهاء الحرب مباشرة مكبرة تظهر تفاصيل الدمار الذي ألحقته غارات الحلفاء الجوية بها، وشرحت لنا سيدة كانت ترافقنا كيف أن إعادة إعمار برلين بعد الحرب تمت بما يشبه إعادة إعمار بيروت على يد شركة «سوليدير». لكن الألمان احتفظوا بسجل مصوّر كامل لطرز العمارة في مدينتهم خلال حقبات زمنية مختلفة، وقد راعوا تلك التفاصيل في عملية إعادة الإعمار، وهو ما لم يحدث في وسط بيروت إلاّ لماماً، مما طمس معالم أثرية عديدة وعظيمة في الوسط التجاري لبيروت.

•••

في فترة التعثر السياسي والأمني خلال صيف 1975، أصبح التنقل في بيروت محفوفاً بالمخاطر بسبب تزايد أعمال القنص، خصوصاً على المحاور الرئيسية وخطوط التماس. وفي يوم من الأيام اشتد التوتر والقصف على محور الشياح عين الرمانة، وهو مكان قريب من مكاتب جريدة «بيروت». وكان يعمل في الجريدة مصور شاب مبتدىء من أهالي بعلبك اسمه الياس الجوهري، له عين ثاقبة على اللقطة البديعة، وكأنه ولد مصوراً صحافياً. وقد ذهب الياس الجوهري من تلقائه الى محور القتال من غير تكليف من أحد والتقط عدة صور بالقرب من كنيسة مار مخايل الشياح المارونية، من بينها صورة ناطقة وكأنها لوحة فنية. وتظهر تلك الصورة رجلاً قتل على الطريق هناك برصاص القنص، وجاء رجل آخر معه سيارة فان أوقف سيارته بعيداً عن خط التماس وراح يجر جثة الرجل القتيل من يده الى سيارته، والى جانب السيارة محل تجاري مقفل يقف على بابه ولدان، صبي وبنت، يختبئان مرتجفين تحت عتبة باب المحل خوفاً من الرصاص، وهما لا يتعديان السابعة من العمر وربما أقل. أخذت تلك الصورة العظيمة المعبرة عن المأساة الإنسانية للحرب ونشرتها على عرض الصفحة الأولى للجريدة. وفي صباح اليوم التالي بعد نزول الجريدة الى الأسواق تهافت علينا مراسلو الصحف والوكالات الأجنبية يريدون شراء تلك الصورة، لكننا رفضنا مجرد التفكير ببيعها. وأقول الآن إننا أخطأنا في عدم بيعها، لأن تلك الصورة كان يمكن أن تفوز بالجوائز الأولى في أي معرض عالمي للصور الفوتوغرافية. لكننا في ذلك الوقت لم نكن نبالي بمثل هذه الأمور، ولم نكن في الحقيقة نعرف أهميتها، كما تعرفنا عليها تالياً في العواصم الأوروبية.

هذا النجاح الباهر والمبكر للمصور الياس الجوهري هو الذي قتله مع الأسف، خصوصاً أنه كان يبادر من غير تكليف في معظم الأحيان.

كان المصور الياس الجوهري يتنقل في بيروت على دراجته النارية الصغيرة. وبعد يومين فقط من تلك الصورة التي تهافت عليها المراسلون الدوليون، اشتد أوار القتال في محيط مخيم تل الزعتر الفلسطيني في المنطقة الشرقية من بيروت، فتوجه المصور الى المخيم لالتقاط ما أمكن من الصور، وفيما هو عائد على دراجته الى مكاتب الجريدة في المنطقة الغربية اصطاده قناص في المنطقة الشرقية فأرداه قتيلاً على الفور، وفوق ذلك سلبوه الكاميرا التي تتضمن ما التقطه من صور في تلك الرحلة المشؤومة. وعندما بلغني الخبر في الجريدة فور وقوع الحادث، كتبت افتتاحية عدد اليوم التالي عنه بعنوان: «كان المصوِّر فصار الصورة».

لكن ما حز في نفسي تالياً أن مقتل الياس الجوهري لم يحرك ساكناً لا في الوسط السياسي ولا في الوسط الصحافي، ولا ربما حتى في أوساط حزب البعث أصحاب الجريدة، وكأن الأمر شيء عادي لا يستحق التوقف عنده. وقد هالني هذا الاعتياد المبكر على الحرب عند اللبنانيين، وكأن القتل هو القاعدة والنجاة هي الاستثناء.

واليوم أتذكر هذه الحادثة المؤلمة، حادثة التحول من مصور الى صورة، وقد أصبح لشهداء الصحافة في لبنان عيد وطني رسمي في السادس من أيار/مايو من كل عام، ليأخذ مكان عيد شهداء الوطن على يد الحكم التركي الظالم، لأقول إن أحداً من المحتفلين بعيد شهداء الصحافة اللبنانية لا يذكر أو يتذكر مقتل الياس الجوهري، أو الصورة الرهيبة التي التقطتها عدسته قبل مصرعه بيومين.

وأقول فوق ذلك، إنه شيء عظيم أن يكون في لبنان يوم لشهداء الصحافة، أو أن تكون لهم لوحة تذكارية بأسمائهم لتخليد ذكراهم، لكنه شيء قبيح جداً أن يحل هذا اليوم محل عيد شهداء الوطن، فكأن الغاية من إعلان السادس من أيار/مايو عيداً لشهداء الصحافة هي إلغاء عيد الشهداء والاحتفال الرسمي به في مكانه التاريخي، ساحة الشهداء أو ساحة البرج حسب التسمية الدارجة، حيث أصبحت تلك الساحة التاريخية العظيمة ملكاً لشركة خاصة مشبوهة المقاصد، وربما كان ذلك متعمداً من الحريرية السياسية لإرضاء الأتراك الأردوغانيين النازعين نحن عثمانية جديدة، كما تبين من تدخلهم الفاضح في الداخل السوري خلال الاضطرابات التي شهدتها سوريا أخيراً.

والذين يعرفون ساحة الشهداء أيام حديقتها القديمة، يوم كان في وسطها تمثال للشهداء نحته من الحجر الأبيض النحات اللبناني يوسف الحويك، على الرغم من الانتقادات التي كيلت لذلك التمثال في حينه، يدركون أهمية يوم السادس من أيار/مايو في الحياة الوطنية اللبنانية.

وفي هذا الموضوع كتبت جريدة «المعرض» لصاحبها ميشال زكور، الصحافي والنائب في البرلمان اللبناني، تقول في مطلع ثلاثينات القرن العشرين: «يا سادس من أيار، لقد كنت الحجر الأول في جهاد الاستقلال، فصرت عنوان الأمل والإيمان. حبذا يومك، وليت لنا في كل يوم سادس من أيار، حجر الزاوية الأول في كيان الحكومة الوطنية»[15]. فهل يمكن وصف حكومة لبنانية ألغت احتفال عيد الشهداء الرسمي بأنها «حكومة وطنية»؟!

•••

بعد امتناع إدارة جريدة «بيروت» عن نشر المقابلة التي أجراها مدير التحرير محمد باقر شري مع الرئيس المصري أنور السادات على متن بارجة مصرية في قناة السويس يوم إعادة افتتاحها في السادس من حزيران/يونيو 1975، وبعد مقتل المصور الياس الجوهري على النحو المشار اليه، انتابني شعور بالإحباط والقلق، خصوصاً أنني بقيت في بيروت وحيداً بعد انتقال عائلتي الى جب جنين في البقاع الغربي بصورة نهائية، وصار متعذراً عليّ زيارتهم بصورة سهلة بسبب الأحوال الأمنية، التي اضطرتني تالياً الى استصدار بطاقة انتساب باسم مستعار الى «جبهة التحرير العربية» أتاحت لي سهولة المرور على الحواجز الفلسطينية جنوباً على طريق البقاع من صيدا[16].

هذه المرحلة من القلق أوقعتني في حيرة من الخيارات الممكنة، التي كانت كلها تدور حول حتمية خروجي من رئاسة تحرير جريدة «بيروت»، لكنها حتى ذلك الوقت لم تكن تتضمن خيار الهجرة الى خارج لبنان. فالشيء الذي كنت على يقين منه هو خروجي من الجريدة، بانتظار العقدة، أو المشكلة التالية، مع إدارة الجريدة.

قبل نهاية السنة بقليل وقعت مجازر «السبت الأسود» التي تحدثت عنها سابقاً، مما أشاع في البلاد جواً طائفياً بغيضاً، بحيث صار القتل على الهوية الطائفية أمراً عادياً ومستساغاً بين المتقاتلين. وبالتالي صار الحذر أثناء التنقل بين مكان ومكان في العاصمة من الضرورات الملحة، مما أدى بدوره، وبطبيعة الحال، الى تباطؤ حركة التنقل التي اقتصرت على الضروري منها فقط. وفي تلك المرحلة تحديداً صرت أبيت في مبنى الجريدة لئلا أتنقل ليلاً في شوارع مقفرة، وصار المحررون في الجريدة يأتون باكراً ويغادرون مكاتبهم باكراً قبل حلول الليل.

وفي ليلة من تلك الليالي جاءني سكرتير التحرير أحمد فوزي، وكنت وحيداً في مكاتب التحرير بعد مغادرة جميع المحررين، وأبلغني أن المواد التي أعطيت له من جهاز التحرير قصّرت كثيراً عن تغطية كامل الصفحات، وأنه بحاجة

---

(15) جريدة «المعرض»، بيروت، 7 أيار/مايو 1930.

(16) الإسم المستعار الذي اخترته للبطاقة الشخصية المذكورة هو «عامر سليمان».

الى «سـدّة» تملأ النقص. وهذا التقصير كنا نصادفه عادةً أكثر من غيرنا من بقية الصحف لأن جريدتنا لم يكن فيها أي إعلانات تسد الفراغات باعتبارها من المطبوعات الحزبية. ولذلك كان من الطبيعي أن تكون «السدّات» اللازمة لجريدتنا أوسع بكثير مما كانت تصادفه الصحف التجارية.

ولهذا السبب، فإن معظم رؤساء التحرير في الصحف اللبنانية كان لديهم ما تسمِّيه الأوساط المهنية «البرّاد» ويتضمن مواد صحافية تصلح لكل زمان ومكان تستخدم لسد الفراغات اللازمة عندما تقصِّر المواد العادية الجارية. ولأن النقص في جريدتنا كان يتكرر في تلك المرحلة بسبب تباطؤ حركة المحررين تبعاً لتباطؤ حركة التنقل للاعتبارات الأمنية المشار اليها، فقد كان من الطبيعي أن تخف المواد البائتة في برّادي، وهو عبارة عن جرّار واسع في درج مكتبي.

ولتلبية حاجة سكرتير التحرير الى «سدّة» كبيرة ليقفل العدد، فتحت درج المكتب المستخدم بـرّاداً لهذه الغاية، فلم أجد فيه سوى ثلاث قطع. القطعة الأولى هي عبارة عن نشرة حزبية داخلية من القيادة العراقية حول محادثة نائب الرئيس صدام حسين مع المصرفي الأميركي دايفيد روكفللر، ونشرة مماثلة حول محادثته مع مجيب الرحمن أول رئيس لجمهورية بنغلاديش المستقلة أثناء زيارة كان قد قام بها الى بغداد، وقطعة بعنوان «الطائفية في العالم العربي»، هي عبارة عن دراسة لا أذكر اسم واضعها، تتضمن إشارة الى الطبيعة الطائفية للنظام البعثي الحاكم في كل من سوريا والعراق، لكن الطائفية في سوريا والعراق لم تكن محورها الأساس. وبعد تردد قررت نشر تلك الدراسة، بالنظر الى الحالة الاضطرارية السابق شرحها، وتقديراً صحيحاً مني بأن نشرها قد يثير ضجة حزبية يمكن أن تشكل ذريعة لخروجي من ذلك المستنقع الخانق في الجريدة، وفي الشياح، وفي عموم لبنان.

وفي اليوم التالي حدث ما توقعت، ورأيت كيف أصيبت إدارة الجريدة بالهلع، لأن الأعداد المخصصة للعراق قد تم شحنها قبل وقفها، وهذا ما دفعني الى تحمل المسؤولية كاملة عن النشر، خصوصاً عندما راح بعضهم يلوم سكرتير التحرير، وآخرون يلومون المصحح في المطبعة لأنه حزبي ولم يعترض عندما وصلته البروفات لتصحيحها.

تحملت المسؤولية لكنني لم أتقدم باستقالتي قبل وقوفي على كيفية تعاطي قيادة الحزب وإدارة الجريدة مع الموضوع. وفي خلال المداولات بالأمر تذكروا ما قاله طارق عزيز بعد أزمة منع حديث السادات في الصيف حول حصر مراكز التوجيه، فقرروا تعيين ما يمكن تسميته «المراقب العام» الذي منه تصدر التوجيهات الى رئاسة التحرير من غير التعاطي مع المحررين، فيكون تعاطيه مع رئيس التحرير حصراً، ويكون التعاطي مع المحررين محصوراً برئيس التحرير. وقد وقع اختيارهم لهذا الموقع على المحامي محمد طي الذي كان يسكن مع

عائلته في أحد طوابق مبنى الجريدة.

والحقيقة أن محمد طي، وهو من أهالي بلدة الهرمل في شمال البقاع، شاب خلوق وفهيم ومتفهم، وكانت تربطني به علاقة صداقة ومودة، وليس لي أي سبب للاعتراض عليه. وعلمت لاحقاً أنه انتقل الى باريس هو أيضاً حيث تابع دروسه العليا في جامعاتها ونال درجة الدكتوراه، ثم عاد الى بيروت لتدريس القانون في كلية الحقوق التابعة للجامعة اللبنانية. وأخيراً شاهدته أكثر من مرة على شاشة «المنار» التابعة لحزب الله يتحدث في أمور سياسية وحقوقية عامة، فسرني أنه ما زال متمكناً في علمه ومواقفه القومية والوطنية، مع أنه تغير قليلاً في الشكل بسبب التقدم في السن. فلم يكن اعتراضي على شخص محمد طي، بل على مبدأ أن يكون هناك رقيب فوق رئيس التحرير.

وفي مطلع السنة الجديدة، 1976، غادرت جريدة «بيروت» نهائياً من دون سؤال أو جواب، ومن غير التفات الى الوراء، أو ندم، أو أسف، بل بشعور من السرور للانعتاق من المسؤولية، خصوصاً أن الاحتدام الإعلامي بين دمشق وبغداد أخذ مناحي خطيرة عندما بدأت ترشح بوادر الدخول العسكري السوري الى لبنان، حيث راحت في منتصف شهر كانون الثاني/يناير من السنة الجديدة تتدفق من سوريا فصائل من جيش التحرير الفلسطيني، بدءاً من البقاع[17].

•••

كنت أعرف أن السوريين شديدو الحساسية للإعلام، وبشكل خاص للإعلام اللبناني، وقد كنت أداري هذه الحساسية قدر الإمكان. ولذلك جاء خروجي من جريدة «بيروت» في الوقت المناسب، لأنه بعد أيام حدث اعتداء مسلح على مكاتب الجريدة في الشياح وقع ضحيته الصحافي المصري ابراهيم عامر. فقد استهدف الهجوم المذكور من قبل قوات لمنظمة «الصاعقة» الفلسطينية التابعة للنظام السوري، في اليوم الأخير من شهر كانون الثاني/يناير 1976، جريدتي «بيروت» و«المحرر» المتجاورتين والتابعتين للعراق سياسياً، مما أدى أيضاً الى مقتل الصحافي الفلسطيني العامل في «المحرر» نايف شبلاق[18].

---

(17) دخل أول لواء من قوات اليرموك التابعة لجيش التحرير الفلسطيني، العامل تحت القيادة السورية، الى البقاع يوم 15 كانون الثاني/يناير 1976، ثم تدفقت قوات أخرى الى عكار في شمال لبنان، ومناطق لبنانية أخرى قبل دخول قوات الجيش السوري النظامي في وقت لاحق.

(18) لم أكن على معرفة سابقة بالصحافي المصري ابراهيم عامر الذي كان يعمل في جريدة «السفير» والتحق بجريدة «بيروت» فور خروجي منها. وقيل لي إنه خرج من «السفير» على خلاف مع رئيس تحريرها طلال سلمان. أما نايف شبلاق فقد كانت تربطني به علاقة صداقة منذ أن عملنا سوياً في جريدة «الأنوار» مطلع ستينيات القرن الماضي. وأثناء وجودنا معاً في «الأنوار» أبلغني أنه من مناصري الحاج أمين الحسيني ومعاونه في «الهيئة العربية العليا» إميل الغوري، كما أبلغني أن المخابرات الإسرائيلية تحاول جهدها التغلغل بين الفلسطينيين في لبنان والخارج في محاولة لجمع أي معلومات عن منظمة «العاصفة» التي بدأت تقوم بعمليات فدائية في فلسطين

ومن حسن حظي أنني كنت قد غادرت جريدة «بيروت» في ذلك الوقت، لأنني عندما زرت مكاتب الجريدة بعد الاعتداء المذكور صعدت الى مكتبي السابق فوجدت أن الكرسي الجلدي الذي كنت أجلس عليه اخترقته رصاصتان من مدفع رشاش 500، ولم يجلس عليه أحد منذ غادرت الجريدة، لكن لو كنت فيه أو كان فيه أحد غيري لكانت الرصاصة الأولى اخترقت رأسه والثانية اخترقت صدره. وعلمت في تلك الزيارة أن الصحافي ابراهيم عامر الذي كان التحق بالجريدة قبل أيام معدودة فقط كان في المطبعة الواقعة في الطابق الأرضي التحتي عندما وقع الهجوم فأصابت المطبعة قذيفة من مدفع 106 أدت الى حريق فيها، لكن الموقع كان مجهزاً بوسائل إطفاء أوتوماتيكية حديثة منع امتداد الحريق. فالانفجار الذي حدث أصاب ابراهيم عامر بحروق جسيمة امتدت الى رئتيه فنقل فوراً الى مستشفى الجامعة الأميركية حيث أجريت له علاجات مستعجلة لكنه فارق الحياة بعد أيام.

وبعد زيارتي تلك الى مكاتب جريدة «بيروت» في الشياح توجهت الى مستشفى الجامعة الأميركية في رأس بيروت لعيادة الصحافي ابراهيم عامر الذي لم أكن أعرفه شخصياً، فعرفته بنفسي وسألته عن حالته، فقال بأسلوب ساخر: «أنا شكلي من الداخل زي شكلي من الخارج»، أي أن لون وجهه الذي تحول الى سواد داكن بسبب الحريق هو ذاته لون رئتيه كما قال له الأطباء. وفيما أنا عنده دخل الزميل طلال سلمان صاحب جريدة «السفير» حيث كان يعمل ابراهيم عامر سابقاً، فبدأ حديثه معه بالاعتذار عن عدم زيارته فوراً لأنه كان مصاباً بالزكام، فقال له ابراهيم عامر باللهجة ذاتها: «برضو الزكام يا عم أهين من مدفع 106»!

المحتلة، وذلك قبل زمان طويل من الإعلان عن كون تلك المنظمة هي الجناح العسكري لمنظمة «فتح» التي كان يقودها ياسر عرفات (أبو عمار). ثم علمت لاحقاً أنه في بداياته كان من أنصار الحركة السورية القومية الاجتماعية بقيادة الزعيم أنطون سعادة، وأنه في مطلع شبابه قابل الزعيم سعادة عند زيارته الى حيفا في أواسط الأربعينات. وعندما هوجمت جريدة «المحرر» يوم 1976/1/31 كان صاعداً على الدرج الداخلي عندما لفته النيران من كل جانب بفعل قذيفة حارقة فمات مختنقاً ومحترقاً. وكان في داخل مبنى الجريدة أيضاً الكاتب والديبلوماسي الفلسطيني المعروف شفيق الحوت، لكنه لم يصب بأي أذى. فقد كان شفيق الحوت في ذلك الوقت يكتب زاوية يومية في جريدة «المحرر» بتوقيع «ابن البلد».

IV

مناضل الزمن المكسور

للمرة الأولى في حياتي المهنية أصبحت «عاطلاً عن العمل»! فقررت العودة الى البقاع حيث زوجتي وولدي عماد وجهاد، بينما ابنتي وابني الأكبر ريما وعامر كانا يدرسان في الأقسام الداخلية لمدارس دير المخلص بالقرب من صيدا. وصار لدي متسع من الوقت لزيارتهما في المدرسة، وقضاء بعض الوقت معهما، وهو ما لم يكن متاحاً لي عندما كنت أعمل في بيروت. وحدث أن اتصل بي بعض الشبان البقاعيين ومن بينهم الدكتور جورج حجار، طارحين فكرة إقامة «تجمع شعبي» غير سياسي بالمعنى المألوف مهمته العمل على عزل البقاع الغربي وراشيا عن الحرب وتداعياتها في بقية لبنان، خصوصاً لجهة الاحتكاكات الطائفية، والعمل قدر الإمكان لمنع قيام ميليشيات مسلحة في القرى. ولذلك تم الاتفاق على رفض دخول الأحزاب والحزبيين الى «التجمع» وحصر عضويته بالشبان والمثقفين الذين يتوخون المصلحة الوطنية العامة في المنطقة. وقد أطلق عليه اسم «التجمع الشعبي للبقاع الغربي وراشيا».

وبعد مداولات استمرت عدة أيام، تخللتها جولات على القرى والشخصيات البقاعية المهتمة بالشأن العام، تقرر إبلاغ الأمر الى كمال جنبلاط زعيم «الحركة الوطنية»، ودعوته الى أول مهرجان شعبي قرَّ الرأي على إقامته في بلدة كامد اللوز ليلقي كلمة فيه. وقد اختيرت تلك البلدة مكاناً للمهرجان لأنها تحتل موقعاً وسطاً ومناسباً بين قرى راشيا وقرى البقاع الغربي والمواصلات اليها ميسورة. وطلب القائمون على التجمع من جورج حجار ومني أن نذهب الى بيروت لإبلاغ الأمر الى كمال جنبلاط وتوجيه الدعوة اليه لحضور المهرجان. تعرفت على كمال جنبلاط عندما كان وزيراً للداخلية، فتفقّد مكاتب مجلة «الأحـرار»، بعد انفجار استهدفها ولم يُحدث أضراراً تذكر، إلاّ أنني لم يسبق لي أن زرته في بيته أو جلست في مجلسه. وقد قصدنا منزل جنبلاط في بيروت من دون سابق موعد ، فوجدناه يعج بالناس وبممثلي «الأحزاب الوطنية».

دخلنا الى القاعة فوجدنا زعيم «المختارة» جالساً على كرسي هزاز والى جانبه صحن من اللوز الفريك يكسر منه حبة ويأكلها ثم يستلقي في كرسيه وكأنه

سارح في عالم آخر، وقبالته كان يجلس عدد من ممثلي الأحزاب مصطفين كأنهم في حضرة أستاذ مدرسة. وجلسنا الى جانبه في الجهة المقابلة لجلسائه، فقال لنا إن وقته ضيق الآن لأنه ينتظر قدوم شخصية سوفياتية رفيعة لزيارته، طالباً منا إبلاغه ما نريد بسرعة. فبدأ جورج حجار الحديث عن تشكيل التجمع، وغايته، وعن المهرجان الشعبي وموعده ودعوته ليلقي كلمة فيه. وبعد ذلك وجهّت الكلام الى جنبلاط، وقلت على مسمع الحاضرين من ممثلي الأحزاب: «لكن تجمعنا يا بيك لن نسمح للأحزاب والحزبيين بدخوله خشية عليه من الانقسام فتضيع أهدافه». فعدل جنبلاط جلوسه على كرسيه، ووضع جانباً حبة اللوز التي كان يهم بكسرها، وقال بصوت مرتفع، وكأنه أراد إيصاله متعمداً الى جلسائه: «معكم حق. يا عمي هاي الأحزاب أحياناً كلها ضرر». وقد أصابني هذا الكلام الذي تفوه به جنبلاط بالذهول... وقبل أن نفهم منه ما إذا كان ينوي حضور المهرجان، حدث هرج ومرج في خارج القاعة علمنا وسط الأصوات المتعالية أن الضيف السوفياتي قد حضر فقام جنبلاط من مقعده ليستقبل ضيفه على الباب ويقتاده الى غرفة أخرى للاختلاء به. وعدنا من حيث أتينا من غير أن نأخذ منه جواباً عن الدعوة.

حان وقت مهرجان كامد اللوز ولم يحضر كمال جنبلاط. وكان المهرجان قد أعد له في ساحة البلدة في الهواء الطلق، وعندما ازدحم المكان بالوفود القادمة من مختلف القرى، طلب القائمون عليه من قريبنا النائب السابق أديب الفرزلي أن يلقي كلمة لم تكن مقررة، فاعتلى المنبر وألقى كلمة عمومية غير منسقة لأنها كانت مرتجلة على عجل وغير مقررة في الأصل. وفيما أديب الفرزلي يلقي كلمته وصل كمال جنبلاط وحده لم يكن مصطحباً معه أحد. صفق الحاضرون له وجلس يستمع في الصف الأمامي فأعجبه، كما يبدو، المنحى الظريف الذي كان أديب الفرزلي يستخدمه في كلامه. وبعد ذلك اعتلى كمال جنبلاط المنبر ليذكّر أديب الفرزلي بالماضي عندما كانا معاً في لجنة الطعون النيابية عام 1954، وهي اللجنة التي طعنت بنيابة رشيد كرامي في الطعن المقدم من المرشح الطرابلسي قبولي الذوق. ولفتني أن جنبلاط قال ذلك بنفس عدائي تجاه كرامي الذي كان يومها، كرئيس للحكومة ينادي بفكرة «الشراكة» أو «المشاركة»، مما دفع بعض القوى المسيحية باتهامه بأنه طامح لرئاسة الجمهورية وانتزاعها من الموارنة، وهي التهمة ذاتها التي كيلت لكمال جنبلاط أيضاً، فكأن في الأمر منافسة على رئاسة الجمهورية بين كرامي وجنبلاط. وبأسلوب ساخر شن جنبلاط في المهرجان هجوماً كاسحاً على طرح كرامي للمشاركة واصفاً إياها بأنها «مثل المشاركة الموجودة الآن في لبنان بين قساطل مياه الشرب وقساطل المجارير». وقد فوجئت بهذا الكلام العنيف من قبل الزعيم الاشتراكي ضد رشيد كرامي، فدونت هذه العبارة في مفكرتي بعد عودتي في المساء. وكان

يومها قد سرت أخبار عن إهمال الحكومة للمنافع العامة، خصوصاً في قطاع المياه، بحيث اهترأت بعض القساطل مما أدى الى تلوث المياه بفعل تسرب مياه الصرف الصحي الى قساطل مياه الشرب.

ولكي يؤكد جنبلاط تشبيه نفسه وحركته بالمياه الصافية من خلال نعت غيره بالمياه القذرة، شن بعد ذلك هجوماً مبطناً لا يقل عنفاً ضد الحكم السوري وادعائه تمثيل العروبة، فقال: «العروبة ليست مستنقعاً راكداً. هي حركة دائمة. ونحن نقوم بهذه الحركة، فحيث نكون تكون العروبة». وتعليقاً على ذلك، كتبت في مفكرتي: «إنه أمر غريب أن يسحب جنبلاط من دمشق صفة قلب العروبة النابض وينسب ذلك الى نفسه». والملاحظ أن جنبلاط في كلمته تلك لم يذكر دمشق أو الحكم السوري بالإسم، بحيث أنه لا يخطر لسامعه في لحظتها أنه يستهدف السوريين.

وقد كرر جنبلاط هذه المقولة في خطاب آخر بعد فترة، وذلك في مهرجان أقيم أيضاً في البقاع الغربي، في بلدة سحمر التي هي اليوم من معاقل حزب الله، بعد انتخاب الياس سركيس رئيساً للجمهورية وقبل أيام قليلة من مغادرتي لبنان الى باريس في مطلع حزيران/يونيو من عام 1976. وكانت مغادرتي بيروت في ذلك الوقت على ما أذكر قبل إغلاق مطار بيروت برحلتين فقط. فقد وصلت الى باريس لكن حقيبتي لم تصل معي، فأزعجني ذلك كثيراً وبعد اتصالات ومراجعات مع شركة «طيران الشرق الأوسط»، وصلت حقيبتي في اليوم التالي، ثم أغلق مطار بيروت في اليوم الثالث.

•••

كان وجودي مع العائلة في جب جنين آنذاك مريحاً لهم، لكنني مع ذلك كنت دائم القلق عليهم وعلى نفسي. والنشاط المحدود في «التجمع الشعبي»، فضلاً عن أنه لم يكن مقنعاً في جدواه وسط حماوة الاحتراب الأهلي المتصاعد، لم يسد الفراغ الذي كنت أشعر به في قرارة نفسي، أولاً لكوني «عاطلاً عن العمل» مما أضاف عنصراً ضاغطاً آخر من حيث مسألة تدبُّر أمر معيشتي، وثانياً لأنني بعد تلك السنوات الطويلة الحافلة في بيروت لم أعد أليفاً لحياة القرية، وخصوصاً لقلة وجود أشخاص مترفعين عن الاصطفافات القائمة آنذاك، ويمكن التحادث معهم بحرية حول القضايا الجذرية التي غابت عن المشهد الغوغائي الطاغي.

لكنني في بعض الأمسيات كنت أقوم بالتمشي مساءً مع عصام حب الله، قائمقام قضاء البقاع الغربي وقتها، الذي لمست من أحاديثي معه أنه ينظر الى الأمور بأفق أوسع مما هو مألوف عادة لدى موظفي الدولة. وأذكر أننا كنا نتمشى معاً في إحدى الأمسيات، فسألني عن تصوري لحالة البلاد في المستقبل، فقلت له:

«ما نراه اليوم هو بدايات لنشوء فكر جديد يختلف عن الفكر القومي الذي نعرفه. إنني أرى أن الفكر الديني هو الذي سوف يسود للخمسين سنة المقبلة على الأقل».

فتعجب عصام حب الله من هذا الكلام وقال تعليقاً عليه: «هذه سوف تكون كارثة ما بعدها كارثة».

•••

لكن الشيء الذي أحدث تحوّلاً ملحوظاً في نفسي خلال تلك المرحلة القلقة والحرجة هو تعارفي مع المناضل البعثي البقاعي الشاعر عمر شبلي، فكان تعارفي معه من العوامل التي عززت ثقتي بالمستقبل، بالإضافة الى أن ما كان يشيعه ذلك المثقف المناضل المليء بالنضج والثقافة والتفاني والمحبة للناس وللحياة حوله من حركة ودأب، شجعني على الانخراط في جهود، بعضها محفوف بالمخاطر، مما أعطى معنى لإقامتي بهوية مستعارة أصدرها لي لتسهيل الإبحار في تلك البحور الطائفية البغيضة، الأمر الذي أضفى على تلك التجربة ما يمكن وصفه بأنه نوع من المغامرة.

وعمر شبلي لمن لا يعرفه هو شاعر رقيق لا يتردد لحظة في التضحية حتى بحياته من أجل معتقداته الهادفة الى إحياء الثقة بمستقبل الأمة العربية كأفق لا محيد عنه، يحتقر الطائفية والطائفيين ويؤمن بقيمة لبنان النوعية كقوة دافعة في العالم العربي، وفي أحلك الظروف وأقسى الاختبارات لم يغادر ولو للحظة واحدة إيمانه بقوة المحبة بين الناس بمفهومها الإنجيلي الحقيقي. وقد كتب ذلك في مقدمة ديوانه الشعري الذي صدر له بعد إطلاقه من الأسر الإيراني الذي قضى فيه تسعة عشر عاماً، منها عشر سنوات في السجن الانفرادي، بعنوان «العناد في زمن مكسور»[1].

في تلك المرحلة كان عمر شبلي صديقي ورفيقي ومؤنسي ومحاوري وشقيق عقلي وروحي، وقد ساعدني كثيراً على تبديد القلق المتراكم في نفسي من حالة الجنون التي عصفت بلبنان واللبنانيين، والأهم من ذلك على ضرورة الحفاظ على العقل والعقلانية وسط الجنون العام. ولهذا كنا نلتقي سوياً كل يوم، حتى في المهمات الصعبة والخطرة، وبقي صامداً كالطود في أحلك الملمات وأصعب الظروف، دائم الابتسام، حاضر العبارة، واضح الخطاب، لا يعرف الخوف أو الملل أو التقاعس. ويمكنني أن أقول إنه تعلّق بي وتعلّقت به فأصبحنا صديقين شقيقين أو توأمين.

وفي التاسع من شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام 2003 عندما التقينا لأول مرة منذ ثلاثة عقود تقريباً وتناولنا الغداء سوياً في مطعم على البحر بالقرب

---

(1) «العناد في زمن مكسور: من رماد تسعة عشر عاماً»، شعر عمر شبلي، الطبعة الثانية، تموز 2001، دار الكنوز الأدبية، بيروت، لبنان.

من منزلي القديم على الروشة، أهداني نسخة من ديوانه «العناد في زمن مكسور» وكتب عليه الإهداء التالي: «الغالي سليمان، قبل سبع وعشرين عجافاً التقينا على حافة الحلم وما زلنا... رغم النوم الثقيل، مع حبي الكبير».

هذا الديوان الذي أهداه عمر شبلي الى «كل السجناء الأحرار في العالم»، والى كل الذين يعطون ولا يأخذون، «لأن أرواحهم لا تجوع إلاّ للنور»، قرأته في لندن أكثر من مرة، وخصوصاً تلك المقدمة النبيلة التي يحكي فيها عن تخرجه من مدرسة الفقر في مسقط رأسه، بلدة الصويرة البقاعية. تلك الومضات من مقدمة الديوان تصلح عناوين ليافطات ترفع فوق رؤوس الناس «الخارجين من مستنقع النفايات والوصاية» على حد تعبيره. ومن تلك الومضات قوله: «كنا فقراء الى حدٍّ لم يكن أحد أغنى منا». أو قوله بأنه على الرغم من الفقر «كنت ممتلئاً بحس غامر بأن العلم يقذف في روحي قذفاً». ويصف حياته القروية في تلك المنطقة المجاورة لجبل الشيخ: «كانت القرية هي الدنيا، وكان جبل الشيخ أكبر ما في الكون». لكن قوله في الفقر هو لب الموضوع وبيت القصيد: «كان الفقر معلماً نبيلاً. كان يغري ويعذّب. عشنا سنوات عجافاً ومع ذلك لم يكن الحرمان يشدنا الى جهنم الشر، وإنما كان يغرينا بالكدح. للفقر قدسية عجيبة حين تلبسه الأرواح الجائعة الى النور. كان معلماً قاسياً ولكننا ألفناه. لم يحولنا الفقر لصوصاً، بل أعطانا قنديلاً للدخول الى الأكواخ الفقيرة وإدمان الجوع مع أصحابها، والإحساس المشترك بالترفع عن الدنايا. لم يكن الفقر قديساً ولكن كان معلماً. لقد غسل أعماقنا من الدناءة التي يجلبها الإقطاعي وهو يأخذ نصف محاصيلنا، مع أنه لا حفر في يديه ولا شقوق. ولا أشواك شبرق وبلاّن. كان يأكل بلا تعب، وكنا نتعب ونجوع. وأعتقد أن هذه الرؤية المرة للواقع هي التي حرّضتني على الانتماء السياسي الحاد الذي قذفني باتجاه مواقع كل البائسين في وطني وأمتي لأشاركهم محاولة قهر الفقر. كانت وحدة القرية في مآسيها وأفراحها أول معلّم سياسي لي دفعني الى الإيمان بوحدة الوطن والأمة».

والشق المكمل لصورة الفقر التي رسمها عمر شبلي هو الحب بمعناه الإنجيلي الذي فيه خلاص العالم. ومن ذلك قوله: «الفقراء يحبُّون أكثر من الأغنياء لأنهم جائعون. بالحب تكتمل المعجزة، وبالحب يصبح الطين روحاً. وبالحب تُنحت أجمل التماثيل. وحده كان البرهان على الخلود. وها هي حضارتنا الراهنة تسير باتجاه الانفجار المدمّر لأنها تفتقر الى الحب. لا بد من الحب لمنع دمار الإنسانية. يجب العودة الى الإنجيل، والى محيي الدين بن عربي، والى قيس بن الملوِّح ، وإلاّ فقدت الأشياء مسوغات استمرارها». أو كما قال في واحدة من قصائده: «لأن الحب لم يهرم بقلبينا، فإنّا لم نزل أحياء».

الحب هو الذي جمع بيني وبين عمر شبلي على المستويات كافة. ولذلك ترافقنا طوال النهارات والليالي في تلك الحقبة البائسة من تاريخ وطننا. وبعد

مغادرتي بيروت بعدة أشهر، وكنت يومها أعمل في مجلة «الدستور» تلقيت منه رسالة يدعوني فيها الى العودة مهما كانت الظروف والاعتبارات، مع علمه بأني لست من نوع المقاتل الذي يفر من المعركة ساعة احتدامها، لكنه من النوع الذي يؤمن بأن «البحر آخره على بيروت» على حد تعبيره. لكننا تواصلنا تالياً بطريقة أخرى. فقد علمت في عام 2004 أن له ابنة متزوجة تعيش في لندن اسمها «فنن»، غادرها الى الحرب وهي بعد طفلة فنشأت وكبرت في أثناء غيبته الطويلة أسيراً لدى الإيرانيين. وكنت يومها مريضاً قيد العلاج من سرطان في الحنجرة، فجاءت الى زيارتنا في بيتنا وفي يدها باقة من الزهور، وكأنها مطبوعة على يد والدها الذي لم تعرفه في مرحلة نضجها. وكان قد ترك خلفه أيضاً زوجة صابرة وابناً لم يعرفه إلاّ بعد عودته من الأسر.

ولا بد هنا من ذكر مصير عمر شبلي بعد سنوات قليلة من غيابي، حيث تطوع مع مجموعات كبيرة من البعثيين من لبنان والبقاع ومن كل أنحاد العالم العربي للقتال الى جانب الجيش العراقي في الحرب العراقية ـ الإيرانية. وقد أسره الإيرانيون مع مجموعات كبيرة من رفاقه عام 1982، وبقي الأسير الوحيد غير العراقي في السجون الإيرانية لأنه رفض التوقيع على التعهد المعروض عليه لقاء الإفراج عنه، كما فعل آخرون. لكن في الزيارة الرسمية التي قام بها الرئيس إميل لحود الى طهران عام 2001 طالب الرئيس اللبناني به فأفرج عنه واصطحبه معه الى بيروت بطائرته. وعندما التقيته لأول مرة بعد عودته في أواخر عام 2003، حدثني عن ظروف أسره وطريقة تعامل الإيرانيين معه ومع بقية الأسرى، وعن لقائه مع الرئيس العراقي الراحل صدام حسين بعد عودته من الأسر وقبل فترة وجيزة من الاحتلال الأميركي للعراق، وعن انكبابه على دراسة اللغة الفارسية وآدابها، بحيث يمكن القول إن فترة أسره الطويلة التي امتدت تسعة عشر عاماً لم تذهب سدى، بل حوَّل أسره الى فرصة للارتفاع فوق الجراحات والعذابات.

ولا بد لي هنا من ذكر بعض الأمور التي كشف عنها عمر شبلي في لقائي معه عام 2003. فقد أبلغني أن الإيرانيين عاملوا الأسرى غير العراقيين معاملة سيئة في البداية، ثم لاحظ أنهم بدأوا يقتلون الأسرى السودانيين بما يمكن وصفه بأنه تصفية عنصرية بسبب اللون، مما دفعه الى قيادة حركة احتجاجية على تلك التصفيات في المعتقل، فتوقف العسكريون الإيرانيون عن ذلك، لكن ضباط الاستخبارات لاحظوا مهاراته القيادية وجرأته وصلابته ومجاهرته فأبقوه جانباً ووضعوه في السجن الانفرادي حيث بقي وحيداً عشر سنوات كاملة.

ولاحظت في الحديث معه أنه يكثر من ذكر الأمثال الشعبية الإيرانية في معرض الكلام ويقولها بالفارسية ويترجم معناها بالعربية حين تتطابق مع

حالات معينة. وقال لي إنهم منعوا عنه الكتب في بداية الانفراد وسمحوا له فقط بالقرآن الكريم فعاد وقرأه عدة مرات متتالية، وبعدها سمحوا له بكتاب «نهج البلاغة» للإمام علي بن ابي طالب، فقرأه بتمعن وكتب حوله دراسة تعليقية من 700 صفحة، لكن ضابط الاستخبارات المسؤول عن المعتقل قبل إطلاق سراحه صادر منه تلك المخطوطة وسمح له بباقي كتاباته الشعرية وغير الشعرية.

لكنني في ذلك اللقاء آثرت عدم الخوض معه في أي حديث عن صوابية أو عدم صوابية انخراطه في الحرب مع إيران، وعن تغييرها للأولويات القومية، خشية أن يفسر ذلك على أنه تلميح مبطن مني بأنه أضاع شبابه الغض في تلك الحرب من غير طائل، فأخدش مشاعره وأحاسيسه ووجدانه المرهف، ولئلا يظن ولو للحظة واحدة أن قراري مغادرة لبنان هو نوع من الهروب أو الفرار أحاول تبريره بمغالطة قراره الانخراط في حرب بعيدة. أو كما قال في قصيدة له من سجن آراك الإيراني عام 1984 بعنوان «وجع في الصحراء»[2]:

«الناس كل الناس يتّهمون صدرك بالعناد
ويقول صدرُك: إن هذي الأرضَ ضيِّقةٌ
وينقصها امتداد»

قبل أن أدخل في بعض الشؤون التي خضتها سوياً مع عمر شبلي في النصف الأول من عام 1976، ومنها ما هو حسّاس ودقيق، أريد هنا أن أستعرض ومضات من ديوان عمر المتضمن لقصائد الأسر. فالملاحظة الأولى هي أن تلك القصائد مكتوبة بعد عام 1984، وأولها من سجن آراك عام 1984. مما يعني أن الإيرانيين منعوه من الكتابة بشكل أو آخر خلال السنتين الأوليين. وهو يقول في حالته هذه إن الزمن في داخله كان ينهار، مترافقاً مع انهيار الزمن العربي في الخارج. داخل هذين الزمنين المنهارين، الداخلي والخارجي، يقول عمر شبلي إنه نسج لنفسه شرنقة من الشعر يقي نفسه فيها من قساوة هذين الزمنين، مخاطباً الزمان بقوله:

أيها «الآن» لماذا لست تمضي   لم أعد أقوى على حمل الزمان

وداخل تلك الشرنقة وزع عمر شبلي عقله وقلبه على الشعراء المناضلين بدءاً من الشاعر التركي ناظم حكمت الذي أهدى اليه قصيدة من سجن آراك في عام 1986 يقول فيها:

إن قطّاع الطريق يوزّعون الأنبياء
الكاذبين اليوم عن روح السماء
لا تسجنوا الشعراء

---

(2) مدينة «آراك» هي عاصمة محافظة «مركزي» الإيرانية الواقعة في وسط إيران غرباً. وقد أمضى عمر شبلي في سجن آراك السنوات الأولى من سجنه الانفرادي.

إن دموعهم ما ظلّ من زيت الألوهة
في قناديل البشر

ومن سجن آراك أيضاً أهدى عام 1985 قصيدة الى الشاعر الخالد أحمد بن الحسين الجعفي (المتنبي) بعنوان «المكاشفة (1)» يستذكر فيها قول المتنبي في الأئمة الكذبة:

شيخٌ يرى الصلوات الخمس نافلةً ويستحل دم الحجّاج في الحرمِ

فيخاطبه بقوله:

أيها المكسور في كل المرايا لُمَّ وجه الشرق عن حوض الذباب

ثم يقول في القصيدة ذاتها:

ربما جاء من الأعراب
طيفٌ أو كتابٌ قرمطي
أيها الأعراب لفّوا وجهه بالأقحوان

وبعد عرض لأحوال الانحلال في الأمة حيث «ألف كافور على الدمنة ينمو كل يوم»، يقول للمتنبي:

لا عليك يا شهيد الغضب المذبوح يا نسل الشياطين الجميلة
يا ابن انثى النار، يا فرخ النسور المستحيلة
عاصفتك الريحُ فانهدّت
ولم تُسلس لها يوماً زماما
كنت للريح وللنار إماما

ومن سجن رينة في عام 1999 كتب قصيدة «من يوميات البحر لكريستوف كولومبوس: محاولة أخيرة للتغلب على البحر». لكنه من معتقله في قصر فيروزية بين الأعوام 1993 و 1996 كتب أجمل قصائد التمرد يمكن اختصارها بعنوان إحدى قصائده تلك وهو: «صراخ في كل الاتجاهات: حين لا تملك حق الصراخ يكون صراخك أقوى».

وعلى الدوام من «آراك» الى «كهريزك» مروراً بـ«قصر فيروزية» و«برندك» و«رينة» بقي البقاع ومنه على الخصوص الصويرة وجب جنين وزحلة في ضلوعه وثناياه، وظل لبنان في قلبه وخياله لم يحتجب عن فكره لحظة واحدة. ومن قصائده اللبنانية في الديوان: «أبعد من ديرزنون» (الى الشهيد سعد الخطيب الذي استشهد على أرض الجنوب، آراك 1984»)، «وجه لبيروت» (قصر فيروزية 1993)، «عرس في قانا الجليل» (قصر فيروزية 1996)، «سيمفونية الحياة والموت في جسد مسلول» (الى شاعر الظلال والألوان جبران خليل جبران، آراك 1985)، «خالدٌ قيسٌ وجب جنين ليلى» (برندك 1990)، «من أيام الملك السعيد» (الى الصويرة وليالي شتائها الطويلة، آراك 1989)، «بقاعية» (الى امرأة لا تملُّ النار جيرتها، آراك 1986)، «الرسولة» (الى زحلة وقرميدها المتكسر الحزين، الى الشاعر الخالد فوزي المعلوف، آراك 1986)، «تؤلف ولا تؤلفان»

(الى عين الصويرة التي روت بدموعها عطش أرضنا، كهريزك 2000)، «وعد» (إني لأشم ريح وطني، دزبان مركز 1990)، «موت العاشقة» (الى بيروت التي لا تموت، الداودية 1982).

من أجمل قصائد الديوان اثنتان: واحدة بعنوان «رؤيا من تراب» كتبها في «كهريزك» عام 2000، وثانية بعنوان «الى محمد» كتبها من «رينة» عام 1999 يخاطب فيها ابنه محمد الذي لم يعرفه شارحاً له خياره باقتضاب مستبقاً ما يمكن أن يدور في رأس ابنه بقوله: «وتقول: ضيّعني صغيراً ثم حمّلني كبيراً همّه». وفي القصيدتين المذكورتين ومضات انسانية نابضة. ففي القصيدة الأولى يقول:

أعطى يسوعُ سماحاً للذين غووا فصار فيها يهوذا مثل معذور
كان الصليبُ يعاني مثل صاحبه فالحبُّ يمسح أحقاد المسامير

أما في قصيدته الى ولده محمد فإنه لا يملك تبريراً سوى درب العناد على طريق غد حر وأفضل، فهو يقول لولده في المطلع:

من أين تدركُ أن مشكلة الحمامة هي نفس مشكلة العقاب
لكن ستنبؤك الطريق حقيقةً
أن البراءة لا تكون بأن تكون على الحياد
قدرٌ لهذي الأرض أن تمشي
الى غدها على دمها وتحترف العذاب
ولذاك يا ولدي قضينا عمرنا بين الشظية والضماد

ثم يقول له في مقطع آخر:

لا بد يا ولدي من الترجيح حين يكون
منديلُ الحبيبة في خطر
إن لم تعدّ القادمين الى الجنوب
فسوف تُجبر أن تعدّ الهاربين الى الشمال

ويختم بالقول:

ما كانِ والدك المغيّب مرةً
عبداً لتلك الكيمياء المستبدة بالملوك
تحويل كل الآخرين الى عبيد
بل كان يحلم أن يعود وفي
يديه هديّةٌ أو حكمةٌ
تحتاجها يوماً على درب عنيد.

هذه باختصار صورة بالألوان عن عمر شبلي الشاعر والمناضل والمقاتل والإنسان كما رسمها بيده وعقله في معتقلات بعيدة.



V

جيش مغبون في كيان مهزوز!

بعد أيام من مغادرتي جريدة «بيروت» وقبل أن أعود الى البقاع اتصل بي الملحق الصحافي العراقي مناف الياسين طالباً مني أن أقابله في مكتبه لأمر مهم يتعلق بي، فتواعدنا لليوم التالي. وفي ذلك اللقاء الذي أراد منه، حسب تحليلي لمضمون حديثه، أن يفهمني أن العراقيين غير مستائين مني أو مما حدث في الجريدة، وأن يفهمني أيضاً أن لديهم تصوراً لوضعي الشخصي يحظى بموافقة من يهمهم الأمر في بغداد، وبالذات طارق عزيز الذي ذكره بالإسم في هذا الخصوص.

ومما قاله لي الملحق العراقي في تلك الجلسة إن الإخوان في بغداد ارتأوا أن يشتروا نصف ملكية مجلة «الديار»[1] التي كان يصدرها في بيروت ياسر هواري، والمملوكة من شركة لبنانية مساهمة، كما ارتأوا تسجيل تلك الحصة باسمي، مشدداً مرة أخرى على أن تلك هي رغبة طارق عزيز. وقام من وراء مكتبه الى زاوية في المكتب وأحضر علبة كرتونية تضم مبلغ 250 ألف ليرة لبنانية نقداً (نحو 75 ألف دولار أميركي بعملة ذلك الزمان) قال إنها نصف المبلغ المتفق عليه مع ياسر هواري، باعتبار أن رأسمال الشركة المساهمة مالكة المجلة، والمدفوع بكامله، يبلغ مليون ليرة، قائلاً إن المبلغ الآخر المماثل سوف يصلني بعد إتمام الصفقة. وطلب مني مناف الياسين أن أتصل بياسر

---

(1) كانت «الديار» في الأصل جريدة يومية صدرت في مرحلة نمو الحركة الاستقلالية اللبنانية قبيل عام 1943، ثم في الخمسينيات من القرن الماضي آلت ملكيتها الى الصحافي حنا غصن ووزير الخارجية الأسبق فيليب تقلا بالشراكة مناصفة، وكان من كتابها الأوائل في تلك المرحلة الصحافي الراحل نبيل خوري الذي كان يكثر من استخدام النقاط في مقالاته، فاستدعاه فيليب تقلا مرة وقال له إن إدارة المطبعة أبلغته أنها لم يعد لديها مناضد نقاط تكفي لمقالته، حيث كانت الأحرف يومها تصف باليد ولكل حرف من الحروف ومن التشكيلات المختلفة، كالنقاط والفواصل وعلامات التعجب والاستفهام، عدد معين من المناضد، ونصحه بالتخفيف من استخدام النقاط، شارحاً له كيفية استخدام النقاط في الكتابة العربية السليمة. وكان المرحوم نبيل خوري يروي هذه الحكاية كلما أبدى أحدهم ملاحظة بهذا الخصوص، معترفاً بأنه مفرط في استخدام النقاط الى درجة أن عدد النقاط في بعض المقالات كان يزيد كثيراً عن عدد الكلمات، ومقراً بأن تلك عادة سيئة لا يستطيع الخروج منها!

هواري لمباحثته حول التفاصيل والإجراءات القانونية اللازمة لتسجيل حصة النصف في المجلة باسمي وتحديد موعد لإتمام التسجيل كي يصار الى تأمين القسط الثاني من المبلغ المتفق عليه. والواقع أن ذلك العرض فاجأني تماماً بحيث أنه لم يكن بوسعي أن أرفض، أو حتى أناقش في الأمر، لأن هذا النوع من العروض يجري عادة تقديمه بحيث لا يستطيع المعني به أن يرفضه فوراً. إنه، بكلام آخر، نوع من التهديد المبطن بكرم حاتمي. أقول ذلك لأنه تبعني الى الباب ليودعني وهمس بأذني متمنياً علي عدم إبلاغ الشخصين الأقرب الي من أقربائي، وهما الشقيقان الياس ونقولا الفرزلي المعروفان بصلتهما القديمة مع حزب البعث العراقي.

وهذا الطلب الأخير هو الذي نبهني الى وجود قطبة مخفية في العرض المذكور، فاتخذت قراراً حاسماً لحظتها بأنني لن ألعب هذه اللعبة مهما كانت الإغراءات، لكنني فضلت أن أسير بالموضوع خطوة خطوة على مهل ومن غير الإفصاح عن عدم حماسي للمشروع. وكانت الخطوة الأولى أنني توجهت في صباح اليوم التالي الى فرع «بنك البحر المتوسط»[2] على الروشة بالقرب من منزلي حيث كان لي حساب مصرفي شخصي فتحته هناك لأنه قريب ومناسب، من أجل إيداع المبلغ في الحساب المذكور.

لم يكن البنك بعيداً عن منزلي أكثر من 25 متراً فقط. فحملت صندوقة مناف الياسين المحشوة بالأوراق النقدية وتوجهت الى شباك الودائع في البنك فراح أمين الصندوق يعدها ويدقق فيها وأنا واقف قبالته، ثم أصدر إيصالاً ذهب به الى مدير الفرع ويدعى سمير جريس لتوقيعه، فخرج المدير من مكتبه وتوجه الي ليدعوني الى شرب القهوة في مكتبه بترحاب ملفت، مع أنه قد مضت سنوات عدة على وجود حسابي الشخصي لدى مصرفه ولم يكلف نفسه مرة واحدة أن يستقبلني أو يرحب بي، ربما لأن حسابي هناك لم يكن يتجاوز حدود راتبي الذي لا يزيد عن بضع مئات. فرأيت بعيني مثالاً حياً لقول الشاعر: «أرى الناس قد مالوا/ الى من عنده مالُ». ذلك أن راتباً زهيداً ولو دائماً ليس مثل صندوقة حبلى بمئات الآلاف ولو عابرة!

ولما صار الإيصال الممهور والموقع من مدير البنك في جيبي وأيقنت أن المبلغ صار في الحساب، اتصلت بياسر هواري لتحديد موعد للقاء فوجدته على أحر من الجمر. جرى اللقاء في مكتب ياسر هواري في مجلة «الديار» واستمر لأكثر من ساعة شرح لي خلالها ظروف المجلة والأسباب الموجبة للبيع، على أمل أن يؤدي ذلك الى استقطاب كفاءات جديدة بفضل زيادة رأس المال والأمل في الحصول على موارد إضافية لازمة للاستمرار في ظل الظروف السائدة في

(2) كان «بنك البحر المتوسط» في ذلك الوقت ما زال في عهدة صاحبه الأصلي جوزف عبده الخوري قبل سنوات من شراء رفيق الحريري للبنك ليصبح درة التاج في مملكة الحريري المالية من مرحلة ثمانينات القرن العشرين الى اليوم.

البلاد. ثم انتقل الحديث الى النواحي القانونية المتعلقة بعملية بيع وشراء أسهم الشركة، فقال لي إن هذه العملية تقتضي عقد اجتماع للجمعية العمومية غايته الموافقة على نقل الأسهم باسمي، لكن مثل هذا الاجتماع يحتاج الى وقت والى ترتيبات إدارية، وبالتالي فإنه من المتعذر عقده فوراً. ولما كان الأمر ملحاً وضاغطاً، فقد اقترح هواري أن يصدر لي وثيقة تعهد شخصي منه بإتمام العملية القانونية لاحقاً ريثما تتم الترتيبات المطلوبة لعقد الجمعية العمومية بغية إصدار الأسهم المقررة.

عندئذ قلت لياسر هواري إنني لا أستطيع أن أعطيه جواباً قاطعاً على اقتراحه وعلى الورقة الشخصية المعروضة قبل استشارة المحامي لكي تكون العملية قانونية بكل معنى الكلمة. وخرجت من مكتبه على أن نعاود الاتصال قريباً.

وبما أنني كنت منزعجاً من توصية الملحق الصحافي العراقي مناف الياسين لي بعدم إبلاغ الأمر الى قريبيّ الياس ونقولا الفرزلي، فقد توخيت أن يصل الموضوع الى المحامي الياس الفرزلي بطريقة غير مباشرة، إذ توجهت الى المحامي جوزف طربيه الذي كان يعمل معه في مكتب واحد بمبنى «ستراند» في شارع الحمرا، وعرضت عليه الأمر كما جرى بالضبط، طالباً رأيه في الموضوع. ومما قاله لي المحامي طربيه يومها هو أن عرض ياسر هواري بتعهد شخصي لا يقوم قانونياً لأن الملكية في هذه الحالة لا تتم وتصبح قانونية تماماً قبل أن تصبح حاملاً للأسهم. ففي الشركات المساهمة يكون حمل الأسهم هو الإثبات الوحيد للملكية، إلاّ إذا كنت ترغب في «بخششة» المال الى ياسر هواري. فقلت للمحامي طربيه إنه ليس مالي لأبخششه لأحد، حتى لنفسي. قال: «إذن يجب أن تنتظر ليسلموك شهادات الأسهم. هذه نصيحتي».

وبعد أن وقفت على هذه المطالعة القانونية من المحامي جوزف طربيه، توجهت الى السفارة العراقية لمقابلة الملحق الصحافي مناف الياسين لأعرض عليه خلاصة ما توصلت اليه من لقاءاتي المشار اليها، فلاذ بالصمت قليلاً ونظر الي نظرة حائرة فقلت له إنني لا أستطيع أن أمضي في العملية إلاّ حسب مشورة المحامي، فماذا تريدني أن أفعل بالمال الذي سلمته لي؟ فقال بعد تردد: «اعط مائة ألف ليرة منه الى ياسر هواري». ولما كنت قد أودعت المبلغ المذكور وقدره ربع مليون ليرة في حسابي المصرفي لدى «بنك البحر المتوسط ـ فرع الروشة» ورقمه 01760، فقد أعطيت المبلغ المشار اليه الى ياسر هواري بموجب شيك على هذا الحساب. ومن حسن الحظ أنني احتفظت بدفتر الشيكات هذا عندما غادرت لبنان الى باريس نهائياً في مطلع شهر حزيران/ يونيو من عام 1976. وشاءت الصدفة أن يكون ياسر هواري وعائلته على تلك الطائرة أيضاً مغادرين لبنان مثلي!

وسألت مناف الياسين ماذا أفعل بالباقي وقدره 150 ألف ليرة فلم يجب بل

قلب يديه وكأنه يريد أن يقول لي: «احتفظ به»، لكنني أعدت اليه المبلغ بموجب شيك على الحساب ذاته وباسمه الشخصي فقبله. والحقيقة أنني قبل مغادرتي بيروت طلبت منه أن يعطيني مبلغ ثلاثة آلاف ليرة لتسديد فاتورة المحامي ففعل بدون تردد. وكان ذلك اللقاء الأخير بينه وبيني[3].

وبعد اللقاء العابر بيني وبين ياسر هواري في الطائرة المتجهة الى باريس، لم تتقاطع بنا الطرق من جديد إلاّ في مجلة «الحوادث» الصادرة من لندن حيث عملنا سوياً لفترة قصيرة عام 1979 قبل أن ننتقل للعمل معاً في تأسيس جريدة «البيان» الصادرة في إمارة دبي مطلع ثمانينات القرن الماضي.

•••

أنا شخصياً التزمت بما تمناه عليّ الملحق الصحافي العراقي مناف الياسين عدم إبلاغ أقربائي بأمر الصفقة مع ياسر هواري، لكن المحامي الياس الفرزلي علم بالأمر من زميله في مكتب المحاماة المحامي جوزف طربيه، وكما كنت قد قدّرت وتوخيت. وكان سروري عظيماً عندما أيقنت أن الأمر انتهى، أولا لأنني لم أكن مقتنعاً بجدوى المشروع، وثانياً لأنني لا أرغب في أن أكون واجهة لأحد، خصوصاً إذا كانت العملية قائمة على التدليس والتمويه، وعلى الأخص إذا كانت مدفوعة ضمناً باستغلال وضعي الشخصي كعاطل عن العمل بعد تركي جريدة «بيروت»، وثالثاً لأنني أكثر من مقتي لدور الواجهة، أمقت أن أكون ألعوبة تُستخدم كوسيلة للضغط ثم تُلقى جانباً. كل هذه الأمور كانت واقعية في حينه وحسبتها بدقة وبصدق وعزم مهما كانت النتيجة.

وأظن أن قريبي المحامي الياس الفرزلي قد قدّر لي هذا الموقف مع أنني لم أفاتحه به مباشرة عملاً بتوصية الملحق العراقي الذي غطّى نفسه بوزيره طارق عزيز حين قال لي إن تلك هي رغبة الوزير، تاركاً تلك الرغبة مشكولة بحيث يمكن فهمها أنها رغبة الوزير في شراء نصف «الديار» باسمي، كما يمكن فهمها على أنها رغبته في عدم إبلاغ أقاربي.

وبعد أيام من انقضاء الأمر بإعادة الأموال التي آلت الي في البداية كما تقدم، اتصل بي المحامي الياس الفرزلي للقائه في منزله الكائن وقتها في

(3) تعرفت على مناف الياسين (أبو مصعب) لأول مرة في بغداد بعد صدور مجلة «الأحرار» في بيروت عام 1969 حيث طرح مسؤولون في القيادة القومية لحزب البعث اسمه كمراسل للمجلة ومسؤول عن مكتبها في العاصمة العراقية، وذلك قبل سنوات قليلة من تعيينه ملحقاً صحافياً في السفارة العراقية في بيروت. وعلمت لاحقاً في لندن أنه بعد وصول صدام حسين الى رئاسة الجمهورية في صيف عام 1979 ألقي عليه القبض وحكم بالسجن عشر سنوات، لكن والد زوجته الذي كانت له دالة قديمة على الرئيس العراقي سعى الى الإفراج عنه بسبب أنه لم يعد بإمكانه الاهتمام الكافي بالعائلة. لكنني الى اليوم لم أعرف الظروف الحقيقية لسجنه والحكم عليه، لأن ذلك تزامن مع التصفيات الكبيرة التي قام بها صدام حسين في صفوف القيادات الحزبية فور انتقال السلطة اليه بحجة المؤامرة المزعومة المدعومة من السوريين. ولست أظن أن لمناف الياسين أي علاقة بهذا الأمر، وربما كان سجنه على الأرجح لسبب مسلكي لا دخل له بالمؤامرة المزعومة.

ساقية الجنزير، لكنه لم يفاتحني في موضوع «الديار»، وأنا من جهتي لم أتبرع بمفاتحته، فالتقينا وكأن شيئاً لم يكن.

وفي ذلك اللقاء عرض الياس الفرزلي أن أشاركه وصهره زوج شقيقته[4] مثالثة في تأسيس دار للنشر، متعهداً بدفع مبلغ نقدي فوري من رأس المال التشغيلي الابتدائي قدره خمسون ألف ليرة لبنانية (نحو 17 ألف دولار بعملة ذلك الزمان). وقد وافقت على الفكرة فوراً مبدياً استعدادي للمساهمة الفورية بمشروع للترجمة والطبع كنت قد تعاقدت عليه سابقاً مع مكرم عطية الذي كان قد أقام مطبعة جيدة التجهيز في طابق تحت الأرض من المبنى العائد لوالده وديع عطية تحت قصر صالحة وهو القصر الذي اشتراه رفيق الحريري تالياً وجعله مقره في قريطم قبالة البوابة الرئيسية لكلية بيروت للبنات[5]، حيث كان مكتبه في الطابق الأول من ذلك المبنى[6]. واتفقنا على تسمية تلك الدار باسم «المركز العربي للدراسات والنشر»، وفي اليوم التالي قمنا بالفعل بالإجراءات القانونية والتسجيلية اللازمة، وفتحنا حساباً مصرفياً في «البنك العربي» فرع الحمرا، أودع فيه الياس الفرزلي المبلغ الموعود، كما سهّل لنا الحصول على مكتب شاغر في مبنى «ستراند» من غير أن ندفع أي إيجار، لكننا لم نمكث في ذلك المكتب سوى أسبوعين انتقلنا بعدها الى ساقية الجنزير لنشغل شقة شاغرة موكلة اليه ومن غير إيجار أيضاً. على أن الأحداث اللبنانية تسارعت في تلك الفترة بحيث لم يطل بنا المقام في بيروت، ولم نقم بأي عمل يذكر خلال الأسابيع القليلة التي انقضت منذ تأسيس المركز. والزائر الوحيد الذي قصدنا في مكتب ساقية الجنزير كان الشاعر السوداني محمد الفيتوري الذي دخل مذعوراً لأنه قدم سيراً على الأقدام وحين تجاوز فندق «كارلتون» ليقطع الطريق الى مكتبنا حدث في المحلة إطلاق نار كثيف لم تُعرف مصادره، فهرع الفيتوري للاختباء في كاراج قريب فشاهد وهو في باب الكاراج سقوط قذيفة حارقة على سيارة متوقفة قبالة الباب المذكور فسال الدهان أمام ناظريه عن تلك السيارة وتحولت الى مجرد هيكل متفحم وكأنها ذابت كما يذوب الشمع من أمام وجه النار. ولما حكى لنا الحكاية التي هزته وهو يصف كيف شاهد الدهان يسلي من على جسد السيارة، حاولنا الترفيه عنه ترفيهاً خيالياً بأن يغمض عينيه ويتصور أن تلك السيارة امرأة حسناء تتعرى من ملابسها أمامه، فتحدث له الصدمة

(4) هو أيضاً ابن عمتي أنطوان شكيب متري الفرزلي الذي كان في تلك الأيام مدرساً للأدب العربي في ثانوية برمانا.

(5) هذه الكلية تغير اسمها أكثر من مرة وهي تُعرف اليوم باسم «الجامعة اللبنانية الأميركية» (LAU) وقد تحوّلت الى جامعة تحت إدارة البروفسور ألبرت بدر الذي درست على يده الاقتصاد الكينزي في الجامعة الأميركية عام 1960 كما ورد سابقاً في الكتاب.

(6) سبق لي أن عملت في ذلك المكتب على مراحل متقطعة ورد ذكرها في النص، وفيه أيضاً عمل ابن عمتي أنطوان الفرزلي لفترات أخرى فلم نعمل فيه سوياً في أي وقت.

ذاتها!

ولم ألتقِ الشاعر الفيتوري بعد تلك الحادثة إلاّ عندما عدت الى بيروت في خريف عام 1982 رئيساً لتحرير مجلة «الصياد» حين قصدت مع الزميل جهاد فاضل القصر البلدي في الذوق بالقرب من جونيه لحضور أمسية شعرية له هناك رتبتها الشاعرة والفنانة الكسروانية المعروفة باسمة بطولي، وفيها ألقى الفيتوري من جملة القصائد التي ألقاها قصيدة عن لبنان أذكر منها عبارة تقول: «والرجال العبقريون هنا». وغني عن القول إن تلك البلدة تقع في المنطقة الشرقية من بيروت معقل القوى المسيحية المسلحة المتحالفة مع إسرائيل في ذلك الوقت.

وفي تلك الأمسية الشعرية ألقى الفيتوري مقاطع من قصيدة جاء فيها البيت التالي:

بيننا خائنٌ يا رفيق:

أنا أو أنت

فلنقترع قبل بدء الطريق.

وحفظت هذا البيت من شعر الفيتوري واستعرته في مقال لي في مجلة «الصياد» آنذاك حول الانقسامات العقائدية والحزبية في الصف الواحد الى درجة التخوين حتى لو كانت تلك الحركات مؤلفة من رفيقين فقط. وقد ذهب بعض الخبثاء من الزملاء الى الزعم بأنني تعمدت نشر هذا البيت من شعر الفيتوري إشارة الى خلاف بيني وبين الزميل رفيق خوري الكاتب والمحلل السياسي المعروف، وكبير محرري جريدة «الأنوار» الصادرة عن دار «الصياد». وهذا غير صحيح لأنني كنت وما زلت أكن للزميل رفيق خوري المحبة والتقدير والاحترام، لكن القصة وما فيها أن إدارة المجلة طلبت من الزميل المحترم أن يكتب مقالاً أسبوعياً في المجلة التي أرأس تحريرها، ولم يكن لدي مانع من ذلك. لكن مقالات رفيق خوري في «الصياد» كانت ترسل الى المطبعة من غير علمي ومن غير أن تمر على رئاسة التحرير، فاعترضت على ذلك وعقدت جلسة مكاشفة بيني وبين الزميل خوري ومديرة الدار السيدة إلهام فريحة في مكتبها، حول مهام رئاسة التحرير واعتراضي على أي وضع صحافي يكون هناك فيه رئيس تحرير غير مسؤول فوق رئيس التحرير المسؤول أسوة بما كان يجري في الصحف الحزبية. ولم يكن ذلك في بداية الطريق بل في نهايته لأنني بعد جلسة المكاشفة تلك تركت دار «الصياد» وعدت الى لندن لأنضم من جديد الى أسرة تحرير مجلة «الحوادث» حيث هامش الحرية كان أوسع بدرجة ملحوظة. لكنني أجزم الآن وقد مضى أكثر من ثلاثين عاماً على ذلك، أنني عندما استعرت بيت الشعر المذكور للفيتوري في مقالي آنذاك لم أكن أقصد رفيق خوري لا من قريب ولا من بعيد، بل كان ذلك مجرد مصادفة.

لو كان هناك بريق أمل في تحسن الأحوال المزرية للبلاد في تلك المرحلة، لكان من الممكن أن يأتي مشروع «المركز العربي للدراسات والنشر» مجدياً أو مؤملاً. لكنني قبلت الدخول في المشروع من قبيل التفاؤل الذي كنت أعلم أنه في غير محله. ولذلك يمكن القول بأن المشروع المذكور ولد ميتاً ولم يبرح مكانه. وإزاء هذا الوضع آثرت العودة الى جب جنين للالتحاق بعائلتي من جديد والتفكر بالمستقبل لجهة تعليم الأولاد. ولم يكن حتى ذلك الوقت قد خطر ببالي ولو للحظة واحدة مغادرة لبنان نهائياً والعيش في الخارج. لكن ذلك الاحتمال بدأ يطرق بابي مع الوقت ومن خلال حوادث معينة أبرزها ثلاث سوف أروي كيفية دخولها على تكوين خياراتي اللاحقة.

الحادثة الأولى لقاء منتصف الليل مع الضابط أحمد الخطيب المنشق عن الجيش اللبناني باسم «جيش لبنان العربي» برفقة عمر شبلي بصفته آنذاك مسؤول حزب البعث الموالي للعراق في البقاع. وكان تعارفي مع عمر شبلي في ذلك الوقت من العوامل التي عززت ثقتي بالمستقبل، بالإضافة الى أن ما كان يشيعه ذلك المثقف المناضل المليء بالنضج والثقافة والتفاني والمحبة للناس وللحياة حوله من حركة ودأب، شجعني، كما سبق أن قلت، على الانخراط في جهود، بعضها محفوف بالمخاطر، مما أعطى معنى لإقامتي بهوية مستعارة أصدرها لي لتسهيل الإبحار في تلك البحور الطائفية البغيضة، فأعطى تلك التجربة ما يمكن وصفه بأنه نوع من المغامرة.

وقبل انتقالي الى البقاع أشار علينا بعض الأصدقاء في «جبهة التحرير العربية» التابعة لحزب البعث، بالنظر الى شيوع حالة «العسكرة» في البلاد، بإمكانية التدريب العسكري فقاموا بإنشاء كتيبة صغيرة للمثقفين كنت في عدادها مع الدكتور بشير الداعوق صاحب «دار الطليعة للنشر» ونقلونا الى «مخيم شاتيلا» الفلسطيني لتلقي التدريبات الأولى. وأعترف أن مشهدنا، خصوصاً أنا وبشير الداعوق، كان مضحكاً، لأننا لم نكن نألف مثل تلك الأجواء. ومن هذه التدريبات حضرت دورتين فقط وانقطعت، ولا أدري ما إذا كان بشير الداعوق قد واصل تدريبه، لأنني لم أعد أراه منذ ذلك الوقت[7].

والواقع أنه كان لي احتكاك أولي مع الجيش اللبناني عندما كنت طالباً في السنة الثانوية النهائية قبل الجامعة في المدرسة الإنجيلية في عين المريسة حيث زارنا في الصف العقيد فؤاد لحود ليشجع الطلبة الدارسين باللغة

---

(7) علمت مؤخراً أن الدكتور بشير الداعوق قد توفي في باريس بعد معاناة مع المرض، وهو من قدامى البعثيين الواسعي الثقافة والمعرفة بالفنون والآداب العالمية والعلوم الاقتصادية، وكان لدار «الطليعة» التي أسسها في بيروت مآثر جليلة في إشاعة الفكر القومي التقدمي. وينتمي بشير الى عائلة بيروتية عريقة تملك قصراً أثرياً أنيقاً في راس بيروت فيه انعقد أحد المؤمرات القومية لحزب البعث. وقد تزوج في وقت لاحق من الأديبة السورية المعروفة غادة السمان ورزق منها ولداً واحداً.

الإنكليزية على الإنخراط في الجيش من خلال الانتساب الى الكلية الحربية التي تخرِّج الضباط[8]. لكنني لم أتبع هذا الخيار، وكنت من خلال مطالعاتي الابتدائية في ذلك الوقت المبكر أحمل أفكاراً سلبية عن العسكريين، خصوصاً بالنسبة الى الثورة المصرية في بداياتها ومن قبلها الانقلابات العسكرية المتتالية في سوريا. لكن نظرتي الى الجيش اللبناني تغيّرت فيما بعد لاعتبارات سوف أشرحها في السياق.

•••

كنت وما زلت أنظر بريبة الى كل تطاول على الجيش اللبناني أو أي تجريح به. ليس فقط لأنه حافظ لكيان لبنان ووجوده، أو حارس للوحدة الوطنية فيه، على الرغم من انعدام إمكانياته المادية ومحاصرته بشتى أنواع التشكيك وأبرزها في زماننا آنذاك أنه «جيش فئوي»، خصوصاً من قبل بعض الهيئات الإسلامية بغاية تصويره على أنه جيش المسيحيين. بل لأن هذا الجيش الذي رمي بكل تلك الصفات والنعوت هو الجهة الوحيدة في لبنان التي أفرزت على مر العهود قيادات سياسية وطنية نظيفة من الطراز الأول، من فؤاد شهاب وجميل لحود وتوفيق جلبوط، وفرانسوا جينادري وأحمد الحاج، الى ميشال عون وبعض زملائه، الى إميل لحود وجميل السيد ومصطفى حمدان وغيرهم. كل هؤلاء الضباط وغيرهم دخلوا في السياسة اللبنانية بمواقف واتجاهات إصلاحية راديكالية ووطنية ومعادية للطائفية سوف تبقى ذخراً للبنانيين الى مستقبل بعيد، لا سيما لجهة النزعات الاجتماعية المنحازة الى الفئات الفقيرة والكادحة في المجتمع، فهم دائماً الى يسار الوسط. وقد عبّر عن تلك النزعة الراديكالية لدى العسكريين اللبنانيين بيان الرئيس فؤاد شهاب في عزوفه عن التجديد، وعبر عنها بوضوح أخيراً العماد ميشال عون بقوله إنه إذا كان الأغنياء بحكم مصالحهم وارتباطاتهم الخارجية لا يريدون الإصلاح فليحكم الفقراء! وكنت دائماً أعجب كيف أن القوى الدولية التي درس كثيرون من ضباط الجيش اللبناني في كلياتها العسكرية، لم تستطع من خلال أجهزة استخباراتها تجنيد أحد من هؤلاء الضباط لخدمتها، فظلت معتقداتهم الوطنية راسخة وعصية على الاختراق، باستثناء بعض الحالات الثانوية التي لم يكن لها تأثير في المجرى الوطني العام. ومن تلك الحالات القليلة التي ارتبطت بالأجهزة الإسرائيلية أثناء الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان، لم يدم أثر يذكر لأي منها، بل أحدثت ردة فعل عكسية في الأوساط العسكرية، وهذا من العوامل التي وثقت الرابطة بين الجيش اللبناني والمقاومة في المراحل اللاحقة بعد التحرير. ولذلك شعرت بالخوف والقلق عندما بدأ الجيش اللبناني يتخلخل بفعل الأحداث الأليمة التي

(8) تخرج العقيد فؤاد لحود من كلية أركان الحرب البريطانية في الخمسينات، ثم بعد خروجه من الجيش عمل في السياسة فانتخب نائباً عن المتن الشمالي عام 1972 وبقي في المجلس النيابي المجدد لنفسه خلال الحرب حتى وفاته في عام 1987.

عصفت بالبلاد جرّاء الانقسام الحاد الذي أحدثه الوجود الفلسطيني المسلح على الأراضي اللبنانية وما رافقه من تدخلات عربية ودولية بالمال والسلاح والإعلام. وكان الإنقلاب الدونكيشوتي الذي قاده عبد العزيز الأحدب، على الرغم من النوايا الحسنة ربما لقائد تلك المحاولة، مؤشراً ولو عابراً على انحلال الدولة وانفكاك العقد الوطني اللبناني الذي جعل من لبنان حالة فريدة في الشرق كله. ومن ذلك الوقت بدأت تساورني أفكار أولية غير مؤكدة عن وجود حالة عدائية تجاه الجيش بين الجماعات والأوساط الإسلامية السنِّية، لكن تلك الأفكار أخذت تتبلور بوضوح بعد انشقاق ضباط مسلمين سنّة، من أحمد البوتاري الى أحمد المعماري، وانتهاءً بأحمد الخطيب.

فعندما أعلن الضابط أحمد الخطيب انشقاقه عن الجيش اللبناني، وأطلق على المنشقين معه اسم «جيش لبنان العربي»، انتابني قلق كبير من دخول الفتنة الى البقاع لأن الضابط أحمد الخطيب وجيشه العربي المزعوم اتخذوا من البقاع الغربي مقراً لهم، لشعورهم بأنه يشكل لهم حاضنة إسلامية سنِّية على الرغم من وقوعه على الحدود السورية. وطبيعي أن يخطر بالبال، من خلال هذا الواقع الجغرافي السياسي، أن جيش لبنان العربي هو تركيبة مفتعلة تقف خلفها أجهزة سورية، قبلما اتضح تالياً أنها تركيبة من صنع المنظمات الفلسطينية وبرعايتها.

وذات يوم جاءني عمر شبلي في جب جنين وسألني أن أرافقه ليلاً لمقابلة الضابط أحمد الخطيب قائد جيش لبنان العربي للوقوف على ما عنده، مع العلم أنه لا عمر شبلي ولا أنا كنا نعرف أحمد الخطيب من قبل، بل سمعنا باسمه لأول مرة في الصحف.

وسألت عمر عن مكان وجود الخطيب، فأبلغني أنه يقيم في منزل الصديق عمر حرب في بلدة المرج القريبة من الطريق الدولي الى الشام، وهو صديق مشترك لي ولعمر. وفي منتصف تلك الليلة من ربيع عام 1976 توجهنا الى منزل عمر حرب، وكان جميع من في البيت نيام، فقرعنا الباب ففتحه عمر بنفسه مستغرباً، فقال له عمر شبلي إننا نريد مقابلة أحمد الخطيب، وكان نائماً هو الآخر. فدخل عمر حرب الى غرفة الخطيب وأيقظه وأبلغه بوجودنا فجاء الينا في الصالون يرتدي «روب دو شامبر» وسلّم علينا وانسحب عمر حرب صاحب المنزل من الاجتماع، بعدما أبلغه عن هويتنا السياسية باعتبارنا من «البعث العراقي» كما عرّفه عنا.

وبعدما جلسنا سويا، عمر شبلي بيني وبين أحمد الخطيب، فتح الخطيب الحديث موجهاً الكلام الى عمر شبلي قائلاً: «أين أنتم؟ لماذا تأخرتم؟ إنني أبحث عنكم»، ويقصد بذلك أنه توّاق للتعاون مع العراقيين، لكنه لم تكن له صلة وصل معهم. وسأله عمر عن أحواله وماذا يريد، فقال له إنه يعاني من نقص

في كل شيء تقريباً، في رواتب جنوده، وفي تدريبهم وفي تسليحهم، وقال إنه بحاجة ماسة الى تسليح جيد، ويأمل أن يقدِّم له العراقيون السلاح المطلوب. فقال له عمر إن ذلك مستحيل من الناحية اللوجستية، وسأله كيف يتصور أن يصله السلاح العراقي في حال إقرار ذلك، فتقدم بخطة لم أصدق أذني وأنا أسمعها منه. فقد قال جواباً عن السؤال كيف السبيل الى نقل السلاح من العراق اليه: «أحتل مطار رياق وأنا قادر على ذلك، ثم تأتي طائرات عراقية محملة بالسلاح وتفرغه في مطار رياق ليصبح في عهدتي». نظر الي عمر شبلي عندما سمع هذا الكلام نظرة غير مصدق لما سمع، لكنه أبدى تحفظات على هذا النوع من المساعدة وقال له إنه سوف يبحث الأمر مع المسؤولين في الحزب، معلقاً على كلامه بشيء من السخرية المبطنة حيث قال له: «إن السيطرة على المطار ليس مشكلة، لكن كيف السيطرة على الأجواء؟». وبعد ذلك سألته أنا عن واقع الجيش اللبناني وسبب انشقاقه عنه، فردد المقولات المعروفة وخلاصتها أن قيادة الجيش فئوية ومشبوهة ومعادية للقضايا العربية. فسألته سؤالاً محدداً مفاده: أليس في الجيش اللبناني ضباط مسيحيون وطنيون يميلون الى القضايا العربية؟».

قال الخطيب جواباً عن هذا السؤال: «نعم هناك بعض الضباط المسيحيين الشرفاء لكنهم مهمشون، وكل من يرفع رأسه منهم يكيلون له الاتهامات والابتزازات الشخصية، والتهمة الجاهزة ضدهم أنهم يمارسون الشذوذ الجنسي».

وفي الساعة الثانية من بعد منتصف تلك الليلة غادرنا منزل عمر حرب في المرج ونحن على قناعة بأن حركة أحمد الخطيب مجرد فقاعة صابون، وأن الرجل نفسه من الوزن الخفيف وتنقصه الخامة القيادية والأسس الفكرية اللازمة لها. ولست أدري ماذا فعل عمر شبلي بعد ذلك اللقاء أو ماذا أبلغ قيادته عن ذلك الاجتماع. لكن بعد أيام التقيت السفير العراقي في بيروت وسألني عن رأيي في موضوع أحمد الخطيب ولقائنا معه، فأبلغته ما جرى، وأبلغته رأيي بأنني لا أرى مستقبلاً لحركته، ولا يمكن أخذه أو أخذها على محمل الجد. ولا أعرف ماذا فعل العراقيون بعد ذلك، لكنني سمعت تالياً أنهم قدموا له مبلغاً من المال، وهذا أيضاً غير مؤكد ولست واثقاً منه.

تلك كانت الحادثة الأولى التي كوّنت قراري مغادرة لبنان.

•••

الحادثة الثانية التي دفعتني الى قراري، أو ربما الى فراري، هي الكمين المسلح الذي تعرضت له على جسر جب جنين القديم وسلبي سيارتي وما فيها.

بعد تعاظم الفوضى في البلاد، ومع دخول قوات غير لبنانية اليها، بدأت تسري في البقاع الغربي شائعات عن نوايا انتقامية ضد بعض البلدات

المسيحية في القاطع الغربي، وخصوصاً تلك التي فيها منتسبون الى الكتائب اللبنانية مثل بلدة خربة قنافار حيث يوجد عدد قليل جداً من الكتائبيين من أهل البلدة، لكنهم لا يقومون بأي نشاط علني أو يحملون السلاح. وقد تحدثت سابقاً عن التجمع الشعبي للبقاع الغربي وراشيا الذي أقيم لمنع وقوع مثل تلك الاحتكاكات المولدة للصراعات الطائفية.

وفي عصر يوم من تلك الأيام العصيبة توجهت الى بلدة خربة قنافار بسيارتي، ومعي الأستاذ مخايل الخوري الحداد، وهو مدرس في المدارس الرسمية ومن المربين المعروفين في جب جنين، بهدف التشاور مع بعض فعاليات البلدة حول المخاطر الماثلة، وإمكانية خروج الكتائبيين الى بيروت لسحب الذريعة من قاصدي الفتنة الطائفية. وفي المساء، بعد الغروب وقبل حلول الظلام، عدنا من خربة قنافار، وعند وصولنا الى جسر جب جنين القديم طلع علينا من تحت الجسر أربعة مسلحين ملثمين، اثنان من كل جانب. وتقدم واحد مني ووضع رشاشه وراء أذني اليسرى فراحت أذني ترفُّ، كما رفّت أذن ذلك الرجل الذي سيق الى الإعدام والمسدس وراء أذنه في رواية آرثر كوستلر السابق ذكرها «ظلام وقت الظهيرة».

وأمرني المسلح بأن أنزل من السيارة وأترك المحرك دائراً واقتادني، وكذلك الأستاذ مخايل الى ما وراء التل المجاور للجسر ولمجرى النهر[9]. وقد خطر لي أن الساعة دنت، وأنه بالإمكان قتلنا ورمي جثثنا في تلك البقعة من غير أن يشعر أحد بذلك لوقت طويل. لكن خطوات المسلح الذي اقتادنا الى المكان أخذت تبتعد بعدما أمرنا بعدم الالتفات الى الوراء، ثم شعرت بأن سيارتي أقلعت مسرعة فأيقنت أن المقصود بتلك العملية هو خطف السيارة، أي سيارة، لأنه لو مرت سيارة في ذلك الطريق قبلنا لكانوا فعلوا بأصحابها ما فعلوا بنا. على أن التيقن من ذلك لم يخفف من هول الصدمة ومن لحظة المرور على حافة الموت رمياً بالرصاص وأذنك ترفّ.

وبقوة خارقة، وسرعة مذهلة لا أدري من أين أتتني ركضت صاعداً الى أعلى التل لأرى في أي اتجاه انطلقت السيارة المخطوفة فرأيت أنها اتجهت باتجاه جب جنين شرقاً، فعدنا الى بيوتنا مشياً على الأقدام وقد أرخى الليل سدوله وحل الظلام. وانتشرت الخبرية في البلدة وفي المنطقة وراح الأصدقاء يبحثون عن الجناة وعن السيارة. ولم يكن هذا الأمر صعباً لأن المسلحين أنفسهم وعائلاتهم، وهم من أهالي بلدة حوش الحريمي الواقعة بين بلدتي غزة والمرج،

---

(9) الجسر القديم على الليطاني في جب جنين مبني بالحجر، وقد أقيم جسر جديد بالإسمنت المسلح أوسع وأمتن على بعد عدة أمتار منه، مما اقتضى حفر مجرى جديد للنهر أعمق وأرحب. والتل المذكور تكوّن بفعل الأتربة المجروفة لتشكيل المجرى الجديد، وهو يقع على حافة بستان تفاح يملكه فؤاد الحاج أحد أقارب زوجتي، وهذا البستان لم يعد له وجود الآن، لكنه كان لا يزال مثمراً يوم وقعنا في الكمين المسلح.

عندما تأكدوا من هوية السيارة ومن هوية صاحبها خجلوا من أنفسهم وجاءوا في اليوم التالي مع وفد كبير من وجهاء البلدة ومعهم السيارة معتذرين عما حدث طالبين الصفح والسماح، وهو ما يطفح فينا من أصل نشأتنا، فرحبنا بهم وأكرمناهم وقلنا ما قلنا في مكارم الأخلاق[10].

كانت هذه الحادثة «الدفشة» الثانية باتجاه الخروج.

•••

أما الحادثة الثالثة فهي السفر المفاجىء في أواخر شتاء عام 1976 لقريبي نقولا الفرزلي القيادي في حزب البعث اللبناني الموالي للعراق مع أفراد عائلته الى باريس من غير أن يبلغ أحداً في محيطه، فلم أعلم بذلك إلاّ بعد أيام. وقد انتابني شيء من الغضب على هذا التصرف، لكن انتابني أيضاً كثير من القلق لأنه لا بد أن يكون هناك أمر خطير وراء مثل هذا القرار.

ثم قصدت منزل شقيقه المحامي الياس الفرزلي لأستفسر منه عن السبب الموجب لسفر شقيقه، وهو في ذلك الوقت من القيادات البارزة في ما كان يسمى بـ«الحركة الوطنية» بقيادة كمال جنبلاط، وأتناقش معه في هذا الأمر.

أشعرني الياس الفرزلي من البداية أن شقيقه كان في خطر، وقال لي إنه لا يظن أن ما يجري في البلاد يستحق أن يستشهد أي كان في سبيله. فإذا حدث ذلك، يقيمون له جنازة شهيد ويشبعونه كلاماً ثم ينتهي الأمر وكأن شيئاً لم يكن. قال ذلك وكأنه يحثني أنا أيضاً على عدم الظهور والتفكير الجدي بالسفر الى خارج لبنان، وكان في ذهنه أن أسافر الى بلد عربي آخر، وبالتحديد الى دولة الكويت حيث كانت له دالة على وزير الإعلام آنذاك الشيخ جابر العلي، وهذا ما فعلته بعد سفري الى باريس لفترة وجيزة.

وبدأ الياس الفرزلي ينفعل في كلامه حول الموضوع بالقول: «إن الخيار الآخر هو أن نحمل السلاح لمقاتلة المسيحيين، فهل تريد أن تحمل السلاح لمقاتلة المسيحيين؟». وقبل أن أناقشه في الأمر قال محتداً: «نحن لا نريد أن نقاتل المسيحيين، ولا يحق لنا ذلك، وتحت أي شعار أو يافطة أو ذريعة، زعل من زعل ورضي من رضي».

وهدأ قليلاً وقال لي: «لو قتلوك ورموك تحت جسر جب جنين، فمن تظن كان سوف يتأسف عليك في بازار الدم والسلاح الجاري على قدم وساق؟ نقابة الصحافة أم نقابة المحررين؟ حزب البعث أم الكفاح الفلسطيني المسلح؟ الحركة الوطنية أم الحركات القومية؟». وقد تفكرت ملياً في هذا الحديث بيني وبين الياس الفرزلي، رحمه الله، وقد كان لي أكثر من قريب، وأكثر من صديق. وعندما ختم حديثه المذكور معي بقوله : «ليس لنا شأن في كل ما يجري الآن،

(10) جرى استقبال وفد أهل حوش الحريمي في منزل أهل زوجتي القديم حيث كنا نقيم، وهو المكان الذي أقام عليه ابن العم إيلي الفرزلي دارته الحالية في جب جنين.

بل يمكن القول إن هذا الذي يجري كأنه موجه ضدنا وضد توجهاتنا وأفكارنا، فلنبتعد عنه ما أمكن». ومن خلال الأفكار التي تراودني الآن بعد مضي عدة عقود على مغادرتي لبنان، توصلت الى استنتاج كالذي لامسه الياس الفرزلي في حديثه المذكور، وهو أن الوضع السياسي لعائلتنا، في الحالات الانتخابية تحديداً كمعيار لحالة البلاد، ينبىء بمدى سلامة أوضاع البلاد أو اعتلالها.

ففي انتخابات 1951، وهي الانتخابات التي جرت في منتصف الولاية الثانية للشيخ بشارة الخوري، سقط أديب الفرزلي في تلك الانتخابات، وكان ذلك السقوط مؤشراً على خلل كبير في الوضع السياسي ما لبث أن أدى الى سقوط الشيخ بشارة نفسه. وفي انتخابات 1960 سقط أديب الفرزلي ثانية فظهرت بوادر الأزمات العضوية تظهر في جسم النظام من انقلاب القوميين وذيوله الى حكم المكتب الثاني ثم انهيار الشهابية. وفي انتخابات 1972 سقط الياس الفرزلي بفارق لا يزيد عن ثلاثمائة صوت، لكن بعد ذلك بدأت تظهر إرهاصات الحرب الأهلية. وفي انتخابات 2005 سقط إيلي الفرزلي الذي كان وزيراً للإعلام في حكومة عمر كرامي قبل اغتيال رفيق الحريري، وها هو لبنان من وقتها يدخل في أزمة تلو الأزمة. ولست أقول إننا نحن محور الحالة اللبنانية، فلا يفهمن أحد ذلك خطأً. بل أقول إن حالتنا التي تمثل الوطنية اللبنانية الجامعة من الناحية الفكرية والسياسية، يمكن اعتبارها بالملاحظة مؤشراً على الحالة السياسية العامة في البلاد، خصوصاً لجهة صحة التمثيل من حيث استبعاد الممثلين الحقيقيين للوطنية اللبنانية الجامعة، وإبدالهم بالتبعية الى جهات ليست هويتها الوطنية واضحة، إن لم نقل أكثر من ذلك.

فرحت أتدبر أموري، وبعد ثلاثة أشهر من سفر نقولا الفرزلي، حزمت حقيبتي ولحقت به الى باريس. ومن هناك بدأت حكاية جديدة.



V

بعيداً على قُرب



I

قصة مدينتين

كان قرار خروجي من لبنان في تلك المرحلة رحلة الى المجهول فيها جانب من المغامرة وجانب من الخوف والقلق. والحقيقة أنها كانت رحلة من المجهول الى المجهول، وهو أصعب ما فيها. فلو كانت من المعلوم الى المجهول لكان فيها قدر كبير من الخفة والاستخفاف. فالحرب المفتعلة بين اللبنانيين بتدبيرات خارجية سدَّت كل الآفاق في وجه اللبنانيين الذين لم ينخرطوا فيها إما لإيمانهم بحلم قديم رأوه يتبخر أمام أعينهم، وإما لأنهم أدركوا من البداية المكامن الخفيَّة لذلك الصراع العبثي، بما في ذلك أو في رأس ذلك، انحراف الثورة الفلسطينية عن أهدافها المعلنة واستهدافها المتعمد للفكرة اللبنانية الأصلية التي مع الأسف لم يتصرف اللبنانيون إزاءها بصدق ونزاهة.

وسواء كان قراري ذاك خياراً أو اضطراراً، فقد كنت أشعر بأنني مثل الذي يلقي بنفسه في البحر وهو لا يجيد السباحة، أو من ليست معه وسائل النجاة. أولاً لم يكن معي أي مال فينطبق علي المثل الذي انطبق على آخرين بأن «المال في الغربة وطن». فقد وصلت الى باريس في مطلع شهر حزيران/يونيو من عام 1976 وليس في جيبي سوى ألف دولار فقط لا غير. ولكي أحصل على «الفيزا» الفرنسية بسرعة انتزعت صورتي المثبتة على بطاقتي الصحافية، التي تشير حسب أعراف نقابة المحررين كما ذكرت سابقاً الى أنني «صحافي متدرِّج»، لأنه لم تكن لدي صورة متيسرة غيرها.

والأشقى من ذلك أنني وصلت الى العاصمة الفرنسية لكن حقيبتي التي فيها ملابسي وبعض أوراقي لم تصل معي. ومن قبيل المصادفة أيضاً وجدت على طائرة «الميدل إيست»، وهي طائرة كبيرة من طراز «بوينغ جامبو»، الزميل ياسر هواري مع عائلته، فشعرت بالانقباض لتركي عائلتي في لبنان برعاية أهل زوجتي. وتوجهت الى فندق رخيص في منطقة «الأوبرا» قريب من مقهى مشهور كنت أعرفه من زياراتي السابقة هو مقهى «كافيه دو لا باي»، ثم اتصلت بمكتب شركة الطيران لأبلغهم عنواني في حال وجدوا الحقيبة. ومن حسن الحظ أن الحقيبة عادت اليَّ في اليوم التالي في آخر رحلة من بيروت قبل إغلاق المطار.

لكنني في باريس لم أكن في غربة تامة. فقد سبقني اليها قريبي نقولا الفرزلي ومعه عائلته، وهناك دائماً الصديق الحبيب محمد الشابي الذي لم تكن لتكتمل باريس من دونه. وفوق كل ذلك كان هناك أمل في غير محله بأن الغربة مؤقتة، وأن ما يجري في البلاد قد يكون سحابة صيف، فبقي الحلم بالفكرة اللبنانية الأصلية طافياً على سطح مشاعرنا لا يزول ولا يتزحزح، مع أنه كانت تراودنا بين حين وآخر فكرة مرعبة بأن لبنان الذي عرفناه، وربما الذي تمنيناه ولم ندركه، قد ذهب الى غير رجعة. وبالنسبة إلي بالذات كان أجمل أحلام الغربة هو الحلم بالعودة من غير أن أسأل نفسي العودة الى ماذا. فكما تركت عائلتي في لبنان وهممت في طريق مجهول، عدت فتركت عائلتي في الغربة بعد سنوات لأعود الى لبنان على أمل كاذب. أو على الأقل كذَّبته حرب الجبل التي اندلعت فور وصولي، وسماعي من «دار الصياد» في الحازمية أصوات سيارات الإسعاف المسرعة باتجاه المستشفيات في بيروت الشرقية، ورؤيتي السيارات العسكرية الإسرائيلية تمر مسرعة باتجاه طريق صيدا القديم، أو حواجزها على طريق «مونتي فيردي».

على أن الأمور بدأت تنفرج قليلاً عندما اقترح قريبي نقولا الفرزلي أن أنتقل الى فندق صغير قريب من مكان إقامته في منزل شقيقة زوجته في القطاع الخامس عشر من المدينة، قبل انتقاله تالياً الى منزل خاص به في قلب شارع «سان جيرمان دو بريه» الذي ينبض بالحياة ليل نهار.

يقع الفندق الجديد، الذي كان أرخص بعد من الفندق السابق، في شارع «رو دو جافيل» المتقاطع مع جادة «إميل زولا»[1] على مقربة من منطقة «كونفانسيون» التي تعج أيضاً بالحركة. وكانت تدير الفندق سيدة متدينة تدعى مدام بودوان، عاملتني بنوع من الإشفاق عندما علمت بأنني قادم من لبنان، مع استغراب شديد بأنني لا أجيد الفرنسية شأن معظم اللبنانيين الذين تعرفهم. ولم تكن غرف الفندق كلها مجهزة بحمّامات لكن السيدة بودوان خصَّتني بغرفة فيها دوش داخلها. وكان ذلك ضرورياً في صيف تلك السنة الشديدة القيظ، فكانت غرفتي في الليل ساخنة كالفرن، بحيث يتعذر النوم فيها حتى لو فتحت النافذة على مصراعيها، فلم يكن فيها تبريد، ولم يكن فيها حتى مروحة تحرك الهواء

---

(1) باسم الكاتب الفرنسي المعروف إميل زولا الذي اشتهر بمقاله على الصفحة الأولى من جريدة «لورور» بعنوان «إني أتهم» دفاعاً عن الضابط اليهودي الفرنسي ألفرد درايفوس المدان من المحكمة العسكرية بتهمة التعامل مع العدو (ألمانيا) خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وهي تهمة ملفَّقة حسب مقالة زولا الموجهة كرسالة مفتوحة الى رئيس الجمهورية الفرنسية آنذاك فليكس فور. وقد صادفت الموضوع لأول مرة في درس للتاريخ الأوروبي الحديث في ثانوية عين المريسة، لكنني لم أقرأ شيئاً للكاتب إميل زولا إلاّ عندما نالني من كتب الدكتور ملحم الفرزلي رواية له مترجمة الى الإنكليزية بعنوان «نانا»، وهي مستوحاة من سيرة نجمة المسرح الذائعة الصيت في زمانها آنا جودي التي اشتهرت بتقديمها للمجتمع الفرنسي ما يمكن تسميته «الثالوث الجنسي» (امرأتان ورجل، رجلان وامرأة)، وهو ما يسميه الفرنسيون بلغتهم Ménage à trois.

الذي لا حراك فيه. ذلك القيظ الشديد الذي كان نقمة للسكان في صيف عام 1976، كان نعمة لصنّاع النبيذ حسبما كان متداولاً في أحاديث الناس. ولكي أستطيع النوم قليلاً في الليل، كنت أرش سريري بالماء ليترطب قبل أن أستلقي عليه. ومكثت في ذلك الفندق على هذا الحال نحو أربعين يوماً وليلة قبل انتقالي الى شقة خاصة في الحي اللاتيني على مقربة من جامعة السوربون، استعداداً لقدوم زوجتي وأطفالي الأربعة.

ومن ألطف المصادفات أنني عدت لأسير في «جادة إميل زولا» وصولاً الى «رو دو جافيل» حيث كانت تقع مكاتب مجلة «الحدث» التي كتبت فيها من صيف عام 1999 الى صيف عام 2006، وكنت أزورها مرتين في السنة على الأقل[2]. هذه المرة لم أكن أنزل في فندق مدام بودوان الذي لم يعد له وجود، لكنني كنت دائما أتذكرها كلما مررت من هناك. فقد كنت أمشي سيراً على الأقدام من فندق «نوفوتيل غرونيل» الى «جادة إميل زولا» مروراً من أمام المقر القديم لمنظمة «الفرانكوفونية» يوم كان بطرس بطرس غالي الأمين العام لتلك المنظمة[3]. وكنت أمشيها في الاتجاه المعاكس عندما أنزل في فندق «ميركور» القريب من «برج إيفل».

أكثر ما كان يُشغل بالي بعد استقراري في فندق مدام بودوان هو تعذُّر الاتصال المباشر مع عائلتي في جب جنين، لكن في تلك المرحلة جاء الى باريس قريبي المحامي الياس الفرزلي الذي كانت تربطني به، الى جانب صلة القربى العائلية أواصر صداقة متينة امتدت عقوداً، ورافقتها نشاطات اجتماعية مشتركة لكون زوجته ابنة عم زوجتي، فكنا متلازمين على نحو يومي تقريباً.[4] هو كانت زوجته وعائلته في المكسيك حيث نشأت في كنف أخوالها من آل

---

(2) من الذين كتبوا معنا في «الحدث» بصورة مستمرة خلال تلك المرحلة وزير الإعلام الجزائري الأسبق محيي الدين عميمور، ومنصف المرزوقي الذي أصبح رئيساً للجمهورية التونسية بعد سقوط نظام زين العابدين بن علي، والصحافية اللبنانية صونيتا أبي ناضر التي أعدت بعد ذلك برنامجاً تلفزيونياً أسبوعياً شيِّقاً عن الحياة الباريسية قدمته على شاشة تلفزيون OTV التابع للتيار الوطني الحر.

(3) هي منظمة الدول الناطقة كلياً أو جزئياً باللغة الفرنسية وتضم 56 دولة حول العالم، وبطرس بطرس غالي الأمين العام السابق للأمم المتحدة هو أول أمين عام لمنظمة الفرانكوفونية العالمية، وهذا منصب تم استحداثه في القمة الفرانكوفونية المنعقدة في العاصمة الفيتنامية هانوي عام 1997. وعلى الأرجح تم استحداث هذا المنصب خصيصاً لبطرس غالي بعد رفض الولايات المتحدة التجديد له كأمين عام للأمم المتحدة عندما انتهت ولايته عام 1996، بسبب تفضيله السياسات الفرنسية على الأميركية التي كان ينتقدها.

(4) في منتصف ثمانينات القرن الماضي وقع الطلاق بين الياس الفرزلي وزوجته نورما الإبنة الكبرى للنائب السابق أديب الفرزلي لأسباب ما زلت أجهل دوافعها الحقيقية، وإن كنت شاهداً على بعض التوترات الكلامية بينهما، منذ أيام بيروت، وهي توترات كانت تنتهي دائماً بعودة المياه الى مجاريها وكأن شيئاً لم يكن. لكنني لا أعرف حقيقة كيف بلغ ذلك حد الطلاق المترافق مع مشاعر عدائية.

المعوشي خلال الخمسينات، وكان اتصاله معهم أسهل فاستدعاهم الى باريس. وقد نزل معي ليلة واحدة في فندق مدام بودوان، لكنه انتقل في اليوم التالي الى فندق «هيلتون سوفرين» وقال لي:

«إنني لا أستطيع أن أتقشف الى هذه الدرجة».

لكنه بمحض المصادفة التقى رجلاً من القرعون عائداً من أميركا الى لبنان عن طريق دمشق، فطلب منه إبلاغ عائلتي بضرورة الاستعداد للسفر الى باريس لملاقاتي هناك، من غير أي تفاصيل أخرى لأنه لم يكن متشاوراً معي في الأمر. وبالفعل أوصل الرجل الرسالة مشكوراً فوقعت عائلتي في إشكالية الاتصال معي لمعرفة التفاصيل[5].

ولما أعياهم الاتصال أشار بعضهم على زوجتي أن تذهب الى القرعون حيث توجد عائلة من آل هاشم لديهم راديو لاسلكي يتصلون به مع أولادهم المغتربين في أميركا الجنوبية، ففعلت. لكنها لا تستطيع أن تكلمني بهذا الجهاز مباشرة، لأنني لا أملك في باريس جهازاً مماثلاً، إنما من خلال البحث عن طريق هذا الجهاز تم التواصل مع شخص فرنسي من الهواة في مدينة مارسيليا، فطلبت منه أن يتصل برقم في باريس كان الياس الفرزلي قد بعثه مع رسالته المذكورة، ففعل لكن دون جدوى لأنه لم يستطع إعادة الاتصال مع القرعون.

هذه التجربة اللاسلكية عبر الهواة أخفقت ولم تتكرر. وبعدها لجأت من طرفي الى التجربة التلغرافية التي تمت عبر دمشق ولقيت نجاحاً محدوداً. فقد بعثت ببرقية الى سيدة من بنات جيراننا في جب جنين متزوجة ومقيمة في العاصمة السورية طلبت منها إيصالها الى زوجتي في لبنان. لكن هذه البرقية تأخرت في الوصول عدة أيام بسبب صعوبة الاتصال أيضاً بين لبنان وسوريا في تلك الظروف. وقد اضطرت زوجتي للذهاب الى دمشق لتبعث لي ببرقية على العنوان الذي أرفقته ببرقيتي ومعه رقم هاتف منزل ابنة عمها العائدة من المكسيك والواقع في شارع «هنري مارتان» على مقربة من فندق «هيلتون سوفرين»، تقول فيها إنها سوف توافيني الى باريس في غضون أسبوع بعد حل إشكالية جوازات سفر الأولاد.

وعندما أيقنت أن العائلة سوف تكون معي في غضون أيام رحت أبحث عن شقة معقولة ومؤاتية من حيث مدارس الأولاد، وهذا كان سبب تعارفي مع المستر روي في الأكاديمية الأميركية في باريس الذي أوجد لي شقة مفروشة في الحي اللاتيني بإيجار معتدل نسبياً. وكانت ضائقتي المالية الابتدائية قد انفرجت أيضاً بعد اتصالي بشقيقي الأصغر دانيال المغترب آنذاك في ساحل العاج، فأرسل لي مبلغاً محترماً عن طريق تاجر فرنسي كان يتعامل معه في

(5) هو جار قديم لنا في حارتنا القرعونية اسمه قاسم محمود فارس، نجل رئيس البلدية الوارد اسمه في السياق، وشقيق زوجة الأستاذ بهيج شعبان الذي طاردني وشتمني عندما ألقيت حجراً على ابنه خلال اللعب على البيادر، كما سبق ذكره.

إفريقيا.

ولمّا كانت زوجتي في اتصالها البرقي الوحيد غير متيقنة من موعد سفرها، فقد كنت أتوجه كل يوم الى مطار أورلي بأوتوبيس المطار لعلي أجد العائلة في إحدى الرحلات القادمة من دمشق.[6] وبقيت على هذا المنوال عدة أيام وقد أخطأتهم حتى يوم وصولهم. فقد كنت أتوقع قدومهم على طائرة «آير فرانس» التي تحط في مطار أورلي، لكنهم جاءوا على الخطوط السورية في رحلة مضنية، حيث حطت طائرتهم في حلب ومنها الى استانبول ثم الى فرانكفورت قبل وصولها الى باريس لتحط في مطار «لو بورجيه» دون سائر المطارات الفرنسية وهو ما لم يخطر ببالي على الإطلاق.

كانت زوجتي تحمل جواز سفر لبناني قديم منتهية صلاحيته، استصدرته في أواخر صيف 1967 للسفر بصحبة إحدى صديقاتها في رحلة سياحية بحرية عبر البحر الأسود الى رومانيا، لكنها استصعبت أن تنزل الى بيروت لتجديده واستصدار جوازات للأولاد، فأشار بعض العارفين عليها في جب جنين بالذهاب الى مقر الأمن العام في شتورا لأنه من المتعذر الوصول الى بيروت في تلك الأثناء. وهناك سهَّلوا عليها الأمر كثيراً ليس فقط بتجديد جوازها، بل بإضافة صورة تجمع الأولاد الأربعة القاصرين عليه لتمكينهم من السفر معها على جواز واحد، وهكذا كان. وقد اصطحبها الى دمشق عمَّها المحامي نجيب الفرزلي الذي نقلها والأولاد من جب جنين بسيارته الى المطار مباشرة ويسَّر لها الدخول بتجنيبها التعقيدات المعتادة التي تواجه المسافرين في مثل هذه الحالات.

وفي ما كنت أنتظر في «مطار أورلي» من دون جدوى وعدت منه خائباً الى منزل قريبي الياس الفرزلي فوجئت بأنهم قد وصلوا لتوِّهم بالسلامة. فعندما وصلوا الى المطار أجرت زوجتي مكالمة مع ابنة عمها التي أشارت عليها بأن تأخذ سيارة تاكسي الى فندق «هيلتون سوفرين» حيث تلتقيها وتصحبها الى منزلها. لكن سيارات التاكسي في باريس لا تقلُّ خمسة ركَّاب، ورفضت زوجتي أن تنزل الى المدينة بسيارتين منفصلة عن اثنين من أولادها، فحالفها الحظ عندما هرع لنجدتها سائق تاكسي أرمني معه سيارة مرسيدس كبيرة، وهو في الأصل مهاجر من لبنان يتكلم العربية فلاحظ المأزق الذي هي فيه مستأذناً زملاءه من السائقين بأن يتقدم عليهم بدوره في الطابور لحل مشكلة تلك السيدة التي تجر قافلة من الأولاد وعدد غير متناسب من الحقائب المنتفخة تتضمن مقادير غير قليلة من «المونة» اللبنانية، في بلد لا تعرف لغته. ولم يكتفِ السائق الأرمني بنقلهم من المطار أسوة بسيارات التاكسي، بل طاف بهم في

(6) مرة واحدة ذهبت الى مطار أورلي في تلك الأثناء ولهذه الغاية برفقة قريبي نقولا الفرزلي في سيارته التي كانت تحمل رقماً ديبلوماسياً عراقياً.

العاصمة الفرنسية، وعلى معالمها الأساسية، ليعرِّفهم عليها وكأنه دليل سياحي يرشد فريقاً من السائحين الأجانب، فتأخر وصولهم الى الفندق المقصود مما أثار قلق ابنة عمها.

وكانت هذه مشكلة دائمة في التنقل داخل باريس، خصوصاً بالنسبة الى الأولاد، لأن لابنة عم زوجتي خمسة أولاد أيضاً هم في عمر أولادي تقريباً، فكانوا بحاجة الى باص لوحدهم إذا اجتمعوا. لكنهم ما لبثوا أن تعلموا كيف يتنقلون بمفردهم بالأوتوبيسات وبالمترو، وتالياً بالدراجات الهوائية.

ومع أن زوجتي وجدت شقة المستر روي صغيرة جداً وغير وافية بالمقارنة مع بيتنا على الروشة في بيروت، أو مع بيتنا في جب جنين، إلاّ أنها ارتضت بذلك لمعرفتها بالظروف الحقيقية التي نحن فيها. فما كان يقلقها ليس ضيق الشقة، بل لأنها تقع في الطابق السابع، ولها واجهة زجاجية على امتدادها تطل على الباحة الداخلية للمجمع، فخشيت أن يتعارك الأطفال ويتدافعون فيما بينهم فيصطدمون بالواجهة الزجاجية وتحدث كارثة. وما هي إلاّ أيام حتى بدأ الجيران الساكنون تحتنا بالشكوى من الضجيج و«الدربكة» فوق رؤوسهم، الى درجة أنهم هددونا بإحضار البوليس للحجر علينا. وهكذا عقدت زوجتي العزم على تغيير الشقة مهما كلَّف الأمر، وكان من حسن الحظ أنها عثرت في الجناح المقابل من المجمع على شقة أرضية لا تزعج أحداً وليس فيها فرش أو أثاث من أي نوع فسرَّها ذلك، وراحت تبحث عن مفروشات قديمة ومناسبة الى أن جهَّزت المكان أحسن تجهيز وبأرخص الأثمان.

وكانت الشقة مؤلفة من غرفة نوم واحدة وحمّام واسع يتسع لماكينة غسيل وأخرى للتنشيف. ومدخلها الممتد من الباب الى غرفة النوم عريض وفسيح اتسع لوضع صوفا مريحة فيه كان ينام عليها نجلي الأكبر عامر. وكان الصالون واسعاً مربع الشكل متصلاً بغرفة طعام مفتوحة عليه اتسعت لطاولة طعام من ست كراسي. ولغرفة الطعام ملحق يتعدى المطبخ بنحو مترين هو عبارة عن فجوة تستوعب فراشاً كانت تنام عليه ابنتي ريما. وفي الصالون وضعنا بمحاذاة الحائط الذي يفصله عن غرفة النوم أريكة قديمة يمكن أن يجلس عليها ثلاثة أشخاص بارتياح، وبمحاذاة الحائط الذي يفصله عن الكوريدور المؤدي الى غرفة النوم حيث كان ينام عامر وضعنا صوفا اسفنجية عريضة تُمدُّ في الليل لتصبح سريراً عريضاً يمكن أن يستوعب أربعة أشخاص، وتُضبُّ في النهار لتصبح مقعداً مريحاً، وهناك كان ينام الإبنان الأصغران عماد وجهاد. فقد كانت زوجتي تؤمن دائماً بحسن التدبير مهما كانت الإمكانيات قليلة أو شحيحة، لأنها بذلك تحافظ على المستوى ذاته من حيث نوعية الحياة الجوهرية، وهي على حق في ذلك.

وفي منطقة «بور رويال»، أو «الأوبزرفاتور»، على مقربة من شقتنا بما لا يزيد

عن مائتي متر، كان يُقام سوق شعبي على مدى الشارع مرتين في الأسبوع تُعرض فيه كافة المواد الغذائية والسلع اللازمة للبيوت.[7] فاشترت زوجتي عربة لها كرَّاجات لتسهيل جرِّها وراءها الى السوق والعودة بها محمّلة بالمؤونة اللازمة، من لحوم وخضار وأسماك وخبز وما الى ذلك. فكانت هذه العملية متعبة جسدياً لكنها ممتعة نفسانياً والأهم من ذلك أنها أقل كلفة حتى من بيروت مضرب المثل برخص المعيشة في تلك الأيام. ومن جهتي فقد عملت حرفياً بنصيحة نيكولا لانغ الوارد ذكرها سابقاً بإلغاء التاكسيات والمطاعم، وعمدنا الى شراء ما كانوا يسمونه «البطاقة البرتقالية» الشهرية للتنقل بالباصات والمترو في المدينة بأرخص الأثمان. وبما أنني أحب المشي، وهي عادةٌ اكتسبتها من هواية الصيد في لبنان، والتي أقلعت عنها في أوروبا، فقد كنت أمشي عشرات الكيلومترات كل يوم، لأن باريس بطبيعتها مدينة مشاة، فالماشي على أرصفتها العريضة لا يشعر قط بالتعب أو الملل.

وبعد هذا الاستقرار الموثوق نسبياً بالنسبة الى العائلة جاء التفكير بأمور العمل لتحصيل دخل معقول. فاقترح أخي دانيال أن أوافيه الى ساحل العاج للاطلاع على الأحوال ودرس إمكانية العمل في التجارة بين باريس وأبيدجان. وبالفعل توجهت الى أبيدجان ومنها الى «غران بسام» حيث يقيم أخي وحيث مركز عمله، تاركاً العائلة بعهدة الصديق الراحل محمد الشابي، طيَّب الله ثراه، فاصطحبهم في غيابي الى الدوائر الصحية لإجراء الفحوص اللازمة للأطفال واستكمال اللقاحات المقررة، واصطحبهم الى دائرة التربية والتعليم في البلدية لاختيار المدارس المناسبة لهم في الحي، والى مقر البوليس لاستصدار الإقامات الدائمة لهم، والى الدوائر المختصة بإصدار أذونات العمل للغرباء، فاستصدر أذن عمل لزوجتي ولشقيقتها الصغرى التي وافتنا من العاصمة الكندية «أوتاوا» حيث كانت تزور شقيقها الدكتور بشارة الذي كان يتخصص هناك بطب الأطفال. ثم ساعد زوجتي على تسجيل نفسها وابنة عمها في مدرسة لتعليم الفرنسية للأجانب تابعة لجامعة السوربون على مسافة قصيرة من منزلنا لا تتعدى المشي مدة عشر دقائق أو ربع ساعة على الأكثر.

وكنت قبل مجيء العائلة قد دخلت الى مدرسة «الأليانس» في «بوليفار راسباي» لمدة شهر واحد بهدف تعلُّم اللغة الفرنسية،[8] وكان صفُّنا يضمُّ في

(7) قيل لنا إن أكشاك عرض المواد في السوق الشعبي تخصصها البلدية لقدامى المحاربين لكي يرتزقوا منها، والذين منهم لا يرغبون في إدارتها بأنفسهم لعجزهم المادي أو الجسدي، فإنه بإمكانهم تأجيرها لمن يرغب. وقد لاحظت أن العديد من الباعة في تلك السوق كانوا من أهل المستعمرات الفرنسية السابقة، ومنهم على وجه الخصوص الفيتناميون، والكمبوديون، والجزائريون.

(8) هي من أوائل المدارس اليهودية في العالم تأسست في السلطنة العثمانية أولاً عام 1860 لتعليم أولاد فقراء اليهود في الشرق الأوسط ضمن منظمة أطلقوا عليها اسم Alliance Israélite

غالبيته طلّاباً وطالبات من اليابان، ومن بلدان آسيوية أخرى، وكان معي طالبان عربيان فقط واحد من سلطنة عُمان والآخر من تونس، وطالبة من سويسرا علمت منها أن كثيرين من السويسريين في القطاع الألماني من البلاد لا يعرفون الفرنسية. وقد قيل لي يومها إنها أفضل مدرسة لتعليم الأجانب اللغة الفرنسية. ولا أنسى ما حدث خلال ذلك الشهر مع الطالب التونسي الذي كان يجيد التكلم بالفرنسية لكنه لا يعرف كتابتها وقواعدها. فكان ينطق بالفرنسية جيداً لكنه كان يرسب في كل ورقة خطية. وذات يوم سألته المعلمة:

«ما هي لغتك الأم؟».

فقال لها: «العربية».

فسألته: «هل تعرف قواعد لغتك الأم؟» .

فأجاب بالنفي. عندئذ قالت للصف إن أول شرط ليتعلم أي أجنبي لغة غير لغته، هو أن يتقن أولاً قواعد لغته الأم. فإذا كان يعرف لغته جيداً سهل عليه تعلُّم غيرها من اللغات. لكن بالنسبة لي فقد كنت أعرف الحد الأدنى من اللغة الفرنسية بما يسعفني على الأقل في المحادثات القصيرة وفي قراءة الجريدة اليومية ولو بصعوبة، وكان نطقي لها سليماً، ولذلك لم أستفد كثيراً من الشهر الذي قضيته في «الأليانس». لكنني بعد تعارفي مع المستر روي خلال البحث عن الشقة السكنية فكّرت بالانتساب الى الأكاديمية الأميركية التي يعمل فيها روي لولا بعض الظروف الطارئة التي سأتناولها في السياق، ومنها رحلتي الى ساحل العاج.

•••

لم أكن أتصوَّر أن ساحل العاج بعيدة الى هذه الدرجة، إذ استغرقت الرحلة أكثر من سبع ساعات. وقد حطت الطائرة في مارسيليا في رحلة الذهاب، وفي «باماكو» عاصمة مالي في طريق العودة. وقبل أن أسافر اشترطت القنصلية العاجية لإعطائي التأشيرة أن أجري بعض اللقاحات الضرورية وأحضر لهم شهادة بها هي عبارة عن دفتر صغير يعدد اللقاحات المطلوبة مختوماً بختم السلطات الصحية الفرنسية. لكن عندما وصلت الى مطار «أبيدجان» أوقفني ضابط الجوازات بحجة أن اللقاحات ناقصة واحداً ضد الهواء الأصفر، وقال لي إنه سيدخلني الى الكرنتينا مدة أربعين يوماً. وعبثاً حاولت إقناعه بأنني فعلت ما طلبته مني قنصلية بلاده، لكنه أصر على موقفه.

وكان أخي وأحد أصدقائه ينتظرانني في الخارج، ولما خرج جميع الركاب ولم أخرج معهم أصابهما القلق، فذهب صديق أخي الى مسؤول في المطار وطلب

Universelle باشرت نشاطها في مدينة تطوان المغربية ثم في تونس وتركيا وفي فلسطين بترخيص وتسهيل من السلطات العثمانية، وكتب الدكتور فاضل البراك، مدير الأمن العام وجهاز المخابرات العراقي في ثمانينات القرن العشرين، عن نشاطها في العراق مطوَّلاً في كتابه «المدارس اليهودية والإيرانية في العراق»، كما سأبيِّن في فصل لاحق.

منه أن يدخله ليتفقدني لئلا تكون هناك مشكلة. فجاء الصديق المذكور الي ليسألني عن المشكلة، فأخبرته ما جرى، فقال لي:

«بسيطة.. هل معك ورقة مائة فرنك فرنسي؟».

قلت: «معي».

قال ضعها داخل الجواز وأدر وجهك، ففعلت. وإذا به بعد لحظة يختم جوازي ويدعو لي بإقامة طيبة في بلاده!

صدمتني هذه الحادثة لحجم الفساد في مثل هذه البلدان ومدى انتشاره، كما علمت لاحقاً من المغتربين اللبنانيين الذين تعودوا على هذه الأمور وربما أسهموا في انتشارها. فقد كنت أتصور أن دولة ساحل العاج مختلفة عن غيرها من الدول الإفريقية بسبب سمعة رئيسها وقائدها التاريخي يومذاك فيليكس هوفوا بوانيه[9]. واللبنانيون الذين التقيتهم هناك كانوا يتوجسون خيفة من غياب بوانيه عن المسرح بسبب تقدمه في السن، ولذلك لم يكن من الصعب عليَّ أن أتخيل مآل تلك البلاد وانحدارها الى الفوضى والحرب الأهلية، وقد قلت ذلك لأخي عندما أراد أن يستصدر لي إقامة دائمة هناك للعمل معه في التجارة. ومن حسن الحظ أن أخي اقتنع مبكراً بهذا الاستشراف فصفّى أعماله في ساحل العاج وعاد الى لبنان في عز جحيم الحرب اللبنانية عام 1980.

مكثت شهراً كاملاً في ساحل العاج، وكان الاتصال الهاتفي مع باريس متيسراً، فوجدت عدم قبول في العائلة لفكرة الإقامة والعمل في تلك البلاد. لكنني هناك كنت أنظر بعين الصحافي المراقب لا بعين الباحث عن فرصة عمل، فلمحت بوادر مشكلة دينية وعرقية، لأن الازدهار الاقتصادي النسبي

---

(9) كان بوانيه رجل فرنسا والغرب الأول في غرب إفريقيا، وهو أول رئيس للدولة العاجية المستقلة وبقي في الرئاسة من الاستقلال في عام 1960 الى حين وفاته في عام 1993، فكان في حينه ثالث رئيس في العالم من حيث طول الإقامة في السلطة بعد الزعيم الكوبي فيدل كاسترو والزعيم الكوري الشمالي كيم إيل سونغ. وفي أيامه ازدهرت ساحل العاج اقتصادياً وأصبحت في إفريقيا مثل لبنان في البلاد العربية، بحيث أطلق الخبراء على تلك التجربة «المعجزة العاجية». لكن الركود الاقتصادي عاد فداهمها بسبب هبوط أسعار القهوة والكاكاو، مما جعل بوانيه ينقل العاصمة الإدارية للبلاد من أبيدجان، التي بقيت العاصمة الاقتصادية، الى بلدته ومسقط رأسه في الأدغال الداخلية وهي مدينة ياماسوكرو التي شيد فيها أكبر كنيسة في العالم بمساحة 30 ألف متر مربع وارتفاع 158 متراً، على الرغم من وجود كاتدرائية في المدينة اسمها كاتدرائية القديس أوغوسطين. وقد أطلق على تلك الكنيسة التي تم اقتباس تصميمها من كنيسة القديس بطرس في حاضرة الفاتيكان بروما، اسم «نوتردام السلام»، وأطلق على نفسه لقب «حكيم حكماء إفريقيا». وقد قام البابا يوحنا بولس الثاني بافتتاحها عام 1990. وعندما كنت في ساحل العاج عام 1976 لم تكن فكرة بناء الكنيسة قائمة. فقد بدأ العمل في بنائها بعد ذلك بسبع سنوات، لكنني سمعت تالياً أن كلفة بناء الكنيسة بلغ نحو نصف مليار دولار، مما أسهم في تفاقم الحالة الاقتصادية في البلاد. وهي بشكل من الأشكال تضاهي المسجد الكبير الذي بناه في ذات الوقت تقريباً العاهل المغربي الملك الحسن الثاني في مدينة الدار البيضاء بكلفة ناهزت المليار دولار، وتبلغ مساحة قاعة الصلاة فيه نحو 20 ألف متر مربع لكن باحته تتسع الى مائة ألف شخص، وهو أيضاً تحفة على الطراز الأندلسي.

لساحل العاج في عهد بوانيه اجتذب اليها أعـداداً هائلة من أبناء الـدول الإسلامية الفقيرة في الجوار الباحثين عن تحسين أحوالهم. وكان في البلاد أساساً أقلية إسلامية متأقلمة مع الوضع القائم آنذاك، بل كانت أكثر حرصاً على الاستقرار من غيرها. وأخذني مرة أحد أصدقاء أخي من جنوب لبنان الى شيخ طريقة عاجي متدين ليس لديه شيء من متاع الدنيا لكن الناس من مسلمين ومسيحيين كانوا يزورونه للتبرك به، فيكتب لهم «الحروز» الواقية من الشرور باللغة العربية.[10]

ومقابل كل واحد من هؤلاء الأولياء الصالحين كان هناك، كما فهمت، عشرات من السحرة والمشعوذين الذين يعلِّقون في أعناق قاصديهم «تمائم» أو «تعويذات» معظمها من البيئة البريَّة المحيطة لقاء مبلغ من المال.[11] ومن تلك التمائم مثلاً، «ناب الأفعى»، أو «حلقوم الذئب»، أو «جديلة الشعر» التي يزعمون أنها قُصَّت من لبدة الأسد، أو «الخرز الملوَّن» وكل لون لصدِّ آفة من الآفات، وما الى ذلك.

وقد التقيت أيضاً بجماعة من الموريتانيين العرب كان أخي يتعامل مع بعضهم، فوجدت أنهم يتكلمون العربية بصورة أوضح وأقرب الى اللهجات المشرقية من اللهجات المتداولة في المغرب أو الجزائر. وفي الشكل هم يشبهون اليمنيين شبهاً كبيراً، فيخطر لك أنهم من أصول يمنية. وعندما كنا صغاراً في القرعون كان يأتي الى البلدة أحياناً شخص يطلقون عليه «الحكيم المغربي»، فكان يطوف في القرى على بغلته المحملة بصنوف العقاقير والأعشاب، وينادي في الطرقات: «دوا للمعلول للساخن»، وكان القرويون يؤمنون بـ«حكمته». وكان هذا «الحكيم المغربي» حكواتياً أيضاً عندما يتجمهر حوله الناس فيقص عليهم حكاية أبـو زيـد الهلالي و «تغريبة بني هلال». والتغريبة تعني حرفياً الهجرة من الشرق الى الغرب، مما يشير الى أن بعض القبائل المشرقية قد هاجر ذات يوم الى أقاصي المغرب. وقد قرأت تحقيقاً صحافياً في الآونة الأخيرة حول دراسة عن الحمض النووي DNA للشعب الجزائري فتبيَّن أن أهالي الجزء الشمالي المتوسطي من الجزائر تعود أصولهم الى سوريا وتركيا، وأهالي الجزء الجنوبي الصحراوي تعود أصولهم الى الخليج والجزيرة العربية.

وكان أحد الموريتانيين وهو يعرِّف عني لزملائه يقول: «أخ عزيز من المشرق». وفي الحديث عن المشرق والمغرب قال أحدهم إنه ليس هناك مشرق واحد أو

(10) الحرز هو ورقة يكتب عليها الأولياء آيات من القرآن تتناسب مع الآفة التي يشكو منها طالبه، فتحفظه من شر ما هو متوجس منه.

(11) فهمت من الشخص الذي أخذني الى الشيخ المذكور أن الحروز محللة لكن التمائم محرمة شرعاً، كما فهمت أن معظم قاصدي التمائم هم من النساء والأطفال، خصوصاً النساء العاقرات اللواتي يقعن فريسة سهلة للشعوذات.

مغرب واحد، بل هناك مشرقان ومغربان. المشرق الأدنى المتوسطي يقابله المغرب الأدنى المتوسطي، والمشرق الآخر هو البادية وصولاً الى الجزيرة العربية، والمغرب الآخر هو المغرب الأطلسي. كذلك قسَّم الشعب الموريتاني الى فريقين: «البيضان» و «السودان»، أو بمعنى آخر العرب والزنوج، لكن البيضان ليسوا بيضاً تماماً. ومن البديهي أن البيضان ينظرون الى السودان نظرة دونية، وهذا شائع في معظم البلدان العربية حيث ما زالوا يسمون الرجل الأسود «العبد». فعندما هاجر الشاعر اللبناني الجنوبي العاملي موسى الزين شرارة الى إفريقيا، وكان شديد النقد لأهالي الجنوب الخاضعين والمستسلمين مثل العبيد للإقطاع، كتب قصيدة قال فيها: «هاجرت من العبيد الى العبيد»!

ومن الطرائف التي سمعتها من هؤلاء الموريتانيين في ساحل العاج أنهم في بعض أنحاء موريتانيا «يعلفون» البنات لتسمينهن، لأن البنت النحيلة لا تجد زوجاً «باعتبارها ربيبة فقر»، فالاكتناز باللحم هو من علائم اليسر!

كان الشهر الذي قضيته في ساحل العاج ممتعاً، خصوصاً مع المهاجرين اللبنانيين من جبل عامل والجنوب، ومن البقاع وعكار، الذين كانوا أقرب الى صورة لبنان المتخيلة في أذهان اللبنانيين منهم الى صورة الواقع اللبناني المرير. كلهم مؤمنون بلبنان وتوّاقون اليه ويحلمون بالعودة للعيش فيه، وكلهم متآلفون متعايشون كشعب واحد، خلافاً للواقع الذي ينتظرهم فيه. وإزاء تلك البراءة في الصورة المتخيلة، لم أحاول في أحاديثي معهم إفساد حلمهم بالحديث عن لبنان المشلَّع الذي تركته خلفي، لاعتقادي الصادق بأن اللبنانيين يمكن في يوم من الأيام أن يدبَّ «عقل الرحمن في رؤوسهم»، على القول الشائع في القرى البقاعية، ويأتون الى كلمة سواء فيما بينهم على غرار ما شاهدته بين المغتربين في غرب إفريقيا. بل على العكس من ذلك تركتهم يتحدثون على سجيتهم عن أفكارهم وتجارب أهلهم وأجدادهم، خصوصاً في منطقة الجنوب، كما سبق أن ذكرت عن المهاجر ابراهيم بلال (أبو بشير)، الذي حدثني عن تفضيل شيعة جبل عامل العيش مع المسيحيين في لبنان على دولة فيصل الهاشمي في سوريا، أيام السيد عبد الحسين شرف الدين كبير أئمة شيعة جبل عامل في ذلك الوقت.[12]

أما بالنسبة الى الإقامة والعمل في ساحل العاج فقد استبعدت ذلك من البداية

(12) صحيح أن السيد عبد الحسين شرف الدين كان ضد الطائفية وله حوارات مشهودة مع مشايخ أهل السنّة، خصوصاً مع مشايخ الأزهر في مصر حيث عاش لفترة قصيرة عند هروبه الى هناك لملاحقة الفرنسيين له، لكن في مسألة الانضمام الى دولة فيصل الهاشمي في دمشق، فهناك آراء مخالفة لما قاله لي ابراهيم بلال في ساحل العاج، لأن السيد عبد الحسين كان من أوائل داعمي «الثورة العربية الكبرى» بقيادة شريف مكة، ومثل علماء جبل عامل في ما عُرف بمؤتمر وادي الحجير للقاء الملك فيصل في دمشق والتفاوض معه الى جانب السيد محسن نور الدين والسيد محسن الأمين. وكانت الغاية المعلنة من مؤتمر وادي الحجير لعلماء جبل عامل هي مقاومة الوجود الفرنسي في بلاد الشام. وهو أيضاً مؤسس الكلية الجعفرية في مدينة صور.

لأنه ليس لي مراق بالتجارة، ثم لأن المناخ في تلك البلاد شديد الرطوبة وهو ما لم يكن يناسبني من الناحية الصحية، وقد كنت أعاني كثيراً في بيروت أيام اشتداد الرطوبة فيها. فعندما تنهض في الصباح تخال أن السماء قد أمطرت طوال الليل، لكثرة المياه التي تبلل الأرض، لكن ذلك لم يكن مطراً من السماء بل رطوبة في الجو. ولذلك كنا ننام وجهاز التبريد دائر طوال الليل بلا توقف. وفوق ذلك كان لا بد من النوم تحت «الناموسية»[13] لئلا تهاجمنا الحشرات والهوام ونحن نيام، خصوصاً البعوض ومنه على وجه التحديد بعوض يسمّونه «تسي تسي».[14] وكانت في بيت أخي فتاة إفريقية وظيفتها الكوي فقط، حيث تقوم بكوي جميع الملابس بما في ذلك الملابس الداخلية والجرابات، بسبب وجود نوع من الذباب يلقي بيوضه على الملابس المغسولة فتنتقل البيوض الى جسم لابسها لتفرِّخ تحت جلده وتتحول الى يرقات وديدان مزعجة تتسبب له بالالتهابات والقروح.[15] فحرارة نار المكوى تقتل تلك البيوض وتمنعها من التفقيس تحت الجلد.

لقد كان قلق المغتربين اللبنانيين في ساحل العاج من احتمال غياب الرئيس بوانيه عن المسرح السياسي في محله، وإن كان نظامه قد استمر نحو خمسة عشر عاماً منذ زيارتي الى «أبيدجان»، لكنهم في تقديري لم يكونوا يعرفون السبب الحقيقي لقلقهم. فليس السبب أن بوانيه يحب اللبنانيين وغيره لا يحبهم، بل هو في ظهور بوادر مناخات دولية مختلفة تتعلق بالتسلل الأميركي الى ساحة كانت حكراً على الفرنسيين في غرب إفريقيا. وقد استغل الأميركيون الأزمة المالية التي شهدتها ساحل العاج من جراء الهبوط المفاجىء في أسعار القهوة والكاكاو، للتسلل الى هناك تحت غطاء صندوق النقد الدولي والمساعدات المالية. بل هناك شبهة بأن ذلك الهبوط في الأسعار كان مفتعلاً لزعزعة استقرار إفريقيا الفرنسية. وقد جاءت الحوادث والاضطرابات التي شهدتها تلك المنطقة خلال العقدين التاليين بعد وفاة بوانيه لتؤكد فعل التنافس الفرنسي ـ الأميركي في إفريقيا في تأجيج الصراعات الأهلية المتعددة الأشكال والأوجه.

أخليت ذهني من الإقامة في ساحل العاج وعدت الى باريس باحثاً عن خيارات

(13) الناموسية هي غطاء من الشاش الأبيض ينصب فوق الفراش مثل خيمة تتيح مرور الهواء وتمنع مرور الهوام الى النائم تحتها.

(14) بعوضة تسي تسي هي بعوضة سامّة تنتشر في البلدان الاستوائية والبلدان الشديدة الحرارة والشديدة الرطوبة في آن، كما هو الحال في بعض البلدان الإفريقية. وهي تنقل الى من تلسعه ما يسمّونه «مرض النوم» الذي يفقد الشخص الملسوع القدرة على الحركة والنشاط. ويصاب ملايين الأفارقة بهذا المرض سنوياً لعدم كفاية أسباب الوقاية.

(15) يسمي الأفارقة ذلك النوع من الذباب الذي يفرِّخ الطفيليات الجلدية » لدى الإنسان ذباب التومبو» Tumbu fly.

أخـرى، بعدما استقرت العائلة في منزل دائـم، ودخل الأولاد الى مدارسـهم الجديدة، وبدأت حياتنا تتخذ سياقها الطبيعي. ومع ذلك فإن فكرة العودة القريبة الى لبنان لم تفارقني، وإن كنا نشعر بأن تلك الفكرة تبتعد عن الواقع يوماً بعد يوم. وعدت في باريس الى حياة التنقل بين المقاهي مع الرفيق الدائم محمد الشابي، حيث كانت تلتئم حلقات ضمت العديد من رواد مقاهي الروشة السابقين في بيروت. والحلقة شبه الدائمة كانت تلك المتحلِّقة حول السياسي السوري المعروف أكرم الحوراني، ومواضيعها الى جانب الأخبار اليومية في البلاد، بحث ونقد التجارب القومية والاشتراكية السابقة. ومن المداومين في تلك الجلسات الصحافي اللبناني جورج الراسي المتزوج حديثاً وقتها من الأديبة الجزائرية أحلام مستغانمي.[16]

وبعد مشاورات مع قريبي المحامي الياس الفرزلي حول المستقبل القريب استقر الرأي أن أذهب معه الى الكويت لأن فرص العمل المعقولة هناك قد تكون أفضل من أماكن أخرى. وقد اتخذت هذا الخيار لأن شقيقتي تعيش في الكويت مع عائلتها، وزوجها يعمل في الصحافة وكان في الوقت ذاته مراسلاً لوكالة الصحافة الفرنسية، فقررت الإقامة في منزل شقيقتي مؤقتاً ريثما يتبلور الخيار النهائي.

وكان بعض أقاربنا قد انتقلوا الى الكويت أسوة بكثيرين من اللبنانيين، ومنهم ابن عمتي أنطوان الفرزلي الذي كنت متشاركاً معه ومع المحامي الياس الفرزلي في دار النشر والدراسات التي كنا قد باشرنا العمل فيها في بيروت باسم «المركز العربي للدراسات والنشر»، كما ذكرت سابقاً. وبحثنا أولاً في إمكانية تجديد المركز المذكور من الكويت، فاقترح علينا الياس الفرزلي أن نتعاون مع جريدة «السياسة» القريبة آنذاك من وزير الإعلام الكويتي الشيخ جابر العلي، لصاحبها الصحافي الكويتي المثير للجدل أحمد الجار الله. وكان يقوم على أدارة تحرير «السياسة» في ذلك الوقت الصحافي الفلسطيني مصطفى أبو لبدة الذي نشأت بينه وبيني علاقة عمل جيدة. فقد أعطتنا جريدة «السياسة» مكاتب خاصة بنا ومستقلة عنها في مبناها لنقوم بأعمالنا منها، وكانت تقتصر في البداية على أعمال الترجمة بعضها عائد الى «شركة نفط الكويت» عن طريق اللبناني العكاري يوسف عطية العامل في تلك الشركة وقتها، على أن نساعد مقابل ذلك في تحرير الجريدة. ومع أن علاقتي مع مصطفى أبو لبدة كانت قد توطدت، إلاّ أنني لم أشأ أن أكتب في جريدة «السياسة» مقالات باسمي، بل اكتفيت بترجمة بعض التحقيقات الأجنبية،

---

(16) لم تكن أحلام مستغانمي قد اشتهرت بعد كما اشتهرت في الثمانينات والتسعينات، خصوصاً بعد صدور روايتها «ذاكرة الجسد» في عام 1993 والتي نالت عليها جائزة نجيب محفوظ بعد خمس سنوات، وصُنِّفت في عداد أفضل مائة رواية عربية، وكانت موضوع مسلسل تلفزيوني سوري أعده المخرج الحلبي المعروف في مضمار الدراما السورية نجدة أنزور.

وتحرير بعض الأخبار والتحليلات. ذلك أنني لم أكن مقتنعاً بجدوى تلك التجربة الكويتية العابرة، فظل يلازمني من البداية شعور بالمؤقتية، وقد عبرت عن ذلك في رسالة خطية بعثت بها الى قريبي المحامي الياس الفرزلي في باريس.

ثم جاءت والدتي الى الكويت لزيارتنا، وكان الوقت قد اقترب من أعياد الميلاد ورأس السنة، فاقترحت على الوالدة أن تذهب معي الى باريس لقضاء فترة الأعياد مع الأولاد، وبعدها أرسلها الى ساحل العاج لزيارة شقيقي دانيال، وأعود أنا الى الكويت، فوافقت على الفكرة. ولا أتذكر من اقترح علينا أن نسافر الى باريس مع الخطوط الجوية العراقية التي كانت تذاكرها أرخص من غيرها، لكن ذلك يقتضي أن نبيت ليلة في بغداد على حساب الشركة العراقية من ضمن التذكرة. وعندما وصلنا الى مطار بغداد كان المطار في حالة عارمة من الفوضى، لأنه كان قبل أيام قد تعرَّض لتفجير قنبلة فيه أحدثت دماراً هائلاً، اتهم العراقيون السوريين بتدبيرها. وفي خضم تلك الفوضى والضجيج الذي يصم الآذان، عثرت على حقيبة والدتي لكنني لم أعثر على حقيبتي التي كنت قد اشتريتها في الكويت، وهي من نوعية جيدة من طراز «أميركان توريستر» الجديد. وكانت تلك الحقيبة بالنسبة إلي أثمن من محتوياتها، وأثمن تلك المحتويات الهدايا التي اشتريتها للأولاد. وكان على مدخل قاعة المسافرين التي اختلط فيها الحابل بالنابل بالركام، جنود وضعوا بنادقهم على الأرض وراحوا يؤدون الصلاة في الخارج، فكان من الصعوبة بمكان أن نجد مسؤولاً يساعدنا على البحث أو يتلقى منا إفادة عن الحقيبة الضائعة لنطالب بها تالياً. وأخيراً جاء من ينادي على الركاب المسافرين الى باريس التوجه الى الباص الذي سيقلهم الى الفندق، فأخبرته بأمر الحقيبة الضائعة فساعدني على تقديم استدعاء يتضمن مواصفات الحقيبة، وتوجهنا الى المدينة مع بعض المسافرين الذين لم يكن حظهم أحسن من حظنا.

وخطر لي في الطريق أن الحقيبة قد تكون نُقلت الى الرحلة المتجهة في الصباح التالي الى باريس وإنني سوف أجدها أمامي في المطار الفرنسي، فأزالت تلك الفكرة بعض الغم الذي أصابني. وكان الطقس في بغداد يومها شديد البرودة، وزاد من تعاستنا أن الفندق الذي نقلونا اليه كان أكثر تعاسة وليس فيه مظاهر النظافة أو «الفندقة»، والأشق من ذلك لم يكن فيه أي نوع من التدفئة، مما اضطرني الى البقاء طول الليل في ثيابي ومعطفي، ومع ذلك لم نستطع أن نغمض عيوننا، فقامت الوالدة وخرجت الى حيث يجلس المناوب الليلي في الفندق أمام مدفئة كهربائية وشكت له شدة البرد، فكان كريماً رحب الصدر عندما تنازل عن مدفئته وأعطاها إياها لكي ننام قليلاً.

وأثناء الهبوط في مطار باريس كان الجو عاصفاً والضباب كثيفاً والرؤية

منعدمة تماماً مما أشاع نوعاً من الرهبة والصمت لدى الركاب، حتى إذا لامست الطائرة أرض المطار انفجروا بالتصفيق الحاد مشيدين بمهارة الكابتن العراقي واسمه «يوسف» على ما أذكر. وبحثت بين الحقائب الواصلة مع الطائرة فلم أجد حقيبتي وتبدد حلمي الذي عللت به نفسي في بغداد، فتوجهت الى مكتب الشكاوى وسجلت مواصفات حقيبتي في سجل المفقودات وأخذت نسخة مصدَّقة من المحضر قبل الذهاب الى البيت حيث ينتظرنا الأولاد الذين خاب أملهم من فقدان هداياهم.

وكنت في باريس أراجع الخطوط الجوية العراقية كل يوم تقريباً بشأن الحقيبة من دون جدوى. وبعد عودتي الى الكويت[17] ظلت زوجتي تراجع بالأمر الى أن قالت لها موظفة فرنسية في مكتب الطيران العراقي أن تقطع الأمل وتكف عن المراجعة لأن السوابق لا تشجع على المطالبة فنفضت يدها من الأمر.

وفي الكويت اتصلت بمكتب الخطوط الجوية العراقية الذي أصدر بطاقة السفر في الأصل وأبلغتهم ما حدث، فاقترح علي مدير المكتب أن أكتب رسالة خطية موجهة الى مدير عام الخطوط الجوية في بغداد، ففعلت ما أوصاني به، لكنني لم أحصل على أي جواب، فنسيت الموضوع وأمري لله. وبعد سنوات زرت العاصمة الأردنية عمان في خريف عام 1980 لمقابلة العاهل الأردني الملك حسين بن طلال، كما سيرد في السياق، وكنت في زيارة الى مكتب اللبناني علي غندور المقرَّب من العاهل الأردني ويشغل منصب رئيس مجلس إدارة الخطوط الملكية الأردنية (عالية)،[18] فوجدت عنده شخصاً يبدو من ملامحه أنه عراقي، فعرَّفني عليه بأنه هاشم حسن المجيد ابن عم الرئيس صدام حسين ومدير

---

(17) عدت الى الكويت بعد عطلة الأعياد على متن الخطوط الجوية الهندية القادمة من نيويورك في طريقها الى الهند، وعلى متن تلك الطائرة جلس الى جانبي أحد كبار أساتذة الاقتصاد في الهند، فكانت الرحلة معه ممتعة للغاية حيث حدثني عن تصوراته للأوضاع الاقتصادية في العالم وعلاقتها بالمجريات السياسية. ومع الأسف لم أسجل اسمه لأنني خجلت أن أسأله عن اسمه مرة ثانية بعد تقديم نفسه باسم هندي لم أستوعبه.

(18) كان علي غندور في لبنان منتمياً الى الحزب السوري القومي الاجتماعي وشارك في الانقلاب الذي قاده حزبه ضد الرئيس فؤاد شهاب فهرب الى الأردن بعد فشل المحاولة الانقلابية لكن المحكمة العسكرية اللبنانية حكمت عليه بالإعدام غيابياً. وقد أسس علي غندور مع نجله فادي شركة ناجحة للبريد السريع والشحن الجوي باسم «أرامكس»، فأثار نجاحها حفيظة بعض الأردنيين، خصوصاً في عهد حكومة أحمد عبيدات، فاتهموه باستغلال النفوذ والكسب غير المشروع، وما الى ذلك، مما اضطره الى التخلي عن إدارة الخطوط الجوية ليصبح مستشاراً للملك حسين، لكنه ما لبث أن أعيد الى منصبه السابق. وعندما كنت في عمان نازلاً في فندق «فيلادلفيا»، كان نازلاً في الفندق أيضاً اللبناني الأميركي نجيب الحلبي (درزي) الذي سبق له أن شغل منصب مدير وكالة الطيران المدني في الولايات المتحدة، وهو والد الملكة نور زوجة الملك حسين. وقيل لي في عمان إن الملك حسين تعرَّف على ابنة الحلبي من خلال علي غندور الذي كان على علاقة مع الحلبي بحكم موقعه كمدير عام للخطوط الجوية الأردنية.

عام الخطوط الجوية العراقية.[19] وحاولت تخجيله أمام علي غندور بأن رويت له حكاية الحقيبة الضائعة وتلك الرحلة التعيسة على طائرة لمؤسسته، فنفض يده وقال:

«يا معوَّد، هسّا بعدنا نعالج مفقودات عام 1965».

فقلت له: «إذن لن يأتي دوري قبل القرن المقبل»!

•••

خلال الإجازة في باريس حاولت أن أجد مجالاً للعمل يسمح لي بالبقاء الى جانب العائلة في العاصمة الفرنسية، لكن الوقت كان ضيقاً فكان لا بد من العودة الى الكويت ولو مؤقتاً. وبعد عودتي الى الكويت بوقت قصير حل الأستاذ صلاح البيطار فيها ضيفاً على وزير الإعلام الكويتي الشيخ جابر العلي لمدة شهر تقريباً، فكسر ذلك شيئاً من رتابة الوضع وسكونه، فكنا نقضي تلك الأيام في بحث مختلف أوجه التجربة العربية منذ الخمسينيات بالإضافة الى الشؤون الجارية يومئذ، خصوصاً ما يتعلق بالقضية الفلسطينية ومساعي التسوية السلمية. وفي تلك الأيام التي كنت أجلس فيها مع البيطار يومياً تعرَّفت على حقيقة أفكاره، لأن صورته في ذهني لم تكن واضحة تماماً بسبب طغيان ميشال عفلق على المشهد البعثي، واستئثاره بالشرعية الحزبية بعد حكم الحزب في العراق. وقد شرح لي مليًّا في حينه موجبات رفضه لفكرة «الحزب الواحد» أو «الحزب القائد » في أي بلد عربي، كما استفاض في شرح فكرة «التعددية داخل التعددية» لكي تكون الديموقراطية مترسخة في البلاد من خلال ترسخها في داخل الأحزاب السياسية ذاتها. ذلك أن ديكتاتورية الحزب الواحد في أي بلد تجعل من المستحيل أن يكون المشهد الحزبي ذاته ديموقراطياً من داخله، فالحكم الفردي في البلاد يستلزم التفرد داخل الحزب، فتنشأ حالة قمعية مركَّبة من داخل الحزب نزولاً الى أدق تفاصيل حياة الناس، كما حصل بالفعل.

وكان البيطار من خلال هذا التوصيف للواقع وللتوجهات الانفرادية يرى أن الأفق في المستقبل سوف يكون محدوداً بحكم وفعل ضيق الخيارات من جراء معادلة التماهي بين الحكم الفردي وبين مصير البلاد كلها، لأن الحكم الفردي يسعى الى حماية نفسه وإدامة نظامه ليس فقط من خلال القمع، بل إن القمع قد يكون أهون الشرَّين، لكن من خلال ربط مصير البلاد بمصيره فتصبح كلها بما ومن فيها رهينة له، تبقى ببقائه وتزول بزواله. إما أن يدوم الحكم ويبقى،

(19) هو شقيق علي حسن المجيد المعروف بلقب «علي الكيماوي»، وقد شغل قبل ذلك مناصب حكومية رفيعة منها منصب محافظ محافظة بابل (الحلة). وبعد الاحتلال الأميركي ألقي القبض عليه وأحيل مع آخرين الى محكمة الجنايات التي برَّأته وأطلقت سراحه، لكن مسلحين اقتحموا منزله في تكريت عام 2007 وقتلوا زوجته وابنته، لكنه لم يكن في المنزل، كما نشرت وكالات الأنباء في حينه.

وإما أن تتدمر البلاد وتتفكك وتخرج من حقيقتها.

هذا كله كان صلاح البيطار يراه ويفكّر به حتى عندما عاد الى دمشق والتقى الرئيس حافظ الأسد، وسط استغراب واستهجان كثيرين ومعارضة بعض المقربين منه. كما سأعرض ما أبلغنيه في باريس صيف عام 1978 عن لقائه مع الرئيس الأسد بعد عودته الى العاصمة الفرنسية. وكنت يومها أتساءل بيني وبين نفسي ما إذا كان موقف البيطار هذا ناتجاً من كونه خارج الحزب وخارج السلطة، لكنني في الوقت ذاته كنت أتفكر بما كان يقوله حتى ولو كان صادراً على سبيل الافتراض عن نزعة شخصية.

ومن أيام بيروت كنت أعرف عن وجود تباينات في الرأي بين صلاح البيطار وميشال عفلق، وفي أحاديثي مع البيطار في الكويت كنت اتخذ موقف الدفاع عن عفلق، كما كنت أفعل في أي مناسبة يتعرض فيها للنقد والطعن. لكنه تبين لي أن الموقف السلبي للبيطار من عفلق لم يكن موقفاً شخصياً أو تنافسياً كما كان يتم تصويره في بعض الأحيان. فقد كان معظم نقده لعفلق يتركز حول دوره في إضفاء الشرعية على الأنظمة الحاكمة باسم الحزب من خلال الاستئثار بالشرعية الحزبية، فأرسى، كما قال لي، أوضاعاً هجينة تبدأ فيها المفارقات ولا تنتهي ابتداءً من المفارقة الكبرى التي وضع فيها رجل غير ديكاتوتوري نفسه محوراً وأساساً لقيام أوضاع ديكتاتورية داخل الحزب الذي يحمل اسمه أولاً.

ومع ذلك فإن صلاح البيطار في أحاديثه معي في الكويت لم يكن كثير التركيز على الأوضاع الفردية أو المواقف الشخصية، بل كان يركّز دائماً على ما يسمّيه «المسارات» مستخدماً العبارة الفرنسية Processus حيث أدوار الأفراد تصبح جزئية أو هامشية أحياناً، لأن من طبيعة المسار أن يكون جارفاً خصوصاً في مرحلة تكوّنه أو تشكّله[20].

وبعد أيام من مغادرة صلاح البيطار الكويت جاء محمد الشابي في زيارة لأيام معدودة، فقضينا سهرتين فقط مع البعثي الكويتي فيصل الصانع، الذي عاش ودرس لفترة في باريس، كما مرّ، والذي أعدمه صدام حسين بعد احتلاله الكويت لرفضه تشكيل حكومة كويتية موالية للعراق. وفي العشاء الذي أقامه لنا فيصل الصانع في منزله تعرَّفت لأول مرة على سمك «الزبيدي» المتواجد بكثرة في مياه الخليج، حيث أعدته لنا والدة فيصل بشكل لم أصادفه تالياً في أي مكان آخر.

ثم تتالت المصادفات بعد ذلك لتدفع باتجاه العودة الى باريس. فقد وجَّهت وزارة الخارجية الفرنسية دعوات الى صحف عربية وآسيوية مختارة لإيفاد

---

(20) عندما كتب صلاح البيطار في الكويت مقاله بعنوان «جنيف .. حكاية» انطلق، كما قال لي، من فكرة «المسار»، منتقداً الذين أخذوا مؤتمر جنيف للسلام بين العرب وإسرائيل على محمل الجد أو انتظروا منه نتائج فعلية أو حقيقية، بل اعتبره خطوة في مسار سوف يمضي في تعرجات كثيرة وطويلة ومعقّدة كما حصل خلال العقود المنصرمة وكما يحصل الآن بالفعل.

مبعوثين عنها الى فرنسا للقيام بجولة على مراكز البحوث العلمية الفرنسية في أنحاء البلاد، تشمل مراكز البحوث النووية، ومراكز بحوث الطاقة الشمسية، ومراكز بحوث العلوم البحرية والثروة السمكية، ومراكز بحوث العلوم الكيميائية، والاطلاع على نظام التعليم الفرنسي الجديد الذي بدأ تطويره في عهد الجنرال شارل ديغول، خصوصاً لجهة المواءمة بين احتياجات الصناعة الوطنية وبين توزيع الطلاّب على المدارس بما يلبي تلك الاحتياجات. وقد علمت بالدعوة من صهري الذي كان يراسل وكالة الصحافة الفرنسية في الكويت، فسعيت لدى جريدة «السياسة» لانتدابي عنها في تلك الجولة الفريدة، خصوصاً أنها تتيح لي زيارة عائلتي في باريس، وهكذا كان.

ولست أدري لماذا تولّت الخارجية الفرنسية تلك المهمة، أو الأسباب الموجبة لها، لكن تقديري هو أن سياسة فرنسا في تلك المرحلة من أواسط سبعينيات القرن الماضي كانت تتوخى توسيع آفاق تعاملها التجاري بالمنتوجات العلمية المتقدمة، ومنها المفاعلات النووية، مع دول عربية وآسيوية معيَّنة. وفي عداد الوفد الذي كنت من ضمنه كان هناك الشاعر السوري خليل الخوري ،عن وزارة الإعلام العراقية، باعتباره يجيد اللغة الفرنسية، والصحافي السعودي تركي السديري، رئيس تحرير جريدة «الرياض»، وصحافي من إندونيسيا وآخرون[21].

لكن تلك الجولة على مراكز البحوث الفرنسية كانت مناسبة نادرة لمعرفة فرنسا بالعمق، لأن معرفتي السابقة بها اقتصرت على باريس ومن زاوية سياحية في الدرجة الأولى. ففي مركز ومختبرات البحوث النووية في ضاحية «ساكلي» القريبة من «فرساي» وتبعد نحو 20 كيلومتراً عن وسط باريس، أدهشنا حجم ونوعية البحوث الجارية هناك ويقوم عليها أكثر من خمسة آلاف عالم ومهندس وتقني.[22] ولاحظت بشكل خاص اهتمام الزميل الإندونيسي بالبحوث النووية الجارية، خصوصاً في مختبر الفيزياء النووية لتسريع إطلاق الجزيئات في أنابيب معدنية خاصة، وكثرة استفساراته عن الموضوع. وكان الباحثون في المركز يرحبون بأي استفسار من غير أي ضيق حتى لو كان المستفسر جاهلاً بالموضوع. وأكد القائمون على المركز أنهم يتعاونون مع مراكز عديدة حول العالم، وأنهم على استعداد للتعاون مع من يرغب في المجال النووي نظرياً وعملياً. ولفتتني ثقة الباحثين الفرنسيين بأنفسهم وببحوثهم المتقدمة وكأنهم يشعرون بأن بلادهم هي الدولة النووية الأولى في العالم.

---

(21) كان وزير الخارجية الفرنسي آنذاك جان سوفانيارغ، وهو أول وزير خارجية في عهد الرئيس فاليري جيسكار ديستان، حيث خلف ميشال جوبير آخر وزير خارجية في عهد الرئيس جورج بومبيدو. وقد عاد ميشال جوبير الى الحكومة الفرنسية في عهد الرئيس الاشتراكي فرانسوا ميتران كوزير للتجارة الخارجية، وكان جوبير خلال السبعينيات يكتب مقالاً أسبوعياً في مجلة «الحوادث» اللبنانية قبل انتسابي اليها.

(22) يسمِّي الفرنسيون «ساكلي» بما فيها من مراكز بحوث ومختبرات «عاصمة فرنسا النووية».

ومن أهم الزيارات في الجولة الفرنسية تلك التي قمنا بها الى مركز لبحوث الطاقة الشمسية في منطقة «أوديو» في أعالي جبال «بيرينيز » على ارتفاع 2000 متر عن سطح البحر، حيث نصب المركز غابة من نحو مائتي مرآة عاكسة ضخمة لالتقاط أكبر قدر ممكن من أشعة الشمس الوفيرة في تلك المنطقة. وقد حدثنا مدير المركز عن التجارب الجارية، وقال إن المشكلة الأهم التي تعترض المشروع هي كيفية تخزين الطاقة المتولدة. ثم أخذنا الى المختبر حيث تتحول الأشعة الى ما أسماه «بلازما»، على حرارة تزيد عن 400 درجة مئوية[23]. وقد صعدنا الى أعالي الجبل في أوديو من مدينة «بربينيون» الجميلة حيث بتنا ليلة واحدة في فندق من فنادق المدينة قبل الصعود بالباص الى مركز «تاميس» THEMIS الذي وصفوه لنا بأنه أكبر فرن شمسي في العالم.

وبما أننا انتقلنا جغرافياً الى جنوب فرنسا، فقد كانت الزيارة التالية الى مركز البحوث الخاص بالحياة البحرية بإشراف البروفسور باري وزوجته في مدينة «سيت» القريبة من «مونبوليه»، وهي بلدة جميلة على البحر ولها تاريخ عريق في تلك المنطقة من مقاطعة «لونغيدوك ـ روسيّون»، حيث منها انطلق الملك لويس التاسع (القديس لويس) في الحملة الصليبية السابعة والأخيرة على الشرق في أواسط القرن الثالث عشر، وما تزال بقايا القلعة التي تحمل اسمه على الشاطىء قائمة.

ومن البحوث التي كانت جارية آنذاك كيفية حفظ صغار السمك من نوع يسمونه Loup de Mer (ذئب البحر) وهو يشبه سمك «اللقّز» اللبناني، إذ قال مدير المركز أن سمكة واحدة من كل ألف تسلم من كواسر السمك، وقد نجح المركز في تحسين تلك النسبة من الواحد في الألف الى أكثر من عشرة في الألف.

وكان سرور الشاعر السوري خليل خوري عظيماً في تلك الزيارة لأن مدينة «سيت» هي مسقط رأس الشاعر والمفكر الفرنسي المشهور بول فاليري، وله فيها متحف هو قبلة الزائرين لتلك المنطقة السياحية البديعة.[24] وقد دعانا مدير المركز الى الغداء بعد جولة على المزارع البحرية للصدفيات المشهورة في فرنسا، تناولنا فيه طعاماً من الأسماك والأصداف البحرية الفاخرة. وهذا المشهد ليس جديداً عليَّ، إذ سبق أن اصطحبني محمد الشابي وزوجته الى منطقة «بريتاني» في غرب فرنسا حيث لأهل زوجته منزل صيفي على البحر، وكانت زوجة الشابي تنزل في الصباح الى الشاطىء حيث يرسو الصيَّادون

(23) فهمت تالياً أن ذلك المشروع العظيم قد تعثَّر وتباطأ خلال العقدين الماضيين لأسباب تقنية ومالية، كما فهمت أنه يجري حالياً تحديثه في انطلاقة جديدة مبشِّرة.

(24) أطلق اسم بول فاليري على جامعة مونبوليه القريبة وهي أقدم جامعة متكاملة في أوروبا، تأسست في عام 1289 بأمر بابوي أصدره البابا نقولا الرابع ضم فيه كلية الطب الى كلية الفنون وبقية الكليات في جامعة واحدة.

لتجلب منهم سلَّة مليئة بالسلطعونات الحيَّة. كذلك قمت مع الشابي بجولة في تلك المنطقة حيث زرنا مكاناً مشهوراً بأصداف المحار يُدعى «رييك سور بيلون»، واشترينا منه سلَّة من مائة حبَّة.

وفي تلك المنطقة أيضاً يوجد فندق تاريخي مشهور يحمل اسم صاحبته الأولى وهو Chez Melanie وفيه مطعم للأسماك والأصداف البحرية ليس له نظير في العالم. والفندق ذاته هو عبارة عن متحف للوحات الفنيَّة النادرة، لأن الرسامين الفرنسيين الكبار الذين قصدوا تلك المنطقة للرسم فيها والاستجمام ترك كل منهم لوحة له في الفندق موزعة على الغرف والجدران. ومن تلك اللوحات الملفتة تلك المعلقة في صدر قاعة الطعام وتمثل كبير طهاة الإمبراطور نابليون الثالث يتناول الغداء مع ميلاني صاحبة الفندق الأولى، فعندما تدخل من باب قاعة الطعام الى الداخل يخيَّل اليك أن أشخاص الصورة ضيوف يجلسون معنا في قاعة الطعام قبل أن تتيقن أن تلك صورة زيتية.

ثم انتقلنا الى مراكز الأبحاث الكيميائية في مدينة ليون[25] قبل أن نزور مدينة تولوز حيث بتنا ليلة واحدة أيضاً ومنها عدنا جواً الى باريس.

•••

لم أكن أعلم بعد عودتي الى باريس أن الزميل علي بلوط صاحب مجلة «الدستور» قد انتقل اليها من بيروت بهدف إصدار المجلة من الخارج. فقد كنت أعرف أنه نقل مكاتب المجلة من «بناية الكمال» على طريق الشام في بيروت بسبب الحرب الى مكاتب مؤقتة في «فندق نابليون» بشارع الحمراء في رأس بيروت، بل قمت بزيارته في تلك المكاتب حينها قبل مغادرتي لبنان بقليل. ولا أظن أنه علم بوجودي في فرنسا حينذاك، لأنه بعد فترة وجيزة اتصل بي في الكويت طالباً مني ملاقاته في باريس حيث ينوي إصدار المجلة مؤقتاً ويريدني أن أساعده فيها بصفة نائب رئيس التحرير. وشرح لي أنه سوف يُصدر المجلة تالياً وبصورة دائمة من لندن بعد إتمام المعاملات القانونية واستصدار أذونات عمل وإقامات للمحررين في العاصمة البريطانية، وأنه بدأ بالفعل بإصدارها من باريس مؤقتاً. وعندما وصلت الى باريس من جديد بعد تلك المكالمة كان قد صدر بضعة أعداد من «الدستور» بإشراف الزميل الراحل وليد بركات. وعلى كل حال لم يكن جهاز التحرير مكتملاً ولم تكن الظروف القائمة مهيأة تماماً لكي تستعيد المجلة شخصيتها، أو تكتسب شخصية جديدة، أو تُحدث صدى يفرض حضورها في الساحة الإعلامية العربية الضائعة بفعل ضياع بيروت كعاصمة إعلامية.

لهجة الاستعجال التي تحدث فيها اليَّ الزميل علي بلوط جعلتني أتخذ قراراً

---

(25) تلك المراكز الكيميائية على ما أظن تابعة لجامعة ليون. وقد قرأت مؤخراً عن اتفاقية تعاون بين تلك المراكز وجامعة الملك عبد الله للعلوم والتكنولوجيا في المملكة العربية السعودية.

سريعاً بالعودة الى باريس، وكانت تلك رغبة ملحَّة لدي دافعها الأول الالتحاق بعائلتي، بالإضافة الى الدوافع المهنية. واقتضت تذكرة السفر الى باريس أن أسافر الى القاهرة أولاً بطائرة كويتية ومنها بعد ساعة في مطار القاهرة الى الخطوط الجوية الفرنسية المتجهة الى باريس. ولسبب من الأسباب تأخرت الطائرة الكويتية في مطار الكويت نحو ساعة تقريباً، فكان مشهداً مثيراً أن أرى الطائرة الفرنسية المفترض أن أسافر عليها تقلع من مطار القاهرة في الوقت الذي حطت فيه الطائرة الكويتية التي كنت من ركابها.

وبعد استفسارات عديدة في مطار القاهرة عن الطائرات المتجهة الى باريس في ذلك اليوم أشاروا علي بطائرة إيرانية متجهة الى نيويورك عن طريق باريس ويمكنني الالتحاق بها فوراً ففعلت. وكان المشهد في تلك الطائرة الإيرانية مطلع صيف 1977 أول مؤشر رأيته على الوضع السائد في إيران يومئذ، قبل سنة ونصف السنة تقريباً من انتصار الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني.

كانت طائرة ضخمة جداً لكنها خالية من الركاب تقريباً، باستثناء عدد قليل من الأجانب، ربما كانوا في غالبيتهم من الأميركيين، لا يتجاوز عددهم العشرة أفراد بمن فيهم عائلة أو عائلتان، بحيث أن عدد طاقم الطائرة كان أكبر من عدد الركاب. فقد كان مقعدي في القاطع الأوسط من الطائرة، وكان خالياً من الركاب تماماً. وتلفَّتُ الى الوراء فكان القاطع الخلفي خالياً من الركاب أيضاً. والأجانب الموجودون في الطائرة كانوا كلهم في القاطع الأمامي، ولكونهم متفرقين في أماكن متباعدة، فإن ذلك القاطع بدا كأنه هو الآخر خالٍ من الركاب. ومع أنني لا أخاف من الطيران، فإنني لست أدري لماذا ساورني القلق خلال تلك الرحلة التي شعرت بأنها طالت أكثر من اللزوم، وأيقنت منذ تلك اللحظة أن الوضع في إيران غير عادي، وأن المشهد من داخل الطائرة الإيرانية يدل على شيء ما مختلف أو غير طبيعي، وكتبت في مفكرتي يومها أنني سافرت من القاهرة الى باريس بطائرة إيرانية أشبه ما تكون بطائرة مخطوفة!

طبعاً لم يكن المشهد الإيراني الثوري أو المعارض ظاهراً للعيان يومها كما ظهر بعد سنة، لكن تلك الرحلة المبكرة على الطائرة الإيرانية المتجهة الى باريس ونيويورك عبر القاهرة لفتت نظري الى وجود حالة غير طبيعية، لأنه من غير الطبيعي أن تكون طائرة بذلك الحجم وعلى خط مثل ذلك الخط خالية من الركاب تقريباً. ومما لفت نظري أيضاً أنه لم ينزل من الطائرة في باريس سواي وشخص آخر، فكانت الحفنة الباقية من الركاب متجهة الى نيويورك، مما يعني أنهم جميعاً من الأميركيين كما يُستدل أيضاً من وجوههم. فلم يكن على الطائرة أي إيراني باستثناء طاقمها.

وبقيت ردحاً طويلاً من الزمن أتفكر بتلك الرحلة، خصوصاً بعدما بدأت تظهر في وسائل الإعلام أخبار متزايدة عن اضطراب الوضع الداخلي في البلاد،

واهتزاز عرش الطاووس الشاهنشاهي تحت هدير الجموع الإسلامية. وحتى بعد تعاظم المد الثوري الإسلامي في إيران بقيادة الخميني ونجاح الثورة في طهران وهروب الشاه الى الخارج، كان كل حادث إيراني يمر في خاطري من خلال تلك الرحلة في الطائرة الإيرانية.

وبعد فترة من استقرار مجلة «الدستور» في لندن استدعاني رئيس التحرير علي بلوط الى مكتبه ليعرفني على شخص مهم في الثورة الإيرانية مقرَّب من الإمام الخميني الموجود آنذاك في باريس جاء من العاصمة الفرنسية بمهمات إعلامية. وذلك الشخص هو صادق قطب زاده الذي كان مترجم الخميني ومستشاره،[26] وكان في الأصل منتمياً الى حركة المهدي بازركان الذي أصبح أول رئيس للحكومة الإيرانية بعد الثورة، وأصبح قطب زاده وزيراً للخارجية في حكومته بعدما كان قد عيَّنه الخميني المسؤول الإعلامي الأول عن الإذاعة والتلفزيون. لكن الحوادث تسارعت فيما بعد فانسحب قطب زاده من الحياة السياسية بعد سقوطه الذريع في الانتخابات النيابية، وما لبث أن اتهمه بعض أركان النظام بالتآمر على الثورة فحوكم وصدر عليه حكم بالإعدام تم تنفيذه في سجنه في طهران.

وبعد عودة الخميني الى طهران والى جانبه صادق قطب زاده على متن طائرة للخطوط الجوية الفرنسية، تساءلت عن عدم سفره على طائرة إيرانية كتلك التي حملتني من القاهرة الى باريس، وتشخصت مشهد قطب زاده لو أنه كان مسافراً الى طهران في طائرة إيرانية خالية من الركاب، وما هي الهواجس التي يمكن أن تنتابه بعدما عاد مطمئناً الى جانب الخميني على طائرة فرنسية، ليطل على حبل المشنقة من بعيد وهو في كرسي الحكم الوثير.

وقد تشوشت الصورة في رأسي عندما رأيت ذلك الشاب الإيراني الوسيم والمثقف في أعلى معاهد الغرب، ويبدو غربياً في جميع أحاديثه وتصرفاته، وهو يحظى بثقة آية الله الخميني خلافاً للمشاهد التي ظهرت تالياً للملالي في شوارع طهران. صورة الغرب ونقيضه في مشهد واحد، منها قطعاً مشهد الطائرة الإيرانية الخالية من الركاب، ومشهد الطائرة الفرنسية المليئة بأتباع الخميني، ما زالت الى الآن هي الصورة المهيمنة على المشهد الإيراني على الرغم من التصفيات التي جرت باسم الثورة والثورة المضادة على المسرح السياسي الداخلي، وعلى الرغم من الحرب التي شنها الغرب على إيران الخمينية بالوكالة، وباسم العروبة المعادية للمجوسية الفارسية.

كنت شديد الارتياح لهذا الترتيب الذي عقدته مع الزميل علي بلوط في باريس، ومرد ذلك الارتياح يعود الى وجودي مع عائلتي في مكان واحد. وقد

---

(26) كان صادق قطب زاده قد تعرَّف على الإمام الخميني عندما زاره في النجف الأشرف في العراق عام 1971، وليس أثناء وجوده في باريس عام 1978 كما هو شائع.

انصرفت من البداية الى الاهتمام بجهاز التحرير ووضع تصوُّر لتوجهات المجلة بحيث تستطيع مع الوقت أن تأخذ حيِّزاً متميزاً بين الصحف العربية، كما حصل فعلياً خلال الأشهر الأولى من انتقالها الى لندن.

ومن أول الطريق تعرَّضت الى تجربة تكررت معي فيما بعد، وهي مسألة التشكيك بالأشخاص من خلال انتماءات متعددة، مثل الانتماء الطائفي أو الجهوي أو السياسي، ونسج متخيَّلات غير حقيقية انطلاقاً من التحيُّز في المواقف، أو من التعصُّب بأشكاله، أو من الاختلاف في المناحي والمشارب الفكرية. فقبل وصولي الى باريس كانت إدارة المجلة قد وافقت على إدخال شاب سوري مبتدىء في الصحافة لكنه واسع المدارك والثقافة والمعرفة بشؤون المغرب العربي لكونه عاش فترة طويلة في الجزائر بسبب عمل والده في السلك الديبلوماسي السوري كملحق ثقافي. وبعد تسلمي مهامي في المجلة طلب هذا الشاب مقابلتي وشكا لي من وجود جو نفور منه بين المحررين، وأنهم أبلغوه بأنهم سوف يستغنون عنه. وجلس الصحافي المذكور، وهو قصي صالح الدرويش، يحدثني عن نفسه وعن عائلته وعن آرائه وتصوراته حول الأوضاع العربية والأوضاع في منطقة المغرب خصوصاً، فطلبت منه أن يعدَّ لي موضوعاً مغربياً للعدد التالي، وسنبحث أمره بعد ذلك.

والواقع أنني كنت قد سمعت قبل لقائه أنه ينتمي الى الطائفة العلوية، وأنه ابن عمة اللواء صلاح جديد، الذي حكم سوريا بوجه من التطرف اليساري قبل انقلاب الرئيس حافظ الأسد عليه، وبالتالي فإن السوري العلوي في نظر البعض لا بد أن يكون متعاملاً مع الاستخبارات السورية، وهذا ليس مستحباً في صحيفة ميولها عراقية معادية لسوريا. لكن مقابلتي لقصي صالح الدرويش دحضت تلك السالفة السخيفة، فلما جاءني بموضوعه وقرأناه سوياً لمحت فيه إمكانية بلوغ مستوى متقدم من الطرح السياسي والثقافي المثير للجدل، فقررت استبقاءه في الجهاز، وأبقيته مراسلاً للمجلة في باريس بعد انتقالها الى لندن. وبالتالي نشأت بينه وبيني الى جانب علاقة الزمالة المهنية، صداقة متينة بحيث انتقل للعمل معي في كافة الصحف التي عملت فيها، كما عملت معه عندما أصدر مطبوعته الخاصة، «الحدث»، من باريس في مطلع القرن الحالي.

وحدث شيء مماثل في لندن عندما جاءنا صحافي إيراني يدعى علي نوري زاده ليكتب في «الدستور» عن الحوادث والتطورات الإيرانية الجارية آنذاك، فقوبل في البداية بالتشكيك والظنون لمجرد كونه إيرانياً، لكن ثبت تالياً أنه صحافي وباحث جدي وعليم بالمسائل التي يطرحها. وعلمت فيما بعد أنه استقر في العاصمة البريطانية حيث تولى إدارة «مركز الدراسات الإيرانية - العربية».

لكن النشاط الصحافي المثير الذي قام به قصي صالح في بلدان المغرب

كان متميزاً الى درجة أن رجال الحكم والمعارضة على السواء كانوا يتسابقون للتحدث اليه لكي تظهر أحاديثهم على صفحات «الدستور»، وصار مرجعاً للصحافة الفرنسية حيث كان الصحافيون الفرنسيون يأتون اليه لاستشارته أو لامتحان معلوماتهم لديه. وقد انتبه سليم اللوزي صاحب ورئيس تحرير مجلة «الحوادث» اللبنانية المستقلة، التي كانت قد انتقلت بدورها الى لندن، الى تلك الحيوية التي أحدثتها معالجات قصي للقضايا المغربية بحيث أنه عندما عرضت عليه تالياً أن ينضم الينا في «الحوادث» فتح جاروره وأعطاه مبلغاً من المال يكفيه لرحلة جزائرية ومغربية تدوم شهراً كاملاً ليأتي بعدها بحصيلة مثيرة. لكن تلك التحقيقات التي قام بها لم تظهر في «الحوادث»، مع الأسف، إلاّ بعد خطف ومقتل سليم اللوزي في بيروت مطلع عام 1980.

وعندما استقرت «الدستور» في لندن وبدأت تتشكل شخصيتها المميزة، وتطفح حيويتها الصحافية، جاءنا الكاتب المصري الساخر محمود السعدني بمسلسل من المقالات الطريفة وضع له عنواناً مثيراً هو «حمار من الشرق». وقد قلت للسعدني يومها ممازحاً، إن الشرق فيه اليابان والصين والهند وماليزيا وتايلاند وسنغافورا وكوريا وإيران، فما رأيك أن تعدِّل عنوان المسلسل ليكون «حمار من الشرق الأوسط». وقد كان هذا أيضاً مسلسلاً ناجحاً أضاف نكهة مصرية خفيفة الظل الى حيوية المناخ الصحافي الجدي المتكوِّن. وبعد ذلك بفترة وجيزة جاءنا عبد المجيد فريد، المدير السابق لمكتب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، حاملاً معه ما أسميناه في حينه «أوراق عبد الناصر» التي نشرناها أيضاً على حلقات متلاحقة، فكان لها الصدى الواسع الذي تستحقه، مما رفع سمعة المجلة عالياً في الأوساط العربية والأجنبية على السواء، فصار كثيرون من الصحافيين الأميركيين والبريطانيين والفرنسيين يتوافدون علينا للتشاور، منهم من أتى لاستقاء المعلومات منا، ومنهم من أتى ليتثبت من معلومات استقاها من مصادر أخرى.

وبعد الصدى الواسع الذي تركته أوراق عبد الناصر طلب عبد المجيد فريد أن يزورني في مكتبي ليأخذ رأيي في زيارة كان ينوي القيام بها الى بغداد. وفي ذلك الوقت كان النظام العراقي يقود ما يسمّونه «جبهة الرفض» المعارضة لتوجهات الرئيس المصري أنور السادات المتصالح حديثاً مع إسرائيل، وتم الإعلان عن محاكمة سوف تجري للسادات في بغداد بتهمة الخيانة العظمى. وقدَّرت وقتها أن عبد المجيد فريد يريد زيارة بغداد للمشاركة في الإعداد لتلك المحاكمة، أو لطلب مساعدة العراقيين في مشروع ما ينوي إقامته في لندن. وأبلغني عبد المجيد فريد أنه سوف يطلب مقابلة الرئيس البكر في بغداد، وسألني ما هي المواضيع التي يمكن أن أطرحها معه، فقلت له حرفياً:

«إذا كنت تريد أن تكسب ثقة الرئيس البكر واحترامه، فاقترح عليه صرف

النظر عن محاكمة الرئيس السادات لأن في ذلك إهانة للشعب المصري عندما يشاهدون محاكمة رئيسهم في بلد آخر. وبعد ذلك قل له ما شئت».

ولست أدري ماذا جرى في اللقاء بين الرئيس البكر وعبد المجيد فريد، وعندما عاد من بغداد لم يخبرني شيئاً عمّا جرى معه في بغداد وأنا بدوري لم أسأله عن الموضوع، وفي أغلب الظن أنه عمل بتلك المشورة، ومن المؤكد أن الرئيس البكر لم يُخيِّب ظنَّه على قاعدة «لا توصي حريصاً»، بدليل أن العراقيين بعد ذلك صرفوا النظر عن الموضوع ولم يعد أحد يتكلم عن محاكمة السادات لا من قريب ولا من بعيد. لكنه عندما أقام بعد ذلك مركزاً للدراسات خاصًّاً به في لندن باسم «المركز العربي للدراسات»، قطع صلته بي وراح يتجنبني، وهي حالة اعتدت عليها مع كثيرين من أصحاب الغايات.

•••

عدت الى باريس في الأسبوع الأول من شهر أيار/مايو 1977 وكانت «الدستور» قد باشرت الصدور قبل وصولي بقليل، لكن الانتقال الى لندن لم يتم إلاّ في منتصف شهر تموز/يوليو من العام ذاته بسبب تعقيدات نشأت من إصرار القنصلية البريطانية في باريس على عدم إصدار تأشيرات العمل التي تعطي صاحبها حق الإقامة الدائمة في بريطانيا، لأن مثل تلك التأشيرات يجب أن تصدر من القنصلية البريطانية في بيروت، مما يعني كما قالوا لنا العودة الى بيروت للحصول على التأشيرات من هناك. لكننا اعترضنا على ذلك لأن الأوضاع في لبنان في ذلك الوقت لا تسمح لنا بالعودة، وقام محامي المجلة في لندن بشرح الموضوع للوزارات المعنية هناك، فصدرت أوامر الى قنصلية باريس بإصدار التأشيرات بعد إخضاعنا لفحوص طبية. وهكذا كانت زيارتي الأولى في حياتي الى العاصمة البريطانية يوم 17 تموز/يوليو 1977 فاتحة مسيرة جديدة لم تكن أصلاً في الحسبان، لكنها امتدت الى أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، وما زالت مستمرة.

وأثناء وجودي في باريس جاء اليها صلاح البيطار من القاهرة ومعه ضابط فلسطيني سابق في الجيش السوري هو المقدم مجاهد سمعان ومعه عائلته المؤلفة من زوجته سلوى وولديه معاوية وأيهم وابنته ميسون، فعرَّفني الأستاذ صلاح عليه وطلب مني أن أساعده في إيجاد شقة سكنية ملائمة في محيط شقتنا في الحي اللاتيني، فتيسر ذلك سريعاً بمساعدة المستر روي المسؤول في الأكاديمية الأميركية في باريس. ولما كان مجاهد سمعان قد جاء من القاهرة برفقة صلاح البيطار فقد ظننت في البداية أنه من جماعته في الحزب، لكنني فوجئت عندما أبلغني مجاهد أنه كان في دمشق مديراً لمكتب اللواء صلاح جديد، وهذا ما أكده أيضاً أكرم الحوراني في مذكراته حيث قال إنه بعد الإفراج عنه من سجن المزة في عام 1965 أوفد اليه صلاح جديد مدير مكتبه الضابط

الفلسطيني مجاهد سمعان لتهنئته بالإفراج عنه.[27]

عندما انتقل مجاهد سمعان فيما بعد الى لندن، نشأت بينه وبيني علاقة صداقة وعمل دامت طويلاً، لكن في باريس بقيت العلاقة هامشية وسطحية. وفي تلك الفترة القصيرة نسبياً من الإقامة في العاصمة الفرنسية صرت أقضي وقتاً أطول مع صلاح البيطار ومع أكرم الحوراني أيضاً حيث عملت مع الصديق محمد الشابي على جمعهما معاً، فدعانا الشابي الى عشاء في مطعم أنيق بالقرب من كاتدرائية «سان سولبيس» ضمَّنا نحن الأربعة فقط، فكان اللقاء مؤثراً ومجدياً. وفي تلك الليلة طرحت على بساط البحث المسألة اللبنانية وتداعياتها، واقترحت أن يقوم الأستاذان البيطار والحوراني مع بعض الشخصيات العربية المرموقة، التي لها وزن معنوي في بلدانها، بالدعوة الى مؤتمر قومي عام لبحث المسألة اللبنانية وإصدار وثيقة تاريخية بشأن لبنان تكون منطلقاً لوقف الحرب وحل المشكلة بصورة نهائية.

ومما فاجأني أن أكرم الحوراني تحمَّس للفكرة وأيدها، لكن صلاح البيطار طرح تساؤلات حول إمكانية تطبيقها، مثل صعوبة تحديد الشخصيات المؤهلة، وصعوبة الاتصال بهم في بلدان مختلفة، والكلفة العالية لجمع عشرات الأشخاص في مؤتمر واحد، وكيفية التحضير للمؤتمر، وتحديد مكان انعقاده، لأنه من المتعذر عقده في بيروت، وهناك عوائق كبيرة أمام عقده في أي بلد عربي آخر، وعقده خارج الخريطة العربية في أي بلد أوروبي ستكون كلفته أعلى بكثير.

وبعد أيام دعوتهما معاً الى الغداء في منزلي حيث أعدت زوجتي مائدة لبنانية ـ شامية فأبديا حنيناً الى أيام بيروت ودمشق. يومئذ كانت علاقتي مع قصي صالح الدرويش قد توطدت كما ذكرت سابقاً، وكان والده ملحقاً ثقافياً في السفارة السورية في الكويت، وكانت أم قصي قد بعثت لنا من الكويت كيساً صغيراً من «الكما»، الذي يسميه الكويتيون «الفقع»، فأعدَّت زوجتي منه أطباقاً على أنواع شهية لم تسنح الظروف الى اليوم، بعد نحو أربعة عقود، أن نكررها. وفي تطوير لفكرة المؤتمر بشأن لبنان التي صب عليها صلاح البيطار ماءً بارداً، حسب التعبير الشعبي، في عشاء «سان سولبيس»، طرح محمد الشابي فكرة مؤتمر بالتجزئة في عواصم عربية متعددة، حيث يقوم الأشخاص المتقبلون للفكرة باللقاء فيما بينهم أو يصدرون بيانات تتضمن أفكاراً موحدة حول المسألة. هذه المرة صب أكرم الحوراني على الفكرة ماءً بارداً بالقول إنها سوف تكون حركة ضعيفة ومثيرة للانقسام وغير مجدية.

لكن صلاح البيطار أبلغني بعد عودته الى باريس من مقابلته الطويلة والمثيرة

(27) تقبل السلطات السورية انتساب الفلسطينيين الى الجيش السوري أسوة بالسوريين أنفسهم. ويقول أكرم الحوراني في مذكراته إن ذلك بدأ بالقرار الذي أصدره بهذا الشأن عام 1950 يوم كان وزيراً للدفاع في حكومة خالد العظم، وما زال العمل به مستمراً الى الآن.

للجدل مع الرئيس حافظ الأسـد في دمشقٍ مطلعٍ عام 1978، أنه أثـار معه الموضوع اللبناني، وطلب منه أن يُصدر إعلاناً رسمياً بعزمه على سحب القوات السورية من لبنان، وقال له، كما قال لي عندما التقيته بعد عودته من دمشق:

«ليس من الضروري أن يتم الانسحاب في وقت قريب، ولا حتى بعد سنوات، بل عندما تسمح الظروف في الوقت المناسب. لكن المهم هو إعـلان نية الانسحاب بصورة رسمية».

وقال لي يومها إن الرئيس الأسد لم يجب عليه في هذه النقطة، ولم تبدر منه خلال ذلك اللقاء الذي دام لساعات أي إشارة تدل على اقتناعه بتلك الفكرة، أو تدل على نية الانسحاب من لبنان. بل أكد له أن الفريقين المتقاتلين في لبنان يريدون بقاء القوات السورية ويطالبون بذلك، خشية أن يعودا الى الاقتتال.

أما عن الوضع السوري الداخلي فقد قال إن الرئيس الأسد موهوم ومصدِّق أن البلاد تنعم بالاستقرار، وأن نظامه هو أفضل الأنظمة الممكنة، وأن اعتماد الديموقراطية المفتوحة غير ممكن لأن الأمر يحتاج الى مستويات ثقافية عالية غير متوفرة في سوريا، فضلاً عن سهولة اختراق الأعـداء للبلاد من جراء الانفتاح الزائد. وقال إنه كلما فتح له باباً حول مسألة الوضع الداخلي أغلقه بتصوير المطالبة بالديموقراطية على أنها استدراج للصراعات المحلية والعودة الى الصراعات مع الدول العربية والأجنبية، وأن نظامه نجح في تحقيق الوحدة الوطنية الصحيحة من خلال الجبهة الوطنية. وفي مسألة الصراع مع إسرائيل، وانفراد مصر بالصلح معها وترك سوريا في العراء، قال إن الأسد يستند الى مقولة أن السلام، أي سلام، في المنطقة لن يتحقق من دون سوريا، وإنه يركن الى فهم الولايات المتحدة الأميركية لهذه «الحقيقة». وفي النتيجة قال إنه شعر بعقم أي مسعى للحوار في هذا الاتجاه، لكنه لم يقل لي على الأقل إنه نادم على محاولته تلك.

وكان البيطار قد أبلغني في مطلع عام 1978 أنه ينوي العودة الى دمشق في وقت قريب لاستكشاف الأوضـاع هناك، وإقامة حوار مع الرئيس حافظ الأسد بهدف إيجاد أرضية مشتركة تسمح بتوسيع نافذة الانفتاح على القوى السياسية الأخرى لتجنيب سوريا مخاطر الاحتقان السائد في ذلك الوقت. وفي البداية استغربت تفكيره بتلك الخطوة، لكنني فسَّرتها بأنها ناشئة من اعتراضاته التي سمعتها منه حول الوضع العراقي، مع أن بعض محازبيه كانوا موالين للعراق أو متواجدين فيه أو منتفعين منه، وسمعت بالتواتر تالياً أن منهم من أبدى استياءه من ذلك التوجه لدى البيطار. وبعد ذلك قيلت أشياء كثيرة في العودة المفاجئة وغير المنتظرة للبيطار الى دمشق ولقائه الرئيس حافظ الأسد مطوَّلاً، منها على سبيل المثال أن الرئيس الأسد استدرجه الى اللقاء في محاولة لجعله واجهة لنظامه يوازن بها وجود ميشال عفلق في بغداد كواجهة للنظام

العراقي.

لكنه عندما أبلغني ذلك لم يسألني رأيي، فشعرت أنه عازم على ذلك أو اتخذ قراره، وليس من حقي أن أعترض عليه أو أثنيه عنه. أو، على الأقل، شعرت بأنه إن لم يكن من ذلك نفع فإنه ليس منه ضرر. وبعد عودته من زيارة دمشق راح يبلغني عن حواره مع الأسد بالتقسيط عندما كنا نلتقي على فترات متباعدة بسبب وجودي في لندن، فأخبرني في البداية عن الشق اللبناني من الحوار، وتركيزه على ضرورة إعلان نيَّة الانسحاب العسكري من لبنان.

ولاحظت أن صلاح البيطار وأكرم الحوراني في اجتماعهما، على الأقل في حضوري، لم يذكر أي منهما ميشال عفلق بكلمة نقد أو حتى تحليل لمواقفه، وكأن لدى كل منهما رغبة دفينة في العودة الى التلاقي على الأسس التي جمعتهم في البداية. لكن في أحد الأيام جاء الصحافي اللبناني الراحل ميشال أبو جودة الى باريس فأقام له صديق لبناني غداءً في مطعم باريسي أنيق دعاني اليه، كما دعا محمد الشابي وصلاح البيطار الذي حضر ومعه ديبلوماسي سوري سابق لم أكن قد التقيته من قبل هو ناظم القضماني. وفي أحاديث التذكر والذكريات فتح ميشال أبو جودة موضوع لقائه مع ميشال عفلق في بيروت بعد يومين من الإنقلاب البعثي ـ العارفي ضد عبد الكريم قاسم في شهر شباط/فبراير 1963. يومئذ كان عفلق والبيطار معاً عائدين من مؤتمر آسيوي ـ إفريقي انعقد في مدينة «دار السلام» بتنزانيا، فطلب أبو جودة إجراء حديث مع عفلق حول التطورات العراقية لنشره في جريدة «النهار»، وفيه ألمح الى انقلاب مماثل وقريب في سوريا. فقال البيطار إنه في اليوم التالي ذهب الى غرفة عفلق في الفندق فوجده يقرأ حديثه في «النهار»، فتوقف عن القراءة وقال للبيطار:

«إن ميشال أبو جودة رجل خطير».

فأجابه البيطار، حسب روايته في باريس:

«أنت هو الخطير. إنه لم يكتب شيئاً لم تقله له. كان يجب عليك أن تحسب كلامك».

•••

إن انتقالي الى باريس لم يكن مدفوعاً بنيَّة الغربة أو الاغتراب، فكان شعوري أنني انتقلت من مقهى الى مقهى وليس من بلد الى بلد آخر بعيد. لكن مزاج الغربة بدأ يتسلل الى نفسي شيئاً فشيئاً بعد انتقال العائلة للعيش معي في لندن، مع أنني بقيت أقاومه بعزيمتين: الأولى، تحيُّن الفرص للعودة، والثانية رفض فكرة التجنُّس بجنسية أوروبية والحصول على جواز سفر غير لبناني. وسوف أشرح كيف تلاشت العزيمتان المذكورتان في السياق. ففي البداية كانت نيتي إبقاء العائلة في باريس بسبب مدارس الأولاد، وكنت أذهب لزيارتهم في العاصمة الفرنسية كل نهاية أسبوع، إما بالطائرة، أو بالقطار

والبحر. وكان هذا الروتين متعباً جداً خلال النصف الأول من عام 1978، لكن بعد التشاور مع زوجتي قررنا الانتقال النهائي الى لندن فور انتهاء العام الدراسي في منتصف تموز/يوليو من تلك السنة، بحيث يمكن للأولاد أن يخضعوا في الصيف الى دورة سريعة لتعلّم اللغة الإنكليزية يلتحقون بعدها بصفوفهم العادية، كما حصل بالفعل.

وبما أن الإنكليز ينظرون نظرة خاصة الى باريس، هي مزيج من العداء والإعجاب، فقد لقي الأولاد في مدارسهم معاملة خاصة، لا سيما أنهم يتقنون أكثر من لغة، وهو ما لم يكن شائعاً في بريطانيا يومئذ على نطاق واسع، أو على النطاق اللبناني نسبياً، فأطلق الطلاّب على نجلي الأصغر جهاد لقب «فرنشي»، أي «الفرنساوي»، فلبسه هذا اللقب حتى دخوله المدرسة الثانوية.

وما كدنا نستقر في لندن حتى زارنا صلاح البيطار وزوجته السيدة ملك، وقد قال لي إنه قصدني لأنه ينوى إصدار جريدة حرَّة في باريس ويريدني أن أرأس تحريرها. ومع تقديري لثقة الأستاذ صلاح بي، فإنني اعتذرت عن قبول تلك المهمة لأن ظروفي العائلية لم تعد تسمح لي بأن انتقل من جديد الى باريس، مترحلاً بين المدينتين في حركة مكُّوكية تشبه الدوَّامة. لكنه لم يقل شيئاً، وعاد الى باريس فكان ذلك اللقاء الأخير بيننا. وفي أغلب الظن أنه لم يكن يتوقع أن أخذله، ومن جهتي كنت أتوقع أن يتفهَّم ظروفي العائلية. وعلى كل حال، قام بإصدار جريدة «الإحياء العربي» وتبيَّن له أنه ما كان بحاجة لي، وربما لغيري أيضاً.

وأود هنا أن أشير الى ما كان متداولاً عن إصداره الجريدة المذكورة، أو على الأقل ما علمته من مصادر مختلفة، ثم عن اغتياله على باب مكتبه في العاصمة الفرنسية وإقفال التحقيق الفرنسي من غير نتيجة لتبقى التهمة لاصقة بالنظام السوري. فقد قيل، خصوصاً في دائرة أكرم الحوراني، أن البيطار تلقى مساعدة مالية من وزير الإعلام الكويتي الشيخ جابر العلي، وكانت تربطه به صداقة أشرت اليها في الحديث عن وجودي في الكويت من أواخر 1976 حتى أواخر ربيع 1977. لكنني علمت تالياً أن البيطار لم يأخذ مالاً من وزارة الإعلام الكويتية، ولا من الشيخ جابر شخصياً، لكن جماعة من رجال الأعمال اللبنانيين والفلسطينيين المقربين من جابر العلي جمعوا فيما بينهم مبلغاً من المال مخصصاً لإصدار الجريدة.

وقبل إصدار الجريدة، وربما بعد ذلك أيضاً، كان الأستاذ البيطار يتردد على المملكة السعودية لوجود ابنته ووحيدته مها في المملكة لكونها متزوجة آنذاك من الشاب الطرابلسي مظهر العمري العامل في السعودية. وقد راجت في بعض الأوساط السورية المتحفظة على مواقف البيطار حينها بأنه عندما كان يزور السعودية كان يتردد على الشيخ عبد العزيز التويجري، نائب رئيس

الحرس الوطني السعودي، وهو ولي العهد آنذاك، والملك لاحقاً، الأمير عبد الله بن عبد العزيز. وتردد يومها أن التويجري دعم جريدة «الإحياء العربي» بمبلغ نصف مليون دولار.

لكن حادثة اغتيال صلاح البيطار في منتصف عام 1980، أمام مكتبه في باريس، أخذت اتجاهاً واحداً وفرضية واحدة، لأن ظروف الاغتيال ألبست التهمة للنظام السوري. وهي من هذه الناحية تشبه ما جرى بالنسبة الى اغتيال رئيس الحكومة اللبنانية الأسبق رفيق الحريري من حيث توجيه التهمة في اتجاه واحد، وانسياق الموجة الإعلامية في هذا الاتجاه.

طبعاً الأدلة الظرفية، أو السطحية، تلقي ظلالها بقوة باتجاه اتهام النظام السوري، لأن المقال الأخير الذي كتبه البيطار في الجريدة بعنوان «عفوك شعب سوريا العظيم»، ومقالات أخرى سبقته، تشير الى أنه قطع جميع خطوط العودة وقرر الدخول في معركة مفتوحة مع نظام حافظ الأسد. ولم يكن أحد مستعداً، لا في ذلك الوقت ولا حتى الآن، أن يأخذ بغير هذه الفرضية.

وعندما ذهبت وزوجتي لزيارة السيدة ملك البيطار في منزلها بباريس ربيع عام 1990، برفقة الصديق محمد الشابي، لم أشأ أن أتحدث معها في الموضوع. لكنني عندما زرت دمشق في أواخر شهر كانون الأول/ديسمبر من عام 1992، وذلك لأول مرة منذ عام 1966، وكنت أتمشى في ردهة فندق »شيراتون« حيث كنت نازلاً، سمعت سيدة تناديني باسمي فتلفَّتُّ الى مصدر الصوت فإذا بها السيدة ملك، وكانت جالسة في زاوية من الردهة مع شقيقها الدكتور بيطار وآخرين من العائلة، فعرَّفتني على شقيقها، واقتصر الحديث على المجاملات. لكنني فوجئت بوجود السيدة ملك في دمشق، وربما هي أيضاً فوجئت بوجودي هناك.

وبعد لقاء المصادفة هذا مع السيدة ملك في دمشق رحت أتساءل بيني وبين نفسي ما إذا كانت لدى أرملة صلاح البيطار معطيات جديدة عن اغتيال زوجها تحمل إعادة نظر في التهمة الموجهة الى النظام السوري واللاصقة به أبداً. وقلت في نفسي إن هذا الموضوع جدير بالملاحظة، مما يطرح تساؤلاً حول ما إذا كانت هناك علاقة بين اغتيال البيطار وبين الحوادث الدامية التي شهدتها مدينة حماة السورية بعد سنة ونصف السنة، كما هو السؤال القائم الآن عن علاقة اغتيال رفيق الحريري بإخراج الوجود السوري من لبنان، وبداية مسلسل من المؤامرات ضد سوريا.

وما يهمني في هذا السياق هو استبيان ما راح بعد الاغتيال عن علاقة ما للشخص الذي عرَّفني عليه صلاح البيطار نفسه، ونشأت بينه وبيني تالياً صداقة عائلية وطيدة وعلاقة عمل، وأقصد به مجاهد سمعان. ذلك أن البيطار حضر الى مكتبه في باريس في الصباح الباكر من يوم 21 حزيران/يونيو من

عام 1980 بناءً على موعد مع الديبلوماسي السوري زهير العقَّاد رتَّبه مجاهد سمعان.[28]

وزادت الشكوك المتداولة حول مهمة العقاد الذي حضر الى الموعد المحدد مع صلاح البيطار ليجد أن الرجل قد اغتيل وأن الشرطة الفرنسية تضرب طوقاً حول المكان، فخشي أن توقفه الشرطة للتحقيق معه، فقفل راجعاً في أول طائرة الى لندن حيث كان يقيم. وكنت وقتها أبحث عن بيت أشتريه في ضواحي لندن فاتصل بي الزميل السوري عبد الله المعرَّاوي العامل وقتها مذيعاً في هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) وعرض علي أن أشتري بيت زهير العقّاد في ضاحية »أوستارلي« غرب لندن، في مكان ليس بعيداً عن منزلي الحالي، لكنه في ذلك الوقت لم يكن في متناولي المبلغ المطلوب، أو القدرة على استدانة مثل ذلك المبلغ.

منذ مطلع سنة 1980 كان قد انقطع اتصالي مع مجاهد سمعان بسبب سفري الى دبي للعمل هناك في تأسيس جريدة «البيان» التابعة لحكومة إمارة دبي، ولما عدت من هناك قبل شهر فقط من اغتيال صلاح البيطار لم تسمح الظروف بالتواصل معه من جديد إلاّ بعد سبع سنوات تقريباً. لكنني طوال فترة الانقطاع تلك لم أصدِّق أي رواية عن إمكانية ضلوع مجاهد سمعان في الأمر، وأسفت أشد الأسف لأن الأستاذ أكرم الحوراني في مذكراته تأثر بتلك الشكوك وزاد عليها بأن مجاهد سمعان كان يعمل مع السعوديين والأميركيين. وفوق ذلك أقول إن زهير العقَّاد الذي لا أعرفه ولم أتعرَّف عليه، بل تعرَّفت على شقيقه مصطفى في لندن عند الزميل غسَّان زكريا، ليس أيضاً ممن يدخلون في تلك المداخل. لكن مما لا شك فيه أن شخصاً ما يعمل لدى جهاز استخبارات جهة ما، علم بشكل من الأشكال بالموعد الصباحي الباكر بين البيطار والعقَّاد، فسبقهما الى المكان وارتكب جريمته قبل حلول موعد اللقاء بدقائق.

كنت أعرف مدى محبة مجاهد سمعان للأستاذ صلاح وتقديره له، ولا أنسى أنني تعرَّفت عليه عن طريقه عندما قدما سوياً من القاهرة الى باريس بعد وصولي اليها. بل عندما عملنا سوِّياً في لندن خلال السنوات الأخيرة من الثمانينات، حيث أسَّسنا النشرة الاقتصادية والمالية باسم «الراصد المالي» باللغتين العربية والإنكليزية، وقمنا معاً ببعض العمليات التجارية بالأسهم والأوراق المالية في بورصتي لندن ونيويورك عن طريق «فيليبس أند درو» البريطانية و «فيداليتي» الأميركية، كما سأروي لاحقاً، فتحت معه جميع

---

(28) زهير العقَّاد ديبلوماسي محترف في الخارجية السورية وهو شقيق المخرج السينمائي الراحل مصطفى العقَّاد الذي قُتل مع ابنته في تفجير إرهابي استهدف أحد فنادق العاصمة الأردنية عمَّان عام 2005، وقيل إنه طلب من مجاهد سمعان أن يرتِّب له موعداً مع صلاح البيطار لاستشارته في فيلم كان شقيقه مصطفى، حسب الأقاويل الشائعة، ينوي إخراجه عن حياة جمال عبد الناصر على غرار فيلمه عن المجاهد الليبي أسد الصحراء عمر المختار.

المواضيع المتعلقة به وبالحوادث التي كان فيها أو شاهداً عليها، من عمله في مكتب صلاح جديد، الى سجنه وتسريحه في عهد الرئيس حافظ الأسد، ثم انضمامه الى «منظمة التحرير الفلسطينية»، وعلاقته مع ياسر عرفات، ودوره في معارك مخيَّم تل الزعتر وأثناء سقوط المخيَّم، وتعيينه مندوباً للمنظمة في بلغاريا، حتى مغادرته لبنان الى أوروبا ومنها الى كندا حيث حصل على الجنسية الكندية مع عائلته. وكان آخر لقاء بيننا في السنوات الأخيرة عندما استضافني وزوجته سلوى في بيته بمدينة بوسطن الأميركية مع زوجتي من 15 الى 18 كانون الأول/ديسمبر من عام 2001، وكانت الأجواء الأميركية لا تزال قلقة من جراء تفجيرات نيويورك قبلها بأقل من ثلاثة أشهر، لا سيما أن بعض الطائرات التي تفجَّرت بأحد أبراج مركز التجارة العالمي انطلقت من مطار «لوغانو» الذي نزلنا فيه في بوسطن. وكنا يومها في طريقنا الى مدينة «هيوستون» في «ولاية تكساس»، حيث كان ابننا عامر يعمل ويقيم، لقضاء أعياد الميلاد ورأس السنة معه ومع عائلته.

وأقول مرتاح الضمير إن كل ما قيل عن أي دور لمجاهد سمعان، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بمقتل صلاح البيطار أو التسبب فيه، لا يعدو كونه تكهنات في أحسن الظنون، أو اختلاقات وتشويهات مغرضة في أسوئها. لكن الاستقراء المنطقي يفضي الى القول بأن الذين قاموا بتلك العملية كانت غايتهم إلصاقها بالنظام السوري، وكان لهم ما أرادوا.

لكن هناك قرائن أخرى تُشير الى استبعاد تلك التهمة عن السوريين، منها على سبيل المثال، وهو ما أعرفه عن قرب، ما كتبه سليم اللوزي في مجلة «الحوادث» بعد مقتل شقيقه مصطفى على شاطىء مدينة طرابلس، واتهم يومها استخبارات النظام السوري بقتله. كنت وقتئذ أعمل مع اللوزي في «الحوادث». ففي المقال الذي نشره بعنوان «قال لي صديقي الدمشقي»، ويقصد به صلاح البيطار، قال اللوزي إن صديقه حذَّره من المغالاة في موقفه من سوريا، لأن هناك في العالم العربي أسوأ بكثير مما يجري في سوريا. ثم قال له البيطار:

«إن الاعتراض هو على الرهان بأن في الإمكان إسقاط نظام حافظ الأسد بسهولة».

فإذا كان البيطار يعرف ذلك وينصح به الآخرين، فهل من المعقول القول بأنه انخرط في مشروع لإسقاط نظام الأسد، أو عكف على السير في هذا الطريق، ولا سيما أن سليم اللوزي رد عليه بما يؤكد معرفته بالوضع السوري حيث قال في المقال ذاته:

«لست وراء إسقاط حكم حافظ الأسد، فأنا لا أتمنى هذا، وأعرف الثمن الذي ستدفعه سوريا إذا استمر الصراع الدموي المجنون الدائر اليوم».

هذا الكلام كتب في نهاية عام 1979، وهو يظهر الآن بأجلى صوره بعد ثلاثة

عقود ونيِّف. هذا مع العلم أن السوريين بعثوا اليه بمن يؤكد له أنه لا علاقة لهم بمقتل شقيقه في طرابلس.

ثم إن صلاح البيطار عندما عاد من تلقائه الى دمشق وسط معارضة واعتراض عدد من المقربين منه، وجلس لساعات مع الرئيس الأسد يحاوره ويناقشه، كان يعتقد جازماً بأن الحوار هو الوسيلة الوحيدة لتطوير النظام السوري وتحسينه ووضعه في الاتجاه الصحيح، وأن أي حل آخر، خصوصاً اللجوء الى العنف والى السلاح، سوف تكون كلفته عالية جداً، وفوق ذلك سوف ينتهي الى تدخل دولي والى طاولة حوار بعد أن تكون سوريا قد فقدت سيادتها فوق بقية خسائرها.

ومن القرائن التي جاءت عرضاً بعد سنوات، ما طرحه صحافي أميركي في مجلس خاص، وكان من الحاضرين شخص سوري معارض مقرَّب من الإخوان المسلمين، من أنه كان لصدَّام حسين مصلحة في التخلص من الطروحات التي بدأ صلاح البيطار يطرحها، مما «بدأ يفعل فعله في تسميم عقول البعثيين العراقيين والبعثيين السوريين المقيمين في العراق». لم يقل إن النظام العراقي هو الذي قتله، وهذا، في رأيي، احتمال بعيد لكنه غير مستبعد. ولا ننسى أن علاقة صدام حسين بالفرنسيين في ذلك الوقت كانت علاقة مميَّزة، وبالتالي فإنه كانت للعراقيين قدرة أوسع على الحركة في باريس، أو على الأقل كان لهم مجال أوسع للحصول على المعلومات.

•••

لاحظت مع مرور الوقت في لندن أنه كلما راجت مجلة «الدستور» وأخذت موقعاً متقدماً في الصحافة العربية من خلال طروحاتها المثيرة للجدل ونفسها الليبرالي، كلما زاد تضييق الخناق عليها في بغداد. وقد وصل الأمر أخيراً في مطلع صيف 1979 الى درجة أن القائمين على الكواليس الإعلامية في بغداد طلبوا من صاحبها علي بلوط بيعها لهم من غير علمي ومن وراء ظهري، وعندما بلغني الأمر كان قد فات الأوان. وهذا ما جعلني أعتقد بأن ذلك كان موجهاً ضدي أكثر مما كان موجهاً الى صاحب المجلة الذي بقي صديقاً لهم حتى النهاية، أي الى ما بعد سقوط نظام صدام حسين بفعل الاحتلال الأميركي للعراق.

ورحت أتقصى الأمر من بعض الذين كانت لهم علاقة بالأمر في لندن فاتصلت أولاً بالبعثي السابق رغيد الصلح لأستفسر منه عن الموضوع فأكد لي إنه لا علاقة له بالأمر، وكل ما فعله هو أنه رشَّح لهم شخصاً طلبوا منه أن يكون رئيساً للتحرير فرشَّح لهم شخصاً لبنانياً يدعى يوسف شويري كان يدرس في الجامعات البريطانية، وهو ما تم فعلاً. وعلمت أيضاً أن القائمين الجدد على «الدستور» سودانيون، وأن صفقة البيع تمت باسم الزعيم السياسي السوداني

المعارض في الخارج لنظام جعفر نميري في الخرطوم، الشريف حسين الهندي الذي كان متحالفاً مع البعثيين السودانيين في ذلك الوقت، وكان النظام العراقي يموِّل نشاطه السياسي في الخارج، بذريعة أن تكون «الدستور» صوتاً ناطقاً بلسان المعارضة السودانية. كنت أعرف عن الشريف الهندي أنه زعيم سياسي محترم سبق له أن تقلّد في الخرطوم مناصب نيابية ووزارية مرموقة ترك بصمات إيجابية فيها، وأنه كان في البداية من محازبي «الحزب الوطني الديموقراطي» (الختمية)، لكنه قريب أيضاً من المهديين. وقد تعرَّفت عليه تالياً عندما انتقلت الى مجلة «الحوادث» حيث أجريت معه حديثاً سياسياً حول الشأن السوداني. لكنني بدأت أتبين أن الشريف الهندي كان مجرد واجهة للمجلة، وأن القائمين عليها هم في بغداد.

والشخص الذي كان وراء الصفقة في بغداد، أو الذي تمت الصفقة من خلاله، هو بدر الدين مدّثر، عضو القيادة القومية لحزب البعث، ومقره في بغداد. والمدَّثر له امتياز لكونه أول سوداني انتسب الى حزب البعث وهو طالب في جامعة الخرطوم، وما لبث أن شكَّل أول خلية للحزب منه ومن محمد بشير، والمحامي شوقي الملاسي، والمرحوم محمد سليمان الذي أصبح عضواً في القيادة القومية الى حين مصرعه بحادث الطائرة في مطار جدة كما سلف القول، بينما كان المدَّثر يومها أميناً قطرياً للحزب في السودان، لكنه بعد وفاة محمد سليمان أخذ مكانه في القيادة القومية وانتقل الى بغداد. وكنت أعرف المدَّثر منذ أن تعرَّفت عليه في بغداد عن طريق محمد سليمان قبل سنة تقريباً من مقتله، لكنني لم أكن أعرفه جيداً كما كنت أعرف رفيقه الراحل. وبعد الاحتلال الأميركي لبغداد عاد بدر الدين المدَّثر الى الخرطوم حيث توفي بعد مرض عضال في عام 2006، لكن منظمة الحزب كانت قد تشرذمت وتلاشى دورها وتأثيرها. ولا أدري أين قرأت في تقويم له بعد وفاته جاء فيه إن بدر الدين المدَّثر هو الذي أشرف على تأسيس البعث في السودان وهو الذي أشرف على انهياره!

لكنني كنت أعرف جيداً رفيقه الآخر المحامي شوقي الملاسي المقيم في لندن يومها مع زوجته صفيَّة، ومعرفتي به تعود الى أيام بيروت ثم تواصلنا من جديد في لندن عن طريق رغيد الصلح. وعندما علمت ببعض تفاصيل صفقة «الدستور» اتصلت به وتواعدنا على اللقاء في فندق «رويال غاردن» في منطقة «كنزينغتون» على مقربة من مكاتب المجلة، وكانت معي زوجتي، فواجهته بالأمر وعاتبته بشدة لأنه لم يخبرني به من قبل، وقسوت عليه في الكلام عن العقوق والغدر بعد كل الخدمات التي كنت أسديها له ولغيره من معارضي النميري في ذلك الوقت، الى درجة أن زوجتي تضايقت من كلامي وطلبت مني أن أهدىء روعي وأن نغادر المكان، وكان ذلك اللقاء هو الأخير مع شوقي الملاسي، فلم

أعد أعرف عنه شيئاً.

وعندما زرت بغداد برفقة السيدة أمية اللوزي والزميلة هدى الحسيني في شهر نيسان من عام 1981، دعاني علي غنَّام،العضو السعودي في القيادة القومية ، الى الغداء في منزله فكنا وحدنا لا ثالث معنا، ولأول مرة تذوقت أكلة «الكبسة» السعودية التي أعدتها زوجته. وبعد الحديث عن تأثير التقارب العراقي - السعودي على نشاط البعثيين السعوديين ومطبوعتهم «الطليعة العربية»، التي كانت مصدراً مهماً لمتابعي مجريات الأمور في مملكة آل سعود، فاتحته بموضوع مجلة «الدستور»، ولماذا حدث ما حدث، فقال لي إنه شخصياً لم يكن راضياً عما جرى أو مؤيداً له، وأبلغني أنه قال للرفاق في القيادة:

«هذه المجلة معنا، فبأي منطق نشتريها لتكون معنا»!

لكن ما حدث قد حدث، وأزلت الموضوع من ذهني نهائياً ولم أفتح الأوراق المتضمنة لما جرى في تلك المرحلة إلاّ عندما عكفت بعد نحو ثلاثين سنة على وضع هذا الكتاب. أما العبرة التي استخلصتها من تلك التجربة البائسة فهي أن ما يُسمَّى بالصحافة العربية، بما فيها الصحافة اللبنانية، هي كذبة كبرى، والأكذب منها الزعم بأن الصحافة المهاجرة الى الغرب قد هاجرت طلباً للحرية، فكانت القيود والارتباطات والارتهانات التي وقعت فيها أشد وطأة مما كانت عليه وهي في أوطانها، فباتت تعتمد اعتماداً مطلقاً على الأموال التي تأتيها من هذا النظام أو ذاك. وقد شرحت في السياق جوانب من تجربتي الصحافية في بيروت، لكنني أقول إن الصحافة التي كانت تسمي نفسها بأنها «مهاجرة»، وقد تلاشت الآن أو عاد بعضها من حيث أتى، ما هي إلاّ دكاكين فتحها المتزاحمون على أموال النفط العربي يميناً ويساراً.

ومع ذلك فإنني لست نادماً على مسيرتي الصعبة في المضمار الصحافي، خصوصاً أنني حاولت أن أقيم منبراً حراً لا علاقة له بأي نظام عربي أو مصالح تحدُّ من حرية الكتابة، كما سأبيِّن في فصل لاحق.



II

سوار الذهب!

كانت جولتي في الاتحاد السوفياتي ربيع عام 1971 من المحطات البارزة في توجهاتي السياسية والفكرية التالية، وفي نظرتي الى العالم والى السياسات الدولية. فقد شاهدت على الطبيعة ما كنت أتصوره في الخيال، فلم يكن الواقع مطابقاً للتصور تماماً، لكن ذلك لم يغيِّر من يقيني بأن روسيا تحديداً هي الضمانة الأكثر موثوقية للشعوب المغلوبة على أمرها. وقد قلت ذلك للعراقيين بشخص مدير المخابرات العامة الدكتور فاضل البراك في أواسط ثمانينات القرن الماضي والحرب مع إيران على أشدها، وقبل أن تظهر بوادر الإنقلاب في الموقف الأميركي من خلال ما سمي تالياً «فضيحة إيران ـ كونترا»، وهو ما سأتناوله لاحقاً.

كانت موسكو هي المحطة الأخيرة في جولتنا التي بدأت من أرمينيا فالقوقاز فمدينة لنينغراد (سانت بطرسبورغ) لؤلؤة الشمال، وعاصمة الثقافة والفنون، التي يمكن وصفها بأنها «باريس الروسية». وكل الذين يزورون تلك المدينة اللطيفة الراقية يقصدون أول ما يقصدون فيها متحف «ارميتاج» في «قصر الشتاء» حيث في ساحته ذلك العامود الرخامي الذي لم يهتز من مكانه طيلة 900 يوم من الحصار والقصف الألماني المتواصل على المدينة خلال الحرب العالمية الثانية الذي تشهد على فظاعته المقبرة الوطنية المهيبة حيث يرقد مئات الألوف من ضحايا تلك الحرب.

أما الرحلة من سانت بطرسبورغ الى موسكو فكانت في قطار منتصف الليل السريع ويطلقون عليه «السهم الأحمر» وفيه مقصورات للمنامة. وتستمر هذه الرحلة ثماني ساعات من منتصف الليل حتى الوصول الى موسكو في الثامنة صباحاً مع بداية النهار. وكان من الصعب على مسافر مثلي لم يألف السفر في القطارات أن ينام كثيراً. فالرحلة الوحيدة التي ركبت فيها قطاراً من قبل هي تلك التي نظمها برنامج الماجستير الذي كنت في عداده في الجامعة الأميركية عام 1969 للمنتسبين الى البرنامج في رحلة قصيرة بالقطار اللبناني السلحفائي، الذي ينفث الدخان، امتدت من محطة الحدث الى محطة بحمدون

قبل توقيف العمل به تالياً، مصطحباً معي ابنتي ريما وابني عامر لأنهما كانا يفرحان ونحن نازلون بالسيارة من البقاع الى بيروت كلما صادف مرور ذلك القطار في منعرجات الجبل وهو يصفِّر وينفث الدخان.

لم أنم كثيراً في قطار منتصف الليل فبقيت مشدوداً الى مشهد الغابات التي يضيئها الثلج على امتداد آلاف الكيلومترات. وكانت سلوانا في بداية الليل بقايا ما أحضره الزميل توفيق المتني معه من بيروت من مكسرات البندق والفستق الحلبي والقضامي وبزر اللقطين المحمّص، مع بضعة كؤوس من الكونياك، لأن المتني نسي أن يحمل معه عرقاً زحلاوياً. وكنا، توفيق وأنا، نحتل مقصورة واحدة بسريرين. وعندما أتذكر تلك الرحلة اليوم بعد أكثر من أربعة عقود، تخطر ببالي قصيدة للشاعر العراقي مظفر النوّاب يقول فيها: «مرينا بيكم حمد واحنا بقطار الليل»، لأن قطار الليل يثير الشجون بالفعل ويذهب بأفكار المسافر مسافات أبعد وبسرعة تفوق سرعة القطار، خلافاً للسفر بالطائرة حيث تختنق الأفكار وتطغى عليها الهواجس.

وقد فعل الكونياك فعله قليلاً في تثقيل جفوننا، لكنه لم يحملني الى نوم ثقيل كنت أتمناه. ولست أنسى مشهد طلوع الفجر علينا حيث كان النهار يتسلل من وراء العتمة عبر أشعة باهتة امتصها الضباب لتصلنا بقاياها متباطئة وكأنها تنساق رغماً عنها من طول رقاد. ثم أصبحت أكثر جرأة وسخاءً بالضوء مع اقترابنا من مدينة موسكو عاصمة الشيوعية العالمية والحركات الاشتراكية والأممية. وفي موسكو، كما في لنينغراد، كانت كوبا الكاسترووية تتمتع بحضور دائم من خلال سيجارها الفاخر الذي كان وقتها أرخص من الفجل، كما يقال، بحيث يمكن القول بأن روبلات الرفيق توفيق المتني التي أحضرها من برج حمود تكفي لشراء حمولة طائرة من شتى أصناف السيجار الكوبي، الذي حملنا منه الكثير الى بيروت على كل حال. فقد أهديت رياض طه وقتها من تلك الحمولة صندوق «مونت كريستو»، والصديق إحسان نظام الدين صندوق «بارتاغاس» بأنابيب زجاجية، وقدمت صندوق «إتش أبمان» لميشال عفلق الذي كان يفضل هذا النوع من السيجار ولو انه لم يكن يدخن إلاّ لماماً. وأذكر أن سعر الصندوق الواحد من السيجار الكوبي في روسيا كان وقتها نحو ثمانية روبلات، أي ما يعادل 12 دولاراً أميركياً بالسعر الرسمي، أو دولارين فقط بروبلات توفيق المتني المستحضرة من برج حمود[1].

---

(1) بعد المقاطعة الأميركية لكوبا في مطالع الستينيات من القرن العشرين، وانضمام كاسترو الى منظومة الدول الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفياتي، وتدفق المساعدات الروسية الى تلك الجمهورية الفتية، يبدو أن الكوبيين استخدموا إنتاجهم الوطني من السيجار والسكر للمبادلة مع الدول الاشتراكية. ويوم زرت الاتحاد السوفياتي في مطلع السبعينات، وكنت حديث العهد بتدخين السيجار، وجدت أن السيجار الكوبي بمختلف أشكاله وأنواعه متوفر بالرخص في كل مكان وبكميات غير مألوفة.

وعلى الفور يشعر المسافر في روسيا بالفارق بين عاصمة الشمال سانت بطرسبورغ وبين موسكو عاصمة الاتحاد. ويمكن القول، مصداقاً لما كان يشاع عن رأي لينين بالأمر، بأن سانت بطرسبورغ مدينة أوروبية غربية، وموسكو مدينة شرقية آسيوية. الأولى تمتاز بالرقّة والثانية لها رهبة. الأولى عاصمة القياصرة والطبقات الأرستقراطية، والثانية عاصمة ستالين والأجهزة القمعية، حيث يسيطر على قلبها الكرملين مقر السلطة الحاكمة والساحة الحمراء مثوى لينين وميدان استعراض هيبة السلطة. لكن فوق هذه وتلك تعلو الكنائس الأرثوذكسية وكنوزها التاريخية التي كانت على الدوام الصخرة التي تكسرت عليها رماح الغزاة، وأبواب الجحيم لا تقوى عليها.

ولئن قال المؤرخ البريطاني العالمي إدوارد غيبون، كما مر، أن اعتناق روسيا للمسيحية قد حمى أوروبا من الشرق الى الأبد، فإن اعتناقها للأرثوذكسية قد جعلها «روما الثالثة»، بعد سقوط العاصمة الرومانية الغربية «روما الأولى» في أيدي الغزاة البرابرة في القرن الخامس، وبعد سقوط «روما الثانية»، القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية بيد الفاتحين العثمانيين في القرن الخامس عشر. وقصة اعتناق روسيا للأرثوذكسية دون غيرها من الأديان لم يكن بالمصادفة أو بالتبشير، بل كان قراراً سياسياً وثقافياً مدروساً بناءً على دراسة مقارنة من قبل فلاديمير، أمير موسكو، في عام 989[2]. فقد قرر فلاديمير أن يكون للشعب الروسي ديانة مثل بقية الشعوب المتمدنة في ذلك الوقت، فشكل هيئة من كبار القوم والمستشارين وكلفها بالبحث عن ديانة للشعب الروسي، فأوفد الوفود حول العالم المعروف آنذاك للبحث عن الديانات القائمة فيه. وبنتيجة هذا التقصي قال الباحثون للأمير إنهم وجدوا أربع ديانات ممكنة هي: اليهودية، والإسلام، والمسيحية الكاثوليكية، والمسيحية الأرثوذكسية. وقالوا له في المقارنة إن اليهود منعزلون متقوقعون لا يدخلون في دين أحد ولا يدخل أحد في دينهم، فرفض الخيار اليهودي. وقالوا له إن الإسلام دين رحب قابل للاستيعاب لكنه يفرض محرمات على أتباعه وأهمها أنه يمنع الشراب، وأتباعه يكثرون من الصلاة، فقال إن الشعب الروسي يشرب أولاً ويصلي ثانياً، فرفض الخيار الإسلامي. وقالوا له إن المسيحية الكاثوليكية كما شاهدوها في الفاتيكان لها طقوس احتفالية جيدة، ولها قواعد إيمانية تشد عصب الناس، لكنهم يُخضعون أمراءهم لكهنتهم، فرفض الخيار الكاثوليكي من غير نقاش. وقالوا له إنهم ذهبوا

(2) احتفل الروس بالألفية الأولى لاعتناق المسيحية الأرثوذكسية عام 1989 في آخر سنة من الحكم السوفياتي بقيادة ميخائيل غورباشوف الذي شارك في الاحتفالات بتلك المناسبة. ومن بعد ذلك راح الزعماء الروس في المرحلة ما بعد السوفياتية يحضرون المناسبات والأعياد الدينية في الكنائس، ومنهم مثل الرئيس فلاديمير بوتين من عاد لممارسة «التصليب» باليد على الصدر في الكنيسة، وهو ما لم يكن مألوفاً في المرحلة السوفياتية.

الى القسطنطينية، عاصمة الأرثوذكسية في ذلك الوقت، وحضروا قداساً إمبراطورياً في كاتدرائية آيا صوفيا، فوجدوا أنهم يقدِّسون امبراطورهم ويجلّونه، ثم إن ألحانهم البيزنطية الكنسية تجعلك في عالم مختلف، فلا تعود تدري ما إذا كنت على الأرض أم أنت في السماء. فقال لهم هذا هو المبتغى... وهكذا كان.

•••

من محطة القطار في موسكو تمام الساعة الثامنة صباحاً من يوم الثامن والعشرين من نيسان عام 1971، توجهنا الى الفندق المقرر لنا في العاصمة السوفياتية، وهو فندق «ناسيونال» على طرف الساحة الحمراء، وهناك قررنا أن نبدأ يومنا بزيارة الى السفارة اللبنانية حيث استقبلنا السفير اللبناني آنذاك نعيم أميوني، وكان وقتها على موعد مع السفير العراقي شاذل طاقة[3]. وفي ذلك اللقاء العابر مع السفير العراقي، دعاني لوحدي الى الغداء في منزله في اليوم التالي. وألح عليّ شاذل طاقة أن أمدد زيارتي الى موسكو أسبوعاً إضافياً وأوعز الى سكرتيرته الروسية أن تتصل بالخارجية السوفياتية لإبلاغها بغية تمديد التأشيرة والإقامة في الفندق، قائلاً إنه متوجه في اليوم التالي الى مدينة أوديسا على البحر الأسود لتسلم باخرة اشتراها العراق من الاتحاد السوفياتي، وإنه سوف يغيب يومين فقط، ولذلك يريدني أن أبقى في موسكو الى حين عودته.

وكان معنا على الغداء في منزل السفير العراقي اثنان من طاقم السفارة لا أعرفهما من قبل، كان أحدهما فاضل البراك معاون الملحق العسكري الذي طلب منه السفير طاقة الاهتمام بي في غيابه، وكان البراك وقتها يدرس أيضاً في موسكو استعداداً لأطروحته للدكتوراه بإشراف البروفيسور المستشرق

(3) شاذل طاقة من أبرز كتاب الشعر الحديث في العراق الى جانب بدر شاكر السيّاب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وغيرهم... وهو من أهل مدينة الموصل وله عدة دووابن شعرية أولها «المساء الأخير» (1950)، وبعده «ثم مات الليل» (1963)، وكان ديوانه الأخير بعنوان «الأعور الدجّال والغرباء» (1969). قبل عمله في السلك الديبلوماسي شغل مناصب رفيعة منذ تسلم حزب البعث الحكم في 1963، أولها مديرية «وكالة الأنباء العراقية»، ثم تعيّن وكيلاً لوزارة الإعلام بعد عودة البعث الى السلطة في عام 1968 قبل نقله الى وزارة الخارجية ليكون وكيلها. وبعد ذلك تم تعيينه سفيراً لدى الاتحاد السوفياتي، وكنت تعرفت عليه في بغداد قبل لقائي به في السفارة اللبنانية في موسكو. وبعد ثلاث سنوات من ذلك اللقاء أصبح وزيراً للخارجية، وقد توفي فور وصوله الى العاصمة المغربية الرباط لحضور مؤتمر لوزراء الخارجية، فقالت الرواية الرسمية إنه توفي إثر نوبة قلبية حادة مفاجئة، لكن شائعات قوية انطلقت بعد ذلك تفيد بأنه مات مسموماً، بدس السم له في الطعام. وفي عملية تفجير السفارة العراقية في بيروت أواخر عام 1981، قُتل شقيقه الأصغر حارث طاقة الذي كان ملحقاً صحافياً فيها، وقتلت معه معاونته السيدة بلقيس الراوي زوجة الشاعر السوري نزار قباني. وكان شاذل طاقة على رأس مجموعة أصدقاء نزار الذين خطبوا له بلقيس من والدها في بغداد. وفي ذلك التفجير قُتل أيضاً شخصان من جيراننا في جب جنين هما أسعد الحداد ونجله الأكبر اللذان كانا في مبنى السفارة بصدد معاملة رسمية. والمعروف أن المرحوم شاذل طاقة هو خال الصحافي والإعلامي العراقي سعد البزاز.

كوتلوف،[4] وقد أصدرها بعد سنوات في كتاب بعنوان: «دور الجيش العراقي في حكومة الدفاع الوطني والحرب مع بريطانيا عام 1941»[5].

وفي تلك المناسبة وفي الأيام التالية نشأ انسجام شخصي وفكري بيني وبين فاضل البراك فبقي ملازماً لي طيلة الأيام التسعة من إقامتي في موسكو، نتغدى سوياً ونتعشى سوياً ونسهر سوياً. وتحولت هذه الألفة القصيرة الى صداقة دائمة استمرت سنوات طويلة، وكانت الأحاديث والمناقشات والمراسلات بينه وبيني صريحة تكاد تكون بغير تحفظ حتى في بعض الأمور الحساسة. فكنا في أحاديثنا نسمي الأشياء بأسمائها، ونتناول المواضيع بأسلوب من الظرف والفكاهة والنكات أحياناً، فكان معشره لطيفاً مرحاً ودوداً وخالصاً من الغايات. أقول ذلك وأنا أعرف أن كثيرين فيما بعد، خصوصاً في فترات ترؤسه أجهزة أمنية غليظة السمعة، كانت لهم فيه آراء مختلفة، لأنه من الطبيعي أن تلحقه السمعة السائدة لنظام صدام حسين الذي كان البراك في النتيجة من أبرز وجوهه ومن أبرز ضحاياه أيضاً. ولعل فاضل البراك كان أحد القلائل من أركان عهد صدام حسين الذين كانوا ينتقدون بعض شواذات وشوائب النظام علناً، وقد قرأت مرة حديثاً صحافياً لرئيس الأركان الأسبق للجيش العراقي الفريق الركن نزار الخزرجي، اللاجىء آنذاك الى الدانمارك، قال فيه إنه نصح فاضل البراك بأن يضبط لسانه، وأن يلزم الحذر في كلامه عن سياسات النظام[6].

وكان من بين الذين التقيتهم بصحبة البراك في موسكو عامر شبيب، الشقيق

---

(4) هو المستشرق الروسي ليف نيكولايفيتش كوتلوف واضع المؤلف الكلاسيكي عن الثورة العراقية ضد الاحتلال البريطاني للعراق في عام 1920، بعنوان: «ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق». وقد ترجمه الى العربية المترجم عبد الواحد كرم ونشرته وزارة الإعلام العراقية في عام 1971. وتوفي البروفسور كوتلوف في عام 1987.

(5) دراسة تحليلية ونقدية مقارنة للخلفيات الاجتماعية للقيادات السياسية والعسكرية في العراق، الدار العربية للطباعة، 1979. (رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية في بغداد 936 لعام 1979).

(6) أظن أن الحديث المذكور جاء في جريدة «الحياة» السعودية الصادرة من لندن. وينتمي نزار الخزرجي الى عائلة عسكرية معروفة في العراق حيث كان والده وعمه قبله من كبار قادة الجيش العراقي. وقد خدم الخزرجي لفترة قصيرة معاوناً للملحق العسكري في موسكو بين 1970 و 1971، ولا أدري ما إذا كان ذلك قبيل خدمة فاضل البراك في الملحقية أو أثناءها، لأنني لا أذكر أنني التقيته مع البراك هناك، مع أنني التقيت معه بعدد من الضباط المنتدبين للدراسة في الأكاديميات العسكرية السوفياتية. وقد عزله صدام حسين من رئاسة الأركان في أواخر شهر آب/أغسطس من عام 1990، بعد ثلاثة أسابيع فقط على احتلال الكويت، بسبب المطالعة التي قدمها عن موضوع الكويت في اجتماع للقيادة العامة للقوات المسلحة بحضور الرئيس العراقي. ويقال إن تلك المطالعة نصحت بانسحاب القوات العراقية من الكويت حتى المطلاع لاجتناب الحرب مع قوات التحالف الدولي المرابط في الأراضي السعودية. كما يقال إنه ألمح الى أن قرار احتلال الكويت تم بمعزل عن رئاسة الأركان ودون أخذ رأيها، بل قامت بالتنفيذ وحدات من الحرس الخاص والحرس الجمهوري. وبعد مغادرته العراق انضم الخزرجي الى المعارضة العراقية في الخارج عام 1997.

الأصغر لوزير الخارجية العراقي الأسبق طالب شبيب[7]. وفي أول لقاء لي مع فاضل البراك في بغداد، وهو في منصب مدير الأمن العام سنة1981، بعد أشهر فقط على اندلاع الحرب العراقية ـ الإيرانية، سألته عن عامر شبيب فأبلغني أنه أصبح مديراً لجهاز الدفاع المدني.

وقبل عودتي من موسكو الى بيروت أوصاني كل من السفير شاذل طاقة وفاضل البراك على مجموعة من الكتب الصادرة في بيروت آنذاك، ومنها مذكرات الزعيم السوفياتي الأسبق نيكيتا خروشوف التي أحدثت ضجة في حينه. وقد ساعدني الزميل أحمد سعيد محمدية، صاحب «دار العودة» للنشر، على تدبُّر مجموعة كبيرة من الكتب الرائجة في ذلك الوقت أرسلتها من بيروت باسم السفير طاقة تلبية لطلبه. وفي يوم الأول من أيار/مايو حضرنا سوياً، البراك وأنا، الاحتفال الرسمي والاستعراض الكبير بمناسبة عيد العمال العالمي، وهو استعراض كان يجري في الساحة الحمراء كل سنة أمام ضريح لينين قائد الثورة البلشفية. ولما كان فندق «ناسيونال» الذي كنت نازلاً فيه يطل على تلك الساحة، فقد لاحظت أن مجموعة من رجال الأمن الروس بملابس مدنية دخلوا الى الفندق وأخلوا الغرف المطلة على الساحة من نزلائها ليحتلوها هم. وأبلغت البراك بما شاهدت في الفندق قبل خروجي منه، فقال لي إنه احتياط أمني، خشية أن يكون هناك قنّاص في واحدة من تلك الغرف المطلة على الساحة الحمراء يستطيع أن يطلق النار على قادة الحزب والدولة الواقفين على المنصة فوق الضريح من نافذة أي غرفة مشرفة على تلك المنصة. ومن حسن الحظ أن غرفتي كانت في الخلف لا تطل إلاّ على باحة الفندق الداخلية. وعندما غادرت موسكو بعد أيام رافقني البراك الى المطار ودفع عني بالروبلات الروسية المترتبات على زيادة الوزن في حقائبي المليئة بعلب السيجار الكوبي وبما اشتريته من هدايا بروبلات الرفيق توفيق المتني.

وبعد سنتين تقريباً من زيارتي تلك الى موسكو جاء فاضل البراك الى بيروت في طريقه الى بغداد، فاستضفته ثلاثة أيام في العاصمة اللبنانية، وأخذته في الليلة الأولى من وجوده في بيروت لحضور مسرحية فكاهية للمسرحي اللبناني الكبير شوشو (حسن علاء الدين)، على مسرحه الذي كان سابقاً مقر سينما «شهرزاد» في وسط بيروت على الطرف الجنوبي ـ الغربي من ساحة البرج، الذي كانت تقابله من الجهة الشرقية سينما روكسي. وظل البراك يذكر ويتذكر

(7) كان طالب شبيب وزيراً للخارجية العراقية في حكومة أحمد حسن البكر بعد الإنقلاب البعثي ـ العارفي على عبد الكريم قاسم في 8 شباط/فبراير من عام 1963، لكن تلك الحكومة سقطت بعد أشهر إثر انقلاب عبد السلام عارف على حلفائه البعثيين. واتخذ طالب شبيب لاحقاً موقفاً نقدياً من تجربة البعث في الحكم، مع مراجعة إيجابية لحكم عبد الكريم قاسم. (راجع كتاب الدكتور علي كريم سعيد «عراق 8 شباط 1963، من حوار المفاهيم الى حوار الدم: مراجعات في ذاكرة طالب شبيب»، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1999.)

تلك المسرحية (التي أظن أنها من تأليف فارس واكيم)، في كل لقاءاتي التالية معه، وفي بعض الرسائل الخطية التي وردتني منه، كما سأبين عند عرض تلك الرسائل. وفي الليلة الثانية من وجوده في بيروت تعشينا في فندق «برنتانيا» في بلدة برمانا الجبلية القريبة. وقتها كان البراك لا يزال عازباً ويحب السهر الى ساعات متأخرة من الليل، فلم يكن ينام في الليلة الواحدة سوى ساعات قليلة، وكان يقرأ كثيراً. وقد جلت معه في بيروت على بعض المكتبات حيث اشترى مزيداً من الكتب، وهي كتب سياسية وفكرية في معظمها. فلا عجب أن «سمير الخليل»[8]، المعارض لنظام صدام حسين في كتابه المشهور الصادر بالإنكليزية عن جامعة كاليفورنيا عام 1989، «جمهورية الخوف»، وصفه بأنه «المثقف الحقيقي» حين قال: «إذا صح أن صدام قد عين فاضل البراك مديراً للمخابرات العامة، فإن ذلك يحكي مجلدات عن التنظيم الجديد للدولة الذي أجراه. فقد ولّى الى غير رجعة زمان تعيين مسؤولين كفاءتهم الوحيدة العنف والبلطجة الخالصة، أو حتى الروابط العائلية، وبدلاً من ذلك جاء البراك المثقف الحقيقي الذي يكتب كتباً، ويستمر في الكتابة وهو في أكثر الوظائف تطلباً»[9].

وقد كان الانسجام الثقافي والفكري بيني وبين فاضل البراك هو الذي شد أواصر الصداقة بيننا من البداية، بل من اللقاء الأول في منزل السفير شاذل طاقة في العاصمة السوفياتية في أواخر شهر نيسان/أبريل من عام 1971.

وعندما زرت موسكو ثانية مع الوفد الذي قاده صدام حسين في 13 نيسان/أبريل 1975، كان فاضل البراك لا يزال في العاصمة السوفياتية، فالتقيته في المقر الرسمي لنائب الرئيس العراقي، وكان يرتدي بزته العسكرية، وقبل المغادرة في اليوم التالي، كما مرّ، ألح علي البراك أن أبقى في موسكو لفترة أطول، لكنني اعتذرت عن ذلك بسبب قلقي على الوضع في لبنان من جراء حادثة بوسطة عين الرمانة التي وقعت أثناء وجودنا هناك ولم نكن نعرف أي تفاصيل عنها أو عن ذيولها. فأبلغته بما حدث وبمخاوفي مما يجري في البلاد وقلقي على العائلة بالنظر الى أن مدرسة الأولاد تقع في المنطقة الشرقية من بيروت. وكان ذلك آخر اتصال لي مع فاضل البراك قبل أن يردني منه الى مجلة «الحوادث» في لندن أواخر عام 1979 كتابه المشار اليه عن تاريخ الجيش العراقي، مع إهداء بخط يده وتوقيعه بالحبر الأخضر.

---

(8) سمير الخليل هو الإسم المستعار للمهندس المعماري العراقي المعروف في الغرب كنعان مكيّة المتخرج من «معهد ماساشوستس للتكنولوجيا» في بوسطن بالولايات المتحدة، وهو أستاذ جامعي حاصل على الجنسية البريطانية، وانضم الى المعارضة العراقية في الخارج الى جانب صديقه أحمد الجلبي في الفترة بين غزو صدام للكويت عام 1990، وبين الغزو الأميركي للعراق عام 2003.

(9) The Republic of Fear, The Inside Story of Saddam's Iraq, University of California Press, 1989, page 16.

عندما جئت الى لندن لأول مرة في منتصف شهر تموز/يوليو عام 1977 قادماً من باريس مع أسرة تحرير مجلة «الدستور»، كان ناجي صبري الحديثي[10] ملحقاً صحافياً في السفارة العراقية ومديراً للمركز الثقافي العراقي، لكنه نقل الى بغداد بعد نحو سنتين، وحل محله في هذا الموقع سعد البزاز، وكنت أنا قد انضممت الى أسرة مجلة «الحوادث» بعد بيع «الدستور» وانتقالها الصوري الى عهدة المعارض السوداني آنذاك الشريف الهندي، كما ذكرت سابقاً. ولاحظت في حينه أن هناك اهتماماً عراقياً خاصاً بمجلة «الحوادث»، فكان الملحق الصحافي الجديد سعد البزاز حريصاً على إقامة علاقات طيبة مع طاقم المجلة وأصحابها، ومن الطبيعي تبعاً لذلك أن تنشأ بينه وبيني علاقة وديَّة. وبعد تعارفي مع البزاز سألته ما إذا كان بإمكانه أن ينقل رسالة خطية مني الى البراك في بغداد فأبلغني أنه أصبح الآن مديراً للأمن العام، ولم أكن قد علمت بذلك من قبل، وأنه مستعد لنقل رسالتي اليه عبر الحقيبة الديبلوماسية، وهكذا كان. ومضمون تلك الرسالة يتعلق بتهنئته على كتابه وعلى منصبه الجديد، واستذكار تلك الأيام والليالي المؤنسة التي قضيناها معاً في موسكو وبيروت.

لكن يبدو أن رسالتي اليه لم تصل حالاً لأنني لم أتلقّ منه جواباً إلاّ بعد فترة طالت نسبياً، كما لاحظت أنه أجاب سريعاً بعد يومين فقط من تلقيه رسالتي. وقد كتب البراك رسالته الي على الآلة الطابعة (الدكتيلو) وذيلها بتوقيعه وبتاريخ كتابتها. وفي ما يلي نص تلك الرسالة حرفياً:

الأخ العزيز سليمان المحترم

تسلمت رسالتك في 7/26 بعد أن تأخرت لدى الرفيق سعد بسبب أشغاله الكثيرة!

إنني أعتز فعلاً بك كصديق عزيز اعتزازي بتلك الأيام التي قضيتها في الخارج، لأنني استطعت أن أقدم ما بوسعي من خدمة لوطني أولاً، وأعتز بها لأنني تعرفت على كثير من الأصدقاء ثانياً.

عزيزي سليمان:

إذا كنت تتذكر أيام موسكو، فإنني إضافة الى ذلك لا زلت أتذكر جيداً الأيام التي قضيناها سوياً في بيروت. تلك الأيام الهادئة، وخصوصاً مسرحية شوشو رحمه الله.

لا أبالغ إذا قلت لك إنني كلما التقيت بأحد الإخوان من لبنان أُكثر من السؤال

---

(10) بعد نقل ناجي صبري الى بغداد أنيطت به رئاسة تحرير جريدة «بغداد أوبزرفر» الصادرة باللغة الإنكليزية. وفي السنوات الأخيرة من حكم صدام حسين تم تعيينه وزيراً للخارجية خلفاً للوزير محمد سعيد الصحاف، وبقي ناجي صبري في وزارة الخارجية حتى الاحتلال الأميركي للعراق في ربيع عام 2003.

عنك، وأخيرها قابلني وليد أبو ظهر[11] فأعطاني معلومات عنك فاطمأنيت.
نأمل أن نراك في العراق والدعوة مفتوحة اعتباراً من شهر أيلول.
أشكر لك رسالتك مع تقديري لعواطفك الأخوية النبيلة.
ودمتم

أخوك الدكتور فاضل البراك
1980/7/28

وكانت تلك الرسالة الوحيدة بينه وبيني التي تمت بالطريقة المذكورة، أي عبر سعد البزاز أو الملحقية الصحافية، فقد بعث لي بعد ذلك مع أحد موظفيه العاملين في الخطوط الجوية العراقية رزمة مقفلة ضمت كتاباً وتقريراً ضخماً باللغة الإنكليزية، الى جانب صندوق سيجار كوبي فخم، ومن ضمنها رسالة قصيرة يطلب فيها مني أن أقرأ ما بعث لي وأن أوافيه بخلاصة عما قرأت مع تعليقي الشخصي على ذلك، بطريقة المراسلة الجديدة المباشرة.

فالكتاب المتضمن في الرزمة هو كتاب الباحثة الأميركية نيكي كيدي[12] عن

(11) كان وليد أبو ظهر في ذلك الوقت يصدر مجلة «الوطن العربي» من باريس بدعم من العراق، وقد ساعده العراقيون أيضاً في إقامة مشاريع تجارية كبيرة داخل العراق، وقبل ذلك كان يتلقى منهم دعما لجريدة «المحرر» التي كانت تملكها عائلة شقيقه الراحل هشام أبو ظهر يوم كانت تصدر في بيروت. لكنني لم أكن على معرفة جيدة بوليد أبو ظهر، وما التقيته في حياتي سوى مرة واحدة عندما انتقلنا بمكاتب جريدة «بيروت» في أواسط السبعينيات الى منطقة الشياح قبالة مكاتب جريدة «المحرر»، فزرته في مكتبه هناك من قبيل التعارف والمجاملة بحكم الجوار. أما شقيقه الراحل هشام فقد تزاملت معه في «دار الصياد» قبيل تركه الدار لتأسيس جريدة «المحرر» الناصرية الاتجاه. وفي مطلع السبعينيات أبدى لي هشام أبو ظهر رغبته في التعاون مع العراق، طالباً مني أن أرتب له زيارة الى بغداد لهذه الغاية. وبالفعل وجه العراقيون دعوة الى مجموعة صغيرة من الصحافيين ضمت بالإضافة لي كلاً من رياض طه نقيب الصحافة، وملحم كرم نقيب المحررين، وهشام أبو ظهر صاحب «المحرر»، وعبد الغني سلام صاحب جريدة «اللواء»، وكان وزير الإعلام العراقي يومها حامد الجبوري، وهو ليس بعثياً وكان معروفاً بميوله القومية الناصرية.

وعندما التقيت فاضل البراك في بغداد في ربيع عام 1981 مازحته حول إشارته الى وليد أبو ظهر في رسالته المنشورة أعلاه، بقولي له إذا كانت كل مصادر معلوماتكم مثل هذا المصدر فإن جميع الدول في المنطقة سوف تغار منكم. وفهم بذكائه الحاد ما قصدت فقال تريد أن تقول لي ما هو الشيء الذي جعل لوليد أبو ظهر حظوة لديكم، وأقول لك بصراحة إن الرئيس (صدام) يستظرفه!

ومع أن وليد أبو ظهر كان من أكبر المستفيدين من نظام صدّام حسين، فقد كان أول من تخلّى عن العراقيين في حرب الكويت، وانضم علناً الى المعسكر السعودي المعادي للعراق. ويقال إن رفيق الحريري، رئيس الحكومة اللبنانية تالياً، وهو من أبناء مدينة صيدا شأن أبو ظهر، وربما تربطه به أيضاً روابط عائلية، أجرى له ترتيبات مالية سخية لتسهيل انتقاله من الصف العراقي الى الصف السعودي.

(12) كانت كيدي أستاذة للتاريخ في جامعة كاليفورنيا، وهي متخصصة في الشؤون الشرقية والإيرانية وقضايا المرأة في الشرق الأوسط. وقد طوّرت كتابها المذكور بعد أكثر من عشرين سنة على صدوره لأول مرة فصدر بعنوان: «إيران الحديثة: جذور الثورة ونتائجها». والنسخة الأولى صدرت في لندن عام 1980 عن دار «فرانك كاس»، أما النسخة الثانية المطوّرة فقد صدرت عن جامعة يايل الأميركية منذ سنوات قليلة. أما التقرير عن دور الجيش السوفياتي في تحديد سياسة بلاده فلست أذكر من هي الجهة التي وضعته لأنني لم أسجل شيئاً عن الموضوع ولم أحتفظ

إيران بعنوان: «إيران: الدين والسياسة والمجتمع»، والتقرير الضخم هو: «دور القوات المسلحة السوفياتية في اتخاذ القرارات وفي السياسة السوفياتية»، وهو على ما أظن تقرير أميركي. وقد أرجعتهما اليه مع رسالتي الجوابية المتضمنة للخلاصات المطلوبة. ويبدو أنه انزعج قليلاً من جملة في رسالتي الجوابية قلت له فيها: «يجدر بالرئيس صدام حسين أن يقرأ كتاب كيدي عن إيران»، ففسر هذه الجملة بأنها نوع من التحفظ على الحرب مع إيران، وهو موضوع تناقشنا فيه طويلاً في الليلة الأولى من لقائنا في حديقة مقر الأمن العام حيث تناولنا طعام العشاء لوحدنا.

وفهمت منه في تلك الليلة أن ملاحظتي حول التقرير السوفياتي هو الذي أعطاه الانطباع المشار اليه، لأنني قلت في تعليقي «إن كل الجيوش في العالم، بما في ذلك الجيش العراقي، وليس الجيش السوفياتي وحده، تتحكم بخيارات دولها ومجتمعاتها من خلال الاستئثار بالموارد بحجة «الأمن القومي»، تلك العبارة السحرية التي لا يُرد أي طلب باسمها. أليس ذلك واضحاً من هذه الحرب التي تخوضونها مع إيران». وقد حصرت تعليقي بمسألة الموارد والموازنات المفروضة باسم الأمن القومي، وهذا في الحقيقة، كما كنت أنظر الى المسألة في ذلك الوقت، وكما أنظر اليها اليوم، مفهوم له جانب آخر غير مسألة الموارد المادية يمكن وصفه بأنه «مدلول إرهابي مقنّع» يحدُّ من مناقشة الموضوع بحرية، وفي بعض الأحيان هو من المحظورات حتى في الدول الديموقراطية، وبالتالي فإنه من الكوابح الرئيسية للحريات العامة.

•••

في لقاءاتنا اليومية في موسكو لم يخبرني فاضل البراك شيئاً عن حياته في العراق قبل التحاقه بالملحقية العسكرية في العاصمة السوفياتية. لكننا تناولنا بالبحث والنقاش موضوع الشيوعية والنظام الاشتراكي، فكانت له تحفظات واضحة على الشيوعيين العراقيين تصل أحياناً الى درجة العداء السافر. وعندما لاحظ أنني لا أتفق معه في بعض الآراء التي طرحها حول هذا الموضوع، راح يميِّز بين الشيوعيين العراقيين والعرب وبين الاتحاد السوفياتي كدولة صديقة مناصرة للقضايا العربية الأساسية.

وفيما بعد بفترة طويلة نسبياً، وبعد استقراري في لندن أواخر السبعينيات من القرن الماضي، علمت من بعض معارفي العراقيين في العاصمة البريطانية أن فاضل البراك كان من المرافقين المقربين للرئيس أحمد حسن البكر، ثم ما لبث البكر أن غضب عليه لسبب من الأسباب فأبعده من دائرته المباشرة بل

بنسخة ثانية من تعليقي عليه لكوني في ذلك الوقت كنت لا أزال أكتب باليد وليست لدي وسائل استنساخ. أما فيما يتعلق بكتاب كيدي عن إيران فإنني أتذكره لأنني دخلت تالياً في مناقشة حول إيران مع الصحافي البريطاني المعروف إدوارد مورتيمار ومع الصحافي المصري أحمد بهاء الدين على هامش إحدى الندوات في لندن، وتناول الحديث فيما تناول ما ورد في الكتاب المذكور.

من العراق فكان تعيينه في الملحقية العسكرية في موسكو نوعاً من الإبعاد. أما هو فلم يحدثني إطلاقاً عن الأمر ولا عن أسباب الوقيعة بينه وبين البكر. وبما أن مثل هذه الغوامض والحالات غير المفهومة لا يتم الحديث عنها بصورة مباشرة في الأوساط العراقية الدائمة التوجس والخوف من النظام الأمني، حتى في المهاجر البعيدة، فقد علمت بالتواتر أن سبب غضب البكر عليه يعود الى مشادة حادة جرت بين فاضل البراك وبين أم هيثم زوجة الرئيس البكر، فانزعجت من لهجة البراك في التخاطب معها فشكت الأمر بصورة دراميتيكية الى زوجها الرئيس الذي غضب لغضبتها. لكنني الى اليوم لا أعرف مدى هذه الرواية من الصحة.

وعلى أي حال جاء طرد البكر للبراك من دائرته المباشرة بمثابة «شحمة على فطيرة»، كما يقال، بالنسبة الى نائب الرئيس صدام حسين الذي كان يعد نفسه، ويعد العدة، لإبعاد البكر والانقضاض على الرئاسة، كما حدث بعد سنوات قليلة، فحضن البراك وحماه داخل النظام. لكن قبل احتضان صدام له، عمل نائب الرئيس ووزير الدفاع حردان عبد الغفار التكريتي على تهدئة الرئيس البكر ومنعه من التمادي في ملاحقة البراك. وفي أغلب الظن أن فكرة إبعاده الى خارج العراق جاءت من قبل حردان بصفته وزيراً للدفاع.

وفي السهرة الطويلة التي قضيتها مع البراك في حديقة مقر الأمن العام خلال زيارتي الأولى الى العراق في عهد صدام حسين برفقة صاحبة مجلة «الحوادث» آنذاك السيدة أمية اللوزي، والزميلة هدى الحسيني، أردت أن أفتح موضوع الرئيس البكر بصورة غير مباشرة لعلي أتلمس منه شيئاً يلقي الضوء على الماضي، فسألته بصورة طبيعية:

«كيف حال الرئيس البكر في هذه الأيام؟»

فقال لي: «إنه يعيش عيشة المتقاعدين. يقضي بعض الوقت يعمل في الحديقة، ووجد أن البيت كبير عليه فأغلق جناحاً منه ويعيش الآن في غرفتين فقط».

قلت له: «وكيف صحته؟»

قال: «إنه مريض كما تعلم، لكنه يداري نفسه».

ثم قلت للبراك: «هل تراه؟»

فقال لي: «الرئيس البكر لا يثق بأحد. خذ مثلاً لوائح الإيرانيين المقيمين في العراق الذين جرى إبعادهم الى إيران في بداية الحرب، فقد كان يضمها الى صدره ولا يسلمها لأحد خوفاً من تسريبها. فهو يعتقد بأن النظام العراقي مخترق».

كان هذا الجواب غريباً، وفسرته بيني وبين نفسي في حينه بأن البراك يريد تغيير الموضوع. لكنني تجاهلت ذلك وقلت له: «هل بإمكاني أن أزوره؟»

قال بلهجة المتفاجىء: «ولماذا تزوره؟ هو الآن ليست له صفة رسمية وبعيد عن أجواء السياسة».

طويت موضوع البكر عندما لمست أنه لا يرغب في ذلك، لكنني فتحت معه موضوع المبعدين من العراقيين المتحدرين من أصول إيرانية إبعاداً جماعياً وتعسفياً. فقلت له: «هل تعتقد بأن جميع هؤلاء يشكلون طابوراً خامساً؟»

قال: «لا. لكن هناك «فد احتمال». فلا تنسى أننا في حرب ضروس مع إيران ومن المستبعد أن يكون هؤلاء في الصف العراقي، وبالتالي فهم موضع شبهة وإبعادهم هو من قبيل الاحتياط».

لذت بالصمت، لكنني لاحظت أنه يريد استكمال البحث في الموضوع فقال لي: «تدري أخي أبو عامر أن الأميركيين فعلوها برعاياهم من اليابانيين في الحرب العالمية الثانية. أليس كذلك؟ مثل هذه الأشياء تحدث في الواقع المعاش، خصوصاً في حالات الحرب».

فحاولت نقل المحادثة الى دائرة المزاح حين قلت له: «الآن أخي أبو علي صرتم تتشبهون بالأميركيين. لا شك في أنك تعرف أن الأميركيين لا يؤتمن لهم. لا تدرون متى ينقلبون عليكم. لهم سوابق كثيرة. ثقافة رعاة البقر (الكاوبوي) مستحكمة فيهم. ليست عندهم ذقن ممشطة كما نقول نحن اللبنانيين. الحروب العدوانية عندهم غواية. يتلذذون بها. هي جزء عضوي من كيانهم السياسي والفكري. وعلى كل حال سوف تكتشفون ذلك بالتجربة».

أصغى لي إصغاءً تاماً وأشعل سيجاره ثم قال بتمهل: «تدري أخي أبو عامر أن لكل دولة سياسة معلنة وسياسة غير معلنة، سياسة سرية تحت الطاولة. وقد تكون الواحدة مناقضة للأخرى وغير متطابقة معها تماماً. لكن السياسة غير المعلنة أصعب وأكثر دقة، لأنه يتوجب صياغتها بشكل يمكن معه تبريرها لاحقاً أو إذا انكشف أمرها. فالسياسات المعلنة هي الشعارات والدعايات والدعاوى الحماسية. لذلك فإن سياستنا مع أميركا معقدة وليس لها هيكلية ثابتة. فهناك في مثل هذه العلاقات المعقدة، كما تعلم، تقاطع في المصالح هو بطبيعته ظرفي ومؤقت، وهناك أيضاً بفعل المصالح ما يمكن أن نسميه تلاقي الأضداد[13]، وهي تحالفات موضوعية تأخذ مجراها لوحدها، مثل علاقاتنا مع جيراننا العرب. هم الآن معنا، لكنهم في حقيقة الأمر ليسوا معنا. بعضهم متفرجون في الواقع وإن كان صوتهم عالياً في دعمنا، ومنهم من هم مسرورون بانغماس العراق في الحرب ويشجعون على ذلك. اشتباك القوتين الإقليميتين الكبيرتين في الخليج يريحهم وهذا مفهوم. لكن الميزان دقيق، بمعنى أن أي اختلال في هذا الميزان يحولهم برمشة عين الى متآمرين ومتواطئين علينا.

---

(13) من أجواء هذا الحديث مع فاضل البراك كتبت بعد سنوات مقالاً في مجلة «الصياد» الصادرة آنذاك من لندن بعنوان «تحالفات الأضداد».

وبالتالي يمكنك أن تقول في المحصلة إنه لا أميركا معنا ولا جيراننا معنا في نهاية المطاف. نحن مكتوب علينا أن نقلع شوكنا بأيدينا. فالحرب مكتوبة علينا لأن السلام في هذه المنطقة من العالم يكاد يكون مستحيلاً . فالأمر ليس سهلاً أو هيناً».

قلت للبراك: «إن العقل العربي حتى الآن مبرمج على الصراع الأساس مع إسرائيل، وأعتقد أن الحرب مع إيران أحدثت صدمة انفصامية، فيأخذ البعض عليكم أنكم غيّرتم في أولويات الصراع، فحوّلتم الأنظار من عدو الى آخر. وقد يذهب البعض الى القول بأن في ذلك خدمة مجانية لإسرائيل. وهذا يضيف تعقيداً جديداً الى الحالة النفسية العربية المعقدة أصلاً بتناقضات لا عد لها ولا حصر. ولذلك أخشى أن تخسروا الحرب في الضمير العربي أولاً».

كان فاضل البراك معتاداً على السهر الطويل في الليل، خلافاً لي. ولاحظ أنني أغالب النعاس عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فقال لي: «روح ارتاح الآن وسنتحدث غداً في المساء. لكنني أود أن أقول لك شيئاً جواباً عن وجهة النظر الأخيرة التي ذكرتها. هناك أمران يجب ألاّ يغيبا عن البال في هذه الحرب. الأول أن هناك تحالفاً موضوعياً بين إيران وإسرائيل وبعض العرب ركيزته، أو نقطة التلاقي فيه، وهي إبقاء العراق ضعيفاً الى الأبد. والفرصة أمامنا الآن جيدة لكون إيران هي الآن ضعيفة من حيث القدرة العسكرية ومن حيث بنية جيشها راهناً. والأمر الثاني، يمكنك أن تنظر الى هذه الحرب على أنها مناورة بالذخيرة الحية استعداداً للحرب المقبلة مع العدو الصهيوني. إنها رسالة الى العدو والى الصديق عن اقتدار العراق وصلابة إرادته. تصبح على خير والى اللقاء غداً».

وفي الطريق الى الفندق شعرت بأن النعاس قد طار مني ورحت أسترجع هذه المحادثة الشيّقة في ذهني وأقلبها في رأسي فلم أنم كثيراً تلك الليلة، وجلست أسجل بعض الأفكار من وحي تلك المقابلة. وقد خطرت لي وأنا أتفكر بمقولة البراك حول التحالف الموضوعي بين إيران وإسرائيل وبعض العرب، ومن ثم بمقولته بأن الحرب مع إيران هي «بروفه» للحرب المقبلة مع إسرائيل، خاطرة ربما كانت أقرب الى المعقول عن احتمال منطقي في هذا السياق بأن تكون الحرب المقبلة مع بعض العرب خطوة أخيرة نحو الحرب النهائية مع إسرائيل. ثم رحت أتساءل بيني وبين نفسي عن تفاؤل البراك شبه اليقيني بأن العراق سوف يخرج منتصراً من هذه الحرب، وهو ما أكده لي في رسالة بعث بها الي في السنة التالية رداً على مخاوف وتساؤلات كنت قد أبديتها سابقاً يقول فيها إن من يضحك هو الذي يضحك تالياً. وسوف أنشر الرسالة المذكورة في سياق هذا الفصل.

•••

في اليومين التاليين في بغداد لم أقابل البراك بل كنا نكتفي بمكالمة هاتفية

قصيرة، لأنني انشغلت مع صاحبة المجلة أمية اللوزي في وزارة الإعلام حيث استقبلنا الوزير لطيف نصيّف جاسم. وطلبت السيدة أمية موعداً لمقابلة الرئيس صدام حسين، فقيل لنا إنه ليس موجوداً في بغداد بل يقوم بجولة في المحافظات من الموصل الى البصرة ولن يعود قبل أسبوع. عندها قررت أمية اللوزي العودة الى لندن وبقينا، هدى الحسيني وأنا، ننتظر عودة الرئيس في بغداد لمتابعة الموضوع من أجل إجراء مقابلة صحافية معه.

وبعد ظهر اليوم الذي غادرت فيه أمية اللوزي بغداد أرسل فاضل البراك سائقاً لينقلني الى مقر الأمن العام حيث جلسنا في مكتبه هذه المرة لأن الوقت كان مبكراً نسبياً، هو وراء مكتبه وأنا على كرسي الى جانب المكتب. وافتتحت أنا الحديث بإبلاغه قصتي مع الضابط الكردي سالم الحاج عيسى، كما رويتها في السياق، وصداقتي الطويلة معه، لعلني أعرف شيئاً عنه بعد انقطاع طويل. ابتسم البراك لهذه الحكاية وقال لي إنه الآن برتبة لواء وهو حالياً قائد الفرقة المدفعية في كركوك. أبديت سروري لهذا الشيء، وسألته إذا كان يعرف شيئاً عن أحواله وما إذا كان بالإمكان التواصل معه بشكل من الأشكال. فقال لي إنه تزوج وله أربعة أولاد، وأن شعره الأسود الكث تساقط وأصبح أصلع الرأس ولن تعرفه إذا صادفته في الشارع. فقلت للبراك: «لكن كيف حالكم معه؟». قال إنه على أحسن ما يرام، لكنه الآن «يسوقها إسلاميات»، أي أنه تحوّل من الإطار اليساري الماركسي الى إطار الفكر الإسلامي. ثم أمسك بسماعة الهاتف وطلب رقماً مباشراً فرد عليه سالم بنفسه فأبلغه أن محدثه هو مدير الأمن العام وأن عنده شخصاً يرغب في مكالمته من غير أن يذكر اسمي، وأعطاني السماعة فعرفني لمجرد أنني نطقت بالتحية، فأبدى سروراً بالغاً بهذه المصادفة، وقال لي إن الواجب العسكري يمنعه من المجيء للقائي في بغداد وألح علي أن أوافيه الى كركوك ليقوم بالواجب «ويذبح الخراف» ترحاباً كما قال. فأعطيته عنواني واسم الفندق الذي أنزل فيه.

وبعد أيام قليلة تلقيت منه رسالة خطية على ورق أخضر مذيّل بعبارة مطبوعة هي: «مع تحيات دائرة التوجيه السياسي»، وفي رأس الصفحة ضمن إطار مزركش عبارة بلون أحمر لصدام حسين تقول: «تحية لأسود البر ونسور الجو ورجال البحر الشجعان: الرئيس القائد صدام حسين».

ولاحظت هذه المرة أنه بدأ رسالته بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم»

الأخ الكريم سليمان المحترم

تحية المحبة والوفاء

وبعد، فقد ثبت ظني بكم، بل وأكثرتم من الوفاء ما غلب الزمن، وأعطيتم من الجميل ما وفيتم الصداقة وقهرتم البعد. أجل أيها الكريم فلا أراني مجاملاً ولا مادحاً ولكن حسبي الأفعال.

عزيزي، لم أنسَ يوماً إنسانيتكم النبيلة، لكن حفظكم للود فاق التوقعات، وهي شيمة الأوفياء، فمرحى لودّكم، وطوبى لكم كريم الخصال.

إن الذكرى والتفقد بعد لأي طال علامة واضحة للوفاء قد لا يجاريها عرفاننا بكم وعدم النسيان. والدليل عدم اللبس في نبرات مكالمتكم في الهاتف. إن شوقي ورغبتي للقائكم لم يحققها الواجب الذي نمارسه في الجبهة، والذي تقدرونه حق التقدير، وتعطوننا المبرر الذي لا نعطيه لأنفسنا... ولكن طمعاً في كرم أخلاقكم.

إن للظروف أحكاماً واعتبارات، وقد شاءت هذه المرة دون اللقاء، ولكن الأمل الكبير يحدونا بلقاء قريب هنا أو عندكم وبعدما تكرمتم علينا بالعنوان. أما حاجتي فلم تكن أكثر من الدعاء لكم بالصحة والسعادة وطول البقاء مع أسرتكم الكريمة والى لقاء قريب إنشاء الله.

تحياتي وتقديري لكم ولأسرتكم الكريمة ودمتم بعز.

المخلص سالم الحاج عيسى

موصل ـ حي البعث

•••

في مساء ذلك اليوم انتقلنا لتناول العشاء في استراحة للأمن العام تقع في حي سكني من أحياء بغداد. كنا وحدنا لم يكن معنا أحد. وهناك استكملت حديثي عن ذكرياتي أثناء عملي في العراق في عهد عبد الكريم قاسم، وبصورة خاصة عن علاقة المودة والصداقة مع الشيخ تشثير بن مطلق السلمان، شيخ عشائر «البو محمد» في منطقة العمارة، وعن زيارتي المفاجئة له عام 1970 ومشاهدتي للحالة المزرية التي كان يعيش فيها. وقد لاحظت وأنا أتكلم أن فاضل البراك تأثر بما قلت عن الشيخ تشثير وعن علاقتي القديمة معه، فقال لي: «هل تريد أن نرسل اليه مبلغاً من المال ونقول له إنه منك؟».

قلت له بشيء من الحدة: «إياك أن تفعل ذلك... إنه رجل أنوف عزيز النفس وأعرف أنه لا يقبل مثل هذه الأشياء». واضطرني ذلك الى أن أروي للبراك ما قاله لي الشيخ تشيثير عندما زرت العمارة بصحبة صلاح عمر العلي لافتتاح معمل السكر في ناحية المجر، بخصوص أرض له متنازع عليها مع الإصلاح الزراعي، عندما طلب مني أن أكلم الوزير بشأنها، ثم استحلفني أن أنسى الموضوع لأنه لا يريدني أن أكسر نفسي لأحد من أجل منفعة خاصة، ولو انها خدمة لصديق قديم.

جرى هذا الحديث ونحن نتناول العشاء في ساعة متأخرة في غرفة مقفلة لم يدخل اليها أحد غيرنا لأن الطعام كان كله ممدوداً على المائدة. وهكذا كانت كل لقاءاتنا التالية منفردين في غرف مقفلة. وعندما قمنا عن الطعام لننتقل الى الصالون الكبير لاحتساء كأس من الكونياك ثم بعض الشاي، وجدت في الصالون اثنين من الموسيقيين مع آلاتهما، واحد على القانون وآخر على العود.

وما هي إلاّ برهة حتى دخل علينا الفنان والمطرب الكبير يوسف عمر، الذي كان في زمانه من قادة غناء المقام البغدادي[14]، فسلم علينا وراح يغني مترافقاً مع الثنائي الموسيقي. ومع أنني كنت مسروراً للتعرف على يوسف عمر وسماع غنائه العظيم، فقد أزعجني الإتيان بفنان كبير بهذا الحجم، ومتقدم في السن، بعد منتصف الليل من بيته وسريره ليؤدي غناءه أمام شخصين فقط. فالأداء أمام جمهور كبير في قاعات واسعة شيء، والأداء المغلق أمام شخصين في غرفة مقفلة، وربما مكرهاً على ذلك، شيء آخر.

ولاحظ البراك بذكائه الحاد عدم ارتياحي لهذا المشهد، مع أنني كنت وما زلت من محبي مقامات يوسف عمر، فاختصر تلك الحفلة بساعة واحدة تقريباً، وانصرفنا.

ومنذ تلك الليلة في ربيع عام 1981، لم أحضر حفل مقام عراقي مباشر إلاّ بعد عقدين من الزمن تقريباً عندما دعاني وزوجتي الصديق الراحل صبيح محمود شكري وزوجته الدكتورة رغداء في لندن الى حفلة مقام في أحد المطاعم العربية في «إدجوار رود»، قدمتها «فرقة الجالغي البغدادي»، فهيجت تلك الحفلة الجالغية أشجاني، لأنها ذكرتني بحفلة يوسف عمر في استراحة الأمن العام، لكنني لم أبح بذلك لمضيفي صبيح شكري عندما استأذنته للانصراف من الحفلة قبل اختتامها.

•••

في اليوم السابق للقائنا التالي، كنت مستلقياً على سريري في الفندق أقلّب بالراديو الصغير الذي أحمله معي دائماً في السفر فسمعت الرئيس المصري أنور السادات يلقي خطاباً لا أدري بأي مناسبة، لأنني لم أسمع الخطاب من أوله، ففوجئت عندما أعلن الرئيس المصري أنه باع العراق صواريخ سوفياتية الصنع وأنه تقاضى ثمن تلك الأسلحة بالعملة الصعبة لأن بلاده فقيرة ولا تستطيع أن تعطيها على سبيل الهبة أو التقدمة. وكان العراق يومها يقاطع مصر ويقود جبهة الرفض ضدها بسبب صلحها المنفرد مع إسرائيل بعد اتفاقيات كامب دايفيد.

(14) بعد تلك الليلة بأربع سنوات اعتزل يوسف عمر الغناء بسبب المرض، ثم توفي في السنة التالية، فترك فراغاً كبيراً في فن المقام البغدادي. ويمكن القول إن يوسف عمر كان علامة فارقة في تاريخ الفن العراقي، مع أنه ظل ردحاً طويلاً من الزمن يؤدي مقاماته بطريقة سلفه المشهور محمد القبانجي، الذي كان في زمانه كبير الساحة الفنية العراقية، قبل أن يختط لنفسه أسلوبه الخاص والمتميز. ويقال إنه أتقن أداء المقام وهو في السجن حيث صدر عليه حكم شديد بالحبس خمسة عشر عاماً، فقضى محكوميته كلها وراء القضبان، وذلك بتهمة الاشتراك في جريمة قتل ظل يؤكد أنه لا علاقة له بها، فكان يغني في السجن ليسمع الناس مظلوميته. ومع أن فاضل البراك أراد أن يكرمني بحضور الفنان الكبير يوسف عمر، إلاّ أنني لاحظت أن في العراق عموماً نظرة دونية للفنانين تختلف عن النظرة اليهم في لبنان ومصر بنوع خاص، لا سيما في مجالات الغناء والطرب. والحقيقة أنني فرحت للقاء يوسف عمر وسماعه عن قرب، لكنني حزنت عليه ورثيت لحاله في تلك الحفلة الغريبة.

لكنني عدت وتذكرت ما قاله لي فاضل البراك قبل أيام من أن لكل دولة سياسات غير معلنة وتحت الطاولة، وعن تحالفات الأضداد، فخطر لي أنه أبلغني ذلك حتى لا أفاجأ بأخبار من هذا النوع، ولما التقينا في اليوم التالي سألته ما إذا كان سمع خطاب السادات، فقال لي إنه عرف عنه، وضحك. وقبل أن أطرح عليه أي سؤال، قال: «الضرورات تبيح المحظورات. لكنه لم يكن من المفروض أن يعلن السادات عن الصفقة على الملأ، لأنها تمت بصورة سرية وتم الاتفاق على بقائها طي الكتمان. لكننا الى الآن لا نعرف ما هي الأسباب التي دفعته الى الإعلان عنها».

أجبته على الفور: «أنا أعرف ومن دون أي معلومات. فتِّش عن الأميركيين وعن الإسرائيليين».

ثم قلت له: «لماذا لا يبيعكم الاتحاد السوفياتي هذه الأسلحة حتى تشتروها من مصادر أخرى؟».

فأجاب: «يقولون إنهم على الحياد، ولا يبيعون السلاح لكلا الفريقين المتنازعين».

سألته: «هل ذهبت الى موسكو، أو اتصلت معهم؟».

قال: «لم أذهب الى هناك منذ أن التقينا في موسكو قبل سنوات، ولا اتصال لي معهم. الملف السوفياتي هو بيد طارق عزيز أبو زياد».

قلت: «وكيف حال أبو زياد؟»

قال: «بعد انتهاء الدوام يذهب الى بيته، ويأخذ كأساً من الويسكي، ويتناول طعام العشاء، ويقرأ قليلاً، ثم ينام من الساعة العاشرة. هذا هو أبو زياد».

والحقيقة أن كشف أنور السادات عن تلك الصفقة السرية فتح الأعين على دور إسرائيلي خطير في محاولة لمد خيوط رفيعة المغازل للتحكم بمسار الحرب. وما انكشاف أمر ما سمي بفضيحة «إيران ـ كونترا» في منتصف الثمانينات، ومنها تزويد إيران بأسلحة إسرائيلية، سوى مظهر من مظاهر تلك المغازل الرفيعة. وظلت هذه المسألة منذ ذلك الوقت في رأس اهتماماتي الصحافية، بما في ذلك السؤال الذي طرحته شخصياً على الرئيس صدام حسين نفسه يوم قابلناه ، الزميلة هدى الحسيني وأنا، من أجل حديث معه لمجلة «الحوادث» وذلك في منزله يوم 14 نيسان/أبريل من عام 1981.

وقبل أن أخوض في هذه المسألة أود الإشارة الى أن جهات مسؤولة إعلامياً، ولست أدري ما إذا كانت في الحزب أو في الدولة، كانت تعارض مقابلتنا مع الرئيس صدام وتعرقلها، وقد فهمت ذلك من فاضل البراك على طريقته، وقال لي إنه أشار على الرئيس بمقابلتنا. إذ قبل تحديد موعد المقابلة بيومين أو ثلاثة سهرت مع البراك في مقر الأمن العام الى الساعة الثانية صباحاً، ونحن نتناقش كالعادة في شتى المواضيع. وفي اليوم التالي عندما التقينا على العشاء

في استراحة جديدة على النهر كان لا يزال العمل فيها جارياً، وكان البراك يأتي اليها أحياناً ليشارك العمال في البناء، كما أبلغني، قال لي إنني لو أكملت السهرة معه لالتقيت الرئيس صدام الذي فاجأه بزيارة الى مقر الأمن العام في الساعة الرابعة صباحاً. وقال لي أيضاً: لقد أبلغت الرئيس إنكم هنا وتودون مقابلته فسألني رأيي عما إذا كان يجب أن يفعل ذلك، فأشرت عليه بالإيجاب. وهذا يعني أنه تلقى توصية مخالفة من أحدهم».

وعندما ذهبنا الى القصر الجمهوري، استقبلنا مدير مكتبه عبد حمود وقال لنا إن الرئيس ليس في القصر بل هو ما زال في منزله فانتقلنا الى المنزل، وهو منزل عادي بكل المقاييس، فقيل لنا إنه «منشول» (أو «مرشّح» كما نقول في لبنان) ويلزم الفراش. ووقفنا في الصالون الرئيسي ننتظر فنزل على الدرج من الطابق الفوقي وزير الداخلية سعدون شاكر[15] وهو حامل رزمة كبيرة من الملفات أتى بها الى الرئيس ليوقعها في غرفة نومه، فأبلغنا أن الرئيس يلبس ثيابه وسوف ينزل لمقابلتنا. وما هي إلاّ لحظات حتى نزل الرئيس العراقي مرتدياً ملابس عسكرية فجلس على الطرف الأيسر للأريكة الرئيسية في صدر القاعة، ووقف وراءه مباشرة ضابط متأهب، وجلست الى جانبه على الطرف الأيمن منها الزميلة هدى الحسيني وجلست أنا على مقعد منفرد الى يساره مباشرة، وقبالتي الى جانب هدى جلس وزير الإعلام لطيف نصيِّف جاسم، وعلى الطاولة بيننا آلة لتسجيل الحديث.

لست هنا في معرض نشر ذلك الحديث لأنه منشور في «الحوادث»، لكنني أريد استعراض بعض الملاحظات التي يمكن أن تلقي الضوء على المشهد العراقي في ذلك الوقت، والحرب مع إيران في بداياتها. في البداية أكد لنا أنه مصاب بزكام حاد، ربما بسبب جولته الطويلة في المحافظات، لكنه قال: «من غير الممكن أن أعرف عن وجودكم هنا ولا أقابلكم والتحدث اليكم». وهذا في تقديري يعني أنه لم يأخذ بأي توصية ترمي الى صرف النظر عن المقابلة، ليؤكد لنا أنه حتى المرض لم يمنعه من ذلك.

ومن مستهل الجلسة تعامل معنا كلبنانيين وليس كصحافيين فقط، فتعمد إبداء قلقه على لبنان من جراء المداخلات المختلفة الجارية فيه قائلاً: «يجب ترك لبنان للبنانيين. اللبنانيون وحدهم يجب أن يقرروا مصيرهم ومصير بلدهم». ومع أنه قال ذلك في إطار حملته على النظام السوري بسبب موقفه

(15) كنت قد تعرفت على سعدون شاكر في بيروت قبل سنوات عديدة وكان في زيارة الى العاصمة اللبنانية، برفقة مسؤول حزبي شاب يدعى محمد فاضل، فالتقينا على تراس فندق «سان جورج». يومها كنت أعمل في مجلة «الأحرار»، مما يعني أن ذلك كان في أواخر عام 1969 أو مطلع عام 1970 قبل انتقالي الى جريدة «الكفاح». أما محمد فاضل فقد تم إعدامه لاحقاً بتهمة الاشتراك في المؤامرة المزعومة التي قيل إن مدير الأمن العام آنذاك ناظم كزار قد دبرها لإطاحة الرئيس البكر في منتصف عام 1973، ومن مفاعيلها اعتقال القائد البعثي المعروف عبد الخالق السامرائي والحكم عليه بالإعدام، كما مرّ.

الداعم لإيران، حيث استرسل في هذا المنحى، فقد حاولت من جهتي أن ألفته الى الدور الفلسطيني في المسألة اللبنانية، وكان الموقف الرسمي الفلسطيني في ذلك الوقت مؤيداً لإيران أيضاً. فقلت له: «ألا تخشى أن تحدث ردة لدى العراقيين ضد الفلسطينيين وقضيتهم من جراء موقف قيادتهم ضدكم في الحرب؟». فقال جواباً عن ذلك: «والله هذا احتمال وارد. وكان يمكن أن يحصل هذا لولا المربِّي». وصمت برهة ليبدد أي التباس بالقول: «إن المربي هو حزب البعث العربي الاشتراكي».

ثم عدنا بالحديث الى موضوع السلاح والتسلح، وهو بيت القصيد الذي يعيدنا الى إعلان السادات عن بيع أسلحة سوفياتية الصنع من الترسانة المصرية على الرغم من انقطاع العلاقات الرسمية بين بغداد والقاهرة. فقد قال صدام في تلك المقابلة إنه يطالب بقية دول العالم بالحياد في الحرب بين العراق وإيران. فقلت له عندئذ: «سيادة الرئيس، هناك نوعان من الحياد في هذه المسألة: واحد يمتنع عن مساعدتك وعن مساعدة عدوك، وآخر يساعدك ويساعد عدوك، فأيهما تقصد؟».

فقال بعد برهة من التفكر: «والله الذي يساعدني ويساعد عدوي لا بد أن نيته سيئة».

ثم استطرد قائلاً إنه يقبل السلاح والمساعدة من أي جهة كان «ما عدا إسرائيل». وهذا ما جعلني أدون ملاحظاتي حول ذلك الحديث في هذا الكتاب. ذلك أنني قرأت في وثائق سرية أميركية أفرج عنها في السنوات الأخيرة بموجب «قانون حرية المعلومات» تتحدث عن هذا الموضوع في إطار مختلف لكنها تؤكد صدقية صدام في تصريحه المذكور لـ«الحوادث» بأنه لا يقبل أي مساعدة من إسرائيل[16]. ومن تلك الوثائق شهادات لعضو مجلس الأمن القومي الأميركي في عهد رئاسة رونالد ريغان الأولى هوارد تايتشر جاء فيها: «بعد توقيع الرئيس ريغان توجيهه بأن تعمل أميركا قصارى جهدها لمنع هزيمة العراق في الحرب مع إيران، قاد مدير «وكالة الاستخبارات المركزية» وليام كايسي شخصياً الجهود الكفيلة بحصول العراق على ما يكفي من الأسلحة، بما في ذلك القنابل العنقودية، مع قيام أميركا بتأمين التسليفات المالية اللازمة للعراق، وتزويده بالمعلومات وبالتوجيه العسكري الاستراتيجي. كذلك قدمت «وكالة الاستخبارات المركزية» للعراق عن طريق أطراف ثالثة من بينها مصر وإسرائيل معدات حربية تتوافق مع أنظمة سلاحه السوفياتية الصنع».

لكن هذا الشاهد نفسه يقول في شهادة لاحقة إن الإسرائيليين في عام 1984 قرروا أن إيران أخطر عليهم من العراق بسبب وجودها على حدودهم في لبنان، فعرضوا مساعدة العراق سراً. وقال إنه حضر اجتماعاً بين وزير الدفاع

(16) The USA In Bed With Saddam, From US Sources, GGB Reprints, Jan 2004

الأميركي آنذاك دونالد رامسفيلد وبين اسحق شامير وزير الخارجية الإسرائيلي حيث تم بحث هذا الموضوع وقام شامير بتحميل رامسفيلد رسالة خطية بهذا المعنى الى وزير الخارجية العراقي طارق عزيز، لكن الوزير العراقي رفض تسلم رسالة شامير قائلاً، حسب شهادة تايتشر: «إذا تسلمتها فإن الرئيس صدام سوف يعدمني على الفور».

وهناك ملاحظتان أخريان حول اللقاء المذكور مع الرئيس صدّام تتعلقان بما يدور في الكواليس الإعلامية العراقية في ذلك الوقت. الملاحظة الأولى حول التعاطي العراقي مع المقابلات الصحافية المسجلة مع المسؤولين العراقيين. فقد جرت العادة أن تقوم أجهزة وزارة الإعلام بتفريغ الشريط وعرضه على المسؤولين المعنيين لتنقيحه ثم إصدار نسخة مطبوعة عن الحديث المنقح كما تريده الأجهزة العراقية أن يصدر في الصحف المعنية. لكن بالنسبة الى حديث الرئيس صدّام مع بعثة «الحوادث» المؤلفة من هدى الحسيني ومني، فقد استدعاني وزير الإعلام لطيف الدليمي الى مكتبه في الوزارة وقال لي إن الرئيس يشعر بأنه اشتط قليلاً في حديثه عن سوريا، لكننا سنترك لك تقدير الأمر ونعطيك الشريط كاملاً كما هو مسجل وتصرف به كما تشاء. فتساءلت بيني وبين نفسي عندئذ هل هذا دليل على الثقة بي أم أنه نوع من الامتحان إن لم أقل «الفخ». لكنني لم أبلغ فاضل البراك بما قاله لي وزير الإعلام لئلا أكون سبباً في تعقيدات جديدة، كما جرى بالنسبة الى المقابلة قبل تقريرها. وفي الحقيقة لم أقم بإجراء تعديلات تذكر على الحديث كما نشرته «الحوادث» في حينه، سوى بعض التعديلات في الأسلوب لتخفيف اللهجة ضد سوريا.

أما الملاحظة الثانية فهي أن وزارة الإعلام العراقية عندما أصدرت كتابها المتضمن لأحاديث الرئيس صدّام مع الصحافيين، نشرت جميع مقابلاته وأسقطت منه مقابلتنا، فكانت المقابلة الوحيدة التي لم تنشرها وزارة الإعلام، مما ينبىء بأن مضمون تلك المقابلة لم يعجبهم. والواقع أن «الحوادث» في أيامنا لم تكن كغيرها من الصحف العربية، بمعنى أن درجة استقلاليتها كانت أعلى بكثير من غيرها، وبالتالي فإنها لم تكن لتتقبل بسهولة طريقة الإملاء عليها. وقد قدرت للوزير العراقي احترامه لاستقلالية «الحوادث» عندما امتنع عن التصرف بالحديث وسلمنا الشريط كاملاً لنتصرف به كما نرى مناسباً، أيا كانت الاعتبارات الأخرى.

•••

في نهاية الأسبوع السابق لعودتنا الى لندن جاءني الى الفندق الصديق عبد الجليل حمود (أبو فرات)، وهو من أهالي مدينة الرقة في سوريا على نهر الفرات، كان لاجئاً في العراق وينتمي الى «عشائر طي» التي لها امتدادات في العراق، وقال لي إنه سوف يصطحبني معه الى غداء مصالحة بين العشائر في

إحدى الضواحي القريبة من بغداد، وأن أحد شيوخ العشائر سوف يمر علينا بسيارته لنقلنا الى هناك[17]. وكنت في اليوم ذاته مدعواً الى غداء في منزل ابن شقيق الرئيس أمين الحافظ واسمه أيضاً «أبو عبدو»، حيث حضّرت لنا السيدة أم عبدو غداءً حلبياً أصيلاً، فاعتذرت من أبو فرات، لكنه أصر فأحرجني، ولكي يفك حرجي اتصل بنفسه بالسيدة أم عبدو واعتذر منها عن هذا الإشكال طالباً تحويل الغداء الى عشاء، وهكذا كان.

وبعد دقائق جاء الشيخ الى الفندق بسيارة «مرسيدس» فخمة وساق بنا قرابة الساعة الى منطقة خارج بغداد شبه صحراوية، هي منطقة «الراشدية» شمال بغداد. وقبل وصولنا الى المكان المنشود رأيت عشرات السيارات متجمعة في بقعة صبخة من الأرض فظننت أن المكان هو مكان لبيع السيارات القديمة مثل سوق «الحرج» في الكويت، فأبلغني أبو فرات رداً على استفساري هذا بأن هؤلاء كلهم معازيم، فتساءلت من أين يأتون بطعام كاف لهذا العدد الضخم من الناس.

ولما وصلنا الى السرادق الضخم، وهو عبارة عن مضرب واسع يضم عشرات المقاعد على دائره، قدمني أبو فرات الى كبير الشيوخ، وأظن أن اسمه «الشيخ خميِّس»، وعرّفه عني وأجلسني الى جواره وجلس هو الى يساري، فكنا كلانا نشازاً في ذلك المجلس المهيب حيث المتواجدون الكثيرون فيه يرتدون الملابس العربية وعلى رؤوسهم الكوفيات والعقالات، بينما أبو فرات وأنا وحدنا نلبس الملابس الإفرنجية بربطات العنق. وأبلغني الشيخ أن مجلسه هذا هو مجلس فصل في نزاع بين إحدى العشائر مع عشيرة أخرى تدعى «البو عامر»، ووجود الصديق أبو فرات كان ضرورياً لكون النزاع بين العشائر الطائية، ولست أدري ما هي القضية التي اقتضت هذا الفصل، لكن الشيخ المذكور على سبيل المزاح اعتبرني من فصيل عشائر «بو عامر»، وهي عشائر يعود نسبها الى قريش، باعتبار أن أبو فرات كان يناديني بكنيتي «أبو عامر».

وبعدما دار علينا الشاي، ثم القهوة، ثم الشاي ثم القهوة، وبعد مداولات جانبية بين الشيوخ نهض كبيرهم ودعانا الى الغداء خارج السرادق الكبير، واقتادنا الى جانبه في مقدمة الضيوف. وفي الخارج رأيت مشهداً لم أرَ مثله في حياتي وتأسفت لأنه لم تكن معي آلة تصوير لألتقط له صورة تذكارية.

(17) علمت بعد سنوات أن أبو فرات قتل وزوجته أم فرات في حادث سير مروّع على طريق الأردن، وكان قبل ذلك يأتي وزوجته لزيارتنا في لندن كل سنة تقريباً خلال النصف الأول من الثمانينات، وقد ولدت أم فرات ابنتها الصغرى ديالى في العاصمة البريطانية، وبموجب القوانين السارية فهي تحمل الجنسية البريطانية لكنني لا أعرف ما إذا كانت قد حصلت عليها. وقد آثر عبد الجليل تسمية بناته على أسماء الأنهر العراقية ـ السورية من «فرات» الى «دجلة» الى «بردى» الى «ديالى». وكان في كل مرة ألتقيه يحدثني عن ابن بلده الطبيب والأديب المعروف الدكتور عبد السلام العجيلي الذي لم تسمح الظروف بأن ألتقي معه، كما وعد أبو فرات أكثر من مرة، وهو من روّاد كتابة القصة والرواية في العالم العربي.

فقد صُفت عشرات المناسف على صفين فوق طاولات خشبية، كأنهم صف من العسكر، وهي وليمة تقتضي ذبح قطيع كامل من الغنم. واقتادنا الشيخ الى المنسف الأول الأقرب الى باب السرادق فوقفنا، أبو فرات وأنا، على جانبيه متقابلين، ووقف الشيخ الى جانبي، ثم دعانا الى غسل أيدينا، فصب هو الماء لنا بنفسه وحمل المنشفة. والحقيقة أنني لم أكن معتاداً على الأكل واقفاً، ولا على الأكل باليد. والمرة الوحيدة التي أكلت فيها باليد في العراق هي عندما دعاني الشيخ تشثير بن مطلق السلمان الى غداء بسيط من الدجاج والمرق في ناحية المجر بالعمارة، لكننا حينها أكلنا على القاعد.

ولاحظ الشيخ ارتباكي فتقدم مني وأخذ يقتطع قطعاً من اللحم الجيد ويقدمها لي قائلاً «إنها طلي»، أي أن الخروف المقتطعة منه صغير السن ولحمه طري وندي. وبعدما شبعنا كرر الشيخ، الذي لم يكن قد أكل بعد، طقوس الغسل فصب لنا الماء وحمل المنشفة. وتبين لي أن المعازيم هم الذين يأكلون أولاً، ويليهم في وجبة تالية أهل البيت العازمون، وفي وجبة أخيرة يأتي الخدم والرعيان ومن حضر. فإذا نظرت الى تلك المناسف المعرمة بالرز وفوقها الخراف المطبوخة قبل الغداء تشعر بالانشراح، وإذا نظرت اليها بعد انتهاء الغداء تشعر بالانقباض لأنها تتحول الى هياكل عظمية خاوية!

وفي المساء توجهنا الى منزل أبو عبدو لتناول العشاء الذي أعد للغداء الذي أعتذرنا عنه تفضيلاً لحفلة المناسف. فوجدنا أم عبدو وقد أعدت لنا أهراماً من المحاشي الحلبية من كل لون والتي بنيت بشكل هندسي رائع من قاعدة عريضة في الأسفل الى ذروة ضيقة لا تتسع إلاّ لحبة واحدة. وقد ضم هذا الهرم البديع من المحاشي، الكوسا، وورق العنب، والبندورة، والبصل، والفليفلة وغيرها. وقلت لأم عبدو: «حرام أن نهدم هذا البناء البديع لنأكله. يجب أن نجلس قبالته نتفرج عليه فقط فنشبع من منظره».

وعندما أوصلني أبو فرات الى الفندق، طلب مني عدم الارتباط بأحد في اليوم التالي لأنه سيمر علي في الصباح لنقوم بزيارة الى «الخال». فقلت له: «ومن هو الخال؟»، فقال إنه خير الله طلفاح خال الرئيس صدام ووالد زوجته ساجدة. وكنت أعرف الكثير عن خير الله طلفاح بالتواتر، لكنني لم أكن أعرفه شخصياً. وقبيل الظهر توجهنا الى منزل طلفاح وكان جزء منه لا يزال قيد البناء «واقفاً على العظم» كما يقولون في لبنان. فاستقبلنا في البناء المفتوح وغير المكتمل جالسين على الكراسي في الهواء الطلق بين العواميد الإسمنتية. والحقيقة أنها كانت جلسة طريفة تخللتها إشارات مفتحة للأعين.

بعد جلوسنا وتعريف أبو فرات عني، استهل خير الله طلفاح حديثه عن الأديان، ربما ليثبت لي إنه ضليع بالديانة اليهودية من خلال معرفته بالتوراة. وكان بالفعل ملماً إلماماً واسعاً بمنطوق التوراة، لكنه بدا لي أن علمه بها فيه

الكثير من السطحية والبناء على أفكار مسبقة. ثم قام من مقعده وذهب الى البيت الأصلي بجوار البيت الجاري بناؤه وأحضر مجموعة مجلدة جيداً من كتبه وأهداني إياها من غير أن يكتب عليها أي إهداء، كما جرت العادة في مثل هذه الحالات. وقد تركت تلك الكتب في سيارة أبو فرات، لكنني أتذكر عنوان أحدها وهو: «كيف السبيل الى الله». طبعاً يتندر العراقيون الى اليوم حول كتابه «ثلاثة ما كان يجب أن يخلقهم الله: «اليهود، والإيرانيون، والذباب».

لكن ما قاله خير الله طلفاح في تلك الجلسة بدا لي أنه أهم بكثير من كتبه كلها، ومما كنت أسمع من مسؤولين عراقيين كثيرين متقيدين بالشعارات الرسمية.

وسوف أروي هنا الأشياء التي دونتها تالياً عن تلك الجلسة كما وردت على لسانه. فقد بدأ بالشكوى ممن أسماهم «الشباب»، ويقصد بذلك صدام حسين صهره ووزير الدفاع عدنان خير الله ابنه. فقال: «الشباب هذه الأيام لا يسمعون مني ولا يردون عليّ. أحمد حسن البكر كان على الأقل يسمع ما أقوله. أما هم فليسوا مستعدين أن يسمعوا من أحد. فكم قلت لصدام إن غانم عبد الجليل يتآمر عليك، وهو يقول لي: ليت عندي عشرة مثل غانم عبد الجليل لكان اطمأنّ بالي ونمت قرير العين. ثم ثبت أنه في مقدمة المتآمرين كما سبق أن حذرته مراراً». طبعاً لم أخبره أنني كنت أعرف غانم عبد الجليل وأنني تعرفت عليه عن طريق طارق عزيز، بل تركته يسترسل في حديثه على مداه.

ثم قال: «إنني لا أفهم ماذا يفعل هؤلاء الشباب. ما أريده للعراق هو نظام كالنظام السعودي: ملك وأمراء وحواشي ورعايا تسمع وتطيع».

وغني عن القول إن خير الله طلفاح، حتى من قبل أن يجري تعيينه أميناً للعاصمة بغداد، كانت تدور حوله أقاويل عن أطماع مادية الى درجة محاولة اغتصاب أملاك الآخرين، وفرض بيع كتبه للعراقيين عن طريق الدوائر الرسمية على سبيل «الخوّة» أو الضريبة. هذه أشياء سمعتها ولا أستطيع أن أؤكدها أو أنفيها. لكن فاضل البراك عرف بلقائي مع خير الله طلفاح لكنه لم يسألني عن الموضوع، ولا أبدى رغبة بمعرفة ما دار من حديث. ولكي يُشعرني بأنه عارف قال لي: «هناك من يظن أننا طالما نحن في الحكم فإننا نملك العراق». ولم يقل أكثر من ذلك.

وقد أخبرني طلفاح في تلك الجلسة أن الشيخ سعد العبد الله رئيس الحكومة الكويتية وولي العهد آنذاك، جاء لزيارته عندما كان في بغداد في زيارة رسمية. وقال لي، كما دوّنت في أوراقي، وقد نشرت ذلك في إحدى المقالات التي كتبتها لمجلة «سوراقيا» الصادرة في لندن، كما سأروي لاحقاً عن مراحل عملي الصحافي في الاغتراب: «سألت الشيخ سعد واستحلفته أن يعطيني جواباً صريحاً وصادقاً عن سؤالي: فلنفترض أن العراق هو الذي احتل الجزر الإماراتية الثلاث في الخليج، الطنب الكبرى والطنب الصغرى وأبو موسى، لا

شاه إيران، فماذا كنتم تفعلون؟ ورد الشيخ سعد بالقول: كان صراخنا سوف يشق عنان السماء، ونلعنكم ونشتمكم صباح مساء، ونقدم الشكاوى ضدكم لدى كل من يقبل شكوانا بدون استثناء. فقلت له: إذهبوا إذن وحنّوا أقفيتكم».

•••

بادرني فاضل البراك بالسؤال في اليوم التالي بقوله: «أين أنت يا أخي. بحثت عنك في كل مكان. كنا سناخذك معنا، أنا والعائلة، الى جزيرة صغيرة ولطيفة في النهر حيث أخذنا أكلنا معنا وقضينا نهار العطلة كله». وحتى ذلك الوقت لم أكن قد تعرفت على زوجته السيدة جنان. وقبل أن أتفوه بأي كلمة قال: «أدري.. اعتقلك الأخ أبو فرات، وضحك».

فقلت له: «على سيرة الاعتقال، لماذا اعتقلتم رياض أبو ملحم؟»[18].

قال: «هو صديقك أليس كذلك؟ فماذا أخبرك هو؟».

أجبته: «لم يخبرني شيئاً، بل إنني لم أعرف بالخبر إلاّ بعد مدة».

قال: «كيف يكون صديقك ولا يخبرك بأمر من هذا النوع؟».

فقلت: «لم يخبرني. ربما خجل بذلك أو تخابث».

قال: «هذه الكلمة الأخيرة هي الأصح. ها أنت إذن تعرف».

عندئذ قلت له: «يا أخي أبو علي، ليست المسألة مسألة شخص فرد، أياً كانت صفته. فها أنتم ساجنون جميع الناس ومسجونون معهم. فالسجّان أيضاً هو سجين. هناك أمن بالقمع والقسوة، وهناك أمن بالحوار والانفراج. ومن حسن الحظ أنك أنت رجل ثقافة وحوار. فاذهب مع الناس بالحوار الى آخر مدى وأنتم الرابحون. فماذا يمنع أن تجلس مع الآخرين مثل جلستنا هذه وتتباسط معهم

---

(18) رياض أبو ملحم صحافي لبناني كان مديراً للتحرير في جريدة «المحرر» عندما كنت أنا رئيساً لتحرير جريدة «بيروت» المجاورة في الشياح. وكانت «المحرر» لصاحبها وليد أبو ظهر موالية للعراق. وخلال الحرب اللبنانية انتقل أبو ملحم الى بغداد وأقام فيها عدة سنوات، حيث قيل لي إنه كلّف بإعداد كتاب عن سوريا، وفتحوا له الأرشيف الرسمي لمساعدته في البحث. لكنه لسبب من الأسباب لم يكمل بحثه ولم يصدر الكتاب، بل انتقل الى لندن في أواخر السبعينات وعمل معي في «الدستور» بالاتفاق مع صاحبها علي بلوط. وخلال عمله في «الدستور» قام بزيارة الى بغداد فجرى اعتقاله لأيام ثم أطلق سراحه وعاد الى العاصمة البريطانية حيث تقيم عائلته. لكن أحداً في المجلة لم يعلم بالأمر، وبعد عودته لم يكلم أبو ملحم أحداً بالموضوع. وخلال تلك الفترة جاء الى لندن الصحافي العراقي غازي العياش الذي كان وقتها مراسلنا في بغداد، وكان على علاقة صداقة مع علي بلوط من أيام بيروت، فأسر لي بالخبر وقال لي إنه حمل توصية الى صاحب المجلة بأن تمر المواد المرسلة من بغداد عليّ وليس على أي أحد آخر (يقصد رياض أبو ملحم). لكن أبو ملحم لم يخبرني شيئاً عن قضيته، وأنا من جهتي لم أفاتحه بالأمر، مع أنه كانت بيننا في لندن علاقات عائلية واجتماعية. وبعد إنتقال ملكية «الدستور» الى السودانيين غادر لندن الى باريس حيث أصدر مطبوعة باسم «الطليعة» قيل إنها بتمويل ليبي عن طريق عضو القيادة الليبية أبو بكر يونس. وقد تعاونت معه في تلك الفترة بتزويده بمواد ذات طبيعة اقتصادية. وبعد أشهر انتقل الناشط البعثي ناصيف عواد الى العاصمة الفرنسية حيث أصدر مطبوعة هي الأخرى باسم «الطليعة العربية»، فنشأت بينهما منازعة قانونية أمام المحاكم الفرنسية، كما قيل لي، لكنني لم أقف على أي تفاصيل، لأنني كنت قد خرجت من الدائرة الإعلامية البعثية، ولم أعد على اتصال مع أي منهما. ولم يطل الوقت بالمطبوعتين كلتيهما فأغلقتا أبوابهما.

في كل الأمور كما نتباسط الآن».

كان يصغي اليّ وهو مطرق الرأس. ثم رفع رأسه وقال: «أريد أن أخبرك هذه الواقعة. قبل مدة كان هناك سجين محكوم بتهمة تهريب وتجارة المخدرات، لأنه كان يستحصل عليها من الخارج لبيعها الى المواطنين المصريين العاملين في العراق[19]. وهذا السجين شاطر وألعبان، فاستدرج الشرطي حارس باب السجن بحجة أنه يريد أن يهمس في أذنه شيئاً، وعندما اقترب منه أمسك بالشرطي وانتزع سلاحه ومفاتيحه، كما تشاهد في أفلام الكاوبوي، وهرب تاركاً باب السجن مفتوحاً. لكن أحداً من بقية المساجين لم يخرج ولو خطوة واحدة خارج الباب المفتوح».

وقلت له ممازحاً: «يعني أن السجناء مرتاحون في سجنهم الى درجة أنهم لا يريدون الخروج منه ولو فُتح لهم»!

قال: «الناس في هذه المنطقة لا يسيرون على القانون إلاّ بالإكراه. الأشخاص أنفسهم الذين يذهبون الى لندن مثلاً يمشون على القانون، ويعودون الى بلدانهم فيخالفون. يجب أن يتعودوا على طاعة الحكم لكي يتعلموا طاعة القانون».

فقلت له إن هذا الاختصار المهول للمشكلة بجملة واحدة تذكرني كيف قضى كارل ماركس خمس عشرة سنة من عمره في البحث وعشر سنوات في الكتابة ليضع كتاب «رأس المال» ليشرح شيئاً قاله السيد المسيح في تفسير الرأسمالية بجملة واحدة، هي: «من معه يُعطى ويزاد ومن ليس معه يؤخذ منه». وأضفت: «هذه سوف أسجلها لك: طاعة الحاكم شرط لطاعة القانون».

ثم انتقل الحديث بيننا الى تجربتي في العراق أيام عبد الكريم قاسم، فامتدحت أهل الجنوب وطيب معشرهم وحسن ضيافتهم لنا أثناء وجودنا في العمارة. فلم يعجبه كلامي، وفاجأني بكلمة قاسية قال لي فيها: «ذول أبو عامر ما يسوون». وكرر هذه العبارة بجدية لئلا أفهمها من باب المزاح. وراح بعد ذلك يكوي بلسان لاذع عائلة آل الحكيم. وفجأة رأيت فاضل البراك يتحوّل الى إنسان آخر، وروى لي إن لديه صوراً لواحد منهم وهو في غرفة نومه «يلاعب زوجته ملاعبات جنسية غير مألوفة». وقال لي: «هل تريد أن تشاهدها؟». فقلت له: «الرجل في بيته ومع زوجته وله أن يفعل ما يريد، فما دخلكم أنتم؟. هل تتعقبون الناس الى غرف نومهم؟ لا أريد أن أشاهد هذه الصور. إنها حالة مرضية». استحى قليلاً من هذا التوبيخ المؤدب، لكنه عاد فكرر عبارة: «ما يسوون».

ومع أن آل الصدر كانوا أشد خصومة لحكم صدام حسين، فقد لاحظت أن نظرة البراك اليهم كانت أكثر احتراماً من نظرته الى آل الحكيم. ومن غير أن

(19) كان صدام حسين قبل سنوات من الحرب مع إيران قد فتح الباب لاستقبال الآلاف من الفلاحين والعمال المصريين لتنشيط الزراعة والاقتصاد العراقي. ويقال إن عدد المصريين العاملين في العراق آنذاك تجاوز المائة ألف.

أدخل معه في الموضوع قال لي من تلقائه إنه هو شخصياً ليست له علاقة بمقتل الإمام محمد باقر الصدر[20].

وبعد فترة من عودتي الى لندن وردتني الى «الحوادث» مكالمة هاتفية من بغداد تلقيتها في مكتب الزميل ريمون عطا الله مدير التحرير آنـذاك، فإذا بفاضل البراك نفسه على الخط ليطلب مني أن أنشر خبراً في المجلة عن حوار يجري بين النظام العراقي وبين «حزب الدعوة». ولاحظت أن البراك يقول ذلك منفرجاً، وكأنه يستذكر تلك المحادثة في حديقة مقر الأمن العام. وبالفعل نشرت خبراً قصيراً في مجلة «الحوادث» عن «الحوار» مع «حزب الدعوة» من غير ذكر المصدر، لكنني ألحقت الخبر بفقرة استطرادية عن إعدام مؤسس الحزب الإمام محمد باقر الصدر. وعندما التقينا ثانية بعد أكثر من سنة قال لي: «أبو عامر لويش هاي الفقرة الأخيرة في الخبر». فقلت له: «لاستكمال الخبر من الناحية الصحافية. هذا أسلوبنا في «الحوادث».

ورأيته يبلع ريقه ويتهمز ليقول شيئاً وكأنه يحاول الموازنة بين البوح به وبين صرف النظر عنه. وأخيراً قال لي: «تدري أبو عامر ذاك الخبر سوّى مشكلة. فقد قامت قيامة رئاسة الجمهورية وفتحوا تحقيقاً لمعرفة مصدر الخبر. ولما سألونا قلنا لهم إننا نحن مصدره».

•••

بعد ذلك، في صيف 1982 قررت ترك «الحوادث» للعودة الى بيروت رئيساً لتحرير مجلة «الصياد». وفي صيف تلك السنة اتصلت هاتفياً بفاضل البراك على رقمه الخاص المباشر من مكتب «دار الصياد» في لندن الكائن وقتها في حي سكني في شارع «مور ستريت»، بهدف إبلاغه قراري بالعودة الى بيروت. فسألني عن الأسباب، فقلت له ممازحاً ما كانت تقوله لي والدتي في حكايات الطفولة: «اشتاقت البلاد لأهلها». فقال: «وغير ذلك». فأجبته بأن هناك تباشير تبدو واعدة، فنصحني بعدم الاستعجال. فقلت له عندئذ: «علينا أن نسهم في التخفيف من تورط المجتمع المسيحي في لبنان مع إسرائيل»[21]. فقال: «نحن في العراق لسنا في هذا الوارد». ولم يفسر لي ما قصد بهذه العبارة. ثم سألته عن أحواله وأحوال عائلته فأبلغني أنهم يعدّون للاحتفال بالعيد الأول لميلاد ابنته، وأضاف مازحاً: «عبالك هي الأميرة ديانا»!

وفي تلك المكالمة دعاني الى زيارته إذا كان ذلك ممكناً. فبعثت له برسالة أكدت

---

(20) الإمام محمد باقر الصدر هو مؤسس «حزب الدعوة» في العراق وقد تم إعدامه مع شقيقته بنت الهدى قبل عام تماماً من زيارتي المذكورة الى بغداد، فيكون ذلك في شهر نيسان/أبريل من عام 1980.

(21) في ذلك الوقت كان الاحتلال الإسرائيلي لمدينة بيروت ما زال قائماً، ولم يكن قد تم بعد انتخاب بشير الجميل لرئاسة الجمهورية. أما انتقالي الفعلي الى لبنان فكان في خريف تلك السنة بعد انتخاب الشيخ أمين الجميل للرئاسة وإعادة توحيد مدينة بيروت.

له عزمي على العودة الى بيروت في الخريف، لأن الأولاد يطالبونني بإجازة صيفية في بلد مشمس في جنوب إسبانيا أو جنوب فرنسا قبل أن أغادرهم الى بيروت. فبعث لي برسالة قصيرة على ورقة صغيرة بخط يده يقول فيها:

الأخ أبو عامر المحترم

تحية أخوية

استلمت رسالتك. المهم والذي أريد أن أقوله لك أن تخبر الأولاد بأن العراق أهم ما يشتهر به هو حرارة الشمس الممزوجة بالغبار ذي الرائحة اللطيفة التي جعلت وجوه العراقيين داكنة السمار. فأهلاً بالأولاد في بلدهم العراق. أرسل لنا أسماء العائلة لكي نرسل لكم بطاقات السفر وعلى الرحب والسعة. مع تحياتي والى اللقاء.

أخوك فاضل البراك.

طبعاً، لم يكن بالإمكان تلبية هذه الدعوة الى الفرن العراقي لأنني أعرف ما هو صيف العراق، وكيف كان الميسورون من العراقيين يهربون منه الى لبنان في زمن مضى. كما أن العائلة كلها لم تستحسن هذه الفكرة.

ولا أظن أنه هو أيضاً استحسن عودتي الى بيروت، لأنني عندما فاتحته في موضوع انتقالي الى نيويورك[22] قبل ذلك تلقيت منه رسالة مطوّلة وبخط يده تتناول الى جانب ذلك مسائل تتعلق بسير الحرب مع إيران، وبأمور أخرى تتعلق بمساعي صاحبة «الحوادث» في حينه السيدة أمية اللوزي للتفاهم مع وزارة الإعلام العراقية. وفي ما يلي نص تلك الرسالة المليئة بالأخبار:

الأخ سليمان المحترم

تحية أخوية وبعد

استلمت رسالتكم. نبادلكم الاشتياق وبغداد ترحب. عندما تريد السفر أرسل لنا رسالة وسوف نزودكم بالبطاقات وعلى الرحب. نقدّر ظروفكم ولا تستعجل في أمر لا تراه ضرورياً. وإذا تحاول جاهداً لكي ترضي العرب «المتفلشة» فهذه غاية من الصعوبة إدراكها، ومع ذلك لا بد من الحفاظ على بعض الأصوليات.

إن صاحبة المجلة سوف تأتي الى بغداد لوحدها حسب طلبها على ما يبدو، ولا نعرف ماذا خلف الكواليس الإعلامية، والله نسأل أن لا نكون من أصحاب الكواليس.

دون أدنى شك أن كتاباتك في «الحوادث» أعطتها نكهة خاصة، ونحن نتابع ما

(22) موضوع الانتقال الى نيويورك هو ما أشرت اليه في السياق عن تفاهمي مع مكرم عطية على اللقاء في نيويورك لبحث إمكانية إصدار مطبوعته النفطية من هناك (راجع الفصل بعنوان «عالم النفط»)

تكتبون، وأنا معجب جداً حول ما كتبتم عن الجيش العراقي. وباعتباري مهتماً بهذا الجانب فإن الكثير من الملاحظات التي ذكرتموها لم تخطر على بالي، لذلك أعتبر أنك أضفت شيئاً جديداً وغير مطروق. فلله درك حسبما يقولون في العراق عند إبداء الإعجاب!

اتصلنا بالأخ أبو فرات وأخبرناه بأن لك رسالة مع مبلغ من المال من السيد سليمان الفرزلي، وسوف نزودك بالتفاصيل إذا رغب هو في ذلك[23].

أكتب لنا ما استطعت لأن في ذلك ما يخفف بعض الشيء، ولأن تعليقاتك لطيفة وخاصة اهتمامك بالأبيات الشعرية الهادفة. ذكرت لي في رسالة سابقة ولم يتسنى لي الإجابة عنها أنك قد استقرأت عدم تفاؤلي.

يا أخي، الإنسان لا يعيش في ظرف واحد، وقد لا تكون ساعاته متساوية. ولكن جميع هذه الظروف لا تؤثر على موضوع التفاؤل، لأننا خلقنا متفائلين، وهذا سرُّ حياتنا في هذه الدنيا. عفواً، لا أريد أن أسترسل لكي لا أعقد الأمور بالمنطلقات الفلسفية... لكن متفائلين حتى لو يقاتل العرب جميعاً في «قره تشوك»[24].

أكتب لك ونحن نعيش أجواء أكبر معركة خاضها جيشنا المجاهد منذ بداية الحرب والنتائج تبشّر بالخير إنشاء الله بالرغم من التهويشات الفارغة. والمثل يقول: «اللي يغلب بالأخير، واللي يضحك يضحك بالتالي».

مشتاقون، ولدينا كذلك أحاديث كثيرة وتحتاج الى قعدة.

والله الموفق.

تحياتي: فاضل البراك.

وفيما أنا في بيروت ربيع عام 1983، جاء فاضل البراك الى لندن في زيارة لا أعرف غايتها، وأثناء وجوده في العاصمة البريطانية اتصل هاتفياً بمنزلي وتحدث مع زوجتي سائلاً عني فأبلغته أنني في بيروت فأرسل الي معها سلامات وتحيات أخوية. وبعد أيام في شهر نيسان/أبريل من تلك السنة جاءت زوجتي

---

(23) عندما كنت في بغداد في زيارتي الأولى التي تمت خلالها مقابلة الرئيس صدام حسين، طالت إقامتنا في بغداد بسبب غياب الرئيس في المحافظات وتأخير الموعد، فاضطررت الى استدانة مبلغ من المال من الصديق عبد الجليل حمود (أبو فرات)، فطلبت من فاضل البراك سداد المبلغ له وهو لا يتعدى بضع مئات قليلة من الدنانير.

(24) قرية كردية في أقصى شمال شرق سوريا، كنت في إحدى جلساتنا الليلية الطويلة قد رويت له عنها نكتة أخبرنيها صديق سوري مفادها أن حزب البعث في أيام حكم صلاح جديد والمزايدات اليسارية طرح شعار «حرب التحرير الشعبية» وقرر إيفاد دعاة من الحزب لشرح مفهوم الحرب الشعبية في الأرياف السورية، فتوجه أحدهم الى بلدة «قره تشوك» وجمع الأهالي من الأكراد ليشرح لهم ذلك فلم يفهموا عليه. وطلب منه أحدهم أن يعيد الشرح بلغة مفهومة، فقال له المبعوث الحزبي: «حرب التحرير الشعبية تعني أنه إذا سقطت دمشق، نحارب من حمص، وإذا سقطت حمص نحارب من حماه، وإذا سقطت حماه نحارب من حلب، وإذا سقطت حلب نحارب من القامشلي، وإذا سقطت القامشلي نحارب من قره تشوك». فهز الرجل الكردي رأسه وقال للموفد البعثي: «شام بيروح، حمص بيروح، حماه بيروح، حلب بيروح، قامشلي بيروح... طز على قره تشوك». وقد رسخت هذه النكتة في ذهن البراك وراح يرويها في مجالسه.

لزيارتي في بيروت مع ابني الأصغر جهاد للاطلاع على أحوالي، وأبلغتني عن مخابرة البراك في لندن. لكن أثناء وجودها في بيروت تم تفجير مبنى السفارة الأميركية في عين المريسة، فقررت أن نعود جميعاً الى لندن، فغادرت هي على الفور، ولحقت بها في الشهر التالي.

وعدت الى الالتحاق بجهاز تحرير «الحوادث» في لندن، وانتدبوني في صيف تلك السنة للذهاب الى بغداد حيث كانت تجري حملة واسعة للتبرعات من أجل المجهود الحربي. وفي بغداد استقبلني الصديق أبو فرات وشقيقه صبحي، وقمت بجولة على مراكز التبرعات في العاصمة العراقية فشاهدات مئات النساء العراقيات يقدمن حليهن الذهبية من خواتم وأساور وأقراط وخلاخل، وما الى ذلك، فكان بالفعل مشهداً مؤثراً ينم عن روح وطنية عالية. لكن زيارتي هذه المرة كانت قصيرة لم تتجاوز الأربعة أيام ولذلك كان لقائي مع فاضل البراك مضغوطاً. وفي ذلك اللقاء أبلغني أنه زار لندن واتصل بزوجتي، وقال لي: «طلبت أن يأخذونا هناك الى مطعم روسي فتذكرتك وتذكرت تلك الأيام الحلوة في موسكو ونحن نتنقل فيها من مطعم أذربيجاني، الى مطعم أرمني، الى مطعم تركماني».

وكان أبو فرات قد أبلغني أن الدكتور فاضل قد أرسل له رسالة تتضمن مبلغ ألفي دينار، فانزعجت من ذلك لأن المبلغ الذي استدنته لم يتجاوز الخمسمائة دينار، فعاتبت أبو فرات على قبول المبلغ فقال لي إنه لا يستطيع أن يرفض. لكنني في اللقاء الليلي مع البراك عاتبته بقسوة على هذا التصرف، وقلت له إن الرجل ليس بحاجة الى مثل هذا المبلغ، فقال: «والله لو كان معه مائة مليون فإنني لا يمكن أن أرسل له أقل من ذلك».

وكنت قد التقيت في الفندق بشاب أردني قال إنه كان يقيم في ألمانيا، وإنه الآن يقيم في بغداد لأنه خاطب فتاة عراقية، فعرفني عليها، وقال لي إنه ممنوع من السفر. وسألته عن سبب منعه، فتردد كثيراً قبل إبلاغي إنه كان يستورد السيارات الرياضية الغالية لكل من عدي ابن صدام ولؤي طلفاح خاله، وهو الإبن الأصغر لخير الله طلفاح، وإنهما يحاولان ابتزازه والتحايل عليه وإخضاعه لمضايقات شتى. وفي نهاية سهرتي الأخيرة مع البراك في تلك الزيارة، أبلغته ما سمعت عن منع ذلك الشاب الأردني من السفر، فهز برأسه وقال لي: «لا تشغل بالك بمثل هذه الأمور». ولست أدري كيف تطورت القضية لاحقاً.

وفي تلك الزيارة صيف عام 1983 أبلغني فاضل البراك أنه سوف يصدر قريباً كتاباً بحثياً عن المدارس الإيرانية واليهودية في العراق[25]، وإنه سوف يرسل

(25)بعد سنة تقريباً بعث اليّ بنسخة من كتابه هذا وهو بعنوان «المدارس اليهودية والإيرانية في العراق، دراسة مقارنة»، بغداد 1984، مطبعة الرشيد، طبع بموافقة رئاسة الجمهورية، ورقم الإيداع في المكتبة الوطنية هو 679 لعام 1984 وقد خصص ريعه للمجهود الحربي. وكالعادة كتب إهداء لي بخط يده بتاريخ 1984/7/9 يقول: «الى الأخ العزيز أبو عامر مع تحياتي. أخوك د. فاضل

لي نسخة منه عند جهوزه. وقال لي وقتها إنه استثنى من البحث المدارس المسيحية، على الرغم من دور الإرساليات الأوروبية في تأسيس تلك المدارس، وخصوصاً الرهبان والراهبات الفرنسيسكان من إيطاليا وفرنسا، وفي الموصل أساساً بالنظر الى وجود كثافة سكانية مسيحية هناك، وذلك «لأن المسيحيين العراقيين هم جزء أصيل من النسيج التاريخي للشعب العراقي»، على حد قوله، خلافاً لليهود والإيرانيين الذين هم جاليات وافدة من الخارج.

لكن ذلك اللقاء الأول خلال تلك الزيارة كان مزعجاً لي من البداية حين استهل حديثه معي بقوله: «لك عندي أخبار سيئة». وقبل أن أستوضحه الأمر قال: «صاحبك في العمارة توفي رحمه الله». وكان بذلك يقصد الشيخ تشيثير بن مطلق السلمان، فحزنت كثيراً لهذا الخبر السيء بالفعل. وكنت في قرارة نفسي، ومنذ أن التقيته ثانيةً في العمارة عام 1970، ورأيت بعيني أي ظروف مزرية يعيش فيها مع عائلته، أتوقع أنه لن يستطيع الصمود أمام تلك الظروف، فكان اللقاء بيننا في تلك الأثناء بمثابة وداع أخير.

ثم قال لي بعد ذلك: «وصاحبك الآخر في كركوك أحالوه على التقاعد». وكان يقصد اللواء الركن سالم الحاج عيسى الذي تحدثت معه بالهاتف في الزيارة السابقة من مكتب البراك في مديرية الأمن العام. وقبل أن أستوضحه الأمر قال لي إنه لم يعد يعرف عنه شيئاً، لا يعرف أين يعيش ولا يعرف ماذا يفعل. وهكذا انقطع اتصالي مع سالم الحاج عيسى للمرة الثالثة خلال عشرين سنة (1961-1981).

وعندما زرته لوداعه ليلة عودتي الى لندن، قال لي إنه في بداية الحرب قدم العاهل الأردني، الملك حسين، الى الجيش العراقي شحنة من الملابس العسكرية الشتوية، وقدم لكبار الضباط مسدسات أميركية الصنع ذات بكرة تتسع الواحدة منها لست رصاصات، وعلى مقبض كل منها شارة ذهبية، هي عبارة عن تاج يمثل العرش الأردني، «فقام الشباب بنزع التاج الأردني ووضعوا في مكانه النسر العراقي»، كما قال لي. وفتح جاروره وقدم لي واحداً من تلك المسدسات عليها النسر العراقي، فاعتذرت عن قبول تلك الهدية لأن اقتناء الأسلحة غير مستحب في بريطانيا، فقال لي: «خذه معك الى لندن»، فقلت له: «وماذا أفعل به في لندن؟ لدينا مثل مسيحي يقول: حيث السلاح هناك مسكن الشيطان». ويقول الفلاّحون في قريتنا: «البارودة داككها ابليس[26]. اسمح لي...

البراك». وهذا الكتاب على جانب كبير من الأهمية بحيث أن كنعان مكية في كتابه تحت الإسم المستعار سمير الخليل بعنوان «جمهورية الخوف» أشاد بالكتاب المذكور وبالجهد المبذول لإصداره، متفاجئاً بوجود وثائق قديمة من هذا النوع في الأرشيف العراقي ظن كثيرون أنها مفقودة.

(26) كانت البواريد أو البنادق القديمة تُدك أو تُحشى بالبارود والخردق، أو كريات الرصاص، يدوياً بشيش من الحديد لرصّها في ماسورة البندقية كي تنطلق بزخم عند «فقس» أو ضغط

إلاّ هذه». فنزل عند رغبتي وأعاد المسدس الى درجه.

•••

خلال تلك الفترة لم نكن نتواصل كالعادة، بسبب تطورات في الحرب وأخرى داخلية في بغداد لم أستطع تبينها أو فهمها إلاّ بعد وقت طويل، وبسبب عزمي على ترك «الحوادث» من جديد والانضمام مرة ثانية الى أسرة تحرير «الصياد» التي قررت إدارتها إصدارها من العاصمة البريطانية هذه المرة، وترافق ذلك مع خلاف حاد داخل أسرة «الحوادث» سوف أتحدث عنه لاحقاً مما أدى الى استقالة معظم المحررين منها، فانضم بعضهم الى مجلة «الصياد» لنعمل معاً تحت سقف واحد. وفي «دار الصياد» تلقيت منه كتابه «المدارس اليهودية والإيرانية في العراق» صيف 1984.

وحتى ذلك الوقت كان برزان التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدّام حسين، يُشغل منصب مدير المخابرات العامة، لكن خلافاً ما قد حصل فقام الرئيس العراقي بعزل برزان من منصبه هذا، وبعد فترة قصيرة، تسلّم المخابرات فيها ضابط عسكري تبين أنه قليل الخبرة، قام صدّام بنقل فاضل البراك من مديرية الأمن العام الى مديرية المخابرات العامة[27].

وقد سمعت بالتواتر يومها أن الدوائر العائلية اللصيقة بصدّام وأخيه برزان، نقمت على فاضل البراك لأنه قبل أن يأخذ مكان برزان (كأن أحداً في العراق في ذلك الوقت كان يستطيع أن يرفض مثل هذا التكليف). وسمعت أيضاً أن سبب عزل برزان يعود الى خلافات نسائية عائلية سببها اعتراض برزان على تزويج صدّام ابنته الى ابن عمه حسين كامل الذي فرّ لاحقاً الى الأردن في أواسط التسعينات ثم عاد الى بغداد ليلقى مصيراً بشعاً مع شقيقه ووالده. لكن قصة الخلافات النسائية، في رأيي، سخيفة وغير وافية كتفسير لما جرى حقيقةً.

ويمكن أن يتبين المرء حقيقة ما جرى وقتها من خلال حساسية صدّام المفرطة تجاه أي طرح جدي أو غير جدي لمسألة البديل عنه، كسبيل محتمل لوقف الحرب مع إيران، كما جرى بالنسبة الى عمر الهزّاع. وقد علمت لاحقاً، عندما رحت أتقصى أسباب إعدام فاضل البراك في مطلع التسعينات، أن بعض الدوائر الغربية استمزجت الإيرانيين حول وقف الحرب مع العراق من خلال

الزناد فيضرب ما يسمّونه «الديك» بصاعق مثبت باليد يتصل بالحشوة الداخلية، يسمّونه «الكبسونة»، فيشعلها ليحدث الانفجار المطلوب. لكن هذه العملية بطلت بعد صنع الطلقات الجاهزة والأوتوماتيكية، ومع ذلك ظل الناس يسمون عملية تلقيم الطلقات في البنادق الحديثة باسمها القديم «الدكّ».

(27) قام صدّام بتعيين ابن عمه علي حسن المجيد المعروف تالياً بلقب «علي الكيماوي» مديراً للأمن العام خلفاً لفاضل البراك. أما الضابط الذي خلف برزان في المخابرات لمدة وجيزة قبل تعيين البراك مديراً لها، فهو الفريق الركن هشام صباح الفخري قائد الفيلق الرابع في الجيش، ويقال إن صدام عزله بعد فترة قصيرة وأعاده الى الجيش لأنه أطلق سراح الشاعر شفيق الكمالي الذي عادوا فقتلوه مع ابنه بعد خروجه من السجن.

إبعاد صدّام حسين وتعيين برزان أخيه غير الشقيق مدير المخابرات العامة في مكانه، فقبل الإيرانيون بهذا المنحى. ويقال أيضاً إن المبادرة بهذا الشأن جاءت من الإيرانيين أنفسهم، لكن بعضهم اعتبرها من قبيل المناورة. وعندما استشمَّ الرئيس العراقي رائحة المحاولات الجارية عن تهيئة بديل عنه قام بعزل برزان من مديرية المخابرات.

لكنني بدوري استشميت شيئاً من هذا القبيل بالنسبة الى فاضل البراك نفسه في زيارتي الأخيرة له في بغداد أواخر عام 1985، بناء على طلبه وإلحاحه، كما سأروي الحكاية هنا. وكانت تلك الزيارة أخر مرة التقيت فيها البراك، وآخر زيارة لي الى بغداد في حياتي.

وعندما كتبت تحقيقي في «الحوادث» عن اندفاع النساء العراقيات الى التبرع بسخاء للمجهود الحربي، كما لاحظت خلال جولتي على مراكز التبرع صيف عام 1983، انزعج فاضل البراك مما كتبت عن سؤ فهم لما قصدت على الأرجح. فقد استهليت الموضوع بقصة عن حماسة النساء الفرنسيات للتبرع بحليهن من أجل دفع الغرامة التي فرضها على فرنسا المستشار الألماني أوتو فون بسمارك بعد هزيمته لجيش نابليون الثالث في عام 1870، بحيث استطاعت فرنسا دفع الغرامة في وقت قصير وغير متوقع، مما دفع بسمارك الى القول: «لو كنت أعلم أن لدى مومسات باريس هذا الكم من الحلي لفرضت على الفرنسيين أضعاف هذه الغرامة».

فما قصدته من ذلك هو التعبير عن الحمية الوطنية لنساء العراق، تشبيهاً لها بالحمية الوطنية لنساء فرنسا، لكن التفسيرات المغرضة لهذه الحكاية ركّزت على كلمة «المومسات» التي أراد بسمارك بها تحقير نساء فرنسا لأن حميتهن الوطنية استفزته، فقال بعض «الفهماء» في حينه أني تعمدت وصف نساء العراق بأنهن «مومسات».

•••

إنني لا أصدق جميع الروايات السخيفة عن التصفيات التي قام بها صدّام حسين في أواسط الثمانينات من القرن الماضي، من قتل عمر الهزّاع الى قتل شفيق الكمالي، ومن عزل برزان من مديرية المخابرات الى قتل عدنان خير الله ثم فاضل البراك بعد نهاية الحرب، كما وردت في سياق حوادث عائلية أو نسائية أو شخصية، أياً كان الراوي. فكل ذلك في تقديري يدور في إطار مسألة الحرب مع إيران والبحث عن البدائل.

وكان في منتهى السخافة والخفة واحتقار عقول الناس تبرير السلطات العراقية اعتقال وإعدام فاضل البراك بأنه كان عميلاً لمخابرات ألمانيا الشرقية، وذلك بعد ثلاث سنوات على انهيار المنظومة الاشتراكية والاتحاد السوفياتي وعودة الوحدة الألمانية بانضمام ألمانيا الشرقية الى ألمانيا الغربية. ومن

المفيد التذكير بأن هذه التهمة السخيفة لم يصدقها أحد بمن فيهم صدام حسين نفسه. وكنت قد علمت بعد سنة تقريباً من إبعاد البراك عن مديرية المخابرات العامة، بأن السلطات العراقية في عام 1990 بدأت تضايقه، وأنه تم توقيفه لفترة في ذلك الوقت. وصادف يومها أنني تواعدت على العشاء مع صلاح عمر العلي في لندن في فندق بمنطقة «أوسترلي» يقع في منتصف الطريق بين بيته وبيتي على طريق مطار هيثرو. وخلال الحديث أبلغني صلاح عمر أنه كان يتعاطى أعمال الشحن الجوي بموجب عقد مع الخطوط الجوية العراقية، وأن جهات ما في بغداد راحت تضايقه بإلغاء هذا العقد للضغط عليه، لاعتقادها بأنه انضم الى المعارضة الخارجية، لكن فاضل البراك تدخل وأعاد له العقد. وعندما ذكر لي هذه القصة سألته عن صحة ما علمت عن توقيف البراك، فقال إنه لا يعتقد بأنها صحيحة.

وبعد عدة أشهر تأكد خبر اعتقاله، ثم راحت ترشح أخبار وحكايات عن ظروف الاعتقال، وكلها تدل على تصوّر صدام حسين لوجود «مؤامرة» في مكان ما غايتها إطاحته، وعلى تصوّره بأن فاضل البراك قد يكون هو البديل المحتمل في تفكير المفكرين بعزله لحل أزمة العراق الناجمة من الحرب مع إيران، وإعادة تركيب الوضع الإقليمي في الخليج بما يتناسب مع النتائج المدمرة التي أسفرت عنها، وأهمها إضعاف القوتين الإقليميتين الرئيسيتين، إيران والعراق، وهو المبتغى الأساسي للحرب في أذهان الذين خططوا لها في الخارج. وبالتحليل المنطقي لتلك الظروف يتبين أن صدام حسين أمر بإعدام البراك بعد مغامرته الكويتية وهزيمته على يد التحالف الدولي وانفجار الانتفاضة الشيعية في الجنوب بتشجيع أميركي، ثم قمعها الشرس بغض نظر أميركي يشبه الموافقة، وكان بإمكانه إعدامه قبل ذلك بأشهر لو شاء، أو لو شعر بأن البراك هو البديل المحتمل، أو البديل الافتراضي باعتبار أنه ظل لفترة طويلة ممسكاً بأدق تفاصيل الوضع الداخلي العراقي وملماً إلماماً شاملاً بالظروف الدولية والإقليمية المحيطة بالعراق في تلك الفترة.

ثم إن فاضل البراك ينتمي الى المؤسسة العسكرية العراقية، خلافاً لصدام حسين، وهو ما كان الرئيس العراقي يعتبره على الدوام نقطة ضعفه على الرغم من مظاهر القوة التي كان يظهر بها على الملأ. بل إن فاضل البراك هو من مفكري تلك المؤسسة الوطنية الكبرى، وأعلم علم اليقين أن البراك كان يرى أن الجيش هو العراق، وأنه إذا زال الجيش زال العراق. وعلى كل حال فإن هذا الفهم للواقع الوطني العراقي ينضح به كتاب أطروحته للدكتوراه، خصوصاً لجهة التركيب الاجتماعي والطبقي للقوات المسلّحة. ومن هذا القبيل كان شديد الاهتمام بتفاصيل دراسة حنا بطاطو المطولة حول الطبقات الاجتماعية

في العراق والتي صدرت باللغة الإنكليزية عن جامعة برينستون الأميركية[28]. وكان البراك على علم بعلاقتي مع حنا بطاطو، وقد تناقشنا مطولاً في أطروحته، خصوصاً لجهة تشخيص الحالة الشيوعية في العراق، كما عرفناها على أرض الواقع في فترات مختلفة. وفي المسألة الشيوعية العراقية، هناك تقاطع واضح بين تصوّر فاضل البراك وتصوّر حنا بطاطو، بل إن أعمالهما الفكرية في هذا المجال هي المرجع الجدي الوحيد للتاريخ الاجتماعي العراقي المعاصر، ومنه على وجه الخصوص الحزب الشيوعي العراقي. وآخر مرة التقيت فيها بطاطو كانت في ندوة لجامعة إكسيتر في أقصى الجنوب البريطاني مطلع الثمانينات من القرن الماضي مع بداية الحرب ضد إيران، حيث كشف النقاب عن وجود تنظيم عسكري لحزب «الدعوة» العراقي باسم «الفدائيين».

ومع أنني لم أكن على اتفاق تام مع البراك في نظرته الى الشيوعيين العراقيين، مع اتفاقي معه حول سلبيات وعثرات النظم الشيوعية القائمة في العالم، وخصوصاً التجربة الأم في الاتحاد السوفياتي، فإنني أعتبر أن كتابه «السري» عن الحزب الشيوعي العراقي الذي صدر بعدة أجزاء باسم مستعار هو «سمير عبد الكريم» بعنوان: «أضواء على الحركة الشيوعية العراقية»، هو المرجع الأهم الصادر حتى الآن حول الموضوع لأنه تضمن معلومات لا يعرفها حتى الشيوعيون أنفسهم.

وقبل أن أعمل في جنوب العراق بعد نحو سنتين من الاضطرابات وأعمال العنف التي رمي بها الشيوعيون في أعقاب فشل الحركة العسكرية التي قادها الضابط عبد الوهاب الشواف في الشمال بدعم من نظام جمال عبد الناصر في سوريا ضد حكم عبد الكريم قاسم، كنت قد اطلعت على التصور البعثي القومي من الناحية السياسية من خلال كتاب إنعام الجندي، أستاذي في المدرسة الثانوية، بعنوان: «الى أين يسير الشيوعيون بالعراق؟»[29]. لكن دراسة بطاطو وكتاب «الأضواء» المنسوب الى فاضل البراك يغوصان الى الأعماق والى الجذور. فإذا كانت دراسة بطاطو غايتها تسليط الأضواء على الحركة الشيوعية من خلال النسيج الاجتماعي العراقي، فإن غاية كتاب «الأضواء» هي

(28) حنا بطاطو أستاذ جامعي فلسطيني الأصل من أهل القدس درس في الولايات المتحدة وحمل الجنسية الأميركية، وكان شديد الاهتمام بالأوضاع والحركات السياسية في المشرق العربي، فكانت أطروحته للدكتوراه في جامعة هارفارد بعنوان: «الشيخ والفلاّح في العراق 1917 - 1958». وقام بطاطو بالتدريس في جامعة بيروت الأميركية قرابة العشرين سنة من مطلع ستينات القرن الماضي الى مطلع الثمانينات. وفي الجامعة الأميركية تعرفت عليه ورافقت لفترة جهوده وهو يعمل على دراسته للطبقات الاجتماعية العراقية على الرغم من النظرة السلبية اليه في الأوساط البعثية التي كنت أتعاطى معها في ذلك الوقت، ومنهم من اعتبره عميلاً للمخابرات الأميركية. وقبل وفاته بسنة صدرت له عن جامعة برينستون أيضاً دراسة مماثلة عن سوريا بعنوان: «فلاّحو سوريا: سليلو صغار الوجهاء وسياساتهم» (1999).

(29) «الى أين يسير الشيوعيون بالعراق»، إنعام الجندي، دار الناشر العربي، بيروت، 1959.

تفكيك الحركة الشيوعية بحيث لا تقوم لها قائمة، بمعنى اجتثاثها من جذورها فلا تنبت من جديد في التربة العراقية. فدراسة بطاطو هي عمل أكاديمي في إطار اجتماعي، بينما كتاب البراك هو عمل سياسي في إطار أمني. ولذلك فإن الجهد الذي قام به في هذا المجال كان بمثابة تفكيك جدي وتفصيلي للحركة الشيوعية العراقية، لم يكن له مثيل في السابق، بحيث يمكن القول بأن فاضل البراك هو الذي قضى على الحركة الشيوعية في العراق بمفرده. وبالتالي فإن التهمة التي سيقت ضده لتبرير إعدامه بأنه كان عميلاً لدولة شيوعية لا يمكن أن يصدِّقها أحد. والمحور المركزي الذي يدور عليه تصوّر البراك للحركة الشيوعية العراقية هو أنها حركة ذات أصول يهودية، ووثّق ذلك بالأسماء والتواريخ. بل إنه في كتابه العلني عن المدارس اليهودية والإيرانية في العراق نشر في ملحق خاص في الكتاب لائحة بأسماء جميع اليهود الناشطين في الحزب الشيوعي العراقي وعددهم نحو 250 شخصاً، مع ذكر أعمالهم وخلفياتهم[30].

وقد كتب في مستهل ذلك الملحق ثلاث ملاحظات:

الملاحظة الأولى، أن الأغلبية من هؤلاء توزعوا على واجهات الحزب الشيوعي العلنية وقتذاك وهي: عصبة مكافحة الصهيونية، وحزب التحرر الوطني، ثم أصبحوا أعضاء في الحزب الشيوعي العراقي.

الملاحظة الثانية، أن أغلبية هؤلاء درسوا في المدارس اليهودية في العراق، والبعض منهم كانوا طلبة في تلك المدارس أثناء انتمائهم الى الحزب الشيوعي العراقي.

الملاحظة الثالثة، أن جميع هؤلاء تركوا العراق والأغلبية المطلقة منهم هاجروا الى الكيان الصهيوني.

وحتى أول أمين للحزب الشيوعي العراقي، والمعروف بلقبه الحركي «فهد»، أو «قائد جماعة الناصرية»، الذي أعدمته حكومة نوري السعيد في عام 1949، شق طريقه الى القيادة الشيوعية بمعونة الشيوعيين اليهود في فلسطين[31].

---

(30) الملحق الثاني من كتاب «المدارس اليهودية والإيرانية في العراق: دراسة مقارنة». ويقع هذا الملحق في سبع صفحات بأحرف صغيرة، وتتضمن لوائحه البنود التالية: الإسم والشهرة، المدينة التي يعيش فيها، المحلة التي يقيم فيها، تاريخ الولادة، المهنة، تاريخ الانتماء الى الحزب الشيوعي. ومن اليهود القياديين في الحزب الشيوعي العراقي: يهودا صديق، يوسف زلوف، حزقيل صديق، موشى مراد كوهين، يوسف زلخة، ساسون دلال، موشى مختار، وابراهيم شاؤول.

(31) اسمه الحقيقي يوسف سلمان يوسف، وكان على صلة مع خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي السوري الذي زكّاه لدى حاييم أورباخ سكرتير الحزب الشيوعي الفلسطيني وعضو اللجنة التنفيذية للكومنترن. وقد سهل له أورباخ السفر الى فرنسا حيث مكنته تلك التوصية من الانضمام الى الحزب الشيوعي الفرنسي الذي رشّحه للانتساب الى «الجامعة الشيوعية لكادحي الشرق» في موسكو، وهي مؤسسة غايتها تثقيف منتسبيها بالمبادىء الماركسية وبأساليب التنظيم والنضال. وهناك في موسكو طلبوا منه العودة الى العراق للعمل على تنظيم

ولما كان فاضل البراك قد عاش ودرس في موسكو خلال السبعينات، فإن اتهامه بالعمالة لدولة شيوعية تبريرا لإعدامه قد تكون قابلة للتصديق في أذهان العامة الذين لا يعرفون ما خفي تحت السطح، أما الحقيقة فهي عكس ذلك تماماً. لكنني لم أعلم بإعدامه إلاّ بعد مدة ومن خلال نشرة إنكليزية غير مخصصة للبيع، بل يتم توزيعها بالاشتراك، تصدر باللون الأزرق عن مجلة «إيكونوميست» البريطانية بعنوان «فورين ريبورت»، وفيها خبر موسّع عن إعدامه والتهم الموجهة اليه. حينئذ كتبت مقالاً في مجلة «سوراقيا» طالبت فيه الرئيس صدام حسين بالاعتذار من عائلة فاضل البراك وعارفيه وأصدقائه، عن قرار اعتباطي لا يمت الى الحقيقة بصلة. وقلت يومها إن الرئيس العراقي بتصفيته للبراك فقد البوصلة للتوجه الصحيح وصار يخبط خبط عشواء الى أن هلك وأهلك العراق معه.

وقد سمعت تالياً أن الرئيس العراقي تراجع عن الدعوى الملفقة ضد البراك واعتبره من «شهداء الغضب»[32]، أي من الذين كان يقتلهم لطلوع خلقه، حسب التعبير اللبناني. وهذا في رأيي لا يشكل اعتذاراً حقيقياً.

وعندما علمت بأن برزان التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدّام، الذي حل البراك محله في مديرية المخابرات العامة، تزوج من السيدة جنان أرملة فاضل البراك، أدركت أن هذا الزواج الغريب لا بد أن تكون لصدام حسين يد فيه، كنوع من التكفير عن جريمة إعدام زوجها والد أولادها الخمسة[33]. وهذا أيضاً لا يرقى الى الاعتذار المطلوب، بل ربما كان فيه إمعان في الإهانة.

•••

رحلتي الأخيرة الى بغداد يوم 25 تشرين الأول/أكتوبر من عام 1985، كانت غريبة ومحيّرة بكل تفاصيلها. فقد اتصل بي فاضل البراك هاتفياً الى مكتبي في مجلة «الصياد» في لندن، وكان يقع وقتها على تقاطع أكسفورد ستريت مع ريجنت ستريت في العاصمة البريطانية، طالباً مني أن أزوره في بغداد بأسرع وقت، فحاولت التملص بشتى الأعذار، فأصر وألح بشكل غير اعتيادي قائلاً إن الزيارة لن تطول أكثر من ثلاثة أيام، لكنني لم أقطع له وعداً بالذهاب الى بغداد، فأعاد الاتصال بعد ساعات طالباً مني أن أتوجه الى مكاتب الخطوط الجوية

وقيادة الحركة الشيوعية، فأصدر بعد عودته أول جريدة سرّية للحزب الشيوعي العراقي باسم «الشرارة».

(32) أكد ذلك الباحث الفلسطيني سعيد أبو الريش في كتابه عن سيرة الرئيس العراقي بعنوان: «صدام حسين: سياسة الانتقام»، مستخدماً العبارة الإنكليزية Martyrs of Wrath ترجمة للعبارة التي استخدمها صدام حسين في توصيف فعلته.

(33) علمت تالياً أن السيدة جنان انتقلت الى إمارة خليجية حيث فارقت الحياة بعد إعدام السلطات العراقية لزوجها الثاني برزان التكريتي. رحمها الله، فقد عاشت وماتت بين إعدام وإعدام.

العراقية القريب على كل حال من مكتبي، لآخذ بطاقة السفر لأسافر في اليوم التالي.

كانت الطائرة العراقية من طراز «بوينغ جامبو» فخمة ومريحة، وكانت تذكرتي في الدرجة الأولى منها. لكن الطائرة تأخرت عن موعد إقلاعها ساعتين، ربما بانتظار أحد الركاب، وربما في عملية تحميل البضائع على متنها، وكانت الإجراءات الأمنية صارمة ومشددة بحيث لم يُسمح لأحد من الركاب أن يحمل في يده أي حقيبة أو كيس، ومن كان يحمل في يده حقيبة يد مثلي، أُخذت منه وتم فحصها وتأشيرها وإيداعها في الشحن مع بقية الحقائب والمحمولات.

ودخلت الى الطائرة لآخذ مقعدي على النافذة في الصف الثاني من مقصورة الدرجة الأولى الى جهة اليسار، فوجدت شخصاً جالساً في مقعدي. وطلبت من الشخص المذكور أن يخلي لي المقعد وأريته قصاصة البطاقة التي تدل عليه، لكنه تمنّع بحجة أن هناك مقاعد فارغة، ومنها المقعد المخصص له في الصف الأول أمامي مباشرةً، وأشار لي بيده أن أجلس فيه. فاعتبرت ذلك من قبيل الاستهتار بالقوانين السائد في العالم الثالث، وأصريت على الجلوس في المقعد المخصص لي بموجب بطاقة السفر، فنهض من مقعده متثاقلاً ومنزعجاً وجلس في مقعده الأصلي في الصف الأمامي، وجلست مكانه وبقي المقعد الآخر الى جانبي فارغاً.

لكن هذا الحادث غثّني أو «سمّ بدني»، حسب التعبير اللبناني، ورحت أفكر في مثل هذه التصرفات الاعتباطية السائدة في بلداننا، الى أن أقلعت الطائرة وتقدم أحد الركاب الجالسين في الصفوف الخلفية وجلس الى جانبي ولم أكن أعرفه أو يعرفني، وعندما نطق بأول كلمة قدّرت أنه من العاملين في المخابرات العراقية، فقال لي من غير مقدمات: «هل تعرف من هو هذا؟». فأجبته ببرود: «لا أعرف ولا يهمني أن أعرف». فقال بلهجة واثقة: «بلى يهمك أن تعرف. إنه من كبار الضباط والقادة في سلاح الجو العراقي، وهو قادم لتوه من أميركا». لم يذكر لي اسمه، بل قال ما قال وعاد أدراجه الى مقعده الخلفي، وتركني حائراً أفكر في هذه «الألعوبة».

ضابط قيادي في سلاح الجو عائد لتوّه من أميركا يريد أن يجلس مكاني في الصف الثاني، بينما مكانه في الصف الأول. فقد تأخرت الطائرة ساعتين وطال مسارها بسبب الحرب مع إيران، لكنني لم أستطع أن أنام لحظة واحدة بسبب الأفكار التي تزاحمت في رأسي حول تفسير ما حدث في الطائرة قبل إقلاعها. وتساءلت بيني وبين نفسي عما إذا كان يجري تدبير حركة انقلابية من قبل سلاح الجو بموافقة أميركية؟ وأين يقف فاضل البراك مدير المخابرات العامة من مثل هذا الاحتمال؟ هل هو على علم بذلك ويريد أن يبلغني بالأمر على طريقته من غير إفصاح؟ وهل يرمز ترتيب المقاعد بين الصف الأول والصف

الثاني في الطائرة الى من يجلس في الواجهة ومن يجلس في الخلف وراء الستار؟. وفجأة تفتحت عيناي على مشهد غير مألوف فرحت أراقب كل حركة وكل كلمة أسمعها، وانتابني لأول مرة شعور بالخطر، ربما كان في غير محله. وشعوري بالخطر كان في الحقيقة من قبيل استشعار خطر ما يحيط بفاضل البراك نفسه، ورحت أحاول تفسير ما حدث في الطائرة في ضوء مكالمته الهاتفية المتلهفة الى ضرورة قدومي الى بغداد بأسرع وقت ولو لأيام ثلاثة. وقلت في نفسي لعله يريدني أن أستنتج شيئاً لا يريد، وربما لا يستطيع، أن يبلغنيه بنفسه وبلسانه مباشرة. وهكذا كانت تلك الرحلة من أولها الى آخرها تتحرك بالرموز وبمفردات ملبّسة ومبطّنة بالتورية وحمّالة للأوجه.

وعندما حطت بنا الطائرة في مطار بغداد تمام الساعة الثالثة صباحاً من يوم 26 تشرين الأول/أكتوبر عام 1985، وجدت ثلاثة أشخاص في استقبالي، أحدهم السائق الذي نقلني الى فندق الرشيد واسمه علي ناصيف، وبقي ملازماً لي طوال إقامتي وحتى مغادرتي بعد أيام. ولمّا هممنا بالخروج من المطار، وكنت وقتها أسافر بجواز سفري اللبناني الذي لم أكن أملك جوازاً سواه، طلبت من الشخص الذي تقدم لاستقبالي عند الهبوط بأن يختم لي الجواز بختم الدخول لدى أمن المطار، فارتبك قليلاً وقال إنه لا لزوم لذلك، لكنني أصريت على الختم فغاب دقائق وعاد الي بالجواز مختوماً.

واستلقيت على السرير في الفندق قرابة الساعة الرابعة صباحاً من شدة التعب والإرهاق وطول التفكير والهواجس، وتركيب سيناريوهات احتراب الأشباح في ظروف استثنائية ومتداخلة وخيوط معربسة ومتشابكة، لكنني لم أستطع إغماض جفوني إلاّ عندما انتصف النهار، فقرع السائق الباب ليوقظني في تمام الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم ليأخذني للقاء البراك في مبنى مديرية المخابرات العامة.

•••

كعادته في كل لقاء بيننا، مرة كل سنتين تقريباً، بادرني فاضل البراك بعد السلام والتحية بإبلاغي الأخبار السيئة التي تهمني أولاً. فقال في مستهل الحديث: «هل علمت أن صاحبك صعيب توفي، رحمه الله؟»[34]. ونظرت اليه نظرة ارتياب فهمها على الفور، فخشي أن أكون ظننت أن وفاته غير طبيعية، لأنه في اللقاء السابق في مديرية الأمن العام أبلغني أنه مستاء من صعيب لأنه رفض أن يعلِّم الأمن العام العراقي سر مهنته، وأنه يعلِّم المهنة لابنته فقط.

فلما شاهد تعابير وجهي المندهشة، قال لي: «مات بصورة طبيعية. فقد كان يأكل كثيراً ويشرب كثيراً ويسهر كثيراً وسمن كثيراً، وكان يدوِّر قحاب هواية».

---

(34) يقصد الصحافي اللبناني صعيب أبي عقل من بلدة بجة الجبيلية الذي سبق أن عمل معي في جريدة «بيروت» منتصف السبعينات من القرن الماضي، وكان يزودني بتقارير للأمن العام أتقن «طبخها» لتبدو أصلية وحقيقية، كما ذكرت سابقاً.

ثم انتقل الكلام الى الجد فلاحظت أنه بات أكثر تحفظاً ويتأنى في انتقاء الكلمات، وصار أحياناً يحدثني بالرموز. وبعدما فرغ من رواية صعيب، سألته: «لماذا دعوتني بهذه السرعة والإلحاح، وماذا تريد؟». فقال ممازحاً: «عند العرب تستمر الضيافة ثلاثة أيام قبل الحديث في الأمور الجدية». فقلت له: «لا أستطيع أن أبقى أكثر من ثلاثة أيام لأنني لم أبلغ أحداً بوجودي في بغداد سوى زوجتي ومدير التحرير ريمون عطا الله. وبالتالي فإنني مضطر للرجوع الى عملي بأسرع وقت». عندئذ قام الى الهاتف المباشر وطلب رقم بيتي في لندن وأعطاني السماعة فرد عليّ ابني الأوسط عماد وقال لي إن أمه ليست في البيت بل ذهبت في زيارة الى الجيران، فطلبت منه أن يبلغها باتصالي ويؤكد لها أنني بخير وسوف أعود بعد أيام قليلة.

وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية والنصف من بعد الظهر فاقتادني الى غرفة مجاورة في مبنى المخابرات العامة حيث وجدنا فيها مائدة متواضعة ممدودة وجاهزة ولم يكن فيها أحد يخدم أو يدخل، فكنا وحدنا رأساً لرأس. وكان من الطبيعي أن أسأله أيهما كان أريح له الأمن العام أم المخابرات العامة، لكن جوابه فاجأني، إذ قال: «كان بودي أن أكون محاضراً في الجامعة، أو فلّاحاً في المزرعة، أو ديبلوماسياً في الخارج. وعلى كل حال كيف كانت رحلتك من لندن؟».

شغلني جوابه عن سؤالي، لكنني لم أشأ أن أستفسر منه عن أسباب عدم ارتياحه، بل كالعادة تركت له أن يبادر الى قول ما يريد خشية أن يظن أنني أستنبشه، مع أنني لا أعتقد بأن مثل هذا الظن قد يساوره. ورحت أحدثه عن الرحلة من لندن الى بغداد، وكيف تأخرت الطائرة ساعتين في المطار، وماذا حدث داخل الطائرة من تنازع على المقعد بيني وبين الضابط الجوي القادم لتوّه من أميركا. لكنه تجاهل التعليق على موضوع المقعد، وقال: «زين تأخرت ساعتين بس، هناك مسؤولون يؤخرون الطائرة أحياناً ست ساعات ضاربين عرض الحائط بمشاعر الركاب».

وقمنا عن المائدة متأخرين، فطلب مني أن أعود الى الفندق لأرتاح قليلاً على أن نلتقي في الليل. فذهبت الى الفندق وحاولت أن أنام قليلاً، لكن ما سمعته منه شغل تفكيري طوال الوقت، فلم أنم كثيراً وبقيت في الغرفة أنتظر قدوم السائق، لكن السائق لم يحضر، وبعد ساعة تقريباً اتصل بي من عند الكونسييرج ليقول لي إن الدكتور انشغل هذه الليلة وسوف يراني على الغداء غداً. وكنت قد أحضرت معي من لندن مجموعة من الصحف والمجلّات الإنكليزية والأميركية، فرحت أقرأها من غير تركيز الى أن انتصف الليل، فحاولت النوم من جديد وسط أفكار متزاحمة وربما داهمني السهاد عند الفجر فنمت حتى الظهر. وبعد نحو ساعتين، وكنت قد جهّزت نفسي وغيّرت

ملابسي، جاء السائق لينقلني مرة ثانية الى مبنى المخابرات العامة حيث كان البراك في انتظاري معتذراً عن عدم تمكنه من السهر معي في الليلة السابقة.

•••

لم نجلس في المكتب طويلاً بعد تناول القهوة، لكنه قام من مقعده وطلب مني أن نذهب الى الغداء في الخارج، وكان هو يقود سيارته بنفسه وأنا الى جانبه. ولم تكن المسافة التي قطعناها طويلة، فكانت وجهته نحو قصر للضيافة تابع للمخابرات، هو عبارة عن فيللا أنيقة جميلة الأثاث، من الواضح أنها مشغولة جيداً على أيدي مصممين محترفين. ولم أشاهد أحداً في تلك المضافة، بل كانت هناك كما في اليوم السابق مائدة ممدودة في قاعة الطعام، عليها أصناف أكثر من المائدة السابقة في المقر الرسمي، وأبـرز تلك الأصناف السمك المسقوف الذي اشتهرت به بغداد منذ أقدم الأزمنة.

وكما في اليوم السابق جلسنا متقابلين وجهاً لوجه، ظهره لباب المطبخ وظهري للصالون الصغير الموصول بغرفة الطعام وبالصالون الكبير. وهنا أيضاً لم يدخل علينا أحد حتى بعد انتهاء الغداء فظلت بقايا الطعام ممدودة على المائدة الى حين مغادرتنا. ولاحـظ أنني عندما نزلنا على درج مبنى المخابرات نزلت بتؤدة وببطء، وعندما صعدنا على درج قصر الضيافة صعدت مسرعاً، وعندما أبدى هذه الملاحظة قلت له: «أخي أبو علي، أنت تدري أن الصعود دائماً أسهل من النزول». فضحك وقال: «إنت ما تقدر إلاّ تدق المسامير. أنا أعرفك. ما تقدر».

فقلت له ألا تعرف الشعر القائل[35]:

كمثل الـصـعـود يـكـون الهبوط ... فــإيّــاك والــرتـــب الـعـالـيـة

وكــن فــي مـكــان إذا مــا سقطتَ ... تــقــوم ورجـــلاك فـــي عـافـيـة

فقال: «خـوش كـلام. ألـم أقـل لك إنني كنت أفضِّل أن أكـون محاضراً في الجامعة، أو فلاّحاً في المزرعة، أو ديبلوماسياً في الخارج».

قلت له: «ألهذه الدرجة أنت غير مرتاح؟».

قمنا الى الصالون الصغير وانتحينا في زاوية منه، وأشعل كل منا سيجاره ورحنا ندخِّن ونستأنف الحديث، فقال بعدما نفث الدخان من سيجاره: «أنا مثل النازل على السوق راكب أسد. الناس خايفين مني، وأنا خايف من الأسد».

ثم فاجأني بقوله: «أنا في الأسبوع اللي فات كنت في لندن؟».

فقلت له متعجباً: «كنت في لندن ولم تتصل بي ثم عدت الى بغداد ودعوتني!».

قال: «أخي أبو عامر، تدري كيف هم الإنكليز».

قلت: «الإنكليز هم الإنكليز، وفي زيارتك السابقة عام 1983، عندما زرت لندن وأنت في الأمن العام اتصلت وكلمت زوجتي لأنني كنت يومها في بيروت».

---

(35) استخدمت هذه الأبيات عينها في مقالات لي على منابر مختلفة بعد ذلك.

قال: «الآن الظروف تغيّرت».

لكنني لم أسأله ماذا كان يفعل في لندن تقديراً مني لحساسية الوضع، وخشية أن يفسر ذلك على أنه من قبيل «الاستنباش». ثم أخذ نفساً عميقاً من سيجاره وقال: «زارني السفير الأميركي[36]، وتحدثنا فيما تحدثنا عن العلاقة بين مصر وإسرائيل، فأبلغني أن هذه العلاقة بينهما هالشكل...». ووضع يديه متصالبتين على صدره كفه الأيمن على كتفه الأيسر، وكفه الأيسر على كتفه الأيمن، وكأنه يضم شيئاً الى صدره. لم يشرح لي معنى ذلك مكتفياً بكلمة «هالشكل...».

بين خبرية زيارته الى لندن وخبرية لقائه مع السفير الأميركي، شعرت بأن لديه معلومات تدعو الى القلق، لكنني لم أحاول إطلاقاً استدراجه أو حتى استفساره عن الأشياء التي لم أفهمها في لحظتها. ثم أبلغني أنه مضطر الى الذهاب الى المطار لاستقبال وفد فلسطيني زائر برئاسة صلاح خلف (أبو إياد)، وقال لي: «تدري، إخواننا الفلسطينيون حسّاسون للشكليات والرسميات ولا مانع لدينا من تكريمهم على النحو الذي يرضي غرورهم ويدغدغ مشاعرهم».

فقلت له بروحية المداعبة ذاتها: «إنهم يفتقرون الى هذه الشكليات لأنه ليست لهم دولة خاصة بهم، فاستقبالهم بكامل المراسم هو بمثابة بدل عن ضائع». أعجبه تعبير «بدل عن ضائع»، وقال تعليقاً عليه: «كم هناك من بدل عن ضائع في هذه الأمة»!

وصمت برهة ثم أعاد إشعال سيجاره الذي انطفأ، وقال لي بدون مقدمات: «ألا تخشى أن بغداد تروح». عندئذ شعرت بأن هناك أموراً خطيرة وجدية تدور في الكواليس الدولية، ولم يكن قد ظهرت بعد ملامح فضيحة «إيران - كونترا»، وصفقة السلاح الإسرائيلية المرافقة لها. فقلت له ممازحاً: «هل باعكم الأميركيون؟ يبدو أنكم وصلتم الى الكلام الذي تحدثنا به في البداية قبل سنوات من أن الأميركيين لا يؤتمن جانبهم».

وجواباً عن ذلك كرر القول بأن هناك احتمالاً بأن «تروح بغداد»، فقلت له: «أثناء الوجود الفلسطيني في لبنان، ظن كثيرون من اللبنانيين أن لبنان سوف يروح. وقد أبلغني أحد أصدقاء الرئيس اللبناني السابق الياس سركيس بأنه كان يتضايق كثيراً لأن الفلسطينيين يطلقون القذائف على إسرائيل عبر الحدود من داخل القرى الجنوبية الآهلة بالسكان، بينما في تلك المنطقة تلال ووديان كثيرة غير مأهولة. وفي إحدى المرات شن الإسرائيليون غارات تدميرية

---

(36) لم يذكر لي اسم السفير، وأظن أنه السفير دايفيد جورج نيوتن الذي كان قائماً بأعمال السفارة الأميركية في بغداد ثم أصبح سفيراً أصيلاً لبلاده في العراق خلال تلك السنة. وقبل عمله في بغداد خدم قرابة خمس سنوات في سفارة بلاده في دمشق (1978 ـ 1982)، وكان يتقن اللغة العربية التي درسها في بيروت. ويأتي نيوتون من خلفية استخباراتية، لأنه عمل رئيساً لقسم الأبحاث والاستخبارات في وزارة الخارجية الأميركية في واشنطن.

على بلدة النبطية لأن قذائف فلسطينية انطلقت منها، فقام الرئيس سركيس باستدعاء ياسر عرفات ورجاه أن يكف عن إطلاق القذائف من البلدات الآهلة، فرد عليه القائد الفلسطيني بعصبية قائلاً له إن النبطية ليست أحسن من حيفا. فأجابه الرئيس سركيس بأنه إذا راحت حيفا، فهل من الضروري أن تروح النبطية. نعم أقول لك بصفتي رئيساً للجمهورية اللبنانية إن النبطية عندي أحسن من حيفا».

ثم نهض فجأة وقال: «نستأنف حديثنا في الليل. أنا الآن ذاهب الى المطار». فعدت الى الفندق أتفكر في تلك الجلسة وأنتظر ما سيحمله المساء من مفاجآت.

•••

في المساء جلسنا في مكتبه في المديرية العامة للمخابرات، لكنه لم يستأنف الحديث من حيث انتهى بعد الظهر، بل فتح موضوعاً إعلامياً، فسألني ما إذا كنت أعرف رياض نجيب الريّس، ودرجة معرفتي به. فقلت له: «إنني أعرفه منذ أن عملنا معاً لفترة قصيرة في دار الصياد، لكنني لا أزعم أنني أعرفه معرفة جيدة أو وثيقة». قال: «هل له علاقة مع دول الخليج؟». قلت: «أسمع أن له علاقة ما بسلطنة عُمان، لكن لماذا تسأل؟». قال: «جاءني الشباب في المديرية بمقال له عن تركيا وسألوني ما إذا كان علينا أن نحلِّله، فقلت لهم: ماذا نحلِّل به؟»[37].

عندئذ قلت له: «إذا كنتم أنتم تحلِّلون المقالات الصحافية والاتجاهات الإعلامية، فماذا يفعلون في وزارة الإعلام؟». فقال: «إنهم يتسلّون ببعضهم».

ورداً على ملاحظته هذه قلت له: «لا توجد وزارات إعلام إلاّ في الدول العربية وبعض الدول المتخلفة. هل رأيت دولة محترمة لديها وزارة إعلام؟ لديهم مكاتب إعلامية ملحقة بكل وزارة أو دائرة مهمة في الدولة تُصدر البيانات الرسمية، وترد على نشر معلومات مغلوطة، أو تنشر تصحيحات لتصريحات مغلوطة. وفي رأيي أنه يجب إلغاء وزارات الإعلام لأنها تشكل باباً من أبواب الهدر والتزاحم على مشاريع لا طائل منها. ففي الولايات المتحدة، مثلاً، تقوم وكالة المخابرات المركزية ببناء جسور الثقة مع كبار الصحافيين والإعلاميين الذين تقوم بإطلاعهم على أمور قد تكون سرِّية للغاية لكنها توضح لهم حدود المسموح بنشره والممنوع. فقد قرأت في أحد التحقيقات أن نائب مدير وكالة المخابرات المركزية يدعو في الصباح الباكر مرة كل أسبوع نخبة من الصحافيين لتناول الفطور معه في بيته ويحدثهم عن المعلومات والتوجهات مع إشـارة الى المسموح والممنوع، ومن يُخلّ بهذه القاعدة يشطبه من لائحة المدعوين فلا تعود له صلة بمصادر الأخبار».

---

(37) أظن أنه كان يشير الى مقال كتبه رياض نجيب الريِّس بعنوان «الأتراك قادمون»، لكنني لا أذكر أين نُشر ذلك المقال.

قاطعني سائلاً: «هو هذا السمين في الأمم المتحدة»[38].

قلت له: «لا إنه النائب الأخير روبرت إينمان. وهو على فكرة ليس سميناً بل إنه نحيل مثلك»[39].

ثم راح البراك يتنقل من موضوع الى موضوع، وعندما يفعل ذلك يكون لديه نقطة معينة يريد أن تظهر وفي الوقت ذاته تختفي وسط خليط من الحكايات. سألني تالياً: «ما هي تلك العبارة التي قلتها لي عن الإسلام في الزيارة السابقة غابت عن بالي ولم أعد أتذكرها؟».

قلت له: «عندما تحدثنا في المرة السابقة عن الحركات الإسلامية التي تتمترس وراء الدين لتؤدي وظيفة سياسية مخالفة أحياناً لروح الدين ولمصالح الأمة، قلت لك: هناك الإسلام... وهناك الزعبرة الإسلامية».

فقال: «هاي هي.. الزعبرة الإسلامية. أعجبني هذا التعبير. وهو يشبه التعبير الشائع هنا حيث يسميه العراقيون القشمرة أو الضحك على الذقون».

وبعد ذلك فتح لي موضوعاً طويلاً عريضاً عن الخلافات السياسية العاصفة في اليمن الجنوبي بين فريق عبد الفتاح اسماعيل وخصومه، ومعلوماته عن ذلك الصراع الذي انتهى بعد أشهر قليلة من هذا الحديث بمجزرة دموية في عدن أودت بحياة عدد من القادة والمواطنين من بينهم عبد الفتاح اسماعيل

---

(38) كان البراك يشير خطأً الى فيرنون والترز المندوب الأميركي لدى الأمم المتحدة في ذلك الوقت والذي شغل بالفعل منصب نائب مدير وكالة المخابرات المركزية في فترة سابقة بين 1972 و 1976. وبقي والترز في الأمم المتحدة من 1985 حتى تعيينه سفيراً لدى ألمانيا الاتحادية في عام 1989. وهو جنرال سابق في الجيش وعضو في «قاعة مشاهير المخابرات العسكرية» التي تأسست عام 1988 لتكريم العسكريين والمدنيين الذين قدّموا إسهامات متميزة للمخابرات العسكرية. وأظن أنني قرأت التحقيق المشار اليه عن روبرت إينمان نائب مدير وكالة المخابرات المركزية في مجلة «بلاي بوي».

(39) الأميرال روبرت إينمان عمل في مخابرات البحرية الأميركية حتى انتقاله الى وكالة مخابرات الدفاع في 1976 حيث خدم كنائب للمدير قرابة السنة فقط، قبل نقله الى وكالة الأمن القومي حيث بقي حتى عام 1981 عندما تم تعيينه نائباً لمدير وكالة المخابرات المركزية ليحتل هذا الموقع سنة ونصف السنة. وبعد تفجير موقع المارينز والسفارة الأميركية في بيروت، ترأس اللجنة المشتركة لتحسين أمن السفارات والمواقع الأميركية في الخارج، ثم انصرف بعد تقاعده الى الأعمال الخاصة في قطاعات التكنولوجيا والأمن الى أن استدعاه الرئيس بيل كلينتون في نهاية عام 1993 ليرشحه لمنصب وزير الدفاع فسحب ترشيحه هذا خلال مؤتمر صحافي له عندما تهجم عليه الصحافي اليهودي وليام سافير العامل في جريدة نيويورك تايمز بتهمة العداء لدولة إسرائيل. وقد لامه كثيرون لسحب ترشيحه لأن تعيينه في وزارة الدفاع كان سيلقى تأييداً في الكونغرس، فقال إن خبرته في وسائل الإعلام تجعله يعرف كيف تبدأ مثل هذه الحملات (يقصد الحملات اليهودية) وكيف تنتهي. وظهر اسم إينمان من جديد خلال عهد الرئيس جورج دبليو بوش عندما اتهم إدارة بوش بالتنصت غير الشرعي على هواتف المواطنين العاديين. وعند تنحيته من وكالة المخابرات المركزية كتبت تحقيقاً لمجلة «الحوادث» عنه ظهر على غلافها بعنوان «سقوط أخطر الجواسيس»، وكان على الغلاف المذكور موضوع آخر عن اغتيال الشيخ أحمد عسّاف في بيروت، فظن كثيرون أن المقصود بأخطر الجواسيس هو الشيخ عسّاف، وانهالت علي الاستفسارات من القراء اللبنانيين في لبنان والخارج.

نفسه، وأبلغني أن الاتحاد السوفياتي قام بنوع من الوساطة بين القادة المتخاصمين في عدن، وقال لي إن السوفيات كانوا يعرفون الطبيعة العشائرية للصراع، ولذلك لم تكن لديهم ثقة بنجاح وساطتهم، ولا سيما أنهم أدركوا أن هناك أصابع خارجية لها مصلحة في تأجيج الصراع، وربما دفعت أموالاً طائلة لتفجيره.

والحقيقة أنني لم أكن متابعاً ما يجري في اليمن الجنوبي، أو مهتماً بذلك في تلك الأيام، وما كنت أعرفه عن الموضوع هو الشائع في الصحف لا أكثر ولا أقل. ولذلك بقيت صامتاً أستمع اليه متسائلاً عن أسباب فتحه لهذا الموضوع واستمراره فيه تفصيلياً وهو يرى عدم اهتمامي به أو تعليقي عليه.

ثم سألني فجأة: «هل تعرف الفريق السوداني عبد الرحمن سوار الذهب؟»[40].

لاحظ «النقزة» التي ظهرت على وجهي عندما نطق باسم سوار الذهب، فكأنني فهمت من سؤاله بأن هناك سوار ذهب عراقي يتهيأ في الخفاء لتخليص العراق من نظام صدام حسين، وإعادة الاعتبار الى الحياة السياسية الوطنية فيه كما كانت قبل ثورة 14 تموز والحكم العسكري، أو كأنني لمحت إمكانية أن يكون هذا السوار الذهب العراقي هو فاضل البراك نفسه.

فقلت له: «لا أعرفه شخصياً إنما أعرف عنه ما يعرفه كل الناس. لكن لماذا سألتني عنه؟»

قال: «لا شيء. لقد وسّط الملك حسين لإدخال ابنه في كلية الطب بجامعة بغداد».

قلت له ممازحاً ومظهراً له تصديقي لحكاية كلية الطب لئلا يتعكر صفو تلك الجلسة: «كمان الطب بالواسطة في هذه البلاد. فإما أن يكون الطالب مؤهلاً ومتمكناً من علمه أو لا يكون. أستغرب ذلك من رجل مثله، وأستغرب أن يقبل الملك حسين بمثل هذه الوساطة».

ثم نظر الى ساعته فوجد أن الوقت صار متأخراً، فقال لي: «ما جعت.. يالله قوم...».

كالعادة ركبنا في سيارته، هو يقود السيارة وأنا الى جانبه، متوجهاً الى الاستراحة ذاتها التي تعشينا خارجها على النهر في الزيارة السابقة وقال لي يومها إنه شارك العمال في بنائها، وكانت قد اكتملت لنتناول العشاء في داخلها تلك الليلة.

وجدت أننا لم نكن وحدنا هذه المرة. كان هناك شخص أرمني يدعى «هاروت»،

---

(40) عبد الرحمن سوار الذهب هو القائد العسكري السوداني الذي قاد الانقلاب ضد نظام الرئيس جعفر النميري في تلك السنة، 1985، وأعاد السلطة الى المدنيين والأحزاب السياسية فتم إجراء انتخابات عامة أصبح زعيم حزب الأمة الصادق المهدي بنتيجتها رئيساً للحكومة، وأحمد الميرغني زعيم الختمية رئيساً لمجس السيادة، وتنحى سوار الذهب بعد تسليمه السلطة عن الرئاسة وعن السياسة.

وشخص عراقي يدعى «ماهر». وكانت هناك أيضاً فرقة موسيقية تضم نحو خمسة أو ستة عازفين، ومن حسن الحظ أن المغني لم يكن يوسف عمر، بل سعدون جابر. وكانت بالفعل جلسة ممتعة أثقلتُ خلالها الشراب على غير عادتي، فطلب مني التوقف عن الشرب، وطلب من النادل عدم تجديد كأسي.

وبعد تلك الجلسة التي انتهت بعد منتصف الليل، وربما في ساعات النهار الأولى، نقلني بسيارته الى الفندق وقال لي إن الغداء في اليوم التالي، وهو الغداء الأخير قبل عودتي الى لندن، سوف يكون في منزله ليعرفني على زوجته.

•••

في الطريق الى الفندق في الليلة السابقة قلت له إنني أريد أن آخذ لوحة زيتية لفنان عراقي هدية لزميلي ريمون عطا الله الذي يجمع لوحات فنية، فقال: «لا مشكلة». وعندما التقينا في مكتبه قرابة ظهر اليوم التالي اقتادني الى غرفة مجاورة في مبنى المخابرات العامة حيث وجدتها أشبه بمعرض للوحات، إذ كانت لوحات عديدة قد صفّت على جوانبها وكلها كبيرة الحجم، وطلب مني أن أختار واحدة منها، فقلت له وكيف سأنقلها معي وهي بهذا الحجم، فقال: «أنت شو عليك.. اختار اللوحة اللي تعجبك ونحن نوصلها لك في لندن». والحقيقة أنني وقعت في حيرة الاختيار، لأنها كلها جميلة وكل واحدة منها لها مغزى. فهناك صور من البادية حيث يركب خيّال ملثّم على فرس ويجر الى جانبه فرسين أو حصانين غير مسرجين، ومثلها لوحة أخرى عليها خيّالان وفرس واحدة غير مسرجة، ولوحات عدة عن حي اليهود القديم في بغداد تظهر فيها تفاصيل العمارة البغدادية التاريخية، ولوحات شعبية تمثل طبيعة حياة أهل الصرايف[41]. وبعد تردد طويل اخترت واحدة من هذه الأخيرة لأن مزيج ألوانها طبيعي، ولأنني أعرف ماذا تمثّل تلك الصرايف منذ أن كنت مدرِّساً في مدينة العمارة مطلع الستينيات. وبعد عودتي الى لندن بأيام اتصل بي على مكتبي في مجلة «الصياد» شخص عراقي قال لي إنه يحمل لي من بغداد صندوقاً كبيراً يجب أن أرسل أحداً بسيارة فسيحة لتسلمه منه. وطلبت من أحد العاملين معنا في المجلة أن يستأجر سيارة «فان» ليحضر فيها الصندوق، وهو بطول يبلغ قرابة متر ونصف المتر، وبعرض يقارب المتر. وبالفعل كانت اللوحة الواردة مصندقة جيداً من جميع جوانبها بخشب صلب بحيث قضينا أكثر من ساعة ونحن نحاول فك الألواح الخشبية التي تحتضنها، لأن توضيبها بهذا الشكل كان عملاً حرفياً متقناً.

ثم خرجنا من المكتب وتوجهنا الى المنزل بالسيارة، وكانت المسافة قصيرة

---

(41) الصريفة وجمعها صرايف، هي عبارة عن أكواخ مبنية من سعف النخل تشبه الخيام لكنها مربعة وليست هرمية الشكل، ويقطنها الفقراء الذين لا بيوت لهم في المدن فيتخذون من تلك الصرايف مأوى لهم على أطراف المدن، وهي مثل التخاشيب أو بيوت الصفيح في أحزمة الفقر المعروفة في بلدان أخرى.

على ما أذكر. وعلى يسار مدخل البيت كانت هناك شجرة زيتون صغيرة، فتعجبت لأنني لم أرَ من قبل شجرة زيتون في بغداد، فقال لي إن هذا البيت ليس ملكه بل هو للحكومة. وكان البيت من الداخل متواضعاً وعادياً ليست فيه أي مظاهر ترف أو فخفخة. وعلى الباب استقبلتنا زوجته السيدة جنان، ومعها ابنها علي الذي كان عمره يومها قرابة الخمس سنوات، وكان يقوم على الخدمة في البيت رجل شبه كسيح. وجلسنا على المائدة نحن الثلاثة فقط، السيدة جنان على رأس المائدة وهو وأنا جلسنا متقابلين واحد على يمينها والثاني على يسارها، وكان الطعام كله ممدوداً عليها قبل أن نصل، فلم يعكِّر صفو تلك الجلسة أحد.

بدأت السيدة جنان الحديث بالقول إن فاضل أبلغها عني وعن صداقتنا القديمة منذ أيام موسكو، فقلت لها إنني تعرفت على زوجها قبل سنوات عديدة من تعرفها هي عليه. ثم التفتت الي وقالت لي بنبرة عليها مسحة من القلق وربما من الخوف: «هل تدري أن لدينا خمسة أولاد؟».

فقلت لها متجاهلاً ما يحمله سؤالها في طياته من احتمالات: «وأنا عندي أربعة أولاد. ولذلك فإن ماكينة الغسيل في بيتنا تشتغل ليل نهار».

فقالت: «هذا يعني أن زوجتك لا تعمل خارج البيت».

أجبتها بأن ذلك مستحيل في مثل هذا الوضع، وتوجهت الى فاضل البراك بالقول: «لماذا لا ترسل العائلة الينا في لندن لتغيير الأجواء؟».

فقال: «هذا غير ممكن، لأن هناك قراراً يمنع عوائل المسؤولين من السفر الى خارج البلاد».

قلت: «يعني على قاعدة الظلم بالسوية عدل في الرعية».

قال: «تماماً».

قلت له عندئذ: «تساوون بين الناس في الظلم وتسمّون ذلك عدلاً».

ولكي يغيِّر الموضوع قال لي إن زوجته درست القانون، فأكدت بدورها أنها تخرجت من الجامعة بشهادة في القانون. فقلت للسيدة جنان: «نحن في لبنان نسمي ذلك «الحقوق» وليس «القانون»، وهو تعبير أدق في إظهار معنى العدل. ولذلك كان العثمانيون يسمّون وزارة العدل «وزارة الحقّانية»، وكانت لديهم المجلة العدلية التي تنشر الاجتهادات الحقّانية في مقاربة القانون. ذلك أن القانون في نظر عامة الناس يمكن أن يحمل معنى القسر أو القيود التعسفية، ونحن لم نسمع في أيام الدراسة بأي قانون في العراق سوى قانون العقوبات البغدادي. فالقانون بهذا المنظور يحمل معنى العقوبة وليس معنى الحق. ففي أي بلد، وأياً كان نظامه، يجب أن يكون الجسم القضائي فيه حافظاً لحقوق الناس، حتى في وجه السلطة الحاكمة. وهذا ما حدث في مصر عندما تمادى أنور السادات في قراراته التعسفية، فوقف القضاة في وجهه ووضعوا حداً

للتجاوزات».

قاطعني فاضل البراك وقال: «حدث شيء من هذا هنا. فوالد جنان يعمل في السلك القضائي، وفي وقت من الأوقات حاول وزير العدل أن يفرض على القضاة شيئاً مخالفاً لقناعاتهم فطردوه من قصر العدل، فذهب الى الرئيس صدام يشكو اليه أمره وما حدث له مع القضاة فقال له الرئيس إنه لا يستطيع أن يفعل له شيئاً مع القضاة».

ولاحظت أن البراك لا يأكل إلاّ قليلاً، فقلت له: «أراك دعوتني الى الغداء وأنت لا تأكل».

فقال: «إنني أعاني من ارتفاع الكوليستيرول».

فعلّقت على ذلك بالقول له: «في مثل هذه الحالة يجب أن تتوقف عن أكل اللحم الأحمر».

وراح البراك يغمز من المستوى الثقافي المتدني في الحزب فقال إن شقيقين أميين أصرّا على الانتساب الى الحزب معاً بدلاً من انضمامهما الى دورات محو الأمية[42]. وهنا حكيت للبراك وزوجته حكاية مفادها أنه في أعقاب الاستقلال اللبناني كانت هناك حاجة ماسّة الى المعلمين في المدارس الابتدائية الرسمية فجرى توظيف عشرات من المعلمين بالواسطات السياسية من غير تدقيق في الكفاءات، ولما اكتشف المفتشون على المدارس عدم صلاحية بعضهم للتدريس، قررت الحكومة إجراء امتحان خطي لعموم المعلمين في المدارس الابتدائية لغربلة القمح من الزؤان. فهرع أحدهم، وهو أميٌّ بالكامل، الى الزعيم الاقطاعي الذي وظّفه يستنجد به لأنه راسبٌ حتماً في الامتحان، فطمأنه زعيمه وطيّب خاطره، لكن قلقه ظل يتزايد مع اقتراب موعد الامتحان فزادت تضرعاته الى زعيمه الذي خلّصه من هذه المشكلة بتعيينه عضواً في اللجنة الفاحصة. وقلت للبراك: «يبدو أنكم تفعلون مثل ذلك بتعيين الأميين الراسبين في الامتحان أعضاء في القيادات الحزبية»!

فقال: «هاي هيي .. شو نسوي». ونهضنا عن المائدة متوجهين الى الصالون الصغير على الطرف الآخر من قاعة الطعام، لكن السيدة جنان لم تقعد معنا بل دخلت الى غرفة أولادها. وكنت أتوقع أن يأتونا بالقهوة بعد الغداء، فإذا بهم يقدمون لنا شراباً أحمر اللون قانياً بلون الدم تقريباً في فناجين الشاي، فإذا به شراب لذيذ مائل الى الحموضة لا أتذكر اسمه، وكنت أشربه لأول مرة في حياتي.. ولآخر مرة أيضاً. فمازحت البراك قائلاً: «هل هذا الشراب يزيل الكوليستيرول؟».

وبعد ممازحات من هذا النوع كان دائماً يستهلها بالقول لي: «إنت ما تقدر»،

(42) كان النظام العراقي في ذلك الوقت قد أطلق حملة واسعة لمحو الأمية في العراق، وقد قطع شوطاً كبيراً في هذا المضمار خلال عقد الثمانينات من القرن الماضي. لكنني لا أظن أن تلك الحملة قد أثمرت كما يجب في العمق، فبقيت في إطارها الأفقي.

بمعنى أنك لا تستطيع إلاّ أن تغمز وتلمز في كلامك، أو «تنقّر» كما نقول نحن اللبنانيين. ثم سألني ما إذا كان لدي أصدقاء، فأجبته إذا كان السؤال يتعلق بمن أعرفهم أو أتعاطى معهم فهم كثر، لكن بالمعنى الحقيقي للصداقة القائمة على الثقة المطلقة والمتبادلة، فإن لي صديقين فقط أستأنس بآرائهما ولا أخفي عنهما شيئاً. فقال: «أنا أيضاً لي صديق واحد لا علاقة له بالحكومة لكنه يتعاطى الأعمال الحرّة وأراه مرة كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع». لم يقل لي ما اسم صديقه هذا وأنا لم أسأله. ثم قال لي إنه منذ أن كان في الاتحاد السوفياتي وهو يمارس هواية جمع «الزوالي»، أي جمع السجّاد الفاخر. وقال إنه عثر في أحد المتاجر الروسية على سجادة صغيرة (زولية باللغة العراقية) أعجبته كثيراً لكن القائم على المتجر، وهو من رجال المخابرات على الأرجح، رفض أن يبيعها بحجة أنها محجوزة لواحد من قادة الحزب. وقال: «لكنني أغريته، يعني بالعربي الفصيح قدّمت له رشوة فقبل أن يبيعني السجادة».

ورفعت يدي في حركة استغراب قائلاً له: «وهناك أيضاً يرتشون»!

لكنني قلت للبراك بعد تلك الحكاية: «لا أظن أنك دعوتني الى بغداد بإلحاح من أجل أن نتغدّى ونتعشّى، فما الذي تريده؟».

بدأ جوابه بشرح وضعية الإعلام الخارجي العراقي، لكون بعض الصحف الخارجية الدائرة في الفلك العراقي آنذاك مملوكة ومدارة من قبل المخابرات العامة في بغداد وأبرزها مجلة «كل العرب» في باريس بعهدة ياسر هواري، ومجلة «التضامن» في لندن بعهدة فؤاد مطر، وقال إن كلاً منهما لها مجلس إدارة في بغداد.

ثم أبلغني أن ياسر هواري في باريس يريد أن يترك «كل العرب»، وسألني ما إذا كنت أقبل الانتقال الى باريس للحلول محله، وما هو المطلوب لقاء ذلك. وبلمح البصر عادت الى ذاكرتي محاولة الشراكة الفاشلة مع ياسر هواري في «الديار» قبل نحو عشر سنوات، كما أشرت اليها سابقاً، فاعتذرت عن قبول هذا العرض لأنه، بالإضافة الى ارتباط المشروع بالمخابرات العراقية، يقلب وضعي العائلي رأساً على عقب، خصوصاً لجهة مدارس الأولاد، وبالتالي فإنه لا يتلائم مع أوضاعي العائلية والشخصية المستقرة في لندن على نحو مريح نسبياً. وقلت للبراك ممازحاً: «أين وكيف تجدون مثل هذه النماذج من الصحافيين، وكبيرهم في نظركم وليد أبو ظهر؟».

فرد على السؤال بممازحة مماثلة قائلاً: «نحن لا نجدهم... هم يجدوننا»!

فقلت له: «هذا الجواب له تكملة .. إنهم يجدونكم لقمة سائغة»!

أطرق لحظة ثم قال لي: «حسناً.. تريد أن تبقى في لندن. فما رأيك أن تنضم الى مجلة «التضامن» مع فؤاد مطر؟».

قلت له: «أراك كأنك حائر في أمري، وأنا ليس عندي مشكلة. فؤاد مطر زميل

صديق وبينه وبيني خبز وملح، لكنني لا أرغب في العمل معه».

قال: «أنت تدخل وهو يخرج».

قلت له جازماً: «أنا لا ألعب هذه اللعبة. وقد جُرِّبت معي من قبل ولم أقبل»[43].

وراح يشكو من فؤاد مطر بالقول إنهم غير مقصرين معه، لكنه مع ذلك يتودد الى السعوديين وينتظر أسابيع ليحصل منهم على مبلغ زهيد لا يصل الى خمسين ألف دولار».

فأجبته: «ما يأخذه منكم هو للمجلة، وما يأخذه منهم هو لجيبه. وعلى سيرة الدفع والقبض، كم تدفعون له؟».

ورد على السؤال بسؤال قائلاً: «كم تقول أنت؟».

قلت تخميناً: «مليونان من الجنيهات الاسترلينية في السنة؟».

قال: «تقريباً.. أقل قليلاً»[44].

وبعد فشله في إقناعي بطروحاته، دخل الى غرفته وعاد الي حاملاً علبة صغيرة قدمها لي كهدية، ففتحت العلبة لأجد داخلها ساعة يد أنيقة لها سوار من ذهب، وقال: اشتريت اثنتين واحدة لك وواحدة لي!

وكان ذلك آخر لقاء بيننا انقطع بعده الاتصال والمراسلات. لكن الزميل علي بلوط جاء مرة الى لندن قادماً من بغداد وأبلغني أنه التقى الدكتور فاضل المتقاعد آنذاك في مزرعته، ربما في مطلع عام 1990، وقال إنه سأله عني وبعث لي سلامات معه!

•••

لقد اطلعت على بعض ما قيل وكتب عن فاضل البراك بعد موته، وخصوصاً على شبكة الإنترنت، لكن يبدو لي أن جميع الذين تداولوا تلك الأمور لا يعرفون الرجل، ولا يعرفون الكثير من الوقائع، لكنني لم أستغرب أن تقال عنه مثل تلك الأشياء، وفي كثير منها افتراء، لأن المناصب الأمنية العليا في أي بلد، خصوصاً في الأنظمة الاستبدادية، تكون دائماً محفوفة بالسرِّية والغموض، وبالتالي هي مثار للإشاعات والأقاويل، وأصحابها يُصوَّرون دائماً على أنهم قساة غلاظ القلوب. وأعرف أن كثيرين لن يصدقوني عندما أقول إن فاضل البراك لم يكن كذلك، بل أنا نفسي لم أصدق أذني عندما قال لي مرة في جلسة كنا فيها وحدنا لا ثالث معنا: «نحن أناس عاطفيون»!

---

(43) إشارة الى مشروع الشراكة في مجلة «الديار» في بيروت عندما طلب مني الملحق الصحافي مناف الياسين عدم إبلاغ أقاربي بالأمر، على قاعدة: «تدخل فيخرج»، لكنني لم أبلغ البراك تفاصيل ما حدث في بيروت يومها، وكان هو في ذلك الوقت ما زال خارج العراق. ولا أدري ما إذا كان على علم بما حدث، لكنني أشك في ذلك، لأنه لم يبدر منه ما يشير الى علمه بالأمر.

(44) علمت تالياً أن المبلغ الذي كانت تدفعه المخابرات العراقية لمجلة «التضامن» يصل الى 150 ألف جنيه استرليني في الشهر، ما يعني أن المبلغ «الأقل قليلاً من المليونين» هو مليون وثمانمائة ألف جنيه في السنة.

وأؤكد أنني لست هنا في معرض الدفاع عن شخص أصبح في ذمة التاريخ منذ عقود، لكنه كان جزءاً من سيرتي الذاتية التي أنقلها بأمانة، وأروي فيها ما حدث معي، ومعظمه موثّق بالرسائل وبالمقالات المنشورة في أكثر من مطبوعة لبنانية مستقلة نسبياً، وفي أحاديث مع أشخاص ومسؤولين وزملاء بعضهم ما زال على قيد الحياة. لكن منذ زيارتي الأخيرة الى بغداد عام 1985، ما زلت أتفكر وأحاول تبيُّن ما إذا كان فاضل البراك، بحكم موقعه كمدير للمخابرات العامة العراقية، وبحكم اطلاّعه على خفايا السياسات الدولية السرية، أو على الأقل إفصاحه لي بأنه كان في لندن وأن السفير الأميركي زاره، ينسج مع آخرين في الجيش العراقي ظروفاً مؤاتية للتغيير في بنية الحكم القائم بقيادة صدام حسين، نتيجة للأحوال الداخلية في العراق من جهة، ونتيجة لتقاطعات السياسات الدولية والإقليمية بشأن الحرب مع إيران من جهة ثانية. وهذا سؤال افتراضي دقيق للغاية قد يتبين المؤرخون الإجابة عنه في وقت ما، ولا سيما أن أكثر المخارج التي تم تداولها لوقف الحرب بين العراق وإيران في تلك المرحلة كانت تفترض أو تشترط تنحي صدام حسين من القيادة طوعاً، أو تنحيته قسراً.

وليس خافياً على أحد أن محاولات كثيرة من داخل الحزب ومن خارجه جرت أو حيكت للتخلص من صدام حسين، بل إن أخاه برزان وضع كتاباً وهو في مديرية المخابرات عدّد فيه سبع محاولات جدية على الأقل[45]. وفي المقابل لا بد من القول بأن الرئيس العراقي كان يتخلّص من الحزبيين والعسكريين والمقربين منه لمجرد الشبهة، أو افتراض إمكانية أن يكون أحدهم بديلاً عنه في عيون الدول والقوى الخارجية، فكان يتخلص من كل شخص يتصور أنه يمكن أن يشكِّل بديلاً عنه، متآمراً كان أم بريئاً. وفي هذا الإطار كان فاضل البراك بما يملك من شخصية جذّابة ومن ثقافة وعلم وقدرات متعددة، يشكِّل أفضل البدائل المتاحة للتغيير السلمي، لكنني لا أظن أنه كان يطمح أن يكون بديلاً وإن كان غير راض عما آلت اليه أحوال البلاد وغير مرتاح الى انسداد أفق النظام القائم آنذاك، وأعرف رأيه الحقيقي في الأوضاع السائدة وفي الأشخاص والمسؤولين، كما أعرف رغبته الصادقة في الخروج من دائرة السلطة المغلقة الى رحاب العمل الثقافي العلني (في الجامعة أو السلك الديبلوماسي)، أو العمل الحر (في المزرعة). وربما كانت «فرضية سوار الذهب» قريبة من المعقولية كحالة انتقالية لفتح الأفق المسدود.

ولست أستطيع أن أقول الشيء ذاته عن عدنان خير الله وزير الدفاع الذي تم التخلص منه عام 1989 بتفجير طائرة الهليكوبتر العسكرية التي كانت

(45) نشر برزان التكريتي كتابه عن محاولات اغتيال أخيه الرئيس بعنوان «محاولات اغتيال الرئيس صدام حسين»، في عام 1982 قبل سنتين تقريباً من قرار عزله من مديرية المخابرات العامة.

تقلّه، لأنني لم أكن أعرفه ولم أقابله قط. ومع أن كثيرين افترضوا أن التخلص من عدنان خير الله كان بسبب الخلافات العائلية المتعلقة بما كان متداولاً عن الزواج الثاني لصدام حسين، باعتبار أن زوجته الأولى ساجدة طلفاح هي شقيقة عدنان، فإن الأقرب الى المعقول هو كونه في ذهن صدام بديلاً افتراضياً.

وقد تجمعت لدي في الآونة الأخيرة روايات من بعض الأصدقاء يستفاد منها أن أمر عدنان خير الله لم يكن مجرد افتراض. فقد قيل لي في معرض استفساري عن حادث السير الذي أودى بحياة عبد الجليل حمود (أبو فرات) وزوجته أم فرات على طريق الأردن إنه كان حادثاً مفتعلاً. والمعروف أن أبا فرات كان على علاقة وثيقة مع خير الله طلفاح والد عدنان وساجدة، وهو الذي أخذني لمقابلته في بيته من غير موعد، كما مر في السياق. وفي هذه الرواية أن أبا فرات كان أيضاً على صلة وثيقة مع أحد شيوخ العشائر الذين لهم دالة ونفوذ في المملكة العربية السعودية، وأن السعوديين عرضوا عن طريق الشيخ المذكور على خير الله طلفاح والد عدنان عرضاً مالياً كبيراً يتجاوز المليار دولار في حال استطاع التخلص من صدام بأي شكل من الأشكال تحت غطاء الثارات العائلية.

فلا أحد يستطيع أن ينكر تدخل السعوديين في شؤون الدول العربية الأخرى ومساعيهم الكثيرة والحثيثة لتغيير الأوضاع فيها، كما شاهدنا في لبنان وسوريا وفي المخاضات العربية الأخيرة التي أطلقوا عليها اسم «الربيع العربي»، وإغداقهم للمال السياسي لهذه الغاية، وهذا ليس بحاجة الى إثبات، كما أن موقفهم المعادي لصدام حسين ونظامه أمر يعرفه القاصي والداني. ولذلك لست أستبعد أن يكونوا قد قاموا بمحاولة من هذا النوع في العراق. لكن ما أستبعده هو أن يكون أبو فرات صلة الوصل بين الشيخ المزعوم وبين عدنان خير الله أو والده، خصوصاً في موضوع من هذا النوع.

على أن تطورات الحرب مع إيران في السنة التالية لزيارتي الى بغداد أواخر عام 1985، تطرح المزيد من الأسئلة، وفي الوقت ذاته تلقي بعض الضوء على الفرضيات الواردة أعلاه. فقد لاحظت مرة أن مجلة «كل العرب» الصادرة من باريس والتابعة للمخابرات العراقية، نشرت موضوعاً عن محاضرة في بغداد مع صورة كبيرة على صفحتين يظهر فيها فاضل البراك باللباس المدني يتوسط طارق عزيز والدكتور عبد المجيد الرافعي، وكلاهما باللباس العسكري. وهي صورة تبدو مضحكة للقارىء غير المعني، لأن مدير المخابرات الضابط العسكري في عز حالة الحرب يرتدي اللباس المدني، بينما القياديان الحزبيان المدنيان يرتديان اللباس العسكري. وعندما قرأت الموضوع الذي لم أعد أتذكره، خطر لي أنه موضوع مفتعل الغاية منه فقط هو نشر تلك الصورة

المعبِّرة!

وفي مطلع شباط/فبراير عام 1986، قبل أيام معدودة من الاحتلال الإيراني لشبه جزيرة الفاو، اتصل بي هاتفياً شخص من بغداد قال إنه من وزارة الإعلام وطلب مني أن أكتب مقالاً مستعجلاً عن الحرب مع إيران الى جريدة «الثورة» الناطقة بلسان حزب البعث العراقي، وأن أسلمه الى الملحق الصحافي الذي خلف سعد البزاز في لندن وهو شاب لطيف من آل القيسي، ففعلت. لكنني لا أظن أن المقال قد نُشر لا في جريدة «الثورة» ولا في غيرها. فقد قلت فيه إنه من غير المجدي الآن الحديث عن أسباب الحرب أو عن تطوراتها، فالسؤال الوحيد الذي يجب أن يُسأل في الوقت الحاضر هو: لماذا طالت الحرب ولا تلوح في الأفق تباشير نهايتها؟

وما لبث الإيرانيون أن شنوا هجومهم المفاجىء على شبه جزيرة الفاو فاحتلوها وشكلوا خطراً مباشراً على مدينة البصرة وعلى الطريق الواصل بين العراق والكويت. وكان ملفتاً وقتها أن سلاح الجو العراقي لم يشارك في المعارك ضد القوات الإيرانية المهاجمة بحجة أن الأحوال الجوية لم تكن مؤاتية. وبعد احتلال الإيرانيين للفاو نشرت مجلة «كل العرب» في باريس مقالاً لأحد كبار ضباط الجيش العراقي مع صورة صغيرة له اتهم فيه الإنكليز بالوقوف وراء تلك التطورات الدراميتيكية في سير الحرب. فهل كانت وراء الاحتلال الإيراني للفاو مناورة سياسية دولية للتخلص من صدام حسين ونظامه؟ هذا سؤال ليس لدي المعطيات الكافية للإجابة عنه، لكنه ما زال يستحق البحث والتدقيق فيه من قبل المؤرخين لتلك الحقبة من ثمانينات القرن الماضي.

والملفت أنه بعد تحرير الفاو وانتهاء الحرب، قام وزير الدفاع السعودي آنذاك الأمير سلطان بن عبد العزيز بزيارة الى الفاو متعهداً بإعادة إعمارها!

وزادت شكوك صدام حسين بسلاح الجو العراقي عندما قرر استعارة طائرات فرنسية بعيدة المدى من طراز «سوبر إتيندار» استقدم النظام العراقي لها طيارين محترفين من دولة جنوب إفريقيا العنصرية للقيام بالغارات البحرية البعيدة، ضمن صفقة سلاح كبرى مع تلك الدولة شملت في ما شملت مدافع ثقيلة جديدة لم تكن قد استخدمت في الميدان من قبل. وتردد في حينه أن تلك الصفقة بلغت نحو ستة مليارات دولار. وفي تلك الأثناء قمنا بنشر موضوع غلاف في مجلة «الصياد» حول تطورات الحرب العراقية ـ الإيرانية بعنوان: «حرب الخليج تخرج الى البحر».

وفي تلك المرحلة، بل من البداية، كان هناك شعور صامت بأن في العراق مشكلة قيادة على الرغم من الهيمنة الظاهرية لصدام حسين. فكان بعض الحزبيين العراقيين والسوريين يرون أن العراق كان سيعاني من مشكلة

حقيقية لولا قيادة صدام، بينما كان يرى آخرون عكس ذلك، وهو ما عبر عنه السياسي والمحامي السوري المخضرم عبد الفتاح الزلط بقوله: «إن صدام هو المشكلة»[46]. وقيل لي إن عبد الفتاح الزلط الذي اتخذ من ضاحية «ستاينز» اللندنية مكاناً لإقامته بعد خروجه من العراق، كان قبل وفاته على علاقة جيدة مع السعوديين.

والمعروف أن الرئيس السوري حافظ الأسد سمح بإقامة جنازة كبرى له في مسقط رأسه حلب، وجرى لجثمانه استقبال رسمي في سوريا. ويومها كتبت عنه تعليقاً في «الصياد» بعنوان: «كان المبتدأ فصار الخبر»!

إن هذا الموضوع ما زالت تكتنفه غوامض كثيرة، وفي تقديري أنه سوف يبقى الى زمن طويل في المستقبل موضع جدل وتدقيق، وأرجو أن يكون ما قدمته في هذا الفصل مما رأيته أو لمسته بنفسي مساهمة متواضعة في إلقاء بعض الضوء على تلك الغوامض لعل الباحثين في المستقبل يستنيرون بها لفهم حقيقة الماضي.

---

(46) عبد الفتاح الزلط كان من القياديين البارزين في حركة الاشتراكيين العرب بقيادة أكرم الحوراني، وقد لجأ الى العراق مثل كثيرين من القيادات السورية المعارضة لنظام صلاح جديد في دمشق، وفي بغداد كان له إسهام ملحوظ في صياغة القوانين العراقية الجديدة وأهمها قانون العمل. لكن بعد الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس حافظ الأسد انضم الاشتراكيون العرب الى الجبهة الوطنية التي قامت في تلك المرحلة وانضموا الى أول حكومة شكلها الرئيس الأسد بشخص عبد الغني قنوت. ونتيجة لذلك عاد معظم القياديين في الحركة من المنفى الى سوريا، باستثناء ثلاثة هم: أكرم الحوراني، وعبد الفتاح الزلط، ومصطفى حمدون. لكن الحوراني ما لبث أن سحب تأييده لمشاركة الحركة في الحكم، مؤكداً معارضته لنظام الرئيس الأسد، مما أدى الى انقسامات وانسحابات في صفوف الحركة. ويبدو لي أن الجنازة التي سمحت بها الحكومة السورية لعبد الفتاح الزلط وشاركت فيها، كانت بمثابة مظاهرة ضد أكرم الحوراني الذي تم دفنه في الأردن عند وفاته ولم يعد جثمانه الى سوريا حتى كتابة هذه السطور.



III

المعلوم والمكتوم

ما إن علم سليم اللوزي، صاحب «الحوادث» بخروجي من مجلة «الدستور» حتى اتصل بي هاتفياً يدعوني الى العشاء في منزله مع زوجتي. وكنت أعرف بالتواتر أن اللوزي قد بدأ يشعر بشيء من التعجب للنجاح النسبي الذي لقيه بعض المجلاّت الصادرة في الخارج، ومنها «الوطن العربي» و «الدستور»، وكلتاهما كانتا مواليتين للعراق، خصوصاً أنه كان في البداية متوجساً من إمكانية فشل انتقاله بـ«الحوادث» الى لندن. بل إنه قبيل انتقال «الدستور» الى السودانيين أوعز الى الصحافي المصري العامل معه وقتها، جلال كشك، أن يكتب مقالاً هجومياً ضد «الدستور» وصاحبها علي بلوط، فكتب كشك يومها مقاله المشهور «مجلة بلوط لصاحبها علي دستور». وعندما التقينا على العشاء في منزله، هو وزوجته، وأنا وزوجتي، وحدنا، اعترف لي بأنه كان يتساءل أحياناً عن سرِّ النبض الذي يحرِّك «الدستور» ويدفعها بقوة الى الأمام، وطلب مني أن أحدثه عنها وعمّا جرى فيها. وقد استفضت في شرح الظروف والملابسات له من غير أن أعلم أنه يسجِّل ما أقول بنيَّة نشر مقال عن الموضوع في أول عدد من مجلته بعد اللقاء. وبالفعل عندما صدر عدد «الحوادث» بعد يومين وجدت موضوعاً عن «الدستور» على صفحتين يتضمن كل ما تحدثنا عنه في السهرة المذكورة.

والمعروف أن سليم اللوزي كان يتمتع بمزايا مهنية حميدة يُحسد عليها، في مقابل تصرفات غير لائقة أحياناً في تعامله مع الآخرين سواء مع المحررين العاملين معه، أو حتى مع أهله وأقاربه. ومن مزاياه المهنية أنه كان دائم الملاحظة والتعلُّم، ولا يستصغر شأن أي كلام يعجبه، كائناً من كان قائله، فيسجِّله على أي ورق متاح له، من أوراق المطاعم الى محارم «كلينكس»، وكان أحياناً يسجِّل على راحة كفِّه ليعيد نقله على الورق فيما بعد، وذلك بهدف استخدام ذلك الكلام المسجّل عنده في مقالات ومناسبات مقبلة. وبعد مقتله بفترة كنت أزور أرملته التي آلت اليها المجلة فطلبت مني أن أتصفح أوراق زوجها الراحل فجلبت كمية هائلة من الأوراق المختلفة، ووضعتها على طاولة الطعام، فرحت أحاول فرزها، لأن القسم الأكبر منها مكتوب على ورق خفيف

يتضمن كلمات سمعها هنا وهناك، أو أحاديث ومناقشات سياسية كان حاضراً فيها بين شخصيّات لبنانية مختلفة المشارب. وكان أيضاً بين الأوراق مقالات مكتملة لكنها غير منشورة، أو كان ينوي نشرها ثم صرف النظر عن ذلك.

وبالفعل كان سليم اللوزي يحب أن يتعلم من أي شيء ومن أي كان. ومن ذلك مثلاً أنه لم يكن يجيد اللغتين الإنكليزية والفرنسية، لكنه مع ذلك كان يأتي بالصحف الفرنسية والإنكليزية التي تستهويه فيحاول قراءتها والى جانبه قواميس تينك اللغتين منقولة الى العربية، فيجلس عليها يفكفكها عبارة عبارة، ويسجل في أوراقه ما استخلصه منها مما ينفعه تالياً في تدبيج مقالاته اللاحقة. وكان يعتقد جازماً بأن العاملين معه يجب أن ينفّسوا عن مكبوتاتهم الجنسية لكي تتفتح قرائحهم. وفي إحدى الأمسيات كنت أتمشى معه من منزله الكائن في «سلون آفنيو» باتجاه «كينغز رود» ومعنا الرسّام الفنان علي عثمان الذي لم يكن قد تزوج بعد لكن له صديقة سويسرية، وكنا في حديث عن إخراج الغلاف المقبل للمجلة. وفجأة توقف سليم اللوزي عن المشي وقال لعلي عثمان: «هل تمارس الجنس يا أستاذ؟». وكان علي عثمان خجولاً فارتبك وضحك واحمرّت خدوده ولم يجب. فما كان من سليم اللوزي إلاّ أن سحب من جيبه مائة جنيه استرليني ناولها الى علي عثمان وقال له: «اعزم صديقتك على العشاء وزهزه نفسك وأحضر لي في الصباح غلافاً مهولاً»[1]!

•••

شعرت من اللقاء الأول مع سليم اللوزي في لندن بأنه راغب ومتحمس لانضمامي الى «الحوادث»، مع أنه لم يفاتحني في الموضوع تلك الليلة. وعندما التقينا بعد أيام في مكتبه لبحث الأمر سألني: «ماذا تعرف عني؟»

قلت له: «يقولون عنك إنك سليط اللسان، وتتخاطب مع المحررين بطريقة غير لائقة».

قال: «هذا صحيح، لكنني أفعل ذلك لأن بعضهم يعتبر الصحافة مجرد وظيفة لتقاضي الراتب ولا يبذل جهوداً حقيقية للارتقاء الى مستويات متقدمة في المهنة بل يكتب مقالات أشبه بالتبن لا زبد فيها ولا قليّة. وعلى كل حال إنني أحاول جاهداً أن أصبر وأهذب خطابي. وماذا سمعت أيضاً؟».

قلت: «سمعت أنك بخيل».

قال: «هناك أشخاص يعملون معي لا يستحقون الرواتب التي يتقاضونها. لكن المحرر الكفوء المتميز إذا كان يستحق ليرة فإنني أعطيه ليرتين. أعرف أن في تصرفاتي بعض الانفعالات غير اللائقة، لكن ألا تعرف عني صفة حميدة؟».

---

(1) عمل علي عثمان معي ومع الزميل أنطوان شكر الله حيدر في إصدار جريدة «الميزان» مطلع التسعينيات من القرن الماضي، وكان له فضل كبير في إضفاء اللمسات الفنية عليها، خصوصاً لجهة الإخراج والرسوم الكاريكاتورية. أما صديقته السويسرية إيفون فقد تزوجها وأنجب منها ابنتين، وسمعت تالياً أنهما تطلّقا في السنوات الأخيرة.

قلت له: «أعرف أنك صحافي جيِّد قلمك مثير وحاد ويستسيغ إثارة الجدل».
قال: «كيف تختصر شخصيتي بكلمتين؟».
قلت: «مراهق دائم وتلميذ دؤوب».
فوقف من وراء مكتبه ومد يده الي للمصافحة، وقال: «اتفقنا».
فقلت له: «اتفقنا على ماذا؟».
قال: «انضم الى أسرة المجلة وسوف ترى ما يُعجب خاطرك».
وهكذا كان.

وعندما وقفت أودِّعه على باب مكتبه الذي كان في الطابق الأرضي بالقرب من المدخل الرئيسي للمبنى، بينما كانت مكاتب المحررين والعاملين في المجلة في الطوابق العليا، قال لي: «الآن أستطيع أن أسافر الى مدينة «كان» على الريفييرا الفرنسية لقضاء العطلة الصيفية مع العائلة مرتاح البال. وبعد عودتي نتحدث في أمور كثيرة».

•••

لم يكن سليم اللوزي غريباً عليّ، فقد كنت أتابع توجهات مجلته في بيروت ومراحل تطورها، وكنت أتردد عليه في مكاتب «الحوادث» في منطقة المزرعة من بيروت برفقة الصديق منح الصلح الذي استمدت المجلة الكثير من بريقها من ومضاته الفكرية والسياسية التي كان ينفحها في سليم اللوزي. بل حضرت معهما مرة وكان منح الصلح يملي عليه مقالاً كاملاً. وفي فترة من الفترات كان صلاح البيطار أيضاً يعطي سليم اللوزي نفحات متميزة للكتابة. كذلك ترافقنا لأيام في العاصمة المغربية الرباط عام 1969 خلال انعقاد القمة العربية الخامسة التي سبق ذكرها في السياق. وبعد هزيمة حزيران/يونيو 1967 وانطلاق «الحوادث» في وثبة صحافية جديدة من خلال نقدها للعوامل المؤدية الى تلك الهزيمة، كنت أتردد عليه مع الزميل فريد الخطيب العامل يومها في «الحوادث»، وقد زرناه مرة في بيته الجبلي في «بعلشمي» قرب بحمدون وتعشينا معه، ومن خلال أجواء ذلك اللقاء كتب فريد الخطيب قصة «لوكس» جبران الحايك، تشبيهاً للجيوش العربية المهزومة في تلك الحرب به[2].

لكن عندما كنت في «الأحرار» عام 1969 كلمني سليم اللوزي بالهاتف ودعاني الى الغداء في مطعم فندق «بريستول»، وقال لي إننا سنكون وحدنا. في ذلك

---

(2) خلاصة القصة أنه عندما تكرر انقطاع التيار الكهربائي عن مكاتب جريدة «لسان الحال» لصاحبها آنذاك جبران الحايك، قرر الحايك شراء قنديل «لوكس» وتكليف موظف اسمه علي بإدارة هذا القنديل في حال انقطاع الكهرباء. لكن الكهرباء لم تعد تنقطع فأخذ علي قنديل «لوكس» الى بيته ولم يعد يداوم. ثم فجأة انقطعت الكهرباء فراح الجميع ينادون على علي فلا سميع ولا مجيب، ويسألون أين اللوكس فلم يجدوه. وكانت الدعاية المصرية خصوصاً تصف الجيش المصري في زمن قيادة المشير عامر بأنه «أقوى قوة ضاربة في الشرق الأوسط»، لكن عندما هجم العدو الإسرائيلي في الخامس من حزيران1967 واقتضت الحاجة الى القوة الضاربة لم يكن هناك أحد... لا علي ولا اللوكس»

الغداء طلب مني أن أكون صلة وصل بينه وبين العراقيين لأنه يريد استقصاء إمكانية التعاون معهم. وفي الأسبوع التالي دعوته الى الغداء في المكان عينه مع الملحق الصحافي العراقي آنذاك نديم الياسين[3]، حيث جرى نقاش حول كيفية تعاطي الأنظمة العربية مع الصحافة الحرة. ومما قاله سليم اللوزي في تلك الجلسة:

«نحن لا نستطيع أن نكون أبواقاً مثل الصحف الحزبية أو الملتزمة، لكننا نستطيع أن نستنسب توجيه بعض الأخبار والتحليلات بما يفيدكم جزئياً. لا نستطيع أن نعطي كل شيء. كذلك بالنسبة الى الأوضاع الداخلية في البلدان العربية، حيث يتوجب علينا أن نقول شيئاً من الحقيقة، والتنازل الذي نعطيه هو أننا لا نقول كل الحقيقة».

وكما بدا لي من الحديث أن نديم الياسين أعجب بطرح سليم اللوزي، ووعد بإيصال وجهة نظره الى المسؤولين في بغداد. لكنني لا أظن أنه جرى تعاون معه لأنني كنت أعرف رأي بعض القيادات البعثية فيه، واعتقادهم بأنه مرتبط بجهات خارجية.

تلك المحاولة لم تخرج بنتيجة، ولست أظن أنها تكررت في حينه مع أقنية أخرى. بل على العكس من ذلك راح سليم اللوزي في بدايات الحرب اللبنانية يتودد الى السوريين وذهب الى دمشق حيث قابله الرئيس حافظ الأسد لمدة ساعتين. وعندما عاد من مقابلة الرئيس الأسد سأله الزميل ريمون عطا الله مدير تحرير «الحوادث» في ذلك الوقت عن فحوى تلك المقابلة، فقال له اللوزي: «إنه (أي الرئيس الأسد) لا يهمه في لبنان سوى الموارنة».

وفي المرحلة الفاصلة بين هزيمة الدول العربية في حزيران 1967 وبين بدايات الحرب اللبنانية، أصبح سليم اللوزي أكثر اهتماماً بالشأن اللبناني الداخلي، وكان العميد ريمون إده، عميد حزب «الكتلة الوطنية اللبنانية» أكثر الشخصيات اللبنانية تأثيراً عليه، فخاض من أجله حملات ضد المكتب الثاني والأجهزة الشهابية الحاكمة في ذلك الوقت. فكان ريمون إده العنصر المشترك بين مجلة «الحوادث» وبين جريدة «النهار» التي اتخذت الموقف ذاته من الأجهزة الشهابية، بغية تظهير الشراكة السنّية ـ المارونية القائمة في الميثاق الوطني إنما بحلّة كتلوية هذه المرة، باعتبار أن الحلّة الدستورية القائمة منذ الاستقلال قد أصبحت مهلهلة وبحاجة الى تجديد أو تغيير، لأنه لم يعد معها ينفع أي ترقيع. وكان الدافع الرئيسي وراء هذا التناغم بين سليم اللوزي وريمون إده شعور بأن هناك توجهاً لاقتسام لبنان على حساب المسيحيين، والموارنة

---

(3) لا يمت بصلة قربى الى الملحق الصحافي الذي خلفه في بيروت مناف الياسين. وبعد عودته الى بغداد، تم نقل نديم الياسين الى وزارة الخارجية وتعيينه سفيراً حيث مثل بلاده في بعض الدول الأوروبية والعربية قبل تعيينه مديراً للمراسم في القصر الجمهوري، فكان مدير تشريفات صدام حسين.

تحديداً، بين ياسر عرفات قائد الثورة الفلسطينية المعترف بشرعيتها على الأراضي اللبنانية بموجب اتفاقية القاهرة لعام 1969، وبين الزعيم الدرزي كمال جنبلاط تحت مظلة ما كان يُسمّى بـ «الحركة الوطنية»، وكان اللوزي وإده كلاهما يعتقد بأن ذلك سوف يؤدي في النتيجة الى إدخال لبنان في الصراعات الإقليمية والدولية فيفقد استقلاله وبالتالي مبرر وجوده. بل عندما بدأت الأوضاع في لبنان تأخذ هذا المنحى، وظهرت بوادر اتجاه بعض الدوائر المارونية للتعاون مع إسرائيل تحت ذلك الضغط، قال منح الصلح لسليم اللوزي:

«ما هذه الثورة الفلسطينية التي جعلت المسلمين نصارى والنصارى يهوداً»!

وفي لندن كان سليم اللوزي كلما التقى شخصية لبنانية أو عربية لها شأن يدعوها الى اجتماع موسّع مع جهاز التحرير للمناقشة وطرح الأسئلة والتصورات وتبادل الأفكار. وصادف أن العميد ريمون إده جاء الى العاصمة البريطانية في زيارة خاصة فدعاه اللوزي الى اجتماع التحرير وكنت من الحاضرين في الاجتماع. وحدث أثناء الاجتماع أن دخلت الى القاعة ترايسي شمعون ابنة المغدور داني شمعون قائد ميليشيا «النمور» الذين قضى عليهم قائد القوات اللبنانية بشير الجميل في مجزرة الصفرا، ثم أصبح رئيساً لحزب الوطنيين الأحرار خلفاً لوالده الرئيس كميل شمعون[4] وحفيدة الرئيس كميل شمعون، وكانت تعمل مصوّرة فوتوغرافية في «الحوادث»، فسمعت ريمون إده يتناول بالنقد تصرفات بعض القيادات المسيحية، فقاطعته وقالت: «لكن جدّي ...»، فلم يدعها تكمل بل استشاط غيضاً وقال لها: «خلصيني منك ومن جدك.. كل البلاوي من جدّك»!

وبعد فترة حضر الرئيس تقي الدين الصلح فدعاه اللوزي الى اجتماع التحرير حيث جرت تعليقات ظريفة على الأوضاع، لكن الرئيس الصلح قال في ذلك الاجتماع كلمة يشعر اللبنانيون اليوم بقيمتها. فقد قال بالحرف الواحد: «إنها جريمة بحق لبنان ومستقبله أن يفكّر أحد بتغيير دستور عام 1926، لأنه جاء على قياس لبنان حفراً وتنزيلاً، بل هو من أفضل الدساتير في العالم».

وبعد ذلك حضر الى اجتماع للتحرير أمير الرياض، الأمير سلمان بن عبد العزيز، ولي العهد الحالي للمملكة السعودية، لكنني لم أكن وقتها في «الحوادث». وقال لي الزملاء بعد عودتي أن الاجتماع مع الأمير سلمان طال

(4) هي ابنة داني شمعون من زوجته الأولى الأسترالية باتريسيا مورغان التي كانت تعرف باسم «باتي»، التي قام الزميل أنطوان شكر الله حيدر بكتابة مذكراتها عن حياتها السابقة معه وتم نشرها على حلقات في مجلة «الصياد» قبل وفاتها في لندن بفترة قصيرة. وقد تزوج داني شمعون بعد طلاقه منها، من اللبنانية إنغريد عبد النور وله منها طفلان، طارق وجوليان، وقد قتل جميع أفراد العائلة في هجوم مسلح على منزلهم يوم 22 تشرين الأول/أكتوبر من عام 1990 اتهمت به قوّات سمير جعجع الرئيس الحالي للهيئة التنفيذية للقوات اللبنانية. وكان داني شمعون مناصراً لقائد الجيش اللبناني وقتذاك العماد ميشال عون رئيس التيار الوطني الحر حالياً.

لأكثر من أربع ساعات بحيث أن الجميع، بمن فيهم الأمير سلمان، تناولوا السندويشات المصنوعة في المكتب وقت الغداء. وكانت الزميلة هدى الحسيني قد انضمت الى «الحوادث»، فور تركها مجلة «الوطن العربي»، بعد زيارة قامت بها الى أفغانستان حيث كانت الحرب مستعرة بين القوات السوفياتية المحتلة وبين المجاهدين الإسلاميين المدعومين من السعودية وأميركا. وكان الأمير سلمان في طريقه الى أفغانستان، فسأله سليم اللوزي ما إذا كان ذاهباً الى أفغانستان ليشرف على تسليم صواريخ «ستينغر» الأميركية المضادة للطائرات الى المجاهدين، وهي صفقة راج أن المملكة السعودية موّلتها. وقيل لي بعد عودتي أنه جرى نقاش مثير في تلك الجلسة مع الزميلة هدى الحسيني التي كانت تعرف الوضع على الأرض هناك كما رأته بعينها، ومن خلال مقابلاتها الصحافية مع بعض القياديين الأفغان، تضمن دور السعودية في تمويل موجات المجاهدين العرب المتوافدين الى بلاد الأفغان لمقاتلة القوات السوفياتية. ومن الملاحظات التي قيل لي إن الزميلة هدى الحسيني أبدتها في تلك الجلسة المطولة مع الأمير سلمان، أن السعوديين يدعمون «الأفغان العرب» لكن هؤلاء سوف ينقلبون عليهم بعد انتهاء الحرب مع السوفيات.

وعندما تعرّفت على هدى الحسيني بعد عودتي كانت لا تزال في مكتب باريس مع الزميل حسن حماده، وفي مكتب باريس تعرّفت عليها.

•••

بعد انتقال سليم اللوزي بمجلة «الحوادث» الى لندن عام 1977، أيقن أنه بحاجة الى تمويل كبير، وكان يعرف أن المال الكبير في ذلك الوقت هو بيد الخليجيين، والمملكة السعودية تحديداً، ولم يكن راغباً في السير بهذا الاتجاه. وكانت «الحوادث» في ذلك الوقت ممنوعة من دخول السعودية، وخشي أن يحول ذلك دون حصوله على عقود إعلانية وازنة. وبعد انضمامي الى أسرة «الحوادث» بأيام أقام سليم اللوزي حفل غداء كبير في فندق «سافوي» اللندني المشهور[5]، دعا اليه ممثلي جميع الشركات الإعلانية الكبرى في العالم، وألقى فيه كلمة «الحوادث» باللغة الإنكليزية باسم سليم اللوزي الصحافي الفلسطيني المعروف ناصر الدين النشاشيبي، فأعطى ذلك اللقاء انطباعاً جيداً عن المجلة وصاحبها وكانت نتيجته مثمرة جداً كما تبيّن لاحقاً من حجم العقود الإعلانية

(5) فندق سافوي هو أعرق وأقدم فندق فخم في مدينة لندن ويقع بين نهر «تايمس» وبين شارع ستراند في وسط لندن، تأسس عام 1889 وكان من ضيوفه جميع المشاهير في بريطانيا والعالم من الملك إدوار السابع والملك جورج السادس وابنته الأميرة اليزابيت خطيبة الأمير اليوناني فيليب، الى الفنان الفرنسي مونيه الذي رسم النهر من غرفته في الفندق، الى الكاتب أوسكار وايلد وجميع كبار نجوم السينما والمسرح في العالم. وقد آلت ملكيته أخيراً الى الأمير السعودي الوليد بن طلال الذي قام بعملية تجديد وتجميل للفندق استغرقت ثلاث سنوات من 2007 الى 2010 بكلفة قُدِّرت بمبلغ 100 مليون جنيه استرليني لكنها وصلت في النهاية الى 220 مليون جنيه.

التي حصلت عليها المجلة.

وقبل ذلك كنا التقينا سوياً لوحدنا في منزله حيث شعرت بقلقه عندما قال لي: «أعطني العراق ولتذهب السعودية الى الجحيم». فقلت له:

«إذا كنت ترغب في التعاون معي لكي أعطيك العراق، فإنني لا أقدر على ذلك ولا كلمة لي في العراق. بل أقول لك إن تجربتي الماضية مع العراقيين سواء في مجلة «الأحرار» أو مجلة «الدستور» كانت تجربة غير مريحة ولا رغبة لي في تكرارها. أما إذا كنت تريد التعاطي معي تعاطياً مهنياً كصحافي لبناني في صحيفة لبنانية فإنني أعدك ببذل أقصى ما أستطيع من جهود لكي تكون التجربة ناجحة. ثم أقول لك إن العراق والسعودية ليسا على خصومة، لأن خصم العراق هو سوريا وخصوم السعودية هم الكويت والإمارات. فلكلٍ خصمه من جنسه. هل نسيت قضية البريمي، وأحمد خليفة السويدي، وشكوى الملك عبد العزيز الى السير بيرسي كوكس بأنه أعطى نصف مملكته الى آل الصباح وبكى كما روى شاهد العيان الكولونيل ديكسون، وأنت تعرف أن دموع الملك عبد العزيز ليست رخيصة». وبعد مقتل سليم اللوزي ببضعة أشهر رجعت الى «الحوادث» عائداً من تجربة غير موفقة في دبي، فطلب مني مدير التحرير ريمون عطا الله أن أكتب مقال الأسبوع للمجلة لأن منح الصلح الذي كان يكتب المقال توقف لفترة عن الكتابة، لكنه بعد فترة عاد الى كتابة ذلك المقال بتوقيع «كاتب عربي كبير» الى أن أقفلت المجلة أبوابها أخيراً بعد وفاة صاحبها الجديد ملحم كرم. وفيما كنت أكتب المقال المطلوب، وهو على ما أظن بعنوان «جمهورية بيروت»، تذكرت تلك المحادثة بين سليم اللوزي وبيني فاستحضرت العبارة التي قلتها له وهي «لكلٍ خصمه من جنسه»، فكتبتها في سياق آخر وبتعبير مختلف بعض الشيء هو «لكلٍ ردعه من جنسه»، لأن موضوع قوات الردع العربية هو الذي كان سائداً في ذلك الوقت!

ومن أسباب قلق سليم اللوزي أنه كانت له في لندن قبل «الحوادث» تجربة فاشلة عندما أصدر مجلة «إيفنتس» باللغة الإنكليزية فخسر عليها أكثر من مليون ونصف المليون جنيه استرليني دون جدوى، فأغلقها لتحديد خسارته فيها، وإن كان آخرون من المتمولين قد تحمّلوا الجانب الأكبر من تلك الخسارة كما فهمت تالياً. والحقيقة أنني تعجبت لجرأته في إصدار مطبوعة باللغة الإنكليزية في العاصمة البريطانية وهو لا يعرف تلك اللغة. وقد ذكرتني تجربة سليم اللوزي في الصحافة الإنكليزية بتجربة رياض طه الفاشلة أيضاً مع الصحافة الفرنسية عندما أصدر من جنيف في سويسرا مجلة «أفكار» باللغة الفرنسية عن بُعد.

إن جميع التجارب العربية مع الصحافة الأجنبية بلغات لا يعرفها أو لا يتقنها القائمون على تلك التجارب باءت بفشل ذريع ومنيت بخسائر فادحة، وسوف

أستذكر هنا محاولات رئيسية من هذا النوع جرت في وقت ليس ببعيد. لكن المفارقة هي أن اللبنانيين وبعض العرب في بلدان مثل مصر وسوريا والعراق وبلاد المغرب حققوا نجاحات باهرة بإصدار صحف باللغات الأجنبية في بلدانهم وليس في الخارج. وأكتفي هنا بذكر بعض التجارب اللبنانية البارزة وأهمها جريدة «لوريان» التي أصدرها في بيروت عام 1923 غبريال خبّاز وجورج نقّاش، وما زالت مستمرة الى اليوم باندماجها مع صحيفة أخرى ناجحة بالفرنسية أسسها المفكر اللبناني المعروف ميشال شيحا عام 1935، وهي جريدة «لو جور»[6]. وهناك أيضاً مجلة «لا ريفو دو ليبان» التي آلت أخيراً الى نقيب المحررين ملحم كرم وماتت بموته، وجريدة اقتصادية مهمة أيضاً هي «لا كوميرس دو ليفان» لصاحبها ورئيس تحريرها كسروان لبكي. وهناك مطبوعات لبنانية أخرى بالفرنسية من بينها جريدة «لو سوار» لصاحبها ديكران توسباط، وجريدة «لو ماتان» التي أصدرها كامل مروّة لتكمل تشكيلته المؤلفة من «الحياة» باللغة العربية، و «دايلي ستار» باللغة الإنكليزية، لكنها خلافاً لهما لم تعمر طويلاً. وآخر العنقود مجلة «ماغازين» لصاحبها جورج أبو عضل، وتجارب أخرى أقل نجاحاً منها جريدة «الصفاء» التي اشتراها رينيه عاجوري من رشدي المعلوف بعد توقفها بالعربية ليصدرها بالفرنسية لكنها أغلقت أبوابها مع بداية الحرب اللبنانية في عام 1976، ومنها مطبوعة موازية لجريدة «العمل» الكتائبية وتصدر عنها باسم «لاكسيون» وكانت تصدر شهرياً على شاكلة «فورين أفيرز» الأميركية، وترأس تحريرها كل من ريمون دواليبي وريمون ضو. كما أصدر الرئيس أمين الجميل صحيفة «لو ريفاي» وأوكل رئاسة تحريرها الى نجيب الدحداح الأمين العام السابق لوزارة الخارجية اللبنانية الذي كان يوقع افتتاحياتها باسم «ليبانوس». وكذلك الأمر باللغة الإنكليزية سواء بالنسبة الى جريدة «دايلي ستار» التي أسسها كامل مروة وما زالت تصدر الى اليوم، ومجلة «ماندي مورنينغ» التي آلت أيضاً الى ملحم كرم وماتت بموته.

وهناك تجارب عربية أيضاً مع الصحافة الأجنبية في لندن وفي باريس كان مصيرها الفشل الذريع. ومن تلك التجارب مجلة «آيت دايز» التي أصدرها من لندن رياض الشعيبي وهو فلسطيني - أردني كان مديراً لتلفزيون دبي. وقد شاع يومئذ أن ممولها هو الثري المعروف مهدي التاجر الذي كان سفيراً لدولة الإمارات العربية المتحدة في لندن، وأن خسارتها بلغت ثلاثة ملايين جنيه استرليني عندما تقرر إغلاقها في عام 1980 مع أنها استقطبت نخبة من المحررين البريطانيين المحترفين.

والتجربة الثانية المدوِّية هي شراء المتمول المصري المعروف محمد الفايد

(6) كان امتياز الجريدة باسم المحامي شارل حلو الذي أصبح فيما بعد وزيراً للعدل ثم رئيساً للجمهورية اللبنانية. وكان رئيس التحرير فيها خليل الجميِّل، وكان ميشال شيحا يكتب افتتاحياتها.

صاحب محلاّت «هارودز» المشهورة وقتذاك لمجلة «بانش» البريطانية التاريخية التي كانت توقفت عن الصدور بعد تألق دام نحو قرن ونصف القرن من دون انقطاع. فقد تأسست مجلة «بانش» في عام 1841 وتوقفت عن الصدور في عام 1992، وكانت أول صحيفة في العالم تُدخل فن الكاريكاتير على الصحافة، وقد استقطبت أكبر الكتّاب والشعراء والمفكرين والرسّامين والنقّاد في زمانها، ومن بينهم كارل ماركس وفريدريك أنجلز. وفي عهدة محمد الفايد الذي أعاد إحياءها بصورة مختلفة عام 1996، تكبدت المجلة خسائر فلكية وصلت الى نحو عشرين مليون جنيه استرليني في ست سنوات مما اضطره الى إغلاقها في عام 2002، لأن عدد قرائها لم يتجاوز الستة آلاف فقط.

وفي باريس لمع لفترة نجم رجل الأعمال اللبناني جورج غصن، نجل الصحافي حنا غصن، في مضمار شراء بعض الصحف الفرنسية المتعثرة ومحاولة تعويمها، ومنها جريدة «فرانس سوار» التي بلغت ذروتها بعد الحرب العالمية الثانية فوصل توزيعها الى المليون ونصف المليون نسخة يومياً لينحدر مع مرور الوقت الى نحو خمسين ألفاً فقط. وكان فشل تجارب غصن في الساحة الإعلامية الفرنسية مدوِّياً أيضاً، لينصرف تالياً الى أعمال أخرى، منها سلسلة المقاهي والمطاعم التي أقامتها زوجته لينا مروة، كريمة الصحافي المغدور كامل مروة باسمها في فرنسا وفي لبنان.

•••

ذهب سليم اللوزي الى كان مرتاح البال، كما قال لي، لكن أثناء وجوده هناك حدثت التطورات المأسوية في العراق عندما تسلّم صدام حسين رئاسة الجمهورية وقام بالتصفيات الدموية المعروفة التي شملت عدداً كبيراً من القيادات الحزبية، فاتصل اللوزي هاتفياً بي وبمدير التحرير ريمون عطا الله واتفقنا على أن يكون صدّام حسين على الغلاف بعنوان «الصادم والمصدوم»، فأحدث ذلك العدد من «الحوادث» صدمة بحد ذاته، فعاد سليم اللوزي الى لندن مزهواً ودعا جميع أفراد أسرة المجلة الى غداء في مطعم «الباشا» بمنطقة «نايتسبريدج» كنوع من التكريم وللتشاور بشأن الأعداد المقبلة لكي يبقى مستوى المجلة نابضاً بالحيوية. وصادف أن كان حاضراً في المطعم على مائدة أخرى الفنان والمطرب اللبناني محمد سلمان الذي قام وانضم الينا مهنئاً اللوزي على «الصادم والمصدوم» وقال مازحاً وهو يغادر المطعم:«تصبحون على غلاف، كل غلاف وأنتم بخير»[7].

(7) محمد سلمان مطرب لبناني معروف من منطقة جبل عامل في جنوب لبنان، لكنه عاش فترة في مصر حيث لحّن له كبار الملحنين المصريين مثل محمد القصبجي ورياض السنباطي. وقد عمل في الإنتاج السينمائي مع زوجته الثانية المطربة اللبنانية نجاح سلام، وكان عروبياً في توجهاته السياسية، إذ أنشد في حرب السويس أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام 1956النشيد الحماسي المعروف «علم العروبة»، كما أنشد نشيد «سوريا يا حبيبتي» أثناء حرب تشرين/أكتوبر

ثم تتالت أعداد متميزة من «الحوادث» منها، على سبيل المثال لا الحصر، موضوع الغلاف عن حركة جهيمان العتيبي في الحرم المكّي في ذلك الوقت الذي صادف بداية العام الهجري 1400هـ، فوضع اللوزي للغلاف عنوان «العبور الى الصفر»، ثم غلاف عن الحركات الجهادية الإسلامية بعنوان «رهبان العنف».

وفي ذلك الوقت حاول الرئيس حافظ الأسد إحداث انفراج في سوريا بأن سمح لمنتديات المثقفين أن تمارس نوعاً من حرية النقاش، وقد أعطاني الزميل السوري قصي صالح الدرويش تسجيلاً صوتياً لأحد تلك المنتديات تحدث فيه الكاتب والشاعر الراحل ممدوح عدوان الذي قال في ذلك التسجيل إن النظام يكذب علينا كل ساعة، بل يكذب في كل شيء، حتى النشرة الجوية في الإذاعة والتلفزيون هي نشرة كاذبة، إذ تكون درجة الحرارة خمسين فيقولون إنها خمس وثلاثون درجة، ظناً منهم أن ذلك يخفف على الناس بؤسهم حتى مع الطبيعة. وبعد تفريغ الشريط وكتابته على الورق وضعنا له عنواناً هو «نظام الأسد على المشرحة» وأرسلناه الى سليم اللوزي الذي أعجب به، لكنه شطب العنوان الذي وضعناه ووضع مكانه على الغلاف: «لماذا يكذب النظام»، فضربت «الحوادث» بهذا العدد رقماً قياسياً في التوزيع. والمعروف أن الأديب الراحل ممدوح عدوان كان من أجرأ المثقفين السوريين ومن أوسعهم ثقافة لكونه متخصصاً في الأصل بالأدب الإنكليزي. وعندما توفي بمرض السرطان في عام 2004 عن عمر ناهز الثالثة والستين، قال زميله حكم البابا في رثائه: «إنه واحد من قلّة من الذين وسّعوا هامش الحرية في سوريا، في زمن كان فيه الهامش أضيق من شفرة السكين».

ولا أنسى مشهد سليم اللوزي عندما سألني ما إذا كان قد ذهب أحد من المحررين الى تونس لتغطية مؤتمر القمة العربي في مقر الجامعة العربية المنتقل الى العاصمة التونسية بسبب عزل مصر الساداتية يومئذ. ولما قلت له ليس لي علم بأن أحداً قد ذهب الى تونس، خبط كفه على جبينه وقال: «وماذا سنكتب إذن؟».

قلت له: «نكتب ما تتداوله الوكالات بشيء من التصرف الذي يبعد شبهة النقل».

صمت برهة، وقال لي: «هل تعرف أين يقع مقر الجامعة حيث المؤتمر منعقد؟»

قلت له: «إنه يقع في شارع محمد الخامس».

قال: «إذن اجلس لنكتب».

وكان نجم القمة العربية تلك ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير التونسية الذي لم يحضر الى تونس مباشرة، بل سافر الى طهران حيث التقى آية الله الخميني، ومن طهران طار الى موسكو حيث التقى الزعيم السوفياتي ليونيد

عام 1973.

بريجنيف، وبعد ذلك حط في تونس. فقال سليم اللوزي أكتب ما أقوله لك، وراح يملي علي، وهذه عادة لم أكن أستسيغها من أيام سعيد فريحة في بيروت، لكنه وضعني أمام أمر واقع، فقال لي أكتب وليكن ما تكتبه بأحرف بارزة: «الى مقر الجامعة العربية في شارع محمد الخامس في العاصمة التونسية دخل الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات على الزعماء العرب متأبطاً الخميني على يمينه، وبريجنيف على يساره .. ومن هنا واصاعداً أكتب ما شئت»!

وفي ذلك الوقت أيضاً بدأت في لندن المفاوضات الخاصة باستقلال روديسيا التي أصبح اسمها بعد الاستقلال «زيمابوي». وقد جرت تلك المفاوضات في «لانكستر هاوس» بمنطقة بايزووتر في غرب لندن، فكلفني سليم اللوزي بمتابعة تلك المفاوضات وإعداد تحقيق عنها للمجلة. فذهبت الى مقر المفاوضات لأجد عشرات الصحافيين والمراسلين من جميع أنحاء العالم، وكنت الصحافي العربي الوحيد بينهم. وكان من الصعب علي مقابلة الزعماء الأفارقة المنهمكين بالمفاوضات لولا مساعدة سيدة هندية تعمل في تنظيم النشاطات هناك، فلما علمت أنني أمثل صحيفة عربية اهتمت بي اهتماماً خاصاً فرتّبت لي مواعيد مع الزعيمين الإفريقيين القائمين بمفاوضات الاستقلال لأنهما قادة حرب التحرير وهما جوشوا نكومو وروبرت موغابي، واقترحت علي أن تصطحبني الى راعي كنيسة سانت بول المشهورة في لندن جون كولينز، الذي يسمونه بالإنكليزية Canon Collins، وكان يعرف إفريقيا جيداً ويعرف زعماء حركات التحرر فيها معرفة وثيقة[8]. وفي ردهات المؤتمر كانوا يسمّون موغابي «الرئيس»، وقد أصبح رئيساً لدولة زيمبابوي المستقلة حيث ما زال في المنصب الى اليوم بعد أكثر من ثلاثين سنة من تلك المحادثات. وما زلت أحتفظ بصوري مع نكومو وموغابي عندما التقيتهما في لانكستر هاوس. لكن الكاهن كولينز في سانت بول عندما التقيته في مكتبه آنذاك شرح لي التركيبة الإفريقية شرح خبير وقال لي إن نكومو رجل طيب وديموقراطي، لكن موغابي طموح محب للاستئثار وإن له ميولاً ديكتاتورية، ووصفه بأنه «ديكتاتور بالإمكان». وبعدما فرغت من تلك المقابلات كتبت تحقيقاً عن الموضوع وقدمته الى سليم اللوزي الذي قرأه أمامي فأعجبه، لكنه اقتطع منه المقطع المتعلق

(8) توفي كولينز بعد سنة فقط من استقلال زيمبابوي، وكان شخصاً متميزا في الكنيسة الأنغليكانية لأنه كان يحمل أفكاراً في الاتجاهات اليسارية والتحررية، وخلال الحرب العالمية الثانية لم يكن راضياً عن السياسة التي أدخلت بريطانيا في حرب مع ألمانيا، وبعد الحرب قاد حملة للمصالحة مع الشعب الألماني. وهو متخرج من جامعة كامبريدج، وبقي راعياً لكنيسة سانت بول التاريخية مدة 33 سنة الى حين وفاته في عام 1981. واللقب Canon ومعناه الحرفي «قانون»، كما في اللغة العربية، مشتق في العربية واللاتينية (canonicus) على السواء من كلمة «قانون» اليونانية Kanón أو kanonikós التي تعني عند الإغريق «المقياس» أو «المعيار» وكلها، كما ورد في المعاجم، من الأصل العبراني qaneh. ولذلك فإن العبارة تعني في هذا السياق «الفقيه» أو «العلاّمة» الذي يضع المعايير.

بما قاله لي الكاهن كولينز عن روبرت موغابي ووضعه في إطار خاص ضمن الموضوع بعنوان «مشروع ديكتاتور»!

لكن في تلك المرحلة كان سليم اللوزي متقلّب المزاج، من جهة كان منتشياً بنجاحات «الحوادث»، ومن جهة كان خائفاً من ذلك النجاح. ويبدو لي أنه عندما انتقل من مكتبه على مدخل المبنى في الطابق الأرضي الى أعلى مكتب في الطابق العلوي، كانت تساوره وساوس معيّنة. وقبل انتقاله من تحت الى فوق مررت به صباحاً فوجدته واجماً متفكراً فسألته ماذا يدور في ذهنه، ففاجأني بالقول: «معروض علي أن أبيع المجلة بعشرة ملايين جنيه مع راتب عشرة آلاف في الشهر مدى الحياة». وقبل أن أسأله ما رأيه في هذا العرض، ومن وراءه، واصل حديثه بالقول: «لكن ماذا أفعل بعشرة ملايين، هل أقضي وقتي بالشورت أهرول في هايد بارك مثل عبد الكريم أبو النصر[9]. أحسن شيء يحدث لي الآن هو أن يدخل عليّ أحدهم ويطلق رصاصة في رأسي».

وعندما قال ذلك لم أعد أسأله شيئاً. وأعترف أن كلامه هذا أخافني فلم أنقله لأحد من الزملاء إلاّ بعد مقتله. وكان بين هذا الكلام وبين مقتله أقل من أربعة أشهر. لكن بعد مقالاته ضد النظام السوري تحت وطأة مقتل شقيقه مصطفى في طرابلس، قلت له ممازحاً: «الآن أصبح للسوريين مصلحة في المحافظة عليك، لأن كل الناس سوف تتهمهم إذا أصابك شيء». فقال: «اليوم اتصل بي السفير السوري وتودّد اليّ». وكان السفير السوري في لندن يومها عدنان عمران الذي أصبح تالياً أميناً عاماً مساعداً في جامعة الدول العربية، ثم وزيراً للإعلام في دمشق. لكنه لم يقل لي من الذي عرض عليه بيع «الحوادث»، وما إذا كانت هناك أسباب أو جهات سياسية وراء ذلك.

في غضون ذلك كان الصحافي المصري المعروف جلال كشك قد عاد للالتحاق بمجلة «الحوادث» بعدما كان تركها لفترة عكف خلالها على وضع كتابه المثير للجدل «السعوديون والحل الإسلامي» الصادر عام 1981. ولست أدري ماذا كان يدور في ذهن سليم اللوزي في ذلك الوقت عندما حرّض جلال كشك ليكتب مقالاً هجومياً عنيفاً ضد المسيحية والمسيحيين في وقت بدأت فيه بوادر مدٍّ إسلامي في كل الاتجاهات بعد انتصار ثورة الخميني في إيران وقيام حركة جهيمان العتيبي في الحرم المكي في السعودية. وكان جلال كشك قد كتب وقتها مستبشراً بالحراك الإسلامي مقالاً قال فيه: «ويأتي على رأس كل قرن من يجدِّد أمر هذا الدين». والحقيقة أن جلال كشك قد شطح وتمادى في مقاله ضد المسيحية بمعرفة اللوزي وموافقته. ولما سألته لماذا فتح هذا الباب من غامض علم الله، قال لي إنه يبتغي «فقأ الدمّل» بفتح النقاش والجدل حول

(9) الملفت أنه بعد ثلاث سنوات على مقتل سليم اللوزي قررت أرملته ووريثة مجلته تعيين عبد الكريم أبو النصر رئيساً للتحرير مما دفع معظم المحررين في المجلة الى الاستقالة، وهو ما أثار في حينه زوبعة إعلامية في بعض الصحف العربية الصادرة في لندن.

المسائل الدينية والطائفية على مداه وبصراحة كاملة. لكنني شعرت أنه لم يكن يقول الحقيقة. ثم علمت تالياً أن سليم اللوزي تلقّى ملاحظة من جهة ما تنبِّهه الى أن المسيحيين يسيطرون على مجلته وهذا ليس في مصلحته. وقد بقيت هذه العقدة مستحكمة في «الحوادث» الى سنوات بعد مقتل صاحبها، فعبّرت تلك العقدة عن نفسها بالقول إن المصلحة تقتضي أن لا يكون رئيس التحرير غير مسلم.

ولذلك لما طلب مني سليم اللوزي أن أرد على مقالة جلال كشك بمقال مضاد ضد الإسلام والمسلمين رفضت ذلك، فامتعض من رفضي هذا، وكان ذلك من أسباب تركي السريع لمجلة «الحوادث» في أقرب فرصة. لكنني قلت له إنني أكتب كلمة توضيحية حول ما ورد في مقال جلال كشك من سوء فهم للعقيدة المسيحية حول القربان والخمر كناية عن جسد المسيح ودمه، لا يحمل اسمي الصريح، بل نشرته تحت اسم «جورج فرّان»، فلم يرق له ذلك وظل ممتعضاً، لأن ما كان يتوخاه هو الدخول في مهاترة دينية وطائفية لاستدراج الردود والردود المضادة.

والحقيقة أنه كانت بين جلال كشك وبيني صداقة وعلاقة طيبة استمرت سنوات بعد تركي «الحوادث» وتركه لها من جديد. وعندما أصدر كتابه «السعوديون والحل الإسلامي» أرسل اليّ نسخة من طبعته الأولى مع إهداء جاء فيه: «الى الزميل والصديق الحبيب سليمان الفرزلي مع المحبة والتقدير. 1981/10/16». وكذلك عندما أصدر بعد ذلك كتابه بعنوان «خواطر مسلم في المسألة الجنسية». لكن عندما بعث اليّ بكتابه التالي بعنوان «خواطر مسلم في الجهاد والأقليات والأناجيل» كان إهداؤه التالي: «الى صديقي الأقلّي سليمان الفرزلي مع المحبة والتقدير»[10]. والى الآن وبعد وفاته بنحو عشرين عاماً لا أدري لماذا اختار أن يصفني بصفة «الأقلّي» مع أنه كان يعرف أن هذه العقدة لا تستحكم بي لا بالقول ولا بالفكر ولا بالفعل.

وفي مرحلة لاحقة بعد مقتل سليم اللوزي عدت الى «الحوادث»، وكان كبير المحررين فيها وقتذاك الزميل سليم نصّار الذي لم يشأ أن يكون رئيساً معلناً للتحرير، ثم عاد اليها أيضاً جلال كشك ليكتب مقالاً أسبوعياً. وصادف يومها أن أقام الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم إمارة أبو ظبي ورئيس دولة الإمارات العربية المتحدة حفلة طنّانة رنّانة بمناسبة زواج أحد أبنائه، فكتب

(10) كان الصحافي الراحل محمد جلال كشك غزير الإنتاج، بل أكثر غزارة من أي صحافي آخر عاصره، سواء في المقالات الصحافية أو في عدد الكتب التي أصدرها في مواضيع شتى، منها ما هو مثير للجدل بشكل حاد. وقد صدر له في حياته نحو ثلاثين كتاباً، كان آخرها كتاب صدر عام 1994، بعد وفاته بسنة بعنوان «قراءة في فكر التبعية». أما كتابه الأول الذي وضعه في نهاية أربعينات القرن الماضي عندما بدأ حياته يسارياً علمانياً فهو بعنوان :«مصريون لا طوائف» وآخر كتاب صدر له قبيل وفاته في عام 1993 فهو: «ألا في الفتنة سقطوا».

جلال كشك بالمناسبة مقالاً لاذعاً بعنوان: «أمّةٌ تنوحُ وحاكمٌ يترنّمُ»، أورد فيه الأرزوجة المشهورة لزرقاء اليمامة: «ما للجمال مشيُها وئيدا / أجندلاً حملنَ أم حديدا / أم الرجال نوّماً قعودا». لكن سليم نصّار حجب له مقالاً تالياً ولم ينشره في المجلة فغضب جلال كشك غضباً شديداً، ويبدو أن سليم نصّار لم يبلغه بعدم النشر مسبقاً، فاتصل بي ودعاني الى الغداء في مطعم «سيربانتين» وسط الهايد بارك. ولما التقينا شكا لي تصرّف الزميل نصّار معه وعزا ذلك الى أسباب طائفية، فأجبته بأن ذلك ليس السبب قطعاً لأنني أعرف سليم نصّار جيداً وهو أبعد ما يكون عن أي تفكير طائفي، وشرحت له أنه بعد مقتل سليم اللوزي بالطريقة التي قُتل فيها جعل جميع الصحافيين في كل مكان أكثر حذراً في ما يكتبون أو ينشرون بسبب جو الإرهاب الذي أشاعته تلك الحادثة البشعة في ذهن كل من يكتب باللغة العربية في ذلك الوقت. لكن جلال كشك رفض هذا المنطق وانتفض قائلاً بصوت مرتفع وبلهجة مصرية فاقعة:

«هو مين دا اللي حايقتل سليم نصّار»!

وفي النتيجة خرج جلال كشك من «الحوادث»، وخرج بعده سليم نصّار ثم خرجت أنا، ثم استقال بعد ذلك معظم المحررين كما سأروي في السياق.

وقد كان جلال كشك مثيراً للجدل سواء في مقالاته الصحافية أو في كتبه البحثية، وكانت علاقته مع سليم اللوزي علاقة غريبة من الود والنفور في وقت واحد، وربما كان ذلك لأن جلال كان يعتبر نفسه أرفع فكرياً من سليم اللوزي، وربما ألمع صحافياً، وقد يكون أن نوعاً من الغيرة لعب بينهما، مع أن اليد الطولى كانت لسليم. وبصرف النظر عن الفكرة الأخلاقية السلبية التي أحاطت بالرجلين كليهما، فإن سليم اللوزي وجلال كشك كانا مثل «شنٍّ وطبقة». لكن الحق يقال إن جلال كشك كان على معرفة ودراية بجميع التيارات الفكرية المتضاربة في العالم العربي وقد خبرها كلها عن قرب. فهو مزيج من الشيوعية والقومية العربية والإسلاموية والانبهار بالحالة الأميركية التي نشر عنها كتاباً بعنوان «ثورة يوليو الأميركية»(1988). بل إن البعض رماه في أواخر حياته بأنه انتهى في الأحضان الأميركية لأنه اشترى بيتاً في ضاحية «لانغلي» بولاية فيرجينيا القريبة من العاصمة الأميركية واشنطن، في مكان مجاور لمبنى وكالة المخابرات المركزية، مما أثار سوء الظن به في بعض الأوساط المصرية. لكنني شخصياً كنت أفهمه وكان يرغب صادقاً في التناغم معي ويحرضني على ترك سليم اللوزي ومجلة «الحوادث» لنقيم سوياً مشروعاً صحافياً مشتركاً. لكنني لم أتجاوب معه في هذا المسعى.

في ذلك الجو المحموم الذي ساد داخل «الحوادث»، حيث فترت العلاقة بيني وبين سليم اللوزي من جهة، وزاد التشنج والتوتر بين اللوزي وبعض المحررين العاملين معه، وفي الوقت ذاته راح صاحب المجلة يبحث عن وسائل غير مألوفة

للتخلص من ياسر هواري الذي كان تعاقد معه قبل مجيئي الى «الحوادث» معتقداً في البداية أن ياسر هواري يمكنه إحداث نقلة نوعية في المجلة على غرار النجاح الذي لقيه في مجلة «الأسبوع العربي» بحيث يريحه ويتيح له المزيد من الوقت للاستجمام وللعائلة، لكنه تبيّن له بعد فترة أن ياسر هواري ليس ضالته فقرر دفعه الى الخروج بوسائل غير مباشرة. ومما يُذكر في هذا السياق أن الوسائل ذاتها تم استخدامها للتخلص من أحمد عسه الذي استقدم رئيساً للتحرير بعد مقتل سليم اللوزي.

ولذلك عندما أبلغني الزميل علي بلوط في أواخر عام 1979 أن جريدة جديدة يجري الإعداد لها في دبي، وأن القائمين عليها يبحثون عن محررين لهم خبرة لتأسيس الجريدة، وافقت مبدئياً على الدخول في هذه التجربة. وقد قام علي بلوط بدور الوسيط بيني وبين الشخص المكلف بالمهمة، وهو الفلسطيني - الأردني رياض شعيبي مدير التلفزيون في دبي، فاجتمعنا سوياً وتعارفنا وتناقشنا في التفاصيل. وكان شعيبي بجد يرغب في إنجاح التجربة وإطلاق جريدة «البيان» بطريقة متميزة. ومن الشروط التي قبلها شعيبي في نقاشاته معي أن يجري تعيين قصي صالح الدرويش مديراً لمكتب «البيان» في باريس. وفي اليوم الأخير من المناقشات أبلغني أنه اتفق أيضاً مع ياسر هواري للانضمام الينا في دبي.

وبعد الاتفاق على الأمور كافة سافرت الى دبي برفقة علي بلوط في بداية عام 1980، فطرنا لأول مرة بطائرة «كونكورد» السوبر سونيك التي تبلغ سرعتها ضعفي سرعة الصوت من لندن الى المنامة عاصمة البحرين، ومن هناك طرنا بطائرة عادية الى دبي. وكان الطيران بالكونكورد في ذلك الوقت المبكر تجربة فريدة ليس فقط لسرعتها، حيث قطعت المسافة بين لندن والمنامة بثلاث ساعات وبضع دقائق، بل أيضاً للعلو الشاهق الذي تبلغه ويصل الى أكثر من ستين ألف قدم حيث يمكنك أن ترى من النافذة سطح الأرض مكوّراً وكأنك في مركبة فضائية. لكنها في الوقت ذاته كانت ضيقة وغير مريحة كالطائرات التقليدية. ومن المؤسف أنه تقرر في السنوات الأخيرة وقفها عن العمل نهائياً لأنها غير مربحة اقتصادياً وأصبحت أسعار تذاكرها خيالية، وبعد اللغط الذي أحاط بانفجار إحداها في مطار باريس ومقتل جميع ركابها فور الإقلاع. لكنها على كل حال تبقى من أبرز الإنجازات العلمية للقرن العشرين، ولا أستبعد أن تعود الى العمل بشكل جديد وبأسلوب جديد.

•••

عندما أبلغت سليم اللوزي أنني سوف أترك «الحوادث» لأذهب الى دبي بدا كأنه فوجىء بالأمر أو لم يكن يتوقعه. وقال لي إنه إذا كان السبب مادياً فإنه سوف يسعى أن يتدبر لي ولسليم نصّار مبلغ 25 ألف جنيه استرليني لكل

منا كدفعة أولى لشراء بيت للسكن في لندن، لكنني اعتذرت منه لأنني كنت قد ارتبطت مع رياض شعيبي. وبعد مغادرتي بأيام كتب في «كلمة العدد» عن «صحافة النفط» وغمز من قناتي من غير أن يسمِّيني باعتبار أنني وقعت في الإغراء النفطي كما كان يتصوّر، لكنه كان بصيراً عندما قال لبعض الزملاء إنه لن يطول بي المقام في الخليج وسوف أرجع الى «الحوادث» قريباً، وهو ما حدث لكن بعد وفاته مع الأسف.

وقد ظن سليم اللوزي في البداية أن صاحب المشروع في دبي هو مهدي التاجر فاتصل به مستوضحاً، كما قيل لي في دبي لاحقاً، فأبلغه التاجر أنه لا علاقة له بالأمر، وأن المشروع يعود الى حكومة دبي. وتكدرت جداً عندما علمت بخطفه ومقتله بعد ذلك بشهر تقريباً، واتصلت هاتفياً بالزملاء في لندن مستوضحاً الأمر، فكان الرأي السائد أن الأجهزة السورية المنتشرة في لبنان آنذاك هي التي قامت بتلك الفعلة. وبعد تركي «الحوادث» للمرة الثانية للعودة الى بيروت أواخر عام 1982 للعمل في دار الصيّاد، بقيت قضية سليم اللوزي ماثلة أمامي على الرغم من مرور أكثر من سنتين عليها. وذات يوم أبلغني زميل لبناني يعمل في مكان آخر أنه مسافر الى دمشق للقاء وزير الإعلام السوري آنذاك أحمد اسكندر، فطلبت منه أن يثير معه موضوع سليم اللوزي، فتردد في ذلك. لكنني قلت له أن يقول للوزير اسكندر إن السؤال مني وإنني كلفته بطرحه نيابة عني. وبعد عودته أبلغني أن أحمد اسكندر يرسل لي تحياته ويدعوني الى دمشق في أي وقت أشاء، لكنه في موضوع سليم اللوزي اختصر له القضية بالقول إن سليم اللوزي ذهب ضحية الصراع بين كمال أدهم ومهدي التاجر[11].

وكنت أظن أن رياض شعيبي تعاقد معي ومع ياسر هواري في لندن كنواة تأسيسية لجريدة «البيان»، بحيث أتولى شؤون التحرير ويتولّى ياسر الشؤون الفنية ووضع «الماكيت» وبقية الأمور المتعلقة بالإخراج. لكنه تبيّن لنا بعد وصولنا الى دبي أنه استقدم جهاز تحرير كامل تقريباً من الفلسطينيين والأردنيين والمصريين، وأننا نحن نمثِّل الديكور اللبناني. بل كان قد وضع تصميم ماكيت الجريدة وصولاً الى نوع ورقها الشبيه بالورق الزهري اللون لجريدة «فايننشال تايمز» اللندنية، وجعل اسم الجريدة مائلاً على الطرف بدلاً من الوسط كبقية الصحف. وفوق ذلك أبلغنا أن القائم بمهام رئيس التحرير سوف يكون الصحافي الفلسطيني - الأردني ابراهيم سكّجها، والد الصحافي باسم سكّجها. وكان سكّجها رجلاً رفيع الخلق عفيف النفس واللسان ويحمل القضية الفلسطينية في ثناياه وبكل جوارحه باعتباره من أهل مدينة يافا

---

(11) كمال أدهم كان في ذلك الوقت مديراً لجهاز المخابرات السعودي، وهو شقيق الملكة عفة زوجة العاهل السعودي الراحل الملك فيصل بن عبد العزيز الذي عينه في المنصب المذكور وبقي فيه حتى ولاية الملك فهد بن عبد العزيز في عام 1982 عندما عين الملك فهد في مديرية المخابرات نائب أدهم وابن شقيقته الأمير تركي الفيصل.

المحتلة، لكن رئاسة التحرير وإدارة جهاز بذلك الحجم والـوزن كانت ثقيلة عليه، كما بدأ يشعر بنفسه بعد اكتمال جهاز التحرير، لا سيما أنه كان يعاني من مشاكل صحِّية. وكان سكّجها في الحقيقة رئيساً للتحرير بالإسم لأن، رئيس التحرير المعلن هو الشيخ حشر المكتوم مدير الإعلام في حكومة دبي وقتذاك، وقد سبق له أن كان في السلك الديبلوماسي لدولة الإمارات، حيث كان أول سفير لبلاده لدى بلاط الشاه محمد رضا بهلوي في طهران. وكان الشيخ حشر يتعاطى أيضاً أعمالاً تجارية مختلفة، شأن بقية شيوخ الخليج، فكان يملك محلات تجارية فخمة في دبي اسمها متاجر «الفجر». وقد اعترف رياض شعيبي نفسه بأنه تسرّع بتسمية ابراهيم سكّجها رئيساً للتحرير، على الرغم من محبته له وثقته بكفاءته الكتابية[12].

كان الشيخ حشر المكتوم رجلاً ظريفاً لم تخترقه كثيراً عقلية الشيوخ كما بدا لي. وقد نشأت علاقة طيبة بينه وبيني من البداية، فدعاني لتناول الطعام معه في بيته عدة مرات، وزارني في بيتي للسهر مع الزملاء، وسهر معي في البيت ليلة مغادرتي دبي الى لندن في أواسط شهر أيار/مايو من عام 1980 بعد يوم من صدور العدد الأول من الجريدة الذي كتبت فيه أول افتتاحية أثارت إعجاب الشيخ حشر وآخرين. وقلت في تلك الافتتاحية التي تعبر عن توجه الجريدة إننا «سيف الاتحاد ودرعه، نمسك بالجوامع ونطرح القواسم». ومما جاء فيها أيضاً: «في التضامن متضامنون، وفي الاتحاد اتحاديون، وفي الوحدة وحدويون». وكنا قبل ذلك عقدنا اجتماعاً موسعاً للتحرير برئاسة الشيخ حشر الذي أوجز مهام الجريدة وغايتها، ورد على أسئلة واستفسارات الزملاء. وعندما سأله أحدهم عن السياسة الرسمية للجريدة، وما هو المسموح والممنوع، أجاب حشر بأنه لا توجد ممنوعات سوى الدفاع عن الديكتاتورية، فكأن إمارة دبي هي السويد أو سويسرا!

وقد انضم الينا أيضاً عن طريق علي بلوط الصحافي اللبناني خليل الخوري الـذي عمل معنا لفترة في مجلة «الدستور» في لندن، وانتقل بعدها الى «الحوادث» لفترة وجيزة، وكان سليم اللوزي يسميه «جوني»، وكذلك الصحافي القادم من بيروت عبد الكريم البيروتي الذي لم أكن أعرفه من قبل. وكان بين الفلسطينيين ـ الأردنيين بالإضافة الى ابراهيم سكّجها كل من الكاتب القومي المعروف بطرس بطرس عودة، ورسّام الكاريكاتير الفنّان جلال الرفاعي الذي عاد بعد عقدين من الزمن يرسم لمجلة «الحدث» في باريس أثناء وجودي فيها. أما المصريون فكان من بينهم الصحافي المعروف فيليب جلاّب، والصحافي مصطفى كامل الذي أظن أنه عمل في صحافة البحرين قبل قدومه الى دبي،

(12) توفي ابراهيم سكّجها في صيف عام 1991، وقبل سنة من وفاته منحته منظمة التحرير الفلسطينية وسام القدس للإبداع.

وأحد المصوِّرين الفوتوغرافيين في الجريدة وهو نجل الممثل المصري المشهور عماد حمدي. وكان الممثل عماد حمدي وقتها شبه مقيم في دبي وكنا نلتقي معه ومع ممثلين مصريين آخرين في استراحة استوديوهات تلفزيون دبي حيث هناك مطعم لبناني جيد تديره مؤسسة أبيلا، فكنا نتناول طعام الغداء فيه يومياً تقريباً. والى هناك كان يتوافد الممثلون المصريون لتصوير مسلسلات تلفزيونية مختلفة. ولما وصلنا الى دبي مطلع عام 1980 لم يكن مبنى جريدة «البيان» قبالة فندق «متروبوليتان» الحبتور على طريق أبو ظبي قد اكتمل بعد، ولم تكن المطبعة جاهزة أيضاً. فبقينا في مرحلة التأسيس نحو ستة أشهر. وفي تلك الفترة كنا نداوم في الجريدة صباحاً فقط من العاشرة الى الواحدة، وكنت أقضي بقية النهار على البحر، حيث استأجرت «شاليه» في مجمع كان يجري إنشاؤه على الواجهة البحرية اسمه «شيكاغو بيتش».

وفي المساء كنا نسهر معاً إما في البيوت أو في المطاعم والملاهي. ودلّونا مرة على مطعم لبناني افتتح حديثاً فذهبنا مجموعة من الزملاء الى هناك، وكان على الباب واحد من «النور» أو «الغجر» الذين كانوا يبسِّطون في سهول القرعون وجب جنين اسمه «الريّس منير» فعرفني ورحب بي بأغنية وهو يعزف على الربابة وسط ذهول بقية رواد المطعم الذين لم يألفوا مشهداً من هذا النوع، وهذا بالطبع رتّب علي تقديم إكرامية له على «قد المقام» كما يقولون. وفي بعض الأمسيات كنت استدعي الريِّس منير ليعزف لنا على الربابة ويغني إذا كان عندي ضيوف من الزملاء يستسيغون هذا اللون من الغناء والعزف.

وبعد صدور العدد الأول من «البيان» استأذنت الشيخ حشر بالسفر الى لندن لزيارة عائلتي، فأمر لي ببطاقة سفر في الدرجة الأولى وبمبلغ عشرة آلاف دولار. وكانت بطاقات السفر للصحافيين العاملين في الجريدة وعائلاتهم أيضاً مكفولة في التعاقد. وكانت الجريدة تقدم لكل محرِّر رئيسي سيارة جديدة من الوكالة فاخترت أنا سيارة «بونتياك» أميركية قوية. كما تُقدِّم بيتاً ومبلغاً نقدياً لفرشه، وقد تكلّفت على فرش بيتي حوالى مائة ألف درهم إماراتي، أي نحو 25 ألف دولار في ذلك الوقت.

وكان الاتفاق بيني وبين رياض شعيبي أن يكون انتسابي الى مكتب الجريدة في لندن، مع جزء من راتبي، لأغراض تثبيت إقامتي وإقامة العائلة في بريطانيا، ولأغراض ضريبية. لكن عندما عدت الى لندن وطالبت بما اتفقنا عليه شفهياً قالوا لي إنهم أجروا استشارة قانونية ووجدوا أن الترتيب المذكور غير ممكن. عندئذ أبلغتهم إنني مستقيل، ولم أرجع الى دبي بل عدت الى «الحوادث» من جديد، كما توقّع سليم اللوزي قبل شهر من مقتله.

•••

عندما قررت البقاء في لندن في مطلع صيف 1980، كان ذلك يعني العودة الى

«الحوادث». وكالعادة رحّب الزملاء بعودتي اليهم، مستذكرين ما قاله لهم سليم اللوزي يومها بأن مشواري خارج «الحوادث» لن يطول وأن عودتي القريبة اليها أمرٌ محتوم. وكان أول مقال كتبته عن موضوع تركي وعودتي بعنوان «رحلة تسكيج»، وقد ندمت على ذلك تالياً لأنه كان وليد انفعال، خصوصاً لجهة العنوان لكونه متحاملاً على المرحوم ابراهيم سكّجها، وحتى على الشيخ حشر المكتوم الذي تعاطى معي بودٍّ واحترام. لكن انفعالي له في نفسي سببٌ جوهري هو أنني بطبيعتي أكره الإخلال بالعهود والوعود والمواعيد من أيٍّ كان، وهي طبيعة أدخلتني في مشكلات مع كثيرين ممن تعاطيت معهم، حتى ولو كان ذلك الإخلال قسرياً أو عن حسن نيّة.

وبعد ثلاثة أشهر من عودتي الى «الحوادث» في لندن اندلعت الحرب بين العراق وإيران، وأحدث ذلك نوعاً من الصدمة والانشطار بين العرب حكومات وشعوباً وأفراد. وقد بلغ ذلك الانشطار حداً دفع بشخص من أوائل مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا مثل جلال السيِّد أن يصف كل من يقف ضد العراق في تلك الحرب بأنه «بلا ناموس»[13].

وأعترف أنني تأثرت بموقف جلال السيِّد هذا، مع أنني لم أكن أعرفه شخصياً، وما كنت أعرفه عنه هو ما كان متداولاً بين البعثيين ولم يكن كله إيجابياً. وفي تقديري أن موقفه المذكور لم يكن دعماً للنظام العراقي، بقدر ما كان تنديداً بالموقف الرسمي السوري الذي اتخذه الرئيس حافظ الأسد في دعم إيران ضد العراق في تلك الحرب.

وفي تلك الفترة كانت الحملة الانتخابية الأميركية محتدمة بين الرئيس جيمي كارتر الديموقراطي، والمرشح الجمهوري رونالد ريغان حاكم ولاية كاليفورنيا السابق، فعرضت على إدارة المجلة بأن أقوم بتغطية تلك الانتخابات من غير أن أكلِّف المجلة شيئاً لأنني كنت مزمعاً مع زوجتي على زيارة أصدقاء لنا في الولايات المتحدة، منهم من يقيم في «أورانج كاونتي» بالقرب من لوس أنجليس بولاية كاليفورنيا، ومنهم من يقيم في مدينة دالاس بولاية تكساس، ومنهم من يقيم في العاصمة واشنطن. لكن قبيل سفرنا الى أميركا تحدد موعد لحديث مع العاهل الأردني الملك حسين انتدبت اليه مع الزميل الأردني محمد سعيد الجنيدي، فاضطرت زوجتي أن تسافر وحدها الى لوس أنجليس على أن أوافيها الى دالاس من بعد انتهاء مهمتي الصحافية هناك.

---

(13) جلال السيّد من أبرز مثقفي ووجهاء مدينة دير الزور في سوريا وقد انتخب نائباً عنها في مطالع خمسينات القرن الماضي، ثم شغل مناصب وزارية مهمة في دمشق، منها منصب وزير الزراعة، ونائب رئيس الوزراء. وهو من مؤسسي «عصبة العمل القومي» عام 1933، وعضو مؤسس لحزب البعث، حيث اختير أميناً لسر المؤتمر التأسيسي للحزب في عام 1947. وكان جلال السيّد واسع الثقافة وله كتب وأبحاث ومقالات كثيرة نشر معظمها في بيروت، وهو من أوائل المنشقين عن الحزب في أواخر الخمسينات.

لكن بعد وصولي الى العاصمة الأردنية أُبلغت أن الموعد مع الملك سوف يتأخر يومين أو ثلاثة لاضطراره أن يقوم بزيارة مفاجئة الى بغداد للتشاور مع الرئيس العراقي صدام حسين. وقد قضينا الوقت الضائع في عمّان بانتظار الموعد الجديد مع الملك حسين في مقابلات وزيـارات لشخصيات أردنية مرموقة، فلم يذهب ذلك الوقت الضائع سدى. وخلال وجودنا في العاصمة الأردنية كان يهتم بنا رئيس شركة الطيران الأردنية اللبناني علي غندور المقرب من الملك، كما مرّ سابقاً. وفي الدردشات مع علي غندور في تلك الفترة أسرّ لي بأن الملك حسين حمّله رسالة الى الإمام الخميني في طهران بعد اندلاع الحرب مع العراق، وأنه حمل رسالة جوابية من الخميني الى العاهل الأردني، ووعدني بأن يعطيني نص الرسالتين، ففرحت بذلك فرحاً عظيماً قبل أوانه، لكن ذلك لم يتحقق ربما لخطأ مني. وقد فوجئت بهذه الخبرية فعلاً، لأن المشهد السائد وقتها هو أن الملك حسين هو أشد داعمي صدام حسين في حربه ضد إيران الخمينية. وقلت في نفسي إن الملك حسين انتدب علي غندور لهذه المهمة لأنه شيعي، والشيعة يفهمون لغة بعضهم البعض، مع أن المعروف عن علي غندور هو علمانيته لكونه منتسباً الى الحزب السوري القومي الاجتماعي.

والخطأ الذي ارتكبته كما أشرت هو أنني طرحت السؤال على الملك أثناء المقابلة فيما بعد، فرأيته وكأنه تفاجأ بذلك ولم يجب عن السؤال بل طواه سريعاً. وبعد ذلك تهرّب علي غندور من وعده بإعطائي نسخة من الرسالتين المتبادلتين بين العاهل الأردني وزعيم الثورة الإيرانية بحجة أنه لم يجدهما. وقد فهمت من ذلك على الفور أنه تسرّع في وعده من غير مشاورة الملك، أو أن في مضمون الرسالتين شيئاً لا يريد الملك أن يكشفه أو يبوح به، أو خشية أن يساء فهمه من خلال تسريب الأمر، لا سيما أن الحرب كانت لا تزال في بداياتها الأولى ولم يمضِ بعد شهران على اندلاعها.

وقبل أن يحَين الموعد المؤجل مع الملك حسين بسبب رحلته الطارئة الى بغداد، ارتأينا، محمد سعيد الجنيدي وأنا، أن نقوم بزيارات الى بعض الشخصيات الأردنية من الذين لديهم تجارب ويعرفون بواطن الأمور. فكانت زيارتنا الأولى الى بيت راضي العبد الله، وزير الداخلية الأسبق، الذي كنت قد التقيته سابقاً في بيروت بصحبة أبو سعيد أبو الريش مدير مكتب مجلة «تايم» الأميركية في العاصمة اللبنانية[14]. وصادف أن جاء الى بيت راضي العبد العبد الله ونحن عنده رجل الأعمال الأردني المعروف شحادة الطوال الذي كنا قد التقيناه في لندن قبل أيامٍ عندما شاع أن لديه مشكلة مع أحد النوادي المعروفة هناك، وهو يفاخر أيضاً بأنه لبناني بحكم كون زوجته لبنانية من آل

(14) اللواء راضي العبد الله عمل مديراً عاماً للمباحث الأردنية، ثم ملحقاً عسكرياً لدى الولايات المتحدة، ومديراً للأمن العام (1964 ـ 1965) قبل توليه وزارة الداخلية تاليا في حكومة سعد جمعة عام 1967.

البستاني في جونيه. ويقع بيت راضي العبد الله في عمّان قبالة بيت شحادة الطوال يفصل بينهما الطريق فقط، فأصر الطوال أن نتناول معه الغداء في بيته ومعنا راضي العبد الله فقط. فقد مرّ عليه ونحن هناك وزير الخارجية الأردني آنذاك مروان القاسم لكنه لم يدعه الى الغداء معنا، وكذلك الأمر مع الأمير محمد الشقيق الأصغر للملك حسين الذي كنت التقيته بالمصادفة في لندن في منزل اللواء شفيق جميعان الذي كان وقتئذ يتولى إدارة مجلة «الحوادث» كمساعد لصاحبتها أمية اللوزي.

وعلى مائدة شحادة الطوال السخية بمنسف أردني دسم، طُرحت على بساط البحث أمور عديدة لم يكن فيها جديد. لكن عندما طرح الموضوع اللبناني وجاء فيه ذكر للزعيم الاشتراكي المغدور كمال جنبلاط، قال راضي العبد الله شيئاً دوّنته تالياً في مفكرتي ولم أنشره في أي مطبوعة. فقد قال إن الاستخبارات الأردنية كانت لديها منذ سنوات قليلة تعليمات بوضع ملف كامل عن كمال جنبلاط بما في ذلك ملاحقة ومتابعة شؤونه الشخصية وميوله الجنسية، مشتبهة بأن في حياته جوانب شخصية يمكن استخدامها ضده، أو ابتزازه بها، إذا اقتضى الأمر ذلك.

تلك كانت زيارتي الأولى في حياتي الى العاصمة الأردنية عمّان، ولم تسنح الظروف بتكرارها مرة أخرى، لكنها كانت بالنسبة الي حافلة بالمناقشات المفيدة مع أطراف فاعلة في السياسة الأردنية يومذاك، لأن هوامش الحرية في الأردن يومئذ كانت أرحب وأكثر تنوعاً من أي بلد عربي آخر باستثناء لبنان. وقد أقام لنا راكان المجالي، نقيب الصحافيين الإردنيين في ذلك الوقت عشاءً في منزله ضم نخبة من الصحافيين الأردنيين وأهل الرأي والسياسة، سادته أحاديث عن الحرب العراقية ـ الإيرانية التي لم يكن قد مضى عليها حينئذ أكثر من شهرين اثنين فقط، وكان واضحاً أن هناك مناخاً داعماً وحمساً للعراق، مع أن الموقف الفلسطيني في ذلك الوقت كان مائلاً الى إيران، وهو موضوع طرحته بعد أشهر قليلة على الرئيس صدام حسين في بغداد في المقابلة الصحافية التي أجريناها معه سويّاً، الزميلة هدى الحسيني وأنا، حول مفاعيل الموقف الفلسطيني من الحرب.

وقبل تحديد الموعد مع الملك حسين بيوم واحد، قمنا بزيارة الى الوزير سعيد التل، شقيق رئيس الحكومة المغدور وصفي التل، وكان يتولى حينها وزارة التربية الوطنية في حكومة مضر بدران. وكنت على معرفة بسعيد التل من أيام الجامعة الأميركية في بيروت، وعلى معرفة وجيرة مع أهل زوجته كريمة محمود بيك بابان الذي كان بيته على الروشة في بيروت مقابل بيتي، أو «الباب بالباب»، كما يقولون. وأظن أن والدة سعيد التل وشقيقه المغدور وصفي التل هي أيضاً بابانية من كردستان العراق. كما أن رياض العبد الله، نجل راضي العبد الله

السابق ذكره، متزوج أيضاً من الإبنة الصغرى لمحمود بيك بابان، فيكون عديلاً لسعيد التل.

ولا بد من أن أذكر هنا شاعر الأردن الكبير «عـرار»، مصطفى وهبي التل، والد سعيد التل ووصفي التل، وكان لاذع اللسان لا يوفِّر أو يوقِّر أحداً من المسؤولين بمن فيهم الأمير عبد الله بن الحسين الذي أصبح ملكاً على الأردن، وقد هجاه مراراً. ومن ذلك مثلاً قوله في الملك عبد الله:

يا لاعب الشطرنج في رغدانه / ومحكّم الإفرنج في أوطانه

ورغـدان هو اسـم القصر الذي ابتناه الأمير عبد الله في أواسـط عشرينات القرن الماضي على قمة هضبة تطل على وسـط مدينة عمّان ليكون مقرّه الرسمي، وافتتحه عام 1927 باستقبال رهط من الشعراء بينهم مصطفى وهبي التل.

وللشاعر مصطفى وهبي التل (عـرار) ديـوان شعر باسـم «عشيّات وادي اليابس»، كما أنه ترجم رباعيات عمر الخيّام الى العربية لأنه كان يتقن اللغة الفارسية الى جانب التركية والفرنسية التي تعلّمها على كبر. ومن قصائده المشهورة واحدة بعنوان «العبودية الكبرى» يقول فيها:

لمّا رأيت الكذب سرَّ تفوّق الفئة السريّة

ورأيت كيف الصدق يذهب من يقولُ به ضحيّة

وفيها بيت فسّره البعض بأنه أجـاز للفلسطينيين الذين خسروا وطنهم استباحة أوطان الآخرين بقوله:

إن الذي تُسبى مواطنه تحلُّ له السبيّة

وفي إحدى قصائده يصرِّح بأن الأردنيين، ملكاً وشعباً، لم يعطوه استحقاقه، بل دأبوا على نقد سلوكه وطريقة حياته، وذلك بقوله:

فليتقِّ الله بي شعبٌ وفيت له

حقّ الَوفاء، وبالنكران كافاني

على مذابح قولي: سوف أسعده

ضحّيت عمري، فلم يسعد وأشقاني!

وقبل زيارتي تلك الى عمّان كان لي رأي مختلف في رئيس الحكومة وصفي التل الذي قيل إن الفلسطينيين اغتالوه في القاهرة في شهر أيلول من عام 1971 ، حيث اتهم البعض منظمة «أيلول الأسود» التي كان يقودها صلاح خلف (أبو إياد) بتنفيذ عملية الاغتيال. فقد كنت أحمل الرأي السلبي السائد عنه في أيام حكوماته العديدة. لكن في تلك الزيارة الى عمّان، بعد نحو عشر سنوات على مقتله، بدأت أنظر اليه نظرة مختلفة تماماً من خلال عاملين أساسيين، أولهما المناقشات التي أجريتها في عمّان مع الشخصية الأردنية المعروفة حمد الفرحان، الصديق اللصيق بوصفي التل، وأحد مؤسسي «حركة القوميين

العرب»، وكذلك في بيروت مع الصديق الكتور كمال الشاعر مؤسس «دار الهندسة». وثانيهما الكتاب الذي أهداني إياه شقيقه سعيد التل عندما زرته في مكتبه بوزارة التربية في عمّان ويضم كتابات لوصفي التل بعنوان «كتابات في القضايا العربية»، وهو كتاب من أكثر من 500 صفحة يضم كل ما كتبه أو صرّح به وصفي التل في حياته السياسية، وقد صدر عام 1980 عن «دار اللواء للصحافة والنشر»، وكتب مقدِّمته المجاهد الفلسطيني المعروف أكرم زعيتر. وكذلك من خلال كتابه الصادر عام 1967 عن «دار الأبحاث والنشر» في بيروت بعنوان: «فلسطين: دور العقل والخُلُق في معركة التحرير».

وبعد التجربة الفلسطينية في لبنان، وهي من الأسباب المباشرة الرئيسية للحرب اللبنانية، فهمت مغزى النقد الشديد الذي كان وصفي التل يوجهه الى الثورة الفلسطينية وقياداتها. ومع ذلك فقد فاجأني الوزير سعيد التل بقوله عندما فتحت معه موضوع اغتيال شقيقه ، إن الفلسطينيين براء من تلك الجريمة، وشدد على ذلك. لكنه لم يقل لنا صراحة من هي الجهة التي يعتقد بأنها تقف وراء الاغتيال، بل أشار بشيء من الغموض الى مؤامرة خارجية ربما كانت الاستخبارات المصرية ضالعة فيها. وكان رأي سعيد التل هذا مخالفاً للرأي السائد طوال السنوات التسع السابقة منذ الاغتيال. ولذلك أبقيت ما قاله سعيد التل بهذا الخصوص مطويّاً في مفكرتي ولم أنشره، لشعوري بأن أحداً لن يصدّقه، وبالتالي فإنه سوف يسيء الظن بي. بل إن زميلي الأردني في تلك الرحلة محمد سعيد الجنيدي لم يصدِّقه واعتبره من قبيل الانتهاز السياسي المساير للنفوذ الفلسطيني في الأردن.

وعندما كنت أستمزج بعض الزملاء الأردنيين حول المقابلات المزمع إجراؤها على هامش مقابلة الملك حسين، قيل لي إن مضر بدران رئيس الحكومة لا يحب الصحافيين، فصرفت النظر عن طلب مقابلته. لكن عندما ذهبت لمقابلة أحمد اللوزي، مدير الديوان الملكي آنذاك، وجدته يودِّع مضر بدران على الباب منهياً زيارته له، فأفصحت له عما سمعت عنه بأنه لا يحب الصحافيين، فضحك وقال إن ذلك غير صحيح، لكنه لا يحب تضييع الوقت في القال والقيل أو الدردشات التي لا يأتي منها غير المتاعب.

لكن اللقاء مع حمد الفرحان كان مختلفاً، لأن للرجل قيمة خُلقية عالية، ولأنه ليس متهافتاً كغيره على الوجاهة والمناصب، وفوق ذلك كله يعرف حقيقة الوضع في الأردن، وهو أعرف الناس بوصفي التل. ومما قاله حمد الفرحان في تلك المقابلة إنه بعد الخروج من عزاء وصفي التل تأبطه الملك حسين وانتحى به جانباً ليستمزجه ما إذا كان يقبل أن يملأ الفراغ الذي تركه رحيل صاحبه، عارضاً عليه الشراكة في الحكم. فأجابه الفرحان، كما قال لنا:

«هذا الأردن مثل الفرس المتعبة، فهي بالكاد تقوى على حمل خيّال واحد،

وهي حتماً سوف تنوء بحمل اثنين»، واعتذر من الملك عن عدم استطاعته قبول عرضه.

واعتبر الفرحان أن الفساد المستشري مرضٌ شديد العدوى يفتك بجسد الأمة كلها وليس في الأردن فقط، وهو كما وصفه «أم الهزيمة ومرضعتها». بل اعتبر أن الكيان الصهيوني ليس أعظم خطراً على الأمة من الفساد المستشري والمتفاقم في جسدها. كما تناول بالنقد الحاد أحوال الأمة العربية من حيث سخف وهزال أنظمة الحكم فيها بقوله: «ما هذه الأمة التي لم تنتج حتى ديكتاتوراً مثل الناس».

فقلت له: «وماذا عن صدّام حسين؟»

قال: «صدّام هو أقرب أنموذج الى الديكتاتور. إنه بطّاش ومغامر لكنه ليس ديكتاتوراً بالمعنى الحقيقي للكلمة».

ولم تكن لحمد الفرحان في ذلك الوقت أي صفة رسمية، وأظن أنه كان يقوم بأعمال حرّة ربما كان لها علاقة بالملاحة البحرية، لأنني شاهدت في مكتبه صوراً ومجسّمات لبواخر تجارية. وكل ما كنت أعرفه عنه قبل تلك المقابلة أنه رجل صريح وجريء، وأنه قومي عربي صلب ومن مؤسسي حركة القوميين العرب. والحقيقة أن تلك الجلسة مع حمد الفرحان كانت ممتعة ومفيدة، وأعطتني فكرة ما زالت صحيحة حتى الآن عن المملكة الأردنية الهاشمية، ومن أبرز ملامحها علاقة التلاقي والتضاد بين الحكم الملكي الهاشمي وبين النخب والحركات السياسية الحيّة في الأردن.

ومن الملامح الأخرى التي يمكن تلمُّسها في الأردن وجود تأثيرات غير أردنية في الوضع الأردني، وأهمها اثنان: العامل الفلسطيني والعامل الخليجي. فعلى الرغم من الكلام المجامل الذي يقال عادة عند طرح الموضوع الفلسطيني على بساط البحث، يلمس الباحث تحت السطح عن وجود حساسيات خطيرة بين ما هو أردني وما هو فلسطيني، ربما بدرجة أعلى مما رست عليه هذه المسألة في لبنان من الجنوب الى بيروت ثم الى طرابلس. حتى أنني سألت في بعض الأحاديث الخاصة في عمّان: «كيف يمكن أن تكون مع القضية الفلسطينية وفي الوقت ذاته ضد الفلسطينيين؟». والجواب عن ذلك متوافق على العموم من خلال القول بأن الفلسطينيين يستغلون التأييد العارم للقضية الفلسطينية من أجل فرض هيمنتهم على الآخرين. وقد لاحظت أن هناك عِرقاً شبه عنصري في هذه المسألة، وهو ما أعطى زخماً لتشكُّل نوع من الوطنية الأردنية المتمايزة، مما يثير سؤالاً مماثلاً للسؤال اللبناني حول ما إذا كان البلد وطناً نهائياً أو أنه عرضة للزوال أو الاقتسام أو ما شابه ذلك.

أما في الموضوع الخليجي فإن المسألة مختلفة، وإن كان المزاج العام الذي لمسته في تلك الزيارة متخوفاً من التمدد الخليجي في الحياة الأردنية من خلال

أموال النفط. وفي زيارة لنا الى وزير الإعلام الأردني آنذاك عدنان أبو عودة (وهو فلسطيني الأصل) وصف الوزير الأردن بأنه «بلد نفطي بدون نفط»، معتبراً أن هذه المعادلة خطيرة على مستقبل الأردن، أقله من الناحية الاقتصادية والأخلاقية. وفي كل الأحوال كان الملك حسين بالإجماع تقريباً نقطة التلاقي، ومن الأردنيين من يرى أن الملك استغل هذا الإجماع حوله لتوزيع الأدوار، واللعب على التناقضات، فبقي موضوع الوحدة الوطنية غامضاً، وربما عن قصد.

وقال لي أحدهم مشترطاً عدم ذكر اسمه إن الملك حسين يتقلّب مع الريح حتى في حياته الشخصية. فعندما اعتلى العرش وهو في مقتبل العمر تزوج ابنة عمِّه ليكسب الشرعية العائلية، وعندما وجد أن الإنكليز هم القوة السائدة في المنطقة تزوج إنكليزية، وعندما بدأ صعود المد الفلسطيني تزوج من فلسطينية، وعندما أيقن أن أميركا هي القوة الدولية الأعظم تزوج من أميركية!

لكن على وجه العموم كان الرأي في الملك حسين مزيجاً من الإعجاب والتأييد والتململ. وربما كانت الميزة الأساسية للملك حسين أنه كان دائم الاستشعار بأهواء الرأي العام، ولذلك كان يكسر ويجبر في وقت واحد، وكان حريصاً على إظهار حكمه بأنه يكتسب شرعيته من موافقة الناس، وأحياناً في الأزمات بأنه توافقي.

قبل اللقاء مع الملك حسين في مكتبه، الذي يسميه الأردنيون «المقر»، لم أكن أعرفه شخصياً بل عرفته عن بعد عندما كنت أراه وأسمعه في مؤتمرات القمة العربية، ومن خلال ما كنت أسمعه عنه من عارفيه أو ما سمعته عنه خلال تلك الزيارة الى عمّان. ولعل أهم ميزة أدهشتني فيه هي تواضعه الجم، وهدوءه عندما يتكلم أو يتحدث مع زائريه. وعلى الفور تكتشف السمات القيادية فيه، فيخيّل اليك في البداية أنها مصطنعة لتكتشف مع الوقت أنها أصيلة فيه. فالصورة السائدة عنه، وفي ذهني أنا أيضاً، كانت أسوأ من الصورة الشائعة عن وصفي التل. وما من شك أن الإعلام الناصري السائد في حقبة الخمسينات والستينات من القرن الماضي لعب دوراً كبيراً في رسم تلك الصورة التي انطبعت منها في أذهاننا الصفات التي ألصقها به ذلك الإعلام، مثل «سليل الخيانة»، أو «الحسين بن زين»، وما الى ذلك من نعوت وعبارات تشكيك وتخوين وتشهير.

وعندما أزف موعد المقابلة توجهنا الى «المقر» حيث استقبلنا مدير تشريفات الملك ينال حكمت الذي كانت لي معه علاقة طيبة من أيام بيروت وفي محيط الجامعة الأميركية، حيث كان يعمل على ما أظن في سفارة بلاده لدى لبنان[15].

---

(15) ينال حكمت من عائلة أردنية ذات أصول شركسية شديدة الولاء للعائلة الهاشمية وعرشها. وكنا معاً، ينال حكمت وأنا، ضمن مجموعة محددة نلتقي على لعب الورق بصورة دورية. ورحّب بنا الرجل ترحيباً حاراً في مكتبه، لكن استأذننا أن ننتظر نصف ساعة بعد في مكتبه لأن رئيس الحكومة البريطانية الأسبق أليك دوغلاس هيوم طلب موعداً عاجلاً مع الملك فأعطوه موعدنا. وفيما نحن جالسون نتحدث مع ينال حكمت جاء السفير الأميركي في عمّان وهو يدخن سيجاره

وبعد خروجه من عند الملك دخل علينا السفير الأميركي ليلتقط سيجاره الذي ما زال والعاً فأشار علينا ينال حكمت لندخل نحن، محمد سعيد الجنيدي وأنا[16].

وحين دخولنا قام الملك حسين من وراء مكتبه وجاء الى الباب ليستقبلنا ففاجأني بلطفه وترحابه بي متجاهلاً زميلي الأردني حيث وجه الكلام لي بقوله:

«أهلاً وسهلاً بكم يا سيدي.. شرّفتم يا سيدي».

واقتادنا الى صالون بجوار مكتبه ولم يعد الى مقعده وراء المكتب. وقيل لي لاحقاً إنني أخطأت باصطحاب صحافي أردني معي، لأن الملك يبقى متحفظاً أمام شخص من رعاياه. وقد لاحظت أن الملك حسين يكثر من التدخين، فقد دخن في غضون ثلاثة أرباع الساعة ما لا يقل عن ست سجاير «مارلبورو». وكنت يومئذ ما زلت أدخِّن، لكن الملك لم يقدم لنا سيجارة ولا حتى فنجان قهوة باعتبار أننا شربنا القهوة في مكتب مدير التشريفات. وحتى تلك اللحظة لم أكن أعرف أن الملك حسين يدخِّن السجاير، وعندما ترك السفير الأميركي سيجاره في مكتب مدير التشريفات أيقنت أنه لا يجوز التدخين في محضر الملك.

والحقيقة أن العاهل الأردني كان شديد التحفظ في تلك المقابلة، والدليل على ذلك أنني لا أتذكر منها أي شيء له دلالات خاصة أو ملفتة. وفوق ذلك فاجأته بسؤاله عن مراسلته مع الإمام الخميني عبر علي غندور، وكانت الحرب العراقية ـ الإيرانية ما زالت في أيامها الأولى، فأفسد ذلك عليّ وعد علي غندور بإطلاعي على مضمون تلك المراسلة. وقد التقط لنا مصوّر القصر الصور التذكارية لكنهم لم يعطونا نسخاً من تلك الصور إلاّ بعد مطالبة حثيثة من قبلي. وهذا أيضاً عزاه البعض الى وجود الزميل الأردني في الصورة. ومن حسن الحظ أنه كانت بين الصور واحدة أظهر فيها مع الملك جالسين متجاورين ولا يظهر فيها الزميل الأردني الذي كان مقعده في الجهة المقابلة.

وأدهشني أن مكتب الملك حسين كان عادياً الى درجة ملفتة، إذ ليس فيه شيء من الفخفخة أو التزيين الفائق أو الثمين، فهو أشبه بمكتبي في بيروت عندما كنت رئيساً للتحرير في جريدة «بيروت» في الشياح. مكتب عادي لكنه أنيق ينم عن تواضع وذوق رفيع. وكان ذلك اللقاء الوحيد لي مع الملك حسين، لكن بعد أربع سنوات على تلك المقابلة كنت أتناول الغداء مع بعض الزملاء في مطعم نادي «أمباسادور» في لندن فدخل الملك حسين ومعه شلة من المرافقين

وقال إن لديه رسالة عاجلة الى الملك ويوّد مقابلته فوراً لإبلاغها له فترك سيجاره والعاً في مكتب ينال ودخل بعد خروج هيوم ليخرج بعد دقائق قليلة.

(16) السفير الأميركي المذكور هو نيكولاس ألكسندر فيليوتس الذي سبق له أن خدم في إسرائيل بصفة نائب لرئيس البعثة في تل أبيب. وبعد انتهاء مهمته في عمّان عام 1981 انتقل الى الإدارة المركزية في واشنطن بصفة نائب لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا، ثم صار سفيراً لبلاده لدى مصر حيث بقي في منصبه هذا الى حين تقاعده في عام 1986.

الى المطعم فألقى السلام من بعيد ولم نتقابل.

•••

كانت زوجتي في تلك الأثناء قد سبقتني الى الولايات المتحدة حيث كنت مزمعاً على تغطية الانتخابات الرئاسية بين الرئيس جيمي كارتر والمرشح الجمهوري رونالد ريغان. ومن حسن الحظ أن الخطوط الجوية الملكية الأردنية كانت تسيِّر رحلة مباشرة الى مدينة هيوستون الأميركية بولاية تكساس مروراً بالعاصمة النمساوية فيينا ثم نيويورك، فوضعني علي غندور على تلك الطائرة في اليوم التالي، فاستغرقت في النوم طوال الرحلة من فيينا الى نيويورك لأصل الى هيوستون في منتصف الليل تماماً بالتوقيت المحلي. ولم أكن حاجزاً في أي فندق، بل توجهت الى فندق بجوار المطار مباشرة فأعطوني غرفة فيها سرير يتسع لعشرة أشخاص قبالته جهاز تلفزيون صغير لا يتناسب مع ضخامة السرير. ولما كنت قد شبعت نوماً في الطائرة، فإنني لم أستطع أن أغمض جفوني بل بقيت أتقلب حتى الصباح الباكر، ففتحت التلفزيون لعلي أسمع خبراً عن المعركة الانتخابية فطلعت لي مقابلة طريفة مع الحلاّق السابق في البيت الأبيض الذي دانت له رقاب الرؤساء من أيزنهاور الى ريتشارد نيكسون.

وقد أدهشتني تلك المقابلة الى درجة أنني سجّلت بعض ما ورد فيها في مفكرتي. وقد تبين لي من تلك المقابلة أن حكاية «الحلاّق الثرثار» التي كنا نقرأها في صغرنا، هي في الحقيقة رواية واقعية، فإذا بحلاّق الرؤساء في أميركا هو المستشار الأول لأولئك الرؤساء فكان يشير عليهم في هندامهم وملابسهم وربطات عنقهم، بل إنه تجرأ مرة وأشار على الرئيس نيكسون بأن يفعل شيئاً لتصحيح صورة أنفه بعملية تجميلية لأن شكل أنفه ينفِّر الناس منه. ولست أظن أن الرئيس نيكسون عمل بتلك النصيحة.

لكن الرئيس جيمي كارتر طرده من البيت الأبيض واستغنى عن خدماته فصار من أشد محازبي الحزب الجمهوري ومرشحه ريغان، على أمل أن نجاحه يمكن أن يعيده الى مقصه على رقبة الرئيس في البيت الأبيض. وبالفعل بعد نحو سنة من وصول ريغان الى سدّة الرئاسة أعاده جايمس بايكر الى عمله السابق، بصفته رئيس هيئة الموظفين في البيت الأبيض يومئذ، لأن مقص ذلك الحلاّق مرّ أيضاً على رقبة بايكر وعلى رقبة جورج شولتز أيضاً وآخرين من كبار العاملين في البيت الأبيض على مر السنين. وقرأت تالياً أنه انتقد الرئيس كلينتون لأنه حنى رقبته لحلاّق مشهور يدعى «كريستوف» في بيفرلي هيلز حيث دائرة نجوم ومشاهير السينما في هوليوود دافعاً مبلغ 200 دولار لقاء ذلك، بينما هو يتقاضى فقط 25 دولاراً، وعزا ذلك الى ميول كلينتون نحو شوفة الحال وحب الظهور والكنفشة. وادعى الحلاّق المذكور في تلك المقابلة الطريفة

أنه كان يهمس في أذن الرئيس أو أي مسؤول آخر ما يقوله الناس العاديون عن حكمه، ويبلغه ما هي الأولويات التي تقلق المواطنين كما يراها هو.

وما إن انتهت المقابلة مع الحلاق الثرثار حتى طرقت عاملة مكسيكية في الفندق الباب تجر أمامها عربة تحمل الفطور الذي كنت طلبته قبل دقائق، فإذا بهذا الفطور يكفي أيضاً لأكثر من عشرة أشخاص: دزينة من فطائر البان كايك الكبيرة الحجم والسميكة مع كيلو غرام من الزبدة وإبريق فيه نحو ليترين من شراب المايبل الكندي الشديد الحلاوة، وصحن من البيض المقلي يضم أربع بيضات كبيرة مع توابعها من الطماطم والفطر والخبز المحمص، وإبريق من القهوة سعته أكثر من ليتر واحد. وقد عجبت لهذا الهدر الكبير في الموارد بغير مبرر، وهو أمر صادفته في جميع رحلاتي التالية الى الولايات المتحدة، مما جعلني أعتقد بأن الهدر الكبير للموارد في الولايات المتحدة قد يكون سياسة مقصودة ومتعمدة، لأنه أمر غير طبيعي.

IV

الوطن الافتراضي

بعد خروج أحمد عسه من «الحوادث» وقبله سليم نصّار وجلال كشك، وقع نوع من الارتباك في جهاز التحرير، لم يسعف في تبديده اعتماد صاحبة المجلة للزميل محمد عبد المولى كمنسق عام للجهاز يقوم بمهام رئيس التحرير لكنه ليس رئيس تحرير، وهذا ما زاد من الغموض والبلبلة. وفي تلك المرحلة الحرجة وقع حدثان مهمان في المنطقة العربية: وفاة العاهل السعودي الملك خالد بن عبد العزيز، واعتلاء الملك فهد بن عبد العزيز العرش السعودي، وفي الوقت ذاته حدث الاجتياح الإسرائيلي للبنان وصولاً الى العاصمة بيروت.

وللحدثين المذكورين كليهما ارتباط عضوي بالمسألة اللبنانية من خلال انعكاسهما المباشر على المشكلة الفلسطينية عموماً، ومشكلة الوجود الفلسطيني في لبنان تحديداً. ذلك أن الملك فهد بن عبد العزيز كان قبل أن يصبح ملكاً على السعودية قد تقدم، بصفته ولياً للعهد، بمشروع لحل القضية الفلسطينية وإنهاء الصراع العربي ـ الإسرائيلي أطلق عليه «مبادرة فهد»، وهو المشروع الذي تبنته القمة العربية الثانية عشر في فاس بتاريخ 25 تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1981. وتتضمن مبادرة فهد التي تبنتها قمة فاس عندما عادت واستأنفت أعمالها بعد ثلاثة أشهر من الاجتياح الإسرائيلي للبنان، ثماني نقاط هي:

1. انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها عام 1967، بما فيها القدس العربية.

2. إزالة المستعمرات التي أقامتها إسرائيل في الأراضي العربية بعد عام 1967.

3. ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان في الأماكن المقدسة.

4. تأكيد حق الشعب الفلسطيني في أرضه وتعويض من لا يرغب في العودة.

5. تخضع الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تحت إشراف الأمم المتحدة ولمدة لا تزيد عن بضعة أشهر.

6. قيام الدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس.

7. تأكيد حق دول المنطقة بالعيش بسلام.

8. تقوم الأمـم المتحدة أو بعض الـدول الأعضاء فيها بضمان تنفيذ تلك المبادئ.

في تلك المرحلة ملأت مبادرة فهد الدنيا وشغلت الناس بسبب التطبيل والتزمير الإعلامي الواسع النطاق لها ولصاحبها. لكن الورقة التي تقدم بها الرئيس التونسي المجاهد الأكبر الحبيب بورقيبة الى قمة فاس ذاتها، والتي لم يذكرها أحد ولو عرضاً، كانت أكثر واقعية ومشروعية لاعتمادها أساساً على الشرعية الدولية المتمثلة بقرار الأمم المتحدة رقم 181 لعام 1947 القاضي بتقسيم فلسطين[1]، لأنه «يمثل النص القانوني الدولي الوحيد الذي يعترف بالدولة الفلسطينية كدولة ذات سيادة كاملة متجاوزاً بذلك قضية تقرير المصير»، ورأى أن القرار«إذ قرر تقسيم فلسطين فقد رسم للدولة الفلسطينية محتوى ترابياً محدداً ضمن الأرض التي كانت واقعة تحت الانتداب البريطاني». ويتضمن مشروع الرئيس التونسي النقاط التالية:

1. اعتماد الشرعية الدولية أساساً لحل القضية الفلسطينية.

2. قبول قرار منظمة الأمم المتحدة رقم 181 بتاريخ 1947/11/29.

3. مطالبة منظمة الأمم المتحدة بتطبيق قرارها رقم 181 واتخاذه منطلقاً لقيام الدولة الفلسطينية في فلسطين ووضع حد لمشكلة الشرق الأوسط.

وكنت قد تناولت سابقاً جولة بورقيبة في المنطقة عام 1965 ابتداءً من القاهرة وانتهاءً ببيروت مروراً بعمّان والقدس الشرقية حيث أطلق أول دعوة عربية رسمية لحل القضية الفلسطينية على أساس مشروع التقسيم المذكور، وهي دعوة قوبلت بمعارضة عربية صاخبة، مع أن الرئيس عبد الناصر كان على علم مسبق بها وشجّع بورقيبة عليها كمحاولة لجس نبض الشارع العربي، لكنه ما لبث أن نفض يده منها.

والحقيقة أن الاجتياح الإسرائيلي للبنان لم يكن مفاجئاً للدوائر السياسية المعنية في الخارج، ولكثيرين في لبنان أيضاً، إذ يمكن القول بأنه كان اجتياحاً منسّقاً. وقبل الاجتياح بفترة قصيرة جاء الى لندن اثنان من المقربين الى الكتائب والقوات اللبنانية بقيادة بشير الجميل هما جوزيف أبو خليل، القيادي في حزب الكتائب اللبنانية ورئيس تحرير جريدة «العمل» الناطقة بلسان الحزب، ومعه الصحافي جورج بشير من «وكالة الأنباء المركزية» التي كانت تحظى برعاية الشيخ بشير الجميل، ويبدو أنهما كانا في مهمة تمهيد

(1) دعا القرار الأممي 181 الى تقسيم فلسطين بين دولتين محددتين واحدة عربية وواحدة يهودية، والى قيام اتحاد اقتصادي بين الدولتين بعد انسحاب القوات البريطانية المنتدبة على فلسطين. وقد وافق اليهود على خطة التقسيم عبر «الوكالة اليهودية» لكن الفلسطينيين ممثلين بالهيئة العربية العليا بقيادة الحاج أمين الحسيني رفضوها ودعمتهم في رفضهم جامعة الدول العربية الحديثة العهد. لكن قيادات عربية وفلسطينية عديدة، آخرهم محمود عباس رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، اعتبروا أن رفض قرار التقسيم في حينه كان خطأً فادحاً آملين في العودة اليه.

إعلامية، أو مهمة تبليغ أو إنذار، بأن الاجتياح الإسرائيلي بات حتمياً، لأن الوضع الفلسطيني في لبنان خرج على كل التفاهمات والاتفاقات ولم يعد مقبولاً. وقد التقيت معهما برفقة الزميل ريمون عطا الله على غداء في مطعم «فخر الدين» بمنطقة «بيكاديللي»، وهناك أبلغانا بأن الإسرائيليين سوف يقومون بعمل ما في لبنان، لأن الدول العربية باتت عاجزة أو غير راغبة في كبح جماح القوى الفلسطينية العاملة في لبنان وحلفائها من اللبنانيين. وعندما عدت الى بيروت في خريف عام 1982 أبلغني الزميل رفيق خوري في دار الصياد أن الرئيس الياس سركيس قبل أيام قليلة من الاجتياح الإسرائيلي التقى مجموعة من الصحافيين، كان هو في عدادهم، وتحدث معهم عن الأحوال العامة في البلاد. وفي الحديث عن الوضع القائم داخل لبنان، قال أحدهم للرئيس سركيس إن المخرج من الأزمة بات يستدعي دخول الإسرائيليين الى لبنان لحسمها، فأجابه الرئيس سركيس بالقول: «أين هم الإسرائيليون، لقد تأخروا كثيراً»!

•••

في تلك المرحلة الغامضة، سواء داخل «الحوادث» في لندن أو في الوضع اللبناني، ظلّت رغبتي في العودة الى لبنان تراودني، مع أنني كنت أرى أن لبنان الذي في ذهني ليس هو لبنان القائم على الأرض. كان في الحقيقة وطناً افتراضياً لكنه من الممكن أن يتجسد في الواقع، باعتبار أن لبنان السابق، على الرغم من حسنات كثيرة فيه، من غير الممكن أن يستمر. فالتطور الى الأحسن في بلد مثل لبنان هو دائماً إمكانية قائمة في طبيعة مجتمعه التعددي. لكنني لم أكن أتصور قطّ أن ينحدر الشعب اللبناني الى ذلك المنحدر من الهمجية، وهي حالة تختلف عن الكوارث المرافقة للحروب عادةً. فالحرب لم تكن هي الكارثة الحقيقية، لأن كل حرب في التاريخ رافقتها كوارث إنسانية، لكنها توقفت بعد حين لتأخذ منها المجتمعات المتحاربة منطلقاً نحو الأحسن، وأحسنه تفادي التكرار. فالسياسيون الذين وصفوا الحرب اللبنانية بأنها «حرب الآخرين على أرضنا» أخطأوا التقدير في رأيي، وربما عن قصد، لكي لا يقولوا إن الحالة الهمجية هي الشيء الوافد من الخارج وليس الحرب. لكن تلك البذرة التي حملتها رياح السموم وجدت مع الأسف تربة خصبة في الأرض اللبنانية لأسباب أستطيع أن أقدِّرها، لكنني لا أدعي أنني أعرفها، ويجدر بجميع اللبنانيين أن يراجعوها ويدرسوها مليّاً.

ولذلك عندما اتصل بي بسّام فريحة، المدير العام لدار الصياد، لأوافيه الى جنوب فرنسا في صيف عام 1982 ليبحث معي إمكانية التحضير للعودة الى الدار في بيروت، وجدت الفكرة قبولاً لدي من غير تردد. وبنتيجة الأحاديث بيني وبين بسّام فريحة في «كان» وفي «مونتي كارلو»، كان واضحاً لنا أن الشيخ بشير الجميل سوف يأتي رئيساً للجمهورية، وبالتالي فإننا يجب أن نتأقلم

مع هذا الوضع الجديد الناشىء، فنظهر تفهمنا له من غير أن نكون جزءاً منه. وفهمت من ذلك أن اختياره لي لهذه المهمة يعود الى أن بعض العاملين في الدار شطحوا في هذا الاتجاه لأعذار مفهومة، منها موقع الدار في منطقة جغرافية تفرض عليهم ذلك.

وبالفعل، وبعد أيام من عودتي الى لندن ولقائي مع بسّام فريحة في جنوب فرنسا، تم انتخاب الشيخ بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية في ظل الوجود العسكري الإسرائيلي المباشر. ومع أنني لم أكن أعرف الرئيس المنتخب شخصياً، بل كنت في صفٍّ مناقض له، وقد هالني ارتباط اسمه بيوم «السبت الأسود» منذ أن كنت في لبنان، فإنني قمت بتوجيه برقية تهنئة له بانتخابه رئيساً للجمهورية اللبنانية، على أمل أن يكون عهده بارقة أمل في إعادة توحيد لبنان واللبنانيين في إطار وطني جامع. وحتى قبل ذلك، كنت أرى أن البروز السريع على المسرح اللبناني والإقليمي لشاب قليل الخبرة، وربما الثقافة أيضاً، مثل بشير الجميل، هو ظاهرة جديرة بالتأمل، بل قد تكون مثيرة للإعجاب. ولذلك كنت من القائلين بجدوى إعطائه الفرصة، خصوصاً بعدما رأيت شخصيات فكرية لبنانية لها شأن في تعميق فلسفة الكيان اللبناني، ومنها الرهبانيات المارونية العريقة، لا تجد غضاضة في تقديمه ودعمه، بل كانت من أشد الحمسين لقيادته كما يستبان من مذكرات الآباتي بولس نعمان السابق ذكرها.

وكان الصديق الراحل مكرم عطيّة الذي التقاني في لندن قبل سنة من ذلك، كما مر، وهو في طريقه من بيروت الى الولايات المتحدة، قد أبلغني أن الشيخ بشير الجميل استدعاه الى مقرِّه وطرح عليه جملة من الأسئلة الذكية، تدل على رغبة في التعلم واكتساب الخبرات اللازمة من تجارب الآخرين، وخصوصاً في المسائل الاقتصادية والاجتماعية. وكنت أعرف أن مكرم عطيّة كان من المقربين الى الشيخ بيار الجميل في المراحل الأولى لتأسيس حزب «الكتائب اللبنانية» قبل أن تداخله، أو تلامسه، الأفكار العروبية. وقال لي مكرم عن ذلك اللقاء إن الشيخ بشير مستمع جيِّد، ومناقش شديد الملاحظة، لكنه محاور «قصير الفتيلة»، كما وصفه، لأنه شاهد فيه ملامح ديكتاتورية مغلفة بنزعة الى التنفيذ السريع. وأهم ما لفته فيه، كما قال لي، تحضيره لملفاته، وطرحه للأسئلة من خلال ما استبان له من تلك الملفات. فقد كان واضحاً أنه يستعد لتنفيذ خطة كاملة ومتكاملة يرسم من خلالها صورة لبنان المستقبل كما يتخيله.

وعلى الرغم من هذه الصورة الإيجابية، وغيرها من الصور التي رسمها له آخرون من اتجاهات مختلفة، وربما بفعل الأمر الواقع، فإن وقوع مجازر مخيمي صبرا وشاتيلا في بيروت الغربية،على أيدي بعض محازبيه، فور مقتله بتفجير مقره يوم عيد الصليب في 14 أيلول/سبتمبر بعد أيام معدودة من

انتخابه، وتحت نظر القوات الإسرائيلية المحتلة، أعاد الى ذهني صورته الأولية المرتسمة من خلال مجزرة «السبت الأسود» قبل مغادرتي لبنان في منتصف سبعينات القرن الماضي.

وعلى أي حال، تبقى مرحلة بشير الجميل مثيرة للجدل وسوف تبقى في تقديري الى أمد طويل في المستقبل، لأنها ترتبط بالتلمس اللبناني الدائم لوطن افتراضي غير قائم في الواقع، بل ربما كان نقيضاً لما هو قائم في الواقع. وهذا التباين الملموس بين الافتراضي والواقعي في المشهد اللبناني، يجعل مقتل بشير الجميل أكثر مدعاة للبحث والتدقيق من مرحلة صعوده الى الرئاسة، أو بالأحرى الى «الزعامة النجومية» إذا صح التعبير، لأن الذين اغتالوه من وراء الستار قصدوا اغتيال تصوره، أو حلمه، بلبنان افتراضي لا يروق لهم، مما يعني أن عملية الاغتيال ما كانت لتحصل لولا موافقة دولية نافذة في مكان ما خارج لبنان.

وظل موضوع بشير الجميل يطرق ذهني بعد فترة طويلة من خروجي الثاني من لبنان في عام 1983، لا سيما أنني خلال الأشهر القليلة التي قضيتها في بيروت، بين خريف 1982 وربيع عام 1983، لم أجد لتلك الحالة تفسيراً أو فهماً مقنعاً لدى الذين تحدثت في الموضوع أمامهم من اللبنانيين الواقعين دوماً بمستنقع الاستقطاب الحاد.

لكن بعد عودتي القصيرة الى «الحوادث» في عام 1983، كان من حسن الحظ أن زارنا في مكاتب المجلة الصحافي الأميركي المعروف جوناثان راندال مراسل جريدة «واشنطن بوست» في الشرق الأوسط حيث عقدنا معه اجتماعاً لمناقشة كتابه عن أمراء الحرب في لبنان الصادر لتوه آنذاك، وهو كتاب قيِّم يُعدُّ من أفضل المراجع عن الحرب اللبنانية حتى الآن[2]. وفي ذلك اللقاء مع راندال في قاعة اجتماعات التحرير، كما جرت العادة عند استقبال الزائرين من كبار السياسيين والصحافيين منذ أيام سليم اللوزي، تحدث الصحافي الأميركي الزائر مطولاً عن معرفته ببشير الجميل وحركته، بمزيج من الإعجاب والشك، وعن حيرته بفهم الشعب اللبناني عموماً، والمسيحي منه بنوع خاص،

---

(2) جوناثان راندال صحافي أميركي متميز بدأ حياته الصحافية في باريس عام 1957 مراسلاً لوكالة «يونايتد برس» ووكالة الصحافة الفرنسية، ثم عمل مراسلاً خارجياً لعدة صحف كبرى منها «باريس هيرالد»، ومجلة «تايم»، وجريدة «نيويورك تايمز» قبل التحاقه بجريدة «واشنطن بوست» حيث أصبح كبير مراسليها في الخارج من 1969 الى 1998، ليغطي الصراعات الدموية الكبرى من إفريقيا جنوب الصحراء، الى الهند الصينية، الى الشرق الأوسط، وخصوصاً في لبنان وإيران. وكان كتابه عن لبنان فاتحة كتبه عن تجربته، وقد صدر عن مطبعة فايكينغ عام 1983 بعنوان: «الى نهاية الطريق: أمراء الحرب المسيحيون، والمغامرون الإسرائيليون، وحرب لبنان». ثم أعادت إصداره مؤسسة «جاست وورلد بوكس» بمقدمة جديدة وبعنوان مختلف هو «مأساة لبنان: أمراء الحرب المسيحيون، والمغامرون الإسرائيليون، والسياسة الأميركية الخرقاء». وله كتاب عن المأساة الكردية صدر عام 1997، وآخر كتبه كان عن أسامة بن لادن الصادر عام 2004 بعنوان: «أسامة: تركيبة إرهابي».

وعن رعونة السياسات الأميركية في الشرق الأوسط وفي لبنان تحديداً.

ومما قاله جوناثان راندال لنا وقتها، بلهجة ملؤها الحرارة والشكوى من قصور الذين يكتبون عن المسألة اللبنانية من الأجانب:

«إن أي أجنبي مهما بلغ به العلم والاحتكاك المباشر لن يستطيع كتابة تاريخ الحرب اللبنانية بصورة وافية». وقال أيضاً: «لن يستطيع أن يكتب هذا التاريخ إلاّ شخص لبناني. لا بد أن يأتي يوم يتولى كاتب لبناني كتابة تاريخ هذه الحقبة من تاريخ لبنان وجذورها وتفرعاتها ينم عن فهم حقيقي لطبيعة الشعب اللبناني، وهو أمر لا يمكن أن يدركه أي كاتب أجنبي».

وكان واضحاً من ذلك أنه يعتذر عن أي قصور يمكن أن يستشفه اللبنانيون من مقاربته لمشكلتهم. وقال إنه يكاد يجن عندما يرى الهوة السحيقة بين ما يقوله اللبنانيون العاديون بما يدل على أعلى درجات الرقي، وبين ما يجري في بلادهم من أحط أنواع الهمجية. واعترف أنه، مع كل تعمقه في البحث والمحاولة، يظل عاجزاً عن فهم الصورة كاملة.

ولما سألته عن لقاءاته مع بشير الجميل، ومنها لقاءات ساخنة، تردد قليلاً ثم قال إن فيه سمات قيادية مميزة، لا تخلو من رعونة، وأنه صادق في ما يؤمن به، لكن فيه أيضاً عِرقاً من السذاجة يشكل مطباً له. وما أصابه ليس مفاجئاً «لأنه لاعب صغير في لعبة كبيرة ويتوهم أنه من الكبار».

وبعد انصراف جوناثان راندال قلت للزميل ريمون عطا الله، مدير التحرير، الذي كان حاضراً في الاجتماع: «ما قاله عن بشير الجميل يلقي شبهة في قتله على الأميركيين». ثم عادت هذه المسألة لتؤكد ملاحظتي المشار اليها الى الزميل ريمون عطا الله عندما قرأت عنوان كتاب راندال بطبعته الجديدة المنوَّه عنها في الحاشية، حيث أضيفت الى العنوان عبارة «السياسات الأميركية الخرقاء»، خصوصاً أن الدار الناشرة للطبعة الجديدة تهتم بالقضايا العادلة في العالم.

لكن ذلك يبقى من قبيل الحدس، أو ربما الفراسة، أو بمنظور شكوكي المزمنة بالسياسات الأميركية الخرقاء. ومع ذلك فإن موضوع بشير الجميل، وهو ما دفع اللبنانيون ثمناً باهظاً من جرائه، ما زالت استحقاقاته متتالية وسوف تبقى متتالية الى أمد بعيد، بقي عالقاً في ذهني، على الرغم من أنني لا أنتدب نفسي للمهمة التي أشار اليها راندال في حديثه لمحرري «الحوادث» عن وجوب أن يتولى كاتب لبناني شرح المسألة اللبنانية العويصة والمستعصية على الفهم. وسرّني أن أعلم أن راندال ما زال، مع تقدمه في العمر والعلم، مهتماً بالشأن اللبناني، إذ قيل لي إن «معهد الشرق الأوسط» في واشنطن اختاره ليتحدث أمام المهتمين بشؤون المنطقة عن تداعيات الأزمة السورية على الوضع اللبناني في الخامس من شهر أيلول/سبتمبر من عام 2012 (ومن المصادفات ربما أن

موعد محاضرة راندال المذكورة في واشنطن أتى في الذكرى الثلاثين للمرحلة الفاصلة بين انتخاب بشير الجميل ومقتله، أي بين 23 آب/أغسطس و 14 أيلول/سبتمبر من سنة 1982).

•••

قبل نهاية تلك السنة ذهبت من بيروت الى القاهرة، بعد نحو سنة من اغتيال الرئيس أنور السادات، لأستطلع الأوضاع في مصر من بعده، حيث قام مدير مكتب دار الصياد هناك المرحوم سليم أبو الخير بترتيب بعض اللقاءات الرسمية لي، منها لقاء مع وزير الإعلام الجديد آنذاك صفوت الشريف، أول وزير للإعلام في عهد حسني مبارك، ووزير الخارجية كمال حسن علي، والدكتور مصطفى خليل رئيس الحكومة السابق الذي زرته بمكتبه في البنك العربي الإفريقي وسط القاهرة، حيث عمل رئيساً للبنك المذكور[3].

وقتها كان صفوت الشريف في بداياته ولم يكن دوره في «النظام المباركي» قد أخذ مداه كما في السنوات التالية، ولذلك لا أتذكر من مقابلتي له شيئاً يستحق التوقف عنده. أما النشاطات الأخرى التي قمت بها في القاهرة آنذاك فقد كانت مفيدة ومفتحة للأعين، ولم يكن موضوع بشير الجميل غائباً عنها. وفي تلك الزيارة الى وزارة الخارجية المصرية لمقابلة الوزير كمال حسن علي، كان بطرس بطرس غالي وقتها لا يزال وكيلاً لوزارة الخارجية، أو وزير دولة للشؤون الخارجية. وقد أعجبت بشخصية الوزير علي وبحضوره وصراحته. وربما يعود ذلك الى كونه عسكرياً محترفاً تقلد أعلى المناصب السياسية والعسكرية، وشارك في حروب مصر كلها من حرب فلسطين عام 1948 الى حرب اليمن في مطلع الستينات من القرن الماضي، حيث كان قائداً للعمليات هناك، وانتهاءً بـ «حرب أكتوبر » 1973 ضد إسرائيل لتحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلي. ثم أصبح قائداً للقوات المسلحة، ومديراً للاستخبارات العامة، ووزيراً للدفاع، ثم رئيساً للحكومة. وقد دوّن كمال حسن علي مسيرته الطويلة هذه في كتاب مذكراته بعنوان «مشاوير العمر»[4].

وكقائد عسكري سابق، بدا لي أن كمال حسن علي لم يكن راضياً تماماً عما آلت اليه أمور مصر بعد حرب 1973، لكنه كان واثقاً من عودة مصر الى

(3) قام الرئيس أنور السادات بإنشاء البنك العربي الإفريقي برساميل مصرية وخليجية، معظمها رساميل كويتية، ليتيح للعاملين المصريين في الخارج إيداع مدخراتهم فيه بالعملات الأجنبية دون خوف من المصادرة، لأن اتفاقية إنشاء البنك المذكور تعفيه من الخضوع لرقابة البنك المركزي المصري. ولذلك سرت حوله أقاويل كثيرة في المرحلة الأخيرة من حكم حسني مبارك تتراوح بين تبييض الأموال وبين تهريب الأموال المصرية الى الخارج. وكان أول من تولى رئاسة ذلك البنك الدكتور عبد المنعم القيسوني الذي كان وزيراً دائماً للاقتصاد في عهد عبد الناصر.

(4) كمال حسن علي، «مشاوير العمر، أسرار وخفايا 70 عاماً من عمر مصر في الحرب والمخابرات والسياسة»، دار الشروق، القاهرة، 1994 ـ فيكون الكتاب الواقع في 556 صفحة قد نُشر بعد وفاته بثلاث سنوات تقريباً.

نهضتها لأن نهضة مصر الحديثة، كما قال لي، قامت على أكتاف جيشها، وهذا الجيش سوف يبقى مرادفاً لمصر طالما ظل أمنها القومي مهدداً. وفي رأيه، كوزير للخارجية، أن السلام مثل الحرب معركة متواصلة، أو حالة تناوب حسب الظروف. فكما أن مصر لم تكن تخشى الحرب طوال تاريخها القديم والحديث، فإنها لا تخشى السلام طالما بقيت قواتها المسلحة أمينة لتراثها. ولفتني فيه أنه يملأ مكانه، واثقاً من نفسه، تبدو عليه ملامح أرستقراطية فوق اعتداده العسكري، مع ظلال من المرح والبشاشة، والثقة بالمستقبل. وعلى الرغم من انشغاله في ذلك الوقت بين مرحلتين مثيرتين للجدل، فإنه لم يكن بادياً عليه القلق من ذلك الانتقال بين العهد الساداتي والعهد المباركي، فأعطاني من وقته قرابة الساعتين، فكأننا أصدقاء من سنوات. هو رفع الكلفة، لكنني مع ذلك بقيت طوال الحديث متحفظاً بكامل اللياقات. فقد كان كمال حسن علي الجنرال الثاني الذي ألتقيه من الجيش المصري بعد قائد الجيش الثالث في سيناء حسن أبو سعدى، كما مرّ، وكلاهما ترك أثراً حميداً في نفسي، وأعطياني صورة حقيقية عن طبيعة القوات المسلحة المصرية في الشأنين الوطني والقومي.

ويمكن القول بأن رئيس الحكومة الأسبق الدكتور مصطفى خليل هو صورة نقيضة أو مختلفة عن شخصية كمال حسن علي. وكنت أعرف عنه قبل تعرفي عليه في تلك المقابلة. ومعرفتي عنه جاءت عن طريق سليم اللوزي، الذي كان معجباً به وعلى علاقة معه، وقد أجرى معه أكثر من مقابلة وحديث. فقد كان سليم اللوزي يصفه بأنه «مهندس اتفاقيات كامب دايفيد». ذلك أن مصطفى خليل كانت تركيبته أميركية ربما أكثر مما كانت مصرية، لأنه درس في الولايات المتحدة حيث نال درجة الدكتوراه في الهندسة من جامعاتها. ومع أنه كان لفترة أميناً لـ«الاتحاد الاشتراكي العربي»، الذي أسسه جمال عبد الناصر ليكون بمثابة الحزب الحاكم في مصر، إلاّ أنه كان يجاهر بعدائه للاشتراكية. ويبدو لي أنه كان المحرض للرئيس السادات على التخلي عن العلاقة مع الاتحاد السوفياتي والتوجه نحو الولايات المتحدة. فقد أبلغني في المقابلة معه أنه تولّى مع آخرين تقديم مذكرة الى الرئيس السادات اعترضوا فيها على توقيعه اتفاقية مع موسكو، فور وفاة جمال عبد الناصر، تسمح للسوفيات بالتدخل العسكري في مصر إذا ما طلبت منهم الحكومة المصرية ذلك.

ومما قاله لي إنه على علاقة متينة مع السياسي الإسرائيلي عازر وايزمان، الذي أصبح تالياً رئيساً لدولة إسرائيل خلفاً لحاييم هرتزوغ[5]، وإن وايزمان عندما

(5) هرتزوغ يهودي إيرلندي كان على علاقة صداقة مع البارون الإيرلندي ديزموند كوكرين الذي كان ضابطاً في الجيش البريطاني العامل في الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد انتهاء الحرب تزوج من اللبنانية إيفون سرسق التي أصبحت تكنى بلقب الليدي كوكرين، وصار قنصلاً فخرياً لإيرلندا في سوريا ولبنان. والمعروف أن عائلة سرسق كانت لها أملاك واسعة

يأتي الى مصر ينزله عنده في بيته. وقال إن دوره في مفاوضات السلام مع إسرائيل كان حساساً جداً، بالنظر الى أن السادات أعطاه تفويضاً شبه مطلق في تلك المفاوضات. لكنه ألمح الى أن السادات ورئيس الحكومة الإسرائيلية مناحيم بيغن كلاهما لم يكونا مرتاحين اليه. وقد قيل لي في القاهرة إن عدم ارتياح مصطفى خليل لمناحيم بيغن هو أن رئيس الحكومة الإسرائيلية أهانه في حديث بينهما، إذ خاطبه بقوله: «أنت رئيس حكومة معيّن وأنا رئيس حكومة منتخب».

ولذلك طلب مصطفى خليل أن يعفيه من استقبال بيغن عندما زار مصر، فقام السادات بإبلاغ بيغن عن طلب مصطفى خليل، فأبدى رئيس الحكومة الإسرائيلية استعداده للاعتذار منه.

فقد كانت تلك المرحلة من العلاقة المستجدة بين مصر وإسرائيل بالغة الحساسية، وتقتضي من العاملين مع السادات الحذر الشديد والمشي بين النقاط كما يقال. ولذلك عندما استقال مصطفى خليل من رئاسة الحكومة بفعل تلك الحساسيات، اضطر السادات أن يتولى رئاسة الحكومة بنفسه حتى يبقى التقيد بالخط المرسوم لعملية السلام مع إسرائيل صارماً ودقيقاً. ولهذا خرجت من مقابلة مصطفى خليل بانطباع مغاير لانطباع سليم اللوزي المشار اليه من أنه «مهندس اتفاقيات كامب دايفيد». فالمهندس الحقيقي لتلك الاتفاقيات هو الرئيس أنور السادات، أما مصطفى خليل فهو مهندس تغيير النظام المصري من نظام اشتراكي الى نظام اقتصاد السوق، وبالتالي الانتقال من تحت المظلة السوفياتية الى تحت المظلة الأميركية.

والى جانب هذا التحفظ من جانبه على بيغن والسادات، امتدح مصطفى خليل الرئيس الأميركي جيمي كارتر امتداحاً لا تحفُّظ فيه، فاعتبره صانع سلام حقيقي، وأنه كان مصمماً على إيجاد حل توافقي للصراع العربي الإسرائيلي، ربما شعوراً منه بثقل العبء الإسرائيلي على الولايات المتحدة من جراء استمرار ذلك الصراع. وقال إن العالم، وخصوصاً العالم العربي، لن يعرف قيمة توجه كارتر السلمي إلاّ بعد سنوات من الآن، ملمحاً الى أن توجهه هذا هو الذي أسقطه في الانتخابات الرئاسية للدورة الثانية أمام صقور الحرب في واشنطن.

في فلسطين أشهرها مرج ابن عامر في الجليل الذي باعه السراسقة الى المهاجرين اليهود في فلسطين بين الأعوام 1921 ـ 1925، لكن بقيت لهم عقارات مبنية في وسط مدينة يافا صادرتها الحكومة الإسرائيلية، وكذلك الأرض الواقعة في جبل الكرمل قرب حيفا حيث أقام البهائيون معبداً لهم على تلك الأرض. ولمّا كان هرتزوغ يمارس المحاماة قبل توليه رئاسة الدولة ليصبح سادس رئيس لدولة إسرائيل، كلفته إيفون سرسق بإقامة دعوى ضد الحكومة الإسرائيلية أمام المحكمة الإسرائيلية العليا للتعويض عن الأملاك المصادرة، وكانت تلك أول سابقة منذ قيام إسرائيل، وبالفعل أخذت حكماً قضائياً بتعويضات جزئية. وعند صدور الحكم المذكور أوفدنا في «الحوادث» الزميل محمد سعيد جنيدي الى الليدي إيفون لإجراء حديث معها عن الموضوع نشرناه على غلاف المجلة بعنوان «ليدي الأرض المحتلة».

وخلال تلك الزيارة الى القاهرة التقيت سعيد كمال، ممثل «منظمة التحرير الفلسطينية» في مصر، الذي دعاني الى الغداء مع القائد الأمني الفلسطيني، عطا الله عطا الله(أبو الزعيم)، في فندق «شيراتون»، وكانت تلك أول مرة التقي فيها أبو الزعيم، وآخر مرة أيضاً. وهنا يدخل موضوع بشير الجميل. فقد أبلغني أبو الزعيم أن الرئيس ياسر عرفات كلفه بأن يكون ضابط ارتباط مع بشير الجميل خلال فترة الاجتياح الإسرائيلي للبنان قبل أشهر، وأن آخر مهمة قام بها في هذا الإطار أنه خلال حصار بيروت من قبل القوات الإسرائيلية اتصل ببشير الجميل لأمر عاجل فتولى قائد «القوات اللبنانية» نقله عبر الخطوط الإسرائيلية الى منزله حيث تناول معه طعام الغداء وحدهما. وقال لي أبو الزعيم إنه في تلك المهمة أبلغ بشير الجميل استعداد القوات الفلسطينية للانسحاب من لبنان إذا كان بمقدور الجميل تأمين انسحابها براً عبر طريق «الكحالة» باتجاه البقاع. لكن بشير الجميل أبلغه أنه لا يستطيع ضمان الانسحاب الآمن من تلك الطريق، أو عبر حواجز الجيش الإسرائيلي، لكنه يستطيع ضمان انسحاب الفلسطينيين بحراً عن طريق مرفأ بيروت أو حتى عن طريق جونيه. وقال أيضاً إنه شعر بأن جواب بشير الجميل عن اقتراح الانسحاب البري يخفي خشيته من بقاء الفلسطينيين في البقاع بعد انتقالهم من بيروت. وقد أثبتت الأحداث اللاحقة في السنة التالية صحة مخاوف بشير الجميل، لأن عرفات عاد الى لبنان مرة ثانية عن طريق ميناء طرابلس حيث دارت بينه وبين السوريين معارك طاحنة انتهت بانسحابه من لبنان بصورة نهائية.

وفي ختام هذا الحديث قال أبو الزعيم إنه يكنُّ احتراماً كبيراً لبشير الجميل، وإن التاريخ سوف ينصفه في المستقبل، وكذلك الرئيس أنور السادات، لأنهما كلاهما تصرفا بروح وطنية عالية خلافاً للصورة الخيانية الشائعة عنهما، والتي أدت الى اغتيالهما الواحد تلو الآخر[6]. وقد فاجأني أبو الزعيم بتوصيفه لبشير الجميل والصورة التي رسمها له خلافاً لتلك الشائعة في الأوساط الفلسطينية والأوساط اللبنانية المتحالفة آنذاك مع الفلسطينيين، خصوصاً لجهة اعتقاده بأنه كان من الممكن التفاهم معه، قائلاً إن بشير الجميل كان على استعداد ليأخذ ويعطي، بل حاول أن يأخذ ويعطي، لكن بعد فوات الأوان.

وعاد موضوع بشير الجميل يطرق ذهني في القاهرة عندما دعاني الزميل فيليب جلاّب وزوجته الى حضور مسرحية للممثلة المشهورة سهير المرشدي،

(6) يوم قابلت أبو الزعيم في القاهرة أواخر عام 1982 لم أكن قد سمعت بدور ما له في اختطاف المعارض والمناضل السعودي المعروف ناصر السعيد الذي كان يتردد عليّ في جريدة «الكفاح»، كما مرّ سابقاً، وذلك في نهاية عام 1979 يوم كان أبو الزعيم مسؤول الأمن الفلسطيني في لبنان. ومما سمعت تالياً أن اختطاف ناصر السعيد في العاصمة اللبنانية قد تم بتدبير من الفريق علي الشاعر الملحق العسكري السعودي في بيروت. لكنني لا أستطيع أن أجزم بذلك، وما زلت أعتبره في خانة الأقاويل، لكنني لا أستطيع أن أجزم بعكسه أيضاً، نظراً للطبيعة الأمنية للرجلين.

حيث كانت تربطه علاقة صداقة مع الممثلة المذكورة وزوجها الفنان الكبير كرم مطاوع الذي كان وقتها مسافراً في الخارج، وقال لي إننا سوف نقوم بعد انتهاء المسرحية بتناول الشاي مع سهير المرشدي في فندق «هيلتون النيل». لكن المسرحية بحد ذاتها أعطتني فكرة عن توجه بشير الجميل، لأنها تدور حول مأساة الشاعر الجاهلي امرىء القيس بن حجر، الذي سعى الى الملك عن طريق الدولة العظمى في ذلك الوقت، وهي الدولة البيزنطية في القسطنطينية، فوجد قيصر الروم إن التخلص من هذا الإعرابي الطموح أسهل عليه وأيسر وأقل كلفة من الدخول في حرب مع الدولة الفارسية الساسانية من أجله[7].

ومن وحي تلك المسرحية التي لا أتذكر عنوانها مع الأسف، كتبت مقالاً في مجلة «الصياد» بعد عودتي الى بيروت حول مخاطر دخول اللاعبين الصغار في لعبة الأمم، لأنهم دائماً يذهبون ضحية تلك اللعبة، مشبهاً حالة بشير الجميل بحالة امرىء القيس بن حجر، من حيث محاولة الملك عن طريق قيصر الروم. على الأقل كان امرىء القيس يحسب حساب الموت عندما قال: «نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا»، لكن بشير الجميل، في تقديري، لم يكن يحسب مثل هذا الحساب لثقته بدعم الولايات المتحدة له، فذهب ضحية اللعبة الكبرى.

وفي الليلة التالية اقترح فيليب جلّاب أن نزور السيدة برلنتي عبد الحميد، أرملة المشير عبد الحكيم عامر في منزلها، فقضينا سهرة أدهشتني خلالها بطريقتها في المصارحة والمباسطة. كنا نحن الثلاثة فقط فيليب وبرلنتي وأنا، وجاء ابنها الشاب عمرو فسلم علينا لكنه لم يجلس معنا. وسألتها في البداية كيف كانت علاقتها بالرئيس أنور السادات، فقالت إنه بعد شهر من تسلمه الرئاسة على أثر وفاة الرئيس جمال عبد الناصر استدعاها ووعدها بمساعدتها في تدبير أمورها وأمور نجلها، وراحت تقلده بتقاسيم الممثلة البارعة كما كانت في الحقيقة حيث قال لها وهو ينفث دخان غليونه: «دا عمرو ابن خويا وانا ملزم بيه. دا ابن خويا».

لكنها قالت إنه لم يصدق في وعده فلم تراجعه أو تقابله مرة ثانية.

وحدثتنا برلنتي عن بداية حياتها قائلة إنها منذ نشأتها كانت محبة للعلم والثقافة بفضل الدكتور محمد حسين هيكل الذي ولجت من خلاله باب العلم

---

(7) في أغلب الظن أن حادثة مقتل امرىء القيس في القسطنطينية مسموماً جاءت بعد توقيع «معاهدة السلام الأبدي» بين الإمبراطور البيزنطي يوستينيانوس الكبير والملك الفارسي كسرى أنو شروان في مطالع القرن السادس الميلادي، قبل قرن تقريباً من ظهور الإسلام في الجزيرة العربية. وتقول مراجع تلك الحقبة أن الاتفاقية المذكورة نصّت نصّاً صريحاً على تحييد الجزيرة العربية من الصراع بين القوتين العظميين في ذلك الزمان. ويقول إدوارد غيبون في كتابه عن أسباب انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية إن يوستينيانوس بفعل تلك المعاهدة واتكالاً عليها أهمل دفاعات سوريا الى الغرب من الفرات، وهو ما سهل في القرن التالي احتلال الفرس لسوريا بقيادة كسرى الثاني أبرويز مما اضطر البيزنطيين الى الدخول في حرب جديدة مع الفرس لطردهم من سوريا، فسهّل ذلك تالياً دخول العرب الى سوريا وفتحهم لبلاد فارس.

والثقافة، معتبرة أن الدكتور هيكل كان والدها الروحي، وتحدثت عنه ملياً بإعجاب يفوق الوصف[8].

ومما قالته برلنتي في تلك الليلة إن أركان النظام تعمدوا الكذب عند زواجها «السري» من المشير عبد الحكيم عامر، إذ قالوا إنهم لا يعرفون مكان وجود المشير لغيابه عن القاهرة عدة أيام، بعد سريان إشاعة زواجه منها، وهم على علم بكل شيء، خصوصاً جمال عبد الناصر. وتأكيداً لقولها هذا تساءلت بصوت عال:

«هل تصدِّق أن وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة غاب عدة أيام عن البلد وأركان الدولة لا يعرفون مكان وجوده؟».

وخطر لي عندما قالت إن أركان النظام كذبوا في هذه المسألة، مسألة الزواج والغياب، أنها تنشد القول بأنهم كذبوا أيضاً في مسألة «انتحاره» بعد هزيمة 1967، لكنها لم تقل ذلك مباشرة، أو كأنها قرأت ما يجول في خاطري من هذه الناحية فقالت:

«لقد دفع المشير ثمن حبِّه وولائه لجمال عبد الناصر، وتحمّل عنه عثرات كبيرة. فقد حمّلوه مسؤولية الانفصال السوري عن الجمهورية العربية المتحدة عندما كان مسؤولاً عن الإقليم الشمالي (سوريا) ولم يقل شيئاً. فقد كان عبد الناصر يتجاوزه بالتعاطي المباشر مع عبد الحميد السراج من وراء ظهره، لاعتقاده بأن مدير مكتبه داوود عويس متعاطف مع البعثيين. فهل تعتقد بأنهم كانوا أبقوه في مناصبه بعد الانفصال السوري لو أنه كان بالفعل مسؤولاً عن الانفصال؟».

وكأن جميع أفكارها تدفقت دفعة واحدة، فقالت:

«ثم حمّلوه مسؤولية ما آلت اليه حرب اليمن ولم يقل شيئاً، بينما المسؤول عن ذلك المداخلات السياسية المتناقضة والمترددة في الشأن اليمني، وكان من الطبيعي أن يدفع الجيش ثمن تلك المداخلات. وأخيراً حمّلوه مسؤولية الهزيمة أمام القوات الإسرائيلية وخسارة سيناء في حرب يونيو بعد ذلك، فلم يعد بمقدوره أن يتحمّل».

هذه العبارة الأخيرة من كلامها حمّالة أوجه. وتساءلت بيني وبين نفسي تالياً ما إذا كان المقصود بذلك أن الكيل قد طفح فحاول المشير أن يقلب الأوضاع فتخلصوا منه، أم أنه يئس وانهار تحت وطأة المسؤولية عن تلك الكارثة التي

---

(8) الدكتور محمد حسين هيكل كان من كبار الحقوقيين في مصر، وكان يحمل درجة دكتوراه في الحقوق من جامعة السوربون في باريس، لكنه تعاطى أيضاً بالأدب والكتابة والشعر والصحافة، وهو أحد أعضاء لجنة الثلاثين التي وضعت دستور مصر المستقلة عام 1923. وقد تقلّد منصب وزير المعارف ثلاث مرات بين 1938 و 1945. وفي عام 1943 انتخب رئيساً لحزب الأحرار الدستوريين حيث بقي في رئاسة الحزب حتى ثورة يوليو عام 1952 وقيامها بحل جميع الأحزاب السياسية القائمة آنذاك.

لم تنته فصولها بعد فاختصر المشوار بوضع حد لحياته؟ لكن برلنتي في تلك السهرة، على الرغم من لهجة المرارة التي كانت تتحدث بها، بقيت منصفة لرجال الثورة المصرية عندما سألتها عن رأيها فيهم بصورة عامة، فقالت: «كلهم وطنيون لا غبار على وطنيتهم، بل هم من غلاة الوطنيين. لكنهم كانوا متعلقين بالسلطة بأظفارهم وأنيابهم. كان لديهم شبق مرضي للسلطة بحيث أنهم كانوا مستعدين أن يفعلوا أي شيء من أجلها».

فعندما طرقنا باب بيت برلنتي تلك الليلة وفتحت لنا الباب، وعرّفها عني فيليب جلاّب بأنني رئيس تحرير مجلة «الصياد»، بدأت متحفظة بالكلام، لكنها أطلقت العنان للسانها عندما قال لها «إنه فوق ذلك صديقي وأخي»، ففهمتُ من هذه الإشارة، وهي فهمت أيضاً، أن المجالس بالأمانات، فخرجت من تحفظها، وأنا من جهتي لم أنشر شيئاً عن تلك السهرة، ولا أقول المقابلة، لأنها لم تكن مقابلة صحافية، لا في «الصياد» ولا في غيرها. وخرجت بعد نحو ثلاث ساعات قدمت لنا خلالها القهوة والضيافة مرتين، وأنا معجب بتلك السيدة الذكية، وبعقلها وثقافتها وتوازنها، شاكراً فيليب جلاّب لأنه أتاح لي تلك الفرصة في إطار غير صحافي.

وبما أنني في ذلك الوقت كنت أعمل في «محيط كتائبي»، إذا صح التعبير، فقد ركّزت مقالاتي آنذاك على تلك الحالة، وخصوصاً ما يتعلق منها ببشير الجميل الذي كنت قد شاركت بواجب العزاء فيه بمناسبة أربعينه برفقة الزميلين رفيق خوري وعصام فريحة، كما أشرت سابقاً الى ما قاله والده الشيخ بيار الجميل في زيارة التعزية تلك. ومن تلك المقالات ثلاث: واحدة تتعلق بالدور الوطني للجيش اللبناني في إزاء الحالات الميليشياوية، وكان يومها قد قام الرئيس أمين الجميل المنتخب، فور مصرع شقيقه، بتعيين العماد ابراهيم طنوس قائداً للجيش، قلت فيها إنه ليس من الضروري أن تقاتل الجيوش الوطنية من أجل النصر، لأنه من واجبها في حالة كالحالة اللبنانية أن تقاتل من أجل المجد، خصوصاً أن الثقافة اللبنانية التقليدية تقوم على التغني بمجد لبنان، وفي ضمير الموارنة، على وجه التحديد، أن مجد لبنان أعطي لهم.

وركزت في مقالة تالية بعد عودتي من القاهرة على وقوع صغار اللاعبين على المسرح السياسي المحلي ضحية لعبة الأمم، أو صراع الجبابرة، وذلك من وحي مسرحية سهير المرشدي عن قصة وقوع امرىء القيس بن حجر ضحية الصراع بين الروم والفرس. كما ركزت في مقالة أخرى على عبثية اعتماد مجتمعات قلقة، كالمجتمع اللبناني، على فكرة «البطل المنقذ»، لأننا لو افترضنا أن البطل المنقذ المتخيّل يمكن التعويل عليه، فمن أين نأتي ببطل منقذ إذا غاب البطل المتخيّل، إذ لن يكون بعده سوى الإحباط واليأس. وقد لقيت تلك المقالة استحساناً لدى السياسيين اللبنانيين المعروفين جان عزيز ونهاد بويز

عندما التقيتهما في منزل مسعود كرم في الأشرفية بعد صدورها. وقلت يومها إن قصة فرنسا مع «البطل المنقذ» الجنرال شارل ديغول خير دليل على ذلك، عندما قرر الفرنسيون التخلص من أسطورة البطل المنقذ بصورة بدت مهينة للرجل الذي ادعي أنه أنقذ فرنسا من الهلاك مرتين. وكان فحوى الموضوع دعوة اللبنانيين الى اعتماد المجهود الوطني الشاق خشبة خلاص حقيقية بدلاً من انتظار بطل وهمي لإنقاذهم.

•••

بعد ذلك بدأت أشعر بأن وجودي في «الصياد» بات ملحوظاً. ومن الأمثلة على ذلك، أن الزميل جورج طراد العامل في المجلة آنذاك تم تكليفه بزيارة استطلاعية الى الجمهورية اليمنية في صنعاء، فطلب مني أن يرافقه مصوِّر المجلة محمد شيباني فكان له ما أراد. لكنه جاءني في اليوم التالي ليقول إن المصور ليس لديه جواز سفر، بعدما كانت الحجوزات قد تمت ووضعت الترتيبات، وسألني كيف يمكن حل هذه المشكلة. وكان الرئيس أمين الجميل في تلك الأثناء قد عيّن زاهي البستاني مديراً للأمن العام، ولم أكن أعرفه شخصياً، لكنني كتبت له رسالة خطيَّة قصيرة حول ضرورة إيفاد المصور الى صنعاء وليس معه جواز سفر، وقلت له إنني أغتنم هذه الفرصة لتهنئته بمنصبه الجديد، وبعثت الرسالة مع المصور نفسه وأوصيته أن يسلم الرسالة باليد الى زاهي البستاني نفسه، ففعل. وقد فوجئت فعلاً أن مدير الأمن العام بعدما قرأ رسالتي أصدر له جواز سفر على الفور وسلمه الجواز بيده.

وفي مقال لاحق لي عن لبنان واللبنانيين، أوردت مقطعاً من مزامير داوود يقول فيه: «تكون حبّة برٍّ في الأرض في رؤوس الجبال، تتمايل مثل لبنان ثمرتها ويزهرون من المدينة مثل عشب الأرض»[9]. وفي اليوم التالي لصدور المقال المذكور تلقيت مكالمة هاتفية من السيدة مي المر شقيقة النائب والوزير ميشال المر، ولم أكن أعرفها أو التقيتها من قبل، أبدت فيها استحسانها للمقال المذكور وألمحت الى رغبتها في التعارف والحوار. لكن بعض الزملاء في الدار قالوا لي إن السيدة المر على علاقة مع وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك آرييل شارون، وأنها استضافته وزوجته في منزلها. ولذلك أحجمت عن التواصل معها ومع آخرين عرفوا بعلاقاتهم مع الإسرائيليين. وعندما أصدر شارون كتاب مذكراته في أواخر الثمانينات بالتعاون مع الكاتب دافيد تشانوف كما أشرت في فصل سابق، بعنوان «محارب»، لم أفاجأ بأنه أعطى حيزاً كبيراً منه نسبيا للحديث عن علاقته مع السيدة مي المر. وقد دخل شارون الى الموضوع من باب السعي الإسرائيلي الدؤوب في خريف وشتاء 1982 لعقد اتفاقية صلح مع لبنان، متهماً وزارة الخارجية الأميركية الموالية للعرب، حسب زعمه، بأنها تقف وراء

(9) المزمور الثاني والسبعون، لسليمان، المقطع 16.

عرقلة هذه الاتفاقية المطلوبة. وهذه النقطة بحاجة الى توضيح، لأن الأميركيين الذين جرت المفاوضات الإسرائيلية ـ اللبنانية بإشرافهم ممثلين بالمبعوث الخاص موريس درايبر، ما كانوا ضد الاتفاق بالمبدأ، لكنهم كانوا يريدون اتفاقاً يحفظ مصالحهم في لبنان.

وتأكيداً لذلك قال لي الزميل رفيق خوري في «دار الصياد» إن السفير الأميركي في بيروت يومئذ أسرَّ لنخبة من الصحافيين اللبنانيين، كان من بينهم، أنه غير راض عن تساهل الوفد اللبناني في المفاوضات مع إسرائيل، لأن واشنطن كانت تعوِّل على تشدد المفاوض اللبناني لكي يبقى للمبعوث الأميركي دور التقريب بين الفريقين، وهذا لم يحدث كما أراده الأميركيون[10].

وبعدما تحدث شارون عن المعاكسة الأميركية، قال إن المسيحيين اللبنانيين سلكوا لسوء الحظ سلوكاً مماثلاً. ويقول: «في شهر كانون الثاني/يناير (1983) قمت وزوجتي ليلي بزيارة الى بيروت بضيافة شاعرة لبنان العظيمة مي المر وزوجها المهندس المعماري الفرد المر، وكالعادة استقبلتنا الوفود الشعبية بحفاوة وحماس شديد، بينما حكومتهم في الأشهر الأخيرة كانت أقل حماساً».

واتهم شارون الرئيس أمين الجميل بأنه اعتمد المماطلة والتسويف إرضاءً لبعض الدول العربية مما حمله في تلك الزيارة الى لقاء الشيخ بيار الجميل والد الشيخ أمين ليبلغه أن صبر إسرائيل يكاد ينفد، وبالتالي فإن استمرار عدم الوضوح الراهن من شأنه أن يؤلب الرأي العام الإسرائيلي للمطالبة بانسحاب فوري من لبنان، فيبقى المسيحيون لوحدهم من غير نصير. فإذا حدث ذلك، حسب شارون، «أقول لكم ما قلته لفيليب حبيب، إن الشيخ أمين سوف يجد نفسه رئيساً على مبنى القصر الجمهوري فقط لا غير. فإذا لم تكن لديكم الشجاعة الآن فإنكم قد تخسرون كل شيء. نحن لم نأت الى هنا لإنقاذكم بل لإنقاذ أنفسنا. لكن أمامكم الآن فرصة تاريخية، فإذا لم تغتنموها فإنها قد لا تتكرر إلاّ بعد خمسين سنة»[11]!

ويقول شارون في كتاب سيرته، إنه عندما خسر قضيته بشأن مجزرة مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين في بيروت وقدم استقالته من وزارة الدفاع جاءت الى داره وفود شعبية كبيرة للتضامن معه ووداعه، منهم من حمل باقات الزهور ومنهم من كان يذرف الدموع، ليقول: «وفجأة وبصورة غير منتظرة أطلت مي المر واخترقت الجموع المحتشدة لتلقي قصيدة من شعرها الجميل. فقد جاءت من بيروت خصيصاً صبيحة ذلك اليوم (14 شباط 1983)، كما جاء أيضاً

(10) أظن أن السفير الأميركي المشار اليه هو روبرت ديلون الذي التقيته في واشنطن مع ابن العم إيلي الفرزلي صيف عام 1994، كما ذكرت في فصل سابق.

(11) الصفحة 514 من كتاب شارون Warrior سيرة ذاتية لآرييل شارون بالتعاون مع دافيد تشانوف، ماكدونالد، 1989.

أصدقاء كثيرون من لبنان»[12].

•••

بعد عودتي من القاهرة في أواخر عام 1982، رجعت الى لندن لقضاء فترة الأعياد مع العائلة، وكنت ما زلت أنوي الانتقال الى بيروت، واتفقت مع زوجتي أن تأتي الى هناك خلال عطلة أعياد الفصح في الربيع لتقرر بنفسها ما إذا كان ذلك يناسبها. وكنت حتى ذلك الوقت أقيم في منزلي بمنطقة الروشة على البحر في بيروت الغربية ومعي والدا زوجتي، ويقلني من هناك كل صباح الى الحازمية حيث دار الصياد سائق تاكسي من أهل راس بيروت يدعى خالد العيتاني، وفي العودة من الحازمية في الساعة الثانية من بعد ظهر كل يوم كان الزميل وجيه العجوز يوصلني بسيارته في طريقه الى منزله، لأن دوام العمل بسبب الأحوال العامة، ولكون الحذر كان لا يزال كبيراً بعد الاجتياح الإسرائيلي، وبعد إعادة توحيد العاصمة فور انتخاب الشيخ أمين الجميل رئيساً للجمهورية، اقتصر في معظم المرافق العامة والخاصة على نصف دوام، أي ست ساعات فقط من الثامنة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر.

وما زلت أتذكر يوم الخامس من شهر شباط 1983 لأن شيئاً مقلقاً حدث في ذلك اليوم. فقد كان يوماً ربيعياً هادئاً، على الرغم من أن اللبنانيين يصفون شهر شباط بأنه «شباط اللباط» بسبب العواصف التي يمكن أن تهب فيه. وفي الطريق الى الحازمية بسيارة خالد العيتاني كنت أتأمل بحر بيروت الذي بدا رائقاً كالزيت لا موجة فيه، وفي الأفق البعيد خيالات الأسطول السادس الأميركي الواقفة سفنه في عرض البحر كالأبراج[13]. وفي اللحظة الأخيرة قبل انتهاء الدوام تلقينا مكالمة هاتفية تفيد بأن انفجاراً مهولاً وقع مستهدفاً مركز الدراسات الفلسطينية الواقع في شارع كولومباني المتفرع من شارع الحمرا بين الحمرا والسادات في راس بيروت باتجاه البحر، وهو مكان قريب من منزلي. وكان الباحث الفلسطيني صبري جريس مدير المركز موجوداً في مكتبه عندما تم تفجير السيارة المفخخة المركونة في الشارع تحت المركز، لكنه لم يصب بأذى. أما العاملون في المركز فقد قتل منهم ثمانية على ما أظن، على الرغم من أن شدة الانفجار أوقعت 20 قتيلاً معظمهم من المارة الأبرياء، بالإضافة الى أكثر من 50 جريحاً بدرجات متفاوتة.

وما هالني وقتها أنني كنت أسلك ذلك الطريق من أمام المركز الفلسطيني في أغلب الأيام إما عندما أكون في الحمرا وأتوجه الى منزلي مشياً على الأقدام، وإما عندما أكون في زيارة الصديق منح بيك الصلح الذي يقع منزله في ذلك

(12) المصدر ذاته، الصفحة 521.

(13) في ذلك الوقت كانت القوات المتعددة الجنسيات التي تضم وحدات عسكرية من الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية ما زالت موجودة لحفظ السلام في لبنان.

الشارع على بعد أمتار فقط من المركز. وقد أدركت وقتها أن الوضع اللبناني ما زال هشّاً، وأن السلام المنشود أمر بعيد المنال. ولذلك أبلغت أهل زوجتي بأنني سوف أنتقل من البيت للإقامة في منزل أخي دانيال المطل على القصر الجمهوري في بعبدا، وكانت والدتي تقيم هناك أيضاً، وهو مكان لا يبعد كثيراً عن مقر عملي في الحازمية.

ومع ذلك فقد كانت المنطقة الشرقية من بيروت حالة مختلفة، ليس لكونها أكثر أماناً، وإنما بسبب المناخ الثقافي المتجدد فيها، سواء لجهة الحركة المسرحية، أو لجهة الفنون على مختلف مستوياتها، أو لجهة المحاضرات والمناقشات السياسية والفكرية التي أسهمت فيها مؤسسات تربوية ناشئة مثل جامعة الكسليك، والقصر البلدي في الذوق بالقرب من جونيه. وفي تلك الأثناء اصطحبني الزميل جهاد ابو فاضل الى مسرحية عرضت على مسرح «كازينو لبنان» تدور وقائعها حول الأمير فخر الدين المعني الملقب بالكبير، وهو موضوع له معنى في ذلك الوقت لأن قطاعاً واسعاً من المسيحيين في بيروت الشرقية كان يحاول، عن قناعة ربما، تجسيد صورة الشيخ بشير الجميل على قالب شخصية أو مشروع الأمير فخر الدين. ولذلك لقيت تلك المسرحية إقبالاً ملفتاً كما شاهدت بعيني.

ولفت نظري في بيروت الشرقية وقتها نشوء «المسرح ـ المطعم» حيث يأتي الناس لتناول طعام العشاء ليجدوا مسرحاً يؤدي عليه ممثل واحد أو أكثر إلقاءات مسرحية معبرة ونقدية عادة حول مجريات الأمور والظواهر الاجتماعية المستجدة. كانت هناك حيوية ثقافية مكبوتة أو كامنة تحاول الانفلات من عقالها، والأهم من ذلك كان المجتمع الحاضن لها مستعداً للانطلاق معها في البحث عن شخصية لبنان القابل للحياة. ولعل الكاتب الكتائبي المعروف جوزف أبو خليل، الذي وصف نفسه بأنه «كتائبي قبل الكتائب»، كان أدق تعبيراً عن هذه الحالة التي أتحدث عنها في كتابه المثير بعنوان: «لبنان ... لماذا؟ مشروع وطن لم يتحقق بعد... سقوط الديكتاتورية لا ينشىء ديموقراطية». ومع أنني، مثل جوزف أبو خليل، أشك في إمكانية قيام دولة وطنية مدنية علمانية في لبنان، بالنظر الى تركيبته الطائفية التاريخية المتجذرة، فإنني مثله أيضاً لا أستهين بأي دعوة أو حركة سياسية أو ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية، ولا أقلل من شأنها مهما بدت جانبية أو ثانوية، تدعو للوصول الى الإجابة عن السؤال الممتنع: أي لبنان نريد؟[14]

ما شاهدته أطلقت عليه في حينه عبارة «حالة التلمُّس»، لكن أبو خليل اعتبرها حالة تلمُّس مستمرة من دون بصيص في الأفق، وفوق ذلك هي قد لا تؤدي الى

---

(14) **جوزيف أبو خليل، «لبنان لماذا؟، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، شباط/فبراير 1993، الطبعة الثانية».**

نتيجة قابلة للحياة. فهو يقول:

«المنطقة العربية والعالم كله تقريباً على أبواب مرحلة تفكك لا يُعرف بعد أي نظام دولي جديد سيسفر عنها، وأي دول، وأي إمبراطوريات. هذه الرابطة المجتمعية والروحية بين أجزاء البلد وأهلها لم تتكوّن بعد، ولا هي في طريق التكوُّن، وهي حال سابقة للحرب، وقد زادتها الحرب تفاقماً. وأقصد بذلك أن مشروع الوطن اللبناني لا يزال مشروعاً قد يكتمل وقد لا يكتمل...»[15].

وذات يوم من شتاء عام 1983جاء الى بيروت البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم، بطريرك إنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، وحل ضيفاً على مطرانية بيروت للروم الأرثوذكس في الأشرفية، فاقترح الزميل نقولا الصيقلي أن أرافقه وشقيقه الأسقف نيفن الصيقلي، المعتمد البطريركي للكرسي الأنطاكي لدى البطريركية الروسية في موسكو، لزيارة البطريرك هزيم الذي قال إنه جاء برفقة شقيقه طبيب الأسنان لمعالجة أسنانه في لبنان. وبعد أحاديث مختلفة في العموميات سألت البطريرك هزيم ما إذا كان يرى أنه من الممكن أن يصبح اللبنانيون شعباً واحداً بكل معنى الكلمة، فقال، كما سجّلت في مفكرتي تالياً: «ليس المهم، أو من الضروري، أن نكون شعباً واحداً، المهم أن نتفق».

وهذا الجواب يتوافق مع توصيف جوزف أبو خليل للبنان الحالي أو القائم تاريخياً بأنه «اتحاد طوائف»، أو توافق شعوب بشكل طوائف لا تشبه بعضها لا في الشكل ولا في المضمون[16].

•••

فيما أنا في مجلة «الصياد» آنذاك توفي الرسام والفنان الكبير خليل الأشقر الذي كان له فضل كبير في إظهار الشخصية التاريخية للمجلة يوم عمل فيها مع سعيد فريحه رساماً للكاريكاتير، فابتدع لها شخصية «أبو خليل» لابس اللبّادة والشروال، كناية عن الشعب اللبناني، وشخصية «كوهين» صاحب العثنون الملتوي كناية عن المغتصبين الصهاينة، بحيث يمكن القول بأن خليل الأشقر هو شريك فعلي لسعيد فريحة في «الصياد». بل هو يتقدم نخبة من الذين عملوا وكتبوا في المجلة يوم بدأتُ العمل في الدار مطلع ستينات القرن الماضي، ولكل منهم تصنيف خاص به مثل جورج جرداق، وإميلي نصر الله، ويونس الإبن، وحاتم خوري، وسامي غميقة، وكامل الجيل الذي سبقهم وعاصر خليل الأشقر أيضاً، بمن فيهم الحلاق المعلّم الياس.

لكنني لاحظت أنه ليس هناك أي اهتمام برحيل خليل الأشقر من قبل إدارة دار الصياد، فكأنهم لا يعرفونه أو لا يتعرفون عليه. فسألت الزميل نقولا

---

(15) المصدر ذاته، الصفحة 151.

(16) المصدر ذاته، الصفحة 113.

الصيقلي إذا كان يعرف بيت خليل الأشقر فقال إنه يعرفه، فطلبت منه أن يرافقني لتعزية عائلته به باسم دار الصياد متذرعين بأن المدير العام مسافر وقلّما يأتي الى بيروت. وقد انتابني حزن مزدوج وأنا جالس في ذلك البيت المتواضع، حزن على فقد فنان كبير، هو في نظري، من معالم لبنان الحضارية، وحزن لعدم المبالاة من المعنيين، خصوصاً أن المدير العام للدار كان وقتها في زيارة الى بيروت لتهنئة الرئيس أمين الجميل بانتخابه.

وخليل الأشقر، لمن لا يعرفه، بدأ حياته الفنية في دمشق مع الصحافي والسياسي الكبير، شيخ ظرفاء سوريا في زمانه، حبيب كحّالة صاحب مجلة «المضحك المبكي» الكاريكاتورية التي أصدرها عام 1929 وظلت تصدر حتى عام 1966[17].

وفي الأعداد الخمسة الأولى من «المضحك المبكي» تولى رسم الكاريكاتور فيها الفنان السوري توفيق طارق قبل أن يتعرف حبيب كحّالة على خليل الأشقر في بيروت فتعاقد معه وجاء به الى دمشق حيث عمل في تلك المجلة نحو عشر سنوات عاد بعدها الى بيروت ليجلّي ويجوهر في مجلة «الصياد»[18].

يبدو لي أن اللبنانيين في المدن وفي القرى يقبلون على المؤاجرة في الملمات والتعازي بالأموات سواء كانوا يعرفونهم أو لا يعرفونهم، وسواء اتفقوا معهم في السياسة أو الرأي أم لا، ولذلك وجدتني «أسوق مع السوق»، حسب التعبير الدارج، وهذا يشبه المثل البريطاني المعروف القائل: «عندما تكون في روما فافعل ما يفعله أهل روما». فبعد التعزية بأربعين بشير الجميل في «بيت الكتائب المركزي» على الصيفي، كما سبق القول، وبعد التعزية المذكورة بالرسام خليل الأشقر، أعلن عن وفاة الزعيم السوفياتي ليونيد بريجينيف في 11 تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1982، وأعلنت السفارة السوفياتية في بيروت فتح دفتر تعازي في السفارة، فقررت الذهاب الى هناك لكتابة كلمة عزاء في ذلك الدفتر السميك الذي يحتوي على أكثر من خمسماية صفحة. ولدى وصولي الى مقر الدفتر وجدت طابوراً من اللبنانيين يشبه طابور الإعاشة في زمن الحرب، أو الطوابير الروسية الدائمة التي شاهدتها في موسكو قبل

---

(17) توفي حبيب كحالة عام 1965، واستمر نجله سمير كحّالة في إصدارها لمدة سنة بعد ذلك. وقد انتخب حبيب كحّالة نائباً في البرلمان السوري عام 1947 تقديراً من الدمشقيين لمواقفه الوطنية ومواهبه الثاقبة. وقبل «المضحك المبكي» بعشر سنوات أصدر كحالة صحيفة باسم «سوريا الجديدة»، كما أصدر تالياً مطبوعات أخرى الى جانب مطبوعته الكاريكاتورية الأساسية، وهو من خريجي الجامعة الأميركية في بيروت.

(18) قبل صدور مجلة «الصياد» عام 1943 مع فجر الاستقلال اللبناني، وبعد عودته من دمشق، عمل خليل الأشقر مع يوسف مكرزل في مجلة «الدبُور» الكاريكاتورية أيضاً. ويستدل من كثرة المجلات الكاريكاتورية في لبنان وسوريا زمن الانتداب الفرنسي أن تلك الوسيلة النقدية اللاذعة اعتمدت لتجنيب الصحافيين أصحاب المجلاّت والمسؤولين عنها الملاحقة القانونية بتهمة التعرّض للسلطات الحاكمة.

عشر سنوات من ذلك. ولفتني أن معظم المعزين الواقفين في الطابور ليسوا شيوعيين أو ماركسيين أو يساريين، بل إن بينهم عدداً لا يستهان به من أعداء الشيوعية وخصوم الاتحاد السوفياتي. وكان يقف أمامي في الطابور المذكور العماد اسكندر غانم ،القائد الأسبق للجيش اللبناني، الذي عندما جاء دوره خط كلمة باللغة الفرنسية من عدة أسطر ذيّلها بصفته وتوقيعه. وكذلك فعلت أنا لكن باللغة العربية.

ومع أن العماد غانم من بلدة صغبين في البقاع الغربي على مقربة من بلدتنا، إلاّ أنه لم تكن لي معرفة حقيقية به، لأن عائلته وحوزته في صغبين كانت دائماً على خصومة انتخابية مع عائلتنا، وإن كنا نأخذ من أصوات صغبين أكثر منه، وقد فاز محازبونا على محازبيه أكثر من مرة في الانتخابات البلدية. وفي انتخابات عام 1972 طلب مني قريبي المرشح الياس الفرزلي أن نزور العماد غانم في بيته في صغبين، لكننا لم نجده في المنزل وأصرت زوجته السيدة لوريس على استبقائنا لتقديم الضيافة لنا. والتقينا به بعد فترة في بلدة بعلول في القاطع الشرقي المواجهة لصغبين في القاطع الغربي أثناء تأدية واجب عزاء أيضاً، فكان هو خارجاً ونحن داخلون. لكنني التقيته مرة وهو بلباسه العسكري الرسمي في حفلة أقامتها السفارة السوفياتية في فندق كارلتون، حيث وقف يتحدث مع الملحق العسكري السوفياتي الذي كان يرتدي بزة عسكرية بيضاء. وفي مطالع تسعينات القرن الماضي التقيته في صغبين أثناء جنازة قريب لي هو بطرس شديد زوج ابنة خالتي لوريس منصف، وقد ذكرت سابقاً أن لي خالة متزوجة في صغبين كنت أتردد عليها كلما سنحت الفرصة.

ولكثرة واجبات العزاء في لبنان، قيل لي في بيروت إن بعض الناس هناك يبدأون صباحهم بقراءة الجريدة اليومية من صفحة الوفيات ليقرروا أي جنازة أو مأتم يحضرون، سواء كانوا على معرفة بالشخص المتوفى أم لا. وعندما توفي الزميل والصديق وليد بركات قبل سنوات، اتصلت من لندن بابن العم إيلي الفرزلي في مجلس النواب وطلبت منه أن يذهب الى بيت الفقيد لتقديم التعزية باسمي الى شقيقه محمد بركات، الذي تعرفت عليه عندما زارنا في لندن، وكان يومها مديراً لدار الأيتام الإسلامية، فذهب الى حيث يتقبلون التعازي وجلس الى جانب الزميل الناشر رياض نجيب الريس. وأبلغني رياض الريس لاحقاً أنه فوجىء بقدومه وسأله ما إذا كان يعرف الفقيد، وكيف عرفه، فقال له: «إنني لا أعرفه لكنني هنا مندوب عن سليمان». وقد طلبت منه ذلك لأنني أعرف أنه مدمن على التعازي، وإن كان ذلك لضرورات انتخابية.

كانت الحياة في بيروت وقتها حلوة ومغرية، خصوصاً في بيروت الشرقية، على الرغم من مآسي الحرب وذيولها وتزاحم أقدام جيوش غريبة على الأرض اللبنانية من فلسطينية، وإسرائيلية، وسورية، وأميركية، وبريطانية، وفرنسية،

وإيطالية... متعددة الجنسيات والهويات والثقافات والأهـداف والمرامي، والتناحر الأهلي. فقد بقيت بيروت تنبض بالحياة والأمل وهي تنوء تحت أثقال قضايا ومصالح العرب واليهود والعجم كافة. ومع رغبتي الجامحة في البقاء فيها واستعادة مكان لي هناك، أو إيجاد مكان أستطيع من خلاله التعبير الحر بعقل منفتح عن الوطن الافتراضي الذي يتعدى النوستالجيا أو الحنين الطبيعي الى أرض الأجداد، فقد شعرت بأن تغييراً عضوياً وربما جذرياً، بمعنى الاستعصاء على المعالجة، طرأ على اللبنانيين، ربما من غير أن يشعروا به، وهو أن الحرب العسكرية بالسلاح حملت معها حرباً أخرى غير منظورة تغلغلت بصورة بنيوية في ثنايا الناس الذين يسمون أنفسهم لبنانيين، وهي تسمية لم تعد تنطبق على الواقع، أو لم تعد سارية المفعول، بمعنى أن اللبنانيين لم يعودوا لبنانيين، ولم تعد لديهم إرادة لبنانية حرة مثل التي كانت لهم عشية الاستقلال. وفي هذا لا يكفي القول بأن وجود إسرائيل في جوار لبنان بعد استقلاله بخمس سنوات، هو الذي أفسد على اللبنانيين لبنانيتهم. لأن التسليم بذلك يعني أن جميع العرب والمسلمين قد أصبحوا يهوداً منذ أن قامت في بلادهم دولة يهودية تعطي المبرر والمحفز لقيام كيانات دينية في كل مكان لديه القابلية لذلك!

وكنت قبل أن أعـود الـى بيروت في ذلـك الوقت، والتعبئة الإعلامية ضد المسيحيين على أشدها بسبب علاقة «الكتائب» و«الـقـوات اللبنانية» مع إسرائيل، التقيت في لندن مع الشاعرين العربيين المعروفين المصري محمد عبد المعطي حجازي والعراقي عبد الوهاب البياتي، فسألني حجازي: «ماذا يريد المسيحيون في لبنان؟»

قلت له: «إنهم لا يريدون العيش في دولة دينية».

فقال: «هم على حق، وكذلك المسلمون»،(أي أن المسلمين أيضاً لا يريدون العيش في دولة دينية).

فأجبته: «إن هذه الفرضية غير مؤكدة ولا نستطيع أن نجزم بها».

وبصرف النظر عن ترددي بين البقاء في بيروت أو العودة للالتحاق بالعائلة في لندن، فإنني اتصلت بزوجتي واقترحت عليها أن توافيني الى بيروت في عطلة الفصح مطلع نيسان/أبريل 1983، ففعلت واصطحبت معها نجلنا الأصغر جهاد الذي لم يعد يعرف اللغة العربية خلافاً لبقية أخوته الأكبر منه سناً، بغية تشجيعه على النطق بالعربية. وبعد أيام قليلة من وجودها في بيروت، سمعت دوي انفجار هائل وهي تسير في شارع عبد العزيز في راس بيروت بالقرب من مستشفى الجامعة الأميركية. ثم تبين أن الانفجار المذكور يوم 18 نيسان/ أبريل من تلك السنة دمّر مبنى السفارة الأميركية في بيروت الواقعة على الكورنيش البحري في منطقة عين المريسة، وأودى بحياة أكثر من 60 شخصاً بينهم 17 أميركياً وأكثر من مائة جريح. وقيل يومها إن بين القتلى الأميركيين

ثمانية ينتمون الى وكالة الاستخبارات المركزية كانوا لحظة الانفجار يعقدون خلوة ضمت بعض رؤساء محطات الوكالة في المنطقة، مما أربك الديبلوماسية الأميركية الى حين. ولذلك عينت الإدارة الأميركية بعد فترة من الحادث مفوضاً سياسياً جديداً لها في سفارة بيروت من كبار موظفي وكالة الاستخبارات المركزية هو الكولونيل وليام بكلي، الذي أوكلت اليه مهمة إعادة تنظيم محطة بيروت الاستخباراتية، لكن بكلي تم اختطافه في بيروت بعد أقل من سنة على وجوده فيها ومات في المعتقل بنوبة قلبية، ولم تسترجع الولايات المتحدة رفاته إلاّ عام 1992[19].

بعد تفجير السفارة الأميركية قررت زوجتي العودة الى لندن، واتفقنا على أن أعود أنا الى لندن نهائياً بعد انتهاء السنة الدراسية لابنتنا ريما في كلية بيروت للبنات ،(التي أصبحت الآن «الجامعة اللبنانية ـ الأميركية»، لأنها اختارت أن تصطحبني الى بيروت للدخول في تلك الكلية)، ومن حسن المصادفات أنه نشأ سوء تفاهم بيني وبين إدارة «دار الصياد» في ذلك الوقت، كما مرّ، فاتخذت من ذلك ذريعة لتقديم استقالتي والعودة الى لندن برفقة ابنتي بعد انتهاء السنة المدرسية في أواخر أيار/مايو من عام 1983.

---

(19) اتهمت واشنطن حزب الله اللبناني بخطفه وتعذيبه حتى الموت. ويقال إن الاعترافات التي أدلى بها تحت التعذيب بلغت 400 صفحة. كما يقال إن المشرف على التنظيمات السرية في الوكالة المركزية المسؤولة عن تنفيذ عمليات الاغتيال حول العالم، وهو تيد شاكلي، اختاره ليتولى مهمة الموافقة أو عدم الموافقة على الاغتيالات المقررة لأنه صديقه الشخصي ويثق به. وهذا ما أكدته الصحافية الأميركية المعروفة وأستاذة الصحافة في جامعة برينستون ليزلي كوبرن، في كتابها عن صفقة الأسلحة السرية مع إيران منتصف الثمانينات، والتي عرفت بفضيحة «إيران ـ كونترا» بعنوان «خارج السيطرة». وهناك دلائل على أن مدير المخابرات المركزية في عهد الرئيس رونالد ريغان وليام كايسي كلّف شاكلي بترتيب الصفقة مع الإيرانيين بهدف الإفراج عن بكلي وبقية الرهائن الأميركيين في لبنان وعددهم أربعة، لكن بكلي كان قد توفي أثناء المفاوضات التي كان يجريها شاكلي في فندق «أتلانتيك» بمدينة هامبورغ الألمانية مع الجنرال الإيراني مانوشهر هاشمي، الرئيس السابق لقسم مكافحة التجسس في جهاز السافاك أيام الشاه، وتاجر السلاح الإيراني مانوشهر غوربانيفار المقرب وقتها من رئيس البرلمان حجة الإسلام علي أكبر هاشمي رفسنجاني. وفي 1985، أي بعد سنة من اختطاف بكلي جرت محاولة لاغتيال العالم الشيعي اللبناني محمد حسين فضل الله، الذي كان يوصف بأنه المرشد الروحي لحزب الله، بسيارة مفخخة في منطقة بئر العبد بالضاحية الجنوبية من بيروت، لكنه نجا منها. وذكر في بيروت يومها أن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية هي المسؤولة عن تلك العملية التي ذهب ضحيتها عشرات من اللبنانيين الأبرياء. فإذا صح ذلك يكون تيد شاكلي هو الذي أمر بتلك العملية انتقاماً لصديقه بكلي بصفته مسؤولاً عن عمليات الاغتيال.

V

«راصد» في المرصاد

في لندن وجدت الزملاء في «الحوادث» بانتظاري كالعادة فانضممت اليهم من جديد. وبعد أيام قليلة انتدبوني لحضور لقاء صحافي مع الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي في طرابلس، فكان ذلك من أغرب اللقاءات التي حضرتها في حياتي. ذلك أن اللقاء مع الزعيم الليبي يبقى مجهول الزمان والمكان الى أن يجري إبلاغ الصحافيين بهما، وبالتالي على الصحافيين المعنيين أن يظلوا على أهبة الاستعداد في النهار والليل الى حين استدعائهم. ومن حسن الحظ أنه كان من جملة المنتظرين للقاء الموعود مع القذافي الزميل الكبير والصديق العزيز الراحل الحاج أحمد الصالحين الهوني، صاحب جريدة«العرب» التي كانت أول جريدة عربية يومية في لندن اسسها ابن عمه رشاد الهوني عام 1977 . وكان الهوني، رحمه الله، رجلاً ظريفاً صادق العروبة وطيِّب المعشر. وفي تلك الرحلة الى طرابلس كان يرتدي اللباس الإفرنجي مع ربطة العنق، بينما كان في لندن يرتدي اللباس العربي والعباءة التي تعطيه مظهر المهابة والوقار.

فقلت له عندما التقينا في طرابلس: «ما بالك يا حاج تلبس العباءة في لندن، وتلبس الطقم الإفرنجي في طرابلس؟»، فقال ضاحكاً: «يجب أن نتنكر في بلادنا» ثم قال: «لكننا لا نتنكر لها».

والمعروف أن الحاج أحمد الصالحين الهوني شغل منصب وزير الإعلام والثقافة في آخر حكومة ليبية في العهد الملكي قبل ثورة معمر القذافي، وبعد سقوط العهد الملكي في مطلع أيلول/سبتمبر 1969 انتقل الى بيروت حيث ظل يحن الى الصحافة والإعلام، فاستأجر جريدة «الكفاح» من صاحبها نقيب الصحافة رياض طه الذي كان قد أغلقها، كما ذكرت سابقاً، عندما كنت رئيساً لتحريرها في مطلع السبعينات من القرن الماضي[1]. وكان هناك أيضاً الزميلان

(1) الحكومة الليبية التي أسقطها انقلاب القذافي، والتي شغل فيها الحاج أحمد الصالحين الهوني وزارة الإعلام والثقافة كانت برئاسة ونيس القذافي، وهي التي خلفت حكومة عبد الحميد البكوش في عام 1968 أي قبل الثورة بسنة تقريباً. وكانت تضم الى جانب الهوني كلاً من حامد العبيدي (الدفاع)، أحمد عون سوف (الداخلية)، شمس الدين عرابي بن عمران (الخارجية)، أحمد نجم (الاقتصاد)، خليفة موسى (البترول)، الهادي القعود (المالية)، رجب الماجري (العدل)، مصطفى

اللبنانيان طلال سلمان عن «السفير» ووليد الحسيني عن «الكفاح العربي». وفي ليلة من ليالي الانتظار الطويلة في الفندق الكبير في العاصمة الليبية، كنت أجلس مع الزميل طلال سلمان في بهو الفندق فإذا بأحد أبناء عمومة العقيد القذافي، وهو سيد قذاف الدم، يدخل علينا وكأنه على موعد مع رئيس تحرير جريدة «السفير»، فبقينا ساهرين الى ساعة متأخرة من الليل قدم لنا خلالها كتاباً له وكتب لكل منا إهداءً بخط يده. وراح طلال سلمان يمازحه بقوله له:

«سمعنا أنك صرت ساعي بريد».

فقال سيد قذاف الدم: «وكيف بلغك ذلك؟».

فقال له طلال: «سمعنا أنك حملت رسالة خاصة وشخصية الى الرياض من العقيد القذافي الى الملك فهد بن عبد العزيز».

لم يؤكد ولم ينفِ، لكنه قال: «نحن لا نذهب الى الأذناب، نحن نذهب الى الرأس. محجتنا هي واشنطن». وقد فوجئت فعلاً بهذه الصراحة، ومن دون مواربة.

لكن انتظار اللقاء مع القذافي في طرابلس طويل، وهو ممل وممض. فلا أحد يعرف متى سيكون اللقاء الموعود وأين إلاّ في اللحظة الأخيرة. فقد سئم الصحافيون المنتظرون في الفندق ليل نهار من غير علم أو خبر، وكل يوم تسمع أن اللقاء غداً، وكأنه ليس هناك غدٌ في جماهيرية القذافي. وقد شعر القائمون على وزارة الإعلام بتململ الصحافيين، فنظموا رحلات سياحية لهم واحدة الى الآثار الرومانية في الخمس، وقد ذكرتها سابقاً، وواحدة الى مصنع كيميائي على مقربة من الحدود التونسية يديره مهندس ليبي.

وبعد طول انتظار، قالوا لنا إن الموعد قد أزف وإن الباصات سوف تحضر قريباً لنقلنا الى مقر العقيد. وبعد نحو ساعة من هذا الإعلان وانتظار الباصات على مدخل الفندق اعتذروا لنا بأن الموعد قد تأجل الى الغد لأن الرئيس السوري حافظ الأسد حلّ فجأة في ليبيا للتحادث مع القذافي في طريقه لزيارة الجزائر. وبالفعل وفيما الصحافيون متجمهرون على المدخل دخل عبد الحليم خدام ومرافقوه الى ردهة الفندق الكبير وانتحوا جانباً ليجلسوا في زاوية داخلية من الردهة، كما أشرت في فصل سابق. ووقفت على مقربة من المدخل أتأمل ذلك المشهد فإذا بالحاج أحمد الصالحين الهوني يدخل «متنكراً» باللباس الإفرنجي، فتأبطني ورحنا نتمشى لوحدنا، فقال لي إنه يعتقد بأن العلاقات السورية ـ الليبية ليست على ما يرام، وإن هذه الزيارة المفاجئة وغير

عبد الله بعيو (التربية والتعليم)، حامد أبو سريويل (الشؤون الاجتماعية والعمل)، عمر جعودة (الصحة)، عبد الكريم لياس (الزراعة)، طارق الباروني (الصناعة)، عمر بن عامر (المواصلات)، فتحي جعودة (الأشغال العامة)، علي عتيقة (التخطيط والتنمية)، أنور ساسي (الإسكان والأملاك الحكومية)، عادل الميلودي (البلديات)، أحمد الصويدق (الشباب والرياضة)، حسن الغناي (وزير دولة لشؤون الخدمة المدنية)، بشير السني المنتصر (وزير دولة لشؤون الرئاسة).

المقررة للرئيس السوري الى طرابلس جاءت لترطيب الأجواء. وأبلغني الهوني إن القذافي يقيم علاقات جيدة مع حزب الكتائب والقوات اللبنانية، وإنه أوفد الى بيروت الشرقية فرقة فنية شعبية ليبية لأداء رقصات وأغاني ليبية على أحد مسارحها المعروفة، في عز تأزم العلاقات السورية مع المسيحيين أيام بشير الجميل، وعلى الرغم من دعوته السابقة للمسيحيين اللبنانيين والعرب الى اعتناق الإسلام كسبيل لحل مشكلتهم.

وبقيت ملاحظة الهوني هذه في ذهني، الى أن ذكرت الصحف اللبنانية أن الرئيس أمين الجميل، في أيام رئاسته غادر لبنان الى جهة مجهولة من غير الإعلان عنها، ثم تبين أنه قصد العقيد القذافي في طرابلس. وبعد تلك الزيارة الغامضة التي قام بها الرئيس الجميل الى القذافي، راحت الصحف البريطانية تتحدث عن عزم القذافي على شراء مصفاة للنفط في إيطاليا تموِّن سويسرا بالمشتقات النفطية، وقد تراكمت عليها ديون وخسائر بلغت أكثر من مائة مليون دولار، ويملك تلك المصفاة اللبناني روجيه تمرز المقرب من الرئيس الجميل، باسم شركته «تامويل»، أي «تمرز للنفط». وبعد فترة ذكرت الصحف البريطانية أيضاً أن الليبيين اشتروا مصفاة «تامويل» بمبلغ 300 مليون دولار. وأظن أن الرئيس الجميل زار القذافي مرة أخرى بعد تركه الرئاسة، فقد التقيت الرئيس الجميل بمناسبة اجتماعية في منزل الزميل سليم نصار في لندن، وكان برفقته الزميل سمير عطالله. وفي خلال ذلك اللقاء فتحت موضوع القذافي، فاسترسل الرئيس الجميل في الحديث ليقول إن الزعيم الليبي أهداه خيمة لا توجد في لبنان قطعة أرض خالية تتسع لها لضخامتها وامتدادها. وهذا يدل أن تلك الهدية جاءت بعد زمان من تركه الرئاسة، لأن القذافي لم يكن يقطن في الخيمة أيام رئاسة الجميل في الثمانينات، كما اعتاد في التسعينات وما بعدها حتى في العواصم الكبرى التي زارها حول العالم.

وفي اليوم التالي جاءت الباصات بالفعل لتنقلنا الى مكان ليس ببعيد، فأدخلونا الى قاعة كبيرة للمؤتمرات في صدرها منصة، وفي أغلب الظن أنها في مجمع باب العزيزية. وجلسنا في تلك القاعة ننتظر أكثر من ساعتين الى أن أدركنا الملل والتعب. وأخيراً ظهر القذافي مرتدياً بدلة سافاري فضية اللون كان عندي مثلها في باريس من تصميم فرانشيسكو سمالتو. ويقال إن الملك الحسن الثاني ملك المغرب هو الذي أوصى القذافي باعتماد سمالتو مصمماً لملابسه!

ودخل القذافي الى قاعة المؤتمرات حيث تجمّع الصحافيون من غير إلقاء التحية على أحد، وتقدم رأساً الى المنصة المنصوبة في صدر القاعة وهو متجهم الوجه، وبدأ حديثه من غير مقدمات بلهجة استعلائية تتضمن غمزاً من قناة الصحافة والصحافيين، بل يمكن اعتباره تهديداً مبطناً. وفي حديثه

ذاك ألمح الى أن الثورة في بلد عربي واحد لا تنفع، وأنه لن يمكن استشراف المستقبل العربي إلاّ بعد حرب أهلية شاملة على الصعيد القومي قاطبة. وقال إن استمرار الوضع الراهن على ما هو عليه سوف يؤدي الى تهويد شمال إفريقيا بكامله، فتصبح السيطرة فيه لليهود، وسوف يجري تقسيم دول المشرق كلها. وشدد على القول بأن ما سيقوله سوف يحدث في الواقع، وهو أن الدولة الفلسطينية الموعودة سوف تقوم في الأردن، وأنه سوف يجري طرد الأردنيين والملك الهاشمي أيضاً لإعادتهم الى الحجاز من حيث أتوا، وبالتالي سوف يجري تقسيم المملكة السعودية. وقال إنه أبلغ المسؤولين السعوديين بهذا المخطط. وعندما قال ذلك قفز الى ذهني الحديث السابق ذكره بين الزميل طلال سلمان وسيد قذاف الدم في ردهة الفندق الكبير حول نقل قذاف الدم رسالة من العقيد القذافي الى العاهل السعودي. وكرر القول بأن هذا سوف يحدث كما أعرضه لكم، كما كرر وشدد على عملية تهويد شمال إفريقيا برمته. وبعدما قال ما قال نزل من المنصة وغادر القاعة لا يلوي على أحد ومن غير سؤال أو جواب. وعجبت تالياً أن الصحف التي حضر مندوبوها ذلك اللقاء لم تنشر حرفاً مما قاله القذافي، ولا حتى وكالات الأنباء. ربما لم يأخذه أحد على محمل الجد، وربما صدرت تعليمات خفية بعدم النشر، وربما قصد القذافي أن يقول شيئاً مختلفاً لكنه غيّر رأيه في اللحظة الأخيرة فغطّى الأمر بهذه المسرحية غير المفهومة.

وحدث بعد عودتي الى لندن أن جاء الى العاصمة البريطانية الأمير منصور بن ناصر بن عبد العزيز فدعاني الى العشاء في مطعم فخر الدين، وكان برفقته محاميه اللبناني خليل شهاب. وفي الحديث أبلغت الأمير منصور ما قاله القذافي عن تقسيم السعودية وإعادة الحجاز الى الهاشميين، فأدهشني جوابه أكثر مما أدهشني حديث القذافي حول الموضوع إذ قال لي، كما سجلت في مفكرتي تالياً: «طال عمرك، هذي الأماكن المقدسة إذا لم نعد قادرين على حمايتها وتحمُّل أعبائها، فليأخذها من يأخذها»!

وقتها كان الأمير منصور يفاتحني بشأن إقامة مشروع صحافي تدعمه السعودية، وسألني ما إذا كان لدي مانع من زيارة المملكة، فقلت له إنه ليس لدي مانع، لكن أحداً لم يوجه الي دعوة للقيام بمثل هذه الزيارة، فقال: «لست بحاجة الى دعوة، تأتي ساعة تشاء». ثم طلب مني أن أتقدم بمسودة خطية لتصوري حول هذا المشروع ففعلت ذلك وسلمته المسودة في مبنى «رياض هاوس» الذي تملكه والدته قبالة فندق «رويال لانكستر» المطل على هايد بارك في وسط العاصمة البريطانية وله فيه شقة فسيحة في أعلى المبنى. وعندما خرج لوداعي قال لي إن الأمر يتوقف على موافقة الأمير سلمان (أمير الرياض وولي العهد الحالي). فغاب الأمير منصور وذاك وجه الضيف، كما يقول

اللبنانيون عندما يذهب أحدهم ولا يعود، أو كما يقولون أيضاً «مثل غراب نوح».

•••

في تلك الأثناء بدأ الجو الداخلي في«الحوادث» يتوتر وتسوده البلبلة بسبب انتشار أخبار عن عزم صاحبة المجلة، أمية اللوزي، على تعيين رئيس للتحرير من خارج الجهاز. ولدى الاستفسار تبيَّن أن الشخص المرشح لهذا المنصب هو عبد الكريم أبو النصر، فثارت ثائرة قدامى المحررين الذين عملوا مع سليم اللوزي، لأنهم كانوا يعرفون رأي سليم اللوزي الحقيقي بالمرشح الذي اختارته أرملته من بعده. وبدأت القضية تتفاعل بين المحررين أولاً فوقّعوا عريضة احتجاج واعتراض على المرشح المذكور لرئاسة التحرير، ملمحين الى استقالة جماعية في حال صار التعيين أمراً واقعاً.

ويبدو أن هناك جهات خارجية كانت معنية بالأمر ويهمها إيصال ووضع الشخص المذكور على رأس جهاز التحرير. فقد اتصل بي وبمدير التحرير، ريمون عطالله، النائب والوزير السابق نسيب لحود ومعه إيلي قاعي مسؤول الإعلانات في المجلة لعقد اجتماع معهما من أجل بحث الموضوع، وتم الاتفاق على عقد الاجتماع في بار «غلوستر أوتيل» الواقع في «هارينغتون غاردينز» قبالة مبنى «الحوادث» آنذاك. وتناول الحديث في البداية نسيب لحود شارحاً ضرورة أن يكون هناك رئيس تحرير أصيل للمجلة، عارضاً ما يشبه «الرشوة» على المحررين بقوله إنه مستعد، في حال قبولهم برئيس التحرير المقترح والعودة عن تهديدهم بالاستقالة، ليحصل لهم على ما أسماه «باكيدج» جديد ومتكامل يتضمن زيادات في الرواتب ومنافع وتأمينات أخرى. وثنّى إيلي قاعي على هذا الكلام من منطلق أن تماسك الجهاز وانطلاقته الجديدة سوف يكون لهما مردود إعلاني كبير لمصلحة الجميع. وكان نسيب لحود يحمل في يده السليمة كأساً من الويسكي، فلما أعرب ريمون عطالله عن عدم قناعته بالأمور المطروحة، أو بأسبابها الموجبة، بدا الغضب والاستياء على وجه لحود فشدد قبضته على كأسه حتى انكسرت في يده وتتطايرت شظاياها من حولنا. ومن حسن الحظ أن الكأس المتكسرة لم تصب يده بجراح. وانتهى الاجتماع من غير نتيجة.

وبدأت تسري شائعات وأقاويل حول وجود نيَّة لدى صاحبة المجلة لبيعها، واحد يقول الى رفعت الأسد، وآخر يقول الى العراقيين عن طريق قريبي المحامي الياس الفرزلي بمبلغ 12 مليون دولار، وثالث يقول الى السعوديين عن طريق الأمير سلمان بن عبد العزيز أمير الرياض. ولما اشتد أوار الأزمة وأصبحت الاستقالة الجماعية أمراً محتوماً، وبدأت بعض الصحف في لبنان وخارج لبنان تتناول الموضوع، صار لزاماً على المحررين أن ينقلوا وجهة نظرهم الى وسائل الإعلام. ولمّا كان الحاج أحمد الصالحين الهوني صاحب ورئيس تحرير جريدة «العرب» في لندن من أعز الأصدقاء منذ أن زرته لأول مرة

في مكتبه القديم بمنطقة «بال مال» في أواخر السبعينات، وصرنا نتقابل في مكتبه دورياً ونتناول طعام الغداء أحياناً في مطعم للبحريات يسمّونه «أويستر بار» حيث كنا نتناول المحار وغيره من ثمار البحر، فقد قصدته برفقة الزميل ريمون عطالله في مكتبه الجديد في ضاحية «كينغزتون» على نهر «تايمس» حيث شرحنا له ما يجري معنا في «الحوادث» فرحّب بنا وأخذ ينشر وجهة نظرنا. حتى أن الكاتب في جريدة العرب محمد محفوظ نشر أرجوزة بالمصرية العامية حول الموضوع مطلعها: «شفنا أميّة رايحة وجايّة». وأسوة بجريدة «العرب» راحت مطبوعات أخرى، مثل مجلة «سوراقيا» الصادرة في لندن، تنشر ما تيسر لها من معلومات وتعليقات حول الموضوع، منه الغث ومنه السمين.

وفي خضم تلك البلبلة دعاني مدير عام «دار الصياد» بسام فريحة الى غداء في منزله اللندني، فوجدت عنده مجموعة من اللبنانيين المقيمين في لندن، ومنهم جورج مفرج الذي كان وكيلاً لشركة «روثمان» العالمية للسجائر التي كانت في حينه تملكها عائلة «روبيرت» في جنوب إفريقيا، ومعه محمد مخلوف شقيق السيدة أنيسة زوجة الرئيس حافظ الأسد، فهو خال الرئيس بشار الأسد. ويبدو أن علاقة جورج مفرج مع مخلوف تعود الى كون هذا الأخير له مسؤولية حصر التبغ والتنباك في سوريا كما فهمت، وبالتالي له علاقة مع وكلاء شركات التبغ العالمية. ومن الطبيعي في تجمع من هذا النوع أن يدور حديث في السياسة اللبنانية، فأتى بعضهم على المقارنة بين الشقيقين الرئيسين أمين وبشير الجميل، فوجدت من المناسب أن أسأل مخلوف ما إذا كان صحيحاً ما يزعمه البعض في لبنان من أن للسوريين يداً في اغتيال الرئيس المنتخب بشير الجميل، فقال ببرود: «ولماذا نقتله؟ كنا قادرين على التعايش معه».

فقد ظل موضوع بشير الجميل، كما قلت سابقاً، مثار جدل وتساؤل زمناً طويلاً، وما زال كذلك الى اليوم. ومن هذا القبيل وجهت سؤالي الى السيد مخلوف في منزل بسام فريحة. وكانت الزميلة هدى الحسيني قد روت أنها عندما ذهبت الى منزل والد بشير،الشيخ بيار،للتعزية به بعد اغتياله سألت الشيخ بيار من هم الذين يعتقد بأنهم وراء اغتيال ابنه الرئيس المنتخب، فأجابها «إنهم أربعة أشخاص لا أستطيع أن أسمِّي أياً منهم». وفي أواخر عام 1985 دعاني اثنان من وجهاء الطائفة الأرثوذكسية الإنطاكية في لندن مع الزميل ريمون عطالله الى غداء مع الأسقف غفرائيل الصليبي معتمد الكنيسة الإنطاكية في أوروبا الغربية، وذلك في مطعم فندق «إن أون ذي بارك» (المعروف لاحقاً بفندق «فور سيزونس»). وفي الحديث ورد موضوع بشير الجميل، وما كان سيؤول اليه لبنان لو أنه بقي حياً وتسلّم الحكم، فقال الأسقف غفرائيل الصليبي إن أربعة أجهزة للمخابرات توافقت على التخلص من بشير الجميل، لكنه لم يذكر من هي تلك الأجهزة الأربعة. وأخذت أقلِّب في رأسي قول الشيخ

بيار للزميلة هدى الحسيني أن المسؤولين عن العملية أربعة أشخاص، وقول الأسقف غفرائيل إنهم أربعة أجهزة، ورحت أتأمل كيف أن الشيخ بيار لا يستطيع أن يسمِّي الأشخاص الأربعة، وكيف لا يستطيع الأسقف غفرائيل أن يسمي الأجهزة الأربعة. وخرجت من ذلك بتشكيكي بالروايتين، لأن جريمة من هذا النوع لا يمكن أن تقوم بها سوى جهة واحدة لتعذر توافق أربع جهات أوضمان سرية العملية وسط هذا العدد من الأطراف.

وبعد عشر سنوات من هذا الحديث مع الأسقف غفرائيل الصليبي في لندن، التقيت في روما المحامي المعروف جورج جبر، وكان في مهمة لدى الفاتيكان برفقة ابن العم إيلي الفرزلي الذي استدعاني لأوافيه الى العاصمة الإيطالية. وكان جورج جبر يقدِّم نفسه على أنه رئيس الحزب الديموقراطي المسيحي اللبناني، وقد لاحظت مدى احترام الأحـزاب الديموقراطية المسيحية في أوروبا له وتقديرهم لمواقفه. في ذلك الوقت كان المطران جان ـ لوي طوران يشغل منصب وزير خارجية الفاتيكان، وكان موضوع البحث معه كيفية إقامة علاقة طبيعية ومتوازنة بين المسيحيين في لبنان وبين سوريا صاحبة الوصاية العربية والدولية عليه[2].

وفي تلك الزيارة نشأت بين جورج جبر وبيني علاقة مودة وثقة، خصوصاً بعدما أطلعته على توجهات جريدة «الميزان» التي كنت قد أسستها في لندن قبل سنوات والتي سأتحدث عنها في القسم الأخير من هذا الكتاب. وبعد المهمة الفاتيكانية أخذنا المحامي جبر لمقابلة رئيس الحكومة الإيطالية الأسبق جوليو أندريوتي الذي كان يتحدث بالفرنسية ويتولى الأستاذ جبر الترجمة، وأيضاً لزيارة رئيس الحكومة الإيطالية ووزير الخارجية في حكومات عدة إميليو كولومبو، ثم الى مجلس الشيوخ لمقابلة نائب الرئيس. وبعد خروجنا من مكتب نائب الرئيس ، لاحظنا صورة تغطي كامل الجدار فوق باب الردهة المؤدية الى الخارج تمثل مجلس الشيوخ الروماني القديم وفيها سناتور شاب يمسك بيد شيخ مكفوف ويقوده الى القاعة العامة حيث تعقد الاجتماعات والمناقشات. فقال إيلي الفرزلي تعليقاً على تلك الصورة: «نحن في لبنان عندنا يحدث مثل هذا في المجلس النيابي». فسأل جورج جبر مستغرباً: «كيف ذلك؟» فأجاب إنه عندما يدخل النواب الى القاعة تجد النائب نجاح واكيم يجر النائب مصطفى سعد من يده على هذا النحو ليرشده الى مقعده في القاعة العامة، فترجم الأستاذ جبر ذلك لمضيفنا الإيطالي فعبّر عن دهشته بضحكة مدوّية. وفي ردهة الفندق جلست مع جورج جبر في زاوية منعزلة ندخّن السيجار الكوبي من

(2) أصبح طوران فيما بعد كاردينالاً مسؤولاً عن الحوار بين الأديان. وهو صاحب النظرية القائلة بأن الحوار بين الأديان لا يعني أن الأديان متساوية.

نوع «كوهيبا»[3]. ودار الحديث بيننا عن لبنان، وعن الوضع المسيحي تحديداً، وكيفية تحويله من وطن افتراضي الى وطن حقيقي، فقال إنه من غير الممكن بناء وضع دائم الاستقرار في لبنان من دون التفاهم مع سوريا، لكن الطريقة السورية الراهنة في التعامل مع اللبنانيين لا تنفع بل هي تفاقم المشكلة. ونحن هنا نطلب مساعدة الفاتيكان من أجل دعمنا على صياغة علاقة إيجابية جديدة مع دمشق يستطيع معها لبنان أن يكون سيد نفسه وقراره بصورة محترمة تراعي مصالح سوريا من غير فرض الإرادة السورية عليه كما يجري حالياً. وتناول الحديث، بطبيعة الحال، موضوع بشير الجميل ومشروعه للبنان، فشرح لي الأسباب الموجبة لتأييده ودعمه لبشير الجميل، وهي حيثيات لا تختلف كثيراً عن تلك التي عرضها الآباتي بولس نعمان في كتاب مذكراته (الجزء الأول) السابق ذكره. لكن بعدما أخذ نفساً عميقاً من سيجاره قال لي: «هل تعلم إنني أنا الذي عرّفت بشير الجميل على وليام كايسي؟»[4]

وقال لي إنه عرف وليام كايسي منذ أن كان هذا الأخير يمارس المحاماة في نيويورك، حيث كان مكتبه يمثل شركات كبرى، لكونه هو أيضاً يمثل بعض الشركات الأميركية في لبنان والشرق الأوسط، مثل «يونايتد تكنولوجيز» وغيرها. ومما قاله لي جورج جبر يومها إن مكتبه في بيروت يحتاج سنوياً الى مبلغ مليون ونصف المليون دولار لتغطية نفقاته، وبالتالي فإنه من غير الممكن إدارة مكتب يضم أكثر من 25 محامياً من دون وكالات من شركات عالمية كبرى. وأفهمني أن كلمته عند وليام كايسي المحامي كانت وازنة، وإنه توخى من نسج العلاقة بين بشير الجميل وكايسي تمكين قائد القوات اللبنانية من الوصول الى الحكم وتطبيق رؤيته للبنان، لأنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً من دون دعم دولي قوي.

وقلت لجورج جبر في تلك الجلسة في روما: «إن جريمة اغتيال بشير الجميل

(3) يقال إن السيجار «كوهيبا» لم يكن يباع سابقاً في الأسواق، بل كان يدخنه الرئيس الكوبي فيدل كاسترو فقط ويقدمه هدايا لرؤساء الدول الصديقة لبلاده. لكن عندما أقلع كاسترو عن عادة التدخين، تحول هذا السيجار الى صنف تجاري يباع في كل مكان ما عدا الولايات المتحدة التي تقاطع كوبا، وما زالت، منذ أكثر ستين سنة.

(4) وليام كايسي هو مدير «الاستخبارات المركزية الأميركية» في عهد الرئيس رونالد ريغان، والمؤثر الأول في رسم السياسة الخارجية الأميركية من 1981 حتى وفاته في عام 1987، لكونه مشرفاً على جميع أجهزة المخابرات الأميركية فوق إدارته للاستخبارات المركزية. وهو الذي كان وراء دعم المجاهدين الأفغان ضد الجيوش السوفياتية بالتعاون مع الاستخبارات الباكستانية والسعودية، وعندما استدعي للشهادة أمام الكونغرس عن علاقته أو معرفته بقضية «إيران ـ كونترا» السرية المخالفة للقانون لم يستطع الحضور لأنه كان مريضاً وفاقداً القدرة على النطق. وفي كتابه «القناع» يقول الصحافي الأميركي بوب ودوارد في جريدة «واشنطن بوست» والمشارك في فضح تورط الرئيس نيكسون في فضيحة «ووترغايت»، إنه تمكن من مقابلة كايسي في المستشفى وهو على سرير الموت وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وسأله ما إذا كان على علم بفضيحة «إيران ـ كونترا» فهزّ رأسه هزّة قوية بالإيجاب.

بعد انتخابه وقبل تسلُّمه مقاليد الأمـور، لا تنبىء بدعم أميركي له، بل على العكس من ذلك تنبىء بأن هناك جهة دولية مقرِّرة رفعت الغطاء عنه أو غطّت الجريمة». ثم أخبرته ما قاله الصحافي جوناثان رانـدال مراسـل «واشنطن بوست» في الشرق الأوسـط عندما زارنـا في «الحـوادث» كما ذكـرت سـابقاً وملاحظتي التي أبديتها الى الزميل ريمون عطالله بعد الاجتماع مع راندال، بما يعني أن الأميركيين تخلّوا عنه، أو ربما قاموا بتصفيته بصورة مباشـرة أو بالواسطة.

وفاجأني جورج جبر بأنه لم يعترض على ملاحظتي هذه، بل قال لي كلاماً فاجأني لأنني لم أكن على معرفة سابقة به، ومؤداه أن وزير الدفاع الأميركي في إدارة رونالد ريغان وهو كاسبر واينبرغر جاء الى بيروت خصيصاً بعد انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية اللبنانية من أجل محادثته والاطلاع منه مباشـرة على خطته وتصوراته للمرحلة المقبلة، وأن اجتماع واينبرغر مع بشير الجميل دام ثلاث ساعات، وأن ما قاله الرئيس اللبناني المنتخب، كما يبدو لم يرق لوزير الدفاع الأميركي الذي اختصر فحوى اللقاء بالقول: «نحن إسرائيل واحدة بالكاد نستطيع أن نتحمّلها، فكيف نستطيع أن نتحمل اسرائيلين اثنتين»!

هي، إذن، وصفة للحرب مع سوريا، فلا عجب أن يتصرف الأميركيون مع بشير الجميل كما تصرف قيصر الروم مع امرىء القيس بن حجر، وهو ما أشـرت اليه في «الصياد» في 1982 - 1983 بعد عودتي من القاهرة، كما ورد في السياق. وبعد عودتي من روما الى لندن، أبلغت الزميل ريمون عطالله ما سمعت من جورج جبر حول قضية بشير الجميل، وذكّرته بملاحظتي في «الحوادث» بعد انفضاض الاجتماع مع جوناثان راندال. وهكذا مصير البيادق الصغيرة في لعبة الأمم، ومع ذلك تجده يتكرر مرة بعد مرة ولا أحد يتعظ.

•••

أحدثت المشكلة الداخلية في «الحـوادث» وقتها ضجة أكبر من حجمها الحقيقي، بسبب الاهتمام الإعلامي بها، ولكون تلك المجلة بقيت، على الرغم من غياب صاحبها الأصلي، حالة خاصة في الصحافة العربية المكتوبة، وما ينشر فيها كان له دويٌّ يفوق أحياناً أهمية المنشور بحد ذاته. وإنصافاً لصاحبة المجلة، أو على الأصح وريثتها، يجب القول بأنها لم تكن على دراية بأصول المهنة، فهي زوجة صحافي لكنها ليست صحافية. وبالتالي فإن تخبطها في إدارة المجلة أمر مفهوم، وما كان بوسعها السيطرة إلاّ من خلال اللعب على تناقضات المحررين بالتقريب أو الإغراء أو الإبعاد. وقد أصاب الكاتب محمد محفوظ في جريدة «العرب» كبد الحقيقة بقوله: «شفنا أميّة رايحة وجايّة». ولذلك كان لا بد من حسم مسألة البقاء في «الحوادث» تحت الأمر الواقع، أو مغادرتها والبحث عن بدائل.

ووسط هذه الحالة من التخبط والغموض ذهبت الى باريس في إجازة قصيرة، وخلال وجودي في العاصمة الفرنسية التقيت قريبي المحامي الياس الفرزلي وتغدينا في مطعم قريب من منزله يدعى «لا فيزاندري»، فسألته عن صحة ما قيل عن عزمه على شراء «الحوادث» بمبلغ 12 مليون دولار، فقال لي إنه بالفعل أحضر مبلغ 12 مليون دولار بالاتفاق مع طارق عزيز على أساس شراء مجلة «المستقبل» من صاحبها نبيل خوري الذي كان زميلاً له في الإذاعة اللبنانية أواسط الخمسينات من القرن الماضي. وكنت أعرف إنه من الصعب أن تتم مثل هذه الصفقة مع نبيل خوري لأن مجلته «المستقبل» تقع في دائرة النفوذ السعودي، وقد ثبت ذلك فيما بعد عندما اشتراها منه رفيق الحريري وأغلقها في باريس ليعيد فتحها في بيروت جريدة يومية ناطقة باسم تياره السياسي في لبنان الذي حمل اسمها وحملت اسمه الى اليوم.

ولست أستبعد أن يكون الياس الفرزلي قد فكّر تالياً بشراء «الحوادث» بدلاً من «المستقبل» لكنني أظن أن العراقيين ما كانوا ليوافقوا على ذلك من دون وجود جهازها الأصلي الذي كان هو رأسمالها الحقيقي. وبالتالي اشتراها السعوديون لحساب نقيب المحررين اللبنانيين ملحم كرم الذي ظل يصدرها من لندن حتى وفاته، ثم أقفلها ورثته من غير أن يتقدم أحد لشرائها. وبعد بيع «الحوادث» الى ملحم كرم أبلغني نقيب المهندسين الأسبق غبريال متى المتزوج من إحدى قريباتي السيدة سامية أنيس الفرزلي أنه كان واسطة البيع وخلاله تم دفع المبلغ وقدره تسعة ملايين ونصف المليون جنيه استرليني. وسمعت تالياً، والعهدة على الرواة، أن المبلغ الكلي هو عشرة ملايين، لكن الزوج الثاني للسيدة أميّة وريثة المجلة ويدعى راشد المقدم تقاضى الفارق على سبيل العمولة، لكنني لا أستطيع أن أجزم بذلك.

وبعد أسبوع من اللقاء مع محمد مخلوف في منزل بسام فريحة في لندن، اتصل بي مدير عام «الصيّاد» من جديد فتلاقينا على الغداء في مطعم «هاريز بار» في غرب لندن على مقربة من السفارة المصرية، وهناك أبلغني أنه ينوي إصدار «الصيّاد» من لندن، وأنه اتفق مع الزميل سمير عطالله ليكون رئيساً للتحرير، وطلب مني الانضمام اليها. في ذلك اللقاء رفضت عرضه لأنني كنت ما زلت مرتبطاً مع السيدة أميّة اللوزي، وأحاول ثنيها عن انقطاع نهائي مع جهاز التحرير، لكنه في نهاية اللقاء أصرّ على أن نلتقي سوياً في منزله في اليوم التالي بحضور زوجتي لإقناعها بما لم أكن مقتنعاً به. وبالفعل توجهت وزوجتي مساء اليوم التالي الى منزله في «ليال ستريت» وعقدنا جلسة مصارحة. فقد وجّه الكلام الى زوجتي قائلاً إنه لا يستطيع أن يتصوّر أنني يمكن أن أفضِّل أحداً على «دار الصياد»، لأنني «ابن تلك الدار»، بدأت فيها ويبقى رباطي سارياً معها حتى لو تركتها، ثم ذكّرها بزمالتنا معاً في الجامعة الاميركية، وبالصداقة

التي بيننا قبل أن يصبح أيٌّ منا عضواً عاملاً في الدار.

وقلت بدوري: «إن هذا الكلام صحيح في الأساس لكن تجربة بيروت تجعلني أتردد، لأنني عندما فاتحتني بالعودة الى بيروت قبلت العرض من دون قيد أو شرط، فتركت عائلتي في لندن ولم أسأل حتى عن تجديد إقامتي في بريطانيا، وأخذتُ كلامك ووعودك المعسولة بنيّة طيِّبة وصادقة».

فرد عليّ قائلاً: «لقد ضحكت عليك».

فقلت له حانقاً: «كيف تزعم أنك أخي وزميلي وصديقي وتضحك علي».

فقال: «بين كلامنا في مونتي كارلو في السنة السابقة وعودتك الى بيروت تغيّرت الظروف وتخربطت الحسابات» (ربما كان يشير هنا الى مقتل بشير الجميل وما تلاه من مجازر في صبرا وشاتيلا وحرب الجبل). ثم قال موجهاً الكلام لزوجتي: «إننا الآن في لندن ونريد أن نفتح صفحة جديدة»، ملمحاً لها أن انتقال المجلة الى لندن كان من أجلي!

ووجدت أن زوجتي مالت الى الفكرة وكانت أكثر وثوقاً بصداقتنا مع بيت فريحة، فقررت أن أجاريها لكن مع الامتحان، فقلت لبسام فريحة إنني أقبل عرضه شرط أن يضم كامل جهاز «الحوادث» السابق الى مجلة «الصياد» فوافق بغير تردد. وهكذا انضم معي الى «الصياد» كل من الزملاء ريمون عطالله، وهدى الحسيني، ومحمد عبد المولى، ووفائي دياب، وقصي صالح الدرويش مطلع عام 1984.

بدأنا العمل في «الصياد» في مكتب مفروش بمنطقة فيكتوريا بالقرب من القصر الملكي (باكينغهام) قبل انتقالنا الى مكتب شبه دائم ما لبث أن تغيّر عدة مرات قبل وبعد تركي للمجلة. وقد صارحني الزميل سمير عطالله، رئيس التحرير، بأنه تفاجأ بضم كامل الجهاز السابق لمجلة «الحوادث» الى «الصياد»، وأنه كان على علم فقط بانضمامي وحدي اليها. ولذلك لم تكن علاقة العمل مع رئيس التحرير سهلة، وكنت أتفهم موقفه من خلال تجاربي السابقة في «دار الصياد». ومع ذلك فقد انطلقت «الصياد» من أعدادها الأولى انطلاقة باهرة فاجأت الدوائر الإعلامية العربية والأجنبية. فالتحقيق الذي أجريته حول اختفاء الطائرة الخاصة لرجل الأعمال اللبناني علاء الدين البحري وهي في الأجواء المصرية وعلى متنها صاحبها وسكرتيرته البريطانية، وذلك استناداً الى معلومات من شريكه السابق بهاء الدين بساتني، أثار اهتمام الدوائر البريطانية والعالمية التي كانت مهتمة بالموضوع أصلاً كما يبدو، فظهر غلاف مجلة «الصياد» عن موضوع البحري على شاشات التلفزة حول العالم من اليابان الى أميركا، واهتمت «هيئة الإذاعة البريطانية» BBC بقسميها العربي والانكليزي، بالموضوع لكونه يتعلق أيضاً باختفاء مواطنة بريطانية، فاتصلوا بي وأخذوا مني حديثاً عن الموضوع فركزت في حديثي المذكور على ما فهمته من بهاء

البساتني من أن مسألة الاختفاء تمنع حصر إرث المختفي ما لم تثبت وفاته أو يمر زمن محدد على اختفائه فيُعتبر بعده بحكم المتوفي ليصبح من حق ورثته اقتسام تركته[5].

بعد ذلك دعاني بسام فريحة الى لقاء مع المسؤول المصري السابق في عهد الرئيس أنور السادات أشرف مروان الذي لم أكن أعرفه من قبل لكنني كنت أعرف أنه صهر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وأن السادات أسند اليه وظيفة استعلامية حساسة. وفي ذلك اللقاء التعارفي تم التفاهم على لقاء آخر بيني وبين أشرف مروان لوحدنا بهدف أن أقوم بإعداد تحقيق أو بروفيل عن أشرف مروان ومرحلة السادات. وبالفعل تم اللقاء المذكور على غداء في فندق «ريتز» المعروف في منطقة بيكاديللي، فأخبرني كيف طلب السادات منه أن يكون صلة الوصل بينه وبين وكالة المخابرات المركزية الأميركية CIA وكيف طلب من الرئيس السادات أن يصدر له قراراً رسمياً وعلنياً بذلك تحسباً لقيام حملة ضده في بعض الأوساط المصرية اليسارية تتهمه بأنه عميل للمخابرات الأميركية، وقال لي إن الرئيس المصري استجاب لطلبه وأصدر له القرار المطلوب. ثم أبلغني أنه بحكم عمله هذا التقى مدير المخابرات السعودية آنذاك كمال أدهم الذي كان ينسق في الوقت ذاته العلاقة السعودية مع المخابرات المركزية الأميركية ونشأت بينهما علاقة صداقة. وعندما سألته عن طبيعة العلاقة التالية بينه وبين كمال أدهم اعترف لي بأن أدهم هو الذي فتح له طريق الدخول في عالم المال قائلاً: «إن أول مليون جنيه دخلت الى حسابي كانت من كمال أدهم».

ومما قاله لي أشرف مروان وقتها إن الرئيس جمال عبد الناصر كان شديد

---

(5) كان علاء الدين البحري يوم 11 آب/أغسطس 1979 متوجهاً بطائرته الخاصة من طراز «لير جيت» من العاصمة اليونانية أثينا الى مدينة جدة في المملكة العربية السعودية، لكن قبل عبورها من مصر الى السعودية اختفى أثرها ولم يعثر على حطامها في الصحراء المصرية إلاّ بعد ثماني سنوات. لكن بعد سنتين فقط من اختفاء الطائرة أقامت ابنته ميادة بحري حلواني دعوى قضائية في محكمة بنيويورك لإثبات الموت خطأً ضد الشركة الأميركية الصانعة للطائرة، فردّت المحكمة الدعوى بالشكل لعدم الاختصاص. لكن السيدة حلواني أعادت الكرّة بعد مضي أكثر من عشر سنوات على الدعوى الأولى، وتحديداً في شهر تموز/يوليو من عام 1992، إنما في محكمة أميركية أخرى في ولاية تكساس، وقررت تلك المحكمة أيضاً رد الدعوى لعدم الاختصاص. ومنذ ذلك الوقت لم أعد أتابع القضية ولا أدري ماذا حل بها. ففي التحقيق الذي نشرناه في «الصياد» وقتها حاولنا أن نجد سنداً لبعض المعلومات القائلة بأن الطائرة أسقطت بصاروخ أرض ـ جو انطلق من قاعدة للجيش المصري، لكن ذلك تعذّر لإن الجهات الوحيدة القادرة على التأكيد أو النفي هي جهات أميركية أو إسرائيلية لكون راداراتها تغطي تلك المنطقة. وقد قيل في تلك الفرضية بأن الصاروخ المصري انطلق بسبب خطأ تقني، وقيل أيضاً إن خلافاً سابقاً قد جرى بين البحري وقائد في الجيش المصري على عائدات صفقة سلاح فانتقم منه. أما بهاء الدين بساتني، الشريك السابق لعلاء البحري، فقد تعرفت عليه لأول مرة في لندن عندما كنت أعد التحقيق المشار اليه، لكنني كنت أعرف والده من أيام بيروت عندما كانت لديه مطاحن ويعمل في تجارة الطحين وكان عم زوجتي المحامي والنائب السابق أديب الفرزلي وكيلاً قانونياً له.

التقتير مالياً الى درجة أنه عندما جاء الى لندن لقضاء شهر العسل مع زوجته منى الإبنة الصغرى للرئيس عبد الناصر وجد أن والد زوجته أوصى السفارة المصرية في العاصمة البريطانية بأن تصرف لهما مبلغ خمس جنيهات استرلينية فقط لا غير في اليوم، غامزاً من أنه لا يمكن أن يكون هناك «عسل» بمثل هذا المصروف الزهيد. ويبدو لي أن هذا التقتير الناصري هو الذي فتح شهية أشرف مروان على المال في عهد السادات الذي يبدو أنه اكتشف فيه هذه الشهوة فعيّنه رئيساً لهيئة التصنيع الحربي التي مولتها بعض الدول الخليجية بمئات الملايين من الدولارات، فكان عالم السلاح ملعباً آخر له[6]. وعندما عكفت على كتابة التحقيق لمجلة «الصياد» وسط كم هائل من المعلومات الحساسة، أغلبها من أشرف مروان بلسانه مباشرة، طرحت السؤال التالي: «من هو أشرف مروان؟». ويبدو أن هذا السؤال طرحه كثيرون منذ أن تقدم مروان الى طلب يد ابنة عبد الناصر زوجة له، وهو سؤال، في تقديري، ما زال قائماً بعد موته الغامض بالسقوط من شرفة منزله في لندن قبل سنوات، وبعد تسريبات إسرائيلية بأن أشرف مروان كان يزود المخابرات الإسرائيلية (الموساد) بالمعلومات ومنها معلومات حول الاستعدادات المصرية للحرب قبل العبور المصري الى سيناء في حرب أكتوبر من عام 1973. وربما كانت عملية سقوطه من الشرفة الى حتفه يوم 27 حزيران/يونيو 2007 تشبه ما كان يسميه الأوروبيون بعد القرون الوسطى fenestration أي التخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم بإلقائهم من نافذة عالية. لكنني شخصياً أشك في الرواية القائلة بأن أشرف مروان كان مجنداً لدى جهاز إسرائيلي، وإن كنت لا أستبعد التقاءه ببعض الإسرائيليين بحكم أعماله المالية في البورصات العالمية[7]. وقد أجبت عن ذلك السؤال بقول المرحوم سعيد فريحة عندما طرح عليه هذا السؤال بعد زواج أشرف مروان من منى عبد الناصر: «لا تسل من هو أشرف مروان. يكفي أنه تسلل الى بيت عبد الناصر واستولى على قلب ابنته»!

لكن التحقيق الذي نشرته يومئذ لم يعجب أشرف مروان وأبلغني انزعاجه منه، وخصوصاً الجواب عن السؤال المذكور، وعلى وجه التحديد كلمة «تسلل» فيه. وقد لامني لأنني لم أعرض عليه التحقيق قبل نشره، فقلت له إنني لا

(6) تم تأسيس هيئة التصنيع الحربي عام 1974 بعد سنة على حرب تشرين الأول/أكتوبر بالشراكة بين مصر والمملكة السعودية ودولة قطر والإمارات العربية المتحدة. وتم تعيين أشرف مروان عضواً في مجلس إدارتها باعتبار أنه يملك خبرة في هذا المجال لأن أول وظيفة شغلها بعد تخرجه من الجامعة عام 1965 كانت في المعامل العسكرية للقوات المسلحة، ثم أصبح رئيساً لها في السنة التالية. لكن الهيئة حُلّت عندما انسحب منها الخليجيون بعد المقاطعة العربية لمصر إثر توقيع السادات لمعاهدة كامب دايفيد مع إسرائيل عام 1979.

(7) جاء في بعض الروايات أن الرئيس عبد الناصر نفسه كلّف صهره أشرف مروان بحضور أنور السادات عام 1969 بالاتصال بالإسرائيليين في لندن وتزويدهم بمعلومات صحيحة بغية تضليلهم في نهاية المطاف.

أعمل بهذه الطريقة، وإنني في حياتي المهنية كلها لم أعرض ما أكتبه على أحد ليتصرف به على هواه، حتى عندما كنت مسؤولاً عن صحف ناطقة باسم حزب البعث العربي الاشتراكي، حيث كنا نلامس كل يوم تقريباً مواضيع حساسة أو مثيرة للجدل كما ورد في سياق الفصول السابقة ذات الصلة.

وفي العام التالي، 1985، شهدت الساحة الإعلامية البريطانية معركة مالية ضخمة بين المتمول المصري محمد الفايد وغريمه البريطاني الألماني الأصل تايني رولاند صاحب شركة «لونرو» في ذلك الوقت بشأن السيطرة على شركة «هاوس أوف فريزر» المالكة لمحلات هارودز المشهورة في منطقة نايتسبريدج وسط العاصمة البريطانية. ذلك أن رولاند كان يملك نسبة 29% من أسهم الشركة وحاول أن يشتري الشركة بدوره مدعوماً من أشرف مروان الذي كان أيضاً يملك كمية من الأسهم فيها. ودخلنا على الخط في تلك المعمعة بتحقيق واف أعددته بعنوان «دبابات المال تزحف على نايتسبريدج»، فأبدى محمد الفايد إعجابه بذلك التحقيق وطلب مقابلتي عن طريق صديق مشترك هو الديبلوماسي الفلسطيني نبيل حجازي، فذهبت لمقابلته في منزله وكان حاضراً شقيقه علي الذي أرسل لي تالياً صندوقين من السيجار الفاخر[8]. وخلال الحديث عن تلك المعركة المالية التي كانت لها ذيول أخرى فيما بعد، شن محمد الفايد هجوماً عنيفاً على أشرف مروان وأنزل به شتّى النعوت والصفات القبيحة، لكنني فوجئت فعلاً بأن الفايد أبدى شماتة ملحوظة بمرض قال لي إن أشرف مروان يعاني منه في رأسه وهو يذهب للعلاج الى الولايات المتحدة. وقد أزعجتني تلك الشماتة وحاولت أن أحرف الحديث عن الأمور الشخصية.

وبعد مدة من الزمن التقيت أشرف مروان فدعاني الى الغداء في فندق «ريتز» وتحدثنا عن الفايد، لكنني لم أخبره بما قاله عنه، بل سعيت الى إقناعه بأنه لا يجوز نشر غسيل أبناء البلد الواحد على الملأ ملمحاً الى استعدادي لترتيب لقاء مصالحة بينهما، مما دفع بأشرف مروان الى كشف أمور أخرى تتعلق بالفايد لا علاقة لها بالصراع مع تايني رولاند على هارودز. فقد قال لي إنه قدّم الى الفايد رجل أعمال ألماني يدعى هيرشمان الذي اتفق معه على صفقة معينة في الشرق الأقصى أتت أكلها وكان النصيب المتفق عليه منها للألماني هيرشمان مبلغ 34 مليون دولار، لكن الفايد تمنّع عن الدفع فأحرج أشرف مروان أمام رجل الأعمال الألماني الذي عاد اليه مطالباً بالمبلغ بصفته صلة الوصل بين الرجلين. بعد ذلك صرفت النظر عن محاولة التقريب، وأصبحت علاقتي مع أشرف مروان ومحمد الفايد علاقة مجاملة ومن بعيد لبعيد في مناسبات قليلة.

ومن الأشياء الملفتة في تلك الحقبة ما بدأ يرشح عن صفقة تحت الطاولة بين

(8) وجدت أحد الصندوقين مفتوحاً وناقصاً قليلاً، فتمازحت مع الزميل ريمون عطالله بأن هناك لصاً في بيت الفايد يمد يده الى أشيائهم واتفقنا على كتابة مقال شبه ساخر حول الموضوع بعنوان «حرامي في بيت الفايد».

الولايات المتحدة وإدارة الإمام الخميني في إيران لتزويد الإيرانيين بالسلاح لحاجتهم الملحة اليه في الحرب مع العراق، وعن علاقة بعض تجار السلاح المعروفين في العالم العربي مثل السعودي عدنان خاشقجي بالأمر، وهي الصفقة التي أطلق عليها اسم «إيران غايت» لأنها انطوت على خرق للقوانين الأميركية من قبل إدارة الرئيس رونالد ريغان الذي كان قد أوفد مستشاره للأمن القومي روبرت مكفارلين الى طهران حاملاً هدية من الرئيس الأميركي الى الإمام الخميني هي عبارة عن نسخة من «الكتاب المقدس» موقعة من ريغان شخصياً. وقبل اتضاح الأدوار والمهمات في تلك العملية التي نتج عنها تالياً تزويد إيران ببعض الأسلحة المطلوبة عن طريق إسرائيل، جاءني بسام فريحة مدير عام دار الصياد ببعض الأوراق المكتوبة بخط اليد فيها تشطيبات وتعديلات وقال لي إنها مسوّدة رسالة من عدنان خاشقجي بخط يده موجهة الى الرئيس العراقي صدام حسين ونريد أن ننشرها في «الصياد»، وطلب مني العمل على صياغتها بشكل جيد ولائق، ففعلت وتم نشرها بالفعل، لكن المؤسف أنني لم أحتفظ بالأوراق الأصلية المكتوبة بخط اليد، ولا أدري ماذا حل بها، لكنها منشورة في «الصياد» على أي حال لمن يهمه الاطلاع عليها.

ويبدو لي الآن أن خاشقجي حاول في تلك الرسالة أن يخفف من وطأة القضية على العلاقات السعودية ـ العراقية خشية أن يشتبه العراقيون بتواطؤ سعودي ضدهم في الحرب مع إيران بعد دعمهم القوي لهم في البداية الى درجة أن الإيرانيين اعتبروهم شركاء في الحرب ضدهم. والواقع أن الاشتباه العراقي بالدور السعودي كان له ما يبرره في حينه، خصوصاً لناحية ما كان يقوم به عدنان خاشقجي بموافقة الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع السعودي آنذاك، وربما بموافقة الملك فهد أيضاً، من اتصالات مع القادة الإسرائيليين عن طريق تجار السلاح وفي طليعتهم يعقوب نيمرودي الذي عرف العراقيون أن خاشقجي زاره في تل أبيب في وقت من الأوقات. وقد أبلغني مسؤول عراقي رفيع في ذلك الوقت أن خاشقجي حمل الى الإسرائيليين مسوّدة ما سمي في حينه «مبادرة فهد» قبل اعتلاء فهد العرش السعودي، وهي الورقة التي تقدم بها ولي العهد السعودي آنذاك الى قمة فاس العربية التي أقرتها في دورتها الثانية، كما مرّ. ومما قاله المسؤول العراقي وقتها إن العرض السعودي على الإسرائيليين تضمن حلاً لمشكلة القدس يقضي برفع العلم السعودي فوق المسجد الأقصى لتجاوز إشكالية السيادة على الأماكن المقدسة في المدينة، لكن الإسرائيليين رفضوا هذا العرض.

ويبدو أن تجار السلاح الإيرانيين (غوربانيفار وسيروس هاشمي) وتجار السلاح الإسرائيليين (نيمرودي وشويمر) وتاجر السلاح السعودي عدنان خاشقجي اصطدموا برفض إيران قبول أسلحة إسرائيلية الصنع، حيث أصرّ

الإيرانيون على تلقي أسلحة أميركية، لكن ذلك كان متعذراً لمخالفته القوانين الأميركية. ولذلك راح تجار السلاح هؤلاء يعملون قصارى جهدهم لإقناع واشنطن بتغطية العملية بالمواربة، وهناك ما يدل على أن عدنان خاشقجي لعب دوراً بارزاً في إقناع مستشار الأمن القومي روبرت مكفرلين باغتنام الفرصة لفتح قنوات اتصال مع الإيرانيين استعداداً لمرحلة ما بعد الخميني، كما لعب التجار الإيرانيون دوراً في إغراء الأميركيين بالإفراج عن الرهائن الأجانب، وبينهم أميركيون، كانوا محتجزين في لبنان لدى حزب الله. وفي أواخر التسعينات من القرن الماضي التقيت الرئيس اللبناني السابق الشيخ أمين الجميل على عشاء في أحد فنادق لندن مع الزميل ريمون عطالله والزميلة هدى الحسيني، وخلال الأحاديث عن تلك المرحلة قال الرئيس الجميل نقلاً عن مسؤول أميركي كبير إن الأسلحة التي تم توريدها الى إيران في منتصف الثمانينات كانت بالفعل أميركية الصنع مخزنة في إسرائيل، وأنه تم نقل تلك الأسلحة من إسرائيل الى قاعدة جوية للحلف الأطلسي في البرتغال ومن هناك أعيد نقلها الى إيران. ولهذا أقول بالرجعة الى الوراء إن رسالة خاشقجي الى صدام حسين المنشورة في «الصياد» كان لها ما يبررها لأن انعكاسات ما جرى في حينه كانت خطيرة جداً وما زالت ذيولها قائمة الى الآن، من الاحتلال الإيراني لشبه جزيرة الفاو الى الاحتلال الأميركي للعراق مروراً بحرب الكويت وتدمير الأميركيين لوحدات الجيش العراقي المنسحبة من الكويت بغير مبرر عسكري بما يرقى الى جرائم الحرب. وما يدل على التعقيدات المتشابكة التي شملت الأميركيين والإيرانيين والإسرائيليين والسعوديين، أن الصفقة المذكورة تعدت قضية بيع الأسلحة الى إيران لتشمل عملية تهريب يهود الفلاشا من إثيوبيا الى إسرائيل عبر السودان بموافقة الرئيس السوداني آنذاك جعفر نميري الذي يبدو أنه كان على علاقة خاصة مع خاشقجي.

وبدورهم لجأ العراقيون الى أساليب مماثلة للحصول على أسلحة متطورة ومتفوقة، من بينها أسلحة وطيارون من «إسرائيل الإفريقية»، أي دولة جنوب إفريقيا العنصرية البيضاء. فقد لجأوا الى فرنسا لتأجيرهم طائرات من طراز «سوبر إيتيندار» البعيدة المدى واستعاروا لها طيارين مدربين عليها من دولة جنوب إفريقيا الى جانب مدافع ثقيلة جديدة من صنعها. وعندما بدأت تلك الطائرات الفرنسية المتميزة تحلق في الأجواء أصبحت للعراق سيطرة واضحة على كامل مياه الخليج، فأجرينا تحقيقاً نشرناه على غلاف «الصياد» في حينه بعنوان «حرب الخليج تخرج الى البحر». ويبدو أن صفقات السلاح العراقية مع دولة جنوب إفريقيا العنصرية في حينه كانت كبيرة وبمبالغ تصل الى المليارات من الدولارات. وقد قرأت تالياً في إحدى الصحف الأجنبية أن وسيطاً عربياً يدعى محمد صفوري طالب بعمولات لم تدفع له لقاء تلك الصفقات بمبلغ

479 مليون دولار، ولا أدري ما هو نصيب هذا الخبر من الصحة[9].

كانت تلك المرحلة قبيل منتصف الثمانينات حافلة بأشياء كانت مفتحة للأعين، حتى بالنسبة الى صحافي مثلي مخضرم وله تجربة واسعة وعميقة. ففي أحد الأيـام من عام 1984، وكـان يعمل معنا في «الصياد» الزميل غابي طبراني الـذي كانت له علاقات غامضة مع جهات نافذة في أميركا والبلاد العربية، وكان روبرت مكفرلين مستشار الأمن القومي للرئيس رونالد ريغان يتردد عليه في لندن ويستضيفه في منزله، دعاني غابي والزميل ريمون عطالله الى غـداء في مطعم قريب من مكاتب المجلة في «ريجنت ستريت» بمنطقة بيكاديللي مع الدكتور وديع حداد مستشار الأمن القومي للرئيس أمين الجميل، وكان يومها قد ترك منصبه في بيروت وعاد الى عمله السابق في معهد بروكينغز المشهور بكونه أحد أنفذ مراكز الأبحاث والدراسات الاستراتيجية في الولايات المتحدة. وفي ذلك الوقت كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية في منتصفها تماماً، والدعاية الإعلامية العربية والعراقية السائدة هي أنها حرب بين العرب والعجم، فإذا بوديع حداد في تلك الجلسة يتحدث عن الموضوع في إطار الصراع السنِّي ـ الشيعي في المنطقة. ومما أفادنا به يومها أن مراكز الرأي والقرار في الولايات المتحدة تبحث وتناقش مسألة حساسة من هذه الناحية جواباً عن سؤال محدد هو: أي الفريقين أنسب للسلام في الشرق الأوسط ولمصالح الولايات المتحدة، السنّة أم الشيعة؟ فسألته: ما هو الجواب النهائي عن هذا السؤال؟ فقال إن النقاش لم يحسم بعد، وكل فريق ما زال يقدم تصوراته وحيثياته التي تدعم خياره من وجهات نظر مختلفة.

والحقيقة أنني في تلك الجلسة اليتيمة أخذت انطباعاً جيداً عن وديع حداد من حيث طريقته في التعبير والتفكير ومن حيث شخصه كإنسان. وأقول الحق إنه عندما عيّنه الرئيس أمين الجميل في منصب مستحدث في القصر الجمهوري لم يكن له وجود لا من قبل ولا من بعد، أثار ذلك استغرابي، لا سيما أنني مثل جميع اللبنانيين تقريباً، سوى قلة قليلة منهم، لم أكن قد سمعت باسم هذا الرجل من قبل، مما جعلني أفترض في حينه أن هناك سبباً جوهرياً لتعيينه في ذلك المنصب على الرغم من وجود شخصيات سياسية وأكاديمية عديدة في الفلك الكتائبي تصلح لهذا المنصب. وخلال لقاءاتي العديدة مع الرئيس أمين الجميل في أوروبا، وهو المعروف بأنه يكثر من الكلام طالعاً ونازلاً، لاحظت أن هناك أموراً يلتزم حيالها بصمت مطبق ولا يتحدث عنها، ومنها مثلاً أحاديثه الحقيقية مع الرئيس السوري حافظ الأسد الذي التقاه أكثر من عشر مرات كان آخرها في اليوم الأخير قبل انتهاء ولايته الدستورية. ومنها أيضاً ما يتعلق

(9) عندما كنت على مقاعد المدرسة الإنجيلية الوطنية في عين المريسة في مطالع الخمسينات من القرن الماضي كان فيها أيضاً طالب فلسطيني عالي الكفاءة والأداء الأكاديمي يدعى محمد صفوري، ولا أعرف ما إذا كان هو الشخص ذاته الوارد اسمه في الخبر المذكور.

بوديع حداد بمعنى من قدمه اليه ونصحه به، وما هي الاعتبارات التي أملت عليه استحداث منصب مستشار الأمن القومي، ولأي غاية، وهل نجح أم أخفق في مهمته، وهل كان هو راضياً عن أدائه أم تصادم معه، وما الى ذلك من أسئلة لا يتطرق اليها الرئيس الجميل حتى في جلساته الخاصة. وآمل أن يكتب الرئيس الجميل عن هذه الأمور الحساسة بصدق إذا كان يفكر بكتابة مذكراته يوماً.

وغاب اسم وديع حداد عني لمدة عشرين سنة تقريباً الى أن قادتني المصادفات الى سهرة ذكرتها سابقاً على سطيحة الصديق العزيز جان عبيد في بلدة بلونة الكسروانية في صيف عام 2002 وكان حاضراً فيها فؤاد السنيورة وزير المالية آنذاك، ورياض سلامة الحاكم الأبدي لمصرف لبنان، وأصدقاء آخرين لجان عبيد منهم حنا أيوب ومحمد الصباغ وعبد العزيز شخاشير، فطرح حنا أيوب موضوعاً عن ترشيح وديع حداد لرئاسة الجامعة اللبنانية ـ الأميركية، وكان واضحاً أنه شديد الحماس لهذه الفكرة، فرد عليه السنيورة بتحفظ خبيث مؤداه أن هذا التعيين غير ممكن لأنه يكفي أن تنشر عنه أي صحيفة خبراً يلقي شبهات عليه حتى يتعذر ذلك. ويبدو أن الحاضرين لم يفهموا ما قصده السنيورة بقوله هذا، فقلت للحاضرين إنه يقصد أن وديع حداد أميركي التوجه وربما أكثر. فقال السنيورة نعم يكفي أن ينزل خبر في الجرائد عن علاقته مع وكالة الاستخبارات المركزية وما الى ذلك. وقد شعرت من هذا التوضيح بأن السنيورة نفسه قد يلجأ الى تسريب كهذا الى الصحافة في حال كان ترشيح وديع حداد للمنصب المذكور جدياً!

وفي تلك المرحلة من مطلع الثمانينات، وكان اسم السيدة مارغريت ثاتشر رئيسة الحكومة البريطانية يملأ الدنيا ويشغل الناس، تلقيت ذات يوم بطاقة دعوة من بول شانون ،وزير التجارة في حكومة ثاتشر، الى حفلة كوكتيل على شرف عبد الله يعقوب بشارة ،أمين عام «مجلس دول التعاون الخليجي» يومئذ، في مبنى الأميرالية على المدخل الشمالي للقصور الملكية. وقد فوجئت بتلك الدعوة فعلاً لكنني ظننت أنها دعوة عامة الى الصحافيين العرب في لندن. وعندما دخلت الى القاعة وجدت عدداً محدوداً من الناس لم يكن بينهم واحد أعرفه، بل لم يكن هناك عربي واحد باستثناء الصديق الراحل عبد الكريم المدرس ،أمين عام «غرفة التجارة العربية - البريطانية» وقتذاك، مما جعلني أفترض أنه هو الذي اقترح دعوتي، وباستثناء الضيف الخليجي المحتفى به الذي لم أكن أعرفه شخصياً. وبعد السلام على الوزير شانون وضيفه والتحدث قليلاً مع عبد الكريم المدرس، انتحيت جانباً لأن ذلك الجو كان غريباً عني، فتقدم مني رجل مسن قدم نفسه بأنه «مستر باسيت» وأنه في الإدارة العليا لشركة الغاز البريطانية. وكان المستر باسيت رجلاً لطيفاً سريع الطلقات، أي أنه أطلق العنان للسانه بدون توقف، فقال لي إنه بدأ حياته من شبابه الأول

موظفاً في شركة الغاز، وإنه ترقى في صفوفها على مر السنين حتى صار في أعلى قيادتها. ثم أبلغني إنه عمل عام 1933 في مد شبكة توزيع الغاز على البيوت في العاصمة المصرية القاهرة، وقال بلهجة من الزهو: هل تتصور ماذا يعني مد شبكة لتوزيع الغاز في مدينة مثل القاهرة في مطلع الثلاثينات قبل نصف قرن؟ فكأنه يقدم أطروحة عن حسنات الاستعمار البريطاني القديم، أو كأنه يتعجب كيف أنه لا توجد اليوم مثل هذه الشبكات في بلاد تعوم على الغاز وتصدره الى إسرائيل!

حاولت تغيير الحديث عن الغاز الى السياسة ابتداءً من أهمية الحالة الانتقالية التي تقودها السيدة ثاتشر لاستمزاج رأي الصناعات البريطانية في هذا التحول، فقاطعني ومد إصبع سبابته باتجاه الحاضرين في القاعة وأخذ يشير لي بها اليهم قائلاً: هذا رئيس شركة البترول البريطانية، وذاك رئيس شركة «بريتيش إيروسبايس» لصنع الطائرات الحربية، والآخر هو رئيس شركة «رولس رويس» لمحركات الطيران، وهذا كذا وذاك كيت الى آخره. ولما فرغ من التعداد ضغط على يدي وقال وهو يهز رأسه بالتوكيد: «هؤلاء هم الحكومة الحقيقية في هذه البلاد»!

لكن بعد اشهر قليلة أخذ الوهن يدب في جهاز التحرير بسبب ضغوط إدارية على المحررين، فخرج منهم تباعاً الزملاء وفائي دياب، وهدى الحسيني، ورئيس التحرير سمير عطالله، وتكرر سيناريو «الحوادث» تقريباً حيث بقي الجهاز المتناقص بعهدة محمد عبد المولى، فلم يطل بي المقام هناك إذ تقدمت باستقالتي ابتداءً من أواخر شهر تموز/يوليو 1987، فلم يبقَ فيها من الجهاز الأصلي، بالإضافة الى عبد المولى، سوى الزميل ريمون عطالله الذي بقي في «الصياد» من بعدي لمدة عشر سنوات تقريباً فاستقال من العمل فيها في ايار/مايو عام 1996، بعد خلاف مهني مع بسام فريحة، ليصدر ويرأس تحرير تقرير «الديبلوماسي» الاخباري الذي يعنى بقضايا الشرق الاوسط ، وما زال الى اليوم يصدره من لندن. وبعد ذلك عادت «الصياد» أدراجها الى بيروت لتغط في نوم عميق.

وفي تلك المرحلة من الثمانينات كان سفير لبنان في لندن اللواء أحمد الحاج الذي تميّز عن السفراء الذين سبقوه والذين جاءوا بعده في أمور عديدة أولها الإطار الفكري الذي كان يعمل من خلاله في الدفاع عن القضية اللبنانية سواء بحضوره الندوات السياسية والثقافية، أو بظهوره المستمر على شاشات التلفزة البريطانية لهذه الغاية، أو بتفضيله صحبة المثقفين اللبنانيين على صحبة أغنيائهم كما فعل آخرون. ومما لا شك فيه أن أحمد الحاج الديبلوماسي تفوّق على أحمد الحاج العسكري الشهابي المؤمن بالدولة اللبنانية القادرة. ولذلك كانت لي مع السفير الحاج علاقة ود واحترام وتشاور وتقدير، على

الرغم من أنني لم أكن أعرفه شخصياً أثناء وجودنا في لبنان. وهذا لا يعني أنني لم أكن على علاقة جيدة مع السفراء الآخرين، ومنهم على وجه الخصوص محمود حمود الذي شغل منصب وزير الخارجية بعد عودته الى بيروت في أواخر التسعينات، وكذلك الصديق القديم والبقاعي العريق جهاد مرتضى الذي تعرفت عليه في العاصمة النمساوية فيينا عندما كان ما زال متدرجاً في السلك الديبلوماسي، حيث كنت في زيارة الى السفير اللبناني آنذاك عبَّاس حميّة على هامش حضوري لمؤتمر مهم لمنظمة «أوبيك» عقد في قصر «شون برون» المشهور من أجل تغطية المؤتمر لمجلة «الحوادث» في عام 1981، وكالعادة كان وزير البترول السعودي أحمد زكي يماني هو نجم المؤتمر. وفي تلك الرحلة أخذني نهاد مرتضى بجولة بسيارته في المدينة وضواحيها ودلني على آخر معمل للطرابيش النمساوية وقال لي إن معمل الطرابيش هذا أغلق أبوابه في عام 1960 لأن عادة لبس الطرابيش قد بطلت. وقبل تعرفي عليه في فيينا، وتجدد العلاقة في لندن عندما تعين فيها سفيراً، كنت أعرف عائلته وزرتهم مرة في بعلبك، ذلك أن شقيقه نهاد مرتضى كان خلال الستينات قاضياً في جب جنين وتوطدت علاقتنا معه، كما أنني أعرف خاله المرحوم السيد شريف الحسيني الذي كان في زمانه من أبرز قضاة لبنان. لكن عندما جاء جهاد مرتضى الى لندن سفيراً كان على وشك التقاعد، وربما لذلك كان تأثيره محدوداً على الرغم من كفاءته الديبلوماسية العالية.

وكانت القوى السياسية اللبنانية الناشطة في الخارج تعمل خارج نطاق البعثات الديبلوماسية، وفي أيام سفارة أحمد الحاج أوفدت القوات اللبنانية الى لندن مبعوثاً خاصاً للاتصال بالجاليات اللبنانية هو المهندس ريشار جريصاتي الذي دعيت الى لقاء معه. وفي نقاش معه حول مسألة العلاقة مع سوريا سألته لماذا يعادون سوريا مع أنها يمكن أن تكون من أقرب الحلفاء اليهم من الناحية الموضوعية، فقال إن هذا صحيح من حيث المبدأ لكن هذا التحالف المقترح لا يمكن أن يتم إلاّ إذا تقسمت سوريا وقامت فيها دولة علوية واضحة المعالم، فنكون عندئذ أول حلفائها. وسألته عن أسبابهم لهذا الطرح التقسيمي، فقال إن السوريين الحاكمين حالياً لديهم خطوط دفاع ليس لنا مثلها ولا نستطيع أن نقول بها. فالحكم العلوي الراهن في سوريا، حسب قوله، بإمكانه إذا انحشر أن يرفع راية العروبة والوحدة والاشتراكية، وبإمكانه في حالات أخرى أن يرفع راية الإسلام ويجاهر بإسلاميته متخلياً عن قناعه العلماني.

وبعد نحو خمسة عشر عاماً من هذا الحديث مع ريشار جريصاتي في لندن، وعلى وجه التحديد في صيف عام 1996، كنت في جب جنين مع ابن العم إيلي الفرزلي الذي اقترح في طريق عودتنا الى بيروت أن نعرّج على عنجر للتحدث مع غازي كنعان رئيس جهاز الاستطلاع السوري في لبنان آنذاك، لكننا لم نجده

في مكتبه فالتقينا بنائبه العقيد عدنان بلّول الذي كان بادي الانشراح لأنهم ركّبوا له في مكتبه جهاز تبريد لأولٍ مرة. عندما دخلنا الى مكتب بلول وجدناه يقرأ جريدة «النهار» وبيده قلم يعلّم فيه على بعض المحتويات. ولما جلسنا نتحدث طوى الجريدة ووجه اليّ سؤالاً صعباً بقوله: «ماذا برأيك يجب أن نفعل لكي نكسب المسيحيين الى جانبنا؟».

فقلت له بصراحة، كما أصرّ أن يكون الحديث: «إنكم لن تستطيعوا ذلك مهما فعلتم».

فقال: «ولماذا ذلك؟» فرويت له حرفياً ما قاله لنا في لندن مبعوث القوات اللبنانية عن الموضوع قبل نحو خمسة عشر عاماً، كما ورد أعلاه. فاعتدل عدنان بلّول في جلسته وأشعل سيجاره الموشك على الانتهاء وقال: «خطوط الدفاع التي تحدثت عنها يمكن أن تكون نافعة لهم لأننا نستعملها لصالحهم إذا اقتضى الأمر. أما بالنسبة الى المسألة العلوية فأقول إننا نحن سوريون ولست أستسيغ أن أعرف عن نفسي بأنني علوي. أنا سوري عربي ولا أحد يستطيع أن يصفني بأي صفة أخرى. لكن إذا أصرّ بعضهم على سوء نيته بإطلاق هذه الصفة، فإنني علوي على رؤوس الأشهاد ولا يغيِّر ذلك من الأمر شيئاً. إن هذه المنطقة، منطقة المشرق، ليس فيها أكثرية وأقلية. كلنا أقليات. نعم هناك أقلية أكبر من أقلية، لكن لا أحد يستطيع أن يدعي أنه أكثرية تخوله حرمان الآخرين من حقوقهم عن طريق العصبية الدينية، أو التعصب العنصري. هذه المنطقة فيها مسلمون على أنواعهم واختلاف طوائفهم، وفيها أشكال وألوان من الطوائف المسيحية واليهودية والأقليات القومية والعرقية. لذلك فإن البحث عن مسوّغات مثل تلك التي عرضتها بشأن تقسيم سوريا وقيام دولة علوية هو بحث عقيم. وعلى كل حال، نحن نفسنا طويل، ونحن في انتظارهم، وسوف نلتقي معهم يوماً».

•••

في بداية عام 1987 بدا لي واضحاً أن مشروع اصدار«الصياد» في لندن أخذ يتراجع ويضمر، وبالتالي بدأت أوطد نفسي على الانسحاب منه لا لأجد عملاً في مؤسسة مشابهة، لأنني أدركت أن جميع المشاريع الصحافية والإعلامية ذات المواصفات السائدة هوامشها ضيقة ، وهي وسائل لا غايات، قيمتها بما تجني من مال لأصحابها بأي وسيلة كانت، والعمل الصحافي المجرد لا يعني لها شيئا، ولا أهمية تطويره نحو الأرقى والأعم نفعاً للناس جميعاً. لذلك اتخذت قراراً بالاستقالة من «دار الصياد» والبحث عن صيغة إعلامية خاصة تعتاش مني ولا أعتاش منها.

ذات يوم من ربيع عام 1987 حضر فجأة الصديق القديم مجاهد سمعان آتياً مع عائلته من كندا، وقد اصبح يحمل الجنسية الكندية، وموطداً نفسه على

الإقامة في بريطانيا، ففاتحني بمشروع نقوم فيه وهو فتح حسابات للاتجار بالأسهم والأوراق المالية في بورصتي لندن ونيويورك، يتولى هو إدارتها بعدما اكتسب خبرة في هذا المجال أثناء وجوده في كندا، وننشىء في الوقت ذاته، بتمويل من مردودات المشروع، مطبوعة مالية واقتصادية هي عبارة عن نشرة أسبوعية نصدرها باللغتين العربية والإنكليزية وأكون أنا رئيساً لتحريرها ومسؤولاً عنها. وبعد مداولات ومشاورات اتفقنا على إقامة شركة بريطانية باسم «سويفت نيوز» تتولى إصدار المطبوعة المتفق عليها باسم «الراصد المالي»، على أن تكون حسابات التداول بالأسهم والأوراق المالية بأسمائنا الشخصية، فقمنا لهذه الغاية بفتح حسابات لدى مؤسسة «فيداليتي» الأميركية.

في مطلع صيف 1987 صدرت تلك النشرة، وبعد أسابيع قليلة من صدورها ادخلت عليها تقريراً من صفحتين على ورقة واحدة بلون مختلف (كانت النشرة باللون الأزرق والتقرير باللون الأصفر) يدور مضمونه حول المخاطر السياسية للاستثمار في الشرق الأوسط،لأنه لم تكن للنشرة اهتمامات سياسية. حدث ذلك في وقت كنا نحقق أرباحاً ملموسة تكفي لتغطية النفقات وتزيد قليلاً. وكانت المؤسسات المالية في حينه تعطي تسهيلات مؤاتية لنا، فكنا ندفع في الحساب خمسة آلاف جنيه استرليني فيسمحون لنا في المقابل بأن نتاجر بمبلغ مائة ألف جنيه لمدة ثلاثة أسابيع فقط يتوجب علينا بعدها سداد ثمن الأسهم المتبقية أو المتاجرة بها. وهذا سمح لنا بالدخول في العمليات السوقية بوتيرة أعلى حيث كنا ندخل ونخرج، أي نشتري ونبيع، مرتين أحياناً في اليوم الواحد قبل الوصول الى موعد التسوية بعد عشرين يوماً. ومما ساعدنا أن السوق في تلك المرحلة كان حامياً والمضاربات على أشدها. لكننا كنا نكتفي بالحد الأدنى من الربح لأننا لا نملك السيولة الكافية للانتظار، وهذا يقتضي السرعة في العمليات اليومية.

•••

كانت لابنتي ريما ،وقتذاك، زميلة وصديقة سورية في الجامعة هي ابنة توفيق جدعان الضابط السوري السابق في قوات الصاعقة، وأحد ضباط الانفصال في الانقلاب الذي قاده الضابط عبد الكريم النحلاوي ضد عبد الناصر وحكم الوحدة السورية ـ المصرية بدعم من المملكة العربية السعودية ودول أخرى في خريف عام 1961 .

بعد سقوط حكم الانفصال غادر جدعان دمشق الى الرياض، حيث كرّمه الملك فيصل وأتاح له أن يقوم بالأعمال الحرة في مجال المقاولات والإنشاءات حيث حقق نجاحاً ملموساً فتح عليه الأعين مما أدى بالتالي الى إبعاده من المملكة خالي الوفاض. لكن صديقاً له من العشائر السعودية كانت له دالة على الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية اتصل بالأمير المذكور وعاتبه

على معاملة توفيق جدعان بهذا الشكل، فقام السعوديون بأمر من الأمير نايف بتقويم موجوداته بمبلغ 75 مليون ريال سعودي، حوّلت اليه في لندن بقيمة 17 مليون جنيه استرليني. لكن جدعان أبلغني أن موجوداته المصادرة في السعودية تبلغ قيمتها الفعلية 350 مليون ريال. .

وحدث ان دعت ابنتي ريما زميلتها وعائلتها الى عشاء في منزلنا، فدعوت بدوري مجاهد سمعان وعائلته، وفوجئت بأنه لم يكن هناك تعارف سابق بينهما، فمجاهد نفسه كان ضابطاً في الجيش السوري ويعمل في مكتب صلاح جديد أحد قادة الانقلاب ضد حكم الانفصال.

ودار الحديث في تلك الليلة حول ما نقوم به، خصوصاً لجهة النشرة المالية، فبادر توفيق جدعان الى المساهمة الفورية في «الراصد» بمبلغ سبعة آلاف جنيه. وبعد لقاءات لاحقة قرر إيداع مبلغ مليون دولار لدى مؤسسة «فيليبس أند درو» البريطانية بغاية الاتجار بها في الأسواق المالية على أن نديرها نحن باسمه. وبالفعل حققت تلك المحفظة في الأسابيع الأولى ربحاً محترماً لا يقل عن مائة وخمسين ألف جنيه في السوق البريطانية وحدها. وفي أواخر شهر آب/أغسطس من عام 1987 رأينا أن الأسواق العالمية بلغت حداً غير مسبوق من الارتفاع بحيث صار من المحتمل أن تقوم بالتصحيح في أي لحظة، فاعتمدنا سياسة التأني وتخفيف الحمولة، وقمت من جهتي بتفريغ محفظتي الشخصية كلها بحلول منتصف أيلول/سبتمبر، وكلها من الأسهم البريطانية. لكن محفظة توفيق جدعان التي كان يديرها مجاهد سمعان تضمنت حمولة وازنة من الأسهم الأميركية عندما داهمها انهيار الأسواق بعد ذلك بشهر تقريباً، أي يوم الإثنين في 19 تشرين الأول/أكتوبر. ومن حسن الحظ أن الأرباح السابقة حمت محفظة جدعان من خسائر فادحة في ذلك اليوم، فاتصل بنا من محل إقامته في إسبانيا طالباً تصفية حسابه بانتظار قدومه، فاستعاد في النتيجة نحو ثمانمائة ألف دولار أو أقل قليلاً. وحسناً فعل لأن الأسواق عاودت الهبوط من جديد بعد أيام قليلة.

ويبدو أن توفيق جدعان في ذلك الوقت كان يعاني من مشكلة سيولة، لأنه قال لي إن الأموال المودعة لدى مؤسسة «فيليبس أند درو» تعود الى ابنته مجد ولا يستطيع التصرف بها. ثم أسرَّ لي بأنه يملك كمية محترمة من الأسهم في «بنك الاعتماد والتجارة الدولي» وسألني ما إذا كان بإمكاني مساعدته على بيعها. وكان ذلك قبل أربع سنوات تقريباً من تسليط الأضواء على عمليات مشبوهة للبنك المذكور في الولايات المتحدة لعل أهمها شراء بنك أميركي في واشنطن العاصمة خلافاً للقانون عن طريق شخصيات عربية معروفة حوكموا تالياً وفرضت عليهم غرامات كبيرة، منها غرامة 105 ملايين دولار على كمال أدهم مدير المخابرات السعودية الأسبق، ومبلغ 350 مليون دولار على خالد

بن محفوظ صاحب «البنك الأهلي التجاري السعودي». فالبنك المذكور أسسه المصرفي الباكستاني المعروف آغا حسن عابدي بأموال من الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم دولة الإمارات العربية المتحدة، وبمساهمة بنسبة 25% من «بنك أوف أميركا» في مطالع السبعينات من القرن الماضي. وقد نما بنك الاعتماد والتجارة بسرعة الى أن أصبح سابع بنك في العالم من حيث قيمة موجوداته. لكن بعد خروج عابدي من إدارته أدخلته الإدارة الباكستانية الجديدة في عمليات مشبوهة، فتم استخدامه من قبل المخابرات الأميركية وغيرها من أجهزة المخابرات التي كانت تموّل حرب المجاهدين الأفغان ضد القوات السوفياتية، وكان البنك في المقابل يقوم بتبييض أموال تجارة الأفيون الأفغانية بحماية تلك الأجهزة.

ولم يكن سهلاً بيع تلك الأسهم لأن البنك المذكور كان شركة خاصة ليست أسهمها متداولة في البورصة، وبالتالي فإنه من غير الممكن بيعها إلاّ للإدارة القائمة. وكان بنك «باركليز» البريطاني قد رفض طلباً من توفيق جدعان للحصول على قرض بكفالة أسهمه في بنك الاعتماد لأنه لا يعتبرها أداة مالية موثوقة، على الرغم من أن سمعة البنك في ذلك الوقت لم تكن تشوبها شائبة. ومن حسن حظ توفيق جدعان في ذلك الوقت أن المصرفي السعودي المعروف خالد بن محفوظ كان يحاول جاهداً جمع أكبر كمية ممكنة من أسهم بنك الاعتماد، ربما في إطار منافسة سعودية ـ إماراتية خفيّة، فتمكن من بيع أسهمه الى إدارة البنك بسعر جيد ناهز الثلاثين دولاراً للسهم الواحد فبلغت قيمة الأسهم التي يحملها نحو ثلاثة ملايين دولار، أخذها وانتقل للإقامة في قبرص.

وانقطع الاتصال بيني وبين توفيق جدعان أكثر من ثلاث سنوات، الى أن علمت أن نجله الأكبر جهاد قد فارق الحياة صباح اليوم الأول من عام 1992 بعدما قضى سهرة عيد رأس السنة مع أصدقائه وجاء الى البيت متأخراً لينام فلم يفق من نومه، وعلمت من ابنته مجد أن والدها سُمح له بالعودة الى دمشق لحضور عزاء ابنه، فاتصلت به هاتفياً للتعزية فكان كعادته حاراً في سلامه وفي كلامه وعواطفه[10].

واصلت إصدار «الراصد» بعد انهيار الأسواق المالية حتى منتصف عام 1988، الى ما بعد تاريخ صدورها بأكثر من سنة، لكنني وجدت أنها لا تلبي ما كنت أتوخى منها لأنها ارتبطت بموضوع واحد محدود، هو موضوع الأسواق المالية،

---

(10) كان توفيق جدعان محكوماً بالإعدام من قبل النظام الذي انقلب على حكم الانفصال، فبقي قرابة ربع قرن خارج سوريا، لكن الرئيس حافظ الأسد عندما علم بوفاة نجله الأكبر رفع عنه الحكم وسمح له بالعودة الى دمشق، لكنه بعد مراسم الدفن والتعازي آثر الخروج من سوريا مجدداً، فعاد الى قبرص، وهو والد السيدة منال زوجة العقيد ماهر الأسد الشقيق الأصغر للرئيس السوري بشار الأسد.

وذلك لأنه بعد انهيار الأسواق في السنة السابقة ضعفت الثقة بتلك الأسواق، فضعف السبب الموجب للمطبوعة. وما يرتبط بهذا السبب الموجب، من حيث محدودية أفق المطبوعة المذكورة، أنها صممت في الأصل لكي تخدم فئة محدودة من المشتركين بالبريد، فلم تكن مخصصة للبيع في أسواق النشر من خلال موزعي الصحف كالجرائد والمجلات، ولم يكن وضعنا المادي في ذلك الوقت يسمح بتحويلها الى مطبوعة ذات طبيعة مختلفة، كأن نصدرها كجريدة أو مجلة منوّعة ومتعددة الاهتمامات.

وكنت مدركاً من البداية أن هذا النوع من النشر المحدود الأفق سوف يكون على الأرجح ظرفياً لاعتبارات كثيرة منها محدودية عدد المهتمين بهذا الاختصاص الضيِّق، ومنها تباطؤ تعاطينا في الأسواق بعد يوم «الإثنين الأسود»، وهو الإسم الذي أطلق على يوم انهيار الأسواق في التاسع عشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام 1987، فخفَّت بطبيعة الحال متابعتنا لما يجري في الأسواق، وبالتالي لم تعد هناك من جدوى تقضي بمتابعة نشر المطبوعة فيما نحن لم نعد منغمسين في مصادر الأخبار والتحليلات كما كنا في بداية الأمر. وهذا من شأنه أن ينعكس سلباً على مضمون مواد النشرة، وبالتالي على قيمتها المعنوية، بالنسبة الي في الدرجة الأولى، لأنني كنت دائماً وما زلت أعطي المقام الأول للنوعية والمستوى العالي في كل أمر أقوم به ويقع تحت نظري. ولست أقول ذلك من منطلق نخبوي كما قد يتبادر الى أذهان البعض، إنما من منظور الجدِّية التي تستلزم الإتقان فيكون الإنتاج انعكاساً للقائمين به ليكون الرضا الذاتي سابقاً عن عمد انطباعات الآخرين الناظرين اليه من الخارج.

ولذلك أقول إن إغلاقي لـ «الراصد»، لارتباطها بظرف استثنائي تغيّرت الأجواء المحيطة به والمولدة له، لم يكن في قناعتي إغلاقاً للباب أمام تجارب جديدة في ظروف مختلفة. وهكذا كان عندما بدأنا، بعد أعوام قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، نعد العدة لإصدار جريدة «الميزان» كمطبوعة اقتصادية ذات طابع سياسي، وطبيعة لبنانية، لأنها ترافقت مع بروز الظاهرة الحريرية الهجينة في المجتمع اللبناني التاريخي بعد سيطرة المقاول اللبناني ـ السعودي على السلطة اللبنانية، واستيلائه على وسط بيروت التجاري، وما شاع من فساد ممنهج ومتقاطع مع الهيمنة السورية على كل لبنان في ذلك الوقت، فانقلب لبنان من حال الى حال ليفقد توازنه وتتزعزع موجباته. وكل ما كتبناه في «الميزان» منذ تولي الحريري السلطة الى حين انتخاب العماد إميل لحود رئيساً للجمهورية كحالة معرقلة لتعاظم تلك الظاهرة، يبدو الآن بعد عشرين سنة، كما سنرى في القسم التالي من الكتاب، تشخيصاً دقيقاً لكل ما توقعناه في سيرنا المتعمد عكس التيار الجارف في حينه، لأنني فهمت من لقائي الأول والأخير مع

رفيق الحريري في السراي الكبير مطلع عام 2003 حقيقة مشروعه على الرغم من التيار الجارف الذي رافق قدومه على ظهر اتفاق الطائف القائم على ركائز غير منظورة تتمثل في شراكة سعودية ـ سورية على اقتسام ضمني للنفوذ والسيطرة في لبنان برعاية أميركية في غياب الاتحاد السوفياتي عن المسرح الدولي.

وأقول أخيراً إن «الميزان» في دقة تشخيصها للظاهرة الحريرية من بدايتها ما زالت حيّة وفاعلة لم يؤثر في مضمونها مرور الزمن وقد مضى نحو عقد ونصف العقد على توقفها عن الصدور.

VI

في «الميزان»



I

بداية ونهاية...

أيقنتُ خلال تجربة «الراصد المالي» أن ذلك المشروع كان محدود الأفق، فلم يخامرني شعور بالندم أو الأسف على التوقف عن اصدار النشرة، لأن حصرها في الإطار المالي المتعلق بأسواق الأوراق المالية، وهي في العالم العربي تحديداً أسواق غير مكتملة النضج بالمعايير العالمية، ومقفلة تقريباً أمام الصحافة الحرة، ولا سيما الصحافة الناقدة، جعلها بعيدةً عن الإحاطة الشاملة بمحركات ودوافع التطورات السياسية غير المرتبطة بصورة مباشرة وواضحة بتحركات الأسواق المالية العالمية وانعكاساتها على الأوضاع العربية تحديداً إلاّ ربما من زاوية المخزون المالي العربي المرتبط في أساسه بمادة خام وحيدة دافقة تشكل وسادة حاضنة تقي من التقلبات نسبياً. لكنني في الوقت ذاته كنت وما زلت أعتقد بأن وجود صحافة اقتصادية ذات اهتمامات سياسية أمر لازم وضروري في عالم اليوم، خصوصاً في العالم العربي المفتقر أصلاً للشروط اللازمة وأولها الأسواق المفتوحة، والصحافة الحرة، والقضاء المستقل . لكن مشروع الجريدة الاقتصادية المستقلة لم يتبلور في ذهني إلاّ بعد فترة من الزمن من توقف «الراصد المالي».

في الفترة الفاصلة بين «الراصد المالي» و«الميزان»، أسستُ مع الزميل أنطوان شكرالله حيدر شركة في لندن سميناها «بروكسيما» غايتها القيام بالخدمات الصحافية والعلاقات العامة. وكان أن عقدنا اتفاقاً مع وكالة «ريكس فيتشرز» للصور والتحقيقات الصحافية المصورة، قضى بان تكون «بروكسيما» الممثل والوكيل الوحيد للوكالة البريطانية في العالم العربي، فنشأت «شبكة بروكسيما ـ ريكس»، وبدأنا تزويد الصحافة العربية والعالمية بالتحقيقات الخاصة في الاتجاهين، أي تزويد الصحف العربية بالتحقيقات الأجنبية، وتزويد وسائل الإعلام الأجنبية بالتحقيقات العربية.

وقد نجحت تلك التجربة نجاحاً كبيراً بحيث اقبلت على نتاجها مجلات خليجية ولبنانية عدة، وانتشر إسم «بروكسيما ـ ريكس»، وبدأت تحقق أرباحاً سمحت لنا بوضع ميزانية أولية لإصدار «الميزان».

وتوسعت أعمال «بروكسيما» الى العلاقات العامة ثم الترجمة، فأبرمت عقوداً للترجمة لا بأس بها مع «أطلس ترانسلايشن» ، ومع مجموعة «نيوكوم»، و«بيرليتس» الدولية ... الى جانب شركات أخرى للترجمة والعلاقات العامة. وبوساطة إحدى تلك الشركات قام قسم الترجمة في «بروكسيما» بترجمة المنشورات الطبية التي كان يصدرها «الضمان الصحي» البريطاني الى اللغة العربية .

وفي مرحلة التوسع تلك، اقترح الصديق كمال فرج الله، الذي كان أسس قسم «الشرق الأوسط للخدمات الصحافية»، في شركة «روثمانز» العالمية للتبغ التي كانت، وقتذاك، ترعى سباقات الدراجات النارية والراليات العالمية للسيارت، أن نتفاوض معها على عقود طويلة الأجل للقيام بأعمال العلاقات والخدمات الصحافية في مجال السباقات، فتم ذلك في البداية على نطاق محدود اقتصر على البلاغات، والبيانات الصحافية التي كانت تسبق وتلي كل سباق او رالي. وعندما انتقلت «روثمانز» لرعاية سباقات «فورمولا 1» للسيارات، اعتمدت «بروكسيما» للترويج والخدمات الصحافية في العالم العربي، ثم ما لبث أن اتسع العمل ليشمل رياضة الفروسية والقفز بالخيول فوق الحواجز، وهي رياضة تولتها شركة «دانهيل» التابعة أيضاً لـ«روثمانز»، كما شمل وضع وطبع الكتب السنوية المصورة لكل نوع من أنواع الرياضة التي ترعاها الشركة بميزانيات هائلة تصل الى عشرات الملايين من الدولارات في ذلك الوقت...

و كنا نحضر معظم سباقات الدراجات النارية حول العالم لنقف على آفاق ما نكتب عنه على الطبيعة عندما كانت «روثمانز» ترعى سباقات دراجات «هوندا»، وكذلك سباقات «فورمولا 1» من خلال رعايتها لفريق «رينو - وليامس»، فاكتسبنا في هذا المجال خبرة واسعة من النواحي التقنية، ومن النواحي الاقتصادية لجهة تحوُّل تلك السباقات الى صناعة ضخمة قائمة بذاتها تصل اقتصادياتها الى مليارات الدولارات وترتبط بها صناعات ومجالات اقتصادية أخرى عديدة. وعندما دخلنا في هذا المجال لم نكن غرباء عنه تماماً، إذ سبق لنا أن عملنا في الثمانينات مع كمال فرج الله في مجال سباقات الراليات، وهي سباقات حضرت شخصياً اثنين منها هما: رالي الفراعنة في منطقة وادي الملوك بالأقصر في مصر، ورالي قبرص، الأول مثلت فيه مجلة «الحوادث» والثاني مثّلت فيه مجلة «الصيَّاد». وتطور العمل مع «روثمانز» ليشمل صياغة عبارات وأفكار الإعلانات التجارية للترويج بالتعاون مع الدكتور جورج مفرج الوكيل الحصري لاعلانات «روثمانز» في الصحافة اللبنانية المقيمة والمهاجرة، وكان ما نضعه ونتتجه في هذا المجال يُنشر في الاعلانات على صفحات المجلات العربية.

وحدث ان استقال كمال فرج الله من العمل في «روثمانز» بسبب خلاف إداري، فانضم الى «بروكسيما» وتولى إدارة قسم العلاقات العامة. في ذلك الوقت ،

جاء الى لندن مايكل شيمبكي، مدير العلاقات العامة لشركة «بورشه» الألمانية للسيارات الرياضية، وكان على معرفة سابقة بكمال فرج الله، فاتصل به طالباً رأيه في إمكانية الترويج لسيارات «بورشه» في الشرق الأوسط، لأن الشركة في ذلك الوقت كانت تعاني من خسائر كبيرة، فاقترح عليه أن يزورنا في مكتبنا للتحادث معي حول الموضوع، فدعوتهما الى الغداء في مطعم ياباني بالقرب من المكتب، واتفقنا على صيغة من دون عقد ثابت تسدد الشركة الألمانية بموجبها دفع الفواتير التي نتقدم بها حسب كل مهمة بمفردها، وكان من بين تلك المهمات الابتدائية إطلاق سيارتي «بورشه كاريرا» و «بورشه بوكستر» في منتجع «كاب فيرا» في جنوب فرنسا. وقال شيمبكي في ذلك اللقاء إنه سيقترح على عضو مسؤول في أدارة الشركة في مدينة «شتوتغارت» الألمانية أن يزورنا لتثبيت الاتفاق.

ونجاح «بروكسيما» في «كاب فيرا»، ونجاح حملتها الاعلامية المركزة للترويج لطرازي «بورشه» في الصحف والمجلات الصادرة في العالم العربي، حظي بتقدير «شتوتغارت»، كما لفت الانظار اليها. فاتصل بكمال فرج الله أحد مدراء «مكلارين» طالباً أن تتولى «بروكسيما» إطلاق سيارة «مكلارين إف 1» للطرقات العادية في العالم العربي، وكان ثمن تلك السيارة 625 ألف جنيه استرليني (ما يعادل في ذلك الوقت مليون دولار أميركي) وتعوّل الشركة البريطانية على بيعها في الدول الخليجية. فتولت «بروكسيما» تقديم تلك السيارة الى الصحافة العربية في حفل أقيم في ردهة العرض للشركة في منطقة «باركلاين». وكما جرى مع «بورشه» قامت «بروكسيما» بحملة إعلامية ذكية في الصحف والمجلات العربية ساعدت في الترويج لسيارة «مكلارين».

بعد فترة برّ مايكل شيمبكي بوعده، إذ زارنا العضو المسؤول في إدارة «بورشه» فأقمنا له عشاءً واستقبالاً كبيراً في فندق «تشرشل» وسط العاصمة البريطانية، وقد طلب مني المدير المذكور أن أحضر في شتوتغارت اجتماع الجمعية العمومية، وهو الاجتماع السنوي الأول منذ تعيين المهندس الميكانيكي الدكتور فويندلين ويديكين، رئيساً لمجلس الإدارة ومديراً تنفيذياً للشركة عام 1993، وعرض فيه برنامجه لإنقاذ «بورشه» من الإفلاس بإجراءات انتاجية تقشفية قاسية وتجديدية على غرار ما فعلته من قبل شركة «تويوتا» اليابانية. وعندما قابلته في شتوتغارت على هامش ذلك الاجتماع وعرضت عليه ما قمنا به للشركة بالتعاون مع شيمبكي، ولمّحت الى وعد غامض منه في لقاء لندن بتخصيص صفحات إعلانية في «الميزان» عندما تتحسن أحوال الشركة، كان صريحاً وواضحاً معي بقوله إن الأحوال الراهنة لا تسمح بذلك، وعندما تنهض الشركة من كبوتها فإنها لن تكون بحاجة الى إعلانات في الشرق الأوسط «لأن مدينة هونغ كونغ وحدها تشتري من سياراتنا أكثر من دول

الشرق الأوسط مجتمعة»، كما قال!

واعاد ويديكين تبعاً لخطة التقشف، النظر في خطط الشركة الترويجية وألغى الحملة الاعلامية في الشرق الأوسط وأنهى العلاقة مع «بروكسيما».

كانت شركة «روثمانز» التي اسسها لويس روثمانز في بريطانيا سنة 1890، انتقلت ملكيتها سنة 1954 الى أنطون روبيرت، وهو رجل أعمال جنوب أفريقي، فضمها الى مجموعة «رامبراندت للتبغ» التي يملكها، وفي سنة 1988 تولى ابنه جوهان روبيرت ادارة الشركة، فقرر بيعها الى شركة التبغ البريطانية - الاميركية BAT فتم تسريح 400 موظف ويزيد، ومعهم انهى المالكون الجدد عقودنا.

لقد كان عملنا مع «بورشه»، ومع «روثمانز» داعماً مهماً لنا في إصدار الجريدة، فشكل إنتهاء العقود مع الشركتين نكسة للمشروع الصحافي الذي أقمناه بين عامي 1993 و 1998 وكان محوره جريدة «الميزان» الاقتصادية المستقلة[1].

•••

كانت الفكرة التي أقمنا عليها ، أنطوان شكر اللّه حيدر وأنا، المشروع تتمحور حول جريدة «الميزان»، بحيث تبقى حرّة مستقلة ضمانتها في هذا الاتجاه أنها في الوقت ذاته ناتج جانبي من إمكانيات الشركة الأم وأعمالها المنفصلة عنها. ومن هذه الناحية فإن «الميزان» قامت على مفهوم مخالف لفكرة «الراصد المالي»، التي كانت غايتها خدمة أعمال ومضاربات شركة «سويفت نيوز»، بينما في الحالة الثانية كانت شركة «بروكسيما» وأعمالها في خدمة جريدة «الميزان» عبر شركة النشر التي سميناها في حينه «اللبنانيون المتحدون للصحافة والنشر» وهي مسجلة بالإنكليزية، في بيروت وكشركة أوفشور في جزر الباهامز تحت إسم: Associated Lebanese Publishers (ALP) وعندما أصدرنا «الميزان» بعد تحضيرات استمرت عدة أشهر، تطابق الرأي بين الزميل أنطوان شكرالله حيدر وبيني على أن تجهيزات مكتب «بروكسيما» في منطقة «السيتي» شرق لندن، ومداخيل أعمالها الصحافية وعقودها مع «روثمانز»، كافية لإصدار تلك الجريدة على أمل أن نحصل فيما بعد على إعلانات مباشرة من إدارة «روثمانز»، كما وعدنا بعض المسؤولين فيها، مما يسمح لنا تالياً بالتوسع في مجالات صحافية أخرى ذات طبيعة اقتصادية أيضاً تتعلق بمجالات السياحة والنقل في الدرجة الأولى. وفيما نحن على أهبة تحقيق الخطوات الأولى من المشروع، جاءنا دعم جديد من حيث لم نحتسب.

لقد حاولنا بعد الصدور بفترة قصيرة أن نقيم مع مفوضية الاتحاد الأوروبي

---

(1) هناك عامل آخر أخذ يتفاقم مع الوقت وهو تشدد السلطات الرسمية في البلدان الأوروبية لجهة منع التدخين ومنع الإعلانات المروّجة له في وسائل الإعلام، فحاولت شركات التبغ في البداية تعويضاً عن ذلك زيادة اهتمامها وميزانياتها بمختلف أنواع سباقات السيارات والدراجات وغيرها، لكن هذا المجال أخذ أيضاً يضيق مع الوقت.

عبر رئيسها في ذلك الوقت جاك سانتير، رئيس وزراء لوكسمبورغ سابقاً، وعن طريق الصديق الراحل عبد الكريم المدرس أمين عام «غرفة التجارة العربية ـ البريطانية»، صيغة للتعاون مع المفوضية، بصفتنا مطبوعة أوروبية تعنى بالعالم العربي بشكل خاص. لكن هذه الصيغة المقترحة مع المفوضية الأوروبية لم تتحقق لسببين أساسيين: السبب الأول أن مطبوعتنا في ذلك الوقت لم تكن تستوفي الشروط الترسملية المطلوبة خشية أن يظهر وكأن المفوضية الأوروبية هي التي تموّلها خلافاً للقواعد الناظمة لعمل المفوضية في هذا المجال، والسبب الثاني هو أن جاك سانتير ومعه كامل الهيئات التابعة للاتحاد الأوروبي كانوا غير راضين عن واقع التعامل مع العالم العربي، وهو موضوع تطرّق اليه سانتير في محاضرة له دعت اليها غرفة التجارة العربية ـ البريطانية في لندن عبر أمينها العام عبد الكريم المدرس، ورئيسها آنذاك السير ريتشارد بومونت، في قاعة كبرى من قاعات فندق «غروفنر هاوس» وسط العاصمة البريطانية.

في تلك المحاضرة، التي نقلت «الميزان» خلاصة عنها في ذلك الوقت، أعرب سانتير عن أسفه للواقع العربي القائم الذي اعتبره غير مؤات للتعاون العربي ـ الأوروبي. وركّز رئيس المفوضية الأوروبية على محورين في محاضرته، الأول يتعلق بالواقع التجاري للدول العربية فيما بينها، والثاني يتعلق بصعوبة التعاون بين الدول العربية والاتحاد الأوروبي. وما قاله في المحور الأول يتعلق بالتجارة البينية بين الدول العربية ذاتها فأعرب عن استغرابه ودهشته لكون تلك التجارة بين العرب أنفسهم لا تتعدى الخمسة في المائة من مجموع تجارتهم مع العالم الخارجي، مما يدل على حجم العوائق التي تفرضها الدول العربية أمام دول عربية أخرى، بمعنى أنه لا توجد في العالم العربي حتى الساعة أسواق حرة كما هو الحال في أقاليم أخرى من العالم. وهذا واقع كنا نعرفه من خلال الصحافة التي فقدت حريتها بفعل تدجينها من خلال الرقابة ومن خلال شركات الإعلان. أما المحور الثاني الذي لا يقل أهمية عن سابقه فهو يتعلق بالتنافر العربي ـ العربي وتأثير ذلك على التعاون مع المنظومة الأوروبية، حيث شدّد رئيس المفوضية الأوروبية على ضرورة التفاوض الجماعي، لأن الاتحاد الأوروبي، كما قال، «لا يستطيع وليس لديه الوقت الكافي ليتفاوض مع كل دولة عربية على انفراد، ولذلك نطلب منكم أن تأتوا الينا مجتمعين في مجموعة واحدة أو في مجموعات قليلة».

وتعليقاً على ما ورد في محاضرة سانتير هذه، كتبت عن المفارقة في تلك الدعوة التي أطلقها رئيس المفوضية الأوروبية في حينه ليس فقط من حيث أن الدعوة الى اتحاد عربي جاءت على لسان مسؤول غير عربي يمثل دولاً أوروبية بعضها له ماض استعماري وأسهم في التجزئة العربية، بل لأن جامعة الدول

العربية، كمنظومة إقليمية، ولدت قبل الاتحاد الأوروبي بسنوات عديدة وفي رأس دفتر شروطها «الوحدة الاقتصادية العربية»، و«السوق العربية المشتركة»، و «الدفاع المشترك»... وما الى ذلك.

•••

كانت «الميزان» بالنسبة اليّ والى باقي الزملاء الذين عملوا معي فيها حالة من الفرح لأنه ليس فوقنا حسيب أو رقيب. والآن بعد مرور عشرين سنة على إصدارها نقرأ فيها وكأننا نقف على شرفة تطل على المستقبل، لأننا كنا نستشرف المستقبل من خلال منظار لبناني صافٍ خالٍ من التشوهات والعيوب التي عطبت لبنان. وعندما كتبنا في إحدى الافتتاحيات الأولى للجريدة تحليلاً للحالة الحريرية المستوردة مع اتفاق الطائف بعنوان «اللبنانيون ضحايا الحرب والسلم»، (كما سأبين في كتاب لاحق مكمل لهذا الكتاب قريباً يسرد سيرة «الميزان»)، كنا في الحقيقة نتجاوز التأريخ للحظة التي كنا فيها يومئذ، لنبيِّن للبنانيين كيف أن السلام الذي أعطي لهم بتلك الصيغة سينزل عليهم أسوأ من الحرب[2].

وإذا كان لي أن أميِّز «الميزان» بمميز واحد فوق مميزاتها الصحافية العديدة، فإنني أصفها بأنها كانت جريدة لبنانية صافية أمينة للفكرة اللبنانية الأصلية التي قام عليها لبنان كمنظومة عقلانية قبل تجسدها في كيانٍ على الأرض. ذلك أن الفكرة اللبنانية الأصلية توخت أن يكون لبنان أنموذجاً للعالم العربي أكبر من أن يكون جزءاً منه. وهذا ما أردنا تظهيره ليس لأننا لا نريد أن يكون لبنان جزءاً من العالم العربي، بل لأننا نريد أن يكون العالم العربي أحسن وأبهى مما هو عليه. فالذين أرادوا تدمير الفكرة اللبنانية بتدمير لبنان، كتبوا التدمير على أنفسهم، لأنهم ألحقوا بالعالم العربي أضراراً أفدح مما لحق بلبنان. وعندما قرر السوريون موافقة رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري على العبث بالدستور اللبناني من أجل تمديد رئاسة رئيس الجمهورية آنذاك الياس الهراوي، أو كما جاء في العبارة التي استخدمناها يومئذ لتوصيف ما جرى، وهي: «مدَّد لغيره لكي يمدِّد لنفسه»، كتبنا في افتتاحية «الميزان» بعنوان «الرئاسة المتواصلة» إن هذا المسار لا يترك خلفه سوى احتمالين لا ثالث لهما وكل منهما أسوأ من الآخر: إما «سرينة لبنان»، أو «لبننة سوريا» وهذا ما نراه بأم أعيننا اليوم بعد أقل من عقدين على هذا الكلام.

إن الذين نادوا بعروبة لبنان، ونحن منهم، ما كانوا ينادون بإلحاقه بهذا العالم العربي المريض كما هو في حالته الراهنة، لأن ذلك إذا حصل لا يعود لوجود لبنان معه من معنى، فيفقد مبرر وجوده ولا يعود له لزوم. فالعروبة اللبنانية بمعناها كصيغة أنموذجية للتقدم العربي، هي حالة قياسية وليست نسبية.

---

(2) الكتاب الذي نعده للنشر قريباً هو بعنوان: «الميزان» ... قصة جريدة.

ولا ينفع لبنان أو العالم العربي أن يكون الفارق بينهما مجرد فارق نسبي، لأن ذلك من شأنه أن يشد لبنان الى «التعريب»، فيفقد قدرته على مقاومة الانجرار في الانحدار العربي، بينما حالته القياسية النابعة من الفكرة اللبنانية الأصلية تمكنه من انتشال العالم العربي من وهدته، أو على الأقل توقف تدهوره. وهذا ما قصدناه بأن «الميزان» قامت على الفكرة اللبنانية الصافية النامية في تربة العروبة لتطعيم العرب بها من أجل تقدمهم وارتقائهم. والفارق كبير بين أن يشد العرب المتقهقرون لبنان اليهم، وبين أن يشد لبنان المتقدم في العروبة العرب اليه على طريق التقدم.

ذلك أن التطابق بين الفكرة اللبنانية والعروبة هو الذي يجيز التمايز بين لبنان والعرب، طالما أن العروبة غير مكتملة في الواقع العربي، كما اكتمل مفهومها في الفكرة اللبنانية من خلال الحرية دون غيرها من بقية العناصر المكونة لها. وأستطيع أن أقول بأن «الميزان» من هذا المنطلق تحديداً كانت جريدة حرّة من غير أي مؤثر خارجي.

أقول هذا من الناحية الفكرية والنظرية الشاملة، أما فيما يخص الواقع العملي فقد ركزنا في «الميزان» من العدد الأول على القيمة الخاصة للعلاقة اللبنانية ـ السورية، وعلى ترابط المصالح بين لبنان وسوريا في الإقليم المشرقي تحديداً. ففي افتتاحية العدد الأول من «الميزان» (وعنوانه الرئيسي «لبنان برسم البيع»)، عالجنا هذه المسألة تحت عنوان «المشرقية الاقتصادية» بالقول: «لا يستطيع اللبنانيون بعد اليوم أن يتجاهلوا أنهم جزء من منطقة اقتصادية مشرقية، وأن سوريا هي العمود الفقري لهذه المنطقة الاقتصادية المشرقية، وأنه لن يجدي لبنان نفعاً أن يكون على تناقض مع سوريا، أو أن يعالج موقعه الجديد منها بالأفكار المسبقة السابقة».

وأكدنا في هذا السياق وجود غوامض عديدة في العلاقة القائمة بين لبنان وسوريا، كما أكدنا وجود رواسب من الماضي بينهما للقول بأنه لن ينفع أحداً نقل تلك الرواسب الى المستقبل، وقلنا إن الحوار النزيه والجاد بينهما كفيل بإزالة تلك الغوامض والرواسب. وأشرنا يومها الى أن في الجانبين السوري واللبناني ممارسات ملتوية ومشبوهة، لكننا «على ثقة بأن في سوريا ولبنان مخزوناً يُعتدُّ به من الحكمة والعقلانية كفيلاً بنزاهة التعامل والممارسة في وجه من يتخذ من الالتواء هنا وهناك سبيلاً لمصلحة ذاتية على حساب المصالح العليا». فقد كنا على دراية تامة بأن هناك تواطؤاً خطيراً بين منظومة الفساد السورية صاحبة الوصاية في لبنان وبين منظومة الفساد اللبنانية الحاكمة في ظل تلك الوصاية، من قبل اتفاق الطائف ومن بعده.

ولذلك قررت في مرحلة الإعداد لإصدار جريدة «الميزان»، قبل أشهر قليلة من الصدور الفعلي في لندن، القيام بزيارة الى دمشق وبيروت أعرض فيها

التصورات المذكورة على المسؤولين. فقد سبق لي أن زرت دمشق في نهاية عام 1992، لكن فكرة الجريدة لم تكن قد تبلورت بعد. على أن تلك اللقاءات المبكرة كانت مفيدة لي من حيث فهم الوضع السوري القائم آنذاك، وعلاقته بالوضع اللبناني. وفي تلك الزيارة الأولى الى الشام التقيت بمحض المصادفة في فندق «شيراتون» السيدة ملك البيطار أرملة المرحوم الأستاذ صلاح البيطار، كما مر في السياق، كذلك زرت عائلة المرحوم توفيق جدعان وقضيت معهم يوماً كاملاً. ومن المسؤولين الذين التقيتهم يومئذ عبد الحليم خدام نائب رئيس الجمهورية، وفاروق الشرع وزير الخارجية، ومحمد العمادي وزير الاقتصاد، ووزير الإعلام محمد سلمان. أما الزيارة الثانية الخاصة بالتمهيد لجريدة «الميزان» فقد قمت بها في اليوم الأول من أيار/مايو عام 1993 برفقة ابن العم إيلي الفرزلي نائب رئيس المجلس النيابي اللبناني آنذاك. وقد فاتنا أن ذلك اليوم هو عطلة رسمية لكونه يوم عيد العمال العالمي حيث تغلق الدوائر الرسمية والخاصة على السواء أبوابها، فذهبنا الى مكتب عبد الحليم خدام في دمشق لنجده مقفلاً، لكننا عدنا وتوجهنا الى منزله الصيفي الجديد على قمة مرتفع في أعالي مصيف بلودان لم يكن بناؤه قد اكتمل تماماً[3].

دخلنا الى بيت خدام في بلودان فوجدنا الرجل وحده لابساً دشداشة و«شحاطة» في رجليه شأن أصحاب الإجازات في الفرص والأعياد، فاستقبلنا بالترحاب واقتادنا الى الصالون الدائري الصغير المطل على البلدة، وقال لنا إنه لوحده لأن زوجته غائبة. وكنت أحمل معي منشوراً يتضمن نبذة عن مشروع «الميزان» وأهدافه باللغتين العربية والإنكليزية فأعطيته لخدام وشرحت له باختصار ماذا نفعل في لندن وما ننوي أن نفعله. وضع المنشور جانباً على طاولة صغيرة الى جانبه وسألني ما إذا كنت قابلت رفيق الحريري فأجبت بالنفي، فقال: «بيسوى تشوفه». ثم بدأ يطرح مع ابن العم إيلي مواضيع سياسية لبنانية غامزاً من قناة رفيق الحريري بلهجة ودِّية ناقدة، فقال، كما دوّنت لاحقاً خلاصة تلك الجلسة: «رفيق الحريري حمار في السياسة، محل ما لازم يملحس بيلبّط، ومحل ما لازم يلبّط بيملحس»!

ثم وجه السؤال الى إيلي بالقول: «وشو عن أبو جورج؟» قاصداً الرئيس الياس الهراوي، رامياً الى مسألة رئاسة الجمهورية مع أنه في حينه كان الوقت ما زال مبكراً لهذا الموضوع لأن رئاسة الهراوي كانت بعد في سنتها الرابعة. فأجابه إيلي بأن الوقت ما زال مبكراً على هذا الموضوع، لكن خدام بدأ يطرح أسماء بديلة مركزاً على اسم النائب البقاعي روبير غانم، فسأل موجها الكلام لي:

(3) سمعت تالياً أن ذلك البيت المبني على طراز معماري ملفت بشكل دائري في الجانب المطل على البلدة، هو من ثمار تعاون خدام مع رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري في ذلك الوقت من قبل أن يتولى الحريري رئاسة الحكومة.

«ما رأيك في روبير غانم؟».

فأجبته بالقول: «معرفتي به قليلة لأنني لا أعيش في لبنان، ولا أعرف عنه شيئاً في الحقيقة».

ثم وجه الكلام الى إيلي قائلاً له: «ما رأيك؟».

كرر إيلي الجواب بأن الوقت ما زال مبكراً على هذا الموضوع ومن الآن الى حينه يخلق الله ما لا تعلمون!

ثم أصرّ أن نعود الى لقائه في مكتبه بعد العطلة، وهكذا كان. ويبدو أنه كان يريد أن يتحدث مع إيلي على انفراد، فوجدت الفرصة مناسبة لأطلب منه أن يكلم وزير الإعلام محمد سلمان ليستقبلني، لأنني لم أكن على موعد مرتب سلفاً، فتوجهت الى وزارة الإعلام حيث قابلت الوزير لنصف ساعة تقريباً حدّثته خلالها عن مشروع «الميزان» وعن رغبتي في دخولها الى سوريا. فطلب مني أن أتوجه الى مكتب مدير الرقابة في الوزارة، وهو شاب لطيف وفهيم يدعى محمد حديفي، فرحنا نتباسط في شؤون الصحافة والرقابة من دون مواربة، فجعلني أشعر وكأننا أصدقاء من وقت طويل. وبالفعل اتصلت به بعد سنتين تقريباً للمجاملة عندما كنت أحضر في دمشق مؤتمراً عالمياً للسياحة دعاني اليه رجل الأعمال السوري المعروف الدكتور عثمان العائدي الذي كان أحد المشتركين الأوائل في «الميزان». ذلك أن هناك علاقة يمكن وصفها بأنها شبه عائلية بيننا وبين العائدي لأنه عندما كان والده منيف العائدي فاتحاً المدرسة الوطنية في دمشق، وهي مدرسة من المدارس السورية التاريخية تخرج منها كثيرون من الرجال الوطنيين السوريين والعرب، كان العم نجيب الفرزلي، والد إيلي وعم زوجتي، وهو يدرس الحقوق في جامعة دمشق، يعمل أيضاً في مدرسة العائدي.

كان عثمان العائدي وقتها يملك واحداً من أرقى وأبهى فنادق باريس هو فندق «رويال مونصو»، وكنت نازلاً فيه مرة فعلمت أن اليهود طلبوا منه أن يسمح لهم بوضع لوحة نحاسية على جدار المطعم الإيطالي الواقع الى جوار البار بمناسبة الذكرى الخمسين لإعلان استقلال دولة إسرائيل، لأنه في ذلك المكان من الفندق تم عام 1948 وضع وثيقة قيام دولة إسرائيل والإعلان عن استقلالها من قبل دافيد بن غوريون أول رئيس لحكومتها. وقد رفض العائدي هذا الطلب فبدأ يواجه عقبات ومضايقات في المصارف وفي إدارات البلدية والحكومة، مع أن مدير العلاقات في الفندق في ذلك الوقت هو يهودي لبناني اسمه دافيد ليفي.

قال لي محمد حديفي في ذلك اللقاء إن الرقابة السورية «لا تحاسب على الكلمة، فهي تأخذ مواضيع الصحافة الخارجية بكليتها، ولذلك فهي أرحب من الرقابة في بلدان عربية عديدة»!

وبالفعل لم تتعرض «الميزان» للمصادرة في دمشق طوال فترة صدورها، مع أننا كنا نكتب أحياناً تعليقات نقدية للممارسات السورية في لبنان، ومنها مقال مشهود في ربيع عام 1994 بعنوان: «كيف يهزم السوريون أنفسهم في لبنان». بينما في لبنان صدر أمر من الأمن العام بمنعنا بسبب نقدنا المتواصل للسياسة الاقتصادية لحكومة الحريري، مما اضطرنا الى تقديم شكوى ضد الحكومة اللبنانية الى مختلف الهيئات الحقوقية والدولية المعنية بحرية الصحافة وحقوق الإنسان، كما سنبين بالتفصيل في الكتاب المكمّل المتعلق بجريدة «الميزان» تحديداً. وبعد منع دخول «الميزان» الى لبنان بفترة التقيت مدير عام الأمن العام في ذلك الوقت ريمون روفايل في لندن، فأبلغني أن القرار المذكور كان بطلب من الرئيس الحريري[4].

وطلب مني مدير الرقابة السورية أن أقابل مدير «شركة التوزيع السورية» محمد عيسى للاتفاق معه حول أمور التوزيع، فتوجهت الى مقر توزيع الصحف والتقيت محمد عيسى، وهو رجل بالغ اللطف والكياسة والاهتمام الجدي بعمله، فوقّعت معه اتفاقاً حسب الأصول. وبعد مضي عشرين سنة على ذلك أقول الحق بأن «شركة التوزيع السورية» بإدارة محمد عيسى كانت الوحيدة بين شركات التوزيع الأخرى التي دفعت لنا عائدات التوزيع بدقة ومن غير مراجعة، مع أن تلك المبالغ كانت طفيفة ولا قيمة عملية لها لأنها لم تصل يوماً الى أكثر من ثلاثماية دولار!

وبعد ساعة من لقائه مع خدام وافاني إيلي الى وزارة الإعلام وعدنا سوياً الى بيروت، وقال لي في الطريق إننا سوف نتوجه في اليوم التالي الى السراي الكبير في بيروت لمقابلة رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري في مكتبه.

الحقيقة أنني لم أكن أعرف رفيق الحريري شخصياً من قبل، لكنني كنت أسمع باسمه يوم شاع أنه يقوم على نفقته الخاصة بإيفاد أعداد كبيرة من الطلاّب اللبنانيين خلال فترة الحرب للدراسة في الجامعات والمعاهد الغربية في أوروبا وأميركا، بحيث يقال إن أعداد هؤلاء الطلاّب الموفدين على نفقة الحريري بلغت أكثر من ثلاثين ألف طالب وطالبة. لكنني تيقنت فيما بعد أن القصة تنطوي على تفاصيل أخرى، مؤداها أن الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية، لاحظت أن أعداداً كبيرة من الطلاّب اللبنانيين، ومعظمهم من الفقراء الذين لا يملكون القدرة على دخول الجامعات الخاصة، بدأوا يتوجهون طلباً للعلم الى دول المنظومة الاشتراكية، مثل رومانيا، وتشيكوسلوفاكيا، وروسيا، وأوكرانيا، وغيرها. ولوقف هذا التوجه اللبناني الى

(4) شغل ريمون روفايل منصب مدير الأمن العام في عهد الرئيسين الياس الهراوي ورفيق الحريري، وهو من بلدة صغبين المجاورة لبلدتنا، وكان والده أسعد شاهين روفايل رئيساً لبلدية صغبين في مرحلة ما قبل الستينات من القرن الماضي، ويمت بصلة قربى عائلية الى العماد اسكندر غانم قائد الجيش اللبناني السابق.

الدول الاشتراكية، أقامت الدوائر الأميركية برنامجاً لتحويل هذا التوجه باتجاه الغرب بتمويل سعودي أنيط تنفيذه بالحريري. فالأموال التي أنفقت بموجب هذا البرنامج، كما قيل لي، هي أموال سعودية برعاية أميركية، وليست من مال الحريري الخاص كما هو شائع.

ثم سمعت به من ابن بلدته صيدا الدكتور محمد عطا الله عندما عدت الى بيروت في 1982 ـ 1983 وكان محمد عطا الله رئيساً لمجلس الإنماء والإعمار، بينما كان الحريري يقوم باسم العاهل السعودي الملك فهد بن عبد العزيز بتنظيف شوارع بيروت من الركام الذي خلفته الحرب، ومنه أيضاً إزالة المتاريس التي أقامتها الميليشيات المتحاربة في شوارع بيروت. وقد ذكرت سابقاً ما قاله لي محمد عطا الله بهذا الشأن. والمرة الأولى التي شاهدته فيها عياناً كانت عندما جاء أمير الرياض سلمان بن عبد العزيز الى لندن في أواسط الثمانينات ليفتتح في مركز «أوليمبيا» للمعارض في بريطانيا معرضاً عنوانه «الرياض بين الأمس واليوم» بحضور الأمير تشارلز، ولي العهد البريطاني. وفيما كان الأميران سلمان وتشارلز يفتتحان المعرض بخطابات متبادلة كان رفيق الحريري واقفاً جانباً مع الزميل الراحل نبيل خوري[5] ووزير الإعلام السعودي الفريق المتقاعد علي الشاعر.

والمرة الثانية التي شاهدته فيها عن قرب كانت عندما حضرت من شرفة المجلس النيابي جلسة للمجلس في نهاية عام 1992 حيث استحضر الحريري لوحاً خشبياً وفلش عليه خريطة إعمارية لوسط بيروت وراح يشير عليها بعصا تشبه عصا «المايسترو» الذي يقود بها فرقة موسيقية، شارحاً للنواب مخططه لبيروت. ولا أدري ما إذا كانت تلك الجلسة جلسة الثقة بالحكومة. وأذكر أن نائب بيروت نجاح واكيم لم يكن حاضراً الجلسة، لكنه حضر في وقت متأخر، وقيل لي إنه استدعي ليرد على الحريري. والمعروف أن النائب واكيم كان من أشد معارضي مشروع الحريري، وقد أصدر تالياً بالتعاون مع الصيداوي الآخر تحسين خياط، صاحب تلفزيون «الجديد»، كتاباً عن المفاسد التي جرت في زمن الحريري بعنوان «الأيادي السود»، ومنها تمويله للميليشيات الرئيسية المتحاربة، وأبرزها «القوات اللبنانية»، والحزب التقدمي الاشتراكي، وحركة «أمل»، ومختلف القوى الفلسطينية[6].

---

(5) كان نبيل خوري يومئذ يُصدر مجلة «المستقبل» من باريس بتمويل سعودي، وهي المجلة التي عاد الحريري فاشتراها من صاحبها بعد فترة وجيزة من ذلك التاريخ، وأقفلها ليعود الى إصدارها بعد توليه الحكم في لبنان بشكل جريدة يومية ناطقة باسمه. وقد تولى رئاسة تحريرها في وقت من الأوقات الفضل شلق الذي عينه الحريري في البداية رئيساً لمجلس الإنماء والإعمار، وتالياً وزيراً للاتصالات في إحدى حكوماته.

(6) الطبعة التي في حوزتي من كتاب نجاح واكيم هي الطبعة الخامسة الصادرة عام 1998عن «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر»، أي خلال فترة إقفال «الميزان»، مما يعني أنني حصلت عليه

وكنا قد عالجنا هذا الموضوع من قبل أن نقع على كتاب نجاح واكيم المذكور في مقال عنوانه: «خفي على اللبنانيين دور الحريري في الحرب، فلم يفهموا دوره في السلم».

في صباح اليوم التالي لعودتنا من دمشق، توجهنا، إيلي وأنا، الى السراي فدخلنا الى مكتب عبد الرحمن الشيخة أمين عام رئاسة الحكومة الواقع مباشرة خارج مكتب رئيس الحكومة. بقيت أنا في مكتب عبد الرحمن الشيخة ودخل إيلي وحده الى مكتب الرئيس رفيق الحريري. وكنت أعرف الشيخة من مرحلة الستينات في بيروت، فلم يكن غريباً عني، ولذلك سمحت لنفسي بأن أسأله سؤالاً محدداً طلبت منه فيه أن يجيبني عنه بصراحة. فقلت له:

«يا عبد الرحمن، أنت عرفتهم جميعاً وأشرت الى صور رؤساء الحكومات اللبنانية المتعاقبة المثبتة على جدار خلفي في الغرفة الداخلية، فمن منهم الأكثر تميزاً في رأيك؟».

فرد علي من غير تردد:

«صائب سلام».

قلت له: «وهذا» مشيراً بيدي الى مكتب رفيق الحريري، فقال:

«هذا غير شكل»!.

وعندما قال ذلك دخلت امرأة بيروتية طالبة مقابلة الحريري، فسألها ما إذا كان لديها موعد معه، فقالت له إنها اعتادت أن تدخل على الرؤساء السابقين من غير موعد، فأجابها عبد الرحمن الشيخة بقوله:

«هلق كنا عمنقول هذا غير شكل . روحي يا أختي واطلبي موعد وارجعي في الوقت المحدد».

وفي خلال ذلك أطل إيلي من الباب واستدعاني للدخول الى مكتب الرئيس الحريري فسلمت عليه وجلست، وفور جلوسي سلّمته نسخة من بيان التعريف بالجريدة المنوي إصدارها من لندن، كالنسخة التي أعطيتها لعبد الحليم خدام في بلودان فوضعها على الطاولة أمامه، وراح يحدثنا في أمور عامة أولاً، فقال:

«إنني مسرور لأن إخواننا الخليجيين قرروا مساعدة لبنان بمبلغ 150 مليون دولار، لكن عن طريق البنك الدولي». فقلت له: «ولماذا عن طريق البنك الدولي؟ ألا يثقون بالحكومة اللبنانية؟».

قال: «لا أظن ذلك، لكن المهم أن يساعدونا».

ثم دخلت معه في حديث عن تصوري للجريدة التي أنوي إصدارها، فقال لي:

«أنت عملت محرراً في الصحف ورئيس تحرير، لكنك لم تصدر أي صحيفة

متأخراً فلم يكن من مصادر انتقاداتنا للسياسات والممارسات الحريرية خلال مرحلة التسعينات. وكان تحليلنا في ذلك الوقت أن انتخاب العماد إميل لحود رئيساً للجمهورية، على الرغم من المساعي الحريرية المحمومة لمنعه، كان بداية طريق الانحدار للحالة الحريرية في لبنان، وهو ما أكده نجاح واكيم في نهاية كتابه.

من قبل. فهل تعرف ماذا يعني إصدار صحيفة، وكم هي كلفة ذلك؟».

شعرت عندما قال ذلك أنه يستدرجني لطلب مساعدته، خصوصاً عندما ضرب لي مثلاً بمطبوعة رؤوف أبو زكي «الاقتصاد والأعمال»، وكأنه يقول لي إنه يدعم تلك المطبوعة. فقلت له:

«عندما عدت الى بيروت في مطلع الثمانينات كالمني رؤوف أبو زكي وتواعدنا على اللقاء في مكتبه ببناية منقارة بالقرب من قريطم، وطلب مني أن انضم اليه في المطبوعة المذكورة، لكنني اعتذرت عن ذلك لارتباطي في ذلك الوقت بعقد مع دار الصياد».

لكنه عاد فكرر القول بأن كلفة إصدار جريدة اقتصادية كبيرة جداً ، وخصوصاً إصدارها من الخارج. عندئذ قلت له، إن تصوري للأمر هو أن تكون المطبوعة ناتجاً جانبياً، بمعنى أن تصدر مستقلة من خلال أعمال مكتبنا في لندن الذي نعتبره الناتج الرئيسي الذي نعيش منه وتعيش منه الجريدة، وليس العكس. وقلب شفتيه وكأنه مستخف بهذا الكلام، أو غير مصدّق له. وقلت للرئيس الحريري في ذلك الاجتماع إنني أعرف مدير مكتبكم في لندن فؤاد ابراهيم، فرد عليّ فوراً بالقول:

«نحن ليس لنا أعمال في لندن، بل كل أعمالنا في فرنسا».

وقد شعرت من سرعة جوابه على هذا النحو أنه فسر كلامي على أنه من قبيل الطلب الى مكتبه بالتعاون مع مكتبنا!

وفي افتتاحية العدد الأول من «الميزان» تطرقت في تلك الافتتاحية الى المقابلة المذكورة بالقول: «لقد تأكدت قناعتنا الأصلية (أي إصدار الجريدة كناتج جانبي) بعد زيارة قام بها رئيس التحرير في مطلع أيار/مايو (1993) الى السيد رفيق الحريري رئيس الحكومة اللبنانية في مكتبه في مقر رئاسة الوزراء لكي يطلعه على المفهوم الذي سوف تقوم عليه الجريدة. ونقول مع الأسف إن رئيس الحكومة اللبنانية في ذلك اللقاء تحدث على موجة مختلفة. فقد زاره رئيس التحرير بصفته رئيساً للحكومة، فتحدث معه بصفته رجل أعمال»!

«فقد قال رئيس الحكومة يومها إن إصدار جريدة يحتاج الى مال كثير، وإنه لا بد لنا من إيجاد مجموعة متمكنة من رجال الأعمال تمدنا بهذا المال، وقدم مثالاً حصرياً هو مجلة «الاقتصاد والأعمال». إننا نعرف أن إصدار الصحف يحتاج الى مال، وخصوصاً إذا كانت الصحف المراد نشرها من طراز المشاريع الكبرى التي لا تقوى عليها إلاّ الدول ورجال أعمال من طراز الرئيس الحريري. لكنه أيضاً بإمكان أي مجموعة من الصحافيين المحترمين ذوي العقول النظيفة إصدار مطبوعة فعّالة بأقل ما يمكن من المال. إن كثرة المال ليست شرطاً حتمياً لصدور صحيفة جيِّدة. بل قد تكون كثرة المال في حالات معيّنة قيداً على حرية الصحيفة واستقلاليتها، فتهزم الغاية الأساسية من صدورها، إلاّ إذا كانت تلك

الغاية تحصيل المزيد من المال لا لأي هدف سوى تحصيل المال، والأمثلة كثيرة».

واختتمت «الميزان» مقالها الافتتاحي هذا بالقول: «ونعترف بأن «التنبيه» الذي وجهه الينا الرئيس الحريري (وكلمة «التنبيه» هي له) قد نبهّنا الى ضرورة التأني وعدم الاستعجال حتى يكون صدورنا موثوقاً كما نريده وكما تصورناه».

•••

من المصادفات غير المرتقبة في ذلك الوقت أن مكتبنا في لندن قدّم خدمة غير مباشرة الى الحريري عندما اتصل بنا المهندس نبيل نصّار من «دار الهندسة - الشاعر وشركاه» طالباً منا أن نعيد ترجمة الخطة الموسعة التي وضعها كبير الاقتصاديين في «دار الهندسة» آنذاك الدكتور روبرت سولومون للرئيس الحريري بعنوان: Horizon 2000 («أفق 2000»)، لأن الترجمة التي وضعت في بيروت كانت ركيكة وغير مفهومة.

وعندما اطلعت على الترجمة الموضوعة في بيروت قلت لنبيل نصّار إنه من غير الممكن تصحيح الترجمة القديمة، ولا بد من إعادة ترجمة النصوص، لكنه من المتعذر كلياً إعادة ترجمة الخرائط والرسوم البيانية لأن الوقت المحدد بأسبوع واحد ليس كافياً لهذه المهمة، فوافق على ترجمة نص الخطة وفذلكتها بمعزل عن الخرائط والبيانات المرفقة معها وهي كثيرة جداً، وكانت تلك الترجمة التي أجريناها في شركة «بروكسيما» الناشرة لجريدة «الميزان» تالياً هي الترجمة الرسمية التي اعتمدت في الدوائر المعنية. ومن خلال ذلك اطلّعت على الخطة الإعمارية لرفيق الحريري قبل أن يطّلع هو عليها.

حدث بعد أسابيع من ذلك أن أقيمت برعاية وزارة الخارجية البريطانية التي كان يرأسها الوزير دوغلاس هيرد[7] في ربيع عام 1994 ندوة دولية بعنوان «أسواق المال في الشرق الأوسط» حضرها مسؤولون مهتمون بالشؤون المالية وشخصيات اقتصادية من البلدان العربية المتصالحة مع إسرائيل، ومنها بشكل خاص مصر والأردن، كما حضرها وألقى كلمة فيها محافظ البنك المركزي الإسرائيلي آنذاك دايفيد كلاين، ومحافظ البنك المركزي المصري، وعاملون ومحللون أوروبيون وبريطانيون في الأسواق المالية العالمية، وبعض

---

(7) أكنّ احتراماً خاصاً للوزير السابق دوغلاس هيرد لأنه منحني الجنسية البريطانية عندما كان وزيراً للداخلية في حكومة المحافظين ما قبل الأخيرة بقيادة السيدة مارغريت ثاتشر عام 1987، ولأنه كاتب وأديب معروف من طراز رفيع له عدة روايات ذات طبيعة سياسية وبوليسية ومجموعة من القصص الصغيرة، كما وضع أثناء عمله السياسي وبعد تقاعده مجموعة محترمة من الكتب السياسية، منها: «حرب السهام» (1967)، «نهاية الوعود» (1979)، «البحث عن السلام» (1997)، «المذكرات» (2003)، «سيرة روبرت بيل» (2007)، وأخيراً «اختاروا أسلحتكم» (2010). وبعد انقطاعه عن العمل السياسي في نهاية التسعينات بعد توليه وزارة الخارجية، مُنح لقب البارونية عن «وستلي» المنطقة التي يعيش فيها من مقاطعة أوكسفوردشير. وكان انعقاد تلك الندوة برعايته من أسباب قراري حضورها ولو بكلفة عالية.

مدراء البورصات العربية. وقد دفعت مبلغ 750 جنيه استرليني لحضور تلك الندوة المغلقة.

في تلك الندوة «الدسمة» تحدث وزير مالية أردني سابق عن العملة العربية الموحدة في أسواق المال العربية، ووجود عملة حسابية دفترية من هذا النوع في التعاملات المشتركة، شارحاً أن وجود عملة عربية موحدة من شأنه توسيع مدى البورصات العربية المحدودة الأفق في الوقت الحاضر لأن العملة الموحدة تتيح لأصحاب الأموال في أي مكان في العالم العربي أن ينقلوا استثماراتهم بين مكان ومكان. وقد طلبت مداخلة تعليقاً على هذا الكلام قلت فيها: «لا لزوم لعملة عربية موحدة لأنه توجد في الواقع العملي عملة من هذا النوع هي الدولار الأميركي، حيث الدول العربية كلها تعتمده لتسعير المواد، ومنها من يتداول به في الأسواق المحلية مثل لبنان بدلاً من العملة الوطنية، ويسمُّون ذلك الدولرة التي جعلوا لها بيانات إحصائية رسمية خاصة بها، وهو معتبر لدى جميع العرب مستودعاً للقيمة يجري بموجبه تقويم كل شيء له قيمة من العقارات والبيوت الى الخواتم والأساور، وهناك دول عربية عديدة ربطت عملتها الوطنية به، تصعد بصعوده وتهبط بهبوطه، خصوصاً في لبنان ودول الخليج». وقلت ممازحاً وسط ضحك الحاضرين: «إن الناس في بلادنا يعشقون الدولار الأميركي الى درجة أنهم أقاموا له المطابع وطبعوه من غير استئذان»!

ضمن برنامج تلك الندوة كانت هناك فرصة لتناول الطعام وقت الظهيرة امتدت نحو أكثر من ساعة، وفي تلك الفرصة التقيت بمحض المصادفة روبرت سولومون كبير الاقتصاديين في «دار الهندسة» وواضع خطة الحريري المشار اليها، وكان حاضراً الندوة لكنه لم يتكلم فيها أو يدلي بأي مداخلة. لم أكن أعرفه من قبل، لكنني قرأت اسمه على الشارة المعلقة على صدره، فتقدمت منه وسلّمت عليه وأبلغته أنني قرأت خطته الإعمارية لبيروت «أفق 2000»، وأنني أشرفت على ترجمتها الى العربية. وبدا لي أنه تفاجأ بذلك، لكنه سألني:

«وما رأيك في تلك الخطة؟».

قلت له: «تريد رأيي بصراحة»، فأومأ برأسه بالإيجاب، عندئذ قلت له:

«إنها أكبر من أن يستوعبها لبنان، وهي مخالفة للطبيعة العمرانية المألوفة في بيروت التاريخية، وهي ستكون عالية الكلفة من دون لزوم، وهي ليست على مقاس حاجة اللبنانيين».

وفاجأني روبرت سولومون بأنه وافق على معظم التحفظات التي أبديتها، وقال لي إنه أبلغ الرئيس الحريري بذلك، أي بأن البذلة التي يجري تفصيلها فضفاضة على الجسم اللبناني، لكنه أصر بقوة وثقة على وضع خطة طموحة الى أقصى الحدود، كما قال!

ومما قاله لي واضع تلك الخطة على هامش ندوة «أسواق المال في الشرق

الأوسط» إنه يشك في إمكانية تطبيق الخطة التي وضعها كما هي، وإنه لا بد من تنحيفها مع الوقت لتتناسب مع الواقع اللبناني.

•••

في مطلع عام 1994 جاء رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري الى لندن في زيارة رسمية ومعه وفد كبير ضم فؤاد السنيورة، ونهاد المشنوق، ووزير الداخلية آنذاك بشارة مرهج، وجان عبيد، وآخرين. يومها كان جون مايجر رئيساً للحكومة البريطانية، وكانت «الميزان» في بداياتها الأولى، وكانت قد نشرت بروفيلاً لفؤاد السنيورة مع صورة كاريكاتورية له بريشة علي عثمان بعنوان «التحصلدار»، بالنظر الى دأبه على فرض ضرائب جديدة على اللبنانيين بصفته وزير دولة للشؤون المالية آنذاك. وقد ذكّرنا في هذا الصدد بحكاية مصرية رواها لي محمود السعدني عن تحصلدار في الحقبة الأيوبية اسمه «صاعد» كان دأبه أيضاً دأب السنيورة في لبنان من حيث تصعيد الضرائب على الناس فهجاه أحد شعراء ذلك الزمان بقوله:

لعن الله صاعداً من أبيه وصاعداً
وبنيه فنازلاً واحداً ثم واحداً

وعندما طلبنا من علي عثمان أن يرسم السنيورة، درس صورته، وقال إن صاحب الصورة يبدو له «رجلاً بلا ملامح»، وقد كتبنا ذلك في البروفيل المذكور. ثم التقيت الصديق القديم جان عبيد في ردهة فندق «دورشستر» حيث كان الوفد اللبناني نازلاً، فعرّفني على فؤاد السنيورة الذي لم أتقاطع معه في البنك المركزي، لأنه عندما أدخله الرئيس سليم الحص معه الى الرقابة على المصارف كنت أنا قد غادرت البنك (راجع الفصل الوارد في هذا الكتاب بعنوان «بنك البنوك»). ومازحني جان عبيد بقوله: «كيف تقولون عن السنيورة إنه بلا ملامح، ألست ترى كل تلك التشوهات في وجهه؟». ثم حكى لي أنه في العرض العسكري الذي جرى بمناسبة عيد الاستقلال الأخير (22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1993)، كان واقفاً الى جانب فؤاد السنيورة على المنصّة الرسمية فلمح من بعيد الضابط في الجيش الذي هجم على مكتب السنيورة لأنه حجز رواتب العسكريين راكباً دبابة من ضمن العرض المذكور، فقال جان للسنيورة: «أبعد عني لأنه قد يخطر لهذا الضابط أن يطلق عليك قذيفة من مدفعه، أو أنه قد لا يكون ماهراً في الرماية فيخطىء الهدف، فأروح أنا بجريرتك».

وكان قد تردد في بيروت حينها أن فؤاد السنيورة قد سجّل باسمه وأسماء عائلته وحواشيه ستين شركة استعداداً لقطف ثمار مشاريع الإعمار المرتقبة، حتى أن جريدة «النهار» التي وصفناها في بروفيل السنيورة بأنها «ذات الملامح الحريرية» استهجنت الخبر في تعليق كتبه المدعو «زيّان» على صفحتها الأولى

بعنوان «أستُّون شركة يا فؤاد؟». وعلقنا على استهجان «النهار» بالقول: «هل هذا يعني أنه لا بأس لو كانت ثلاثين؟»!

لكن الأهم من ذلك كله ما قاله لنا في غداء خاص الوزير عمر مسقاوي، وزير الأشغال والنقل في حكومة الحريري تلك، من أنه تلقى خطة إسرائيلية استراتيجية للنقل البري انطلاقاً من القدس المحتلة، بالقطارات والأوتوسترادات في جميع الاتجاهات حول حوض البحر المتوسط وصولاً الى أوروبا. وقد كان ذلك الغداء الخاص الذي أقامه المهندس سمير حريكي على شرف الوزير مسقاوي في مطعم «لوكولوس» اللبناني في منطقة «نايتس بريدج» محدوداً يضم الى جانب الوزير ومضيفه أربعة أشخاص فقط كنت واحداً منهم. وقال مسقاوي في ذلك اللقاء إنه تلقى كامل الخطة الإسرائيلية عن طريق السفارة الفرنسية في بيروت. وفي العدد التالي من «الميزان» نشرت تفاصيل الخبر كما استقيناه من وزير الأشغال والنقل اللبناني آنذاك بعنوان رئيسي على الصفحة الأولى يقول: «خطة إسرائيلية للنقل البري عبر البلاد العربية».

والحقيقة أنه كان قد تردد من قبل حديثٌ عن مشروع إقامة خط ساحلي للسكك الحديد حول المتوسط يربط غرب المتوسط بشرقه عبر إسرائيل، وعندما عقد رفيق الحريري ندوة مع رجال الأعمال اللبنانيين في فندق «دورشستر» اللندني، بدعوة من جورج عسيلي رئيس الشعبة اللبنانية في غرفة التجارة العربية ـ البريطانية، وكنت حاضراً تلك الندوة، سأله جورج عسيلي عن مشروع القطارات هذا وما إذا كان فيه شيء من الصحة، أو لزوم للتنسيق مع إسرائيل، فأجاب بشيء من العصبية قائلاً: «إن لبنان لن يفعل شيئاً من هذا القبيل أو يبحث فيه قبل إحلال السلام بصورة تامة، ومن الآن حتى ذلك الوقت كل واحد يعمل ترانو». واعتبرت أن هذا الكلام لا يشكل نفياً قاطعاً طالما أن كل واحد عليه أن يمد خطّه في أراضيه، ولا يبقى إلاّ ربط تلك الشبكات مع بعضها متى حان موعد السلام النهائي، كما كان متوقعاً في ذلك الوقت، ثم تبيّن لاحقاً أنه مجرد سراب.

وفي التعليق الذي نشرته «الميزان» حول كلام الحريري قلنا: «الواقع إن تلك العبارة اللطيفة الظريفة التي ضحك لها الحاضرون فور سماعها من فم الرئيس الحريري تصلح شعاراً لدولة الترويكا اللبنانية حيث كل واحد عامل ترانو، وحيث هناك ترانات تعمل على خطوط ضيقة وترانات تعمل على خطوط عريضة، كما أن هناك ترانات كثيرة تعمل على خطين وربما على ثلاثة خطوط».

ثم عقد رفيق الحريري مؤتمراً صحافياً في «جمعية المراسلين الأجانب» في لندن كان نجمه الجالس الى جانب الحريري مستشاره نهاد المشنوق الذي نفاه من لبنان لاحقاً قوميسار الأمن السوري آنذاك غازي كنعان ولم يستطع أن

يفعل شيئاً له سوى استضافته في باريس تحت نظر صديقه جاك شيراك. لكن الحريري في ذلك اللقاء مع المراسلين الصحافيين لم يقل شيئاً مفيداً بل راح يداعبهم ويداعبوه، وكأن شغل الصحافيين هو المداعبة لا المراسلة. فالشيء الوحيد المفيد الذي نطق به هو أن لبنان لن يقبل بتوطين الفلسطينيين أو تجنيسهم، وداعب الصحافيين مداعبة قاسية عن ياسر عرفات عندما سألوه ما إذا كان سيستقبله في بيروت كما استقبله الملك فهد في الرياض، فقال لهم: «إنه لم يقدِّم طلباً». وهنا حاول بعض الصحافيين الفلسطينيين رد التحية بمثلها فسألوه عن زيارة أحمد جبريل، قائد «الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة» الى بيروت قبل فترة، وكأنهم يحطّون على عينه بأن بيروت مشرعة الأبواب أمام جبريل وموصدة في وجه عرفات، وسألوه ما إذا كان جبريل قد حصل على تأشيرة دخول، فأجابهم باستخفاف: «أنا شخصياً لم أشاهد باسبوره»!

وسأله بعضهم عن السياحة في لبنان، فقال لهم بالطريقة ذاتها: «لبنان ليس فندقاً». وكان الى جانبي في القاعة مراسل بريطاني يعرف لبنان وكان موجوداً في بيروت عندما أبعدت إسرائيل بعض قادة «حماس» و«الجهاد الإسلامي»، وأشهرهم آنذاك الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، الى «مرج الزهور»، وجرت محاولات لإبعادهم الى الداخل اللبناني، فأطلق الحريري كلمته المشهورة: «لبنان ليس مكبّاً»، فثارت ثائرة الفلسطينيين لظنهم أن الحريري اعتبرهم بمثابة «زبالة» يراد كبُّهم في مكبّ الزبالة اللبناني. فقال لي إن الحريري يتحدث دائماً عن ما ليس لبنان، كالقول ليس فندقاً وليس مكباً، لكنني لم أسمعه ولا مرة يقول ما هو لبنان. فأشرت له بيدي الى المنصة التي يجلس عليها رفيق الحريري ونهاد المشنوق وقلت له: «هذا هو لبنان».

وكان أن أقام فرع بريطانيا لنادي خريجي الجامعة الأميركية حفل عشاء كبير على شرف الحريري في فندق «دورشستر» بهدف جمع التبرعات فحجزت طاولة من عشرة مقاعد دعوت اليها بعض الأصدقاء، لقاء إعلان في المطبوعة الخاصة بالاحتفال عن شركة «بروكسيما» التي كنت أديرها والتي كانت تُصدر جريدة «الميزان». وبعد كلمة الترحيب التي ألقاها هشام الصلح بصفته رئيس فرع النادي آنذاك، صعد الحريري الى المنصة ليتحدث عن الظروف التي اقتادته الى الحكومة في لبنان، وروى للحاضرين محادثة مع صديق له قال له فيها صديقه: «يا أخي لبنان ليس فيه ماء وليس فيه كهرباء وليس فيه طرقات ويكويه الغلاء.. لكن يا أخي البلد حلو». فعلّق أحد المدعوين على طاولتي بالقول: «طالما أن الحريري يعتقد بأن البلد حلو بحالته الحاضرة، فهذا يعني أنه لا لزوم للماء والكهرباء وتخفيف الغلاء»!

كانت الفترة السابقة لإصدار «الميزان» من عام 1993 صعبة للغاية سواء على الصعيد الشخصي أو على صعيد العمل. فقد ذهبت الى بيروت في مطلع تلك

السنة لإجراء بعض الترتيبات المتعلقة بتجهيز مكتب للجريدة هناك، وتأسيس شركة لبنانية تحمل الإسم ذاته للشركة الأم في الخارج وهو «اللبنانيون المتحدون للصحافة والنشر»، وفتح حساب مصرفي باسم الشركة في بيروت. ثم عدت الى بيروت في ربيع تلك السنة، كما مرّ، وهي الزيارة التي تمت فيها مقابلة عبد الحليم خدام في بلودان ثم في دمشق، ومقابلة رئيس الحكومة اللبنانية رفيق الحريري في السراي الكبير. وبعد عودتي الى لندن بأقل من أسبوعين توفي عم زوجتي أديب الفرزلي (14 حزيران/يونيو 1993)، فترددت في الذهاب الى بيروت الى أن بلغني أن هناك خلافاً عائلياً قد نشب ربما دفع ببعضهم الى مقاطعة الجنازة، فاضطرني ذلك الى العودة السريعة للمشاركة في حلحلة العقد العائلية التي كادت تتطور الى ما لا تحمد عقباه، لكن الأمور انقضت على خير فعدت مسرعاً الى لندن بعد الجنازة لمواصلة استكمال الترتيبات الكثيرة اللازمة لمشروع من هذا النوع. وبعد شهر تقريباً بلغني خبر وفاة والدتي في منتصف تموز/يوليو من تلك السنة، لكنني لم أستطع أن أعود الى بيروت للمشاركة في جنازتها. وقد تعقدت الأمور أكثر لأن نجلي الأكبر عامر كان قبل وفاة جدته قد أعد الترتيبات المتعلقة بعرسه في كنيسة مار نقولا التابعة لمطرانية زحلة للروم الأرثوذكس، فوقعنا بين تأجيل العرس وبين إجرائه على الساكت، كما يقال. وقد تم الاتفاق على القيام بالعرس كما هو مقرر، لكن بعد أسبوع من قدّاس أربعين والدتي في كنيسة القرعون برعاية مطران زحلة اسبيريدون خوري. فاقتضى ذلك أن يذهب الى لبنان جميع أفراد العائلة رجالاً ونساءً وأطفالاً لحضور مناسبة تجمع الأتراح والأفراح في وقت واحد، في نهاية شهر آب/أغسطس من تلك السنة.

ولما كان ابناي الأصغران، عماد وجهاد، قد غادرا لبنان صغيرين ولا يعرفان عنه الكثير، فقد اصطحبتهما في جولة شملت قلعة بعلبك التي أدهشتهما، فلم يصدقّا أنها من صنع البشر، ثم تغدينا سوياً في وادي زحلة. كما اصطحبتهما في جولة شمالية الى جعيتا وجبيل والكورة وإهدن، حيث تناولنا الغداء على نبعها المشهور، فالى طرابلس والبترون والعودة عن طريق الساحل. وكان بودي لو اتسع الوقت لنذهب الى الأرز لأنني شخصياً لم أذهب الى هناك في حياتي وحتى هذه الساعة. ذلك أنني في حياتي السابقة في لبنان لم يكن لي مزاج سياحي، فكان البقاع هو المكان الوحيد الذي يشدني في نهاية كل أسبوع، وفي خلال أي عطلة. لكنني أثناء إقامتي في لندن منذ أربعة عقود تقريباً، شغلت السياحة حول العالم حيِّزاً كبيراً من وقتي واهتمامي الى درجة أنني كنت مزمعاً على إصدار مجلة سياحية متقنة بالشراكة مع الزميل أنطوان شكر الله حيدر اتفقنا على أن نسمِّيها «باسبور»، وذلك بالنظر الى أنه كان في متناولنا مخزون هائل من الصور الفوتوغرافية الملوّنة والفريدة بحكم الشراكة

القائمة آنذاك بين شركتنا «بروكسيما» ووكالة «ريكس» للتحقيقات المصوّرة.

واقتضت الحاجة أن أعود الى بيروت مرة رابعة في شهر أيلول/سبتمبر من عام 1993 لإجراء ترتيبات توزيع الجريدة في لبنان[8].

•••

كانت فكرة «الميزان» أكبر من مجرد جريدة. كنا ننوي أن نجعلها منبتاً لمطبوعات متميزة تملأ فراغاً ملحوظاً في الفضاء الثقافي العربي. وكانت الخطوة التالية بعد صدور الجريدة في شهر تشرين الأول/أكتوبر[9] من عام 1993 أننا بدأنا العمل على إصدار معجم للتعابير والمصطلحات الاقتصادية والمالية باللغتين العربية والإنكليزية، على غرار معجم المصطلحات البترولية الذي أصدره مكرم عطية في ستينات القرن الماضي بالتعاون معي ومع نزيه الحكيم ومعد الكيالي، كما سلف القول، إنما مع اختلاف في الأفق وفي طريقة النشر. وقد أطلقنا على المعجم اسم «المرجع في الاقتصاد»، وخططنا له أن يكون أكثر من قاموس وأقل من دائرة معارف أو موسوعة أكاديمية. فالاختلاف الأول كان في النطاق، لأننا رأينا من المفيد تبعاً للتداخل بين علم الاقتصاد ومـدارات أخـرى ذات صلة، أن يشمل المعجم بالإضافة الى المصطلحات الاقتصادية الكلاسيكية مصطلحات وتعابير حديثة أو مستجدة في المجالات المصرفية، والمجالات المالية والسوقية، ومجالات التأمين والمحاسبة، ومجالات التجارة والقوانين التجارية. واتفقنا من البداية على أن لا نكتفي بتعريب المصطلحات كلمة بكلمة كما في القواميس التقليدية، بل تعدينا ذلك الى شرح معاني تلك المصطلحات واستخداماتها العملية. وقد ارتأينا، لأسباب عديدة ومختلفة، عدم نشر المعجم في البداية كمجلد واحد ضخم، بل بشكل مجلة كل عدد منها يمثل حرفاً من الأحرف الأبجدية. وبالفعل أصدرنا العدد الأول من المجلة يضمُّ المداخل المعربة والمفسّرة الواقعة بالتسلسل ضمن الحرف A ، والغاية من الصدور بهذا الشكل هي إمكانية الحصول على إعلانات تجارية تُنشر على أغلفة المجلة فتسهم في تغطية نفقات الإصدار. وبالفعل صدر العدد الأول وعلى غلافه الأمامي صورة كونراد أديناور المستشار الأول لألمانيا الاتحادية بعد الحرب العالمية الثانية باعتباره مؤسس النهضة الاقتصادية الألمانية الحديثة.

ويمكن القول بأننا بدأنا إصدار المعجم الاقتصادي بالشكل المذكور على

---

(8) أجريت الترتيبات الأولى للتوزيع مع «الشركة العربية للتوزيع» عبر خليل الديك، ثم انتقلنا تالياً الى «شركة التوزيع اللبنانية» التابعة لجريدة «النهار» من خلال عماد تويني نجل فؤاد تويني شقيق غسان تويني.

(9) اخترنا إصدارها في ذلك التاريخ بدل تأجيله الى مطلع السنة الجديدة، لأن موعد صدورها في الوقت الذي صدرت فيه يقع في «برج الميزان» (ليبرا) مجاملة للمعتقدات الفلكية المستحكمة باللبنانيين.

سبيل الاختبار وجس نبض السوق، لكنه لم يلقَ الاستجابة المطلوبة أو التقدير الذي يستحق، فصرفنا النظر عنه، وقد نكون تسرعنا في ذلك لأنه كان بالإمكان إيجاد طرق أخرى لتمويله وإصداره على نحو مختلف. وقد اقترح بعض الزملاء أن نضع على غلافه صورة مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز آل سعود بدلاً من صورة أديناور، لكننا لسنا من أهل تلك الأساليب التي لا هدف منها سوى الحصول على المال كيفما اتفق وعن أي طريق كان. ولست أدري ما كان سيصيب من النجاح لو صدر دفعة واحدة بشكل قاموس عادي، وإن كان تقديري أنه لن يكون أحسن حالاً في الوضع الراهن للعالم العربي. على أن تلك التجربة الفاشلة تجارياً كان لها إطار ثقافي لا يستهان به بالنسبة الى الذين عملوا في البحث والتدقيق وابتداع المصطلحات المعبرة عن معاني الكلمات المراد إيضاحها أو شرحها. وأنا، على الصعيد الشخصي كمشارك في الجهد المذكور، كانت التجربة مفيدة لي جداً وشكّلت تحدياً يكاد يكون مستحيلاً لجعل اللغة العربية تُجاري متطلبات عصر لا علاقة عملية لها في صنعه وبالتالي صنع مصطلحاته.

•••

منذ أن بدأت العمل في مجلة «الحوادث» عام 1979 تعرّفت على عبد الكريم المدرس مؤسس «غرفة التجارة ـ العربية البريطانية» في لندن[10] ونشأت بيننا صداقة متينة استمرت حتى وفاته في القاهرة قبل سنوات قليلة. وقد فاتحته في أمر «المرجع في الاقتصاد» لأعرف منه ما إذا كان ممكناً أن تتبنى غرفة التجارة إصداره والمساعدة على توزيعه، فصارحني بأن مشروعاً من هذا النوع يحتاج الى موافقة مجلس الإدارة ومجلس السفراء العرب، وقال لي إن موقفه لدى السفراء العرب قد ضعف بعد الاجتياح العراقي للكويت، وإنه يتوقع عزله من منصبه كما حدث فعلاً بعد سنوات قليلة. لكنه أبلغني أن الدول الخليجية سوف تقيم معرضاً تجارياً في لندن ويمكنه أن يساعد «الميزان» بقدر ما هو مسموح له بصفته أميناً عاماً للغرفة من غير الرجوع الى مجلس الإدارة، فاقترحت عليه أن نصدر ملحقاً خاصاً بمناسبة المعرض، وأن نتواجد فيه كعارضين لبضاعتنا. وبالفعل أصدرنا في شهر أيلول/سبتمبر 1994 ملحقاً بشكل مجلة ملوّنة تعمدنا أن يكون تكريماً لعبد الكريم المدرس الإنسان العروبي البعيد النظر الذي فعلت الدول العربية المستحيل لإزاحته، أكثر مما كان ترويجاً للمعرض، فوضعنا

---

(10) في سنة 2005 أصدر عبدالكريم المدرس عن «منتدى الحوار العربي ـ الأوروبي» الذي كان أسسه في لندن بعد خروجه من «غرفة التجارة العربية ـ البريطانية»، كتاب «أحداث لها تتمة، قصة غرفة التجارة العربية ـ البريطانية»، روى فيه، الى جانب سيرته الذاتية، مراحل وصعوبات تأسيس الغرفة، وما تعرض له من مضايقات من السفراء العرب أدت الى استقالته. ومن عنوان الكتاب يبدو أن عبدالكريم المدرس كان ينوي إتمام القصة في كتاب آخر، إلاّ أن المنية دهمته وهو في القاهرة قبل إتمامه.

صـورة عبد الكريم على غلافه بعنوان «الرجل والمعرض»، وكتبنا للملحق افتتاحية بعنوان «الأسـواق تُفتح ولا تُمنح»، وهـو عنوان نقدي لاتكال العرب على غير أنفسهم في كل شـيء تقريباً.

لكن من سـوء حظ عبد الكريم المدرس أنه كان عراقياً في زمن النبذ العربي للعراق والتآمر الدولي عليه بتواطؤ عربي. وكان زميلي أنطوان شـكر الله حيدر يعجب لمناداتي عبد الكريم تحبباً «أبو وضّاح الورد»، لكنه تالياً اسـتساغ ذلك وصار يردده بإعجاب. رحم الله أبا وضّاح وطيّب بالورد ثراه.

في زمان عبد الكريم المدرس كانت «غرفة التجارة العربية - البريطانية» تمثل محاولة وحدوية لإعطاء معنىً وهدفاً للعمل العربي المشترك، وكان أبو وضاح يدرك القيمة القومية لمبتغاه من الغرفة، ويدرك في الوقت ذاته هشاشـة الوضع العربي الذي يعمل من خلاله، ويفهم المساعي والإشـارات العربية المعاكسة له. ومن حسن حظه أن الواجهة البريطانية للغرفة ممثلة برئيسها السير ريتشارد بومونت كانت تقيه من المتربصين عرباً وإنكليز، لأن السير ريتشارد، رحمه الله هو الآخر، كان إنساناً نبيلاً بكل معنى الكلمة ومحباً للعرب ومتعاطفاً مع قضاياهم المحقة منذ أن كان سفيراً لبلاده في مصر الناصرية وبعض البلدان الأخرى. فقد أشعت «غرفة التجارة العربية - البريطانية» في عهد هذا الثنائي المتميز المؤلف من عبد الكريم المدرس والسير ريتشارد بومونت، بحيث تحولت الى مركز استقطاب غطّى على جميع السفارات العربية في لندن متفرقة ومجتمعة، مما يفسر الى حد بعيد حساسيات بعض السفراء العرب تجاه عبد الكريم المدرس الذي جعل من غرفة التجارة سفارة العرب الوحيدة الفاعلة ليس في بريطانيا فحسب، بل في جميع أنحاء أوروبـا، حيث كان طموحه أن يوحد الغرف التجارية العربية - الأوروبية ككيان واحد تكون فيه غرفة لندن القدوة القائدة. وحتى في الغرف الأوروبية كان الذين فهموا عليه قلة، كان من بينهم الصديق السوري المحترم محمد السيد الأمين العام لغرفة التجارة العربية - اليونانية في حينه. وقد كانت لي أحاديث مطوّلة مع محمد السيد حول هذا الموضوع خلال الزيارات القليلة التي قام بها الى العاصمة البريطانية.

والآن وقـد أصبح عبد الكريم المدرس في ذمـة الله أقـول بأنه كـان أميناً لصداقتي معه أمانته للغرفة التي نهض بها وجعلها منارة قومية، فخذلني أكثر من مرة في موضوع «الميزان» حتى لا يقال عنه إنه يؤثر أصحابه، ففهمت قصده ولم ألحّ عليه، مع أن طموحي كان مكملاً لطموحه من حيث جعل «الميزان» حالة موازية ومكملة لغرفة التجارة. وعلى الرغم من ذلك، استمرت صداقتي معه حتى النهاية فلم يجد من يواسيه في مرضه ومحنته وانكساره سوى قلة قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة يشرفني أنني كنت واحداً منهم. وفي الأشـهر الأخيرة قبل مفارقته الحياة أسرّ الى الزميل أنطوان شكرالله حيدر بقوله له:

«إنني نادم لأنني لم أفعل لسليمان الفرزلي ولجريدة «الميزان» ما كانوا يستحقون يوم كنت قادراً على ذلك».

وشعوري عندما بلغني ذلك أن عبد الكريم ما كان يجب أن يتأسف أو يندم، لأننا في «الميزان» وقتها لم نكن نسعى الى كسب مادي بقدر ما كنا نريد الاستمرار لاستكمال توضيح الفكرة اللبنانية كعدسة مكبرة للعروبة والقومية العربية، واستمرار مشروع النهضة الفكرية العربية، وهي أهداف كانت تجري في عروق عبد الكريم المدرس ويعمل من أجلها على طريقته وفي مجاله.

كان لعبد الكريم المدرس رأي في مشروع الوحدة الأوروبية الذي كان جارياً في أيام غرفته على قدم وساق. فقد قال لي مرة وأنا جالس معه في مكتبه وحدنا إنه يعتبر مشروع الوحدة الأوروبية محاولة جدية لإحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة، ومن ضمنها الهيمنة على العالم العربي مشرقاً ومغرباً، فأشرت عليه حينها أن يكتب رأيه هذا في الوقت المناسب وبالوسيلة المناسبة. ومن ضمن هذا التصوُّر كان يرى أنه لا بد من قيام حالة عربية اتحادية موازية تخيّل، ربما، أنه بالإمكان أن يقدّم أنموذجاً لتجسيد هذا التصور من خلال الغرفة، بينما كان تصوري، وما زال، أن الحالة المشار اليها لا يمكن أن تتجسد مادياً على الأرض ما لم تتبلور فكرياً أولاً من خلال مفاهيم حديثة قابلة للتحقق.

ولست أظن أن عبد الكريم المدرس عندما قال ما قال للزميل أنطوان شكر الله حيدر في أيامه الأخيرة كان يعبِّر عن تقصير في مساعدته «الميزان» مادياً، بل كان يعبِّر عن ندمه على رفضه المشاركة الكاملة في «الميزان» عندما عرضتها عليه ذات يوم خشية أن يتخذ السفراء العرب من ذلك حجة لضربه. ومع أنه من غير المجدي فتح الموضوع الآن بعد فوات الأوان، فقد كان رأيي مناقضاً لرأي عبد الكريم المدرس من هذه الناحية، لأن السفراء العرب إن فاتتهم هذه الذريعة أو المناسبة لاقتلاعه فإنهم سوف يتحينون غيرها،(وقد فعلوا)، بالإضافة الى اعتقادي أن مشاركته في «الميزان» كانت ستقويه ولا تضعفه كما كان يعتقد هو. لكن ذلك على أهميته في حينه بالنسبة إلينا كفريق نصارع كافة الظروف المعاكسة، فإنه اليوم بالنظر اليه بعد عقدين من الزمن، يدفعني الى القول بأن مراحل التوافق والتعارض بيني وبين عبد الكريم المدرس لم تنل من صداقتنا الصافية واحترام الواحد منا للآخر ونظرته الى الأمور المتعلقة بهدف مشترك أفلت من بين أيدينا، وربما أسهمنا في تبديده بطريقة أو أخرى.

•••

عندما بدأ الأمن العام اللبناني يضايق الجريدة بسبب موقفها الناقد والمعارض للتوجهات الاقتصادية التي اتخذها رئيس الحكومة رفيق الحريري، باعتبارها مطبوعة وافدة من الخارج، خطر لي أن أحصل على امتياز جريدة غير سياسية في لبنان، بغية إصدار طبعة لبنانية من «الميزان» داخل لبنان.

فذهبت الى نقابة الصحافة في مقرها الجديد لزيارة النقيب محمد بعلبكي الذي استقبلني بالترحاب. وأبلغت النقيب بعلبكي عن رغبتي في إصدار مطبوعة اقتصادية من بيروت، وعن نيتي تسجيل مطبوعة باسم «الميزان»، فقال لي إنني لا أستطيع ذلك لأن هناك عنواناً بهذا الإسم لمطبوعة متوقفة عن الصدور، فعرضت أن أشتري الإسم فقال إن أصحابها لا يبيعون لكنهم يؤجرون الجريدة، وطلبوا إيجاراً زائداً عن اللزوم فلم نقبل. واقترحت على النقيب بعلبكي أن نأخذ عنوان «الميزان اللبناني» أو «الميزان العربي» فقال إن الأسماء المركبة غير مستحبة لأنها تخلق مشاكل ومنازعات مع من يملكون الإسم المفرد. وطلب مني النقيب أن أختار إسماً آخر، فاقترحت عليه اسم «الموازين» فوافق على الفور، وقد اخترت هذا الإسم لأنه يتيح لي أن أقسِّم الأبواب الداخلية للجريدة على وزن «الميزان» من خلال عنونة الصفحات ما عدا الأولى والأخيرة حسب المواد التحريرية، أو الترويسات كما نقول في عالم الصحافة اللبنانية، مثل «الميزان اللبناني»، و «الميزان السوري»، و «الميزان السعودي» وما الى ذلك مثل «الميزان البيئي»، أو «الميزان المالي»، وهكذا... تحت عنوان «الموازين». وكان وزير الإعلام في ذلك الوقت ميشال سماحة الذي وقع القرار باسم «الموازين» ونشره في الجريدة الرسمية.

لم أكن أعرف ميشال سماحة من قبل، لكننا بعد ذلك التقينا في باريس فتعشينا سوياً في مطعم صيني مشهور على مقربة من فندق «كوين اليزابيت» الذي كان يقيم فيه العميد ريمون إده، ميشال سماحة وزوجته، وإيلي الفرزلي وزوجته، وأنا. لكن الحظ لم يسعف في إصدار تلك الجريدة الافتراضية من بيروت، فبقيت حتى الآن مجرد رخصة في الجريدة الرسمية بتوقيع ميشال سماحة.

وخاب فألي في أن تتحول «الميزان» الى «موازين» ولم تلبث أن اختفت عن الشاشات فلم ينتقص ذلك من قدرها شيئاً كما سنبيِّن في الكتاب المكمِّل الخاص بها كما تستحق بصفتها المرجعية التوثيقية الموثوقة للمرحلة الحريرية، ولصورة لبنان المطلة مع تلك المرحلة.

قراءة في الذات

«رأيُنا صوابٌ يحتملُ الخطأ، ورأيُ غيرنا خطأٌ يحتملُ الصواب،
ومن جاء بأفضلَ من قولِنا قلناه»
الإمام الشافعي

وعدت في سياق الكتاب، عند الحديث عن مسألة البقاء ضمن وصف أطلقه عليَّ الصديق القديم رجا الصيداوي بكلمة survivalist الإنكليزية، أن أقدم ذاتي في مرآة ذاتي.

وأقول هنا إن الكتابة التقويمية، أو بالإنكليزية valedictory writing هي من أصعب أنواع الكتابات، وأصعبها التقويم الذاتي. ومع ذلك سوف أحاول أن أرسم لنفسي ومسيرتي صورة ذاتية واقعية غير منفصلة عن الأفكار والمثُل والمحاولات الفكرية والمهنية التي رسمت حدود وآفاق تلك المسيرة وأبرزها بالقلم العريض تلك العلاقة الجدلية بين لبنان والعروبة، أو قل بين الفكرة اللبنانية الأصلية السابقة للوجود الصهيوني في فلسطين المحتلة، وبين فكرة القومية العربية والوحدة العربية السابقة للتناحر الديني والطائفي اللاحق لقيام المشروع الصهيوني في فلسطين.

فإذا كان المقصود بفكرة البقاء هي تقصيري في السعي الى المال، فإنني أقول إن طالب المال عن غير وجه شرعي هو عبدٌ لمن فوقه ومستعبدٌ لمن هم دونه، خصوصاً في الحالة العربية السائدة في عصر الثروة النفطية الدافقة بغير حساب أو ضوابط، وهو عصر كما يرى الجميع أفرز طفيليات عديدة وخبيثة أفسدت النخب الثقافية، بل أفسدت شرائح واسعة من الناس ما كانوا لولا ذلك ليتحولوا الى رعاع ومخرِّبين، يضعون الأمور في غير نصابها ويقلبون المقاييس فيصبح الصديق عدواً والعدو صديقاً، والخائن وطنياً والوطني خائناً، ويعلو السفلة والأوغاد ويهبط الأوادم والشرفاء. والأهم من ذلك كله، تخريب مفاهيم الحرية، وضرب الحريات الخاصة والعامة على امتداد العالم العربي، بل خنق روح الحرية التي هي مبرر الوجود البشري أصلاً، بما في ذلك حرية الاختلاف كما عبَّر عنها الإمام الشافعي في الكلمة الواردة أعلاه.

ولا أخفي أنني من صغري ونشأتي الأولى تأثرت بالمفاهيم البسيطة التي كان المرحوم والدي يعبر عنها بلغته المقطوفة قطفاً من دوحة الصفاء والوجدان الحي، حيث كان يعتبر أن القناعة والبساطة هما سرُّ السعادة على الأرض. وكانت توصيته لي من غير أن يقولها، ومن خلال مسلكه الشخصي، أن أفرح بما عندي مهما كان قليلاً، ولا أحزن بما عند غيري مهما كان كثيراً، لأنه ما من أحد لديه شيء إلاّ وهناك كثيرون لديهم أكثر منه. يا بني، قال لي مرَّة، إياك والحسد، لأن الحسد يوِّلد الحقد، والحقد هو وجه من أوجه الموت. هذا إذا كنت تريد أن تعيش بسلام.

ثم إن لعائلتنا عموماً تاريخاً مشهوداً في نصرة الضعفاء والمستعضفين، ومقاومة الظلم، وإحقاق الحق، والدفاع عن القضايا العادلة ولو كانت خاسرة. والذين منا عملوا في الحقل العام على مرِّ الأجيال تركوا إرثاً مشرِّفاً من المواقف الوطنية الصعبة سواء على المنابر أو في المجالس والمجامع. وأحسب أنني كنت أميناً لهذا التراث وزدت عليه.

والآن بعد دخولي في السادسة والسبعين من العمر، أتطلع حولي فأجد أن لي زوجة أحبها وتحبني، وأربعة أولاد ناجحين، وعشرة أحفاد نجباء، كبراهم، سيرينا سابا، تتخرج من الجامعة هذه السنة، وتقول لي دائماً إن طموحها أن تكون مثلي لأنها تجيد الكتابة. وفي عيد ميلادي الماضي تلقيت منها بطاقة كتبت لي فيها رسالة مؤثرة ضمَّنتها ما يصبو اليه الأحفاد في المستقبل على خطاي: الذكور منهم في الكد وطلب العلم، والإناث في أن يختاروا رجالهنَّ للمستقبل من معدن مجبول بالحب كالحب الذي عاشت جدتهم معي في كنفه.

وقد قرأت قبل مدة سيرة أوتو فون بسمارك، المستشار الألماني الذي هزم فرنسا ووحد ألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر، وفيها أن بسمارك خطر له أن يقوم بزيارة مفاجئة الى الماريشال الكبير فون مولتكي الذي كان قد بلغ الخامسة والتسعين من العمر، فوجده جالساً في الحديقة وعلى ساقيه بطَّانية من الصوف يستدفىء بها، فقال له بسمارك:

«يا عزيزي الماريشال، هل هناك بعد هذا العمر المديد شيءٌ يستحق أن يعيش المرء من أجله؟»

فرد عليه الماريشال فون مولتكي بقوله:

«لا تغلط يا سعادة المستشار، نعم هناك ما يستحق أن يعيش المرء من أجله».

فسأله بسمارك: «وما هو هذا الشيء؟»

قال له فون مولتكي: «أن ترى تلك الشجرة تنمو وتكبر».

أقول ذلك، وأنا أرى ثقافة الموت هي التي تسود في العالم العربي، كما تجسَّم ذلك في الحالة السورية الراهنة التي بدت تعبيراً سوريالياً عن تمجيد الموت من خلال التدمير الذاتي. وهذا ما عبَّر عنه الكاتب السوري محمد الماغوط قبل

سنوات عديدة بقوله في كتاب له: «تشبَّث بموتك أيها المجنون، فما الذي تريد أن تـراه؟». فكأن الماغوط يقول بأن الموت في هذه البلاد رحمة، لأن الحياة فيها أسـوأ من الموت. صحيح، ما الذي تريد أن تراه؟ أتريد أن ترى حلب، أم إدلب، أم حمص أمُّ الحجار السود، أم مقابر القاهرة ودعاة هدم الأهرامات، أم التفجيرات اليومية الدامية في العراقين، عراق العرب وعراق العجم، وثالثهما عـراق الكرد، أم مخيمات اللاجئين والمشردين في كل مكان، من غزة الى الأردن، الى لبنان، الى تركيا والى أصقاع بعيدة في مختلف أنحاء المعمورة. ما الذي تريد أن تراه؟ القصور الشواهق، أم الطائرات الخاصة التي تشق عنان السماء، أم اليخوت الفارهة الماخرة في أعالي البحار، أم الحكومات التي تنهب شعوبها، أم تجار الوطنية الذين قال عنهم عمر فاخوري إنهم يتاجرون بالوطنية لأنهم لا يملكون المتاجرة بغيرها، هذه الوطنية التجارية التي وصفها المفكر البريطاني الكبير الدكتور صاموئيل جونسون بأنها «الملجأ الأخير للأوغاد»؟

وتبقى أخيراً نقطة ملتبسة بالنسبة الى حزب البعث ومؤسسه الأستاذ ميشال عفلق، وهي نقطة أثرتها يوم إعلان نظام صدام حسين عن اعتناق عفلق الإسلام بعد وفاته ودفنه في بغداد مطلع صيف عام 1989، في مقال لي بعنوان «ميشال عفلق في ذمة الإسلام». وأظن أنني شرحت بوضوح في سياق الكتاب أفكار عفلق وظروفه وعلاقتي معه، لكن بعض الذين علَّقوا على مقالي المشار اليه، وأبرزهم الصديق الراحل منذر الموصلي، أساءوا فهم ما قصدت، بل أساءوا الظن كما قال الموصلي في تعليقه الذي قرأته على الإنترنت، وأعلن فيه أنه يرجو أن يكون مخطئاً في سوء ظنه.

قلت في مقالي المشار اليه يومها:

«إن إعلان نظام صدام حسين المتأخر عن اعتناق عفلق الإسلام، هو إعلان عن أن الإسلام هو كل العروبة، وهذا يعني أن حزب البعث هو حزب ديني وليس حزباً علمانياً، وأنه حزب إسلامي وليس حزباً عربياً، وأن الإنسان العربي هو الإنسان المسلم فقط، وأن الخيارات المتاحة للعرب غير المسلمين هي أن يعتنقوا الإسلام أو أن يرحلوا عن البلاد، أو أن يبقوا ذميين ومواطنين من الدرجة الثانية عرضة لشتى أنواع المضايقة والاضطهاد، فلا مكان في العالم العربي لغير المسلمين».

وكان مأخذ الناقدين لهذا الكلام، كما عبر عنه منذر الموصلي، أنني لم أتحفظ بالقول «خشية أن يفسر البعض ذلك على هذا النحو»، لكي لا أبدو متبنياً له. فلو حدث ذلك، على سبيل الافتراض، لكانوا اعتبروه من قبيل التخابث والالتفاف. لكنني كتبت هذا الكلام بقلمي، وعلى رؤوس الأشهاد، لأنني أحترم عقل ميشال عفلق وفكره وشخصه، وإذا كان لي من تحفظ فهو على تصرفات بعض البعثيين وقادتهم الذين من أجل الاستئثار بالسلطة دمروا الأمة وأهلها،

واغتالوا الشعارات التاريخية لحزبهم وأولها شعار الحرية. وأسوأ ما في تلك الردود على كلامي هذا بأن لبنانيتي المسيحية غلبت على عروبتي، وأظن أن في سياق الكتاب ما يوضح خطل هذا الظن.

•••

يشرفني أن أقول بأنني متشرِّب للفكرة اللبنانية وقوامها الأول الحرية. هذه الحرية لم أتخلَّ عنها يوماً، وبقيت متمسكاً بها حتى في وجه أعتى الطغاة والأنظمة، مع أنه كان بإمكاني، وقد أتيح لي، أن أبيعها بسهولة بمال ليس له حصر. وفي كل مرة اعترضني الإغراء، كنت أتذكر قول السيد المسيح: «ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه»، فأردع نفسي وأوبخها لئلا تقع في الإغراء في لحظة ضعف.

وقد عبَّرت عن اختياري للحرية باختياري للكتابة فوق جميع الخيارات المتاحة لي من البنك المركزي في بيروت الى بورصة نيويورك في الـ«وول ستريت». ذلك أنني اعتقد، كما اعتقد من قبل الكاتب البريطاني سومرست موم، بأن الكاتب هو الإنسان الحر الوحيد في العالم. فالكتاب بالتالي، هو هدية حرية الى العالم، وهو أيضاً هدية حب، كما قال الكاتب الإيرلندي دايفيد بارك. فلا حرية من دون حب، ولا حب من دون حرية.

بين ثقافة القتل والموت والتدمير الذاتي، وثقافة الحب والحرية كان خياري... فاخترت دربي.

الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

لا

ي

